سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٤٠)

تفسير القرآن الكريم

سورة السجدة

لفضيلة الشيخ العلامة
محمد بن صالح العثيمين
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٤٠)

تفسير القرآن الكريم

سورة السجدة

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات

مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

بسم الله الرحمن الرحيم

ⓒ مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، ١٤٣٦هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العثيمين، محمد بن صالح
تفسير سورة السجدة. / محمد بن صالح العثيمين - ط ١ - القصيم، ١٤٣٦هـ
١٣٩ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم (سلسلة مؤلفات الشيخ ابن عثيمين؛ ١٤٠.)
ردمك: ٧ - ٤٦ - ٨١٦٣ - ٦٠٣ - ٩٧٨
١ - القرآن - سورة السجدة - تفسير.
أ - العنوان
ديوي: ٢٢٧،٦ ١٤٣٦/٧٨٢٨

رقم الإيداع: ١٤٣٦/٧٨٢٨
ردمك: ٧ - ٤٦ - ٨١٦٣ - ٦٠٣ - ٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة
لمؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
إلا لمن أراد طبع الكتاب لتوزيعه خيريًا بعد مراجعة المؤسسة

الطبعة الأولى
١٤٣٦ هـ

يُطلب الكتاب من :
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
المملكة العربية السعودية
القصيم - عنيزة - ٥١٩١١ ص.ب: ١٩٢٩
هاتف: ٠١٦/٣٦٤٢١٠٧ - ناسوخ: ٠١٦/٣٦٤٢٠٠٩
جوّال: ٠٥٥٣٦٤٢١٠٧
www.ibnothaimeen.com
info@binothaimeen.com

الموزع المعتمد والحصري في جمهورية مصر العربية
دار الدُّرة للنشر والتوزيع - شارع محمد مقلد - متفرع من مصطفى النحاس
بجوار سوبر ماركت أولاد رجب
هاتف وفاكس: ٢٢٧٢٠٥٥٢ - محمول: ٠١٠١٠٥٥٧٠٤٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تقديم

إنَّ الحمدَ لله، نحمدُهُ ونَسْتعينُه ونَسْتغفرُه، ونَعوذُ بالله مِن شُرور أَنْفُسنا ومِن سيِّئات أعمالِنا، مَن يَهْده اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضْلِلْ فَلا هادِيَ له، وأَشْهَد أنْ لا إلَهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ لَه، وأَشْهَد أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه، أرسلَه اللهُ بالهُدَى ودِين الحقِّ؛ فبلَّغَ الرِّسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَح الأمَّةَ، وجاهَد في الله حَقَّ جِهادِه ، حتَّى أتاهُ اليَقينُ ، فصَلواتُ اللهِ وسلامُه عليهِ وعلَى آلِه وأصحابِه ومَن تَبِعهم بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّين، أمَّا بَعْدُ:

فمِنَ الدُّروسِ العِلميَّة المُسجَّلَة صَوتيًّا، والَّتِي كانَ يَعقِدُها صاحِبُ الفَضِيلةِ شَيخُنا العلَّامةُ الوالِدُ محمَّدُ بنُ صالحٍ العُثَيْمِين -رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى- في جامِعِهِ بمَدِينَةِ عُنَيْزَةَ صَباحَ كُلِّ يومٍ أَثْناءَ الإِجازاتِ الصَّيْفيَّة؛ حَلقاتٌ فِي تَفْسير القُرآن الكَرِيم كانَت بِدايتُها مِن سُورة النُّور وما بَعدَها؛ حتَّى بلَغ قَولَه تعالَى فِي سُورة الزُّخرف: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

وقَدِ اعتَمدَ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى فِي تَفْسيرِه لتِلْكَ السُّور كِتابًا بَيْن يَدَيِ الطُّلَّاب هُو (تَفْسير الجَلالَيْنِ) للعلَّامة جَلال الدِّين محمَّد بنِ أَحْمَدَ بنِ محمَّدِ بنِ إبراهيمَ المَحَلِّيِّ، المُتوفَّى سَنَةَ (٨٦٤هـ)[1]، والعلَّامة جَلال الدِّين عبد الرَّحمن بن أَبِي بَكْر بنِ محمَّد

(١) انظر ترجمته في: الضوء اللامع (٧/ ٣٩)، حُسن المحاضرة (١/ ٤٤٣).

ابنِ سابِق الدِّين الخُضَيْرِيّ السُّيُوطِيّ، المُتوفَّى سنة (٩١١هـ)[١]. تغمَّدهما الله بواسِع رَحمته ورِضوانه، وأَسْكنهما فَسِيحَ جنَّاتِه، وجَزاهُما عَنِ الإِسْلام والمُسلِمِينَ خَيرَ الجزاءِ.

وسَعْيًا -بإِذْنِ اللهِ تَعالَى- لِتَعْمِيمِ النَّفْع بتِلْكَ الجُهُود المُبارَكة فِي هَذا المَيْدَان العَظِيم باشَر القِسْمُ العِلْمِيُّ بِمُؤسَّسةِ الشَّيخ مُحمَّد بنِ صالِحِ العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ واجِباتِه فِي شَرَفِ الإِعْدادِ والتَّجْهِيز للطِّباعةِ والنَّشْر لِإِخْراج ذَلِكَ التُّراث العِلمِي؛ إنفاذًا للقَواعِدِ والضَّوابِط والتَّوْجِيهاتِ الَّتِي قَرَّرها فَضيلةُ الشَّيخِ رَحِمَهُ اللهُ تعالَى فِي هَذا الشَّأْنِ.

نَسْأل اللهَ تعالَى أنْ يَجْعلَ هَذا العَمَلَ خالِصًا لِوجهِه الكَريم؛ نافِعًا لِعبادِه، وأنْ يَجزِيَ فَضِيلةَ شيخِنا عَنِ الإسلامِ والمسلِمِينَ خَيْرَ الجَزاء، ويُضاعِفَ لهُ المثُوبَةَ والأَجْرَ، ويُعْلِيَ دَرَجَتَهُ في المَهْدِيِّينَ، إِنَّه سَمِيعٌ قَرِيبٌ مُجِيبٌ.

وَصَلَّى اللهُ وسلَّم وبارَك علَى عبدِه ورَسولِه، خاتَمِ النَّبِيِّينَ، وإِمامِ المُتَّقِينَ، وسيِّدِ الأَوَّلِينَ والآخِرِينَ، نبيِّنا محمَّدٍ، وعلَى آلِه وأَصْحابه والتَّابعينَ لهُمْ بإِحْسانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّين.

القِسْمُ العِلْمِيُّ
فِي مُؤَسَّسةِ الشَّيخ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحِ العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ
٢٠ جُمادَى الآخِرَة ١٤٣٦هـ

---

(١) انظر ترجمته في: الأعلام للزركلي (٣/ ٣٠١).

سورة السجدة

الحمدُ للهِ ربِّ العَالَمِينَ، وصلَّى اللهُ وسلَّمَ عَلَى نبيِّنَا مُحمَّدٍ، وعَلَى آلِهِ وأصحَابِهِ ومَنْ تَبِعَهُم بإحسَانٍ إِلَى يَومِ الدِّينِ. وبَعد:

قال المفسر[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [سُورة السَّجْدة] الإضافة هنا بَيانية، يَعنِي: السورة التي تُذكَر فيها السَّجْدة، والسَّجْدة ستَأتي -إن شاء الله تعالى- في أثنائِها.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وهي مَكِّيَّة ثلاثون آيةً] وكلُّ سُورة مُبتَدَأَةٍ بالحُروف الهِجائية فهي مَكِّية إلَّا سورَتَيْن: البَقَرة وآل عِمرانَ فإنهما مدَنِيَّتان، وإلَّا فكُلُّ سُورة ابتُدِئَت بالحروف الهِجائية فهي مَكِّيَّة.

---

(١) المقصود بـ(المفسر) هنا: محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم جلال الدين المحلي، المتوفى سنة (٨٦٤هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ترجمته في: الضوء اللامع (٧/ ٣٩)، حسن المحاضرة (١/ ٤٤٣).

الآيتان (١، ٢)

• • ◦ • •

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [السجدة:١-٢].

• • ◦ • •

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿الٓمٓ ﴾ الله أَعلَمُ بمُراده به].

وسبَقَ لنا أن العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ انقَسَموا في ذلك ثلاثَةَ أَقْسام:

قِسْم ادَّعَى أن لهذه الحُروفِ مَعانِيَ، وأنها رُموز لتِلكَ المَعانِي، وهذا قَوْل لا دليلَ عليه، وهو ضَعيف، بل باطِل.

والقول الثاني: أن لها مَعانِيَ، لكن الله تعالى أَعلَمُ بها فتكون من المُتَشابِهِ الذي لا يَعلَمه إلَّا الله تعالى.

والقِسْم الثالِث: يَقولون: إنه ليس لها مَعانٍ أصلًا؛ لأن القرآن نزل باللِّسانِ العَرَبِيِّ، واللِّسانُ العربيُّ لا يكون لهذه الحروفِ معانٍ أبدًا، وهذا قولُ مُجاهِدٍ[1]، وهو الصَّحيحُ؛ أنَّه لا معانيَ له.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: كيف تَجْزِمونَ بأنَّه لا معانيَ لها، والنَّفْيُ يحتاجُ إلى حُجَّةٍ؟

قُلْنَا: نجزم بذلك؛ لأنَّ القرآنَ نزل بلسانٍ عربيٍّ مُبينٍ، واللِّسان العربيُّ ليس فيه

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ٢٠٩)، وانظر: تفسير ابن كثير (١/ ٧٠).

هـذه الحروفُ الهجائيَّة، وهذه الحروفُ في اللِّسان العربيِّ معناها أنَّها حروفٌ يكون منها الكلامُ فقط، ولكنْ ذكروا أنَّ هذه الحروفَ الهجائيَّـةَ لها مَغزًى؛ وهو إظهارُ عَجْزِ هؤلاء المُكذِّبينَ بأنَّ هذا القُرآنَ من هذه الحروفِ التي تكوِّنونَ منها كلامَكم، ومع ذلك فقد أعجزكم، فهو لم يأتِ بشيءٍ بديلٍ، إنَّما أتى بالحروف التي تُركِّبونَ كلامَكم منها؛ قالوا: ويدلُّ لذلك أنَّـكَ لا تكاد ترى سورةً ابتُدِئَتْ بهذه إلا ويليها ذكْرُ القرآنِ.

قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي: القرآنِ، المرادُ بالكتابِ القرآنُ، وهو فِعالٌ بمعنى مفعولٍ؛ أي: مَكْتوب؛ وسُمِّيَ كتابًا؛ لأنَّه كُتِبَ في اللَّوْح المَحْفوظِ، وفي الصُّحُفِ التي بأيدي الملائِكَة، وفي الصُّحُفِ التي بِأَيْدينا؛ ولهذا سُمِّي كتابًا.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مبتدأٌ] أي ﴿تَنزِيلُ﴾؛ لأنَّ الكتابَ مضافٌ إليه.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَا رَيۡبَ﴾ شكَّ ﴿فِيهِ﴾ خبرٌ أوَّلُ] ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾ يعني: أنَّ تنزيلَ الكتابِ مؤكَّدٌ ليس فيه رَيْبٌ، وهل النَّفيُ هنا على بابِهِ، أو هو نَفْيٌ بمعنى النَّهْيِ؛ أي: لا تَرْتابوا فيه؟

الجوابُ: فيه قولانِ: فمِنَ العُلماءِ من يقولُ: إنَّ النَّفْيَ هنا بِمَعْنى النَّهْيِ؛ فمعنى ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾ أي: لا تَرْتَابوا فيه، وبعضُ أَهْلِ العِلْمِ يقولُ: إنَّ المرادَ بالنَّفْيِ حقيقَتُه، والمعنى: أنَّ هذا الكتابَ ليس فيه رَيْبٌ، وإذا لم يكنْ فيه رَيْبٌ لَزِمَ مِن ذلك النَّهْيُ عَنِ الرَّيْبِ؛ لأنَّه إذا انتفى الرَّيْبُ في القرآنِ فلا يَحِلُّ لنا أنْ نَرْتَابَ فيه.

وهذا القَوْلُ أَبْلَغُ: أن يكونَ بالنَّفْيِ ليس فيه رَيْبٌ، سواءٌ ارْتَابَ فيه مَنِ ارْتَابَ أمْ لم يَرْتَبْ، فهو حقيقةٌ لا رَيْبَ فيه.

والرَّيْبُ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنَّه الشَّكُّ؛ ولكنْ ذهب بعضُ أَهْلِ العِلْمِ إلى أَنَّه لا يوجدُ كلمتانِ مترادِفَتانِ في المعاني، بل لا بدَّ أن يكون هناك فارِقٌ، وقالوا: إنَّ الرَّيْبَ شَكٌّ مع قَلَقٍ ورِيبَةٍ؛ وليس مُطْلَقَ شكٍّ، بل هو شكٌّ خاصٌّ، وهو الذي يكون فيه القَلَقُ والارتيابُ، وكونُ النَّفْسِ يكون معها انشغالٌ بخلافِ الشكِّ المجرَّدِ.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ خبرٌ ثانٍ] والمعنى: تنزيلُ الكتابِ مؤكَّدٌ لا رَيْبَ فيه، تنزيلُ الكتابِ من ربِّ العالمينَ.

وعلى هذا فيكون الخبرُ الأَوَّلُ جملةً؛ فالخبرُ الأوَّلُ ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ جملةٌ؛ لأنَّ ﴿لَا﴾ نافِيَة للجِنْس و﴿رَيْبَ﴾ اسْمُها و﴿فِيهِ﴾ خبرٌ، وهو جُملة، والخبرُ الثاني ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ شِبْه جملةٍ من جارٍّ ومجرورٍ.

وقوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ربُّ العالمينَ الذي خَلَقَه ومَلَكَه ومَلَكَ التَّصرُّفَ فيه؛ والرُّبوبيَّةُ تشملُ ثلاثةَ أشياءَ: الخَلْق، والمِلْك، والتَّدبير

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ المرادُ به ما سِوَى الله عَزَّوَجَلَّ، وسُمِّيَ ما سِوَى الله عالَمًا؛ لأنهم عَلَمٌ على خالِقِهم، وما من شيءٍ إلا فيه آيةٌ من آياتِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تَشْهَد له بالوحدانيَّة والقُدْرةِ والعِزَّةِ وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يعني أنَّ تنزيلَ الكتابِ من الله لا إشكالَ فيه، فليس قولَ محمدٍ ولا قولَ جبريلَ ولا قولَ أحدٍ من الخَلْق، بل هو مِنْ رَبِّ العالمين وَحْدَه.

ويجوز في الإِعْرابِ أن نجعل ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ في مَوْضِع نصبٍ على الحالِ: ذلك الكتابُ خاليًا من الرَّيْبِ؛ من أين هو؟ الجوابُ: ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

ويجوز أن نَجْعَلَ ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ خبرًا واحدًا؛ و﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ حالٌ من قوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾؛ فتَجْعَلُ الجُمْلَتَينِ خبرينِ، أو إحداهما خبرًا والأخرى حالًا.

وعلى كلِّ حالٍ: فمعنى الآيةِ الكريمةِ أنَّ تنزيلَ الكتابِ أمرٌ لا شكَّ فيه، وأنَّه ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أيضًا لا شكَّ فيه، وعندي أنَّ أَحْسَنَ ما يُقالُ في الإعرابِ: أنْ يُجْعَلَ ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ هو الحالَ؛ تنزيلُ الكتابِ من رَبِّ العالمينَ لا مِن غَيْرِه، و﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ يكونُ حالًا.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ القرآنَ الكريمَ لم يأتِ بجديدٍ؛ أتى بالحروفِ التي يتكلَّمُ بها النَّاس، ومع ذلك أَعْجَزَهُم؛ يؤخَذُ من قوله تعالى: ﴿الٓمٓ﴾ لأن الصَّحيحَ أنه ليس له معنًى.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن القرآنَ كلامُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لقوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وجه ذلك: أنَّ القرآنَ كلامٌ وأضافه الله إلى نَفْسِه، فيقتضي أن يكونَ كلامَهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثباتُ عُلُوِّ الله؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ والنُّزولُ لا يكون إلا مِنْ أعلى.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثباتُ أن القرآنَ الكريمَ مكتوبٌ؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ ولقد سبق لنا أنه مكتوبٌ في لَوْحٍ مَحْفوظٍ، وفي الصُّحُف التي بِيَدِ الملائكة، وفي الصُّحُف التي بأيدينا.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: تأكيدُ أنَّ هذا القرآنَ مُنَزَّل مِنْ عند الله؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثباتُ ربوبيَّةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لجميعِ الخَلْقِ؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: الإشارَةُ إلى أنَّ هذا القرآنَ مُلزَمٌ به جميعُ النَّاسِ؛ تُؤْخَذُ من قوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فإذا كان ربُّهُم الذي أنزله فمعناه أنه يَلْزَمُهُم جميعًا العَمَلُ بهذا القرآنِ.

• ● ۞ ● •

الآية (٣)

• ● ● •

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [السجدة:٣].

• ● ● •

ثم قال: [﴿أَمْ﴾ بل ﴿يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ محمدٌ؟ لا].

﴿أَمْ﴾ يقول المُفسِّر إنَّها بمعنى [بل] إذَنْ فهي للإضراب الانتقاليِّ، وليست للإضراب الإبطاليِّ؛ لأنَّها لم تُبْطِل ما سبَقَها، ولكنَّها مع ذلك مُضَمَّنةٌ معنى بل والهمزة، وأَصْلها: بل أَيَقُولون افْتَراه؟ والاسْتِفْهامُ في هذه الآية للإنْكارِ بدليلِ قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [لا]، يعني أنه ليس مُفْتَرًى، والافتراءُ معناه الكَذِب، فمعنى ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ أي: كَذَب بادِّعائِهِ أنَّه من عند الله.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ﴾ أي: القرآنُ أو الكِتابُ؛ كما عبَّر الله به.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَقُّ﴾ أي: الثَّابتُ الذي لا يَتزَلْزَل، وهو الحقُّ المشتَمِلُ على كلِّ خيرٍ.

وقوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ حالٌ من قوله: ﴿هُوَ﴾ يعني: حالَ كَوْنِه من ربِّك، وتأمَّلْ في الآية الأُولى قال: ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وهنا قال: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ لأنَّ الذي اتُّهِمَ بالافتراءِ هو الرَّسولُ ﷺ، فأراد الله تعالى أن يُبيِّنَ أنَّ الرَّسولَ ﷺ لا يُمْكِن أن يَفْتَرِيَ الكَذِبَ؛ لأنَّ له من الله ربوبيَّةً خاصَّةً وهي قوله: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ فالرُّبوبيَّةُ هنا

ربوبيَّة خاصَّة؛ ثم بيَّنَ الله الحكمةَ من ذلك قوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا...﴾ إلخ.

والحكمة من اختلافِ التَّعبيرِ بين قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ وهو أنَّه لما أراد أن يتبع أمْر القرآنِ من حيثُ هو قرآنٌ بيَّن أنَّه نازلٌ من ربِّ العالمين الذي يَعْتَمِدُ عليه هؤلاء العالَمونَ، فنُزِّلَ عليهم الكتابُ؛ لأنه لما كان ربَّ العالمين وجب على جميع العالَمِينَ أن يَقْبَلوا هذا وأنَّه من ربِّنا؛ أمَّا في قوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ فلأنَّه لما نُسِبَ الرَّسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إلى الكَذِبِ في هذا القرآن ذَكَرَ الله تعالى ربوبيَّته الخاصَّة: ﴿مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ﴾ إشارةً إلى أنَّه رسولُ الله، وأمَّا المُنْذِرِ في القرآن فهو ربُّه الذي يعتني به ويَرُبُّه ربوبيَّةً خاصَّةً.

ففي الأوَّل من حيث وَصْفُ القرآنِ بأنَّه قرآنٌ قال: ﴿تَنزِيلُ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وفي الثاني قال: ﴿بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ الذي يَرُبُّكَ ربوبيَّةً خاصَّة، وأنت مربوبٌ له.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ المفعولُ الثَّاني محذوفٌ تقديره (به)، ولكِنْ في المسألَةِ نَظَرٌ، إن كان مفعولًا به ففيه نظرٌ، ولكن لا شكَّ أنَّ التَّقْديرَ (به)، وأنه هو آلة الإنذارِ التي يُنْذَر به أي بِسَبَبِه، ولكن المفعول الثَّاني محذوفٌ عُرِف في غير ما ذكره المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿لِتُنذِرَ﴾ به ﴿قَوْمًا﴾ العذاب، وإنما اخترت ذلك لما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فُصِّلَت:١٣]؛ وقد بيَّن الله عَزَّوَجَلَّ في آيةٍ أخرى ما هو المنذَرُ به.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مَّآ﴾ نافِيَة ﴿أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ بإنذارِكَ] قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم﴾ يقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنَّ [﴿مَّآ﴾ نافية] وفي سورة يس: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [يس:٦] وهذا الذي قرَّره المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ-أنَّ (ما) نافية- هو الصَّوابُ في إعرابها، وإن كان بعضُهم ذكر

أنَّها اسمٌ موصولٌ؛ أي: لِتُنْـذِرَ قومًا الذي أتاهُم مِن النُّذُرِ قبلك؛ يعني: تُنْـذِرُهم العذابَ، وعلى هذا الرَّأي تكون (ما) اسمًا موصولًا، وهو المفعولُ الثاني في الجملة، لكنَّ الذي مشى عليه المُفسِّر أَصْوَبُ: أنَّ ما نافية.

والخلاصةُ في إعراب (ما) قولانِ:

أحدهما: أنَّها نافِيَة، فيكون معنى الآيَةِ الكريمة: لِتُنْذِرَ قومًا لم يَأْتِهِمْ نذيرٌ قبلك.

القولُ الثاني: أنَّ ما اسمٌ موصولٌ؛ أي: لِتُنْذِرَ قومًا الذي أتاهم من النُّذُر قبلك.

والصَّواب الأوَّل.

والعرب لم يُرْسَلْ إليهم رسولٌ بعد إسماعيلَ إلا محمدٌ ﷺ؛ ولهذا قال النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَنا دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ»[1] في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ ....﴾ إلخ.

وقوله تعالى: ﴿مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾، إِذَا قَالَ قَائِلٌ: ما هي الفائِدَةُ في وَصْف هؤلاء القومِ لِكَوْنِهِمْ لم يأتِهِمْ نذيرٌ من قبلُ؟

الجوابُ: الفائِدَة في ذلك أمران:

الأمرُ الأوَّلُ: بيانُ شدَّة حاجَتِهِم إلى الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وأنَّهم في غايَةِ ما يكون من ضرورةٍ إلى بَعْثَتِه.

الأمرُ الثَّاني: بيانُ نِعْمَة الله عليهم بهذا الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ حيث إنَّه هو الرَّسولُ الذي أتاهم ولم يَأْتِهِمْ نذيرٌ مِن قبلِهِ.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ١٢٧)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٤١٨)، من حديث العرباض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ يكثُرُ في القرآنِ الكريم مثلُ هذا التَّعبيرِ: ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾، ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام:١٥٢]، ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:٦٩] فهل هو للرَّجاءِ أم للتوقُّعِ؟

الجوابُ: قال بعضُهُم: إنَّها للرَّجاء، ولكن باعتبارِ حالِ المخاطَبِ لا باعتبارِ حالِ المتكلِّم؛ لأن الرَّجاءَ هو الطَّمَعُ في نَيْلِ ما يَعْسُر إدراكُه، قد لا يتعذَّرُ، لكنه يؤمَّلُ إلا أنه فيه نوعُ شِدَّةٍ، والرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ لا يُمْكِنُ وَصْفُه بهذا الوَصْفِ، فيكون مُتَرَجِّيًا باعتبارِ حالِ المخاطَبِ.

وجملة (لعلَّ) للتَّعليل، وكونُ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى يجعل الشَّيءَ علَّةً للشَّيء؛ ليس فيه نَقْصٌ، بل هو من كماله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى أن يبني من الأسبابَ أسبابًا.

يَرِدُ على هذا القَوْل: أن العلَّة ملازِمَةٌ للمعلولِ، فإذا قال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ لَزِمَ أن يهتدوا فما دَامَتْ علَّة، فالعِلَّةُ ملازِمَةٌ للمَعْلول: فلما جاءهم هذا النَّذيرُ يلزم اتِّباعُه.

والجوابُ على ذلك أن يُقالَ: إنَّ العلَّةَ علَّتانِ: عِلَّةٌ باعِثَةٌ، وعلَّةٌ غائِيَّةٌ، والعلَّةُ الباعِثَة مُوجِبة وغيرُ مُوجِبَة، وهذه كقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦] مع أنَّهم ما يعبدون الله كلُّهُم، وكقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء:٦٤]. ومعلومٌ أنَّ كثيرًا من الرُّسُل ما أُطيعوا، فيكون هنا العِلَّة الباعِثَة غيرَ الموجِبَة؛ يعني أنَّ الحكمةَ من هذا هو هذا، ثم قد تَحْصُل وقد لا تَحْصُل، ومثَّلوا لذلك بقولهم: شَرَيْتُ القَلَمَ لأكتبَ به، أو لهذه الغايَةِ، ولكن: هل يلزَمُ أن تَكْتُبَ؟

الجوابُ: قد تكتب، وقد لا تَكْتُب.

قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ الاهتداءُ هنا يَشْمَلُ الهدايَةَ: هدايةَ الدَّلالَةِ، وهدايةَ التَّوفيقِ؛ فإنَّ الرَّسولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ جاء بهدايَةِ الدَّلالَةِ، والتوفيقُ بِيَدِ الله عَزَّوَجَلَّ، ولا توفيقَ إلا بعد عِلْمٍ؛ قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ بإنْذارِكَ].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بيانُ جُرْأَةِ هؤلاء المُكَذِّبين؛ لقولهم: ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ أي: اخْتَلَقَه وكَذَبَ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ القُرآنَ حقٌّ غيرُ مُفْتَرًى؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثباتُ رِسالَةِ الرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: عناية الله برسوله ﷺ؛ حيث أضافَ إليه الرُّبوبيَّةَ الخاصَّة في قوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثباتُ الحِكْمَةِ في إنزالِ هذا القُرْآنِ؛ لقوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ﴾ لأنَّ اللَّام للتَّعليلِ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: بيانُ مِنَّة الله على هؤلاء الذين أُرْسِلَ إليهِمُ الرَّسولُ ﷺ، تُؤْخَذُ من قوله تعالى: ﴿مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: شِدَّةُ الضَّرورةِ إلى إرسالِ الرَّسولِ ﷺ؛ تُؤْخَذُ مِنْ كَوْنِه لم يَأْتِهِم نذيرٌ مِن قَبْلِك، فهم في ضرورَةٍ إلى رسالَتِه، هذا على القَوْلِ بأنَّ (ما) نافِيَة، أمَّا على القَوْلِ بأنَّها اسمٌ موصول، فيُسْتَفادُ منها: أنَّ النَّبيَّ ﷺ أَنْذَرَ ما أَنْذَرَتْ به الأنبياءُ مِن قَبْلِه، فيكون إذن: مُصَدِّقًا لما سبَقَه من الرِّسالاتِ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ الإنذارَ سببٌ للهدايَةِ؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ وهذا يشْهَدُ به الواقِعُ؛ فكم من إنسانٍ اهتدى بما أُنذِرَ!

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: إثباتُ رَحْمةِ الله تعالى بالخَلْقِ؛ حيث أرسل إليهم النُّذُرَ من أجل هدايَتِهِم.

• ● ۞ ● •

الآية (٤)

• ● ● •

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [السجدة:٤].

• ● ● •

ثم قال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾.

﴿ٱللَّهُ﴾ مبتدأٌ و﴿ٱلَّذِى﴾ اسمٌ موصولٌ خبَرٌ، و﴿خَلَقَ﴾ بمعنى أَوْجَبَ بتقديرٍ ونظامٍ، وأنَّ الخَلْق في الأصل في اللُّغَة: التَّقْديرُ؛ كما في قول الشَّاعِر:

وَلَأَنْـــتَ تَفْـــرِي مَـــا خَلَقْـــتَ ... وَبَعْضُ النَّاسِ يَخْلُقُ ثُمَّ لَا يَفْـرِي(١)

ويُطْلَقُ الخلْقُ على: الإيجادِ في تقديرٍ، وهو المرادُ به هنا.

وقوله تعالى: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ هي الأَجْرامُ المحسوسَةُ، وهي سَبْعَةٌ، وقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ المرادُ بها الجِنْسُ، ويشمل جميعَ الأَرَضِينَ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ يعني: والذي بينهما، وهو السَّحابُ، وكذلك النُّجُومُ والقمر وما أشبهها، وهذا يدلُّ على أنَّ هناك أشياءَ كثيرةً قد لا نَعْلَمُها إلى الآن، فإلى الآن نكتشِفُ أشياءَ كثيرةً مما بين السَّماء والأَرْض، ويدلُّ على أنَّ ما بين السَّماء والأرض أنه ليس مُجَرَّد سحاب فقط بل وراءَ ذلك؛ أن الله تعالى جَعَلَه قسيمًا لخلق السَّمواتِ والأرض، ولا بُدَّ أن يكون شيئًا عظيمًا يقابِلُ هذه المخلوقاتِ.

---

(١) البيت لزهير بن أبي سلمى، انظر: ديوانه (ص:٣٢).

وقوله تعالى: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَوَّلُها الأَحَدُ، وآخِرُها الجُمُعَة] وقد فصَّل الله تعالى هذه الأَرْبَعَة في سورة فُصِّلَتْ، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾ [فصلت:٩-١٠]؛ فالآن خَلْقُ الأَرْضِ في أَرْبَعَة أيَّام، ثمَّ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت:١١-١٢] فتكون الأيامُ ستَّة: أَوَّلُها الأحَدُ وآخرها الجمعة.

وهل هذه الأيـام كأيَّامِنا؟ أو كُلُّ يومٍ مقدارُهُ ألفُ سَنةٍ؟ أو هي أيـام بمعنى ساعاتٍ أو لحظاتٍ؟

أقوالٌ؛ فمنهم من قال: إنَّها أيَّامٌ؛ يعني لحظات؛ لأن الله إذا أرادَ شيئًا قال له: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة:١١٧] وعبَّر بالأيَّامِ عن مطلَقِ الزَّمَن، ومنهم من قال: إنَّها أيَّام كلُّ يومٍ منها مقدارُهُ ألفُ سنةٍ، فتكون سِتَّةَ آلافِ سَنَة، ومنهم من قال: إنَّها أيَّام كأيامِنا، وإنَّ الأيـام أُطْلِقَت والمرادُ بها هذه الأَيَّامُ المعروفَةُ، لاسيَّما وأَنَّـه في سورة فُصِّلَتْ: ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾، ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ ولا يمكن أن نَخْرُجَ من قراءةِ القرآنِ عن معهودِ المَعْروفِ في اللُّغَة العربيَّة.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: هذا القَوْلُ وإن كان ظاهِرَ القرآن يَرِدُ عليه أمرانِ:

الأمر الأوَّل: أنَّه لَمَّا خَلَقَ السَّمواتِ والأَرْض ليس هناك شمسٌ حتى تُحَدَّدَ بالأيَّامِ؛ فماذا نقولُ؟

الأمر الثَّاني: أن يُقال: لماذا سِتَّةُ أيام؟ ولماذا لم تكن في لحظَةٍ، أو تكون في أيامٍ طويلةٍ جدًّا في لحظة باعتبارِ قُدْرَةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ مهما عظُمَ الشَّيءُ،

في نسبة طويلة باعتبارِ هذه المخلوقاتِ؛ يعني لا يكفيها ألفُ سنة ولا أَلْفَا سنةٍ ولا مائةُ ألفِ سَنَة، لأنَّ المخلوقاتِ عظيمةٌ لا يكفيها هذه المدَّةُ القصيرةُ؛ فإمَّا أن تُقاسَ بقُدْرَة الله أو تقاس بحَسَبِ واقِعِها، فإنْ قِسْتُمُوها بحَسَبِ قدرة الله أنها في لحظَةٍ فالأيَّام السِّتة ليسَ لها معنًى؛ وإن قِسْتُمُوها بحسب واقعها لا بحسَب قُدرة الله فإنَّ المخلوقاتِ عظيمةٌ جدًّا منظَّمَةٌ في غايَةِ النِّظام.

فالجوابُ على هذين الإيرادَيْنِ:

الأَوَّل: أن هذا بِحَسَبِ عِلْمِ الله، والله يعلم متى يكون.

والثَّاني: والجوابُ عنه أن يُقالَ: هكذا قال الله عَزَّوَجَلَّ، وليس لنا أن نتعدَّى ما أخْبَرَنا الله به؛ لأنَّ هذا أمرٌ لا يَسَعُنا الإحاطَةُ به، وقد قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ﴾ [الكهف:٥١]. ونحن لا شكَّ نقيسُ هذه الأشياء بحَسَبِ قدرة الله لا بِحَسَبِ واقِعِها، فواقِعُها لا يعلَمُه إلا الله عَزَّوَجَلَّ فإذن يجب أن تُقاسَ بِقُدْرَةِ الله، ويُقال: إنَّ تقديرَها في ستَّةِ أَيَّام حسَبَ ما تقتَضِيه حكمةُ الله عَزَّوَجَلَّ، وليس لنا أن نتكلَّمَ في شيء من ذلك.

ولهذا، اليهود -لعنةُ الله عليهم- قالوا: إن الله تعالى خلقَ السَّمواتِ والأَرْضَ في ستَّة أيامٍ، ولما كان يومُ السَّبْتِ استراح! نعوذ بالله! وإنَّ يَوْمَ راحَةِ الله هو يومُ عيده، وجعلوا عيدَهُم السَّبْتَ وكَذَبُوا في هَذا فالله عَزَّوَجَلَّ لا يَتْعَبُ حتى يحتاجَ إلى راحةٍ.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾: ﴿ٱسۡتَوَىٰ﴾ بمعنى علا، استوى على الشيء، وقد ذَكَرْنا فيما سبق أنَّ ﴿ٱسۡتَوَىٰ﴾ وردت في القرآن على أَرْبَعَةِ أوْجُه: مُطْلَقَة، ومُقَيَّدَة بـ(إلى)، ومُقيَّدَة بـ(على)، ومُقيَّدة بواو المعِيَّة:

١ - فإذا جاءت مُطْلَقَة، فهي بمعنى كَمُلَ؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ أي: كَمُلَ.

٢- وإذا قُيِّدَت بـ(إلى) فهي بمعنى القَصْدِ التَّامِّ؛ كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ وفي هذه الآية قولٌ ثانٍ: أنَّ استوى بمعنى علا: (ثم علا إليها) لكنْ هذا كغيره من الصِّفاتِ التي لا تُعْلَمُ كيفيَّتُها.

٣- مُقَيَّدة بـ(على) وتكون بمعنى العُلُوِّ والاسْتِقْرارِ؛ كما في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ وفي قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ أي: لِتَعْلُوا على ظُهُوره وتَسْتَقِرُّوا، ولم تأتِ بغيرِ هذا المعنى أبدًا في اللُّغَةِ العربيَّةِ، فإذا قُيِّدَتْ بـ(على) لا تأتي إلا بهذا المعنى، ولا تكون بغيره أبدًا.

٤- مُقَيَّدَة بواوِ المعيَّة فتكون بمعنى تساوَى، فاستوى بمعنى تساوَى؛ كقولهم: «استوى الماءُ والخَشَبَةَ» يعني: استوى الماءُ مع الخَشَبَةِ؛ صارا سِيَّانِ.

المُهِمُّ هنا: هو ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ لا تأتي بصورة غير هذا المعنى إطلاقًا، وقد جاءت في القرآن الكريمِ في سَبْعَةِ مواضِعَ، ما فيها موضِعٌ واحدٌ اختَلَفَ فيه التَّعْبيرُ عن هذا؛ إلا: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥] وما أشبه ذلك فهو عند أهل السُّنَّة والجماعَةِ بمعنى (علا على العَرْش واسْتَقَرَّ عليه)، ورُوِيَ عنهم (ارْتَفَع) ورُوِيَ عنهم (صَعِدَ وارْتَفع) و(صَعِدَ) و(علا) معناهما متقارِبٌ؛ ولهذا اخْتَرْنا أن نقول بمعنى (علا واسْتَقَرَّ)، أما (ارتفع) و(صَعِدَ) فهو مقابِلٌ لـ(علا).

وهذا الاستواءُ استواءٌ بمعنى العُلُوِّ والاسْتِقْرار، وقد يَرِدُ عليكم سؤالٌ، ويُقال: أَلَسْتُم تقولون إنَّ عُلوَّ الله عَزَّوَجَلَّ بذاتِهِ صِفَةٌ ذاتِيَّةٌ أزلِيَّةٌ أبَدِيَّةٌ؟

نَقُول: بلى، عُلُوُّ الله بذاته صفةٌ أزليَّة أبديَّةٌ لا تنفكُّ عن الله، خلَق ثم اسْتَوَى، فمعنى ذلك أنه حين الخَلْقِ ليس مُسْتَوِيًا على العَرْش، وهذا حقٌّ؛ لأن الاستواءَ على العَرْشِ أَخَصُّ من مُطْلَقِ العُلُوِّ؛ فالاستواءُ على العَرْشِ والعُلُوُّ على العَرْشِ خاصَّةً هذا معنًى خاصٌّ غيرُ معنى (مُطْلَقِ العُلُوِّ) فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عالٍ دائمًا لكنْ كَوْنُه على العرش بنفسه هذا حادِثٌ قطعًا؛ لأنَّ العَرْشَ مخلوقٌ. وقد بيَّنَ الله أنَّه استوى على العَرْشِ بعد خلْقِ السَّمواتِ والأرضِ، ولا نعلم عمَّا قبل ذلك، والله أعلم.

ولكنَّ السؤالَ الآن: إذا قُلْتُمْ إنَّ معنى (استوى على العرش) أي: علا واسْتَقَرَّ عليه، فإنه يَرِدُ علينا إشكالٌ: بأنَّ عُلُوَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وَصْفٌ ذاتيٌّ أزليٌّ أبديٌّ، فكيف تقولون إنَّ معنى صَعِدَ علا عليه، وأنتم تقولون إنَّ العُلُوَّ صفةٌ ذاتيَّةٌ أزليَّة أبديَّة، وفي العُلُوِّ عُلُوَّانِ: مُطْلَقُ عُلُوٍّ، وعُلُوٌّ خاصٌّ بالعكس؛ فالأَوَّلُ الذي هو مُطْلَق العُلُوِّ صفةٌ ذاتيَّة أزليَّة أبديَّة، فالله لم يَزَلْ ولا يزالُ عاليًا بذاتِهِ على جميع الخلق، أما الاستواءُ على العَرْشِ فهو صفةٌ فعليَّة خاصَّةٌ في العرش.

وأَضْرِبُ مثلًا يُقَرِّبُ المعنى: فالإنسانُ إذا كان على السَّطح فهو عالٍ على مَنْ تحت السطحِ، فإذا وُضِعَ له كرسِيٌّ في السَّطح وجلس عليه صار عُلُوُّه على هذا الكرسيِّ علوًّا خاصًّا مع ثبوتِ العُلُوِّ الأَوَّلِ الذي هو مُطْلَق العُلُوِّ، لكنَّ هذا عُلُوٌّ خاصٌّ: على هذا الكرسيِّ.

فتبيَّنَ أنَّ هناك فرقًا بين العُلُوِّ بالمعنى العامِّ؛ فإنه وَصْفٌ ذاتيٌّ أزليٌّ أبديٌّ، وبين استوائه على العَرْش الذي هو علوٌّ خاصٌّ على ذلك العَرْش؛ ولهذا بعضُ السَّلَفِ ورد عنه تَفْسيرُه: (بأنَّه جلس عليه) وهذا قريبٌ من تفسيره بالاستقرار، فهذا علوٌّ خاصٌّ، ففرَّقَ بين العُلُوِّ الخاصِّ، وبين العُلُوِّ بالمعنى العامِّ.

ونتقل من هذا المعنى إلى أن نقولَ: هل الاستواءُ على العرش من الصِّفاتِ الفِعْلِيَّةِ أم من الصِّفاتِ الذَّاتِيَّةِ؟

الجوابُ: الاستواءُ من الصِّفاتِ الفِعْلِيَّة، وأنَّ كل شيء يتعلَّقُ بالمشيئة إن شاء الله فَعَلَ وإنْ شَاء لم يَفْعل، فهو من الصِّفاتِ الفِعْلِيَّة فضلًا عن الاسْتِوَاء على العَرْشِ، فإنَّه من الصِّفات الفعليَّة.

وأهلُ السُّنَّة يقولون: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أي علا عليه واستقرَّ، وكيف كان ذلك العُلُوُّ والاستقرارُ؟

لا ندري؛ ولهذا قال الإمامُ مالكٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لما سُئِلَ؛ قيل له: يا أبا عبد الله ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥] كيف استوى؟ فأَطْرَقَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بِرَأْسِهِ حتى علاه الرُّحَضَاءُ -العَرَقُ- من شِدَّة وقْعِ هذا السُّؤالِ على قلبه، ثم رَفَعَ رأسه، وقال: «الاسْتِواءُ غَيْرُ مجْهُولٍ، والكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ، والإيمانُ به واجِبٌ، والسُّؤَالُ عنه بِدْعَةٌ»(١)؛ ويُنْقَلُ عن مالكٍ على غيرِ هذا اللَّفْظِ أنه قال: «الاستواءُ مَعْلومٌ، والكَيْفُ مَجْهولٌ، والإيمانُ عنه واجِبٌ، والسُّؤالُ عنه بدعة»(٢) لكن الذي صَحَّ عنه بالسَّنَدِ هو اللَّفْظُ الأَوَّلُ، وهو: «الاستواءُ غيرُ مجهولٍ، والكَيْفُ غير مَعْقولٍ، والإيمانُ به واجبٌ، والسُّؤالُ عنه بِدْعَةٌ» ثم قال: «ما أُراكَ إلا مُبْتَدِعًا!» مع أنه يُحْتَمَلُ أنه سأَلَ سُؤَالَ اسْتِفْسارٍ ولم يسألْهُ إفحامًا، ولهذا قال: وما أُراك أوْ ما أَظُنُّك إلَّا مُبْتَدِعًا، ثم أمر به فأُخْرِجَ من الحَلْقَة لئلَّا يُشَوِّشَ على النَّاس.

---

(١) أخرجه اللالكائي في اعتقاد أهل السنة رقم (٦٦٤)، والبيهقي في الأسماء والصفات رقم (٨٦٧)، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٣٢٥)، والدارمي في الرد على الجهمية رقم (١٠٤).

(٢) انظر: الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي (ص:٣٨)، والملل والنحل (١/ ٩٣)، والعرش للذهبي (١/ ١١٧-١١٨).

الحاصل: أننا نقولُ: الاستواءُ غير مجهولٌ، أو أنه مَعْلومٌ معنًى في اللُّغَة العربيَّة والقرآنُ نزل باللُّغة العربيَّة؛ فمعناه لغةً: علا واستقرَّ.

وقولـه: «الكيفُ غير معقولٍ» يعني: ما نَعْقِلُه نحن، وهذا أَبْلَغُ من كَلِمَة مجهول، يعني لا يُمكن أن يُدْرِكَه العَقْلُ أو يُحيطَ به، فالله أعظمُ من أن تُدْرِكَ العقولُ كُنْهَ ذاتِهِ وصفاتِه.

ثم إذا انتفى عنه الدليل العقليُّ أثبت الدليلُ السَّمْعِي، ولم يَرِدِ السَّمْعُ بذكْرِ الكيفيَّةِ، فإذا انتـفى عنه الدَّليـلانِ: العقليُّ والسَّمْعِيُّ، فإنَّه يجب التَّوَقُّفُ؛ ولهذا الصَّحابةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ التَزَموا جانِبَ التَّوَقُّفِ، مع أنَّهم أَحْرَصُ منَّا على القَوْل وعلى العِلْم؛ فهل سألوا الرَّسولَ ﷺ فقالوا: كيف استوى أو لا؟

لا؛ ولهذا قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «والسُّؤالُ عنه بِدْعَةٌ»: «السؤال عنه» يعني عن الكيفيَّة بدعة، فما كان الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يسألون عن هذا، ولا يُمكِنُ الوصولُ إليه، فإذن السُّؤالُ عنه تكلُّفٌ من حيث لا يُمْكِنُ الوصولُ إليه، وبدعَةٌ من حيث لم يَسْأَلْ عنه الصَّحابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وقوله: «والإيمانُ به واجبٌ»: «الإيمان به» بالاستواءِ على العَرْش، «واجِبٌ» لأنَّ الله أخبر به عن نَفْسِه، وما أَخْبَرَ الله به عن نَفْسِه وَجَبَ علينا قَبُولُه، وألَّا نقيسَ ذلك بعقولنا.

فإذن -الحمد لله- الاستواءُ واضِحٌ؛ فالاسْتِواءُ معناه: العُلُوُّ والاسْتِقْرار وهو معلومُ المعنى، لكنَّ الكيفيَّةَ مجهولةٌ غَيْر مَعْقولة، يعني لا يُدْرِكُها العَقْلُ، ولا يستدلُّ عليها، والسَّمْعُ لم يَدُلَّ عليها؛ فوجب الوقوفُ؛ ولهذا قال الإمامُ مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: «الكيفُ مجهولٌ، والإيمانُ به واجبٌ، والسُّؤالُ عنه بِدْعةٌ».

وأهل البِدَعِ يَنْفونَ هذا الشَّيءَ، ويقولون: مُحالٌ أن يكون استوى على العَرْشِ؛ أي: علا عليه واستقرَّ، ولكنَّ معناه: استولى على العَرْشِ وقَهَرَ ومَلَكَ، وإنَّ الاستواءَ فيه معنى ذلك؛ وقالوا: وَجَدْناه في قول القائِلِ:

قَدِ اسْتَوَى بِشْرٌ عَلى العِرَاقِ مِنْ غَيْرِ سَيْفٍ أَوْ دَمٍ مُهْرَاقِ

(استوى على العِراقِ) يعني: استولى عليها، فنَرُدُّ كلامَ الله إلى هذا البَيْتِ الذي أُنْشِدَ في عَهْدِ بِشْرِ بْنِ مَروانَ حين استولى على العراقِ!

وهذا البيتُ يُقال: إنَّ قائِلَه مجهولٌ لا يُعْلَم، وسبحانَ الله أن نَحْمِلَ القرآنَ الكريم على بيتٍ من الشِّعْر قائِلُه مجهولٌ! والرِّوايَةُ إذا كان فيها راوٍ مجهولٌ، فهي مَرْدودة حتى يَتبَيَّن.

ثم نَقُول: على فَرْضِ أنَّ القائِلَ معلومٌ، وأنه من أَقْحاحِ العَرَبِ الذين لم تَتَلَوَّثْ ألسنتهم بِعُجْمَة؛ فإنَّ استوى على العراقِ يَصِحُّ أن نقولَ بمعنى علا على العراقِ؛ أي عُلُوًّا معنويًّا وليس حِسِّيًّا، ويَمْنَعُ أن يكون المرادُ به العُلُوَّ الحِسِّيَّ أنَّ العِراقَ لا يمكن أن يَجْلِسَ عليه بِشْرٌ؛ فيكون معناها هنا أمرًا عقليًّا، ويكون الاستواءُ هنا استواءً معنويًّا؛ بمعنى أنه علا عليه عُلُوًّا مَعْنَوِيًّا؛ وإذا فَسَّرْناها بمعنى علا عُلُوًّا معنويًّا كان أبلغَ من تفسيره بالاستواء؛ لأن مجرَّدَ الاستيلاءِ قد لا يَحْصُل به العُلُوُّ؛ قد يكون مُسْتَوِيًا لكنه كالعصا، فإذ قلنا استوى بمعنى علا علوًّا معنويًّا صار أبلغَ في التملُّك والقَهْر، فتبيَّن أنَّه لا حُجَّة في هذا البيت على كلِّ تقديرٍ.

ثم إنَّه مخالِفٌ لظاهِرِ القرآن، ومخالِفٌ لِما أَجْمَعَ عليه السَّلَفُ والأَئِمَّةُ من أنَّ الاستواءَ بمعنى العُلُوِّ والاسْتِقْرار، ويكون هذا باطلًا.

إِذَن: الذي نؤمِنُ به أنَّ الله تعالى استوى على عَرْشِه استواءً يليقُ به؛ بمعنى علا واستقرَّ؛ وعلى التَّرتيب فمِن بعدِ خلْق السَّموات استوى، لكن قبل أن يَخْلُق السَّموات مسكوتٌ عنه، فهو حين الخلق غير مستوٍ، وبعد الخلق مُسْتَوٍ. وأمَّا قبله فالله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [هو في اللُّغَةِ سَريرُ المَلِكِ] استوى على العَرْش؛ إذن هو سريرٌ خاصٌّ يليق بالمَلِك وبِمُلْكِه؛ قال الله تعالى عن مَلِكَة سبأٍ كما أخبر عنها الهُدْهُدُ: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل:٢٣] وقال تعالى في قِصَّة يوسُفَ ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ [يوسف:١٠٠] يعني السرير الخاص بالمَلِك، ولا بُدَّ أن يكون سريرًا مُفخَّمًا حَسَبَ مُلْكِه، هذا هو السَّريرُ، فيكون عَرْشُ الرحمنِ عَزَّوَجَلَّ أعظَمَ شيء؛ لأنه عَرْشٌ لأَعظمِ الأشياءِ وهُو الله عَزَّوَجَلَّ؛ ولهذا جاء في الحديث: «أنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرَضِينَ السَّبْعَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الكُرْسِيِّ كَحَلْقَةٍ أُلْقِيَتْ فِي فَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ»[1] أي: حلقة الدِّرْعِ، نسبة صغيرة؛ أُلْقِيَت في فَلاةٍ من الأرض، فلو أُلْقِيَتْ حلْقَةٌ في فلاةِ الأرضِ هل يَصِحُّ أن تُنْسَبَ إلى الفَلاة كم مُدَّتُها؟ ولا واحد من المليون، ليست بشيءٍ، ويمكن ألَّا تَقْدِرَ أن تُشاهِدَها «وإنَّ فَضْلَ العَرْشِ على الكُرْسيِّ كفَضْلِ الفَلاةِ على هذه الحَلْقةِ».

إِذَن: الكرسيُّ بالنِّسْبة للعرش كحَلْقَة أُلْقِيَت في فلاةٍ من الأرضِ، ومن هذا تَعْرِف مقدارَ عَظَمَةِ الخالِق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كيف خلق هذه الأشياءَ العظيمة.

يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [استواءً يليقُ به] نريد أن نناقِش المُفَسِّر عن هذه الكلمة،

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه رقم (٣٦١)، وابن بطة في الإبانة (٧/ ١٨١)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٦٦)، من حديث أبي ذر الغفاري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

هل هذا الكلام يدلُّ على أنه على مَذْهَبِ السَّلَفِ في صِفَة الاستواءِ، أو على مذهب الخَلَفِ؟ لأن الخَلَف يقولون: الاستواءُ الذي يليقُ به: الاستيلاءُ، هذا الذي يليقُ عندهم! والسَّلَفُ يقولون: الاستواءُ الذي يليق به: العُلُوُّ على الوَجْهِ الذي يليق بالله.

قوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ﴾: ﴿مَا لَكُم﴾: ﴿مَا﴾ نافِيَة، والخطابُ في قوله تعالى: ﴿لَكُم﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يا كُفَّارَ مكَّةَ] والصوابُ العُمُوم؛ يعني: ما لكم أيُّها المخاطَبُون، ويَشْمَلُ كفَّارَ مكَّة وغَيْرَهم.

وقوله تعالى: ﴿مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ﴾ الدُّونُ بمعنى سِوَى؛ يعني: ما لكم مِنْ سِوَاه؛ ولهذا قال المُفَسِّر [مِنْ غَيْرِه].

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مِن وَلِيٍّ﴾ اسْمُ (ما) بزيادةِ مِنْ] وزيادَتُها هنا مِن أَجْلِ التَّوْكيد والتَّنْصيصِ على العموم، ولكن قوله (اسْمُ ما) خطأٌ؛ قال ابنُ مالِكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

.... مَعَ بَقَا النَّفْـيِ وَتَرْتِيـبٍ زُكِـنْ(١)

فلا بدَّ في (ما) أن تكون مُرَتَّبَة؛ يعني: الاسْمُ قبل الخبر، فإن لم تكن كذلك فإنَّها لا تَعْمَلُ؛ لأنها ما تعملُ إلا على لُغَةِ الحِجازِيِّينَ بالشُّروطِ التي ذَكَر ابنُ مالِكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فيكون قولُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [اسمُ (ما)] قد يكون سَقْطَةَ قَلَمٍ أو سهوًا، فإنَّ (ما) هنا غيرُ عامِلَةٍ، وهنا (ما) نافية فقط، وسبب بُطلانِ عَمَلِها عَدَمُ التَّرْتِيب.

وخبر المبتدأ إذن: قَوْلُه: (لكم): ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ﴾ يقول: [أي ناصِرٌ] ولا شفيعٌ، فَسَّر الوليَّ هنا بالنَّاصِر، وقد اعترضوا عليه؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول

---

(١) الألفية (ص: ٢٠).

في آية أخرى: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [الشورى:٣١] والعَطْفُ يقتضي المُغايَرة، وأنَّ النَّصيرَ غيرُ الوليِّ؛ ولهذا الأَوْلى أن يُفسَّر الوَلِيَّ لمن يتولَّى أَمْر الإنسان؛ يتولى أَمْرَه بِجَلْبِ الخَيْرِ له ودَفْع الضَّرر عنه، ثم إن قُرِنَتْ بالنَّصيرِ صارت خاصَّة بجلب الخيرِ، والنَّصير بدَفْع الشَّرِّ؛ فالمراد: مِنْ وَلِيٍّ؛ أي: من مُتَوَلٍّ لأَمْره بِجَلْب الخير له، ودَفْعِ الشَّرِّ عنه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا شَفِيعٍ﴾ أي: شافِع يَشْفَعُ لكم؛ ولهذا قال: [﴿وَلَا شَفِيعٍ﴾ يَدْفَعُ عذابه عنكم] هذا أيضًا فيه نظر؛ لأنَّ الشَّفيع ليس يَشْفَع، ولكنه يُشْفَع ويُطْلب، الدَّافِعُ هو النَّاصر والوليُّ، أما الشَّفيع فإنَّه ليس يَدْفَعُ ولكنَّه يتوسَّط؛ ولهذا قالوا في تعريف الشَّفاعَةِ: هي التَّوسُّط للغير بِجَلْبِ مَنْفَعَةٍ أو دَفْعِ مَضَرَّة، فيثبُتُ للغَيْر؛ لأنَّ الشَّفيع يأتي شافعًا للمَشْفوع له، فبعد أن كان فردًا صارا اثنينِ.

فالصَّوابُ أنَّ المراد بالشَّفيعِ؛ أَيْ: شفيع يشفَعُ لكم عند الله، فنحن ليس لنا أحدٌ يتولَّانا من دون الله، وليس لنا أحدٌ يَشْفَعُ لنا عند الله عَزَّوَجَلَّ ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾؛ ولهذا لا تكون الشَّفاعة إلا بإذن الله، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ هذا، فتُؤْمنون] ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ تقدَّمَ لنا مِرارًا وتكرارًا أنَّ مِثْل هذه الجُمْلَة يرى النحويُّون في إعرابها وَجْهَينِ:

الوَجْه الأوَّل: أن تكون الهَمْزَةُ داخِلَةً على شيء محذوفٍ مناسِبٍ للمَقام، والفاء عاطِفة على ذلك المحْذوفِ.

الوَجْه الثاني: أن تكون الهَمْزَة داخِلَةً على الجملة التي بعد العاطِفِ، والعاطِفُ عاطِفٌ على ما سبق.

وَقُلْنَا: إن هذا الوَجْه أَسْهَلُ؛ لأن الأوَّل يحتاجُ إلى تقديرٍ، وقد يكون المقدَّرُ صَعْبًا؛ إذ قد يُشْكِلُ على الإنسان ملاءَمَتُه للسِّياق، فإذا قلتَ: الهَمْزَة للاستفهامِ وَهِيَ مقدَّمة على حرف العطف، والفاءُ حرف عطف، والمعطوف عليه ما سبق، والتَّقدير بدُون تَقْديم وتَأْخير: فَأَلَا تَتَذَكَّرون.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [هذا، فتؤمنون] [هذا] أفادنا المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله [هذا] أنَّ المرادَ بالتذكُّر البَصَرُ به والعِلْمُ به؛ ويُحْتَمَلُ أن يكون المرادُ بالتَّذَكُّرِ الاتِّعاظَ، وعلى هذا فيكون لازمًا لا مُتَعَدِّيًا؛ يعني: أفلا تَتَّعِظونَ بعد أن عَرَفْتُم مخلوقاتِه العظيمةَ واستواءَه على عَرْشِه، وأنه ليس لكم من دونه من وليٍّ ولا شَفيعٍ؛ أفلا تَتَّعِظون فتُؤْمنون؟!

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ الذي خلق السَّمواتِ هو الله لا شريك له؛ تُؤْخَذُ من قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ من كون المبتدأِ والخَبَر مَعْرِفَتينِ، وإذا كان المبتدأُ والخبرُ مَعْرِفَتَين فإنَّهما يُفيدانِ الحَصْرَ: الله الذي خلق لا غَيْرُه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثباتُ ما تضَمَّنَتْه هذه الجُمْلَةُ من العِلْمِ والقُدْرَة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أي لا خَلْقَ بدون عِلْمٍ، ولا خَلْقَ بدون قُدْرَة.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بيانُ عَظَمَةِ قُدْرَةِ الله؛ لأنَّ خَلْقَ هذه السَّمواتِ والأَرْضِ العظيمة يدُلُّ على عظمة الخالِقِ؛ فكما أنَّنا لو رأينا قَصْرًا مَشِيدًا وبِناءً مُحْكَمًا استَدْلَلْنا به على عَظَمَة الباني.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ بين السَّمواتِ والأَرْضِ من الآياتِ شيئًا كبيرًا، حيثُ جَعَلَه

قسيمًا لخلق السَّمواتِ والأرض ومقابلًا له.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ خَلْقَ السَّمواتِ والأرض تَمَّ في سِتَّة أيام، مفصَّلَة في سورة فُصِّلَتْ: أربعة للأَرْضِ، ويومان في السَّماء.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثبات عُلُوِّ الله؛ لقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ والعَرْشُ أعلى المخلوقاتِ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثباتُ استواءِ الله على عَرْشِه، وهو عُلُوُّه واسْتِقْرارُه عليه، بدون تَكْيِيفٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: إثباتُ قيامِ الأفعالِ الاخْتِيارِيَّة بالله عَزَّوَجَلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ لأَنَّه من الأفعالِ التي يَفْعَلُها بِمَشيئَتِه، وهي التي يُعَبَّرُ عنها أحيانًا بالصِّفاتِ الفِعْلِيَّة.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: إثباتُ عظمة الله وسُلْطانِه؛ تُؤْخَذُ من قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾؛ لأن العرش سرير المَلِك، وقُلْنا إنَّ العَرْشَ يَعْظُمُ بعِظَمِ مَلِكِه.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: إثبـات العَرْش والعرش سرير المَلِك، وهل هو الكرسي أو غيره؟

نَقُول: هو عند أهل السُّنَّةِ غيرُ الكرسي.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أنه ليس للخَلْقِ وليٌّ مِنْ دونِ الله؛ لقوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أنه لا شفيع لهم من دون الله.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: إبطال تعلُّق الْمُشْركينَ بآلهَتِهم؛ وَجْهُه: أنَّهم إن أرادوا أن تكونَ وليًّا لهم مُغيثًا مُنْقِذًا من الشِّدَّة، فلن يكون ذلك، وإن أرادوا أن يكونوا شفعاءَ، فلن يكون ذلك؛ يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣] وأحيانًا يطلبونَ منهم جَلْبَ الخيرِ ودَفْعَ الضَّرَرِ، وكلُّ هذا لا متعلَّقَ لهم به فهو باطِلٌ؛ إذ لا يكون ذلك إلا بإذن الله؛ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ ففي الآية -كما قلتُ-: تَعَلَّقَ المشركونَ بآلهَتِهِم سواء جَعَلوها أولياءَ أو جعلوها شُفَعاءَ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: تَوْبيخُ من لا يتذكَّرُ بعد هذا البيانِ؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾.

وهذه الفائِدَة تترتَّبُ عليها فائِدَةٌ أخرى، وهي وجوبُ التَّذَكُّرِ بآياتِ الله عَزَّوَجَلَّ، وأنَّ الإنسانَ يتذكَّرُ بآياتِ الله، ولا يكون كأنَّه يَمُرُّ عليها كأنَّها ألفاظٌ عابِرَةٌ.

• ● ❁ ● •

الآية (٥)

• ● ∽ ● •

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [السجدة:٥].

• ● ∽ ● •

قولُهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ مُدَّةَ الدُّنيا ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ﴾ يَرْجِعُ الأَمْرُ والتَّدبيرُ ﴿إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ في الدُّنيا، وفي سورة (سأل): ﴿خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج:٤] وهو يومُ القيامَةِ لشِدَّة أَهْوالِهِ بالنِّسْبَة إلى الكُفَّار].

قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ المرادُ بالسَّماءِ هنا: تلك الأجرامُ المعهودَةُ المعروفة، يدبِّرُها من السَّماء إلى الأرض ثم يَعْرُجُ إليه؛ يعني: من السَّماءِ الدُّنيا إلى الأَرْضِ، ثم يَعْرُجُ إليه؛ أي: إلى الله تعالى، ولا يَلْزَمُ أن يكون الله في السَّماءِ الدُّنيا.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ﴾ يعني: يَرْجِعُ إليه؛ فقوله تعالى: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ الذي يَعْرُج إليه هو: ما يَتَرَتَّبُ على ذلك الأَمْرِ؛ أمَّا الأَمْرُ فهو نازِلٌ؛ مِثْل لو أَمَر عَزَّوَجَلَّ بأن يقومَ هذا الرَّجُل بعبادَةِ الله، تكون عبادة، ثم يَرْجِعُ إليه ثوابُ العمل أو العقاب عليه حَسَب ما يَفْعَلُه هذا العبدُ، كذلك أيضًا ينزل الأَمْرُ من السَّماءِ بنُزُولِ المَطَرِ، ثم يَرْجِعُ إليه: حصل هذا الشَّيءُ بأَنَّه نزل فأحيا به الأَرْضَ بعد موتها وما أشبه ذلك، فالأَمْرُ نازِلٌ وصاعِدٌ؛ من السَّماء إلى الأَرْض.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ أي: إلى الله، يَعْرُج بمعنى يَصْعَد؛ لكنَّ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ فسَّر الآية بأنَّه يدبِّره من السَّماء إلى الأرض في الدُّنيا، ثم يَعْرُجُ إليه في الآخِرَة، وجعل العُرُوج بمعنى الرُّجوع، ولا شَكَّ أن هذا تحريفٌ؛ لأنَّ العُرُوجَ غيرُ الرُّجُوع، فمعنى العُرُوج الصُّعودُ: يَصْعَد إليه، وليس بمعنى أنه يَرْجِعُ إليه في يوم القيامة حتى يُثِيبَ عليه أو يُعاقِبَ.

فالمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ جعل: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ في كل مُدَّةِ الدُّنيا، تدبيرٌ: أَمْرٌ ينزل من السَّماء إلى الأرض.

أمَّا العُرُوج فيكون يومَ القيامَةِ، وفسَّرَه بالرُّجُوع، على رأي المُفَسِّر يكون في يومٍ كان مقدارُهُ ألفَ سَنَةٍ ممَّا تَعُدُّون؛ يخالف ما ذكره الله تعالى في سورة سأل؛ لأنَّه في سورة سأل قال: ﴿خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج:٤].

أجاب المُفَسِّر بما يقتضي أنه يختلف باختلافِ التَّقْدِيرِ، فيكون على قومٍ بمقدارِ خمسينَ ألفَ سَنَةٍ، وعلى قوم بمقدار ألفِ سَنَةٍ، وعلى آخرينَ بمقدارِ أداءِ الفريضَةِ كما قال: [وَأَمَّا المُؤْمِن فَيَكُونُ أَخَفَّ عَلَيْهِ مِنْ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ يُصَلِّيهَا فِي الدُّنْيَا كَمَا جَاءَ فِي الحديثِ[1]].

إِذَن: خلاصة رأي المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنَّ تدبيرَ الأَمْرِ من السَّماء إلى الأرض بالدُّنيا من أوَّلِها إلى آخِرِها، وأنَّ العُرُوجَ إلى الله عَزَّ وَجَلَّ بهذا الأَمْرِ في الآخرة، وفسَّرَ العُرُوجَ بالرُّجُوعِ، فرارًا من إثباتِ العُلُوِّ الذاتيِّ.

ويبقى على المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ إشْكالٌ: وهو أنَّنا إذا جعلنا الرُّجوعَ في يوم القيامة،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٣/ ٧٥)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

ففي الآيةِ هنا مقدارُهُ ألْفُ سَنَةٍ، وفي سورة المعارِجِ مقدارُهُ خمسونَ ألْفَ سَنَةٍ.

والجوابُ عند المُفَسِّر أن يُقال: إنَّ اخْتلافَ التَّقديرِ هنا باعتبارِ أحوالِ النَّاسِ؛ فمنهم من يُخَفَّفُ عنه حتى يكون كألْفِ سَنَةٍ، بل قد يكون كأداءِ صلاةٍ مكتوبةٍ، ومنهم من يُثَقَّلُ حتى يكونَ بمقدارِ خَمْسينَ ألفَ سنةٍ.

أما على القولِ الصَّحيحِ الذي مشى عليه ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١) وأكَّدَهُ في التَّفْسيرِ؛ فيقولون: إنَّ هذا كلَّه في الدُّنيا: التَّدْبير والعُرُوج، وأنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يدبِّرُ الأَمْرَ من السَّماء إلى الأرض، ثم يَعْرُجُ إليه آثارُ هذا التَّدْبير؛ يعني في الدُّنْيا، ويقولون معنى ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ﴾: بأنَّ مسافةَ ما بين السَّماء إلى الأَرْضِ خَمْسُ مئة سَنَةٍ، هذا نزولٌ، ومسافتها عُرُوجًا خَمْسُ مِئَةِ سَنَةٍ، فيكون الجميعُ ألْفًا، فيكون معنى قوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ باعتبارِ النُّزُولِ وباعتبارِ العُرُوجِ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: لماذا خَصَّ السَّماء الدُّنيا؟

فالجوابُ: لأنه عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ﴾؛ لأنَّه لو كان الأَمْر في السَّماء السَّابعَة مثلًا؛ فليست هذه المدَّة إذا جعلنا بين كلِّ سماء إلى سماء خَمْسَ مئة عامٍ، وكِثَفَ كُلِّ سماءٍ خَمْسَ مئَةِ عام، كلُّ عامٍ يكون أكْثَرَ من هذا؛ فإن مَسافةَ ما بَيْن السَّمواتِ كما جاءَ في الحديثِ: أنَّ كِثَفَ كُلِّ سماءٍ خَمْسُ مئةِ عامٍ، وما بين السَّماءِ والأَرْضِ: خَمْسُ مئةِ عامٍ(٢).

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ﴾: ﴿فِي يَوْمٍ﴾ هل لا بدَّ أن يكون في يومٍ كاملٍ

---

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٣٢١).

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة الحديد، رقم (٣٢٩٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

أو في للظَّرْفِيَّة ولا تقتضي الاستيعابَ؟

الجوابُ: أنَّ (في) للظَّرْفِيَّة ولا تَسْتَلْزِمُ الاستيعابَ؛ يعني: ليس بلازِمٍ أنَّ الأَمْرَ يَنْزِلُ مثلًا عند صلاة الفجر ولا يَعْرُج إلا في الغروب؛ فقد يَنْزِلُ ويَعْرُج في لحظَةٍ حسب ما أراد الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّ (في) لا تقتضي الاستيعابَ، فإذا قُلْتَ: (زُرْتُكَ في يَوْمِ الأَحَدِ) فلا يقتضي أن تكون الزِّيارَةُ مُسْتَوْعِبَةً لجميع اليوم، ولكن في وَقْتٍ من هذا اليوم، فإذن ﴿فِي يَوْمٍ﴾ أي: في وقْتٍ من هذا اليَوْمِ، وهذا اليَوْمُ كان مِقْدارُهُ أَلْفَ سنة ممَّا تعدُّون.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: في هذه الآية دليلٌ على كمالِ سُلْطان الله عَزَّوَجَلَّ؛ حيث جعل تدبيرَ الأمورِ إليه، ﴿يُدَبِّرُ﴾ هو؛ ففيه كمال السُّلْطان، وأنَّ الكمال له وَحْدَه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: رَدٌّ على القَدَرِيَّة، الذين يدَّعُون أنَّ أَمْرَ الإنسان مستَقِلٌّ به؛ لأننا نقول: إنَّ فِعْلَ الإنسان من الأمور، والذي يُدَبِّرُه هو الله عَزَّوَجَلَّ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: وفيه دليلٌ لقَوْلِ الجَبْرِيَّةِ!

فالجوابُ أن نقول: لكنْ هناك آياتٌ تدلُّ على أنَّ الإنسانَ فاعلٌ بالاختيارِ؛ لقوله: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [التكوير:٢٨-٢٩] وفي قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ [آل عمران:١٥٢] وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾ [المائدة:٢] وما أشبه ذلك؛ فكلُّها تدلُّ على أن للإنسان إرادةً واختيارًا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثبات عُلُوِّ الله عَزَّوَجَلَّ؛ من قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ

إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ فقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ هذا النُّزُولُ، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ هذا الصُّعودُ، ولا نُزُولَ إلا من عالٍ، ولا صعود إلا إلى عالٍ، فيُستفادُ عُلُوُّ الله تعالى من الجملتين جميعًا؛ يعني كل واحدة على انفراد.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ أَمْرَ الله عَزَّوَجَلَّ شامِلٌ للسَّماء والأرض؛ لأنَّه إذا كان يُدَبِّرُ الأَمْرَ من السَّماء إلى الأرض، فالسَّماءُ من باب أولى؛ فالسَّماء أَقْرَبُ إليه.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ هذا التَّدْبير الذي يكون بلحظة: في يومٍ مقدارُه أَلْفُ سَنَةٍ: نزولٌ وعروجٌ يكون هذا بلحْظَةٍ؛ لأنَّ الله يقول: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ وهذا يدلُّ على كمال نفوذِ إرادَةِ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وأنَّه لا يَمْنَعُها بُعْدٌ.

• • ۞ • •

الآية (٦)

• ● ◦ ● •

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [السجدة:٦].

• ● ◦ ● •

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ذَٰلِكَ﴾ الخالِقُ المدبِّرُ] وأتى باسْمِ الإشارَةِ الدَّالَة على البُعْد؛ لِعِظَم شأنِهِ وعُلُوِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وقوله [الخالِقُ المدبِّرُ] الذي تقدم من الصِّفاتِ: الخالِق، المستوي على عَرْشِه، المدبِّر لخَلْقِه.

والاستواءُ على عرشه من أَهَمِّ ما يكونُ في هذا المقامِ؛ لأَنَّه مع عُلُوِّه لا يخفى عليه ما غاب ولا ما شُوهِدَ، فكان ينبغي أن يَذْكُرَه المُفَسِّر مع هذا.

فهو الخالِقُ، وهو المدبِّر، وهو المُسْتَوِي على عَرْشِه، ومع عُلُوِّه واسْتِوَائه على عَرْشِه لا يخفى عليه شيءٌ، ومع خَلْقِه أيضًا وتَدْبيرِهِ لا يخفى عليه شيءٌ، ولهذا الرَّبُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أعلَمُ منك بنفسِكَ؛ لأَنَّه هو الخالِقُ، فهو الذي خلق جِسْمَك، وهو الذي يُنمِّيه، وإذا نَما الجِسْمُ بمقدارِ ذرَّةٍ، فإنَّ الله تعالى قد خلق هذا النُّمُوَّ، وأنت لا تَشْعُرُ بما ينمو في جِسْمِك بمقدارِ ذرَّةٍ.

إِذَن: فالله أَعْلَمُ منك بنَفْسِك؛ لأَنَّه الخالِقُ وهو المدبِّرُ، وهو المستوي على عَرْشه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: ما غاب عن الخَلْقِ وما حَضَرَ] الغَيْبُ: ما غاب عن الخَلْق، وهو نوعان: غَيْبٌ مُطْلَقٌ لا يَعْلَمُه إلا الله، وغَيْبٌ نِسْبِيٌّ؛

بحيث يكون غائبًا عن شَخْصٍ غيرَ غائبٍ عن آخَرَ، والمراد كلاهما؛ فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَعْلَمُ ما غاب عن الخَلْقِ غَيْبًا مُطْلَقًا بحيث لا يَعْلَمُه أحدٌ، وما غاب عنهما غيبًا نسبيًّا؛ فمثلًا الآن الذي في الشَّارِعِ غائِبٌ عنَّا لا نعلمه، لكنَّ الذين هناك يَعْلَمُونه، وما هنا نحن نَعْلَمُه، وهم لا يَعْلَمُونه؛ فهذا الغَيْبُ النِّسْبيُّ؛ أما عِلْمُ المستَقْبَلِ، وما يكون مِمَّا لم يُخْبِرْنا الله به، فإنه غَيْبٌ مُطْلَقٌ.

وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾ الشَّهادة يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ إنَّها الحُضُورُ؛ لأنَّ (شَهِدَ) بمعنى حضر وبمعنى أخبر؛ فلها معانٍ، فهنا المرادُ بالشَّهادةِ الحاضِرُ، فهو يَعْلَمُ الغائِبَ والحاضِرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ المَنيعُ في مُلْكِهِ ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بأَهْلِ طاعَتِهِ] ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ فسَّرَه المُفَسِّر بأنه [المنيعُ في مُلْكِهِ] ودائمًا يمر علينا في تفسيرِ المُفَسِّر نفسه فيقول: العزيزُ بمعنى الغالِب، وقد سبق لنا: أنَّ العزيزَ هو منِ اتَّصَفَ بالعِزَّة، وأنَّ العِزَّةَ ثلاثَةُ معانٍ: عِزَّةُ القَدْرِ، وعِزَّةُ القَهْرِ، وعِزَّةُ الامتناعِ.

فإذا قُلْتَ: هذا الشَّيءُ عزيزٌ؛ بمعنى أنه ذو قَدْرٍ، كما يقول قائِلٌ لأخيه: أنت عزيزٌ عندي؛ يعني: لك قَدْرٌ عندي ومَنْزِلَةٌ، وعزيزُ القَهْرِ؛ كما يُقال: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح:٣] يعني: تَقْهَرُ به الأَعْداءَ. والثَّالث: عِزَّة الامْتِناعِ، وهذا كما يُقال في الأشياء النَّادِرَة: هذا عزيزٌ، وكما في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم:٢٠] أي: بمُمْتَنِعٍ.

فمعنى الامتناع باعتبارِ كوْنِهِ صفةً لله: أنه يَمْتَنِعُ أن يناله نَقْصٌ في ذاتِهِ أو صِفاتِهِ؛ ولهذا يقول المُفَسِّر هنا [المنيعُ في مُلْكِهِ] فلا يَلْحَقُه نقصٌ لا في ذاتِهِ ولا في صفاتِهِ.

وأمَّا قوله [﴿الرَّحِيمُ﴾ بأهْلِ طاعَتِهِ] فكأنه أخذ هذا التَّخصيصَ من قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣] والصَّوابُ: أنَّ الرَّحيمَ هو مَن رَحِمَ غيرَه، ويَشْمَل المؤمنينَ وغيرَ المُؤمنينَ، ولكنَّه إذا قيل: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ فالمراد بالرَّحيمِ هنا الرَّحمةُ الخاصَّةُ، أمَّا إذا أُطْلِقَ فهو رحيمٌ بالخَلْقِ كُلِّهِمْ، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل:٥٣] فهؤلاء الكُفَّارُ هل الله عَزَّوَجَلَّ رَحِمَهُم؟

الجوابُ: نعم، بالمعنى العامِّ رَحِمَهُم؛ فهو تعالى يُنْزِلُ عليهم المَطَرَ ويُنْبِتُ لهم النَّبات ويُعْطيهم الرِّزْقَ والصِّحَّة، وغير ذلك، لكن هذه رَحْمَةٌ عامَّة.

أما رَحْمَتُه بالمؤمنينَ فهي رحمةٌ عامَّة وخاصَّة.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: إثباتُ عموم عِلْمِ الله؛ لقوله تعالى: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثباتُ هذين الاسمينِ من أسمائه: العزيز الرَّحيم، وما تضَمَّناه من الصِّفَة وهي العِزَّة والرَّحمة، وكمالُ عِزَّته ورَحْمَته باجتماعهما: أنه مع كونه عزيزًا قاهرًا غالبًا فهو أيضًا رحيمٌ؛ لأنَّ بعض الأَعِزَّاء إذا عَزَّ لا يَرْحَم، وبعض الرُّحَماءِ تَصِلُ به الرَّحْمَةُ إلى أن يكون في مقامِ الذُّلِّ؛ فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جامعٌ بين العِزِّ والرَّحْمَةِ، وهذا من كماله؛ يعني: الجمعُ بين العِزَّة والرَّحمة فيه كمالٌ أكثرُ من إثباتِ العِزَّة والرَّحْمة، وهو: أنَّ رَحْمَتَه مقرونَةٌ بعِزٍّ ليست رحمةَ ذلٍّ، وأنَّ عِزَّته أيضًا مقرونَةٌ برَحْمَةٍ ليست عِزَّةَ جَبَروتٍ لا رحْمَةَ فيها.

• • ❁ • •

الآيات (٧-٩)

قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾ [السجدة:٧-٩].

• • ◦ • •

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾ بفتح اللام فعلًا ماضيًا؛ صِفَةٌ، وبِسُكُونها بدلُ اشْتِمالٍ] «الذى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ» القراءَةُ الثَّانية سَبْعِيَّةٌ؛ فعلى القِراءَةِ الأُولى ﴿أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾ الجُمْلَة فعليَّة صِفَةٌ لشَيْءٍ؛ وعلى القِراءَةِ الثَّانية: «الذى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ» يقول: [بَدَلُ اشتِمال] ويكون المعنى: الَّذي أَحْسَنَ خلْقَ كُلِّ شَيْءٍ؛ لأَنَّه سَبَقَ لنا أن القاعِدَةَ في بدلِ الاشتِمالِ: أنه يَصِحُّ إضافَتُهُ إلى المُبْدَلِ منه؛ تقول: نَفَعَنِي زَيْدٌ عِلْمُهُ؛ فتقول: نفعني عِلْمُ زَيْدٍ، وتقول: أَعْجَبَنِي زَيْدٌ فَهْمُهُ؛ أي: فَهْمُ زَيْدٍ، وتقول: اشْتَرَيْتُ زَيْدًا ثَوْبَهُ؛ أي: ثَوْبَ زَيْدٍ، هذا بدلُ الاشتِمالِ، فإنَّه يصِحُّ أن يُضافَ إلى المُبْدَلِ منه؛ على أنَّه يُحْتَمَلُ أنْ تكون (ثَوْبه) بَدَلَ غَلَط، كأَنَّه أراد أن يقول: اشْتَرَيْتُ ثَوْبَ زَيْدٍ، فقال: اشتريتُ زيدًا ثوبه.

فهنا نقول قوله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: «الذى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ» يعني: الذي أَحْسَنَ خَلْقَ كُلِّ شيءٍ، والمعنى أنَّه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ هو الخالِقُ، وأنَّ كلَّ شيء خلقَه فقد أَحْسَنَه، ولكنَّ هذا الإحسان يتفاوَتُ؛ ففي الآدَمِيِّ يقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ

﴿فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ [التين:٤] وقال: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار:٧] أحسن خِلْقَة من الحيواناتِ هو الآدميُّ، ولكِنْ مع ذلك كلُّ شيءٍ له خِلْقَة تُناسِبُه وهي بالنِّسْبة إليه حَسَنَةٌ، ﴿وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗا﴾ [الأنعام:١٤٢] الحَمُولَةُ: ما يُحْمَلُ عليه، والفَرْشُ ما لا يُحْمَلُ عليه، كلُّ شيءٍ من هذا وهذا فإنَّه قد خُلِقَ على أَحْسَنِ ما يكون وأَنْسَبِ ما يكون لِمَا خُلِقَ له.

قوله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَبَدَأَ﴾ يعني: ابتدأه، وقوله تعالى: ﴿خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ﴾ هل المرادُ الجِنْسُ أو المراد العَيْنُ؛ بدأ خلق الإنسان؟ المُفَسِّر مشى على المراد العَيْن، وهو الإنسان المُعَيَّنُ وهو آدم، ويُحْتَمَل أن يكون المرادُ به الجِنْسَ، وبدأ خلْق الإنسان؛ لأنَّ آدَمَ من الإنسان فإن الله بيَّن أنَّ ابتداء خلق هذا الإنسان أَصْلُه من الطِّينِ، وفَرْقٌ بين قوله تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ﴾ وبين: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن طِينٖ﴾ فإنَّ الأخيرة أَبْيَنُ في كون المرادِ به شيئًا فشخصًا مُعَيَّنًا بخلاف (بدأ).

على كلِّ حالٍ: فالآيةُ مُحْتَمِلَة أن يكون آدَمَ أو أن يكون المرادُ به الجِنْسَ، على القول: أنه آدم نمشي.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ﴾ أي: نَسْلَ الإنسانِ الذي ابتدأ من الطِّينَ؛ جعَلَ نَسْلَهُ يقول: [ذُرِّيَّته]؛ لأن النَّسْلَ بمعنى الانفصالِ؛ كما في قوله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ﴾ [الأنبياء:٩٦] أي: يَنْفَصِلونَ مُسْرعينَ، فالنَّسْلُ هو الذُّرِّيَّة؛ لأنَّها ناسِلَةٌ من أبيها؛ أي: مُنْفَصِلَة من سُلالَةٍ من ماءٍ مَهينٍ.

وقوله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ﴾ من ماء: هذه صِفَةٌ لسُلالَةٍ؛ سلالَة من الماء، والغريبُ أن المُفَسِّر فسَّر السُّلالَة بـ[العَلَقَة] وليس كذلك، بل السُّلالَة: الخالِصُ من الشَّيء؛ فسلالةُ الشَّيء خالِصُه الذي يسَل منه، فقوله تعالى: ﴿مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ﴾

أي: من خالصٍ من هذا الماء؛ لأنَّ الماء بإذن الله الذي هو المنيُّ يشتمل على حيواناتٍ منويَّة؛ منها يُخْلَقُ الإنسانُ، فهذه النُّطْفَة بمنزلة القُمْقُم في الرَّحِم؛ يعني: فيها نُمُوُّ الحيوانات المنويَّة، فهذا هو السُّلالَة.

وقوله تعالى: ﴿مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ صِفَةٌ لـ﴿سُلَٰلَةٍ﴾ فإن هذه السُّلالة من هذا الماء.

وقد يُقال: لماذا لا تجعلون ﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ بيانًا لقوله تعالى: ﴿مِن سُلَٰلَةٍ﴾ يعني: من سُلالَةٍ هِيَ الماءُ المهينُ؟

نَقُول: هذا خلافُ الظَّاهِرُ، والظَّاهِرُ: ﴿مِن سُلَٰلَةٍ﴾ من هذا الماء، والماءُ المَهِينُ يكون ضعيفًا وهو النُّطْفَة، ووُصِفَ بأنه ضعيفٌ؛ لأنه لا يسيلُ سَيَلانَ الماءِ فهو يَسيلُ بِبُطْء، والماءُ أقوى منه سَيَلانًا؛ ولهذا قال: ﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ لأنَّ الماءَ الغليظَ ليس مِثْلَ الماءِ الَّذي ليس فيه غِلْظَةٌ.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ﴾ إذا مشَيْنا على ما قال المُفَسِّر ففيه إشكالٌ كبيرٌ، وهو أنَّه يقتضي أنَّ تَسْوية آدَمَ بعد جعْلِ السُّلالَةِ من ماءٍ مهينٍ. وهذا خِلافُ الواقِعِ؛ يعني: تَسْوِيَة آدَمَ قبل أن تكونَ سلالَتُه من ماءٍ مهينٍ، فما هو الجوابُ عن هذا؟

الجوابُ من أحد وَجْهَيْنِ: إمَّا أن يُقالَ: إنَّ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ هذه جُمْلَة مُعْتَرِضَةٌ لبيانِ أنَّ آدَمَ الذي كان من طينٍ كان نَفْسُه من السُّلالَةِ، ثم عاد إلى آدَمَ فقال: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ﴾، وإمَّا أن يُقالَ: إنَّ هذا من بابِ التَّرتيبِ الذِّكْريِّ، وليس من باب التَّرتيبِ المَعْنَويِّ أو الوَقْتِيِّ، والتَّرتيبُ الذِّكْريُّ موجودٌ في كلام العَرَبِ، ومنه قولُ الشَّاعِر:

إنَّ مَنْ سادَ ثُمَّ سادَ أَبُوهُ ثُمَّ سادَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ جَدُّه[١]

وهذا التَّرتيبُ على خلافِ الواقِعِ، هذا أحَدُ الوَجْهَينِ.

وأمَّا إذا قُلْنَا: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ﴾ أي: النَّفْخ ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ كما قالَهُ بَعْضُ المُفَسِّرينَ، فالآيَةُ على التَّرتيبِ ليس فيها إشكالٌ، لكنْ هذا القولُ فيه إشكالٌ في قوله تعالى: ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ فإنَّ هذا الوَصْفَ خاصٌّ بآدَمَ؛ كما قال موسى له وهو يُحاجُّه: «أَنْتَ الَّذِي عَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ، وَأَرْسَلَ لَكَ مَلَائِكَتَهُ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ»[٢]، فظاهِرُه أنَّ هذا خاصٌّ بآدَمَ.

ولهذا، الوَجْهُ الأَوَّلُ أَوْلَى من هذا الوَجْهِ، وإن كان الوَجْهُ الأوَّلُ له قُوَّةٌ من حيث الترتيبُ بـ(ثُمَّ) لكنْ من حيث إنَّ نَفْخَ الرُّوحِ ما كان إلا في آدَمَ وفي عيسى كما هو معلومٌ، فإنَّه يدلُّ على أنَّ المرادَ بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ﴾ المراد به آدمُ، ويكون عَوْدًا على بَدْءٍ.

وقوله تعالى: ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ كَلِمَةُ ﴿مِن رُّوحِهِۦ﴾ مضافةٌ إلى الله، وفيها إشكالٌ؛ إذ إنَّ ظاهِرَها أنَّ آدمَ فيه شيءٌ من رُوحِ الله، فيكون جزءًا من الله، وهذا شيءٌ مُمْتَنِع مستحيلٌ، فمعنى الإضافَةِ إذن: إضافَةُ خَلْقٍ وتَشْريفٍ؛ كما قال تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ﴾ بيتي، وهل الكَعْبَةُ بيتٌ لله يَسْكُنُه؟

الجوابُ: لا، لكنَّه بيتٌ أضافَهُ الله عَزَّوَجَلَّ لنَفْسِهِ على سبيلِ التَّشْريفِ والتَّعظيمِ،

---

(١) البيت لأبي نواس الحسن بن هانئ، يمدح به العباس بن عبيد الله بن أبي جعفر. انظر: ديوانه ط. آصاف (ص:١٢٢)، خزانة الأدب (١١/ ٤٠).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام، رقم (٢٦٥٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وكما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١١٤] وكما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴾ [الشمس:١٣] فهذه الإضافَةُ على سبيلِ التَّشْرِيفِ والتَّعْظِيمِ لهذا الشَّيْءِ.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ أَيْ: جَعَلَهُ حَيًّا حَسَّاسًا بَعْد أَنْ كَانَ جَمَادًا].

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ﴾: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ﴾ هذا الْتِفاتٌ من الغَيْبة إلى الخطابِ؛ فإنَّه بدأ خَلْقَ الإنسانِ من طينٍ، ثم جعل نَسْلَه، كلُّ هذا غَيْبَةٌ، ثم سوَّاه: غَيْبة، ونَفَخ فيه من روحه: هذا غَيْبَة؛ ثم قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ﴾ هذا خِطابٌ.

والالتفاتُ له فوائِدُ:

الفائِدةُ الأُولَى: تنبيهُ المُخاطَب؛ لأنَّ الكلامَ إذا كان على وتيرة واحِدَة؛ ما حَصَل تَنَقُّلٌ، لكن إذا اختلف يَحْصُلُ التنقُّلُ سواء اختلف بعَوْدِ الضَّمائِرِ؛ كالانتقالِ من الغَيْبَة إلى الخطاب أو بالعَكْس، أو اخْتَلَف في شِدَّةِ الصَّوْت، فعندما يكون الإنسانُ كلامُه هادئًا على وَتيرَةٍ واحِدَةٍ لا يكون هناك انْتِباهٌ، لكن لو أتى بِزَجْرٍ في بعض الأَحْيانِ يَحْصُل الانتباهُ؛ فالالتفاتُ أو تغيُّر الخطابِ؛ كُلُّه يَحْصُلُ به الانْتِباهُ.

والفائِدَة الثانِيَة: تكونُ حَسَبَ السِّيَاق؛ إمَّا مثلًا الزيادةُ في التَّوبيخِ، أو الزِّيادَة في بيان النِّعْمَةِ، وما أشبه ذلك حَسَبَ السِّياقِ.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ﴾ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَكُمُ﴾ أي: لِذُرِّيَّته]، فالخطابُ لا شكَّ أنه للذُّرِّيَّة كما قال المُفَسِّر.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلسَّمْعَ﴾ قال المُفَسِّر [بمعنى الأَسْماعِ] وأوَّلَها إلى الأَسْماعِ؛

لأن ﴿لَكُمُ﴾ خطاب لِجَمْع، وإذا كان الخطابُ لجمْعٍ لَزِمَ أن يكون السَّمْعُ لكُلِّ واحِدٍ، فيكون جمعًا.

قال أهلُ اللُّغَة: وإنَّما أَفْرد السَّمْعَ وجَمَعَ الأبصار؛ لأنَّ السَّمْعَ مَصْدَرُ سَمِعَ يَسْمَعُ سَمْعًا، والمصدَرُ لا يُجمَعُ ولا يُثَنَّى، وإنَّما يبقى مُفردًا ويكون مُرادًا به الجِنْس، والأبصارُ جَمْعُ بَصَرٍ، وهو القوَّة الباصِرَة وليس مصدرًا؛ لأنَّ المَصْدَرَ إبصارٌ؛ أَبْصَرَ يُبْصِرُ إبصارًا؛ ولهذا جَمَع؛ حيث إنَّ المرادَ به الجِنْسُ.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ الأفئِدَة يعني [القلوب]، فذكر الله عَزَّوَجَلَّ طريقَ الفَهْم ومكانَ الفَهْم؛ فطريقُ الفَهْمِ هو السَّمْعُ والبَصَر؛ ومَحَلُّ الفَهْـم والوَعْي هو القَلْبُ؛ ولهذا يكون السَّـمْعُ والبَصَرُ كقَنَاتَيْنِ تَصُبَّان في القَلْب، فيتلقَّى ما يَسْمَع أو يُبْصِر ثم يَصبَّان في القلب، وهو مَحَلُّ الوعي والإدراك.

ولماذا لم يَذْكُرِ الشَّمَّ والذَّوْق واللَّمْسَ؟

الجوابُ: لأنَّ الاتِّعاظَ بالآيـاتِ يكـون بالسَّمْـعِ والبَصَر، وبـدأ بـالسَّمْعِ؛ لأَنَّه أَشْمَلُ وأعَمُّ؛ لأنك تَسْمَعُ ما لا تراه، ولما كان أَشْمَلَ وأعَمَّ كان الابتلاء به -والحمد لله- أقَلَّ، لو نَسَبْت الشَّمَّ إلى العمى لوجدْتَ النِّسْبَةَ قليلةً؛ لأنَّ الصَّمَمَ أَشَدُّ، فوجود السَّمْع أهَمُّ.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ [﴿قَلِيلًا مَّا﴾ ما: زَائِدَة مُؤَكِّدَة لِلْقِلَّةِ] ﴿قَلِيلًا﴾ مفعولٌ مُطْلَق يعني: تشكرون شُكْرًا قليلًا؛ يعني: مع هذه النِّعَم التي ساقها الله عَزَّوَجَلَّ منذ ابْتَدَأ خَلْقَ الإنسانِ إلى انتقالِهِ في الأَرْحام إلى خُرُوجه بالسَّمْع والبَصَر والقلب؛ مع هذه النِّعَم العظيمَةِ فالشُّكْرُ قليلٌ؛ أي:

تَشْكرونَ شُكْرًا قليلًا.

و(ما) هذه يقول المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [زائِدَةٌ مُؤَكِّدَة للقِلَّة] وهذا معروفٌ حتى في الأساليب العُرْفِيَّة الآن؛ تقول: (قليلًا ما...) يعني: توكيدٌ لهذه القِلَّة، فـ(ما) زائِدَةٌ.

من فوائد الآيات الكريمة:

يُسْتَفاد من قَوْلِهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ﴾:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: كمالُ خَلْقِ الله تعالى؛ لأنه أَحْسَنَه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ كلَّ مخلوقٍ خُلِقَ على ما يُناسِبُ حالَه، وَجْهُ الدَّلالة من الآية: أنَّه لو لم يكن الأَمْرُ كذلك لما كان إحسانُ خَلْقٍ، فإذا كان هذا كذا وضَمَمْتَها إلى آيةِ سُورَة طه وهي قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ﴾ يعني خَلْقه المناسِبَ له، ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه:٥٠] أي: هداه لمصالحه المناسِبَة له، فلو أنَّ هناك مسابقَةً في وظيفَةٍ فلا تُسابِقُ فيه البَقَرُ؛ فليس مِن شَأْنها، لكن لو أُلْقِيَ عَلَفٌ في زاوِيَةٍ من البيت تسابَقَت إليه؛ لأنَّ الله هدى كلَّ مخلوقٍ لما يناسِبُه.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تكذيب النَّظَرِيَّةِ الكاذِبَة، وهي نظريَّةُ دَارون الذي يقول: إنَّ الخَلْق نشأ بالتَّطَوُّر، وأنَّ أَصْلَ الإنسان قِرْدٌ، ثم صار على طول الزَّمَنِ إنسانًا، وعلى قاعِدَتِه لا ندري ماذا سيكون الإنسانُ على طول الزَّمَنِ؟! ولا شكَّ أنَّ هذه النَّظَرِيَّة باطِلَةٌ وكُفْرٌ بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ نأخذها من قوله تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ﴾ فلا أَصْدَق من هذه الآية شَيْء.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: تمامُ قُدْرَتِه تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ حيث خَلَق هذا الإنسانَ العجيبَ في خَلْقِه وفَهْمِه وتَدْبِيرِه وذكائِهِ من هذا الشَّيْءِ الجمادِ، وهو الطِّينُ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثباتُ أَفْعالِ الله الاختياريَّة التي تتعلَّقُ بِمَشيئَتِه؛ تُؤخَذُ من قوله تعالى: ﴿وَبَدَأَ﴾، فإنَّ البَدْءَ يكون عَنْ عَدَم.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ الإنسانَ حادِثٌ بعد أنْ لم يكنْ؛ لقوله تعالى: ﴿وَبَدَأَ﴾.

ويُسْتَفاد من قَوْلِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ هذا الإنسانَ الذي خُلِقَ من الطِّينِ له نَسْلٌ، وجعَلَ له نسلًا من أجل أن يبقى هذا النَّوعُ من المخلوقات؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الإنسان يُخْلَقُ من المَنِيِّ؛ لقوله تعالى: ﴿نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ والسُّلالَةُ هي الخُلاصَة، والماء المَهينُ هو المنيُّ، وعلى هذا فهو مَخْلوقٌ من مَنِيِّ الرَّجُلِ لا مَنِيِّ الأُنثى؛ لأنه ماءٌ من المَنِيِّ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: حكمة الله عَزَّوَجَلَّ لهذا الماء؛ حيث جَعَلَه على هذا الضَّعْفِ وعلى هذا النَّوْعِ من أجل حِفْظِ الحيوانِ المنويِّ؛ إذ لو كان سائلًا سُيُولَةَ الماء ما احتفظ بهذه الحيواناتِ، ولو كان غليظًا أَثْخَنَ من هذا لكان منه ضَرَرٌ على هذه الحيواناتِ، فربما تموتُ، ولكنَّ الله عَزَّوَجَلَّ جعله على هذا الوَضْعِ المُناسِب.

ويُسْتَفاد من قَوْلِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ...﴾ إلى آخره:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَكْمَلَ خَلْقَ الإنسانِ؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ﴾ ويؤيِّدُ ذلك قولُه عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:٤] وقوله تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر:٦٤].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الإنسانَ جِسْمٌ، ولا يكون إنسانًا إلا بالرُّوحِ؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: ومنها -وليس بذاك القويِّ-: أنَّ الرُّوحَ جِسْمٌ؛ لأنَّها تُنْفَخُ في هذا الجِسْم البائِدِ، وهو كذلك، فإنَّ الرُّوح جِسْمٌ لكنَّها جِسْمٌ لطيف لا يُرَى، مع أنَّ الملائِكَة تَقْبِضُه وتَجْعَلُه في الحَنُوط وتَصْعَدُ به إلى السَّماء، لكن نحن لا نراه عندما تَخْرُج رُوحُ الميِّت ونحن عنده.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: بيان نِعْمَةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على الإنسانِ بجَعْل السَّمْع والأَبْصارِ والأَفْئِدَة التي بها إدراكُ المعقولِ وعقله؛ فإدراكُ المَعْقولِ بالسَّمْع والبَصَر، وعقله بالقَلْبِ ووَعْيه.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ الإنسان قليلُ الشُّكْر؛ لقوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ كما أنَّ الشَّاكِرَ قليل أيضًا، فالشاكِرُ قليلٌ والقائِمُ بالشُّكْر على الوَجْهِ المطلوبِ قليلٌ؛ قال الله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣]، والشَّاكِرُ قليلٌ؛ لأنه من حيث الأفرادُ والأشخاصُ واحِدٌ في العَشْرة، وهذا قليلٌ، ونَفْسُ الواحِدِ هذا أيضًا شُكْرُه قليلٌ، فالشَّاكِرُ قليلٌ، وشُكْرُ الشَّاكِرِ أيضًا قليلٌ.

فقوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ هذا باعتبارِ شُكْرِ الشَّاكِرِ، وقوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ باعتبارِ الأَفْرادِ الشَّاكرينَ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: ذَمُّ من لا يَشْكُرُ؛ لقوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّه ينبغي للإنسانِ أن يكون شُكْرُه على حَسَبِ النِّعْمَةِ؛ ففي السَّمْعِ يَسْتَعْمِل السَّمْعَ فيما يُقَرِّبُ إلى الله ويَمْنَعُه عما حَرَّم الله، وكذلك في البَصَر؛

أما القَلْبُ فيجب عليه أن يُعْرِضَ بِقَلْبِهِ عن كلِّ ما حَرَّم الله، وأن يُقْبِلَ بقَلْبِهِ على كلِّ ما أَمَر الله به.

الآية (١٠)

• • ❁ • •

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ﴾ [السجدة:١٠].

• • ❁ • •

﴿وَقَالُوٓاْ﴾ قال المُفَسِّر [أي: مُنْكِرو البَعْثِ] قالوا: يريدونَ هذه الشُّبْهَةَ: ﴿أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ غِبْنا فيها بأنْ صِرْنا ترابًا مُخْتَلِطًا بتُرابِها] هذا معنى ﴿ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا﴾ يعني: غِبْنا فيها وصِرْنا ترابًا كسائِرِ التُّرابِ، فإذا حصل ذلك: ﴿أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭ﴾ اسْتِفْهامُ إنكارٍ؛ يعني: أَنكُونُ في خَلْقٍ جديدٍ بعد أن أَكَلَتْنَا الأرضُ وضَلَلْنا فيها؟! والاسْتِفْهامُ هنا إنكارِيٌّ؛ يعني: لن نكون ذلك، هذه الشُّبْهَة.

وهل هي حُجَّةٌ أم غير حُجَّةٍ؟

الجوابُ: ليست بحُجَّةٍ؛ لأنَّنا نقول: أنتم خُلِقْتُم من تراب، والذي خلقكم أوَّلًا من تراب قادِرٌ على أن يُعيدَكُم ثانيًا من هذا التُّراب؛ ولهذا جاءت هذه الآيةُ بعد ذِكْرِ خلْق الإنسانِ من طين.

وقوله تعالى: ﴿أَءِذَا ضَلَلۡنَا﴾: (إذا) هذه شرطِيَّةٌ، جوابها مفهومٌ من الجُمْلَة بعدها؛ يعني: أإذا ضَلَلْنا في الأرض نَنْشَأُ خَلْقًا جديدًا؟! وقولهم: ﴿أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭ﴾ يعني: أَيَتَأَكَّدُ أنّنا في خلقٍ جديدٍ.

وَلِهَذَا لَوْ قَالَ قَائِلٌ: إذا كانَتِ الجُمْلةُ الاسْتِفْهامِيَّة هنا للإنكارِ، فكيفَ تأتي اللَّامُ الدَّالَّةُ على التَّوْكيدِ ﴿أَءِنَّا لَفِى﴾؟

نَقُول: المراد يُنْكِرونَ أن يتأكَّدَ ذلك، يعني: أيتَأَكَّدُ أَنَّنا في خلقٍ جديدٍ بعد أن تأْكُلَنا الأَرْضُ، وهو كقولِ إِخْوةِ يُوسُفَ: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ﴾ [يوسف:٩٠].

فالمُهِمُّ: أنَّ هذا التَّأْكيدَ كأنَّهم يُنْكِرونَ ما أُكِّدَ من كَوْنِهم يُرْجَعونَ ﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَفِى خَلْقٍ﴾ هل الخَلْقُ هنا بمعنى المَخْلوقِ؛ يعني: أَإِنَّا لَنكونُ في أُمَّة جديدة، أو أنه مَصْدَرٌ بمعنى التَّقريبِ؛ يعني ﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ﴾ أي: لأن يَخْلُقَنا الله؟

يحتمل المعنيينِ، وكلاهما صحيحٌ ولا يَتَعارضانِ، يعني أَنَكُونُ في خلقٍ جديدٍ وأمَّةٍ جديدة، أو أَنُخْلَقُ خَلقًا جديدًا بعد أن ضَلَلْنا في الأَرْض وكنَّا ترابًا؟!

والجوابُ: وما ذلك على الله بِعَزيزٍ، فالذي أنشأَكُم من التُّرابِ قادِرٌ على أن يُعيدَكُم منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ حتى لو فَنِيَ الإنسانُ كلُّه، مع أنه ورد في الحديث أنه «يَفْنَى كُلُّهُ إِلَّا عَجَبَ الذَّنَبِ»[1] فإنَّه منه يُخْلَقُ الإنسانُ كالنَّواةِ بالشَّجَرة، فيُسْتَثْنى من ذلك الأنبياءُ عليهم الصَّلاة والسَّلام؛ فإنَّ الله حرَّم على الأرضِ أن تأكُلَ أجسادَ الأنبياءِ، وهذا دليلٌ على قُدْرَة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وإلَّا فالأنبياءُ بَشَرٌ؛ لأنَّهم خُلِقُوا أصلًا من ترابٍ، لكن الآن من لَحْم وعَظْم وجِلْد كسائر بني آدَمَ، ومع ذلك الأَرْضُ لا تأكُلُ منهم شيئًا أبدًا، أمَّا غير الأنبياءِ فإنَّها تأكُلُهُم، لكن قد يَحْمي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، رقم (٤٩٣٥)، ومسلم: كتاب الفتن، باب ما بين النفختين، رقم (٢٩٥٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بَدَنَ بَعْضِ النَّاس لا تأكله الأَرْض؛ على نوعٍ من الكرامَةِ.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ فيها قراءَةٌ: بتحقيقِ الهَمْزَتين، وتسهيل الثانيةِ، وإدخال أَلِفٍ بينهما على الوَجْهَين في الموضعَيْنِ، وحصار عجيب، وفي تحقيق الهمزتين في الموضعين فيُقْرَأ: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ هذا التَّحْقيقُ، وإدخالُ ألف بين هَمْزَتين محقَّقتَيْنِ: (آإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ آإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيد) هذا إدخالُ الأَلِف، فعندنا ثلاثَةُ ألفاتٍ؛ وتسهيل الثانية (أَيِذَا) لا تجعلها مُحَقَّقة بل بين الهمزة والياء: (أإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْض) بدون ألف، وبألف (أَاِذَا) لا تُبَيِّنْ هذا، واجعلها بين الهمزة والياء، إذن فالقراءاتُ أَرْبَعٌ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ بالبعث ﴿كَٰفِرُونَ﴾] يعني: ﴿بَلْ﴾ هنا للإضراب الإبطاليِّ؛ يعني: بل الأَمْرُ ليس كما شَبَّهوا ولبَّسُوا، فهم يعلمون قُدْرَة الله لكنَّهم جاحدون: ﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ متعلِّقٌ بـ﴿كَٰفِرُونَ﴾ و﴿كَٰفِرُونَ﴾ خبرُ المبتدأ ﴿هُم﴾ أي: بل هم كافرون بلقاءِ ربِّهم أو بملاقاتِهِ. ومتى تكون الملاقاةُ؟

الجوابُ: تكون بالبَعْثِ، ومن كذَّبَ بلقاءِ الله فقد كفر بالله؛ ولهذا قال المُفَسِّر مفسِّرًا لها بالمراد لا بالمعنى؛ قال: [بالبعث] وإلَّا فهي أخصُّ من البـعْث؛ فاللِّقاءُ بمعنى الملاقاةِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق:٦] الإنسانُ أيُّ إنسانٍ ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الانشقاق:٧] إلى آخره.

فهؤلاء الكافرونَ بلقاء الله؛ لأنَّهُم لا يؤمنون بالبَعْثِ، ومن لم يُؤْمِنْ بالبَعْث لم يؤمِنْ بلقاءِ الله.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: توبيخُ هؤلاءِ المُنْكِرينَ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ هؤلاء المكَذِّبينَ كانوا شاكِّينَ في قُدْرَةِ الله؛ لقولهم: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا ٱفْتَرَىٰهُ... أَءِنَّا﴾ ويُحْتَمَل أن يكون ذلك منهم مكابَرَةً وأنَّهُم عالِمون بقُدْرَة الله، لكن يُكابِرون، ويُؤَيِّد هذا قوله تعالى: ﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ﴾ يعني أنَّ الأَمْرَ واضِحٌ لكنْ هؤلاء كُفَّارٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تمامُ قُدْرَة الله عَزَّوَجَلَّ بإعادَةِ الأَمْواتِ بعد أن غابوا في الأَرْض واضمحَلُّوا فيها، فيُنْشِئُهُم الله تعالى خلقًا جديدًا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إبطالُ قَوْلِ من يقول: إنَّ البَعْثَ إيجادٌ مِن عَدَمٍ؛ فإن هناك من يقولُ: إنَّ هذا الخَلْقَ يُعْدَم بالكُلِّيَّة ثم يُنْشَأُ من جديدٍ، وهذا قولٌ باطِلٌ؛ لأنه لو كان الأَمْرُ كذلك لكان الثوابُ لمن لا يَعْمَلُ، والعُقوبة على من لم يَعْمَلْ، ولو قلنا إنَّه يُعْدَمُ بالكلِّيَّة ثم يُنْشَأُ خَلْقًا جديدًا ويُحاسَبُ، فهذا الجديدُ ليس موجودًا بالأَوَّلِ فيكون معاقَبًا على ما لم يَفْعَلْ ومُثَابًا بما لا يَفْعَلُ؛ والله تعالى قد بَيَّنَ أنَّ الإنسانَ نَفْسَه هو الذي يُعادُ وليس يُعْدَمُ ثم يُخْلَقُ من جديدٍ، ولكنَّه يُعادُ، ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ فلم يَقُلْ نَخْلُق غَيْرَه.

والشَّاهِدُ قَوْلُه: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا﴾ يقولون: كيفَ بعدما نَغيبُ في الأَرْضِ ونكون ترابًا كيف نُبْعَث؟! فدلَّ هذا على أنَّ البَعْثَ هو إعادةُ ما سَبَقَ وليس باستدعاءِ خَلْقٍ جديدٍ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ هؤلاء المُنْكِرينَ للبَعْثِ ليس عندهم حُجَّةٌ إلا مُجَرَّد الكُفْرِ؛

لقوله تعالى: ﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثباتُ ملاقاةِ الله عَزَّوَجَلَّ يومَ القِيامَةِ؛ لقوله تعالى: ﴿بِلِقَآءِ﴾ ومِثْلُه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق:٦].

• ● ❁ ● •

الآية (١١)

قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة:١١].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قُلْ﴾ لهم ﴿يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ أي: بِقَبْضِ أرواحِكُم] ﴿يَتَوَفَّىٰكُم﴾ يَقْبِضُكُم، كما تقول: توفَّيتُ حقِّي من فلانٍ؛ أي: طَلَبْتُه وكذلك استوفَيْتُه؛ أي: قَبَضْتُه على سبيل الوفاء وهو الكمالُ، فمعنى يتوفَّاكُم أي يَقْبِضُكم، والمراد قَبْضُ الأَرْواح.

وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ مَلَكُ: مُفْرَد ملائكَةٍ، أو مُفْرَدُ أَمْلاك، وهو مُشْتَقٌّ من الأَلُوكَةِ بمعنى الرِّسالَةِ، وعلى هذا فأصْلُه مَأْلَكٌ، ثم حُوِّل فقُدِّمَتِ اللّام وأُخِّرَت الهمزةُ، فكانت (مَلْأَك) ثم خُفِّفَ فحُذِفَتِ الهمزةُ فصار: مَلَكًا؛ ولهذا إذا جُمِع جاءت الهمْزَة فقيل: ملائكة، ولا يقال: مَأَلِكَة؛ لأنَّ فيه إعلالًا بالتَّحويلِ؛ يعني: تقديم وتأخير وهو من الأَلُوكَة؛ أي: الرِّسالة؛ فمَلَكُ الموتِ معناه الذي أَرْسَلَه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لقَبْضِ الأرواح؛ كما قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام:٦١].

وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ أُضِيفَ إلى الموت؛ لأنه يُميتُ النَّاسَ بإذن الله، فسُمِّيَ مَلَكَ الموت، وقد سُمِّيَ في بعض الآثارِ بعِزْرَائِيلَ، ولكنَّه لم يَصِحَّ

عن رسول الله ﷺ؛ وقد صَحَّ من أسمائهم: جِبْرائِيلُ ومِيكائيلُ وإِسْرافيلُ(١) ومالِكٌ خازِنُ النَّارِ ورِضْوانُ خازِنُ الجنَّة(٢).

وعلى كلِّ حالٍ: عِزْرائيلُ لم يَثْبُت عن الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ على الرَّغْمِ أنَّ هذا الاسم أشْهَرُ أسماءِ الملائكة عند العامَّة.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ وكَّلَهُ الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا التَّوْكيلُ ليس توكيلًا لحاجَةٍ، ولكنَّه توكيلُ سُلْطانٍ وعظمة؛ لأنَّ الرَّبَّ عَزَّوَجَلَّ لا يحتاج إلى أحد يُعِينُه، وَكُلُّ من وُكِّلَ مِنَ الملائكة بشيءٍ فَلَيْسَ ذلك على سبيل الحاجَةِ، أمَّا أنا إذا وَكَّلْتُ أحدًا فقد أكون محتاجًا إلى هذا؛ لأنَّني لا أستطيع مُباشَرَةَ العمل، لكِنْ ربُّنا عَزَّوَجَلَّ لا يحتاج، وإذا أراد شيئًا قال له كُنْ فيكونُ، لكنَّه يُوكِّلُ ذلك توكيلَ سُلْطانٍ وعَظَمَة؛ لبيان سُلْطانه وعَظَمَتِه، وأنَّ كلَّ شيء في خِدْمَته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وفي عبادته.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ أي: وَكَّلَه الله؛ إذن الله وَكيلٌ ومُوَكِّلٌ؛ قال تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب:٣] ومُوَكِّلٌ كما في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا﴾ [الأنعام:٨٩] وهنا قال: ﴿ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ ولكنْ ليس كونُه وكيلًا بمعنى أنه مُتَوَكِّل لغيره، والمُوَكِّل أعْلى منه كما هو مَعْهودٌ، ولكنَّه وكيلٌ بمعنى رَقيب على عباده مُهَيْمِن عليهم.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ هنا مُفْرَدٌ ﴿يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ﴾ وفي آية أخرى في سورة الأنعام ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ فقال: ﴿رُسُلُنَا﴾ فجمَعَ،

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم (٧٧٠)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه الدارقطني في جزء رؤية الله رقم (٦٤)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وفي آيـة أخرى قال تعـالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ في الزُّمَر، فكيف نَجْمَعُ بين هذه الآيات الثَّلاثِ؟

الجوابُ: جمع أهل العلم بينهُنَّ: بأنَّ قولَه تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ ﴾ هذا هو الأَصْلُ، أما المتوفِّي هو الله لأنَّه المُدَبِّر، المدبِّرُ للشيء، والمدبِّرُ للشيء فاعلٌ له؛ كما تقول: بنى المَلِكُ قصرًا للحُكْم؛ فهل يعني ذهب وجاء بالزنبيل وجاء بالفاروعِ، وجاء بالمِسْحَاة، وجاء بالماءِ وجَهَّز الطينَ وحمل على مَتْنِه ليبنِيَ؟

الجوابُ: ليس المعنى كذلك؛ إذن معنى بناه؛ أي: أَمَرَ ببنائِهِ، لكنْ لما كان هذا البناءُ لا يتِمُّ إلا بأَمْرِه أُسْنِدَ إليه؛ فالله تعالى يتوفَّى الأَنْفُسَ فلا يكون تَوَفِّيها إلا بأمره، فأُسْنِدَتِ الوفاةُ إليه.

أما قوله تعالى: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ وقوله تعالى: ﴿يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ فإمَّا أن يقال: إنَّ مَلَكَ الموت هنا مفردٌ مضاف، وهذا له وَجْهٌ في اللُّغَة العربِيَّة، لكن ليس بصحيحٍ من ناحِيَة الواقِعِ، ولكنَّ الواقِعَ أن مَلَكَ الموتِ له أعوانٌ، له أعوانٌ قَبْل قَبْضِ الرُّوح، وأعوانٌ بَعْد قَبْضِ الرُّوح؛ فالأعوانُ قبل القَبْضِ يسوقونَ الرُّوحَ من البَدَن حتى تَصِلَ إلى الحُلْقُومِ ثم يَقْبِضُها، وأعوانٌ بعد ذلك إذا قبضها فهناك ملائِكَةُ الرَّحمة تنتظِرُ هذه الرُّوحَ بالكَفَنِ الذي من الجَنَّة فلا يَدَعُونَها في يده طَرْفَةَ عين حتى يَقْبِضوها ويَجْعَلوها في ذلك الكفَنِ، وإن كان الإنسانُ بالعَكْس -والعياذ بالله- فيكون عنده ملائِكَةُ العذابِ، معهم كفنٌ من نار لا يَدَعُونها في يده طَرْفَةَ عينٍ.

فيكون هنا المرادُ: الجمع بينهما: أنَّ إسنادَ الوفاة إلى الرُّسُل إلى الملائكة وهم جَمْعٌ؛ لأنَّهُم أعوانُ مَلَكِ الموتِ، فكان لهم نَوْعُ مُشارَكَةٍ في هذا الفعل، ومَلَكُ الموت هو الذي يقبضها إذا بلغت الحُلْقُومَ، وبهذا الجَمْعِ يزول الإشكالُ.

ونحن قد بيَّنَّا كثيرًا أنَّ القرآنَ والسُّنَّة ليس فيهما تعارُضٌ، قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا﴾ [النساء:٨٢] لأنه إذا رَأَيْتَ في شيء منهما تعارضًا فاعلم أن ذلك من سُوءِ فَهْمِك أو قِلَّة عِلْمِك، فتَدَبَّرْ وتَعَلَّمْ حتى يتبيَّنَ لك الأمرُ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: وما الجوابُ عن قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾؟

فالجوابُ: لكنَّ الذي يتولى إخْراجَها مباشَرَةً من عند الحُلْقُوم هو مَلَكُ الموتِ، ثم هؤلاء الملائِكَةُ الباسطونَ أيديهم، إن كان أنَّهُم الذين يَنْتَظِرون قَبْلها فهم يَنْتَظِرون قبل أن يَأْخُذَها منه، وإن كان الآخرونَ الذين يُخْرِجونها حتى تَصِلَ إلى الحُلْقُوم فكذلك، وليس هناك مُشْكِلَةٌ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ [﴿ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ أي بِقَبْضِ أَرْواحِكُم] يعني: لم يُوَكَّل بنا في كُلِّ شيء، ولكنَّه وُكِّلَ بنا بِقَبْض الأرواح فقط، لكنْ هناك ملائِكَةٌ مُوَكَّلونَ بنا في حِفْظ أعمالنا وفي حِفْظنا أيضًا، وكذلك ملائِكَةٌ موكَّلون في أعمالنا يجوبون الأرضَ وينظرون مجالِسَ الذِّكْرِ فَيَجْلِسون فيها.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ أحياءً فيُجازيكُم بأَعْمالكم] يعني بعد الموتِ يَرْجِعُ الإنسان إلى ربِّه فيُجازَى بِعَمَلِه إنْ خَيْرًا فخَيْرٌ، وإنْ شَرًّا فشَرٌّ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ الذي يتولَّى قَبْضَ الأَرْواحِ مَلَكُ الموتِ؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثباتُ الملائِكَةِ؛ لقوله تعالى: ﴿مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ والملائِكَةُ عالَمٌ غَيْبِيٌّ

خَلَقَهم الله تعالى من نور، وجعلهم من السَّامعين المطيعينَ له، وأَقْدَرَهُم على فِعْلِ المأمورِ؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء:١٩] وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء:٢٠] وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦] لكمالِ الامتثالِ وكمالِ القُدْرَة.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تمام تنظيمِ الله عَزَّوَجَلَّ للأُمُورِ وإحكامه لها؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ فإنَّ كلَّ مَلَكٍ مُوَكَّلٌ بِشَيءٍ من الأشياء لتمامِ النِّظَامِ وإِحْكَامِهِ وإِحْسانِهِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: عَظَمَةُ سُلْطانِ الله؛ تُؤخَذُ من قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ وقد سبق لنا: أنَّ هذا التَّوْكيلَ ليس عَجْزًا من الله عَزَّوَجَلَّ ولكِنَّه نظامُ سُلْطَانِهِ وعظَمَتِه.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثباتُ الرُّجُوعِ إلى الله؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾، ويُؤْخَذُ منه إثباتُ الجَزاءِ؛ لأنَّه هذا هو المقصودُ مِن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾.

• • ۞ • •

الآية (١٢)

قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة:١٢].

• • ● • •

قول المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ الكافرون ﴿نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ﴾ مُطَأْطِئُوها حياءً، يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا﴾ ما أَنْكَرْنا من البَعْثِ ﴿وَسَمِعْنَا﴾ منكَ تَصْدِيقَ الرُّسُل فيما كذَّبْناه فيك، ﴿فَٱرْجِعْنَا﴾ إلى الدُّنْيا ﴿نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ فيها ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ الآنَ].

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ الخطابُ في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ إمَّا للرَّسول ﷺ، وإمَّا إلى كُلِّ من يتوجَّهُ إليه الخطابُ، وهذا المعنى أعَمُّ والأَخْذُ به أَوْلى؛ لعمومه؛ ولهذا الخطاباتُ التي تأتي للمُفْرَدِ في جميع القرآن الأَوْلَى أن تُحمَل على العموم وأن يُرادَ بها كُلُّ من يتوجَّه إليه الرَّأيُ، إلا إذا منع من ذلك مانِعٌ، فتكون خاصَّةً بالرَّسُولِ ﷺ.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾: (لو) هذه شرطِيَّة، و(لو) الشَّرْطيَّة تحتاجُ إلى شَرْط وإلى جواب الشَّرْطِ؛ فالشَّرْطُ قوله تعالى: ﴿تَرَىٰٓ﴾ والجوابُ محذوفٌ تقديرُهُ: لَرَأَيْتَ أَمْرًا فظيعًا.

وقوله تعالى: ﴿إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ﴾: ﴿إِذِ﴾ هذه ظَرْفٌ؛ يعني:

لو ترى ذلك الوَقْتَ الذي فيه المُجْرِمون على هذا الوَصْفِ لرَأَيت أمرًا مُوجِعًا فظيعًا، وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ مبتدأٌ، و﴿نَاكِسُواْ﴾ خبرٌ، والنُّونُ التي في (ناكِسُونَ) حُذِفَتْ لأَجْلِ الإضافَةِ.

وقوله تعالى: ﴿نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ﴾ أي: مُطَأْطِئُوها؛ يعني: خافِضُوها، والعياذُ بالله.

وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يعني: عند الله عَزَّوَجَلَّ وَهُم بين يديه يومَ القيامَةِ، ولكن ناكِسُوها، يقول المُفَسِّر [حياءً] وفي النَّفْسِ من هذا التَّفْسيرِ شيءٌ، ولَكِنَّ الظَّاهِرَ أَنَّهُم ناكِسُوها ذُلًّا وخُضُوعًا لسلطانِ الله؛ بدليل قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا﴾ أمَّا حياءً فالحياءُ محمودٌ، لكنْ كَوْنُهم يَنْكسونها ذلًّا هذا هو الواقِعُ: ﴿نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ذلًّا؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى:٤٥].

وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا﴾ جملة: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا﴾ مقولٌ لِقَوْلٍ محذوفٍ؛ تقديره: يقولون ربنا أَبْصَرْنا، يعني يا رَبَّنا، ونادَوُا الله تعالى باسم الرُّبُوبِيَّة؛ لأنَّ الغالِبَ أنَّ الجُمَل الدُّعائِيَّة تأتي مُصَدَّرَة برَبٍّ؛ لأنَّ (رب) هو المالِكُ المتصَرِّفُ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا﴾ ما أَنْكَرْنا من البعْثِ] هذا ما قاله المُفَسِّر؛ وعليه فيكون مفعولُ أبْصَرْنا محذوفًا، والتَّقْديرُ: ما أَنْكَرْنا من البَعْثِ.

ويُحْتَمَل أنَّ ﴿أَبْصَرْنَا﴾ هنا أي: حَضَرَت أَبْصارُنا وبصائِرُنا، فيكون أعَمَّ مما قدَّرَه المُفَسِّر؛ يعني: صِرْنا ذَوِي بَصَر وبصيرة الآن، فيكون أعَمَّ؛ يعني كأَنَّهُم يقولون: الآن صِرْنا ذَوِي بَصَر وبصيرة، وهذا المعنى أعَمُّ وأَبْلَغ.

وكذلك (سَمِعْنا) يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [(سَمِعْنا) منكَ تَصْديقَ الرُّسُلِ فيما كذَّبْناهم فيه] لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [يس:٥٢] ولكن أيضًا هذا الذي قال المُفَسِّر لنا فيه وجْهٌ أحْسَنُ مما قال؛ فيكون معنى ﴿سَمِعْنَا﴾ أي كنا ذوي سَمْع الآن؛ ولهذا يقولون: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ﴾ يعني فيما مضى ﴿أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك:١٠] أمَّا في يوم القيامة فيقولون: الآنَ صِرْنا ذَوِي بصر، وصِرْنا ذَوِي سَمْع.

وقوله تعالى: ﴿فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ﴾ ارْجِعْنا إلى الدُّنيا، وهو فِعْلُ طَلَبٍ أو دعاء، وليس فِعْلَ أمرٍ؛ لأنَّ المخلوقَ لا يوجِّه أمرًا إلى الخالِقِ، وقوله تعالى: ﴿نَعْمَلْ﴾ هذا جوابُ الطَّلَب مجزومٌ؛ يعني: إن تَرْجِعْنا نَعْمَلْ صالحًا.

وقوله تعالى: ﴿نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ يعني عملًا صالحًا، والعَمَلُ الصَّالح تقدَّم كثيرًا أنَّه ما جمع شرطينِ؛ هما: الإخلاص لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والمُتابَعَة للرَّسول ﷺ.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ الآن، فما يَنْفَعُهُم ذلك ولا يَرْجعون] معلومٌ أنه لا يَنْفَعُهم، إذا شاهدوا العذابَ فإنَّ الإيمانَ لا يَنْفَعُهم؛ فكُلُّ من شاهَدَ العذابَ فإنَّه لا ينفعه الإيمانُ؛ قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ﴾ [غافر:٨٤] قال الله تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [غافر:٨٥] ولا أَحَدَ ينفَعُه إيمانُه بعد العذابِ إلا قَرْيَة واحِدَة وهم قومُ يونُس؛ لَمَّا آمنوا كَشَفَ الله عنهم العذابَ؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ فالآن شاهَدَ العذابَ فلا يَنْفَعُ؛ ولهذا يَجِبُ على الإنسانِ أن يبادِرَ عُمُرَه قبل أن يَحِلَّ به أَجَلُه فلا يستطيعُ الخلاصَ.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ جاء بالجُمْلَة الاسمِيَّة الدَّالَّةِ على الثُّبُوتِ والاسْتِمْرار ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ الآن؛ لكن لا يَنْفَعُ، ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه؛ قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٧) بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ وهذا خبرُ الله عَزَّوَجَلَّ والذي لا يَكْذِبُ ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام:٢٧-٢٨].

والمراد الكُفَّارُ، أمَّا الفُسَّاقُ فليسوا دائمين في النَّارِ؛ فعذابُهم بقَدْر أَعْمالهم، ثم إنَّهم يَدْخُلون الجنَّةَ، والفُسَّاقُ يَعْبُرونَ الصِّراطَ ولا يُذْهَبُ بهم إلى النَّارِ مباشرة، بل يَعْبُرون الصِّراطَ ثم يَتَساقطُون في النَّارِ بِحَسَبِ أَعْمالهم.

قال المُفَسِّر: [وجوابُ (لو): لَرَأَيْتَ أَمْرًا فظيعًا] يعني: الجوابُ محذوفٌ.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: ما هي الحِكْمَةُ في حَذْفِ الجواب؟ ولماذا لا يُذْكَرُ من أجل أَلَّا يكونَ هناك اختلاف؟ وما هي الحِكْمَة في الإبهامِ في قوله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه:٧٨]؟ ولماذا لا يُذْكَرُ لأنَّه أَبْيَنُ؟

الجوابُ: أنَّه في مقام التَّهويل ينبغي الإبهامُ؛ لأجل أن يَذْهَبَ الذِّهْنُ كلَّ مَذْهَبٍ في تعظيم الأَمْرِ وهَوْلِه؛ لأنَّه إذا ذُكِرَ الشَّيْء قد يهونُ؛ فلو قيل لك: والله هناك سَبُعٌ عظيم يأكل النَّاسَ ويفعل ويفعل ويفعل! وهوَّلَ لديك وأنت لم تَرَهُ فسيكونُ عندك رُعْبٌ، لكنْ ربَّما إذا رأيته يَهُون عليك الأَمْر؛ كذلك مِثْلُ هذه الأمور العظيمة؛ إذا أَبْهَمَها الله فإنَّها أعظم وأَوْقَع في النَّفْس وأَشَدُّ وأَعْظَمُ؛ ولهذا حُذِفَ الجوابُ هنا، وأُبْهِمَ الغاشي في قوله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ وأُبْهِمَتِ الحاقَّة والقارعة في مثل: ﴿الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ [الحاقة:١-٣]، ﴿الْقَارِعَةُ (١) مَا الْقَارِعَةُ﴾ [القارعة:١-٢] وما أشبه ذلك، وكلُّ هذا من باب التَّعظيمِ والتَّهويلِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: في هذا بيانُ فَظَاعَةِ ما يَحُلُّ بالكافرينَ يَوْمَ القيامَةِ؛ يؤخَذُ من قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ والمُقَدَّرُ جوابُها: لَرَأَيْتَ أَمْرًا فظيعًا.

الْفَائِـدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ هؤلاءِ المُجْرِمين المُسْتَكْبِرينَ في الدُّنْيـا الرَّافِعي رُؤُوسِهم ستكونُ حالُهُم في يوم القِيامَةِ على العكس من ذلك؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ﴾؛ وقـد قال المُفَـسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [حياءً] والصَّواب: أنه ذلًّا وعـارًا وخِزْيًا، والعياذُ بالله.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ المجرمينَ يومَ القيامة يُقِرُّونَ بالحَقِّ؛ تُؤخَذُ من قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا﴾ ولكن لا ينفعُ هذا بعد أن شاهد الإنسانُ الجزاءَ، فلا يَنْفَعُه أن يتوبَ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ هؤلاءِ يَطْلبونَ الرَّجْعَة إلى الدُّنْيا؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا﴾.

ويتفَرَّعُ عليها: أنَّ الآخِرَة قد يكون فيها شيءٌ من العباداتِ؛ لأنَّ الدُّعاءَ من العبادَةِ وهم يَدْعُونَ الله، وعليه فمن نفى أنَّ الآخِرَةَ دارُ عَمَل فإنَّ نَفْيَه على سبيل العُمُومِ فيه نَظَرٌ ظاهِرٌ، فإنَّ الآخِرَة قد يكون فيها تكليفٌ؛ قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ وَيُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ [القلم:٤٢].

مسألة: التَّكليفُ في الآخِرَةِ هل يكونُ عليه ثوابٌ؟

الجوابُ: نعم، ولهذا أَهْلُ الفترة يُكَلَّفُون في الآخِرَة، فمن أطاع منهم دخلَ الجَنَّة ومن عصى دخل النَّار.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ هؤلاء المكَذِّبينَ يُوقِنونَ بالعَمَل في الآخِرَة؛ لقولهم: ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إقرارُهُم على أَنْفُسِهِم بأنَّ عَمَلَهم السَّابِقَ ليس بصالِحٍ، تُؤْخَذُ من قوله تعالى: ﴿نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا﴾؛ لأنَّهُم كأنَّهُم بالأَوَّلِ لا يَعْمَلون صالحًا.

• • ۞ • •

الآية (١٣)

• قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [السجدة:١٣].

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾ اللهمَّ اهْدِنْا فيمن هَدَيْتَ! قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾ فتهتدي بالإيمانِ والطَّاعة باختيارٍ منها].

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا ﴾ الضَّميرُ يعودُ على الله عَزَّوَجَلَّ، وأتى بضميرِ الجَمْع تعظيمًا.

فإذا قال النَّصرانيُّ: الآلِهة ثلاثةٌ؛ ولهذا قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا ﴾ وهنا للجمْع؛ هاتوا لنا دليلًا يُخرِج هذا اللَّفْظَ عن معناه، وإلا فالصَّوابُ مَعَنا، وأنتم أيُّها الموحِّدون على ضلالٍ، وإلا لقال الله: ولو شِئْتُ؟

فالجوابُ: أنَّ هذا من باب التَّشْبيهِ والتَّلبيسِ، وإلَّا فارْجعْ إلى قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة:١٦٣] فيكون قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا ﴾ من باب التَّعْظيم، والله تعالى عظيمٌ بصفاته، فكلُّ صِفَةٍ منه من صفاته تقتضي عظمةً غيرَ ما تقتضيه الصِّفَةُ الأخرى، وباجتماعِ هذه الصِّفات يكون هناك عِظَمٌ أعْظَمُ وأَجَلُّ.

وقوله تعالى: ﴿لَآتَيْنَا﴾ هذا الجوابُ الأوَّل، و﴿لَآتَيْنَا﴾ أَعْطَيْنا؛ ولهذا نَصبَتْ مفعولينِ: المفعولُ الأوَّل: ﴿كُلَّ نَفْسٍ﴾؛ والثَّاني: ﴿هُدَاهَا﴾ والهُدى بمعنى الدَّلالَة والتَّوفيق؛ ولهذا قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [فتَهْتَدي بالإيمانِ والطَّاعة] ولو شاء الله تعالى لفَعَلَ كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في آيات أخرى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ [هود:١١٨-١١٩]؛ فالله عَزَّوَجَلَّ لو شاء لجَعَلَ النَّاسَ أمَّةً واحِدَةً على الإيمان والتَّوحيدِ والاستقامَةِ، ولكن حِكْمَةُ الله تأبى ذلك لأسبابٍ كثيرةٍ؛ منها: أنه جَلَّوَعَلَا قال للنَّارِ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾؛ فقال: ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ وهذا قَسَمٌ وتَعَهُّدٌ من الله عَزَّوَجَلَّ للنَّارِ أن يَمْلأَها: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ﴾، ولو كان النَّاس أمَّة واحدةً على التوحيد ما صَدَق هذا.

فإذَن: لا بدَّ أن يَصْدُق، واعلم أنه لو كان النَّاسُ أمَّةً واحدةً على التَّوْحيدِ هل يتَميَّز المؤمِنُ من الكافِرِ؟ لا؛ فكلُّهم واحِدٌ، فلا امتحان ولا اختبار، ولو كان النَّاسُ أمَّةً واحدةً على التَّوحيد لانسَدَّ بابُ الأمْرِ بالمعروفِ والنَّهْيِ عن المُنْكَر، والسَّببُ أنه ليس هناك مُنْكَرٌ قد يحتاج إلى نَهْيٍ عن المُنْكَرِ، ولو كان النَّاسُ على أمَّةٍ على التَّوْحيدِ لبَطَلَ الجهادُ، أو فمَنْ نُجاهِدُ؟ لا أحد.

المُهِمُّ: أنَّ هناك حِكَمًا كثيرةً في كون الله عَزَّوَجَلَّ جَعَلَ النَّاسَ على قِسْمين؛ ولهذا قال هنا: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾: ﴿حَقَّ﴾ بمعنى وَجَبَ وثَبت، و﴿الْقَوْلُ﴾ فاعلٌ و﴿مِنِّي﴾ متعلِّقٌ بمحذوفٍ حالٌ من القَوْلِ، ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ﴾ حالَ كَوْنه صادرًا ﴿مِنِّي﴾ وهذا القولُ هو: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ﴾ الجنِّ ﴿وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ وهنا الفِعْلُ ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ مؤكَّدٌ بالنُّون وباللَّام وبالقَسَمِ المقدَّر، والتَّأْكيد هنا واجِبٌ

من النَّاحِيَة النَّحْوِيَّة؛ واجبٌ لأنه في قَسَمٍ مُثْبَتٍ مُسْتَقْبَلٍ لم يُفْصَلْ بينه وبين لامِهِ بفاصِلٍ.

وقوله تعالى: ﴿جَهَنَّمَ﴾ هذا اسْمٌ من أسماءِ النَّار، قيل: إنَّها عَرَبِيَّة، والنُّون فيها زائدة وأنَّها من الجَهْمِ أو من التَّجَهُّم وهو الظُّلْمَة، وقيل: إنَّها اسمٌ مُعَرَّب وليس بعَرَبِيٍّ، ولكنَّه مُعَرَّب، وعلى كل الأحوالِ فالمرادُ بها النَّار، نسألُ الله العافِيَةَ!

وقوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾: ﴿ٱلْجِنَّةِ﴾ هي الجِنُّ، و﴿وَٱلنَّاسِ﴾ بنو آدمَ ﴿أَجْمَعِينَ﴾ فتُمْلَأُ من هؤلاء وهؤلاء، وأيُّهما أكثر؟ الله أعلم، لكن ظاهِرُ القِسْمَةِ أنَّهم سواءٌ: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾.

مسألة: بإجماعِ المُسْلِمينَ أنَّ كافِرَ الجِنِّ يَدْخُل النَّار، أما مُؤْمِنُ الجِنِّ؛ فهل يدخُلُ الجَنَّة؟

الجوابُ: اختلف فيه العلماءُ، والصَّوابُ: أنَّهم يَدْخُلونَ الجَنَّةَ؛ قال تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام:١٣٠]، وقال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي ۙ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ﴾ [الأعراف:٣٥] أي: من الجِنِّ والإِنْسِ ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأعراف:٣٥-٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن:٤٦] ثم قال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:٤٧] يُخاطِبُ الجِنَّ والإنْسَ، فهذا بَيِّنٌ أيضًا على أنَّهم يدخلون الجنَّة، وكذلك قولُه تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن:٥٦] يدلُّ على أنَّهم يدخلونَ الجنَّة، وهذا هو الذي عليه جُمْهورُ أهْلِ العِلْمِ.

وقال بَعْضُهم: إنَّهم لا يدخلون الجَنَّة؛ لأنَّ الذين: ﴿وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[الأحقاف:٢٩-٣١] ولم يقولوا: (يُدْخِلْكم الجَنَّة)، فهذا دليل على أنَّ المؤْمِنَ منهم يُجارُ من العذابِ الأليم فقط!

فيقال: إنَّ هذا استدلالٌ بنصٍّ وتَرْكُ نُصوصٍ، وما هكذا حالُ الإنسانِ الذي يُوَفِّقُ بين الأدلَّة، ثم إنَّ مقامَ هؤلاء القَوْمِ مقامُ إنذارٍ وتَخْويفٍ: ﴿وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ دون مُبَشِّرينَ، فهو مقامُ إنذارٍ وتخويفٍ، وهم إذا استقاموا وخافوا فإنَّه لا شَكَّ أنَّهُم يدخلونَ الجَنَّة؛ لأنَّ من أُجيرَ من العذابِ الأَليمِ من المُكَلَّفِينَ فلا بدَّ أن يدخلَ الجَنَّة؛ إذ إنَّ مآل الوَرَى إلى الجنَّة أو النَّار.

وهذا القول هو الحَقُّ: أنَّ مُؤْمِنَهم يدخُلُ الجَنَّة وكافِرَهُم يدخُلُ النَّار؛ والثاني: أن كافِرَهُم يدخل النَّارَ بالإجماعِ، وليس فيه خلافٌ؛ لأنه نَصٌّ بالقُرآنِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: إثباتُ مشيئةِ الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: تمامُ سلطانِهِ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثباتُ حِكْمَته؛ حيث لم يُؤتِ كُلَّ نَفْسٍ هداها؛ وقد سبق لنا شيءٌ من الحِكَمِ في اختلافِ النَّاسِ إلى مُؤْمِنٍ وكافِرٍ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: الرَّدُّ على القَدَرِيَّة، والقَدَرِيَّةُ هم الذين يقولون: إنَّ الإنسانَ مُسْتَقِلٌّ بعَمَلِه، ليس لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيه تقديرٌ ولا خَلْقٌ، يشاء لِنَفْسِه ويَفْعَلُ بنفسه،

وليس لله تَعَلُّقٌ بفعله، هؤلاء هم القَدَرِيَّة، فقَوْلُ الله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا﴾ يَرُدُّ عليه.

ولكن هل في الآيَةِ دليلٌ لَمذْهَبِ الجَبْرِيَّة؟

الجوابُ: ظاهِرُها؛ إلَّا أنَّ الآياتِ الأخرى تدلُّ على أنه لا حُجَّة فيها لهم؛ لأنَّ الله تعالى أعطى الإنسانَ قُدْرَةً واختيارًا، ونحن -مَعْشَرَ أَهْلِ السُّنَّة- لا نَأْخُذُ ببعض الكتاب ونَدَعُ بعضًا، بل نأخُذُ بالكتابِ كلِّه، فنؤمِنُ بأنَّ مَشِيئَةَ الله فَوْقَ كُلِّ شيء ونؤمِنُ بأنَّ للإنسانِ مَشيئةً وإرادَةً وقُدْرَةً على العمل، وأنَّ الإنسانَ هو الفاعل وليس الله تعالى هو الفاعِلَ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثباتُ كلامِ الله؛ أنَّ الله يتكلَّم؛ لقوله تعالى: ﴿حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن كلامه تعالى بِحَرْفٍ؛ لأن قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ حروفٌ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: الرَّدُّ على من زعم أن كلامَ الله هو المعنى القائِمُ بالنَّفْس؛ إذ لو كان كذلك لقال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ولكن أَرَدْتُ أن أَمْلأَ، ولم يَقُلْ: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: إثبات النَّار؛ لقوله تعالى: ﴿جَهَنَّمَ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّ الله جَلَّوَعَلَا أوفَى المعاهِدِينَ؛ أنه وعَد أنَّ النَّار يَمْلَؤُها وفاءً لها بما وعدها؛ ولهذا قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أنَّ الجِنَّ يدخلون النَّارَ، تُؤخَذُ من قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ وهل يدخلون الجَنَّة؟

الجوابُ: تقدَّم أنَّ في ذلك خلافًا، وأنَّ الصَّواب أنَّهُم يَدْخُلونها وبَيَّنَّا الأدِلَّة على ذلك من القرآن.

الآية (١٤)

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٤].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وتقول لهم الخَزَنَة إذا دخلوها: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ﴾] وهل يُوافِقُ ظاهِرَ الآية؟ فقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ هل يناسِبُ أن يكون القائِلُ الملائِكَةَ في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾؟

الجوابُ: لا؛ إذن القائِلُ هو الله؛ كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ فالصَّوابُ: أنَّ هذا القَوْلَ من قَوْلِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، يقولُهُ لهم تقريعًا وتوبيخًا وتنديمًا أيضًا؛ يقول: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ﴾ الأمْرُ هنا ليس للإكرامِ ولا لِمُجَرَّدِ الأمْرِ، ولكن للتَّوْبيخِ والتَّقْريعِ والإهانَةِ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَذُوقُواْ﴾ العذابَ] أفادنا بهذا التَّقْديرِ أنَّ مفعول (ذوقوا) مفعوله محذوفٌ تقديرُهُ: العذاب، ويُحْتَمَلُ ألَّا يكون لها مفعولٌ، والمعنى كقوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان:٤٩] فيكون المرادُ مُجَرَّدَ التَّوْبيخِ والإهانَةِ.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾ أي: بِتَرْكِكُمُ الإيمانَ به] والعَمَلَ له وأفادنا بقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِتَرْكِكُم] أن (ما) مصدريَّة، وأنَّ ﴿نَسِيتُمْ﴾

بمعنى تَرَكْتُمْ، وهو كذلك؛ فإن (ما) مصدريَّة؛ أي: بنسيان، والنِّسيانُ هنا بمعنى التَّرْكِ، وليس النِّسيانُ الذي هو ذهولُ القَلْبِ عن مَعْلومٍ؛ لأنَّ النِّسْيانَ المَعْروفَ هو ذُهُولُ القلب عن معلومٍ، وهذا لا يُعاقَبُ عليه الإنسانُ، ويُطْلَقُ النِّسْيانُ على التَّرْك، وهو الذي يعاقَبُ عليه، والدَّليلُ على إطلاق النِّسْيانِ على التَّرْك قوله تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة:٦٧].

وقوله تعالى في هذه الآية: ﴿إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾ بمعنى تَرَكْناكُم، وليس معناها ذهولَ القَلْبِ عن معلوم؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥٢] النِّسْيانُ المُثْبَتُ لله هو التَّرْكُ، والنِّسْيانُ المنفِيُّ عنه هو الذُّهولُ عن الشَّيْء، وأمَّا الإنسانُ فإنَّه يَثْبُتُ له.

وقوله تعالى: ﴿بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ تركتم اللِّقاءَ، والمراد تَرَكْتُمُ العَمَلَ له والإيمانَ به.

و قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾ تركناكم في العَذابِ] نسألُ الله العافِيَةَ! تركهم الله عَزَّوَجَلَّ وما نَسِيَهم، فلا يزال يَعْلَمُ بهم جَلَّوَعَلَا، ولكنَّه تَرَكَهُم، وقال لهم بعد المراجعاتِ: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:١٠٨] فهل يتكلَّمونَ بعد ذلك بِرَفْعِ العذابِ؟

أبدًا لأنَّ في الآخِـرَة لا يَقْـدِرُونَ أن يُخالِفوا؛ لأنه لما قـال: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ انقطع رجاؤُهم من كل رجاء -والعياذ بالله- وأَيِسُوا من كلِّ خير.

وقـوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ﴾ تركنـاكُمْ في العذابِ ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ الدَّائِمَ ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من الكُفْرِ والتَّكْذيبِ] هذا إقرارٌ للتَّأْكيدِ وبيانِ أنَّ ما ذاقـوه لا يُمْكِنُ أن يزولَ عنـهم مع أنَّهُم قالوا فيما سبق:

ارْجِعْنا نَعْمَلْ صالحًا، فقال: ليس هناك رُجوعٌ: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾ يعني العذابَ الدَّائِمَ، وهذا من باب إضافَةِ الشَّيْء إلى مَوْعِدِهِ أو على تقدير (في) للظَّرفيَّةِ؛ يعني: عذاب في الخُلْد؛ وعلى كلِّ حالٍ: هو عذاب دائِمٌ.

وقوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: (ما) هنا يُحْتَملُ أن تكون اسمًا موصولًا؛ أي: بالذي كنتم في الدُّنْيا تَعْمَلُونه، ويُحْتَمَل أن تكون مصدريَّة، ولكنْ ظاهِرُ تفسيرِ المُفَسِّر أنها اسمٌ موصولٌ، قال: [﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من الكُفْرِ والتَّكذيب].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ أهلَ النَّار يُوَبَّخونَ بتركِهِم العَمَلَ للنَّجاةِ منها؛ لقوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾.

ويتفرَّعُ على هذه الفائِدَة: زيادَةُ التَّعذيب: التَّعذيب القلبي؛ لأنَّ الإنسانَ إذا وُبِّخَ على عملٍ عَمِلَه فإنَّه يزدادُ حَسْرةً وندمًا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إطلاقُ النِّسْيانِ على التَّرْكِ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثبات الأفعال الاختياريَّة لله؛ لقوله تعالى: ﴿نَسِينَٰكُمْ﴾ يعني: تَرْكناكُم، وهذا يدلُّ على أنه تعالى يترُكُ من شاء ويُقْبِل على من شاءَ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن عذابَ النَّارِ دائِمٌ؛ لقوله تعالى: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾ وهذا هو الذي عليه أهل السُّنَّة والجماعَةِ: أنَّ عذابَ النَّارِ أَبديٌّ سَرْمَدِيٌّ؛ كما أنَّ نعيمَ الجَنَّة أبديٌّ سرمديٌّ، لكنْ ذَكَرَ ابنُ القيم[1] رَحِمَهُ اللَّهُ: أنه يُخْتَلَفُ في أبديَّةِ النَّار على قَوْلَيْنِ، وأمَّا عـذابُها فهو أبديٌّ ما دامَـتِ النَّارُ موجودةً، فلا يَخْرُجُ منـها أهلُها

(١) انظر: شفاء العليل (ص:٢٥٤).

ما دامت موجودةً أبدًا؛ ولكنَّ الكلامَ في أبَدِيَّتِها هي، فهل هي مُؤَبَّدة أو مُؤَمَّدةٌ؟

والصَّواب: أنَّها مُؤَبَّدَةٌ، وقد ذكر الله تعالى ذلك في ثلاثِ آياتٍ من القرآن في سورة النِّساءِ، وفي سورة الأحزابِ، وفي سورة الجِنِّ.

ففي سورة النساءِ قولُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء:١٦٨-١٦٩].

وفي سورة الأحزاب قَوْلُه تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الأحزاب:٢٣].

وفي سورة الجِنِّ قولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن:٢٣].

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: إنَّ التَّأبيد هنا لخُلُودِهِم؟

قُلْنَا: لا تأبيدَ لخلودٍ إلا والمكانُ خالِدٌ فيه؛ فإذا تأبَّدَ الخلودُ فإنَّما مكانُ الخُلْدِ يكون مُؤبَّدًا بالضَّرورةِ، ولهذا الصَّوابُ المقطوعُ به: أنَّ النَّار أَبَدِيَّةٌ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يَظْلِمُ أحدًا؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ الجَزاء من جِنْس العَمَل، فكما أنَّهُم أَفْنَوْا حياتَهُم في مَعْصِيَة الله فإنَّ حياتَهُم الآخِرَة أيضًا ستكونُ في عذابِ الله.

• • ۞ • •

الآية (١٥)

• • • • •

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴾ [السجدة:١٥].

• • • • •

ثم بيَّنَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَنِ المؤمنُ حقًّا، فقال: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا ﴾.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ﴾ أداة حَصْرٍ، حَصَرَتِ الإيمانَ في الذين إذا ذُكِّروا بآياتِ ربِّهم خرُّوا سُجَّدًا.

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [القرآنِ] وعلى هذا فهي الآياتُ الشَّرْعيَّة، والصَّواب أنها عامَّة حتى الآيات الكونيَّة كمن ذُكِّرَ بما يفعلُه الله عَزَّوَجَلَّ في المكذِّبين والمُجْرِمين، فإنَّ ذلك داخِلٌ في الآية ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا﴾.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [القرآن] يقتضي أنَّ هذا القَوْلَ خاصٌّ بهذا الأُمَّة ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ﴾ لأنَّهُم أَهْلُ القرآنِ، ولكِنَّ الأَوْلى أن تُؤْخَذ على سبيل العُمُومِ حتى فيما سبق، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾ [الإسراء:١٠٧].

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا ﴾: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ فاعِلُ ﴿يُؤْمِنُ﴾، يعني (لا يُؤْمِنُ إلا الذين...)، والمرادُ الإيمانُ الكامِلُ.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ﴾ وُعِظُوا ﴿بِهَا﴾] أي جُعِلَت مَوْعِظَةً لهم وبُيِّنَتْ لهم الآياتُ، فإذا وُعِظُوا بها ﴿خَرُّواْ سُجَّدًا﴾: ﴿خَرُّواْ﴾ جوابُ ﴿إِذَا﴾.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿خَرُّواْ سُجَّدًا﴾ الخُرورُ يكون من أعلى إلى أسفل، ومنه خرورُ الماءِ من السَّاقِيَة من فوق إلى تحت، ﴿خَرُّواْ سُجَّدًا﴾ أي: من القيامِ ﴿وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ حالَ السُّجُودِ ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩﴾.

هذه الآية أورد عليها بَعْضُ العلماء إشكالًا، وقال: هل لِكُلِّ من ذُكِّرَ بآياتِ الله أن يَسْجُد؟ فإذا قُرِئَ عليه آيةٌ سَجَدَ، أو إذا ما وعَظْتَهُ بموعظة سَجَدَ؟

والجوابُ عن هذه الآيَةِ: قال بعضهم: المرادُ خَرُّوا سُجَّدًا في مَوْضِعِ السُّجُود؛ يعني: خرُّوا سُجَّدًا؛ إذا مَرَّت بهم آياتُ سَجْدَة سجدوا، أمَّا إذا ذُكِّرُوا بآياتِ رَبِّهم بدون أن تمَرَّ بهم آياتُ سَجْدَة فإنَّهم لا يسجدون.

ولكنَّ الصَّوابَ خلافُ ذلك؛ فالصَّوابُ أنَّ المعنى: الذين إذا ذُكِّروا بها انقادوا لها وخَضَعُوا لها، ولا يَلْزَمُ من ذلك أن يكون السُّجُودُ مباشِرًا للتَّذْكيرِ؛ فقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا﴾ يعني: حتى في المُسْتَقبل، فلا يلزم أن يكون جوابُ الشَّرْطِ مباشِرًا له.

وما يقتضي التَّرْتيب للحُرُوفِ أو التَّركيب قد يُرادُ به التَّرتيبُ في مَوْضِعِه وفي كُلِّ شيءٍ بِحَسَبِه؛ ولهذا لو قُلْتَ: تَزَوَّجَ زَيْدٌ فوُلِدَ له، الفاءُ للتَّرتيبِ والتَّعْقيب، ومن المعلومِ أنه لا يُولَدُ له فَوْرَ عَقْدِ النِّكاحِ له؛ فنقول: الفاءُ للتَّرتيبِ والتَّعْقيبِ، وتَعْقِيبُ كُلِّ شيءٍ بِحَسَبِه، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ وهل المَطَرُ إذا نزل وصار الصَّباحُ فإذا هي مُخْضَرَّةٌ؟

الجوابُ: لا، ولكنْ بعد مُـدَّة تَخْضَرُّ، وبعد مُدَّة يُوْلَدُ لهذا المتَـزَوِّجِ؛ فكذلك قوله تعالى: ﴿إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ﴾ لا يلزم من ذلك أن يباشِرُوا فبمجرَّد التَّذْكير يَخِرُّونَ، بل المعنى أَنَّهُم يَلْتَزِمونَ بذلك فإذا ذُكِّروا بها التَزموا بذلك بالسَّمْعِ والطَّاعَة فسجدوا في مَوْضِعِ السُّجودِ ولم يوجد منهم استكبارٌ، وعلى هذا فلا إشكالَ في الآية.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿خَرُّواْ سُجَّدًا﴾: ﴿سُجَّدًا﴾ حالٌ من فاعِلِ ﴿خَرُّواْ﴾. وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَسَبَّحُواْ﴾ معطـوفٌ على: ﴿خَرُّواْ﴾ ومعنى: سبَّحوا أي نَزَّهوا، فالمفعـولُ محذوفٌ تقديرُهُ وسبحوا ربَّهُم؛ أي: سَبَّحُوا الله.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مُتَلَبِّسينَ ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾] أفادنا المُفَسِّر بأنَّ الباءَ في قوله تعالى: ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أنَّ الباء للمُلابَسَةِ؛ يعني: معناها أنَّ التَّصْديقَ مَقْرونٌ بالحَمْدِ، ولو أنَّه ذهب إلى أنَّ الباء للمصاحَبَة: وسَبَّحوا تسبيحًا مُصاحِبًا بِحَمْد ربِّهم؛ لكان أَوْلى.

وقوله: ﴿وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي قالوا: سبحانَ الله وبِحَمْدِهِ] ويُحْتَمَل أَلَّا يكونَ المرادُ بالتَّسبيحِ والحَمْد: تَسْبيحَ اللِّسانِ وحَمْدَه، وأنَّ المرادَ نَزَّهُوهُ بِقُلُوبهم وحَمِدُوه بألْسِنَتِهم، فنَزَّهُوه بقُلُوبِهِم عمَّا لا يليـقُ به وحَمِدُوه بأَلْسِنَتِهِم بما يستحقُّه.

فقوله: ﴿خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ يعني: يَسْجُدون لله ويُسَبِّحونَه حالَ السُّجُود؛ ولهذا مما يُشْرَعُ في السُّجود أن تقول: «سُبْحانَكَ اللهمَّ ربَّنا وَبِحَمْدِكَ»(١).

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩﴾ الجملةُ حالٌ، يعني: والحالُ أنَّهُم: [﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن الإيمان والطَّاعَةِ] بل ينقادون ويَخْضَعون.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب الدعاء في الركوع، رقم (٧٩٤)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، (٤٨٤)، من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أن للإيمانِ علاماتٍ؛ لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟﴾ إلى آخره.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن من ادَّعى الإيمانَ بدون علامَةٍ فدعواهُمْ باطِلَةٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الاستدلالُ بالأَحْوال والقرائِنِ؛ لأنَّ الله ذَكَرَ علامةً على الإيمان في هذه الأفعال، والإيمانُ مَحَلُّه القَلْبُ فلا يُعْلَمُ، لكنْ هذه الأعمالُ قرائِنُ وأحوالٌ تدُلُّ على وجودِ ما هي دليلٌ عليه.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: الاستدلالُ بالقرائِنِ والأَحْوال على حقيقة الشَّيْء، وهذه مُفيدَةٌ غايةَ الفائدةِ للقُضاةِ.

وقد استدلَّ بالقرائِنِ أحَدُ الأنبياءِ الكِرام، وهو سليمانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

واستدلَّ بالقرائِنِ أيضًا النَّبِيُّ ﷺ في قِصَّةِ مالِ حُيَيِّ بْنِ أَخْطَبَ لما سأل عنه بعد غزوةِ خَيْبر، قالوا: إنَّه أَفْنَتْه الحروب، فقال الرَّسُولُ ﷺ: «**المالُ كَثيرٌ والعَهْدُ قَرِيبٌ**»[1] يعني لا يمكن أن تُفْنِيَه، فحُيَيُّ بنُ أخطبَ من أغنياءِ بني النَّضيرِ وإن ذهب مالُه؛ ثم دفعه إلى الزُّبَيرِ بْنِ العوَّام وقال له: فمَسَّهُ بعذابٍ، وعند ضَرْبِهِ قال: أنا سأدُلُّكم على شيءٍ كان حُيَيٌّ يختلفُ إليه كثيرًا، فدلَّهم على خَرِبَةٍ، فإذا المال مدفونٌ فيها، فاستدلَّ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بالقرائِنِ على وجود الشَّيْء.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن للإيمان تمامًا ونُقْصانًا؛ لأنَّ هذه الآية لا شَكَّ أنها في كمالِ الإيمانِ.

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه رقم (٥١٩٩)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّ من علامَةِ المؤمِنِ انقيادَهُ للمواعِظِ؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أَنَّ الإنسانَ المؤمِنَ قد يطرأ عليه الجَهْلُ والنِّسْيانُ، تُؤخَذُ من قوله تعالى: ﴿إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا﴾ فقد يَنْسَوْن أو يَجْهَلُون.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: فضيلة السُّجُود؛ لقوله تعالى: ﴿خَرُّوا۟ سُجَّدًا﴾ وقد ثبت في الحديث: «**إِنَّ أَقْرَبَ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ**»[1]، وأَمَرَ النبيُّ ﷺ بالاجتهادِ في الدُّعاءِ في حالِ السُّجُود، وأخبر أنه أَحْرى بالإجابَةِ[2].

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: الجَمْعُ بين انتفاءِ العَيْب والنَّقْص عن الله مع ثبوتِ الكمالِ له؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ ففي التَّسْبيحِ تَنْزيهٌ، وفي الحَمْد كمالٌ.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أَنَّ من صفات المؤمِن التَّواضُعَ؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ فالتَّواضُعُ للحَقِّ وللخَلْقِ، ولكن يَجِبُ أن نَعرِفَ الفَرْق بين التَّواضُع والذُّلِّ؛ فالمُؤْمِنُ لا يكون ذليلًا، ولكنَّه يكون متواضِعًا؛ فإذا تبيَّنَ له الحَقُّ انقادَ له، فهذا تواضُعٌ للحَقِّ، وإذا عامَل الخَلْقَ عامَلَهُم بالتَّواضُع، لكن لا يُذِلُّ نَفْسَه، فهو لا يستكبِرُ على النَّاسِ ولا يَغْمِطُ النَّاسَ حَقَّهُم، ولكنَّه لا يَذِلُّ لهم.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أَنَّ التَّعصُّبَ في التَّقْليد ليس من طريق المؤمنينَ؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ويوجد في المُتَعَصِّبينَ في التَّقْليد من يَسْتكْبِرُ عن الحَقِّ؛

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم (٤٨٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود، رقم (٤٧٩)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

إذا عُـرِضَ عليه أَبَى وضَرَب بقول فلان كذا وكذا من المقلّدينَ، وهـذا نوعٌ من الاستكبارِ عن الحقِّ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: ذَمُّ من أَصَرَّ على رأيه بباطِلٍ؛ تُؤخَذُ من قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾، فمن النَّاسِ من إذا قال قولًا لا يُمْكِنُ أن يتنازَلَ عنه ولو بان الحَقُّ، وهذا نَوْعٌ من الاستكبار، والواجِبُ أن تَعْرِفَ نَفْسَك وأنك بَشَرٌ، وأنَّه يفوتك العِلْمُ إمَّا نسيانًا وإمَّا جَهلًا، ويفوتك أيضًا: الوصولُ إلى الغايَةِ، فقد يكون عندك عِلْمٌ، لكن يَنْقُـصُك التَّفْكيرُ والتَّـأَمُّل والجَمْعُ بين الأدِلَّـة وما أشبه ذلك، فتحتاجُ إلى أن تَتيقَّظَ.

• ● ۞ ● •

الآية (١٦)

• ● ❀ ● •

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [السجدة:١٦].

• ● ❀ ● •

ثم بيَّنَ الله تعالى من صفاتهم ما بيَّن بقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ ﴾ تَرْتَفِع] وتَبْتَعِد أيضًا لأنَّ المجافاةَ الإبعادُ، ومنه: «كان النَّبيُّ ﷺ يُجَافِي عَضُدَيْهِ فِي السُّجُودِ»[(١)] يعني: يُبْعِدُهُما عن جَنْبَيْه، فمعناه إذن: الإبعادُ والارْتِفاعُ، والارْتِفاعُ يَسْتَلْزِمُ البُعْدَ.

وقوله تعالى: ﴿عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ المضاجِعُ جَمْعُ مَضْجَعٍ، وهو مكان الاضْطِجاعِ والاضطجاع النَّوْمُ؛ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مَوَاضِعُ الاِضْطِجَاعِ بِفُرُشِهَا لِصَلَاتِهِمْ بِاللَّيْلِ تَهَجُّدًا] فلا ينامونَ؛ أي: تتجافى جنوبُهُم عن المضاجِعِ فلا ينامون، ولكنَّ هذا مُقَيَّدٌ بما جاءت به السُّنَّة: أنَّهُم يتهَجَّدون ليس كلَّ اللَّيلِ، ولكِنِ الزَّمَنَ المَشْروعَ التهَجُّدُ فيه.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا﴾ من عِقَابِهِ ﴿وَطَمَعًا﴾ في رَحْمَتِه].

يَدْعُون هذه جُمْلَةٌ حالِيَّة من فاعِلِ ﴿ تَتَجَافَىٰ ﴾ أو من المضافِ إليه بـ﴿جُنُوبُهُمْ﴾

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ٣٠)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب صفة السجود، رقم (٩٠٠)، وابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة، باب السجود، رقم (٨٨٦)، من حديث أحمر بن جزء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

يعني حالَ كَوْنِهم يَدْعُونَ ربَّهُم، فيَدْعُونه دُعاءَ مَسْأَلةٍ وعبادةٍ.

وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ خوفًا من عقابِ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وطَمَعًا في رَحْمَته؛ لكنَّ الحامِلَ على الخَوْفِ والطَّمَع أَنَّهُم إذا نظروا إلى تَقْصِيرهم وعَظَمَةِ الله وشِدَّة عقابه غلب عليهم جانِبُ الخَوْفِ، وإذا نظروا إلى سَعَةِ رَحْمَةِ الله وعَفْوِه، وأَنَّهُم قاموا بما يَنْبَغِي أن يقوموا به غَلَبَ عليهم جانِبُ الطَّمَع، فهم يسيرون بِجَناحَيْنِ؛ جَناحَيِ الخَيْرِ والطَّمَعِ، ولكن أَيُّهما ينبغي أن يُغلَّبَ؟

الجوابُ: فيه خـلاف؛ قال الإمامُ أحمدُ رَحِمَهُٱللَّهُ[1]: ينـبغي أن يكون خَـوْفُه ورجاؤُه واحدًا، فأيُّهما غَلَب هَلَكَ صاحِبُه؛ ولأنَّه إن غَلَّبَ جانِبَ الخَوْفِ قَنِطَ من رحمة الله وإن غلَّب جانِبَ الرَّجاءِ أَمِنَ مَكْرَ الله، ولكن يكونُ بينَ بينَ.

وقيل: الصَّحيحُ يُغَلِّبُ جانِبَ الخَوْفِ، والمريضُ يُغَلِّب جانِبَ الطَّمَع، فعند الموتِ يُغَلِّبُ جانب الطَّمَع والرَّجاء، وفي حال الصِّحَّةِ يُغَلِّب جانِبَ الخَوْف. وقيل: إنْ فَعَلَ الطَّاعَةِ فَلْيُغَلِّبْ جانِبَ الرَّجاء، وإن هَمَّ بالمَعْصِيَة أو عَمِلَها فَلْيُغَلِّبْ جانِبَ الخَوْفِ.

وقوله رَحِمَهُٱللَّهُ: [﴿وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ يتصَدَّقونَ].

(مِن) هل هي لبيانِ الجِنْس أو أنها للتَّبْعيضِ؛ يعني بعضَ ما رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ؟

الجوابُ: إذا قُلْتَ إنَّها للتَّبْعيضِ، صار من يَبْذُلُ كلَّ مالِهِ تقرُّبًا إلى الله صار مذمومًا، لو قُلْتَ: إنَّها لبـيانِ الجِنْس وأنَّهُم يُنْفِقون ممَّا رَزَقْناهم، فإنَّـه لا يَقْتَضي أن يكون مَنْ بَذَلَ مالَه كُلَّه مذمومًا؛ يعني: المرادُ بيانُ الجِنْس، فيَشْمَلُ القَليلَ والكثيرَ.

---

(١) انظر: الاختيارات لشيخ الإسلام ابن تيمية (٥/ ٣٥٩).

وهذه المسألة اختلف فيها العُلماءُ؛ هل يَبْذُلُ الإنسانُ كُلَّ مالِهِ في طاعَةِ الله وفي سبيل الله، أو يَقْتَصِرُ على بعضه؟

والصَّواب: أن ذلك يرجِعُ إلى حالِ الشَّخْصِ، وإلى الأسبابِ التي بها يَدْفَع الضَّرورَة عن نفسه وأَهْلِه، فإن كان الإنسانُ ضعيفَ التَّوَكُّلِ أو ضعيفَ القُدْرَة على التكسُّبِ، فالأَفْضَلُ أن يُنْفِقَ شيئًا من مالِهِ، وإن كان الأَمْرُ بالعكس فله أن يتصدَّقَ بِجَميعِ مالِهِ؛ كما فعل أبو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(١)، أما أبو لُبابَةَ لَمَّا نَذَرَ أن يَنْخَلِعَ من ماله صدقةً لله ورَسُولِهِ، قال له الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ؛ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ**»(٢) فَجَعَلَ من الخير له أن يُمْسِكَ بَعْضَ المالِ.

وقوله تعالى: ﴿يُنفِقُونَ﴾ الإنفاقُ يعني: البَذْل.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: فَضيلَةُ قيام اللَّيلِ؛ لأنَّ الله تعالى ذكره في سياقِ المَدْحِ، فقال: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ لكنْ هذا الإطلاقُ مقيَّدٌ بما جاء في السُّنَّة؛ يعني بألَّا يكون جميعَ الليل، بل تتجافى جُنُوبُهم عن المضاجِعِ في حدود ما جاءت به السُّنَّة، وبهذا نَعْرِفُ خَطَأَ ما يوجد في كُتُبِ الوَعْظِ من أنَّ فُلانًا صلَّى صلاةَ الفَجْرِ بِوُضوءِ العِشاءِ أَرْبَعينَ سَنَةً! يعني: أنَّه ما نام اللَّيلَ بل يقوم اللَّيلَ، وهذا خطأٌ.

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الزكاة، باب الرخصة في ذلك؛ أي أن يخرج الرجل من ماله، رقم (١٦٧٨)، والترمذي: كتاب المناقب، باب في مناقب أبي بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كليهما، رقم (٣٦٧٥)، من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الوصايا، باب إذا تصدق أو أوقف بعض ماله أو بعض رقيقه أو دوابه فهو جائز، رقم (٢٧٥٧)، من حديث كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وليس فيه ذكر أبي لبابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأما خبر أبي لبابة فأخرجه الإمام أحمد (٣/ ٤٥٢)، وأبو داود: كتاب الأيمان والنذور، باب فيمن نذر أن يتصدق بماله، رقم (٣٣١٩)، بلفظ: «**يجزئ عنك الثلث**».

وهذا تَبَرَّأَ منه الرَّسُولُ ﷺ؛ فقالت الجماعَةُ الذين قال أَحَدُهُم: أنا أقوم اللَّيلَ ولا أنام، قال: «أَمَّا أَنَا فَأَقُومُ وَأَنَامُ، وَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»(١).

لكِنْ مُشْكِلُ هؤلاءِ الوُعَّاظ الذين يَكْتبون هذه الكُتُبَ يريدون أن يُرَغِّبوا النَّاسَ لكن يُرَغِّبونهم في الباطِلِ، ولو أنَّ النَّاس اقْتَصَر لهم بما صَحَّ عن رَسُولِ الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من التَّبْشيرِ والإِنْذار ومِنَ الأعمالِ الصَّالِحَة لاستقاموا، لكن عندما أَسْمَعُ هذا رَجُل أثنى عليه أنه أربعينَ سنةً صلَّى الفَجْرَ بوضوء العشاء! أقول: أينَ أنا من هذا؟ فسأبقى على ما أنا عليه وأصلي سُنَّةَ العِشاء ركعتينِ والوِتْر أَقَلُّه ركعةٌ، فأُصَلِّي ركعة، ولا يَجِبُ إلا قراءةُ الفاتِحَة فأقتصر على الفاتِحَة، ولا يجب (سبحان ربي الأَعْلى) إلا مرَّة في السُّجُود، و(سبحان ربي العظيم) مَرَّة في الرُّكوع، فأقتصر على مَرَّة في الرُّكوع وفي السُّجود، ويمشي، لكن لو أنَّ النَّاسَ بُيِّنَتْ لهم السُّنَّةُ حقًّا لكفى بها واعِظًا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: فَضيلَةُ الدُّعاء؛ لقوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنه ينبغي للدَّاعي وللعامِلِ العابد: أن يكون دعاؤُهُ وعبادتُهُ بين الخَوْفِ والرَّجاءِ؛ لقوله تعالى: ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: فضيلةُ الإنفاقِ مما رَزَقَك الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ على حَسَبِ التَّفْصيلِ الذي ذكرناه في التَّفسيرِ.

• • ۞ • •

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح (٥٠٦٣)، ومسلم: كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه، رقم (١٤٠١)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآية (١٧)

قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧].

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ﴾ أيَّ نَفْسٍ تكونُ؛ لا مَلَكٌ مُقرَّب ولا نَبِيٌّ مُرْسَل.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ وهذا نَفْيٌ لعِلْم الحقيقةِ لا لِعِلْم المعنى، فإنَّ المعنى معلومٌ فيما أخفى الله من قُرَّة الأَعْيُنِ، لكنْ حقيقَةُ ذلك الشَّيْءِ مجهولة؛ ولهذا قال ابنُ عبَّاسٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَيْسَ في الدُّنْيا مِمَّا في الجَنَّة إلَّا الأَسْمَاءُ»[١] فنعلم أن في الجَنَّة نخلًا ورمَّانًا وفاكهةً ولبنًا وعَسلًا وماءً وخَمْرًا وطيرًا، وما أشبه ذلك، فنعلَمُ هذا من المعنى، لكنْ حَقيقَةُ ذلك الشَّيْءِ مَجْهُولَةٌ.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم﴾ ما أُخْفِيَ لهم؛ أي: حقيقة ما أُخْفِيَ، وليس معنى ما أُخْفِيَ، فالمعنى معلومٌ.

وقول المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ ما تَقَرُّ به أَعْيُنُهم] قَرَّتْ عينُه بمعنى: جَمُدَت، وقَرَّت عَيْنُه بمعنى: سَكَنَت، فعلى الأوَّل تكون من القُرَّةِ والبَرْدِ؛ ولهذا يقال:

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ٤١٦)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ٦٦)، وأبو نعيم في صفة الجنة رقم (١٢٤).

إنَّ دَمْعَةَ السُّرور بارِدَة، ودَمْعَة الحُزْن حارَّة؛ ولهذا قال: قَرَّتْ عَيْنُه إذا سُرَّتْ، أما إذا كان هنا القَرَارُ وهي أنها لا تَلْتَفِت إلى سوى ما هي تَنْظُر إليه؛ يعني: أنَّ عُيُونَهم قارَّةٌ لا تَلْتَفِتُ إلى سوى ما هي عليه، وكلا المعنيين صحيحٌ؛ فإن معنى قَرَّتْ عينُه؛ أي: بَرُدَتْ فلم يَلْحَقْها حرارَةُ الحُزْنِ، ومعنى قَرَّتْ عينُكَ؛ أي: سَكَنَت، فلا تنظُرُ إلى شيء سوى ما هي عليه، وهذا يكون معناه غايَةَ الأُمْنِيَة.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وفي قراءةٍ بسكونِ الياءِ؛ مضارعٌ] فـ﴿أُخْفِىَ﴾ فِعْلٌ ماضٍ، و(أُخْفِيْ) فِعْلٌ مضارعٌ؛ و(أُخْفِيْ) يعني: أُخْفِيْ أنَا، (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيْ لَهُمْ) ما أُخْفِيْ لهم أَنا، أي: الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾، أمَّا ﴿مَّآ أُخْفِىَ﴾ لهم فهو فِعْلٌ ماضٍ مبنيٌّ للمَجْهولِ، وفاعله مستَتِرٌ جوازًا، وإذا كانت (أُخْفِيْ) بالسكونِ فهي فعل مضارعٌ، وفاعل مُسْتَتِرٌ وجوبًا تقديره أنا.

والمعنى على كلتا القراءتين صحيحٌ؛ فالله هو الذي أخفاه حتى على البِنَاء للمجهولِ: ﴿مَّآ أُخْفِىَ﴾ فإنَّ المُخْفِيَ هو الله: ﴿مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ أي ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ جزاءً: مفعولٌ من أجله، ولكن هل عامِلُ المفعول من أجله: ﴿أُخْفِىَ﴾ أو: ﴿قُرَّةِ﴾؟

الظَّاهِرُ: أنَّها ﴿قُرَّةِ﴾ يعني: قَرَّتْ أَعْيُنُهم جزاءً، وليس المعنى أُخْفِيَ لهم جزاءً؛ لأنه قد يقال: إنَّ الإظهارَ أَبْلَغُ في الجزاءِ، لكنَّها من قُرَّةِ أعينٍ جَزاءً.

وقوله تعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي بالذي كانوا يَعْمَلونه في الدُّنْيا من طاعَةِ الله.

فإن قلتَ: هذا يدلُّ على أنَّهُم يُجازَوْنَ بعمل، وقد ثبت عن النَّبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أنه قال: «لَنْ يَدْخُلَ الجنَّةَ أَحَدٌ بِعَمَلِهِ» قالوا: ولا أنتَ يا رسولَ الله؟ قال: «وَلَا أَنَا،

إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ بِرَحْمَتِهِ»[1] فما هو الجَمْعُ بين هذا الحديث وبين هذه الآية وأمثالِها؟

قال أهلُ العِلْمِ: إنَّ الجَمْعَ بينهما اختلافٌ في معنى الباء، فالباءُ التي للسَبَبِيَّة هي الموجودة في مثل هذه الآيَةِ ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ﴾ أي بِسَبَبِ ما كانوا يعملونَ، والباء التي للعِوَضِ هي المذكورَةُ في قوله: «لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ أَحَدٌ بِعَمَلِهِ» أي: عِوَضًا عن عمله؛ لأَنَّنا لو أَرَدْنا المعاوضَةَ والمُقاصَّةَ لَظَهر العامِلُ مغبونًا مطلوبًا، ولكان العامِلُ مهما عَمِلَ من الصَّالحاتِ فهو مطلوبٌ، ونِعْمَةٌ واحدة من نِعَمِ الله عليك تَسْتَوْعِبُ جميع الأعمالِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: في هذه الآيَةِ الدَّليلُ على عِظَمِ نَعيمِ الجَنَّة، يُؤخَذُ من قوله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ﴾ لأَنَّه لا شكَّ أنَّ الإبهامَ يدلُّ على التَّفْخِيم، كما قلنا في التَّفسيرِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ في الجنَّة من قُرَّةِ العَيْنِ في المأكولِ والملبوسِ والمنْكوحِ والمسْكَنِ ما لا يَخْطُر على البالِ؛ لأن كلَّ هذه الأرْبَعَة تَقَرُّ بها العَيْنُ؛ وقيل:

وَلُبْسُ عَبَاءَةٍ وَتَقَرَّ عَيْنِي ... أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ لُبْسِ الشُّفُوفِ[2]

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: فَضْلُ الله عَزَّوَجَلَّ على العبادِ المؤمنينَ، فَضْلُه السَّابِقُ واللاحِقُ، فالسَّابِقُ أنْ وفَّقَهُم للإيمان والعَمَل الصَّالح، واللَّاحِقُ أنْ جَعَلَ هذا الجزاءَ على عَمَلِه؛

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المرضى، باب تمني المريض الموت، رقم (٥٦٧٣)، ومسلم: كتاب صفة القيامة، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى، رقم (٢٨١٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) البيت لمَيْسون بنت بَحْدل، انظر: الكتاب لسيبويه (٣/ ٤٥)، وخزانة الأدب (٨/ ٥٠٣).

قال تعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ كأنَّ هذه النِّعَم التي في الجَنَّة جزاءٌ على عَمَلٍ لهم، بل هي حقيقة العَمَل لهم، لكن فيه: أنَّ الفَضْل من الله عَزَّوَجَلَّ عليهم كأنَّه فَضْلٌ منهم على أنْفُسِهم؛ لقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ مِثْل قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ فإحسانُ العَمَلِ بإحسانِ الجزاء، ومثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ إذ يَمُنُّ عليهم بالسَّعْيِ الحميدِ، ثم يَشْكُرُهم عليه، يَمُنُّ عليهم هنا بالتَّوْفيقِ للهدايةِ، ثم يقول: أُجازيكُم على عَمَلِكم، وهذا لا شَكَّ أنه من تمامِ نِعْمَة الله عَزَّوَجَلَّ.

• ● ۞ ● •

الآية (١٨)

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴾ [السجدة:١٨].

قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا﴾ المراد بالفِسْقِ هنا الفسق الأكبر المُخْرِجُ عن الإسلام، وليس الفِسْق الأَصْغَر الذي يبقى فيه الإنسانُ مؤمنًا ناقِصَ الإيمانِ، ﴿كَمَن كَانَ فَاسِقًا﴾؟

الجوابُ: ﴿لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ وانْتَبهْ أيُّها القارِئُ وَقِفْ على قوله تعالى: ﴿فَاسِقًا﴾ فإنَّ كثيرًا من القُرَّاءِ يَقْرأُ ويستمِرُّ ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴾ ولا يَصِحُّ هذا، فإذا قرأْتَ: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا﴾ فقِفْ، ثم قُلْ: ﴿لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ فهذا هو الجوابُ؛ وهو جوابُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فإنَّ الله تعالى اسْتَفْهَم وأجاب نَفْسَه: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا﴾؟ ثم أجابَ: ﴿لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ أيِ المؤمنونَ والفاسِقون؛ بماذا؟ ﴿ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا﴾ هو ما يُعَدُّ للضَّيْفِ ﴿بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: في هذه الآيَةِ تقريرُ أنَّه لا مساواة بين المؤمِنِ والكافِرِ، وأنَّ هذا أمْرٌ لا يُمْكِنُ؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا﴾ وقد قال الله تعالى في آياتٍ أخرى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ بل من السَّفَهِ ومن الخطأ في الحُكْمِ

أن يُجْعَلَ المسلمُ كالمجرمِ أو الفاسِقُ كالمؤمِنِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ المؤمِنَ خَيْرٌ من الفاسِقِ، ولو كان الفاسِقُ أعظَمَ جاهًا في الدُّنْيا عند الخَلْق؛ تُؤخَذ من عموم قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَمَن﴾: (من) هذه اسْمُ اسْتِفْهامٍ، وأسماءُ الاسْتِفْهام من صِيَغِ العُمـوم، فلا يمكنُ لأيِّ فاسـقٍ أن يكون كالمؤْمِنِ، ولو عَظُمَتْ به الدُّنْيا، ولو نال من الدُّنْيا ما ينالُ، فإنَّه ليس كالمؤْمِنِ تمامًا، قال تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾.

• ● ۞ ● •

الآية (١٩)

• ● ● •

قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٩].

• ● ● •

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ﴾: ﴿أَمَّا﴾ هذه حَرْفُ شَرْطٍ وتفصيلٍ، وتُفيدُ مع الشَّرْطِ والتَّفْصيلِ: التَّوْكيدَ؛ كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ﴾ وهنا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ فيكون فيها ثلاثُ فوائِدَ:

١- شرطِيَّة: بدليلِ أنَّها أتى لها جوابٌ: ﴿فَلَهُمْ﴾.

٢- تَفْصِيليَّة: لأنَّها أتت بِقِسْمَيْنِ ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ و﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ﴾.

٣- توكيديَّة: لأنَّه لا شكَّ أنَّ هذه الصِّيغَةَ تُفيدُ التَّوْكيدَ.

وقوله تعالى: ﴿فَلَهُمْ﴾ هذا جوابُ الشَّرْطِ.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ الجناتُ جَمْعُ جَنَّة، وهي في اللُّغَة: الحديقةُ الكَثيرَةُ الأشجارِ، وسُمِّيَت به لأنها تَجُنُّ مَن فيها أي تَسْتُرُه، لكنَّها في الشَّرْع: الدَّار التي أعدَّها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لأوليائه، فهي أعلى مما يدور في الخيال أو يَخْطُر على البالِ.

وقوله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ يعني التي هي مأواهُم، لا يَبْغُون عنها حِوَلًا ولا يتَحَوَّلون عنها، فهي مأوًى، كما أنَّ الجحيمَ مأوى الكافرينَ لا يَتحَوَّلون عنها، فالمأوى مكان الإيواءِ؛ أي إنَّها هي الجناتُ التي يَأْوُونَ إليها ولا يَخْرُجون منها.

وقوله تعالى: ﴿نُزُلًۢا﴾ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [هو ما يُعَدُّ للضَّيْفِ] وعلى هذا فهي تكونُ مَصْدرًا في مَوْضِعِ الحال، يعني أنه يُعَدُّ لهم هذا النُّزُلُ.

وقوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ الباءُ هنا سَبَبِيَّة.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ المؤْمِنَ لا يساوي الكافِرَ لا في عَمَلِه ولا في جزائِهِ؛ أمَّا العَمَلُ فظاهرٌ، هذا مؤمنٌ وهذا فاسقٌ، وأما الجزاءُ فبيَّنَ الله الفَرْقَ بِقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ وأولئكَ مأواهم النَّارُ، وفَرْقٌ بيْن هذا وهذا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الإيمانَ لا يَتِمُّ إلا بالعَمَلِ الصَّالِحِ؛ لقوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ فلا يكفي مُجَرَّدُ العقيدةِ، بل لا بدَّ من عَمَلٍ صالحٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثباتُ الجَنَّة؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ وهي موجودَةٌ الآن؛ لقوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وهي فِعْلٌ ماضٍ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: طِيبُ منازِلِ الجَنَّةِ ومَقَرِّها؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ يعني: الجنَّات التي لا يتمنَّى الإنسان إلا أنْ يَأْوِيَ إليها، وكلُّ أَحَدٍ يتمنَّى هذا المأوى لكن لا ينالُهُ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ أَهْلَ الجَنَّـة يُكْرَمُون بما يُنَـعَّمون به كما يُكْرَمُ الضَّيْـفُ بضيافته؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿نُزُلًۢا﴾ وتعلمون ما يُجْلَبُ للضَّيفِ من السُّرورِ في نَفْسِه

إذا أُكْرِمَ بالضِّيافَةِ بخلاف الذي يُقَدَّمُ له الطَّعام عادِيًّا، يرى أَنَّه شيء معتادٌ ليس له أهمِّيَّة، لكن الذي يُقَدَّم له كضيافة وكأنه رجلٌ مُكْرَمٌ ومُحْتَرَم يجد في نفسه تلذُّذَه بالطَّعامِ التَّلَذُّذَ الجَسَدِيَّ ويجد تلذُّذًا وراحةً نَفْسِيَّة وإكرامًا، ولهذا سَمَّاه الله تعالى: ﴿نُزُلًا﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّ الجزاءَ مِن جِنْسِ العَمَلِ؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

الآية (٢٠)

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة:٢٠].

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ﴾ بالكُفْر والتَّكْذيب ﴿فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾] والعياذُ بالله (مأواهم) أي: مَرْجِعُهُم النَّار لا يَخْرُجونَ منها، ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ وانظر إلى قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ﴾ يُمَنَّوْنَ بالخروجِ فترتَفِعُ بهم إلى أن يَقْرُبوا من أبوابِها ثم بعد أن يتمَنَّوُا الخروجَ ويُرِيدُوه يُعادُونَ فيـها، وهذا أَشَدُّ -والعياذ بالله- في التَّعْذيب، فلو فَرَضْتَ أنَّك محبوسٌ في مكانٍ فقيل لك: تعالَ، تعالَ، وكلَّما قَرُبْتَ من البـاب ردَّكَ أو أن تبقى في حُجْرَة الحَبْس؛ فأيٌّ أشَدُّ؟

الجوابُ: أن يُقَرَّبَ إلى الباب ثم إذا أراد أن يَخْرُجَ قيل له: ارْجِعْ؛ لأنه -والعياذ بالله- إذا فعل هكذا صار كأنه يُحْبَس عدَّة مراتٍ؛ لأنَّ مَن أَشْرَفَ على الحياةِ ثم عاد إلى الموت صار ذلك مَوْتًا آخَرَ فتكون عَوْدَتُه إلى مَحْبِسِه حبسًا ثانيًا.

وهكذا أهلُ النَّار -والعياذُ بالله- يُمَنَّوْنَ الخروجَ، وكلَّما أرادوا أن يخرجوا أُعيدوا فيها، وقيل لهم أيضًا توبيخًا ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ فيجتمع عليهم -والعياذ بالله- العذابُ الجسميُّ والعذابُ القَلْبِيُّ؛

فالجِسْمِيُّ من النَّارِ، والعياذُ بالله: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ والقلبيُّ من هذا التَّوْبيخِ، قال تعالى: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ وأيُّ حَسْرَة للإنسانِ عندما يقال له هكذا؟! ألَا يتحَسَّرُ ويقول: ليتني ما كَذَّبْتُ! كيف أُكَذِّبُ؟! ويَتَمَنَّى!

ففيه -والعياذ بالله- من التَّوبيخِ والتَّنْديم وإدخالِ الحَسْرَةِ ما هو ظاهِرٌ؛ ولهذا قال عَزَّوَجَلَّ في آيةٍ أخرى: ﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسَرَتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَرِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ ونحن إذا فاتنا شيءٌ في قضاء الله وقَدَرِه وهو مما يَسُرُّنا فهل الواحِدُ يَنْدَمُ؟

الجوابُ: يندَمُ، ويقول: ليتني فَعَلْتُ، وليتـني فعلْتُ، مع أنه مَنْهِيٌّ عنه؛ لأنَّ هذا يفتَحُ عَمَلَ الشَّيطانِ، ويفتح بابَ النَّدمِ أو الاعْتِراض على القَدَرِ؛ ولهذا نهى رسولُ الله ﷺ عنه(١).

فالمُهِمُّ: أنَّ هذا التَّوْبيخَ يكون عذابًا قلبيًّا، وأمَّا كونُهم يُرَدَّدُون: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ فهو عذاب جسمِيٌّ بدني، فهم دائمًا -والعياذُ بالله- في عذابٍ وحَسْرَةٍ ونَدَمٍ، كما قال تعالى: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ [الزخرف:٧٥] دائمًا وأبدًا، ليس هناك فَتْرَةُ راحةٍ؛ ولهذا يقولون: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٩] فانظر -والعياذُ بالله- إلى الخِزْيِ والتَّقاصُرِ، فما قالوا: ادْعُوا ربَّكُـمْ يَرْفَعِ العَذابَ، ولكن قالوا: ﴿يُخَفِّفْ﴾ فقـط، ولَا قالوا: ﴿يُخَفِّفْ﴾ دائمًا؛ بل قالـوا: ﴿يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا﴾، وهذا يـدلُّ على شدَّة يَأْسِهم؛ لأنَّهم أُيِئسُوا من الرَّحْمة -والعيـاذ بالله- يتَمَنَّوْنَ، وليس لهم وجهٌ على الله

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله، رقم (٢٦٦٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أن يسألوه، فيطلبونَ من خَزَنَةِ جهَنَّمَ أن يشفعوا لهم إلى الله أن يُخَفِّف عنهم، قال عَزَّوَجَلَّ عنهم: ﴿يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ ولكن تقـول لهم الخزنة وتُوَبِّخُهُم: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ فيقولون ﴿بَلَىٰ﴾ ثم يقولون: إذن نحن بُرَآءُ منكم ولا نتدخَّلُ في شَأْنِكُم.

وقوله تعالى: ﴿فَٱدْعُواْ﴾ ادعوا أنتم؛ يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا دُعَـٰٓؤُاْ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ﴾ ضائع لا يَنْفَعُهُم؛ ولهذا إذا ألَحُّوا على ربِّهم: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾ وانظرْ إلى التَّضَرُّعِ: ﴿رَبَّنَا﴾ والاعترافِ: ﴿غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾ فهم حكموا على أنْفُسِهِـم، وكلُّ هذا من باب التَّضَرُّعِ؛ لأنَّ الإنسان إذا اعْتَبَرَ بإساءته فإنَّ هذا مَدْعَاةٌ لرحمته، فإذا جاءك واحِدٌ يَعْتَذِر بذنبه ويعترف بذنبه، فهذا يوجِبُ أنَّك تَرْحَمُه، فهم يعترفون لعلهم يُرْحَمُون: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَـٰلِمُونَ﴾؛ قال الله تعالى: ﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾: ﴿ٱخْسَـُٔواْ﴾ أي ذلُّوا وكونوا حقَارَى ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ بأي كلمة حينئذ -والعياذ بالله- فيَيْئَسونَ من كل خَيْرٍ، نسألُ الله السَّلامَةَ؛ ولهذا قال: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ الفِسْقَ نوعان: فِسْقٌ أَكْبَرُ، وهو الكُفْرُ، وفِسْقٌ دون ذلك وهو المعاصي.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الكُفَّارَ مأواهم النَّار؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ الفِسْق المُخْرِج من المِلَّة، وهناك فِسْقٌ آخرُ ليس مُخْرِجًا من المِلَّة؛ مثل

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾.

وهنا قال: ﴿فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ ولم يَقُلْ: فلهم النَّارُ مأوًى أو فلهم نارُ المأوى، والفارق: أنَّ النَّار كلُّ أَحَدٍ لا يُحِبُّ أن تكون مأواه، بخلاف الأَوَّلِ؛ فالجَنَّة كُلٌّ يُحِبُّ أن تكون هي المأوى، وأمَّا هذا فلا، وإن كان هذا الفَرْقُ قد يختلف في بعض الآيات؛ مثل قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات:٣٧-٤١].

ولكنْ لكُلِّ مقامٍ مقالٌ؛ فهنا المقامُ مقامُ مُعادَلَة وموازَنَة، فلهذا فَرَّقَ بينهما؛ قال: ﴿جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ﴾ وهنا قال: ﴿فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ أما هنا فليس هناك مُعادَلَة؛ لأَنَّه لما ذكر أنَّ قومًا يَدَّعُون لأَنْفُسِهم أنَّهم على الحَقِّ، فأنكر الله ذلك.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثباتُ النَّار؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ وهي موجودة الآن، والدَّليلُ قولُه تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: شِـدَّةُ عذابِ أَهْلِ النَّارِ لِكَوْنِهم يُمَنَّـوْنَ بالخُرُوجِ ويُرْفَعُـونَ فيَرتَفِعُ بهم اللهب حتى إذا ظَنُّوا أنَّهم يَخْرُجونَ أعيدوا فيها: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ أهْلَ النَّار يُجْمَعُ لهم بين العذابِ الجِسْمِيِّ والعذابِ القَلْبِيِّ للتَّوْبيخِ؛ قال تعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾.

• • ۞ • •

الآية (٢١)

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة:٢١].

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ هذا فِعْلٌ مُؤَكَّدٌ بالنون واللام ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم﴾ تأكيدًا وجوبيًّا لأَنَّه مُثْبَتٌ مُستقبَلٌ في جواب قَسَمٍ غير مَفْصولٍ من لامِهِ.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾ عذاب الدُّنيا بالقَتْلِ والأَسْر والجَدْب سنينَ والأَمْراضِ ﴿دُونَ﴾ قبْلَ ﴿ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ عذابِ الآخِرَة ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ أي مَنْ بَقِيَ منهم ﴿يَرْجِعُونَ﴾ إلى الإيمان] وهذا وعيدٌ من الله عَزَّوَجَلَّ أنه يُذيقَهُم العذابَ الأدنى قبل العذابِ الأَكْبَرِ، وهو عذاب الآخِرَة لعلَّهُم يرجعون؛ و(لعلَّ) للتَّعْليل.

ولكن هل رجعوا؟

الجوابُ: منهم من رَجعَ، ومنهم من لم يَرْجِعْ؛ فإن قريشًا أُصيبوا بالجَدْبِ والسِّنينَ والقَتْلِ ببدر. فقد قُتِلَ شُرَفاؤهم، والأَسْرِ أيضًا، ومع ذلك منهم من رَجعَ ومنهم من لم يرجع، فمن أراد الله له النَّجاة أحيا الله قَلْبَه بهذه المواعظ فرجع، ومن طَبَعَ الله على قلبه بقي على ما هو عليه ولم يَرْجِعْ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بيانُ حِكْمَةِ الله عَزَّوَجَلَّ فيما يبتلي به من المصائِب؛ تُؤخَذُ من قوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم﴾، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ وهذا كقوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن عـذابَ الدُّنيا لا يُنْـسَبُ إلى عَذابِ الآخِـرَة؛ لما بينهما من الفَرْقِ العظيم، فهذا أدنى وذاك أَكْبَرُ؛ يعني: كلاهما في طَرَفَيْ نَقيضٍ، يعني أدنى اسم تفضيلٍ، وأَكْبَرُ اسم تفضيلٍ، فإذن: هل يُنْسَبُ أدنى شيءٍ إلى أعلى شيءٍ؟

الجوابُ: لا نِسْبَةَ، ولهذا نقول: الفَرْقُ عظيمٌ بين عذاب الدُّنيا وعذابِ الآخِرَة.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: قَبُول التَّوبَةِ من الكافِرِ؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثباتُ حِكْمَةِ الله؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ فإنَّ (لعلَّ) للتَّعليلِ، والتَّعْليل هو الحِكْمَةُ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثباتُ العذابِ في الآخِرَة؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ فإنَّ المرادَ به عذابُ الآخِرَة.

الآية (٢٢)

• • ◦ • •

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة:٢٢].

• • ◦ • •

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ القرآنِ ﴿ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ أي لا أَحَدَ أظلَمُ منه ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ المشركينَ ﴿مُنتَقِمُونَ﴾].

[﴿مَنْ أَظْلَمُ﴾ أفاد المُفَسِّر بقوله: [لا أَحَدَ أظْلَمُ] أنَّ الاسْتِفْهامَ هنا للنَّفْي؛ أي: لا أحد أظْلَمُ منه، والظُّلْم سبق لنا عدة مرات أنَّ المراد النَّقْصُ في الأصل؛ لقوله تعالى: ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا﴾ أي لم تَنْقُصْ، والمراد به نَقْص الإنسان فيما يجب عليه فيدَعُه؛ أو نَقْصُه فيما مُنِعَ منه فيرتَكِبُ المُحَرَّمَ.

وقوله: ﴿مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾: ﴿ذُكِّرَ﴾ ما قال: ممن ذكَّره الرَّسُولُ ﷺ لأجل أن يَشْمَلَ كُلَّ مُذكِّرٍ؛ لأنَّ بَعْضَ النَّاس قد يخضع لبعضِ المُذَكِّرينَ لكونه فلانًا، وهذا ليس خاضعًا للآياتِ، بل هذا خاضع للأشخاصِ فتَجِدُه إذا ذُكِّرَ بهذه الآيَةِ إن ذكَّره فلانٌ قَبِل وإن ذَكَّره آخرُ لم يَقْبَلْ، ويُوجَدُ أناسٌ إذا أَمَرَهم إنسانٌ بأمرٍ معروفٍ لم يُهِمَّه، بل ربما يَسْتَهْزِئ به، وإذا أَمَرَهم به آخَرُ امْتَثَلَ وأظهر الموافَقَة؛ ولهذا قال: ﴿مِمَّن ذُكِّرَ﴾ لئلا يتقيَّدَ بمذكِّرٍ مُعَيَّنٍ، بل أيَّ مُذَكِّرٍ يكونُ.

وقوله تعالى: ﴿بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: المراد به [القرآن] والأصَحُّ

أنه أعَمُّ من القرآن ويَشْمَلُ حتى من ذُكِّروا بالتَّوْراة في زَمَنِ التَّوراة، ومن ذُكِّروا بالإنجيل في زمَنِ الإنجيل، وبالزَّبورِ في زمن الزَّبُور؛ لأنَّ هذا حُكْمٌ عامٌّ.

وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦٓ﴾ أتى بالرُّبُوبيَّة المُقْتَضِيَةِ للانقياد؛ لأنه ما دام التَّذْكيرُ بآيات ربٍّ لك فأنت مربوبٌ عبدٌ، والمربوبُ في تدبيرِ ربِّه.

وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ وفي آيَةٍ أخرى ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ والفَرْقُ أنَّه في الآيات الأخرى ﴿فَأَعْرَضَ﴾ أنه بادَرَ بالإعراضِ، وفي الثَّانِيَة بعدما فكَّر وقدَّر، وفي هـذه الآية: أَعْرَض، والنَّاسُ هكذا منهـم من يُعْرِضُ لأَوَّل وَهْلَة ولا يَلْتَـفِت ولا يُفكِّر، ومنهم من قد يفكِّر، ولكن في النهاية يُعْرِضُ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ الجملة استئنافِيَّة لبيان أو لتهديدِ هؤلاء المُعْرِضينِ، وبيانِ أنَّهُم من المجرمينَ؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ وهو إظهـارٌ في مَوْضِعِ الإضمار، والأَصْل: (إنَّا مِنهم)، لكنْ أظْهـرَ في مَوْضِعِ الإضمار للسَّبَبين السابِقَيْن اللذينِ أَشَرْنا إليهما:

١- أنه من أَجْل أن يحكم على هؤلاء بالإجرامِ.

٢- ولأجل أن يكون الحُكْمُ عامًّا لكلِّ مُجْرِمٍ فيهم وفي غيرهم.

والإجرامُ بمعنى الإثْم، والمُجْرِمُ هو الآثِم الذي ارتكَبَ ما لا يحِلُّ له؛ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ﴾.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ مُنْتَـقِمون، جَمَعَ ليطابِقَ المبتـدأَ ﴿إِنَّا﴾ الذي هو اسم (إنَّ) يعني أصبحت (إنَّنا) لكن حُذِفَتْ النُّونُ الثَّانِيَة تخفيفًا.

وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ الجمع هنا وفي كل ما يضاف

إلى الله يُرادُ به التَّعظيمُ، وقد سبق لنا أنَّ النَّصْرانيَّ لو استدلَّ بالجمع على التَّعَدُّد، قلنا له: أنت من أصحاب الزَّيْغِ الذين يتَّبِعون ما تشابه منه؛ لأنَّك لو رجَعْتَ إلى قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ زال عنك هذا الاشتباه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ هي كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ فكلمة: ﴿ذُو انتِقَامٍ﴾ تعني أنه صاحِبُ انتقامٍ؛ يعني: لمن يستحِقُّه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ مُقَيَّدَةٌ: منتقمون من المجرمينَ، وبهذا نعرف أنَّ المُنْتَقِمَ ليس من أسماء الله؛ لأنَّ الاسْمَ من أسماء الله يكون مُطْلَقًا دالًّا على المعنى الأَحْسَنِ على كلِّ تقديرٍ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ فكل كلمة تحتمل هذا وهذا فإنَّها لا تكون من أسماءِ الله؛ لأنَّ الله يقولُ: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ والانتـقامُ لا شكَّ أنه حَسَنٌ في محَلِّه؛ وعليه فلا يَصِحُّ أن يُوصَفَ الله به على سبيل الإطلاقِ، وهو معدودٌ من الأسماء الحسنى المشهورَةِ، لكنَّ هذه الأَسماءَ الحسنى المشهورة كما قال شَيْخُ الإسلامِ[1] وغَيْرُه من أهل التَّحقيقِ رَحِمَهُمَاللَّهُ: «ليست ثابِتَةً عن الرَّسُولِ عَلَيْهِالصَّلَاةُوَالسَّلَامُ» لأن فيها أشياءَ من الأَسْماء لا تصِحُّ اسمًا لله.

إِذَن: فهل يُوصَفُ الله بالانتقامِ مطلقًا، فيقال: المُنْتَقِم؟

والجوابُ: لا؛ لأنه ما ورد إلا مقيَّدًا، وورد ﴿ذُو انتِقَامٍ﴾ نكِرَةً في سياقِ الإثباتِ فلا تدلُّ على العمومِ؛ لأنَّ النَّكِرَةَ في سياق الإثباتِ -كما هو معروف- لا تُفيدُ العمومَ، وإنَّما تفيدُ العمومَ إذا كانت في سياقِ النَّفْي أو النَّهْي أو الشَّرط أو الاسْتِفْهامِ الإنكاريِّ، كما ذكره أهلُ الأُصولِ.

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٦/ ٣٧٩).

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ من كان على هذا الوَصْفِ فإنَّه لا يكون أحدٌ أظْلَمَ منه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾.

وها هنا مسألةٌ، وهي أن مِثْل هذه العبارة جاءت في غَيْرِ هؤلاءِ، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، وفي السُّنَّة: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي»[1] فكيف نَجْمَعُ بين هذه النُّصوصِ؟

الجوابُ: ذكرنا فيما سبق أنَّ الجَمْعَ بأحَدِ وَجْهَيْنِ:

الوجه الأول: أن نقولَ: إن قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ لا يفيدُ أنَّ الظالمَ لا يُوجَدُ مُشارِكٌ أو مساوٍ له في هذا الظُّلْمِ، وإمَّا نقول: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ﴾ اشتركا في الأَظْلَمِيَّة، وأنَّ هذا أعلى ما يكون في الظُّلْمِ.

والوجه الثاني: أن نقول: إنَّ الأَظْلَمَ بالنِّسْبَةِ لما تحته مِن نَوْعِهِ، وهنا: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ يعني هذا أظْلَمُ ما يكون مِنَ المذكورينَ، بخلاف مَن ذُكِّرَ ثم أَعْرَض عن البَعْضِ، أو ما أشبه ذلك، فيصير هذا الأَظْلَمَ بالنِّسْبة لما تحته من نَوْعِه؛ كقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ يعني لا أَحَدَ أظلَمُ في مَنْعِ شيء من الأشياء مِمَّن منع مساجِدَ الله، وعلى هذا فَقِسْ، فصار الجوابُ بأحَدِ وجهين.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، رقم (٧٥٥٩)، ومسلم: كتاب اللباس، باب تحريم تصوير صورة الحيوان، رقم (٢١١١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ الإنسانَ يجب أن يَقْبَلَ التَّذْكيرَ من أيِّ مَن ذَكَّره، تُؤخَذُ من بيانِ الفِعْلِ ﴿ذُكِّرَ﴾، فلم يَقُل: ممن ذكَّره الرَّسُول، أو ذَكَّرَه فلان أو فلان، فإذا وَقَعَ التَّذْكيرُ أو أتاك التَّذكيرُ من أيِّ جِهَةٍ فالواجِبُ عليك القَبولُ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ الإعراضَ بعد العِلْم أقْبَحُ منه حالَ الجَهْلِ؛ لأَنَّ الله تعالى جَعَلَ هذا أعظمَ الفِسْقِ: أن تُذَكَّرَ ثُمَّ تُعْرِضَ، لكن مَن أَعْرَضَ بدون تذَكُّرٍ فهو أَهْوَنُ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ الجزاءَ من جنْسِ العمل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّ الإعراضَ عن آيـات الله بعد التَّذْكيرِ بها إجـرامٌ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: جواز إضافَةِ الانتقامِ إلى الله مُقَيَّدًا؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ يعني الإخبار عن الله بأنه مُنْتَقِمٌ، لكنْ مُقَيَّدًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثباتُ عَظَمَةِ الله؛ لقوله تعالى: ﴿مُنتَقِمُونَ﴾ فإنَّ الجَمْعَ هنا للتَّعْظيم.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: بلاغَةُ القُرْآنِ وأنَّه في أعلى ما يكون من البلاغَةِ والفصاحَةِ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ ولم يَقُلْ: إنَّا منه؛ من أجل أن نَسْتَفيدَ فائِدَتَيْنِ:

الفائِدَة الأولى: أنَّ هذا مُجْرِمٌ.

الفائدة الثَّانِيَة: أنَّ الحُكْمَ يعمُّهُ وغَيْرَه من المجرمينَ.

الآية (٢٣)

• قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [السجدة:٢٣].

ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾: ﴿ءَاتَيْنَا﴾ بمعنى أَعْطَيْنا، وهو إعطاء شرعي قَدَرِيٌّ، وقوله تعالى: ﴿مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾: ﴿مُوسَى﴾ مفعولٌ أوَّلُ، و﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ مفعولٌ ثانٍ، و(أل) في قوله تعالى: ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ للعَهْدِ الذِّهْني؛ لأَنَّه لم يُسْبَقْ له ذِكْرٌ حتى يُحالَ على المذكورِ، وليس شيئًا حاضرًا حتى يقولَ: إنَّه عَهْدٌ حضوريٌّ.

إِذَن: فهو عَهْدٌ ذِهْنِيٌّ؛ لأنه كتابٌ معهودٌ معروفٌ، وهو التَّوْراةُ.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ﴾ شكٍّ ﴿مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾] ﴿فَلَا تَكُن﴾ الخطابُ هنا -على ما مشى عليه المُفَسِّر- للرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، والضَّميرُ في لقائه يعودُ على موسى، والمعنى: فلا تكُنْ يا محمَّدُ في مِرْيةٍ؛ أي في شكٍّ ﴿مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ أي لقاءِ موسى؛ يعني فإنَّكَ ستُلاقيهِ، قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [وقد التقيا ليلةَ الإسراء] هذا ما ذهب إليه المُفَسِّر وذهب إليه كثيرٌ من المُفَسِّرين أيضًا؛ أنَّ الخطابَ للرَّسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، والضَّميرُ يعودُ على موسى، والمعنى: لا تكُنْ يا محمَّدُ في شكٍّ من مُلاقاةِ موسى؛ فإنَّكَ ستُلاقيه، وقد لاقاه في لَيْلَة الإسراءِ.

وقال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [الإسراء] لأنَّ الإِسْراءَ والمعْراجَ في ليلةٍ واحِدَة، هذا ما ذَهَبَ إليه المُفَسِّر؛ ويُحْتَمَلُ أنَّ قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُن﴾ خطابٌ لموسى؛ يعني: آتَيْنا موسى الكتابَ قائلينَ له: لا تَكُنْ في مِرْيَةٍ من لقائِهِ؛ أي لقاءِ الجَزاءِ عليه؛ أي: على الكتابِ، والمعنى أنَّ هذا الكتابَ الذي آتيناكَ إيَّاه لا بدَّ أن يُحاسَبَ عليه مَن نَزَلَ إليهم حتى يلاقُوا جزاءَهُم.

ويُحتَمَل أنَّ المعنى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ أي لقاء ما لَقِيَه موسى من الأذى؛ فإنَّ موسى أُوذِيَ، وقال النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لَقَدْ أُوذِيَ مُوسَى بِأَكْثَرَ مِنْ هَذا فَصَبَرَ»[(١)] وهذا أيضًا من المعنى الحَسَن: أنَّ المعنى: أنَّنا آتَيْناه وآتَيْناكَ أيضًا وأُوذِيَ فستُؤْذَى؛ فلا تَكُنْ في شكٍّ من هذا، وهذا هو الواقِعُ؛ فإنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَقِيَ من الأذى الشَّيْءَ الكثيرَ، وكُلُّ من تَبِعَ شَريعَتَه وانْتَهَجَ مِنهاجَهُ في الدَّعْوة إلى الله والعَمَل في شَريعَةِ الله فَسَيلْقى الأذى، ولكنَّ الشَّأْنَ كلَّ الشَّأْنِ: هل يَلْزَمُ من الأذى الضَّرَرُ؟

الجوابُ: لا يَلْزَمُ من الأذى الضَّرَرُ؛ ولهذا يَصِحُّ أن نقولَ: إنَّ الله يُؤْذَى ولا يتضَرَّرُ؛ كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ وكما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الحديث القُدُسِيِّ: «يُؤْذِيني ابْنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ»[(٢)] مع أنه قال عَزَّ وَجَلَّ في الحديثِ القُدُسِيِّ: «يَا عِبادِي، إنَّكُمْ لم تَبْلُغُوا ضُرِّي

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب الصبر على الأذى، رقم (٦١٠٠)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوي إيمانه، رقم (١٠٦٢)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ الآية، رقم (٤٨٢٦)، ومسلم: كتاب الأدب، باب النهي عن سب الدهر، رقم (٢٢٤٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فَتَضُرُّونِي»[1] فلا يَلْزَمُ من الأذى الضَّرَرُ، فها نحن الآن نتأذَّى برائحةِ إنسانٍ أَكَلَ بصَلًا أو ثُومًا ولا نتَضرَّر، فلا يَلْزَمُ من الأَذى الضَّرَرُ، والرَّسولُ ﷺ لا شكَّ أنَّه أُوذِيَ، ولكن ما ضَرَّه ذلك، والحمْدُ لله! صار الأَمْرُ والعاقِبةُ للرَّسول ﷺ.

وأمَّا قوله تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ فالمعنى أنه لن يضرُّوكم أبدًا، ولكن مِن أذًى؛ ولهذا قالوا: إنَّ الاسْتِثْناءَ في هذه الآيةِ مُنْقَطِعٌ.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى﴾ ﴿جَعَلْنَٰهُ﴾: الضميرُ يعود على موسى أو الكِتاب؛ ولهذا قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَجَعَلْنَٰهُ﴾ أي موسى أو الكتابَ ﴿هُدًى﴾ هاديًا ﴿لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾].

﴿هُدًى﴾ مصدرٌ، قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنَّه بمعنى اسْمِ الفاعِلِ [هاديًا ﴿لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾]، واسْمُ الفاعِلِ صالِحٌ للكتابِ وصالِحٌ لموسى.

وقوله تعالى: ﴿لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ بنو إسرائيلَ أي: ذُرِّيَّة إسرائيلَ، فيشْمَلُ الذُّكورَ والإناثَ، لكِنْ لو قُلْتَ: (بنو فلان) وهو شَخْصٌ، وليس هو بقبيلَةٍ، فـ(بنو): للذُّكور، فإذا قلْتَ مثلًا: (بنو محمَّدٍ) فالمعنى: الذُّكور، وإذا قُلْتَ: (بنو تميمٍ) فيشْمَلُ الذُّكورَ والإناثَ؛ لأنَّهم قبيلةٌ، وإذا قلتَ: (بنو آدَمَ) فيَشْمَلُ الذُّكورَ والإناثَ، وأما قوْلُ الرَّسُولِ ﷺ: «إِنَّ هَذَا شَيْءٌ كَتَبَهُ اللهُ عَلَى بَنَاتِ آدَمَ»[2] فخاصٌّ بهنَّ.

وإسرائيلُ هو يعقوبُ بْنُ إسحاقَ عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ، وهُوَ نَبِيٌّ من الأنبياءِ، ويقولون: معنى (إسرائيلَ) أي: عَبْدُ الله، وهو لقبٌ له.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٧)، من حديث أبي ذر الغفاري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الحيض، باب كيف كان بدء الحيض، رقم (٢٩٤)، ومسلم: كتاب الحج، باب بيان وجوه الإحرام (١٢١١)، من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: إثباتُ رسالَةِ موسى؛ لقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾، وتأكيدُ هذه الرِّسالَةِ بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا﴾ لأنَّ الجملة مُؤَكَّدَةٌ بثلاثَةِ مُؤَكِّداتٍ: اللام، وقَدْ، والقَسَم المُقَدَّر.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ رسولٌ حقًّا لا يجوز الشَّكُّ فيه؛ لقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ يعني أنَّ هذا حَقٌّ؛ فلا تكُنْ في شَكٍّ من أنَّه حصل لموسى هذا الذي حصل، وهذا على التَّفسيرِ الذي ذكرنا، أمَّا على ما قاله المُفَسِّر فيُسْتفادُ منه: أن محمدًا ﷺ سوف يُلاقي موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ التَّوْراةَ كالقرآنِ هُدًى؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى﴾ لكن لبيانٍ مَخْصوصٍ وهو: ﴿لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: الإشارَةُ إلى أنَّه لا ينبغي لنا أن نطلُبَ الهُدى من التَّوْراة؛ لقوله تعالى: ﴿هُدًى لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أما مِن بَعْدِ بَعْثَة الرَّسُول فالهدى لهم هو القُرْآنُ.

الآية (٢٤)

• ● ● •

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة:٢٤].

• ● ● •

وقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾.

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً ﴾ أي: صيَّرْنا، والجَعْل هنا كونيٌّ، وغالِبُ الجَعْلِ المذكور في القرآن كونيٌّ، وإن كان يأتي بمعنى الشَّرْعيِّ؛ مثل قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ﴾ إذ المعنى: ما جعله شَرْعًا وأمَّا كَوْنًا فقد وقع.

وقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ ﴾ أي: مِنْ بني إسرائيل.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿أَيِمَّةً﴾ بتحقيقِ الهمزتين وإبدال الثانية ياءً] هذه هي تفسيرٌ للأئِمَّـة، فـ(أئمة) هذا تحقيق، و(أَيِمَّة) إبدال الثانيـة ياءً، وكثيرٌ من القُرَّاء عنـدنا يقرؤونها بالتَّسْهيل دائمًا يقولون: (أَيِمَّة).

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [قادة] تفسير لأئِمَّة؛ لأنَّ الإمامَ هو الشَّيْء الذي يُقتدَى به ويُتَّبع.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿يَهْدُونَ﴾ النَّاسَ ﴿بِأَمْرِنَا﴾] ﴿يَهْدُونَ﴾ أي يَدُلُّون النَّاس، والمراد بالهدايَةِ هنا هدايَةُ الدَّلالَةِ؛ لأن هدايَةَ التَّوْفيق لا تكونُ إلا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لكن هذه هدايَةُ دلالَةٍ.

وقوله تعالى: ﴿بِأَمْرِنَا﴾ يُحتَمَل أن يكون الأمْر الشَّرْعي أو الأَمْر الكَوْني، فإن كان المرادُ به الشَّرْعيَّ، فالمعنى: يَهْدُون النَّاسَ بالشَّرْعِ؛ أي: إليه، وإن كان الأَمْرُ قَدَرِيًّا فالمعنى: أَنَّهُم يَهْدونَ ذلك ويَدُلُّونهم بقَدَرِنا وتَقْدِيرنا، والحقيقةُ: أنَّ الأَمْر هنا شاملٌ للمعنيينِ جميعًا.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿لَمَّا صَبَرُوا﴾ على دينهم وعلى البلاءِ مِنْ عَدُوِّهِم، وفي قراءةٍ بِكَسْرِ اللام وتخفيف الميم] وهي: (لِما صَبَرُوا)].

فقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَمَّا صَبَرُوا﴾ لما هذه فيها قراءتان: قراءة: (لِما صَبَرُوا)، وقراءة: ﴿لَمَّا صَبَرُوا﴾، أما على قراءةِ: ﴿لَمَّا صَبَرُوا﴾ فهي بمعنى حينَ، فهي إذن ظَرْف، وأما على قراءة (لِما صَبَرُوا) فاللَّامُ حَرْفُ جرٍّ و(ما) مَصْدَرِيَّة؛ أي: لصَبْرِهم، وتكون اللام هنا لامَ التَّعليل.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿صَبَرُوا﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [على دينهم وعلى البَلاءِ من عَدُوِّهم]، وهذا هو الحق، فيقول: الصَّبْرُ هنا على أحكامِ الله الكَوْنيَّة والشَّرعيَّة؛ فالشَّرعيَّة على دِينِهم، والكَوْنِيَّة على قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [وعلى البلاءِ مِن عَدُوِّهم].

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا﴾ الدالَّةِ على قُدْرَتِنا ووَحْدانِيَّتنا ﴿يُوقِنُونَ﴾] ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ الواو حرف عطف، و(كان) معطوفَةٌ على ﴿صَبَرُوا﴾، يعني لهذين الأَمْرَينِ: الصَّبْرِ واليقينِ، واليقينُ هو أعلى درجاتِ الإيمان؛ لأنَّ اليقينَ معناه: أنه يقينٌ لا تَزَعْزُعَ معه ولا شَكَّ فيه، وقد قيل: (بالصَّبْر واليَقينِ تُنالُ الإمامةُ في الدِّينِ)، وهي مأخوذَةٌ من هذه الآيَةِ: ﴿لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا﴾ الدَّالَّة على قُدْرَتنا ووَحْدانِيَّتنا] يَشْمَلُ الآياتِ الشَّرعيَّةَ والكونيَّةَ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: فضيلةُ الصَّبْرِ؛ تُؤخَذُ من الجزاءِ عليه؛ أي: مِن كَوْن الصَّابِرِ يكون إمامًا، وهذا دليلٌ على أنَّ الصَّبْرَ محبوبٌ إلى الله ويجازي عليه بهذا الجزاء العَظيم.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: فضيلَةُ اليقينِ؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: نَيْلُ الإمامَةِ في الدِّينِ بهذين الوَصْفَيْنِ؛ وهما: الصَّبْرُ واليقين.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الجزاءَ مِن جِنْسِ العمل؛ لأنَّ هؤلاء لما صَبَروا وأيقنوا صاروا أئِمَّةً يُقتَدَى بهم؛ فكلما أصاب الإنسانَ شيءٌ قال: لقد أُصيبَ فُلانٌ فصبر فلْتَصْبِرْ، وكلما وردت عليه شُبْهَةٌ قال: لقد كان فلان مُوقنًا فأنا أُوقِنُ، فيكون الإنسانُ بذلك إمامًا.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثباتُ الآياتِ لله؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾.

الآية (٢٥)

قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [السجدة:٢٥].

قوله: [﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من أَمْرِ الدِّينِ] ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ﴾ الفَصْل بمعنى: القضاء؛ أي يقضي ويَحْكُمُ حتى يَمِيزَ الحقَّ لهؤلاء وهؤلاء.

والحُكم كما قال الفُقَهاء: هو فَصْلُ الخُصوماتِ؛ لأنه به يَتَميَّزُ هذا من هذا ﴿يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ في حُكْمِهِ الجزائيِّ؛ لأن حُكْمَه الشرعِيَّ فاصِلٌ في الدُّنيا، فهؤلاء على حقٍّ، وهؤلاء على ضَلالٍ، لكن مرادُه: الحكْمُ الجزائيُّ الذي هو غايَةُ الشَّرْعِ، فيومَ القيامَةِ يَفْصِلُ بينهم؛ فهؤلاء إلى النَّار، وهؤلاء إلى الجنَّة.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فقد كانوا يختلفونَ في الدُّنْيا؛ فالمؤمنون يقولون: إنَّ هذا هو الحقُّ، وأولئك يقولون: ليس هذا هو الحَقَّ، لكنْ يَوْمَ القيامَةِ يُفْصَل بينهم فيما كانوا فيه يختلفون، ويَتبيَّن مَن هو الذي على الحقِّ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنه لا حاكِمَ في الآخِرَة إلا الله، تُؤخَذُ من ضميرِ الفَصْل في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ﴾ فهو وَحْدَه يَفْصِلُ، وقد قال الله تعالى في آيةٍ أخرى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾، وقال: ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثباتُ يَوْم القيامَةِ؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يَحْكُمُ بين المؤمنين والكافرين في ذلك اليَوْمِ؛ لقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فيقول: أنتم على حَقٍّ، وأنتم على باطِلٍ؛ وهؤلاء للجَنَّةِ، وهؤلاء للنَّارِ، والغالِبُ الْمُنْتَصِرُ هم المؤمنون.

وقد قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء:١٤١]، فانظر! قاضٍ يُعْلِنُ الحُكْمَ بين الخَصْمَيْنِ ويقول: أنتَ الغالِبُ، يعلن بالحُكْمِ قبل القَضِيَّة، وهذا في حَقِّ الله عَزَّوَجَلَّ لا شَكَّ أنه جائِزٌ، لكنْ في قضيَّة في الدُّنْيا ويأتي القاضي ويقول: يا فلانُ أنت كاذِبٌ، وذاك ليس له سبيلٌ عليكَ، فهذا لا يجوز:

أولًا: لأنَّ القاضيَ إلى الآن ما عُرِضَتْ عليه هذه القضيَّة ولا يدري.

ثانيًا: أنَّ الخَصْمَ غالبًا يَذْكُرُ الحُجَّة التي له سواء إنْ قَصَدَ إخفاءَ قضِيَّة خَصْمِه أم ظنَّ أنها لا تَنْفَعُه.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنـه لا وِفـاقَ بين المؤمنينَ والكافرين؛ لقـوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فأيُّ إنسانٍ يحاوِلُ أن يقارِبَ بين الإسلامِ والنَّصْرانِيَّة

أو بين الإسلامِ واليهودِيَّة فإنَّه أراد أن يَرُدَّ اللَّبَنَ في الضَّرْعِ! وهذا غير مُمْكِنٍ؛ فكلُّ كافرٍ مهما كان سواءٌ انتسَبَ إلى الإسلامِ أم كان كافرًا مُعْلِنًا كُفْرَه فإنَّه لا يُمْكِنُ أن يتوافَقَ مع المؤمنين أبدًا، ومن زعم ذلك فقد أَبْعَدَ النَّجْعَةَ وحاول شيئًا مُسْتَحيلًا.

الآية (٢٦)

• ● ● •

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة:٢٦].

• ● ● •

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم﴾ أي: يتبيَّنْ لكفَّارِ مكَّة إهلاكُنا كثيرًا ﴿مِّنَ الْقُرُونِ﴾].

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ الهَمْزة هنا للاسْتِفْهام، والواو حرفُ عَطْف، وقد سبق لنا في مثل هذا التَّرْكيب أنَّ للعلماءِ في ذلك قولَيْنِ في الإعرابِ.

وقوله تعالى: ﴿يَهْدِ لَهُمْ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [يَتبيَّنْ لهم]، وفي الحقيقةِ أنَّ هذا التفسيرَ تفسيرٌ باللازِمِ، وإلا فإنَّ الهدايَةَ في الأَصْلِ: الدَّلالَة، لكن بالدَّلالَةِ يكون البيانُ؛ فلهذا فسَّروها باللَّازِمِ: (أَوَلَمْ يَتبيَّنْ لهم).

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾: ﴿كَمْ﴾ هذه خبرية، وهي في محل نَصْبٍ مفعولٌ مقدَّمٌ لـ﴿أَهْلَكْنَا﴾، وهذه الجملة: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾، تؤول بمصدر مِن غير حرف مصدري، يعني: أولم يتبين لهم إهلاكُنا، وقد سبق لنا أن جُملًا قد تُؤَوَّل بمصدرٍ مِن غير حرفٍ مصدريٍّ، مثال ذلك قوله: ﴿أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾، ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ يعني سواء عليهم إنذارك وعدمه، وسواء عليهم استغفارك وعدمه، فهذه مما يؤول بمصدرٍ بدون حرفٍ مصدري.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم﴾ أي يتبين لكفار مكة] المُفَسِّر دائمًا يَخُصُّ مثل هذه العباراتِ لأَهْلِ مكَّة، وكأنَّه رَحِمَهُ ٱللَّهُ يرى أنَّ كونَ الآيات المكية تُعَيِّنُ المرادَ، ولكِنَّ الأَوْلى أن يُقالَ: العِبْرةُ بِعُمومِ اللَّفْظِ لا بخصوص المكانِ، كما أنَّ العِبْرة بعمومِ اللَّفْظ لا بخصوص السبَّب، فإذا لم يكن هناك سببٌ يقتضي تخصيصَ المكان به فإنَّ العِبْرةَ بالعموم.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ الأُمَم بكُفْرِهم] أي: بسببِ الكُفْر، والقرونُ جَمْعُ قرنٍ، والمراد بالقَرْنِ الأُمَّة من النَّاس، كما في الحديث الصَّحيحِ: «**خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ثُمَّ الذينَ يَلُونَهُمْ**»[1].

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يَمْشُونَ﴾ حالٌ من ضميرِ ﴿لَهُمْ﴾] في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾؛ فـ﴿يَمْشُونَ﴾ حالٌ من ضمير لهم، وإن كان يُحْتَمَلُ الحالُ ﴿مِن قَبْلِهِم﴾ لكِنْ ﴿لَهُمْ﴾ أحسن، لأنها مبتدأُ الكلام؛ يعني: حالَ كَوْنِ هؤلاء يمشون.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فِى مَسَٰكِنِهِمْ﴾ في أَسْفارِهم إلى الشَّام وغيرِها] يعني أنَّ هؤلاء الذين بَقُوا إلى وقت نزولِ القرآن قد تبيَّنَ لهم إهلاكُ الأُمم السَّابِقَة، وهؤلاء الذين بَقُوا إلى وقت نزولِ القُرْآنِ يَمْشُون في مساكِنِ أولئك المعذَّبينَ، وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [في أَسْفارِهم إلى الشَّامِ] أي في طريقهم إلى الشام -بمعنى أنَّ المراد كُفَّارُ مكَّة- مثل ديار ثمودَ ومثل ديارِ قوْمِ لوطٍ، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في سورة الحِجْرِ: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾، وكونهم يمشون في مساكنهم هذا أَبْلَغُ في النَّظَر وفي التبيُّنِ؛

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشهادات، باب لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد، رقم (٢٦٥٢)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، رقم (٢٥٣٣)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

لأنَّهُم يرون ذلك عَيْنَ اليقين، وعينُ اليقينِ أشدُّ من عِلْمِ اليقين؛ ولهذا قال إبراهيمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ فإحياءُ الموتى عند إبراهيم قبل أن يشاهِدَه بِعَيْنِه من باب عِلْمِ اليَقينِ، فإذا شاهدهم صار من بابِ عَيْنِ اليقينِ.

وقد ذكر العلماءُ أنَّ لليقينِ ثلاثَ درجاتٍ: (علمًا) و(عينًا) و(حقًّا)، وكل ذلك مذكور في القرآنِ؛ قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ فهذا عَيْنٌ وعِلْمٌ في سورة واحدة، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ هذا حقُّ اليقين، هذه مراتِبُ اليقينِ الثَّلاثُ.

والفرق بينها: أنَّا نحن نعلم عِلْمَ اليقينِ أنَّ في الجَنَّة نَخْلًا ورمَّانًا وفاكِهَةً، فإذا رأيناها بأعْيُنِنا -ونسأل الله أن يَجْعَلَنا وإيَّاكُم نراها- إذا رأيناها بأعْيُنِنا صار ذلك عَيْنَ اليقينِ، فإذا أكلناها صار حَقَّ اليقينِ.

وَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: لماذا لا يكون عينُ اليقينِ حقَّ اليقينِ؟

فَنَقُول: الآن هناك عَناقيدُ عِنَبٍ من البلاستيكِ الذي يراها عينَ اليقينِ يَحْسَبُها عنبًا، ولو تُعْطِي شَخْصًا بذْرَةً صغيرةً منها لأخذها وأكَلَها؛ نحو قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً﴾ لكِنْ عندما نأكُلُ تلك البلاستيك تتبيَّنُ الحقيقةُ.

فـ(حق اليقينِ) أعلى من (عين اليقين)، لكن ما لا يُدْرَكُ إلا بالرُّؤْيَةِ فتكون رُؤْيَتُه (حقَّ اليقين). وكلُّ هذا تقريرٌ على قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ﴾ لأنَّ كَوْنَهم يمشونَ في مساكنهم معناه: أنَّهُم يُدْرِكونَ ذلك (عينَ اليَقينِ) فيشاهِدُون بأَعْيُنِهم، وهو أبلَغُ من الخَبَر.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ﴾ دلالاتٍ على قُدْرَتِنا] ولو قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وعلى انتقامِنا من المُجْرمينَ» لكان أَوْلى وأَنْسَبَ، لأنَّ المقامَ الآن مقامُ اعتبارٍ بما جرى، فيكون هذا فيه دلالَةٌ على الانتقام من المكَذِّبين، فيكون أدعى للاعتبارِ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍۚ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ هذا للتَّوْبيخ، الاسْتِفْهامُ للتَّوْبيخ، والمرادُ: قال المُفَسِّر: [﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ سَماعَ تدبُّرٍ واتِّعاظٍ] وإلا فهم يسمعون سماعَ إدراكٍ، لكنْ سماعُ الإدراكِ لا يُجْزِئ، بل يَضُرُّ، فإذا لم تنتفِعْ بسماعِ الإدراك -يعني بالأذن- كان ضررًا عليك، كما أنَّ العِلْمَ إذا لم تَنْتَفِعْ به كان ضررًا، فالمراد هنا: سَماعُ الاتِّعاظِ والاعْتِبارِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: استعمالُ ضَرْبِ الأمثالِ؛ تُؤخَذُ من قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ يعني: فإذا كنَّا أهْلَكْنا مَنْ قَبْلَهُم فسَنُهْلِكُهُم إذا كانوا مِثْلَهم؛ ولهذا قال الله عَزَّ وَجَلَّ في سورة يوسف: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: الاستدلالُ بالشَّيْء المحسوسِ على الشَّيْء المعقولِ؛ لقوله تعالى: ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ﴾؛ أو بعبارة أخرى: الاستدلالُ بعَيْنِ اليقينِ على صِدْقِ عِلْمِ اليقين؛ فقوله تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ هذا عِلْمُ اليقينِ، وقوله تعالى: ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ﴾ هذا عين اليقينِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: جواز المشي بدارِ المُعَذَّبينَ ومساكِنِهم؛ تُؤخَذُ من قوله تعالى: ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ﴾ ولكن: هل ذِكْر الخَبر عن الشَّيْء يفيد حِلَّه؟ والحقيقة أنه لا يُفيدُ، يعني: كَوْنُ هذا هو الواقِعَ الحقيقة أنَّهُم يمشون في مساكِنِهم لا يدُلُّ أنَّ هذا المشي مأذون فيـه، وقد أخبر النَّبِيُّ ﷺ أنَّ الظَّعينة تمشي من حَضرَمَوْتَ إلى صنعاءَ مسيرًا لا تخشى إلا الله[1]، والظَّعِينة وحدها حرامٌ أن تسيرَ هذا المسير، وقال الرَّسُول ﷺ: «**لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ؛ الْيَهُود والنَّصَارَى**»[2] وهذا حرامٌ.

فالإخبار عن كَوْنِهم يَمْشُون في مساكِنِهم لا يدلُّ على أنَّ المَشْي حلالٌ، لَكِنْ هل يدلُّ على أنَّه حرامٌ؟

الجوابُ: لا يدلُّ على أنَّه حلال ولا على أنَّه حرامٌ؛ فنَرْجِعُ إذن إلى الأدِلَّةِ الدَّالَّة على ذلك على التَّحْريمِ أو التَّحْليل، فنجد أنَّ الأَدِلَّة تدُلُّ على أنَّ السَّيْرَ فيها جائِزٌ، وأمَّا السكنى فلا تجوز، ومع ذلك فقد قال الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَـؤُلاءِ المُعَذَّبينَ إلَّا أن تَكُونوا بـاكينَ، فإن لم تَكُونوا باكينَ فَلَا تَدْخُلُـوهَا**»[3]

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم (٣٥٩٥)، من حديث عدي بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بلفظ: «**لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحدا إلا الله**». وأخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم (٣٦١٢)، من حديث خباب بن الأرت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بلفظ: «**والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه**».

(٢) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم (٣٤٥٦)، ومسلم: كتاب العلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارى، رقم (٢٦٦٩)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب نزول النبي ﷺ الحِجر، رقم (٤٤١٩)، ومسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، رقم (٢٩٨٠)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فالإنسان الذي يَقْصِدُها نقول: لا تَدْخُلْها إلا باكيًا، وأما الذي يَمُرُّ بها مرورًا فلَهُ أن يَمُرَّ، ولكن يُسْرِعُ كما أسرع النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

أما الذَّهابُ إلى هذه المساكِنِ من أجل أنْ يتفرج ويقول: حضارةٌ عظيمةٌ، وانْظُرْ هذه الحضارَةَ القديمةَ! هل يوجد في الحضارَةِ الجديدة مثلُها! ويُشَمُّ من كلامِهِ تعظيمُ هؤلاء؛ فهذا لا نوافِقُ عليه؛ لأنَّ هذا من السَّيْرِ في الأرض المنْهِيِّ عنه؛ لأن كَوْننا ندخل على هؤلاء متفرجين مُنْبَسِطِينَ مُنْبَهِرينَ بِقُوَّتِهم متناسينَ ما وقع بهم من العذاب لمخالَفَتِهِم أَمْرَ الله ورُسُلِه، فإن هذا مذمومٌ، وليس محمودًا ولا مأمورًا به.

وعليه، فنقول لكلِّ من أراد أن يَذْهَبَ إلى هذه البلادِ: إذا كنتم فَعَلْتُم ذلك على سبيل النُّزْهَة فهذا حرامٌ عليكم، أما على سبيل الاعتبارِ والاتِّعاظِ بما جرى لهم من العذابِ والنَّكَالِ وأن تتأثَّرُوا بذلك حتى تَبْكُوا فهذا جائِزٌ، وإلا فلا تدخلوا حتى لا تُعرِّضُوا أنْفُسَكُم للعذابِ، وأمَّا عن شَدِّ الرِّحالِ فليس فيه بأسٌ؛ لأنه ليس على سبيل التَّعَبُّدِ بهذا المكان نَفْسِه.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ في إهلاكِ الأُمَمِ عِبْرَةً وآيةً؛ لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ فهو آيةٌ لِكَوْنِ الله تعالى أَخذَهُم وأَهْلَكَهُم مع قُوَّتِهم؛ وهي عبرةٌ؛ أنَّ الله أخذَهُم لمخالفته؛ كما قال الله: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾، وقال في الآية الأخرى: ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، وقال في آية أخرى: ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾، وكلُّ هذا يُفيدُ بأنه يَجِبُ علينا نحن أن نَعْتَبِر بهذه الآياتِ وأن نخافَ.

الآية (٢٧)

قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ [السجدة:٢٧].

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾ اليابِسَةِ التي لا نباتَ فيها ﴿فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ هذا، فيَعْلَمُون أنَّا نَقْدِر على إعادَتِهم].

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ﴾ هل المرادُ بالرُّؤْية رُؤْيَةُ البَصَر أو العِلْمِ أو كلتاهما؟

الجوابُ: كلتاهما، فإذا كان ذلك بأَرْضِهم رَأَوْه بأَعْيُنِهم، وإذا كان في أَرْضِ غَيْرِهم رأَوْه بِقُلُوبِهم رؤيةَ عِلْم، وهذا مُشاهَدٌ.

وقوله تعالى: ﴿نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾ وهل نسوقُ الماءَ في الجَوِّ أو نسوقُه على الأرض، أو كلاهما؟

الجوابُ: كلاهما، فالأوَّل: ماء المَطَر نسوقُه في الجوِّ؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ﴾ والثَّاني الأنهار؛ تُساقُ إلى الأراضي القاحِلَة فتَنْبُت، وسواء كانت الأنهارُ كبيرةً كالأنهارِ المَشْهورة المعروفة أو صغيرة كالمياه النَّابِعَة، فإنَّها أنهارُ عيونٍ تسوقهم إلى الأَرْضِ.

وقوله تعالى: ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ﴾ بمعنى الخالِيَة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ خالِيَةً من كلِّ شيء، أرضٌ جُرُزٌ لا شيءَ فيها، وليس فيها أيُّ شجرةٍ فيأتيها المطَرُ أو يأتيها ماءُ النَّهْر.

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ﴾ تأكُلُ منهم أنعامُهُم؛ أي: الإبِلُ والبقَرُ والغنَمُ، وكذلك غيرُها، لكنَّه خَصَّ الأنعامَ؛ لأنَّها أكثرُ بأيدي النَّاس وأكثرُ مُلابَسَةً، وقوله تعالى: ﴿وَأَنفُسُهُمْ﴾ أي: إنَّهم يأكلونَ من هذا الزَّرْعِ النَّابتِ منه.

والغالِبُ الذي يَنْبُت من الماء من الأنهارِ ومن السُّيول لا يحتاجُ إلى حَرْثٍ؛ إذ تُنْبِتُه الأَرْضُ، فكُلُّ البراري تَنْبُت بدون حَرْثٍ.

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ الاسْتِفْهامُ هنا للتَّوبيخِ، يعني فالواجِبُ أن يُبْصِروا ما يرونه بأَعْيُنِهم ويستدِلُّوا به على كمالِ نعْمَةِ الله وقُدْرَتِه؛ ويَسْتَدِلُّون به على أَمْرٍ آخر وهو القُدْرَةُ على إحياءِ الموتى، فالأَرْضُ الجُرُزُ الخالِيَةُ من النَّبات يأتيها هذا الماءُ فتَنْبُتُ بإذن الله عَزَّوَجَلَّ فالله تعالى القادِرُ على إحيائها قادرٌ على إحياءِ الموتى.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: وجوبُ النَّظَرِ في الآيات؛ لأنَّ الاسْتِفْهامَ هنا للتَّوْبيخِ ولِلَوْمِ مَنْ لم يَنْتَفِعْ بذلك.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثباتُ أفعالِ الله الاختياريَّة؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَّا نَسُوقُ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بيان قُدْرَةِ الله؛ حيثُ يَسُوقُ الماءَ جوًّا أو برًّا إلى هذه الأَراضي الخالِيَة المَيْتة الهامِدَة فتَنْبُت؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الأَصْلَ فيما نَبَتَ في الأرض الحِلُّ، يُؤْخَذُ من قوله تعالى: ﴿تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ﴾؛ فالأَصْلُ فيما نبت في الأرض أنه حلالٌ حتى يقومَ دليلٌ على التَّحْريمِ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: بيان قُدْرَةِ الله عَزَّوَجَلَّ بإحياءِ الأرضِ بعد مَوْتِها؛ لقوله تعالى: ﴿فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: الإشارَةُ إلى أعلى درجاتِ اليَقينِ، وهي (حَقُّ اليقينِ) تُؤخَذُ من قوله تعالى: ﴿تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ﴾ فهم لا ينظرون إليه فقط، ولكنَّهم يأكلون منه، وهذا هو حقُّ اليَقينِ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثباتُ المِلْك بالأَنْعامِ؛ لقوله تعالى: ﴿أَنْعَٰمُهُمْ﴾ فالإضافَةُ هنا إضافَةُ مِلْكٍ، ولكنَّه سبق لنا أنَّ كُلَّ مِلْكٍ يَثْبُتُ للإنسان فهو مِلْكٌ لله، لكنَّه مِلْك مقيَّدٌ، فالإنسانُ لا يملك الشَّيْء مِلْكًا مُطْلَقًا يتصرف فيه كما شاء، وإنما يَمْلِكُ مِلْكًا مُقَيَّدًا في تَحْصِيله وتَمْويلِهِ وتَصْريفِهِ.

فهو مقيَّدٌ بالتَّحْصيل؛ فلا تُحَصِّلْه إلا على الوَجْهِ المَشْروعِ، وفي تمويله يعني الاتِّجار به، وفي تَصْريفِهِ؛ أي: لا تُصَرِّفه إلا مُقَيَّدًا، فهل بعد هذا يكون المِلْكُ حقيقيًّا؟

الجوابُ: لا، إِذَنْ مِلْكُكَ للأشياءِ -حتى مِلْكُكَ الخاصُّ كالبيت والسيارة والثَّوْب- ليس مِلْكًا مُطْلقًا، بل هو مِلْكٌ مُقيَّد.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: الحَثُّ على النَّظَر والتَّبَصُّر، يُؤْخَذ من قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾.

الآيتان (٢٨، ٢٩)

قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [السجدة:٢٨-٢٩].

قال تعالى: [﴿وَيَقُولُونَ﴾ للمؤمنينَ ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ﴾ بيننا وبينكم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾] أعوذ بالله! اسْتَبْطَؤُوا العذابَ فقالوا: متى هذا الفَتْحُ؟ وليس المرادُ فَتْحَ مكَّةَ، بل المراد: (الحُكْمُ بيننا؛ بأن تكون العاقِبَةُ لكم أيُّها المؤمنون وعلينا أيُّها الكافرون؛ متى يكون هذا الذي تُوعَدُون به!!)، فهو كقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

وهذا الاسْتِفْهامُ للاستبطاءِ الدَّالِّ على الإنكارِ، وليس للاسْتِعْلامِ والاسْتِرْشادِ، ولكنَّه استبطاءٌ دالٌّ على الإنكارِ؛ يعني كأنَّهم يقولون: إن كُنْتُم صادقينَ بأنَّكُم على حقٍّ، وأنَّ العاقِبَةَ ستكون لكم، فأينَ ذلك؟!

وهذا في غايَةِ ما يكون من العِنادِ -والعياذُ بالله- وكان الواجِبُ عليهم أن يخافوا ممَّا وَعَدَهم به المؤمنونَ، لكن هم لا يُصَدِّقونَ كِبْرًا وعنادًا؛ كما قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ﴾ بإنزالِ العذابِ بهم ﴿لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾] فيه التفاتٌ من الخِطابِ إلى الغَيْبةِ؛ لَمَّا قال: ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ﴾

قال: ﴿لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَـٰنُهُمْ﴾ للعمومِ وللتَّسْجيلِ عليهم بما يَقْتَضيهِ الفِعْلُ، وهو الكُفْر.

وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَ ٱلْفَتْحِ﴾ يعني: يومَ الفَصْلِ بيننا وبينكم والحُكْمِ: ﴿لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَـٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾.

قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَـٰنُهُمْ﴾: ﴿يَوْمَ﴾ ظرفٌ منصوبٌ على الظَّرْفِيَّة، وعامِلُه قَوْلُه: ﴿يَنفَعُ﴾؛ ومن هنا نأخُذُ فائِدَةً نَحوِيَّة عظيمةً، وهي: أنَّ (لا) النافِيَةَ لا تَمْنَعُ عَمَلَ ما بَعْدَها فيما قَبْلَها.

وقوله رَحِمَهُٱللَّهُ: [﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ يُمْهَلونَ لتوبةٍ أو مَعْذِرَة] فإذا جاءَ العذابُ للمُكَذِّبين فإن ذلك لا يَنْفَعُهُم، فإذا جاء العذابُ، ولو قالوا: آمنا؛ قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا﴾ فإلى الآن نحن في قَضِيَّة معيَّنة، وليس هناك عمومٌ، لكن قال: ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ﴾ فقد مَضَتْ، يعني مَضَتْ سُنَّةُ الله عَزَّوَجَلَّ، أمَّا من آمن بعد معايَنَةِ العذابِ، فإن ذلك لا يَنْفَعُه؛ كما قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ﴾ فليس له توبةٌ، وأمَّا قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النساء:١٨] فواضحٌ أنَّهم ماتوا على الكُفْرِ.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: فيها دليلٌ على سَفَهِ هؤلاء المكَذِّبين وحُمْقِهِم؛ لقولهم: ﴿مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ والاستِفْهامُ قلنا: إنَّه لِلاسْتِبْطاء والتَّحدِّي للرَّسولِ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ ومن كان معه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الحُكْمَ بين المؤْمِنِ والكافِرِ من الفَتْحِ؛ لأنَّ الله قال: ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ﴾ فأقَرَّ هذه التَّسْمِيَة.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بيان عُتُوِّ الكافرين وإجرامِهِم؛ لِكَوْنِهِم يَتَحَدَّوْنَ الرَّسُولَ ﷺ والمؤمنينَ: متى هذا الحُكْمُ بيننا إن كنتم صادقينَ؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ العذابَ إذا نزل لا يَنْفَعُ الإيمانُ، يُؤْخَذُ من قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّه إذا نزَلَ العذابُ فلا إنْظَارَ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ العذابَ قد يُؤَجَّلُ قَبْل نزوله؛ لأنه يقول: ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ﴾ فظاهِرُ الآية: أنه لو كان هذا الإيمانُ قبل نزولِ العَذابِ فإنَّ الله تعالى يَرْفَعُه بالإيمانِ؛ ولهذا أمر النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عند الكُسوفِ بالصَّلاةِ والدُّعاءِ والاسْتِغْفار[1] والصَّدَقَة والتَّكْبير[2] من أجل أن يُرْفَعَ العذابُ الذي هذا إنذارٌ به؛ فإنَّ الكسوفَ إنذارٌ بالعذابِ، وهو نَفْسُه ليس عذابًا، لكنَّه إنذارٌ بأن يُعذَّبَ الخَلْقُ، فإذا فَزِعُوا إلى الصَّلاةِ وإلى الذِّكْر والدُّعاء والاسْتِغْفار رُفِعَ عنهم.

• • ۞ • •

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الكسوف، باب الذكر في الكسوف، رقم (١٠٥٩)، من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الكسوف، باب الصدقة في الكسوف، رقم (١٠٤٤)، ومسلم: كتاب الكسوف، باب صلاة الكسوف، رقم (٩٠١)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

الآية (٣٠)

• ● ••• ● •

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾ [السجدة:٣٠].

• ● ••• ● •

قول المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ ﴾ إنزالَ العذابِ بهم ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾ بكَ حادِثَ موتٍ أو قَتْلٍ فيَسْتَرِيحون منكَ، وهذا قبلَ الأَمْر بقتالِهم].

قوله تعالى: ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ ﴾ أَعْرِضْ عنهم، ليس المرادُ إعراضًا عن دَعْوَتِهم، بل المراد: لا تَهْتَمَّ بهم، يعني لا تَجْعَلْ نَفْسَك متعلِّقَةً بهم وانتظِرْ، وهنا المفعولُ محذوفٌ؛ يعني: انتظر نزولَ العذابِ بهم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾ يُحتَمَل أن يكون المعنى ما قاله المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أي مُنْتَظِرون أن يَنْزِلَ بك هلاكٌ بقتلٍ أو غَيْرِه، أو: ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾ باعتبارِ الواقِعِ، لا أَنَّهُم منتظِرونَ إهلاكَكَ؛ يعني أَنَّهُم منتظرونَ العذابَ الواقِعَ بهم، فهم كأَنَّهُم لِتَمادِيهِمْ في الكُفْرِ ينتظرونَ ما يَنْزِلُ بهم من العذابِ.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنَّ [هذا قبلَ الأَمْرِ بقِتالِهم] معناه: أنَّ الآيَةَ مَنْسُوخةٌ، وليس كذلك، بل الصَّحيحُ أنها قَبْلَ الأَمْر بالقتالِ؛ لأن هذه السُّورة مكيَّة فهي قبل الأمر بالقتال بلا شكٍّ، لكنَّها ليست منسوخَةً؛ لأنَّ الأَمْرَ هنا بالإعراضِ عنهم، والانتظارُ ليس معناه أَلَّا نقومَ بما يَجِبُ.

فالآن نحن نَنْتَظِرُ أن يُنْزِلَ الله تعالى العذابَ في الكفَّارِ، لكنْ مع ذلك ندعوهم ونُقاتِلُهُم إذا كان لدينا قُدْرَةٌ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ المكابِرَ يُعرَضُ عنه ويُتْرَكُ حتى ينزِلَ به العذابُ؛ فإذا رَأَيْتَ من يكابِرُ، تَأْمُرُه بالحقِّ ولكن يكابِرُ ويجادِلُ ويعانِدُ، فاتْرُكْه؛ لأن بقاءَكَ معه لا يُجْدي شيئًا، فالإنسانُ المكابِرُ الذي يقول: هذه لَيْسَتْ بِشَمْسٍ، ولكن هذا قَمَرٌ، وهو الآن في الضُّحى، ونقول: انظر الشَّمْس! قال: لا، أنت غلطان؛ نحن الآن بعْدَ صلاةِ العِشاء، وهذا الذي تراه إنما هو القَمَر؛ فهذا لا تَتَكَلَّمْ معه أبدًا، بل تَطْلُب من يَقْرَأ عليه أو من يداويهِ لأنه مجنونٌ، وكذلك من تُريهِ الحَقَّ مثلَ الشَّمْسِ والحَقَّ أَبْيَنَ من الشَّمْس، ثم يقول: لا، هذا غيرُ صحيحٍ، فإن هذا ينبغي أن يُطْلَبَ له من يداوي عَقْلَه قبل فِكْرِه؛ فهذا مكابِرٌ لا فائِدَة للكلامِ معه؛ ولهذا يقول الشاعر:

وَلَيْسَ يَصِحُّ فِي الْأَفْهَامِ شَيْءٌ ... إِذَا احْتَاجَ النَّهَارُ إِلَى دَلِيلِ[1]

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ المُكذِّبَ لا يَنْتَظِرُ إلا العذابَ؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾.

وأما تفسيرُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ أن يحِلَّ بك هلاكٌ أو نحوه؛ فهذا فيه نَظَرٌ، بل يقال: إنَّهم مُنْتَظِرونَ للعذاب لِكَوْنِهِمُ اسْتَمَرُّوا على كُفْرِهم فهم كالمُنْتَظِرينَ لما يَنْزِلُ بهم، وقد يقال: إنَّ الآيَةَ تَشْمَلُ المعنيينِ جميعًا؛ يعني: هم ينتظرون أن تموتَ ويَنْتَظِرون عذابَهُم باستمرارِهِم على المَعْصِيَة؛ كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

(١) البيت للمتنبي، انظر: ديوانه (ص:٣٤٣).

﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ۝٣٠ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾ ولهذا إذا مات الكافِرُ يُعذَّبُ مباشرةً، بل إنَّه يُحِسُّ بالعذابِ في حالِ النَّزْع؛ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ قال الله تعالى: ﴿كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

وبهذا انتهت هذه السُّورَةُ التي كان الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يقرأ بها في فَجْرِ يومِ الجُمُعَةِ[1] ويُضيفُ إليها في الرَّكْعَةِ الثَّانِيَة: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ سورةُ الإنسان.

• ● ۞ ● •

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجمعة، باب ما يقرأ في صلاة الفجر يوم الجمعة، رقم (٨٩١)، ومسلم: كتاب الجمعة، باب ما يقرأ في يوم الجمعة، رقم (٨٨٠)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

فهرس الأحاديث والآثار

الحديث	الصفحة
«أَنا دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ»	١٦
«الاستواءُ مَعْلومٌ، والكَيْفُ مَجْهولٌ، والإيمانُ بهِ واجِبٌ، والسُّؤالُ عنه بدعة»	٢٥
«أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرَضِينَ السَّبْعَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الكُرْسِيِّ كَحَلْقَةٍ أُلْقِيَتْ فِي فَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ»	٢٨
«أَنْتَ الَّذِي عَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ، وَأَرْسَلَ لَكَ مَلَائِكَتَهُ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ»	٤٥
«يَفْنَى كُلُّهُ إِلَّا عَجَبَ الذَّنَبِ»	٥٣
«سُبْحَانَكَ اللهمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ»	٨٠
«المالُ كَثيرٌ والعَهْدُ قَريبٌ»	٨١
«إِنَّ أَقْرَبَ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ»	٨٢
«كان النَّبِيُّ ﷺ يُجَافِي عَضُدَيْهِ فِي السُّجُودِ»	٨٤
«أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ؛ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ»	٨٦
«أَمَّا أَنَا فَأَقُومُ وَأَنَامُ، وَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»	٨٧
«لَيْسَ في الدُّنيا مِمَّا في الجَنَّة إِلَّا الأَسْمَاءُ»	٨٨
«لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ أَحَدٌ بِعَمَلِهِ»	٨٩
«وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي»	١٠٦
«لَقَدْ أُوذِيَ مُوسَى بِأَكْثَرَ مِنْ هَذا فَصَبَرَ»	١٠٩

«يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ» ١٠٩

«يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لم تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي» ١٠٩

«إِنَّ هَذَا شَيْءٌ كَتَبَهُ الله عَلَى بَنَاتِ آدَمَ» ١١٠

«خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ثُمَّ الذين يَلُونَهُمْ» ١١٩

«لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ؛ الْيَهُود والنَّصَارَى» ١٢٢

«لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَـؤُلاءِ الْمُعَذَّبِينَ إِلَّا أن تَكُونوا بـاكِينَ، فإن لم تَكُونوا باكِينَ فَلَا تَدْخُلُـوهَا» ١٢٢

• ● ۞ ● •

فهرس الفوائد

الحديث — الصفحة

أقوال العلماء في الحروف المقطعة في أوائل سور القرآن ٩
الحكمة من اختلافِ التَّعبيرِ بين قوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ وقوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ ١٥
الخلاصةُ في إعراب (ما) قولانِ........ ١٦
قوله تعالى ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ وردت في القرآن على أَرْبَعَةِ أوْجُه ٢٣
العُلُوُّ عُلُوَّانِ: مُطْلَقُ عُلُوٍّ، وعُلُوٌّ خاصٌّ ٢٤
العرش عند أهل السُّنَّةِ غيرُ الكرسي ٣٢
الكُفَّارُ هل الله عَزَّوَجَلَّ رَحِمَهُم؟........ ٤١
الالتفاتُ في اللغة العربية له فوائِدُ ٤٦
المَلَك مُشْتَقٌّ من الأَلُوكَةِ........ ٥٧
عِزرائيلُ لم يَثْبُت عن الرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ على الرَّغْمِ أنَّ هذا الاسم أشْهَرُ أسماءِ الملائكة عند العامَّة ٥٧
التَّكليفُ في الآخِرَةِ هل يكونُ عليه ثوابٌ؟ ٦٦
مُؤْمِنُ الجِنِّ هل يدخُلُ الجَنَّة؟ ٧٠
هل يَبْذُلُ الإنسانُ كُلَّ مالِهِ في طاعَةِ الله وفي سبيل الله، أو يَقْتَصِرُ على بعضه؟ ٨٦
التَّوْبيخُ يكون عذابًا قلبيًّا........ ٩٨

هل يُوصَفُ الله بالانتقامِ مطلقًا، فيقال: المُنْتَقِم؟ ١٠٥
هل يَلْزَمُ من الأَذى الضَّرَرُ؟ ١٠٩
معنى (إسرائيلَ) أي: عَبْدُ الله ١١٠
لليقينِ ثلاث درجاتٍ ١٢٠

فهرس آيات السورة

الآيــة	الصفحة
تقديم	٥
سورة السجدة	٧
" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾	٩
" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾﴾	١٤
" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾﴾	٢٠
" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾﴾	٣٤
" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَٰلِكَ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾﴾	٣٩
" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾	٤٢
" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٠﴾﴾	٥٢
" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ	

تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ ٥٧

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ ٦٢

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾ ٦٨

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ ٧٤

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾﴾ ٧٨

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ ٨٤

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ ٨٨

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾﴾ ٩٢

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾ ٩٤

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾﴾ ٩٧

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾ ١٠١

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ

﴿ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ ١٠٣

" قال الله عزّوجلّ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾﴾ ١٠٨

" قال الله عزّوجلّ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ ١١٢

" قال الله عزّوجلّ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾ ١١٥

" قال الله عزّوجلّ: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾﴾ ١١٨

" قال الله عزّوجلّ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ ١٢٤

" قال الله عزّوجلّ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ ١٢٧

" قال الله عزّوجلّ: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ ١٣٠

فهرس الأحاديث والآثار ١٣٣

فهرس الفوائد ١٣٥

فهرس آيات السورة ١٣٧

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٤١)

تفسير القرآن الكريم

سورة الأحزاب

لفضيلة الشيخ العلامة
محمد بن صالح العثيمين
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٤١)

تفسير القرآن الكريم

سورة الأحزاب

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

بسم الله الرحمن الرحيم

© مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، ١٤٣٦ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العثيمين، محمد بن صالح

تفسير سورة الأحزاب. / محمد بن صالح العثيمين ـ ط ١ ـ القصيم، ١٤٣٦هـ

٥٦٨ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم (سلسلة مؤلفات الشيخ ابن عثيمين؛ ١٤١)

ردمك: ٩ ـ ٤٢ ـ ٨١٦٣ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨

١ ـ القرآن ـ سورة الأحزاب ـ تفسير.

أ ـ العنوان

ديوي: ٢٢٧،٦ ١٤٣٦/٧٨٢٤

رقم الإيداع: ١٤٣٦/٧٨٢٤

ردمك: ٩ ـ ٤٢ ـ ٨١٦٣ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة

لِمؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

إلا لمن أراد طبع الكتاب لتوزيعه خيريًا بعد مراجعة المؤسسة

الطبعة الأولى

١٤٣٦ هـ

يُطلب الكتاب من :

مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

المملكة العربية السعودية

القصيم ـ عنيزة ـ ٥١٩١١ ص.ب: ١٩٢٩

هاتف: ٠١٦/٣٦٤٢١٠٧ ـ ناسوخ: ٠١٦/٣٦٤٢٠٠٩

جوّال: ٠٥٥٣٦٤٢١٠٧

www.ibnothaimeen.com

info@binothaimeen.com

الموزع المعتمد والحصري في جمهورية مصر العربية

دار الدُرة للنشر والتوزيع ـ شارع محمد مقلد ـ متفرع من مصطفى النحاس

بجوار سوبر ماركت أولاد رجب

هاتف وفاكس: ٢٢٧٢٠٥٥٢ ـ محمول: ٠١٠١٠٥٥٧٠٤٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تقديم

إنَّ الحمدَ لله، نحمدُهُ ونَسْتعينُه ونَسْتغفرُه، ونَعوذُ بالله مِن شُرور أَنْفُسنا ومِن سيِّئات أعمالِنا، مَن يَهْده اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضْلِلْ فَلا هادِيَ له، وأَشْهَد أنْ لا إلَهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ لَه، وأَشْهَد أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه، أرسلَه اللهُ بالهُدَى ودِين الحَقِّ؛ فبلَّغَ الرِّسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَح الأمَّةَ، وجاهَد في الله حَقَّ جِهادِه ، حتَّى أتاهُ اليَقينُ ، فصَلواتُ اللهِ وسلامُه عليهِ وعلَى آلِه وأصحابِه ومَن تَبِعهم بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّين، أَمَّا بَعْدُ:

فمِنَ الدُّروسِ العِلميَّة المُسجَّلَة صَوتيًّا، والَّتِي كانَ يَعقِدُها صاحِبُ الفَضِيلةِ شَيخُنا العلَّامةُ الوالِدُ محمَّدُ بنُ صالحِ العُثَيْمِين -رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى- في جامِعِهِ بمَدِينةِ عُنَيْزَةَ صَباحَ كُلِّ يومٍ أَثْناءَ الإجازاتِ الصَّيْفيَّة؛ حَلقاتٌ فِي تَفْسير القُرآن الكَريم كانَت بِدايتُها مِن سُورة النُّور وما بَعدَها؛ حتَّى بلَغ قَولَه تعالَى في سُورة الزُّخرف: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

وقَدِ اعتَمدَ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى في تَفْسيرِه لتِلْكَ السُّور كِتابًا بَيْن يَدَي الطُّلاب هُو (تَفْسير الجَلالَيْنِ) للعلَّامة جَلال الدِّين محمَّد بنِ أَحْمدَ بنِ محمَّدِ بنِ إبراهيمَ المَحَلِّيِّ، المُتوفَّى سَنَةَ (٨٦٤هـ)(١)، والعلَّامة جَلال الدِّين عبد الرَّحمن بن أَبِي بَكْر بنِ محمَّد

(١) انظر ترجمته في: الضوء اللامع (٧/ ٣٩)، حُسن المحاضرة (١/ ٤٤٣).

ابنِ سابِق الدِّين الخُضَيْرِيِّ السُّيُوطِيِّ، المُتوفَّى سنة (٩١١هـ)[١]. تغمَّدهما الله بواسِع رَحمته ورِضوانه، وأَسْكنهما فَسِيحَ جنَّاتِه، وجَزاهُما عَنِ الإِسْلام والمُسلِمِينَ خَيرَ الجَزاءِ.

وسَعْيًا -بإِذْنِ اللهِ تَعالَى- لِتَعمِيمِ النَّفْع بتِلْكَ الجُهُود المُبارَكة فِي هَذا المَيْدَان العَظِيم باشَر القِسْمُ العِلْمِيُّ بِمُؤسَّسةِ الشَّيخ مُحَمَّد بنِ صالِحِ العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ واجِباتِه فِي شَرَفِ الإِعْدادِ والتَّجْهِيز للطِّباعةِ والنَّشْر لِإِخْراجِ ذَلِكَ التُّراث العِلمِي؛ إنفاذًا للقَواعِدِ والضَّوابِط والتَّوْجِيهاتِ الَّتِي قَرَّرها فَضيلةُ الشَّيخِ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى فِي هَذا الشَّأْنِ.

نَسْأل اللهَ تعالَى أنْ يَجْعلَ هَذا العَمَلَ خالِصًا لِوجهِه الكَرِيمِ؛ نافِعًا لعِبادِه، وأنْ يَجزِيَ فَضِيلةَ شيخِنا عَنِ الإسلامِ والمسلِمِينَ خَيْرَ الجَزاء، ويُضاعِفَ لهُ المثُوبَةَ والأَجْرَ، ويُعْلِيَ دَرَجَتَهُ في المَهْدِيِّينَ، إِنَّه سَمِيعٌ قَرِيبٌ مُجِيبٌ.

وَصَلَّى اللهُ وسلَّم وبارَك علَى عبدِه ورَسولِه، خاتَمِ النَّبِيِّينَ، وإمامِ المُتَّقِينَ، وسيِّدِ الأَوَّلِينَ والآخِرِينَ، نبيِّنا محمَّدٍ، وعلَى آلِه وأَصْحابِه والتَّابعينَ لهُمْ بإِحْسانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّين.

القِسْمُ العِلْمِيُّ

فِي مُؤَسَّسَةِ الشَّيْخ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحِ العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ

٢٠ جُمَادَى الآخِرَة ١٤٣٦هـ

---

(١) انظر ترجمته في: الأعلام للزركلي (٣/ ٣٠١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

• • ◦ • •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

• • ◦ • •

الحمدُ لله ربِّ العَالَمِينَ، وصلَّى اللهُ وسلَّمَ عَلَى نبيِّنَا مُحَمَّدٍ، وعَلَى آلِهِ وأصحَابِهِ ومَنْ تَبِعَهُم بإحسَانٍ إلَى يوم الدِّينِ. أمَّا بَعد:

البَسمَلة تَقدَّم الكلام عليها من حيثُ المَعنى، ومِن حيثُ الإعراب، وقُلْنا في الإعراب: إنها جارٌّ ومجرور مُتعلِّق بمَحذوف، وأنه يَنبَغي أن يُقدَّر ذلك المَحذوف فِعْلًا خاصًّا مُتأخِّرًا.

مثال ذلك: عندما تُريد أن تَقرَأ تَقول: بسم الله الرحمن الرحيم. يَكون التقديرُ: بسم الله الرحمن الرحيم أَقرَأُ، وهو أَحسَنُ من أن تَقول: التَّقديرُ: ابتدائي بسمِ الله الرحمن الرحيم، أو التقديرُ: ابتدِئْ بسم الله الرحمن الرحيم؛ لأننا إذا قدَّرْناه فِعْلًا خاصًّا كان أدلَّ على المَقصود؛ فإن كلِمة (ابتِداء) عامَّة في كل ما يُبتَدَأ به، لكن إذا عَيَّنت الفِعْل وقلتَ: بسم اللهِ أَقرَأُ؛ كان أدَلَّ على المَقصود.

فنُقدِّره فِعْلًا؛ لأنَّ الأصل في الأعمال هي الأفعال؛ ولهذا تَعمَل بدون شَرْط، وأمَّا ما يَعمَل من الأسماء فإنه لا يَعمَل إلَّا بشروط؛ كاسْمِ الفاعِل، واسم المَفعول، والمَصدَر، وما أَشبَه ذلك.

ونَجعَله مُتأخِّرًا لسبَبين:

السبَب الأوَّل: التَّبرُّك بالبَداءة بسم الله.

والسبَب الثاني: الدَّلالـة على الحَـصْر؛ لأن تَأخير العامِل يَـدُلُّ على الحَصْر، أو بعِبارة أعمَّ: لأن تَأخير ما حَقُّه التقديمُ يَدُلُّ على الحَصْر.

إذن: نَقول في البَسْملة: كلَّما جاءت مُتعلِّقة بمحذوف، ويُقدَّر هذا المَحذوفُ فِعْلًا خاصًّا مُتأخِّرًا؛ أمَّا عندما تُريد أن تَتوضَّأ، فتُقدِّر: بسم الله أَتوضَّأ؛ وعندما يُريد الإنسان أن يَذبَح ذبيحة، يَقول: التقدير: باسْمِ الله أَذبَحُ، وعلى هذا فقِسْ.

يَقول المفسر[1]: [بسم الله الرحمن الرحيم] وهنا (اسْمِ) مُضاف للَفْظ (اللهِ) وهو مُفرَد فيُفيد العموم؛ ولهذا قَـدَّره الشُّرَّاح بأن المَعنى: بكلِّ اسم من أسماء الله تعالى.

والاسم مَأخوذ من السُّمُوِّ وهو الارْتِفاع، وقيل: من السِّمة وهي العَلَامة، ولو قيل بأنه مَأخوذ من هذا وهذا لم يَكُن بعيدًا؛ لأنه يُظهِر المُسمَّى فيَكون فيه مَعنَى الارتِفاع، ولأنه يُميِّزه فيَكون فيه مَعنَى العلامة.

(الله) علَمٌ على ذات الله عَزَّوَجَلَّ، وهو أصل الأَعلام، وأسماء الله تعالى -كما نَعرِف- أعلام وأَوْصاف، لكن أصلها كلِمة (الله)؛ ولهذا تَأتي الأسماء دائمًا تبَعًا لها، فهي الأصل، وربما تَأتي لفظ الجلالة تابِعةً لغيرها من الأسماء، مثل ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، فهنا تَأتي (الله) تابِعةً لما قبلها.

وقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ اسمان مُشتَقَّان من الرحمة، لكن الأوَّل منهما يَدُلُّ على الرحمة باعتِبارها وصفًا لله عَزَّوَجَلَّ، والثـاني يَدُلُّ على الرحمة باعتِبـارها فِعْلًا له، فهو

---

(١) المقصود بـ(المُفَسِّر) هنا: محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم جلال الدين المحلي، المتوفى سنة (٨٦٤هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ترجمته في: الضوء اللامع (٧/ ٣٩)، حسن المحاضرة (١/ ٤٤٣).

رحمن وهو رحيم، مُتَّصِف بالرحمة، وفاعِل للرحمة، يَعنِي: أنه عَزَّوَجَلَّ مع كونه رحيمًا فإنه يَرحَم، وهذا الذي قرَّرْته هو ما قرَّره ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الفَرْق بين الرحمن وبين الرحيم[1].

وإن كان بعضُ العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ يُفرِّق بينهما بأن الرحمن ذو الرحمة العامَّة، والرحيم ذو الرحمة الخاصَّة، ويَقول: إنه يَدُلُّ على ذلك قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾، لكن المعنى الذي أَشار إليه ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَبلَغُ وأَحسَنُ؛ ولهذا جاءت (الرحمن) على وَزْن (فَعْلان)، وهذا الوزنُ يَدُلُّ غالِبًا على السَّعة والامتِلاء، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ واسِع الرحمة، وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَرحَم مَن يَشاء، كما قال تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾.

والبسملة آية من كِتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، تَأتي في مُبتَدَأ كلِّ سورة، إلَّا في سورة (براءَة)، فإنه ليس فيها بَسْملة، وذَكَر أهل العِلْم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ أن سبب سُقوط البَسمَلة في (براءة) أن الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَشْكَلَ عليهم: هل هي من سورة الأَنفال أو هي سُورة مُستَقِلَّة؟ فجعَلوا بينهما فاصِلًا، ولم يَكتُبوا: بسم الله الرحمن الرحيم[2]. وهذا واضِح.

لكن أَوْضَحُ منه أنه لو كانت البَسمَلة قد نزَلَتْ بين سورة الأنفال و(براءة) لم يُمكِن أن تَسقُط؛ لأن الله تعالى يَقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾، لكن لـمَّا أَشْكَل على الصحابة هل (براءة) مُستَقِلَّة، أو من سورة الأَنفال وضَعوا الفاصِل فقط.

---

(١) انظر: مدارج السالكين (١/ ٥٦).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٥٧)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب من جهر بها -أي البسملة-، رقم (٧٨٦)، والترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة التوبة، رقم (٣٠٨٦)، من حديث عثمان بن عفان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الآية (١)

• ● ● •

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الأحزاب:١].

• ● ● •

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ النِّداء هنا للنبيِّ ﷺ بوَصْفه نبيًّا، وقد يُناديه الله عَزَّوَجَلَّ بوَصْفه رسولًا، فيُخاطِبه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بوَصْفه رسولًا في مَقام الرِّسالة، كما في قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة:٦٧].

و(النبيُّ) مُشتَقٌّ، وأصلها: (النَّبيءُ)، وقيل: أَصلها (النَّبيو) بالواو، فعلى القول الأوَّل يَكون مُشتَقًّا من النَّبأ، وأُبدِلت الهمزةُ بالياء تخفيفًا، وعلى القول الثاني يَكون مُشتَقًّا من النَّبْوة، وهي الارتِفاع، ولا شَكَّ أن مَقام النُّبوَّة مَقام رفيع، وأن النبيَّ مُخبِر ومُخبَر أيضًا؛ فهو فَعيل بمَعنى فاعِل وبمَعنى مَفعول.

يَقول الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، والمُراد به: نبيُّنا محمَّدٌ ﷺ.

يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ دُمْ على تَقواهُ]، صَرفَها المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن ظاهِر لَفْظها؛ لأنَّك إذا أَمَرْتَ أحدًا بشيء فالأصل أنه غير مُتَلَبِّس به، فإذا قلت: يا فُلانُ قُمْ. فهل هو قائِم؟ لا، هذا هو الأصل، فالأصل أن الأَمْر إنشاءُ ما لم يَكُن، فإذا قُلتَ: يا فُلانُ قُمْ. أو يا فُلانُ اقْعُدْ؛ فإنه حين توجيه الأمر إليه ليس مُتَّصِفًا بهذا الوَصْفِ.

فالنبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾، فلو أَخَذْنا بظاهِر العِبارة لكان النبيُّ ﷺ حين تَوجيه الخِطاب إليه لم يَكُن مُتَّقيًا، وهذا أمر لا يُمكِن؛ لذلك يَكون مَعنَى ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ أي: دُمْ على تَقواه؛ ومن هنا نَأخُذ أن الأمر بالشيء قد يَكون أمرًا بتَجديده، وقد يَكون أمرًا بالاستِمْرار عليه، وقد يَكون أمرًا بالتَّفصيل لهذا المَأْمورِ به.

فمثَلًا: إذا قلت: يا أَيُّها المُؤمِنُ آمِنْ. فالمَعنى: دُمْ على إيمانك وحَقِّقْه، وفي قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ [النساء:١٣٦]، الأمر هُنا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ﴾ أي: داوِموا عليه، لكن فيه تَفصيل، يَعني: ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾ مُجمَل، ثُم قال: ﴿ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ فصار إِذَنْ تَوْجيه الأَمْر في الأصل إلى مَن لم يَكُن مُتَلَبِّسا به، هذا هو الأصل، وقد يُوجَّه إليه لطلب الاستِمْرار، وقد يُوجَّه إليه لبَيان التَّفصيل، كما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

وقوله: ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ تَأْتي التَّقوى في القرآن الكريم كثيرًا، فما مَعنَى التَّقوى؟ ومِن أين هي مُشتَقَّة؟

نَقول: هي مُشتَقَّة من الوِقاية؛ ولهذا يَقولون: إن أصل التاء فيها واوٌ، فـ(تَقوَى) بمَعنى: (وَقْوَى)، هذا أَصلُها، وإذا كانت بمَعنى الوِقاية فإن التَّقوى هي أن يَتَّخِذ الإنسان وِقاية من عذاب الله عَزَّوَجَلَّ، ولا وِقايةَ من عذاب الله تعالى إلَّا بفِعْل أَوامِره واجتِناب نَواهيه، وعلى هذا فنَقول: إن المُراد بالتَّقوى فِعْلُ أَوامِر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، واجتِناب نَواهِيه.

ومن المَعلوم أننا إذا قُلْنا: فِعْل أَوامِر الله تعالى، (أَوامِر) مُضاف إلى الله تعالى: أن الإنسان سينَوِي بهذا الفِعْلِ امتِثال أَمْر الله تعالى، وكذلك إذا قُلنا: اجتِنابُ نَهيِ الله تعالى، فإن الإنسان سيَجتَنِبه؛ لأن الله تعالى نَهى عنه؛ لأن مُجرَّد الفِعْل بدون نِيَّة ليس بتَقوَى، ومُجرَّد التَّرْك بدون نِيَّة ليس بتَقوَى، لكن لَمَّا كان الفِعْل والتَّرْك مُضافًا إلى الله تعالى صار لا بُدَّ فيه من نِيَّة.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ فيما يُخالِف شَريعتك]، عَطْف قولِه: ﴿وَلَا تُطِعِ﴾ على ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ من باب عَطْف الخاصِّ على العامِّ؛ لأن تَرْك طاعة هؤلاء من تَقوَى الله عَزَّوَجَلَّ، فيَكون عَطْفه على التَّقوى من باب عَطْف الخاصِّ على العامِّ، وهذا كثير في القُرآن والسُّنَّة وكلام العرَب.

قوله: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ الكافِر هو الذي صرَّح بكُفْره وأَعلَنَه، وأمَّا المُنافِق فهو الذي أَخفَى كُفْره، وأَظهَر أنه مُؤمِن، فمن أين اشتُقَّ الكُفْر أو الكافِر؟

يَقولون: إن الكُفْر في الأصل: السَّتْر، ومنه: (الكُفُرَّة) وهو غِلاف الطَّلْع؛ لأنه يَستُرُه، هذا في الأصل، وسُمِّيَ الذي لا يُؤمِن بالله تعالى كافِرًا؛ لأنه سَتَر نِعْمة الله عَزَّوَجَلَّ، وجَحَد شَريعته، فصار بذلك ساتِرًا للحَقِّ، وساتِرًا للنِّعْمة التي أَنعَمَ الله تعالى بها عليه.

وأمَّا النِّفاق فإنه مَأخوذ من نافِقاء اليَرْبوع، واليَرْبوع: الدُّوَيْبة المَعروفة، تَتَّخِذ بيتًا في الأرض وتَحفُر الجُحْر، وتَجعَل له بابًا، وتَجعَل في آخِره بابًا مُغلَقًا بشيء من التُّراب، بمَعنَى: أنها تَحفُر فإذا وصَلَتْ إلى مُنتَهى الجُحْر حَفَرَت، إلى أن يَبقَى عليها شيء قليل من طبَقة الأرض، بحيث إذا دفَعه برَأْسه انفتَح، هذه هي النافِقاء، ويَصنَع ذلك لأَجْل ما إذا فُجِئ من باب الجُحْر خرَج من هذا، فهكذا المُنافِق، إذا خُوطِب

بالإيمان قال: إنه مُؤمِن. فتَخلَّص، كما أنه إذا أَتى إلى قومه يَقول: إنه كافِر. فيَتخَلَّص من مَلامة هؤلاءِ ومَلامة هَؤلاءِ.

﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ معلوم أن الرسول عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ لا يُمكِن أن يُطيع الكافِر، لكن الذي قد يُمكِن أن يُطيع المُنافِق؛ لأنَّ المُنافِق لا يُحَسُّ بنِفاقه وكُفْره، ولا يُعلَم عنه؛ فقد يَغتَرُّ به الإنسان؛ فلهذا قدَّم الله تعالى الكافِرين هنا على المُنافِقين، مع أنه في باب الوعيد يُقدِّم المُنافِقين على الكافِرين، قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء:١٤٠]، وقال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ [الأحزاب:٧٣].

﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُٱللَّهُ: [فيما يُخالِف شَريعتَكَ]، هذا القَيدُ يَقتَضي تَخصيص النَّهي مع أن النَّهيَ مُطلَق ﴿لَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، فما الذي حمَل المُفَسِّر على أن يُقيِّده بما يُخالِف الشريعة؟

حمَلَه على ذلك:

١- أنه لو فُرِض أن الكافِر أو المُنافِق أَمَر بما يُوافِق الشريعة؛ لكان لِزامًا علينا أن نُطيعه؛ لا لأنه أَمَر، ولكن لأن هذا مُقتَضى الشريعة، هذا وجهٌ.

٢- ووجهٌ آخَرُ، هو أن يُقال: إن تَقييد المُفَسِّر رَحِمَهُٱللَّهُ ذلك بيانٌ للواقِع؛ لأن الكافِر والمُنافِق -لِعَداوتهما لشريعة النبيِّ ﷺ- لا يُمكِن أن يَأمُرا إلَّا بما يُخالِف الشريعة، فيَكون هذا القَيْدُ بيانًا للواقِع، والقيدُ الذي يَكون بيانًا للواقِع لا يُقيِّد؛ لأنه لا يُراد.

وفي ذلك أَمثِلة، منها: قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ

﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾، فإن قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ قَيْد مُبيِّن للواقِع، وليس المَعنى أن هناك رَبًّا لم يَخْلُق وربًّا خلَق؛ والأمثِلة في هذا كثير.

فهنا يُمكِن أن نَحمِل كلام المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله: [فيما يُخالِف شريعتَكَ] على أنه بَيان للواقِع، وهو أن الكافِر والمُنافِق لا يُمكِن أن يَأمُر إلَّا بما يُخالِف الشَّريعة؛ لأن الكافِر كافِر بها، والمُنافِق أيضًا كافِر بها، لكنه يُظهِر الإيمان.

ثُمَّ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بما يَكون قَبْلَ كونه، ﴿حَكِيمًا﴾ فيما يَخلُقه]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، هذه الجُمْلةُ مَوضِعها ممَّا قَبْلها في المَعنى تَعليلية، ووجهُ كَونِها تَعليلًا لما قَبْلها أن الله تعالى لَمَّا أَمَر نبيَّه ﷺ بالتَّقوى ونهاهُ عن طاعة الكافِرين؛ بيَّن أن هذا الأَمْرَ والنهيَ صادِر عن عِلْم وحِكْمة، وأنه عَزَّوَجَلَّ أَعلَم بما يَكيده هؤلاءِ الأعداءُ من الكُفَّار والمُنافِقين، فلا تُطِعْهم؛ فليسوا أهلَ نُصْح لكَ أبدًا.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بما يَكون قبل كَوْنه]، وهذا التَّقييدُ غير صحيح؛ لأنه تعالى عليم بما يَكون قبل كَوْنه، وبعد كَوْنه: حالَ كَوْنه مَوجودًا، وبعدَ كَوْنه: حالَ كَوْنه مَعدومًا، فعِلْم الله تعالى يَتعلَّق بالأشياء في أَحوالها الثلاثِ؛ قبل الوُجود، وحين الوُجود، وبعد العَدَم.

أَمَّا عِلْم المَخلوق فلا يَتعلَّق بالأشياء في هذه الأَحوالِ كُلِّها:

قبلَ الوُجود مَعلوم أنه لا يَعلَمها.

وحين الوُجود: لنَفرِض أنه يَعلَمها.

وبعد العَدَم: قد يَنْساها.

فعِلْم المَخلوق مَحفوف بنَقْصين: جَهْل سابِق، ونِسْيان لاحِق.

أمَّا الله عَزَّوَجَلَّ فإن عِلْمه كامِل، جُملةً وتَفصيلًا، في جميع الأحوال؛ قبل الوُجود، وحين الوُجود، وبعدَ العدَم؛ ولهذا قال مُوسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾، فنَفَى عنه الضَّلال الذي هو الجَهْل، والنِّسْيان الذي هو: الذُّهول عن الشيءِ بعد عِلْمه.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ إِذَنْ نَقول: عَليمًا بما يَكون قبلَ كَوْنه، وبما يَكون حين كونه، وبما يَكون بعد عدَمه في كل الأحوال.

﴿حَكِيمًا﴾ تَقدَّمَت كثيرًا، وبيَّنَّا أنه مُشتَقٌّ من الحِكْمة والحُكْم، وأن حُكْم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كَوْنيٌّ وشَرْعيٌّ، وأن الحِكْمـة نوعان أيضًا: غائِيَّة وصُوريَّة، والصُّوريَّة ليس المعنى أنها بالصُّورة فقط، لكن كون الشيء على هذه الصورةِ حِكْمة، والغاية منه حِكْمة أُخرى، فإذا كان كذلك فتكون الأقسامُ أَربَعةً:

١- حُكْم مُشتَمِل على الحِكْمة في صورته وغايَته.

٢- حُكْم شَرْعيٌّ مُشتَمِل على الحِكْمة في صورته وفي غايَته.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، وهنا إِشْكال في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ﴾؛ لأن المعـروف أن الشيءَ الماضِيَ قـد مضَى، ﴿كَانَ عَلِيمًا﴾، فهل يُفيـد أنه الآنَ ليس بعَليم؟ لا؛ لأن (كان) قد تَكون مَسلوبة الزمان، ويُقصَد بها اتِّصاف اسمِها بخبَرِها، وتَحقُّق ذلك الاتِّصافِ بدون أن يُلاحَظ الزمَن فيها، وهي كلَّما جاءَت بالنِّسبة إلى الله تعـالى وأسمائه وصِفاته؛ فإنها على هذا البـابِ: أنها تُفيد تَحقُّق اتِّصاف المَوْصوف -الذي هو اسمُها- بصِفَته -وهو خَبَرُها-، بقَطْع النَّظَر

عن الزمان، فعليه نَقول: إن الفِعْل هنا مَسلوب الزمان، يَعني: لم يَزَلْ ولا يَزال عَليًا حكيًا.

وهلِ العِلْم والحِكْمة من الصِّفات الذاتية أو الفِعْلية؟

الجوابُ: من الصِّفات الذاتـية؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ لم يَزَل ولا يَزال عَليًا، ولم يَزَل ولا يَزال حَكيًا. والله تعالى أَعلَمُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ناداه بوَصْف النُّبوَّة مع الأنبياء الذين سِواهُ، يُنـادِيهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأسمائهم: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾ [المائدة:٢٢]، ﴿يَٰعِيسَى﴾ [المائدة:١١٦]، وما أَشبَهَ ذلك، أمَّا النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ما ناداه إلَّا بوَصْف النُّبوَّة أو الرِّسالة.

فإن قلت: أَلَيْس الله عَزَّوَجَلَّ قد قال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران:١٤٤]، وقال: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ [الفتح:٢٩]؟

فالجوابُ: أن هذا ليس مقامَ نداء خطاب لكنه مقام خبر.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: وجوبُ التَّقوى على الأُمَّة، فإذا كان الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُؤمَر بالتَّقوى فغيرُه من بابِ أَوْلى هذا وجهٌ. وجهٌ آخَرُ: أن الخِطاب المُوجَّه للرسول صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُوجَّه له ولأُمَّته ما لم يَقُم دليل على تَخصيصه.

وبهذه المُناسَبة فالخِطابات المُوجَّهة للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: إمَّا أن يَقوم دليل على العُموم، بأن يَكون في نفس الخِطاب ما يَدُلُّ على العُموم، أو فيه ما يَدُلُّ على الخُصوص، أو فيه ما لا يَدُلُّ على هذا ولا على هذا.

فالذي فيه ما يَدُلُّ على العُموم للعُموم مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ

ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ [الطلاق:١].

والَّذي فيه ما يَدُلُّ على الخُصوص مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [التحريم:١].

والذي فيه ما لا يَـدُلُّ على هذا ولا هذا، مثل هذه الآيةِ، ولكنَّ حُكمَـها عامٌّ للنبيِّ ﷺ ولأُمَّتِه.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن النبيَّ ﷺ عبدٌ مأمورٌ مُكلَّفٌ؛ لأَمْره بالتَّقوى، وعدَم إطاعة الكافِرين والمُنافِقين.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن الإنسان مَهما بلَغ من المَرتَبة، فإن التَّكاليف لا تَسقُط عنه؛ وعلى هذا فيتَفرَّع من هذه القاعِدةِ: بيانُ ضَلال أُولئكَ الصوفيةِ الذين يَقولون: إن الإنسان إذا وصَل إلى درجة المُعايَنة سقَطَت عنه التكاليفُ!.

قُلنا: لا؛ لأنه لا أحَدَ يَبلُغ مَرتَبـة النبيِّ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عنـد الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، ومع ذلك لم تَسقُط عنه التَّكاليفُ.

فإن قالوا: إن الله تعالى يَقول: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾ [الحِجر:٩٩]، يَعنِي: حتى تَصِل إلى درجة اليَقين، ثُم تَمتَنِع عن العِبادة؟

فالجَوابُ: أن المُراد باليَقين هنا هو الموت، قولهم -أي: أصحاب الجَحيم- كما قال تعالى عنهم: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤٦ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ﴾ [المدَّثر:٤٦-٤٧]؛ أَتاهم اليَقينُ، يَعنِي: أنَّهم وصَلوا إلى درجة اليَقين؟ أبدًا، إذ ماتوا على التكذيب ولم يَصِلوا إلى درجة اليَقين، وإذا كان هؤلاء يَقولون: إننا وصَلْنا إلى درجة يَقين يَكونون به من أصحاب الجَحيم، فنحن نُوافِقهم على ذلك.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: تَحريمُ طاعة الكافِرين والمُنافِقين والرُّكونِ إليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن الكافِر والمُنافِق لا يُمكِن أن يَكون ناصِحًا للمُؤمِنين أبَدًا، ولو كان يُمكِن أن يَكون فيه نُصِح ما نَهى تعـالى عن طاعتهم مُطلَقًا؛ لأن الناصِح يُطاع.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثبات اسمَيْن من أسماء الله تعالى، وهُما: العليم والحكيم.

وهل عِلْم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَشمَل الحاضِر والمُستَقبَل والماضي؟ وهل هو مُتعَلِّق بالواجِب أو بالمُستَحيل أو بالمُمكِن أو بالجميع؟

الجوابُ: إذا لم يُمكِن أن يَكون في السَّموات أو في الأرض آلِهة غير الله تعالى، وكذلك ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون:٩١]، فإن هذا من المُستَحيل.

ومِثال تَعلُّق عِلْم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالواجِبِ كثير جِدًّا؛ فكُلُّ ما أَخبَر الله تعالى به عن نفسه فهو من العِلْم الواجِب؛ لأن الله تعالى يَجِب له صِفات الكمال، فإذا أَخبَر عن نَفْسه بهذه الصِّفاتِ صار مُتعَلِّقًا بالواجِب.

أمَّا المُمكِن فمنه قوله: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ [الرعد:٨]؛ لأن حَمْل الأنثى وغيض الأَرحام وزيادة الأرحام مُمكِن.

إِذَنْ: فصار عِلْـم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى شامِلًا لكل شيء جُملةً وتَفـصيلًا، حاضِرًا ومُستَقبَلًا وماضِيًا واجِبًا ومُمكِنًا وجائِزًا؛ ولهذا يَقول السَّفارينيُّ في عَقيدته:

وَالْعِلْـــمُ وَالْكَــلَامُ قَــدْ تَعَلَّقَــا بِكُــلِّ شَيْءٍ يَـا خَلِـيلِي مُطْلَقَـا(١)

فائِدة: الواجِب عندهم ضِدُّ المُستَحيل والمُمكِن؛ لأنهم يَقولون على الأشياء ثلاثة أُمور: إمَّا واجِبة -يَعني: لا بد من وُجودها، وليس الواجِب الذي يُثاب فاعِله ويَستَحِقُّ العِقابَ تارِكُه-، بل الواجِب الذي لا بُدَّ منه، والمُستَحيل الذي لا يُمكِن، والمُمكِن الذي هو جائِز الوقوع وعدَمه.

• • ❁ • •

(١) العقيدة السفارينية (ص:٥٢).

الآيــة (٢)

• • • •

قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [الأحزاب:٢].

• • • •

قوله تعالى: «بِمَا يَعْمَلُونَ» حسب النُّسخة التي عِندي.

﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ نَقول في: ﴿ٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ كما قُلنا في ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾، يَعني: استَمِرَّ على اتِّباعه، واتِّباع ما يُوحَى إلى النبيِّ ﷺ بالنِّسبة للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَشمَل: اتِّباعَه بالتَّبليغ، واتِّباعه بالدَّعوة، واتِّباعه بالعمَل؛ لأن النبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مأمور بالأمور الثلاث؛ مَأْمور بتَبليغه، وبالدَّعوة إليه، وبالعمَل به.

وقوله تعالى: ﴿مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ الوحيُ في الأصل: الإعلام بسُرعة وخَفاء، والمُراد به هنا: إبلاغُ النبيِّ ﷺ ما شرَعه الله عَزَّوَجَلَّ؛ سواء كان بواسِطة أو بغير واسِطة.

ومعلوم أن إبلاغ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لنَبيِّه ﷺ الوحيَ لا يَكون ظاهِرًا للناس؛ لأن رسول الله ﷺ ما يُعرَف أنه يُوحَى إليه إلَّا بما يَظهَر من علامات الوَحيِ، لكن لا نَدرِي كيف يُوحَى إليه لولا أنه أَخبَرنا بذلك.

وقوله تعالى: ﴿مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾: ﴿مَا﴾ هذه اسم موصول من صِيَغ العُموم، تَشمَل كلَّ ما يُوحَى إلى النبيِّ ﷺ.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: «إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرًا» يُفيد أن هَؤلاءِ الكافِرين والمُنافِقين كانوا يُحاوِلون من النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن يُخالِف شريعته، ولكن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قد لا يَعلَم بذلك؛ ولهذا قال: «إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرًا» أي: هَـؤلاء الكُفَّار والمُنافِقون ﴿خَبِيرًا﴾.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿خَبِيرًا﴾ والخَبير مُشتَقٌّ من الخِبرة، وهي: العِلْم ببَواطِن الأمور؛ ولهذا سُمِّيَ صاحِب الحَرْث والزَّرْع خَبيرًا، وسُمِّيت المُزارعة مُخابَرة؛ لأن الحَبَّ يُدفَن في الأرض فيَكون باطِنًا غير ظاهِر؛ فالخَبير هو العَليم ببواطِن الأمور؛ إِذَنِ: الخبـير أخَصُّ من العليم؛ لأن العليم يَشمَل العالِمَ بظواهِر الأمور وبواطِنها، لكن الخَبـير أخصُّ، هو العالِم ببواطِن الأُمور، والعالِم بالبـواطِن عالِمٌ بالظواهِر من بابِ أَوْلى.

يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [وفي قِراءَة بالفَوقانية]، فيُقال: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾، وقوله: «في قِراءَة»؛ في اصطِلاح المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ أنه إذا قال: «في قِراءة» فهي سَبْعية، وإذا قال: قُرِئَ، فهي شاذَّة.

وعلى هذا ففي الآية قِراءَتان سَبْعيتان؛ تَجوز القِراءة بكُلٍّ مِنهما، وعندما نَقول: تَجوز. فليس مَعناه أن القِراءة بهذا وبهذا على حدٍّ سَواءٍ، لكنِ المعنى أن القِراءَةَ بهما غيرُ ممنوعة؛ لأن الأفضل أن تَقرَأ بهذه تارةً وبهذه تارةً، فإن اختِلاف القِراءات كاختِلاف العِبادات، وقد ذكَرْنا أن الأفضلَ في العِبادات الوارِدة على وجوهٍ مُتنوِّعةٍ: أن تَأتيَ بهذه مرةً وبهذه مرةً؛ لأجل أن تكون قد عمِلت بالسُّنَّة في جميع وجوهها، كذلك في القِراءات الأفضل أن تَأتيَ بهذه مرَّةً وبهذهِ أُخرى بشَرْط أن تَكون عالِمًا بالقِراءة.

ولكن هذا القولَ الذي نَقوله إنما هو في قِراءة الإنسان الخاصَّة، أمَّا قِراءته على العامَّة، فإنه لا يَنبَغي أن يَخرُج عن القِراءة المَوْجودة بين أيديهم؛ لأن العامِّيَّ لا يُدرِك هـذه القِراءاتِ أو لا يُدرِك اختِلاف هذه القِراءاتِ، فإذا قرَأْت القُرآن بغـير ما بين يديه، فإنه سيُنْكِر عليك ولكن هذا الإنكارَ ربَّما تُجيب عنه، لكن سيقَع في نَفْسه شيء من الشَّكِّ، يَقول: إذَنِ القُرآن ما ضُبِط ما دام أَحَدهم يَقرَأ بهذا وأَحَدهم يَقرَأ بهذا؛ فيَقَع في قَلْبه شيء من الشَّـكِّ؛ ولهذا يَنبَغي لنا أن نُحـدِّث الناس بما تُدرِكه عُقولهم، كما في حديث عَليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ أَتُرِيدُونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ»[1].

فالحاصِل: أن الإنسـان -طالِب العِلْم الذي يَعرِف القِراءات- يَنبَـغي له أن يَقرَأ أحيانًا بهذه وأحيانًا بهذه، ولكن هل يَجمَع بين القِراءَتَيْن؛ يَعنِي مثلًا هنا أَقول: «إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرًا»، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾؟

الجوابُ: لا، الأفضَلُ يَأتي بهذا مرَّةً وبهذا مرَّةً؛ لأنك إذا جمَعْت بين القِراءَتَيْن فقد خالَفْت، إذ إن مَن قرَأَها بالتـاء لا يَقرَؤُها بالياء، فكيف يَجمَع بينـهما؟! ولكن بعـض أهل العِلْم رَحِمَهُمُ اللَّهُ يَقول: لا بأسَ أن تَجمَع بين القِراءَتَيْن، سواء كانـت مُنفَصِلةً أو غير مُنفَصِلة، بمعنى أنه يَجوز أن تَقرَأ في القِراءَتَيْن في الآية الواحِدة؛ أن تَقرَأ بالقِراءَتَيْن في الآية الواحِدة، ويَجوز أن تَقرَأ في آية بقِراءة قارِئ وفي آية أُخرى بقِراءة قارِئٍ آخَرَ؛ وأمَّا الثـانية وهي أن تَقرَأ في آية بقِراءة قارِئٍ وفي آيـة أُخرى بقِراءة قارِئٍ آخَرَ فهي جائِزة.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب من خص بالعلم قوما دون قوم، كراهية أن لا يفهموا، رقم (١٢٧).

أمَّا الجَمْع بين القِراءَتَيْن في آية واحدة وفي تِلاوة واحِدة فإن في جوازها نظَرًا؛ فمَثَلًا: تَقرَأ: «إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرًا» على قِراءة أحَدِ القُرَّاء، ثُمَّ تَأتي مثلًا بقِراءة ثانية تُخالِفه في آية أُخرى فتَقرَأ بها.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: وجوبُ اتِّباع ما أُنْزِل على النَّبيِّ ﷺ، تُؤخَذ من قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾.

فإن قلت: هل هذا على العُموم؛ أي: أنه يَجِب اتِّباع ما أُنْزِل على الرسول ﷺ؛ فيَجِب إِذَنْ أن نَرفَع الأَيدِيَ في الصلاة، ويَجِب أن نُسبِّح أكثرَ من مرَّة؟

فالجَوابُ: أن نَقول: هذا يُستَثنى منه ما قام الدليلُ على أنَّه ليس بواجِب، لكن ما صحَّ عن الرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ولو كان غيرَ واجِب يَجِب اعتِقاد مَشروعيته، حتَّى وإن كان غيرَ واجِب الفِعْل؛ فعِندنا اعتِقاد المَشروعية وتَنفيذ هذا المَشروع على حسب ما جاء في الأَدِلَّة إمَّا واجِب وإمَّا مُستَحَبٌّ.

وأمَّا اعتِقاد المَشروعية فيما صحَّ فهو واجِب؛ فمثَلًا: يَجِب عليَّ أن أَعتَقِد مَشروعية مُجافاة العَضُدين عن الجَنْبين في السُّجود، وأن نَعتَقِد مَشروعية الالتِفات في الصلاة عند السلام، لكن فِعْل ذلك يَتوَقَّف على الأدِلَّة التَّفصيلية، إن دلَّت الأدِلَّة على وجوبه فهو واجِب، وإن دلَّتْ على أنَّه مُستَحَبٌّ فهو مُستَحَبٌّ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: ثُبوت رسالة النَّبيِّ ﷺ ونُبوَّته؛ تُؤخَذ من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ ومن قوله تعالى: ﴿مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن لله تعالى رُبوبيةً خاصَّةً بالنِّسبة إلى الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛

لقوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾، وقد تَقدَّم كثيرًا بأن الرُّبوبيـة نَوعانِ والعُبودية نوعـان: رُبوبية عامَّة ورُبوبية خاصَّة.

فمِثال الرُّبوبية العامة: قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [الصافات:٥].

ومثال الرُّبوبية الخاصَّة هذه الآية: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾.

وقد اجتمَع النوعان في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف:١٢١-١٢٢].

وكذلك العُبودية نَوْعان: عامَّة وخاصَّة.

فالعامة مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [غافر:٤٤].

والخاصَّة مثل قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء:١]، والمُراد الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ عِلمَ الله تعالى شامِلٌ للأُمور الباطِنـة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: تَحذير الإنسان من المُخالَفة؛ لأن هذا يُوجِب أنَّنا لا نُخالِف الله تعالى ما دُمْنا نَعلَم أنه خَبير بما نَعمَل، فإنه لا يُمكِن أن نُخالِف الله عَزَّوَجَلَّ، مِثْل ما لو قُلْـت: اذهَبْ وأنا أَعلَمُ ما تَفعَل. فالمُراد: التهديـدُ والتحذيرُ من المُخالَفة، فكلُّ نَصٍّ يُبيِّن الله تعالى فيه أنه يَعلَم ما نَعمَل فهو تَحذير لنا من مُخالَفته.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: وجوبُ تَقـديم الوحيِ على الرأيِ في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ فإن هذا الخِطابَ مُوجَّهٌ إلى رسول الله ﷺ وإلى أمَّته بالأَوْلى،

فيُفيدُ وجوبَ تَقديم الوحيِ على الرأيِ.

وتقديمُ الرأيِ على الوَحيِ لَهُ أقسام: منها ما يَصِل إلى الكُفْر، ومنها ما هو دون ذلك، فالذين يُقدِّمون الرأيَ على الوَحْي مع عِلْمهم بالوَحيِ مُعتَقِدين أن غير الوحيِ مُساوٍ له أو أَكمَلُ منه، أو أنَّه يجوز الحُكْم بالرَّأْي المُخالِف للوَحيِ مع العِلْم به، هؤلاء يُعتبَرون كُفَّارًا.

وفي هذه الأحوالِ الثلاثةِ إذا اعتَقَدوا أن الرأيَ أَكمَلُ وأَنفَعُ من الوَحيِ، أو أنَّه مساوٍ له، أو أنه يَجوز تَقديمُه على الوحيِ مع العِلْم به، فهؤُلاء كُفَّارٌ؛ لأنهم حكَموا بغير ما أَنزَل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة:٤٤].

وأمَّا مَن قدَّموه بتأويلٍ ظنًّا منهم أن ذلك لا يُخالِف الوَحيَ، أو أنه طريق يُوصِّلهم إلى الوَحيِ، فهؤلاء لا يَصِلون إلى درَجة الكُفْر، وذلك مثل كثير من المُتعَصِّبين للمَذاهِب، فإنهم لا يَرَوْن أن هذه المذاهِبَ خارِجةٌ عن الوحي، وإنَّما يَرَوْن أن ذلك طريق إلى العمَل بالوحيِ، فيَقُولون: هذا إمامُنا أعلَمُ مِنَّا وأفْهَمُ، فنتَّبِعه ونتَّهِم رأيَنا بالنسبة إلى رَأْيه، وإلَّا فنحن مُتمسِّكون بشريعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، مُحكِّمين لكتاب الله تعالى وسُنَّة رسوله ﷺ.

ونَقول: إنه إذا تَبيَّن لهم الحقُّ وجَب عليهم اتِّباعُه ولو خالَف مَتبوعهم من الأئِمَّة؛ وذلك لأن الحقَّ لا يُخطِئُ والأئِمَّة يُخطِئون، ولا يُمكِن أن يُدَّعَى العِصمةُ لأحَدٍ من البشَر إلَّا رسول الله ﷺ، لا يُمكِن أن يَدَّعِيَ العِصمة إلَّا رجُلٌ ضالٌّ.

فالذي يَدَّعي العِصْمة لغير الرُّسُل رجُل ضالٌّ كما يَفعَل الرافِضة بأئِمَّتهم

وهذا ضَلال بيِّنٌ؛ لأن أئِمَّتهم قد يُخطِئون كما يُخطِئ غيرهم، وقد وقَع لعليِّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو إمام الأئِمَّة بالنسبة لأُولئك القوم أنه أَخطَأَ حين أَعطاه النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حُلَّة من حرير فلَبِسها، فقال: «**إِنِّي مَا أَعْطَيْتُكَهَا لِتَلْبَسَهَا، وَإِنَّمَا لِتُعْطِيَهَا لِفَاطِمَةَ**»(١)، وكذلك ما هو مَشْهور عنه من: أن المَرأة إذا كانت حامِلًا وتُوُفِّيَ عنها زوجها، فإنَّهَا تَعتَدُّ بأطوَل الأجَلَيْن(٢)، وهذا مُخالِف للسُّنَّة الصحيحة الصريحة(٣).

والحاصلُ: أننا نَقول: إن في الآية الكريمة: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ وُجوبَ تَقديم الوحيِ على الرأيِ، وأنه يَجِب الحُكْم بما جاء به الشَّرْع مُطلَقًا، سواءٌ خالَف رأيَ مَتبوعِيك أو لم يُخالِف.

• ● ۞ ● •

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الهبة، باب هدية ما يكره لبسها، رقم (٢٦١٤)، ومسلم: كتاب اللباس، باب تحريم استعمال إناء الذهب والفضة على الرجال والنساء، رقم (٢٠٧١)، من حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه سعيد بن منصور في السنن رقم (١٥١٦)، وابن أبي شيبة في المصنف (٩/ ٣١٢).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الطلاق، باب ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾، رقم (٥٣٢٠)، من حديث المسور بن مخرمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن سبيعة الأسلمية نفست بعد وفاة زوجها بليال، فأذن لها النبي ﷺ أن تنكح.

الآيـة (٣)

• ● ● •

قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب:٣].

• ● ● •

قالَ المُفسِّر: [﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ في أَمْرِك] وكفَى بالله وكيلًا حافِظًا لك.

والتَّوكُّل بمَعنَى الاعتِماد مع الثِّقة؛ ولهذا فسَّرُوه بأنه صِدْق الاعتِماد على الله تعالى في جَلْب المَنافِع ودَفْع المَضارِّ مع الثِّقة بالله عَزَّوَجَلَّ بأن يَكون القَلْب مُعتَمِدًا على الله تعالى لا على غيره في جَلْب المَنافِع، وفي دَفْع المَضارِّ، مع ثِقَته بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، يَعنِي: واثِقًا بأن الله تعالى سيَكْفيه؛ ولهذا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣] كافِيه، فإذا صدَقْت الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سيَكفيكَ، فهذا هو تَمام التَّوكُّل.

وقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ جاءَت هذه في القُرآن في عِدَّة مَواضِعَ، ومنه قوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود:١٢٣]، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟﴾ [المائدة:٢٣]، وعلى هـذا فيَكون التَّوكُّل من العِبادة؛ لأن الله تعـالى أَمَر به، وما أَمَر الله تعالى به شَرْعًا فهو من العِبادة، وسيَأتي -إن شاء الله تعالى- في الفوائِد أقسام التَّوكُّل.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ البـاء يَقول أهل الإعراب: إنهـا زائِدة؛ لتَحسين اللَّفْظ، وإن لَفْظ الجلالة هو الفاعِل، والتَّقدير: - وكفَى الله شَهيدًا - وَكيلًا حالٌ من الفاعِل، والمَعنَى: ما أَعظَمَ كِفايةَ الله عَزَّوَجَلَّ في هذا الشيءِ! إن كان

﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الإسراء:٩٦] فما أَعظَمَ كِفايةَ الله تعالى في شَهادته! وقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ المَعنَى: ما أَعظَمَ كِفايةَ الله تعالى في وَكالته!.

وقوله: ﴿وَكِيلًا﴾ يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [حافِظًا لكَ]، وعلى هذا ففَعيل هنا بمَعنى: فاعِل، وليسَت بمَعنى: مَفعول؛ لأن الوَكيل إذا قلت: وكَّلت هذا الوكيلَ؛ فإن (وكيلًا) بمَعنَى: مَفعول؛ لأنه مُوكَّل، لكن هنا بمَعنَى: فاعِل أي: أنه حافِظ فالاعتِماد من الإنسان، والحِماية والحِفْظ من الله تعالى.

ويَدُلُّ لتَفسير المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣] [أي: كافِيه]، وسَوْف يَقوم الله عَزَّوَجَلَّ بحِفْظه وبتَحقيق ما تَوكَّل به عليه.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وأُمَّته تَبَع له في ذلك كلِّه]، إنما قال هـذا؛ لأن الخِطاب في الآيات مُوجَّه للنبيِّ ﷺ فأُمَّتُه تَبَع له، علِمنا ذلك من أَحَد طريقَين:

الطريق الأوَّل: أن الله أمَرَنا بالتَّأَسِّي به، فكلُّ أَمْر مُوجَّه للرسول ﷺ لا يَدُلُّ الدليل على تَخصيصه به، فهو لنـا أيضًا نحن مَأمورون باتِّباعه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ﴾ [الأحزاب:٢١].

ثانيًا: أنـه من المَعروف في الخِطاب أن الخِطاب المُوجَّـه إلى المَتبوع خِطاب له ولتـابعه؛ ولهذا يَقول القائِد لضابِط الجَيْـش: (اذهَبْ إلى المَكان الفُلاني)، هل هو يُريد: اذهَبْ أنت بنَفْسك أم أنت بمَن تَبِعك؟

والجوابُ: أنت بمَن تَبِعك، فالخِطاب في اللغة العربية إذا وجِّه للمَتبُوع فهو له وللتابِع، فصار وَجهُ كون الأُمَّة تبَعًا للرسول ﷺ في هذه الأوامِرِ وما تَضمَّنَتْه من النهيِ له طريقان:

الطريق الأوَّل: أننا أُمِرنا باتِّباع الرسول ﷺ.

والطريق الثاني: أن الخِطاب المُوجَّه للمَتبوع فهو له ولتابِعه.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: فيها دليل على وُجوب التَّوكُّل على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وقد ذكَرْنا في (كتاب التوحيد) أن التَّوكُّل يَنقَسِم إلى أقسام:

أَحَدُها: تَوكُّل العِبادة: وهو شُعور الإنسان بافتِقاره إلى المُتوكِّل عليه، وذُله بين يَدَيْه، وهذا لا يَجوز صَرْفه لغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وصَرْفه لغير الله كُفْر شِرْك؛ لأنه إِشْراك بالله تعالى فيما لا يَستَحِقُّه إلَّا الله تعالى، وهو شِرْك أكبَرُ.

والثَّاني: الاعتِماد على الغير الذي جعَلْته نائبًا عن نفسك، فهذا جائِز، وقد وقَع حتَّى من الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فإنه وكَّل عُرْوةَ بنَ الجَعْد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على أن يَشتَرِيَ له أُضحِيَّة[1]، وكان له وكيلٌ في خَيبرَ[2]، وكذلك وكَّل عليَّ بنَ أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في ذَبْح ما بَقِيَ من الهَدْي[3]، وهو جائِز ولا إشكالَ فيه، ووكَّل عليَّ بن أبي طالِب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين ذهَب إلى تَبوكَ[4]؛ أن يَكون خليفةً له في أهله، وموسى ﷺ وَكَّل هارونَ ﷺ حين ذهَب إلى الطور، وقال: ﴿ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ﴾ [الأعراف:١٤٢].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، رقم (٣٦٤٢).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب إذا أراد بيع تمر بتمر خير منه، رقم (٢٢٠١)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب بيع الطعام مثلا بمثل، رقم (١٥٩٣)، من حديث أبي هريرة وأبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ رقم (١٢١٨)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة تبوك، رقم (٤٤١٦)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، باب من فضائل علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رقم (٢٤٠٤)، من حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

إذنْ: هذا جائِز، ولا إشكالَ فيه؛ لوقوعِه من الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ؛ ولأنه عَقْد من العُقود، والأصل في العُقود الحِلُّ إلَّا ما قام الدليلُ على مَنْعه.

الثالِث: أن يَعتَمِد على مَن لا يَصِحُّ الاعتِماد عليه، على قُوَّة سِرِّيَّة، نَعلَم أنه لا أثَرَ لها في هذا الاعتِمادِ، وهذا شِرْك قد يَكون أكبَرَ، وقد يَكون أصغَرَ، مثل: اعتِماد أولئك الذين يَتَوسَّلون بالأموات، ويَعتَقِدون أن في الاعتِماد عليهم خَيرًا، هؤلاء قد يَصِلُّ بهم الأمرُ إلى الشِّرْك الأكبَرِ؛ وإلَّا فمُجرَّد اعتِمادهم عليهم شِرْكٌ ولا يَحِلُّ.

الرابعُ: أن يَعتَمِد على قوة ظاهِرةٍ مُؤثِّرةٍ، لكنه يَعتَمِد عليها لا باعتِبار أنها نائِبةٌ عنه، بل باعتِبار أنها مُجدِيةٌ له، وأنها مَصدَر سَعادته وفَلاحه ورِزْقه وما أَشبَه ذلك، فهذا مَكروهٌ وقد يَصِل إلى درجة التحريم، كاعتِماد الإنسان على الراتِب وعلى المَعاش من الوزارة التي يَعمَل فيها أو الإدارة أو الرِّئاسة أو ما أَشبَه ذلك، فإنَّ هذا فيه نوع من الشعور بالافتِقار إلى هذا الشيءِ والتَّذلُّل له.

ولذَلِك تَجِد الذين ابتُلوا بهذا النوعِ تَجِدهم يُحابُون مَن كانوا يَعتَمِدون عليه، يُحابون كُبَراءَهم من الوزراء وغير ذلك في أَمْر لا يَجوز، أمَّا مُجامَلة في ما هو جائِز فهذا أَمْر لا بأسَ به، لكن مُحاباتهم في المُحرَّم هذا لا يَجوز، لكن هذا قد يَقَع؛ لأنهم يَشعُرُونَ أنَّهم يَفتَقِرون إلى هؤُلاء، فهذا أقَلُّ أحواله الكراهة، والإنسان يَنبَغي له أن يَكون عزيزَ النَّفْس لا يَعتَمِد إلَّا على ربِّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن كِفايةَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فوق كل كِفايةٍ؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ زَعم بعض أهل العِلْم رَحِمَهُمُ اللَّهُ أن مِثْل هذا التركيبِ يُفيد التَّعجُّب، يَعنِي: ما أعظَمَ كِفايةَ الله تعالى! وهذا ليس ببعيد: أن كون هذه الصِّيغةِ تُحوَّلُ مِن (وكفَى اللهُ وَكيلًا) إلى ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾؛ لا يَبعُد أن يَكون المُراد

بذلك المُبالَغة في كِفايته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ويَدُلُّ على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣].

• ● ۞ ● •

الآية (٤)

• • • •

قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾ [الأحزاب:٤].

• • • •

ثُمَّ قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾: ﴿ مَّا ﴾ نافِية، ولفظُ الجلالة فاعِل، و﴿مِّن قَلْبَيْنِ ﴾ مفعول ﴿جَعَلَ﴾ الأوَّل مُؤخَّر، ومَفعولها الثاني قوله: ﴿لِرَجُلٍ﴾، و﴿مِّن﴾ هنا نَقول: إنها زائِدة من حيثُ الإعراب.

فنُعْرب ﴿قَلْبَيْنِ ﴾ على أنها مَفعولٌ به مَنصوبٌ، وعلامة نَصْبه ياءٌ مُقدَّرة على هذه الياءِ التي جُلِبت لماذا؟ جُلِبَت للحَرْف؛ لأن عَمَلَ الأداة الظاهِرة أَقوى من عمَل الأداة الغير ظاهِر؛ مثلًا: (جعَل) تَنصِب (قَلْبين)، لكن عارَضَها عامِلٌ مُباشِر أَقوى، وهو حرف الجَرِّ، فيَقولون: إن الياء هذه ليسَت ياءَ النَّصب، ولكنَّها ياءُ حَرْف الجَرِّ الزائِد، وعلى هذا نَقول: علامة نَصْبه ياءٌ مُقدَّرة في مكان الياء المَوجودة التي اجتُلِبَت من أجل حَرْف الجَرِّ الزائِد.

قوله تعالى: ﴿ مَّا جَعَلَ﴾ هذا الجَعْلُ كونيٌّ؛ لأن الجَعْل الذي يُضاف إلى الله تعالى يَنقَسِم إلى قِسْمين:

١- جعَل شَرْعِي، بمَعنى: ما شَرَع.

٢- وجعَل كَوني، بمَعنى: ما خَلَق.

مِثال الجَعْل الشرعيِّ: قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ﴾ [المائدة:١٠٣]، هذا جَعْل شَرعيٌّ، والدليلُ أنه كونًا واقِعٌ، لكنه شرعًا لم يَجعَل ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ﴾ [المائدة:١٠٣].

وأمَّا الجَعْل الكَوْنيُّ فهو كثير، مثل قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ [الإسراء:٦]، ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ:١٠-١١].

وفي هذه الآيةِ الكريمةِ: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ﴾ من الجَعْل الكونيِّ، وأكَّدَ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى هذا النفيَ بحَرْف الجَرِّ الزائِد؛ لأن الحروفَ الزوائد من أدوات التوكيد؛ إِذَنْ: مُحالٌ أن يَكون في الإنسان الواحِد قَلْبان، ولكن هل هذه الجُمْلةُ مُرادةٌ لذاتها أو مُرادة لغيرها؟

يَرَى المُفَسِّر رَحِمَهُٱللَّهُ وجماعة من عُلَماء التفسير أنها مُرادةٌ لذاتها، وأنها نَفيٌ لأَمْر قدِ ادُّعيَ؛ ولهذا قال رَدًّا على مَن قال مِن الكفار: إن له قَلْبين يَعقِل بكُلٍّ منهما؛ أفضَل من عَقْل مُحمَّد ﷺ؛ هذا ما ذهَبَ إليه جماعة من أهل العِلْم.

يَعني: أن هذا نَفيٌ لأَمْر قدِ ادُّعيَ وهو رجُل من الكُفَّار يَقول: إن له قَلْبين، وإذا كان له قَلْبان كان له عَقْلان، وإذا كان له عَقْلان كان أَفضَلَ من النبيِّ ﷺ؛ لأنه ما له إلَّا قَلْب واحِد.

وذهَبَ بعض المُفسِّرين وعلى رَأْسهم الزُّهريُّ[1] رَحِمَهُٱللَّهُ إلى أن هذه الجُملةَ ليسَت مَقصودةً لذاتها؛ لأنها أمرٌ مَعلوم؛ لأنه ليس لإنسان قَلْبان، لكنها تَوْطِئة وتَمهيد

(١) أخرجه عبد الرزاق في التفسير (٣/ ٣٠)، ومن طريقه الطبري في التفسير (١٩/ ٩).

لما يأتي بعدها؛ لأنه ذكَر في الآية الكريمة ثلاثةَ أشياءَ:

١ - ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾.

٢ - ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾.

٣- ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾.

فكما أنكم تُقِرُّون بأنه لا قَلْبين لرجُل في جَوْفه، فكذلك ليسَتِ الزوجة أُمًّا؛ لأن الله تعالى لم يَجعَل للإنسان أُمَّيْن كما أنه ليس له قَلْبان، وكذلك ليس هناك ابنٌ غير حَقيقيٍّ، ليس للإنسان ابنٌ خُلِق من مائِهِ وابنٌ نُسِب إليه ولم يُخلَق من مائِهِ، بل إن ابنك مَن خُلِق من مائِكَ؛ وهذا ما اختاره ابنُ كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]. على أن هذه الجُملةَ تَوْطئة؛ لأن انتِفاء القَلْبين في الجوف الواحِد أمرٌ مَعلوم، والقِصَّة التي ذَكَروها يُنظَر في صِحَّتها، وحتى لو صَحَّت، فإن هذا الذي يَقول: إنَّ له قَلْبين. ادِّعاؤه ذلك يَدُلُّ أنه لا قَلبَ له؛ لأن هذا أمر مُستَحيل.

يَقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾، فهل قوله تعالى: ﴿فِى جَوْفِهِۦ ﴾ قَيْدٌ؟ يُعتبَر قيدًا شَرْطيًّا له مَفهوم، فيُقال: إن له قَلْبينِ خارِج جَوْفه؟ لا، ولكنها لِبَيان الواقِع؛ لأن من المعلوم أن القُلوب في الأجواف، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام:٣٨]؛ لأن قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ كقول الإنسان: ولا ماشٍ يَمشِي برِجْلَين؛ لِبَيان الواقِع.

وإن كان بعض المُتأخِّرين في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾

---

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٣٣٦).

قال: إنها قَيْد شَرْطي؛ لتَخْرُج الطائِرة المَعروفة؛ لأنها تَطير بغير جَناحَيْها، وقد يُقال: إن هذا ليس بصحيح. أيضًا حتى الطائِرة الآنَ تَطير بجَناحَيْها، لأن النفَّاثاتِ التي تَطير بها في الجَناحَيْن، والمَراوِح التي كانت في الأوَّل في نفس الجَناحَيْن؛ لكن لا شكَّ أن الطائِرةَ ليست من الأُمَم التي هي أمثالُنا بل هي من صُنْعنا؛ إذَنْ: قوله تعالى: ﴿فِي جَوْفِهِۦ﴾؛ لِبيان الواقِع.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى﴾ يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلَّٰٓـِٔى﴾ بهَمْزٍ وبِياءٍ وبلا ياءٍ]، يَعنِي: بهَمْز بلا ياء: (اللاءِ)، و(اللائِي) جَمْع (الَّتي) فهي مثل (الَّذين) في الذُّكور جمع (الَّذي).

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [«تَظَّهَّرون» بلا أَلِف قبل الهاء، وبهاءٍ، والتاءُ الثانية في الأصل مُدغَمة في الظاء] «تَظَّهَّرون» هذه قِراءة، يَقول: [بلا أَلِفٍ قبل الهاءِ]، و[بهاءٍ] يَعنِي: بأَلِف قبل الهاءِ، فتكون: «تَظَّاهرون»؛ هذه قِراءتان، والقِراءة المشهورة عندنا هي: ﴿تُظَٰهِرُونَ﴾.

فتكون ثلاثة قِراءات: «تَظَّهَّرون»، «تَظَّاهرون»، والثالِثة ﴿تُظَٰهِرُونَ﴾.

و«تَظَّهَّرون»، «تَظَّاهرون» يَقول: [إن الظاء في الأصل مُدغَمة في الظاء]؛ التاء مُدغَمة في الظاء، وأصلُها: (تَتظَاهَرون) أو (تَتظَهَّرون) لكن صارت «تَظَّهَّرون»، وأُدغِمَت التاءُ في الظاء.

وأمَّا الأَفضَلُ في القِراءة؛ فمنهم مَن يَقرَأ بالقِراءة التي فيها الزيادة؛ لأن فيها زيادة حَرْف والحَرْف فيه عَشْر حَسَناتٍ، فعلى هذا القولِ تَكون: «تَظَّاهَرون»؛ لأنها أكثَرُها حُروفًا.

ومن العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ مَن يَقول: الأفضَلُ أن تَقرَأ بكلِّ قِراءة، أن تَأخُذ بكُلِّ قِراءة، تَقـرَأ بهذه مَرَّة وبهذه مَرَّة؛ وهو الصحيح: بأن تَقرَأ بهذه مرَّة وهـذه مرَّة إذا كُنْت تَعرِف؛ لأن كلَّ قِراءة صحَّتْ عن النبيِّ ﷺ، فينبَغي أن تَقرَأ بها لفائِدتَيْن:

الفائِدة الأُولى: العمَل بكلا السُّنَّتَيْن.

الثانية: حِفْظ هذه القِراءات.

ولذلـك نحن الآنَ لَمَّا كُنَّا نَعتَـمِد على القِراءة التي عِنـدنا ما نَعرِف القِراءة الأخرى، فإذا كان الإنسان إذا قيل للإنسان: يَنبَغي لك أن تَقرَأ بكل قِراءة صحَّت، فإن هذا يَكون فيه حِفْظ للقِراءات؛ ولهذا يَنبَغي للصِّغار مِنَّا -والعـادة أن الكِبار صَعْب عليهم الحِفْظ- أن يَحرِصوا علىٰ القِراءات، وأن يَتعلَّموها لأجل أن يَعمَلوا بالسُّنَّة هذه فلا تَبقَى مَهجورة.

ومَعنَى ﴿تُظَـٰهِرُونَ مِنْهُنَّ﴾ أي: تَقولون: إنهن عليكم كظُهور أُمَّهاتكم.

وهذه صِيغة طلاقٍ في الجاهلية، إذا أَراد الإنسان أن يُطلِّق امرأته طلاقًا بائِنًا قال لها: أنت عَليَّ كظَهْر أُمِّي. فتَطلُق طلاقًا بائِنًا؛ لأن ظَهْر أُمِّه لا يَحِلُّ له بحال من الأحوال، وخُصَّ الظَّهْر؛ لأنه مَحَلُّ الرُّكوب، والإنسان يَركَب زَوْجته؛ لأنها فِراش كما قال الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ[1].

فقوله تعالى: ﴿تُظَـٰهِرُونَ﴾ أي: تَقولون لَهُنَّ: (أنتُن علينا كظَهْر أُمِّنا)، يَقول رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي: كالأُمَّهات في تَحريمها بذلك المُعَدِّ في الجاهِلية طلاقًا، وإنَّما تَجِب به

(١) في قوله ﷺ: «الولد للفراش». أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب تفسير المشبهات، رقم (٢٠٥٣)، ومسلم: كتاب الرضاع، باب الولد للفراش، رقم (١٤٥٧)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

الكفَّارة بشَرْطه كما ذُكِر في سورة المُجادَلة]، وأمَّا في الإسلام فليس بطلاق، ولكنه تَحريم تَجِب به الكفَّارة، ولكنه العَوْد لقَوْل الله تعالى: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ [المجادلة:٣].

يَقول المُفَسِّر: [يَقول الواحِد مثَلًا لزوجته: أنتِ عليَّ كظَهْر أُمِّي]، وقد يَقول الواحِد غير هذه العِبارةِ، فيَقول: أنتِ عليَّ كظَهْر أُخْتي. ويُمكِن أن يَقول: أنت عليَّ كبَطْن أُمِّي. فالعِبْرة بالمَعنَى لا بالصِّيغة، وقد ذُكِر في كتاب الظِّهار: «هو أن يُشبِّه الرجلُ زوجتَهُ بمَنْ تَحرُم عليه تَحريمًا مُؤبَّدًا بنسَب أو سبَب مُباح»، المُهِمُّ تَحريمًا مُؤبَّدًا، هذا هو الظِّهار عند أهل العِلْم، وفيه الخِلاف فيما لو حرَّمها أو لو ظاهَر منها أو شبَّهها بما تَحرُم عليه تَحريمًا إلى أَمَد.

وفي جملة: ﴿جَعَلَ﴾ المَفعول الأوَّل: ﴿أَزْوَاجَكُمُ﴾ و﴿اللَّائِي﴾ صِفتها، و﴿تُظَاهِرُونَ﴾ صِلة المَوْصول، و﴿أُمَّهَاتِكُمْ﴾ المَفعول الثاني.

وقوله تعالى: ﴿أَدْعِيَاءَكُمْ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [جَمْع دَعِيٍّ، وهو مَن يَدَّعِي لغَيْر أبيه ابنًا له] أدعياءُ جَمْع دَعِيٍّ، كأَغنياء جمع غَنيٍّ، وأَكفِياء جمع كَفِيٍّ، ولها أمثلة، ودَعِيٌّ: فَعِيل بمَعنى مَفعول، وأصلُها (دَعِيو) بالواو، لكن قُلِبت الواوُ ياءً لعِلَّةٍ تصريفية، إذَنْ: دَعِيٌّ بمَعنى مَدْعُوٌّ، والدعاء في الأصل طلَب الإِقْبال، والمُراد بالدُّعاء هنا النسبة بأن يُنسَب إلى غير أبيه، فيقال: هذا ابن فُلان. وليس ابنًا له حقيقةً.

وهؤلاءِ الأدعياءُ ما جعلَهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أبناءً لا شَرْعًا ولا قَدَرًا، أمَّا قَدَرًا فواضِح أنهم ليسوا بأبناءٍ قدَرًا، وأمَّا شَرْعًا فهنا نَفَى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذلك، قال: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾؛ فإذا كان الأَدْعياء ليسوا أبناءً لا قَدَرًا ولا شَرْعًا، فإنه لا يَتوجَّه الذِّهْن إليهم شَرْعًا، هذه الكلِمةُ التي أَقولها يَتبيَّنُ بها ضَعْفُ قولِ

مَنْ يَقول في قوله تعالى: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾ [النساء:٢٣] يَقول: إن قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾ إنها قَيْد يُحترَز به عن ابنِ التَّبنِّي؛ لأننا نَقول: ابن التَّبنِّي لا يَدخُل في الابن أَصْلًا. فلا يَذهَب إليه وَهْـم حتى نَقول: إنه يَحتاج إلى قَيْد يُحترَز به عنه.

المُهِمُّ أن الأدعِياء ما جعلَهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أبناءً لا شَرْعًا ولا قدَرًا، وكانوا في الجاهِلية يَدعون الإنسان لغير أبيه يَكون هذا الرجُل شريفًا وذا نسَب، وهذا الدَّعِيُّ وَضِيعًا نسَبه عند الناس، ليس بذاك الشيءِ، أو ليس له نسَبٌ معلومٌ فيُدعَى إلى هذا الأبِ؛ من أَجْل رِفْعته فأَبطَل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ذلك؛ لأن دعوة الإنسان إلى غير أبيه يَترَتَّب عليها أمور.

كلُّ ما يَترَتَّب على النسَب من تَحريم وتحليل وإِرْث ونفَقات وغيرها، كلها ربَّما تَنتَقِل إلى هذا الدَّعِيِّ؛ بسبَب أنه دُعِيَ إلى هذا الرجُلِ؛ فلذلك مَنَع الله تعالى ذلك شَرْعًا؛ لأن تَسميـةَ الشيءِ بشيءٍ أو باسْمٍ بعيـدٍ عن حقيقته هذا يُوجِب أن تنقلِب الأَوْضاع؛ حتى إن الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال: «**لَا تَغْلِبَنَّكُمُ الْأَعْرَابُ عَلَى تَسْمِيَتِكُمْ عَلَى صَلَاتِكُمُ العِشَاءِ، يَدْعُونَهَا العَتَمَةَ، وَهِيَ تُعْتِمُ بِإِبِلِهَا، وَإِنَّمَا هِيَ فِي كِتَابِ اللهِ: الْعِشَاءُ**»(١)؛ فكلُّ الأَشْيـاء التي ربما إذا سُمِّيـت باسمٍ آخَر ربَّما تَختَـلِف أحكامُها، فإن الشَّرْع نَهى عنها.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَبْنَآءَكُمْ﴾ حقيقةً] تَفسير لأبناءٍ يَعنِي: ما جعَلَهم أبناءً على وجـه الحقيقة [﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾ أيِ: اليـهود والمُنافِقين] ﴿ذَٰلِكُمْ﴾،

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد، باب وقت العشاء وتأخيرها، رقم (٦٤٤)، من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

المُفَسِّر يُريد أن يَكون الخِطاب هنا لليَهود والمُنافِقِين، والصواب أنه عائِد لكل مَن دعا شَخْصًا لغير أبيه من الأدعياء، سَواءٌ كان من المُنافِقين أو من اليَهود أو من المُشرِكين أو من المُسلِمين، فإن هذا قولٌ يَقوله الإنسان بفِيهِ، وليس حقيقةً هو نفسه يَعلَم أن هذا الدَّعيَّ ليس ابْنًا لهذا المَدعُوِّ إليه، فكيف يَقول ما يَعتَقِد أن الأمر بخِلافه؟

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أتى بضَمير الجَمْع في الخِطاب؛ لأن المُخاطَبِين جماعةٌ، وأن اسْمَ الإشارة يُراعَى به المُشار إليه، والكاف يُراعَى بها المُخاطَب، وهنا المُشار إليه مُفرَد مُذكَّر، وهو دَعْوة الرجُل إلى غير أبيه، والمُخاطَبون جماعة ذُكور.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾ يَعنِي: تَقولونه بألْسنَتِكم وأنتم تَعرِفون الحقيقة أنها ليسَتْ كذلك؛ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: اليَهود والمُنافِقين] وجعَلها بالياء؛ لأنها تفسير لقَوْله: ﴿قَوْلُكُم﴾ الكافِ، وهي مجَرورة.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [قالوا: لَمَّا تَزوَّج النبيُّ ﷺ زينبَ بِنتَ جَحْش التي كانت امرأةَ زَيْدِ بنِ حارِثةَ الذي تَبنَّاه النبيُّ ﷺ قالوا: تَزوَّج مُحمَّد امرأةَ ابنِه، فأَكذَبهم الله تعالى في ذلك]؛ وكلام المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعيدٌ من ظاهِر الآية، إِذْ إن كلام المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَقول: إنه بعد أن تَزوَّج النبيُّ ﷺ زينبَ بِنتَ جَحْش رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، وكانت في الأوَّل عند زَيدِ بنِ حارِثةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قالوا هذا القول[1]، والآية ما فيها إشارة للقصة إطلاقًا، إنَّما الآية يَتحدَّث الله تعالى فيها عن ابن التَّبنِّي، فما تحدَّث الله تعالى ولا أَشار إلى تَزوُّج الرَّجُل بزوجة ابنِه الذي تَبنَّاه، لكن هذه ستأتينا في الآيات: أن الآية إنما هي في نِسْبة الإنسان إلى غير أبيه تَبنِّيًا.

(١) انظر: أسباب النزول للواحدي (ص:٣٥٢).

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾ في ذلك ﴿وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ سبيل الحقِّ]، ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾ المُفَسِّر قيَّدها فقال: [في ذلك]، والصوابُ عدمُ القَيْد حتى وإن كان السبَب هو هذا؛ لأن العِبْرة بعُموم اللَّفْظ لا بخُصوص السبب.

فما هو الحقُّ الذي يقوله الله عَزَّوَجَلَّ فيما يقول؟

فسَّره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في القُرآن نفسِه قال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:١١٥] هذا هو الحقُّ الذي يقوله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ صِدقٌ في الأَخْبار، وعَدْلٌ في الأحكام، فكلُّ ما قاله الله عَزَّوَجَلَّ فهو دائِر بين أَمْرين، إمَّا خبرٌ وإمَّا حُكْمٌ، فالخَبَر أَحقِّيَّته الصِّدْق، والحُكْم أَحقِّيَّته العَدْل، وخَيرُ ما يُفسَّر به القُرآنُ القرآنُ.

ولهذا إذا قال قائِل: ما هو الحقُّ في قول الله تعالى؟

نَقول: الحقُّ في قول الله تعالى هو ما ذكَره الله تعالى في قوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:١١٥]، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾، لم يَقُل: ويَهدِي السبيلَ؛ لأن الجُمْلة الثانية تَتعَدَّى للغير، فهناك هادٍ ومَهدِيٌّ ومَهدِيٌّ إليه وفيه أيضًا، هناك هادٍ وهو الله تعالى، ومَهدِيٌّ وهو الإنسان مثلًا ومَهدِيٌّ إليه، وفيه أيضًا وهو الدِّين.

فالسبيل المُوصِّل إلى الله مَهديٌّ إليه؛ هذه هِداية الدَّلالة، ومَهديٌّ فيه هذه هِداية التَّوْفيق؛ لأنك تَقول: دلَلْته إلى كذا، وهدَيْته في كذا. بمَعنى: جعَلْته عامِلًا فيه.

وهذا هو الحِكْمة في أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال في سُورة الفاتِحة: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:٦]، ولم يَقُل عَزَّوَجَلَّ: إلى الصِّراط المُستقيم؛ لأجل أن يَعُمَّ الهِداية إليه بالدَّلالة إليه وبيانه.

والثاني: الهِداية فيه بالعمَل به، وهذا مَقصود كلِّ داعٍ يَدعو الله تعالى بالهِداية: أن الله تعالى يَهديه إلى الشيء فيَعرِفه ويَعلَمه، ويَهديه فيه فلا يَضِلُّ عنه.

قوله تعالى: ﴿يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾: (أل) هـذه للعَهْد الذِّهْنيِّ، والمُراد سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، والدَّليلُ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾.

إِذَنِ: السبيلُ التي يَهدِي الله تعالى إليها هي سبيل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وهي طريق الحَقِّ.

ومن جُمْلة ذلك أنه عَزَّوَجَلَّ لم يَجعَلِ الزَّوْجات اللائِي يُظاهَر منهن أزواجهن لم يَجعَلْهنَّ أُمَّهاتٍ، ولم يَجعَل الأدعياء أبناءً، فقال الحقَّ في ذلك، وهَدانا السبيل في ذلك، فالزوجة زوجةٌ والابنُ الدَّعِيُّ ليس ابنًا.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ القرآن قد بلَغ الغاية القصوى في الإقناع وإقامة البُرهان، وجهُ ذلك أنَّه قدَّم الدليل على المَدلُول بِصُورة لا يَمتَرِي فيها أحَد؛ لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾، فإن هذا أَمْر مَعلوم ولا يَتنازَع فيه اثنان: أنه ليس للإنْسان إلَّا قَلْبٌ واحدٌ ما فيه قَلْبان؛ لأن هذين القَلْبين إنِ اتَّفَقا على أمرٍ واحدٍ صار القَلْب الثاني لا فائِدةَ منه، وإنِ اختَلَفا تَناقَضا في عَيْنٍ واحِدةٍ، فماذا يَصنَع الإنسان هل يَتبَع القلبَ الأيمَنَ أم يَتبَع القلبَ الأَيْسَرَ؟! فيَبقَى مُحتارًا؛ لذلك ما جعَل الله تعالى لرَجُل من قَلْبَيْن إلَّا قلبًا واحِدًا فقط؛ لأنه في جِسْم واحِد.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فِى جَوْفِهِۦ﴾ يُستَفاد منها فائِدة غير أنَّها بيانٌ للواقِع، يُستَفاد: أن الجوف الواحِد لا يَتَناسَب معه إلَّا قَلْب واحِد، وإلَّا لكان القَلْبان

في جَوْفين لا في جوف واحِد، فصار فيها فائِدة غير ما سَبَق، وهي أنها بَيان للواقِع؛ لأن الجَوْف الواحِد لا يُمكِن أن يُديرَه إلَّا قلبٌ واحدٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثباتُ الشيء بالبُرهان الذي يَكون قاطِعًا لا يَمترِي فيه أحَد.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن المَرأة المُظاهَر منها ليست أُمًّا؛ لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾.

يَتفرَّع على هذه الآيةِ: أنَّ جَعْلها أمًّا في الظِّهار كذِبٌ وزُورٌ ومُنكَر؛ ولهذا قال الله تعالى في آية الظِّهار: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا﴾ [المجادلة:٢]، فهو مُنكَرٌ لُمخالَفة الشَّرْع، وزُورٌ لُمخالَفة الواقِع والحقيقة.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: الإشارة أو التَّنْبيه على تَحريم الظِّهار؛ لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ فإذا كان اللهُ تعالى لم يَجْعَل ذلك، فإنه لا يَحِلُّ لنا أن نَجعَل شيئًا لم يَجعَلْه الله تعالى؛ لأن الأَمْر إلى اللهِ تعالى وحدَه.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن الأبناءَ الأَدْعياء ليسوا بأَبناءٍ حقيقةً ولا شَرْعًا، فهم ليسوا أبناءَ قَدَرًا، وليسوا أَبناءَ شَرْعًا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنه إذا لم يَكُن الابنُ الدَّعِيُّ ابنًا لا شَرْعًا ولا حقيقةً، فإنه لا يَحتاج إلى قَيْد يُخرِجه من مَعنى البُنُوَّة؛ لأنه غيرُ داخِل فيها أصلًا حتى نَحتاج إلى قَيْد نُخرِجه به.

ويَتَفرَّع على هذه الآيةِ على هذه الفائِدةِ: بيانُ ضَعْفِ قول مَن يَقولُ: إن الاحترازَ في قوله تعالى: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾ [النساء:٢٣] عن ابنِ التَّبَنِّي؛ لأننا نَقول: إنه أَصْلًا لم يَدخُل حتى يُحتاجَ إلى قَيْد يُخرِجه.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن الإنسان قد يَقول قولًا لا يَعتقِده: ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنه ليس من الرُّجولة وليس من العَقْل أن يَقول الإنسانُ قولًا بفِيهِ وهو لا يَعتقِده بقَلْبه، لأن المُراد من قوله تعالى: ﴿قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾ التنديدُ بهم والتوبيخُ لهم، كيف تَقولون شيئًا بأفواهكم وأنتم تَعترِفون بقُلوبكم بأنه ليس مُوافِقًا للواقِع.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أنَّ قولَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ كُلُّه حَقٌّ ليس فيه باطِل؛ لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾، والحقُّ سبَق في كلام الله عَزَّوَجَلَّ هو الصِّدْق والعَدْل؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:١١٥]، فهو باعتِبار الخبَر صِدْق، وباعتِبار الحُكْم عَدْل.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّ كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليس فيه تَناقُض؛ لقوله تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾ والتَّناقُض لا يَكون إلَّا في الباطِل، فالحقُّ لا يُمكِن أن يَتناقَض.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: أنَّ ما وصَف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ به نَفْسه في كِتابه فهو على حقيقته، وليس فيه تَحريف أو تَأويل؛ لأننا لو كان خِلاف ظاهِره لكان ظاهِرُه يَدُلُّ على باطِل، وإذا قلنا: إنه على خِلاف الظاهِر لزِم أن يَكون دالًّا على باطِل، فإذا قُلْنا: إن المُراد بآيات الصِّفات خِلافُ الظاهِر صار الظاهِر باطِلًا؛ لأنه خِلافَ المُراد وهذا يُنافِي قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يقولُ إلَّا الحقَّ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: أنَّه مع ظُهورِ: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَقول الحقَّ فإن الناس لا يَتَّفِقون عليه؛ لقوله: ﴿وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾، يَعنِي: حتى مع أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يَقول إلَّا الحقَّ فليس كل أحَدٍ يَهتَدي لذلك، فالهِدَاية بيَدِ الله عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: أنه يَجِب على المَرْء أن يَلجأ إلى ربه عَزَّوَجَلَّ في سُؤاله الهِداية؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾، وتَأمَّل تَغيير الصِّيغة، حيث قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾، ثُمَّ قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾، ولم يَقُل: ويَهدِي السبيلَ؛ لأَجْل أن تكون الجُمْلة الثانية مُستَقِلَّة برُكْنيها بمُبتدَئِها وخبَرها؛ لأنَّ قوله تعالى: ﴿وَهُوَ يَهْدِى﴾ هو مُبتدؤُهَا، وجملةُ ﴿يَهْدِى﴾ خبَرُها، فكانت الجُملةُ مُسْتَقِلَّة عن الأولى، لأن ذلك أبلَغُ في بيان أنَّ الهِداية بيَدِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: أنَّ طريق الحقِّ واحِد؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾، وهُو مُفرَد، وهكذا تَجِد أن السُّبُل تَأتي جَمْعًا فيما يُخالِف الحقَّ؛ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ [الأنعام:١٥٣]، وهنا أَفرَد الصِّراط، أمَّا الصِّراط المُخالِف لصِراط الله تعالى فهو جَمْع، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ [الأنعام:١٥٣]، وإذا جاء طريق الحقِّ مجموعًا فالمُرادُ تَنوُّع الشرائِع، وكذلك الوليُّ الكافِر: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾ [البقرة:٢٥٧]؛ لأنَّ سُبُل غير الحقِّ مُتنوِّعة، وكل نَوْع منها عليه طاغوت يَدعو إليه.

• • ❁ • •

الآيـة (٥)

• ● ∞ ● •

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡۚ وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب:٥].

• ● ∞ ● •

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في التفسير: [لكن ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ﴾] أتى بالاستِدْراك وفي ظَنِّي أنه لا حاجةَ للاستِدْراك وأن الجُمْلة استِئْنافيَّة لما أبطَل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يكون هؤلاء الأدعياءِ أبناءً أَمَر بأن نَدعُوهم لآبائهم.

وكأنَّ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ لَمَّا كانت الآيةُ الثانيةُ غيرَ مُقابِلة لِمَا نَفاه الله تعالى في الأَوَّل؛ يَعنِي: ما جعَل أَدْعياءكم أبناءَكم، لكن جعَلهم أبناءَ آبائِهم فادْعوهم لآبائِهم؛ رأى رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن هذا هو وَجهُ الاستِدْراك: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدۡعِيَآءَكُمۡ أَبۡنَآءَكُمۡ﴾ لكن جعَلَهم أبناءً لآبائِهم فادْعُوهم لآبائهم.

ونَقول: هذا لا حاجةَ إليه، فالجُمْلة استِئْنافيَّة ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ﴾ أي: انسُبوهم لآبائِهم فقولوا: يا ابنَ فُلان.

وكلمة ﴿لِأٓبَآئِهِمۡ﴾ جَمْع أبٍ، وهل المُراد بالجَمْع هنا باعتِبار المَدعوِّين؟ يَعنِي لأن الناس كثيرون أو أن المُراد آباؤُهم بالنِّسبة لكل شَخْص، بمَعنى: أن الإنسان

يُنسَب إلى أبيه وجَدِّه وأبي جَدِّه وهكذا، أو شامِل للأَمْرين؟

الجواب: هو شامِل للأَمْرين فالإنسان يُدعَى إلى أبيه يُقال: فلان ابن فلان ابن فلان، فالرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مُحَمَّد بن عبد الله بن عبد المُطَّلب، بل إنه ﷺ قال: «أَنَا ابْنُ عَبْدِ المُطَّلِبْ»[1]، فهو فيما يَظهَر: أنه شامِل يَعنِي: أنه جَمْع باعتِبار أفراد الناس، وجَمْع باعتِبار الآباء؛ لأن الآباء أَبٌ أَدنَى وأَبٌ فوقَه.

قال تعالى: ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾: ﴿هُوَ﴾ الضميرُ يَعود على المَصدَر المَفهوم من قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُوهُمْ ﴾؛ أي: ﴿هُوَ﴾ أي: دُعاؤُهم، وهذا نَظيرُ قوله تعالى: ﴿ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٨]، هو أيِ: العَدْل المَفْهوم من الفِعْل، فهنا ﴿هُوَ﴾ أي: دُعاؤُهم لآبائِهم.

وقوله تعالى: ﴿أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: [أَعدَل] عند الله تعالى؛ فسَّرها بعضهم باسْمِ الفاعِل: هو قَاسِط عند الله تعالى، يَعنِي: هُو العَدْل عند الله عَزَّوَجَلَّ، وإنما لجَأ إلى ذلك؛ لأن المَعروف أن اسمَ التَّفضيل يَشتَرِك في أصل مَعناه: المُفضَّل والمُفضَّل عليه، فإذا قلت: فُلانٌ أَشجَعُ من فُلَان، فكِلاهما شُجَاع، لكن هذا أَشجَعُ.

فهنا إذا جعَلنا اسمَ التفضيل على بابه، وقلنا: دُعَاؤُهم لآبائِهم أَقسَطُ عند الله من دُعائهم لَمَن تَبنَّاهُم، صار في دُعائهم لَمَن تَبنَّاهم عَدْلٌ، مع أنه لا عَدلَ فيه؛ ولذلك قال بعض المُفسِّرين: إن أَفعَلَ التَّفضيل هنا ﴿أَقْسَطُ﴾ بمَعنى اسم الفاعِل؛ حتى لا يَكونَ في الطرَف الثاني منه شيءٌ؛ وقال بعضُ المُفسِّرين: هو على بابه، واللغة العَرَبية تأتي باسْمِ التَّفضيل دائِمًا فيما ليس في الطرَف الآخَر منه شيء؛ ومنه

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب من قاد دابة غيره في الحرب، رقم (٢٨٦٤)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب في غزوة حنين، رقم (١٧٧٦)، من حديث البراء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

قوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان:٢٤]، مع أنَّ أصحابَ النارِ لا خيرَ في مُستقرِّهم.

وعلى هذا فنَقول: إبقاءُ الآية على ظاهِرها يَكون أَوْلى، فإذا قيل ذلك، فإنه يَرِد علينا سُؤالٌ: لماذا عبَّر بـ(أفعَل) التَّفضيل في طرفٍ ليس في الطرَف الآخَر منه شيءٌ؟

قُلْنا: لبيان أن هذا غاية ما يَكون من العَدْل؛ ويَكون فائِدتها: أن دُعاءَهُم لآبائهم أعدلُ شيءٍ، وهُو غَاية ما يَكون من العَدْل، فاسْمُ التفضيل هنا باعتِبار المعْنَى أَي: أن هذا أَعدَلُ شيء.

وكلمة ﴿أَقْسَطُ﴾ اسمُ تَفضيل من الثُّلَاثي؛ لأن اسمَ التَّفضيل لا يُصَاغ إلَّا من الثلاثي؛ قال ابنُ مالِك رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]:

وَصُغْهُمَا مِنْ ذِي ثَلَاثٍ صُرِفَا ....

ثمَّ إن الرُّبَاعيَّ من هذه المادَّةِ ليس بمَعنَى العَدْل، بل بمَعنى الجَوْر، فالقاسِط هو الجائِر، والمُقسِط هو العادِل؛ قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن:١٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحُجُرات:٩].

إِذَن: يرِدُ علينا إشكالٌ في مَسأَلة ﴿وَأَقْسِطُوٓاْ﴾، فهنا ﴿هُوَ أَقْسَطُ﴾.

فنَقول في الجواب عنه: إن في هذا دليلًا على صِحَّة مَذهَب الكُوفيين، الذين يَقولون بجَوَاز صياغة اسمِ التَّفضيل من غير الثُّلَاثي، يَقولون: أَقسَطُ من باب الإِقساط يَعنِي: أنَّ ذلك أعدَلُ.

---

(١) الألفية (ص:٤٢).

وقوله: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ يعني: في حُكْمه؛ لأن حُكْم الله عَزَّوَجَلَّ يُضاف إليه، وهذا نَظير قوله تعالى في الذين يَرمُون المُحصَنات: ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [النور:١٣]، وتَأمَّل قوله تعالى: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ﴾ فإذا قذَف رجُلٌ امرأةً بالزِّنا؛ فهو باعتِبار الواقِع قد يَكون حقًّا أنها زَنَت، وقد يَكون كذِبًا، لكنها في حُكْم الله تعالى كذِبٌ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [النور:١٣]، ما قال: فأُولَئِك هم الكاذِبون؛ لأَنَّه قد يَكون حقيقةً باعتِبار الواقِع، لكن في شَرْع الله تعالى: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾؛ ولهذا يَجِب عليهم حدُّ القَذْفِ إذا لم يَأتوا بأربَعةِ شُهداءَ.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾ إن لم تَعلَموا آباءَ هَؤُلاءِ الأَدْعياء، ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾ يَعنِي: ليسوا أبناءَكم، يَعنِي: حتى في الحال التي لا يُعْرف لهذا الرَّجُلِ أبٌ، فإنه لا يَجوز أن يُنسَب إلى غير أبيه، ولكن يَكون أخًا لنا في الدِّين ومَولًى لنا إذا كان قد دخَل في مِلْكنا ثُم حرَّرْناه مثلًا؛ ولهذا قال النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في قصة اختِصام عليٍّ وجعفَرٍ وزيدِ ابن حارثةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، قال لزيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنْتَ أَخُونَا وَمَوْلَانَا»(١).

فهو (أخي) في الدِّين، وليس (ابنًا) لي، وهو أيضًا (مَوْلايَ) إذا كنت قد أَعتَقْتُه، ولو لم أَعرِف أباه فهو لا يُنسَب إليَّ.

ولهذا تَجِدون العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ الذين يَكتُبون أسماءَ الرِّجال، عندما يَنسبون أحَدًا من الموالي إلى مَن أَعتَقَه يَقول: (القُرَشيُّ مولَاهم) أو: (التَّميميُّ مَوْلاهم)؛

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلح، باب كيف يكتب هذا: ما صالح فلان بن فلان، رقم (٢٦٩٩)، من حديث البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لأنه لو قـال: القُرَشيُّ. فقط، يَظُن الظانُّ أنه قرَشيٌّ حقيـقةً، فإذا قال: مَوْلاهـم، يَعني: أنه نُسِـب إليهم؛ لكونه مَوْلًى لهم، و«مَوْلَى الْقَوْمِ مِنْهُمْ»[1]، حتى إن العُـلَماء قالـوا في الصدَقة قالوا: إنها تَحرُم على مَـوالي بني هاشِمٍ؛ لأن مَوْلى القَـوْم منهم، لكنهم لا يُنسَبون إليهم نسَبًا حقيقيًّا، بل لا بُدَّ من أن يُقيَّد.

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿جُنَاحٌ﴾ هو اسـمُ ليس مُؤخَّرًا، و﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ جارٌّ ومجرور خبَرهم مُقدَّم.

﴿وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ﴾ يَقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [في ذلك] أي: في دُعائهم لغير آبائِهم يَعني: الإنسانُ لو أَخطَأَ فدعَا شخْصًا لغير أبيه فإنه ليس عليه جُناح ليس عليه إِثْم؛ لأنَّه أَخطَأ، والخطَأ مَرْفوع عن هذه الأُمَّةِ.

وفي قوله: ﴿وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ﴾ المُفسِّر يَقول [في ذلك] فكأنَّه خَصَّ الآية، والصَّواب أنها عامة؛ لأن العِـبْرة بعُموم اللَّفْظ لا بخُصوص السبَب، فإذا كان السبَب هو دَعوة الإنسان لغير أبيه، فإنه لا يَقتَضِي تخصيص هذا العامِّ بهذه المَسألةِ؛ لأنَّ العِبْرة -في القاعِدة المُقرَّرة- بعُموم اللَّفْظ لا بخُصوص السبَب.

وهذه القاعِدةُ لها أدِلَّة من القُرآن والسُّنَّة:

فمِن القـرآن: قـوله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا

(١) أخرجه البخاري: كتاب الفرائض، باب مولى القوم من أنفسهم، رقم (٦٧٦١)، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ، بلفظ: «مولى القوم من أنفسهم»، وأخرجه بلفظه الإمام أحمد (٤/ ٣٤٠)، والنسائي: كتاب الزكاة، باب مولى القوم منهم، رقم (٢٦١٢)، من حديث أبي رافع رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ.

﴿وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ۝١ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم﴾ [المجادلة:١-٢]، فَالسبَب خَاصٌّ، ولكن الحُكْمَ عامٌّ.

وكذلك في السُّنَّة: رأى النبيُّ ﷺ رجُلًا في السفَر قد ظُلِّل عليه وحولَه زِحام من الناس، فقال: «مَا هَذَا؟» قالوا: صائِم. فقال ﷺ: «لَيْسَ مِنَ الْبِرِّ الصِّيَامُ فِي السَّفَرِ»[1]، إلَّا أن قوله ﷺ: «لَيْسَ مِنَ الْبِرِّ الصِّيَامُ فِي السَّفَرِ»، إذا قُلنا: إن العِبْرَة بعُموم اللَّفْظ لا بخصوص السبَب، فإنه يُشكِل على هذا أن النبيَّ ﷺ كان يَصوم في السفَر، كما في حديث أبي الدرداءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما فينا صائِمٌ إلَّا رسول الله ﷺ وعبدُ الله بنُ رواحةَ[2]؛ فكيف نُجيب عن حديث: «لَيْسَ مِنَ الْبِرِّ...»، هل النبيُّ ﷺ لم يَفعَل بِرًّا؟

الجواب: كلَّا، نَقول -كما أَشار ابنُ دَقيقِ العيدِ رَحِمَهُ اللَّهُ إلى هذه المَسأَلةِ: إن العِبْرة بعُموم اللفظ، لكن يُراعَى المَعنى الذي من أَجْله ورَدَت هذه الصِّيغةُ[3]؛ والمَعنَى هُو المَشقَّة.

فنَقول: إنَّ العِبْرة بعُموم اللفظ لا بخُصوص السبَب، أي: أنه لا يُخَصُّ هذا الحُكْمُ على هذا الرَّجُلِ بعَيْنه، لكنه عامٌّ في جميع الناس، إلَّا أنه يَجِب أن يُراعَى المعنى الذي من أَجْله ورَدَت هذه الصِّيغةُ العامَّة، وهو المَشقَّة؛ فنَقول: ليسَ البِرُّ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب قول النبي ﷺ لمن ظُلل عليه واشتد الحر: «ليس من البر الصوم في السفر»، رقم (١٩٤٦)، ومسلم: كتاب الصيام، باب جواز الصوم والفطر في شهر رمضان للمسافر، رقم (١١١٥)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب إذا صام أياما من رمضان ثم سافر، رقم (١٩٤٥)، ومسلم: كتاب الصيام، باب التخيير في الصوم والفطر في السفر، رقم (١١٢٢).

(٣) إحكام الأحكام (٢/ ٢١).

الصِّيامَ في السَّفر إذا أدَّى إلى مِثْل هذه الحالِ، فهل هذا خرَج عن القاعِدة: العِبْرة بعُموم اللَّفْظ؟ لا؛ لأنه لو خُصَّ الحُكْم بالرَّجُل المُعيَّن لكان خارِجًا عن القاعِدة، لكنه ما خُصَّ به، قيل: إنه عامٌّ لكل مَن صام ولَحِقه ما لَحِق بهذا الرَّجُلِ، إذَنْ فالحديث لم يَخرُج عن القاعِدة.

إذن: قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾، لا يَختَصُّ فيمن دعا رجُلًا بغير أبيه مُخطِئًا، بل هو عامٌّ، وهذه القاعِدةُ العَظيمة في الشَّريعة الإسلامية سَيأْتي -إن شاءَ اللهُ تعالى- بيانُ ما يَترَتَّب عليها من فوائِدَ.

ثُمَّ قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾، ظَاهِره العُموم في المأمورات وفي المَنهيَّات، ولكن مَن تَدبَّر النُّصوص وجَد أنَّ هذا خاصٌّ بالمَنهيَّات فقط، أن الإنسان ليس عليه جُناح فيما أَخطَأَ به، أمَّا في المَأمورات فليس عليه جُناح فيما أَخطَأَ به، ولكِنَّ هذه المَأموراتِ إذا كان خَطَؤُه مُخِلًّا بصِحَّتها فلا بُدَّ من إعادتها على وجهٍ صحيحٍ.

فهُنا بالنِّسبة للمَنهيَّات ليس عليه جُناح ولا تَبِعةٌ ولا أثَر، لكن بالنِّسبة للمَأمورات ليس عليه جُناح فيما أَخطَأَ به إلَّا أنه إذا كان هذا الخطَأُ مُخِلًّا بصِحَّة المأمور فإنه يَجِب إعادة المأمور على وجه صحيح، انظُرْ إلى الرجُل الأَعرابي الذي صلَّى بغير طُمَأْنينة مُخطِئًا؛ لأنه جاهِل، يَقول: والذي بعثَك بالحقِّ لا أُحسِنُ غير هذا فعلِّمْني[1]. فهل النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ترَكه أو أَمَره أن يُعيد الصلاة؟

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم، رقم (٧٥٧)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم (٣٩٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أَمَره أن يُعيد الصلاة؛ فلهذا نَقول: إنه ليس عليه إِثْم في صلاته الأُولى التي أَخلَّ فيها بواجِب الطُّمَأْنينة؛ لأنه جاهِل، لكن يَجِب عليه أن يُعيد العِبادة على وجهٍ صحيحٍ.

وكذلك لو أن أَحَدًا تَرَك واجِبًا من واجِبات الحجِّ جاهِلًا، فإنه لا إِثْمَ عليه، لكن عليه إعادةُ ذلك الواجِبِ إذا كان يُمكِن تَدارُكه، فإن لم يُمكِن تَدارُكه فعليه بدَلُه عند جماهير أهل العِلْم، وهو فِدْية يَذبَحها في مكَّةَ، ويُوَزِّعها على الفُقَراء.

وقوله تعالى: ﴿فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾: (ما) هذه من صِيَغ العُموم تَشمَل كل ما حصَل فيه الخطَأ، قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ فيه، وهو بعد النهيِ] أمَّا قَبْل النهي فإنه لا يُؤاخَذ به الإنسان؛ لأن الحُكْم لم يَتقَرَّر بعد؛ ولهذا قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء:٢٢]؛ ﴿وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾؛ لأنه قَبْل تقرير الحُكْم وثُبوته شَرْعًا، فالأصل البَراءة، وهو ما يُعبِّر عنه الأُصوليُّون بالبَراءة الأَصْلية.

وقوله تعالى: ﴿مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾؛ لأن المَدار على القَلْب إذ إنه هو الذي يُدبِّر الجوارِح؛ لقول النبيِّ ﷺ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ»[1]، وهذا القَلْبُ هو عِبارة عن هذه البَضْعة من اللَّحْم، أو أن المُراد بالقَلْب العَقْل المُفكِّر ومَحلُّها هذه القِطْعة من اللَّحْم الثانية، ولكن أين مَحَلُّ العَقْل؟

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم (٥٢)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم (١٥٩٩)، من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

الجواب: الصحيحُ أنه القَلْب؛ لأن الله تعالى قال في القُرآن: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ ...﴾ [الحج:٤٦]، فخَصَّ القَلْب والعَقْل؛ ولهذا قال الإمامُ أحمدُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن العَقْل في القَلْب، وله اتِّصال بالدِّماغ[1].

ولكنني رأَيْت كلامًا لشيخ الإسلام ابن تَيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أقربَ إلى الواقِع وإلى الطبِّ الحديث يَقول: إن أَصْل التفكير في الدِّماغ فهو المُفكِّر، ثُمَّ القَلْب يُدبِّر ويأمُر ويَنهَى[2]؛ فيَكون للمُخِّ كالسِّكِرْتير للقَلْب يُفكِّر ويَنظُر، ثُمَّ يُرسِل إلى القَلْب، والقَلْب هو الذي يُدبِّـر بلا شكٍّ؛ لأن الكِتاب والسُّنَّة يَدُلَّان على أن القَلْب هو الذي يُدبِّر كما في الآية، وكما قال النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ القَلْبُ**»[3].

ولكن الاتِّصال بين المُخِّ والقَلْب سَريع أو بَطيء؟

الجواب: سريع، لا نَتَصوَّر سُرْعته، وهذا من تَمام عَظَمة الخالِق عَزَّوَجَلَّ، حيث إنَّ هذه المُعدَّات العظِيمة في هذا البدَنِ، مَعامِل وآلات إِلْكترونية وأَشياءُ -سبحان الله العظيم- إذا بحَثَها الإنسان يَجِد ما قاله الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات:٢٠-٢١].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ لِما كان من قَوْلكم قبل النهي ﴿رَّحِيمًا﴾ بكُم في ذلك]، قوله: [﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٩/ ٣٠٣)، والتبيان في أقسام القرآن لابن القيم (ص:٤٠٤).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٩/ ٣٠٣-٣٠٤).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم (٥٢)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم (١٥٩٩)، من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

لِمَا كان من قَوْلكم قبل النهيِ]، في هذا نظَرٌ ظاهِرٌ جدًّا، ووجهُه: أنه قبل النهيِ لم يَثبُت الحُكْم؛ حتى يَكون الإنسان مُخالِفًا يُوصَف عدَمُ مُؤاخذته بالمَغفِرة؛ لأن المَغفِرة فَرْع عن وجود الذَّنب، وهنا لا ذَنْبَ قبل أن يَتقرَّرَ الحُكْم.

والصواب: أنه ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ فيما وقَع من قولكم بعد النهيِ على سبيل الخَطَأ، فإن هذا مِن مَغفِرته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ورحمتِهِ أنَّه يَرْفعُ الخَطَأ عمَّن فعَله بعد النهيِ وتقرير الحُكْم.

ثُم يقال أيضًا: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ تَعود إلى الفِعْل الخطَأ والفِعْل العَمْد، أمَّا الفِعْل الخطَأ فإن رَفْعَ المُؤاخَذة به من آثار الرحمة، ولو شاء الله عَزَّ وَجَلَّ لكان يُؤَاخِذ عِباده، بالجَهْل كما يُؤَاخِذهم بالعَمْد، لكن رحمته سبَقَتْ غضَبه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأمَّا غَفورٌ فإنه يَعود إلى ما فُعِلَ عَمْدًا، فإن من مُقتَضى كون الله تعالى غَفورًا أن يَسعَى الإنسان في أسباب مَغفِرته وذلك بالتَّوْبة ممَّا حصَل منه، فإذا تاب فإن الله تعالى يَتوب عليه ويَغفِر له.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: وُجُوب دَعوة الإنسان إلى أبيه ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ﴾، يَعنِي: انسُبوهم لآبائهم لَفْظًا وحقيقةً، أمَّا لفظًا، فتَقول: يا فُلان ابنَ فُلان. وأمَّا حقيقةً بأن تَعتَقِد أن البُنُوَّة الحقَّ إنما هي للأَبِ الحقيقيِّ الذي وُلِد الإنسان من صُلْبه، لا للأَبِ الذي ادُّعِي أنه أبٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنه لا يَنبَغي أن يُدعَى الإنسان لغير أبيه، وهذا نوعان:

الأوَّل: أن يَدَّعِيَ لغير أبيه لَفْظًا وحقيقةً، فهذا لا يَجوز، بل إن الرسول ﷺ

قد جعَل ذلك من الكُفْر[1]، فإذا ادَّعى الإنسان إلى غير أبيه وهو يَعلَمه، فإن ذلك كُفْر، فإنه كُفر بكم أن تَرغَبوا عن آبائكم.

الثَّاني: أن يَدَّعيَ إلى غير أبيه لفظًا، ولكن لا تَثبُت أحكام البُنوَّة إطلاقًا إلى مَن ادَّعى إليه، فهذا نَقول: إنه خِلاف ما أمَر الله تعالى به، ولكن أهل العِلْم يَقولون: إن الإنسان إذا اشتَهرَ به مع عدَم الالتِفات إلى أحكامه ومُقتَضياته، فإنه جائِزٌ، وذكَروا لذلك مِثل المِقداد بنِ الأسوَدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فإن المِقدادَ ابنَ الأسوَد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ليس أبوه هو الأسودَ، ولكن الأسودَ كان قد تَبنَّاه[2] واشتَهر بهذا، بهذِهِ الكنْيَةِ، واستَمرَّ عليها حتى أَبطَل الله تعالى التَّبنِّيَ، ولكن بَقِيَ مَشهورًا بذلك، قالوا: فهذا لا يَضُرُّ؛ لأنه انتَفت عنه أحكام التَّبنِّي ولم يَبقَ إلَّا اللَّفْظ، ومع هذا فإن الأفضَل بلا شكٍّ هو أن يُدعَى إلى أبيه، لكن المُشكِل أن الشيءَ إذا اشتَهر فوَصَفْته بما اشتَهر به حصَل بهذا التِباسٌ، الآنَ لو قلنا: عن عبد الرحمن بن صَخْر أن النبيَّ ﷺ قال: كذا وكذا. يُمكِن أن كثيرًا من الناس لا يَدرِي مَن هُو، لكن إذا قلت: عن أَبي هُريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كلُّنا يَعرِفه.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: في الآية الكريمة دَلِيل على أنَّ الأعمال تَتفاضَل عندَ الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ يَعنِي: أبلَغ في العَدْل.

ووجه ذلك: أن هذَا الرجُلَ الدَّعِيَّ كوننا نَنسُبه إلى غير أبيه هو باعتِبار أبيه ظُلْم، إذْ كيف تَنسبه إلى شخص ما أَتَى مِن صُلْبه، وتَحرِم مَن أَتَى من صُلْبه من

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، رقم (٣٥٠٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان حال إيمان من رغب عن أبيه وهو يعلم، رقم (٦١)، من حديث أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: الاستيعاب (٤/ ١٤٨٠).

دَعْوته إليه، هذا لا شكَّ أنه جَوْر؛ ولهذا قُلْنا فيما تَقدَّم: أن اسم التَّفضيل هنا ليس في الطرَف الآخَر منه شيء؛ لأنه ليس فيه أيُّ عَدْل في أَنْ تَنْسُب الإنسان إلى غير أبيه، وقلنا: إن فائِدة التَّفضيل هنا بيان أن هذا الشيءَ قد بلَغ الغاية في العَدْل؛ لهذا جِيء به اسمِ التفضيل ﴿أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن مَن ليس له أبٌ فإنه يُدعَى بأُخوَّة الدِّين والولاية في الدِّين؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾، أمَّا كونُهم إخوانَنا في الدِّين فظاهِر، وأمَّا كونهم مواليَ فإن كان عَتيقًا للمَرْء فهو مَوْلًى له بالعِتْق، وإن لم يَكُن عتيقًا له فهو مَوْلًى له في الدِّين؛ لأن المُؤمِنين كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة:٧١]، فهم إخوانُكم ومواليكم.

فيَصِحُّ أن تَقول: يا أخي، وأن تَقول: يا ابن أخي؛ والمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَقول: [ومواليكم بنو عَمِّكم]، فجعَل الولاية هنا ولاية النسَب، وليسَتْ ولاية الدِّين، لكن في النفس من هذا شيء، فالولاية إمَّا ولاية دِين، وإمَّا ولاية عِتْق، فأمَّا ولاية العِتْق فواضِح أن العَتيق مَولًى لِمَن أَعتَقه، وأمَّا ولاية الدِّين فظاهِر أيضًا أن كل مُؤمِن وليٌّ لأخيه المُؤمِن.

أمَّا ولاية النسَب كقوله: [بنو عمِّكم] فهذه إن كانت اللُّغة العربية يَأتي فيها مثل هذا التَّعبيرِ فنحن نَقبَل ذلك؛ لأن القُرْآن عربيٌّ ولا مانِعَ أن يَكون للمَعنى الواحد أو للَّفْظ الواحِد عِدَّة مَعانٍ إذا كانت لا تَناقُضَ بينها.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: نفيُ الإِثْم فِي الخطَأ؛ لقوله: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾؛ نَفي الحِنْث في الخطَأ، وأيضًا الحِنْث يَعني: الحِنث في اليَمين، إذا حلَف على يَمينٍ أن لا يَفعَل شيئًا، ففَعَله جاهِلًا به، مثل حَلَف أن لا يُكلِّم إنسانًا،

فكلَّم شَخْصا لا يَدرِي أنه فلان الذي حلَف على تَرْك تَكليمه، فإنه ليس عليه حِنْث، وكذلك أيضا الطلاق، لو علَّق الطلاق على شيءٍ ففَعَله جاهلًا أنه هو الشيء الذي علَّق الطلاق عليه فإِنَّه لا حِنْثَ عليه، وكذلك لو فعَل مُكَفِّرًا جاهِلًا أَنَّه مُكفِّرٌ فإنه لا إِثْمَ عليه، يُؤخَذ هذا كلُّه من العُموم في قوله تعالى: ﴿فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾.

ثُم إن نَفيَ الإِثْم لا يَستَلزِم نَفيَ القضاءِ فيما يَجِب قَضاؤُه، وعلى هذا فتكون الآية في باب المَحذورات لا في باب المَأمورات؛ ولهذا لم يَأذَنِ النَّبيُّ ﷺ للجاهِل الذي كان يُصلِّي ولا يَطمَئِنُّ في الصلاة، جعَله يُعيد مرَّة بعد أُخرى، وبيَّن له[1].

إِذَن نَقول: بابُ المأمورات لا يُؤاخَذ الإنسان بتَرْكه إياها، لكن لا يَلزَم من عدَم مُؤَاخَذته بتَرْكها جاهِلًا أن يَسقُط عنه فِعْلُها أو فِعْل بدَلها، والدليل أن النبيَّ ﷺ لَمْ يَعْذُر الجاهِلَ في تَرْك الطُّمَأنينة.

وقد سبَق لنا: أَنَّه قد يَكون الإنسان مُفرِّطًا في تَرْك السُّؤال فيَلزَمه الإثمُ لتَفْريطه، ثُمَّ هل هذه الآيةُ عامَّةٌ في حقِّ الله تعالى وفي حقِّ الآدَميِّ؟

نَنظُر ونَقول: حتى في حقِّ الآدَمي؛ لأن الآيَةَ عامَّةٌ ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾، لكن لا يَلزَم من انتِفاء الإِثْم انتِفاءُ الضَّمان في حَقِّ الآدَمي؛ فَلو أنَّ رجُلًا أَكَل طعامَ إنسانٍ جاهِلًا أَنَّه طعامُه فهل عليه إثمٌ؟ لا، لكن يَلزَمه ضمانُ الطعام؛ لأنه حقُّ آدَميٍّ، أمَّا لو علِم أنه طعام فلانٍ فإنه يَأثَم مع الضمان.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: سَعَة رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حيثُ أَسقَط الإِثْم عمَّن كان مُخطِئًا

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم، رقم (٧٥٧)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم (٣٩٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ مَدار الأحكام والمُؤاخَذة عليها هُو القَلْب؛ لِقَوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡ﴾، وهذا له شَواهِدُ كثيرةٌ منها قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَ﴾ [المائدة:٨٩]، وفي الآية الأخرى ﴿بِمَا كَسَبَتۡ قُلُوبُكُمۡ﴾ [البقرة:٢٢٥]، ومِنها قولُه تعالى في جزاء الصَّيْد: ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ [المائدة:٩٥]، وبِناءً على ذلك لو أنَّ المُحرِم قَتَل صيدًا غيرَ مُتعَمِّد لا يَأثَم ولا يَضمَن؛ لأنه حَقٌّ لله تعالى، واللهُ تعالى قد عفا عن حَقِّه.

وبه يُعرَف ضَعْف قول مَن قال: إن جزاء الصَّيْد واجِب حتى على مَن قتَله خطَأً في حال الإحرام، مع أن الآية صريحة: ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا﴾.

ويَلحَق بذلك ما لو قَصَّ أظفارَه جَاهِلًا وهو مُحرِم، أو حلَق رأسَه من بابِ أَوْلى، ويَلحَق به ما لو جامَع زوجتَه، مثل: لو أنَّ رجُلًا في مُزدَلِفةَ جامَع زوجته وهي في مُزدَلِفةَ جاهِلًا استِنادًا إلى قول النبيِّ ﷺ: «الحَجُّ عَرَفَةُ»[1]، وهذا يَقَع فليس عليه ليس عليه شيءٌ؛ لا إِثْمٌ، ولا فَساد نُسُك، ولا قضاءٌ؛ لأنه جاهِل ما تَعمَّد.

ولهذا بعض الناس بنَى على ذلك مَسألةً أَغرَبَ من ذلك، إذا وقَف بعرَفةَ ثُمَّ انصَرَف فله أن يُسافِر إلى أهله وفِعْلًا حصَل هذا، منهم مَن يَتورَّع، وإذا سافَر وكَّل

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٣٠٩)، وأبو داود: كتاب المناسك، باب من لم يدرك عرفة، رقم (١٩٤٩)، والترمذي: كتاب الحج، باب فيمن أدرك الإمام بجمع، رقم (٨٨٩)، والنسائي: كتاب مناسك الحج، باب فرض الوقوف بعرفة، رقم (٣٠١٦)، وابن ماجه: كتاب المناسك، باب من أتى عرفة قبل الفجر، رقم (٣٠١٥)، من حديث عبد الرحمن بن يعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أحدًا يَبيت في مِنًى ويَرمِي عنه، ومنهم مَن يَقول: عُدُّوا لي كَمْ من واجِب تَرَكْت، وأنا أُعطِي لكم ذبائِحَ عنها.

الخُلَاصةُ: الآنَ أنَّ كُلَّ شيءٍ لا يَتعمَّدُه الإنسانُ بِقَلبه فإِنَّه لا إِثْم عليه فيه، وإذا كان من حَقِّ الله تعالى سقَطَ عنهُ الإثم والضَّمان إِنْ كان ممَّا يُضْمَن أو ممَّا تَجِب به الكفَّارة، وإذا كان لحَقِّ آدَمي سقَط عنه الإِثْم وَوجَب الضَّمان، إلَّا أنه يُسْتَثنَى من هذا مَسألةٌ واحِدة، وهي قَتْل النفس، فإن قَتْل النفس وإن كان خطأً تَجِب فيه الكفَّارة، ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ﴾ [النساء:٩٢].

فأَوجَب الله عَزَّوَجَلَّ حقَّهُ وحقَّ العِباد، وذلك لعِظَم قَتْل النَّفْس؛ لأن قَتْل النَّفْس -والعِياذُ بالله- عَمْدًا لا تُحِلُّه الكَفَّارة ولا يَنفَع فيه إِلَّا التَّوْبة النَّصوح مع استِيفاء الحُقوق؛ ولا أَعلَم شيئًا يُسْتَثْنى منها إِلَّا مسألةَ القَتْل، والقَتْل إنما هو لعِظَمه.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: إثبات اسمَيْن كريمين من أسماء الله؛ لقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ وما تَضمَّنـاه من الصِّفة وما تَضمَّناه من الحُكْم أيضًا -وهو الأثَر-؛ لأنَّ الغفور والرحيم مُتعَدِّيانِ يَتعلَّقان بالغير، والقاعِدة في أسماء الله تعالى وصِفاته: أنه إذا كان الاسمُ مُتعدِّيًا فإنه يَلزَم الإيمانُ به اسمًا لله تعالى، وبما تَضمَّنه من صِفة، وبما يَترَتَّب عليه من الحُكْم، وبعضُهم يَقول: الأثَر.

• • ❁ • •

الآية (٦)

• • ❁ • •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ [الأحزاب:٦].

• • ❁ • •

ثم قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾: ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾ مُبتدأ، و﴿أَوْلَىٰ﴾ خبرٌ، وهي اسمُ تَفضيل من الولاية، أَوْلى بهم.

قال: [﴿أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ فيما دعاهم إليه ودَعَتْهم أنفسُهم إلى خِلافه] فحوَّل المَعنى، يَعنِي: أن الرسول ﷺ إذا دعاك إلى شيء ودَعَتْك نفسُك إلى خِلاف هذا الشيءِ، فإن النبيَّ أَوْلى بك من نَفْسك، فأَطِعِ النبيَّ ﷺ، وخالِفْ نَفْسك، وهذا لا شكَّ أنه داخِل في الآية، لكن الآية أعمُّ وأشمَلُ وأدقُّ، يَعنِي: إذا كان الإنسان يَسعَى لنَفْسه بما فيه الخير، فإنَّ الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَوْلى به من نَفْسه، ويَشمَل عِدَّة وُجوهٍ:

أوَّلًا: أنَّ الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بالنِّسْبة للمُؤمنين أبلَغُ من أنفُسِهم في مُراعاة مَصالِحهم وما يَنفَعهم، وفي دَفْع الضرَر عنهم؛ ولهذا قال النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَنَا أَوْلَى بِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ نَفْسِهِ، مَنْ تَرَكَ مَالًا فَلِوَرَثَتِهِ، وَمَنْ تَرَكَ دَيْنًا فَعَلَيَّ»(١)، هذه داخِلة

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الفرائض، باب قول النبي ﷺ: «من ترك مالًا فلأهله»، رقم (٦٧٣١)، ومسلم: كتاب الفرائض، باب من ترك مالا فلورثته، رقم (١٦١٩)، من حديث أبي هريرة.

في جُملة: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾.

ثانيًا: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ في تَقديمه على أَنفُسِهم؛ ولهذا لا يُمكِن لا يَتِمُّ الإيمان؛ حتى يَكون النبيُّ ﷺ أحبَّ إليك من نَفْسك، كما قال عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: والله يا رسولَ الله إنَّكَ لأَحَبُّ إليَّ مِن كلِّ شيءٍ إلَّا مِن نَفْسي. فقال ﷺ: «وَمِنْ نَفْسِكَ يَا عُمَرُ»، فقال: وَمِن نَفْسي. قال ﷺ: «الْآنَ يَا عُمَرُ»[1]، فيَجِب على كل مُؤمِن أن يُحِبَّ النبيَّ ﷺ أكثَرَ من محبَّته لنفْسه.

ثالثًا: ما أَشار إليه المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ من أن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَوْلى بك من نَفْسك فيما يَدعوك إليه، وتَدْعوك نَفْسك إليه، فإذا دَعَتْك نَفْسُك إلى شيءٍ يُخالِفُ ما دعاك إليه النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فإن النبيَّ ﷺ أَوْلى بك من نَفْسك.

فإِذَن: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ كلِمة عامَّة تَشمَل كلَّ ما فيه ولاية وتَولٍّ، فالرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَوْلى بالمُؤمِنين من أنفسهم، أمَّا غير المُؤمِنين فإن هذا الوَصْفَ لا يَنطَبِق عليهم بالنِّسبة للرسول ﷺ.

قال تعالى: ﴿وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡ﴾ أزواجُ النبيِّ ﷺ أُمَّهات المُؤمِنين، فانظُرْ إلى التَّعبير فهنا ما قال: النبيُّ أبٌ للمُؤمِنين وأزواجهم أُمَّهاتُهم. بل قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾، فأبوك ليس أَوْلى بك من نَفْسك، لكن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَوْلى بك من نَفْسك، فهذا أعظَمُ من قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡ﴾، ومن أَجْل هذه الولايةِ كانت أزواجُه أُمَّهاتٍ لنا من قَبْلهن ومن قَبْلنا، يَعنِي: هُنَّ يَنظُرن إلينا كالنظَر إلى الأبناء، ونحن نَنظُر إليهن كنظَر الأُمَّهات.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأيمان والنذور، باب كيف كانت يمين النبي ﷺ رقم (٦٦٣٢)، من حديث عبد الله بن هشام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ونحن نَعلَم أن أُمَّهات المُؤمِنين رَضِيَ اللَّهُ عَنهُنَّ بالنسبة لأُمَّة مُحمَّد عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أُمَّة الإجابة، يَنظُرنَ إلى هذه الأُمَّةِ كما تَنظُر المرأة الأُمُّ إلى أولادها، ونحن يَجِب أن نَنظُر إليهنَّ كما نَنظُرُ إلى الأُمَّهات؛ لأنهن زوجاتُ مَن هو أَوْلى بنا من أَنفُسِنا، النبيُّ عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فلا جَرَمَ أن يَكُنَّ بمَنزِلة الأُمَّهات في الاحتِرام والتَّقدير والدِّفاع عنهنَّ، وعدَم التَّعرُّض لما وقَع في مُخالَفتهن، بغَيْرةٍ وغيرها؛ لأن النِّساء الزوجاتِ -كما تَعرِفون- يَكون بينَهُن غَيْرةٌ، فقد تُخطِئ المرأة خطَأً يَحمِلها عليه الغَيْرةُ، والغَيْرة أَمْر يَملِك الإنسانَ ولا يَملِكه، كما أن الغضَب يَملِك الإنسان ولا يَملِكه.

فما وقَع في مثل قوله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التحريم:٤] مِثل هذا يَجِب علينا أن نُدافِع بقَدْر ما نَستَطيع، فمَنِ اتَّخذوا من مثل هذه القَضيَّةِ، اتَّخذوا مَنفَذًا للطعن في زوجات النبيِّ ﷺ، ولا رَيْبَ أن مَن طعَنَ في زوجَات النبيِّ ﷺ فإنه لا يَقتَصِر طَعنُه عَليهنَّ، بل يَشمَل الرسول ﷺ، أَسأَلُك: لو أنَّ رجُلًا اتَّخذ من فواسِقِ النساء زَوْجاتٍ له، هل هذا مَدْح له أو قَدْح؟

قَدْحٌ بلا شكٍّ، فمَن قَدَح في واحِدةٍ من أُمَّهات المُؤمِنين فإن قَدْحه يَتعَدَّى إلى النبيِّ عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بلا شَكٍّ، ولا سيَّما إذا كان القَدْح فيما يَتعَلَّق بالشَّرَف والنزاهة؛ ولهذا الصحيحُ من أقوال أهل العِلْم رَحِمَهُمُ اللَّهُ أن مَن رمَى بالزِّنا واحِدةً من أُمَّهات المُؤمِنين، فإنَّه يَكون كافِرًا كُفْرًا مُخرِجًا عنِ المِلَّة.

أمَّا عائِشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنهَا إذا رمَاها بما برَّأَها الله تعالى به فلا شكَّ في كُفْره؛ لأنَّه مُكذِّب للقُرآن، وأمَّا غيرُها فإنه إذا قذَف واحِدةً بالزِّنا فإنه مُكذِّب للقرآن أيضًا من جهة أُخرى يَقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ

وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ [النور:٢٦]، ولا شكَّ أن الزِّنا -والعِياذُ بالله- خُبْث، فأنت إذا وصَفْت واحِدة من أُمَّهات المُؤمِنين بالزِّنا وإن لم تكُن عائِشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ فقد وصَفْت النبيَّ ﷺ بالخُبْث، نَسأَل الله تعالى العافِية، وحينئذٍ يَكون الإنسان كافِرًا لا شكَّ.

والصوابُ -الذي عليه المُحقِّقون من أهل العِلْم رَحِمَهُمُ اللَّهُ-: أنَّ مَن قَذَف واحِدةً من أُمَّهات المُؤمِنين فإنه يَكون كافِرًا كُفْرًا مُخرِجًا عن المِلَّة، وكذلك من قذَف غيرَهن من زوجات الأنبياء يَكون كافِرًا؛ للآية التي ذُكِرت: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ...﴾ [النور:٢٦] إلى آخِرها.

فما مِن شَكٍّ أن مَن يُكفِّر واحِدة من أُمَّهات المُؤمِنين فهو كافِر؛ لأنه يَلزَم من تكفِيره واحِدةً من أُمَّهات المُؤمِنين أن يَكون النبيُّ ﷺ قد استَباح امرأةً كافِرةً، وهذا قَذْفٌ في الرسول ﷺ.

إذَنْ: أزواجه أُمَّهاتهم من الناحِيَتين، يَعنِي: أننا لزَوْجات الرسول ﷺ بمَثابةِ الأبناء، وأنهنَّ لنا بمَنزِلة الأُمَّهات، لكن هل هُو في المَحرَمِيَّة والنظَر والخَلْوة أو في الاحتِرام فقَطْ؟

يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [في حُرْمة نِكاحِهنَّ عليهم]، ولا يَكفِي هذا في حُرْمة نكاحِهن عليهم، لا شكَّ أنه لا يَحِلُّ لأحَد أن يَتزَوَّج امرأةً بعد وفاة النبيِّ ﷺ من زَوْجاته، ولكِنَّ هذا الاحتِرامَ ليس لهُنَّ فحَسْب، بل حتى للرسول ﷺ إكرامًا له؛ ولذلك إذا تُوفِّيَ الرجُل عن المرأة ولو كانت لا تَحيض تَعتَدُّ بأربعة أشهر وعَشْرٍ؛ احترامًا للنِّكاح الأوَّل إلَّا إذا كانت حامِلًا فعِدَّتها بالحَمْل.

أَقول: إنهن أُمَّهات المُؤمِنين في حُرْمة النِّكاح وفي وُجوب احتِرامِهن.

وفيها قراءة لبَعض السلَف: «وأَزواجُه أُمَّهاتُهم وهو أَبٌ لَهم»، ولكنها قِراءة لا تُعتبَر من القِراءات السَّبْعية، إلَّا أن بعضهم قَرَأ بها، ولكنك إذا تَأمَّلت: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ وجَدْتَ أنه أعظَمُ من الأبِ.

قال سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ﴾ سيَأتينا -إن شاءَ الله تعالى- في الفوائِد: هل أولادُهنَّ إخوةٌ للمُؤمِنين وهل إخوانُهنَّ أخوالٌ للمُؤمِنات وهل آباؤُهنَّ آباءٌ للمُؤمنين؟ وما أَشبَهَ ذلك، يَأتينا هذا -إن شاءَ الله تعالى- في الفوائِد.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ﴾ ذَوُو القَرابات ﴿بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ﴾ في الإِرْث ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ من المُؤمِنين والمُهاجِرين، أي: من الإرث بالإيمان والهِجْرة الذي كان أوَّل الإسلام فنُسِخ].

قال سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ مُتعلِّق بـ﴿أَوۡلَىٰ﴾، أَوْلى من المُؤمِنين والمُهاجِرين، وعلى هذا فإن (مِن) هي الدالَّة على المُفضَّل عليه، فإذا قلت: فُلان أَفضَلُ من فلان، فإن (مِن) هذه لتَعيين المُفضَّل عَليه، وهنا أُولو الأرحام بعضهم أَوْلى ببعض من المُؤمنين والمُهاجِرين.

وقيل: إن (مِنْ)، بَيانيَّة يَعنِي: وأُولو الأرحام من المُؤمِنين والمُهاجِرين بعضُهم أَوْلى ببعض، يَعنِي: أُولو الأرحام سَواءٌ كانوا مُؤمِنينَ فقَطْ أو مُؤْمنينَ مُهاجِرينَ فإن بعضَهم أَوْلى بِبَعض، فإذا قُلْنا: أُولو الأَرْحام بعضُهم أَوْلى ببعض في الإِرْث مِن المُؤمِنين والمُهاجِرين. أو قُلْنا: أُولو الأرحام بعضُهم أَوْلى ببعض من المُؤمِنين. صار المَعنى الأَخير أعمَّ وأشمَلَ.

وعلى كلِّ حال: الآيةُ فيها قولان للمُفسِّرين:

القولُ الأوَّلُ: إن هذه ناسِخة للإِرْث الثابِت في أوَّل الإسلام بين المُؤمِنين من الأنصار والمُهاجِرين من المُسلِمين، فكان في الأوَّل جعَل الرسول بَينهم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أُخوَّةً، رتَّب أُخوَّةً يَتوارَثون بها، حتى أَنزل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى آيةَ الإِرْث، وجعَل ذَوي الأَرْحام بعضُهم أَوْلى بِبَعض.

القول الثاني: يَقول: ﴿وَأُوْلُوا الْأَرْحَامِ﴾ مِن المُؤمِنين والمُهاجِرين بعضُهم أَوْلى ببعض، وعلى هذا فتكون الآية مُحكَمة، ليس فيها نَسْخٌ، وتَكون أَعمَّ من الإِرْث أَوْلى ببعضِهم في كل شيءٍ حتى في ولاية النِّكاح وغير ذلك، فهُمْ بعضُهم أَوْلى ببعض.

و(أُولُو) بمَعنى: أصحاب، و(الأَرْحام) جَمع رحِمٍ وهو القَرابة يَعنِي: ولهذا قال المُفَسِّر: [ذَوِي القَرابات]، وأن ما اشتَهَر عندنا في عُرْفنا أن الأَرْحام أَقارِبُ الزوجة فهذا غيرُ صحيح، أقارِبُ الزوجة يُسمَّوْن أصهارًا، ومن أَجْل هذا الخطَأِ في المَعنَى صار بعض الناس يَقول: أنتم تَقولون: إن أسباب الإرث ثلاثة: رحِم ونِكاح وولَد، فأينَ الثالِثُ؟! فالرحِم والنِّكاحُ واحِد عند هؤلاء.

ونَقول: إن فَهْمكم للرحِم فهم خاطِئ، وهذا ما يَرمِي إليه الشَّرْعُ من تَسمية الأشياء بأسمائِها الشرعية حتى لا يَحصُل الخطأ.

فالآنَ عندنا كلِمة العَمِّ تُطلَق على زَوج الأُمِّ، فلو سأَلَك سائلٌ فإنك تَبني أَنت على أَنَّه عَمُّه أَخو أبيه! ثُمَّ تَجِد أنه أَراد بالعَمِّ زَوجَ أُمِّه، فكلُّ هذه الأشياءِ يَنبَغي لنا أن نُصحِّح كلامنا فيها؛ حتى لا يَقَع الخطَأ.

وقوله تعالى: ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي: مَكتوبه، فهو فِعَال بمَعنَى: مَفعول، وهل المُراد في كِتاب الله تعالى، أي: في الوَحْي أو في كِتاب الله أي: في فَرْض الله تعالى؛

لأن الكَتْب يُطلق بمَعْنى الفَرْض، كما في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة:١٨٣]، ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء:١٠٣]، يُحتَمل هذا وهذا.

ولكن الأقرَب أنَّ ﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أيْ: في مَكتوبه، أي: فيما كتَبه الله عَزَّوَجَلَّ، ونَقول: إن كان المُراد بكِتاب الله تعالى اللوحَ المَحفوظَ فالأَمْر ظَاهِر؛ لأن الله تعالى كتَب فِي اللَّوْح المَحفوظ مَقاديرَ كلِّ شيءٍ، وإن كان المُراد بكِتاب الله هذا القُرآنَ، فإنه مَكتوبٌ بأَيْدي الملائِكة ومَكتوب بأَيْدي المُؤمِنين من بني آدَمَ.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِلَّآ﴾ يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لكن ﴿إِلَّآ﴾] تَقدير (إلَّا) بـ(لكِن)؛ لأن الاستِثْناء هنا مُنقَطِع، وإذا كان الاستِثْناء مُنقَطِعًا فإنه تُقدَّر (إلَّا) بـ(لكِن)، والانقِطاع كما يَكون في الذوات يَكون في المَعاني أيضًا، فقول النَّحوِيِّين: جاء القَوْمُ إلَّا حِمارًا. هذا استِثْناء مُنقَطِع باعتِبار الذوات، القوم يَعنِي: ذواتهم إلَّا حِمارًا، ومثل هذه الآيةِ: ﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ﴾ استِثناء مُنقَطِع بالمعاني، فالاستِثْناء المُنقَطِع يَكون في المَعاني، ويَكون أيضًا في الذوات: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ هذا مُتَّصِل؛ لأن ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ من ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ لكن ﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم﴾ هذا لا يَدخُل في قوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ﴾؛ لأن أَوْلياءَنا هؤلاء ليسوا من ذَوي الأرحام، بل بيننا وبينهم مُوالاة، ولهذا قال تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا﴾ بوَصية فجائِز.

قوله تعالى: ﴿إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم﴾ جَمْع وَلِيٍّ، والمُراد بالوَلِيِّ هنا مَن كان بينك وبينه مُوالاة ومُناصَرة كالذي حصَل بين المُهاجِرين والأَنْصار في أوَّل الهِجرة، فإذا كان بينك وبينه مَعروف، تَفعَل فيه مَعروفًا فإن هذا جائِز.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بوَصيَّة]، وخَصَّ المَعروف بالوَصِيَّة؛ لأن الكلام الآنَ في التَّوارُث، والتَّوارُث ما يَكون إلَّا بعد الموت، كذلك الوَصيَّةُ ما تكون إلَّا بعد الموت.

قال الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ﴾ أي: نَسْخ الإِرْث بالإيمان والهِجْرة بإِرْث ذَوِي الأرحام، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فِى ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا﴾ وأُريد بالكِتاب في المَوْضِعين: اللوحُ المَحفوظ].

قوله تعالى: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ﴾ المُشار إليه كون أُولي الأرحام بعضُهم أَوْلى ببعض من المُؤمِنين والمُهاجِرين.

قوله تعالى: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي: في اللَّوْح المَحفوظ على كلام المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو ظاهِر في المَسأَلة الأَخيرة؛ لأن (كان) تَدُلُّ على الماضي، وهذا يَدُلُّ على أن الذي في الكِتاب المَحفوظ أن الإِرْث يَكون لذَوِي الأرحام، لكنه كان بالمُوالاة في زمَنٍ غير طويل، أوَّل ما قدِم المُهاجِرون إلى المدينة صاروا يَتَعاقَدون أُخوَّةً بينهم يَثبُت بها الإِرْث، لكنَّ هذا ليس هو الذي كتَبَه الله تعالى مُستَقرًّا على عِباده، وإنها حصَل ذلك لعارِض وهو ثُبوت الأُخوَّة التامة بين المُهاجِرين والأنصار، وإلَّا فإن الفَرْض المُستَقِرَّ هو ما في الكِتاب المَحفوظ من أن الإِرْث إنها يَكون بالرَّحِم.

وقوله تعالى: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا﴾: (ذا) اسمُ إشارةٍ هو الاسم، ﴿مَسۡطُورٗا﴾ خبَرُ ﴿كَانَ ذَٰلِكَ﴾ و﴿فِى ٱلۡكِتَٰبِ﴾ جارٌّ ومجرور مُتعلِّق بمَسطور على أنه اسمُ مَفعول، واسمُ المَفعول يَعمَل عمَل فِعْله بالشُّروط السابِقة وهي تامَّة هنا.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: وُجُوب تَقْدِيم مَحَبَّة النبيِّ ﷺ على النَّفس؛ لِقَوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ فهو أَوْلى بك من نَفْسك.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: عِظَم شَفَقة النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ على أُمَّته؛ لِكَونه أَوْلى بهم من أَنْفُسهم.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: وجوبُ طاعة النبيِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وتَقديمها على طاعة النَّفْس؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ يَدخُل فيه هذه المَسأَلَةُ: أنه إذا أَمَرك بالشيء ودعَتْك نفسُك إلى ضِدِّه فقَدِّمْ ما أَمَر به النَّبيُّ ﷺ.

فصار النبيُّ أَوْلى بالمُؤمِنين من أَنْفُسهم بالنِّسبة لك وبالنِّسبة له، بالنِّسبة له يَجِب عليك أن تُقدِّم محبَّته وطاعته على محبَّة نَفْسك وطاعتها، وبالنِّسبة له هو أَوْلى بك وأَرفَقُ بك وأَشفَقُ عليك من نفسِك.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن زَوْجاتِ النَّبيِّ ﷺ أُمَّهاتُ المُؤمنين؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ ما قلنا: أُمَّهاتهم أُمَّة كلها، لأنه قال تعالى: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾.

وقد استَدَلَّ بعضُ العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ على أنَّ مَن أَبْغَض عائِشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فليس بِمُؤمِن؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكَر أنَّها أم المُؤمِنين، ولا يُمكِن أن يُبغِض الإنسان أُمَّه، فإذا أَبغَضها فليس بمُؤمِن؛ لأنه لو كان مُؤمِنًا كانت أُمًّا له، ولو كانت أُمًّا له لَما أَبغَضَها، وهذا استِنْباط جيِّد.

واختَلَف العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ: هل يُسمَّى أقارِبُ زَوْجات الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بما يَقتَضيه النسَبُ؟ يُسمَّى إخوَةُ زَوجاتِ الرسول ﷺ أَخوالًا للمُؤمِنين أو لا؟

وهل يُسَمَّى أيضًا آباؤُهنَّ آباءً للمُؤمِنين، وأَبناؤُهن إِخوةً للمُؤمِنين؟

في هذا خِلاف بين أهل العِلْم رَحِمَهُمُ اللَّهُ، والصحيحُ أنه لا يُسمَّى هؤلاءِ بما يُسمَّى نَظيرُه في النَّسَب؛ لأن هذه الأُمومة خاصَّة بعَلَاقتِهنَّ بالنبيِّ ﷺ، وأَقارِبُهن ليس لهم عَلاقة برسول الله ﷺ، فلا يُسَمَّى أَحَدٌ من إخوانهن بأَخوال المُؤمِنين، ولا أَحَد من آبائِهن بأَبِي المُؤمنين، ولا أَحَد من أبنائِهن بأخي المُؤمِنين.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَنزِلته بالنِّسْبة للمُؤمِنين أعلى من مَنْزِلة الأُبُوَّةِ؛ لأنه قال تعالى: ﴿أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾، وعلى هذا فلا حَاجَةَ للقِراءةِ الَّتي قرَأ بها بعضُ السلَف، وهو قوله: «وهُوَ أَبٌ لَهُم»؛ لأن الأُبُوة بل أعلى من الأُبوَّة مُستَفاد من قوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: تَحريم نِكاح زَوْجات النبيِّ ﷺ بعدَهُ؛ لِكَونِهن أُمَّهات المُؤمِنين، وسيَأتِي في هذه السُّورةِ قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٢]، وهذا من حِماية الله تعالى لفِراش النبيِّ ﷺ، أنه حتى بعد مَوْته لا أحَدَ يَتزَوَّج أحَدًا من نِسائه.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: نَسْخُ التَّوارُثِ بالمُوالاة؛ لِقَوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ على أحَد التَّفسيرين: على أَنَّ (مِنْ) دَاخِلةٌ على المُفضَّل عليه.

أمَّا إذا جعَلْنا (مِنْ) بَيانيَّة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ﴾، فإنها لا تَدُلُّ على ذلك، وقد تَدُلُّ عليه من باب اللُّزوم لا من باب الدَّلالة المُطابِقة اللَّفْظية.

فإذا لم يُوجَد أحَدٌ من ذَوِي الأرحام هَل يَعود الإِرْث بالمُوالَاة والمُناصَرة؟

أَكثَرُ أهل العِلْم على أنه لا يَعود وأن أسباب الإِرْث تَنحَصِر في ثلاثة فقط وهي: النِّكاح، والنَّسَب، والولَد، ولكن شيخ الإسلام ابن تَيميَّةَ[1] رَحِمَهُ اللَّهُ يُجوِّز إذا لم يُوجَد إذا لم تُوجَدِ الأسباب الثلاثة المُجمَع عليها يَجوز التَّوارُث بالمُوالاة والمُناصَرة، يَقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «لأنه لمَّا عُدِم الأرحامُ زال السبَب المانِع من التَّوارُث بالمُوالاة والمُناصَرة»، لكن أكثَر أهل العِلْم رَحِمَهُمُ اللَّهُ على خِلاف هذا.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن صِلة الرحِم كما تكون في الحياة تكون بعد الموت؛ لأن هذه الأَوْلوية تكون في الحياة وفي الموت.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّ مَن كان أَقرَبَ من ذَوِي الأرحام فهو أحَقُّ بالإرث؛ وجهُه: أنه سبَق لنا قاعِدة في هذا البابِ وهو أنه إذا عُلِّق الحُكْم على وَصْف، فكلَّما كان الوصفُ في شيءٍ أقوى كان الحُكْم فيه أَوْلى، فما دام أُولو الأرحام أَوْلى؛ لأنهم ذَوِي أرحام، فمَن كانت رحِمه أَقوَى فهو أَوْلى؛ ولهذا قال النبيُّ ﷺ: «أَلْحِقُوا الْفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا، فَمَا بَقِيَ فَلِأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَرٍ»[2].

فأنا لو قُلت لك: إذا رأَيت فاسِقًا فاجْلِدْه. مثلًا، فهل هذا الأَمرُ بالجَلْد هل يَختَلِف باختِلاف الفاسِقين أو أَفسَقِهم أو أَقلِّهم على حدٍّ سَوَاء؟ يَختَلِف؛ لأن القاعِدة: أنه إذا عُلِّق الحُكْم بوَصْف فإنه متى كان الوَصْفُ ذا مَحلٍّ أَقوى كان ذلك المَحلُّ في الحُكْم أَوْلى.

---

(١) انظر: الاختيارات العلمية (٥/ ٤٤٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الفرائض، باب ميراث الولد من أبيه وأمه، رقم (٦٧٣٢)، ومسلم: كتاب الفرائض، باب ألحقوا الفرائض بأهلها، رقم (١٦١٥)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: فضيلة الهِجْرة؛ لقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾؛ لأن المُهاجِرَ مُؤمِنٌ تَخْصيصهُ بالعَطْف يَدُلُّ على شَرَفه وفَضْله، كما في قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ [القدر:٤] الرُّوح هو جِبريلُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وتَخْصيصه بالعَطْف وهو من المَلائِكة دليل على شرَفه وتكريمه.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: ثُبوت الإِرْثِ لِذَوِي الأَرْحام، وذَوُو الأرحام في اصطِلاح الفَرضيين: كُلُّ قَريب لَيْس بِذِي فَرْض ولا عَصَبة، والعُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ قدِ اخْتلفوا فيهم، فمِنهم مَن قال: إنهم لا يَرِثون.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: جواز الوَصية لَمن بيْنَك وبينَهُ مُوالاة؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ﴾ وظاهِر الآية الإطلاق، لكنَّه مُقيَّد بالنُّصوص الدالَّة على أنَّ الوصِية لا تَزيد على الثُّلُث، ومنه حديث سعد بن أبي وقَّاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ حين عَاده النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مِن وجَعٍ كان به، فلمّا رآه النبيُّ ﷺ استغَلَّ الفُرْصة، -أَعنِي: سَعْدًا- وقال: يا رسول الله، إنِّي ذو مال ولا يَرِثُني إلَّا ابنةٌ لي -ومُرادُه: لا يَرِثُني من صُلْبي، وإلَّا فإنَّ له بَني عمٍّ وعصَبة- أَفَأَتَصدَّق بثُلُثَيْ مالي؟ قال: «لا» قال: فالشَّطْر؟ -يَعنِي: النِّصْف- قال: فالثُّلُث؟ قال: «الثُّلُثُ وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ»(١).

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: أنَّ الإحسَان من المعروف؛ لِقَوله تعالى: ﴿مَّعْرُوفًا﴾ يَعنِي: إحسانًا بالوَصِية وعلى هذا فالمَعروف إذا قلت: مُرْ بالمَعروف يَشمَلُ الأمر بالإحسان، ولا شكَّ أن الإحسان مَعروفٌ عند الله تعالى وعند الخَلْق.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: بلاغةُ القُرآن في الاحتِرازِ في مَوْضِع الإيهامِ؛ لأنه لما

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوصايا، باب الوصية بالثلث، رقم (٢٧٤٤)، ومسلم: كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث، رقم (١٦٢٨)، من حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

قال تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ قد يَتوهَّم الإنسان أن مَن بينَه وبينَهم مُوالاة لا يُمكِن أن يَنتفِع بشيءٍ من ماله، فاحترَز عَزَّوَجَلَّ بقوله: ﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا﴾؛ ولهذا أمثِلة كثيرة مِثْل: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد:١٠].

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: أن اللَّوح المَحفوظ قد كُتِبت فيه الأشياءُ مُستقِرَّة لقوله تعالى: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ وهو أَوْلويَّة ذَوِي الأرحام بعضِهم ببعْض، وقد اختَلَف أهل العِلْم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ في الكُتُب التي بأَيْدي الملائِكة هل تُغيَّر وتُبدَّل بالزِّيادة والنَّقْص والتَّغيير؟

والصوابُ أن ذلك مُمكِن، الصحُف التي بأَيْدي المَلائِكة، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد:٣٩]، أَصْل الكِتاب عند الله تعالى ليس فيه تَغيير ولا تَبديل، لكن الصُّحُف التي بأَيْدي الملائِكة يُمكِن أن يَقعَ فيها التَّغيير والتَّبديل.

مثال ذلك: رجُل فعَل سَيِّئةً تُكتَب فإذا اسْتَغفر مُحِيَت أو إِنْسان فَعَل حسَنةً كصدَقة مثَلًا، ثُم مَنَّ بها إذا مَنَّ بها تُمْحَى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة:٢٦٤]، وهذا ما قرَّره شيخُ الإسلام[١] وغيرُه من المُحقِّقين رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ مِن أن ما في أُمِّ الكِتاب ثابِت لا يَتغيَّر؛ لأنه قد كُتِب فيه استِقرار الأشياء في الأزَل إلى الأَبَد، وأمَّا ما بأَيْدي الملائِكة فهُو الذي يُمكِن أن يَقَع فيه المَحوُ والإثبات.

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٤/ ٤٩٢).

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: تَمامُ عِنايةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ بشَرْعِه وتَقدِيرِه؛ تُؤْخَذ من قوله تعالى: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا﴾ يَعنِي: ليس الأَمْر أَمْرًا ارتِجاليًّا، بل كلُّه مَكتوبٌ مُحكَمٌ عند الله عَزَّوَجَلَّ لا الأمور الشَّرْعية ولا الأُمور القدَرية، وهذا من تَمام حِكْمته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أنَّ كلَّ شيءٍ مُحصَّنٌ عنده مُرتَّبٌ مُنظَّمٌ لا تَغييرَ فيه ولا تبديلَ.

الآيــة (٧)

• ● ● •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب:٧].

• ● ● •

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [واذْكُرْ إِذْ] فتكون (إِذْ) مَفعولًا لِفِعْل مَحذوف تقديره: اذكُرْ، وهذا كثير في القرآن أن تَأْتِيَ (إِذْ) مفعولًا لِفِعْل مَحذوف يُقدَّر بـ(اذكُرْ)، أي: اذكُرْ للناس إِذْ أخَذْنا، أوِ اذكُرْ لنفسك مُذكِّرًا إيَّاها إذ أَخَذْنا من النَّبيِّين مِيثاقهم.

وقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مِيثَـٰقَهُمْ﴾ حين أُخرِجوا من صُلْب آدَمَ كالذَّرِّ جمع ذرَّة وهي أَصغَرُ النَّمْل]؛ لأن الله تعالى استَخْرَج من آدَمَ ذُرِّيَّته أمثالَ الذَّرِّ، وأخَذ عليهم العَهْد والمِيثاق أن يُؤمِنوا به، جاءت في ذلك أَحادِيث بعضُها صحيح وبعضُها حسَن، لكن كونه استَخْرَجهم، وقال: «هؤلاء إلى النار ولا أُبالي، وهؤلاءِ إلى الجَنَّة ولا أُبالي»[1] وهذا صحيح؛ فإنما أَخْذُ المِيثاق والإِشْهاد عليهم هذا هو الذي اختَلَف العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ في صِحَّته.

وعلى كل حال فهذا مَوضِعُ بَحثِه في سورة الأعراف عند قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ وقد بسَط البَحثَ فيه

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٦/ ٤٤١)، من حديث أبي ذر الغفاري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

شارِحُ (الطحاوِية)[1]، فمَن أَراد أن يَرجِع إليه فلْيَرجِعْ.

أمَّا في هذه الآيةِ فلا يَتعيَّن أن يَكون المِيثاق ما أخَذه الله تعالى على بني آدَمَ حين استَخْرَجهم من صُلْبـه، بل إن المِيثاق عهد بين الإنسان وبين ربه في كل نِعْمة أَنعم الله تعـالى بها عليه أن يُؤدِّيَ هذه النِّعْمةَ على ما أَمَره به ربُّه، كل نِعمة؛ لأن هذا من شُكْرها، فإذا أَنعَم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليك النِّعْمة بالعِلْم صار الواجِبُ عليك عهدًا بيـنَك وبينَ الله أن تُبيِّنه، ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ وإِذْ أَنعَم الله تعـالى على إنسان بالنُّبوَّة، والنُّبوَّة بعـد مُحمَّد ﷺ مُتعذِّرة، لكن إذا أَنعَم الله تعالى على عَبْده بالنُّبوَّة وجَب عليه أن يُبلِّغ، مِيثاق غَليظ ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ وفي أهل العِلْم ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ ولم يَقُل: مِيثاقًا غليظًا؛ لأن المِيثـاق على الأنبياء أعظَمُ وأغلَظُ.

قـوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ﴾: (منـك) عَطْفًا على ﴿ٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ بإعادة الجارِّ ﴿وَمِنكَ﴾، وإنَّما أُعيد الجارُّ إمَّا لأن الضمير مُتَّصِل ولا بُـدَّ فيه من أن يَظهَر الجارُّ، أن يَظهَر العامِل؛ لأن الضمـير المُتَّصِل لا بُـدَّ له أن يَكون عامِله ظاهِرًا، ولا يَأتي مُنفَصِلًا العامِل إلَّا شذوذًا بعد (إلَّا)، أو يُقال أيضًا -وهو يُقال من حيث المَعنَى-: أُعيد حَرْف الجرِّ للتأكيد بالنسبة إلى هؤلاء الخَمسة قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمِنكَ﴾، وتَخصيصهم بالذِّكْر بعـد العُموم يَدُلُّ على فَضْلهم ولا شكَّ فيها.

قوله تعـالى: ﴿وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾ منـك ومن نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وبين مُحمَّـد ﷺ

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية (ص:٢١٤).

ونوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أنبياءُ آخَرون من أُولي العَزْم، ولكنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بدَأَ بآخِر واحِد منهم وأوَّل واحِد، فبدَأ بالطرَفين، ثُم جاء بالوسَط ﴿وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾.

ونوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ هو أوَّلُ رسول أَرسَله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إلى أهل الأرض؛ لأن الصحيح أن آدَمَ نبيٌّ، لكنه ليس برَسولٍ، فأوَّلُ الرُّسُل نوح عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كما قال الله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾، وفي حديث الشَّفاعة الطويلِ: أن الناس يَأتون إلى نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ويَقولون: أنت أوَّلُ رسول بعثَه الله تعالى إلى أهل الأرض[1].

وليس نُوحٌ أَفضَلَ من إبراهيمَ ولا من مُوسى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، لكن -كما قُلت- قدَّمه؛ ليَتلاقَى الطرَفان الآخِرُ والأوَّلُ؛ وقدَّم مُحمَّدًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لأن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أشرَفُ الرُّسُل.

والترتيب: بالنِّسبة لإبراهيمَ ومُوسى وعِيسى الثلاثة رُتِّبوا بالزمَن والفَضْل، وأمَّا نُوحٌ ومُحمَّد ﷺ فبَدأ بالطرَف الأخير؛ لأنه أشرَفُ، ثُمَّ بالطرَف الأوَّل.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ إبراهيم ولم يَذكُر أباه، ومُوسى ولم يَذكُر أبـاه، وعِيسى وذكَر أُمَّه؛ لبيَـان الآية والمُعجِزة في عيسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنه خُلِق من أُمٍّ بلا أَبٍ، وخُلِقت حوَّاءُ من أبٍ بلا أُمٍّ، وخُلِق آدمُ من غير أُمٍّ ولا أبٍ، وخُلِق الناس من أبٍ وأُمٍّ، نعَم، كل هذا يُستَدَلُّ به على أن الطبيعة لا شأنَ لها في التَّكوين والخَلْق، وإلَّا لكانت على وَتيرة واحِدة.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾، رقم (٣٣٤٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، رقم (١٩٤)، من حديث أبي هريرة.

قال: [﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ شديدًا بالوفاء بما حُمِّلوه وهو اليمين بالله تعالى ثُم أخَذَ اللهُ تعالى المِيثاق] المِيثاق العَهْد، لكن المُفَسِّر يقول: [وهو اليمين بالله] كأنه يُشير إلى قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ ولكن هذا فيه نظَر.

والصوابُ: أن العهد الذي أُخِذ على الرُّسُل هو أن يُبلِّغوا الرِّسالة ويَقوم أيضًا بالإيمان بما يَجِب الإيمان به من بابِ أَوْلى؛ لأنهم إذا أُرسِلوا إلى غيرهم فلأنفُسِهم أَوْلى، فيَشمَل أو فيَكون قوله تعالى: ﴿لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ﴾ فردًا من أفراد هذا العهدِ والمِيثاق.

فإن قال قائِل: بعض العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ مثل ابنِ عَقيل والقُرطُبِيِّ[1] يَقولون: المُفاضَلة من جهة الرِّسالة أو النُّبوَّة. فيَقولون: لا يَنبَغي للإنسان أن يَذكُر هذا، لكن إذا ذكَر المُفاضَلة فإنما تَكون من جهة بعض المُميِّزات التي تَكون في الأنبياء من شِدَّة العزيمة والصبر وغيرهما، فما الجَوابُ عن ذلك؟

فالجوابُ: يُمكِن أن يَكون قصدُهم أنه يُخشَى أن المُفضَّل عليه يَقعَ في نفس الإنسان تَنقُّصًا له؛ ولهذا الرسولُ ﷺ نَهى أن نُفضِّل بين الأنبياء قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لَا تُفَضِّلُوا بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ»[2] فإذا كان هناك مثَلًا محَذور فيُعْرَض عنه، أمَّا إذا كان يُريد

---

(١) تفسير القرطبي (٣/ ٢٦٢-٢٦٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، رقم (٣٤١٤)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب من فضائل موسى ﷺ، رقم (٢٣٧٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أن يُبيِّن مدَى قُوَّتهم في تبليغ الدَّعْوة وصَبرهم عليها وكثرة أتباعهم وما اصطِفاهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى به، فقد صرَّح الله عَزَّوَجَلَّ بذلك فقال: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾، ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

وهل هذا المِيثاقُ هو الأوَّلُ أو غيره؟

اختَلَف المُفسِّرون فيه:

فقال بعضهم: إنه هو المِيثاق الأوَّل، وإنها أُعيد من أَجْل الوَصْف، وهو قوله تعالى: ﴿غَلِيظًا﴾، ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾.

وقال آخَرون: إنه غير الأوَّل؛ لأن القاعِدة أن الاسم إذا تَكرَّر فإن كان بلفظ المَعرِفة فالغالِب أن الثانيَ هو الأوَّل، وإن كان بلَفْظ النكِرة فالغالِب أن الثانيَ غير الأوَّل، هذا الغالِب وليس دائِمًا، فإنك تَرَى قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ جاء مُعرَّفًا بـ(أل)، والإحسان الثاني قطعًا غير الإحسان الأوَّل، لكن الأكثَر أنه إذا أُعيد الاسم مُنكَّرًا صار غير الأوَّل، وإن أُعيد مُعرَّفًا صار الأوَّل، فهنا أُعيد المِيثاق مُنكَّرًا قال: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا﴾، فيَكون المِيثاق الثاني غيرَ المِيثاق الأوَّل.

ووجهُ المُغايَرة: يَقول: إن المِيثاق الأوَّل هو المِيثاق الذي أُخِذ على جميع بني آدَم، والمِيثاق الثاني هو المِيثاق الخاصُّ بالرُّسُل بما حُمِّلوه من القِيام بعِبادة الله عَزَّوَجَلَّ وتَبليغ شريعته والدَّعوة إليه.

وأمَّا إذا قُلْنا: إن المِيثاق الثانيَ هو الأوَّل، فتَكون فائِدة إعادته هو وَصْفَه بالغِلَظ، يَعنِي: أنه مِيثاق شديد أَشَدُّ من المِيثاق الذي أُخِذ على غيرهم.

ولكن ذَكَر المِيثاق العامِّ من باب التَّنويه به بالنسبة لهؤلاء الأنبياءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ؛ ولهذا عقَّبه بقوله تعالى: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ يقول: ثُم أَخَذ المِيثاق؛ ليَسأَل الصادِقين عن صِدْقهم.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: عِظَم المَسؤُولية على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وجهُ ذلك أن الله تعالى خصَّصَهم بأَخْذ المِيثاق.

ويُسْتَفاد منها فَرْعًا على هذه الفائِدةِ: عِظَم المَسؤُولية على أهل العِلْم؛ لأنَّهم ورَثة الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن مَن أَنعَم الله تعالى عليه بنِعْمة، فإن لله تعالى عليها شُكْرًا خاصًّا غير النِّعْمة العامَّة، كقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مِّيثَٰقَهُمْ﴾، فإن الإضافة هنا تَدُلُّ على التخصيص، المِيثاقَ الخاصَّ بهم، فكُلُّ مَن أَنعَم الله تعالى عليه بنِعْمة، فإن لله تعالى عليه فيها عَهْدًا أن يَقوم بهذه النِّعْمةِ.

وبهذا التَّقريرِ نَسْلَم ممَّا ذكَره المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أن المِيثاق هنا يُراد به المِيثاق الذي أُخِذ عليهم من ظَهْر أبيهم آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، إذا أَنعَم الله تعالى عليك بنِعْمة فإن هذا عَهْد أَعْطاك فأَعْطِه، قال الله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِيٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البقرة:٤٠].

وذكَر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هذا العَهْدَ في سورة المائِدة، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا

حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ [المائدة:١٢]، فهذا عَهْدٌ ومِيثاقٌ.

إذَنْ: إنَّ عهد النَّبيِّين عليهم الصلاة والسلام هي مَسؤُولية عَظيمة وهي تَبليغ الرِّسالة والعمَل والدَّعوة.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: فضيلة هؤلاء الأَنبياءِ الكِرام الخَمْسة: وجهُ الدَّلالة تَخصيصُهم بالذِّكْر، فإن تَخصيص أفراد العامِّ بالذِّكْر يَدُلُّ على شرَف ذلك المُخصَّص.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ مُحَمَّدًا ﷺ أفضَلُ هؤلاء الخَمْسةِ، وجهُه: تَقْديمه عليهم ذِكرًا مع أنه مُتأخِّر عنهم زمَنًا، وكان مُقْتَضى الحال لَو كانوا مُتَساوِين في الفَضيلة أَنْ يُذْكَروا بحسَب التَّرْتيب الزمَني.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن ترتيب هَؤُلاء في الفضِيلة: مُحَمَّد، ثُمَّ إِبْراهيمُ، ثُمَّ موسَى، ثُمَّ عيْسَى، لكن تقديمَ الذِّكْر لا شَكَّ دلِيلٌ على العِنَاية والأفضَلية وما أَشبَه ذلك، والظاهِر لي: أنه لا يُستَفاد من الآيةِ؛ لأننا لا نَعلَم أن إبراهيمَ أفضَلُ من نُوحٍ إلَّا بدليل خارِجيٍّ؛ صحيح أن مُحمَّدًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ نَعلَم أنه أَفضَلُهم؛ لأنه لو كان المَقصود التَّرتيبَ الذِّكْريَّ لكان هو آخِرَهم، لكن جاء في الآية بعد ذِكْر مُحمَّد ﷺ نُوحٌ وإبراهيمُ ومُوسَى وعِيسَى، وهذا تَرتيبٌ زمَنيٌّ فلا يَدُلُّ على الترتيب الفَضْلِيِّ، والأدِلَّة الخارجية واضِحة.

وقدِ اختلَف العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ: أَيُّهما أفضَلُ عِيسى أو نُوحٌ؟ بعد اتِّفاقهم على أن مُحَمَّدًا أفضَلُ، ثُمَّ إبراهيمُ، ثُم مُوسى، لكن اختلَفوا: أَيُّهما أفضَلُ عِيسى أو نوحٌ؟.

فقال بعضُهم: إن نوحًا أفضَلُ؛ لأنه أوَّلُ رَسول أَرسَله الله تعالى؛ ولأنه كابَدَ

من قومه ما لم يُكابِدْه غيره؛ لأنه بَقِيَ فيهم أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمسينَ عامًا، لا يَزيدهم دُعاؤُه إيَّاهم إلَّا فِرارًا -والعِياذُ بالله- وسُخريةً.

وقال بعضُهم: بل إنَّ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أفضَلُ؛ لأنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أُوذِي أيضًا حتى إنه هُدِّد بالقَتْل حتى إنه قِيل: إنه قُتِل. فإن اليَهود يَرَوْن أنهم شَفَوْا أنفسهم حين قتَلوا مَن أَلقَى اللهُ تعالى شَبَهَ عِيسى عَلَيْه ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ [النساء:١٥٧].

وعِندي في هذا: التَّوقُّفُ؛ لأن لكلِّ واحدٍ مِنهما مَزِيةً يَكون فيها أَفضَلَ من الثاني.

كما يَدُلُّ علَى أنَّ مَسؤُوليةَ أُولي العَزْم أعظَمُ من مَسؤُولية غَيْرهم وهو كذلك، ومن أَجْل أن مَسؤُوليتَهم أَعظَمُ وأنَّهم قاموا بها سُمُّوا أُولي العَزْم.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: تَغليظُ المَسؤُولية على الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: عظَمةُ الربِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وذلك بالتَّحدُّث عن نفسه بضمير العظَمة ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ واللهُ عَزَّ وَجَلَّ يَتحدَّث عن نَفْسه تارةً بضمير العظَمة وتارةً بضمير الإِفْراد، وهو كثير في القُرآن، ولا حاجةَ لذِكْر أمثِلة؛ لأنه واضِحٌ.

• • ❁ • •

الآية (٨)

• • • •

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الأحزاب:٨].

• • • •

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لِّيَسْـَٔلَ﴾ اللَّام للتعليل من حيث المَعنَى، وهي من حيث الإعراب حَرْف جَرٍّ، والفِعْل بعدها مَنصوب بـ(أَنْ) مُضمَرةً جوازًا بعد لامِ الجَرِّ.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ السائِل هو الله تعالى، والضميرُ هنا ضميرُ غَيْبة، ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا﴾ ضَمير المُتكلِّم، فيَكون فيه التِفات من التَّكلُّم إلى الغَيْبة، والالتِفات أُسلوبٌ من أَساليب اللغة البلاغِية، ويَختَلِف، قد يَكون من غَيْبة إلى حُضور، ومن حُضور إلى غَيْبة، فقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾، هذا التِفاتٌ من الغَيْبة إلى الحُضور ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ﴾، ثُمَّ قال تعالى: ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ﴾، وهنا قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ ثُم قال: ﴿لِّيَسْـَٔلَ﴾، ولم يَقُل: لنَسأَل. فهو التِفات.

فائِدةُ الالتِفات العامَّة في كل مَوضِع هو التنبية، تَنبيهُ القارِئ والمُخاطَب، وجهُ ذلك: أن الكلام إذا كان على أُسلوب واحِد، فإن الإنسان يَسير معه من غير أن يَكون هناك شيء يُوجِب انتباهَه، فإذا تَغيَّر الأُسلوب حصَل حينئذٍ تَوقُّف كيف انتَقَل من هذا إلى هذا، فيَكون في هذا تَنبيهٌ للقارِئ وللمُخاطَب.

ثُمَّ إن هناك فوائِدَ خاصَّةً تكون بحسَب السِّياق والقَرينة، انظُرْ إلى قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ﴾ ما قال: وما يُدريه. مُوافَقةً لـ﴿عَبَسَ﴾، ولا قال: عبَسْت مُوافقةً لـ﴿يُدْرِيكَ﴾، وعلَّلوا ذلك بأن الله عَزَّوَجَلَّ كرِه أن يُخاطِب نَبيَّه بوَصْف يَقتَضي الذَّنْب وهو العُبوس والتَّولِّي، فقال تعالى: ﴿عَبَسَ﴾ كأَنَّ التَّحدُّث عن غير الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ﴿وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾، ثُمَّ قال تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ خاطَبه بذلك؛ ليَتبيَّن أن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ليس عنده عِلْم من الغَيْب، وهذا ليس فيه قَدْح في الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ألَّا يكون عالِمًا للغَيْب؛ لأن هذا هو شَأْن جميع البَشَر.

والحاصِلُ: أن الالتِفاتَ الفائِدةُ العامَّة منه هو التَّنبيهُ، ثُم يَكون في كل مَوضِع فائِدة خاصَّة في ذلك المَوضِع، وهنا فائِدتُه -والله تعالى أعلَمُ- أنه لَمَّا قال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ﴾ وكان مِيثاق الأنبياءِ دائِرًا بين أَمْرٍ يَقومون به وأَمْرٍ يُواجِهون به من البَشَر، وكِلا الأَمْرين يَكون صِدْقًا ويَكون غيرَ صِدْق، لكنَّ غير الصِّدْق في جانب الأنبياء مُستحيل، لكن غير الصِّدْق في جانب المَدعُوِّين مُمكِن.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لِّيَسْـَٔلَ﴾ كراهِيةَ أن يُخاطِب أو أن يَنسُب السُّؤال لنَفْسه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مع أنه يَدخُل في ضِمْنه الأنبياءُ؛ لأن الخِطاب، أو لأن التَّحدُّث بضمير الحُضور: (لنسأل) أَقوَى في النفس من أن يَكون التَّحدُّث بضَمير الغَيْبة.

يَقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الله] تَفسير للضَّمير المُستتِر ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [في تَبليغ الرِّسالة]، وهذا بِناءً على ما يَراه في تَفسير الآية أن السُّؤال للأنبياء فقَطْ، والصوابُ أن السُّؤال لهم ولمَن دُعوا، قال الله تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾

وكل مِنهما يُسأَل، فالصواب أنه ﴿لِّيَسۡـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدۡقِهِمۡ﴾ في تَبليغ الرِّسالة بالنِّسبة للأنبياء، وفي قَبول ذلك بالنِّسبة للمَدعوِّين.

قال: [تَبكيتًا للكافِرين بهم] (تَبكيتًا) هذا تَعليل لسُؤال الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، يَعنِي: يَقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن الله عَزَّوَجَلَّ يَسأَل الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، لا لأنه يُمكِن ألَّا يَقوموا بالواجِب، ولكن تَبكيتًا للكافِرين بهم، يَعنِي: تَقريعًا ولَوْمًا للكافِرين بهم، فإنه إذا سَأَل الرُّسُلَ: هل بلَّغْتُمُ الرِّسالة؟ -أمام المَدعُوِّين- سيَقولون: نعَمْ، فيَكون في هذا تَبكيتٌ لهَؤلاء الكافِرين.

وسُؤال الغَيْر لتَبكيت غيره جاء به القُرآن كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ﴾ المَوْءودة هي الطِّفلة، أو بعِبارة أعَمَّ هي الأُنثَى التي تُوأَدُ، وكان من طريق بعض الكُفَّار أنهم يَئِدون البناتِ يَدفِنونَهن وهُنَّ حيَّاتٍ، خوفًا من أن يُعيَّر، يُقال: هذا الرجُلُ ما عنده إلَّا بِنْت، أو هذا الرجُلُ وُلِدَ له بِنْت؛ ولهذا إذا بُشِّر ﴿بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ ۝٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ﴾ يَستَتِر، يَخاف أن يُعيَّر ﴿يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾ -أَعوذ بالله تعالى، ثُم يَقول في نَفْسه: ﴿أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِ﴾ ما يَعدو هذا، ما يُمكِن أن يُمسِكه على عِزٍّ وكَرامة أبَدًا.

إِذَنْ: على رأيِ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يكون المُرادُ بسُؤال النَّبيِّين عن تَبليغ الرِّسالة تَبكيت هؤلاء الكافِرين بهم وتَقريعهم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَعَدَّ﴾ تعالى ﴿لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ للكافِرين بهم ﴿عَذَابًا أَلِيمٗا﴾ مُؤلِمًا].

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِّيَسۡـَٔلَ﴾، ﴿وَأَعَدَّ﴾ قد يَقول قائِل: بين المَعطوف والمعطوف عليه تَنافُر؛ لأنه لو كان بينهما ائتِلاف، لكانت العِبارة: لِيَسأَل الصادِقين عن صِدْقهم

ويُعِدَّ للكافِرين، لكنه قال: ﴿وَأَعَدَّ﴾ نعَم ﴿وَأَعَدَّ﴾ فكيف نَقول فيها؟ يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [هو عَطْف على ﴿أَخَذْنَا﴾] ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا﴾، والظاهِر من قَصْده ﴿أَخَذْنَا﴾ الأخيرة يَعنِي: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾، ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ﴾، وعلى رأيِ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَكون فيها أيضًا التِفات من الحُضور إلى الغَيْبة، ويُمكِن أن نَقول: إنه معطوف على قوله تعالى: ﴿لِّيَسْـَٔلَ﴾، نعَم لكنه جاء بلَفْظ الماضي تَحقيقًا لوُقوعه، وأنه أَمْر ثابِت.

قوله تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مُؤلِم]، يَعنِي: مُوجِع، فعيل بمَعنَى: مُفعِل تَأتي في اللغة العربية، وإن كان الأكثَر أن فَعيلًا بمعنى: فاعِل، ففعيل بمَعنَى: فاعل كثيرة جِدًّا، مثل سميع بصير وعزيز أَمثِلتها كثيرة، لكن فعيل بمَعنَى: مُفعِل قليل، ومنه هذه الآية، أَليم بمَعنَى: مُؤلِم، وقول الشاعر:

أَمِنْ رَيْحَانَةَ الدَّاعِي السَّمِيعُ ... يُؤَرِّقُنِي وَأَصْحَابِي هُجُوعُ[(١)]

هو الداعِي السَّميع، يَعنِي: المُسمِع.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: إثباتُ البَعْث؛ لأن هذا السُّؤالَ ما كان في الدُّنيا، وليس هناك إلَّا دنيا وأُخْرى، فيَكون من لازِم ذَلك ثُبوت الآخِرة.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن السُّؤال ليس سُؤالًا خاصًّا بالمُعانِدين والكافِرين، حتى

(١) البيت لعمرو بن معدي كرب، انظر: الأصمعيات (ص:١٧٢)، الشعر والشعراء لابن قتيبة (١/ ٣٦٠).

الصادِق يُسأَل عن صِدْقه؛ لقوله تعالى: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾، فيَتفرَّع عن هذه الفائدِةِ: وجوبُ الحذَر، ووجوبُ الاستِعْداد لهذا السُّؤالِ؛ فإذا كان الصادِقُ يُسأَل فما بالُك بالكاذِبِ؟! الكاذِبُ جَزاؤُه ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾؛ لأن الكافِرين لا يُسأَلون سُؤالًا يُحاسَبون عليه، كمُحاسَبة أهل الخير.

والسُّؤال هنا ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾، هل هو خاصٌّ بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام أو عامٌّ؟

قلنا: إنه عامٌّ؛ لأن النَّبيِّين الذين ذُكِروا رُسُل، وكلُّ رَسول لا بُدَّ من مُرسَل إليه، والرسولُ لا شَكَّ أنَّه صَادِق، فبَقِيَ التقسيمُ إلى صادِق أو غيرِ صادِق محلُّه المُرْسَل إليه.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثْبات الجزاءِ ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن النَّار مَوْجودة الآن؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَعَدَّ﴾ بلَفْظ الماضي، والإعداد بمَعنَى: التَّهيِئة، والنُّصوص في وجود النار ووجود الجَنَّة الآنَ من القُرآن والسُّنَّة كثيرة، فهما الآنَ مَوْجودتان، وهما لا تَفنَيان على مُعتَقَد أهل السُّنَّة، وإن كان ذُكِر خِلاف عن السلَف في أبديَّة النار: هل هي مُؤَبَّدة أم لا؟ والصحيحُ أنها مُؤبَّدة لا شكَّ.

والدليلُ على ذلك قوله تعالى يُخاطِب الذين آمَنوا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:١٣٠-١٣١]، فحَذَّر المُؤمِنين من النار التي أُعدَّتْ للكافِرين، والصواب بلا شَكٍّ أن النار مُؤَبَّدة، وفي ذلك ثلاثُ آيات من كِتاب الله تعالى: آية في النِّساء، وآية في الأحزاب، وآية في الجِنِّ.

فأمَّا آية النِّساء فقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [النساء:١٦٩].

وأمَّا في الأحزاب ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الأحزاب:٦٤-٦٥].

وأمَّا في سورة الجِنِّ ففي قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن:٢٣].

وإذا كان هَؤلاء خَالِدين أبَدًا فإنَّه يَلزَم من تَأبيد الخالِد تَأبيدُ المكان الذي هو فيه، حتى في الجَنَّة أيضًا، فمَعناه: أن هذا كائِن بمَشيئة الله تعالى.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: في الآية دليلٌ على أن أهل النار يَذوقون العذاب ويتألَّمون منه؛ لقوله تعالى: ﴿أَلِيمًا﴾، فيَكون في هذه الفائِدةِ ردٌّ على قول مَن يَقول: إن أهل النار يَكونون جَهنَّميِّين، فلا يُحِسُّون بعذابٍ -والعِياذُ باللهِ-، ومَعنَى ذلك أنهم إذا كانوا لا يُحِسُّون بعذاب انتفَى العَذاب.

وقد ذكَر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى أن جُلُودهم تنضَج ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:٥٦]، وأَخبَر أنها تُحرِق ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الأنفال:٥٠]، فبيَّن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى أن الجُلود تَنضَج ﴿لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾، ولولا أنهم يَتألَّمون بذلك لكانوا عندما بُدِّلوا بجُلود أُخرى ما ذاقوا العَذاب.

فإن قيل: كيف يَصبِرون المُدَدَ العظيمة، وهم في حَريق وجُلود تُبدَّل -والعِياذُ بالله-؟

قُلْنا: إن الله تعالى على كل شيء قَديرٌ، وأحوال الآخِرة لا تُقاس بأحوال الدُّنيا،

هذه الدنيا يَحتَرِق الجِسْم لكن الروحُ تَخرُج منه وتَدَعُه ولا تَحتَرِق، لكن في الآخِرة يَبقَى الجِسْم وإن كان يَحتَرِق، وإن كان يَنضَج، والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لا نِهايةَ لقُدْرته، ولا يُمكِن الإحاطةُ بها.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: التحذير من الكُفْر؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: التحذير من خِصال الكُفْر: يَعنِي ورَدَت في النُّصوص أعمالٌ وأقوالٌ وَصَفها الشَّارِع بأنَّها كُفْر فيَجِب الحَذَر منها.

ومن المُؤسِف أن كثيرًا من طلَبة العِلْم يَبحَثون مَسأَلة أن هذا كُفْرٌ وأن هذا غيرُ كُفرٍ، يَبحَثونها على أنها مسألة نَظَرية، فتَجِدهم يَفرِضون الخِلاف مع المُعتَزِلة والخَوارِج، لكن لا يَشعُرون -ولا يُشْعِرون غيرَهم- أن مَسأَلة كون هذا من الكُفْر مَعناه أنه يُعذَّب على هذه الخَصْلةِ عَذابَ الكافِرين، وإن كان لا يُخلَّد، لكن يُعذَّب بحسَب ذَنْبه عذابَ الكافِرين؛ لأنه عمِل كُفْرًا فيَستَحِقُّ فاعِله جزاءَ الكُفْر في هذه المَسأَلةِ، وهذه مَسألةٌ عَظيمة جِدًّا، يَنبَغي لنا أن تَكون على بالنا.

وفيه أيضًا بِناءً على هذه القاعِدةِ على أن الَّذين يُعذَّبون في النار بقَدْر مَعاصيهم يَجِدون حَرَّها وأَلَمها وعَذابها خِلافًا لمَن قال: إنهم لا يَجِدون أَلَمًا؛ فالصوابُ أنَّهم يَجِدون أَلَمًا، الذين لا يَجِدون أَلَمًا هم الذين يَرِدُونها بِناءً على أن الوُرود في قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم:٧١] الدخولُ دون المُرور على الصِّراط، والمَسأَلة فيها قولانِ للمُفسِّرين من السلَفِ والخلَف، والله أَعلَمُ.

• • ۞ • •

الآيــة (٩)

•●∞●•

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ [الأحزاب:٩].

•●∞●•

هنا صدَّر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هذا الأَمْرَ بالنِّداء المُتَّصِف المُنادَى بهِ بالإيمان، فأوَّلًا تَصديرُ الخِطاب بالنِّداء يَدُلُّ على الاهتِمام بِه؛ لأن النِّداء يُوجِب الانتباهَ؛ فلذلك إذا وجَدْت مثلَ هذا التَّعبيرِ فاعلَمْ أن الأمر هامٌّ.

ثُمَّ إن توجيه الخِطاب والنِّداء إلى مَنِ اتَّصفوا بالإيمان يَدُلُّ على أن هذا من مُقتَضيات الإيمان؛ لأنه لا يُوَجَّه الخِطاب لمَوْصوفٍ بصِفةٍ إلَّا أن ذلك من مُقتَضيات صِفَتِه، فإذا قلت: يا رجُلُ افعل كذا وكذا. فمَعنَى هذا أنَّ المأمورَ به من صِفات الرِّجال.

ثُمَّ إن في وَصْفِهم بالإيمان إغراءً لقَبول ما وُجِّه إليهم، يَعنِي: إذا قلت: يا مُؤمِنُ. معناه: أني أُغريك أن تَقبَل، إذ إن الإيمان يَقتَضي أن تَقبَل، ففيه إغراءٌ على قَبول ما أَمَر الله تعالى به؛ قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إذا سمِعْتَ الله تعالى يَقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ فأَرْعِها سَمْعَك -يَعنِي: استَمِع لها- فإمَّا خيرٌ تُؤمَر به، وإمَّا شرٌّ تُنْهى عنه»(١).

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في الزهد رقم (٨٦٦)، وسعيد بن منصور في السنن رقم (٥٠) [ط.الصميعي]، وابن أبي حاتم في التفسير (١/ ١٩٦).

وقدِ اجتمَع الأمران في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ﴾ [الحشر:١٨-١٩]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الخِطاب هنا عامٌّ، الخِطاب يَعني: المُخاطَب عامٌّ، يُوَجَّه لأُناس مَوْصُوفين بالإيمان، هل يَختَصُّ بالمُؤمِنين في زمَن النُّزول، أو هو عائِد إلى كل المُؤمِنين؟

هو شامِل لكل المُؤمِنين، إذ إن الله تعالى إذا أَنعَم على سلَف الأُمَّة بنِعْمة، فهو نِعْمة على الأُمَّة كلها؛ ولهذا يَذكُر الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بني إسرائيلَ بنِعَم أَنعَم بها على بني إسرائيلَ في عَهْد مُوسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ؛ لأن الطائِفةَ واحِدةٌ ولا شكَّ أنَّ نِعْمة الله عَزَّوَجَلَّ على نَبيِّنا مُحمَّد ﷺ وعلى أصحابه أنه نِعْمة علينا، وأن نَصْر الله تعالى له ودِفاعه عنه نَصْرٌ لنا ودِفاعٌ عنَّا.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ نِعْمة الله تعالى عامٌّ؛ لأنه مُفرَد مُضاف فيَعُمُّ، والشاهِد على أن المُفرَد المُضاف يَعُمُّ قوله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ [النحل:١٨]، فليس المُرادُ نِعْمةً واحِدة، بل نِعَمٌ كثيرةٌ لا تُحصَى.

وقوله تعالى: ﴿نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي: إِحْسانه وفَضْله، ثم قال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ﴾ هذا التَّقييدُ لا يَعني تَخصيص النِّعْمة العامَّة في قوله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿نِعۡمَةَ ٱللَّهِ﴾ لكنه كالتَّمجيد لشيء من هذه النِّعَم ﴿إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ﴾: (إِذْ) أي: حين ﴿جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ﴾، وهذه النِّعْمةُ خاصَّة بالذِّكْر؛ لأنها نِعْمةٌ عظيمةٌ كما سيَتبَيَّن من تصوير الله عَزَّوَجَلَّ لها قال: ﴿إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ﴾ كلِمة (جُنود) هي نكِرة، لكنها يُراد بها التَّعظيمُ والتَّكثيرُ، يَعني: إذ جاءَتْكم جُنود كثيرة، وهؤلاءِ الجُنودُ همُ الأحزابُ

من المُشرِكين واليَهود الذين تَحزَّبوا لِقتال النبيِّ ﷺ وكانت هذه في السَّنَة الخامِسة من الهِجْرة في شَوَّال(١).

هذا الصحيحُ المشهورُ؛ لأنه من المعلوم أن أُحُد كانت في السَّنَة الثالثة من الهِجْرة في شَوَّال(٢)، وكانت السَّنَة التي تَليها مِيعادًا لقُرَيْش، لكنهم ما حضَروا، ثُم في السَّنَة الثالِثة -وهي الخامِسة- صارت غَزوة الأَحْزاب.

وسبَبُها أن الأشرافَ من بني النَّضير الذين أَجْلاهم النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من المَدينة لا شكَّ أن قُلوبَهم امتلَأَت حِقْدًا على النبيِّ ﷺ وعَداوةً، فلمَّا رأَوُا انتِصارَ قُرَيْش في أُحُد أَرادوا أن يَستَغِلُّوا هذا الأمرَ، فذهَبوا إلى قُرَيْش وحرَّضُوهم على قِتال النبيِّ ﷺ ووعَدوهم أن يَنصُروهم بكلِّ ما يَستَطيعون، وأن يَتَّصِلوا ببني قُرَيْظةَ الذين بَقُوا في المدينة يَتَّصِلوا ببني قُرَيْظةَ من أجل أن يُساعِدوهم على قِتال النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فاجتَمَعَت أَحزابٌ عظيمةٌ قُدِّرت بعشَرة آلاف مُقاتِل، معَهم العُدَّة والسِّلاح والعَتاد وحضَروا إلى المدينة.

ولَمَّا عَلِم بهِمُ النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ اهتَمَّ بذلك اهتِمامًا عظيمًا، ولكن اهتِمام الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لا يَعنِي الجُبْن والخَوَر والضَّعْف، ولكنه يَعنِي الاستِعْداد وأَخذ الحذَر؛ أَخْذًا بتوجيهات الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن الله تعالى دائِمًا يُحذِّر من الأعداء، ويَأمُر بأن نُعِدَّ لهم ما استطَعْنا من قوَّةٍ، فخرَج بأصحابه بثلاثة آلافِ مُقاتِلٍ فقط، وقيل: بأقَلَّ من ذلك حتى قال بعضُهم: إلى سَبْع مئةِ مُقاتِلٍ، ونزَلوا عند سَلْعٍ، وجعَلوه خَلْف ظُهورهم، وحفَروا الخَنْدق بمَشورة سَلْمانَ الفارِسيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٢١٤).
(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٦٠).

الحَرَّة الشرقية إلى الحَرَّة الغربية، حفَروه مع ما بهم من الجَهْد والتَّعَب والمَشقَّة والجُوع والبَرْد، وكان الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يحفُر معهم، حتى إن التُّرابَ وارَى جِلْدةَ بَطْنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وكان يُردِّد معهم:

«اللَّهُمَّ لَا عَـيْشَ إِلَّا عَـيْشُ الْآخِـرَهْ ... فَـاغْفِرْ لِلْأَنْصَـارِ وَالْمُهَـاجِرَهْ»[1]

ويُردِّد أيضًا قوله ﷺ:

«اللَّهُـمَّ لَـوْلَا أَنْـتَ مَـا اهْتَـدَيْنَا ... وَلَا تَصَـدَّقْنَا وَلَا صَـلَّيْنَا

فَـأَنْزِلَنْ سَـكِينَةً عَلَيْنَـا ... وَثَبِّـتِ الْأَقْـدَامَ إِنْ لَاقَيْنَـا

إِنَّ العِـدَا قَـدْ بَغَـوْا عَلَيْنَـا ... وَإِنْ أَرَادُوا فِتْنَـةً أَبَيْنَـا»[2]

لأن هذا الإِنْشادَ في هذا المَوْطِن يُثِير الهِمَم ويُنشِّط، وكان يَمُدُّ صَوْته بقوله ﷺ: «أَبَيْنَا».

المُهِمُّ: أنه حصَل فيه أشياءُ كَثيرةٌ ليس هذا مَوضِعَ ذِكْرها، لكنها تَدُلُّ على محَنٍ عظيمةٍ أَصابَت المُسلِمين، وهم مع ذلك صابِرون، ولمَّا نزَل الأحزابُ نزَلوا من الشَّمال من الشَّرْق والغَرْب ﴿مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ﴾.

ثُمَّ إن الله عَزَّوَجَلَّ بحِكْمته امتَحَن المُسلِمين بزِيَادة البَلاء، وهو أن بني النَّضِير اتَّصلُوا ببني قُرَيظةَ، وطلَبوا منهم أن يَنْقُضوا العَهْد الذي بينهم وبين النبيِّ ﷺ،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب حفر الخندق، رقم (٢٨٣٥)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب، رقم (١٨٠٥)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة الخندق، رقم (٤١٠٦)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب، رقم (١٨٠٣)، من حديث البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فتلَكَّأت بنو قُرَيْظةَ فقالوا: كيف نَنقُض العَهْد بيننا وبين مُحمَّد ﷺ، وهؤلاءِ الجُنودُ التي أَتَيْتم بهم ليس هذا مَحَلَّ إِقامتهم ولا سُكْناهم، إن رأَوْا نَصْرًا شارَكونا بالغَنائم، وإن رأَوْا هَزيمةً ذهَبوا إلى بلادهم وبَقِينا نحن تحت سُلْطة مُحمَّد ﷺ.

وهذا كلام مَعْقول، لكنه مَعقول من الناحية الدُّنيوية فقَطْ، وأَبَوْا أن يُشارِكوهم، لكنهم ما زالوا بهم حتى أَغْرَوهم ونقَضوا العَهْد، فازداد ذلك في مَشقَّة المُسلِمين.

ولكن اللهَ عَزَّوَجَلَّ قال في كِتابه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج:٣٨]، وإذا دَافَع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن شَخْص فلا تَسأَل عن حاله، فإنه في حِصْن حَصين في مُدافَعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ولهذا يَقول يَذكُر اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ المُؤمِنين في هذه النِّعْمةِ: ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾، والتَّنْكير هنا للتَّعظيم والكَثْرة، يَعنِي: جُنود كثيرة، لكن بماذا قُوبلوا؟ ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ سلَّط الله عَزَّوَجَلَّ هذه الرِّيحَ، الريح الشرقيَّة شَديدة، يَعنِي: جعَلها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ريحًا شَديدةً عظيمةً وبارِدةً حتى هَدَمت خِيامهم، وأَكفَأَتْ قُدورهم، وصارت الحِجارة تَرميهم كأنَّما يُرجَمون بها رَجْمًا، يَعنِي: بدَأَتِ الريح تَحمِل الحِجارة وتَضرِب بها قُدورهم، تَضرِب بها خَيْلهم وإبِلَهم وأَبدانهم أيضًا، وقَلِقُوا قَلقًا عظيمًا، والجُنود الآخَرون -الملائِكة- تُزَلْزِلُ بهم وتُلقِي في قُلوبهم الرُّعْب؛ ولم تُقاتِل لأنه ما حصَل قِتال، لكنها زَلْزَلت بهم بإِذْن الله عَزَّوَجَلَّ.

وقِصَّة حُذَيْفةَ بنِ اليَمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في تلك الليلةِ العَصيبة؛ لمَّا هبَّتِ الرِّياح طلَب النَّبيُّ ﷺ من أصحابه أن يَنتَدِب أحدًا منهم، وضَمِن أن يَرجِع سالِمًا، وأن يَكون رفيقَ النَّبيِّ ﷺ في الجَنَّة، يَعنِي: ضَمِن أمرَيْن؛ السلامة، وأن يَكون رفيقَ الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في الجَنَّة، لكِن الصَّحابة معَهم تعَبٌ عظيم وجُوع شديد

وبَرْد شديد ما قام أَحَد، ثُم ذهَب عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُصلِّي حتى مضَى هَوِيٌّ من الليل، ثُم رَجَع وقال هذا الكلامَ مرَّةً أُخرى، فلم يَقُم أَحَد، ثُم رجَع يُصلِّي، ثُم رجع فقال هذا الكلامَ، فلَمْ يَقُم أَحَد.

فنَصَّ على حُذَيْفةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال ﷺ: «قُمْ يا حُذَيْفَةُ» يَقول: فلمَّا ذَكَرني لم يَكُن لي بُدٌّ من طاعة اللهِ ورَسولِه. قام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأَوْصاه الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن يَذهَب إلى القوم ويَنظُر خبَرَهم، وألَّا يُحدِث شيئًا أبدًا يَقول: لَمَّا انصَرَفْت من عند الرسول ﷺ صِرْت كأنما أنا في حَمَّام، لا أُحِسُّ بِرِيح ولا بِبَرد حتى وصَلْتُ إلى القَوْم، وجعَلْت أُشاهِد أبا سُفْيانَ؛ لأنه رئيس قُرَيْش أُشاهِده وهو يَصطَلي على النار من شِدَّة البَرْد، ويَأذَن بالرَّحيل، يَأمُرهم بأن يَرحَلوا: ليس لنا مُقام هنا. ووَضَع سهمًا في قَوْسه يُريد أن يَرمِيَه؛ لأنه قريب منه، لكنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تذَكَّر قولَ النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لَا تُحْدِثْ شَيْئًا»، فامتَنَع، يَقول: فقال أبو سُفْيانَ: يَنظُر كلُّ واحِد منكم جَليسَه؛ خاف من الجَواسيس والعُيون، فأَمسَكْت برَجُل من جانبي وقُلْتُ: مَن أنت؟ ابتَدَأ به قَبْل أن يَسأَل هُو قال: أنا فُلان بن فُلان.

فأَخَذ الخَبَر ثُم رجَع إلى النبيِّ ﷺ كأنما هو في حَمَّام لا هواءَ ولا بَرْدَ، لكن لَمَّا وصَل للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ واستَقَرَّ أَحَسَّ بالبَرْد، فلَمَّا أَحَسَّ بالبَرْد وضَع النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عليه لِباسًا كان معه؛ ليَدفَأَ به، ونامَ، والنبيُّ ﷺ يُصلِّي ويَتهَجَّد، يَقول: فلَمَّا أَصبَح الصُّبْح أَيْقَظني وقال: «يَا نَوْمَانُ قُمْ قُمْ يَا نَوْمَانُ»[1].

فالحاصِلُ: أن هذه الرِّيحَ كانت شديدةً جِدًّا أَرَّقتهم حتى انصَرَفوا مع ما أَلْقَت

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب، رقم (١٧٨٨)، من حديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

المَلائِكة في قُلوبهم من رُعْب؛ ولهذا قال تعالى: ﴿رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ لأن الله تعالى حجَبَ المَلائِكة عن أَعيُنِ الناس؛ لأن المَلائِكة تحضُر مجالِس الذِّكْر، والملائِكة يَتَعاقَبون في بني آدَمَ بالليل والنهار، والمَلائِكة ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق:١٧]، ومع ذلك لا نَراهم؛ لأن الله تعالى حجَبَهم، يَأتينا -إن شاء اللهُ تعالى- في الفَوائد أن في هذا دَلالةً بيِّنةً على ضَعْف بني آدَمَ، فأَجرام محسوسة مَوْجودة بين أيديهم، بل عن أيمانهم وعن شَمائِلهم، ومع ذلك لا يَرَوْنها.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ مِن المَلائِكة ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ بالتاء من حَفْر الخَنْدق، وبالياء من تحذير المُشرِكين]، يَعنِي: فيها قِراءَتان «بِمَا يَعْمَلُونَ» و﴿بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾ هذه الرِّيحُ هي الريح الشَّرْقية؛ ولهذا جاء في الحديث: «نُصِرْتُ بِالصَّبَا وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ»[(١)]، الدَّبور: الرِّيح الغَرْبية، يَقول: [بما تَعمَلون بالتاء من حَفْر الخَنْدق]، ولكن هذا التَّخصِيصَ لا يَنبَغي؛ لأنَّنا إذا خصَّصنا العُمُوم في الآية قصَرْنا معنَى اللَّفْظ أو قصَرْنا اللَّفْظ على بعض مَعناه، والصوابُ: أنها بما تَعمَلون من حَفْر الخَنْدق وغيره من كل ما عمِلْتم في هذه الغزوةِ.

قوله تعالى: ﴿بَصِيرًا﴾ أَيْ: عليمًا، أو بما يَعمَلون، يَعنِي: الجُنود ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ واللهُ تعالى بما يَعمَلون بَصير، من التَّحزُّب على النبيِّ ﷺ، والقُدوم إلى بلَد الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لأَجْل القَضاء عليه على زَعْمهم.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة الخندق، رقم (٤١٠٥)، ومسلم: كتاب صلاة الاستسقاء، باب في ريح الصبا والدبور، رقم (٩٠٠)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بيانُ مِنَّة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى على هذه الأُمَّة أَوَّلها وآخِرها بهذا الدِّفاع من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى عن المُؤمِنين، ووجهُه: أن الله تعالى أَمَرنا بأن نَذكُر هذه النِّعْمةَ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن نِعمة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى إمَّا إيجاب المَحبوب، أو دَفْع مَكروه، والذي في الآية من باب دَفْع المَكروه.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بَيان شِدَّة عَداوة الكُفَّار للمُؤمِنين؛ لأنَّهُم تَحزَّبُوا ضِدَّهم، فقد تَكون هذه القبائِلُ ليس بينهَا رابِطةٌ في حَدِّ ذاتها، ولكن من أجل أنها اتَّفقت في عَداوة الإسلام اجتَمَعت.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن اليَهود لا عَهْدَ لهم، وأنهم أهلُ غَدرٍ وخِيانةٍ، ووجهُه: نقضُ بني قُرَيْظةَ للعهد الذي بينهم وبين الرسول ﷺ، وكل القبائل الثلاث من اليَهود كلها عاهَدَتِ الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حين قدِم المدينة، ومع ذلك فإنهم نَقَضوا العهد: بنو قَيْنقاع وبنو النَّضير وبنو قُرَيْظةَ، كلُّهم نقَضوا العَهْد؛ لأن اليَهود من أشَدِّ الناس غَدْرًا وكذِبًا.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: بيانُ قُدْرة الله عَزَّوَجَلَّ من قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: ما أَشار إليه بعض أَهْل العِلْم من أن الريح إذا جاءَت مُفرَدةً، فإنها تكون في العذاب، وإذا جاءَت مَجموعةً فإنها تكونُ في الرحمة، إلَّا أنَّها قد تَأتِي مُفرَدةً في الرحمة، إذا وُصِفت بما يَدُلُّ على ذلك؛ مثل قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا﴾ [يونس:٢٢].

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن المَلائِكة جُنُود لله عَزَّوَجَلَّ؛ لقوله: ﴿وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾.

فإن قُلْت: هنا ما أُضيفت إلى الله عَزَّوَجَلَّ فكيف تَقول: إنهم جُنود الله تعالى؟ لأنه يَقول: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾، فأَضاف إرسالَهم إليه، وقد قال تعالى في آيات أُخرى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدّثر:٣١]، فهلِ الرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ مُحْتاج إلى جُنودٍ؟

فالجَوابُ: لا، ولا يُمكِن أن يَكون محتاجًا، لكن سُمُّوا جُنودًا مع أنه لا حاجةَ به إليهم؛ لأنهم يَقومون بأَمْره، ويُدافِعون عن أوليائه، فهُمْ بمَنْزِلة الجُنود، وإلَّا فالله عَزَّوَجَلَّ لا يَحتاج إليهم ولا إلى غيرهم فإنه غَنيٌّ عن كلِّ أحَد.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ الأَصْل أنَّ الناس لا يَرَوْن الملائِكة؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَّمْ تَرَوْهَا﴾، وهو كذلك، لكن قد يَرَوْنهم مِثْلما رأى الناس جِبْريلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حين جاء إلى النبيِّ ﷺ يَسأَله عن الإسلامِ والإيمانِ والإحسانِ والساعةِ وأَماراتها.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: عُمُوم عِلْم الله عَزَّوَجَلَّ في كلِّ ما نَعمَل؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾، ويَشمَل ذلك عمَل القَلْب بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ [ق:١٦]، وهو عمَل قَلْبٍ، أمَّا عمَل الجَوارح فظاهِرٌ.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: الترغيب والترهيب؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب:٩]، فإن هذا فيه بالنِّسبة للعمَل الصالِح ترغيب، وأن هذا العمَلَ لم يُهدَر؛ لأنه معلومٌ عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولا بُدَّ أن يُجازِيَ عليه، وترهيبٌ لكل مَن عمِل سَيِّئةً، وتهديدٌ لهم، فعِندما تُحدِّثك نَفْسُك يومًا من الأيام بأن تَعمَل سَيِّئةً؛ لأنه لا يَطَّلِع عليها أحَدٌ من الخَلْق، فاذْكُر أن الله تعالى يَطَّلِع عليك، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا﴾؛ ولهذا جاء في الحديث عن النبيِّ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «أَفْضَلُ الْإِيمَانِ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللهَ مَعَكَ حَيْثُمَا كُنْتَ»(١)، ليس معك في مَكانك، ولكنه معَك وهو على عَرْشه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، مُحيط بك.

• ● ❁ ● •

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط رقم (٨٧٩٦)، واللالكائي في اعتقاد أهل السنة رقم (١٦٨٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧٢٧)، من حديث عبادة ين الصامت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ.

الآيــة (١٠)

• ● ● •

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ [الأحزاب:١٠].

• ● ● •

قـال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ [مِن أَعْـلى الوادِي وأَسفَلِه من المَشرِق والمَغرِب]، جاؤُوا من المَشْرِق ومن المَغرِب، فجـاءت قُرَيْش من الناحية الشَّمالية الشرقية، وجاءت غَطَفانُ ويَهودُ بني قُرَيْظَةَ من الناحية الجَنوبية الغربية، فجاؤُوا من فوق المُسلِمين ومن أسفَلَ منهم.

وكما قُلْت قبلَ قليل: إن الخَنْـدق من الحَرَّة الشرقية إلى الحَرَّة الغربيـة، كل الشَّمال الآنَ محفوظ بالخَنْـدق، هم جاؤُوا من فَوْقهم ومن أَسفَـلَ منهم؛ ليَكونوا كفَكَّيِ الأسَد حتى يُطبِـقوا على المدينة، هذا تَخطيطهم، ولكن الله تعالى بما يَعمَلون مُحيط.

يَقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ زاغَتِ الأبصار، زَاغ الشيء بمَعنَى: مال، ومنه: زاغَتِ الشمس إذا مالَت بالزوال، ومنه قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم:١٧] أي: ما مال، والأبصـار (أل) هنا للعَهْد الذِّهنِيِّ، يَعنِي: زاغَتِ الأبصار منكم، يَقول المُفَـسِّر رَحِمَهُٱللَّهُ في تَفسيرها: [مالت عن كُلِّ شَيءٍ إلى عدوها من كل جانِب]، يَعـنِي: أن الأبصار ما صار لهـا نظَر إلَّا هذا العـدو، وكل شَيءٍ

غفَلَت عنه، النظَر إليه إلَّا هذا العدو، وقد فسَّرها بعض المُفسِّرين: زاغَتْ بمَعنَى: مالت عن استِقْرارها، أي: شَخَصت من قوَّة الرُّعْب.

صار الإنسـان لا يَنظُر إلَّا إلى هذا الذي أمامه يُراقِبه ويَخشَى منه، وهذا شيء مُشاهَـد في طبيعة البشَر أن الإنسان إذا خاف من شيء يَتَّجِه بصَرُه إلى أيِّ شَيْء إلى هذا الشيءِ إلى ناحيـته، وتَجِـد البصَر -كما يَقـول العامَّة:- لا يُغـضِي أبَدًا، مُنفَـتِح يَخشَى من مُباغَتَه، فالأَبصار زاغَتْ ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ القُلوب، يَعنِي: منكم قُلوبكم بلَغَتِ الحناجِر جَمْع حَنْجرة، وهى مُنتَهى الحُلقوم.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِن شِـدَّة الخَوْف] تعليـل لقَوْله عَزَّوَجَلَّ: ﴿زَاغَتِ﴾ وبلَغَت ﴿ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [جَمْع حَنْـجرة، وهي مُنتَهى الحُلقوم]، وهل حقيـقةً بلَغَتِ القُلوب الحنـاجِر؟ قال بعضُهم: إنها حقيقة، وأنَّ الخائِف إذا اشتَدَّ خوفُه انتَفَخَت رِئَته فإذا انتَـفَخَت ضَيَّقت على القَلْب وخرَج ارتَفَع؛ ولهذا يُقـال في الجَبان أو في الخـائِف: انتَفَخ سَحره. يَعنِي: رِئَته، والأصل حَمْل الشيء على حقيـقته، ويَجوز أن يَكون هذا تصويرًا عن شِـدَّة الرُّعْب، يَعنِي: حتى إنها من شِـدَّة الرُّعْب زالتِ القُلوب عـن أماكنها، فلا تَتَنفَّس طبيعيًّا، ولا تَنبُض طبيعيًّا؛ لأنها زالَت عن أماكنها.

ثُم قال: [﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ المُختَلِفةَ بالنَّصْر واليَأْس] هذا الاختِلافُ ﴿وَتَظُنُّونَ﴾ أي: أَنْتم بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿ٱلظُّنُونَا۠﴾ الأَلِف للإِطْلاق، والظُّنون هذه جمع ظَنٍّ، والمَصدر لا يُجْمَع إلَّا إذا كان أنواعًا، أمَّا إذا كان نَوعًا واحِدًا لا يُمْكِن جمعه وإن كثُر، أمَّا إذا كان أنواعًا صحَّ جَمْعه، فهنا جُمِعت (ظن) وهو مَصدر؛ لتَنوُّعه، يَعنِي: الظُّنـون تَدور في أذهانهم أو في أفكارهم مُختَـلِفةً طولًا وعَرْضًا، يَعنِي: هـل سيَزول هؤلاء الأحزابُ؟ هل سَيَقْضون علينا؟ هل سنَنْتَصِر؟

ومعروف في مَكان الخـوف ماذا يَحدُث للإنسان من الظُّنون والتَّفكيرات القريبة والبَعيدة.

فمِنهم مَن أَيِسَ وقال: ما بَعْد هذا شيءٌ. ومنهم مَن ظَنَّ النَّصْر، مع أن المَقام حالِك جدًّا؛ لأنه يُؤمِن بأنَّ النَّصْر مع الصَّبْر، وأن الفرَج مع الكَرْب، وأن مع العُسْر يُسْرًا، ويقول: نَحن على حَقٍّ، فإِنْ كنَّا على حقٍّ وصَبَرْنا فإنَّ النَّصْر مَضمونٌ؛ فلذلك يَظُنُّ النَّصْر.

ومنهم أصحاب المادَّة أو الظواهِر الحِسِّيَّة، فيَظُنُّون الهلاك ويَيْأسون من النَّصْر؛ لأنه ليس لديهم رَصيدٌ من الإيمان يَعتَـمِدون عليه، ولا شكَّ أن في الذين خرَجـوا لهذا أن فيهم مُنَافِقينَ كما يُذكَر في القِصَّة.

المُهِمُّ: أنَّ الله تعالى قال: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾، وأَطلَق ذلك وأَتَى به بالجَمْع؛ لأَجْـل أنَّ يَذهَب الإنسان في تَصوُّر هـذا الظَّنِّ كلَّ مَذهَب، ظُنـون كثيرةٌ مُختَلِفـة مُتضارِبة؛ ولهذا جاءَتِ الظُّنون بالجَمْع.

قوله تعالى: ﴿ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ﴾ وإن وقَفْتَ قُلتَ: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾، والثالثة: (وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَ هُنَالِكَ) يَعنِي: وَصْلًا ووَقفًا، ومثل ذلك قوله عَزَّوَجَلَّ في سورة الأحزاب: ﴿أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ [الأحزاب:٦٦]، ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأحزاب:٦٧]، فيها هذه القِراءاتُ الثلاثة.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنه يَنبَغِي لِمَن ذُكِّر أن يُذكَر له وجهُ ما ذُكِّر به، الإجمال ليس كالتَّفْصيل. إِذَنْ نَأخُذ من هذا فائِدة: أنه يَنبَغي للمُذكِّر أن يُفصِّل فيما ذكَّر به؛ ليَكون ذلك أبلغَ في تَذكُّر المُخاطَب.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن الحالَ الَّتي وقَع في المسلمين حالٌ عظيمةٌ رهيبةٌ، وأنَّهم لا يَستَطيعون أن يَدفَعوا بأنفسهم، وبهذا يَتبيَّن وجه نِعْمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عليهم؛ لأن الأعداءَ مُحيطونَ بهم؛ ولأن أبْصارهم زَاغت وقُلُوبهم بَلَغتِ الحَناجِر، والأوهام والأفكار التي عِنْدهم قد تكون دوَّختْهم من هنا ومن هناك؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ المَخاوِف تُرْبِك الإنسان حتى في تَصوُّراته؛ لقوله: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾، فإن الإنسانَ المُستَقِرَّ لا تكون عنده ظُنونٌ مُتباينة مُتعارِضة؛ لأنه مُستَقِرٌّ، لكن عندما يَحصُل الفزَع، وعندما يَحصُل الخوف تَأتِي الظُّنون من كل وجهٍ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن خَوف الإنسانِ الخوفَ الطَّبيعيَّ منَ المخلوقِ لا يُعدُّ شِرْكًا، تُؤخَذ من قوله تعالى: ﴿زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾؛ لأن هذا من شِدَّة الخَوْف، وهو خوفٌ من مَخلوقٍ، لكن الباعِث عليه الأمرُ الطبيعيُّ، وإذا كان الأمر طَبيعيًّا فإنه لا يُؤخَذ به الإنسان؛ ولهذا وُصِفَ به أُولو العَزْم من الرُّسُل، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص:٢١]، ولمَّا كلَّفه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالرِّسالة قال: ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ [القصص:٣٣]، فهذا خَوْف طبيعيٌّ لا يُلام عليه الإنسان.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ على ما هُم علَيْه من المَرْتَبة العالية قد تَعتَرِضهم الظُّنون بسبب الضِّيق؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾، وهو يُخاطِب المُؤمِنين: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾، فهُمْ لِشِدَّة ضِيق قد تَعتَريهم مثلُ هذه الوَساوِسِ، لكنها في الحقيقة سَحابة صَيْف عندما يَرجِع الإنسان إلى وَعْد الله عَزَّوَجَلَّ يَزول عنه هذا كلُّه ويَتبدَّد؛ ولهذا سيأتينا في سياق الآيات قوله عَزَّوَجَلَّ:

﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ [الأحزاب:٢٢] سُبحانَ اللهِ! يَرَوْن هـذه الأحزابَ العَظيمةَ، ثُم يُطَمْئِنون أنفسهم بأن هذا ما وعَد الله ورسولُه، وصَدَق اللهُ ورسولُه؛ لأن النَّصْر مع الصَّبْر، والفرَج مع الكَرْب، فهُـمْ لَمَّا رأَوْا هذه الأحزابَ العَظيمة، وما يَترَتَّب عليـها على وُجودهم من الشِّدَّة والضِّيق عرَفوا أن النَّصْر قريب، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة:٢١٤] فانظُرْ إلى نَصْر الله تعالى فإنه قريب في مثل هذه الحالِ، قال تعالى: ﴿مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ﴾ فإذا طبَّقتَ هذه على حالِ المُؤمِنين في وقت الأحزاب وجَدْتَ أنها تَنطَبِق؛ ثُم قال تعالى في آخِر الآية: ﴿إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ إِذَنْ: صَدَق عليهم أن هذا ما وعَدَ الله ورسوله، وصَدَق الله ورسوله بقُرْب النَّصْر.

والحاصِلُ: أن مِثلَ هذه الأمورِ التي تَأتِي عارِضة لا تُؤثِّر على مَرتَبةِ الإنسان وعلى حاله؛ لأنها تَزولُ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن الإنسـان إذا غَلَبته الحـالُ حتى ورَدَتْ عليه مثـلُ هذه الظُّنونِ، فإنه لا يَحُطُّ من مَرتَبته، لكن -كما قُلْت قبلَ قليل- إذا استَقَرَّتْ به الحال، وهدَأَت هذه الظُّنونُ عرَف الحَقَّ.

• • ۞ • •

الآيـة (١١)

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب:١١].

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ (هُنالِك) هذه اسمُ إشارة تَصلُح للزَّمان وللمَكان، ولكن الأصل أنَّها للمَكان، وتَأتِي للزَّمان، قال الله تعـالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [غافر:٨٥]، أي: في ذلك الزمَّنِ خَسِر الكافِرون، (فهُنالك) (هُنَا) صالِحةٌ للزمان وللمَكان، واللام للبُعْد، والكاف للخِطاب.

قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ اخْتُبِروا، والذي ابْتلاهم هو الله عَزَّوَجَلَّ اختَبَرهم بما حصَل لهم من هذا الضِّيقِ العَظيمِ، الذي لا يُمْكِن أن نُعبِّرَ عنه بالنُّطْق، ولا يُمكِن أن نُحِسَّ به إلَّا مَن وَقَع فيـه، نحن هنا نَعـجِز عن تَصَوُّر تلك الحالِ، ونَعجِز عن تَصويرِها، ولكن الذي وقَع فيها يَدرِي عنها.

يَقول المفسر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ اختُبِروا؛ لِيَتبيَّن المُخلِص من غيرِه، ﴿وَزُلْزِلُوا۟﴾ حُرِّكوا زلزالًا شديدًا من شِدَّة الفزَع]، ابتِلاءٌ عظيمٌ وزِلزالٌ عظيمٌ ابتُـلوا به؛ هذا الزِّلزالُ الذي أَصابَهم ليـس زِلزالَ الأرض، لكِنْ زلزالُ النُّفـوسِ، فالنُّفـوس تَزَلْزَلت، وحصَل عليها شيءٌ عظيم؛ لأنه اجتَمَع في هذه الغَزوةِ اجتِماعُ الأَحزابُ من العَرَب ونَقْض بني قُرَيْظَةَ، والجُوعُ والتَّعَبُ والإعياءُ والبَرْدُ؛ خمسةُ

أشياءَ واحِد منها يَكفِي في زَلزَلة النَّفْس، فكيف إذا اجتَمَعت! أمورٌ صعبةٌ؛ فقد كان الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في ذلك المكانِ؛ كان يَعْصِب على بَطْنه الحَجَر من الجُوع[1]، كيف تَتصوَّر الحال، لا يُمكِن الإنسان يُعبِّر عنها في الواقِع؛ ولهذا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا﴾ قوِيًّا عظيمًا زَلْزَل نُفوسَهم؛ لتُجمِّع هذه الابتِلاءات عليهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

ولهذا بزَغَ النِّفاق، وتكلَّم المُنافِقون، ورأَوْا أنَّ في هذا فُرْصةً للكلام؛ لأن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَعِدُهم النَّصْر حتى في تِلك الغزوةِ يَعِدُهم النَّصْر، وقِصَّة الصَّخْرة التي عجَزوا عنها وتكسَّرت الفُؤوس وتَعِبوا حتى جاؤُوا إلى الرسول ﷺ وقالوا: «يَا رَسُولَ اللهِ أَنْتَ خَطَطْتَ لَنَا»[2]؛ لأن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ خطَّ لهم مَكان الخَنْدق، خَطَّ لهم بقَدَمه من حِكْمة الله عَزَّوَجَلَّ أنه صار الخَطُّ على هذه الصَّخْرة التي عجَزوا عنها، لكن لشِدَّة امتِثالهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ما قالوا: نَعطِف يَمينًا أو يَسارًا، لكنهم جاؤُوا إلى النبيِّ ﷺ وأخبَروه، فنزَل من عَريشه الذي كان قد بُنِيَ له على تَلٍّ هنالك يُشرِف على القَوْم نزَل وأخَذ المِعوَل، فضرَبها ضَرْبةً.

يَقول ابنُ إسحاقَ رَحِمَهُ اللَّهُ: لَمَّا ضَرَبها الضَّرْبة أَضاءَت إضاءةً عظيمةً كأنها نحن في نهار واندَكَّ منها ما اندكَّ، وكبَّر عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فكانت في الليل، ثُم ضرَبها الثانيةَ، فأَضاءَت، وكبَّر تكبيرةَ الفَتْح، تَكبيرةً عظيمةً، ثُمَّ ضرَبها الثالِثةَ وكبَّر، وقالوا: يا رسول الله، لماذا صَنَعْت هذا؟ قال: «رأَيْت في التَّكْبيرةِ الأُولَى قُصورَ الرُّوم، وَفِي

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة الخندق، رقم (٤١٠١)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٤١٨)، من حديث عمرو بن عوف المزني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بلفظ: فإنا لا نحب أن نجاوز خطك.

الثَّانِية قُصورَ كِسْرَى، وَفِي الثَّالِثَة قُصورَ صَنْعَاءِ اليَمَنِ، وَأَنَّهَا سَتُفْتَحُ»[1] وهذه بِشارة للمُؤمِنين وتَقوِية.

لكنَّ المُنافِقين -والعِياذُ باللهِ- الذين لا يَثِقون بوَعْد الله ورَسوله، قالوا: كيف هذا، الإنسان الآنَ لا يَستَطيع أن يَذهَب إلى الغائِط؛ ليَقضِيَ حاجته؟! فكَيْف نَملِك قُصورَ كِسْرى وقَيْصر وتُبَّعٍ؟! هذا ليس صحيحًا!!

ولهذا يَقول رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ ضَعْف اعتِقاد ﴿مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ بالنَّصر ﴿إِلَّا غُرُورًا﴾].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: تصويرُ الحال التي كان عليها المُؤمِنون في تلكَ اللَّحظةِ، وهو الابتِلاء العَظيم؛ هذا ابتِلاء بالنِّسبة لما حصَل من الأحزاب.

وبالنِّسبة لنُفوسهم هل هي مُستَقِرَّة؟

الجوابُ: لا، قال تعالى: ﴿وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾، فَاجتَمَع عليهم الابتِلاءُ الظَّاهريُّ الذي يُشاهَد بالعَيان والابتِلاء الباطِني الذي هو زَلزلة النُّفوس، وعدَم استِقْرارها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بَيانُ القاعِدة العامَّة؛ وهو أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَذكُر النِّعَم مُضافةً إليه، ويَذكُر النِّقَم غالِبًا في البِناء للمَجهول، ومن هنا قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ﴾، ﴿وَزُلْزِلُوا﴾، فمِن أين وقَع؟ وممَّن وقَع ذلك؟

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٣٠٣)، والنسائي في السنن الكبرى، رقم (٨٨٠٧)، من حديث البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الجوابُ: من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لكنه في مَقام الخَيْر يُضِيف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الشيء إلى نَفْسه تمَدُّحًا، وفي مَقام خِلاف ذلك تَأتي الأفعال مَبنيَّةً للمَجهول، وانظُرْ إلى قول الجِنِّ: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن:١٠]، ففي الشَّرِّ قالوا: ﴿أُرِيدَ﴾، وفي الرَّشَد أَضافوه إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأن الشَّرَّ لا يُضَاف إلى الله تعالى كما قال النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»(١)، فلا يَجوز للإنسان أن يُضيف الشَّرَّ إلى الله تعالى أبدًا.

فالشَّرُّ إنما يَكون في المَفْعولات لا في الفِعْل؛ لأن مَفْعولاتِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لها جِهتان:

١- جِهة باعتِبارها فِعْلًا لله تعالى.

٢- وجِهة باعتِبار ذاتِها.

أمَّا باعتِبار ذاتِها، أي: ذات المَفعولات، ففيها خيرٌ وشرٌّ بذاتها ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفَلَق:١-٢].

وأمَّا باعتِبارها فِعْلًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فليس فيها شرٌّ؛ لأن الله تعالى ما قدَّرها إلَّا لحِكْمةٍ.

ثُمَّ لو تَأمَّلتَ الأشياءَ التي هي شَرٌّ لوجَدْت أنها تَتضمَّن خيرًا ولو كانت شَرًّا؛ فالفَساد في البَرِّ والبَحْر من الجَدْب والفَقْر وغير ذلك شَرٌّ، لكِن مآلُهُ الخيرُ؛ قال تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران:٧٢].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم (٧٧١)، من حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

مَسألَة: صَحيح أن الآنَ ليس مثل السابِق، وأن الفَقْر لباسٌ طَيِّب في الحقيقة، فالحاصِلُ: أن الفقر قد يَكون فيه خير، فإنَّ من عِباد الله تعالى مَن لو أَغْناه الله تعالى لأَفسَده الغِنَى؛ لكن مع ذلك لا تيأَسْ، فكَمْ من قَلْب لانَ للحَقِّ وهو من أَفسَقِ عِباد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ! هذا شيء، الذي يَجعَلنا بالحقيقة نَستَحسِر هو اليَأسُ، ويَعقوبُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال لبَنِيه: ﴿ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾ [يوسف:٨٧]، مع أنه في تِلكَ الساعةِ يَظُنُّ أنهم لن يَجدوه، لكن مع هذا لَقُوَّة رَجائه بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وأن الأمور لا تَقيسها بما تُشاهِد، هناك شَيءٌ وراءَ المادَّة، هناك شَيْء وراء المُشَاهَدة وما تَسمَع، وهو إرادة الله عَزَّوَجَلَّ وقُدْرته، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢-٣] من بابٍ ما كانَ يَظُنُّ أن يَأتيه الرِّزْق منه، فهذه الوقائِعُ قد تُعطِي القَلْب يَأسًا، نَسأَل الله تعالى أن يرزُقنا وإيَّاكم اليَقينَ.

• • ❁ • •

الآيـة (١٢)

• ● ◦ ● •

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [الأحزاب:١٢].

• ● ◦ ● •

يَقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ ضَعْف اعتِقاد ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ بالنَّصْر ﴿إِلَّا غُرُورًا﴾] أعوذُ باللهِ تعالى، كيف يَنطِق البشَر بمِثْل هذا الكلامِ؟! لكـن -والعِياذُ باللهِ- ما دامَت قُلُوبهم مُنطَوِيةً على الكُفْـر أو الشَّكِّ؛ لأن الذين في قُلوبهم مرَضٌ عندهم شَـكٌّ ضَعْفُ اعتِقاد، والمُنافِقـون عندهم كُفْر قالوا: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾، سُبحان الله العَظيمِ! اللهُ ورسولُه يَعِدكم غُرورًا ويَكذِب عليكم ويَخدَعُكم، هذا لا يُمكِن، بل ما وعَـدَ اللهُ ورسولُه إلَّا حَقًّا، ولكن لا يُمكِن أن تَجْنِيَ العَسَل إلَّا بعد ذَوْق شَوْك النَّحْل، لا بُدَّ من تعَب، ولا بُدَّ من مُثابَرةٍ؛ لأنه لولا هذا ما عُرِف الصادِقُ من الكاذِب ولا عُرِف المُؤمِن من الكافِر، فلا بُدَّ من الابتِلاء.

وبالمُناسَبة فطلَبَةُ العِلْم قد يُوَاجِهون بعضَ المَصاعِبِ في الدَّعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ قـد يُواجِهون ذلك حتى في أَنفُسهـم، ولكن عليهم أن يَصبِروا، وأن يَتحـمَّلوا في الدَّعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنهم ليس يَدْعون إلى سَبيل فُلان وفُلان من سُبُل الطاغوت، لكن يَدْعون إلى سبيل الله تعالى التي تُوصِلهم وتُوصِل عِباد الله تعالى إلى الله عَزَّوَجَلَّ،

فعَلَيْهم أن يَصبِروا، ليس بمُجرَّد أن يُقال لهم: أنت مطوّع، أنت مُتَشدِّد، أنت فيك كذا وكذا. يَنحَسِر ويَدَع، هذا ليس بصحيح، لا بُدَّ أن يَصبِر ويُصابِر ويَعمَل بالحِكْمة، وليس بالعُنْف، ولكل شيء من الحالات مَنزِلته.

والحاصِلُ: أن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قد وعَدَ أصحابه بالنَّصْر، فآمَن بذلك المُؤمِنون، وتكلَّم المُنافِقون والذين في قُلوبهم مَرَض بهذا الكلام، ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ وكذَبوا، واللهِ ما وعَدَهم اللهُ ورسولُه إلَّا الحقَّ والصِّدْق.

وقد حصَل -والحَمْد لله تعالى- فإن هذه الأُمَّة -ولله الحَمدُ- بما خلَّفه لها رسولُه ﷺ من العِلْم والهُدَى وبما قام به خُلَفاؤه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فتَحوا قُصور قَيْصَر وكِسرى واليَمَن، وأُنفِقت كُنوزُ كِسرى وقَيْصَرَ في سبيل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وجِيء بتاج كِسرى من المدائن إلى المدينة في خِلافة عُمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1] فتَحقَّق ما وعَد اللهُ ورسولُه، وإن كان النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تُوُفِّيَ قبل أن يَحصُل ذلك، لكنه في الحقيقة هو الذي فتَح هذا؛ لأن الصحابة ما فتَحوها إلَّا بشريعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فصار ذلك نَصرًا للنبيِّ ﷺ؛ لأن النَّصْر -كما نَقول كثيرًا- ليس انتِصار الإنسان بشَخْصه، بلِ انتِصاره بما جاء به ودعا إليه، ولو كان على أَيْدي أَتْباعه، ولو كان ذلك من بعد موته، والله أَعلَمُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بَيانُ أن المُنافِقين يَنْتهِزون الفُرَص، ووجهُه أنهم في هذه الفُرصةِ وهذه الحالِ الضَّيِّقة الحالِكة، بدَؤُوا نشاطَهم وانتَهَزوا الفُرصةَ وقالوا: أين الوعدُ؟

(١) انظر: البداية والنهاية (١٠/ ١٨).

ففيه دليل على أن المُنافِق على اسمه مُنافِق، إن لم يَجِد فُرْصةً سكَت وصانَع وداهَن، وإن وجَد فُرصةً نطَق وتَكلَّم، وهذا دأْبُهم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ﴾ [البقرة:١٤].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: الحذَرُ من المُنافِقينَ؛ لأنهم لا يَألون المُؤمِنين خَبالًا، كلَّما وجَدوا مَطعَنًا أو مَكانًا للطَّعْن هجَموا، نَسأَل الله تعالى أن يُعيذَنا منهم.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن القُلوب تَنقَسِم إلى صحيحةٍ ومَريضةٍ؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، وكذلك الأبدانُ تَنقَسِم إلى مَريضةٍ وصَحيحةٍ، وانظُرْ حال الناس اليومَ، هل هُمْ أشَدُّ على مُداواة القُلوب من مُداواة الأبدانِ أو على مُداواة الأبدان من مُداواة القُلوب؟

الجَوابُ: الأخير، إلَّا ما شاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فأكثَرُ الناس اليومَ حَريصون على مُداواة الأبدان التي مَآلها أن تَكون جيفةً يَأكُلها الدودُ، دون القلوب التي عليها مَدار السَّعادة في الدُّنيا والآخِرة، فتَجِد الإنسان يَمْرَض قلبُه، ورُبَّما يَصِل إلى درجة الاحتِضار، ولكنه لا يُبالي به، فإذا أُصِيب بشَوْكة في بدَنه هُرِع إلى الأطبَّاء، ولو حصَل في ذلك مَشقَّةٌ وتعَبٌ، ولكن العاقِل المُؤمِن هو الذي يَكون دائِمًا في نظَرٍ إلى قَلْبه ومرَضه وصِحَّته وسلامته وعطَبِه، هذا هو المُؤمِن حقًّا، ولا شكَّ أن القَلْب إذا صحَّ صحَّ البدَن، ولستُ أقولُ: صحَّ البدَن. يَعنِي: أن المُؤمِن لا يَمْرض، لكنَّ المُؤمِن لو مرِض يَرى أن في هذا المَرضِ مَنفَعةً له ومَصلَحةً، وبهذا يَكون مرَض بدَنه صِحَّةً لقَلْبه؛ لما يَحصُل عنده من الصَّبْر، والرِّضا بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وانتِظار الفَرَج، وفِعْل الأسباب التي جعَلها الله أسبابًا، فيَعتَمِد على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بما جعَله سببًا.

فالحاصِل: أن مَرَض القَلْب أخطَرُ من مرَضِ البدَن بكثيرٍ، والعاقل يَعتَني بهذا عِنايةً أشدَّ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن الله تعالى ورسوله قد وعَـد المؤمنين بالنَّصْر؛ لقوله تعالى: ﴿مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾، والوَعْد مَذكور في القُرآن والسُّنَّة للمُؤمنين؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾ [غافر:٥١]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧]، انظُرِ الوَعْد العظيم ﴿حَقًّا عَلَيْنَا﴾ مُؤكَّدًا ﴿نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، والمُلتزِم بهذا هو الرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ الذي بيده مَلكوت السَّموات والأرض، لكن مع الأسف الشديد كثيرٌ من المُؤمنين لا يَلحَظون هذه الأشياءَ، مع أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تكفَّل بها، وفي السُّنَّة قال النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ»[1]، ونَصْر النبيِّ ﷺ ليس نَصْرًا لذاته، ولكنه نَصرٌ لما جاء به، فيَكون النَّصْر له ولأُمَّته من بعده أيضًا.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: بَيانُ أن المُنافِق نظرُهُ قاصِرٌ، وكذلك مَن في قَلْبه مرَضٌ نظَرهُ قاصِرٌ؛ وجهه أنه ما نظَروا إلَّا في الساعة الحاضِرة، ما فكَّروا في العاقِبة، ومثل هذه الأُمورِ التي تَرِد أمورٌ عوارضُ، لكن العاقِبة للمُتَّقين، فالأمور العَوارِضُ لا يَبنِي عليها أحَـد إلَّا ضعيف البصيرة، حتى في أمـور الدُّنيا أيضًا لا تَنـظُر إلى الأمـور العارِضة، فإنه كما قيـل: دوام الحال من المُحـال، ولكن ما دُمْت واثِقًا بوَعْـد الله عَزَّوَجَلَّ فَثِق أنَّ هذا الوَعْـدَ سوف يَتحقَّق، لكن تَعتَريه عوارِضُ؛ لِحكْمة من حِكَـم الله عَزَّوَجَلَّ يَبتَليه، ثُمَّ تكون العاقِبة للمُتَّقين.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التيمم، رقم (٣٣٥)، أخرجه مسلم: كتاب المساجد، باب جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، رقم (٥٢١)، من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الآيــة (١٣)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ [الأحزاب:١٣].

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَت ﴾ هذه مَعطوفة على ما سبَق، ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ ﴾ يَعنِي: واذكُرْ هذه القَوْلَةَ المُنكَرة ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ ﴾ الطائِفة: الجامِعة من الناس ﴿مِّنْهُمْ ﴾ الضمير يَعود على المُنافِقين، كما قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ ﴾ [أَيْ: مِن المُنافِقين] ﴿يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ﴾ يَثرِب يقول: [هي أرض المدينة]، وقيل: هي المدينة نَفسُها، فأهل العِلْم بالتاريخ اختَلَفوا: هل يَثرِبُ اسمٌ للمَكان والمَنطِقة التي فيها المدينة، أو أن يَثْربَ هي نفس المدينة؟ وظاهِر الحديث أن يَثرِب هي المدينة.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ﴾ هي أرضُ المدينة، ولم تُصرَف للعَلَمية، وَوَزْن الفِعْل]، يَعنِي: أنها مَمنوعة من الصَّرْف لهاتين العِلَّتين؛ العَلَمية، ووزن الفِعْل، ويَدُلُّنا على أَنَّها مَمنوعة من الصَّرْف أنها جُرَّت بالفتحة؛ لأنها مُضافٌ إليه، وحقُّ المُضاف إليه أن يَكون مجرورًا، وهنا الكَلِمة مَفتوحة؛ لأنها تُجَرُّ بالفتحة كسائِر الأَسْماء التي لا تَنْصرِف.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [للعلَمية ووَزْن الفِعْل]؛ لأن يَثْرِبَ التي هي على وَزْن يَفْعِل، الذي هو فِعْل، ولها عِلَّة أخْرَى غير وزن الفِعْل، وهي التَّأنيث، العلَمية والتَّأْنيث؛ لأنها اسمٌ لبُقعة، وكأن المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: [العلَمية ووَزْن الفِعْل]؛ ليُشير أن هذه الكلِمةَ يَثْرِب مَأخوذةٌ من التَّثْرِيب، وهو اللَّوْم والتوبيخ، وما أَشْبَه ذلك من الكلِمات التي فيها عَتَب.

ولهذا قال النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «أُمِرْتُ بِقَرْيَةٍ تَأْكُلُ الْقُرَى، يَقُولُونَ: يَثْرِبُ؛ وَهِيَ الْمَدِينَةُ»[1]، وهذا دليل على أن الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كَرِه أن تُسمَّى يَثْرِبَ، وهو أحَد القولين في المَسأَلة، وأمَّا الحديث الذي رِوِيَ: «مَنْ قَالَ لِلْمَدِينَةِ: يَثْرِبُ. فَلْيَسْتَغْفِرِ اللهَ»[2]، فَهو ضعيف، لكن يَكْفِي عن هذا الحديثِ في الصحيحين: «يَقُولُونَ: يَثْرِبُ؛ وَهِيَ الْمَدِينَةُ، تَنْفِي النَّاسَ كَمَا يَنْفِي الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ»[3].

الحاصِلُ: أن قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ﴾ كأن المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ اختار أن يَقول: لم يُؤخَذ من الفِعْل لهذا السبَبِ.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ بضَمِّ الميم وفَتْحها أي: لا إقامةَ ولا مكانَ]، ﴿مُقَامَ﴾ [بضَمِّ الميم وفتحها]، ومعنى كلام المُفَسِّر: أي: فيها قِراءتان: «لَا مَقَامَ»

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب فضائل المدينة، باب فضل المدينة، رقم (١٨٧١)، ومسلم: كتاب الحج، باب المدينة تنفي شرارها، رقم (١٣٨٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٢٨٥)، وأبو يعلى في المسند رقم (١٦٨٨)، من حديث البراء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ٣٠٠): رجاله ثقات، وأخرجه ابن الجوزي في الموضوعات (٢/ ٢٢٠) وقال: لا يصح.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب فضائل المدينة، باب فضل المدينة، رقم (١٨٧١)، ومسلم: كتاب الحج، باب المدينة تنفي شرارها، رقم (١٣٨٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

و﴿لَا مُقَامَ﴾ قال: [لا إِقامةَ ولا مَكانةَ]: [لا إقامةَ] تفسيرٌ للضَّمِّ: مُقام؛ لأنه من الرُّباعي، والرباعي يُقـال في مَصدره المِيمِيِّ: مُقَام، ومَقَـام: لا مَكانة على أنَّها اسمُ مَكَان، واسم مَكان بفَتْح الميم، والمعنى: لا مَوْضِع للإقامة؛ على كونها اسم مَكان، أو لا إقامةَ لكم، ويَقولون: لا إقامةَ لكم؛ لأنهم يُرِيدون الفِرَار، ولا يُرِيدون البقاء مع النبيِّ ﷺ في القِتال، إذ إنهم مُنافِقون، والمُنافِق ليس صَبورًا على القِتال، بل لا يُريد القِتال، ولو ظهَر الأمرُ في يَدِه لقاتَل المُسلِمين.

وفي قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ﴾ إشارة واضِحة إلى القَوْميَّةِ والعَصَبيَّة؛ لأنه دعاهم باسْمِ الوطَن ما قال: يا إِخْوَتنا. ولا قال: يا أيُّها المسلِمون! إنها قال: ﴿يَـٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ﴾؛ لأنه ليس عنده دِينٌ يُقاتِل من أَجْله، وإنما هو قوميٌّ يُريد الحَمِيَّة فقط.

وقوله تعالى: ﴿لَا مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْ﴾ يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [إلى مَنازِلكم من المدينة وكانوا خرَجوا مع النبيِّ ﷺ إلى سَلْعٍ جَبلٍ خارِج المَدينة للقِتال].

وقوله تعالى: ﴿لَا مُقَامَ لَكُمۡ﴾ حسب ما يُعرَف في اللغة العربية أَنَّه نَفْيٌ عامٌّ؛ لأن (لا) النافية للجِنْس تُفيد العُموم، يَعنِي: ليس هناك أيُّ مُقام على أيِّ حال من الأحوال فارجِعـوا، ومثل هذا التعـبير إذا قيل لقومٍ ليس في قُلوبهم إيمانٌ لا يُبـقِي منهم أحَدًا، لا بُدَّ أن يَرجِعوا.

ثُمَّ قال الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بِناءً على هـذا الأمرِ وأنه لا مُقـامَ لهم: ﴿وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ﴾ وهَؤلاء أَهـونُ من الأوَّلين؛ لأن الأوَّلين دَعَـوْا إلى الفِرار بدون استِئْذان، قالوا: ﴿لَا مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْ﴾، أمَّا هـؤلاء فإنهم يَستَأذِنون النـبيَّ ﷺ، ولكن استِئْذانهم للرسول عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ليس كاستِئْذان المُؤمنين الذين إذا كانوا معـه على أَمْرٍ جامِـع لم يَذهَبوا حتى يَستَـأذِنوه، لكنهم يَستَـأذِنون خِداعًا وتَمويهًا؛

ولهذا يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ﴾ أي: من المُنافِقين ﴿ٱلنَّبِيَّ﴾ ﷺ إلى الرجوع.

يَقولون: (يَستأذِن) بمَعنى: يَطلُب الإِذْن؛ لأن (استَفعَل) تَأتي كثيرًا بمَعنَى: طلَب الشيءِ، ومَنِ استَغْفَرَ طلَب المَغفِرة، واستَعتَب: طلَب العُتبة والعِظة.

ويَقولون: الجُمْلة إمَّا أنَّها حال من ﴿فَرِيقٌ﴾ يَعنِي: حال قولهم يَقولون، وإمَّا أن تَكون عَطْفَ بيان أو بَدلًا من قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ﴾ وكِلاهما له وَجْهٌ:

أمَّا على قولنا إنها حال؛ فلأَنَّ النَّكِرة هنا وُصِفت، والنَّكِرة إذا وُصِفت تَخصَّصت، فجاز وقوع الحال منها.

وأمَّا على قولنا بأنها بَدَلٌ أو عَطْف بيانٍ، فعلى حدِّ قول ابن مالِك رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَيُبْدَلُ الْفِعْلُ مِنَ الْفِعْلِ كَمَنْ يَصِلْ إِلَيْنَا يَسْتَعِنْ بِنَا يُعَنْ[1]

إِذَن: يَجوز فيها وجهان: أن تَكون بدَلًا من قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ﴾، وأن تَكون عَطْفًا مثل البدَل، وأن تَكون حالًا من فاعِل (يَستَأذِن).

قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [غير حَصينة يُخْشَى عليها]، يَقولون ذلك للرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في مُبرِّر الاستِئْذان: إن بُيوتنا عورةٌ، ونَخْشى عليها من العَدوِّ. والعورة هنا يَعنِي: غير حَصينة؛ لأن الحِصْن يَحميها ويَستُرها، كما يَستُر الثوبُ عورة الرَّجُل، هذا مَعنَى قولهم: إنها عَورة؛ يَعنِي: مَكشوفة، ولا يُمكِن أن نَأمَن من هُجوم العَدُو عليها، وفي قِراءة لكنها غير سَبْعيةٍ: «عَوِرَةٌ» بكَسْر الواو، أَيْ: مَعِيبة.

---

(١) الألفية (ص:٤٩).

فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُبطِلًا دَعْواهم: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن﴾ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ما] ﴿يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾، وهنا يَنبَغي الوقوفُ على قوله تعالى: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾؛ لأنك لو وصَلت لأَوهَم أن قوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ من قول المُنافِقين، فيَكون في ذلك تَناقُضٌ وفَسادٌ للمَعنى، فتَقول: ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ وتَقِف، ثُمَّ تَستَأنِف القِراءة وتَقول: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾: (ما) مَبنِيَّة على السُّكون.

ولو قال قائِل: مَن الذي يَقول: إنها حِجازِيَّة؟ لأن النصبَ ليس بظاهِر على الخبَر، أفلا يَجوز أن تكون ﴿بِعَوْرَةٍ﴾ خبَر المُبتَدأ مَرفوعة بضَمَّةٍ مُقدَّرةٍ على آخِرها مَنَع من ظُهورها اشتِغال المَحَلِّ؟

فالجَوابُ: دليلُه شاهِد من القُرآن، قال تعالى: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ فنَصَب؛ فدلَّ ذلك على أن القُرآن نزَل بمُقتَضى لُغة الحِجازِيِّين.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾: ﴿إِن﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ما] فـ(إن) هنا نافِية؛ لأنها فُسِّرت بـ(ما)، و(ما) نافِية، ويَدُلُّ لذلك إِتْيان (إلَّا) بعدها: ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾، فهذا دليلٌ على أنَّها نافيةٌ، و(إن) تَأتِي نافِية كما هنا، وتَأتِي شَرْطية، ومثاله: ﴿وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ﴾، وتَأتِي مُخفَّفة من الثَّقيلة: ﴿إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾، وكقول الشاعِر:

مَـــا إِنْ أَنْـــتُمْ ذَهَـــبٌ وَلَا ... صَرِيف وَلَكِـنْ أَنْتُمُ الخَـزَفُ[1]

---

(١) غير منسوب، وانظره في: أوضح المسالك (١/ ٢٦٦)، وشرح الأشموني (١/ ٢٥٤)، وهمع الهوامع (١/ ٤٤٩).

هذه زائِدة؛ لأن: ما إِنْ أَنْتُمْ: أي: ما أَنْتُم.

وما الذي يُعيِّن هذه المعانِيَ؟

الجَوابُ: الذي يُعيِّن هو السِّياق، وهذا باتِّفاق العُلَماءِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ، أي: أنَّ وُجود الأَلْفاظ المُشتَرَكة التي تَتعَيَّن بالسِّياق ثَابِت في اللغة العربية.

لكنهم اختَلَفوا في مَسأَلة الحقيقة والمَجاز، فمِنْهم مَن أَثبَت ذلك، ومِنهم مَن نفَى وقال: إن المَجاز كالاشتِراك في المَعنَى، والاشتِراك أنتم تَقولون به، وهذا هو القول الراجِحُ كما سبَق عِدَّة مرَّات بأن الصحيح: أنه لا مَجاز في اللُّغة العربية.

يَقول تعالى: ﴿إِن يُرِيدُونَ﴾ هذا كلام الله عَزَّوَجَلَّ ﴿وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾، يَعنِي: ما يُريدون إلَّا فِرارًا، وهذه الجُملةُ جُملةٌ حَصريَّةٌ، يَعنِي: تُفيد الحَصْر، أي: أن هؤلاء ما لهم إرادة أبدًا سِوَى الفِرار من القِتال، فالبُيوت مُحصَّنة، ولا يُخشَى عليها أكثَرَ ممَّا يُخشَى على المدينة، وليس لهم أَيُّ عُذْرٍ إلَّا عُذْرًا واحِدًا وهو الفِرار من القِتال؛ لأنهم لا يُريدون مُواجَهة العَدوِّ، بل هم العَدوُّ كما قال الله عنهم.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بيان إِرجاف المُنافِقين بالمُؤمِنين، والإرجاف: هو أن يُذكَر للإنسان ما يَكون به الخوف والقلَق، وفي باب القِتال مُرْجِف ومُخذِّل، والفرق بينهما أن المُرجِف من يُخوِّف، والمُخذِّل مَن يقَلِّل الرَّغْبة في الخير؛ فالمُرجِف يُرهِّبك، وأمَّا المُخذِّل فهو يُثبِّط عَزيمتك، يَقول: ما لكَ؟ وما الفائِدةُ؟ وما كذا؟ فبينهما فرق. فهؤلاء مُرْجِفون، ويَقولون: ليس هنا مَقام لكم؛ لأنه خطَرٌ عليكم؛ ولهذا قالوا: ﴿فَٱرْجِعُوا۟﴾، فيُستَفاد منه أن المُنافِقين من شأنهم الإِرْجاف بالمُؤمِنين.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن الاعتِزاز بالوطَن -حمِيَّةً للوطن- من صِفات المُنافِقين؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ﴾، وقَصدُهم بذلك إِحْماءُ حمِيَّتهم الوطنية، وأمَّا الحديث الذي يُرْوَى: «حُبُّ الوَطَنِ مِنَ الإِيمَانِ»[١]، فإنه كذِب على الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وليس صحيح. أمَّا الاعتِزازُ بالوطَن لكَوْنه إسلاميًّا فهذا لا بأسَ بِه.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: جَواز تَسْمِيـة المدينة بيَثرِب، هكذا استَدَلَّ به بعضهم، ووجهُ قول هـذا القائِلِ: إن الله تعالى حَكاه عنهم وأَقرَّه، ولكن بعض أهل العِلْم رَحِمَهُمُ اللَّهُ قـال: لا يَدُلُّ على ذلك، بل إنما يَـدُلُّ على العكس، وأن تَسميتـها بيَثرِبَ إنما يَكون من المُنافِقين؛ لأن الله تعالى يَحكِي الكُفْر عن الكافِرين، فيَحكِي كلَّ ما يقوله هؤلاءِ الكُفَّارُ، من المُنافِقين وغيرهم، وهل ما حَكاه عنه من الكُفْر إقرارٌ له؟

الجوابُ: لا، إذَنْ: يُسْتَفاد من الآية أن تَسْمية المدينة بيَثرِبَ من شأن المُنافِقين؛ ولهذا قال النبيُّ ﷺ: «يَقُولُونَ: يَثْرِبُ. وَهِيَ المَدِينَةُ»[٢]، وهذا وَاضِح بأن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لم يَرتَضِ بهذه التَّسميةِ.

ويَتفرَّع على هـذه الفائِدةِ: بيانُ ما كان عليـه من أُولئِك المُؤرِّخين -لا نَقول: العرَب بَل نَقول: الإسلامِيِّين- الذين هم إمَّعَةٌ، جاء المُستَشرِقون فكانوا يَتحَدَّثون عن الرسول ﷺ باسْمِ مُحمَّد فقَـطْ قالوا: محُمَّد. كما قال الكُفَّـار في عهد الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ويَتحَدَّثون عن المدينـة بأنها يَثرِبُ، فجاء هؤلاء المَساكينُ يُقلِّدون أُولئكَ المُستَشرِقين، فساروا يُعبِّرُون عن الرسول بكلِمة مُحمَّدٍ، ويُعبِّرون عن المدينة

---

(١) انظر: الموضوعات للصغاني رقم (٨١)، والمقاصد الحسنة للسخاوي رقم (٣٨٦)، والفوائد المجموعة للشوكاني رقم (١٧٤).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب فضائل المدينة، باب فضل المدينة، رقم (١٨٧١)، ومسلم: كتاب الحج، باب المدينة تنفي شرارها، رقم (١٣٨٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بكلِمة يَثرِبَ، وكأنَّ هذا هو الفَخْر والرُّقِيُّ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن أولئك المُرْجِفين لم يَقْتَصِروا على الإِرْجاف بل ضَلَّلوا الناس بقولهم: ﴿فَٱرۡجِعُواْ﴾، فيُستَفاد منه فائِدة ما تَتَفرَّع على هذا: أن كل مَن دعا إلى الرُّجوع عن الحقِّ ففيه شبَهٌ بالمُنافِقين؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱرۡجِعُواْ﴾ هؤلاء أَرجَفوا أوَّلًا، ثُم دعَوْا إلى التَّرْك ﴿فَٱرۡجِعُواْ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: بيانُ مَكْر المُنافِقين حيث جاؤُوا يَستَأْذِنون الرسول ﷺ تَمويهًا، وأنه ليس في النِّية البَقاء، لكن يُموِّهون ﴿وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ﴾، ففيه دليلٌ على تَمويهِ المُنافِق، وإظهار حاله بحال المُؤمِن المُنْقاد الذي لا يَنصَرِف إلَّا بعد الاستِئْذان، مع أن الاستِئْذان في مثل هذا الأَمرِ أو في مثل هذه الحالِ من الاستِئْذان بالحَقِّ من شأن المُؤمِنين، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ لَّمۡ يَذۡهَبُواْ حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُ﴾ [النور:٦٢].

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن مِن شَأْن المُنافِقين الكذِبَ؛ لقوله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ﴾ وهُمْ كَاذِبون.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: بَيَانُ إحاطة عِلْم الله تعالى بِما في القلوب؛ لقوله تعالى: ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارٗا﴾.

أمَّا قوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍ﴾ فهذا قد يُعلَم؛ لأنه ظاهِر أن البُيوت حَصينة ولا عليها من العَدُوِّ، لكن ﴿إِن يُرِيدُونَ﴾ الإرادة في القَلْب لا يَعلَمها إلَّا الله عَزَّوَجَلَّ أو صاحبها، أو مَن أَطلَعه الله تعالى عليه.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: وُجوبُ تكذيب الناطِق بالباطِل، فهل يَصِحُّ التعبير بكلمة (وُجوبِ) أن نَقول: (مَشروعِيَّة)؟ إن نظَرْنا إلى أن البعض يَجِب إبطاله قلنا: (يَجِب)،

لكن الكَـلام على: هل يُؤخَذ من الآية مَشروعية إبطال قول النـاطِق بالباطِل؛ لأن الله تعالى أَبطَله في قوله تعالى: ﴿وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ﴾.

• ● ❁ ● •

الآية (١٤)

• •◦• •

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا﴾ [الأحزاب:١٤].

• •◦• •

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا﴾: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ﴾: (لو) هذه شَرْطية، وفِعْل الشَّرْط فيها ﴿دُخِلَتْ﴾، وجوابُ الشَّرْط: ﴿لَآتَوْهَا﴾، ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ نائب الفاعِل فسَّره المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ [بالمَدينة]، يَعنِي: لو دُخِلَتِ المدينة عليهم من أَقْطارها، وتَفسيره إيَّاها بالمدينة يُؤيِّده قوله تعالى في أول الآية: ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾.

وفسَّره بعضُهم بالبُيوت أي: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم﴾ البُيوت ﴿مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾، ويُؤيِّد هذا التَّفسيرَ قوله تعالى: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾، لكن يُرجِّح الأوَّل أنها المدينة قوله تعالى: ﴿مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾؛ لأن الغالِب أن كلِمة ﴿مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ لا تَأتِي للبُيوت؛ لأن البُيوت صَغيرة، فجِهاتُها لا يُطْلَق عليها قُطْرٌ، وإنما الأقطار تَكون في الشيء الكبير؛ ولهذا قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ أي: نَواحيها]، يَعنِي: لو دخَل العَدوُّ المدينةَ من نواحيها كلِّها، أو مِن أيِّ ناحيةٍ منها [﴿ثُمَّ سُئِلُوا﴾ أي: سأَلهم الداخِلون الفِتْنة، ﴿لَآتَوْهَا﴾ بالمَدِّ والقَصْر أي: أَعطوها].

وقوله تعالى: ﴿سُئِلُوا الْفِتْنَةَ﴾ نائب الفاعِل المُنافِقون، والسائِل -الفاعِل

في المَعنَى- الذي دخَل المدينة من أَقطارها.

فلو سألَهم هذا الداخِلُ الفِتْنة يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الشِّرْكَ]، والدليل على أن الفِتْنة بمَعنى الشِّرْك قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة:١٩٣]، هذا يَكون شِرْكًا؛ وقال الإمامُ أحمدُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ [النور:٦٣]، قال: «أَتَدرِي ما الفِتْنة؟ الفِتْنة: الشِّرْك»[1].

فهؤلاء لو دُخِلت عليهم المدينة لَمْ يَكُن عندهم إخلاصٌ في الإسلام وبَقاءٌ عليه فبمُجرَّد ما يَسألُهم الداخِلون الكُفْر يُوَافِقون عليه؛ لأنهم قَوْمٌ لا يُريدون إلَّا الدنيا فقط، يُريدون أن يَعيشوا في الدنيا ولو عِيشةَ الحِمار! أمَّا أن يَعيشوا عِيشة المُؤمِنين فإنهم لا يُريدون هذا.

ولذلك يَقول: «لَآتَوْهَا» هذا المَدُّ، والفَرْق بينهما أن (أَتَى) بمعنى: جاء، و(آتَى) بمعنى: أَعطَى، وتفسيرُ القِراءَتَيْن أو مجموع التَّفسير يَدُلُّ على أنَّهم يُعطُون ما سُئِلوا، ويَأتون إليه بانقِياد، يَعنِي: أَتَى الشيءَ يَعنِي: جاءَهُ باختياره، وآتاه بمَعنى: أَعطاه ولو عن كُرهٍ، ولكن مع ذلك هَؤلاء قَوْم يُعطُون ما سُئِلوا عن اختيار؛ ولهذا في القِراءة الثانية: ﴿لَأَتَوْهَا﴾ لجاؤُوها.

فصار هَؤلاء القومُ الذين يَستَأْذِنون النبيَّ ﷺ بحُجَّة أن بُيوتَهم عَورةٌ صار الأَمْر خِلافَ ما قالوا؛ لأن الله تعالى أَخبَر عنهم، وهو عَزَّوَجَلَّ أَعلَمُ بما في قُلُوبهم، وهذا مِن اطِّلاع الله تعالى على ما في القُلوب؛ أَخبَر عن أَمْر مُستَقبَل لم يَقَع، يَصدُر من قَوْم لا نَعلَم نحن ما في قُلوبهم ولكن الله تعالى يَعلَم؛ والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَعلَم

---

(١) أخرجه ابن بطة في الإبانة الكبرى رقم (٩٧)، وذكره ابن تيمية في الصارم المسلول (ص:٥٦).

ماذا يَحدُث من عَبدِه، لو حصَل لهم ما يَحصُل به هذا القَصدُ، بل إنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَعلَم أَبْلَغَ من ذلك، قال عن الذين يَقولون: إنهم لو رُدُّوا إلى الدُّنْيا لعمِلوا صالِحًا، قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام:٢٨]؛ لأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَعلَم ما في قَلْب الإنسان.

وقوله تعالى: ﴿لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا﴾: ﴿تَلَبَّثُوا﴾ بمَعنَى: ترَيَّثوا، يَعنِي: لا يترَيَّثُون في إعطاءِ الفِتْنة وقَبُولها إلَّا يَسيرًا.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا يَسِيرًا﴾ قيل: إن هذا بمَعنَى: إلَّا عدَمًا؛ لأن اليَسير والقليل قد يُراد به العدَمُ، وقال بعضهم: ﴿إِلَّا يَسِيرًا﴾ أي: إلَّا قليلًا على وجه الحقيقةِ، وهذا الزمَنُ اليَسيرُ هو ما بين السُّؤال والجواب، يَعنِي: ما بين أن يُسأَل ثُمَّ يُجيب، هذه المَسافة من المُدَّة قَصيرة جِدًّا، وهي كالمَسافة التي بين قول القائِل: بِعْتُك هذا الشيءَ. فيَقول المُشتَرِي: قبِلْتُ. يَعنِي: أنهم -والعِياذُ بالله- لا يَتلبَّثون ولا يَترَيَّثون أبدًا، بل يَقبَلون فَوْرًا، فليس بين قَبولهم وسُؤال فِتْنة إلَّا ما بين مُدَّتَي السؤال والجواب.

وفي الحَقيقة أنَّ هذه المُدَّةَ قصيرةٌ كالعدَمِ؛ ولهذا فُسِّر قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِلَّا يَسِيرًا﴾ يَعنِي: إلَّا عدَمًا ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن المُنافِقين أشَدُّ الناس ذُعْرًا؛ لِقَوله تعالى: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا﴾؛ لأنَّ عِندهم ذُعْرًا من هؤلاء الذين دخَلوا من أَقطارها.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: قُرْب المُنافِقين من الكُفْر والشِّرْك؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿سُئِلُوا

﴿ٱلْفِتْـنَةَ لَآتَوْهَا﴾ مُبَادِرين، لَا يَتلبَّثُون ويَقولون: نَنْظُر في الأمر!.

وهل يُسْتَفاد من هذه الآيةِ أَنَّه لا حُكمَ للإِكْراه، وأن الإنسانَ إذا كفر مُكرهًا، فإنه يَترتَّب على كُفْره حُكْم الكافِر؟ أَقول: هل يُستَفاد من الآية أنه لا حُكمَ للإكراه وأن مَن كَفر مُكرهًا فعليه الإِثْمُ؟

الجَوابُ: أن هَؤلاءِ سُئِلوا ما أُكرِهوا بمُجرَّد السؤال وافَقوا، فليس فيه مُعارَضةٌ لقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾[النحل:١٠٦] لا يُعارِض هذه الآيَةَ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بَيانُ أن المُنافِق حياتُه حياةٌ مادِّيةٌ يُريد أن يَعيش سَواءٌ كان كافِرًا أو غير كافِر؛ لأن هؤلاء إذا سُئِلوا الفِتْنةَ آتَوْها، إِذَنْ: فإيمانهم ليس إيمانًا حقيقيًّا، وإلَّا المُؤمِن الحَقيقيُّ لو سُئِل الشِّركَ ما أَشرَك.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن هَؤُلاءِ المُنافِقين أنَّ المُنافِقين أصحابُ غَدْرٍ وخِيانة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ﴾، وهُمُ الآنَ يُحاوِلون الإِدْبَار، لكنَّهم يُموِّهون بسؤال النَّبيِّ ﷺ واستِئْذانه.

إِذَنْ يَتفرَّعُ على هذه الفائدةِ: أن كلَّ مَن نَقَض العهد ففيه شبَهٌ من المُنافِقين؛ ولهذا جاء الحديثُ عن النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**آيَةُ المُنافِقِ ثَلاثٌ: وَمِنْها إِذَا عَاهَدَ غَدَرَ**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، رقم (٣٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، رقم (٥٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بلفظ: «**وإذا وعد أخلف**»، وأخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، رقم (٣٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، رقم (٥٨)، من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بلفظ: «**أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا... وإذا عاهد غدر**».

ويَتَفرَّع على ذلك: أنه إذا كان الغَـدْر من صِفات المُنافِقين، فالواجِبُ على المُؤمِن البُعدُ عنه، ولو لم يَكُن من الغَدْر إلَّا أنه من صِفات المُنافِقين لكان ذلك كافِيًا في وُجُوب البُعْد والحَذَر منه.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: استِهانةُ المُنافِقِ بحقِّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لقوله تعالى: ﴿عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ﴾ يَعنِي: نَقْض العَهْد مع إنسان مِثْلك قد يَكون أهونَ، لَكِن نَقْض العهد مع الله عَزَّوَجَلَّ أشَدُّ وأعظَمُ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: تحريم تَوْليـةِ الأدبار عند مُلاقاة العَـدوِّ؛ وجهُ ذلك أن الله تعالى ذكَرَ هـذا عن المُنافِقين تحذيرًا منه، وقد دلَّتِ الآية الكريمة في سـورة الأنفال على أنهم من كبائر الذُّنوب؛ لقول الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الأنفال:١٥-١٦]، وجاءَت في الأحاديث بِعَد ذلك من المُوبِقات، يَعنِي: من المُهلِكات؛ لأنه من الكبائِر.

• • ۞ • •

الآيــة (١٥)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾ [الأحزاب:١٥].

•●◌●•

قوله تعـالى: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟﴾ الجُمْـلة هذه مُؤكَّدة باللَّام و(قـد)، قَسَمٌ مُقدَّر، كلَّما جاء مثل هذا التَّعبيرِ في القُرآن، فإنه مُؤكَّدٌ بالمُؤكِّدات الثلاثة، يَعنِي: واللهِ لقد كانوا عاهَدوا الله تعالى مَن قَبلُ.

وتَقدَّم لنا أن الله تعالى يُقسِم عن الشيء لا في جانب الإنكار، ولكن في جانب الأهمية، وقد يُقسِم عليه في جانب الإنكار مثل قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن:٧]، هنـا أكَّد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هذا العَـهْد مِنْهـم أنَّهم: ﴿عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ﴾، وهذا العَهدُ بينهم وبين الرسول ﷺ، والمُعاهَدة مع الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مُعاهَدة مع الله تعالى، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح:١٠]، فهُم عاهَدوا الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ألَّا يَفِرُّوا ولا يُوَلُّـون الأدبار، ولكنـهم نقَضوا العهد؛ لأن نَقْض العهـد والخِيانـة والكذِب من خِصال المُنافِقين، فهذه سَجِيَّة فيهم.

قوله تعالى: ﴿عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ﴾؛ ما محَلُّ قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَا يُوَلُّونَ﴾ من الإعراب؟

قال بعضُهم: إنها لا مَحَلَّ لها من الإِعْراب؛ لأنها جوابٌ لقَوْله: ﴿عَـٰهَدُواْ﴾، وقال بعضهم: إنها بَيان للمُعاهَدة؛ لأن المُعاهَدة التي وقَعَت أنهم لا يُوَلُّون الأدبار، وكلِمة: ﴿لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ﴾ تَحتاج إلى مَفعولَيْن؛ المَفعول الأوَّل: ﴿ٱلْأَدْبَـٰرَ﴾ والمَفعول الثاني: مَحذوف، والتقدير: لا يُوَلُّون عَدوَّهم أَدْبارَهم، أَوْ تولية الدُّبر. ومَعناه: الانصِراف والانحِراف، فبَدَلًا من أن تَكون وجوهُهم نحوَ العَدوِّ تكون أدبارهم نحو العَدوِّ، فهم أَقسَموا بالأوَّل، وعاهَدوا أنهم لا يُوَلُّون الأدبار عند مُلاقاة الأعداء، ولكنهم نقَضوا العَهْد.

قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾، قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [كان عَهْد الله مَسؤُولًا عن الوَفاء به]، فعلى هذا تَكون المَسؤُولية ليس على العَهْد نفسِه بل عن الوَفاء به، فالعَهْد مَسؤول، يَعنِي: مَسؤُول عن الوفاء به، والسُّؤال عن الوفاء به سُؤال عن وقوعه أيضًا، فيُقال مثلًا: أليس بيني وبينك عَهْد؟ ألم تَنقُض العهد؟ فيَكون السؤال عن نَفْس العَهْد وعن الوَفاء به.

وهذه المَسؤُولية متى تَكون في الدُّنيا أو في الآخِرة؟

والجوابُ: أمَّا المَسؤُولية التي بين الإنسان وبين ربه فإنها في الآخِرة، وأمَّا المَسؤُولية التي تكون بينه وبين الناس فهي في الدنيا، يُطالَب بالوفاء بالعَهْد، قال تعالى: ﴿وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

إثبات الحِساب؛ لقوله: ﴿وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾، فكُلُّ ما بَيْنك وبين الله عَزَّوَجَلَّ من الحُقوق، فإنَّك مَسؤُول عنه يوم القِيامة، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ [الأعراف:٦-٧].

الآيــة (١٦)

• ● ∽ ● •

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب:١٦].

• ● ∽ ● •

قوله تعالى: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ﴾: ﴿لَّن﴾ تُفيد ثلاثَةَ أشياءَ؛ النَّفي والنَّصْب والاستِقْبال، يَعنِي: أن الفِعْل المُضارِع مُحتَمِل لأَنْ يَكون للحال أو للاستِقْبال، فإذا دَخلَت عليه (لَنْ) تَعيَّن أن يَكون للاستِقْبال.

وهل (لَنْ) للنَّفْي المُؤَبَّد، أم تَكون للتَّأْبيد وغير التأبيد؟

الجوابُ: لغير التَّأبيـد دائِمًا، وتَكون للتأبيـد، يَعنِي: تَكون لهذا ولهذا، فمِثال التأبيد قوله تعـالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟﴾ [البقرة:٢٤]، وقوله تعـالى: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ﴾، وتَأتِي لغَيْر التأبيد، أو رُبَّما يَنْظُرون لأكثَرَ من هذا، هل هي للتأبيد أو لغير التأبيد؟ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ [آل عمران:١١١] هل أنهم قد يَضُرُّون المُؤمِنين بغير أذًى أو لا يَضُرُّونهم إلَّا أذًى.

وقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة:٩٥] هـذا للتَّأْبيـد، فهُمْ قد يَتمَنَّوْن الموت في عذاب النار يَتمَنَّوْن الموت، وفي الدنيا لا يَتمَنَّوْن الموت، ولكن حتى ولو في الدُّنْيا فإنها مُؤكَّدة بقوله تعالى: ﴿أَبَدًا﴾.

الصَّحيحُ: أنَّ (لن) لا تَطلُب التَّأبيد كما قال ابن مالِكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ[1]:

وَمَنْ رَأى النَّفْيَ بِلَنْ مُؤَبَّدَا فَقَوْلَهُ ارْدُدْ، وَسِوَاهُ فَاعْضُدَا

فلا يُمكِن أن تَأتِيَ للتأبيد أبدًا يَعنِي: مَعناه: لا تَسْتَلزِم التأبيد وإلَّا قد تُفيده؛ ولهذا قال أهل السُّنَّة: إن قول الله تعالى لِموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ [الأعراف:١٤٣] لا يَستَلزِم أنه لا يَرَى الله تعالى لا في الدنيا ولا في الآخِرة، وأمَّا المُعتَزِلة ومُنْكِرو رُؤْيَة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فإنهم يَقولون: (لَنْ) تُفيد التأبيد، فتَدُلُّ على أنَّ الله تعالى لن يُرَى أبدًا.

يَقول الله تعالى: ﴿لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ﴾ يَعنِي: فإنْ لَم تَفِرُّوا من الموت أو القَتْل نفَعكم الفِرارُ، هذا القيد لِبَيانٍ واقِع؛ لأنه لا فِرارَ إلَّا إذا فرُّوا، فإنه لا يَنفَعُهم أيُّ شيء من الموت أو القَتْل.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذًا﴾ يَعنِي: لو فُرِض أنكم فرَرْتُم من الموت أو القَتْل، قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَإِذًا﴾ إن فرَرْتم ﴿لَّا تُمَتَّعُونَ﴾ في الدنيا بعد فراركم ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ بقية آجالِكم]، يَعنِي: على فَرْض أنكم فرَرْتُم من الموت أو من القَتْل، فهل ستَبقَوْن في الحياة؟ لا، لا يبقَوْن إن فرُّوا، ولا يُمتَّعون إلَّا قليلًا، وهو بَقيَّة آجالِهم.

وهذا على تَقدير فِرارهم، وحينئذٍ ما الفائِدة من أن يَدَع الإنسان القِتال المَفروض عليه ويُولِّي الدُّبر لأَمْر قد يَنفَعُه وقد لا يَنفَعُه، فقد يَموت في حال تَولِّيه، وقد يَبقَى ويُعَمَّر، لكن لو بَقِيَ وعُمِّر هل سيَبقَى أبدًا؟ لا، فلا يُمتَّع إلَّا قليلًا، ومَهما طال الأمَد به فإنه قليل.

---

(١) انظر: شرح الكافية لابن مالك (٣/ ١٥١٥).

ولهذا الدُّنيا كلُّها بالنِّسبة للآخِرة ليست بشيءٍ؛ قال الله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا ۝١٦ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى:١٦-١٧]، وأَخبَر النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن: «مَوْضِع سَوْطِ الْإِنْسَانِ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»[1]، فالمَتاع في الدُّنيا في الحقيقة ليس بشيء بالنسبة لوَقْت الآخِرة؛ ولهذا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

ثُمَّ هناك شيءٌ آخَرُ: أنَّهم لو قُتِلوا في سبيل الله تعالى فإنهم قُتِلوا ولكنهم أحياءٌ قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة:١٥٤].

هذا القَوْلُ باللسان نُهينا عنه وحتى الظَّنُّ بالقَلْب نُهينا عنه، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران:١٦٩]، فلا يَجوز القولُ ولا الحُسْبان بأن مَن قُتِل في سبيل الله تعالى يَكون ميتًا، بل هو ميت البدَن، لكنه حيٌّ الرُّوح حياة بَرْزخية، وليست كحياة الدُّنيا، ولو كانت كحَياة الدُّنيا ما جاز أن يُدْفَن هؤلاء؛ لأنا لو دَفَنَّاهم وهم أحياءٌ كالحياة الدُّنيوية لكنا قد قتَلْناهم وأَهلَكْناهم.

وبهذا نَعْرِف ضَلال مَن قالوا: إنهم أحياءٌ يسأَلون لك إذا سأَلْتَهم أن يَدعوا الله تعالى لك، ويُجيبونك ويَتوَصَّلون بهذا الشيءِ إلى الإشراكِ بهِمْ وبالأنبياء وبمَن يَزعُمونهم أَولياءُ؛ لأَجْل تعميم الأحوال كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾ [الجمعة:٨]، أو يُقال أيضًا لهؤلاء الذين جاؤُوا للقِتال

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب فضل رباط يوم في سبيل الله، رقم (٢٨٩٢)، من حديث سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قد يَموتون بدون قَتْل، خاصَّة في الشُّهداء ومَن هُو أفْضَل منهم؛ هذا هو الظاهِر، ويُحْتَمَل أن يَكون هذا خاصًّا بالشُّهَداء؛ لأن الشُّهداء تَعرَّضوا للموت ابتِغاءَ وَجْه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فبَعضُ أهل العِلْم رَحِمَهُمُ اللَّهُ يَقول: إذا ثبَت هذا للشُّهداء في الحَياة البَرْزَخية فلِمَن هو أفضَلُ منهم أثبَتُ، مثل: الصِّدِّيقين والأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

ولكن عِندي أن فيه احتِمالًا بأن هذا خاصٌّ بالشُّهَداء؛ وذلك لأن الشَّهيد ليس كغيره، إذِ الشَّهيد عرَّض نَفْسه للمَوْت وباع نفسَه فيُجازَى بأن يَكون حيًّا، لكن المشهور أن مَن هو أعلى من الشُّهَداء له ذلك الحُكْمُ، والأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لهم خِصيصة أخرى أيضًا ليست في غيرهم، وهي أن الأرض لا تَأكُل أَجسادَهم.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة:٨٨]، وقال: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء:٤٦] ومثل هذا التَّعبيرِ ذكَر المُفسِّرون أنه يُراد به العدَم، يَعنِي: لا يُؤمِنون أبدًا.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: في الآية هذه دَليلٌ على أنه لا فِرارَ من قدَر الله تعالى؛ لقوله: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ﴾، قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ﴾ مُتعلِّقٌ بـ﴿فَرَرْتُم﴾ أم بالفِرار؟ ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ﴾ إن فررْتُم، وتَكون جُملةً شَرْطيـة، و﴿إِن فَرَرْتُم﴾ جُملة مُعترِضة، وهذا أَوضَحُ في المَعنَى.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنه لا فِرارَ من قدَر الله تعالى.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: وهَلْ يُسْتَفاد من الآية الكريمة إِبْطال الأَسباب؛ لأن الإنسان لو رأَى نارًا تَلْتَهِم الشجَر مُقْبِلة عنه، هل يَهْرب أم لَا؟ يَهرَب، فربَّما يَنجو.

فلو قال قائِل: هذه الآيةُ تَنفِي العمَل بالسبَب؟.

فالجَوابُ على ذلك أن نَقول: إذا كـان العمَل بالسبب مُبـطِلًا لحُكْم شَرْعه، فإنه لا يَجوز كهذه الحالِ، فإبطال الأَسْباب القدَرية بانتِهاك الأحكام الشَّرْعية هذا لا يَجوز، يَعنِي: أن يَترُك الإنسان الحُكْم الشَّرْعيَّ الواجِب خوفًا من آثاره هذا ليس بجائِز، لكن سببٌ حقيقيٌّ مَأذونٌ فيه شرعًا يُفعَل أم لا؟

الجَوابُ: إذا كان سببًا حقيـقيًّا مَأذونًا فيه شَرْعًا فلْتَفعَلْه، فما نَقـول للرجُل: إذا رأيت النـار مُقبِلةً عليك فقِفْ لا تَفِرَّ، لا يَنفَـعُك الفِرار!! هذا ليـس بصحيح، بل نَقول في هذه الحالِ: فِرَّ؛ لأن هذا سببٌ مُبَاح مَأذونٌ فيه شَرْعًا وسبَب حقيقيٌّ، لكن بأن نَجعَل الأسباب مُعطِّلة للأحكام الشرعية هذا لا يَجوز.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: بيان نُفُـوذ حُكْم الله عَزَّوَجَلَّ الشَّرْعيِّ والقدَريِّ، أمَّا القـدَريُّ فلا إرادةَ لك فيـه، وأمَّا الشَّرْعيُّ فلك فيـه إرادة؛ ولهـذا نَقول: بالنسبة للشَّرْعيِّ وجوبُ تَنْفيذ حُكْم الله الشَّرْعي؛ لأن الله تعالى عاب هؤلاء الفارِّين؛ لكون فِرارِهم يَتضمَّن إِسْقاطَ حُكْمٍ شَرْعيٍّ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن البَقاء في الدنيـا وإن طال فهو قليل؛ لقوله تعـالى: ﴿وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، وقد قال الله تعالى في آيةٍ أخرى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء:٧٧].

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: تَوْبيـخ هَؤُلاء الذين فرُّوا للبَقاء على حيـاتهم؛ أو للإِبْقـاء على حياتهم يُؤْخَذ من أَمْر الله تعـالى نَبيَّه ﷺ أن يَقول لهم: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ﴾، وهذا لا شكَّ أنه على سبيل التَّوْبيخ لهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذًا﴾ يَعـنِي: لو فرَرْتم ونجَـوْتم من هذه الحادِثةِ لا تَنجُـون من الموت،

فـ﴿لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن المُنـافِقين أهلُ جُبْـن وذُلٍّ وخَـوف ورُعْب، وهـذا أيضًا يَتَرتَّب عليه مُشكِلة، وهي أن الخوف من الموت أمرٌ طبيعيٌّ، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ [القصص:٣٣]، وهذه فيها إِشْكال.

وهؤلاء يَخافون من القَتْل كما أَشَرْنا إليها قبل قَلِيل، فالخَوْف من القَتْل الذي يَسْتـلزِم إِبْطال حُكْم شَرْعيٍّ هذا لا يَجوز، أمَّا هـذا خاف من القَتْل؛ لأنه تَسبَّب له وهو مُمكِن أن يُقتـل أم لا؟ فمُوسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يُمكِن أن يُقتَل؛ لأنه فعَـل ما يَستَلزِم القَتْل عند هؤلاء.

• ● ❁ ● •

الآيـة (١٧)

• ● ● •

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [الأحزاب:١٧].

• ● ● •

ثُمَّ قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُٱللَّهُ في مَعنَى ﴿يَعْصِمُكُم﴾: [يُجيرُكم]، ولكن الصواب المُراد بها يَمنَعُكم؛ لأن العِصْمة هي المَنْع، ومنه المَعْصوم يَعنِي: المَمنوع من الخطَأ، فالصواب أن يَعصِمكم أن يَمنَعكم من الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى﴾ إعرابُ ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى﴾: ﴿ذَا﴾ مُلغاةٌ؛ لأنها إذا جاء بعدها اسمٌ مَوْصولٌ، فإنها تكون مُلغاةً مثل: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ﴾ [البقرة:٢٥٥]، ومِثْل: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى﴾ يَنفَعُكم ﴿يَعْصِمُكُم﴾.

وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم﴾ الاستِفْهام هنا يُراد به النَّفيُ، يَعنِي: لا أَحَدَ يَعْصِمُكم، وإذا جـاء النَّفيُ بصِيغةِ الاستِفهام فإنه أبلَغُ من النَّفيِ المُجـرَّد؛ لأنه يَكون نَفيًـا مُشْرَبًا بالتَّحدِّي كأنه يَقول: أَخبِروني أَيَعْصِمكم أَحدٌ من الله تعالى إن أَراد بكم سُوءًا.

فهذه قاعِدة في كل ما يَكون فيه الاستِفْهام بمَعنَى النَّفيِ، أن نَقول: (عُدِل عن النَّفْيِ المَحْض إلى الاستِفْهام؛ ليَكون مُشرَبًا بمَعنَى التَّحدِّي).

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: يَمنَعُكم منه إن أَراد بكم سُوءًا؟

الجَوابُ: لا أحَدَ؛ يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا﴾ هَلاكًا أو هَزيمةً]، هلاكًا إذا لم يَكُن هناك قِتالٌ، أو كان قِتالٌ فقُتِلتم أو هَزيمةٌ إذا غُلِبتم وبقِيتم، وكلُّ ذلك سوءٌ، لكنه سُوء بالنِّسْبة للمُكلَّف، أمَّا بالنِّسْبة لفِعْل الله عَزَّوَجَلَّ فإنه خَيرٌ؛ لأنه لحِكْمة.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أو يُصيبكم بسُوء إن أَراد الله بكُمْ رَحمةً خَيرًا]، المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قدَّر هذه الجُمْلةَ لأنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكِيٌّ جِدًّا قال: أو يُصيبكم بسُوءٍ. (يُصيبكم) معطوفةٌ على (يَعصِمكم)، يَعنِي: أو مَن ذا الذي يُصيبُكم بسُوءٍ إن أَراد الله تعالى بكم ﴿رَحْمَةً﴾ خيرًا.

والجَوابُ أيضًا كالسابِق لا أحَدَ، وإنما قدَّمَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ [أو يُصيبكم بسُوء] على خِلاف ظاهِر السِّياق؛ لأن الرحمة لا تُعَدُّ مُصيبةً حتى تَحتاجَ إلى العِصْمةِ، فإنَّه إذا أَراد الله عَزَّوَجَلَّ بالإنسان رحمةً لا يُقال: مَن ذا الذي يَعصِمكم منه، لأن الرحمة مَطلوبة، لا يَتطلَّب الإنسان فيها أحَدًا يَعصِمه منها؛ فلهذا قَدَّر قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: [أو يُصيبكم بسُوء] يَعنِي أي: يُصِيبكم أحَدٌ بسُوءٍ إن أَراد الله تعالى بكُمْ رَحْمةً، ولكن الصحيح أنَّه لا حاجةَ إلى هذا التَّقديرِ، فإذا جَعَلنا العِصْمة بمَعنَى المَنْع فالمَعنَى: مَن الذي يَمنَعُكم من الله تعالى إن أَراد بكُمْ سُوءًا، ومَن الذي يَمنَعُكم من رَحْمته إن أَراد بكم رَحْمة، فالفِرار لا يَمنَعُكم من السوء الذي أَراد الله تعالى بكُمْ، والبَقاء لا يَجلِب لكم الرَّحْمة التي أَراد الله تعالى بكم، فالكُلُّ بيَدِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يَنفَعُكم الفِرارُ ولا البَقاء.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [خيْرًا]، فإذا كُنَّا فسَّرْنا الأوَّل بالهَلاك والهَزيمة، فالمُراد بالخَيْر هنا النَّصْر والبَقاء.

قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: غيره ﴿وَلِيًّا﴾ يمنَعهم ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ يَدفَع الضُّرَّ عنهم]؛ أي: لا يَجِدون لهم -أي: هؤلاء الذين فرُّوا من القِتال- أحَدًا يَنفَعهم، أو يَجلِب لهم الخَيْر، أو يَدفَع عنهم الضُّرَّ، لا يَجِدون وَليًّا، والوليُّ هو مَن يَتولَّى أمرًا، ويَعتَنِي به، فهؤلاء لا يَجِدون أحَدًا سِوَى الله تعالى.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلِيًّا﴾ يَعنِي: بالولاية العامة؛ لأن ولاية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تَنقَسِم إلى قِسْمَيْن:

ولاية عامَّة: تَشمَل كلَّ أحَدٍ.

وولاية خاصَّة: للمُؤمنين فقَطْ.

قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد:١١].

أمَّا في المَعنَى العامِّ فمِثْل قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام:٦٢]، فإن هذه هي الولاية العامَّة؛ لأن الله تعالى وَليٌّ على كل أحَد بالمَعنَى العامِّ الذي هو التَّدْبير والمُلْك والسُّلطان.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ النَّصير: هو الذي يَنصُرُك عند مُلاقاة الأعداء ويَمْنَعُك منهم، فهؤلاء ليس لهم أحَد يَتَوَلَّاهم لجَلْب الخير لهم، ولا يَنصُرهم لدَفْع الضَّرَر عنهم؛ لأن الأَمْر كلَّه لله تعالى.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: نَفاذ حُكْم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ أنَّ حُكْم الله تعالى نافِذٌ في الخَلْق لا يَمنَعه أحَد، وجهُ ذلك ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾، والاستِفْهام هنا كما سَبَق بمَعنَى النَّفيِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثبات الإرادة لله عَزَّوَجَلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الرَّدُّ على بعض طوائِف القدَرية الذين يَقولون: إن الله تعالى لا يُريد السُّوء، يُريد الخيرَ، لكن لا يُريد السُّوء؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾، وفي الآية إِشْكال: وهو أن ظاهِرها أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُريد السُّوء، مع أن النبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَقول: «وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»[1]، فما هو الجَوابُ؟

نَقول: السُّوء بالنِّسبة للمَفعولات، أمَّا بالنِّسبة لفِعْل الله تعالى نفسِه -الذي هو فِعْله- فليس بسُوءٍ، فالمَرَض مثَلًا سوءٌ بالنسبة للعَبْد يَسوؤُه ولا يَسُرُّه، لكنه بالنِّسبة لتَقدير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى له خيرٌ وحِكْمةٌ، كما أَشَرْنا إلى هذا كثيرًا؛ إِذَنْ: نَقول في الجواب على هذا الإِشْكالِ: إن السُّوءَ عائِدٌ إلى المَفعول لا إلى الفِعْل الذي هو تَقدير الله تعالى.

ونَظير ذلك: لو أن أبًا شَفيقًا رحيمًا أُصيب ولَده بداءٍ فكَواه بالحديدة المَحماةِ على النار، لكان هذا لا شَكَّ يَسوء الطِّفْل أو يَسوء الولَد؛ لأنه يُؤْلِمه أو يُوجِعه، وهو بالنِّسبة لفِعْل الأَبِ ليس إساءةً، بل هو خَيْر وإن كان يُؤلِمُ الطِّفْل الولد.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم (٧٧١)، من حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا مَانِعَ لما أَعطى ولا مُعطِيَ لما منَعَ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾، فلا أحَدَ يَمنع ما أَعطاه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولا أحَد يُعْطِي ما منَعه الله تعالى، وعلى هذا قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**اللَّهُمْ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ**»(١).

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن فيها حَثًّا على تَعَلُّق الإنسان بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ دُوْن غيره؛ لقوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾، فإذا كان الأَمْر كلُّه بيَد الله تعالى فإن الإنسان يَتعَلَّق بربِّه دون غيره.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن أُولئِك الكُفَّارِ لن يَجِدوا أحَدًا يَنصُرهم أو يَتولَّاهم دون الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ ويَترَتَّب على ذلك: قَطْع كل عُلقَةٍ تكون بين المُشرِكين وبين أَصنامهم، وأن أَصنامهم لا تَنفَعهم مَهما كان الأمرُ، ولكنه يَرِدُ على هذا إشكالٌ وَهو أن هؤلاء الذين يَدْعون الأصنام قد يَحْصُل لهم ما دعَوْهُ أو ما دعَوْا به هذه الأصنامَ، فكيف نَقول: إنها لا تَنفَعهم؟

فالجواب: أن هذا قد يَقَع ابتِلاءً وامتِحانًا من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ونحن نَعلَم أن هذا لم يَحصُل بدُعاء هذه الأصنامِ، وإنما حصَل عنده وما حصَل عند الشيء ليس كالذي حصَل بالشَّيء.

فإن قلت: نحن لا نَقبَل منك: أنه حصَلَ لا بدُعائهم، ما دام الرجُل دعا ثُم حصَل المُراد؛ فكيف تَقول: إنه من أَمْرٍ خارِج ليس من الدُّعاء من دُعائهم! فهذا رجُل دعا صاحِب القبر وقال: يا سَيِّدي يا مَوْلاي يا فُلانُ يا فُلانُ، أنا فَقيرٌ أَرجو

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب الذكر بعد الصلاة، رقم (٨٤٤)، وأخرجه مسلم: كتاب المساجد، باب استحباب الذكر بعد الصلاة، رقم (٥٩٣)، من حديث المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أن تُعطِيَنِي مالًا! وفي اليوم نفسِه مات قريبُه الذي خلَّف مَلايين ولا يَعصِبه إلَّا هو، فأنت تَقول: من تَقدير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهو يَقول: هذا من الوليِّ؛ فمَن قال لكَ: إنه استِدْراج؟

والجَواب: هو ابتِلاء -يا إخواني- ولكن ما حصَل هو فِتنةٌ وامتِحانٌ، وقد قُلنا له: هذه فِتنةٌ ودُعاؤُك لم تُحصِّل منه شيئًا، لكن هذا حصَل عند دُعائِك لا بدُعائِك.

فقد يَقول: تبًّا لكم أنتم لا تَعرِفون قَدْر الأَوْلِيَاء، وأنا دَعَوْت وحصَل لي مُرادي، ورُبَّما يَتحدَّانا يَقول: أَدْعُو مرةً أُخرى فيَأتي القدَر مُوافِقًا!

ونَقول: الله عَزَّوَجَلَّ قطَع كلَّ تَعلُّق بغيره ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [الأحقاف:٥]، ونَعلَم بالآية الكريمة أن هذا لا يَستَجيب لك إلى يوم القِيامة وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ﴾ [فاطر:١٤]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ:٢١-٢٢].

وهذه آياتٌ واضِحة جدًّا أنه لا يُمكِن أن يَستَجيب له، وإذا لَمْ يُمكِن أن يَستَجيبَ له، فنَعلَم عِلْم اليَقين أن هذا الذي حَصَل ليس بدُعاء هذا الوليِّ، بل حصَل في وقت الدُّعاء وليس بالدُّعاء، فعِند الشيء يَعنِي: أنه قريبٌ منه، وهذا تَقدَّم: أن مَذهَب الأشاعِرة يَقولون: إن الأَسباب لا تُؤثِّر بنفسها، وإنما يَحصُل التأثير عِندها لا بها، فلمَّا ضَرَبت الزجاجَ بالحجَر وانكَسَر قالوا: ما انكَسَر، هذا من ارتِطام الزُّجاج بالحجَر، حصَل عِنده عند ارتِطامها، ولكن ليس بها، على كل حال.

الآيــة (١٨)

قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الأحزاب:١٨].

• • ◦ • •

ثُمَّ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ﴾ المُثبِّطين منكم ﴿وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾] (قد) هنا للتَّحقيـق، والأصل أنها إذا دَخَلت على المُضارع تكون للتَّقليـل، كما يُقـال: قد يَجود البَخيل. لكن هنا للتَّحقيـق؛ لأن عِلْم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مُحقَّـق، وليس للتَّقليل، وإنما جاءَت: ﴿قَدْ يَعْلَمُ﴾ دونَ: قد عَلِم؛ ليُفيد أن عِلْم الله عَزَّوَجَلَّ مُستَمِرٌّ بهم من ذلك الوقتِ إلى اليَوْم، فإن الله تعالى عالِمٌ بهم وبأحوالهم وتَقلُّباتهم.

وقـوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلْمُعَوِّقِينَ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [المُثبِّطين]؛ لأن المُثبِّـط يَعوق الإنسان المُثبَّـط أَيْ: يَحول دونـه ودون مُراده، وهو ما يُسمَّى عنـد الفُقَهاء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ بـ(المُخـذِّل) فالفُقَهاء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ يقـولون في باب الجِهاد: «يَجب على الإمـام أن يَمنـع المُخذِّل والمُرْجِف»، فالمُخذِّل الذي يُثبِّط العَزائِم يَقول: لا داعِيَ للجِهاد، وليس عنـدنا استِعدادٌ. وما أَشبَهَ ذلك، والمُرْجِـف هو الذي يُرْهِب مِن الأعـداء ويُخوِّف مِنْهم، فيَقول: أَعداؤُكم كثيرون، وأسلِحَتُهم قويَّةٌ. وما أَشبَهَ ذلك.

يَقول تعالى: ﴿ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾ الخِطاب للنبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ والصَّحابة.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ﴾ تعالَوْا ﴿إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ﴾ القتال

﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ رِياءً وسُمْعةً] ﴿وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾: ﴿وَٱلْقَآئِلِينَ﴾ مَعطوفةٌ على ﴿ٱلْمُعَوِّقِينَ﴾ يَعنِي: يَعلَم القائِلين لإخوانهم: هلُمَّ إلينا. وهذا غيرُ التَّعويق؛ لأن المُعَوِّق هو الذي يَعرِض الشيء الذي يُعوِّق الإنسان، لكن لا يَدْعوه، ولكن هؤلاءِ يَقولون لإخوانهم، فهو أَبلَغُ من التَّعويق.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ هذه غَير المُعوِّقين، فليس عَطْفَ صفةٍ، ولكنه عَطْف ذاتٍ، والأصلُ في التَّعاطُف أن يَكونَ لتَغيُّر الذوات، وقد يَكون لِتَغيُّر الصِّفات، وقد يَكون لِتَغيُّر اللَّفظ، ومنه قولُه:

.... وَأَلْفَى قَوْلَهَا كَذِبًا وَمَيْنَا(١)

فَما تَغيَّر المَعنَى، لكن تَغيَّر اللفظ.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ هذا في المُنافِقين وسُمُّوا إخوانَهم في النَّسَب، وليسوا إخوانَهم في الدِّين اللهُمَّ إلَّا أن يُرَاد الأُخوَّة الظَّاهِرة، فإن هؤلاء يَتَظاهَرون بأنهم مُؤمِنون.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: [﴿هَلُمَّ﴾ تَعالَوْا ﴿إِلَيْنَا﴾] هَلُمَّ، هل هي فِعْل أَمْر أو اسْمُ فِعْل أمرٍ؟ اسمُ فعلِ أمرٍ؛ لأن ليس كلُّ ما دلَّ على الطلَب فهو فِعْل أَمْر، فالمَصدَر قد يَدُلُّ على الطلَب كما قُلت: ضَرْبًا زيدًا. لكن ما يَدُلُّ على الطلَب بذاته -يَعنِي: بغير أداة خارِجية- فإمَّا أن يَقبَل علامة فِعْلِ الأمر أو لا، فإن قبِلها فهو فِعْل أَمْر وإن لم يَقبَل فهو اسمُ فِعْل أمرٍ، أو قد يَكون مَصدَرًا نائِبًا عن الأمر، وقولنا: (بغَيْر أداةٍ خارجيةٍ) احترازًا من المُضارِع المَقرونِ بلَام الأَمْر، فالمُضارِع المَقرون بلام الأَمْر

---

(١) البيت لعدي بن زيد العُبادي، انظر: طبقات فحول الشعراء لابن سلام (ص:١٤٠)، الصحاح (٦/ ٢٢١٠).

يَدُلُّ على الأمر، لكن لا بذاته، بل بأداةٍ أُخرى خارِجية، وهي لام الأَمْر.

(هَلُمَّ) هنا اسمُ فِعْل أَمْر؛ فمثَلًا: عيسى نَقول له: هلمَّ إلينا! هلمَّ إلى الدَّرْس! وأَحمدُ وعِيسى جميعًا نَقول لهُما: هلُمَّ إلينا جميعًا. ونَضُمُّ إليهما زَيْدًا ونَقول: هلمَّ إلى الدَّرْس. فما تَغيَّر، مُفرَد ومُثنًّى وجَمْع.

أَمَّا لو كنَّا نُخاطِب واحِدًا ونَقول: هلُمَّ إلينا. ونُخاطِب اثنَيْن فَنَقول: هَلُمَّا إلينا. ونُخاطِب ثلاثة ونَقول: هَلُمُّوا هَلُمُّوا إلينا. لكان فِعْلَ أَمْر؛ ولهذا نَقول: قُمْ وقوموا، فهي إِذَنِ اسمُ فِعْل أَمْر تُخاطِب بها الواحِد والاثنين والجماعة ولا تَتَغيَّر، هذا على لُغةِ أهل الحِجاز.

أَمَّا بنو تَميم فإنها عندهم فِعْلُ أمرٍ؛ ولهذا يَقولون للواحِد: هَلُمَّ إلينا. وللاثنين: هَلُمَّا إلينا. وللجماعة: هلُمُّوا إلينا. فالأَمْر هنا يَدُلُّنا على الاثنَيْن اسم فِعْل أمر؛ لأنها لو كانت فِعْلَ أمر لقال: هلُمُّوا إلينا.

قوله تعالى: ﴿هَلُمَّ إِلَيۡنَا﴾ يَعنِي: تعالَوْا، هذا بالنِّسْبة لغيرهم، يَدْعون غيرَهم إلى تَرْك القِتال.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَأۡتُونَ ٱلۡبَأۡسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ والقَليل هنا قد يَكون الُمرادُ به العدَمَ، وقد يَكون الُمرادُ به الشيءَ اليَسيرَ القِلَّة، ويُمكِن أن يُراد به العدَمُ بالنسبة لقَوْم، والقِلَّة بالنِّسبة لآخَرين من الُمنافِقين؛ لأن من الُمنافِقين مَن لا يَحضُر القِتال أصلًا ومنهم مَن يَحضُر قليلًا للرِّياءِ والسُّمْعة، ومَعلوم أن مَن يُلاحِظ الرِّياء والسُّمعة فإنه إذا كان في مَحلٍّ يَجِد الرِّياءَ والسُّمعة حضَر، وإذا كان في مَحلٍّ لا يَجِد الرِّياء ولا السُّمْعة لم يَحضُر.

وما الفَرْق بين الرِّياء والسُّمْعة؟

الرِّياء يَعـود إلى الأفعال، والسُّمْعة تَعـود إلى الأقوال؛ لأن الأفعـال تُرَى والأقوال تُسمَع؛ ولهذا جـاء في الحديث: «مَنْ رَاءَى رَاءَى اللهُ بِهِ، وَمَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ بِهِ»(١)، فإذا تكلَّم شَخْص بذِكْر ورفَع صَوْته؛ ليُسمَع ويُثْنَى عليه به، فنَصِفُ فِعْله بأنه سُمْعة، وإذا قام يُصلِّي؛ ليَراه الناس فهو رِياءٌ، وقد يُطلَق الرِّياء عليهما جميعًا، لكن عندما يَجتَمِعان يَكون الرِّياء يَتعلَّق بالأَفْعال والسُّمْعة بالأَقْوال؛ يَقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [رِياءً وسُمْعةً].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: إحاطة عِلْم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بكُلِّ شيء؛ لأن هذه مَسأَلة جُزئيَّة من العـالَم فقَولُ هؤلاءِ: ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ وتَعويقـهم فَرْد من أفراد العالَم، جُزءٌ بَسيـط لا يُنْسَب إلى العالَم، ومع ذلك يَعلَمه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والعالِم بالدَّقيق عالِم بالجَليل من بابِ أَوْلى؛ ففيها إثبات إحاطة عِلْم الله تعالى بكُلِّ شيء جُملةً وتَفصيلًا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: ثُبوت عِلْم الله تعالى بالمُستَقبَل؛ لأنه جاءَت بصيغة المُضارِع، ومنها التهديد والتَّحذير من التَّعويق عن القِتال، وجهُه قد يَعلَم الله تعالى، وهذا من أَجْل تَهديدهم حتى لا يَفعَلوا ذلك.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تَعاوُن المُنافِقين بعضِهم مع بعض؛ لقوله: ﴿وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾، وإذا كان كذلك فإن القائِلين تَكون عَطْفًا على المُعوِّقين من باب عَطْف الصِّفات،

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب الرياء والسمعة، رقم (٦٤٩٩)، ومسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٧)، من حديث جندب بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وذكَرْنا في التفسير أنه مُحْتَمَل أن تكون عطفَ الصِّفات أو عطفَ الذوات، فإن كانت عطفَ الصِّفات صار المُعوِّقون هُمُ القائِلين، وإن كان عطفَ ذَوات صاروا قِسْمين؛ مُعَوِّق وقائِل، فالمُعوِّق قد يَدْعو وقد لا يَدْعو، ولكن على كل حال: هي في المُنافِقين؛ لأن آخِر الآية يُبطِل الاحتِمال الذي ذكَرْناه بأن تكون في أَحَدٍ من المُؤمِنين.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن أُولئِك المُعوِّقين لغيرهم هم بأنفسهم جُبَناءُ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فهم جُبَناءُ ومُخَدَّرون مُرْجِفون.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن كلَّ إنسانٍ يُصَاحِب غيره ويَمتَزِج به؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾، فإن هذه أُخوَّة في الشَّرِّ والنِّفاق، وليسَت في الإيمان.

• • ۞ • •

الآية (١٩)

• ● ● •

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [الأحزاب:١٩].

• ● ● •

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ بالمُعاوَنة جَمْع شحيح وهو حال من ضَمير يَأتون] في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾: ﴿أَشِحَّةً﴾ جمع شحيح، والشحيح هو المانع مع الحِرْص، والبَخيل هو المانِع بدون حِرْص، فإذا كان الإنسان مَنوعًا جَموعًا، يَعنِي: مع الحِرص يُسمَّى ذلك شحيحًا، وإذا كان بَخيلًا لكنه ليس ذاك الرجُلَ الذي يَكون حريصًا على جَمْع المال مثلًا، فإنه يُسَمَّى بخيلًا؛ ولهذا قال النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ محُذِّرًا من الشُّحِّ: «اتَّقُوا الشُّحَّ فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»[(١)].

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ نُصِبت على الحال من فاعِل ﴿يَأْتُونَ﴾ يَعنِي: لا يَأتون إلَّا قليلًا، ومع ذلك يَأتون أَشِحَّةً عليكم، يَعنِي: وهم أَشِحَّاءُ عليكم، لا يُريدون أن تَصِلوا إلى خَيْرٍ، بل يُحِبُّون أن يَمنَعوا كلَّ خَيْر عنكم.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾: ﴿جَآءَ ٱلْخَوْفُ﴾ الخوفُ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٨)، من حديث جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ

ليس ذاتًا تَأتي لكنـه مَعنًى يَأتي، والمَجِيء يَكون للمَعـاني ويَكون للذَّوات، فتَقول: جاءَهُ المرَض. وتَقول: جاء زيدٌ.

والمَجيء هنـا أُسْنِد إلى مَعنًى ﴿جَآءَ ٱلْخَوْفُ﴾ فهُوَ عامٌّ، فإذا جاء الخَوْف سواءٌ جاء من الأَعْداء الذين حـضَروا إلى المدينة، أو الخوف من الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حين يَطَّلِع على أَحْوالهـم، فيَخافُون منه، من أن يَفضَحَهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأفعالهم أو يُسَلِّط عليهم رسولَهُ ﷺ.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ الخِطاب هنا هل هو للرسول ﷺ أو لكُلِّ مَن يَتوجَّه إليه الخِطاب؟

الجَوابُ: يُحْتَمَل أن يَكون للرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وهو الأَقْربُ ويُحْتَمَل أن يَكون لكلِّ مَن يُوَجَّه إليه الخِطاب.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ الرُّؤْية هنا بصَريةٌ، وعلى هذا فلا تَنصِب إلَّا مَفعولًا واحِدًا وهو الهاء، وتَكون كلِمةُ ﴿يَنظُرُونَ﴾ حالًا من الهاء: رأيتَهُم حالَ كَوْنهم يَنظُرون إليك.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾؛ لأن الخائِف غالِبًا يُركِّز على جِهةِ الخَوْف، سواءٌ كان شَخْصًا أو أشخاصًا، وتَدور عينُه على غير نظَرٍ سليم، يَعنِي: كأنَّها تَدُور بغير اختِيارهم من شِدَّة الخَوْف.

ثُم شبَّهَ حالهم بعد أن شَبَّه أبصارَهـم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [كنظَر أو كدَوَران]، فإن كانت ﴿كَٱلَّذِى﴾ عائِدة على ﴿يَنظُرُونَ﴾ قـدَّرنا: النظَر، وإن كانت عائِدة على ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾ قـدَّرنا: كدَوَران،

ولكن الذي يُناسِب القُرآن الأوَّلُ: نظَر، كما قال تعالى في سُورة القِتال: ﴿مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ [محمد:٢٠].

وربما نَقول: يَنظُرون إليك تَدُور أعيُنُهم كالذي يُغْشَى عليه من المَوْت، ليس عائِدًا على النظَر، وإنما هو عائِد على حالهم، يَعنِي: كالإنسان المَغشِيِّ عليه من الموت؛ لا يَستَطيعون أن يَتكلَّموا؛ لأن أَرياقهم يَبِسَت، ودِماؤهم غارَت بسَبَب الخوف، فإذا جاء الخوف فإنها تَتغَيَّر أبصارُهم وتَتغيَّر أحوالُهم أيضًا ﴿كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ والذي يُغشَى عليه من الموت لا شَكَّ أنه يَصفَرُّ وجهُهُ، ولا يَستَطيع أن يَنطِق في الغالِب ﴿كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِن سَكَراته] أي: سَكَراته يُغشَى عليه ﴿مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾: (من) هنا للسببية وهل تَأتي (مِن) للسَّببية؟

الجَوابُ: نعَم، تَأتِي في مَواضِعَ كثيرةٍ، والأصل فيها أنها للابتِداء، حتى زعَم بعضُ النَّحوِيِّين أنها في كل مَكان تَكون للابتِداءِ، حتى فيما إذا كانت سببيَّةً قال: لأنها ابتِداء السبَب. لكن الصحيحَ ما ذهَب إليه ابنُ مالِك رَحِمَهُ ٱللَّهُ -وغيرُه من النَّحويِّين أنها تَأتي لمَعانٍ كثيرةٍ- قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

بَعِّضْ وَبَيِّنْ وَابْتَدِئْ فِي الْأَمْكِنَهْ ... بِمِنْ وقَدْ تَأْتِي لِبَدْأِ الْأَزْمِنَهْ

وَزِيدَ فِي نفْيٍ وشِبْهِهِ فَجَرّ ... نَكِرَةً كَمَا لِبَاغٍ مِنْ مَفَرّ[1]

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ﴾ وحِيزت الغَنائِمُ ﴿سَلَقُوكُم﴾ آذَوْكم أو ضَرَبوكم ﴿بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾ أي: الغَنيمة يَطلُبونها ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟﴾

(١) الألفية (ص:٣٥).

حقيقةً ﴿فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾]، فإذا ذهَـبَ الخَوْفُ صار هؤلاءِ الذين كانوا حين الخَـوْف كالمَغشِيِّ عليه من الخَـوْف صاروا يَنطِقون بطَلاقـةٍ، ﴿سَلَقُوكُم﴾ يَعـنِي: أَصابوكم بشِدَّة ﴿بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ أي: شَديدةٍ قويَّةٍ.

والمُراد بالأَلسِنة هنـا الكلامُ؛ لأن الكلام يُعَبَّر عنـه باللسان، المَعنى: أنهـم يُجادِلون ويُنـاظِرون ويَقولون: نحن معَكم، نحن نُساعِد، نحن خرَجنا، وما أَشبَه ذلك، كما قال الله تعالى في سورة النساء: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَـالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ [النساء:١٤١] وأَبْدَوا وأَعادوا في غَلبتهم للمُسلِمين؛ لأنه لا شَكَّ أن الإنسان قد يَغـلِب خَصْمه بالكلام كما قال الله تعـالى في قِصَّة داودَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ [ص:٢٣] غلَبَني، والإنسان اللَّسِن الذي عنده بَيان وعنده فَصاحة قد يَغلِب ولو كان على باطِل.

ولهذا قال النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ فَأَقْضِيَ لَهُ بِنَحْوِ مِمَّا أَسْمَعُ**»[(١)]، يَعنِي: وإن كان على باطِـل؛ فالإنسـان قد يَغلِب ببَيانِه الحقَّ؛ ولهذا كما تَعلَمون جـاء في الحديث الصحيح: «**إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا**»[(٢)]، فهؤلاءِ المُنـافِقون الذين في حال الخـوف على الصورة التي صوَّرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ لكِن ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ﴾ واطمَأنُّوا ﴿سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ يَعنِي: أَصابوكم بشِدَّة بهذه الأَلسِنة الحِداد.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم والغصب، باب إثم من خاصم في باطل، رقم (٢٤٥٨)، ومسلم: كتاب الأقضية، باب الحكم بالظاهر واللحن بالحجة، رقم (١٧١٣)، من حديث أم سلمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب الخطبة، رقم (٥١٤٦)، من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾ هـذه حال من الواو في قوله تعالى: ﴿سَلَقُوكُم﴾، وما المُراد بالخَيْر هنا؟

يَقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الغَنائم التي أَصابها المُسلِمون بانتِصارهم؛ قال تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ﴾ حَقيقةً، ولو آمَنوا، أَقول: (ولَوْ آمَنوا) ما فعَلوا هذا الفِعْلَ، ولَمَا كانوا يَخافون من البَأْس، ولا كانوا يَدَّعون ما لا يَستَحِقُّون فيها إذا انتهَتِ المَعْركة.

وقـوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ يَعنِي: أَبطَلها؛ حتى لا يَنتَـفِعوا بها، وكان ذلك الإِحْباطُ على الله عَزَّوَجَلَّ يَسيرًا [بإرادته]، فهو يَسير على الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنه عَزَّوَجَلَّ لا يَخْشَى من أحَدٍ، كما قال تعالى في قول قوم صالِحٍ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ [الشمس:١٤-١٥] فلا يَخاف عَزَّوَجَلَّ من عاقِبته، بِخَـلاف المَخلوق، فالمَخلوق قد يُنكِّل بشَخْص ويُعاقِبه، ولكنه يَخْشَى من عاقِبتـه؛ فيَخْشى من قبيلتِهِ، ويَخشَى من الغَـدْر به، وما أَشبَه ذلك؛ أَمَّا الرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ فإن كلَّ أَمْرٍ يَسيرٌ عليه، ولا يَخافُ من أحَدٍ حين يَنتَقِم منه.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: في هذه الآيةِ دليـلٌ على بُخل المُنافِقين بما يَنفَع المُؤمِنين، وأنَّهم لا يَأتونهم إلَّا عن كَراهية، كالشَّحيح في بيع الماء كقَوْله: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: جُبْن المُنافِقين، وأنهُم في غاية الجُبْن؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ إلى آخِره، وبهذا نَعرِف أنهم أحَقُّ الناس بما وَصفُوا به النَّبيَّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وأصحابه حيث قالوا: «ما رَأَينا مِثْلَ قُرَّائِنا هؤلاءِ أَرْغَب بُطُونًا

ولا أَكذَب أَلْسُنًا، ولا أَجبَن عِنْد اللِّقاءِ»[1]، فنَقول: إن هذه الأَوْصاف أنتُمْ أحَقُّ الناسِ بها.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: شِدَّة فزَع المُنافِقين عنـد الخَوْف؛ لأن تَصويرهم بهذه الصُّورةِ يَدُلُّ على الفزَع العَظيم الذي يَنالُهم عند الخَوْف.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: شِدَّة مَحبَّة المُنافِقين للحياة؛ لأنهم إنما بَلَغوا هذا المَبلَغَ من الخَوْف حِرْصًا على الحَياة وخَوْفًا من الموت بالقِتال.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: قوَّةُ تصوير القُرآن للأَحْوال الواقِعة؛ لأن هذه الصُّورةَ التي ذكَرها الله تعالى صورة مُدْهِشة تَجعَل الإنسان يَتخَيَّلُ شِدَّة فزَعهم كأنه رَأيُ عَيْنٍ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن للمَوْت سكَراتٍ؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾، وهذا بالنِّسبـة للمَوْت العادِي، أمَّا الموت المُبـاغِت فقد لا يَكون فيـه سكَرات، فقد يَموت الإنسان بَغْتـة كالذي يَحدُث بالحوادِث وسَكتات القُلوب وما أَشبَهها.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن هؤلاءِ الجُبَناءَ المُنافِقين إذا ذهَب الخَوْف -على أنهم حين الخَوْف كالأموات أو كالذي يُغْشى عليه من الموت-، صاروا أبطالَ الكَلام، وأُمَراءَ الفَصاحـة والتَّسلُّط؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم﴾ فإذا ذهَـب الخَوْف بدَؤُوا يَتكَلَّمون.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: شِدَّة المُنافِقين على المُؤمِنين، وأنهم عليهم أَشِدَّاءُ غِلاظٌ؛ لقوله

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١١/ ٥٤٣)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٦/ ١٨٢٩)، عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

تعالى: ﴿سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أن المُنافِقين كما قال الشاعِر:

أَسَدٌ عَلَيَّ وَفِي الحُرُوبِ نَعَامَةٌ ....[1]

فهُمْ على المُؤمِنين أُسودٌ بالباطِل، وطبعًا ليس بالحَقِّ، وعند الكُفَّار نَعامة، فالنَّعامة من جُبْنها إذا رأتِ الصَّيَّاد تَدخُل رَأْسها في التُّراب؛ لئَلَّا يَراها!.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: عِلْمُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بما في القُلوب ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يُؤۡمِنُواْ﴾؛ لأن الظاهِر لنا أنهم مُؤمِنون لكن الواقِع غير مُؤمِنين.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: التحذير من هذه الصِّفاتِ التي يَتَّصِف بها المُنافِق حتى وإن كان الإنسان مُؤمِنًا؛ لأنها صِفات غيرِ المُؤمِنين؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يُؤۡمِنُواْ﴾، والمُؤمِن مَنهيٌّ عن الاتِّصاف بصِفات غير المُؤمِنين.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أن الكُفْر مُحبِط للعمَل سواءٌ كان ظاهِرًا أم باطِنًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَحۡبَطَ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾، فأَحبَط الله تعالى أَعمالهم.

وفي الجُمْلة من هـذه الآيةِ إشكال؛ لأن الإِحْباط فَرْعٌ عن قيـام الشيء، وهُمْ مُنافِقون، أَعمالهم باطِلة من الأصل؟

والجَـوابُ أن يُقال: إنَّ الإِحْبـاط نَوعان: إِحْبـاطُ ما تَمَّ، وإِحبـاطُ ما لم يَتِمَّ، فإِحْبـاط ما تَمَّ ظاهِر، وإحباط ما لَم يَتِـمَّ أن يَكون من الأصل حابِطًا، ومنـه قول بعض الفُقَهاء رَحِمَهُمُ اللَّهُ: إذا لم يُكَبِّر تكبيرةَ الإحرام بَطَلت صَلاته، فنَحن نَقول هنا:

---

(١) البيت نسبه البعض لعمرَان بن حطَّان قاله للحجاج، انظر: عيون الأخبار لابن قتيبة (١/ ٢٦٣)، وثمار القلوب للثعالبي (ص:٤٤٣)، وربيع الأبرار للزمخشري (٤/ ١٠٦).

ما صلَّى حتى تَبْطُل، لكن هذا بُطلانُ ما لم يَتِمَّ.

أو جَوابٌ ثانٍ: أن نَقول: ﴿فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾: إن أعمالهم ظاهِره الصِّحَّة؛ لأنه من قَوْمٍ يَدَّعون الإسلام، ويَفعَلونها على ظاهِر الشَّرْع، لكنها في الواقِع باطِلةٌ؛ لعدَم الأساس.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: أَهَمِّية الإِخْلاص لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ﴾، فجَعَل الإِحْباط فَرْعًا عن عدَم الإيمان، وهذا يَدُلُّ على أنَّ الرَّكيزة الأصليَّة للأعمال هي الإيمان.

وهل يُؤخَذ من الآية الكريمة أن الأَعْمال تَزدادُ قوَّةً بقُوَّةِ الإيمانِ وفَضْلًا؟

الجوابُ: نعَم؛ لأنه لَمَّا حبِط العمَلُ لِعَدَم الإيمان دلَّ هذا أنه يَقوَى بقُوَّة الإيمان؛ ولهذا قال النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في الصحابة: «لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ»(١)، فالعمَل واحِد، لكن العامِل مُختَلِف، ففَرْق بين مَن يَعمَل بإيمان راسِخٍ قوِيٍّ كأنما يُشاهِد الثَّواب له بعَيْنه، وبين شَخْصٍ ليس على هذه الحالِ.

فإذَن: تَفاضُلُ الأعمال يَكون مَبنِيًّا على تَفاضُل ما في القُلوب، ويُذكَر عن بعض السَّلَف أنه قال: واللهِ ما سبَقَهم أبو بَكْر بكَثْرة صِيامٍ ولا صَلاةٍ، ولكنه سبَقَهم بما وقَرَ في قَلْبه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من الإيمان العَظيم الراسِخ(٢).

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذًا خليلًا»، رقم (٣٦٧٣)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب تحريم سب الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ رقم (٢٥٤١) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ذكره ابن تيمية في منهاج السنة (٦/ ٢٢٣)، عن أبي بكر بن عياش، وذكره صاحب فتح المجيد شرح كتاب التوحيد (ص:٤٨) عن بكر بن عبد الله المزني.

ولا يُقال: إن هذا فَتْحُ باب للعَصاة، فالعاصِي إذا قال له قائِل: اتَّقِ الله تعالى اتْرُكِ المَعصية، اتَّقِ الله تعالى أَقِمِ الواجِب. قال: التَّقوى هاهنا. ثُمَّ ضَرَب على صَدْره ضربةً، التَّقوى هاهنا! فنَقول له: التَّقوى هاهنا صحيح، لكن هذه كلِمة حقٍّ أُريد بها باطِل، نَقول: لوِ اتَّقى ما هاهنـا لاتَّقَى ما هاهنا؛ لقول الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ**»(١) لو صلَح ما هاهنا لصلَح الظاهِر.

فالحاصِل: أن هـذه الآيةَ واضِحة، الدَّليلُ فيها دليـل واضِح على أنَّ الأعمال تتَفاضَل بِحَسَب ما في القلوب من الإيمان، والشاهِد من الحديث هو قول النبيِّ ﷺ للصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: «**لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ**».

فإن قال قائِل: مُدَّ أحَدهم من الذهَب أو مُدَّ أحَدِهم من الطعام؟

فالجَوابُ: يُحتَـمَل؛ فبعضُهم يَقول: مُـدَّ أحَدهم من الطَّعـام؛ لأنه هو الذي جرَتِ العادة أن يُكال. يَعنِي: لو أَنفَق أحدُكم مثل أُحُدٍ ذهَبًا ما بلَغ مُدَّ واحِد منهم من التَّمْر؛ لأنه هو الذي يُكال عادةً، وبعضُهم يَقول: ما بلَغَ مُدَّ أحدِهم من الذهَب؛ لأن التَّفاضُل بين الطعام والذهَب بَعيدٌ، لكن التَّفاضُل بين الذهَب القليل والذهَب الكثير.

• • ❁ • •

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم (٥٢)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم (١٥٩٩)، من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الآيــة (٢٠)

• • ◦ • •

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب:٢٠].

• • ◦ • •

قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ﴾ بمَعنَى: يَظُنُّون، وهي تَنصِب مَفعولين أصلُهما المُبتَدَأُ والخبَرُ، والمَفعول الأوَّل هنا قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ٱلْأَحْزَابَ﴾ والمَفعول الثاني: جُمْلة ﴿لَمْ يَذْهَبُوا۟﴾ يَعنِي: يَظُنُّ هؤلاء المُنافِقون أن الأحزاب لم يَذهَبوا، وهذا يَدُلُّ على جُبْنهم وخَوْفهم وذُعْرهم؛ لأنه حتى بعد ذَهاب الأحزاب وتَفريقهم يَظُنُّ هؤلاء المُنافِقون أنهم لم يَذهَبوا.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَمْ يَذْهَبُوا۟﴾ إلى مكَّةَ؛ لخَوْفهم منهم ﴿وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ﴾ كرَّة أُخرى ﴿يَوَدُّوا۟﴾ يتَمنَّوا ﴿لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ﴾ أي: كائِنون في البادية ﴿يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ﴾ أَخبارِكم مع الكُفَّار].

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِن يَأْتِ﴾ هذا على سبيل الفَرْض والتقدير، وقوله تعالى: ﴿ٱلْأَحْزَابُ﴾ جَمْع حِزْب وهُمُ الطوائِف الذين تَحزَّبُوا على النبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من قُرَيشٍ وغَطَفانَ وأَسَد وغيرهم، لو أَتَى هؤلاءِ الأحزابُ مرَّةً أخرَى لوَدَّ هؤلاءِ المُنافِقون أنَّهم ﴿بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ﴾ البادِي: هو الساكِن البادِيَة، ومنه قول النبيِّ

عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لَا يَبِعْ حَاضِرٌ لِبَادٍ»(١)، فبادٍ هذه اسمُ فاعِل ومَعناها ساكِن البادية، فيَـوَدُّ هؤلاءِ أنهُمْ ﴿بَادُونَ فِي ٱلْأَعْرَابِ﴾ أي: ساكِنـون البادِية؛ لِأَجْـل النَّجاة من هؤلاء الأَحزابِ.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ﴾ جُمْلة حالِيَّة من الفاعِل في قوله تعالى: ﴿بَادُونَ﴾ يَعنِي: يَوَدُّ هـؤلاءِ المُنافِقون أنهم في البادِية يَسأَلون عن أَنبائِكم، ولا يُشارِكونكم في القِتال، فبَيَّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذُعْر هؤلاءِ المُنافِقين بوَجْهين:

الوَجْه الأَوَّل: أنهم يَظُنُّـون أن الأَحزاب ما زالوا باقين، مع أن الأَحزاب قد انصَرَفوا.

الوجه الثاني: أنه لو فُرِض أن الأَحزاب رجَعوا فإِنهم يَتَمنَّوْن أنهم في البادية لا يَلحَقهم مُناوَشاتٌ ولا قِتال، وإنَّما يَسأَلون عن أنبائِكم، إِذَن فجُمْلة: ﴿يَسْـَٔلُونَ﴾ نَقول: إنها في مَوضِع نَصْب على الحال من فاعِل ﴿بَادُونَ﴾.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم﴾ هذه الكَرَّة ﴿مَّا قَـٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا﴾ رِياءً وخَـوْفًا من التعيير]، يَعنِي: (لو) هـذه شَرْطية، وجَوابها هنـا مَقرون بـ(ما)، وإذا كانت (لو) الشَّرْطية مَقرونةً بـ(ما)، فإِن الأكثَر أَلَّا يَقترِن الجوابُ باللَّام؛ لأن (ما) للنَّفيِ، واللَّامُ للتَّوكيد واجتِماع حَرْف يَدُلُّ على التَّوكيد مع حَرْف يَدُلُّ على النَّفيِ فيه شيء من التَّعارُض والتَّناقُض، فتَقول: لو جاء زَيْدٌ ما كلَّمْتُك. ولا تَقول: لو جاء زَيْدٌ لَمَا كلَّمْتُك. يَرحَمك الله تعالى، لكن إذا كان جَوابُها مُثبَتًا فإن الكثير أن تَقترِن به اللَّام، تَقول: لو جاءَ زَيْدٌ لكَلَّمتُك؛ هذا الأَكثَرُ، ويَجوز: لو جاء زَيْدٌ كلَّمتُكَ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب النهي للبائع أن لا يحفل الإبل، رقم (٢١٥٠)، ومسلم: كتاب النكاح، باب تحريم الخطبة على خطبة أخيه، رقم (١٤١٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في سورة الواقِعة: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَـٰهُ حُطَـٰمًا﴾ [الواقعة:٦٥]، هذه اقترَنَت بها اللَّام ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَـٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة:٧٠]، أمَّا (ما) هنا فلَمْ تَقترِن بها اللَّامُ، لكن قد تَقْتَرِن بها اللَّام قليلًا، ومنه قول الشاعِر:

وَلَوْ نُعْطَى الخِيَارَ لَمَا افْتَرَقْنَا ... وَلَكِنْ لَا خِيَارَ مَعَ اللَّيَالِي[1]

يَقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا﴾: ﴿قَلِيلًا﴾ هنا بمَعنَى: إلَّا عدَمًا، أو هي على ظاهِرها أنَّهم يُقاتِلون، ولكن قِتالًا قليلًا، هذا هو الأقرب؛ لأن الأصل إبْقاء الكلام على ظاهِره، إلَّا أن يَقوم دليلٌ على أن ظاهِره غيرُ مُراد، فهؤلاءِ لو كانوا فينا حينما يَأتِي الأحزاب لوَجَدْتهم من جُبْنهم لا يُقاتِلون إلَّا قليلًا.

وفسَّر المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ هذا القِلَّةَ بأنها من أَجْل الرِّياء وخَوف التَّعيير؛ يَعنِي: يُراؤُون الناس بأنهم يُقاتِلون في سبيل الله تعالى، ويَخافون من تَعْيير الناس لهم، فهم لا يُقاتِلون؛ لتكون كلِمةُ الله هي العُليا، وهذا من أهَمِّ ما يَكون، أَعنِي: إخلاصَ الإنسان عِبادته لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هذا من أهَمِّ ما يَكون، ومن أشَدِّ ما يَكون عِلاجًا على النَّفْس؛ لأن الأعمال الظاهِرة كلُّ أحَدٍ يَستَطيع أن يَجعَلها على أحسَنِ ما يُرام؛ كلُّ أحَد يَستَطيع أنه يَقوم ويُصلِّي بقِراءةٍ مُتأنِّيةٍ وبرُكوعٍ مُتأنٍّ وبسُجودٍ مُتأنٍّ وبقِيامٍ مُتأنٍّ وبقُعودٍ مُتأنٍّ؛ لكن إصلاح القَلْب هو الصَّعْب؛ ولهذا كان صَلاح القَلْب مُوجِبًا لصلاح البدَن، ولا عكسَ، كما قال النبيُّ ﷺ: «**أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّه أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ**»[2].

---

(١) غير منسوب، وانظره في: مغني اللبيب (ص:٣٥٨)، وشرح التصريح (٢/ ٤٢٤)، وهمع الهوامع (٢/ ٥٧٢)، وخزانة الأدب (١٠/ ٨٢).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم (٥٢)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم (١٥٩٩)، من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فهَؤُلاءِ المُنافِقون ليس لدَيْهم رغبةٌ حقيقيةٌ في القِتال الذي يَرجُون به إِحْدى الحُسْنيَيْن، إمَّا الشهادة وإمَّا الظَّفر والسَّعادة، لكنهم إنما يُقاتِلون رِياءً وخَوْفًا من التَّعيير فقَطْ لا لله تعالى، وإن كانت هذه نِيَّته فإنه لن يُقاتِل القِتال الذي يَنبَغي أن يَكون، سيَكون فاتِرًا، بخِلاف الإنسان صاحِب النِّيَّة الخالِصة لله عَزَّوَجَلَّ، فسيَكون لدَيْه دافِع قوِيٌّ يَحْدُوه إلى العَمَل بما يَرَى أنه من طاعة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: قُوَّة جُبن هؤلاءِ المُنافِقين، حيث يَظُنُّون أن العَدوَّ باقٍ وهو قد ذهَب؛ ولهذا شاهِدٌ، فلو أن رجُلًا جَبانًا رأى أسَدًا في مَغارة وذهَبَ الأسَد من هذه المَغارة وأُخرِج فقلتَ لهذا الرَّجُل الجَبانِ: نَمشِي من عند المَغارة هذه؟ سيَقول: لا، ففيها أسَد؛ لأنه جَبان، فالجَبان يَظُنُّ أن عَدوَّه لم يَبرَح مكانه، ويَخشَى حتى من ظِلِّه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن هَؤلاء المُنافِقين لو عاد الأحزاب مرَّةً أُخرى لودُّوا أنهم في الأعراب، لا في المدُن؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّواْ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ﴾ مع أن عَيْش المُدُن أحسَنُ، لكن لجُبْنهم يتمَنَّوْن أن يَذهَبوا للأعراب في البادِيَة، ولا يَحضُرون هؤلاء الأَحْزابِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن هؤلاءِ المُنافِقين لا يُريدون أن يُشارِكوا المُؤمِنين في مَعارِكهم؛ لقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ﴾ فهُمْ يُحِبُّون أن يَكونوا بعيدين عن المَعارِك، ولا يَتحَسَّسون إلَّا الأخبارَ فقَطْ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن المُنافِق لو شارَك المُؤمِنين في القِتال، فإنه لن يُقاتِل إلَّا قليلًا، قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

وهاهُنـا مَسأَلة: هل يَجوز لنـا أن نُشرِك المُنافِقين في قِتالنـا إذا علِمنا أنَّهـم مُنافِقون؟

فنَقول: لا نُشرِكهم؛ لأن ضرَرهم عَلَيْنا أكْثرُ بكثيرٍ من نَفْعهم، أمَّا مَن لا نَعْلَم حاله فإن الأصل أن يُؤاخَذ الإنسانُ بظاهِر حاله.

فإن قال قائِل: مَن كان عنده خَوْف شَديد ودُعِيَ إلى القِتال فرفَض من أَجْل خَوْفه، فهل يُقال عليه: مُنافِق؟

فالجَوابُ: الله تعالى أَعلَمُ بما في قَلبـه، لكن في ظَنِّي أنه ليس هناك أحَد يَخاف إلى هذا الحَدِّ؛ لأن غاية ما عِنده: القَتْل، وهو إذا قُتِل في سبيل الله تعالى خيرٌ من أن يَمـوت على فِراشه، فيَجِب على الإنسان أن يَتغَلَّب على هذه الأشيـاءِ، فكلُّ خوف يَمنَعك من واجِب فهو مَذموم.

• ● ۞ ● •

الآيــة (٢١)

• ● ◦ ● •

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب:٢١].

• ● ◦ ● •

قولُه رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ﴾ بكَسْر الهَمْزة وضَمِّها] ﴿لَّقَدْ﴾ اللَّام مُوطِّئـة للقَسَم، و(قَدْ) للتَّحقيق، وعلى هذا فالجُمْلة مُؤَكَّدة بثلاثةِ مُؤكِّدات وهي: القسَم المُقدَّر واللَّام و(قَدْ).

وقوله تعـالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ﴾: ﴿كَانَ﴾ فِعْـلٌ ماضٍ، وكيف يَتـوَجَّه أن يَكون فِعْـلًا ماضِيًا والتَّأسِّي بالرسـول ﷺ مُستَمِرٌّ دائِمٌ، والمَعـروف أن الفِعْل الماضِيَ قد انقَضَى زمَنُه، فيُقال -والله أعلَمُ-: لقد كان لكُم في عِلْم الله تعالى وفي شَرْع الله عَزَّوَجَلَّ أُسْوةٌ حسَنةٌ.

وقوله تعالى: ﴿فِى رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ ولم يَقُل: في مُحمَّد. ولم يَقُل: في النَّبيِّ. إشارةً إلى أنَّ الأُسْوة فيه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لأنه رَسولُ الله تعالى، فهذا الوَصْفُ يُفيد العِلِّيَّة أي: أنَّ عِلَّة الأُسْوة كونُه رسولَ الله ﷺ، وإلَّا ما كان علينا أن نَتَأَسَّى به؛ لأنه رَجُل من الناس؛ لكن لأنه رَسول الله تعالى كان لنا فيه أُسْوة حَسَنة.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: «إِسْوَةٌ» بكَسْر الهَمْزة وضمِّها قِراءتان سَبْعيَّتان؛ لأن طريق المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ إذا عبَّر بهذا التَّعبيرِ فالقِراءتان سَبْعِيَّتان مُتساوِيَتان، أمَّا إذا قال: (قُرِئَ)

فالقِراءة الثانية شاذَّةٌ.

إِذَنْ: يجوز أن أَقول: «إِسْوَةٌ» و ﴿أُسْوَةٌ﴾.

وهلِ الأَفضَل أن أَقتَصِر على واحِدة من القِراءات أو أن أَقرَأ بهذه تارةً وبهذه أُخرى؟

الجَوابُ: سبَق لنا أن الأفضَل لِمَن عَلِم القِراءةَ وتَأكَّدها: أن يَقرَأ بهذه تارةً وبهذه أُخرى، لكن ليس عِند العامَّة، فلو قرَأْنا بهذه القِراءةِ عِند العامة حصَل في ذلك تَشويشٌ ورَدٌّ فِعْلٍ؛ فيَقولون: كيف هذا يُغيِّر في القُرآن ويُحرِّف. أمَّا فيما بين الإنسان وبين نَفْسه فإذا كان يَعلَم أن هناك قِراءَتَيْن فإن من الأفضَل أن يَقرَأ بهذه مرَّةً وبهذه أُخرَى؛ لأن كِلْتا القِراءَتَيْن ثابتةٌ عن رسول الله ﷺ، فلا يَنبَغِي أن نَقتَصِر على واحِدةٍ فقَطْ؛ لأننا إذا اقتَصَرْنا على واحِدة فقَطْ هجَرْنا البَقيَّة

فإذا جاء شَخْص يَتعلَّم القِراءات نُعلِّمه، لكِنَّ الرجُل العامِّيَّ لا يَدرِي عن هذه الأُمورِ، فلا شَكَّ أنه قد يُوجَد عنده التَّشوِيش من جِهة، ثُم إنه قد يُجرِّئه على أن يَقرَأ بهذه القِراءةِ على وَجْه الخَطَأ.

وليَكُن لا يَضُرُّ -الاقتِصار على واحِدة- لأنه بالإِجْماع الاقتِصارُ على واحِدة جائِزٌ، وليس هو على سَبيل الوُجُوب، فإذا كان يَحصُل من فِعْل القِراءة الثانية مَفسَدةٌ فلا حرَجَ من عدَم قِراءتها.

وقوله: ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [اقتِداءٌ به في القِتال والثَّبات في مَواطِنه]، هذا التَّفسيرُ من المُفَسِّر فيه نَظَرٌ؛ وجهُه: أنه خَصَّصه بالقِتال، والحَقيقة أنه أُسْوة حسَنةٌ في كل ما يَفعَله، فكلُّ ما كان من سُنَّتِه فإن لنا فيه أُسْوةً حسَنةً.

وقوله تعالى: ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ فيها مَعْنيان:

المَعنَى الأوَّل: أنَّ التَّأسِّيَ بالرسول ﷺ كلُّه حسَن؛ لأنه ﷺ مَعصوم من الخَطَأ في التَّشريع، فكُلُّ التَّأسِّي به فهو حسَنٌ، بخِلاف التَّأسِّي بغيره، فقد يَكون حسَنًا، وقد يَكون غيرَ حسَنٍ.

المَعنَى الثاني: أُسْوة حسَنة باعتِبار تَأسِّينا به، لا باعتِبار ما هو عليه، والأُسوة الحسَنة باعتِبار تَأَسِّينا به هو أن نَكون مُوافِقين له في القَوْل والفِعْل والقَصْد -الذي هو العَقيدة-، فنُوافِقه في هذه الأُمور الثلاثة: في العَقيدة والقَوْل والفِعْل، هذه الأُسْوةُ الحسَنة.

فمَن وافَقَه في قوله دون فِعْله لم يَتأَسَّ به أُسْوةً حسَنة، ومَن وافَقه في فِعْله دون قَوْله، لم يَتَأسَّ به أُسْوة حَسَنةً، ومَن تَأسَّ به في قَوْله وفِعْله دون عَقيدته وقَصْده لَمْ يَتأَسَّ به أُسْوة حسَنة.

ويَدخُل في الأُسْوة الحسَنة الدَّعوةُ إلى دِين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فإن الرسول ﷺ لا شَكَّ أنه يَدعو إلى دِين الله تعالى، قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف:١٠٨].

وبهذا نَعرِف أنه يَنبَغي لطالِب العِلْم أن يَكون له نشاطٌ في مُجتَمَعه، لا نُسخةَ كِتاب فقَطْ، بمَعنَى أن يَكون مُحرِّكًا لضمائر الناس ومَشاعِرهم وتَوجيههم، ويَكون لدَيْه عَزيمة في إصلاح الخَلْق؛ حتى لا يَكونَ مُجرَّد نُسْخةٍ؛ لأن مُجرَّد نُسخةٍ ما الفائِدة منه! تَقول: والله حفِظْتُ مثلًا (مَتن الزادِ) وحفِظْتُ (بُلوغ المَرام) وحفِظْتُ (المُنتَقى) وحفِظْت ما أَشبَه ذلك، وغايَتُه أن يَقول: سأَجلِس في بيتي وإن جاء أَحَدٌ يَسأَلُني علَّمْتُه!!.

فيَجِب أن نَبُثَّ الوَعيَ بين المُسلِمين، ولا سيَّما في هـذا الوَقْتِ؛ لأن الناس بدَؤُوا يَتحرَّكون سَئِموا الحياة السابِقة، لكن يَحتاجون إلى هِداية ودَلالة؛ لأنه قد يَتحرَّكون إلى شيء سَيِّئٍ، إنَّما إذا تَولَّى طلَبة العِلْم الذين وهَبهم الله تعالى العِلْم تَوجيهَ الناس في هذه الأُمورِ حصَل في هذا خَيرٌ كثير، كما كان نَبيُّنا ﷺ يَفعَل، فالأُسْوة الحسَنة في الرسول ﷺ يَدخُل فيها الدَّعْوة إلى دِين الله عَزَّوَجَلَّ.

فصارت (الحسَنة) في ذاتها وفي تَطبيقها؛ في ذاتها بِمَعنَى: أن التَّأسِّيَ به حسَنةٌ، ولا يُمكِن أن يَكون الرسولُ ﷺ شَيْءٌ من أَفْعاله غير مَوْصوف بالحُسْنى، وحسَنة في تَطبيق هذا التَّأسِّي في العَقيدة والقَوْل والفِعْل، القَوْل والفِعْل.

لكن قال تعالى: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ﴾: ﴿لِّمَن كَانَ﴾ يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بدَلٌ من ﴿لَكُمْ﴾]، في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾، لكِن ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ﴾ فهو بدَلُ بَعْض مِن كُلٍّ بإِعادة العامِل.

والخِطاب يَشمَل مَن يَرجو الله واليَوْم الآخِر ومَن لم يَرجُه، و﴿لِّمَن كَانَ﴾ يَخُصُّ مَن (كان يَرجو اللهَ واليَوْم الآخِر)، فهو بدَلُ بَعْضٍ من كلٍّ، وهل هو بدَل بعضٍ من كُلٍّ: في الذات أو في المَعنَى والصِّفات؟

فالجَوابُ: إذا قُلْت: «أَكرِم القَومَ بعضَهُم» هـذا بـدَلُ بعضٍ من الكُلِّ في الذات، لكن هنا في الآية في الصِّفات ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ﴾.

وقولُنا: «بإِعادة العامِل» العامِل الذي أُعيد هو اللَّام حَرْف الجَرِّ، فإنها مَوْجودة في البَدَل والمُبْدَل منه؛ مَوْجودة في المُبْدَل منه في قوله تعالى: ﴿لَكُمْ﴾، وفي البَدَل في قوله تعالى: ﴿لِّمَن كَانَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يَخاف الله].

ولعَلَّ قائِلًا يَقول: كيف يُفسِّر الرجاءَ بالخَوْف؛ لأن الرجاء هو طلَب أو تمَنِّي ما كان قريبَ الحُصول، فكيف يُفسِّره بالخَوْف؟

فيُقال: إن الرجاء يُطلَق على الخَوْف، ويُطلَق على الأمَل، فالرَّجاء في المَحبوب والخَوْف في المَكروه، ولا يَلزَم أن يُفسَّر بما فسَّر به المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ بأن المُراد بالرَّجاء الخَوْف؛ لأن رَجاء الله واليَوْم الآخِر ثابِت أيضًا، الذي هو تمَنِّي حُصول المَطلوب.

فإن ما عند الله تعالى من الثَّواب لَمِن تَأَسَّوا بالرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُوجِب الرَّجاء وما في اليَوْم الآخِر أيضًا من السَّعادة يُوجِب الرَّجاء أيضًا، فالذي يَظْهَر أن المُراد بـ(الرَّجاء) هنا مَعناه الحَقيقيُّ الذي هو طلَب ما فيه، أو أن يَأمُل الإنسان ما فيه مَصلحة له وخَيْر له.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ المُراد به يَوْم القِيامة، وسُمِّي اليومَ الآخِر؛ لأنه لا يَوْمَ بعدَه؛ ولأن ذلك اليَوْم هو آخِر مَراحِل الخَلْق؛ لأن للإنسان في هذه الدُّنيا أربعَ مَراحِلَ: مَرحَلة في بَطْن أُمِّه، ومَرْحلة في الدُّنْيا، ومَرْحلة في البَرْزَخ، ومَرحَلة رابِعة يومَ القِيامة، فهذه أربَعُ دُور، فليس هناك ليلٌ ولا نَهارٌ، فكُلُّه لا ليلَ ولا نهارَ؛ لأن الشَّمسَ تُكوَّر وتُرمَى في النار.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ يَقرُن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى دائِمًا الإيمانَ به باليومِ الآخِر كثيرًا في القُرآن: ﴿ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ [النساء:٣٩]؛ لأن الإيمان باليَوْم الآخِر يَستَلزِم العمَل؛ لأنك إذا آمَنْت بأن هناك يَوْمًا تُجازَى فيه على عمِلك فسَوْف تَعمَل لذلك اليَوْم، بخِلاف الإنسان المُنكِر له، فالمُنكِر لليَوْم الآخِر لا يَعمَل له؛ لأنه يَعتَقِد أنه ما هناك إلَّا دُنيا فقطْ؛ أرحامٌ تَدْفَع، وأَرْض تَبْلَع، ولا شيءَ! لكن إذا آمَن الإنسانُ باليَوْم الآخِر أَوْجَب له ذلك أَنْ يَعمَل.

ولهذا يَقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بخِلافِ مَنْ لَيْس كذلِكَ]، فقَوْله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَذَكَرَ ٱللَّهَ﴾ الواو هنا حَرْف عَطْف و﴿وَذَكَرَ﴾ مَعطوف على ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ﴾ يَعنِي: ولِمَن كان ذَكَر الله عَزَّوَجَلَّ، أو مَعطوفة على ﴿كَانَ﴾، أي: لمَن كَـان ولمَن ذكَر، فمَعطوفة على ﴿كَانَ﴾؛ لأن الفِعْـل الماضي يُعْطَف على الفِعْـل الماضِي، وأيضًا إذا جَعَلْتـه مَعطوفًا على ﴿كَانَ﴾ اتَّضَح المَعـنَى أكثَرَ، فقَولُه تعالى: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ﴾ هذا عمَل قَلْبيٌّ، وقولُه تعالى: ﴿وَذَكَرَ ٱللَّهَ﴾ عمَلُ جَوارحَ، فيَكون مَعطوفًا على ﴿كَانَ﴾.

وقوله: ﴿وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾: ﴿كَثِيرًا﴾ هذه مَفعول مُطلَق، أي: ذِكْرًا كثيرًا، وذِكْر الله عَزَّوَجَلَّ يَكون بالقَلْب وباللِّسان وبالجَوارِحِ:

فيَكون بالقَلْب بأن يَتفَكَّر الإنسان في آيات الله تعـالى، وفي أسمائه وصِفاته، ويَكون بالجوارِح باللِّسان كالتَّسبيح والتَّهليل والتَّحميـد، وما أَشبَه ذلك، ويَكون بالجَـوارِح غيرِ اللِّسان مثل: الصلاة فيها رُكوع وسُجُـود وقِيَام وقُعود وهي ذِكْر، فالذِّكْر إذَنْ يَكون في القَلْب وفي اللِّسان وفي الجَوارِح.

والإنسان العاقِل الحازِم المُؤمِن لا يَزال يَذكُر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأن في كل شَيْء من مَخلوقاته آيةً تَدُلُّ على وَحْدانيَّته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وعلى حِكْمته، فأيَّ شَيْءٍ تُشاهِد من هذا الكَوْنِ فسيُذكِّرُكَ بالله عَزَّوَجَلَّ.

كذلك بالنِّسبة لأَعمالك إذا كُنتَ حَازِمًا فإنك تَستَطيع أَلَّا تَعمَل عمَلًا إلَّا كان عِبـادةً، والإنسان الحـازِم يَجعَـل من العادات عِبـاداتٍ، والإنسان الغافِـل يَجعَل من العِباداتِ عاداتٍ، فإذا كان الإنسان حازِمًا، فإنه لن يَضيع عليه لحظَةٌ من عُمرِهِ إلَّا ولا بُدَّ أن يَستَغِلَّها في ذِكْر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فالأَمْر بالمَعروف والنَهيِ عن المُنكَر من ذِكْر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وقِراءة القُرآن من ذِكْر الله تعالى، وكلُّ قول أو فِعْل يُقرِّب إلى الله عَزَّوَجَلَّ فإنه من ذِكْر الله عَزَّوَجَلَّ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: وُجُوب التَّأَسِّي بالنَّبيِّ ﷺ؛ يُؤْخَذ من قوله تعالى: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾؛ لأن رَجاء الله تعالى واليَوْم الآخِر واجِب.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ مُحَمَّدًا ﷺ رسول الله؛ لقوله تعالى: ﴿فِى رَسُولِ ٱللَّهِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن جَميع طريق النَّبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حسَنٌ ليس فيه سيِّئٌ؛ لقوله تعالى: ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن الواجِب علينا أن يَكون تَأَسِّينا بالرسول ﷺ تَأَسِّيًا حسَنًا، لا غُلوَّ فيه ولا تَفْريطَ؛ لقوله تعالى: ﴿حَسَنَةٌ﴾؛ لأن الغُلُوَّ زيادة، والتَّفريط نُقصان، ودِين الله عَزَّوَجَلَّ بين الغالي فيه والمُفرِّط فيه.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: وُجُوب رَجاء الله عَزَّوَجَلَّ واليوم الآخِر؛ لأن من تَمام الإيمان بالرسول أن نَتأَسَّى به رجاءً بالله تعالى واليوم الآخِر.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: الإيمان باليوم الآخِر؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾ وسُمِّيَ يومًا آخِرًا؛ لأنه آخِر مَراحِل الإنسان، كما سبَق لنا في التَّفسير.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: مَشْروعية كثرةِ الذِّكْر؛ لقوله تعالى: ﴿وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾، وقد بيَّن الله تعالى في سورة آل عِمرانَ عن أُولي الأَلباب أنهم يَذكُرون الله تعالى قِيامًا وقُعودًا وعلى جُنوبهم، والإنسان إمَّا قائِم أو قاعِد أو على جَنْبه، وهُمْ يَذكُرون الله تعالى في كل هذه الأَحوالِ.

الآيــة (٢٢)

• • • •

قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٢٢].

• • • •

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ﴾ من الكُفَّار ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ من الابتِلاء والنَّصْر ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ في الوَعْد ﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾ ذلك ﴿إِلَّآ إِيمَٰنًا﴾ تَصديقًا بوَعْد الله تعالى ﴿وَتَسْلِيمًا﴾ لأَمْره].

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ﴾: (لَمَّا) شَرْطية لكنها لا تَجزِم، وفِعْل الشَّرْط في الآية ﴿رَءَا﴾، وجوابُه: ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ﴾، وقد تَقدَّم أن (لَمَّا) تأتي في اللغة العرَبية على عِدَّة وُجوه: منها الشَّرطية، كما في هذه الآيةِ، ومنها الجازِمة كما في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾ [ص:٨]، ومنها أن تَكون بمَعنَى (إلَّا) كما في قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق:٤] يَعنِي: إلَّا عليها حافِظ.

والمُراد بالأَحْزاب هنا الأَحْزاب الذين تَألَّبُوا على النبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من قُرَيش وغطَفانَ وغيرِهم، لَمَّا رأَوْهم رُؤْيةً بصَريةً قالوا: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ بأن هـؤلاء الأَحزابَ سيأتون؛ قال الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة:٢١٤].

فإن الله تعالى بيَّن في هذه الآيةِ أنَّه لا يُمكِن أن يَدخُل الجَنَّة إلَّا بعد هذه الأُمورِ، فيَكون مُتضمِّنًا لوَعْد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لهُمْ أن يَروْا مثل هذه الأَشياءِ التي تُزَلزِلُهم؛ يَقول تعالى: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾، وهذا دَليل على ثَباتهم وإيمانهم وصِدْق نَواياهم، لكِنِ المُنافِقون تَقدَّم أنهم كانوا يَهزَؤُون بالرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لما ضَرَب الحجَر الذي اعترَضهم في حَفْر الخَنْدق، وقال: إنه رأَى مَدائِن كِسرى وقُصورَ قَيصرَ واليَمَن؛ فقالوا: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ يَقول: يُريد أن يَملِك اليَمَن والشام والعِراق وهو الآنَ مُضيَّق عليه هذا التَّضييقَ!! هذا كَذِب! وليس بصحيح؛ لكنَّ المُؤمِنين قالوا: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾، فهُمْ عكسُ هؤلاءِ المُنافِقين الذين قالوا: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ الصِّدْق هو الإِخبارُ بالواقِع على حَسب ما هو واقِع، وإن شِئْت فقُلْ: هو الإِخْبار المُطابِق للواقِع، وضِدُّه الكذِب؛ ويُقال: صَدَقَني الحديثَ. وصدَّقني الحديثَ. وبينهما فَرْق (صدَقَني الحديثَ) يَعنِي: أَخبَرني بالصِّدْق، و(صدَّقني الحديث) يَعنِي: قال: إن ما حدَّثْته به صِدقٌ؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ [آل عمران:١٥٢] مَعنَى ﴿صَدَقَكُمُ﴾: أخبَرَكم بالصِّدْق وبيَّن لكم أنَّ ما وعَدكم به حَقٌّ، حين حَسَسْتُموهم بإِذْنه.

وقوله تعالى: ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ في هذه الجُملةِ ﴿مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ سِيق هذا الكَلامُ على سبيل المَدْح، ولكنه قد يُشكِل على بعضِهم: كيف قَرَن وَعْد رسول الله ﷺ بوَعْد الله تعالى بالواو؛ وقَرَن أيضًا صِدْق رسول الله ﷺ بصِدْق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالواو؟ وقد قال النبيُّ ﷺ لرجُلٍ حين قال له:

ما شاءَ الله وشِئْتَ؛ قال له النبيُّ ﷺ: «أَجعَلْتَني لله نِدًّا»[(١)]، فكَيْف نَجمَع بين هذا وبين ما في هذه الآيةِ؟

الجَوابُ: أن يُقال: ما كان من أُمور الشَّرْع فإنه لا بَأْس أن يُضاف إلى الله تعالى ورسولِه ﷺ بالواو؛ لأن ما شَرَعه النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فهو من شَرْع الله تعالى، كما قال الله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠]، وأمَّا ما كان من أُمور القَدَر، فإنه لا يَجوز أن يُضاف إلى الله تعالى ورسولِه ﷺ بالواو، بل لا بُدَّ أن يَكون بـ(ثُمَّ)؛ وذلك لأن قُدْرة الإنسان ومَشيئة الإنسان تابِعةٌ لَمشيئة الله تعالى وقُدْرته.

فمثَلًا: تَقول لرجُل سَأَلك: ما حُكْم الصلاة جَماعةً؟ وأنت لا تَدْري ما حُكْمها؛ فتَقول: اللهُ ورسولُه أَعلَمُ؛ لأن هذا حُكْمٌ شَرْعيٌّ، وأمَّا إذا كان من الأُمور القَدَرية فإنه لا يُمكِن أن يُشرَّك غيرُ اللهِ تعالى مع الله تعالى بالواو؛ وذلك لأن مَشيئة غير الله تعالى وقُدرة غير الله تعالى تابِعةً لَمشيئة الله تعالى، ولا يُمكِن أن تَكون مُساوِيةً لها.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا زَادَهُمۡ إِلَّآ إِيمَٰنٗا وَتَسۡلِيمٗا﴾: (ما زادَهم) الفاعِل في ﴿زَادَهُمۡ﴾ يَعود على رُؤيةِ الأحزاب، يَعنِي: ما زادَهم رُؤيةُ هَؤلاء الأحزاب وتَألُّبهم على رسول الله ﷺ إلَّا إيمانًا.

يَقول المُفسِّر: [﴿إِلَّآ إِيمَٰنٗا﴾ تَصديقًا بوَعْد الله تعالى ﴿وَتَسۡلِيمٗا﴾ لأَمْره] إيمانًا بالقَلْب وتَسليمًا بالجوارِح؛ لأن الإيمان مَحلُّه القَلْب، والتَّسليم والانقِياد مَحلُّه الجوارِح، والإنسان لا يَتِمُّ دِينه إلَّا بهَذين الأَمْرين: بالإيمان والتسليم، فمَنِ استَسْلَم ولم يُؤْمِن فهو مُنافِق، ومَن آمَن ولم يَستَسْلِم فهو مُستكبِر، فإذا اجتَمَع للإنسان

(١) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ٣٩٣)، وابن ماجه: كتاب الكفارات، باب النهي أن يقال: ما شاء الله وشئت، رقم (٢١١٨)، من حديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الإيمانُ والتَّسليمُ صار مُؤمِنًا حقًّا عابِدًا حقًّا، فالإنسان المُؤمِن لكنه لا يَسْتسلِم نَقُول: هذا مُسْتكْبِر. والإنسان المُستَسلِم لكنه غيرُ مُؤمِن نَقول: هذا مُنافِق؛ لأن المُنافِقين يَسْتَسْلِمون ظاهِرًا؛ ولا يَتِمُّ الإيمان إلَّا بهذين الأَمْرين: الإيمان والتسليم، ولا يَتِمُّ الشَّرْع إلَّا بهذين الأَمْرين الإيمان والتسليم.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا﴾: ﴿إِيمَـٰنًا﴾ مَفعول ثانٍ، والمَفعول الأوَّل (الهاء)، فـ(زاد) تَنصِب مَفعولين أوَّلُها: الهاءُ، والثاني في هذه الآيةِ: ﴿إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قَالُوا۟ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ كان مُقتَضى الحال أن يَلحَقهم الخوفُ والذُّعرُ كما حصَل للمُنافِقين؛ فمن فوائِدها: كمالُ تَصديقهم لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ورسولِه ﷺ في قولهم: ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ فهُمْ شاهَدوا ما وعَد الله تعالى، ثُم أَظهَروا الإيقان بذلك بأَلسِنَتِهم في قولهم: ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾.

وقدِ استَدَلَّ بعضُ الجُهَّال في هذا الآيةِ على مَشروعية خَتْم القُرآن بقوله تعالى: ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ﴾ وقالوا: كيف تُنكِرون علينا إذا أَتْمَمْنا القِراءة وقُلْنا: صدقَ الله العَظيمُ. مع أن الله تعالى يَقول: ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ ويَقول تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٩٥] فما هو الجَوابُ عن هذه الشُّبْهةِ؟

نَقول: نحن لا نُنكِر أن يَقول أحَدٌ: صدَق اللهُ ورسولُه. بل نَراه من الإيمان أن يَقول الإنسان: صدَق اللهُ ورسولُه. وأمَّا مَن لَمْ تَكُن عَقيدته هذه فهو كافِر، لكننا نُنكِر أن نَجعَل هذا الثَّناءَ على الله عَزَّوَجَلَّ عند الانتِهاء من التِّلاوة مع أنه لَمْ يَرِد،

فهل نَحن أَعلَمُ بشريعة الله تعـالى من رسول الله ﷺ؟ وهل نحن أَحرَصُ منه على تَطبيق شريعة الله تعالى؟ أَبدًا، وإذا لم يَكُن كذلك؛ فإن الواجِب علينا أن نَحذُوَ حَذْوَه، فإذا كان يَقول عند خَتْم عِند انتِهاء تِلاوته: (صدَقَ اللهُ) فإننا نَقولها على العَيْن والرأس، وإذا كان لا يَقولها فلا نَقولها.

ونَقول لهم: إذا كُنْتم تَعتَقِدون مَشروعية ذلك فقولوها أيضًا في الصلاة إذا انتَهَيْتُم من القِراءة في الصلاة قبل أن تُكبِّروا؛ لأن التِّلاوة في نفس الصلاة أفضَلُ منها في خارِج الصلاة، المُهِمُّ: أنه لا دليلَ لهؤلاء في مِثْل هذه الآيةِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن المُؤمِن يَزْداد إيمانًا عند رُؤْية الآيات الكونية أو الشَّرْعية كقوله تعالى: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: صِحَّة مَذهَب أهل السُّنَّة والجماعة الذين يَقولون: إن الإيمان يَزيـد ويَنقُص كذا، وقد ذكَرْنا أن زِيـادة الإيمان باعتِبارات: باعتِبـار قُوَّة اليَقـين، وباعتِبار كثرة العمَل، وباعتِبار الإخلاص فيه، وباعتِبار أن المُعامَلة المُتابَعة للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وباعتِبار العامِل نَفسِه.

فكُلُّ هذه الاعتِبارات يَزيد بها الإيمان:

الأوَّل: باعتِبار قُوَّة اليَقين فإبراهيمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة:٢٦٠]، فليس الخبَرُ كالمُعايَنـة لو أَخبَرَك مَن تَثِقُ به تَمامَ الثِّـقة عن وجود شيءٍ آمَنْت به، لكن إذا رأَيْتـه بعَيْنك صار ذلك أقوى إيمانًا.

الثاني: باعتِبار كَثْرة العمَل.

الثالِث: بِحَسب الإِخْلاص في العِبادة، فكُلَّما كان الإنسان في العِبادة أخلَصَ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كان زيادةُ الإيمان بها أكمَلَ وأقوَى؛ ولهذا تَجِد الفرقَ إذا عبَدْت الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بإِخْلاص، وإذا عبَدْته بغَفْلة؛ تَجِد الفَرْق العظيم في تَأثُّر قلبك مع أن العِبادة واحِدة، فكيف إذا عبَدْت الله تعالى برِياءٍ وسُمْعة؟ نَسأَل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يَحمِينا وإيَّاكم من ذلك- تكون أشَدَّ وأشَدَّ في عدَم تَأثُّر القَلْب بهذه العِبادةِ!.

الرابع: باعتِبار مُتابَعة الإنسان للرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فكلَّما ازداد الإنسان اتِّباعًا للرسول ﷺ في عِبادته ازداد إيمانه بذلك؛ لأنه عِندما يَزداد اتِّباعًا للرسول ﷺ يَشعُر كأَنَّ الرسول ﷺ أمامَه يُتابع أثَرَه، وهذا لا شَكَّ أنه يَزيد في الإيمان.

الخامِس: باعتِبار حال العامِل، فالنبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَقول: «**لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَه**»(1)، يَعنِي: الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؛ لأنهم أَقوَى إيمانًا ممَّن بعدهم، وأشَدُّ ثباتًا.

والحاصِلُ: أن الإيمان زِيادته لها عِدَّة اعتِبارات، ومنها أيضًا تَرْك المَعاصي خوفًا من الله تعالى، فإن الإيمان يَزداد به، وفي (كتاب التَّوْحيد) شَرْح ذلك على وجهٍ أكمَلَ.

المُهِمُّ: أن أهل السُّنَّة والجَماعة يَقولون: إن الإيمان يَزيد ويَنقُص.

وقالتِ المُرجِئة: إن الإيمان لا يَزيد ولا يَنقُص؛ لأن الإيمان في القَلْب، والعمَل الصالِح ما له دَخْل في الإيمان وما في القَلْب لا يَتفاوَت، فنحن الآنَ نُؤمِن بالشَّمْس

---

(1) أخرجه البخاري: كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب قول النبي ﷺ: «**لو كنت متخذًا خليلًا**»، رقم (٣٦٧٣)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب تحريم سب الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ رقم (٢٥٤١) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

جميعًا، إيمانا بالشَّمْس على حدٍّ سَواءٍ ما يَتَفاوَت، فالناس عندهم كما قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عنهم:

النَّـاسُ فِي الْإِيـمَانِ شَيْءٌ وَاحِـدٌ كَالْمُشْطِ عِنْـدَ تَمَاثُـلِ الْأَسْـنَانِ[١]

وهذا القولُ لا شَكَّ أنه خطأ يَرُدُّه الواقِعُ والشَّرْع.

وقالَتِ الخَوارِجُ والمُعتَزِلة: الإيمان لا يَزيد ولا يَنقُص، إمَّا أن يُوجَد جُملة كامِلًا، وإمَّا أن يُعْدَم بالكُلِّية؛ لأنهم يَقولون: إن فاعِلَ الكبيرة كافِر خارِج عن الإيمان، فإمَّا كافِر، وإمَّا في مَنزِلة بين مَنزِلتين؛ فالخَوارِج يَقولون: إن فاعِل الكبيرة كافِر ليس عِنده إيمان أبَدًا، والمُعتَزِلة يَقولون: لا إيمانَ عِنده، لكِن لا نَقول: إنه كافِر، بل هو في مَنزِلةٍ بين مَنزِلتين، ومَن لم يَكُن فاعِلَ كبيرةٍ فالناس في الإيمان سَواءٌ كلهم على حَدٍّ سواءٍ.

فالذين لا يَرَوْن زيادة الإيمان ولا نُقْصانه طائِفتان إمَّا مُرْجِئة أو وَعيدية، وهُمُ الخَوارِجُ والمُعتَزِلة.

وقال بعضُ أهل السُّنَّة: كالإمام مالِك[٢] رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: الإيمان يَزيد ولا نَقول: يَنقُص؛ لأن زيادة الإيمان في القُرآن والسُّنَّة كثيرة، ولكن ليس فيهما ذِكْر نَقْص الإيمان، ولكن قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ ضعيف؛ لأن في السُّنَّة: «**مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ**»[٣]، والإيمان بلا شَكٍّ من الدِّين، فيَكون داخِلًا في هذا الحديث.

(١) النونية (ص:٨).

(٢) انظر: البيان والتحصيل (١٨/ ٥٣٦).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الحيض، باب ترك الحائض الصوم، رقم (٣٠٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان نقص الإيمان، رقم (٨٠)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وأيضًا: فإن الزيادة والنُّقْصان من الأمور المُتَقابِلة التي إذا وُجِد أحدُها انتَفَى الآخَر، ولا يُعقَل وجودُ أحدهما إلَّا بوجود الآخَر، فمثَلًا الزيادة لا تُعقَل إلَّا بنَقْص فنَقول له مثَلًا: أنت تَقول: إن فُلانًا أَزيَدُ إيمانًا من فُلان. مَعنَى ذلك أن المَزيد عليه ناقِص، ولا تَتَصوَّر غير هذا، فالصواب أن الإيمان يَزيد ويَنقُص، وأَسباب الزيادة والنُّقْصان كما شرَحْنا قبلُ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن الناس يَختَلِفون في الانقِياد والتَّسليم كما يَختَلِفون في الإيمان زيادةً ونَقْصًا؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسۡلِيمًا﴾؛ لأن عامة المُؤمِنين كلهم مُنقادون للشَّرْع، لكن منهم مَن يَنْقاد بطُمَأْنينة وانشِراح وقَبول ومَحَبَّة، ومِنهم مَن يُسْلِم على وجهٍ دون ذلك، فمنهم مَن يَأتي إلى الصلاة مثَلًا وهو يَرَى أنها نِعْمة من الله عَزَّوَجَلَّ يَأتي إليها مُقبِلًا غير مُدْبِر، نَشِطًا، مُنْشرِح الصَّدْر، مُحِبًّا لها، يَنتَظِر الصلاة بعد الصلاة بفارِغ الصَّبْر.

ومِنهم أُناسٌ بالعَكْس يَأتون إلى الصلاة ولا يَتَخلَّفون، لكن ببُطْء وتَثاقُل وعدَم انقِيادٍ لها؛ إذَنْ فالناس يَختَلِفون في التسليم، ولهذا قال تعالى: ﴿إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسۡلِيمًا﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن التَّأمُّل في الآيات ووُضوح الآيات للعَبْد تَزيد في إيمانه وتَسليمه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا زَادَهُمۡ﴾ أي: ما رأَوْه من الأحزاب إلَّا ﴿إِيمَٰنًا﴾ بالله تعالى ﴿وَتَسۡلِيمًا﴾ لشَرْعه.

• • ❁ • •

الآيـة (٢٣)

• ● ● •

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب:٢٣].

• ● ● •

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ من الثَّبات مع النبيِّ ﷺ].

قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ﴾ الجُمْلة هذه مُكوَّنةٌ من مُبتَدإٍ وخبرٍ، والخبَر مُقدَّم والمُبتَدأ مُؤخَّرٌ، فالمُبتَدأ قوله تعالى: ﴿رِجَالٌ﴾ والخبَرُ ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

فإن قال قائِل: ﴿رِجَالٌ﴾ نكِرة، والابتِداء بالنَّكِرة ليس بجائِز؟

فالجَوابُ: أن ابن مالِك رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول:

وَلَا يَجُوزُ الِابْتِدَا بِالنَّكِرَهْ مَا لَمْ تُفِدْ كَعِنْدَ زَيْدٍ نَمِرَهْ[(١)]

والآيةُ التي معَنا مثل هذا المِثالِ: عِندَ زيدٍ نَمِرة، والمُسوِّغ للابتِداء بالنكِرة هنا تَأخير المُبتَدأ، كذلك في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ﴾ المُسوِّغ تَأخيرُ المُبتَدَأ، كما أن في الآية أيضًا مُسوِّغًا آخَرَ وهو وَصْف هذه النَّكِرةِ؛ لأن وَصْف النَّكِرة يُخصِّصها.

---

(١) الألفية (ص:١٧).

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: ﴿مِّنَ﴾ للتَّبعيض؛ لأنها تُقدَّر بـ(بَعْض)، واختَلَف النَّحويُّون في (مِن) التَّبعيضية فقال بعضهم: إنها اسْمٌ، وهي بحَسب العوامِل، لكن لا يَظْهَر عليها عمَل العامِل؛ لأنها حَرْف فيَنتَقِل العامل إلى ما بعدَها، ومنهم مَن قال: إنها حَرْف جَرٍّ، ولكن مَعناها: التَّبعيض وهذا هو الذي عليه أكثَرُ] أهل النَّحو.

وقوله تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ مَعنَى ﴿صَدَقُوا۟﴾ أي: قاموا بهم، كما تَقول: صدَق لي الوَعْد. يَعنِي: وفَى لي بالوَعْد، فهُمْ وفَوْا بما عاهَدوا الله تعالى عليه من الثَّبات مع النبيِّ ﷺ مِثْل: أبي بَكْر وعُمرَ وعُثمانَ وعليٍّ، وكثير نَحوهم.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ مات أو قُتِل في سبيل الله تعالى، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ ذلك ﴿وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ في العَهْد، وهُم بخِلاف حال المُنافِقين].

قسَّم الله تعالى هؤلاءِ الرِّجال الذين صدَقوا ما عاهَدوا الله عليه إلى قِسْمين: قِسْم قضَى نَحْبه يَعنِي: قَضى حَياته وقُتِل في سبيل الله تعالى كحَمزةَ بنِ عبدِ المُطلِّب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فإنه قُتِل شهيدًا في سبيل الله تعالى، وكذلك بقية شُهَداء أُحُد.

ومنهم مَن يَنتَظِر القِتال في سبيل الله؛ لأنه قد صدَق الرسول ﷺ أو قَدْ ﴿صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾، فهُم يَنتَظِرون أن يُستَشهَدوا، ولكن هل يَحصُل لهم ذلك أم لا؟ قد يَحصُل وقد لا يَحْصُل؛ ولهذا يُقال: إن خالدَ بن الوَليد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ تَأسَّف في حال مَرَضه أنه لم يُقتَل شهيدًا في سبيل الله تعالى، يَعنِي: يَندَم أنه ما ترَك مَعركَةً إلَّا خاضَها قال رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «وَهَا أَنَا أَموتُ عَلى فِراشِي كما يَموتُ الحِمارُ»[1]؛

(١) أخرجه الدينوري في المجالسة رقم (٨٣٦)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (١٦/ ٢٣٧).

لأنهم يُريدون أن يُستَشهَدوا في سبيل الله تعالى.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ هذا معطوف على ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ أي: ومِنهم رِجال ما بدَّلوا تبديلًا؛ يَقول المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [في العَهْد] والتَّبديل في العَهْد يَشمَل نَقْضه بالكُلية، ويَشمَل الإخلال بشيء من شُروطه يَعنِي: يَشمَل نَقْضه بالكُلية وعدَم الالتِفات إليه، ويَشمَل الإخلال بشَيْء من شُروطه.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾: ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ خبَر مُقدَّم ﴿رِجَالٌ﴾ مُبتَدأ مُؤخَّر، ﴿صَدَقُوا﴾ الجُمْلة صِفة للرِّجال ﴿صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ أَيْ: أنهم صدَقوا أَقوالهم بأَفْعالهم، فالعَهْد الذي عاهَدوا الله تعالى عليه قاموا به ووفَوْا به.

واعلَمْ أن مَعنَى قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا﴾ أن من المُؤمِنين رِجالٌ عاهَدوا الله تعالى وصدَقوا ما عاهَدوا الله تعالى عليه، وليس المَعنَى أن من المُؤمِنين رِجال صدَقوا ومِنهم مَن لم يَصدُق حتى يَتشبَّث به من سَبَّ الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، أو قال: إنهم ليسوا كلُّهم صادِقين.

فالمَعنَى: أن من المُؤمِنين رِجالًا عاهَدوا الله تعالى فصدَقوا ما عاهَدوا الله تعالى عليه، بل مِنَ المُؤمِنين مَن لم يُعاهِد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على شيء، بل هو مُستَمِرٌّ على طاعة رَبِّه، حيث ما أُمِر، ممَّن عاهَد الله تعالى أَنَس بنُ النَّضر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فإن أَنَس ابنَ النَّضر لم يَشهَد بَدْرًا، فلمَّا رجَع النبيُّ ﷺ من بَدْر قال: يا رسول الله، هذه أوَّل غَزوة قاتَلْتَ فيها المُشرِكين، واللهِ، لئِنْ أَبقاني اللهُ تعالى لَيَرَيَنَّ الله ما أَصنَع. فلمَّا صارَتْ غَزوةُ أُحُد قاتَل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حتى قُتِل، فكانَتْ فيه بِضْعٌ وثَمانون ما بين طَعْنة

رُمْح أو ضَرْبة سَيْف[(١)]، فصدَق ما عاهَد اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليه، هذا هو مَعنَى الآية ﴿صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ﴾ فقوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ليَرَيَنَّ اللهُ ما أَصنَعُ» هذا عَهْد؛ لأنه التِزام التَزَم به على نَفْسه.

قال تعالى: ﴿فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ﴾ يَعنِي: فمِن هؤلاء الذين عاهَدوا الله عَزَّوَجَلَّ مَن قَضَى نَحْبه، أي: عَهْده والتِزامه وقِيل: مَن قضَى نَحْبه أي: أَجَلَه، أي: مات وقُتِل، ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ﴾ يَعنِي: يَنتَظِر الموت والقَتْل شَهيدًا في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا﴾ يَعنِي: ما حصَل منهم تَبديل لا بالنَّقْص بالكُلية ولا بالتَّغيير؛ ولهذا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا بَدَّلُواْ﴾ والتَّبديلُ يَكون بالتَّرْك كُلِّيَّةً ويَكون بالتَّغيير بالنَّقْص أو بالزِّيادة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا﴾.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وهُمْ بخِلاف حال المُنافِقين]، فإن حال المُنافِقين على العَكْس يُعاهِدون الله ولا يُوفُّون، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٧٥ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ۝٧٦ فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ يَلۡقَوۡنَهُۥ بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾ [التوبة:٧٥-٧٦]، أَمَّا المُؤمِن فإنه يَفِي بما عاهَدَ اللهَ تعالى عليه.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب قول الله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ﴾، رقم (٢٨٠٥)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد، رقم (١٩٠٣)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: الثَّناءُ على أُولَئِك المُؤمِنين الذين عاهَدوا الله تعالى فصدَقوه، وجهُ ذلك السِّياقِ ﴿رِجَالٌ﴾، فإن ﴿رِجَالٌ﴾ نكِرةٌ للتعظيم، يَعنِي: رِجالًا عُظَماءَ صدَقوا ما عاهَدوا الله تعالى عليه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن أُولَئِك الذين صدَقوا ما عاهَدوا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى منهم مَن تُوفِّي واستُشْهِد، ومنهم بَقِيَ، وقد ذكَّرْنا مثلًا بمَنِ استُشهِد وهو أَنَسُ بن النَّضْر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فإنه استُشهِد في أُحُد، ووُجِد فيه بِضْعٌ وثمانون ضَرْبةً[1].

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الله عَزَّ وَجَلَّ أثنَى على هـؤلاء أنهم أَتَوْا بما عاهَـدوا الله تعالى عليه على وجهِ الكَمال بدون نَقْص ولا تَغيير؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن مَن مات سابِقًا ومَن مات لاحِقًا إذا كان سَواءً فيما قام به ممَّا يَجِب، فإنه لا فرقَ بين المُتقدِّم والمُتأخِّر؛ لأنه قال تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾، وجعَل الثَّناء عليهم واحِدًا، لكن في الأعمال الأخرى مَن تأخَّر موتُه فازداد عمَلًا صالِحًا فهو أكمَلُ من الأوَّل، ولكنه بالنِّسبة لما اتَّفَق فيه من العمَل الصالِح لا فَرْقَ بين الأوَّل والآخِر.

• • ● • •

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب قول الله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَٰهَدُوا ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾، رقم (٢٨٠٥)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد، رقم (١٩٠٣)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآية (٢٤)

• ● • ● •

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب:٢٤].

• ● • ● •

قوله تعالى: ﴿لِّيَجْزِىَ﴾ اللَّام هذه للتَّعليل، يَعنِي: أن الأمرَ وقَع كذلك على الوَفاء وعلى النَّقْض، فعلى الوَفاء من المُؤمِنين وعلى النَّقْض من المُنافِقين، وقد وقَعَ هذا؛ ليَجزِيَ اللهُ تعالى الصادِقين بِصِدْقهم ويُعَذِّب المُنافِقين، ولولا اختِلاف الناس في الأعمال ما اختلَفوا في الجَزاء، ولو لم يَختَلفوا في الجَزاء ما كان لخَلْق الجَنَّة والنار فائِدة؛ ولهذا قال الله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود:١١٨-١١٩]، فالله عَزَّوَجَلَّ حكيم خلَقَ الجَنَّة وخلَق لها سُكَّانًا، وخلَق النار وخلَق لها سُكَّانًا، وسُكَّانُ هذه وهذه لا بُدَّ أن يَكون لهم أعمال يَقومون بها حتَّى يَستَحِقُّوا أن يَكونوا من أهلها.

وقوله تعالى: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ الباء هنا للسَّببية وليست للعِوَض؛ لأن الجَزاء على الأعمال ليس من باب المُعاوَضة، ولكنه من باب قَرْن المُسبَّب بسببه؛ لقول النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ الجَنَّةَ بِعَمَلِهِ**»[1]،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المرضى، باب تمني المريض الموت، رقم (٥٦٧٣)، ومسلم: كتاب صفة القيامة، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى، رقم (٢٨١٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فالأعمال الصالِحة أسباب، وإلَّا فلو أن الله عَزَّوَجَلَّ أراد أن يُعاوِضنا على أعمالنا مُعاوَضةً بمَعنَى المُعاوَضة لكان لو قابَلنا بنِعْمة واحِدة من نِعَمه علينا ما قابَلت كلَّ أعمالنا، أو ما قابَلَتْها كلُّ أعمالنا، ولكن الأعمال سببٌ.

وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿بِصِدْقِهِمْ﴾ إذا كان الجَزاء بالصِّدْق فسيَكون الجزاء على حَسب ذلك الصِّدقِ، فالذين صدَقوا ما عاهَدوا الله تعالى عليه يَكون جَزاؤُهم على صِدْقهم بحَسب ما قاموا به، فإذا كانوا أَطوَعَ لله عَزَّوَجَلَّ وأشدَّ تَنفيذًا لأوامِره وأكثَرَ فِعْلًا لطاعته صار جَزاؤُهم أكثَرَ، والعَكْس بالعَكْس.

وقوله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ﴾ المُنافِق هو الذي أَظهَر الإيمان وأَبطَن الكُفْر، مَأخوذٌ من النافِقاء وهي نافِقاء اليَرْبوع الذي يَجعَلها في جُحْره حتى إذا أتاه أحَدٌ من بابه خرَج من هذه النافِقاءِ.

وقوله تعالى: [﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ﴾ بأن يُميتَهم على نِفاقهم].

أَشار المُفَسِّر رَحِمَهُٱللَّهُ في قوله: [بأن يُميتَهم على نِفاقهم] إلى أن تَعذيب المُنافِقين المُعلَّق بالمَشيئة هنا ليس المَعنى أنه إن شاء عذَّبهم وإن شاء لم يُعذِّبْهم، وقد ماتوا على النِّفاق؛ لأنهم إذا ماتوا على النِّفاق فقد أَخبَرَنا الله تعالى أنهم في الدَّرْك الأسفَل من النار، وليسوا تَحتَ المَشيئة ويَكون قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿إِن شَآءَ﴾ بأَنْ يَبْقَوْا على نِفاقهم حتى يَموتوا فإذا بَقُوا على نِفاقهم إلى الموت عَلِمنا أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى قد شاء تَعذيبهم، أمَّا إن هَداهم الله فإن المُنافِقين قد اهْتَدْوا؛ ولهذا قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ بأن يُوَفِّقهم للتَّوْبة، والصواب كما تَقدَّم كثيرًا أنَّ المُنافِق تَصِحُّ تَوْبته وهي نَصٌّ في قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ

فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [النساء:١٤٥-١٤٦].

وقوله: ﴿أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ﴾ بأن يَمُنَّ عليهم بالتَّوْبة فيَتوبوا وحينئذٍ لا يُعذَّبون.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا﴾ غفور: هذه اسمُ فاعِل على صيغة المُبالَغة، يَعنِي: كثير المَغفِرة، ويَجوز أن تَكون صِفةً مُشبَّهة، أي: ذو مَغفِرة، والصِّفة المُشبَّهة أبلَغُ من اسمِ الفاعِل؛ لأن اسمَ الفاعِل يَدُلُّ على الفِعْل، والصِّفة المُشبَّهة تَدُلُّ على الوَصْف، أي: على اتِّصاف مَن هي وَصْفه بها دائِمًا.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿غَفُورٗا﴾ لِمَن تاب] فيه شَيء من النَّظَر؛ لأن الله تعالى يَغفِر حتى لِمَن لَمْ يَتُب مِمَّن هو تحت المَشيئة، كفاعِل المَعاصي، ولو أن المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَبقاها على إطلاقها لكان أَسلَمَ له، فقوله تعالى: ﴿غَفُورٗا﴾ أي: كثير المَغفِرة أو ذو مَغفِرة مُتَّصِفٌ بها دائِمًا، وهذا أَقرَبُ كما قُلْت؛ لأنه يَدُلُّ على الوَصْف الدائِم، ويَدُلُّ عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡ﴾ [الرعد:٦].

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿رَّحِيمٗا﴾ به] يقول: [به] أي: بمَن تاب، والصوابُ: أنه رحيم بمَن تاب وبغَيْره، وأن رحمةَ الله عَزَّ وَجَلَّ بالمَعنى العامِّ تَشْمَل المُؤمِن والكافِر، والبَرَّ والفاجِرَ، وكلَّ أحد، كلُّ أحَدٍ، فإنه داخِل في رحمة الله تعالى هذا بالمَعنى العامِّ، أمَّا بالمَعنى الخاصِّ فإن الرحمة تَختَصُّ بالمُؤمِنين.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بيانُ حِكْمة الله عَزَّ وَجَلَّ في المُجازاة عن العمَل، كقَوْله تعالى: ﴿لِّيَجۡزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن الجَزاء من جِنْس العمَل؛ لقوله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿بِصِدۡقِهِمۡ﴾،

فإن البـاء للسَّببية والمُسبَّب مَربوط بالسَّبَب يَقوَى بقُوَّته ويَضعُف بضَعْفه، ويَزداد بزِيادته ويَنقُص بنُقْصانه.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الثَّناء على الصادِقين وأنهم أهلٌ للجَزاء الحسَن؛ لقوله تعـالى: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ الصادِقين في العَقيدة وفي القول وفي الفِعْل وفي العمَل.

وقد أَمَر الله تعـالى بالصِّدْق، فقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩]، وقال النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حاثًّا على الصِّدق: «عَلَيْـكُمْ بِالصِّدْقِ، فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الجَنَّةِ، وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْـدَ اللهِ صِدِّيقًا، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ، فَإِنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الفُجُـورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّـارِ، وَلَا يَزَالُ الرَّجُـلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا»(١).

والصِّدْق كما أنه مَحَلُّ ثَناء من الله عَزَّوَجَلَّ ومَحَلُّ ثواب جَزيل، فإنه مَحَلُّ ثَناءٍ من الخَلْق؛ ولهذا تَجِد الصادِقين تُنشَر آثارهم، وتُؤثَر أقوالهم، ويُثنَى عليهم في المَجالِس حتى بعد مَوْتهم، بخِلاف أهل الكَذِب -والعِياذ باللهِ- والنِّفاق، فإنهم على العكس من ذلك، فعليـك بالصِّدْق! ولا تَظُنَّ أن الصادِق يَخيب أبدًا، كما يصوِّر الشيطان أحيانًا للإنسان: أنه لو صدَق لكان في ذلك ضرَرٌ عليه، فلْيَكُن كاذِبًا أو فلْيَكذِب، فإن هذا من وَسْواس الشيطان، والصِّدق مَنجاة؛ ولهذا قال أحَدُهم: رأيتُ في

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب قول الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾، رقم (٦٠٩٤)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله، رقم (٢٦٠٧)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الكذِب نَجاةً. فقال الثاني له: الصِّدْق أَنجَى. وصدَقَ.

واعلَمْ أن الصادِق وإن كان الأمر مُرًّا عليه في أوَّل أَمْره لكنه تكون العاقِبة له في النـهاية، وإذا أَردت مثَلًا على ذلك فانظُرْ إلى حال الثـلاثة الذين خُلِّفوا في غزوة تَبـوكَ[1] كيف كان أَوَّلُ أَمْرهم؟ كانوا في تِلك المَرارةِ العَظيـمةِ حتى ضاقت عليهمُ الأرض بما رحُبَت، وضاقت عليهم أنفُسُهم، وتَنكَّرتِ الأرض لهم، حتى إن كعبَ بنَ مالِك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: حتى كأَنَّ الناس الذين على الأرض كأنهم ليسوا همُ الناس الذين أَعرِف؛ قال تعـالى: ﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾ [التوبة:١١٨]، والنَّتيجة أنه نزَلت فيهم آياتٌ تُتلى إلى يوم القِيامة، لولا هـذا الصِّدْقِ ما بقِيَت هذه الآياتُ، حتى قِيـل للنـاس: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩]، فعِندما ذُكِرَت قِصَّتهم فهذا نهاية عظيمة جِدًّا للصادِقين، فأنت اصدُقْ وإن حصَل عليك ضرَر في أوَّل أَمْركَ، لكن العاقبة لكَ، ولا تُعوِّد نَفْسك الكذِب.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: ذَمُّ النِّفاق وأنه سبَب للعَذاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن المُنـافِق له تَوْبة في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِن شَآءَ﴾، فإنه يَشاء أن يُعذِّبهم إذا ماتوا على النِّفاق، أمَّا إذا تابوا فقد شاء أَلَّا يُعذِّبهم، ولكن -كما تَقدَّم في تفسير هذه الآيةِ- تَوْبة المُنافِق ذُكِر فيها شُروط لا بُدَّ من مُراعاتها، قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ [النساء:١٤٦]،

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب حديث كعب بن مالك، رقم (٤٤١٨)، مسلم: كتاب التوبة، باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه، رقم (٢٧٦٩)، من حديث كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لا بُدَّ أن تَظْهَر هذه الأُمورُ على المُنافِق وإلَّا فإن تَوْبته لا تُقبَل في الدنيا، أمَّا في الآخِرة فأَمْره إلى الله تعـالى، لكن في الدُّنيا لا نَقبَلـها إلَّا إذا ظهَرت عليه هـذه الأَوْصافُ التي اشتَرَط الله عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: ترغيب المُنافِقين في التَّوْبة؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ فهو مُنافِقٌ خادِعٌ خادِرٌ ماكِرٌ، ومع ذلك يُقال له: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾، وهذا دَليل على أن رحمة الله تعالى سبقَت غضَبُه؛ ولهذا أُولئك الذين يُعذِّبون أَوْلياءَه ويُحرِقونهم بالنار يَقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج:١٠]، وكذلك الذين قالوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة:٧٣] عرَضَ الله تعـالى عليهم التَّوْبة! وكلُّ هذا دليل على أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُحِبُّ العَفْو أكثَرَ من العِقاب.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثبات اسمَـيْن من أسماء الله وهمـا: الغَفور والرَّحيـم وما تَضمَّناه أيضًا من الصِّفتَيْن وهما المَغفِرة والرحمة، وما يَتعلَّق بهما من حُكْم وأَثَر، وهو أنه يَغفِر ويَرحَم.

وأَسماء الله تعالى نَوْعان: مُتعَـدٍّ ولازِم؛ فالمُتعدِّي لا يَتِمُّ إيمانك به إلَّا بأُمـورٍ ثلاثة:

أ-أن تُؤمِن به اسمًا لله تعالى.

ب- أن تُؤمِن بما تَضمَّنه من صِفة.

ج- أن تُؤمِن بما تَضمَّنه من الحُكْم والأثَر.

فالاسمان الكَريمان الغَفور الرَّحيم من الأسماء المُتعدِّية التي لا يَتِمُّ الإيمان بها

إلَّا بأُمور ثلاثة؛ ففي (الغفور) تُؤمِن بأن الغَفور من أسماء الله تعالى وأنه تعالى ذو مَغفِرة، والثالِث وأنه يَغفِر، ومثله الرَّحيم.

وإذا كان غير النَّوْع الثاني: إذا كان غير مُتعَدٍّ فلا يَتِمُّ الإيمان به إلَّا بأمرين:

أ- الإيمان به اسمًا من أسماءِ الله تعالى.

ب- الإيمان بما تَضمَّنه من الصِّفة.

مِثل: العَلِي العَظيم الكَريم وما أَشبَهها، وربما نَقول: إن الكريم من النوع الأَوَّل.

وفي الآية إشكال وهو قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، كان الله يَعنِي: والآنَ؟

فنَقول: إنَّ (كانَ) يُراد بها اتِّصاف اسمِها بخبَرها بقَطْع النظَر عن الزمَن، وهو ما يُعرَف بـ(مَسلوبة الزمَن)، يَعنِي: لا يُراد بها الزمَن إطلاقًا، بل يُراد بها تَحقُّق هذا الوصفِ، فـ(كان) يَعنِي: ثبَت، وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ يَعنِي: أنه عَزَّوَجَلَّ لم يَزَل ولا يَزال كذلك غَفورًا رحيمًا.

• • ۞ • •

الآيــة (٢٥)

• ● ● •

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب:٢٥].

• ● ● •

ردَّهُم أي: أَرجَعهم على أَدْبارهم خائِبين، ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يَعنِي: الأحزابَ من قُرَيْش وغيرِهم.

وقوله تعالى: ﴿بِغَيْظِهِمْ﴾ الباء هنا للمُلابَسة، أي: مُتلَبِّسين بالغَيْظ، الجارُّ والمَجرور في مَوْضِع نصب على الحال، يَعنِي: أنهم رجَعوا مُغتاظِين غايةَ الغَيْظ، ووجهُ اغتِياظهم أنهم جاؤُوا بهذا الجَمعِ الكثيرِ الذي لم يُشْهَد له نَظِير في ذلك الوقتِ، يُريدون القَضاء على النبيِّ ﷺ، ومع ذلك حصَل لهم التَّعَب والعَناء والجُوع والبَلاء، وآخِر الأَمْر أَنْ رجَعوا هارِبين، ولا شَكَّ أن مِثْل هذا سَوف يُؤَثِّر على الإنسان، فسوف يَملَأ قلبه غَيْظًا وحَسْرةً وندَمًا، كيف يَأتِي بهذا الجَيْشِ الذي جَمَع له وأَبدَى فيه وأَعاد وآخِر الأَمْر أن يَنقلِب ولا يَكون معركة؟! ولهذا قال تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا﴾.

وقوله: ﴿لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا﴾ لا مِن أَمْر الدُّنيا ولا مِن أَمْر الآخِرة، أَمَّا أَمْر الآخِرة فإنهم لن يَنالوا خيرًا بقِتالهم للنبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ على كلِّ حال. وأمَّا أَمْر الدُّنيا الذي يَرَوْنه هم خيرًا لأنفسهم فما نالوه؛ فما نالوا خيرًا لا في الدِّين ولا في الدُّنيا

-ولله الحمدُ- حتى ما يَظُنُّونه خيرًا من هَزيمة رسول الله ﷺ والقضاء عليه وعلى أصحابه ما حصَل لهم ذلك، لم يَنالوا خيرًا.

وقوله تعـالى: ﴿خَيْرًا﴾ نكِرة في سِياق النفيِ (لم) فتُفيد العُمُوم يَعنِي: ما نالوا أيَّ خيرٍ لا قليلًا ولا كثيرًا، وهذه من نِعْمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وأَضاف الله تعالى الرَّدَّ إلى نَفْسه ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ لأن رُجُوعهم ليس بِحَوْل النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ولا بقُوَّته ولا بحَوْل أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ولا قُوَّتهم، ولكنه بحَوْل الله تعالى وقُوَّته؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾.

يَقول المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا﴾ مُرادهم من الظَّفر بالمُؤمِنين ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾] والحمد لله! كفَى اللهُ تعالى المُؤمِنين القِتال، يَعنِي: أن الله تعالى أَراح المُؤمِنين من القِتال فلم يُقاتِلوا، وأمَّا ما حصَل من المُناوَشات التي حصَلَت لبعض الصحابة مع بعض المُشرِكين، فهذا لا يُعـدُّ قِتالًا؛ لأن الكلام على الجَيْـش كله جَمعاءَ فإنه لم يَحصُل فيه قِتالٌ.

وقوله تعالى: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ ونِعْمَ الحسْبُ هو الكَفيُّ عَزَّ وَجَلَّ.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [بالرِّيح والمَلائِكة] الرِّيح سبَق أن الله تعـالى أَرسَل عليهم الرِّيحَ الشرقيةَ البـارِدة الشديدة، وأنها كفَأَت قُدُورهم وزَلزَلْت خِيامهم، ورَمَتْهم بالحِجارة تَحمِـلها الرِّياح مع البَرْد الشَّديد، حتى كانوا يَصطَلون بالنار، ويَقولون: النَّجا النَّجا؛ وأمَّا المَلائِكة فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سلَّط المَلائِكة عليـهم بأن تُلقِيَ في قُلوبهم الرُّعْب والفزَع والخَوْف، وتوحِّشهم حتى يَنـصَرِفوا من المكان، وهذا من نَصْر الله عَزَّ وَجَلَّ للرسول ﷺ.

وقوله: [﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا﴾ على إِيجـاد ما يُريده ﴿عَزِيزًا﴾ غالِبًـا على أَمْره]

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا﴾ القُوَّة صِفةٌ يَتمَكَّن بها القويُّ من فِعْل ما يُريد بدون ضَعْف، وهي أعلى من القُدْرة؛ لأن القُدْرة صِفةٌ يَتمكَّن بها القادِر من فِعْل ما يُريد بدون عَجْز، فالقُوَّة أعلى، وانظُرْ إلى رَجُلَيْن حَمَلا صَخْرةً، أحدُهُما حَمَلها لكن مع نوعٍ من المَشقَّة، فنَقول: هذا قادِر، ولكن ليس بقَوِيٍّ، والآخَر حَمَلها وكأنها شيءٌ بَسيطٌ نَقول: هذا قوِيٌّ.

وقوَّةُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا مُنْتَهى لها، ولَا مِقْياسَ لها، بَل هي فَوْق ما يَتصوَّره الإنسان، لَمَّا قالت عادٌ: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فُصِّلَت:١٥-١٦].

وأمَّا قوله تعالى: ﴿عَزِيزًا﴾ فيقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [غالِبًا على أَمْره]، فالعزيز من أسماء الله تعالى له ثَلاثة مَعانٍ:

١- عَزيز القَدْر.

٢- وعَزيز القَهْر.

٣- وعَزيز الامتِناع.

أمَّا عزيز الامتِناع: فمَعناه: أنه يَمتَنِع أن يَناله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سوءٌ أو نَقْصٌ في جميع صِفاته وجميع أَفْعاله.

وأمَّا عِزَّة القَدْر: فمَعناه: أنه ذو قَدْر عظيم رفيع مثلَما تَقول: فُلَان عَزيزُ النَّفْس. يَعني: له عِزَّة وتَرَفُّعٌ عن الدَّنايا.

وأمَّا عِزَّة القَهْر التي من الغَلَبة: فمَعناها أنه غالِب على كل شيء حتى بالجاهِلية، يَقول الشاعِر:

أَيْنَ المَفَرُّ وَالْإِلَهُ الطَّالِبُ وَالْأَشْرَمُ المَغْلُوبُ لَيْسَ الْغَالِبُ[1]

والله عَزَّوَجَلَّ هو الغالِب على أَمْره وهو غالِب على كل شيء، لا شيءَ يَكون أمام غلَبَته.

فصار العزيزُ له ثلاثة مَعانٍ: عِزَّة القَدْر وعِزَّة القَهْر، وعِزَّة الامتِناع، وكلها ثابِتةٌ لله عَزَّوَجَلَّ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بَيان قُدْرة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى حيث رَدَّ هذه الأحزابَ الكثيرة العَظيمة مع ما في قُلوبهم من الغَيْظ والحَنَق الشديد على رسول الله ﷺ وأصحابه ردَّهم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى بغَيْظهم ما اشتَفَوْا، ولا نالوا مُرادهم قال الله تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ﴾؛ ولهذا أَثْنى النبيُّ ﷺ على ربِّه بهَزيمة الأحزاب، فقال: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ أَنْجزَ وَعْدَهُ وَنَصَرَ عَبْدَهُ وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ»[2].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن هؤلاءِ الأحزابَ قدِ امتَلأت قلوبُهم غَيْظًا على رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿بِغَيْظِهِمْ﴾، فإن الباء للمُصاحَبة وللمُلابَسة.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الأحزاب لم يَنالوا مع هذا التَّعَبِ الشديد خيرًا لا في الدُّنيا

(١) نسبه ابن هشام في السيرة (١/ ٥٣) لنفيل بن حبيب.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب العمرة، باب ما يقول إذا رجع من الحج أو العمرة أو الغزو، رقم (١٧٩٧)، ومسلم: كتاب الحج، باب ما يقول إذا قفل من سفر الحج وغيره، رقم (١٣٤٤)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ولا في الآخِرة، فما نالوا خيرًا في الدنيا من غنائِم وغيرها ولا نالوا خيرًا في الآخِرة من الأُجور والثَّواب.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن الله عَزَّوَجَلَّ كفَى المُؤمِنين القِتالَ بعد هذه الغَزوةِ؛ ولهذا لم يُقاتِل النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أحدًا من المُشرِكين بعد تِلك الغَزوةِ حتى قال النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**الْآنَ نَغْزُوهُمْ وَلَا يَغْزُونَنَا**»(١)؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ في هذه الغَزوةِ وما بعدَها، فإن العرَب لم يَقوموا بغزوٍ لرسول الله ﷺ بعد هذه.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الله عَزَّوَجَلَّ يُدافِع عن المُؤمِنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ يُؤْخَذ من الآية: أنه خصَّه بالمُؤمِنين فدَلَّ هذا على أنه كَفاهم القِتال لإيمانهم؛ فالمُؤمِنون يَكفيهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ما أَهمَّهم؛ فيُدافِع عنهم لإيمانهم كما قال تعالى: ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الزُّمَر:٦١].

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثبات القُوَّة والعِزة لله تعالى في قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾، وفيها إثبات هَذين الاسمَيْن من أسمائه، وهما: القويُّ والعَزيز.

• • ۞ • •

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة الخندق، رقم (٤١١٠)، من حديث سليمان بن صرد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآية (٢٦)

• قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ [الأحزاب:٢٦].

•••

قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: قُرَيْظَة ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ حُصونِهم جمع صِيصَة وهو ما يُتَحصَّن به ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾].

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ﴾: (أَنزَل) الضمير يَعود على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم﴾ أي: أَعانوهم وساعَدوهم، والمُظاهَرة بمَعنَى المُساعَدة، وتَظاهَرَ على كذا: أي: تَساعَدَ وتَساند عليه، قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ﴾ [التحريم:٤]، وقال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء:٨٨] يُعين مُساعِدًا ومُعينًا، فقوله تعالى: ﴿ظَٰهَرُوهُم﴾ أي: أَعانوهم وساعَدوهم من أهل الكِتاب.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ المُراد بـ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ اليَهود والنَّصارى، لكن المُراد بهم هنا في الآية: طائِفةٌ من اليَهود، وهم بنو قُرَيظةَ، وسبَق أنَّ بني قُرَيظةَ وبني النَّضير وبني قَيْنُقاع ثلاث قبائِلَ من اليَهود، قـدِم النَّبيُّ ﷺ

المَدينة وهم ساكِنون فيها، فأَجرَى بينهم وبينه عَهْدًا، ولكنهم نقَضوا ذلك العهدَ، ولم يَبق إلَّا بنو قُرَيظةَ، ثُم إنَّ بني قُرَيظةَ نَقَضوا العهد بمُساعدةٍ مِن الأحزاب على رسول الله ﷺ.

ولَمَّا رجَع النبيُّ عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ من الأحزاب ودخَل بَيْته واغتَسَل جاءَه جِبريلُ عَلَيهِ السَّلامُ، وقال له: «اخْرُجْ لِهَؤُلَاءِ» مُشيرًا إلى بني قُرَيظةَ فإنهم نقَضوا العهد، فرجَع، فأَمَر النبيُّ ﷺ أصحابه أمرَهم بالخُروج وقال ﷺ: «لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ الْعَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ»[1]، فما تَوانَى الصحابةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وما تَأَخَّروا مع ما هم فيه من التعَب والضَّعْف، فخرَجوا فحاصَروا بني قُرَيظةَ لُمدَّة عِشْرين يومًا حتى نزَلوا على حُكْم سعدِ بنِ مُعاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2].

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ جارٌّ ومجرورٌ مُتَعلِّق بـ(أَنْزَل) يَعنِي: أَنزَل هؤلاءِ من صَياصيهم أي: من مَآمِنهم، والأصل في صَياصي حَظائِر البقَر؛ لأنها تُؤمَّن فيها، فـ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ يَعنِي: من مَآمِنهم وحُصونهم التي تحَصَّنوا فيها، ولكن ذلك لم يُغنِهم من الله تعالى شيئًا.

وقوله تعالى: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ قذَف: بمَعنَى: رمَى، وهو أشدُّ وقعًا من قوله: وضَع، يَعنِي: لو قال: (وضَع في قُلوبِهم الرُّعْب) أَفاد أنَّ الرُّعْب قد صار

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب صلاة الخوف، باب صلاة الطالب والمطلوب، رقم (٩٤٦)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب المبادرة بالغزو، رقم (١٧٧٠) من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وعند مسلم: صلاة الظهر.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب إذا نزل العدو على حكم رجل، رقم (٣٠٤٣)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب جواز قتال من نقض العهد وجواز إنزال أهل الحصن على حكم حاكم عدل أهل للحكم، رقم (١٧٦٨)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

في القُلوب، لكن إذا قال: (قذَف) صار أشَدَّ.

و﴿ٱلرُّعْبَ﴾ بمَعنَى: الخَوْف، وإذا وقَع الخَوْف في القلب، فلا تَسأَل عن الخائِف، إذ يَظُنُّ أن الشَّجَر إنسانٌ، فلا يَتَصوَّر الأمور على حَقائقها حتى لو ناداه أحَدٌ من أصحابه ظنَّ أنه عَدُوُّه يُناديه؛ ليقتُله، ولا أشدَّ من سِلاحٍ يَفتِك بالعَدوِّ من الرُّعْب؛ ولهذا قال النبيُّ ﷺ: «نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ»[1].

أمَّا إذا ثبَت القَلْبُ واطمَأنَّ فإن المُقاتِل سَيَثْبُت كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال:٤٥]، وذِكْر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تَطْمَئِنُّ به القُلوب، قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨]، وأَخبَر الله عَزَّوَجَلَّ أن الله تعالى أَنزَل على أهل بَدْر المطَر؛ لِيُثبِّت به الأقدام، وتكون به السَّكينة.

والحاصِلُ: أن الرُّعْب من أشَدِّ الأسلِحة فَتْكًا للعَدوِّ.

وقوله تعالى: ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ مِنهم وهُمُ المُقاتِلة ﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ مِنهم، أي: الذَّراري] فهُم لَمَّا طال بِهِمُ الحِصار، ونزَلوا على حُكْم الرسول ﷺ خيَّرهم قال: «مَنْ تُرِيدُونَ أَنْ تَنْزِلُوا عَلَى حُكْمِهِ؟» قالُوا: نُريد أن نَنزِل على حُكْم سعد بنِ مُعاذ. وكان سَعدُ بنُ مُعاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ حَليفًا لهم فظَنُّوا أنه سيَفعَل مِثلَما فعَل عبد الله بنُ أُبَيٍّ في حُلَفائه من اليَهود حين شفَع فيهم لرسول إلى رسول الله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فترَكهم، لكن سعدًا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لَمَّا جاء وكان في خَيْمةٍ له في المَسجِد؛ لأنه أُصِيب في الأحزاب في أَكحَله،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التيمم، رقم (٣٣٥)، أخرجه مسلم: كتاب المساجد، باب جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، رقم (٥٢١)، من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

وضَرَب له النبيُّ ﷺ خيمةً في المسجد؛ ليَعودَه من قريب؛ لأنه سيِّد قَوْمه -سيِّد الأَوْس- جاء على حِمار من مَسجِد الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إلى مَكان الحِصار.

فأَخبَره النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بأنهم حكَّموه، فقال: حُكْمي نافِذ عليهم -ويُشير إلى الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- أوَحُكْمي فيهم نافِذ؟! ويُشير إلى الرسول ﷺ ويُشير إليهم أيضًا فقالوا: نعَمْ! فالنبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وكذلك هَؤلاءِ اليَهودُ رَضُوا؛ فقال: لقَدْ آن لسَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن لا تَأخُذه في الله تعالى لومةُ لائِم! هذا مَقام مِحْنةٍ عظيمةٍ، فحكَم فيهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بحُكمٍ عظيم حُكمٍ صائِب مُطابِق للحقِّ، قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَحكُم بأَنْ تُقتَل مُقاتِلتُهم، وتُسبَى ذُرِّيَّتهُم، وتُغنَم أموالهم؛ فقال النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ اللهِ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ»، ثُمَّ أمَر النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بأن تُقتَل مُقاتِلتُهم وهمُ الرِّجال البالِغون، وأمَّا الذَّراري من النِّساء والرِّجال غير البالِغين، فإنها تُسبَى والأموال تُغنَم، فقُتِلوا في المدينة ما بين السَّبعِ مِئة إلى ثَمانِ مِئة[1].

فقُتِلوا في يوم واحِد بِناءً على حُكْمٍ همُ الذين رضُوا به، فهذا هو مَعنَى قوله تعالى: ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾.

وهنا قُدِّم المَفعول في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ وأُخِّر المَفعول في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ فهلِ الفائِدة من ذلك مُراعاة الفواصِل فقط

---

(١) هذا الخبر مجموع من عدة روايات منها ما أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب، رقم (٤١٢٢)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب جواز قتال من نقض العهد، رقم (١٧٦٩)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. وما أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب إذا نزل العدو على حكم رجل، رقم (٣٠٤٣)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب جواز قتال من نقض العهد، رقم (١٧٦٨)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فتكون الفائِدة لَفْظية، أم أن هناك فائِدةً مَعنوِيةً؟

الجوابُ: بلِ الأمران، وذلك لأن الحُكْم الأوَّل أشَدُّ وأبلَغُ؛ فلهذا قُدِّم مَفعولُه قال تعالى: ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ والثاني دون ذلك؛ لأن الأسير ربما يُمَنُّ عليه بإِطْلاقه فقال: ﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ هذا مع مُراعاة اللَّفْظ الذي هو مُراعاة الفواصِل -فواصِل الآيات-؛ ولهذا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سورة البقَرة: ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ [المائدة: ٧٠].

فلمَّا كان التَّكذيب للرُّسُل شديدًا قُدِّم فيه المَفعول كما قُدِّم المَفعول في قَتْلهم، فهذه قِصَّة الأحزاب انتهَت على قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: مِنَّة أُخرى على المُؤمِنين، وهي إنزال هؤلاء الذين غدَروا من اليَهود من بني قُرَيْظةَ من حُصونهم التي تحَصَّنوا بها في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن اليَهود والنَّصارى أعداءٌ للمُسلِمين مُوالون للمُشرِكين؛ لأن بني قُرَيظةَ والَوُا الأَحزابَ وظاهَروهم على رسول الله ﷺ مع ما عليهم من العَهْد والمِيثاق الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن إلقاء الرُّعْب في القُلوب من أعظَمِ الهَزيمة؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: الإشارة إلى انحِطاط هؤلاء اليَهودِ وذُلِّهم ونُزُولهم من الأعلى

إلى الأَسفَل؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ وفِعْلًا: فإنهم حصَل لهم مع خُروجهم من حُصونهم من الذُّلِّ والعار والخِزي ما هو باقٍ إلى يوم القيامة.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَباح للمُؤمِنين هؤلاءِ اليَهودَ قتلًا وأَسْرًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثبات غَدْر اليَهود، وأنهم أهلُ غَدْر وخِيانة، وهذا شيء مَعلوم أن اليَهود من حالِهم منذ كان فيهم نَبيُّهم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مُوسى إلى يَوْمنا هذا، فهُمْ أشَدُّ الناس غدرًا ومَكْرًا وخِيانة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ﴾.

• • ❁ • •

الآية (٢٧)

• ● ೞ ● •

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب:٢٧].

• ● ೞ ● •

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾ وهي خَيبرُ وأُخِذت بعد قُرَيْظَة ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾] ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ﴾ (أَورَثَ) هذه تَنصِب مَفعولين؛ المَفعول الأوَّلُ الكافُ والثاني: ﴿أَرْضَهُمْ﴾؛ والأرض والدِّيار بينهما فَرْق، فالدِّيار جَمْع دار، وهِي المَساكِن والأحياء، وأمَّا الأرض فهي أعَمُّ من ذلك، والأموال هي الأَمتِعة والدراهِم والدَّنانير، وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾ يَعنِي: ما وطِئْتُموها حتى الآنَ، ولكنكم ستَرِثونها، وهي أرض خيبرَ، فإن النبيَّ ﷺ فَتَحها بعد ذلك في السَّنَة السابعة[1].

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ فلا يُعجِزه شيءٌ، وقُدِّم المَفعول لتَحقُّق وقوعِ الفِعْل به؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ ولا تَقُلْ كما يَقول بعض الناس: (إنه على ما يَشاءُ قَديرٌ)؛ لأنك إذا قُلْت: (على ما يَشاء قَديرٌ) خصَصْتَ قُدْرته بما يَشاءُ، مع أن القُدْرة تَتعلَّق بالذي شاءَه والذي لم يَشَأْه، حتى الذي لم يَشَأْه هو قادِر عليه.

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٣٢٨)، والبداية والنهاية (٦/ ٢٤٩).

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن المُؤمنين إذا فتَحوا بلَدًا ملكوا الأَرْض؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ﴾ وإذا ملكوا الأرض فهل تُقْسَم بين الغانِمين أو تُوْقَف لبيت المال، أو تُوزَّع على المُؤمِنين بخَراج؟

فيه خِلاف بين أهل العِلْم رَحِمَهُمُ اللَّهُ والصحيح أنه يَجِب على وَليِّ الأَمْر أن يَنظُر ما هُو الأَصلَح، إن رأَى أن يُوزِّعها على الغانِمين فعَل، كما فعَلَ النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في خَيبرَ[1]، وإن رأَى أن يُبقِيَها لمَصالِح المُسلِمين أَبقاها وإن رأَى أن يُوزِّعها على المُسلِمين بخَراج يُضرَب عليها فعَل، مثلَما فعَل عُمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2] فيقول مثَلًا: نحن نُقسِّمها عليكم على أن يَكون على كل مئة مِتْر كذا وكذا دراهِمَ مثل: الصُّبرة، وتكون هذه الدراهِمُ للمُسلِمين يَنتَفِعون بها.

المُهِمُّ أن أرض الكُفَّار إذا فُتِحت عَنْوة فهي للمُسلِمين؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ﴾، فأَهْل خَيبرَ اليَهود أبقاهم فيها عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ على أنهم فلاليحُ؛ لأنهم يَعرِفون كيف يُدبِّرون هذه الفلائِحَ، فجعَل لهم شَطْر ما يَأخُذون منها من ثَمَر أو زَرْع والأرض للمُسلِمين وليست هي لهم.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: حِلُّ أموال الكُفَّار للمُسلِمين؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَمْوَالَهُمْ﴾ فإن الغَنائم تَحِلُّ للمُسلِمين، وهي من خَصائِص هذه الأُمَّة، قال النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٣٦)، وأبو داود: كتاب الخراج، باب ما جاء في حكم أرض خيبر، رقم (٣٠١٢)، من حديث بشير بن يسار، عن رجال من أصحاب النبي ﷺ.

(٢) أخرجه أبو عبيد في الأموال رقم (١٤٦)، وسعيد بن منصور في السنن [ط الأعظمي] رقم (٢٥٨٩).

«أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ، وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»(١).

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: البِشارة بأن المُسلِمين سيَتولَّوْن على أراضٍ أُخرَى للكُفَّار؛ تُؤْخَذ من قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾ وهي خَيبرُ وغيرها من بِلاد الكُفَّار، إنما فيه بِشارة بأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سيُورِث المُسلِمين أراضِيَ الكافِرين.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثباتُ قُدرةِ الله تعالى على كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ وكل شيء، فإن اللهَ تعالى قادِر عليه لا يُعْجِزه ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، فمَهما ظَنَنْت من بُعْد الشيء ووُقوع الشيء، من بُعد وقوع الشيء، فلا تَستَبْعِده على قُدْرة الله تعالى فإن الأمر عليه هَيِّن كما قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧]، الكل عليه هَيِّن، ولكن هذا أَهونُ، والحاصِل أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على كل شيءٍ قَديرٌ.

وقد قال في سورة المائِدة لَمَّا قال تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة:١٧] قال: [وخَصَّ العَقْل ذاته فليس عليها بقادِر] أي: أن الله تعالى لا يَقدِر على ذَاتِهِ، والذي خصَّص هذا العُموم العقْل على زَعْمِه، فيُقَال: ما هذا العَقْلُ الذي يُخصِّص هذا العُمومَ؟ وكيف لا يَكون اللهُ قادرًا على ذاتِه؟ بل هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قادِرٌ على كل شيء

(١) أخرجه البخاري: كتاب التيمم، رقم (٣٣٥)، أخرجه مسلم: كتاب المساجد، باب جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، رقم (٥٢١)، من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

حتى على ذاتِه، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَسْتَوِي على العَرْش ويَنزِل إلى السَّماء الدُّنيا ويَأْتِي للفَصْل بين عِباده ويَفعَل ما يَشاء، وهذه قُدْرة على الذات.

أمَّا إن أَراد أنه غيرُ قادِر على ذاته فلا يُعدِمها مثَلًا فيُقال: إن هذا الشيءَ مُستَحيل، والمُستَحيل لا تَتعَلَّق به القُدرة أصلًا فهو غير وارِد ولا داخِل في الآية من الأصل، فأمَّا كونه داخِلًا ثُم يَخُصُّه العَقْل، فهذا تخصيص لما عَمَّمه الله عَزَّوَجَلَّ أي: آية ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌۢ﴾ [المائدة:١٢٠] آخِر السورة.

فلو قال قائِل: هل يَقدِر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يَجعَل الشيء مُتحَرِّكًا ساكِنًا في آنٍ واحِد؟

نَقول: هذا شيء مُستَحيل؛ لأنه إن كان مُتحرِّكًا فليس بساكِن، وإن كان ساكِنًا فليس بمُتحرِّكٍ، فإذا جعَله الله مُتحَرِّكًا لم يَكُن ساكِنًا، وإن جعَله ساكِنًا لم يَكُن مُتحَرِّكًا من الأصل.

وهو واضِح؛ لأنك إذا وصَفْته بالحرَكة انتَفَى عنه السُّكون، وإذا وصَفْته بالسُّكون انتفَت عنه الحرَكة قَطْعًا، وهذا شيء مَعروف لا يَحتاج إلى نظَر، كما لو قلت: كل حادِث لا بُدَّ له من مُحْدِث فهذا شيءٌ مَعقول، فالأُمور العَقْلية المَعلومة بالضَّرورة لا تَحتاج إلى تَأمُّل ولا إلى تَفكير، فالحرَكة والسُّكون مُتناقِضان، والسَّواد والبَياض مُتَضادَّان.

• • ❁ • •

الآية (٢٨)

• • ○ • •

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴾ [الأحزاب:٢٨].

• • ○ • •

ثُمَّ قال سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا ﴾ قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾ لم يُخاطِب اللهُ تعالى نبيَّه مُحَمَّدًا ﷺ إلَّا بوَصْف النُّبوَّة والرِّسالة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ ﴾، بينما كان يُخاطِب غيرَه من الأنبياء كثيرًا بأَسْمائهم مثل: يا مُوسى، يا نُوحُ، يا إبراهيمُ، وما أشبَهَ ذلك، وأمَّا النبيُّ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في القُرآن فلَمْ يُخاطِبْه الله تعالى باسْمِه يَعنِي: لم يَقُل: يا مُحَمَّدُ. وإن كان جعَل ذلك في الأحاديث، لكن في القرآن: يا أَيُّها النبيُّ.

والنبيُّ مُسَهَّل من النَّبيءِ بالهَمْزة، وقيل: إنه غَيْر مُسهَّل، وأصل هذا الخِلافِ: هل النبيُّ من النَّبَأ أو من النُّبوَّة؟ إذا قُلنا: من النَّبْوة لم يَكُن فيه تَسهيل؛ لأن الياء أَصلِيَّة، وإذا قُلنا: من النبأ ففيه تَسْهيل، وأَصله النَّبيء، فسُهِّلت الهَمزة إلى ياء، والصحيح أنه مُشتَقٌّ من المَعنيَيْن جميعًا، فإن النَّبيء مُشتَقٌّ من النبأ؛ لأنه مُنبَأ مُنبِئ ومُشتَقٌّ أيضًا من النُّبوَّة؛ لعُلوِّ مَرتبة النَّبيِّين.

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ ﴾ الأزواج جَمْع زوج، والزوج في اللغة العرَبية يُطلَق على الأُنثى والذَّكَر، وفيه لُغة ولكِنها رَديئة قليلة تَقول للمَرأة: زَوْجة.

ولكن هذه اللُّغةَ الرَّديئة القَليلة هي التي استعمَلها الفَرضيون، فيَقولون: زَوْجٌ. للذَّكَر، وزوجة. للأُنثَى من أجل البيان والإيضاح، وهذا أَمْر لا بُدَّ منه في باب الفَرائض.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ وهُنَّ تِسع]، خمسٌ مِنهُنَّ قُرَشِيَّات وأربَع غير قُرَشِيَّات [وطلَبْنَ منه من زِينة الدُّنيا ما ليس عِنْده] طلَبْن منه نفقةً كِسوةً وغير ذلك ممَّا تُريده النِّساء من الرجال من الأموال، والنبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كما نَعلَم جميعًا كان قليلَ ذاتِ اليَدِ؛ لأنه كان يُنفِق ما عِنده ولا يُبقِي لنفسه شيئًا، فطلَبْن منه النفَقة وضَيَّقن عليه، وآلَى مِنهنَّ شهرًا كامِلًا[1] اعتزَلهُنَّ ثُم نزَل في آخِر الشَّهْر، فأَنزَل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليه هذه الآيةَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ إلى آخِره.

وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾: ﴿إِن﴾ شَرْطية، وفِعْل الشَّرْط (كان) ﴿كُنتُنَّ﴾، وجَواب الشَّرْط ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ الحَياة الدُّنيا يَعنِي: مُتَعها ﴿وَزِينَتَهَا﴾ ما فيها من الأموال والقُصور والمَراكِب وما أَشبَه ذلك.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَتَعَالَيْنَ﴾ تَعالَيْن فِعْل أَمْر؛ لأنه تَلحَقه العَلامات، فإذا كانت تَلحَقه العَلامات فهو فِعْل أمرٍ؛ ولهذا يُقال: تَعالَيْن. ويُقال: ﴿تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ﴾، بخِلاف (هَلُمَّ) فإنها لا تَلحَقها العَلامات، فهي اسم فِعْل؛ فقوله

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب الغرفة والعلية المشرفة وغير المشرفة، رقم (٢٤٦٨)، ومسلم: كتاب الطلاق، باب في الإيلاء واعتزال النساء، رقم (١٤٧٩)، من حديث عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

تعالى: ﴿فَتَعَالَيْنَ﴾ يَعنِي: أَقبِلنَ إليَّ.

وقوله تعالى: ﴿أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ أُمتِّعْكن هذه جَواب الطلَب في قوله تعالى: ﴿فَتَعَالَيْنَ﴾ يَعنِي: أُعطِيكن مَتاعًا تَتمتَّعن به ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ أُطلِّقكن؛ لأن التَّسريح ضِدُّ التَّقييد، وهذا من الآداب العالية التي أَمَر الله تعالى بها نبيَّه مُحمَّدًا ﷺ، وإلَّا كان مُقتَضى الحال أن يَقول: إن كُنْتُن تُرِدْن الحياة الدُّنيا وزِينتَها فتَعالَيْن أُطلِّقكن، ولا خيرَ فيمَن لا تُريد إلَّا الدُّنيا، ولكن من كَمال الرِّعاية قال: أُمتِّعكن وأُسرِّحكن وأُعطِيكن مالًا تَتمَتَّعْنَ به وأُسرِّحكُنَّ: أُطلِّقكنَّ.

وقوله تعالى: ﴿سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ يَعنِي: ليس فيه عَداوة، وليس فيه بَغْضاءُ، وليس فيه حَجرٌ؛ لكن بعد ذلك؛ ولهذا لو أن هذا وقَع لكان يَحِلُّ لهن أن يَتزوَّجْن بغيره؛ لأن هذا من السَّراح الجَميل، إذَنْ لا فائِدةَ من كونها تَتسَرَّح من الرسول ﷺ، ثُم تَبقَى مَحبوسةً، ولكن الأمر لم يَقَع.

وقوله تعالى: ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ أي: كل النِّساء كلهن.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: وُجوب تَخيير النبيِّ ﷺ زَوجاتِه؛ لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِأَزْوَاجِكَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن التَّخيير لا يَكون طلاقًا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: حِماية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لرسوله ﷺ، ودِفاعه عنه؛ حيثُ أَمَره أن يُخيِّر أزواجه هذا التَّخييرَ؛ لمَّا ضَيَّقن عليه، وطَلَبْنَ منه النَّفَقة.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن في ذلك حِمايةً لِفراش الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من أن يكون فيه مَن يُريد الحياة الدُّنيا وزِينتَها.

الْفَائِدَةُ الْخَامِسَةُ: بَيانُ فَضائِلِ أُمَّهات المُؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ؛ لأنَّهن اختَرْن الله تعالى ورسوله ﷺ والدار الآخِرة.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: كمال خُلُق النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حيث أمَرَه الله تعالى أن يَقول: ﴿إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾، بينما كان مُقتَضى الحال أن يُوبِّخن على ذلك، ويُؤنِّبن عليه، لكنه قِيل: ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: حِلُّ زَوْجات النبيِّ ﷺ لغيره لَوِ اختَرْنَ الحياة الدُّنيا وزينتها؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾.

الآية (٢٩)

قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٢٩].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ أي: الجَنَّة؛ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ﴾ بإرادة الآخِرة ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: الجَنَّة].

وإنما بدأ بالدُّنيا ﴿إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾؛ لأنهن كُنَّ يُطالِبن بالنَّفَقة، وهي ممَّا يَتعلَّق بالدُّنيا.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾، وهذه هي الحال الثانية لهُنَّ؛ فإنَّ الله تعالى أعَدَّ للمُحسِنات مِنكُن، ولم يَقُل: لَكُنَّ. بل قال: ﴿لِلْمُحْسِنَٰتِ﴾ فأظهَر في مَوضِع الإضمار ليَتبيَّن أنَّ هذه الإرادة إحسانٌ، وأنَّهنَّ إذا أَرَدْن الله تعالى ورسوله ﷺ والدار الآخِرة؛ فإنَّ ذلك من الإحسان، وأنَّ الله تعالى أعدَّ للمُحسِنات مِنهن أجرًا عظيمًا.

و(من) هنا ليست للتَّبعيض، ولكنَّها للبَيان، فتَشمَل ما لو أَرَدْن كلهن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ورسوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ والدار الآخِرة، فإن الله تعالى يُعِدُّ لهن جميعًا أجرًا عظيمًا.

فبَدَأ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أوَّل ما بدأ بأَحبِّ نِسائه إليه، وهي عائِشةُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا وقال

لها: «لَا عَلَيْكَ أَلَّا تَسْتَعْجِلِي، فتستأْمِري أبوَيْك»[1]، خاف أنها شابَّة صغيرة أنها تَتعجَّل وتَقول: أُريد الدُّنيـا، فطلَب منـها أَلَّا تَتعجَّل حتى تَستـأمِر أبوَيْها، يَعنِي: تَستأْذِنهما، ومعلومٌ أنَّ أبويْها لا يُريدان لها أن تَختار الدنيا وزِينتها على الله تعالى ورسوله ﷺ والدار الآخِرة، ولكنَّها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كان لها على صِغَر سِنِّها نَظْرة بعيدة، فقالت: يا رسولَ الله، أَفِي هذا أَستأمِر أبوَيَّ! يَعنِي: هذا أُشاوِر فيه أَبوَيَّ؟! لا، إنما أُريد الله تعالى ورسوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ والدارَ الآخِرة، ولكن لا تُخبِر نِساءَك بما قلت، قال النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ مُيَسِّرًا لَا مُتَعَنِّتًا وَمُعَنِّتًا، وَأَيُّ امْرَأَةٍ تَسْأَلُنِي فَسَأُخْبِرُهَا»[2]، لكن كل نِسائه ما سألْن، كل امرأة تَقول: إنها تُريـد الله تعالى ورسوله ﷺ والدار الآخِرة، فصِرْن على الحال الكامِلة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ، على ما كان عليه الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِن شَغَف العَيْش، وقِلَّة ذات اليَدِ، ومع هذا وفَّقهن الله تعالى ومَنَّ عليهن، وهذا بلا شَكٍّ من عِناية الله تعالى برسوله ﷺ، أن يَختار له مثل هؤلاءِ النِّساءِ فكان جَزاؤُهن أنَّ الله تعالى قال له: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ [الأحزاب:٥٢].

فهؤلاءِ النِّسوةُ اللاتي اختَرْن الله تعالى ورسوله ﷺ والدارَ الآخِرة، بعد أن خُيِّرن كان لهُنَّ -مع ما في ثواب الآخِرة- هذا الجزاءُ الدُّنيويُّ، أنَّ الرسول مُنِع مِن أن يَتزوَّج بعد ذلك بواحدةٍ من النِّساء أو يُبدِّل واحِدةً بامرأة جديدة، ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾، رقم (٤٧٨٥)، ومسلم: كتاب الطلاق، باب بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقا إلا بالنية، رقم (١٤٧٥)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه بنحوه مسلم: كتاب الطلاق، باب بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقا إلا بالنية، رقم (١٤٧٥/ ٣٥).

بِهِنَّ مِن أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا﴾، واللهُ تعالى أَعلَمُ.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ بفَتْح الياء وكَسْرها] مُبَيَّنَة مُبيِّنة [أي: بُيِّنت أو هي بيِّنة، ﴿يُضَٰعَفْ﴾ وفي قِراءة بالتَّضعيف: «يُضَعَّف» بالتَّشديد، وفي أُخرى «نُضَعِّف» بالنون معه مع التَّشديد ونَصْب العَذاب] «نُضَعِّفْ لها العَذَابَ» ففيها إِذَن ثلاثُ قِراءات: يُضَاعَفْ، ويُضَعَّفْ، ونُضَعِّفْ، فعلى القِراءَتَين الأَولَيَيْن يَكون العذاب بالرَّفع يُضَاعَف أو يُضَعَّف العَذاب بالرفع نائِب فاعِل، وعلى القِراءة الثالثة: «نُضَعِّف» يَكون العَذاب بالنَّصْب على أنه مَفعول به؛ ثُمَّ قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ ضِعْفَي عذاب غيرِهن، أَيْ: مِثْليه، ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ إرادة الله تعالى ورسوله ﷺ والدار الآخِرة من الإحسان؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن النِّيَّة لها أَثَرٌ عظيم في زيادة الثَّواب، لأَنَّه رَتَّبَ هـذا الثَّوابَ على هذه الإرادةِ والنِّيَّة الطَّيِّبة.

• • ❁ • •

الآيــة (٣٠)

• ● ● •

قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا﴾ [الأحزاب:٣٠].

• ● ● •

قوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ﴾ النِّداء من الله عَزَّوَجَلَّ، مُوجَّه إلى زَوْجات الرسولِ ﷺ، وذلك لأَهمِّيَة ما سيُوجَّه إليهن؛ ولتَنبيهِهِنَّ على ما سيُلْقَى إلَيْهن: ﴿مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ﴾: ﴿مَن﴾ هذه شَرْطية، وفِعْل الشَّرْط ﴿يَأۡتِ﴾ و﴿يُضَٰعَفۡ﴾ جوابُ الشَّرْط.

وما المُراد بالفاحِشة: هل المُراد بالفاحِشة (الزِّنا)، أو المُراد بالفاحِشة (الكلام البَذيء والمُتطاوَل فيه على رسول الله ﷺ والخارِج عن المروءة)؛ أو المُراد هذا وهذا؟

قال بعـض أهلِ العِلْم رَحِمَهُمُٱللَّهُ: إنَّ المُراد الأَخـير، ولا يُراد به الزِّنـا، مع أنَّ الفاحِشة تَأْتي في القُرآن مُرادًا بها الزِّنا، وتَأتي مُرادًا بها بَذاءة اللِّسان والتَّطاوُل، قال الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡ﴾ [النساء:١٥]، فالمُراد بالفاحِشة هنا الزِّنا، وقال تعالى: ﴿لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ﴾ [الطلاق:١]، والمُراد بالفاحِشة هنـا بَذاءة اللِّسان وسَلاطته؛ فإذا كانت بَذيئة اللِّسان سَليطته تَأْتِي بكلماتٍ خارِجة عن المرؤة؛ فلزَوْجها أَنْ يُخرِجها من البيت أثناء العِدَّة.

وهذه الآيةُ إِنْ قُلْنا بأنها تَشمَلُ الفَاحِشَة التي هي الزِّنا، والفاحِشة التي هي بَذاءة اللسان؛ فإن ذلك لا يَعنِي أنه يَقَع مِنهن، لأنَّ الشَّرْط لا يَلزَم وقوعه، كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ [الزُّخرُف:٨١]، وهل يُمكِن ذلك؟! لا يُمكِن؛ وقال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢٢]، وهل يُمكِن ذلك؟ لا يُمكِن، وقال تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزُّمَر:٦٥]، لا يُمكِن هذا أبدًا، فالإِتْيان بالشيء مُعلَّقًا بالشَّرْط لا يَلزَمُ منه جَواز وقوع الشَّرْط، وعلى هذا فلْتكُنِ الآيةُ ﴿مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ﴾ شامِلة للزِّنا، لكن هذا شيء مُحالٌ.

أمَّا إذا قُلْنا: إن المُراد بالفاحِشة هي سَلاطة اللِّسان، والخُروج بالقَوْل عن المَألوف والمُروءة؛ فهذا قد يَقَع من النِّساء حتى من أُمَّهات المُؤمِنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ ولا عَيْبَ عليهن في ذلك؛ لأنه من طَبيعة النِّساء: الغَيْرة، وعدَم حِفْظ اللسان، وعدَم التَّأنِّي في الأمور، وأيًّا كان فإن الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يقول: ﴿مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾؛ وذلك لشَرَفها وعُلوِّ مَنزِلتها، فكان الذَّنْب منها أَعظَمَ من الذَّنْب من غيرها؛ ولهذا إذا زَنَتِ الحُرَّة تُجلَدُ أو تُرْجَم، وإذا زنَتِ الأَمَة فليس عليها إلَّا نِصْف ما على المُحصَنات من العَذاب؛ لشَرَف الأُولى وانحِطاط مَرْتَبة الثانية، فزَوْجات الرسول ﷺ لهُنَّ من المَقام الرفيع، والحِصْن المَنيع ما يَقتَضي أن يُضاعَف العذابُ عَلَيْهن، إذا أَتَيْن بفاحِشة مُبيِّنة، ولهذا قال تعالى: ﴿يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾.

فإذا كان جَزاء سَيِّئة سيِّئةً مِثْلَها، فجزاءُ السَّيِّئة التي ذكَر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هنا الفاحِشة المُبيِّنة بالنِّسبة لزَوْجات الرسول سَيِّئتان، جَزاؤها سَيِّئتان؛ ولهذا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾، أي: يُكرَّر عليها مرَّتَيْن، وكان ذلك،

أي: تَضعيف العذاب عليهن.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى يَسِيرًا﴾؛ فالمُشار إليه هو تَضعيف العَذاب، كان ذلك يَسيرًا على الله تعالى، ليس صَعْبًا عليه، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾؛ لئَلَّا يَظُنَّ ظانٌّ أنَّ هـذا أمرٌ صَعْب على الله تعـالى؛ لكون الأمر يَتعـلَّق بزَوْجـات نبيِّه مُحمَّد ﷺ فبيَّن الله عَزَّوَجَلَّ أنَّ هذا أمرٌ يَسيرٌ عليـه، لأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليس بَينَه وبين خَلْقه نسَب، وأَكرَم الخَلْق عنـده أَتْقاهم له، كما قال الله تعـالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحُجُرات:١٣].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ الذَّنْب من المُقرَّبين أَشَدُّ من الذَّنْب من غير المُقرَّبين، يُؤخَذ من قول الله تعالى: ﴿يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: حِمايـة فِراش النبيِّ ﷺ التامَّـة؛ لكون المرأة إذا أَتَت بفاحِـشة مُبيِّنة من زوجاته فإنَّ الله تعالى يُضاعِفُ لها العَذاب، كل ذلك من أَجْل حماية فِراش النبيِّ ﷺ، وسواءٌ قُلْنا: إنَّ المُراد بالفاحِشة الزِّنا، أو المُراد بها بَذاءة اللِّسان.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ له أن يَفعَل ما يَشاء في مُضاعَفة الثَّواب والعِقاب، وأنَّ هذا الأمرَ عليه هيِّن؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾.

الآية (٣١)

• • • •

قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب:٣١].

• • • •

هذه عكس الأُولى، لَمَّا كنَّ إذا أَتَيْن بفاحِشةٍ مُبيِّنة، ضُعِّفَ العَذابُ عَليهن، جازاهُنَّ الله تعالى بالعَفْو من جِهة أُخرى فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [يَقنُتْ:يُطِع]، ولكن القُنوت لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ غير القُنوت للرسول ﷺ، القُنوت لله تعالى قُنوت عِبادة وتَذلُّل وتَعظيم، والقُنوت للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قُنوت طاعة الزَّوْج، وليس هو كقُنوتِهن لله عَزَّوَجَلَّ.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾: ﴿لِلَّهِ﴾ في الطاعة والعِبادة و(لِرَسول اللهِ) ﷺ بأداء حُقوقه التي تَجِبُ للزَّوج على زَوْجته.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ تَعمَل عمَلًا صالِحًا، والعَمَل الصالِح ما كان خالِصًا صوابًا، والخالِص الصواب يَعنِي أنه جمَع بين الشَّرْطين الأساسِيَّين في كل عِبادة، وهُما الإخلاصُ لله تعالى، والمُتابَعة لرسول الله ﷺ، فكلُّ عِبادة لا بُدَّ فيها من هَذَيْن الشَّرْطين؛ فمَنِ اتَّبَع الرسول ﷺ ولم يُخلِص لله تعالى؛ فصلاته باطِلة، لأنَّها رِياءٌ، ومَن أَخْلَصَ لله تعالى ولم يَتَّبِع الرسول ﷺ فصلاتُه باطِلة أيضًا، فعِبادته باطِلة لقوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا

فَهُوَ رَدٌّ»[١].

فالمُتابَعة مع الإخلاص، وإذا وُجِد مُتابَعـة بدون إخلاص فلا يُقبَل العمَل، وإذا وُجِـد إخلاصٌ بلا مُتابَعة فلا يُقبَل، فلا بُدَّ من الأمرين، وهكذا إذا ذكَر الله عَزَّوَجَلَّ عمَلًا صالِحًا؛ فالمُرَادُ بالصَّالِح ما تَضَمَّنَ هذين الشَّرْطين الأساسِيَّين.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾: ﴿نُّؤْتِهَآ﴾ لم يَقُل: (نُؤتِيها) بالياء؛ لأنها جوابُ الشَّرْط -وهو قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْنُتْ﴾- يَكون مجزومًا، والفِعْل هنا مَجزوم بحَذْف حَرْف العِلَّة، وأَصلُه نُؤتيها، فلَمَّا جُزِم حُذِف حَرْف العِلَّة ﴿نُّؤْتِهَآ﴾؛ فمَعنَى: ﴿نُّؤْتِهَآ﴾ أَيْ: نُعْطِها؛ ولهذا نصَبَتْ مَفْعُولين المَفعول الأوَّل (هَا)، والثاني ﴿أَجْرَهَا﴾.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ أي: مِثْلَيْ ثواب غيرِهن من النِّساء، وفي قِراءةٍ بالتَّحتانية في «تَعمَل»] (ويَعمَل) [و﴿نُّؤْتِهَآ﴾] يَعنِي: و«يُؤتِها» والقِراءة هذه سَبْعِيَّة، حسب اصطِلاح المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ، و«يُؤتِها» أيِ: اللهُ، و﴿نُّؤْتِهَآ﴾ أي: نحن فالضَّمير يَعود على الله عَزَّوَجَلَّ.

فقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ أي: كما أنها إذا أَتَت بفاحِشة مُبيِّنة يُضاعَف لها العَذاب يوم القِيامة، فإذا قَنَتَتْ لله تعالى ورسوله ﷺ، وعمِلَت صالِحًا آتاها الله تعالى أجرَها مَرَّتَين، وإيتاء الأَجْر مَرَّتين ليس بغريب؛ فقد أَثبَت الله تعالى الأَجْر مرَّتين في عِدَّة مَسائِل، مِثل: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [القصص:٥٤].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، رقم (١٧١٨)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وأخبَر النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنَّ الرجُل من أهل الكِتاب إذا آمَن بكِتابه، ثُم آمَن بمُحمَّد ﷺ، فإن الله تعالى يُؤتيه أَجرَه مرَّتَين[1]، وقال كثير من أهلِ العِلْم رَحِمَهُمُ اللَّهُ في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ﴾ [الحديد:٢٨]: إنَّ هذا هو أَجْر هذه الأُمَّة: يُضاعَفُ على غيرها مرَّتَين.

والمُهِمُّ: أنَّ فَضْل الله تعالى واسِعٌ، فقد يُصيبُ العَامِل أَجْره مرَّتين لسبب من الأسباب.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا﴾: (أعتَدْنا) أي: هيَّأْنا لها، ﴿رِزۡقٗا﴾ عطاءً ﴿كَرِيمٗا﴾ حسَنًا وكثيرًا، لأنَّ الكَرَم في كل مَوضِع بحَسَبه؛ فالكَريمةُ مِنَ الشَّاة مَعناها: الحسَنة الجَميلة، الكثيرة اللبَن، كما في قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ»[2].

وهُنا المُراد بالرِّزق الكَريم: العَطاء الكثير الحسَن الجَميل، وهذا إِنَّما يَكون في الجَنَّة، كما يَقول المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [في الجَنَّة زِيادةً].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: مَزِيَّة عظيمة لزوجات النبيِّ ﷺ حيثُ كانت المَرأةُ إذا عمِلت عمَلًا صالِحًا، وأَطاعَتِ الله تعالى ورسوله ﷺ آتاها اللهُ تعالى أَجرَها مَرَّتين.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: كمالُ عَدْل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فلمَّا ضُعِّفَ لها العَذاب ضُعِّفَ لها

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ٢٥٩)، من حديث أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء، رقم (١٤٩٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، رقم (١٩)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الثواب والأَجْر، ولهذا قال تعالى: ﴿نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الله تعـالى أَعَدَّ لهؤلاءِ الْمُؤمِنات من أزواج النبيِّ ﷺ أَجْرًا كريمًا، أي: كثيرًا جميلًا حسَنًا؛ لقوله تعالى: ﴿نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا﴾.

• ● ۞ ● •

الآية (٣٢)

قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾ [الأحزاب:٣٢].

قوله: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ﴾ الخِطاب هنا وجَّهَه الله عَزَّوَجَلَّ بعد أن وجَّهه لرسوله ﷺ: وجَّهه إلى نِسائه، فقال تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ﴾، وهذا بعدَ التَّخيير يَدُلُّ على أنَّ الزَّوجية استقَرَّت لزوجات النبيِّ ﷺ؛ ولهذا خاطبَهُن في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾، ﴿لَسۡتُنَّ﴾ أصلُها (ليس)، لكنه لَمَّا سُكِّنَتْ السِّينُ حُذِفَتِ الياءُ؛ لأنها حَرْف ليِّن، والحَرْف اللَّيْن عند التِقاء الساكِنَيْن يُحذَف كما قال ابنُ مالِك رَحِمَهُ اللَّهُ:

إِنْ سَاكِنَانِ التَقَيَا اكْسِرْ مَا سَبَقْ وَإِنْ يَكُنْ لِينًا فَحَذْفُهُ اسْتَحَقّ[(١)]

وقوله: ﴿لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ﴾ يَعنِي: أنَّ زَوْجاتِ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَسْن كأحدٍ يقول المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [كجماعةٍ من النِّساء] وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [كجماعةٍ من النِّساء] فيه نظَر؛ لأنَّ (أحَد) تُطلَقُ على الفَرْد، يَعنِي: ليس هناك أحدٌ مِنَ النِّساء مِثْلَكُنَّ، لستُنَّ كأحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ، أي: لا تُشْبِهن أحَدًا، واحِدةً فأكثر من النِّساء.

وقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي: سِواكن، إنِ اتَّقَيْتُنَّ الله تعالى فإنَّكن أعظَمُ، يَعنِي: لستُنَّ كأحَد من النِّساء إنِ اتَّقَيْتُن، والمُراد بالشَّرْط: الحثُّ والإغْراء على التَّقوى،

---

(١) ذكره الصبان في حاشيته على شرح الأشموني (١/ ١٣٤).

يَعنِي: إن كُنْتُنَّ مُتَّقِيات لله تعالى حقيقةً فلا تَقِسْنَ أنفسَكن بغَيْركن فلَسْتُنَّ كأحَد من النساء؛ لِما لهُنَّ من المَزِيَّة بالاتِّصال برسول الله ﷺ، فكان عليهن من حِماية فِراشه أعظَمُ ممَّا على غَيْرهن من حِماية فُرُش أزواجِهن، لعِظَم حقِّ النبيِّ ﷺ وعُلوِّ مَرتَبَته.

فالفَرْق عظيم بين فِراش النبيِّ ﷺ وفِراش غيره، ولهذا مَن قذَف زوجة من زَوجات الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بالزِّنا كان كافِرًا، ومَن قذَف زَوْجة غيره لم يَكُن كافِرًا؛ لأنَّ قَذْف زوجة من زَوْجات الرسول ﷺ مَعناه: الطَّعْن في رسول الله ﷺ، وأنَّه -والعِياذُ بالله- خبيثٌ؛ لأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقول: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ﴾.

فعَلى هذا تكون حِماية فِراش النبيِّ ﷺ أعظَمُ وُجوبًا من حِماية فِراش غيره.

ولهذا قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾ للرِّجال] الخُضوع بمَعنَى: التَّطامُن والذُّلِّ والخُنوع، فالمَعنَى: لا تَتطامَنَّ ولا تَذلَّلنَّ ولا تَخنَعنَّ لأحَد من الرِّجال بالقَوْل، يَعنِي: لا يَكُن قولُكن في مُخاطَبة الرِّجال رقيقًا وَضيعًا هيِّنًا، لأنَّ المَرأة فِتْنة، فإذا خضَعَت بالقَوْل دبَّ الشيطان بينها وبين الرجُل الذي تُخاطِبه مهما كان الإنسانُ من شَرَف ومن نزاهة، فإن المرأة إذا خاطَبَته بصوت خاضِع؛ فإنها قد تَغُرُّه؛ ولهذا قال النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ»(١).

والرجُل الحازِم الفَطِن الكَيِّس لا أحَدَ يُذهِب لُبَّه، أي: عَقْله مِثل ما تُذْهِبه

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحيض، باب ترك الحائض الصوم، رقم (٣٠٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان نقص الإيمان، رقم (٨٠)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

المَرأة؛ ولهذا قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾، بل يَجِبُ على المرأة أن تكون عند مُخاطَبة الرِّجال من أَبعَد ما يَكون على الخُضوع بالقول، ولِين القَوْل، وظَرافته، بحيثُ تُؤدِّي إلى هذا الأمرِ العَظيم، وهو قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ يَطمَع فِيكُنَّ، إمَّا بِفِعْل الفاحِشة أو بالتَّمتُّع والتَّلذُّذ بخِطابهن.

فإن الإنسان الذي في قَلْبه مرَض إذا خضَعَت له المرأة بالقَوْل فإنه يَستَمِرُّ معها في مُخاطَبَتها حتى يُغريَه الشَّيْطان، ورُبَّما يَحصُل بعد ذلك مَوعِد ولِقاء وفاحِشة، كما يُوجَد كثيرٌ من السُّفَهاء الآنَ تَجِده -والعِياذُ بالله-، ولا سِيَّما بعد وجود هذه الهَواتِفِ- يَفتَح مثَلًا، أيَّ رقمٍ يكون، فإذا خاطَبَتْه امرأةٌ بدَأَ معها بالكلام اللَّيِّن الخاضِع، حتى يُغرِيَه الشيطان يُغرِيَه بها، ويُغريَها به؛ ولهذا قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [نِفاق] والصَّواب: أنَّ المُراد بالمَرَض هنا مرَض الشَّهْوة والتَّمتُّع، لا مرَض النِّفاق لأنَّ بعض المُنافِقين قد لا يَكون في نُفوسهم هذا الشيءُ، كما أن بعض المُؤمنين قد يَكون في قُلوبهم هذا الشيءُ، فالمُراد بالمَرَض هنا مرَضُ التَّمتُّع والتَّلذُّذ بصوت المرأة.

وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾: (قُلْنَ) فِعْل أَمْر مَبنيٌّ على السُّكون لاتِّصاله بضمير الرَّفع المُتحرِّك.

فلَمَّا نَهاهُن سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عن الخُضوع بالقَوْل أمَرَهن بأن يَقُلْن قولًا معروفًا؛ لئَلَّا يَظُنَّ ظانٌّ أنَّ المَرْأة لا تُخاطِبُ الرَّجُلَ مُطْلقًا، وليس كذلك، بلِ المرأة مُخاطَبتها للرِّجال جائِزةٌ، لكن بالقَوْل المَعروف.

وقوله تعالى: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ من غير خُضوع، وما المُراد بالمَعروف؟ هل المُراد بالمَعروف المُتعارَف عليه بين الناس من مُخاطَبَة الرِّجال والنِّساء، أو المُراد

بالمَعروف ما ليس بمُنكَر؟

المُراد الأخير؛ لأنَّ الأوَّل لو قُلْنا: إنه ما يَتعارَف الناس عليه من الخِطاب بين الرجُل والمرأة، لكان هذا خاضِعًا لاختِلاف الأعراف، فيُوجَد مثَلًا من النَّاس مَن عُرْفُهم أنَّ المرأة تُخاطِب الرَّجُل وتَضحَك إليه وتُمازِحُه كما يُوجَد الآنَ في كثير -مع الأسَف- من بِلاد المُسلِمين، المَرأة مع الرجُل الأجنبي الذي لا تَعرِفه، تَجِدها تَقِف معه وتُمازِحه، وتَضحَك كأنما تُخاطِب زَوْجها -والعِياذُ بالله- وهذا لا شَكَّ أنه حرام، وأنه دَعوة إلى الفُجور.

إذَنِ: المُراد بالمَعروف: ما ليس بمُنكَر، يَعنِي: ما عرَفه الشَّرْعُ وأَقَرَّهُ مِنَ الكلام الذي يَكون بعيدًا عن الخُضوع بالقَوْل، وعن التَّمتُّع والتَّلذُّذ به.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾: ﴿قَوْلًا﴾ هـذه مَصدَر، و﴿مَّعْرُوفًا﴾ هذه صِفـة، فهي مُبَيِّنَة لنَوْع هذا القَولِ، وهو أنه قول المَعروف، لا قـول المُنكَر، إذا قُلْنا: ما أَقرَّه الشَّرْع يَكفِي؛ لأن الشَّرْع يُقِرُّ كلَّ ما تَعارَف الناس ممَّا لا يُخالِفُ الحقَّ، فالمَعروف مِثل قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران:١١٠].

مَسأَلة: إذا اتَّصل بامرأةٍ فلْيَقُلِ: السلامُ عليكم. ولا شيء فيه، لكن لا يَقول: (أَلو) لأنَّ (أَلو) هذه تَحيَّة النَّصارى، مع أنها الآنَ مع الآسَف شائِعة، حتى يُكلِّمك ناسٌ من أَهْل العِلْم وأَهْل المَعرِفة يَقول لكَ: (أَلو)، وهو الذي يَتكلَّم، هـو الذي يَتكَلَّم.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: الميزَة والخصيصة لنِسَاء النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لقوله تعالى: ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَآءِ﴾. فإن قُلتَ: ما الحِكْمة في أنهن لَسْن كأحَد من النِّساء؟

فالجَوابُ: لأنهن تَحت رسول الله ﷺ الذي هو أَطيَبُ الطَّيِّبِين من الخَلْق، وقد قال الله تعالى: ﴿وَالطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾ [النور:٢٦].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الإنسان قد يَشرُفُ بشَرَف مَن اتَّصَل به، تُؤخَذ من شرَف أُمَّهات المُؤمِنين، باتِّصالِهن بالرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ ولهذا حَثَّ النَّبيُّ ﷺ على الجليس الصالِح، وقال: «إِنَّ مَثَلَ الجَلِيسِ الصَّالِحِ كَحَامِلِ المِسْكِ؛ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، وَإِمَّا أَنْ يَبِيعَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رَائِحَةً طَيِّبَةً»(١) وحذَّر من جَليس السُّوء؛ لأن الإنسان بلا شَكٍّ يَشْرُف بشَرَفِ مَن يَتَّصِل به، ويَنزِل بنُزول مَن يَتَّصِل به.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: وجوبُ التَّقوى، حتى على زَوْجات الرسولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِ اتَّقَيْتُنَّ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: تَحريم خُضوع المَرأة في مُخاطَبة الرِّجال؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾.

فإنْ قُلْتَ: أفَلا يَكون هذا خاصًّا بزَوْجات الرسول ﷺ لِمَا لهُنَّ من المَكانة والشَّرَف، حتى يَبعُدن عن مَواضِع الفِتَن؟

فالجَوابُ: أنَّه إذا كان نِسَاءُ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وهُنَّ أَطهَرُ النِّساء،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الذبائح والصيد، باب المسك، رقم (٥٥٣٤)، ومسلم: كتاب البر والصلة، باب استحباب مجالسة الصالحين، رقم (٢٦٢٨)، من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأبعَدُهن عن الفِتْنة، مَنْهيَّات عن الخُضوع بالقول، مُعَلِّلًا ذلك النهيَ بخَوْف طَمَع مَن في قَلْبه مرَض، فإنَّ الحُكم يَدُور مع عِلَّته وجودًا وعدَمًا، فإذا كان هذا في النساء الطاهِرات المُبرَّءات، فغَيْرهن من بابِ أَوْلى، وإذا كانت العِلَّة خوفَ طمَع مَن في قلبه مرَض، فهذه العِلَّةُ لا تَختَصُّ بزَوْجات الرسول ﷺ.

وعلى هذا فيَحرُم خُضوع المرأة بالقَوْل لأيِّ أحَد من النَّاس، اللهُمَّ إلَّا لَمحارِمها مع أَمْن الفِتْنة أيضًا، يَعنِي: حتى المَحارِم؛ فإن الشَّيْطان يَجرِي من ابن آدَمَ مَجرَى الدمِ، رُبَّما مع خُضوعها بالقول، رُبَّما تَحصُل الفِتْنة، ولا سيَّما المَحارِم بالرَّضاع والمُصاهَرة؛ لأنَّ نفور الطبيعة عن المَحارِم بالرَّضاع والمُصاهَرة أَقَلُّ من نفورها عن المَحارِم بالنسَب والقَرابة، وهذا أمرٌ مُشاهَد؛ ولهذا يَجِب التَّحرُّز في المَحارِم في الرَّضاع والمُصاهَرة أكثَرَ من التَّحرُّز عن المَحارِم بالنسَب.

وعلى كل حال: كلَّما كان هناك قَرابة صار الإنسان يَنفِر من التَّعلُّق بها تَعلُّقًا شَهوانيًّا فيَنفِر أكثَرَ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنه لا بأسَ بمُخاطَبة المرأة الرِّجال لكن بالمَعروف، تُؤخَذ من قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ صَوْت المرأة ليس بعَوْرة خِلافًا لَمن قال: إنه عَوْرة من أهل العِلْم، فالصوابُ أن صوت المرأة لَيْس بعَوْرة؛ ولهذا كان النِّساء يَأتين إلى رسول الله ﷺ يسأَلْنه وحولَه أصحابه، ولا يَنهاهُن عن ذلك، ولو كان صَوْت المَرأة عَورة لنَهاهُن النبيُّ ﷺ عن الكلام مع حُضور الرِّجال.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنه يَجِبُ على الإنسان أن يَكون مُتَّبِعًا لما جاء به الشَّرْع في أقواله وأَفعاله؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ فِتْنة النِّسَاء مَرَضٌ في القَلْب، يَحتاج الإنسان فيه إلى مُعالَجة، وإلى مُداواة؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ وهذا المَرَض مرَض فتَّاك -نَسأَل اللهَ تعالى السَّلامةَ منه- مرَضٌ في القَلْب كمرَض السرَطان في البدَن، إذا لم يَتدارَكِ الله العبدَ بعَفْوه وتَوفيقه وتَسديده؛ فإنه يَهلِك؛ ولهذا قال النبيُّ ﷺ: «مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ»(١)، فالواجِب الحذَر من هذا الأمرِ، وألَّا يُملِيَ الإنسان لنَفْسه ويُمهِلها في هذا البابِ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّ مَن كان صحيحَ القَلْب، فإنَّه أبعَدُ النَّاس عن مَواضِع الفِتَن؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أنَّ مَن جعَل اللهُ تعالى قَلْبه صحيحًا، فإن المَرأة لا تُغرِيه بما تَفعَله من أسباب الفِتْنة، لأنه تعالى قال: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ ولم يَقُل: لا تَخْضَعْن بالقول فيَطمَع الناس فِيكُنَّ. بل قال تعالى: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ لكن مع ذلك لو كان الإنسان صحيحَ القَلْب سليمًا، ثُمَّ أَحَسَّ في نَفْسه شيئًا من الفِتْنة؛ فالواجِبُ عليه البُعْد عن ذلك، لا يَقُل: إِني سَليمٌ، إني والحَمْد لله تعالى لا يُهِمُّني هذا الأمرُ. لا يَقُلْ هكذا، فإن الإنسان قد يَرَى نفسه مُتحَصِّنًا بحِصْن التَّقوى، ولكن الشيطان يَخدَعه عند مَواضِع الفِتَن.

ولهذا أمَر النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَن سَمِعَ بالدَّجَّال أن يَنأَى عنه(٢) -يَعنِي:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب ما يتقى من شؤم المرأة، رقم (٥٠٩٦)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب أكثر أهل الجنة الفقراء، رقم (٢٧٤٠)، من حديث أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٤٣١)، وأبو داود: كتاب الملاحم، باب خروج الدجال، رقم (٤٣١٩)، من حديث عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يَبعُد- فإنَّ الإنسان يَأتِيه، وهو يَرَى أنه مُؤمِن، فلا يَزالُ يَقذِف له بالشُّبُهات حتى يَتبَعه.

• ● ۞ ● •

الآية (٣٣)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب:٣٣].

«وَقِرْنَ» بالكَسْرة؛ ولهذا قال: [بكَسْر القاف وفَتْحها]، وهو من القَرار، وهو: البَقاء مع السُّكون والاستِقرار، وهو أبلَغُ من قوله: وابقَيْن في بُيوتِكن؛ لأنَّ القَرارَ بَقاءٌ وزِيادة مع سُكون؛ ولهذا قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ من القَرار وأَصلُه: اقرِرْنَ بِكَسْرِ الرَّاء وفَتْحها] اقرِرْنَ واقْرَرْنَ، [من قَرَرْتُ بفتح الرَّاء، وكسرِها قرَرْتُ وقَرِرْتُ، نُقِلت حركة الراء إلى القاف، وحُذِفت مع هَمْزة الوَصْل] فأَصْل قَرْن اقْرَرْن أوِ اقْرِرْنَ، فما الذي حدَث؟ نُقِلَتْ فَتْحة الرَّاء إلى القاف السَّاكِنة، وصارَت الراء ساكِنة، وصارت القاف مَفتوحة أو مَكسورة، ثُمَّ حُذِفَتْ هَمْزَةُ الوَصْلِ فصَارَتْ: ﴿وَقَرْنَ﴾.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾: ﴿بُيُوتِكُنَّ﴾ هنا للإضافة، يُحتَمَل أنها للتَّمليك، وأنَّ بُيوت زَوْجات رسول الله ﷺ مِلْك لهُنَّ، ويُحتَمَل أنها للاختِصاص، وأنَّ البُيوت مِلْك لرسول الله ﷺ، والأقرَبُ أنها للتَّمليك بدليل أنَّ النبيَّ ﷺ لمَّا تُوفِّيَ بقِيَتْ هذه البُيوتُ لزَوْجاته، ولو كانت البُيوتُ لرسول الله ﷺ لم تُورَث من بعده،

لأنَّ الأنبياءَ لا يُورَثون، كما قال النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنَّا مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ لَا نُورَثُ مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ»[1]؛ لأنه يُفسِد المَعنَى، الرَّافِضة يقولون: إنَّ لفظ الحديث: إنَّا مَعاشِرَ الأنبياءِ لا نُورِثُ ما ترَكْنا صدَقَةً؛ لأَجْل أن يَقولوا: إنَّ الذي ترَكوه غير صدَقة يُورَث، وأنَّ أبا بكر وعمرَ وبقيةَ الصحابة ظلَموا ورَثة النبيِّ ﷺ حيث لم يُورِّثوهم، لكنَّ أهل السُّنَّة والجماعة يقولون: كذَبْتم أيُّها الرافِضةُ، بل إنَّ لفظ الحديثِ: «إِنَّا مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ لَا نُورَثُ» فانتهَتِ الجُمْلة الأُولى، ثُم قال مُبيِّنًا ماذا يَكون مَآل المال بعدهم، قال: «مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ»، أيِ: الذي تَرَكْناهُ صدَقة.

والمعنى الذي ذهَبَت إليه الرافِضة باطِل؛ لأنَّ ما تُرِكَ صدَقة لا يُورَث، حتى في غير الأنبياءِ، يَعني: ما ترَكه الإنسان صدَقة بعد مَوْته لا يَرِثه ورَثَته، حتى ولو كان غير نَبيٍّ فهم مُحرِّفون للحديث لَفْظًا ومعنًى، يَقولون: إننا لا نُورِّث الذي تَرَكْناه صدَقةً، يَعنِي: إن مَعناها: إذا وقَفنا شيئًا مثَلًا نحن وجعَلْناه في سبيل الله تعالى فإنَّنا لا نُورِّث هذا الشيءَ، إنما نُورِّث الأَمْلاك الأخرى، وهل هو خاصٌّ بالرسُل؟ لا، ليس خاصًّا بهم.

إذَنْ: نَقولُ قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ الأقرب أنَّ الإضافة للتَّمليك.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ﴾ بتَرْك إحدى التاءَيْن من أَصْله] (تَبرَّجْن) فِعْل مُضارِع، والدليل (لا) النَّاهية فإنها لا تَدخُل إلَّا على المُضارِع، وإلَّا فإنَّ كَلِمَة (تَبَرَّج) والنِّساءُ تَبرَّجْن، هذا فِعْلٌ ماضٍ، لكن في الآية: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ﴾، هذا فِعْل مُضارِع، يَقول المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [بتَرْك إحدى التاءَيْن] وأَصلُها: تَتَبَرَّجْن، هذا أَصلُها:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب فرض الخمس، رقم (٣٠٩٣)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب قول النبي ﷺ: «لا نورث»، رقم (١٧٥٩)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

ولا تَتَبَرَّجْن، وحَذْف إحدى التاءَيْن في المُضارِع كثير في القُرآن، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ [الليل:١٤] أي: تَتلظَّى.

إذَنْ: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ﴾ فِعْلٌ مُضارِع مَبنيٌّ على السُّكون، لاتِّصاله بنون النِّسوة في محَلِّ جَزْم بـ(لا) النَّاهيةِ.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾ أي: ما قَبْل الإسلام] ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾، التَّبرُّج في الأصل مَأخوذ من التَّعالي والتَّرفُّع، ومنه البُرْج الحِصْن المَنيع الرَّفيع كما قال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء:٧٨]، وكما في قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ [الفرقان:٦١]، أي: جعَل فيها كُتَلًا عظيمة من النُّجوم كالبُروج المُشيَّدة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ﴾ أَيْ: تَتعالَيْن وتَتَرَفَّعْن باللِّباس وغيره.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾ هذا مَصدَر مُبيِّن للنَّوْع بالإضافة إلى الجاهِلية، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾، ومَعلوم أن المَصدَر يَكون لبَيان العَدَد وبيان النَّوْع والتوكيد وغير ذلك ممَّا ذكَره أهلُ العِلْم بالنَّحوِ، وقوله تعالى: ﴿تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ أضافَه إلى (الجاهِلية)؛ لأنه مَبنِيٌّ على الجَهْل والسفَهِ؛ لأنَّ المَرْأة إذا تَبرَّجَت فإنَّ ذلك يُعْتَبر جَهْلًا منها وسفَهًا؛ ولهذا أُضِيفَ إلى الجاهلية، ثُمَّ أُضِيفَ إلى الأُولى، وهل المُراد الأُولى زمَنًا؟ أو الأُولى مَرتَبةً؟ أو كِلاهما؟ يَعنِي: هل مَعنَى (الجاهِلية الأُولى): الأعظم جَهْلًا من نَوْعها، كما يُقال: هذا هو الأَوَّلُ في الجَهْل، هذا هو الأَوَّلُ في السفَهِ، هذا الأَوَّلُ في الإسلام، هذا هو الأَوَّلُ في الإصلاح، وما أَشبَه ذلك، أو المُرادُ بالأُولى الأُولى من حيثُ الزَّمَن أو كِلاهما؟

كِلاهما في الواقِع فهي جاهِلية من الطِّراز الأَوَّل من الجَهْل، وهي جاهِلية أُولى؛

لأنها سبقَتِ الإسلام، ولا يَعنِي بذلك أنها الجاهِلية المُباشِرة للإسلام؛ لأنَّ الجاهِلية المُباشِرة للإسلام امتِدادٌ لجاهِلية سبقَت منذ زمَنٍ بعيدٍ.

فالجاهِلية الأُولى استمَرَّت إلى أن محاها الإسلام بالعِلْم والتَّقوى والحَمْد لله تعالى؛ ولهذا قال تعالى: ﴿تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾، والمُراد بالإضافة هنا -كما قُلْت قبلَ قَليلٍ- بَيان النَّوع، وما أَقبَح نوعًا يَكون جهلًا! وعلى هذا فالمُرادُ به التَّقبيح، تَقبيح هذا التَّبرُّجِ، وأنَّه تَبرُّجٌ مَبنيٌّ على الجَهْل والسفَهِ، والبُعْد عن الإيمان والعِلْم، والرُّشْد.

﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ أي: ما قَبْل الإسلام من إظهار النِّساء محَاسِنَهُن للرِّجال. نعَم؛ في الجاهِلية تَتبرَّج المرأة، وتَخرُج بأَحسَن ما يَكون عِندها من اللِّباس والحُلِيِّ.

ولهذا قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [النور:٣١]، فهذا التَّبرُّج يَكون بنَوْع اللِّباس، ويَكون بالطِّيب، ويَكون بتَحسين البدَن بالحِنَّاء، والتَّحمير وتَسويد العَيْن بالكُحْل، وما يُسَمَّى عندنا في الوَقْت الحاضِر بالمكياج، وما يُسمَّى بالمَناكِير، وعلى هذا فقِسْ، كل هذا من التَّبرُّج الذي يُعتبَر من تَبرُّج الجاهلية الأُولى.

ولهذا يَقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [إنَّ إظهار النِّساء محَاسِنَهن للرِّجال، والإِظهارُ بعد الإسلام مَذكور في آية: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾] رحِمَ الله تعالى المُفَسِّر فإنَّ هذا ليس بصَواب منه، ما في الإسلام إظهار للزِّينة أبَدًا، إلَّا في نَوْعين: النَّوْع الأوَّل: الإظهارُ العامُّ لكل أحَد، والنَّوْع الثاني: الإِظْهار الخاصّ للبُعولة والمَحارِم.

فالإِظْهار العامُّ؛ إلَّا ما ظهَر منها، والمُراد بما ظهَر منها، ما جرَتِ العادة بأنه لا بُدَّ من ظُهوره، كالجِلْباب والعَباءة وما أَشبَه ذلك، كما فسَّره بذلك ابنُ مَسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ[1]، فعلى هذا يَكون الاستِثْناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ استِثْناءً مُنقطِعًا ليس مُتَّصِلًا، لأنَّ ما ظهَر ليس من الزِّينة في الواقِع، فما ظهَر وما جرَتِ العادة بظُهوره ولا بُدَّ منه هذا أَمْر ليس من الزينة، حتى لو سُمِّيَ زينةً ولِباسًا؛ فإنه لا بُدَّ من ظُهوره.

أمَّا الزِّينة الأُخرى التي خَصَّها الله بقَوْمٍ مُعيَّنين فقال: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ﴾ وهذه هي الزِّينة الباطِنَة كالثِّياب التي تكون داخِل الجِلْباب والعَباءَة، وما أَشبَه ذلك، لا يُبْدِينَهُ إلَّا لبُعولَتِهن أو آبائِهن... إلى آخِره.

والحاصِلُ: أنَّ التَّبرُّج لم يَأذَنِ الله تعالى فيه أبدًا، فالتَّبرُّج النهيُ عنه عامٌّ.

وأمَّا التَّزيُّن للزَّوْج فهذا أَمْر مَطلوب من المَرأة أن تَتجمَّل لزَوْجها، لما في ذلك من تَأكيد الحِكْمة التي من أَجلِها شُرِعَ الزواج كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم:٢١].

ولا شَكَّ أن المرأة إذا تَجمَّلَت لزوجها بأنواع الجَمال فإنَّ ذلك مِمَّا يُوجِب سُكونه إليها، ومَودَّته لها، فيَكون هذا من باب تَأكيد الحِكْمة التي من أَجْلها شُرِعَ الزواج؛ ولهذا تُؤمَر المرأة بأن تَتجمَّل لزوجها، كما أنَّ الزوج أيضًا كما قال بعض السَّلَف: إن مِن حقِّها عليَّ أَنْ أَتجمَّل لها، كما أنَّ مِن حَقِّي عليها أن تَتجمَّل لي، أمَّا أن يَأتِيَ الزَّوج زوجَتَه كلابِسِ الخيشة، وما أَشبَه ذلك، ويُريد منها أن تُلائِمه، ويَقول: لِمَ لا تَتجمَّلين لي؟! وهو يَلبَس أَردَأَ اللِّباس، فهذا من غيرِ العَدْل!

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٩/ ٢٨٠)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٢٩٧).

فالإنسان يَجِب عليه أن يُراعِيَ العَدْل في كل مُعَامَلاته، فالخُشونة في المَواضِع مثل: إذا ركِب الخَيْل فلْيَكُن خشِنًا، ولْيَلْبَسِ الخَيْش والمِغفَر، لكن مع المرأة لا، فلِكُلِّ مَقامٍ مَقال.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أَيْ: ائتِين بها مُسْتقيمةً، وذلك بفِعْل شُروطها وأركانها، وواجِباتها، ومُسْتَحَبَّاتها، لكن الإتيان بالثلاثة الأُولى على سبيل الوُجوب، وفي الرابع على سبيل الكَمال والاستِحباب.

وقوله تعالى: ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يَشمَل الفَريضة والنافِلة.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أَيْ: أَعطينَها، والزَّكاة في اللُّغة النَّماء والزيادة، وفي الشَّرْع: مالٌ مُقدَّر مَخصوصٌ في مال المَخْصُوص، يَعنِي: جُزْء من أموال مَخصوصة يُدفَع لمُستَحقِّيه؛ أو: التَّعبُّد لله تعالى بإِخْراج جُزءٍ مَعلوم من المال على حَسب ما جاءَت به الشَّريعةُ، وهذا أَوضَحُ.

وقوله تعالى: ﴿وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: (آتينَ) تَنصِب مَفعولين؛ لأنها من باب كَسا وأَعطَى؛ فالمَفعولُ الأوَّل الزَّكاة والمَفعول الثاني مَحذوف، أي: مُسْتَحِقَّها؛ لأن إيتاء الزكاة لغير أهلها لا يَنفَع، كما لو صلَّى الإنسان في غير الوقت.

وقوله تعالى: ﴿وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ بعد الأَمْر بإقامة الصلاة؛ فيه دليل على تَأكُّد الزكاة، وهل يَلزَمُ منه أنَّ أُمَّهات المُؤمِنين عِندهن مالٌ يُزكِّينه، إذا قُلْنا: لا يَلزَم. صار تَوجيهُ الخِطاب إليهن بإيتاء الزكاة من باب اللَّغوِ؛ لأنهم سيَقولن: ما عِندنا مال. أو يُقال: أُمِرْنا بإيتاء الزكاة إمَّا التِزامًا، وإمَّا إعطاءً بالفِعْل، التِزامًا إذا لم يَكُن عندهن شيء، وإعطاءً بالفِعْل إذا كان عِندهن شيء، ولا شكَّ أنَّ عِندهن ما تَجِب

الزكاة فيه، أو عند بَعضِهن من الحُلِيِّ كما في حديث أُمِّ سلَمةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها كانت تَلبَس أَوْضاحًا من ذهَب؛ فقالت: يا رسولَ الله، أَكَنْزٌ هو؟ قال: «إِذَا أَدَّيْتِ زَكَاتَهُ فَلَيْسَ بِكَنْزٍ»[1].

فهُنَّ عِندهن ما يُزكِّين به، قد لا يَكون دراهِمَ ودنانيرَ، ولكن من الحُلِيِّ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ أَطِعْنَ الله، الطاعة قال العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ: هي مُوافَقة الأَمْر. أي: عدَم المَعصية، فتُوافِقُ أمرَ المُطَاع إنْ كَانَ مَطْلُوبًا بالفِعْل، وإنْ كان مَنهيًّا عنه بالتَّرْك.

وقوله تعالى: ﴿وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ عَطْف طاعة الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ على طاعة الله تعالى بالواو؛ لأنَّ طاعة الرسول ﷺ من طاعة الله تعالى، كما قال الله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾، وقد سبَقَ لنا مِرارًا وتكرارًا: أنَّ المَسائِل الشرعية يجوزُ أن يُقرَن فيها بين الله تعالى وبين الرسول ﷺ؛ لأنَّ ما جاء به النَّبيُّ ﷺ من المَسائِل الشَّرْعية هو ممَّا أمَرَ الله تعالى به.

وقوله تعالى: ﴿وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ هل المُراد هنا طاعة التَّعبُّد؟ أم المُراد بها عدَم المُخالَفة؟ أمَّا بالنِّسْبة لطاعة الله تعالى فهي طاعة التَّعبُّد، والتَّذلُّل ورجاء الثَّواب والخوف من العِقاب، وأمَّا طاعَةُ الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فإنها طاعة بمَعنَى: مُوافَقة الأَمْر سَواء كان فيما يَأمُرُ به من الشَّرْع، أو فيما يَأمُر به من حوائِجه الخاصة؛ فإنَّ الرسول ﷺ يُوجِّه الأمر إلى أهله، إمَّا على سبيل العِبادة، ممَّا أَمَره الله تعالى به، وإمَّا على سبيل الأمور الخاصَّة المُتعلِّقة به عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الزكاة، باب الكنز ما هو وزكاة الحلي، رقم (١٥٦٤).

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ﴾ الإِثْم يا ﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ أي: نِساء النبيِّ ﷺ ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ﴾ منه ﴿تَطْهِيرًا ﴾].

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ﴾: ﴿إِنَّمَا﴾ هذه أداة حَصْر، والحَصْر يَقول العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: مَعناه: إثبات الحُكْم في المَذكور، ونَفيُه عمَّا سِواه، والحَصْر هنا إضافِيٌّ أو حَقيقيٌّ؟ إضافيٌّ؛ لأنَّ الله تعالى يُريد هذا وغيرَه.

فالإضافيُّ هو الذي لا يَكون مَحصورًا بحسب الواقِع في هذا الشيءِ.

والحَقيقيُّ هو الذي يَكون مَحصورًا في هذا الشيءِ، بحَسب الواقِع.

فإذا قُلْت: لا طَالِبَ يَلتَفِت إلَّا خالِدٌ. فإن كان لا يَلتَفِت غيرُه فهو حقيقيٌّ، وإن كان أحَد يَلتَفِت غيره فهو إضافيٌّ؛ وفائِدة الإضافيِّ: كأنَّ هذا الرجُلَ لكثرة التِفاته لا يَلتَفِت أحدٌ سِواه، كما لو قلت: لا شُجاعَ إلَّا خالدٌ. أي: خالد بن الوليد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ إضافيٌّ لأن هُناك شُجعانَ كَثيرين غير خالد بن الوليد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ولو قُلْت: لا خاتَمَ للأنبياء سِوى مُحمَّد عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فهذا حقيقيٌّ؛ لأنه ليس هناك خاتَم للأنبياء إلَّا مُحمَّد رسول الله ﷺ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ﴾ هل الله عَزَّوَجَلَّ لا يُريد بأَهْل البيت إلَّا ذلك؟ الجوابُ: لا، بَلْ يُريد الله تعالى بهم أَنْ يُذهِب عنهمُ الرِّجْس ويُطَهِّرَهم وأن يُنعِم عليهم، وأَنْ يُغْدِق عليهم بفَضْل... إلى آخِره.

وهل الإرادة هنا شَرْعية أو كَوْنية؟ الإرادة كَوْنيـة، وهذه هي الفائِـدة مِن اختِصاص أَهْل البيت بذلك، أمَّا إرادة عدَم الرِّجْس فهي لكل أَحَد من الناحِية الشَّرْعية.

والإرادة -كما سبَق لنا- نَوْعان: إرادة شَرْعية وكَوْنية، وهل هما مُتلازِمان؟ لا، قد تُوجَد إحداهما بدون الأخرى، وقد تَجتَمِعان، فما هو الفَرْق بينهما حتى نَعرِف اجتِماعهما وافتِراقهما؟

أوَّلًا: الإرادة الكَوْنية تَتعَلَّق فيما يُحِبُّه الله تعالى، وفيما لا يُحِبُّه، والإرادة الشرعية فيما يُحِبُّه الله تعالى فقَطْ؛ فإذا قلتَ: يُريد أَيْ: شَرْعًا فمَعناه: يُحِبُّ.

ثانيًا: الإرادة الكَوْنية يَلزَم فيها وُقوع المُراد، والإرادة الشرعية لا يَلزَم فيها وُقوع المُراد.

إِذَنِ: الفَرْق من وَجْهين فقد تَجتَمِع الإرادتان في شيء، وقد تَنتَفيان جميعًا، وقد تُوجَد إحداهما دون الأخرى، فإذا سأَلْنا شَخْصًا: ما تَقول في إيمان أبي بَكْر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؟ أهو مُرادٌ لله تعالى شَرْعًا أم كونًا؟ فالجَوابُ: كونًا وشَرْعًا؛ كونًا لأنه وقَع؛ وشَرْعًا لأن الله تعالى يُحِبُّه، إِذَنِ: اجتَمَعَتِ الإرادتان.

وإذا قيل: ما تَقول في إيمان أبي لَهَبٍ؟ فالجَوابُ: غير مُراد كونًا ومُرادٌ شَرْعًا! فالله تعالى يُريد منه أن يُسلِم.

وإذا قيل: ما تَقول في كُفر أبي بَكْر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؟ فالجَوابُ: غيرُ مُرادٍ كونًا؛ لأنه لم يَقَع، ولا شَرْعًا لأن الله تعالى لا يُحِبُّه.

وما يُقال في كُفْر أبي لَهَب؟

الجَوابُ: مُرادٌ كونًا لا شَرْعًا؛ لأنَّ الله تعالى لا يُحِبُّه.

فالكُفْر مُراد من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كونًا، وأيُّ إنسان يَكفُر فقد أَراد الله تعالى كُفْره كَوْنًا.

أَمثِلة من القُرآن:

قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥].

الإِرادة هذه شَرْعية؛ والدليل أنَّ الله تعـالى قد يُعسِر على الإنسان فلو كانت الإرادة كونية لكان في الواقِع تَكذيب للآية، إِذَنْ: يُريد هنا بمَعنى: يُحِبُّ، يُحِبُّ الله تعالى بكُمُ اليُسْر، ولا يُحِبُّ العُسْر، وأمَّا كونًا فإن الله تعـالى يُريد بنا العُسْر قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشَّرح:٥-٦].

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى عن نوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود:٣٤]، أي: ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ هذه إرادة كونية، لأن الله تعالى لا يُريد من خَلْقه الإغواءَ، والدليـل أنه لا يُريد الإغْواء قوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾ [النساء:١٧٦]، وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء:٢٦].

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ﴾: ﴿لِيُذْهِبَ﴾ اللَّام هنا جاءت في مَفعول (يُريد)، والمعروف أن (يُريد) تَتَعدَّى بنفْسها فتَقول: أَرَدْت كذا. ولا تَقول: أَرَدْت لكذا.

إِذَنِ: فاللَّام هنا زائِدة من حيث المَعنى، يَعنِي: من حيث الإعراب زائِدة، والتَّقدير: إنما يُريد الله أن يُذهِب عنكم الرِّجْس، فاللَّام يَقول النَّحويُّون: إنها زائِدة.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ﴾، يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الإِثْم]، والصوابُ أنَّ الرِّجْس هو النَّجاسة لأنَّ الرِّجْس في الأصل النَّجَس، سَواءٌ كان نَجاسة مَعنَوية أو نَجاسة حِسِّية.

فمِن الرِّجْس بالمَعنى الحِسِّيِّ بالنَّجاسة الحِسِّيَّة، قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ﴾ [الأنعام:١٤٥].

وأمَّا قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [المائدة:٩٠]، فهذا رِجْسٌ مَعنَويٌّ.

وهنا في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ﴾ الرِّجْس المَعنَويُّ؛ لأنَّ الرِّجْس الحِسِّيَّ ما أَراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يُذهِبه عنهم، بل هو مَوْجود فيهم، هم يَبولون ويَتَغوَّطون وبَولُهم نَجِس، وغائِطهم نَجِس، إذَنْ: فالمُراد بالرِّجْس الذي أَراد الله تعالى أن يُذهِبه عن أهل البيت هو الرِّجْس المَعنَوِيُّ، وهو السافِل من الأخلاق والأعمال.

وقوله تعالى: ﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ أفادَنا المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: [يا ﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾] أنَّ أهل مَنصوب على النِّداء، وحُذِف منه حَرْف النِّداء.

ومَن المُراد بأَهْل البيت؟

الجَوابُ: لا شَكَّ أنَّ المُراد به نِساء الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ لأنَّ الآياتِ كلَّها في سِياق نِساء الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ قال تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ [الأحزاب:٣٢-٣٤].

فلا شَكَّ أنَّ المُراد بذلك نِساء الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وهل يُنافِي ذلك ما ثبَت عن النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من أنَّه وضَع الكِساء على عَليٍّ وفاطِمةَ والحسَن والحُسَيْن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وقال: «هَؤُلَاءِ أَهْلُ الْبَيْتِ اللَّهُمَّ فَأَذْهِبْ عَنْهُمُ الرِّجْسَ وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيرًا»[1]؟

نَقول: لا يُنافيه؛ لأنَّ هؤلاءِ أهلُ البيت من حيثُ القَرابة، وهؤلاء أهلُ البَيْت من حيث الزَّوْجية، فكلُّهم أهلُ البيت بلا شَكٍّ، لا أهلُ عَليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بل إن آل البيت أعمُّ من هَؤلاء الأربعةِ؛ لأنَّ أهل البيت تَشمَل كل مَن تَحرُم عليهمُ الصدَقة من بني هاشِمٍ، فدخَل فيهم آلُ عِليٍّ وآلُ جَعفَرٍ وآلُ العَبَّاس وآلُ الحارِث ابنِ عبد المُطَّلِب، وكل مَن كان من ذُرِّية هاشِمٍ فالرسول ﷺ مُحَمَّدُ بنُ عبد الله بنِ عبد المُطَّلِب بن هاشِمٍ، فكُلُّ مَن كان من آلِ هاشِمٍ فإنه من آل البَيْت لا تَحِلُّ له الصدَقة.

وعلى هذا فنَقول: إنَّ تَفسيرنا لأهل البيت هنا بأنَّهن زَوجاتُ الرسول ﷺ الذي يُعيِّنه السِّياق، خِلافًا للرافِضة الذين أَخرَجوا الكلام عن سِياقه، وجعَلوا كلام الله عَزَّوَجَلَّ عِضِين مُتفرِّقًا، فقالوا: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ﴾ يُريد بهم آلَ البيت الأربعة فقَطْ، وأمَّا زوجاتُ الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فإنه لا يُريد اللهُ تعالى ليُذهِب عنهمُ الرِّجْس؛ ولهذا يَرمُون عائِشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بالفَحْشاء -والعِياذُ بالله- ولا يُبالون بذلك.

وأنا سمِعْت شَريطًا للأخِ إحسان إِلَهي ظَهير يَرُدُّ على رجُل من الشِّيعة،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٦/ ٢٩٢)، والترمذي: كتاب المناقب، باب ما جاء في فضل فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، رقم (٣٨٧١)، من حديث أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

ويَتكلَّم على هذه الآيةِ بشِدَّة وبقُوَّة، يَقول: إنَّ الذي يَصرِف الآية هذه لآل البيتِ الأربعة، لا يَعرِف اللُّغة العرَبية ولا يَعرِف أساليبَ الكَلام، إِذْ كيف إنه يُخرِج الآيَةَ هذه من بين الآيات كُلِّها المُحيطة بها، والتي تُوَجَّه إلى أُمَّهات المُؤمِنين، ثُم يُخرِج هذه الآيَةَ!.

وأَقـول: إن قولَه: (آلُ البَيْت) هنـا وفي أصحاب الكِساء الأربعـة، وفي آلِ البيت الذين لا تَحِلُّ لهم الصدَقة، كلُّها لا يُنافِي بعضُها بعضًا.

ولذلك كان القول الراجِحُ: أنَّ زوجاتِ الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لا تَحِلُّ لهنَّ الصدَقة؛ لقول الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إِنَّ الصَّدَقَةَ لَا تَحِلُّ لِآلِ مُحَمَّدٍ**»(١) وزوجاته بلا شَـكٍّ من آله، كما في هـذا الحديثِ، وعلى هذا فإننا نَقـول: إنه لا تَعارُضَ بين الأَدِلَّة.

ونَظير ذلك: أن الرسول ﷺ سُئِل ما هو المَسجِد الذي أُسِّس على التَّقوى من أوَّل يوم؟ فقال: «**مَسْجِدِي هَذَا**»(٢)، مع أنَّ المَسجِـد الذي أُسِّس على التَّقـوى من أوَّل يوم هو مَسجِد قُبـاءٍ أيضًا، كلٌّ منهما أُسِّس على التَّقوى من أوَّل يوم، فإنَّ الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَسَّس مَسجِده من أوَّل يَوْم قدِمَ، وكان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كلٌّ منهم يَقول: النُّزول عِنْدي، النُّزول عِندي، النُّزول عِندي. فيقول: «**دَعُوهَا فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ**» يَعنِي: ناقَتـه، فلَمَّا وصَلـت إلى مَكان مَسجِده برَكَت، فزَجَـرها النبيُّ ﷺ،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ٢٧٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأصله في الصحيحين؛ أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب أخذ صدقة التمر عند صرام النخل، رقم (١٤٨٥)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب تحريم الزكاة على رسول الله ﷺ وعلى آله، رقم (١٠٦٩).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب بيان أن المسجد الذي أسس على التقوى هو مسجد النبي ﷺ بالمدينة، رقم (١٣٩٨)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فقامَت ثُمَّ التفَتت يَمينًا وشِمالًا، ثُمَّ رجَعَت إلى مَكانها الأوَّل فبَرَكت، فقال النبيُّ عَلَيْهِالصَّلَاةُوَالسَّلَامُ: «المَنْزِلُ هَاهُنَا إِنْ شَاءَ اللهُ»[1]، ثُم نزَل، وكان أَقرَبُ البُيوت إليه بيتَ أبي أيُّوبَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فذهَب إليه من أوَّل يوم نزَل وهو شارِع في تخطيط المَسجِد.

ولهذا يَنبَغِي للمَسؤُولين في البلَديات وفي الأَوْقاف أن يَجعَلوا أكبَرَ همِّهم في المُخطَّطات الجديدة وَضْع المَساجِد، فيَعتَنُوا بها قبل كل شيء.

على كل حال إني أَقول: إنَّ وَصْف الشيء بصِفَة، ووَصْف غيره بصِفة لا يَقتَضِي أن يَكون ذلك تَناقُضًا، بل كلٌّ منهما له نَصيبٌ من هذا الوَصْفِ، وقوله تعالى: ﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾: (البَيْت) هنا (أل) للعَهْد الذِّهْني، يَعنِي: أهل البَيْت المَعهود المَعروف، وهو هذا البيتُ الطاهِر بيت رسول الله ﷺ.

قال رَحِمَهُٱللَّهُ: [﴿وَيُطَهِّرَكُمْ﴾ مِنْه] أَيْ: من الرِّجْس ﴿تَطْهِيرًا﴾، و(تَطهيرًا) هنا مَصدَر طهُر، مَصدَر للفِعْل السابِق، والمُراد به التَّوْكيد، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾.

والتَّطهير من الرِّجْس أبلَغُ من ذَهاب الرِّجْس؛ لأنَّه بعد ذَهاب الرِّجْس قد يَبقَى له أثَرٌ، فإذا قال: يُذهِبه ويُطهِّركم، صار ذلك أبلَغَ؛ لأنه يَذهَب ذلك الرِّجْسُ ويَطهُر مَكانه بحيث لا يَبقَى له أثَرٌ.

ولا رَيبَ أنَّ بيت الرسول عَلَيْهِالصَّلَاةُوَالسَّلَامُ أبعَدُ البُيوت عن الرِّجْس، وأطهَرُ البيوت من الرِّجْس، هذا لا يَشُكُّ فيه مُؤمِن أبَدًا، وكلُّ مَن قدَح في بيت الرسول عَلَيْهِالصَّلَاةُوَالسَّلَامُ في زوجاته فإنه يُعتبَر قادِحًا بالرسول عَلَيْهِالصَّلَاةُوَالسَّلَامُ، لأنَّ الله تعالى

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٤٩٥)، ودلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٥٠١).

يقول في القُرآن الكريم: ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ﴾ [النور:٢٦].

ونحن نَعلَم عِلْم اليَقين أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ما كان ليَختارَ لنبيِّه إلَّا أفضَلَ نِساء العالَمِين بلا شَكٍّ، وقد ثبَتَ في كِتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بَراءَة عائِشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ممَّا رماها به أصحاب الإِفْك من المُنافِقين، وغيرهم ممَّنِ انخَدَعوا من المُسلِمين، عفا الله تعالى عنهم.

وقد قال الله في حادِثة الإِفْك: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ [النور:١٥-١٦]، يَعنِي: هلَّا إذا سمِعتُموه ﴿قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾: ﴿مَّا يَكُونُ﴾ يعني: يَمتَنِع غاية الامتِناع، أن نَتكلَّم بهذا ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ تنزيهًا لك ﴿هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾، فانظُرْ كيف قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ فالتَّنزِيه في هذا الأمرِ يَعنِي: نُنزِّهُك يا ربَّنا أن يَقَع ذلك في إحدى أُمَّهات المُؤمِنين، زَوجات خاتَم النَّبيِّين عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ يَعنِي: تَنزيهًا لك أن يَقَع مثل هذا في زَوْجات نبيِّك عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

هذا التَّأكِيدُ العَظيمُ نَرى الآنَ ممَّن يَنتَسِبون للإسلام، وهم بَريئُون منه، والإسلام مِنهم بَراءٌ، يَقولون: إن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا -والعِياذُ باللهِ- بَغِيٌّ ومَع ذلك قد برَّأها الله تعالى من ذلك في القُرآن الكَريم، فمَن قذَف واحِدة من زَوْجات الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عائِشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أو غيرها فهو كافِر بلا شَكٍّ، ويَجِب أن يُقتَل ولو تاب، إن تاب تَوْبة نَصوحة فهي بينَه وبينَ الله تعالى، لكن نحن علينا أن نَغارَ لِرَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن نَقتُل هذا الذي قذَف واحِدةً من أُمَّهات المُؤمِنين.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: مَشروعيـة قَرار المرأة في بَيْتـها؛ لأنَّ القول بوُجـوب القَرار، يُخالِفه ما جاء في السُّنَّة من الإِذْن للنِّساء بالخُروج، لكن بدون تَبرُّج.

وعلى هـذا فنَقُول: (مَشروعِيَّـة)؛ لأنَّ كلِمـة (مَشروعيـة) تَتَّسِع للواجِـب والمُستَحَبِّ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ بُيوت أزواج النبيِّ ﷺ مِلْك لهُنَّ؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فِي بُيُوتِكُنَّ﴾.

فإن قال قائِل: الإضافة هنا للاختِصاص وليست للتَّمليك، كما تَقول السَّرْج للدابَّة، والمقود للبعير، وهل هي تَملِكه؟

لو قال قائِل ذلك بأنَّ الإضافة هنـا للاختِصاص، وأنَّ بُيوت أزواج النبيِّ ﷺ للنبيِّ ﷺ؟

فالجَوابُ: أن نَقـول: إن الواقِع يُخـالِف ذلك؛ لأنَّ هـذه البُيوتَ لو كانت للرَّسول ﷺ ما بقِيَتْ مع أُمَّهات المُؤمِنين بعد موته، إذ إِنَّ النبيَّ ﷺ لا يُورَث.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الفائِدة المَأخوذة من الإضافة ﴿فِي بُيُوتِكُنَّ﴾، فإن فيها الإِغْراء على لُزوم البَيـت؛ لأنه بَيتُـها وسِترُها، يَعنِي كلِمة ﴿فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ أَبلَغُ من كلِمـة: (وقَرْن فِي البُيوت) كأنَّه يَقول: هذا البَيْتُ ما بُنِيَ إلَّا لكِ، سَترًا لكِ وصَونًا، فالْزَمي هذا البيتَ الذي من أَجلِكِ بُنِيَ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: تحريم تَبرُّج الجاهِلية؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: جواز التَّبرُّج إذا كان مَبنيًّا على العِلْم والسُّنَّة؛ لأن المَنهيَّ عنه هو تَبرُّج الجاهِلية؛ ولهذا يَجوز للمَرأة أن تَتبرَّج في بعض المَواضِع، وليس حرامًا عليها كُلُّ تَبرُّج.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: ذمُّ الجَهْل؛ لقوله تعالى: ﴿تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ فإنَّ نِسْبَة هذا إلى الجَهْل لا شَكَّ أنه يُراد به التَّنفير.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: مَدْح ما كان مَبنيًّا على العِلْم؛ لأنَّ ذم الضِّدِّ يَدُلُّ على مَدْح ضِدِّه، كما قيل:

.... وَبِضِدِّهَا تَتَبَيَّنُ الْأَشْيَاءُ[1]

فإذا كان التَّبرُّج المَبنيُّ على الجَهْل مَذمومًا؛ فإنَّ ما بُنِيَ على العِلْم ليس مَذمومًا.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنه يَنبَغي عند الإغراء أو التَّحذير أن يُذكَر كلُّ وَصْف يَستَلْزِمُ الإغراءَ، أو التحذيرَ؛ لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ الأُولى -كما قُلْنا فيما سبَق- زمَنًا أوِ الأُولى نوعًا.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: وُجوب إقامة الصلاة على النِّساء، كما هو واجِب على الرِّجال؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، ووجوب إيتاء الزَّكاة؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: الإشارة إلى أنَّ إقامة الصلاة وإيتاء الزَّكاة من المَوانِع عن المُحرَّمات نعَمْ؛ لأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ﴾، ثُمَّ قال: ﴿وَأَقِمْنَ﴾ فدلَّ هذا على أنَّ مِن أسباب عدَم التَّبرُّج إقامةَ الصلاة، ولا رَيبَ في هذا؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ يقول:

(١) البيت للمتنبي، انظر: ديوانه (ص:١٢٧).

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت:٤٥]، ويقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة:٤٥].

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: فَضيلة إقام الصلاة وإيتاء الزكاة؛ تُؤخَذ من الأَمْر بهذا، ثُمَّ بعد ذلك قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾، وطاعة الله تعالى ورسوله ﷺ يَدخُل فيها إقامةُ الصلاة، وإيتاءُ الزكاة؛ فالنَّصُّ على بعض أفراد العامِّ يَدُلُّ على العِنَاية به، سواءٌ تَقدَّم الخاصُّ أو تأخَّر، فمثَلًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ﴾ [الحج:٧٧]، هذا تَقدَّم الخاصُّ على العامِّ، قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟﴾ وهذا من فِعْل الخَيْر، ثُمَّ قال تعالى: ﴿وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ﴾، ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ [القدر:٤]، هذا من باب تَقدُّم العامِّ على الخاصِّ، وسَواءٌ تَقدَّم العامُّ على الخاصِّ، أو تَأخَّر فإنَّه يَدُلُّ على العِناية بالخاصِّ؛ ولهذا نَصَّ عليه من بين أفراد العامِّ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: وُجوبُ طَاعَةِ الله تعالى ورسوله ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: أنَّ طاعة الرسول ﷺ من طاعة الله تعالى؛ للعَطْف بالواو الدالَّة على الاشتِراك، وقد قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في القُرآن الكريم: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: أن الله عَزَّوَجَلَّ أَراد بحِكْمته البالِغة أن يُذْهِبَ الرِّجس عن آل البيت؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: أنَّ الخُضوع بالقَوْل وأن تَبرُّج الجاهلية من الرِّجْس، وأنَّ القرار في البُيوت وإقامَ الصلاة وإيتاءَ الزكاة وطاعةَ الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ

من أسباب زَوال الرِّجْس؛ لأن ما تَقدَّم أوامِرُ ونَواهٍ، بيَّن الله تعالى أنه إنما أمَرَ بها ونهى عنها، من أَجْل أن يُذْهِبَ عن هذا البَيتِ الرِّجسَ، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: أنَّ زوجاتِ الإنسان من آل بَيْته.

فإذا قال قائِلٌ: هذا وَقْف على آل بيتي. شمِلَ النِّساءَ، وإذا قال في الأُضحِيَّةِ: اللهُمَّ إن هذا عنِّي وعن أهل بيتي. شمِلَ النساءَ؛ لأنَّ الله تعالى جعَل زوجات الرسول ﷺ من آل بَيْته.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةَ عَشْرَةَ: تَفخيم هذا البيت وتَعظيمه؛ لقوله تعالى: ﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾؛ لأنَّ (أل) للعَهْد الذِّهْنيِّ، كأن هذا البيتَ مَعهود مَعلوم بأَذْهان الناس، لا يَغيب عنها؛ لِمَا لهذا البَيتِ من المَكانة الرفيعة، والخِصْلة الحَميدة.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ: أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَرادَ أن يُذْهِبَ الرِّجْس وأَثَرَ الرِّجس أيضًا، الرِّجْس وأثره؛ يُؤخَذ من قوله تعالى: ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾، وهذا فوق ذَهاب الرِّجْس؛ لأننا لو ضَرَبنا هذا بمِثال حِسِّيٍّ، وقُلنا: إنَّ هذا الثوبَ تَلَطَّخ بنَجاسة، فحَكَكْنا هذه النَّجاسةَ حتى زالَت عَينُها فهذا يُسمَّى إذهابَ الرِّجْس، فإذا صبَبْنا الماء حتى نَظُف المكان تمامًا، وزال الأثَرُ صار ذلك تَطهيرًا؛ ولهذا جاء في الحديث الصحيح في دُعاء الاستِفْتاح: «**اللَّهُمَّ بَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ، كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، اللَّهُمَّ نَقِّنِي مِنْ خَطَايَايَ كَمَا يُنَقَّى الثَّوْبُ الْأَبْيَضُ مِنَ الدَّنَسِ، اللَّهُمَّ اغْسِلْنِي مِنْ خَطَايَايَ بِالْمَاءِ وَالثَّلْجِ وَالْبَرَدِ**»[1]، فذكَر المُباعَدة أوَّلًا قبل التَّلبُّث

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب ما يقول بعد التكبير، رقم (٧٤٤)، ومسلم: كتاب المساجد، باب ما يقال بين تكبيرة الإحرام والقراءة، رقم (٥٩٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بالخَطِية، ثُم ذكَر التَّنقية من الخَطِية بعد التَّلبُّث بها، ثُمَّ ذكَر أبلَغَ من ذلك وهو الغَسْل، غَسْل هذه الخَطِيَة وآثارَها بالماء والثَّلْج والبَرَد.

والحاصِلُ: أننا نَقول: إن قوله تعالى: ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ هذا فَوْق إذهاب الرِّجْس.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةَ عَشْرَةَ: إثبات الإرادة لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾.

الْفَائِدَةُ العِشْرُون: أنَّ البيت المُطَهَّر من الرِّجْس، سواءٌ بيتُ الرسول ﷺ أو غيره من البُيوتات؛ فإنَّ البَيْت المُطَهَّر يُعتبَر من أفضَل البُيوتات، ويُعتبَر تَطهيرُه من أكبَر النِّعَم عليهم، يُؤخَذ من أنَّ الله تعالى امتَنَّ بذلك على آل بيت الرسول ﷺ، وهذا شيء مَعلوم في الناس، فالناس مَعادِن كمَعادِن الذَّهَب والفِضَّة، فمِنَ الناس مَعدِن خَبيث، ومن الناس مَعدِن طَيِّب.

ولهذا لو أن أحَدًا تَلبَّس برِجْسٍ من الأرْجَاس من قَبيلة طيبة فالناس يَستَغْرِبونه ويَستَنْكِرونه، ويَرَوْن هذا أشَدَّ، لكن لو تَلبَّس أحَد برِجْس من الأَرْجاس، وهو من قبيلة مَعروفة بذلك، فلا يَستَغرِبون، ويَقولون: إن الغُصْن من الشَّجَرة، وليس هو بغريب أن يَفعَل مثل هذا الفِعْلِ؛ لأنَّ آباءَه وإخوانه وأعمامه، وما أَشْبَه ذلك فعَلوا مثله، ولا شَكَّ أنَّ الله تعالى إذا مَنَّ على آل بيتٍ من البُيوت بالتَّطهير والكرَم والنَّظافة والنَّزاهة؛ فإنَّ ذلك مِن نِعْمَة الله تعالى عليه.

واعلم أنَّ الله تعالى قد يَجعَل على يَدِ الشَّخْص الواحِد طَهارة كلِّ قبيلته، كما هو مُشاهَد يَخرُج رجلٌ واحِد صالِحٌ مُصلِحٌ يُنذِر عَشيرته الأقرَبين، ويَحرِص على دَعْوتهم إلى الحَقِّ، فيُصلِح الله تعالى على يَديه كلَّ قَبيلته، إذا جاء ذلك بإِخْلاص

وبامتِثال لأَمْره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في قوله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٤]، لكن عندنا تَفريط وإِهْمال، فالإنسان لا يَتفَقَّد أهلَه الذين في بيته، ولا يَتفَقَّد أهلَه قرابته الذين في غير بَيْته، فهذا هو الواقِع، يَعنِي: الناس الآنَ غايةُ ما يَتواصَلون به إن تَواصَلوا به في الأمور الدُّنْيوية، لكن هدايا الدِّين ما أَقلَّها! وإن كان -والحمدُ لله تعالى- يُوجَد، وأنا لا أَقول: إِنَّني أُقنِّطُكم من رحمة الله تعالى، يُوجَد -والحمدُ لله تعالى- مَن إذا رأَى في بَيْت أقارِبه ما يُكرَه يَنصَحُهم ويُرشِدهم، ويُبيِّن لهم ذلك، ورُبَّما بعضُ الناس يَهْجُرهم، ما يَذهَب إليهم، كلُّ هذا من أَجْل الحِرْص على تَقويمهم.

• • ۞ • •

الآية (٣٤)

•●●•

❁ قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ [الأحزاب:٣٤].

•●●•

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ القُرآن ﴿وَٱلْحِكْمَةِ﴾ السُّنَّة] (اذكُرْنَ) الأمر هنا للإرشاد، وبَيان المِنَّة والفَضْل من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليهن، وقوله: ﴿وَٱذْكُرْنَ﴾ يُحتَمَل أن يَكون المُراد به تَذكَّرن وتَدبَّرن هذا الأمرَ واعرِفْن ما فيه من فَضْل الله تعالى علَيْكُن، ويُحتَمَل أن المَعنى: اذكُرْنه بتِلاوَتِه.

وقوله تعالى: ﴿مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾: ﴿يُتْلَىٰ﴾ بمَعنَى: يَقرَأ، والتِّلاوة نوعان؛ تِلاوة لَفْظية وتِلاوة مَعنوية، فإذا قُلْت: تَلا كِتاب الله تعالى حتى أكمَله، فالمعنى: اللَّفْظية، وإذا قلت: سَجْدة التِّلاوة فهي التِّلاوة اللَّفْظية، أمَّا التِّلاوة المَعْنوية فهي اتِّباع القرآن، تَلاه يَتلُوه إذا اتَّبعه، فالتِّلاوة المَعنَوية بمَعنَى: اتِّباع القُرآن في عقائِدِه، في أخلاقِه، في أعمالِه، هذه التِّلاوةُ.

وأيُّهما المَقصود الأَعظَمُ؟

المَقصود الأَعظَم: هو التِّلاوة المَعنَوية، أمَّا التِّلاوة اللَّفْظية فلا شَكَّ أنها مَقصودة، وأنَّ مَن قرَأ حَرْفًا من كِتاب الله تعالى فله به عَشْر حسَنات؛ لكِنَّ المُهِمَّ التِّلاوة المَعنَوية

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩].

وقوله تعالى: ﴿مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾: ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ لا شكَّ أنها القُرآن كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت:٤٩].

والآياتُ هنا المُراد بها الآياتُ الشَّرْعية؛ فإنَّ آياتِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تنقَسِم إلى قِسْمين:

١- آيات كَوْنية، وهي ما خلَقَه الله تعالى ويَخْلُقه في هذا الكَوْنِ؛ فإنَّ كلَّه آياتٌ علاماتٌ على خالِقه عَزَّوَجَلَّ لما فيه من بَديع الصَّنْعة والنِّظام الحكيم البالِغ، الذي لا يَتناقَض ولا يَتنافَر؛ ولهذا قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون:٩١]، وإذَا ذهَب كلُّ إله بما خلَق، لم يَكُنِ الكون مُنتظِمًا؛ لأنَّ كل إلهٍ يَخلُق على ما يُريد، ثُمَّ لا بُدَّ من عُلوِّ أحدِهما على الآخَر، لأنهما إن تَمانَعا وعجَز كل واحِد منهما عن الآخِر، لم يَصِحَّ أن يَكونا إلهين، وإن غلَبَ أحدُهما الآخَرَ فالمَغلوب لا يَصِحُّ، وحينئذٍ تَكون الدَّلالة العَقْلية على أنه لا بُدَّ من إلَهٍ واحِد فقطْ، وهو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ المُهِمُّ: أن الآياتِ الكونيةَ كلُّ ما يَخلُق الله تعالى في الكون.

٢- أمَّا الآياتُ الشرعيـة فهي ما جاءَت به الرُّسُل من الوَحيِ، وسُمِّيَت آياتٍ؛ لأنها علامـات على مُشَرِّعها ومُنزِلها؛ لما فيها مِنِ انتِظام المَصالِح، وانتِفاء المَفاسِد؛ فإن الشَّرْعَ كُلَّه تَحصيلٌ للمَصالِح، وتقليلٌ للمَفاسِد؛ ولذلك ما من شَيء يَتَضمَّنُ مَصْلَحَة رَاجِحة أو خالِصةً إلَّا أمَر به الشَّرعُ، وما من شيء يَتضمَّن مَفسَدةً خالِصةً أو راجِحة إلَّا نَهى عنه الشَّرْع؛ لكن من المَصالِح ما نُدرِكه بعُقولنا،

ومن المَفاسِد ما نُدرِكه بعُقـولنا، ومنه ما لا نُدرِكه، ولكنَّـا نَعلَم عِلْم اليَقين أنَّ مُقتَضى حِكْمة الله عَزَّوَجَلَّ ومن أَسمائه الحَكيم، أنه لا يُمكِن أن يَأمُر إلَّا بما فيه مَصلَحة؛ إمَّا خالِصة وإمَّا راجِحة، ولا يَنهَى إلَّا عمَّا فيه مَفسَدة إمَّا خالِصة وإمَّا راجِحة؛ ولهذا سُمِّيَتِ الكُتُب النازِلة من السَّماء آياتٍ؛ لأنها علامات على مَن شَرَّعها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وعلى مَن أَنزَلها، قال تعـالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢].

وهنـا مَسأَلة بدَأَ الناس يَفعَـلونها: يُقسِمون بآيات الله تعـالى، يَقول: قسَمًا بآيات الله ما كان كذا وكذا. أو قسَمًا بآيات الله لأَفعَلنَّ كذا وكذا. وفيه تَفصيل: إنْ قَصَـد الآياتِ الكونيةَ فهو حرامٌ؛ لأنه حلَف بغير الله تعـالى، حلَفَ بالمَخلوقات، وإن أَراد بالآياتِ الآياتِ الشَّرعية، فهو حلَفٌ بكلِمات الله تعالى، والحلِف بكلِمات الله جائز؛ لأن كلِمات الله تعـالى من صِفاته، والغالِب على العـامة حينما يُقسِمون هذا القسَمَ -فيما أَظُنُّ- هو الآيات الشرعية، أنهم ما يُريدون قسَمًا بآيات الله تعالى، أمَّا قسَمًا بالشمس وبالقمَر وبالنُّجوم وبالليل وبالنَّهار، فلا يُقسِمون بهذا، بل (قسَمًا بآياتِ الله) يَقصِدون بذلك القُرآنَ، وحينئذٍ يَكون هذا القسَمُ جائِزًا باعتِبار الدَّلالة العُرْفية على المُراد به، أمَّا لو نظَرْنا إلى لفظه فلا بُدَّ من التَّفصيل.

وعلى كل حال: الإِقْسام على المُصحَـف هذا من البِدَع؛ لأنه لم يَرِد عن النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ والذي ورَد في تَغليظ الأَيْمان ما ذكَره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سورة المائِدة: ﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [المائدة:١٠٦]، وقـوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا﴾ قبلَه ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: صلاة العَصْر، وفي باب الدَّعـاوَى: أنَّ التَّغليـظ يَكون بالزمان، ويَكون بالمَكان، ويَكون بالهَيْـئة،

ويكون بالصِّيغة.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْحِكْمَةِ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [هي السُّنَّة] كما قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النساء:١١٣].

والأصل في العَطْف المُغايَرةُ، وإلَّا فلِقائِلٍ أَنْ يَقُول: إنَّ القرآن الكريم قد تَضمَّن الحِكْمَة فيَكون تعليم القرآن تَعليم الأحكام، وتَعليم حِكَم الأَحْكام؛ لأنَّ مَعرِفة أحكام الشريعة أمرٌ عظيمٌ جِدًّا؛ فالإنسان إذا عرَف حِكْمة الأحكام الشرعية يَستَنير قَلْبه أكثَرَ، ويَقتَنِع بالأحكام الشرعية أكثَرَ، ويَعرِف من صِفات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وحِكَمه ما هو أكثَرُ، ويَستَطيع أيضًا أن يُقنِع الخَصْم؛ لأنَّ الخَصْم لو تَقول مثَلًا: هذا حرام؛ لأنَّ القُرآن حرَّمه؛ فهو قد لا يَكون ممَّن يُؤمِن بالقُرآن أو يَطمَئِنُّ إليه، لكن إذا كان لدَيْك مَعرِفةٌ بحِكَم الشَّريعة أَمكَنَك أن تُقنِع هذا الشخصَ.

ولهذا مَعرِفة حِكْمة الشَّرْع مُهِمٌّ جِدًّا، بل إنَّ غالِب القِياس إنما جاء من مَعرِفة الحِكْمة؛ لأنَّه إلحاق فَرْع بأَصْلٍ في حُكْمٍ لعِلَّة جامِعة، وعلى هذا فرُبَّما يَقول قائِل: إنَّ المُراد بالحِكْمة ما يُعْلَم من أسرار أحكام الشَّريعة وحِكَمِها.

ولكنَّ أهل العِلْم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ من السلَف والخلَف أئِمَّة الخلَف فسَّروا الحِكْمة بأنَّها السُّنَّة.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ لطيفًا قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بأَوْليائه ﴿خَبِيرًا﴾ بجَميع خَلْقه] (اللَّطيف) فسَّره أَهلُ الباطِل بأنه الذي لا يُدرَك لصِغَره -أَعوذُ بالله!-، فسَّروه بذلك وكذَبوا.

وفسَّره أهلُ السُّنَّة فقالوا: إن اللَّطيف جاء في كِتاب الله تعالى مُعدًّى باللَّام ومُعدًّى بالباء، قال تعالى ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ [الشورى:١٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُ﴾ [يوسف:١٠٠]، فعُدِّيَ بالباء وعُدِّيَ باللَّام.

وعلى هذا فيَكون اللَّطيف له مَعنَيان:

أحدُهما: اللُّطْف للعَبْد، وهو أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يُقدِّر له مَواقِع الإحسان، بمَعنى أنه يَلطُف له فيُيَسِّر له الأمرَ، ويُسهِّله عليه.

الثاني: اللَّطيف به بالباء، وهو بمَعنى: إدراك الأمور الخَفِيَّة؛ لأن اللطيف مَعناه: الذي يُدرِك ما لطُف، فمَعنى ﴿لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾، أي: مُدرِكٌ لما خَفِيَ من أمورهم، فيَكون بمَعنَى الخَبير، بل أدَقُّ من مَعنى الخَبير؛ ولهذا جَمَع الله تعالى بينهما فقال: ﴿خَبِيرًا﴾، والخَبير قال العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ: هو العالِم ببَواطِن الأمور.

يَقول ابنُ القيِّم في النونية -وهي من أحسَنِ ما نُظِمَ في التَّوْحيد وأَجمَعِه-:

وَهْوَ اللَّطِيفُ بِعَبْدِهِ وَلِعَبْدِهِ ... وَاللُّطْفُ فِي أَوْصَافِهِ نَوْعَانِ

إِدْرَاكُ أَسْرَارِ الْأُمُورِ بِحِكْمَةٍ ... وَاللُّطْفُ عِنْدَ مَوَاقِعِ الْإِحْسَانِ[1]

فصار اللَّطيف له مَعنَيان: اللَّطيف للعَبْد، واللَّطيف به؛ فاللَّطيف به بمَعنَى: الخَبير ببَواطِن أُموره، وما لَطُفَ من أَمْره، وله الذي يُقَدِّرُ له من أَسرار حِكْمته أو من أَسرار إِحْسانه وفَضْله ما لا يُدرِكه بعَقْله.

---

(١) النونية (ص:٢٠٧).

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: تَذكير أُمَّهات المُؤمنين بهذه النِّعمةِ العَظيمةِ؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ مَن أَعطاه الله تعالى عِلمًا كان طلَبُ الاستِقامة منه أَوْكدَ وأَوْثَق، فإذا آتَى اللهُ تعالى الإنسان عِلمًا؛ فإنه يُطلَب منه من الاستِقامة أكثَرَ ممَّا يُطلَب ممَّن لم يُؤتَ عِلمًا؛ لأنه قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى﴾، فليس عليكن نقص في العِلْم، بل إنَّ العِلْم ﴿يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ﴾.

مَسأَلة: رُبما يكون عند المرأة أَشرِطة تَستَمِع إليها، فيُقال: كل امرأة يُوجَد في بيتها، أو يُتلَى في بيتها حقٌّ من كِتاب الله تعالى، أو سُنَّة رسوله ﷺ أو كلام أَهْل العِلْم المَبنيِّ على الكِتاب والسُّنَّة؛ فعلَيْها من الوَاجِب أكثَرَ ممَّن لم تَعرِف.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن البيت الذي يُتلَى فيه كِتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خيرٌ من البَيْت الذي لا يُتلَى فيه كِتاب الله تعالى؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ﴾؛ ولهذا قال النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا**»[1]، يَعنِي: لا تَجعَلوها مثلَ القُبور لا تُصلُّون فيها، وفي الحديثِ الصحيحِ عنه: «**أَفْضَلُ صَلَاةِ المَرْءِ فِي بَيْتِهِ إِلَّا المَكْتُوبَةِ**»[2]، وكان من هَدْيِ الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أنه تُسمَع لبُيوتهم

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ٣٦٧)، وأبو داود: كتاب المناسك، باب زيارة القبور، رقم (٢٠٤٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة النافلة في بيته وجوازها في المسجد، رقم (٧٨٠)، بلفظ: «**لا تجعلوا بيوتكم مقابر**».

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب صلاة الليل، رقم (٧٣١)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب صلاة النافلة في بيته، رقم (٧٨١)، من حديث زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

من تِلاوة كِتاب الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ دويٌّ كدَوِيِّ النَّحْل[١] من قِراءة كِتاب الله تعالى في البُيوت.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ القُرآن من آيات الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ؛ لقوله تعالى: ﴿مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، وقد سبَقَ في التَّفسير بَيان كَوْنه من آيات الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، لما يَتَضمَّن عليه من المَصالِح، والحِكَم والأَسْرار.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنه إذا قُرِنَت الحِكْمة بالكِتاب؛ فالمُراد بها السُّنَّة؛ لأنَّ السُّنَّة أيضًا تَتَضمَّن الحِكْمَة، والله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ لم يَصِفِ السُّنَّة بالحِكْمَة لأنَّ القُرآن ليس فيه حِكْمة، ولكن لمَّا كان القُرآن من عِند الله تعالى، وكلامَ الله تعالى؛ فإنَّ احتِمال أَنْ لا يَتَضَمَّنَ الحِكْمة بعيدٌ جِدًّا؛ لكن لمَّا كانت السُّنَّة من كلام الرسول ﷺ فإنَّ كلام البَشَر قد يَرِد عليه احتِمال أن لا يَكون مُشتَمِلًا على الحِكْمَة فبيَّن الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ أن السُّنَّة حِكْمة، وإن كانت مِن كَلام الرسول عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أو مِن فِعْله، فإنها حِكْمة؛ لأنها مُوافِقةٌ للصواب.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: فيها رَدٌّ على مُنكِري السُّنَّة؛ ورَدٌّ على آخِرين يُقابِلونهم يَأخُذون بالسُّنَّة ولا يَأخُذون بالقُرآن، لأن هناك ناسًا الآنَ -مع الأَسَف- يَعتَنون بالسُّنَّة اعتِناءً عَظيمًا، نَعَمْ حتى إنهم يَغوصون على أَشياءَ قد لا تَكون صحيحةً، ويَأتون بها لكن في القُرآن تُخاطِبهم في القُرآن لا يَعرِفون شيئًا في القُرآن، لا في تَفسيره ولا في إِعْرابه، ولا في شيء أبَدًا منه، بينما هُمْ في السُّنَّة يُذهِبون ليلَهم

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد (ص:٣٢ رقم ٩٨)، والإمام أحمد في الزهد رقم (٢٠٢٧)، وابن أبي شيبة في المصنف (١٩/ ٢٩٠)، عن أبي الأحوص، انظر: مختصر قيام الليل للمقريزي (ص:١٣٤).

ونهارَهم، وهذا خطَأ؛ لأنَّ أوَّلَ ما يَجِب أن نَتعَلَّم القُرآن، ثُم بعد ذلك السُّنَّة؛ لأنَّ بالقُرآن هو الأصل.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثبات هَذَيْن الاسمَيْن من أسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى (اللَّطيف، والخَبير).

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ الله تعالى كان لَطيفًا خَبِيرًا؛ و(كان) هذه مَسلوبةُ الدَّلالة على الزَّمان، وإنها يُراد بها اتِّصاف المُبتَدَأ أو الاسمِ بالخَبَر فقط، بقَطْع النَّظَر عن الزَّمان، والفائِدة منها: تَحقُّق الاتِّصاف بهذا الوَصْفِ، يَعنِي: قد تَحقَّق ذلك في حَقِّه، وهو أنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَطيفٌ خَبير.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: ما تَضمَّنَه هذان الاسْمان من صِفات الله عَزَّوَجَلَّ، من اللُّطْفِ والخِبْرة.

• ● ۞ ● •

الآيــة (٣٥)

• ● ● •

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٣٥].

• ● ● •

أوَّلًا: أنَّ القـرآن الكريم في غـالِب ما يَتَحدَّث عن الأحكام الجَزائيـة، والأَحْكام العمَلية أكثَرَ ما يَتحدَّث مُخاطِبًا الرِّجال؛ لأنَّ الرِّجال أَشرَفُ من النِّساء؛ ولأنَّ الرِّجال قوَّامون على النِّساء، فإذا صَلَحَ الرِّجال صَلَحت النِّساءُ؛ ولأنه إذا اجتَمَع جِنْسان فإنه يُغلَّب أَشرَفُهما وأَعْلاهما؛ ولهذا أَكثَر الخِطـابات الوارِدة في القُرآن تُوجَّه إلى الرِّجال؛ لهذه الأَسبابِ الثَّلاثة ولغيرها.

لكن في بَعْـض الآيات تُذكَر الأحكامُ للرِّجـال والنِّساء، إمَّا على سبيـل التَّفصيل، وإمَّا على سَبيل الإِجْمال:

مِثال الأوَّلِ: قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ إلى آخِره.

ومِثال الثانِي: قولُه تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ [آل عمران:١٩٥]، فإنَّ في هذا إجمالًا.

ثانيًا: في هذه الآياتِ ذكَر المُفسِّرون أنَّ من أَسباب نُزولها: أنَّ أُمَّ سلَمةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا قالت: يا رسولَ اللهِ، إن الله تعالى إذا تكلَّم إنما يَتكلَّم عن الرِّجال ولا يَذكُر النِّساء، فأَنزَل الله تعالى هذه الآياتِ: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ إلى آخِره[1].

ففي قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ هذه (إنَّ) التَّوْكيدية التي تَنصِب المُبتَدَأ والخبَر، وفي قوله تعالى: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم﴾ ما قال: أَعَدَّ الله تعالى لهم ولهن، بل قال تعالى: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم﴾ فَدَلَّ ذلك على تَغليب جانِب الذُّكورية، كما أن في قَولِه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ تَقديمَ الذُّكور، يَدُلُّ على شرَف الذُّكور، وهذا أَمْر لا يَمترِي فيه عاقِل، لكن لَمَّا جاء الغَرْب الخَبيثُ القَبيح المَقلوب فِطرةً ودِينًا، وصار يُقدِّم النِّساء من أجل إثارة الفِتْنة بهن، وتَشريفهن على الرِّجال؛ تَبِعه الذين يَتبَعون كلَّ ناعِقٍ، وصاروا يُقدِّمون النِّساء على الرِّجال؛ حتى كانوا لا يُطلِقون على النِّساء إلَّا كلِمة (السيِّدات) يَعني: أنَّهُنَّ سيِّدات للرِّجال، فقلَبوا الحَقائِق والأَوْضاع؛ لأنَّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قد قلَب فِطَرهم فعبَدوا المادَّة دون خالِقها، وكذلك تَصرَّفوا في تُصرُّفاتهم هذه، ويَجِب على المُسلِمين الحذَرُ والتَّنبُّه من مُغالَطات أُولَئِك الكفَرةِ، لا في هذا ولا في غيرِه، حتى يَكونوا على بَيِّنة من أَمْرهم، ودِينهم -والحمد لله- قد بيَّن الله تعالى فيه كلَّ شيء.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ الإسلام: في أَعمال الجَوارِح الظاهِرة؛ لأنَّه يَشمَل أو يُراد به أن يَستَسلِم الإنسانُ لله تعالى ظاهِرًا بجَوارحه، بِلسانه بيَدَيه بِرِجْليه بعَيْنه بأُذُنِه؛ هذا الاستِسلامُ الظاهِر يُسمَّى

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٦/ ٣٠١)، والنسائي في الكبرى رقم (١١٣٤١)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٤١٦).

إسلامًا، وقد يَقَـع من غير المُؤمِن، فقد يَقَـع من المُنافِق، وقد يَقَـع من ضعيف الإيمان، قال الله تعـالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات:١٤]، وهذا الإسلامُ مَرتبَتُـه دون الإيمان، لأنه يَقَع من المُؤمِن حَقًّا، ومن المُنـافِق، ومن ضعيف الإيمان، لأن الاستِسْلام لله تعالى بالجَوارِح الظاهِرة.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ هذا الاستِسْلامُ لله تعالى باطِنًا؛ وذلك بالإيمان بالله تعـالى، ومَلائِكته، وكتُبه، ورُسُله، واليَوْم الآخِر والقدَر خَيرِه وشَرِّه؛ ولَسْنـا بحاجة إلى تفسير أحـدٍ للإيمان بعد أن فَسَّره النبيُّ ﷺ حـين سأَله جِبْريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ما الإيمانُ؟ قال: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِـهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»(١)، وتَفاصيل هذه الجُمْلةِ قد تكلَّمنا عليه مِرارًا، وليس هذا مَوضِعَ بَسْطه.

إذَنِ: الإيمانُ هو: الاستِسْلام لله تعـالى باطِنًا بحيث يُؤمِن الإنسان بما يَجِب الإيمانُ به، وهو: الإيمانُ بالله تعالى ومَلائِكته...إلى آخِره.

والإيمان أَعلى من الإسـلام؛ لأنَّ الإيمان يَستَـلزِم الإسلام ولا عكسَ؛ فكُلُّ مُؤمِن لا بُـدَّ أن يَكون مُسلِمًا؛ لأنه إذا صلَـح القَلْب صَلَحَتِ الأَعضـاءُ، كما قال النبيُّ ﷺ: «أَلَا وَأَنَّ فِي الجَسَـدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَـدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّه، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»(٢)، ولكنَّ بعض الناس يَعمَلُ المَعاصِيَ، ويَحتَجُّ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام، رقم (٨)، من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم (٥٢)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم (١٥٩٩)، من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

بقول الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**التَّقْوَى هَاهُنَا**»[١]، إذا قُلْت: يا أخي، اتَّقِ الله، صَلِّ مع الجماعة! اتَّقِ الله، دَعْ حَلْق اللِّحْيـة! اتَّقِ اللهَ اتْرُكِ الغِيبةَ! وما أَشبَه ذلك يَقول لك: «**التَّقْوَى هَاهُنَا**».

وكَيْف يُرَدُّ عليهِ؟

الجَوابُ: أن نَقول له: لِو اتَّقَى ما هاهنا لاتَّقَى ما هاهنا. يَعنِي: لِو اتَّقى الباطِن لاتَّقى الظـاهِر؛ لأنَّ الرَّسولَ ﷺ يَقـول: «**إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ**»، فجعَـل الأَمْر جُمْلة شَرْطية، والمَعـروف في اللُّغة والعُـرْف والشَّرْع أنَّ الجُمْـلة الشَّرْطية يَتحَـقَّق فيها المَشروط متى تَحقَّق الشَّرْط.

ونَقول: صحيـح -ونَحْن معَك- بأنَّ هذا الذَّنْبَ الذي تَعمَـله دون الشِّرْك قابِلٌ لأَنْ يَغفِره الله تعالى، ولكن الله تعـالى لم يَقُل: ويَغفِر ما دون ذلكَ لكُلِّ أحَـدٍ. بل قال تعـالى: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ [النجم:٢٦]، فهل تَشْهَدُ أنك أنتَ ممَّن شاءَ الله أن يَغفِر لهم؟! إذَنْ: فأنت على خطَأ، والأصل أن الوَعيد على المَعاصِي ثابِت؛ لأنَّ رَفعه تَحت المَشيئة، ووقوعه بمُقتَضى الوَعْد؛ فالأَصْلُ ثُبوته؛ فلا حُجَّةَ له في هذا.

وقولـه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ﴾ المُطيـعات] كان عليـه أن يَقـول: المُطيعين، ويَصير: والقانِتات مَعروف أنها المُطيعات.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ﴾ القُنـوت ليس مُطلَق الطاعة كما يُفهَـم من كلام المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ولكنه: الطاعة بدَوام وذُلٍّ وسُكون، ويَدُلُّ لذلك قوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة:٢٣٨]، ولَمَّا نزَلَت

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله، رقم (٢٥٦٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

هذه الآيةُ أُمِروا بالسكوت ونُهُوا عن الكلام، فدلَّ هذا على أن القُنوت ليس مُجرَّدَ فِعْل الطاعة، بل هي طاعة مع ذُلٍّ وخُضوع، ودوامٍ.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْقَـٰنِتِينَ وَٱلْقَـٰنِتَـٰتِ﴾ القُنوت أَعلى ممَّا سبقه؛ لأنَّ القانِت معه الإيمان والإسلام، كما قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزُّمَر:٩].

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلصَّـٰدِقَـٰتِ﴾ في الإيمان] الصِّدْق هو: الإخبار بما يُطابِق الواقِع؛ هذا الأصلُ في مَعنَى الصِّدْق، مثل: أن أَقول لك: إن هذه المَروحةَ تَشتَغِل. هذا صِدْق؛ لأنه إِخْبار بما يُطابِق الواقِع، ولو قُلت: إنَّ هذه المَرْوحةَ لا تَشتَغِل. لم يَكُن صِدْقًا، لأنه إخبار بما يُخالِف الواقِع، ولكن الصِّدْق هل هو في القَوْل فقَطْ أو يَكون الصِّدْق في القول والعمَل والعَقيدة؟ الجوابُ: الأخيرُ.

فيَكون الصِّدْق في العَقيدة: بأن يَكون الإنسان صادِقَ الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ في كُلِّ أعماله، صادِقَ العَقيدة بحَيْثُ تكُونُ مُطابِقة لما جاء به الشَّرْع.

ويَكون الصِّدْق كذلك في الأقوال، بألَّا يَقول إلَّا صِدْقًا، ولو كان الأمر عليه، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾.

وانظُرْ إلى نَتيجة الصِّدْق في قِصَّة الثلاثة الذين خُلِّفوا، يَعنِي: أُرجِئَ أَمْرُهم؛ لأنهم جاؤُوا وأَخبَروا بالصِّدْق، والمُنافِقون كانوا يَأتون يَقولون: يا رسول الله، لنا عُذْر، ولنا عُذْر. فيَستَغفِر لهم ويَكِلُ سَرائِرَهم إلى الله تعالى، لكن هؤلاء صدَقوا فخُلِّفوا عن الحُكْم عليهم بما حُكِم على المُنافِقين، وليس المُراد أنهم خُلِّفوا عن الغَزوة،

لو كان كذلك لقال: الذين تَخلَّفوا. هؤلاءِ الثلاثةُ وهم: كَعبُ بنُ مالِك، وهِلالُ ابنُ أُميَّةَ، ومُرارةُ بنُ الرَّبيع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم، هؤلاءِ صدَقوا رسول الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وأَشَدُّ مَن تكلَّم وأَبيَنُ مَن تكلَّم وأَفصَحُ مَن تكلَّم من هؤلاءِ الثَّلاثةِ كَعبُ بنُ مالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ لأنه أَشبَهُم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فتكلَّم كلامًا عَجيبًا، ويَحسُن بكم أن تُراجِعوا قِصَّته[1]؛ لأنها في الحقيقة تَزيد في الإيمان، هَؤلاءِ صدَقوا فكانت نَتيجةُ صِدْقهم: أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنزَل فيهم كِتابًا يُتلَى إلى يوم القِيامة، في مَدْحهم والثَّناء عليهم؛ حتى قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى للناس كلِّهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩]، أمَّا الآخرون فقال تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة:٩٥].

فانظُرِ الفَرْق بين الأَمْرين، هؤلاءِ كذَبوا فأُرْجِسوا -والعِياذُ بالله- وهؤلاءِ صدَقوا فرُفِعوا، فعَلَيْك بالصِّدْق فإن الصِّدْق يَهدِي إلى البِرِّ، وإن البِرَّ يَهدِي إلى الجَنَّة، ولا يَزال الرجُل يَصدُق ويَتحرَّى الصِّدْق حتى يُكتَبَ عند الله تعالى صِدِّيقًا.

فالمُهِمُّ أن ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾ نَقول: في الإيمان، وفي القَوْل، وفي العمَل، فالصِّدْق في العمَل أن يَكون مُطابِقًا للباطِن؛ فلا تَعمَل رِياءً ولا سُمْعةً، ولا مُصانَعة، ولا مُجامَلة، ولا لأَجْل شيءٍ من الدُّنيا، مِثال ذلك رجُل أَخرَج من

(١) أخرجها البخاري: كتاب المغازي، باب حديث كعب بن مالك، رقم (٤٤١٨)، مسلم: كتاب التوبة، باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه، رقم (٢٧٦٩)، من حديث كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

جَيْبه أَلفَ دِرهَم فتَصدَّق بها؛ لأنَّ الناس يُشاهِدونه، فقال: أُريد أن يَقولَ النَّاسُ: ما أَكرَمَ فلانًا! فهل صَدَق في فِعْله؟ ظاهِر فِعْله أنه لله تعالى صادِق، ولكنَّ حقيقة أَمْره العكسُ؛ فكان كاذِبًا، ومن الصِّدْق في الأقوال أو في الأَعْمال مُتابَعة الرسول ﷺ فإنها دليل على صِدْق محبَّة الإنسان لله تعالى ورسولِه ﷺ، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران:٣١]، فصار الصِّدْق في العَقيدة في القَوْل وفي العمَل.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾ لَمَّا كان الصِّدْق قد يَتَرتَّب عليه من مُجاهَدة النَّفْس ما يَترتَّب؛ لأنَّ إخبار الإنسان بالصِّدْق ولا سيَّما على نفسه أَمْرٌ صَعْب، أَعقَبه بذِكْر الصَّبْر، يَعنِي كأنما يَقول: اصدُقْ واصبِرْ على صِدْقِك. فقال تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾.

والصَّبْر في اللُّغة: الحَبْسُ، ومنه قولهم: قُتِلَ صَبرًا. يَعنِي: حَبْسًا.

وفي الشَّرْع: حَبْس النَّفْس عن التَّسخُّط والكراهة لحُكْم الله عَزَّوَجَلَّ والتَّضجُّر منه.

فقَوْلنا: لحُكْم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَشمَل الحُكْم الكَوْنيَّ والحُكْم الشَّرْعيَّ، وهذا التَّعريفُ يَشمَل أنواع الصَّبْر الثلاثةَ التي تكلَّم عليها أهلُ العِلْم، حيث قالوا: إنَّ الصَّبْر ثلاثة أنواع: صَبْرٌ على طاعة اللهِ تعالى، وصَبْرٌ عن مَعْصية الله، وصَبْرٌ على أَقدار الله تعالى المُؤلِمة.

فنَحنُ إذا قُلْنا: حَبْس النَّفْس عن التَّسخُّط والكراهة لحُكْم الله تعالى. يَشمَل الأنواع الثلاثة؛ لأنه كلَّه حُكْم الله تعالى الكَونيُّ والشَّرْعيُّ؛ فالكونيُّ يَتعَلَّق بالصَّبْر على أقدار الله تعالى، والشَّرْعيُّ يَتعَلَّق بالصبر على طاعة الله تعالى، وعن مَعصِيَته.

وأمَّا تَعريف ابنِ القَيِّم[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ للصَّبْر، فيَقول: هو حَبْس النَّفْس عن الجَزَع، واللِّسان عن التَّشكِّي، والجَوارِحِ عن لَطْم الخُدود وشَقِّ الجُيوب؛ وهو صحيح وقولنا: (عَن الكَراهةِ لحُكْم اللهِ تعالى) أعَمُّ ممَّا قاله رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

أمَّا الصَّبْر على طاعة الله تعالى: فهو أَعلى أنواع الصَّبْر؛ لأنَّه صَبْرُ النَّفس على عمَلٍ وحرَكة وتعَب، والصبر عن مَعْصِية الله تعالى دونه في المَرْتَبة؛ لأنَّ فيه حَبْسًا للنفس عمَّا تَشتَهيه، من أجل أنه مَعصية لله عَزَّوَجَلَّ، لكن هل فيه عمَل كالصَّبْر على طاعة اللهِ تعالى؟ لا، ليس فيه عمَل، ما فيه إلَّا كفُّ النَّفْس عن هذا المُحرَّمِ، فبِهذا تَميَّز الصَّبْر على طاعة الله تعالى على الصبر عن مَعصِيته؛ لأن في كلٍّ مِنهما جِهادًا للنَّفْس، لكِنَّ الصَّبْرَ على الطاعة فيه تَكليف النَّفْس بالعمَل، وهذا ليس فيه تَكليفُ نفسٍ بالعمَل، ولكِنْ فيه الكَفُّ عن مَعصية الله تعالى؛ فلهذا كان دون الأَوَّل في المَرتَبة، ولكننا نحن نَقول: دونَ الأوَّل في المَرْتبةِ. باعتِبار نَفْس النَّوْع لا باعتِبار الصابِرين؛ لأن بعض الصابِرين يُعانِي من المَشقَّة من الصبر على مَعصية الله تعالى أكثَرَ ممَّا يُعاني من الصَّبْر على طاعة الله تعالى، فلو فرَضْنا أن رجُلًا تُساوِره نَفْسه وتَدْعوه إلى فِعْل الفاحِشة بضَغْطٍ شديد، ولكنه عِندما يُصلِّي يَجِد نفسه مُرتاحًا بدون عَناء ولا مَشقَّة، لا شكَّ أن مُعاناتَه الأُولى أَشَدُّ، ولكن نحن نَتكلَّم عن أنواع الصبر من حيث هي نَوعٌ، بقَطْع النظَر عن الصابِر وما يَتعَلَّق بحاله.

أمَّا القِسْم الثالِث: فهو صَبْر على أقدار الله تعالى المُؤلِمة، وهذا أَدْنى أنواع الصَّبْر؛ لأنه صَبْرٌ على ما لا فِعْلَ للإنسان به، صَبْرٌ على أمرٍ ليس من فِعْلك، ولا من مَقدورك، لكن الصبر على الطاعة وعن المَعصية من مَقدورك، أمَّا أقدارُ الله تعالى

(١) عدة الصابرين (ص:١٥).

فإنها ليسَتْ من مَقدورك، فهو صَبْرٌ على أَمْرٍ ليس بمَقدورك؛ لهذا كان أَدنَى منها؛ ولذلك قال بعضُ السَّلَف في المُصاب: إمَّا أن يَصْبِرَ صَبرَ الكِرام، أو يَسلُوا سَلْوَ البَهائِم.

وهذا صحيح؛ مَن مِنَّا لم يُصَب ببَدَنه أو أهله أو ماله، ثُمَّ تَكون المُصيبة عَظيمة جِدًّا وبعد مُضِيِّ مُدة من الزمَن يَنساها ما كأنها شيء؛ ولهذا قال النبيُّ ﷺ: «**إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى**»(١)، هذا حَقيقةُ الصَّبْر، أمَّا بعد ذلك تَبرُد النَّفْس، وتَتَلَهَّى بأَمْر بها يَحدُث لها من شُؤونها في حياتها حتى تَتَسلَّى ولا كأنَّ شيئًا جَرَى.

إِذَنِ: الصَّبْر أنواعه ثلاثة: صَبْرٌ على طاعة الله تعالى، وصَبْرٌ عن مَعْصيته، وصَبْرٌ على أقداره المُؤلِمة.

فصَبْرُ أَيُّوبَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ على ما مَسَّه من الضُّرِّ من باب الصَّبْر على أقدار الله تعالى، وصَبْرُ يُوسُفَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عن فِعْل الفاحِشة في امرأة العَزيز صَبْرٌ عن مَعصية الله تعالى، وفي صَبْره على ما ناله من أَلَمِ السَّجْن وأَذِيَّته صَبْر على أقدار الله تعالى المُؤلِمة، وهل ليُوسُفَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ صَبْرٌ على طاعة الله تعالى؟

الجَوابُ: نعَمْ، دَعْوته أهلَ السِّجْن إلى عِبادة الله تعالى وإلى تَوحيده، هذا من الصَّبْر على طاعة الله تعالى.

فاجتَمَع في حَقِّه أنواع الصَّبْر الثلاثة، وهكذا تَكون أنواع الصَّبْر الثلاثة لكثير من عِباد الله تعالى، فالرسول ﷺ صَبَر على طاعة الله تعالى، وعن مَعصِيته، وعلى أَقداره، وهذا شيءٌ كثيرٌ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب زيارة القبور، رقم (١٢٨٣)، ومسلم: كتاب الجنائز، باب في الصبر عند الصدمة الأولى، رقم (٩٢٦)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والصَّبْر على أقدار الله تعالى المُؤْلِمة لا يُنال أجرُها ومَرْتبتُها إلَّا بوجود أسبابها؛ فأمَّا أن يَقول الإنسان: أنا صابِر. ثُمَّ لا يَصبِر فإنه لا يَنال تِلكَ المَرْتبةَ؛ ولهذا كانَ الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يناله من أقدار الله تعالى المُؤلِمة أكثَرَ من غيره، كما ثَبَت عنه أنه قال: «إِنَّهُ يُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ الرَّجُلَانِ»(١)، يَعنِي: بمَعنَى أنه يُصاب بالحُمَّى كما يُصاب الرَّجُلان، وفي سِياق المَوْت شُدِّدَ عليه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من أَجْل أن تَتِمَّ له هذه المَرْتبةُ، مَرْتَبةُ الصابِرين؛ حتى يَنال أعلاها.

والصبرُ هل هو واجِبٌ أو مُستَحَبٌّ؟

الصَّبْر واجِب، وقُلْنا -المَعنى العامُّ للصَّبْر: حَبْس النَّفْس عن التَّسخُّط والكراهِةِ لأحكام الله تعالى- ما قُلنا لشَريعة الله تعالى؛ وقُلْنا: (لأحكام الله)؛ لأَجْل أن يَشمَل هذا الصَّبرُ على أقدار اللهِ تعالى المُؤلِمة، فالصَّبْر إِذَنْ: واجِبٌ، وفيه أَجْرٌ كثير، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزُّمَر:١٠]؛ ولهذا قال الله تعالى في الصوم: «كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ؛ الحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، إِلَّا الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ»(٢)؛ لأنَّ الصَّومَ حقيقةً اجتَمَع فيه أنواع الصَّبْر الثَّلاثة فهو صَبْرٌ على طاعة الله تعالى، وصَبْرٌ عن مَعصِيَته، وصَبْرٌ على أقداره المُؤلِمة.

ففيه صَبْرٌ على طاعة الله تعالى؛ لأنه صَبْر على الصوم، وحَبْس نَفْسه على الرِّضا به فصَامَ، وصَبْرٌ عن معصية الله تعالى، فالصائِم مَأمور بأن يَجتَنِب أشياءَ كَثيرةً فاجتِنابُها صَبْر عن معصية الله تعالى، وصبرٌ على أقدار الله تعالى فالجُوع والعَطَش

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المرضى، باب أشد الناس بلاء الأنبياء، رقم (٥٦٤٨)، ومسلم: كتاب البر والصلة، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه، رقم (٢٥٧١)، من حديث عبد الله بن مسعود.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب هل يقول إني صائم إذا شتم، رقم (١٩٠٤)، ومسلم: كتاب الصيام، باب فضل الصيام، رقم (١١٥١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والتَّألُّم من هذا الجُوعِ والعـطَش، إذَنْ صَبْرٌ على أقدار الله تعـالى المُؤلِمة؛ ففيه أنواع الصَّبْر الثلاثة: صبرٌ على طاعة الله تعـالى، وصبرٌ عن مَعصية الله تعـالى، وصبرٌ على أقدار الله تعالى المُؤلِمة.

قال تعالى: ﴿وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰبِرَٰتِ وَٱلْخَـٰشِعِينَ وَٱلْخَـٰشِعَـٰتِ﴾ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [المُتواضِعين] الخاشِع المُتواضِع المُتطامِن، وضِدُّه المُتعالي المُستكبِر؛ فالخُشوع إذَنْ: تَطامُن، وخُضوع، وتَواضُع، وهو من أعلى مَراتِب الإيمان، ومن أكمَلِ أحوال القَلْب، والخُشوع له مَواضِعُ منها الخُشـوع في الصلاة؛ فسَّره الفُقَهاء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ بأنَّه سُكونٌ في القَلْب، يَتبيَّن على الجَوارِح، وبعضُـهم قال: مَعنًى في النَّفْس، يَظهَر منه خُشوع الأطراف. فهو في القَلْب ويَظهَر أثَرُه على الجوارِح.

ولهـذا يُروَى عن عُمرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه رأَى رَجُلًا يَعْبَثُ بلِحيتـه وهو يُصلِّي، فقال: لو سَكَن قَلْب هذا لسَكَنَت جوارِحُه[1]. وقد رُوِيَ مَرفوعًا[2] ولا يَصِحُّ، وإنما هو عن عُمرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ على ما فيه ضَعْف عنه.

فالخُشوع في الصلاة: هو سُكون القَلْب الذي يَظـهَر أَثَره على الجَـوارِح، أو مَعنًى يَكـون بالنَّفْس يَظهَر منه سُكـون الأطراف، وهناك أيضًا خُشوع في بَقيَّـة الطاعات، بأن يُؤدِّيها الإنسان، وهو مُتَواضِع مُتطامِنًا لله عَزَّوَجَلَّ، ومنه ما حصَل

(١) ذكره ابن تيمية في مجموع الفتاوى (١٨/ ٢٧٣)، وأخرجه ابن المبارك في الزهد (ص:٤١٩ رقم ١١٨٨)، وعبد الرزاق في المصنف (٢/ ٢٦٦)، وابن أبي شيبة في المصنف (٤/ ٤٨٢)، عن ابن المسيب من قوله.

(٢) أورده الحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٣/ ٢١٠)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وعزاه له العراقي في تخريج الإحياء (١/ ١٧٨) وقال: سنده ضعيف، والمعروف أنه من قول سعيد ابن المسيب.

لرسول الله ﷺ حين فتحَ مكَّةَ وانتَصر على أهلها؛ فإنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لم يَدخُل دُخول العالي المُستكبِر، وإنما دخَل مُطَأْطِئًا رأسَه ﷺ خاضِعًا لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى[1].

ومنه أيضًا الخُشُوع في الحَجِّ والعُمرة؛ حيث يُؤدِّيها الإنسان بتَطامُن، وذُلٍّ، وهو يَعْتَقِدُ أنَّه يَعْبُد الله تعالى، فأنت إذا دخَلْت في العُمرة أو الحَجِّ فاعتَقِدْ أنك في عِبادة، من حين أن تَقول: (لبَّيْكَ اللهُمَّ لَبَّيك) إلى أن تَنتَهيَ، ولكننا -مع الأسَف الشديد- لا نَشعُر بهذا، فتَجِد الإنسان يَتلبَّس بمَحظورات الإحرام وبغَيْرِها من المُحرَّمات، إلَّا مَن شاء الله تعالى.

إِذَنِ: الخُشوع يَشمَل جميع الطاعات، بأن يُؤدِّيها الإنسان بتَواضُع وذُلٍّ وتَطامُن، ليس في قَلْبه استِكْبار ولا عُلوٌّ، ولا فَرقَ في هذا بين أن يَكون الخُشوع في أثناء فِعْل العِبادة، أو بعد فِعْل العِبادة أيضًا؛ لأنَّ من الناس مَن يَخشَع في العِبادة لكن إذا انتَهى منها رأى نَفْسه في درجة عالية، وأنه مُرتَفِع، وأنه قد نال درجةً ما نالَها غيرُه، وهذا من الإعجاب بالنَّفْس وبالعمَل؛ فالإنسانُ يَنبَغي له إذا أدَّى العِبادة أن يَكون كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾، إن نظَروا إلى تَقصيرهم خافُوا، وإن نظَروا إلى فَضْل الله تعالى طمِعوا.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ﴾ المُتصدِّقين يَعنِي: الباذِلين للصَّدَقة، والصَّدَقةُ هي بَذْلُ المالِ تَقرُّبًا إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ويَشمَل الزكاة؛ فإنها أَعلى الصدَقات، ويَشمَل البَذْل التَّطوُّعيَ كصدَقة التَّطوُّع، وكالإنفاق على الضيف وعلى الأهل، وعلى النَّفْس، كل هذا من الصدَقة فما يَجعَله الإنسان في فَمِ امرأته من الصدَقة،

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٤٧)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وانظر: السيرة لابن هشام (٢/ ٤٠٥).

وما يَأكُله من الصدَقة.

وكلُّ شيء من المال تَبذُله لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فهو من الصَّدَقة، وقد يُقال: إنَّ المُتصدِّقين أَعمُّ من الباذِلين لمالهم في ما يُرضِي الله عَزَّوَجَلَّ، فيَشمَل فِعْل كلِّ خَيْر؛ لأن الرسول ﷺ يقول: «كُلُّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ، وَأَمْرٌ بِالمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ، وَتُمِيطُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ، وَتُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ فَتَحْمِلُهُ عَلَيْهَا، أَوْ تَضَعَ لَهُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ، وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ، وَبِكُلِّ خُطْوَةٍ تَخْطُوهَا إِلَى الصَّلَاةِ صَدَقَةٌ، وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ»(١).

فإذا أَخَذْنا بهذا العُموم صار المُتصدِّقون والمُتصدِّقات يَشمَلُ مَن قام بأيِّ طاعة من طاعات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولكنه من المَعروف أنَّ المُتصدِّقين والمُتصدِّقات، يَتبادَر إلى الذِّهْن أنَّهم الباذِلون لمالِهم فيما يُرضِي اللهَ عَزَّوَجَلَّ.

ولا حاجةَ بنا إلى التَّطويل في تَفصيل الصدَقاتِ، وما يَنبَغي للإنسان أن يَتصَدَّق به، وهل يَجوز أن يَتصدَّق بكُلِّ ماله ويَدَعَ عائِلته فُقَراءَ، أو لا يَجوز؟ فإن هذا له وَضْعٌ آخَرُ.

المُهِمُّ: أن الله تعالى أَثنَى على المُتصَدِّقين والمُتصدِّقات.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾ ففي الصدَقة بَذْل، وفي الصِّيام إمساك، والصائِمون همُ الذين قاموا بالتَّعبُّد لله تعالى بالصِّيام.

والصِّيام هو: التَّعبُّد لله تعالى بالإمساك عن المُفطِّرات من طُلوع الفَجْر إلى غُروب الشَّمْس.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، رقم (١٠٠٦)، من حديث أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وهو أنواع: منه ما هو رُكْن من أركان الإسلام، ومنه ما هو واجِب، وليس برُكْن، ومنه ما هو سُنَّة مُعيَّنة مُقيَّدة، ومنه ما هو سُنَّة مُطْلَقة، أَرْبَعَةُ أنواعٍ:

١- فالواجِب الذي هو فَرْض من فُروض الإسلام، وكذلك قَضاء الصَّوْم.

٢- والواجِب الذي ليس من أركان الإسلام النَّذْر الذي أَوْجَبْته على نَفْسك.

٣- ومنه ما هو سُنَّة مُقيَّدة مُعيَّنة بوَقْت مُعيَّن مُقيَّدة بوَقْت مُعيَّن، كأيام البِيض[(١)] والاثنين والخَميس[(٢)]، ومنه عاشُوراءُ[(٣)] وتِسعُ ذي الحِجَّة[(٤)] ويَوْمُ عرَفةَ[(٥)]؛ وسِتٌّ من شوَّال[(٦)] تَدخُل في المُعيَّن، لكنها في كل الشَّهْر.

٤- ومنه ما هو مُطلَق مثل أن يَصوم الإنسان لله تعالى يومًا من الأيام إلَّا أنه

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ١٦٢)، والترمذي: كتاب الصوم، باب ما جاء في صوم ثلاثة أيام من كل شهر، رقم (٧٦١)، والنسائي: كتاب الصيام، باب ذكر الاختلاف على موسى بن طلحة في الخبر في صيام ثلاثة أيام من الشهر، رقم (٢٤٢٢)، من حديث أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٦/ ٨٠)، والترمذي: كتاب الصوم، باب ما جاء في صوم يوم الاثنين والخميس، رقم (٧٤٥)، والنسائي: كتاب الصيام، رقم (٢١٨٦)، وابن ماجه: كتاب الصيام، باب صيام يوم الاثنين والخميس، رقم (١٧٣٩)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الصيام، باب استحباب صيام ثلاثة أيام وعاشوراء، رقم (١١٦٢)، من حديث أبي قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ٢٧١)، وأبو داود: كتاب الصوم، باب في صوم العشر، رقم (٢٤٣٧)، والنسائي: كتاب الصيام، باب صوم النبي ﷺ، رقم (٢٣٧٢)، عن بعض أزواج النبي ﷺ.

(٥) أخرجه مسلم: كتاب الصيام، باب استحباب صيام ثلاثة أيام وعاشوراء، رقم (١١٦٢)، من حديث أبي قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٦) أخرجه مسلم: كتاب الصيام، باب استحباب صوم ستة أيام من شوال إتباعًا، رقم (١١٦٤)، من حديث أبي قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يُكرَه أن يَصوم الإنسان يومَ جُمُعة مُنفرِدًا، بل إمَّا أن يَصوم يومًا قبلَه أو يومًا بعدَه.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾ مُمسِكون عن مَلاذِّهم وشَهَواتهم، عن الأكل والشُّرْب والجِماع وما يَتبَع ذلك؛ لكن هذه هي الأساسياتُ في المَلاذِّ؛ ولهذا قال الله عَزَّوَجَلَّ في الحَديث القُدسيِّ في الصائِم: «يَدَعُ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ وَشَهوَتَهُ مِنْ أَجْلِي»[1]، والصِّيام يَدخُل في الصبر، ولكنه عِبادةٌ مُستَقِلَّة بنَفْسه، مُتضمِنٌ الصَّبْر.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [عن الحَرام] وهي كلِمةٌ جامِعة، تَشمَل حِفْظ الفَرْج عن الزِّنا، وحِفْظ الفَرْج عن النظَر، وحِفْظ الفَرْج عن العمَل المُحرَّم، الذي هو دُون الزِّنا.

وقد بيَّنَ الله عَزَّوَجَلَّ مَن يُحفَظ عنه الفَرْج أو مَن لا يُحفَظ فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ [المعارج:٢٩-٣١]، فأَعلى شيءٍ يُحفَظ عنه الفَرْج الزِّنا، وهو فِعْل الفاحِشة في قُبُلٍ أو دُبُر، إلَّا أنَّه إذا تَعلَّق بذَكَر سُمِّيَ لوَاطًا واللِّواط أَعظَمُ من الزِّنا، والعِياذُ بالله؛ لأنَّ اللِّواط عُقوبته القَتْل بكل حال، سَواءٌ كان الفاعِل مُحصَنًا أم غير مُحصَن، لكن بشَرْط أن يَكون مُكلَّفًا، أي: بالِغًا عاقِلًا، فإذا تَلوَّط ذكَرٌ بآخَرَ وهُما عاقِلان بالِغان وجَبَ قَتْلُهما، وإن لم يَكونا مُحصَنَيْن.

ولكن كيف يُقتَلان؟

اختَلَفَ في ذلك الصحابةُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ومَن بَعدَهم فقيل: يُرجَمان بالحِجارة كالزاني المُحصَن. وقيل: يُلقَيان من أعلى مَكان في البلَد، ويُتبَعان بالحِجارة. وقيل:

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب فضل الصوم، رقم (١٨٩٤)، ومسلم: كتاب الصيام، باب فضل الصيام، رقم (١١٥١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

يُحرَقان بالنار كما فعَل أبو بَكْر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين كتَب إلى خالِد بنِ الوليدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا قال له: «إنَّ عِندَهُ رَجُلًا يُنكَح كما تُنكَح المَرأةُ. فكَتَب إليه أبو بَكْر أن يُحرِقه مُبالَغةً في عُقوبَتِه»(١).

فائِدةٌ: استِخدام لَفْظ (اللِّواط) ليس فيه إساءة إلى لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهذا شَيءٌ مُتعارَف، فالنِّسبة يَجوز فيها أن تَنسُب إلى المُضاف أو المُضاف إليه، هذا في مُقتَضى اللغة العربية قَوْم لُوط، يَعني: لُوطيٌّ أي: مُنتَسِب إلى هؤلاء القَوْمِ.

إذَنْ: أَوْجَب ما يَكون أن يُحفَظ عنه الفَرْجُ هو الزنا، كذلك النَّظَر يَجِب أن يَحفَظ الإنسان فَرْجَه عن النظَر، حتى الجِنْس مع جِنْسه؛ ولهذا قال النَّبيُّ ﷺ: «لا تَنْظُرِ المَرْأَةُ إِلَى عَوْرَةِ المَرْأَةِ، وَلَا الرَّجُلُ إِلَى عَوْرَةِ الرَّجُلِ»(٢)، فيَجِب حِفْظ العَوْرة عن النظَر إلَّا على الزوجة وما ملَكَت يَمينُه.

كذلك حِفْظ الفَرْج عن الأفعال المُحرَّمة غير الزِّنا واللِّواط والنظَر؛ كالاستِمْناء مثَلًا، وهو ما يُعرَف عند الناس بالعادة السِّرِّية، ويَكون في الرِّجال ويَكون في الإناث أيضًا، حتى بعض الإناث يَستَعمِلن ذلك! وهذه أيضًا مُحَرَّمة لا تَحِلُّ، وذلك لأنه ليس فيها حِفْظ للفَرْج، فإنَّ الإنسان الذي يَبتَغِي نَيْلَ شَهْوته بغير امرأته وما مَلَكَتْ يَمينُه يَدخُل في قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾، فهو حَرام بالقُرآن وبالسُّنَّة أيضًا.

والسُّنَّة ذكَرْنا أن من أدِلَّتها قولَ الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الملاهي رقم (١٤٠)، والخرائطي في مساوئ الأخلاق رقم (٤٢٨)، والآجري في ذم اللواط رقم (٢٩)، والبيهقي في السنن الكبرى (٨/ ٢٣٢).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الحيض، باب تحريم النظر إلى العورات، رقم (٣٣٨)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ، فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ»[(١)]، وَجهُ الدَّلالة من الحديث: أن الرسولَ ﷺ أَرشَد إلى الصوم، وهو أَشَقُّ من هـذه الفِعْلَةِ، ولو كانت هذه الفِعْلَةُ جائزة لأَرشَد إليها الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لأنها أَسهَلُ وأيسَرُ، وقـد قالت عائِشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «ما خُيِّرَ النَّبيُّ ﷺ بَيْنَ أَمـرَيْن إلَّا اختـار أَيسَرَهُما ما لَمْ يَكُنْ إِثْمًا»[(٢)]، فلمَّا لم يختَرْ هـذا الأيسَرَ عُلِمَ أنه إِثْمٌ محُرَّم.

مَسأَلةٌ: إذا استَمْنَى رجُل في رَمضانَ فهل عليه كفَّارة؟

الجَوابُ: لا، ليس عليه كفَّارة، الكفَّارة لا تكون إلَّا بالجِماع فقَطْ.

مَسأَلة أُخرَى: أَحـادِيثُ وَطْء المَرأة في الدُّبُـر كلها فيها مَقـال[(٣)]، لكن يَشُدُّ بعضُها بعضًا، وتَدُلُّ على التحريم، وقد تَقدَّم في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى﴾ [البقرة:٢٢٢] أنَّ من فَوائِدِها: تَحريمَ وَطْء الدُّبُر، أمَّا الإِثْم فنعَمْ، فهي اللُّوطِيةُ الصُّغْرى.

فائِدةٌ: تَحريم الوَطْء على مَن تَلبَّس بنُسُـك أو تَلبَّس بصوم أو تَلبَّس بصـلاة مَفروضة، ليس هو من أَجْل حِفْظ الفَرْج، لكن من أَجْل احتِرام هذه العِبادةِ.

قوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ ختَمَ الآيَةَ الكريمةَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب من لم يستطع الباءة فليصم، رقم (٥٠٦٦)، ومسلم: كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنه، رقم (١٤٠٠)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب صفة النبي - ﷺ -، رقم (٣٥٦٠)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب مباعدته - ﷺ - للآثام، رقم (٢٣٢٧)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٣) من ذلك ما أخرجه الإمام أحمد (٢/ ٤٤٤)، وأبو داود: كتاب النكاح، باب في جامع النكاح، رقم (٢١٦٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ملعون من أتى امرأته في دبرها». وانظر: بلوغ المرام (ص:٣٠٩).

بهذا الوَصْفِ العَظيمِ، وهو ذِكْر الله عَزَّوَجَلَّ، وهو شامِل لكل عِبادة، فكلُّ عِبادة فهي ذِكْر لله عَزَّوَجَلَّ، حتى دِراسة العِلْم هي مِن ذِكْر الله؛ ولهذا تُسمَّى حِلَقُ العِلْم حِلَقَ الذِّكْر، أو مَجالِسَ الذِّكْر، فكلُّ ما يُقرِّب إلى الله تعالى كلُّ عِبادة فهي من ذِكْر الله تعالى.

وذِكْر الله عَزَّوَجَلَّ يكون بالقَلْب، ويَكون باللِّسان، ويَكون بالجَوارِح، فبالقَلْب التَّفكُّر، وباللِّسان النُّطْق، وبالجَوارِح الفِعْل والعمَل، أيُّها أفضَلُ: ذِكْر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى باللِّسان، أو ذِكْر الله تعالى بالقَلْب أو ذِكْر الله تعالى بالجَوارِح؟

لا شَكَّ أن الجَمْع أَفضَلُ وهذا مَعلوم، فالقَلْب وحدَه لا يَكفِي، واللِّسان وحدَه لا يَكفِي، والجَوارِحُ وحدَها لا تَكفِي، يَعنِي: لو أن الإنسان قال: سأتفكَّر في آيات الله عَزَّوَجَلَّ وفي أَسمائِه وصِفاته ولكن ليس بذاكِر، هل يَكون مُسلِمًا؟ لا بُدَّ أن يَقول مَن قالَ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ. وكذلك أيضًا بالنسبة للجوارِحِ.

لكن لا شَكَّ أن اختِلال الذِّكْر بالقَلْب له أثَر عَظيم جِدًّا؛ لأن المَدار على القَلْب، ولا شَكَّ أيضًا أن تَأثيرَ ذِكْر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالقَلْب أَبلَغُ في تقوية الإيمان، وفي التَّقرُّب إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من الذِّكْر بالجَوارِح؛ لأن المَدار كُلَّه على ما في القَلْب، لا بالنِّسبة للأعمال وقوام الأعمال ولا بالنِّسبة للجَزاء كما قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق:٩-١٠].

وذِكْر الله عَزَّوَجَلَّ يَكون مُطلقًا في كل وَقْت، ويَكون مُقيَّدًا بأَحوال، ويَكون مُقيَّدًا بأَماكِنَ، ويَكون مُقيَّدًا بأزمان، فهو إِذَن أربعةُ أنواع:

١- أمَّا المُطلَق فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران:١٩٠-١٩١]، هذا في كلِّ وَقْت، في كل حالٍ، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب:٤١-٤٢]، وكما في هذه الآية: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾.

٢- المُقيَّد بزمَن؛ مثل: أَدبار الصلوات، وكذلك الذِّكْر في أوَّل النَّهار وفي آخِره، ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ [ق:٣٩].

٣- المُقيَّد بأَمكِنة، كدُخول المَسجِد، ودُخول المَنزِل والخُروج منه، ورَمي الجمَراتِ، ورُكوب السيَّارات.

٤- أمَّا المُقيَّد بحال من الأحوال فهو أيضًا كثيرٌ: عند الهَمِّ والحُزْن، وعند الأكل والشُّرْب، وعند الاستِسْقاء، وما أَشبَه ذلك.

وعلى كل حال: الذِّكْر إمَّا مُطلَق وإمَّا مُقيَّد، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى شرَع لعِباده ذلك لأَجْل أن يَكونوا دائِمًا على ذِكْر الله عَزَّوَجَلَّ حتى عند لُبْس الثَّوْب، وعند الأَكْل والشُّرْب، والفَراغ مِنهما.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾: ﴿أَعَدَّ﴾ فِعلٌ ماضٍ، ولَفظُ الجَلالة فاعِل، والجُملة من الفِعْل والفاعِل خبَرُ (إنَّ) واسمُ (إنَّ) ﴿ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، وما عُطِف عليه، وقوله تعالى: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم﴾ أي: لهؤلاء، والمِيمُ علامة جَمْع الذُّكور، وفيه دَلالة واضِحة على تَفضيل الرِّجال على النِّساء، لم يَقُلِ الله عَزَّوَجَلَّ: أَعَدَّ الله لهُمْ ولهُنَّ. ولم يَقُلْ: أَعَدَّ اللهُ لهُنَّ. وإنما قال تعالى: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَعَدَّ﴾ بمَعنَى: هيَّأَ لهُمْ.

وقوله تعالى: ﴿مَّغْفِرَةً﴾ المَغفِرة مَأخوذة من الغَفْر وهو السَّتْر أو السَّتْر مع الوِقاية؛ لأن أصلَها من المِغْفَر الذي يُوضَع على الرأس؛ لاتِّقاءِ السِّهام، والمِغفَر

الذي يُوضَع على الرأس؛ لاتِّقاء السِّهام يَحصُل به السَّتْر والوِقاية.

إِذَنِ: المَغفِرة نَقول: هي سَتْر الذُّنوب، والتَّجاوُز عنـها، ليست سَتْرَ الذُّنوب فقَطْ، بل هي سَتْر مع التَّجاوُز، سَتْر عن الخَلْق، وتَجاوُز عن العُقوبة؛ ولهذا جاء في الحديث الصحيح: «أَنَّ اللهَ يَخْلُو بِعَبْدِهِ المُؤْمِنِ يُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُ: قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ»[1].

إِذَنْ: بإِعداد المَغفِرة يَسلَمون من الآثام وأَوْزارِها وعَواقِبها.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ أَيْ: ثوابًا ذا عظَمة في نَفْسه، هذا الأجرُ العظيمُ هو دُخول الجَنَّة، وهو أَجْر لا يُمكِن أن يُحيط به البَشَر؛ لأَنَّ الله تعالى يَقول في الحديث القُدسيِّ: «أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»[2]، وفي القُرآن الكريم يَقـول الله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة:١٧]، ويَقـول تعـالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق:٣٥].

هذا الأَجرُ العَظيم الذي لا يُقدِّر قَدْره إِلَّا الله عَزَّوَجَلَّ، يَكون لِهؤلاء المُتَّصِفين بهذه الصِّفاتِ، وإذا كان الله تعالى قد بيَّن القائِمين بهذه الصِّفاتِ، وبيَّن ما أَعَدَّ لهم من الأَجرِ والثَّواب فهل المُراد بذلك مُجرَّدُ إعلام الناس بهذا أو أن المُراد شيءٌ وراءَ ذلك؟

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب قول الله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، رقم (٢٤٤١)، ومسلم: كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل، رقم (٢٧٦٨)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة، رقم (٣٢٤٤)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها، رقم (٢٨٢٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الجَوابُ: المُراد شيءٌ وراءَ ذلك، وهو أن يَقوم الناس بهذه الصِّفاتِ العَظيمةِ حتَّى يَنالوا ذلك الأجرَ العَظيمَ والمَغفِرةَ.

وقوله تعـالى: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةً وَأَجۡرًا عَظِيمًا ﴾، كلِمة (مَغـفِرة) نكِرة، فهل نَقول: إنها نُكِّرت للتَّعظيم، بدليل العَطْف عليها ﴿وَأَجۡرًا عَظِيمًا ﴾ أو ماذا؟

الجَوابُ: الظاهِر: أنها نُكِّرت للتَّعـظيم، أي: مَغفِرة عَظيمة، كما أن لهم أَجْرًا عظيمًا يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿مَّغۡفِرَةً﴾ للمَعاصِي ﴿وَأَجۡرًا عَظِيمًا ﴾ على الطاعاتِ] وهذا جَيِّـد؛ فالمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ جعَل المَغفِرة في مُقابِل المَعاصِي، والأَجْر في مُقابِل الطاعات.

ولكن هل لتَرْك المَعاصِي أَجْر؟

الجَوابُ: إن قُلْـت: لا. أَخطَـأْت، وإن قُلْتم: نعَـمْ. أَخطَأْت، ونَقـول: تارِكُ المَعاصِي له ثلاثُ حالات:

إمَّا أن يَترُكها عَجْزًا عنها مع فِعْل الأسباب المُوصِّلة إليها.

وإمَّا أن يَترُكها؛ لأنها لم تَطرَأ له على بالِه.

وإمَّا أن يَترُكها مع كونها على باله، لكن تَركها لله عَزَّوَجَلَّ.

أمَّا الحالُ الأُولى: الذي تَرَك المَعصية عَجْزًا عنها مع فِعْل الأسباب المُوصِّلة إليها، فهـذا له حُكْم الفاعِل، مثـال ذلك: رجُـل أَتى بالسُّلَّم؛ ليَصعَد إلى البيت فيَسرِق، وحين أَراد أن يَصعَد سمِعَ صوتًا، ونظَر وإذا حولَه أُناس، فتَرَك، له حُكْم الفاعِل لكن عِند الله تعالى، أمَّا في الدُّنيا فلا نَقطَع يَدَه، لكن عند الله تعالى له حُكْم الفاعِل، والدليل قوله ﷺ: «إِذَا الْتَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ»،

قالوا: يا رسولَ اللهِ، هذا القاتِلُ فما بالُ المَقتولِ؟ يَعنِي: كيف يَكون مَقتولًا ويَصير في النـار، قال ﷺ: «**لِأَنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ**»[1]: «حَرِيصًا» فهذا فِعْل له سبَب، فحَكَم عليه الرسول ﷺ بالنار؛ لأنه كان حَرِيصًا على قَتْل صاحِبه.

الحال الثانية: مَن تَركها؛ لأنها لم تَطرَأ له على بالٍ، مثل: إنسـان مثلًا لا سرَق ولا زنَى ولا شرِبَ الخَمْر؛ لأن نفسَه ما دَعَتْه إلى ذلك يومًا من الأيام، فما الحُكْمُ؟

الجَوابُ: هذا ليس له شيء وليس عليه شيء؛ لأنه ما فعَل إِثْمًا، ولا تَقرَّب إلى الله تعالى بِنِيَّة، فلا يَكون له شيء، ولا عليه شيء.

الحالُ الثالِثة: رجُل هَـمَّ بمَعصية، وربما فعَـل أسبابَها، ولكنه ترَكَها لله عَزَّوَجَلَّ عِندما تَذكَّر عظَمة الله تعـالى، خَشِيَ الله عَزَّوَجَلَّ وخافَه، فهذا حُكْمه أن له أجرًا على التَّرْك، كما جـاء في الحديث الصحيـح: «**مَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ تَعَالَى حَسَنَـةً كَامِلَةً**»[2]، قـال: «**لِأَنَّهُ إِنَّمَا تَرَكَ ذَلِكَ مِنْ جَرَّائِي**»[3]، أي: من أَجْلي، فـإذا ترَكْتها لله تعالى فإنه فإنَّك تُؤجَر على ذلك.

ولو أنَّ الإنسان همَّ بالمَعْصية وفعَل الأسبابَ، لكن ترَكها لا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ولا لِعِباد الله تعالى، هل يَأثَم أو ما يَأثَم؟

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾، رقم (٣١)، ومسلم: كتاب الفتن، باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما، رقم (٢٨٨٨)، من حديث أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب من هم بحسنة أو بسيئة، رقم (٦٤٩١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب إذا هم العبد بحسنة كتبت، وإذا هم بسيئة لم تكتب، رقم (١٣١)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه ابن منده في الإيمان رقم (٣٧٦)، والبيهقي في شعب الإيمان رقم (٦٦٤٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يعني: واحِد هَمَّ بالسرِقة وأتى بالسُّلَّم، ولَمَّا أراد أن يَصعَد رجَع لنَفْسه، وقال: لماذا تَسرِق ما دام أن الله أَرْضاك، فعِندك مالٌ، ولسْتَ في حاجة إلى السرِقة. فتَرَكها؛ ونَقول: هو ليس عليه إِثْم السرِقة، ولا له أَجْر، لكن هل يَأثَم على فِعْل السبَب؟

الجَوابُ: يَأثَم على فِعْل السبَب هو الظاهِر، وإن كان أن الغاية لم يَصِل إليها، لكن نَقول: هذا السببُ الذي فعَلْت؛ وقد قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧-٨].

فهو لم يَرجِع؛ لأن الأسباب الأُولى ما تَرَكها لله تعالى، إنها تَرَكها؛ لأنه نظَرَ أنه ليس بحاجة للسَّرِقة فتَرَكها.

ونَقول: أمَّا السَّرِقة فلا تَأثَم -وإن كُنْت قد نَوَيْتها في الأَوَّل- لأنك ما فعَلْتها، وأمَّا فِعْل الأسباب، فإن هذه الأَسْباب مُحرَّمة.

وهذا رجُل ترَك المَعصية لشَرَفه، يَعني: تَرَك الزِّنا مع تَيسُّره؛ لأنه رجُل شَريف، لا يُحِبُّ أن يَتلَوَّث بهذه الأخلاقِ السافِلةِ، فهل يُؤجَر أو لا يُؤجَر؟

الجَوابُ: أمَّا على تَرْك الزِّنا فالظاهِر: أنه لا يُؤجَر؛ لأنه ما ترَكَه لله تعالى، وأمَّا على حِماية شرَفه فإنه يُؤجَر؛ لأن الإنسان يَنبَغي له أن يُدافِع عن شرَفه، حتى إن النبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمَّا قال: «هَذِهِ صَفِيَّةُ»، وهذا ليس لدَفْع التُّهْمة عن نَفْسه؛ لأن هذا شيء بعيد، لكن لِئَلَّا تَقَع التُّهْمة في أُولئِكَ فيَهلِكوا؛ ولهذا قال ﷺ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنِ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَرًّا»(١).

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاعتكاف، باب زيارة المرأة زوجها في اعتكافه، رقم (٢٠٣٨)، ومسلم: كتاب السلام، باب يستحب لمن رئي خاليا بامرأة..، رقم (٢١٧٥)، من حديث صفية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

فالظاهِرُ لي: أنَّ الإنسـان الذي يَترُك الشيء مُحـافَظةً على شرَفه وعلى سُمْعتِه فإنه يُؤجَر على ذلك؛ لأنه صان نَفْسه، وفي الحَديث: «رَحِمَ اللهُ امْرَأً كَفَّ الْغِيبَةَ عَنْ نَفْسِهِ»(١)، ولا أدرِي عن صِحَّته.

لكن الإنسان مَأمور بحِماية شرَفه بلا شَكٍّ، والذَّودِ عن نَفْسه، وإزالة التُّهْمة عنها، فإذا كانت هذه نِيَّته، فإنه يُؤجَر، لكن لا يُؤجَر أجرَ مَن ترَكَ الزِّنا لله تعالى؛ لأن بينهما فَرْقًا عظيمًا.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: التفصيلُ في ذِكْر الرِّجال والنِّساء؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ ...﴾ وهذا وإن كان مَوْجودًا في القُرآن لكنه قَليل.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الإسلام غيرُ الإيمان؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، والعَطْف يَقتَضي المُغايَرة، وقدِ اختَلَف الناس: هل الإسلام هو الإيمانُ؟ أو هلِ الإسلامُ هو الإيمانُ أو غيرُه؟ والصوابُ في ذلك التَّفصيلُ، فإذا أُطلِق الإسلامُ دخَل فيه الإيمانُ، وإذا أُطلِق الإيمانُ دخَل فيه الإسلامُ، و(أُطلِق) يَعنِي: ذُكِرَ مُفرَدًا، فقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران:١٩] يَدخُل فيه الإيمانُ لا شَكَّ.

وأمَّا إذا ذُكِرَا جميعًا فإنهما يَختَلِفان؛ ولهذا سَأَل جِبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ النبيَّ ﷺ عن الإسلامِ، فذَكَر له أشياءَ، وسأَله عن الإيمانِ فذكَر له أَشياءَ تُخالِف الأُولى(٢)؛ فإذا ذُكِرَا جميعًا صار الإيمانُ في القَلْب والإسلام عَلانية في الجَوارح.

---

(١) لا أصل له، وانظر: كشف الخفاء للعجلوني رقم (١٣٦٧).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام، رقم (٨)، من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأيُّهما أَكمَلُ؟ الإيمان أكمَلُ؛ لقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحُجُرات:١٤]، هذا من القُرآن.

ومِن السُّنَّة: أن رجُلًا أثنَى عند النبيِّ ﷺ على رجُل فقال: إنه مُؤمِنٌ. فقال النبيُّ ﷺ: «أَوْ مُسْلِمٌ»[(١)]، فدَلَّ ذلك على أن الإسلام أَضعَفُ من الإيمان؛ لأنَّ الرجُلَ كان يُثنِي عليه يَمدَحه، فقال: إنه مُؤمِن فقال ﷺ: «أَوْ مُسلِمٌ» يُكرِّرها.

وعلى هذا فنَقول: إن الإيمان أَعلى من الإسلام، وهو مُغايِر له إذا ذُكِرَا جميعًا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: فضيلة الإسلام والإيمان، وكلُّ ما ذُكِر بعد ذلك.

فإن قال قائِل: إن الفَضْل جاء لَمِنِ اتَّصفوا بهذه الصِّفاتِ كلِّها؟

قُلْنا: لكن لـمَّا جاء هذا الفَضلُ لها مجموعًا دلَّ على أن كلَّ واحِد منها له فَضْل، وإلَّا لما كان لذِكْرها جميعًا فائِدة.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: فضيلة القُنوت؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ﴾.

الْفَائِدَةُ الْخَامِسَةُ: فَضيلة الصِّدْق؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾، وإذا كان الصِّدْق فَضيلةً كان ضِدُّه وهو الكَذِبُ رَذيلةً، وهو كذلك فإن الرسول ﷺ قال: «**إِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ، فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا**»[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب إذا لم يكن الإسلام على الحقيقة، رقم (٢٧)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب تألف قلب من يخاف على إيمانه لضعفه، رقم (١٥٠)، من حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، رقم (٦٠٩٤)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله، رقم (٢٦٠٧)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فإن قُلْت: أفلا يَجوز الكَذِب الأبيضُ؟

فالجَوابُ: ليس في الكذِب أَبيضُ، كلُّ الكذِب أَسوَدُ، وعند العوامِّ: الكذِبُ الأبيضُ هو الذي لا يَستَلزِم أَكْل المال، اكْذِبْ كما شِئْتَ، لكن لا تَأكُلْ أَموال الناس بالكذِب، ولكنَّ هذا خِلافُ تَحذير النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حين قال: «إِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ، فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ».

وهل رُخِّص في شيء من الكَذِب؟

الجَوابُ: في الإصلاح بين الناس والحَرْب وحديث الرجُلِ مع امرأته والمَرأةِ مع زَوْجها[(١)].

لكن بعضَ أهلِ العِلْم يَقول: لم يُرخَّص في شيء من الكذِب إطلاقًا، وقال: إنَّ المُراد بالكذِب في هذا الحديثِ التَّوْرِيَةُ، فالتَّوْرِيَةُ كما هو مَعلوم كذِب من وجهٍ، وصِدْق من وَجْهٍ آخَرَ، فهي باعتِبار نِيَّة الفاعِل القائِل صِدْق، وباعتِبار ما فهِمَه المُخاطَب كذِب، فيَقولون: إنَّ عُموماتِ الحديث تَدُلُّ على الكذِب، ويُجمَع بينه وبين الحَديث الذي فيه الاستِثْناء بأن هذا من باب التَّوْرية، وقالوا: إنَّ الإصلاح بين الناس إذا بُنِيَ على الكذِب فقد تكون النَّتيجةُ فيما بعد عَكسيةً، إذا علِم المُتصالِحان فيما بعدُ أنَّ الأمرَ ليس على ما ذُكِر، فيُمكِن أن يَزيدَ الشِّقُّ، ويَنتَقِض

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب تحريم الكذب وبيان ما يباح منه، رقم (٢٦٠٥)، عن ابن شهاب الزهري قال: ولم أسمع يرخص في شيء مما يقول الناس كذب إلا في ثلاث: الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل امرأته وحديث المرأة زوجها.

وأخرج البخاري: كتاب الصلح، باب ليس الكاذب الذي يصلح بين الناس، رقم (٢٦٩٢)، ومسلم: رقم (٢٦٠٥)، من حديث أم كلثوم بنت عقبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس، فينمي خيرًا، أو يقول خيرًا».

الصُّلْحُ، وقالوا أيضًا: إن الكذِب في الحَرْب رُبَّما يُنتِج نَتيجةً سيِّئةً، حيث يَتبيَّن للعَدوِّ أنَّ الأمر ليس على ما قيل، مثل أن يُقال له: إن عندنا جَمْعًا كثيرًا، وما أَشبَهَ ذلك، بدون تَوْرية، فهذا خطَأ.

قالوا: وأيضًا حديثُ المَرأة، حديثُ الرجُل زوجتَه، وحديثُ المرأة زوجَها، هذا أيضًا لو أَجزْنا الكذِبَ صارت مَشاكِلُ عظيمةٌ، فيَجيءُ الرَّجُل يَقول: أنا عِنْدي مِليون ريالٍ، وعِندي مِئة سيَّارةٍ، وعِندي ثَلاثون بيتًا، وما أَشبَه ذلك، وما عنده إلَّا ثِيابُه، فتَقول المرأة: أنت كذَّاب، ولا تَصلُح زوجًا لي. وكذلك بالعكسِ فالمَرأةُ تُحدِّث زَوْجها يَقول: لِمَ تَذهَبين إلى السُّوق؟ فتَقول: أبدًا، ما عُمْري طَلَعْت للسُّوق، ولا أَعرِف السُّوق، ولا أَعرِف الرِّجال! فإذا الأَمْر بالعكسِ، ففيه خُطورة؛ ولهذا قال بعضُ أهلِ العِلْم رَحِمَهُمُ اللَّهُ: إن المُراد بذلك التَّورِية، والتَّوريةُ لا تَجوز إلَّا في حالين وهُما: الحاجةُ أو المَصلَحة.

فظاهِرُ الحديث الاستِثْناءُ: إن هذا من الكذِب الصَّريح، وأنه لا بأسَ به، ولكن حتى على القَوْل بأن الاستِثْناء يَعود على الكذِب الصَّريح دون التَّوْرِيةِ، يَجِب أن يُقال: هذا من المُباحِ، والمُباح إذا تَضمَّن ضرَرًا كان حرامًا؛ لأن القاعِدة عِندنا: كلُّ المُباحات يُمكِن أن تَجرِيَ فيها الأحكام الخَمسةُ، كلُّ ما كان مُباحًا فإنه يُمكِن أن تَجرِيَ فيها الأحكامُ الخمسةُ؛ ولهذا ذهَب بعض الأصولِيِّين إلى أنه ليس في الشريعة شيءٌ اسمُه مُباحٌ، يَعنِي: مُستَوِي الطَّرفَيْن، بل لا بُدَّ من تَرجيح، لكن جُمهور العُلَماء على أن المُباح ثابِت في الشَّريعة.

الحاصِلُ: أنه إذا كان الحديث صَريحًا في جواز الكذِب في هذه الأُمورِ الثَّلاثةِ فيَجِب أن يُقيَّد بما إذا لم يَتضَمَّن ضرَرًا، فإن تَضمَّن ضرَرًا مُنِع منه.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: فضيلة الصَّبْر؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾ وقد سبَق لنا بيانُ أقسام الصَّبْر.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: فضيلة الخُشوع في العِبادات؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ﴾، ولا سِيَّما في الصلاة التي نَصَّ الله تعالى على الخُشوع فيها، فقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون:١-٢].

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: فضيلة الصدَقة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ﴾، وهو شامِل للواجِب والمُستَحَبِّ، والواجِب أَفضَلُ بالنصِّ والنظَر -أي: بدَلالة الأثَر والنظَر-؛ أمَّا الأثَر فقَدْ قال الله عَزَّوَجَلَّ في الحديث القُدسيِّ: «مَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ»[1]، وهذا صريح، وأمَّا النظَر فنقول: لولا أن الواجِب أحَبُّ إلى الله تعالى ما فرَضه الله تعالى على العِباد، لجَعَله تَطوُّعًا، لك الخِيارُ فيه، فإيجاب الله تعالى له دليلٌ على محَبَّته له.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: فضيلة الصَّوْم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾ فَرْضه ونَفْله، وأفضَلُ النَّفْل في الصوم صومُ يَوْمٍ وفِطْر يَوْمٍ، وهو صِيام داوُدَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ[2].

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: فضيلة حِفْظ الفَرْج؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾، ويُستَثْنَى من ذلك حِفْظ الفَرْج عن الزوجة، وما ملَكَتِ اليَمينُ،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب التواضع، رقم (٦٥٠٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجمعة، باب من نام عند السحر، رقم (١١٣١)، ومسلم: كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به، رقم (١١٥٩)، من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

فإن الإنسان لا يُلام عليه.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أنه يَنبَغي اتِّخاذُ الوسائِل التي يَنبَغي بها حِفْظ الفَرْج؛ لأن الثَّناء على شيء ثَناء عليه وعلى وَسائِله، فكلُّ ما يَحصُل به حِفْظ الفَرْج فإنه مَطلوب ومَشروع؛ ولهذا حرُم النَّظَر إلى الأجنبِيَّة، وحرُم التَّلذُّذ بمُخاطَبتها، والاستِماع إلى صَوْتها، وحرُم أيضًا مُصافَحة المَرأة الأَجنَبِيَّة، وحرُمَت الخَلْوةُ بها، وحرُم سَفَرُها بلا مَحرَم، وما أَشبَه ذلك، ممَّا يَكون سببًا في حِفْظ الفُروج، فإذا كان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَثنَى على الحافِظين فُروجَهم فإن الوسائِلَ التي تُؤدِّي إلى حِفْظ الفَرْج من الأُمور المَطلوبة.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: فضيلة كثرة ذِكْر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ وجَدير بالمَرْء أن يَكون دائِمًا ذاكِرًا لربه عَزَّوَجَلَّ؛ لأنه ما من نِعْمة هو فيها إلَّا وهي من الله تعالى، فإذا كان الله تعالى قَدْ أَدام عليك النِّعَم وأكثَرَ عليك النِّعَم، فلماذا لا تُديم ذِكْره؟! حقيقةُ الأمر أنَّ الإنسان لو فكَّر لوجَد أنه لو يَستَوْعِب ليلَه ونَهارَه في ذِكْر الله تعالى ما كَفَى؛ ولهذا قال النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «سُبْحَانَكَ لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»(١)، فالإنسان لا يُمكِن أن يُحصِيَ الثَّناءَ على الله تعالى أبَدًا مَهما كانَ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعَدَّ لهؤلاء المُتَّصِفين بهذه الصِّفاتِ المَغفِرةَ من الذُّنوب والأَجرَ العظيمَ على الطاعات؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾، والأوصافُ التي ذُكِرت عَشَرة: (المُسلِمين، والمُؤمِنين،

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم (٤٨٦)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

والقانِتين، والصادِقين، والصابِرين، والخاشِعين، والمُتصدِّقين، والصائِمين، والحافِظين فُروجَهم، والذاكِرين اللهَ كثيرًا) مع المَعطوف عليها تكون عِشرين، هذه العِشرون كفَى عنها ضميرٌ واحِد، وهو قوله تعالى: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم﴾ لو جاء يُعدِّد هؤلاء كان يَقول: (أعَدَّ الله للمُسلِمين والمُسلِمات والمُؤمِنين والمُؤمِنات)، ولكن هذا من فوائِد الضمائِر، وهو أنها تَختَصِر الكلام الكثير بضَمير واحِد.

فائِدةٌ: لا شَكَّ أن هناك تَفاضُلًا، فكُلٌّ يُعطَى بحَسَبه، يَعنِي: إذا أَعَدَّ الله تعالى للجَميع فمثَلًا: للذين يَتَّصِفون بهذه الصِّفاتِ العشَرةِ كلِّها أَكمَلُ ممَّن يَتَّصِفون ببَعْضها.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: تَفضيل الرِّجال على النِّساء؛ لأنه قدَّم في الذِّكْر الرِّجال، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: أنَّ التَّغليب في جانِب المُذكَّر؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُم﴾ ولم يَقُل: (لهُم ولهُنَّ).

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: أنه يَنبَغي عند ذِكْر الرِّجال والنِّساء أن يُقدَّم الرِّجال، كما في هذه الآيةِ وغيرِها من الآيات، وأمَّا مَن تَغرَّبوا فصاروا يُقدِّمون النِّساء على الرِّجال، فأُولئك يُولِّهُمُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ما تَولَّوْا من مُشابَهة الكُفَّار، وقَلْب الفِطْرة، وانتِكاس الحال، أن يُقدِّموا النِّساء على الرِّجال، عندما يَقول مثَلًا: (سَيِّداتِه وساداتِه) سَيِّداته! يُقدِّم النِّساء على الرِّجال، بل الأَعجَب من ذلك أنَّهم يُسمُّون النِّساء سَيِّدات، السيِّدة فُلانة، والرَّجُل لا يُقال له: السيِّد فُلان. أَخَذوا ذلك من الغَرْب والكُفَّار؛ لأنَّ الرجُلَ في الحقيقة هو السيِّد على المرأة، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ [يوسف:٢٥]، أمَّا المَرأةُ فليست سيِّدةً على الرَّجُل أبدًا، لكن هؤلاء

كما قُلتُ: قلَبَ اللهُ تعالى فِطْرتهم بسبب أنهم تابَعوا أعداءَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وكثير من المُسلِمين -مع الأَسَف- الآنَ لا يُحِسُّون بهذه المَسائِلِ، ولا يَرَوْنها شيئًا، فهُمْ ماشُون مع العالَم حتى الأَلفاظ التي قد تَكون مُحرَّمة يَمشون فيها!.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةَ عَشْرَةَ: أن جَزاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعظَمُ من عمَل المَرء؛ لأنَّ هذه الأعمالَ التي ذكَرها الله عَزَّوَجَلَّ جعَل الثَّواب عليها أَمْرَيْن: مَغفِرة الذُّنوب، والأَجْر العَظيم؛ وهذا الأَجرُ العَظيمُ المُبهَمُ هنا قد بُيِّن في نُصوص من الكِتاب والسُّنَّة: الحسَنة بعَشْر أَمثالها، إلى سَبْع مِئة ضِعْف، إلى أضعاف كثيرة[1]، وهذا مِمَّا يَدُلُّ على فَضْل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ومن العجَب: أنَّ فضلَ الله تعالى عليك بالثَّواب كفَضْله عليك بالعمَل، فإنَّ فَضْل الله على الإنسان بالعمَل فَضْل لا يَعدِله شيء؛ ولهذا جعَل الله تعالى ذلك من إتمام النِّعْمة، فقال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ [المائدة:٣]، وجعَل ذلك من مِنَّتِه حيث قال تعالى: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا﴾ [آل عمران:١٦٤]، وقال تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ﴾ [الحُجُرات:١٧]، وانظُرِ الآنَ إلى أن الله تعالى هو الذي مَنَّ عليك بالعمَل، ثُمَّ مَنَّ عليك بالثواب، ثُم قال تعالى: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ [الرحمن:٦٠]، مع أنه هو الذي أَحسَنَ إليك، وإحسان الله تعالى عليك بالعمَل مَسبوق بإِحْسانه عليك بشَيءٍ آخَرَ وهو الهِداية والعِلْم؛

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب من هم بحسنة أو بسيئة، رقم (٦٤٩١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب إذا هم العبد بحسنة كتبت، وإذا هم بسيئة لم تكتب، رقم (١٣١)، من حديث ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

لأنه لا عمَلَ إلَّا بعِلْم، فيَكون عمَل الإنسان مَسبوقًا بنِعْمة الله تعالى عليه بالعِلْم، ثُمَّ بنِعْمة الله تعالى عليه بالتَّوْفيق، ومَلحوق بنِعْمة الله تعالى عليه بالقَبول والجَزاء، فتَأمَّل مثل هذه الأُمورِ حتى يَتَّضِح لك فَضْلُ الله تعالى عليك.

مَسألة: هل يَلزَم شَرْط مُطلَق الإيمان للدُّخول للجَنَّة؟

الجَوابُ: مُطلَق الإيمان يَستَوْجِب أن يَكون في الجَنَّة ولو مآلًا، يَعنِي: قد يُعذَّب بذُنوبه لكن قد يَدخُل الجَنَّة، فكلُّ مَن في قَلْبه أدنى مِثقال حَبَّة من خَرْدَل من إيمان فإنه من أهل الجَنَّة.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ: أنَّ الجَنَّة مَوجودة الآنَ؛ لقوله تعالى: ﴿أَعَدَّ﴾؛ لأنَّ الإعداد بمَعنَى التَّهيِئة، وأَعَدَّ: فِعْل ماضٍ، فيَكون لازِمُ ذلك: أن تَكون الجَنَّة مَوْجودة، وهذا أَمْر مَعلوم عند أهل السُّنَّة والجَماعة، ومَدعوم بنُصوص الكِتاب والسُّنَّة، أنَّ الجَنَّة والنار مَوْجودتان الآنَ.

• • ۞ • •

الآيــة (٣٦)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب:٣٦].

(ما) هذه نافِيــة، و﴿كَانَ﴾ فِعْـل ماضٍ ناقِصٌ، وخبَـرُها: ﴿لِمُؤْمِنٍ﴾ الجـارُّ والمَجرور، و﴿أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾، هذا هو اسمُها مُؤَخَّرًا.

يَقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾، يَعنِي: هذا أَمْـر لا يُمكِــن أن يَكــون، فهو نَفيٌ للإمْكان، ولكنه للإِمْكان الشَّــرعيِّ دون القدَريِّ، إِذْ إِنَّ المُؤمِــن أو المُؤمِنة قد يَكون لهُمُ الخِيَرة من أَمْرهم فيمــا قَضاه الله تعالى ورسوله ﷺ، ولكن شَرْعًا لا يَكون هذا.

يَقول تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [«أن تَكون» بالتاء والياء ﴿لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾؛ أيِ: الاختِيارُ ﴿مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ خِلافَ أَمْرِ اللهِ ورسولِه].

وقوله تعالى: ﴿لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ -وكمـا سَبَق- فيه ذِكْر الذُّكور والإناث، ﴿لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا﴾، المُراد بالقَضاء هنا: القَضاء الشَّرعيُّ، إذ إنَّ القَضاء الكونيَّ لا يُمكِن لأَحَد أن يَختار خِلافَه، لا مُؤمِن،

ولا كافِر، لأنَّ القَضاء الكونيَّ لا بُدَّ أن يَقَع، فالمُراد هنا ﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ﴾، أي: قَضاءً شَرْعيًّا.

وقوله تعالى: ﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ عَطَف رسولَه بالواو؛ لأنَّ قضاء الرسول ﷺ الشرعيَّ من قضاء الله تعالى، وقوله تعالى: ﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ أَمْرًا﴾: ﴿أَمْرًا﴾ هنا واحِد الأمور؛ يَعنِي: إذا قضَى شأنًا سَواءٌ كان ذلك الشأن أمرًا أو نَهيًا، ﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ أَمْرًا﴾ «أن تَكون لهم الخِيَرةُ» و﴿أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾، أمَّا على قِراءة التاء، فالأمر فيها ظاهِر؛ لأن اسمَها مُؤنَّث، فأُنِّثَ الفِعْل من أجلها «أن تَكون»، وأمَّا عن قِراءة الياء، فإنَّ الفِعْل يَكون مُذكَّرًا مع أنَّ الاسم مُؤنَّث، ولكن هنا لا يَجِب التأنيثُ لوَجْهَيْن:

الوجهُ الأوَّل: الفَصلُ بين الفِعْل وفاعِله، وهنا بين الفِعْل واسمِه.

والثاني: أنَّ التأنيثَ في الخِيَرة تأنيثٌ مجازيٌّ، وابنُ مالِك رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول:

وَإِنَّمَا تَلْزَمُ فِعْلَ مُضْمَرِ مُتَّصِلٍ أَوْ مُفْهِمٍ ذَاتَ حِرِ[1]

وقوله تعالى: ﴿ٱلْخِيَرَةُ﴾؛ أي: الاختِيار، أَفادَنا المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ الخِيَرة هنا اسمُ مَصدَر بمَعنَى الاختِيار، أو بمَعنى التَّخيُّر؛ كالطِّيَرة بمعنى التَّطيُّر، فهي إِذَنِ اسمُ مَصدَر؛ بمَعنى: الاختِيار، وإن شِئْت فقُلْ: بمَعنى التَّخيُّر، وقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿مِنْ أَمْرِهِمْ﴾، قد يَقول قائِل: إنَّ المُتبادِر أن يَقول: (مِن أَمْرِه)؛ لأنَّ ﴿لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ مُفرَد، والمُتبادِر أن يَقول: (وما كان لمُؤمِن ولا مُؤمِنة إذا قَضَى الله ورسوله أمرًا أن يَكون له الخِيَرة من أَمْرِهِ)، ولكنه جَمَع؛ لأنَّ (مُؤمِن) و(مُؤمِنة) جاءا مُنكَّرًا في سِياق

(١) الألفية (ص:٢٥).

النَّفي، فيَكون للعُموم، فعاد الضمير إليه باعتِبار المَعنَى، لا باعتِبار اللَّفْظ.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ مَعناه: أي: من شَأْنهم، ويَجوز أن يَكون ﴿مِنْ أَمْرِهِمْ﴾؛ أي: من أَمْر الله تعالى إيَّاهم، فعلى الأوَّل: يَكون الإضافة من باب إضافة الشيء إلى فاعِله، وعلى الثاني: من باب إضافته إلى مَفعوله، وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [خِلاَف] هذه بالنَّصْب مَفعولٌ للخِيَرة بمَعنى الاختيار، يَعنِي: ما كان لهم أن يَختاروا [خِلافَ أَمْر اللهِ ورَسولِه]، فتبَيَّن الآنَ مَعنَى الآية.

فمَعنَى الآية: أنَّ الله تعالى يَقول: لا يُمكِن لمُؤمِن ولا مُؤمِنة، -لا يُمكِن شَرْعًا، فإذا قضَى الله تعالى ورسولُه ﷺ أَمْرًا أن يُخالِفوا أمرَ الله تعالى ورسوله ﷺ، وأن يَختاروا خِلافَ أمر الله تعالى ورسوله ﷺ، ولا يُمكِن؛ لأنَّ ما في قُلوبهم من الإيمان يَمنَعهم من المُخالَفة، ألَا تَرى إلى قول النبيِّ ﷺ: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ»؛ لأنه لو كان في قَلْبه إيمان حين الزِّنا، ما زنَى، «وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ»[1]، فالإيمان إذا وقَر في القَلْب لا يُمكِن أن يَكونَ صاحِبه مُخالِفًا لأَمْر الله تعالى ورسوله ﷺ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [نَزَلَت في عبد الله بن جَحْش وأُختِه زَينبَ خطَبها النبيُّ ﷺ لزَيدِ بنِ حارِثةَ، فكَرِها ذلك حين عَلِم بظَنِّهما قَبْلُ أنَّ النبيَّ ﷺ خطَبها لنَفْسه ثُمَّ رَضِيا للآية].

هكذا ذكَرَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّها نزَلَت في هذه القِصَّةِ، وهذ القِصَّةُ ضَعيفة[2]؛

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب النهبى بغير إذن صاحبه، رقم (٢٤٧٥)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصي، رقم (٥٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجها عبد الرزاق في التفسير (٣/ ٤٠)، والطبري في التفسير (١٩/ ١١٣)، والطبراني في المعجم الكبير (٢٤/ ٤٥)، عن قتادة.

لأنها مُعضَلة ومُنقَطِعة، فهي ضعيفة، ونحن لا يُهِمُّنا في الحقيقة سببُ النُّزول -وسبَب النُّزول صَحيح أنَّ فيه فائِدةً، وهو أنه يَكشِف أحيانًا المَعنَى؛ ليُبيِّنه ويُوضِّحه-، لكن المُهِمَّ الحُكم، وهو أنه لا يُمكِن لمُؤمِن إذا قضَى الله تعالى ورسوله ﷺ أَمْرًا أن يَختار خِلافَ أَمْر الله تعالى ورسوله ﷺ ﴿أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾؛ لأنهم لا بُدَّ أن يُوافِقوا أمر الله تعالى ورسوله ﷺ لِمَا في قُلوبهم من الإيمان؛ ولهذا كُلَّما هَمَّ المُؤمِن بمَعصية ذكَّرَه إيمانُه بالله تعالى فكَفَّ عنها.

أَلَا تَرى إلى قول النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في السَّبْعة الذين يُظِلُّهم الله تعالى في ظِلِّه، قال ﷺ: «وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ»(١)، وهذه الدَّعوةُ كانت في مَحَلٍّ خالٍ، لا يَطَّلِع عليهما أحَدٌ سِوَى الله تعالى «فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ»، فمَنَعه إيمانه من أن يَفعَل الفاحِشة مع سُهولة أسبابها.

وكذلك أحَدُ الثلاثة الذين انطَبَق عليهم الغارُ حين مَكَّنَتْه ابنةُ عمِّه من نَفْسها، فلمَّا جلَس منها مَجلِس الرَّجُل مع امرأته -وأَعتَقِد في هذه الحالِ أنَّ الرَّغبةَ ستكون شديدةً وقويَّةً، وأنه لا يَعصِمها إلَّا إيمانٌ قَويٌّ؛ فلمَّا جلَس منها مَجلِس الرجُل مع امرأته، قالت له: «يَا هَذَا اتَّقِ اللهَ، وَلَا تَفُضَّ الخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ»(٢)، فقام منها، وهي أحبُّ الناس إليه، هذا من الإيمان بلا شَكٍّ.

إِذَنْ: نحن لا يُهِمُّنا أن تَكون نزَلَت في زَينبَ بنتِ جَحْش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وأَخيها

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة، رقم (٦٢٩)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، رقم (١٠٣١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الإجارة، باب من استأجر أجيرًا فترك الأجير أجره، رقم (٢٢٧٢)، ومسلم: كتاب الرقاق، باب قصة أصحاب الغار الثلاثة، رقم (٢٧٤٣)، من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

عبد الله أو في غيرِهما، المُهِمُّ أنَّ حال المُؤمِن تَمنَعه من مُخالَفة أَمْر الله تعالى ورسوله ﷺ، وأمَّا ما ذكَره المُفسِّر فهو يَقول: [إنَّ النبيَّ ﷺ خطَبَ زَينبَ بِنتَ جَحْشٍ]، وقد خُطِبَت -كما ذكَره غيرُه- من قِبَل رِجال شُرَفاءَ وذَوِي جاهٍ، فخَطَبها النبيُّ ﷺ، فظَنُّوا أنه خطَبَها لنَفْسِه، ثُم بعد ذلك بيَّن لهم أنه خطَبها لزَيدِ بنِ حارِثةَ مَولى رسول الله ﷺ، وكان -حَسب ما ذكَر أهلُ السِّيَر- عَبْدًا لخَديجةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فوهَبَتْه للنبيِّ ﷺ، فأَعتَقَه[1]، فلمَّا علِما أنه خطَبها لزيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ امتنَعا، فلمَّا نزَلَتِ الآية رَضِيَا بذلك، وهذا ليس بغريب على الصحابة، لو صحَّ الحديثُ، ليس بغريب أن يُقدِّموا أمر الله تعالى ورسوله ﷺ على ما تَهواهُ أَنفُسُهم.

ثُمَّ قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ﴾: ﴿وَمَن﴾ شَرْطية، وعُلِم أنها شَرْطِية من فِعْل الشَّرْط؛ لأنه مجزوم ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ﴾، لكنه مجزوم بحَذْف حَرْف العِلَّة.

وقوله تعالى: ﴿يَعْصِ ٱللَّهَ﴾؛ المَعصية: مُخالَفة الأَمْر، أو إِنْ شِئْت فقُلِ: المَعصية خِلافُ الطاعة، سواءٌ كانت وقوعًا في مَنهِيٍّ عنه، أو تَرْكًا لمأمورٍ به، لكن إذا قيل: طاعة ومَعصية، صارَتِ الطاعة فِعلَ المأمور، والمَعصيةُ فِعْل المَحظور، أمَّا إذا قِيل: (مَعصِيَة) وحدَها، أو (طاعة) وحدَها، فإنَّها تَشمَل الأَمْرَين.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ سواءٌ عصاهما جميعًا، يَعنِي: أَمْر من الله تعالى، وأَمْر من رسوله ﷺ، وقَعَتْ فيه المَعصِية، أو عصَى اللهَ تعالى وحدَه، أو عصَى الرسولَ ﷺ وحدَه، فإنه قد ضَلَّ ضلالًا مُبينًا.

---

(١) انظر: الاستيعاب (٢/ ٥٤٣)، والإصابة (٢/ ٤٩٥).

ومَعصِيتُهما جميعًا مِثالُها: قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾، وقال النبيُّ ﷺ: «إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ»[1]، فلو خالَف الإنسان في ذلك يَكون قد عصَى الله تعالى ورسوله ﷺ؛ لأنَّ الأَمْر هنا من الله تعالى ومن رسوله ﷺ، وأَحيانًا يَرِد الأمرُ في القُرآن دون السُّنَّة، فإذا عَصاه الإنسان صار عاصِيًا لله تعالى، وأحيانًا يَرِد في السُّنَّة دون القُرآن، فإذا عَصاه الإنسان صار عاصِيًا للرَّسول ﷺ.

ولكن لِتَعلَم أنَّ مَعصية الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَعصية لله تعالى؛ لأن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَتكَلَّم عمَّن أَرسَلَه، فإذا عصَيْته فقَدْ عَصَيْت من أَرسَلَه، فلو أن رجُلًا أَتاك وقال: إن فُلانًا أَرسَلَني إليك. وقال: لِيَفعَلْ كذا وكذا. فخالَفْتَ الرسولَ فتكون مُخالِفًا في الواقِع للمُرسِل؛ ولهذا قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠].

فعلى هذا يَكون ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ سواءً على سَبيل الانفِراد أو على سبيل الاشتِراك.

وقوله تعالى: ﴿فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا﴾، هذا جوابُ الشَّرْط، وقُرِن بالفاء؛ لأنَّها اقترَنَت في ﴿فَقَدۡ﴾، وهناك ضوابِطُ لجَواب الشَّرْط الذي يَجِب اقترانُه بالفاء، ذُكِرت في بيتٍ:

اسْمِيَّةٌ طَلَبِيَّةٌ وَبِجَامِدٍ وَبِـ(مَا) وَ(قَـدْ) وَبِـ(لَنْ) وَبِـالتَّنْفِيسِ

فإذا كان جوابُ الشَّرْط أحَدَ هذه الأشياءِ السَّبْعة فإنه يَقتَرِن بالفاء وجوبًا،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاعتصام، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ، رقم (٧٢٨٨)، ومسلم: كتاب الحج، باب فرض الحج مرة في العمر، رقم (١٣٣٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

ولا يَشِذُّ عن هذه القاعِدةِ إلَّا أَمْرٌ نادِر كقول الشاعِر[1]:

مَنْ يَفْعَلِ الحَسَنَاتِ اللهُ يَشْكُرُهَا ....

ولم يَقُلْ: فاللهُ يَشكُرُه. لكن هذا نادِر أو ضَرورة.

وهنا مَعَنا من الأشياءِ السَّبْعة: (قد).

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾، قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بَيِّنًا] ونحن تَكلَّمنا من قبلُ أنَّ (أَبان) الرُّباعية تَكون مُتعَدِّية، وتكون لازِمة، وإذا كانت لازِمةً فهي بمَعنَى (بانَ)، وإذا كانت مُتعَدِّيةً فهي بمَعنى (أَظهَر)، وهنا قال تعالى: ﴿ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ هل تَصلُح بمَعنَى (أَظهَر) بمَعنَى: ضَلالًا مُظهِرًا؟ الجوابُ: لا تَصلُح.

إِذَنْ: فهي من (أَبان) اللازِمِ الذي يَكون منه الاسمُ على (بيِّن) لا على (مُبين)، وقُلْنا: لا على (مُبين) بمَعنَى (مُظهِر)، فما هو (المُبين) بمَعنى (مُظهِر)؟ الجَوابُ: مثل قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ [يس:٦٩]، هذا من المُتعَدِّي يَقينًا؛ لأن القُرآن مُظهِر للحَقائِق؛ ولهذا قال بعده: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [يس:٧٠].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فزَوَّجها النبيُّ ﷺ لزَيدٍ، ثُمَّ وقَع بَصَرُه عليها بعد حِين فبَلَغ في نَفْسه حُبُّها، وفي نَفْس زيدٍ كَراهَتُها، ثُمَّ قال للنبيِّ ﷺ: أُريدُ فُراقَها. فقالَ: «أَمسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ»،

(١) اختلف في قائله، فنسبه سيبويه في الكتاب (٣/ ٦٤-٦٥) لحسان بن ثابت، ونسبه ابن هشام في مغني اللبيب (ص:٨٠) لعبد الرحمن بن حسان، ونسبه جماعة لكعب بن مالك كما في خزانة الأدب (٩/ ٥١).

كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ﴾]، هذا الذي ذكَره المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذُكِر عن بعض المُفسِّرين من السَّلَف والخَلَف، لكنه كما قال ابنُ كَثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أقوالٌ يَنبَغي أن يَضرِب الإنسانُ عنها صَفْحًا»[1]؛ لأنها أقوالٌ باطِلة، لا تَليق بمَقام النبيِّ ﷺ؛ لأنَّ القِصَّة إذا قرَأها الإنسان يَتصوَّر أنَّ الرسول ﷺ كان عاشِقًا من العُشَّاق.

وما أَشبَهَ هذه القِصةَ الباطِلةَ بقِصَّة داودَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ[2]، التي ذكَروا فيها: أن داودَ طلَبَ من أحَد جُنوده أن يَتزوَّج امرأته، ولكنه أَبى، فاحْتَال عليه بحيلة، قال: فأَرسَلَه مع الجَيْش لأَجل أن يُقتَل فيتزوَّج امرأته! وهل هذا يُمكِن أن يَقَع من نَبيٍّ من أنبياء الله تعالى؟! أبدًا، وهذه لو قال قائِل: إنَّها وقَعَت من أحَد السُّوقة من الناس. لقيل: ما أَظلَمَ هذا الرجُلَ! وما أَجهَلَه! فكيف بنَبيٍّ من أنبياء الله تعالى؟

فالرَّسولُ ﷺ هل يُمكِن أن يَتصوَّر أحَدٌ أنه عَشِق هذه المرأة؟ ويُلاحَظ الآنَ أن بعض الناس -حتى بعض المُفسِّرين والعِياذُ بالله- صار يَتلَفَّظ بهذا اللَّفظِ، يَقول: الرسولُ عَشِق المَرأةَ زينبَ! ولكن هذا قول باطِل، وسيَأتي -إن شاءَ الله تعالى- في الكلام على تَفسير الآية بَيانُ مَعنى الآية، وأن مَعناها ناصِع واضِح.

ولم يَكُن الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال له: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ»، وأنه أَخفَى حُبَّها؛ وذلك: لأن الله تعالى قال في نفس الآية: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾، فبيَّن الله تعالى أنه سيُبدِي ما أَخفاه في نَفْسه، لو كان الذي أَخفاه النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في نَفْسه الحُبَّ لكان الله تعالى يُبديه، لكن ما الذي أَبدَى الله تعالى؟ الذي أَبدَى الله تعالى تَزويجه، أنه زوَّجه إيَّاها، فكان الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أَخفَى

---

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٣٧٨).

(٢) أخرجها الطبري في تفسيره (٢٠/ ٦٤-٦٦)، وانظر: تفسير ابن كثير (٧/ ٥١).

في نفسه ما أَعلَمه الله تعالى أنه سيَتَزَوَّجها، بدون أن يَكون هناك حُبٌّ وعَلاقة، لكن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلِم بما أَعلَمه الله تعالى أنه سيَتَزَوَّجها، فلمَّا جاء هذا الرجُلُ يَستَشيره قال ﷺ له: «اتَّقِ اللهَ» لا تُطلِّقِ المرأةَ، فعاتَب الله تعالى رسوله ﷺ، لماذا قال له: اتَّقِ الله وأَمسِكها! وقد عَلِم أنَّ الله تعالى سيُزوِّجه إيَّاها، فالمَسأَلة واضِحة ليس فيها أيُّ إشكال.

ولكن المُشكِل أنَّ بعض المُفسِّرين يَأخُذون عن بعضٍ مِن غَيْر تَمحيص، ومِن غَيْر أن يَكون هناك تَروٍّ في المَسأَلة، حتى إنَّ بعض الناس اعتَذَر وقال: (إنَّ محبَّة الإنسانِ للمَرْأة ولو كانت عند زَوْجٍ آخَرَ أمرٌ لا يُنكَر، إنَّما الذي يُنكَر أن يُحاوِل التَّوصُّل إلى هذه المَرأةِ بطريق غيرِ شَرعيٍّ، وأمَّا أن يَقَع في نَفْسه محبَّة امرأةٍ عند زَوْج فهذا لا بَأسَ به، وهو أَمْر جِبِلِّيٌّ قد تَدْعو إليه الجِبِلَّة والطبيعة).

وهذا وإن كانتِ المَسأَلة تَحتاج إلى نظَر في هذا القولِ: وهو أنَّ محبَّة الإنسان لزوجة غيره إمَّا أن تَكون محبَّة للجِنْس، أو محبَّة للشَّخْص، فإن كان محبَّة للجِنْس فهذا أمر جائِز، أي: جِنْس هذا الطِّرازِ من النساء، وهذا المُراد بقَوْلي: (الجنس)، فإن كان محبَّة للجِنْس يَعنِي: أنه يَرغَب مثل هذه المرأةِ فهذا لا بأسَ به، والإنسان دائِمًا إذا سمِع مثَلًا من امرأةِ رجُلٍ أنها امرأةٌ صالِحة قانِتة حافِظة للغَيْب بما حَفِظ الله تعالى يُحِبُّها ويُحِبُّ أن يَكون له مِثْلُها.

وأمَّا إذا كان حُبًّا شخصيًّا فعِندي أن في جَواز ذلك نظَرًا، وأنَّ الإنسان يَجِب عليه أن إذا تَعلَّقَت نَفْسُه بامرأة تَعلُّقًا شخصيًّا أو محبَّة شَخْصية يَجِب عليه أن يُحاوِل التَّخلُّص من هذا؛ لأنَّها مُشكِلة، فالمَحبَّة -في الحقيقة- جذَّابة، المَحبَّة كأنها رِشًا من حديد يَجذِب الإنسان، فإذا تَعلَّق قلبه بامْرَأة فإن الغالِب أن يُحاوِل الوصول إليها؛

فإن لم تكُن مُزوَّجة فيُمكِن أن يخطِبها، وإن كانت مُزوَّجة فمُشكِلة.

فالذي أَرَى في هذه المَسألَةِ أنه اذا أَحبَّها محبَّة جِنْس -بمعنى: أَحَبَّ جِنْس هذه المَرأةِ- فهذا لا شَكَّ أنَّه ليس فيه مانِع، ولا يَحصُل فيه مَفسَدة، وأمَّا إذا أَحبَّها محبَّة شَخْصية فإنَّ الأمر خَطير.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ مُقتَضى الإيمان ألَّا يُخالِف المُؤمِن أَمْر الله تعالى ورسوله ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ...﴾ إلى آخِره.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّه كلَّما قوِيَ الإيمان قَوِيَتِ المُوافقة؛ وجهُهُ: أنَّ الحُكم المُرتَّب على وَصْف يَقوَى بقُوَّته، ويَضعُف بضَعْفه. وعليه فتَحصُل الفائِدة الثالِثة:

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّه كلَّما نَقَص الإيمان وضَعُف كثُرَت المُخالَفة؛ ولهذا قال أَهلُ العِلْم رَحِمَهُمُ اللَّهُ: إنَّ الإيمان يَزيدُ بالطاعة، ويَنقُص بالمَعصِية.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ ما قَضاه الرسول ﷺ من الأُمور فهو كما قَضاه الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ الخَيْر كلَّ الخَيْر فيما قَضاه الله تعالى ورسوله ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ﴾ يَعنِي: لا يَختارُون غيرَه؛ لأنهم يَرَوْن أنَّ الخَيْر فيما قَضاه الله تعالى ورسوله ﷺ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ المَعْصية ضَلال؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّه كلَّما كانتِ المَعصيةُ أكبَرَ أو أكثَرَ كان الضلال أبيَنَ وأَوْضَحَ؛

وجهُهُ: ما أَشَرْنا إليه من قبلُ أنَّ الحُكْم المُرتَّب على وَصْف يَزيد بزِيادته ويَنقُص بنُقْصانه.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ مَعصية الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كمَعصية الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾، فإذا أَتانا آتٍ ونَهَيْناه عن أَمْر جاء به النهيُ في السُّنَّة، وقال: هذا ليس في القُرآن. نَقول: ما في السُّنَّة كما في القُرآن، وقد توقَّع النبيُّ ﷺ ذلك فقال: «يُوشِكُ أَحَدُكُمْ مُتَّكِئًا عَلَى أَرِيكَتِهِ يَأْتِيهِ الْأَمْرُ مِنْ أَمْرِي، فَيَقُولُ لَا نَدْرِي مَا وَجَدْنَا فِي الْكِتَابِ اتَّبَعْنَاهُ، أَلَا وَإِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ»(١)، وهذا الذي توقَّعه النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وقَع، بل صرَّحوا بأنه لا احتِجاجَ إلَّا بما جاء في القُرآن، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾، وقال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء:٨٠].

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: جَواز تَشريك الله تعالى ورسوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بالواو في الأَحْكام الشَّرْعية؛ تُؤخَذ من قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ بخِلاف الأُمور الكَوْنية، فإنَّ الرسول ﷺ لا يُشرَّك مع الله تعالى بالواو؛ ولهذا لمَّا قال له الرجُلُ: ما شاء اللهُ وشِئْتَ. قال ﷺ: «أَجَعَلْتَنِي لله نِدًّا، بَلْ مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ»(٢).

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: إثباتُ رِسالة النبيِّ ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، ورِسالة النبيِّ ﷺ عامَّة لجميع البَشَر منذُ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ١٣٠)، وأبو داود: كتاب السنة، باب في لزوم السنة، رقم (٤٦٠٤)، من حديث المقدام بن معدي كرب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ٣٩٣)، وابن ماجه: كتاب الكفارات، باب النهي أن يقال: ما شاء الله وشئت، رقم (٢١١٨)، من حديث حذيفة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

بُعِث إلى أن تَقوم الساعةُ؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾، والخاتَمُ لا شيءَ بعدَه.

وكانت شَريعة الرسول ﷺ -لِكَوْنها عامَّة شامِلة إلى يوم القِيامة- صالِحة لكل زَمان ومَكان وأُمَّة، ومَعنَى كَونها صالحِةً: أنَّ العمَل بها لا يُنافِي المَصالِح في أيِّ زَمان أو مَكان، بل هو عَيْنُ المَصلَحة، وليس كما فعَلَه بعض النَّاس وتَصرَّف بهذه العِبارةِ، حيث زعَمَ أنَّ الإسلام صالِح لكل زَمان ومَكان، بمَعنَى: أنَّه خاضِع لكل زَمان ومَكان، فجعَلوا الشَّرْع تابِعًا لا مَتبوعًا، وقالوا: إنَّ العَصْر إذا اقتَضَى -في زَعْمِهم- المَصلَحة فإنَّ الشَّرْع لا يُعارِضه، وبنَوْا على ذلك استِحْسان ما استَحْسَنوه من الأمور التي لا شَكَّ في تَحريمها، كتَجويز الرِّبا، وأنَّ هذا يُنمِّي الاقتِصاد، ويُقوِّي الأُمَّة، وكتَجويز التَّأمينات التي هي المَيْسِر حقيقةً، والتي قرَنها الله تعالى بالخَمْر والأنصاب والأَزْلام.. إلى غير ذلك ممَّا يَرَوْن أنَّه داخِل في مُسمَّى الدِّين الإسلامي بحُجَّة أنَّ الإسلام صالِح لكل زَمان ومَكان.

ونحن نَقول: صالِح. ولا نَقول: خاضِع. فاعمَلْ أنت بالإسلام في أيِّ زَمان أو مَكان أو أُمَّة، وانظُرْ هل يُنافي المَصالِح أو يُنمِّي المَصالِح؟ قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾.

الآيــة (٣٧)

•••

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [الأحزاب:٣٧].

•••

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ﴾ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [إنه مَنصوب باذْكُرْ] و(اذْكُرْ) مَحذوف، أي: اذكُرْ يا مُحَمَّدُ إذ تَقول للذي أَنعَم الله تعالى عليه... إلى آخره، اذْكُرْ هذا القَوْلَ حتى تكون مُستَعِدًّا لِما يُلقَى إليك من المَوعِظة؛ لأنَّ الله تعالى وعَظَه في هذه الآيةِ مَوْعِظة عظيمة، حتى قالت عائِشةُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: «لَوْ كان مُحَمَّدٌ كاتِمًا ما أُنزِل إليه لكَتَمَ هذه الآيَةَ»[1].

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ بالإسلام ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بالإِعْتاق] بيَّن الله عَزَّوَجَلَّ أنَّ هـذا الرجُلَ الذي أَبهَم اسـمَهُ هنا، ثُم أَوضَحه فيما بعد أنَّ عليه نِعمَتَيْن؛ النِّعْمة الأُولى: لله تعالى، والثانية: للرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وهنا قال تعالى: ﴿لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ﴾، فأَتَى بالواو الدالَّة على الاشتِراك، مع أن هذا ليس من باب التَّشريكِ، حتى نَقول: إنه يَجوز إشراك الله تعالى مع الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ،

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب معنى قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾، رقم (١٧٧/ ٢٨٨).

بل هو من بابِ النِّعْمة والعَطاء والفَضْل، فكيف جَمَع بين إِنْعام الرسول ﷺ وإنعام الله تعالى بالواو الدالَّة على التَّشريك؟

فالجَوابُ أن نَقول: جمَع بينهما بالواو الدالَّة على التَّشرِيك؛ لأنَّ النِّعْمَتَيْن مُختلِفَتان، فالنِّعمة الأُولى من الله تعالى بالإسلام، والثانية: النِّعْمة من الرسول ﷺ بالعِتْق، فلمَّا اختلَفَتِ النِّعْمتان صارتِ الواو لا تَدُلُّ على الاشتِراك؛ لامتِناع الاشتِراك بين شَيْئَيْن مُختلِفَين.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بالإعتاق وهو زيدُ بنُ حارِثةَ كان مِن سَبْي الجاهِلية اشترَاه النبيُّ ﷺ قبل البعثة وأَعتَقَه وتَبنَّاه] المَشهور أنَّ زيدَ بنَ حارثةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان مملوكًا لخَديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فوهَبَتْه للنبيِّ ﷺ، هذا هو المَعروف في السِّيَر[1]، وأيًّا كان فإنَّ زيدَ بنَ حارِثةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان مملوكًا للرسول ﷺ، ثُمَّ أَعتَقَه وتَبنَّاه أيضًا، فرفَع مَعنويَّاتِه بكونه أَضافَه إليه ابنًا له، وكان يُدعَى زَيدَ بنَ مُحَمَّدٍ[2]، حتى أَبطَل الله تعالى ذلك في قوله: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب:٤٠]، وبقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ [الأحزاب:٤].

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ في أَمْر طلاقِها: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ﴾ هُنا عَدَّى ﴿أَمْسِكْ﴾ بـ(عَلَى)؛ لأنَّها بمَعنى: اضمُمْ عليك زوجَك، يَعنِي: اجعَلْها مُنضمَّة عليك ولا تُفارِقْها.

---

(١) انظر: الاستيعاب (٢/ ٥٤٣)، والإصابة (٢/ ٤٩٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾، رقم (٤٧٨٢)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، باب فضائل زيد بن حارثة وأسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، رقم (٢٤٢٥)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

قوله تعالى: ﴿زَوْجَكَ﴾ المُراد بها: زينبُ بنتُ جَحْشٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا، وكان زَيدٌ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قد تزوَّجها بمَشورة النبيِّ ﷺ، فَجاء يَستَشيره في طلاقِها، فقال له النبيُّ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾؛ يَعني: لا تُطلِّقْها، وأَمَره بأَنْ يَتَّقيَ الله تعالى: ﴿وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾، إغراءً له على إِمْساكها، وإن كان الرجُل لم يَفعَل خَطيئةً؛ لأنَّ الطلاق ممَّا يُباح للرِّجال، لكن من باب الإِغْراء على إِمْساكها.

وقال بعضُ المُفسِّرين: إنه -أي: زَيدُ بنُ حارِثةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ- ذكر زَينبَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا بعَيْبٍ، فقال له الرسول ﷺ: ﴿وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ يَعنِي: لا تَصِفْها بالعَيْب، وليس المَعنَى: اتَّقِ الله لا تُطلِّقْها؛ لأنَّ الأصل في الطلاق أنه مُباح.

قال الله تعالى: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾، الواو حَرْف عَطْف، ﴿وَتُخْفِى﴾ مَعطوفة على قوله تعالى: ﴿تَقُولُ﴾، يَعنِي: واذْكُرْ أيضًا إذ تُخفِي في نَفْسِك ما الله تعالى مُبديه، وأَبهَمَ الله تعالى ما أَخفاه، لكنه بيَّن أنه سيُبدِيه، ونَنظُر ماذا أَبدَى الله عَزَّوَجَلَّ:

قال تعالى: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا﴾: ﴿مَا﴾ هذه اسْمٌ مَوصولٌ في مَحلِّ نَصْب مَفعول لـ﴿وَتُخْفِى﴾، و﴿ٱللَّهُ﴾ مُبتَدأ، و﴿مُبْدِيهِ﴾ خبَرُه، والجُملةُ صِلة المَوْصول لا مَحلَّ لها من الإعراب، يَعنِي: تُخفِي في نفسك الذي الله تعالى مُبدِيه، وهنا لم يَقُلْ: وتُخفِي في نَفْسك ما يُبديه الله تعالى، بل قال تعالى: ﴿مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾، فأَتَى بالجُمْلة الاسميَّة الدالَّة على الثُّبوت كأن هذا أَمْر لا بُدَّ منه، أي: لا بُدَّ أن يُبديَه الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا هو الذي وقَعَ.

ومَعنَى: ﴿مُبْدِيهِ﴾؛ أي: مُظهِره، وهو مُقابِل لِقَوْله: ﴿وَتُخْفِى﴾، قال تعالى: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ إلَّا أنَّ المُقابَلة اختلَفَت من حيث الصِّيغة،

فالصِّيغةُ في الإِخْفاء جاءت بالمُضارِع، وأمَّا الصِّيغةُ بالإِبْداء فجاءَتْ بالجُمْلة الاسمِيَّة.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ مُظهِرُه من محبَّتها، وأن لو فارَقَها زيدٌ تزوَّجْتَها] هذا ما زعمَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تبعًا لكثير من المُفسِّرين: أنَّ الذي أَخفاه النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هو محبَّتُه لهذه المرأةِ، فأَبدَى الله تعالى ذلك، ولكنَّك إذا تأمَّلْتَ الآياتِ وجدْتَ أنَّ الذي أَخفاه هو (نِيَّة الزَّواج بها بأَمْر الله عَزَّوَجَلَّ)، فإنَّ الله تعالى أمَرَه أن يَتزَوَّجها بعد زَيْدِ بنِ حارِثةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وكأن هذا -واللهُ تعالى أعلَمُ- من أَجْل جَبْرِ قَلْبها حيث تزوَّجَتْ زَيدَ بنَ حارِثةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وهو مَوْلًى، وهي من صميم العرَب، فأَراد الله عَزَّوَجَلَّ أن يُكافِئَها على خُضوعها لمَشورة النبيِّ ﷺ بأن يَتزَوَّجها الرسول ﷺ، هذه من جِهةٍ.

ومن جِهة أُخرى: أمَرَه الله تعالى أن يَتزَوَّجها لأَجْل أن يَزول ما كان مَشهورًا عِندهم في الجاهِلية؛ من أنَّ ابن التَّبنِّي لا يَجوز لمَن تَبنَّاه أن يَتزوَّج بامرأته، فيَكون هذا من باب البَيان بالفِعْل الذي هو أَقوَى من البَيان بالقَوْل.

وإذا نظَرْنا إلى الذي أَبداه الله تعالى وجَدْنا أنه زواجُه، لا أنه يُحِبُّها، فلم يَقُلِ الله تعالى في القُرآن: إنك تُحِبُّها؛ أبدًا! ولا تَعرَّض للحُبِّ.

وقوله تعالى: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾ أي: تَخاف من قولهم، ومن كلامِهم، بأن يَقولوا: تَزوَّج زوجةَ ابنِه، وهذا عِند العَرَب عَيْب، فهُمْ يَرَوْنه من المُنكَرات.

قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [في كُلِّ شيء وتَزوَّجها، ولا عليك من قول الناس، ثُمَّ طلَّقها زَيْدٌ وانقَضَت عِدَّتها]؛ قال الله تعالى: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ من الناس، ولكنه هنا أَطلَق، فقال تعالى:

﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾، ولم يَذكُرِ المُفضَّل عليه من أَجْل العُموم؛ لأَنَّه دائِمًا يكون الحَذفُ مُفيدًا للعُموم، يَعنِي: أَحَقُّ أن تَخشاه من كل أَحَد من النَّاس، ومن الجِنِّ، ومن غيرهم.

وقوله تعالى: ﴿أَن تَخْشَىٰهُ﴾، يَعنِي: أن تَخافَه، ولكن الخَشْية خَوْف مع عِلْم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾، والخَشْية أيضًا خَوْف مع قُوَّة المَخشِيِّ وعظَمَته، فالخَوْف دون الخَشْية؛ لأنَّ الخَوْف يَقَعُ بدون عِلْم؛ ولأنَّ الخَوْف يَقَع من ضَعْف الخائِف، لا من قُوَّة المَخُوف؛ ولهذا كانتِ الخَشْية أَرفَعَ مَرتَبة وأَقوَى، ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾، حاجةً، ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ فدَخَل عليها النبيُّ ﷺ بدون إِذْنٍ وأَشبَع المُسلِمين خُبْزًا ولَحمًا].

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾؛ أي: حاجةً، وهذا دليلٌ على أنَّ زَيْدًا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ طلَّقَها عن رَغْبة، وأنها انقَضَتْ حاجته منها، ولم يُطلِّقها عن ضَغْط أو إِكْراهٍ.

وقوله تعالى: ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ شَرْعًا وقدَرًا، لكِنَّ المُهِمَّ: شَرْعًا؛ لأنه لو كان المُراد قدَرًا فقط لم يَكُن بينها وبين أُمَّهات المُؤمِنين فَرْق؛ لأنَّ أُمَّهات المُؤمِنين أيضًا ممَّا زَوَّجهن الله تعالى قدَرًا، وكانت هي -أي: زَينبُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا- تَفتَخِر على نِساء النبيِّ ﷺ، فتَقول: «زَوَّجكن أَهالِيكُنَّ، وزَوَّجَني الله من فوقِ سَبْع سَمَواتٍ»(١)، وهذا دليل على أنه تَزويج شَرْعيٌّ، ولكنَّه قدَريٌّ أيضًا في نَفْس الوقت.

وقوله تعالى: ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ في هذا ضَميران مَفْعولان؛ الضَّمير الأَوَّل: الكافُ،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾، رقم (٧٤٢٠)، من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

والثاني: (ها)، وهو مُتمَشٍّ على القاعِدة، وابنُ مالِك رَحِمَهُ اللَّهُ يقول:

وَقَـدِّمِ الْأَخَـصَّ فِي اتِّصَـالِ وَقَدِّمَنْ مَا شِئْتَ فِي انْفِصَـالِ[1]

وضَميرُ المُخاطَب أَخصُّ من ضمير الغائِب؛ ولهذا قال تعالى: ﴿زَوَّجْنَكَهَا﴾.

والحِكْمة من ذلك: قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾.

قوله تعالى: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ﴾ اللَّام هنا للتَّعليل، و(كَيْ) حَرْف مَصدَر؛ لأنها بعد اللَّام مَصدَرية مَحْضَة؛ أي: (لأن)، و(لا) نافِية.

وقوله تعالى: ﴿حَرَجٌ﴾؛ أي: ضِيق ومَشقَّة.

وقوله تعالى: ﴿فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ﴾ أَدعياؤُهم: أَبناؤُهم الذين تَبنَّوْهم، هؤلاءِ همُ الأَدْعياءُ، وهؤلاءِ الأدعياءُ ليسوا بأبناءٍ، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ [الأحزاب:٤]، وتَأمَّلْ قوله تعالى: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ﴾، ولم يَقُلْ: (أَبنائِهم الذين تَبنَّوْهم)؛ لأنَّ هذه البُنوَّةَ مُنتَفية شَرْعًا وباطِلة شَرْعًا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَدْعِيَاءَكُمْ﴾.

وبهذا نَعرِف أنَّ قول مَن قال في قوله تعالى: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾: (إن قولَه: ﴿مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ احترازٌ مِن ابنِ التَّبنِّي) يَتبيَّن لنا أنَّ هذا القولَ لا وَجهَ له؛ لأنَّ ابنَ التَّبنِّي لم يُسمِّه الله تعالى ابنًا أبدًا، بل نفَى عنه البُنوَّة، فقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾، وقال هنـا: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ﴾، وإذا كان ابنُ التَّبنِّي لا يُسمَّى ابنًا شَرْعًا، فإنه لا حاجةَ إلى

(١) الألفية (ص:١٣).

أن نَأتِيَ بصِفة تُخرِجه؛ لأنَّه ليس بداخِل أصلًا حتى يَخرُج بهذه الصِّفةِ الذين من أَصلابِكم؛ ولكنها احترازٌ من ابنِ الرَّضاعة، كما هو اختيار شيخِ الإسلام ابنِ تَيميَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقوله تعالى: ﴿إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾: ﴿إِذَا قَضَوْا﴾ الفاعِل يَعود على الأَدْعياء، وقوله تعالى: ﴿إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ فيه إشارة إلى أنَّه لو كان ذلك بضَغْط من الأبِ المُدَّعي لكان ذلك فيه حرَج، بل لا بُدَّ أن يَكونوا قد قضَوْا مِنهُنَّ وطَرًا وأنْهَوْا رَغْبَتَهُن فيهِنَّ.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾، ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ﴾، قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [مَقضِيُّه ﴿مَفْعُولًا﴾]، ﴿أَمْرُ اللَّهِ﴾ أي: الكَوْني؛ لأنَّ الشَّرعيَّ قد يُفعَل وقد لا يُفعَل، ولكن الأمر الذي لا بُدَّ أن يُفعَل هو أمر الله تعالى الكَوْنيُّ، فإذا أمَرَ الله تعالى بشيء كونًا فلا بُدَّ أن يَقعَ.

وخُلاصَةُ تفسير هذه الآيةِ أن نَقول: إن الله عَزَّوَجَلَّ ذكَّر نبيَّه ﷺ بهذا الأَمرِ العَظيمِ، وهو قولُه لزَيدِ بنِ حارِثةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين جاء يَستَشيره في طلاق زَوجَتِه: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾، مع عِلْم النبيِّ ﷺ بأن الله تعالى سَوْف يُزوِّجه إيَّاها، وكان على النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن يَسكُت على الأَقلِّ، ويَقول: انظُرْ ما يَبدو لك في هذا الأَمرِ، لكنه أَشار عليه أن يُمسِكَ؛ لأنَّه يَخشَى أن يَقول الناس: تَزوَّج امرأةَ ابنِه الذي تَبنَّاه. فكان النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَخاف من هذا الأَمرِ، ولكن الله تعالى وجَّهه هذا التوجيهَ السليمَ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: تَذكير النبيِّ ﷺ بالأُمور التي يَحسُن أن يُوعَظ فيها؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ﴾ حيثُ قُلْنا: إنَّها مَنصوبة بِفِعْل مَحذوف تَقديرُه: اذكُرْ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بَيانُ مِنَّة الله تعالى على زَيدِ بنِ حارِثةَ بالإسلام، والتَّمسُّك به، حتى إن أباه وأَعمامه لَمَّا جاؤُوا يَطلُبونه، وخيَّرهُ النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بينَهُم وبينَهُ، اختار أن يَكون مع الرسول ﷺ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ الإِعْتاق نِعْمة من الْمُعتِق على عَتيقه، وهو كذلك، والفَرضِيُّون يُعبِّرون بـ(النِّعمة) عن الإِعْتاق.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّه يَجوز عَطْف الأمور غير الشَّرْعية بالواو إذا اختَلَف المَعنَى، وقُلْنا: لا يُسوَّى بين الله تعالى وبين الرسول ﷺ بالواو في غير الأُمور الشَّرْعية، وهنا عَطَف نِعْمة الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ على نِعْمة الله تعالى بالواو، مع أنَّها ليست من الأُمور الشَّرْعية، لكنَّ الذي سَوَّغ ذلك اختِلافُ النِّعْمتَيْن؛ فالنِّعْمة الأُولى: الإسلامُ، والنِّعْمة الثانية: العِتْق.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ الزوجة تابِعة للزَّوْج؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ﴾ فكأنَّه يَضُمُّها ويَحرُسُها ويَصونها، وكأنَّها تابِعة له، كما في قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة:٤].

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: استِشارة ذَوِي الرَّأْي؛ لأنَّ زيدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ استَشار النبيَّ ﷺ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّه يَجِب على الْمُستَشار أن يَبذُل ما يَراه الأَوْلى -ولو باجتِهاده؛ لأنَّ الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَشار على زَيْد بإِمْساكها اجتِهادًا منه خَوْفًا من إثارة

المُنافِقين والمُشرِكين عليه، ولكن لا يَعنِي ذلك أن يَكون المُشير مُصيبًا فيما يَتصرَّف فيه، قد يُخطِئ فيما يَتصرَّف فيه، لكن هو في حال إشارته يَرَى أنَّ ذلك هو الصَّوابُ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ الأفضل للزَّوْج ألَّا يَتعجَّل بالطلاق، وأَنْ يُمسِك عليه زَوْجَته؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾، فأَشار عليه بعدَم الطلاق، وإن كان للرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أَغراضٌ أُخرى، لكن لا يَمنَع أن تَتعدَّد الأسباب في الأَمْر بإِمْساكها، ومَعلوم أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قال في كِتابه المُبين: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء:١٩].

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: ثُبوت رِسالة النبيِّ ﷺ، وأَنها رِسالة حَقٍّ؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾، فلو كان النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كاذِبًا -وحاشاهُ من ذلك- لكان يَكتُم مثل هذه الأَشياءِ؛ لأنَّها صَعْبة في حَقِّه.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قد يَفعَل خِلاف ما كان عليه الرسول ﷺ، بمَعنَى أنَّ اجتِهاد النبيِّ ﷺ قد يَكون مُخالِفًا لما يُريده الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾، فالرسول ﷺ أَخفَى في نَفْسه هذا الأَمرَ، لكنَّ الله تعالى خالَفَه في ذلك فأَبْداه.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّ خوف النَّاس قد يَقَع من الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، ولكنهم لا يُقَرُّون عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: وُجوبُ تَقديم خَشْية الله عَزَّوَجَلَّ على خَشْية كل أَحَدٍ؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾، فالواجِبُ على المَرْء أَلَّا يَخاف في الله تعالى لَوْمَةَ لائِمٍ، وأن يَتَّقِ الله عَزَّوَجَلَّ في بَيان الحَقِّ والعمَل به، لا يَقُل: إنَّ الناس يَشمَتون بي،

إنَّ الناس يَسخَرون مِنِّي، إنَّ الناس يَستَهْزِئون بي. وليكن ذلك! فإنه لا يَزداد بهذه السُّخريةِ والاستِهْزاءِ إلَّا رِفعةً عند الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: أنَّه لا يَصِحُّ التزويج حتى يَنتَهِيَ حقُّ الزَّوْج الأوَّل من الزوجة بالكُلِّية؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾، فكان التزويجُ بعد انتِهاء زَيدٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ منها بالكُلِّية، ولا يَرِد على ذلك أن يُقال: إنَّ ظاهِر الآية جَواز التزويجِ بعد الطلاق مُباشَرةً؛ لأَنَّا نَقول: إن الوَطَر والحاجة ما تَنتَهي إلَّا بانتِهاء العِدَّة، إذ إنَّ الإنسان لو أَراد أن يَرجِع إلى زَوْجته في العِدَّة وهي رَجْعية لحَصَل له ذلك.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: إثبات العَظَمة لله عَزَّوَجَلَّ والسُّلْطان؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ لِمَا له من العظَمة والسُّلْطان.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: فَضيلة زينبَ بنتِ جَحْشٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا، حيث زوَّجها الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لرسوله ﷺ؛ وجهُهُ: أنَّ غيرها يُزوِّجه أولياؤُها وأهلُها، وأمَّا هي فقَدْ تولَّى الله عَزَّوَجَلَّ تزويجها، وهذه مَنْقَبة عظيمة لها.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: أنَّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يُثيب عبدَه أكثرَ من عمَله؛ لأنَّ هذه المرأةَ -كما سبَقَ- تَزوَّجت زيدَ بنَ حارِثةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، مع أنَّ زيدًا رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ من المَوالي، وهي من صميم العرَب، وقد يَكون في ذلك غضٌّ من حقِّها ومَرتبَتها، فرفَعَ الله تعالى من شَأْنها، حيث زوَّجها رسولَه محمدًا ﷺ هو بنَفْسه تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، ولا شَكَّ أنَّ هذا رِفعة من شَأْنها، فهي بعد أن كانت تَحتَ هذا المَولَى وهي من صميم العرب، وكان في ذلك شيء من الغَضاضة عليها، رفَعَ الله تعالى من شأنها بهذا الأَمرِ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةَ عَشْرَةَ: أنَّ ما ثبَتَ في حقِّ النَّبيِّ ﷺ من أحكام فهو ثابِت في حقِّ الأُمَّة؛ لأَنَّه هذا الحُكمَ خُوطِب به الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ثُمَّ ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾، فدَلَّ ذلك على أن ما ثبَتَ للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من الأحكام فأُمَّتُه تبَع له، إلَّا ما قام الدليل على تخصيصه.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ: جواز تزوُّج الرجُل بزَوْجة مَن تبنَّاه؛ تُؤخذ من قوله تعالى: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةَ عَشْرَةَ: أنَّ ابنَ التَّبنِّي لا يُسمَّى شَرْعًا ابنًا، ولم يُسمِّه الله تعالى ابنًا؛ لقوله تعالى: ﴿أَدْعِيَائِهِمْ﴾، وقوله في أوَّلِ السُّورة: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾.

ويتفرَّع على هذه الفائدةِ: أنَّ قوله تعالى: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾: فهذا القيدُ ليس لإخراج ابنِ التَّبنِّي؛ لأنَّه ما دخَل في الأبناء حتى يَحتاج إلى إخراجِه.

الْفَائِدَةُ العِشْرُون: أنَّ أَمرَ الله عَزَّوَجَلَّ الأَمْرَ الكونيَّ لا بُدَّ أن يَقَعَ؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾.

ولو قال قائِل: ﴿أَمْرُ اللَّهِ﴾ مُفرَد مُضاف فيَعُمُّ الأَمْرَ الكونيَّ والشرعيَّ، فنُجيبه: بأن الأَمْر الشرعيَّ ليس مَفعولًا لكُلِّ أحَدٍ، بل فيمَن لا يَفعَله.

الآيــة (٣٨)

• • ◦ • •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ [الأحزاب:٣٨].

• • ◦ • •

قوله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ ﴾: ﴿ مَّا ﴾ نافِية، و﴿كَانَ﴾ فِعْل ماضٍ ناقِص، واسمُها قوله تعالى: ﴿ حَرَجٍ ﴾، لكِنْ فيها ﴿مِنْ﴾ الزائِدةُ لإِثْبات النَّفْي وتَوكِيده، وقوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾، هذا خبَرُها مُقدَّم.

ومَعنَى ﴿فِيمَا فَرَضَ﴾ أي: فيمـا أَحَلَّ الله تعالى له، أيًّا كان، فكُلُّ ما أَحَلَّ الله تعالى، فإنه لا حرَجَ عليه عِند الله تعالى، وإذا كان لا حرَجَ عليه عند الله تعالى فإنه لا يجوز لأحَدٍ أن يَتكلَّم في هذا الذي أحَلَّ الله تعالى له، ويَقول: لِمَ فعَلَ؟ لِمَ صنَعَ؟ وسيأتي -إن شاء الله تعالى- في الفَوائِد: أنَّ هذا عامٌّ للرسول ﷺ ولغَيْره.

وقوله تعالى: ﴿فِيمَا فَرَضَ﴾ الفَرْض تارةً يَتعدَّى باللَّام، وتارةً يَتعدَّى بـ(عَلى)، فيَتعدَّى باللَّام مثل هذه الآيةِ: ﴿فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾، ويَتعدَّى بـ(على) مِثْل: فرَض الله علينا كذا وكذا. فإنْ تَعدَّى بـ(على) فهو بمَعنَى: أَوْجَب، وإن تَعدَّى باللَّام فهو بمَعنَى: أحَلَّ؛ لأنَّ الفَرْض في الأصل بمَعنَى التَّقدير، والمُقدَّر قد يَكون واجِبًا، وقد يَكون مُحلَّلًا.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ أي: كسُنَّة الله تعالى، فنُصِب بنَزْع الخافِض]

يَعنِي: أنَّ الله تعالى نَفَى عنه الحرَج فيمـا أَحَلَّ له؛ لأنَّ هذا هو سُنَّة الله تعالى فيمَـن سبَقَ، و﴿سُـنَّةَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: طَريقته، والمَعنَى: كطريقة الله تعالى فيمَن سبَقَ من الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُ﴾ من الأنبياءِ: أن لَا حَرَجَ عليهم في ذلك تَوسِعة لهم في النِّكاحِ، ﴿وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾؛ فِعْلُه، ﴿قَدَرٗا مَّقۡدُورًا﴾؛ مَقضِيًّا].

يَقول الله عَزَّوَجَلَّ: إنَّ الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كغَيْره من الأنبياءِ السابقين، فما أَحَلَّ الله تعالى له فإنه لا حرَجَ عليه فيه، يَعنِي: لا تَضييق لا مِن قِبَل الله تعالى ولا مِن قِبَل عِباد الله تعالى، وهكذا الأنبياءُ السابِقون ليس عليهم حرَجٌ فيما فرَضَ الله تعالى لهم يَفعَلون ما يَشاؤُون، ما دام الأمرُ مُحلَّلًا لهم.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّه لا حرَجَ على النبيِّ ﷺ فيما أَحَلَّ الله تعالى له، وإن كان مُخالِفًا لما يَعتاده الناس؛ لعُموم قوله تعالى: ﴿مِنۡ حَرَجٖ﴾ و﴿فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ﴾؛ لأن (ما) اسمٌ مَوْصول، فكُلُّ ما أحَلَّ الله تعالى للرسول ﷺ فلا حَرَجَ عليه فيه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنه لا حرَجَ على الإنسان غير الرسول ﷺ فيما أَحَلَّ الله تعالى له؛ لأنَّ ما ثبَتَ في حقِّ النبيِّ ﷺ ثبَتَ في حَقِّ أُمَّته إلَّا بدليل، ولكن يَجِب على الإنسان أن يُراعِيَ أحوال الناس، وما يُستَنكَر عليه فيهِم، حتى لا يُعرِّض نفْسَه للذَّمِّ والقَدْح، فمُراعاة أحوال الناس أَمْرٌ لا بُدَّ منه إلَّا في الأمور الشَّرْعية، فإنَّ الواجِب على المَرْء إبانتُها وإظهارُها.

ويُراعِـي الشخصُ ذمَّ الناس له -وليـس ذمَّ الله تعالى فقَطْ- فبعض الأشياء

المُحلَّلة إذا فعَلها الإنسان صار خارِجًا عن المُروءة في عُـرْف الناس، ومُراعاة هذا الأمرِ لا نَأخُذُه من هذه الآيةِ، فمُـراعاة هذا الأمرِ أمرٌ لا بُدَّ منه، يَعنِي: افـرِضْ أن هناك شَيئًا حلالًا، لكن النَّاس يَنتَقِدونه عليك، وليس هو من الأمور الشرعية التي لا بُدَّ من إبانتها، فالأفضَلُ أن الإنسان أن يَدَعَ هذا.

مَسأَلَةٌ: ما الجَوابُ عن حديثِ: «لَوْلَا أَنَّ قَوْمَكِ حَدِيثُو عَهْدٍ بِكُفْرٍ»(١)؟

الجَوابُ: هذا من مُراعاة دَفْع المَفاسِد؛ لأَنَّه إذا تَحقَّقتِ المَفسَدة فإن المَفسَدة لا يَجوز للإنسان أن يُمارِسَها يَجِب عليه الكَفُّ عنها، فلا تَكون داخِلةً في ما أَحَلَّ الله تعالى له.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تَكليف النبيِّ ﷺ وأنه يَلحَقه الحرَجُ فيما لم يُحِلَّه الله تعالى له؛ لقوله تعالى: ﴿فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾، فيُستَفاد من هذا: أنَّ الرسول ﷺ عبدٌ من عِباد الله تعالى، لا يَخرُج عن طاعته وشريعته، كما قال شيخُ الإسلام محمدُ بنُ عبد الوهَّاب: «إنَّ الرسول مُحمَّدًا ﷺ عَبْدٌ لا يُعبَد، ورسولٌ لا يُكَذَّب»(٢)، وهو كذلك.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن البَيان بالفِعْل أبلَغُ وأَقوَى من البيان بالقَوْل؛ تُؤخَذ من كونِ اللهِ تعالى زوَّج زينبَ بنتَ جَحْش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا رسولَه ﷺ، فإنَّ هذا أبلَغُ في الطُّمَأْنينة وثُبوت الحُكْم.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ ما شرَعَه الله تعالى لرسوله ﷺ في هذه الآيةِ فهو مَشروع لَمِن كان قَبْله؛ لقوله تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُ﴾؛ ورُبَّمـا يُؤخَذ منها

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب فضل مكة وبنيانها، رقم (١٥٨٦)، ومسلم: كتاب الحج، باب نقض الكعبة وبنائها، رقم (١٣٣٣)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) ثلاثة الأصول (ص:٣٨).

فائِدة أيضًا: وهي أن شَرْع من قَبْلنا شَرْع لنا؛ لأن الله تعالى جعَل هذا سُنَّة الأَوَّلين، وقد يُنازَع في ذلك، فيُقال: إن الله تعالى بيَّن أنها شَرَعه لنَبيِّه ﷺ، أو ما نفاه عنه من الحرَج فيما فرَض له، هو سُنَّة مَن قَبْلَه، ولا يَعنِي ذلك أن يُوافِقه.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ أَمْر الله تعالى قد كُتِب وقُدِّر؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾، والمُراد بالأمر هنا الأمر الكَوْنيُّ.

• ● ● •

الآية (٣٩)

• ●〜● •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا﴾ [الأحزاب:٣٩].

• ●〜● •

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في إعرابها: [﴿ٱلَّذِينَ﴾ نَعْتٌ للذين قَبْلَه]، أي: في قوله تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُ﴾ أي: في الذين يُبلِّغون.

وقوله تعالى: ﴿يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ﴾، جَمْع رِسالة، والمُراد بها المُرسَل به، فهم يُبلِّغون ما أَرسَلَهم الله تعالى به، والتَّبليغُ مَعناه: الإيصال، ومنه ما جاء في الحديث: «لَا بَلَاغَ لِيَ الْيَوْمَ»(١).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾؛ لأنَّ الخَشْية عِبادة، والعِبادة لا تكون إلَّا لله عَزَّوَجَلَّ، هذا في الأَصْل مع أنَّ الخَشْية قد تكون غير عِبادة، قد تكون خَوْفًا طبيعيًّا لا يَتعَبَّد به الإنسان الخائِف، فيُفرَّق بين خَشْية الإنسان للناس، وبين خَشْية الإنسان لله تعالى، قال: [فلَا يَخْشَوْن مَقالة الناس فيما أَحَلَّ اللهُ لَهُمْ] وكذلك في غَيْرِها.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا﴾؛ حافِظًا لأعمال خَلْقه ومُحاسَبَتهم] إعرابُ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث أبرص وأعمى وأقرع في بني إسرائيل، رقم (٣٤٦٤)، ومسلم: كتاب الزهد والرقائق، رقم (٢٩٦٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾: (كفَى) تَتَعدَّى بالباء على أنه حَرْف جَرٍّ زائِدٌ، وهو كثير، وقد تَتَعدَّى بنَفْسها إلى الفاعِل، كقول الشاعِر:

.... كَفَى الشَّيْبُ وَالْإِسْلَامُ لِلْمَرْءِ نَاهِيَا(١)

فلَمْ يَأْتِ بالباء، لكِنَّ الأكثَرَ أن يَأْتِيَ بها.

من فوائد الآية الكريمة:

بِناءً على إعراب المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ (الَّذين) بدَلٌ من قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ﴾، يَكون من فَوائِد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: الثَّناء على الرسُل السابِقين؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: الثَّناء على مَن بلَّغ شيئًا من شريعة الله تعالى من غير الرُّسُل، وجهُ ذلك أنَّه إنَّما أُثنِيَ على الرُّسُل؛ لكونهم بلَّغوا الرِّسالة، ولم يَخْشَوْا أحَدًا، فمَن كان مِثلَهم في ذلك فهو مَحَلُّ الثَّناء.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ مِن صِفات الرُّسُل عليهم الصلاة والسلام ألَّا يَخْشَوْا أحَدًا في تبليغ الرِّسالة، وإنها يَخْشَوْن الله تعالى في عدَم تَبليغه، لا يَخْشَوْن الناس في تَبليغها، ويَخْشَوْن الله تعالى في عدَم تَبليغها.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ إبلاغ الرِّسالة من خَشْية الله تعالى، فإنَّه لو لا خَشية الله تعالى ما بلَّغوا رِسالَته.

---

(١) البيت لسحيم مولى بني الحسحاس، انظر: الأدب المفرد للبخاري رقم (١٢٣٨)، والبيان والتبيين (١/ ٧٩)، وسر صناعة الإعراب (١/ ١٥١).

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثباتُ الرِّسالاتِ فيمَن سبَقَ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ﴾، واعلَمْ أنَّه ما مِن أُمَّة من الأُمَم إلَّا أَرسَل الله تعالى إليها رَسولًا؛ لأَجْل أن تَنتَفيَ الحُجَّة عن الله تعالى وتَزول المَعذِرة.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ حِفْظ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في غاية ما يَكون من الحِفْظ؛ لقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾، هذا إذا جعَلْنا (الحسيب) بمَعنَى: (الحَفيظ الكافِي)؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣]، أمَّا إذا جعَلْنا (الحَسيب) بمَعنَى: (المُحاسِب)، فإنَّه يُؤخَذ منها فائِدة وهي: كَمال مُحاسَبة الله عَزَّوَجَلَّ عِباده، وأنه لا يَفوته شيءٌ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إِثْبات عِلْم الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾، سَواء كان (الحَسيب) بمَعنَى: (المُحاسِب) أو بمَعنَى: (الحَفيظ)، فإنَّه لا مُحاسَبةَ إلَّا عن عِلْم، ولا حِفْظ إلَّا بعِلْم.

الآيــة (٤٠)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٠].

ثُمَّ قال الله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾: ﴿مَّا﴾ نافِية، وهل هي حِجازية أو غير عامِلة؟

الجَوابُ: غير عامِلة؛ لأنَّ العمَل لـ(كان) وليس لها، ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ﴾ يَعنِي: رسولَ الله ﷺ ﴿أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾، لم يَقُلْ: ما كانُ رسول الله. بل قال: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ﴾ فتَحدَّث عنه باعتِباره شَخصًا من النَّاس، ثُمَّ قال بعد ذلك: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾، فأَثبَت له الرِّسالة.

وقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾: ﴿أَبَآ﴾ بالألِف؛ لأنَّها خبَرُ (كان)، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ فليس أبا زَيدٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ أي: والِده، فلا يَحرُم عليه التَّزوُّج بزَوْجته زينبَ].

قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ تبنِّيًا، وولادةً أيضًا؛ لأن أبناء الرسول ﷺ الثلاثة تُوُفُّوا قبل أن يَبلُغوا الرُّجولة، كلُّهم تُوُفُّوا وهُمْ صِغار، وقال بعضُ أهل العِلْم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: إن المُراد: أبا أحَدٍ من رِجالكم تَبنِّيًا؛ لأنه تعالى قال: ﴿مِّن رِّجَالِكُمْ﴾، فأَضاف الرِّجال إليه، ولم يَقُل: أبا أحَدٍ من الرِّجال.

وعلى هذا فلا يَكون في الآية دَليل على أنَّه ليس أبًا لأحَد من الرِّجال نَسَبًا وتَبنِّيًا، وهذا هو الأقرَبُ: أن المُراد: أبا أحَد من رِجالكم تبنِّيًا؛ لأَجْل أن يَنفِيَ ما كان مَعروفًا عندهم من أنَّ زَيدَ بنَ حارِثةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ابنٌ لرسول ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ تقَدَّم فيما سبَق في قوله تعالى: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ أنَّ بعض السَّلَف قرأَ: «وَهُوَ أَبٌ لَهمْ» فكيف يُجمَع بَينَه وبين هذه الآيةِ؟

الجَمْع بينهما أن يُقال: هنا ليس أبا أحَدٍ من الرِّجال بالتَّبنِّي، ولكنه أبٌ للمُؤمِنين باعتِبار التعليم والتَّوْجيه والإرشاد.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَٰكِن﴾ كان ﴿رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾] أفادَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن ﴿رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾ مَنصوبة بِفِعْل مَحذوف تَقديرُه: كان رسولَ الله.

وقوله تعالى: ﴿رَّسُولَ﴾ بمَعنَى: مُرسَل؛ أي: مُرسَل اللهِ عَزَّوَجَلَّ لعِباده، ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ يَعنِي: وكان خاتَمَ النَّبيِّين، قال: [فلا يَكون له ابنٌ رجُلٌ بعدَه يكون نَبيًّا] وهذا التَّفسيرُ الذي ذهَب إليه المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيه نظَر؛ لأنه يَقول: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ إِذَنْ ليس له ولَدٌ بعده يَكون رجُلًا فيَكون نَبيًّا، وهذا بِناءً على أنَّه يَلزَم أن يَكون ابنُ نَبيٍّ بعدَه نبيًّا، وهذا ليس بلازِم، فإنَّ بعض الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ ليس كلهم أولادُهم أنبياءُ، صحيح أنَّ كثيرًا من الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ صار أولادُه أنبياءَ كإبراهيمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مثلًا، ولكن لا يَعنِي ذلك أن جميع الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ يَلزَم من كونهم أنبياءَ إذا خلَّفوا أولادًا أن يَكونوا أنبياءَ، ولكن معنى قوله تعالى: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ أنه لا نَبيَّ بعده، هذا مَعنَى الآية التي لا يُحتَمل غيرُه.

وقوله تعالى: ﴿وَخَاتَمَ﴾ فيها قِراءَتان إحداهُما بالكَسْر والثانية بالفَتْح، وهي عِندي في التفسير بالكَسْر «وخاتِم النَّبيّين» على أن (خاتِم) اسمُ فاعِل، يَعنِي: الذي يَختِمُهم، قال: [وفي قِراءة بفَتْح التاء، كآلَة الخَتْم، أي: به خُتِموا] ففَتْح التاء ﴿وَخَاتَمَ﴾ والخاتَم ما يُختَم به الشيء، مثل الخاتَم الذي يَكون في الإِصبَع، وكُتِب عليه اسمُ صاحِبه، فإذا أَراد أن يَختِم الكِتاب ختَمَه بهذا الخاتَم، والنبيُّ ﷺ خاتِم وخاتَم، فهو خاتِم؛ لأنه آخِرُهم، وخاتَم كأنه طَبْع على الرِّسالات، بعد ذلك فلا يُمكِن أن يَأتِيَ بعده رِسالة، وهذه هي فائِدة القِراءَتَيْن.

وقوله تعالى: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ هذا كما تَرَوْن في القُرآن، وفي السُّنَّة أيضًا أدِلَّة كثيرة تَدُلُّ على أنه خاتَم الأنبياء عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وعلى هذا فلا نَبيَّ بعدَه.

فإن قلتَ: ألَمْ يَثبُت أنَّ عيسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَنزِل في آخِر الزمان وهو نَبيٌّ؟

فالجَوابُ: بلى، يَنزِل وهو نَبيٌّ، لكن نُبوَّة عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لم تَتجدَّد بعدُ، بل كان نبيًّا من قَبلِ أن يُرفَع، ولم يَتجَدَّد له نُبوَّة بعد نُبوَّة النبيِّ ﷺ، فكان النبيُّ ﷺ خاتَمَ الأنبياء، وهل يَأتي عِيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بشَريعة جَديدة؟ لا.

فإن قُلتَ: أَلَيْس يَضَع الجِزْية، ويَكسِر الصَّلِيب، ويَقتُل الخِنزير، ولا يَقبَل إلَّا الإسلام؟

فالجَوابُ: بلى! وهذه الأحكامُ مُخالِفة لحُكْم الشَّريعة الآنَ، فهل مَعنَى ذلك بأنه يَأتي بأحكام مُتجَدِّدة؟

الجَوابُ: لا؛ لأنَّ إخبار النَّبيِّ ﷺ بذلك[1] يَكون إقرارًا له، فيَكون هذا من سُنَّة

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب قتل الخنزير، رقم (٢٢٢٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب نزول عيسى ابن مريم حاكمًا بشريعة نبينا محمد ﷺ رقم (١٥٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الرسول ﷺ؛ لأنه من المَعلوم أنَّ سُنَّة الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هي قوله وفِعْله وإقرارُه، فإذا قال ذلك عن عِيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مُقرِّرًا له صار ذلك من سُنَّته، وحينئذ فلم يَأتِ عِيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بنُبوَّة جَديدة، ولم يَأتِ بتَشريع جَديد، ولا إِشْكالَ في ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾: (كان) هنا مَسلوبة الزَّمان، وإنَّما يُؤتَى بها لتَحقُّق الصِّفة، وهي العِلْم، قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ منه بأَنْ لا نَبيَّ بعدَه] يَعنِي: من العِلْم الذي عَلِمه اللهُ تعالى أنه لا نَبيَّ بعده؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ يَشمَل حتى أعمال بَني آدَمَ؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق:١٦]، قَبْل أن يَعمَله.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [وإذا نزَلَ السَّيِّد عِيسَى يَحكُم بشَريعتهم] قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [إذا نزَل السَّيِّد] والله ما وصفه بهذا، ففي سورة آل عمرانَ: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ [آل عمران:٤٦] قال: ﴿وَجِيهًا﴾ لكن ما قال: سَيِّد.

وعلى كل حالٍ: أنا أَخشَى أنَّ هذه الكلِمةَ دخَلت على المُفَسِّر من عِبارات النَّصارى؛ لأنَّهم دائِمًا يَقولون: السَّيِّد المَسيح، السَّيِّد المَسيح. ولا شَكَّ أنَّه سَيِّد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لأنه نَبيٌّ من الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

يَقول رَحِمَهُ اللَّهُ: [يَحكُم بشَريعته] وحِينئذ لا يَأتي بشَريعة جَديدة، فلا يُنافِي الآيَةَ: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، وقد علِمتُم أنه يَرِد على قَضية نُزول عِيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، يَرِد عليها إِيرادانِ:

أوَّلًا: أنَّه نبيٌّ فكيف يكون نبيًّا والرسولُ ﷺ هو خاتَمُ الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

ثانيًا: أنه يَحصُل به تَغيير لبعض أَحكام الشَّريعة، وأَجَبْنا عن ذلك.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: إِبْطال بُنوَّة الأَدْعياء؛ لقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾.

وهل يُستَفاد منها أنَّ الرسول ﷺ ليس أبًا لأَحَد من الرَّضاع أو لأَحَد من النَّسَب؟

الجَوابُ: لا يُستَفاد؛ لأنه ثبَت أن له أبناءً، لكن بعض العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ يقولون: إنَّ أبناءَه لم يَبلُغوا أن يَكونوا رِجالًا، فالآية عامَّة، ولكنه تَبيَّن لي أنَّ هذا لا يَصِحُّ أيضًا؛ لأنَّ الرسول ﷺ له أبناءٌ كانوا رِجالًا، ولهم ذُرِّيَّة، وهم: الحَسَن والحُسَين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فالرسول ﷺ قال: «إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ»[(١)]، فسمَّاه ابنًا، وقد عقَّ أيضًا عن الحَسَنِ والحُسَينِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا الرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هو بنَفْسه[(٢)].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: ثُبوت رِسالة النبيِّ ﷺ؛ لقَوْله تعالى: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ رسول الله ﷺ آخِرُ الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ؛ لقوله تعالى: «وَخَاتِمَ النَّبِيِّينَ».

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلح، باب قول النبي ﷺ للحسن بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «ابني هذا سيد»، رقم (٢٧٠٤)، من حديث أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الضحايا، باب في العقيقة، رقم (٢٨٤١)، والنسائي: كتاب العقيقة، باب كم يعق عن الجارية، رقم (٤٢١٩)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنه أَفضَلُ الأنبياء على قِراءة: ﴿وَخَاتَمَ﴾ بالفَتْح؛ لأنَّ الخاتَم هو الطابَع على الشيء، وهو الشيءُ الذي يَكمُل به الشيء ويَنتَهِي؛ ولهذا وصَفَ النبيُّ ﷺ نَفْسه مع الأنبياء بأنه كأنه كقَصْر مَشيد يَطوف به الناس ويَقولون: ما أجمَلَ هذا القَصرَ! إلَّا أن فيه مَوضِعَ لَبِنة لم يَتِمَّ إلَّا مَوضِع هذه اللَّبِنةِ! فقال الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «فَأَنَا اللَّبِنَةُ وَأَنَا خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ»[1].

فبه تَمَّتِ الرِّسالات وكمَلَت؛ ولهذا دِينُ الرسولِ ﷺ لاحَظوا أن دِين الرسول ﷺ شامِل لجَميع محَاسِن الأديان، فكُلُّ محَاسِن الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ التي تُوجَد فيها من نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى محُمَّد ﷺ، فإنَّ دِينه شامِل لجَميع محَاسِنهم، والدليلُ على ذلك قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾، فكلُّ هُدَى الأنبياءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ قدِ اقتَدَى به النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، إِذَنْ فما من صَلاح في جميع الأديان وكمال إلَّا وجاء به محُمَّد ﷺ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّه لا نَبيَّ بعد محُمَّد ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، «وَخَاتِم».

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ مَنِ ادَّعى النُّبوَّة بعده فهو كاذِب، ولو جاء بما جاء به من الخَوارِق؛ لقَولِه تعالى: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، وهذا خَبَر، وخبَرُ الله تعالى صِدْق لا يُمكِن أن يَتطَرَّق إليه الكَذِب بوَجْه من الوُجوه.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ مَن صدَّق مُدَّعِي النُّبوَّة بعد محُمَّد ﷺ فهو كافِر؛ لأنه مُكذِّب للقُرآن، ومُكذِّبُ القُرآن كافِر.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب خاتم النبيين ﷺ، رقم (٣٥٣٥)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين، رقم (٢٢٨٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنه لا نَبيَّ ولا رسولَ بعد مُحَمَّـد ﷺ، أو نَكتَفِي بالفائِدة التي قَبلَها، ولا نبيَّ ولا رَسولَ أيضًا إذا انتَفَتِ النُّبوةُ انتَفَتِ الرسالةُ، إذ إن الرسول نَبيٌّ وزِيادةٌ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: إثبات النُّبـوَّات السابِقـة؛ لقوله تعالى: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـنَ﴾، و﴿ٱلنَّبِيِّـنَ﴾ جَمْع نَبيٍّ، وهُم كَثيرون جِدًّا، لكن الرُّسُل منهم ثلاثُ مِئة وبِضعة عشَرَ رجُلًا، لم يُذكَر منهم في القُرآن إلَّا خَمْسة وعِشْرون، وكلُّ مَن ذُكِر في القُرآن من الأنبياءِ فهو رَسـولٌ حتى وإن لَمْ يُوصَـف بالرِّسالة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ [غافر:٧٨]، فـدَلَّ هذا على أن كل مَن قَصَّ الله تعالى علينا نَبأَه في القُرآن فهو رسولٌ حتى وإن لم يُوصَف بالرِّسالة مثل: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم:٤١]، وما أَشبَهَها.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: عُمـوم عِلْم الله تعالى؛ لقـوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّ إقرار الله تعالى للرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وتَأييده له شاهِـدٌ لصِدْق رِسـالته؛ لأنه تعالى قال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾، فلو عَلِم الله تعالى أن مُحَمَّدًا غيرُ رسولٍ لكان كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ [الحاقة:٤٤-٤٦]، ﴿ٱلْوَتِينَ﴾: عِرْق في القَلْب لو قُطِع مات، فكَوْن الله تعالى يُؤَيِّده ويَنصُـره ويَفتَح على يَدَيْه، وهو يَقـول: إنه رسول الله تعالى، وإنه أَذِن له باسـتِباحة أَموالكم، وأَخْـذ رِقابكم إذا لم تَدخُلـوا في الإسلام، ولم تُؤَدُّوا الجِـزْية. يَكون هذا آيةً من آيات الله تعالى له؛ ولهذا خَتَم الآية هـذه التي أَثبَتَت له الرِّسالة بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: وُجوب مُراقَبة العبد رَبَّه؛ تُؤخَذ من قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾، فأنت إذا عَلِمت أنَّ الله عالِم بكُلِّ شَيء، ومِن الشَّيءِ: قَولُك، وفِعْلك، وفِكْرك، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾، والله لو كان عِندنا هذا الإيمانُ ثابِتً راسِخًا لكان الإنسان تَقِلُّ مَعاصيه ومُخالَفته، لكن الإنسان في غَفْلة، إذا علِمت أنك تحرَّكت عَلِم الله تعالى بِكَ، إن سكَنْت عَلِمَ اللهُ تعالى بك، إن نطَقْت عَلِم اللهُ تعالى بك، إن سكَتَّ عَلِمَ الله تعالى بكَ، إن فكَّرْتَ عَلِم الله تعالى بك، هذا يُوجِب لك مُراقَبة الله عَزَّوَجَلَّ، وألَّا يَفقِدك حيث أَمَرَك، ولا يَراك حيث نَهاك.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: الرَّدُّ على غُلاة القَدَرية؛ فإنهم أنكَروا عِلْم الله تعالى بما يَصنَعه العِباد قبل وُقوعه مِنْهم، والآيَةُ هذه فيها رَدٌّ عليهم: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: سَعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، سَعته في كل شيء، في صِفاته، وفي أسمائه، وفي أفعاله، كما قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾ [النساء:١٣٠]، ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٤٧]، فتُؤخَذ من قوله تعالى: ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ الذي بكُلِّ شَيْء عَليم لا شَكَّ أنه واسِع.

الآيتان (٤١، ٤٢)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب:٤١-٤٢].

ثُمَّ قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ قال ابنُ مَسعود رَضِيَٱللَّهُعَنهُ: «إذا سمِعْت الله تعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فأَرْعِها سَمْعك، فإمَّا خَيْرٌ تُؤمَر به، وإمَّا شَرٌّ تُنهَى عنه»[1]، وإذا نادَى الله تعالى المُؤمِنين بوَصْف الإيمان فإن هذا من باب الإغراء لهم على امتِثال الأَمْر إن كان المُوجَّه إليهم أَمْرًا، وعلى اجتِناب النهيِ إن كان المُوجَّه إليهم نَهيًا؛ لأنك إذا ذكَرْت الإنسان بوَصْف يَقتَضي الامتِثال فمَعنَى ذلك أنك تُغريه بأن يَمتَثِل، وإذا خاطَب الله تعالى المُؤمِنين بوَصْف الإيمان كان ذلك دَليلًا على أنما ما خُوطِبوا به من مُقتَضيات الإيمان، وأن مُخالَفته نَقْص في الإيمان، وإذا صدَّر الله تعالى الحُكْم بالنِّداء كان في ذلك دليلٌ على أَهمِّيَّته والاعتِناء به ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾.

والذِّكر كما سبَق يَكون باللِّسان، ويَكون بالقَلْب، ويَكون بالجَوارِح، وقوله تعالى: ﴿ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ غيرُ مُقيَّد بمِئة ولا مِئتَين ولا أَلْفٍ ولا أَلْفَين ﴿ذِكْرًا كَثِيرًا﴾، والإنسانُ العاقِل يُمكِنه أن يَذكُر الله تعالى دائِمًا، والإنسان الغافِل يَغفُل عن ذلك.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في الزهد رقم (٨٦٦)، وسعيد بن منصور في السنن رقم (٥٠) [ط. الصميعي]، وابن أبي حاتم في التفسير (١/ ١٩٦).

وقوله تعالى: ﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ هذا ذِكْر خاصٌّ بعد عامٍّ في العمَل وفي الزمَن، أمَّا في العمَل فإنَّ التَّسبيح من الذِّكْر فهو تَخصيص بعد تَعميم، وأمَّا في الزمَن فهنا خَصَّه بالبُكْرة والأصيل.

وأمَّا الذِّكـر فأُطلِق، وهـذه الآيـةُ كقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه:١٣٠].

وقوله تعالى: ﴿ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ﴾ التَّسبيحُ مَعناه: التَّنزيهُ عن كل نَقْص وعَيْب، ومن العَيْب مُشابَهة المَخلوقين أو مُماثَلة المَخلوقين، فأنت إذا قُلْت: سُبحانَ الله. فالمَعنَى أنك تُنزِّه الله تعالى عن كل نَقْص وعَيْب، ومِنه -أي: من العُيوب- مُماثَلة المَخلوقيـن، فهو مُنزَّهٌ عن مُماثَلة المَخلوقيـن، وعن كل نَقْص في صِفاته، فهو سَميع مُنزَّهٌ عن نَقْص السَّمْع، عليم مُنزَّهٌ عن نَقْص العِلْم، وهكذا بَقيَّة الصِّفات.

وقوله تعالى: ﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أوَّل النَّهار وآخِره] يَعنِي: البُكْرة أوَّلُ النَّهار، والأصيلُ آخِرُ النَّهار، وعلى هذا فيَكـون الله عَزَّوَجَلَّ قد أَمَـرَنا أن نُسبِّحه الصَّباحَ والمَساءَ.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَة الأُولَى: بَيان العِناية بالذِّكْر؛ لأن الله تعالى عند الأَمْر به صَدَّره بالنِّداء.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الذِّكْر من الإيمـان بالله تعالى ومن مُقتَضياته؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الإيمـان يَزيدُ به -أيِ: الذِّكْر-، وجهُه: أنَّ كل ما كان من مُقتَضيات الشيء فإنه يَزداد به.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ نَقص الذِّكر نَقْص في الإيمان.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: مَشروعية ذِكْر الله تعالى بكثرة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: مَشروعية التَّسبيح؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحُوهُ﴾، لكن في الغُدوِّ والآصال، قال تعالى: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾؛ ولا شَكَّ أنَّ التَّسبيح في كل وَقْت، لكن كثرة التَّسبيح في أوَّل اليَوْم وآخِره.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: تَنزُّهُ الله تعالى عن كل نَقْص وعَيْب؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحُوهُ﴾، فأَمَرنا بأن نُنزِّهَه؛ لأنه مُستَحِقٌّ لذلك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ الذِّكْر حَياة للقَلْب؛ لأن الله تعالى أَمَر به على وَجْه الكَثْرة، فلولا الفائِدة العَظيمة منه ما أَمَر به على سَبيل الكَثْرة.

• ● ۞ ● •

الآية (٤٣)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣].

• • • •

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ﴾ أي: يرحمكم ﴿وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾؛ أي: يَستَغفِرون لكم] فسَّرَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ الصلاة بالنِّسبة إلى الله تعالى: بالرَّحْمة، وبالنِّسبة إلى المَلائِكة: بالاستِغْفار، فقال تعالى: ﴿يُصَلِّى عَلَيْكُمْ﴾ يرحمكم، ﴿وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ يَستَغفِرون لكم، وهذا فيه نظَرٌ، والصواب أنَّ مَعنى ﴿يُصَلِّى عَلَيْكُمْ﴾ أَيْ: يُثني عليكم في المَلأ الأَعْلى، والمَلائِكة أيضًا يُثنُون عليكم، هذا هو مَعنَى الصلاة من الله تعالى ومن المَلائِكة أيضًا.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ فيها إِشْكال من حيث الإعراب فقوله تعالى: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ مَرفوعة، وابنُ مالِكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول:

وَإِنْ عَلَى ضَمِيرِ رَفْعٍ مُتَّصِلْ عَطَفْتَ فَافْصِلْ بِالضَّمِيرِ الْمُنْفَصِلْ

أو فاصِلٍ ما........................ ....(١)

وهُنا لم يَأتِ بالضمير، وما قال: (هو الذي يُصلِّي عَلَيْكم هو ومَلائِكتُه)،

(١) الألفية (ص:٤٨).

أو فاصِل ما، وهذا داخِل في قوله: (أو فاصِل ما) والفاصِل هنا هو الجارُّ والمَجرور؛ ولذلك إذا قُلْت: قُمْتُ وزَيْدٌ. هذا ضعيف، والأَرجَح منه أن تَقول: قُمتُ وزَيْدًا. على أنها مَفعول معه، أمَّا إذا فصَلْت فقلت: قُمْت أنا وزَيْدٌ. أو قُمْتُ في الناس خَطيبًا وزَيْدٌ. وفصَلْتَ، فهذا لا بأسَ به، وهنا فَصَل بالجارِّ والمَجرور.

وقوله تعالى: ﴿يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ أَضاف الله تعالى المَلائِكة إليه من باب التَّشريف لهم؛ لأنهم ملائِكته، وهم أيضًا مَخلوقون له، والمَلائِكة كما تَقدَّم هم عالَمٌ غَيبيٌّ خلَقَهم الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ من نُور، ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء:٢٠]، ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦].

وهل يُمكِن أن يَكونوا من عالَمِ الشَّهادة؟

نعَمْ، كما جاء جِبريلُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إلى مَريَمَ عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم:١٧]، وجاء إلى النبيِّ ﷺ يَسأَله عن الإسلام والإيمان والإحسان في صورة رجُلٍ؛ شَديدِ بَياضِ الثِّياب، شَديد سَواد الشَّعْر، لا يُرى عليه أَثَرُ السَّفَر، ولا يَعرِفه أحَدٌ من الصَّحابة(١)، وكما جاء في صُورة دِحيةَ الكَلْبيِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ(٢)، وغير ذلك، لكنَّ الأصل أنَّهم عالَمٌ غَيبيٌّ.

ولهم أَجْساد، ولا جسَدَ إلَّا برُوح، فلَهُم أَجْساد وأَرْواح؛ ولهذا سَمَّى الله تعالى جِبريلَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ رُوحًا، ورآه النَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ على خِلْقته مرَّتَين، وله

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام، رقم (٨)، من حديث عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم (٣٦٣٤)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أم سلمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، رقم (٢٤٥١)، من حديث أسامة بن زيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

سِتُّ مِئة جَناح[1] قد سَدَّ الأُفُق[2].

وقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ اللَّام في قوله تعالى: ﴿لِيُخْرِجَكُم﴾ للتَّعليل، قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لِيُديم إِخْراجه إيَّاكُم] إنما صرَف اللَّفْظ إلى مَعنَى الإِدامة؛ لأنه يُخاطِب المُؤمنين، وإذا كان يُخاطِب المُؤمِنين فإنهم قد أُخرِجوا من الظُّلُمات إلى النُّور من الأَصْل، ولكن قد يُقال: إنه لا حاجةَ إلى هذا التَّأويلِ، وأنَّ مَعنَى قولِه تعالى: ﴿لِيُخْرِجَكُم﴾ أي: ليَزيدَكم عِلْمًا وإيمانًا.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾؛ أي: الكُفْر، ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾؛ أي: الإِيمان]، لا شَكَّ أنَّ الكُفر ظُلُمات، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣]، ولا شَكَّ أيضًا أنَّ الإيمان نُور، ولكن الآية أعَمُّ ممَّا قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فهو قال: ليُخرِجَكم من ظُلُمات الجَهْل والكُفْر إلى نُور العِلْم والإيمان، فيَكون المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد قَصَّر أو تَقاصَر في تَفسيره للآية، والصواب أنه يُخرِجهم من ظُلُمات الجَهْل والكُفْر إلى نور العِلْم والإيمان.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾: (كان) يَعنِي: الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ جارٌّ ومَجرور مُتعلِّق بـ﴿رَحِيمًا﴾ قُدِّم عليه للحَصْر؛ لأن هذه الرحمةَ رَحمة خاصَّة للمُؤمِنين، تَقتَضي العِناية بهم وتَوفيقهم وهِدايتهم إلى الخَيْر، وأمَّا الرحمة العامة فهي للمُؤمِنين وغير المُؤمِنين، لكن الرحمة الخاصَّة للمُؤمِنين فقَطْ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين، رقم (٣٢٣٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب في ذكر سدرة المنتهى، رقم (١٧٤)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين، رقم (٣٢٣٥)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معنى قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾، رقم (١٧٧)، من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: فَضيلة الإيمان، وأنه سبَب في ثَناء الله تعالى وملائكته على عَبْده؛ تُؤخَذ من قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ﴾ بعد أن قال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثباتُ الكلام لله عَزَّوَجَلَّ؛ تُؤخَذ من قوله تعالى: ﴿يُصَلِّى﴾؛ لأنَّ الصلاة منه تعالى هي: الثَّناء على العَبْد في المَلَأ الأَعْلى.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: محبَّة الله تعالى للمُؤمِنين، ومحبَّة المَلائِكة لهم؛ تُؤخَذ من الثَّناء عليهم، والصلاة عليهم؛ لأن مَن يُحِبُّك يُثْنِي عليك، ومَن يُبغِضُك يَذُمُّك.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّه يَجِب علينا محبَّة الله عَزَّوَجَلَّ ومَلائِكته؛ لما لَهُمْ علينا من الفَضْل والإحسان، فإنَّهم يُصلُّون علينا، فهذا يَقتَضي أن نُحِبَّهم.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثباتُ الملائكة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: فضيلة المَلائِكة؛ تُؤخَذ من قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ﴾ فالإضافة للتَّشريف والتَّكريم، ففيه فَضيلة المَلائِكة؛ لأن الله تعالى أَضافهم إليه.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثبات العِلَل والحِكَم لأفعال الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ الجَهْل والكُفْر ظُلْم؛ لقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣]، وقال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ﴾ [الأنعام:١٢٢]؛ أي: في الجَهْل، ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: فَضيلة المُؤمنين، وأنَّ لهم عِند الله تعالى رَحمةً خاصَّةً؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: الحَثُّ على الإيمان والتَّرغيب فيه؛ تُؤخَذ من قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾، فإنَّ الله تعالى ما أَخبَرَنا هنا في هذه الآيةِ الكَريمةِ لُمجَرَّد أن نَعلَم أنه رَحيم بالمُؤمِنين، ولكن من أَجْل أن نَتعَرَّض لهذه الرَّحمةِ الخاصَّة، فنكون من المُؤمِنين.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: إثبات الرحمة لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: الرَّدُّ على الأَشعَرِيَّة ونَحوِهم ممَّن يُنكِرون وَصْف الله تعالى بالرَّحْمة؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ﴾ فالضَّمير في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ﴾ يَعود على (الله)، و(الرحيم) خبرٌ لُمبتَدَأ، فهو وَصْفه.

• • ۞ • •

الآيــة (٤٤)

• ● ● •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٤].

• ● ● •

قوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ الضَّمير يَعود على المُؤمِنين، والتَّحيَّة مَعناها: الدعاءُ بالبَقاء، فإذا قال: حيَّاكَ؛ أي: دعا لكَ بالبقاء، ثُم صارت اسْمًا لما يُستقبَل به الضَّيْف، أو الداخِل، أو ما أَشبَه ذلك ممَّا يَدُلُّ على الإكرام، فالتَّحيَّة إذَنْ في الأصل: الدُّعاء بالبَقاء والحَياة، ثُمَّ نُقِلت في العُرْف إلى كل ما يُحيَّا به المَرْء، ويُستَقبَل به من عِبارات التَّكريم، فتَحيَّتُهم؛ أي: تَحيَّة المُؤمِنين.

﴿يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ﴾ يَلقَوْن الله تعالى، يَوْم يَلقَوْن الله تعالى، وذلك يَوْم القِيامة، سواءٌ كان في عرَصات القِيامة، أو كان بعد دُخولهم الجَنَّة، فتَحيَّتُهم حينئذٍ ﴿سَلَٰمٌ﴾.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِلِسان المَلائِكة] يَعنِي: أنَّ المَلائِكة همُ الذين يُسلِّمون على هؤلاء بأَمْر الله تعالى، فإذا سلَّموا على هَؤلاء بأَمْر الله تعالى صار كأن المُسلِّم هو الله تعالى، ولكن هذا صَرْف للآية عن ظاهِرها، فإن ظاهِر الآية أن الذي يُسلِّم هو الله عَزَّوَجَلَّ، وإذا كان السَّلام من الله تعالى فهو خبرٌ مَحْضٌ، وليس دُعاءً؛ لأن الله تعالى لا يَدعو أحَدًا، ولكن يُخبِر بالسَّلام الدائِم الذي لا يَعترِيه أيُّ نَقْص أو أي خَوْف.

أمَّا إذا كان مِن الملائِكة فإنه يَحتَمِل الخبَر، ويَحتَمِل الدُّعاء، ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ

عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد:٢٣-٢٤].

إنَّما الصَّواب -بلا شَكٍّ- أنَّ هذا السلامَ من الله تعالى؛ لأنَّه يَقول: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾، المُلاقَى هو الذي يُسلِّم، وهو الذي يُحيِّي هؤلاءِ، ولا شَكَّ أنَّ الربَّ عَزَّوَجَلَّ إذا قال لهم: سَلام عليكم. سيَنزِل عنهم كلُّ خَوْف؛ ولهذا تُسمَّى الجَنَّة دارَ السَّلام، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس:٢٥]؛ لأنها دار سالِمة من كُلِّ آفةٍ، لا فيها مرَضٌ، ولا فيها مَوْتٌ، ولا فيها هرَمٌ، ولا فيها نَقْصٌ في الرِّزْق، بل فيها ما لا عينٌ رأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعتْ، ولا خطَرَ على قَلْب بشَرٍ، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧]، ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾.

إِذَنْ: لمَّا قال تعالى: ﴿سَلَٰمٌ﴾ أي: من الآفات ذكَرَ بعد ذلك: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾، وهذا تَحْلية بعد تَخْلية، حين أَخبرَهم أنهم سالِمون من كُلِّ آفةٍ بيَّن أنه أَعَدَّ لهم أَجْرًا كريمًا، قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [هو الجَنَّة] والأَجْر بمَعنَى: الثَّواب، وهو ما يُعطَى الأجيرَ في مُقابَلة عمَله، ويُسمَّى أجرًا، ويُسمَّى أُجْرةً، ولكن سبَق لنا مَرَّاتٍ كثيرةً: أنَّ أَجْر العامِلين على عمَلهم ليس من باب المُعاوَضة؛ لأنه لو كان من باب المُعاوَضة لكان نِعْمة واحِدة من نِعَم الله تعالى على العَبْد تَستَوعِب جميع عمَله، بل لو كان على سبيل المُعاوَضة لكان تُوفيقُك للعمَل نِعْمة يَحتاج إلى أَجْر؛ ولهذا قال بعضُهم:

إِذَا كَانَ شُكْرِي نِعْمَةَ اللهِ نِعْمَةً ... عَلَيَّ لَهُ فِي مِثْلِهَا يَجِبُ الشُّكْرُ
فَكَيْفَ بُلُوغُ الشُّكْرِ إِلَّا بِفَضْلِهِ ... وَإِنْ طَالَتِ الْأَيَّامُ وَاتَّصَلَ الْعُمْرُ[1]

(١) الأبيات لمحمود الوراق، انظر: الشكر لابن أبي الدنيا رقم (٨٣)، والصناعتين لأبي هلال العسكري (ص:٢٣٢)، وشعب الإيمان للبيهقي رقم (٤٠٩٩).

وثَبت عن النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنه قال: «لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ أَحَدٌ بِعَمَلِهِ»، قالوا: ولا أَنْت يا رَسولَ الله؟ قال: «وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحْمَتِهِ»(١).

إِذَنْ: فالعمَل نَصِفُه إذا لم يَكُن عِوَضًا بأنه سبَب، وليس بعِوَض؛ ولهذا صرَّح الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في عِدَّة آيات بأن الثَّواب هذا جَزاءً بما كانوا يَعمَلون؛ أي: بسبَب ما كانوا يَعمَلون، فالباء للسَّببيَّة في قوله تعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧]، والباء للعِوَض في قول الرسول ﷺ: «لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ أَحَدٌ بِعَمَلِهِ»، وبهذا يُجمَع بين النَّصَّيْن.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ الأَجْر هو الكريمُ أَمِ الكريمُ هو المُتفضِّلُ بالأَجْر؟

الجَوابُ: يَجِب أن نَعلَم أن الكريم يُطلَق على الجَوَاد الباذِل للمال، ويُطلَق على الشيء الحسَن، ومنه قوله ﷺ لمُعاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ»(٢) يَعنِي: الحَسَنة، فقوله تعالى: ﴿أَجْرًا كَرِيمًا﴾؛ أي: حسَنًا، فما وجهُ كرَم هذا الثَّوابِ أو هذا الأَجْرِ؟

الجَوابُ: أنَّ الله تعالى جعَل الحَسَنة بعَشْر أمثالها إلى سَبعِ مِئة ضِعْف إلى أَضعاف كثيرة، هذا من وَجْه، ومن وَجْهٍ آخَرَ أنَّ مُدَّة بقاء الإنسان في الدنيا بالنِّسبة للآخِرة ليست بشَيْء إطلاقًا ولا يُنسَب، فالرسول ﷺ يَقول: «لَمَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ مِنَ الجَنَّةِ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المرضى، باب تمني المريض الموت، رقم (٥٦٧٣)، ومسلم: كتاب صفة القيامة، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى، رقم (٢٨١٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء، رقم (١٤٩٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، رقم (١٩)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»[1]، فـ«مَوْضِعُ السَّوْطِ» السَّوْط -كما يُعرَف- حوالي مِتر، خَير من الدُّنيا وما فيها، إذَنْ فكَرَم هذا الثوابِ يَعنِي: لا يُنسَب العمَل إليه؛ لأنه كَرَم واسِع لا نِهايةَ له ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾، اللهُمَّ اجعَلْنا وإيَّاكم منهم.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: إثبات البَعْث؛ لقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إِثْبات كلام الله تعالى، وأنه يَتكَلَّم؛ لقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿سَلَٰمٞ﴾، ويُؤيِّده قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾ [يس:٥٨]؛ لأنه يَتكلَّم به تعالى، ويَقوله قولًا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: البُشْرى العَظيمة للمُؤمِنين، وأنَّ الله نفسه جَلَّ وَعَلَا يُحيِّيهم بهذه التَّحيَّةِ؛ لقوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞ﴾، لو أنَّ مَلِكًا من مُلوك الدُّنيا وعَدَك بهذا، وقال: إنه سيُحَيِّيك بالسَّلام، ويُقدِّم لك القِرَى الكريم الحسَن كيف يَكون فرَحُك؟! فكيف إذا كان الله عَزَّوَجَلَّ يُخبِر عن نفسه بأنه سيُحَيِّي المُؤمِنين بهذه التَّحيةِ مع تَقديم هذا الأَجْرِ العظيمِ؛ ولهذا تُعتبَر هذه الآيةُ فيها بِشارة، وهي من فَوائِدها: البِشارة العُظمى للمُؤمِنين، بأن الله تعالى يُحيِّيهم، ويُعِدُّ لهم الأَجْر الكَريم.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الآخِرة فيها آفاتٌ وأذًى يَسلَم منها مَن يَسلَم ويَعطَب فيها مَن يَعطَب؛ لقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞ﴾، أمَّا غيرُهم فلا سَلامَ لهم؛ لأنهم يُعذَّبون في النار، والعِياذُ بالله.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب فضل رباط يوم في سبيل الله، رقم (٢٨٩٢)، من حديث سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثباتُ الجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ الأَجْر الذي أَعَدَّه الله تعالى للمُؤمنين أَجْر حسَن، بل هو كما قال الله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ﴾، يَعني: أحسَن شيء، ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾.

• ● ❁ ● •

الآيتان (٤٥، ٤٦)

• ● ● •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ [الأحزاب:٤٥-٤٦].

• ● ● •

ثُمَّ قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ﴾ تَشريفًا له وإظهارًا لنُبوَّته.

وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ ﴾ جَمَع له بين الوَصْفين؛ النُّبوَّة والرِّسالة على وَجْه صريح، وإلَّا فلو وُصِف بالرِّسالة وحدَها لتَضمَّنَت وَصْفه بالنُّبوَّة؛ لأنَّ كلَّ رَسول نبيٌّ، وليس كل نَبيٍّ رَسولًا، لكن الجمْع بين الوَصْفين أَوْلى على وجه النَّصِّ والتَّعيين، وفي حديث البَراءِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -فيما يُقال من الذِّكْر عند النَّوْم-؛ أنَّ النبيَّ ﷺ علَّمه إذا أَوى إلى فِراشه أن يَقول مِمَّا يَقول: «آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ»، فلمَّا أَعادَها عليه البَراءُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «آمَنْتُ بكِتابِكَ الَّذي أَنزَلْتَ وبِرَسولِكَ الَّذي أَرْسَلْتَ»، فقال ﷺ له: «وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ»(١)، قال العُلَماءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: لأَجْل أن يَجمَع له بين وَصْفَي النُّبوَّة والرِّسالة على وجهِ التَّعيين؛ لأنَّ دَلالة الرِّسالة على النُّبوَّة من باب دَلالة الالتِزام، وأمَّا دَلالة النُّبوَّة على النُّبوَّة فهو من باب دَلالة النَّصِّ والتَّعيين، هذا من وَجْه.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب فضل من بات على الوضوء، رقم (٢٤٧)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع، رقم (٢٧١٠).

وجهٌ آخَرُ: أنَّه إذا قال: (وَرَسُولِكَ الَّذي أَرْسَلْتَ) لم يَكُن نصًّا في الإيمان بمُحمَّد ﷺ، إذ قد يَجوز أن يُراد به الرسولُ المَلَكيُّ دون الرسولِ البَشَريِّ.

هنا يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾، ولم يَقُل: (يا أيُّها الرسولُ إنا أَرسَلناكَ)؛ ليَجمَع له بين وَصفَي النُّبوَّة والرِّسالة على سبيل التَّعيين والنَّصِّ، لكن انظُرْ إلى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ [المائدة:٦٧]، حيثُ قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾، ثُمَّ قال تعالى: ﴿بَلِّغۡ﴾؛ لأنَّه إنما يَأمُره بالبَلاغ، وهذا يُناسِب الرِّسالةَ.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا﴾ على مَن أُرسِلْتَ إِلَيْهِم]، وكلِمة ﴿شَٰهِدٗا﴾ حال من الكاف في قوله تعالى: ﴿أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾، والشاهِدُ يُطلَق على المُخبِر، ويُطلَق على الحاكِم، والنبيُّ ﷺ شاهِد مُخبِر حاكِم، فهو مُخبِر عن الله عَزَّوَجَلَّ بما أَرسَله به، وكذلك مُخبِر عمَّن أُرسِل إليهم، بالقَبول أو الرَّفْض، وكذلك هو حاكِم، فإن الحُكْم لله تعالى ورسولِه ﷺ.

والدَّليلُ على أنَّ الشاهِد بمَعنَى: الحاكِم قولُه تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٢٦ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [يوسف:٢٦-٢٧]، إذَنْ (شاهِد) بمَعنَى: (مُخبِر) و(حاكِم)، فهو مُخبِر عن الله تعالى، ومُخبِر عن عِباد الله تعالى، مُخبِر عن الله تعالى بما أَوحاه إليه، ومُخبِر عن عِباد الله تعالى بالقَبول أو الرَّفْض.

وكذلك هو شاهِد على مَن سبقه من الأُمَم في تَبليغ رِسالات الرُّسُل، وفي تكذيب قَوْمهم لهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا﴾ [البقرة:١٤٣]، إذَنْ: شاهِد بما أَوْحاه الله تعالى إليه، وحاكِم به، وشاهِد على مَن أُرسِلَ إليهم، وشاهِد على مَن سبقه مِن الأُمَم.

وقوله تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ معطوف على ﴿شَـٰهِدًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًا﴾، أي: أَرسَلْناك مُبشِّرًا، والبِشارة تَقتَضي أربعة أُمور: مُبشِّر، ومُبشَّر، ومُبشَّر به، وسبَب يُوصِل إلى المُبشَّر به، فالرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: مُبشِّر، فإذا كان الرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مُبشِّرًا، فلا بُدَّ أن يَكون هناك مَن يُبشِّره، وهم الذين أُرسِل إليهم، واتَّبَعوه على ما دعا إليه، ولا بُدَّ أن يَكون هناك مُبشَّرًا به، وهو الجنَّة، تَقدَّمنا في هذه الآياتِ ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾، ولا بُدَّ أن يَكون هناك سبَب يُوصِل إلى المُبشَّر به الأَعمال الصالِحة.

إِذَنْ: فالنَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قد بيَّن وبلَّغ الرِّسالة إلى المُبشَّرين، وبيَّنَ المُبشَّرَ به، وما يَتضمَّنه من الثَّواب، وأنواع النَّعيم، وبيَّن الأسباب المُوصِلة إلى ذلك، وهي الأَعمال الصالِحة؛ ولهذا ترَكَ النَّبيُّ ﷺ أُمَّته على مَحجَّةٍ بَيْضاءَ، ليلُها كنَهارِها، لا يَزيغُ عنها إلَّا هالِك.

قوله تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ النَّذير هو: مَن أَتى بالإنذار، وهو الإعلام المَقْرون بالتَّخويف يُسمَّى إنذارًا، وفي حديث جابرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في صِفة خُطْبة النبيِّ ﷺ يَقول: «كأَنَّه مُنْذِرُ جَيْش يَقول: صَبَّحَكُمْ وَمَسَّاكُمْ»(١).

وقوله تعالى: ﴿وَنَذِيرًا﴾ نَقول فيها كما قُلْنا في ﴿بَشِيرًا﴾: لا بُدَّ فيها من أُمور أَرْبعة: مُنذِر، ومُنذَر، ومُنذَر بِهِ، وأسباب تُوصِل إلى ذلك، فكلُّها قد جاء بها النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

فالمُنذَر: الأُمَّة عُمومًا، والمُنذَر بِهِ: النارُ، وأسبابُه: الأعمال السَّيِّئة، والمُنذِر: هو

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، رقم (٨٦٧).

الرسـولُ ﷺ، فقد بيَّن النَّبيُّ ﷺ كلَّ هذه الأمورِ، بيَّن لكُلِّ المُنذَرين، وأدَّى إليهم الرِّسالةَ، أو أدَّى الأمانةَ، وكـذلك بيَّن المُنذَر به، وما فيه من العُقـوبات المُتنوِّعات والعذاب الأليم.

وقوله تعالى: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى﴾ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمُبَشِّرًا﴾ مَن صدَّقـك بالجَنَّـة ﴿وَنَـذِيرًا﴾ مُنذِرًا مَن كذَّبك بالنار ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾ إلى طاعَتِه بإِذْنه بأَمْره].

هذا الوَصْفُ الرابعُ: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾ أن يَدعُوَ الناس إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [إلى طاعَتِه] فيه نظَرٌ؛ فالأَوْلى أن تَبقَى الآية على ظاهِرها وأن النَّبيَّ ﷺ يَدْعو إلى الله عَزَّوَجَلَّ وإلى الوُصـولِ إليه في دار كَرامَتِه، ولا وصـولَ إليه في دار كَرامَتِه إلَّا بامتِثال أَمْرِه واجتِناب نَهْيِه، فهو داعٍ إلى الله تعالى بطاعَتِه واجتِناب نَهْيِه.

وقوله تعالى: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾ لَمْ يُبيِّن هنا كَيْفيـة الدَّعوة، ولكنه بيَّنَها في آيـةٍ أُخْـرى في قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:١٢٥].

والدَّعوةُ لا بُدَّ فيها أيضًا من أُمور أربعة: داعٍ، ومَدعُوٌّ، ومَدعُوٌّ إليه، وسبَبٌ يُوصِل إلى المَدعُوِّ إليه، وكلُّ هذا جاء به النبيُّ ﷺ.

وقد كان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يَدْعو الناس سِرًّا وجَهْرًا حَسْب ما تَقتَضيه المَصلَحةُ والحاجةُ، فكان أَوَّلُ دَعْوته سِرًّا؛ لأنه كان يَخشَى أن تُصادَم هذه الدَّعوةُ حتى تُدفَن، ثُم بعد ذلك جهَرَ بالدَّعوة لَمَّا قال له الله تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الحِجر:٩٤]، ثُمَّ صار يَدعو مَن قرُبَ ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٤]، ثُمَّ مَن بَعُدَ على حَسَب ما تَقتَضيه الدَّعوةُ.

وقوله تعالى: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾ يَعنِي: لا إلى نَفْسِك؛ ولهذا كان النبيُّ ﷺ لا يَنتَقِم لنَفْسه قَطُّ أَبدًا إلَّا أن تُنْتَهَك حُرُماتُ الله عَزَّوَجَلَّ، فإنه كان أَشَدَّ الناس غضَبًا لله تعالى؛ لأنه ليس يَدْعو إلى نَفْسه كما يُوجَد من كثير من الدُّعاة يَدْعون إلى أنفُسِهم في الواقِع، يُريدون أن يُعَظِّمهم الناس وأن يَأخُذوا بقولهم، حتى إنهم إذا خُولِفوا في ذلك تَجِد الإنسان يَتكَدَّر؛ لا لأنه خُولِف أمرُ اللهِ تعالى؛ ولكن لأنه خُولِف هو، الذي هذا شَأْنُه إنما يَدعُو إلى نَفْسه وليس يَدْعو إلى ربه، ففَتِّشْ نَفْسَك: هل فِيكَ سِرٌّ من هذا؟ إن كان فِيكَ سِرٌّ من هذا فأَصلِح الأَمْر، وإن كُنْت لا تَغضَبُ إلَّا لله تعالى، ولا تَرضَى إلَّا لله تعالى، فهذا هو الداعِيةُ حَقيقةً.

وقوله تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ﴾ الإِذْن هنا يَشمَل الإِذْن الكَوْنيَّ والإِذْنَ الشَّرعيَّ، فإن كان المُرادُ به ما يُدْعَى به فهو الشَّرْعيُّ، يَعنِي: إن كان المَعنَى: داعِيًا إلى الله تعالى بأَمْره الذي أمَرَك بالدعوة إليه فالمُراد به الإِذْن الشَّرعيُّ، وإن كان المُرادُ داعِيًا إلى الله تعالى بقَدَره يَعنِي: حيث قوَّاك على ذلك، وهيَّأ لك الأسبابَ فهو إذنٌ كونيٌّ، والآيَةُ تَشمَل هذا وهذا، فإن الرسول ﷺ إنما يَدعو بقَضاء الله تعالى وقدَره، ويَدعُو كذلك بدِينه وشَرْعه فهو داعٍ بالأمرين جميعًا.

الوصف الخامس: قولُه تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ أي: مِثْله في الاهتِداء به سِراجًا، والسِّراج ما يُستَضاءُ به، ووَصَفْه بأنه ﴿مُّنِيرًا﴾ إمَّا لبَيان الواقِع؛ لأن كل سِراج فله إِنارة؛ وإمَّا لِبَيان أن هذا السِّراجَ كان له إِضاءةٌ قوِيَّة فهو مُنيرٌ لما حَوْله، وهذا هو الأَقْرَب؛ لأن عندنا من القَواعِد المُقرَّرة أنه إذا دَار الأَمْر بين أن يَكون الكلام تَأْسيسًا أو تَوْكيدًا فالأصل أنه تَأْسيسٌ؛ لأن التَّأْسيس فيه زِيادةَ مَعنًى، بخِلاف التَّوْكيد، التَّوْكيد ليس فيه إلَّا التَّقْوية، لكِنَّ التَّأْسيس فيه زيادةُ مَعنًى، وعلى هذا

فالأَظهَرُ أن هذا وَصْف للسِّراج باعتِبار قُوَّته وإضاءَتِه، ولا شَكَّ أن النبيَّ ﷺ عَلَمٌ يُهْتَدَى به في الظلُمات، فهو قد فتَحَ للناس نُورَ العِلْم ونورَ الإيمان حتى ترَكَ أُمَّته على محَجَّةٍ بَيْضاءَ ليلُها كنَهارِها.

هذه الأَوْصافُ الخَمْسةُ التي بيَّنها الله تعالى لرسوله ﷺ ويُمكِن أن نُضيف إليها وَصْفًا سادِسًا ووَصْفًا سابِعًا.

الوَصْفُ السادِسُ: قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ فإن هذا فيه إِثْبات الرِّسالة له.

الوَصْفُ السابعُ: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ فإن فيه أيضًا إثباتًا للنَّبيِّ ﷺ.

وعلى هذا فالآيةُ تَضمَّنَتْ سَبْعة أَوْصافٍ للرسول ﷺ: النُّبوَّة والرِّسالة والشَّهادة والبِشارة والإِنْذار والدَّعْوة إلى الله تعالى بإِذْنه، وكونه سَراجًا مُنيرًا.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَة الأُولَى: ثُبوت رِسالة النبيِّ ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن الرسول ﷺ مُبشِّر في قوله تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًا﴾.

ويَتفرَّع على ذلك: أنه أَتَى بالأسباب التي تُوجِب البِشارة من الأعمال الصالِحة والطاعات.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنه مُنذِر أيضًا؛ لأن كَوْنه مُنذِرًا وكونه مُبشِّرًا فائِدتان.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: الجَمْع بينهما فائِدةٌ ثالِثةٌ: أن النبيَّ ﷺ جَمَع بين البِشارة والإنذار؛ لقوله تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن رَسول الله ﷺ داعٍ إلى الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: الإشارة إلى أنه يَجب على الداعِية أن تكون دَعْوته إلى الله تعالى لا إلى حَظِّ نَفْسه؛ لقوله تعالى: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾، فإن هذا وَصْف الرسول ﷺ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن دَعوةَ رسول الله ﷺ إلى الله تعالى كانت بإِذْنٍ منه؛ لقوله تعالى: ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾.

وهذه يَتَفرَّع عليها فائِدةٌ أُخرى: وهي رِضَا الله تعالى عمَّا كان الرسول ﷺ يَدْعو إليه، أليس كذلك؟ لأن الله تعالى لا يَأذَن إلَّا بما يُحِبُّه ويَرْضاه.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ دَعوة النبيِّ ﷺ مَبنِيَّةٌ على شَرْع الله تعالى بكَيْفيَّتها وفيما يَدْعو إليه؛ لقوله تعالى: ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾، فهو داعٍ إلى الله تعالى بإِذْنه أي: على حَسَب أَمْره وبشَرْعه، فيَدعو إلى سبيل الله تعالى بالحِكْمة، والمَوْعِظة الحسَنة ويُجادِل بالتي هي أَحسَنُ، وكذلك يَدعو إلى شَرْع الله تعالى لا يَتَجاوَزُه.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أن النبيَّ ﷺ لا يُمكِن أن يُشرِّع مِن عِندِه؛ لقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ﴾ لا بشيءٍ من عِنْده.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أن ما يَدعو إليه الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فهو من الله تعالى.

ويَتَفرَّع على هذه الفائِدةِ: أن طاعة الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ طاعةٌ لله تعالى، ومعصيةَ الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ معصيةٌ لله تعالى؛ ولهذا لَمَّا جاءَتِ امرأةٌ إلى ابنِ مَسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وقالت: إنك تَقول: إن المُتفلِّجاتِ للحُسْن مَلعُوناتٌ بكِتاب اللهِ، وإنني فَتَحْتُ المُصحَف أو قرَأْتُ المُصحَف من فاتِحَته إلى خاتِمَته فلَمْ أَجِدْ ذلك. فقال: بلَى. ثُمَّ قرَأ عليها الحديثَ، وتَلا قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا

نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا﴾ [الحشر:٧]»[١].

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: إِثْبات الإِذْن لله تعالى، وإِذْن الله تعالى -كما سَبَقَ في التَّفسير- يَنقَسِم إلى قِسْمَيْن: شَرعيٍّ وكَوْنيٍّ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أن ما جاء به النبيُّ ﷺ فهو نُورٌ كالسِّراج يُضيء الظُّلَم؛ لقوله تعالى: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: مَن قال: إن النبيَّ ﷺ لا ظِلَّ له. يَعنِي: لو وقَفَ في الشمس والشَّمْس مائِلة لا يَكون له ظِلالٌ، فهذا غيرُ صحيح، فإن قوله تعالى: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ أي: سِراجًا مَعنَويًّا، وإلَّا فإن الرسول ﷺ له ظِلٌّ كغيره؛ لأنه بشَرٌ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: أن كلَّ مَن حكَمَ بشَريعة النبيِّ ﷺ فإنه على سِراج مُنير؛ لقوله تعالى: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: فَضيلة النبيِّ ﷺ حيث جَمَع الله تعالى له بين هذه الأَوْصافِ العَظيمة النُّبوَّة والرِّسالة والشَّهادة والبِشارة والإنذار، والدعوة إلى الله تعالى بإِذْنه، وأنه السِّراج المُنير.

• • ۞ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب اللباس، باب المتنمصات، رقم (٥٩٣٩)، ومسلم: كتاب اللباس، باب تحريم فعل الواصلة، رقم (٢١٢٥)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآية (٤٧)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴾ [الأحزاب:٤٧].

قوله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ هذا عَطْف، ولكنه مُبيِّن للمُبَشِّر في قوله تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًا ﴾ بشِّرِ المُؤمِنين بأن لهم من الله تعالى فَضْلًا كبيرًا، والمُؤمِنون هنا يُراد بهم المُؤمِنون والمُسلِمون جميعًا؛ لأنه تَقدَّم أن الإيمان إذا ذُكِر وحدَه شَمِل الإسلام، والإسلام إذا ذُكِر وحدَه شَمِل الإيمان، وإن ذُكِرَا جميعًا صار الإيمان في القَلْب والإسلام في الجَوارِح.

فقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ لم يَقُلْ: بَشِّرِ المُسلِمين؛ لأن من المسلمين مَن يَكون إسلامُهُم ظاهِرًا، ويَكون الإيمانُ في قُلُوبهم إمَّا مَفقودًا وإمَّا ضَعيفًا، فالذين لَهم البِشارة المُطلَقة هُمُ المُؤمِنون الذين وقَرَ الإيمان في قُلوبهم، وصاروا يُنفِّذون مُقتَضى ذلك الإيمانِ؛ ولهذا قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝٦٣ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [يونس:٦١-٦٣]، فالبِشارة المُطلَقة لا تكون إلَّا للمُؤمِنين.

وقوله تعالى: ﴿ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ كُلَّما جاءَت لَفْظة (المُؤمِنين) مُفرَدةً -كما قُلْت قبلَ قَليل- فإنها تَشمَل المُؤمِن والمُسلِم، قال تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴾ فَضلًا مَنصوبة بـ(أنَّ) فهي اسمُها مُؤخَّرًا.

والفَضْل الكَبير هو الجَنَّة، ولا شيءَ أكبَرُ من فَضْل الجَنَّة قال الله تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران:١٨٥]، ولا نَعيمَ أعظَمُ من دُخول الجَنَّة بما يَكون في ضِمْنه، بل هو أعلى شيء فيه، وهو النظَر إلى وجهِ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنه يَجِب على النبيِّ ﷺ أن يُبشِّر المُؤمِنين بأن لهم من الله تعالى فضلًا كبيرًا؛ تُؤخَذ من قولِهِ تعالى: ﴿وَبَشِّرِ﴾، والأَمْر للوجوب لا سيَّما على النبيِّ ﷺ، فإن الأَمْر للوجوب على كل حال؛ لأن الله تعالى إذا أَمَر رَسولَه ﷺ بشَيْءٍ فإنما يَأمُره أن يَفعَله ويُبلِّغَه إلى الناس، وتَبليغ الرسول ﷺ الرِّسالة واجِب؛ ولهذا نَقول: إن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَجِب عليه أن يُبَلِّغ حتى السُّنَن، فيَجِب عليه أن يُخبِر بالسُّنَّة، وأن يَفعَلها حتى يَحصُل البَلاغ، ثُمَّ بعد ذلك تَكون مَندوبًا في حَقِّه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: فَضيلة الإيمان، وجهُهُ أن المُتَّصِفين به هم أَهلُ البِشارة؛ لقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: ثَواب المُؤمِنين بهذا الفَضلِ الكَبير ﴿بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: بَيانُ مِنَّة الله عَزَّوَجَلَّ على المُؤمِنين وأن الفَضْل فضلُهُ؛ لقوله تعالى: ﴿بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يَعنِي: لا من غَيْره؛ ولهذا قُدِّم ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ مع أنه مُتعَلِّق بـ﴿فَضْلًا كَبِيرًا﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الجَزاء على الإيمان أكثَرُ ممَّا عمِله العَبْد من قوله تعالى: ﴿فَضْلًا كَبِيرًا﴾، وقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ فيُؤخَذ من الأمرين، أمَّا وَجْه أَخْذه من

الأوَّل؛ فلِقَوْله تعالى: ﴿كَبِيرًا﴾، والكبير إذا وَصَف الشيء بالكبير فهو كبيرٌ جِدًّا، وأمَّا الثاني؛ فلأنه أَضاف الفَضْل إلى الله تعالى: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾، وكما قال المَثَلُ: (العَطيَّة على قَدْر مُعطِيها)، فإذا كان هذا الفَضلُ من الله تعالى فإنه سيكون فَضْلًا لا يَخطُر على البال؛ ولهذا في الحديث الذي علَّمه النبيُّ ﷺ أبا بَكْر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن يَدعوَ به في صلاته قال: «فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي»[1]، وكونها من عِند الله تعالى لها مَزِيَّة.

• • ۞ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب الدعاء قبل السلام، رقم (٨٣٤)، ومسلم: كتاب الذكر، باب استحباب خفض الصوت بالذكر، رقم (٢٧٠٥)، من حديث أبي بكر الصديق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

الآيـة (٤٨)

• • ∽ • •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ [الأحزاب:٤٨].

• • ∽ • •

قال تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ لـمَّا كان الناس يَنقَسِمون إلى ثلاثة أقسام:

١- مُؤمِنٍ ظاهِرًا وباطِنًا.

٢- كافِرٍ ظاهِرًا وباطِنًا.

٣- مُؤمِنٍ ظاهِرًا، كافِرٍ باطِنًا.

بيَّن الله تعالى هؤلاءِ الأقسامَ في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾، والله تعالى يَقرُن بين هؤلاء الأصنافِ الثلاثةِ في عِدَّة مَواضِعَ من القُرآن، ففي أوَّل سُورة البقَرة ذكَر الله تعالى الأصنافَ الثَّلاثةَ، وفي سُورة الأحزاب لَمَّا ذكَرَ الأمانة وتَحمُّلَها ذكَرَ الأصناف الثلاثة، وهنا ذَكَر الأصناف الثلاثة قال تعالى: ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ وَلَا تُطِعِ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾.

والكافِر كلُّ مَن كفَرَ بالله تعالى سواءٌ كان كُفْره عن جُحودٍ أو عن استِكْبار؛ لأن الكُفْر كلَّه يَدور على هَذين الأمرَيْن؛ إمَّا الجُحود وهو التَّكذيب، وإمَّا الاستِكْبار

عن الطاعة، فمَن كَفَر بالله تعالى وأَعلَن كُفْره فهو من الكافِرين، ومَن ستَر كُفْره فهو من المُنافِقين.

فالمُنافِق إذَنْ: مَن يُظهِر الإسلام ويُبطِن الكُفْر مَأخوذٌ من نَافِقَاءِ اليَرْبُوع، نافِقاءُ اليَـرْبوع هي بَيتُه؛ لأن اليَـربوع له حِيلة؛ يَحفُر في الأرض جُحْرًا له، ويَجعَل له بابًا، ويَجعَل في أطرف الجُحْر قِشْرة رقيقة؛ لأَجْل إذا حُجِر مع بابه، نَتَق مع هذه القِشرةِ الرقيقة فيُقال: نافِقاءُ اليَربوعِ، والمُنافِق هكذا عَمَلُه إذا حُجِر فَعَل ما يَتخَلَّص به، لكن نِفاقًا، كما قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ [البقرة:١٤].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب:١]، وهذا النَّهيُ نَهْيٌ عمّا لم يَكُن؛ لِئَلَّا يَكون، وليس نَهيًا عمّا كان لِئَلَّا يَستَمِرَّ، وبينَهما فَرْق، فهو نَهيٌ عمّا لم يَكُن لِئَلَّا يَكون، وليس نهيًا عمّا كان لِئَلَّا يَستَمِرَّ.

فإذا قُلْت لشَخْص: يا فُلان لا تَسـرِقْ. وهو يَسـرِقُ فهو نهيٌ عمَّـا كان لِئَلَّا يَستَمِرَّ، وإذا قُلتَ لمَن لم يَسرِقْ، لكنه هَمَّ بالسَّرِقة أو لم يَهُمَّ فهذا نَهيٌ عمّا لم يَكُن لِئَلَّا يَكون، فقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ﴾ ليسَ المَعنَى أن الرسولَ ﷺ كان يُطيعهم -حاشاه من ذلك- لكنه لأَجْل أَلَّا يَكون أَذِيَّتهم له ومُضايَقتهم له وإِخْراجهم إيَّاه؛ لِئَلَّا يَكون سـببًا لأَنْ يَتنازَل عن شيءٍ ممَّا أُمِر به من أَجْل دَفْـع أَذاهم وإلَّا فإن الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لا يُمكِن أن يُطيع المُنافِقين والكافِرين في مَعْصية الله تعالى، ولكن النَّفْس البشَرية قد تَجتَهِد في أَمْر من الأُمور، وتَرَى أن من المَصلَحة التَّنازُل عن بعض الأَشياء لدَفْع ما هو أَعظَمُ في نظَر المُكلَّف، ويَكون الأَمْر ليس كذلك؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾ قال بعض المُفسِّـرين: إنها مُضافةٌ إلى المَفعول به. يَعنِي:

لا تُؤذِهْم، وقال بعضُ المُفسِّرين: إنها مُضافةٌ إلى الفاعِل يَعنِي: دَعْ أَذِيَّتهم إيَّاك، فلا تَلْتَفِت لها، ولا تَهْتَمَّ بها.

والصحيح: هو القولُ الثاني؛ لأن الأوَّلَ غيرُ وَارِد، الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لم يُؤذِهِمْ، ولكنَّه يُؤْذَى مِنهم، وعلى هذا يَكون المَصدَر هنا مُضافًا إلى الفاعِل، يَعنِي: دَعْ أَذِيَّتهم إيَّاك.

وهذا الأمرُ إمَّا أن يَكون للتَّهديد، وإمَّا أن يَكون للتَّأْييد والتَّقوية، وإمَّا أن يَكون لهما جميعًا.

إمَّا أن يَكون للتهديد: تَهديد هؤلاءِ الكافِرين والمُنافِقين، يَعنِي: دَعْ أَذاهُم إيَّاكَ، فسوف يَنتَقِم الله تعالى مِنهم بدليل قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾.

أو أن المَعنَى: التَّأييدُ، يَعنِي: دَعْ أَذاهم، أيِ: اصْبِرْ عليهم، فيَكون هذا من باب تَأْييد الله تعالى لرسوله ﷺ بأَنْ يَأمُره بأن يَدَعَ أَذاهم ولا يَهتَمَّ بِهِمْ ولا يُبالي بهم؛ لأن العاقِبة ستَكون للرسولِ ﷺ حتى مع هذه الأذِيَّة التي قاموا بها بالنِّسبة لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فائِدةٌ: الفَرْق بين الشِّرْك والكُفْر: أن الكُفْر أعمُّ فإن كلَّ مُشرِك كافِرٌ، وليس كلُّ كافِرٍ مُشرِكًا، قد يَجحَد الإنسان شيئًا ممَّا أَنزَل الله تعالى فيَكون كافِرًا، وليس بمُشرِك.

وقوله تعالى: ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ التَّوكُّل: ذَكَروا في حَدِّه أقوالًا مُتعَدِّدةً، ولكِنَّ أَقرَبَ ما يُقال فيه: إنه صِدْق الاعتِماد على الله تعالى في جَلْب المَنافِع،

ودَفْع المَضارِّ، مع الثِّقَة بالله تعالى صِدْق الاعتِماد على الله تعالى في جَلْب المَنافِع، ودَفْع المَضارِّ مع الثِّقَة به.

وهذا أحسَنُ ما قيل في تفسير التَّوكُّل؛ لأن الإنسان إذا اعتَمَد على الله تعالى في جَلْب المَنافِع ودَفْع المَضارِّ مع الثِّقَة به صار ذلك أَقوَى له وأَطمَنَ لقَلْبه، ولكن مع هذا فإن التَّوكُّل لا يُنافِي فِعْل الأسباب الشَّرعية التي ثبَتَت إمَّا عن طريق الشَّرْع، وإمَّا عن طريق الحِسِّ.

ومَن زعَمَ أن هذا يُنافِي التَّوكُّل فقَدْ أَخطَأ؛ وذلك لأن الرسول ﷺ لا شَكَّ أنه إمام المُتوكِّلين، وسيِّدُ بني آدَمَ، ومع هذا فكان يَفعَل الأسباب، فقَدْ كان يَتَّقي من البَرْد، ويَتَّقِي من الحَرِّ، ويَتَّقِي من البَأْس، فكان يَلبَس الدُّروع كما ظاهَرَ في يوم أُحُد بين دِرْعَيْن، ومع هذا فإنه لا يُقال: إن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ضعيفُ التَّوكُّل.

إِذَنْ: فِعْل الأسباب من تَمام التَّوكُّل على الله تعالى؛ لأن دَرْءَ ما تَخافه يكون بأَمْرين: أمرٍ من قِبَلِكَ أنتَ، وأمرٍ آخَرَ من قِبَل اللهِ تعالى، فالأشياءُ الخَفِيَّة التي تُدرِكها ولا طاقةَ لك بها هذا من قِبَل الله تعالى، والأشياءُ الظاهِرة التي لك بها قِبَلٌ هذه من قِبَلِ نَفْسك، فعليك أن تَفعَل هذا، وأن تَعتَمِد على الله تعالى فيما لا تُدرِكه ولا يَصِل إليه ذِهْنكَ.

وقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾: (كفى) فِعْلٌ ماضٍ كما هو مَعروف، والباء حرفُ جرٍّ زائِدٌ؛ لتَحْسين اللَّفْظ، و(الله) لَفْظ الجَلالة فاعِل مَرفوع بضَمَّةٍ مُقدَّرة على آخِره منعَ من ظُهورها اشتِغال المَحلِّ بحركة حَرْف الجَرِّ الزائِد.

وقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ﴾ تارةً تَتَعدَّى بنفسها؛ فإذا كان المُراد بَيان الكِفاية فقطْ فإنها تَتَعدَّى بدون حَرْف الجَرِّ، مِثْل: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ مثل: أن تَقول:

كفاكَ اللهُ تعالى شَرَّ أعدائِكَ. وما أَشبَهَها، وتارةً تَتَعدَّى بالباء إذا كان المُراد بها مَعنَى التَّعجُّب، يَعنِي: ما أَبلَغَ كِفايَته! مثل قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾، وما أَشبَهَها.

وهنا المُراد بها التَّعجُّب، يَعنِي: أنها أشَدُّ كِفاية الله تعالى، وما أَبلَغَ كِفايَتَه!

وقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾: ﴿وَكِيلًا﴾ هذه حالٌ من فاعِل (كَفى)، وقوله تعالى: ﴿وَكِيلًا﴾ بمَعنَى: حَفيظًا وكافِيًا، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣]، أي: كافِيه.

واعلَمْ أن الله تعالى أَطلَق على نَفْسه الوَكيل وأَطلَق على نَفْسه المُوكِّل، يَعنِي: وصَفَ نَفْسه بالمُوكِّل؛ فأمَّا الوَكيل فكثيرٌ في كِتاب الله تعالى، ومَعناه: الكافِي الحافِظ، وما أَشبَه ذلك، وأمَّا وَصْف الله تعالى بالتَّوكيل أنه مُوكِّل، ففي قوله تعالى: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا﴾ [الأنعام:٨٩] ثم قال: ﴿وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾، ومُناسَبة قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾؛ لقَوْله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ مُناسبَتها أنك إذا تَوكَّلْت عليه كفاك كلَّ شيءٍ، وحَفِظك، وصار رَقيبًا عليكَ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: تحريمُ طاعةِ الكافِرين والمُنافِقين لكن ليس على إطلاقه، بل طاعتهم فيما يُخالِف أَمْر الله تعالى، فلو أُمِروا بشيءٍ لا يُخالِف أمرَ الله تعالى فإن طاعَتَهم ليست حَرامًا، كما لو أَمرك كافِرٌ بأن تُركِّب على هذا البابِ مِفتاحًا مثَلًا، فهل نَقول: حرامٌ عليك أن تُطيعهُ؟ لا، إِذَنْ: لا تُطِعْهم فيما يُخالِف أَمْر الله تعالى.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن القُرآن على أَكمَل ما يَكون من البَلاغة، فإننا نَجِده في مَواضِعَ يُقدِّم المُنافِقين على الكافِرين، وفي هذه الآيةِ قدَّم الكافِرين على المُنافِقين؛ لأنه

في مَقام الجزاء وفي مَقام الذَّنب يُقدِّم المُنافِقين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء:١٤٠]، ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأحزاب:٧٣]؛ لأن ذَنْب المُنافِق أَعظَمُ من ذَنْب الكافِر الصريح.

وأمَّا هنا فالذي يُعارِض الرسول ﷺ صراحةً هو الكافِر؛ ولهذا قدَّمه على المُنافِق؛ لأن المُنافِق لا يَأْمُر بمُخالَفة الشَّرْع كما يَأمُر بها الكافِر، إذ إنه يَتستَّر بنِفاقه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فبَدَأ بهم؛ لأن مُعارَضتَهم للشَّرْع أَبيَنُ وأظهَرُ من المُنافِقين.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنه قد يَتوجَّه النَّهيُ عمَّا لم يُفعَل؛ لئلا يُفْعَل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، فإن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ما كان يُطِيعهم لكنه نُهِيَ أن يُطيعَهم؛ لئلَّا يَفعَل في المُستَقبَل.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن النَّهيَ قد يَكون أو قد يَرِد على الأُمور البَعيدةِ أو المُستَحيلةِ، وجهُهُ: ولا تُطِعِ الكافِرين والمُنافِقين، فإن هذا بعيد أو مُستَحيل على الرسول ﷺ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: تَهديد الكافِرين والمُنافِقين؛ لقوله تعالى: ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: تَأييد النَّبيِّ ﷺ وتَسلِيَتُه من قوله تعالى أيضًا: ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن من طَبيعة الكافِرين والمُنافِقين أَذيَّة المُؤمِنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾.

لكن قد يَقول قائِل: هذا آذَى الرسولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فنَقول: إن مَن آذَى النبيَّ ﷺ فإنه مُؤْذٍ للمُؤمِنين، وأيضًا فإن مَن عادَى الرُّسُل سَيُعادِي أَتْباعَهم ويُؤذِيهم.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: وُجوب الصَّبْر على أذَى الكُفَّار والمُنافِقين؛ لقوله تعالى: ﴿وَدَعْ أَذَنهُمْ﴾ فإن هذا أَمْرٌ بالصَّبْر على أَذِيَّتهم.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: وجوبُ التَّـوكُّل على الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾، والأَمْر للوُجوب.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أن النبيَّ ﷺ لا يَملِك لنَفْسه نَفْعًا ولا ضَـرًّا، ولا لغَيْره من باب أَوْلى؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾، فهو مُفتَقِرٌ إلى رَبِّه مَأمورٌ بأن يَتوكَّل عليه.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: عِظَم كِفاية الله عَزَّوَجَلَّ للمُتَوكِّلين عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾، فإنا ذكَرْنا فيما سبَقَ أن هذا يُراد به التَّعجُّب من كِفاية الله تعالى لَمِن توكَّل عليه.

• ● ۞ ● •

الآية (٤٩)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا﴾ [الأحزاب:٤٩].

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ تَقدَّم لنا الكَلام على تَصْدير الخِطاب بمِثْل هذا النِّداءِ، وأنه يَدُلُّ على أهمِّيَّة المَوْضوع، وأنه يَدُلُّ على أن امتِثال ما سيأتي من مُقتَضيات الإيمان وأن مُخالَفته من نَواقِص الإيمان.

وقوله تعالى: ﴿إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ المُراد بالنِّكاح هنا العَقْد، والنِّكاح يُطلَق على العَقْد وعلى الجِماع؛ وذلك لأن أَصْله في اللغة العربية الضَّمُّ والجَمْع؛ لأن العَقْد يَضُمُّ الزوجَ إلى زَوْجته والزَّوْجة إلى زَوْجها، وهو يُطلَق بمَعنَى هذا وهذا، ولكنه إذا أُضِيف إلى أَجْنَبية فهو بمَعنَى العَقْد، وإذا أُضيف إلى زوجة فهو بمَعنَى الجِماع، فإذا قِيل: نكَحَ الرجُلُ زوجَتَه. أي: جامَعَها، وإذا قيل: نَكَحَ فُلَانة بنتَ فُلانٍ. المَعنَى: عَقَد عليها.

وهي في القُرآن بمَعنَى العَقْد، كلَّما جاءَتْ فهي بمَعنَى العَقْد، والغريب أن بعضَ أهلِ العِلْم رَحِمَهُمُ اللَّهُ يقول: لم تَأتِ بمَعنَى العَقْد إلَّا في هذه الآيةِ، وأنها في القُرآن جاءت بمَعنَى الجِماعِ.

ولكنَّ هذا ليس بصَواب، فالصَّواب العَكسُ وهو: أنها ما جاءَتْ في القُرآن إلَّا بمَعنَى العَقْد.

ونَستَعرِض الآياتِ الوارِدةَ في هذا؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ [البقرة:٢٢١] المَعنَى: العَقْد، وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟﴾ [البقرة:٢٢١] العَقْد، وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء:٢٢] العَقْد.

وفي قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ [النور:٣] العَقْد، فالزاني لا يَنكِح أَيْ: لا يَعقِد إلَّا على زانِية أو مُشرِكة، والزانية لا يَتزَوَّجها إلَّا زانٍ أو مُشرِكٌ، فقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ قال في آخِر الآية: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور:٣]، فإذا كان نِكاح الزانية حَرامًا ونِكاح الزانِي حَرامًا، فإذا عَقَد على زانِية وهو حَرام: فإمَّا أن يَعتَقِد التحريم فيَكون زانِيًا؛ لأنه جامَعها وهو يَعتَقِد أنه حرام، وإمَّا ألَّا يَعتَقِد التَّحريم، ويَقول: هذا حَلال. فتَحليل ما حرَّم الله تعالى شِرْك، كما قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ [التوبة:٣١]، هذا هو مَعنَى الآية التي لا تَحتَمِل سِواهُ، وهو الذي قرَّره شيخُ الإسلامِ(١) وابنُ القيِّم(٢) رَحِمَهُمَااللَّهُ.

مَسأَلة: إذا تَزوَّج الإنسانُ امرأةً ووجَد أنها قد جُومِعت من قبلُ فلا يَجِب عليه أن يُفارِقها إلَّا إذا عَلِم أنها لا تَزال على إِصْرارها، أمَّا إذا تابَت فيَجوز أن يَتزَوَّجها.

وفي قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٣٢/ ١١٣)، والفتاوى الكبرى (٣/ ١٧٨).

(٢) انظر: الصواعق المرسلة (٢/ ٥٧٢).

[البقرة:٢٣٠] العَقْد، لكن السُّنَّة بيَّنت أَضافَت إلى هذا شَرْطًا آخَرَ وهو «أن يَذُوق عُسَيْلَتَهَا وتَذُوقَ عُسَيْلَتَهُ»(١)، وإلَّا فهو العَقْد، وهذا واضِح.

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ﴾ [النور:٣٢] اعقدوا لهم.

المُهِمُّ: كلَّما جاءت في القُرآن فهي بمَعنَى العَقْد حتى في هذه الآيةِ، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ يَعنِي: مِن قَبْلِ أن تُجامِعوهن.

قوله تعالى: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أَيْ: عقَدْتُم علَيْهِن.

وقوله تعالى: ﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾ بِناءً على الأغلَبِ أن الأغلَبَ أن المُؤمِن لا يَتزَوَّج إلَّا مُؤمِنةً، ولكن لو كانت يَهوديَّةً أو نصرانِيةً فالحُكْم لا يَختَلِف، فعلى هذا يَكون من باب الاقتِصار، وليس من باب الاختِصار؛ من باب الاقتِصار على أَحَد الصِّنْفين، وأمَّا الصِّنْف الآخَرُ؛ فلأنه قَليل بالنِّسبة إلى نِكاح المُؤمِنات.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ ولم يَقُلْ: وطلَّقْتُموهن أو فطَلَّقْتُموهنَّ؛ ليَتبيَّن به أنه لو تَأخَّر الطلاق عن العَقْد مُدَّة طويلة فالحُكْم لا يَتغيَّر كما أنه لو طلَّقَها مُباشَرةً، فالحُكْم لا يَتغيَّر أيضًا، فقوله تعالى: ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ أي: بَعْد العَقْد.

والطلاق في اللُّغة حَلُّ قَيْد البَعير ونحوِه، يَعنِي: حَلُّ القَيْد يُسمَّى طلاقًا، وهو اسمُ مَصدَرِ (طلَّق)، والمَصدَر من (طلَّق) تَطليقًا، مثل: كَلَّم والمَصدَر تَكليمًا، واسْمُ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشهادات، باب شهادة المختبي، رقم (٢٦٣٩)، ومسلم: كتاب النكاح، باب لا تحل المطلقة ثلاثًا لمطلقها حتى تنكح زوجًا غيره، رقم (١٤٣٣)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

المَصدَر كَلَام، (طلَّقَ) المَصدَر تَطْلِيق، واسْمُ المَصدَر طَلَاق؛ فالطَّلاق إِذَن: هو حَلُّ القَيْد.

أمَّا في الاصطِلاح أو في الشَّرْع فطَلاق المَرأة مَعناه: حَلُّ قَيْد النِّكاح أو بعضِه، فإن كان الطلاق بائِنًا لا تَحِلُّ به الزوجة، فهو حَلٌّ لقَيْد النِّكاح مُطلَقًا، وإن كان رَجعِيًّا فهو حلٌّ لبَعْضه، إذ إنه يَجُوز له أن يُراجِع.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾: ﴿مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ أي: مِن قَبْل أن تجامِعوهن، وهذا من باب الكِناية عمَّا يُستَقْبَح ذِكْره بما يَدُلُّ عليه؛ ولهذا لم يَأتِ الجِماع بلَفْظٍ صريح في القُرآن الكَريم، وإنما كُنِّيَ عنه في كل مَوضِع بما يَتَناسَب والمَقامَ، فمَرَّةً يُعبَّر عنه بالإِتْيان، ومرَّةً بالإِفْضاء، ومرَّةً بالمَسِّ، ومرَّة بالمُلامَسة، وما أَشبَه ذلك، كل هذا من باب استِعْمال ما لا تَمُجُّه الأَسْماع من الكلِمات.

وقوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [وَفِي قِراءَةٍ: «تُماسُّوهُنَّ» أي: تُجامِعوهُنَّ] يَقول تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ فما لَكُم: (ما) هذه نافِية، و﴿لَكُمْ﴾ جارٌّ ومجرور خبرٌ مُقدَّم و﴿مِنْ﴾ حَرْفُ جرٍّ زائِدٌ لمَعنًى زائِدٍ، وقد قُلنا: إنه حَرْفٌ زائدٌ زائِدٌ. وكلِمة (زائِدٌ) الثانية تَأسيس لا تَوكِيد، فهو حَرْفُ جرٍّ زائِدٌ لفظًا، لكنه يَزيد المَعنَى، (زائِد) الأُولى من (زادَ) اللازِم، و(زائِدٌ) الثانية من (زادَ) المُتعَدِّي، فإذا قُلت: زاد إيمان الرجُلِ. هذا لازِم، وإذا قُلت: زادَهُم إيمانًا. هذا مُتعدٍّ، فنَقول: هذا حَرْفُ جَرٍّ (زائِدٌ) من (زادَ) اللازِمة، أو: (زائِدٌ) من (زادَ) المُتعَدِّي، يَعنِي: زائِدٌ بنَفْسه، زائِدٌ مَعنًى في غيره.

المُهِمُّ: أن قوله تعالى: ﴿مِنْ عِدَّةٍ﴾: ﴿مِنْ﴾ حَرْفُ جَرٍّ زائِدٌ لفظًا لا مَعنًى.

وقوله تعالى: ﴿عِدَّةٍ﴾ مُبتَدأ مُؤخَّر مَرفوع بضَمَّة مُقدَّرة على آخِره منَع ظُهورَها اشتِغالُ المَحلِّ بحرَكة حَرْف الجَرِّ الزائِد.

ولو قال لنا قائِل: هل يَجوز أن نَجعَل (ما) هنا حِجازيةً؟

الجَوابُ: لا يَجوز؛ لأن خبرها مُقدَّم، وابنُ مالِك رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول:

.... مَعَ بَقَا النَّفْيِ وَتَرْتِيبٍ زُكِنْ[1]

قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾، قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [تُحصُونها].

والعِدَّة في اللُّغة: اسمٌ مَأخوذ من العَدَد، ولكنَّها في الاصطِلاح أو الشَّرْع: تَربُّص مُفارَقةٍ في الحياة أو في المَمات مَحدودٌ شَرْعًا.

وقوله تعالى: ﴿تَعْتَدُّونَهَا﴾ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [تُحصُونها بالأَقْراء وغيرِها]: [بالأَقْراء] إن كانت من ذَوات الأَقْراء، وعددُها ثلاثة قُروء، [وغيرِها] إن لم تكُن من ذوات الأَقْراء وهُنَّ الحوامِلُ ومَن لا تَحيض لِصِغرٍ أو إِياسٍ، فالحامِلُ عِدَّتها وَضْعُ الحَمْل، ومَن لا تَحيض عِدَّتُها ثلاثة أَشهُرٍ.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ أَعطوهُنَّ ما يَسْتَمتِعْن به، أي: إن لم يُسَمَّ لهُنَّ أَصدِقة، وإلَّا فلَهُنَّ نِصف المُسمَّى فقَطْ، قاله ابنُ عبَّاسٍ وعليه الشافِعيُّ].

وقوله تعالى: ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ الفاء حَرْف عَطْف، و(مَتِّعوهن) أي: أَعطُوهُن ما يَستَمْتِعْن به من الدراهِم، ومن الثِّياب، ومن المَتاع، ومِن العَقار، ومن أيِّ شيءٍ، فالله عَزَّوَجَلَّ أَطلَقها، ثُمَّ إنَّها مُطْلَقةٌ من جِهةِ الكِمِّيَّة كما أنَّها مُطلَقة من جِهة النَّوْعيَّة

---

(١) الألفية (ص:٢٠).

الكِمِّية، فإذا أَرَدْت أن أُعطِيَها دراهِمَ، فكمـا قال تعالى: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ﴾ [البقرة:٢٣٦] أي: حَسَب حال الزَّوْج.

وقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ بعدَ قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ يُستَثْنى من ذلك مَن سُمِّيَ لها مَهْرٌ، فإنَّ مَن سُمِّيَ لها مَهْرٌ لا يَجِب لها إلَّا نِصْفُـه؛ لقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [البقرة:٢٣٧]، فبيَّن الله عَزَّوَجَلَّ أن لهُنَّ نِصْفَ ما فرَضْنا، وهذا إذا سُمِّيَ لها المَهْرُ سواءٌ قلَّ أو كثُر.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ خَلُّـوا سَبيلَهُـنَّ من غيـر إضرارٍ]، فأَمَرَ الله عَزَّوَجَلَّ بأَمْرين:

١- التَّمتيع وهو بَذْل المال.

٢- والسَّراح الجَميل وهو بَذْل الخُلُق.

وذلك بأن تَكون المُفارَقة عن رِضًا، وبالقول اللَّيِّن الذي يَجبُر الخاطِر؛ لأن المَرأة إذا طُلِّقت بعد أن عُقِد عليها ولم يَدخُل بها لا شَكَّ أنه يَنكَسِر خاطِرها، وأنها تَتأَثَّر، وأن الناس سوف يَتكلَّمون: لماذا طُلِّقت قبل أن يَدخُل بها؟ ما هو السبَب؟ هل رأى فيها عَيْبًا؟ هل سمِع عنها بشيء؟ ولا سيَّما إذا كانت هي راغِبة أيضًا بالزوج ثُمَّ طلَّقَها من قَبْلِ أن يَتَّصِل بها، فإنه لا بُدَّ أن يَكون هناك ردودُ فِعْل في نَفْسها، فأَرْحَم الراحِميـن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَمَرَنا أن نُمتِّعهنَّ بالمال، وأن نُسرِّحهنَّ سَراحًا جميـلًا بالقول والمُعامَلة الطَّيِّبة.

وذلك مثل أن نَقـول لها: هذا أَمر لم يُقدَّر، وهذا أَمْرٌ أَراده الله عَزَّوَجَلَّ، وأنا ما

فارَقْتُك لسُوء خُلُقك؛ أو لأني سمِعْت عنك ما يَسوءُ، أو ما أَشبَهَ ذلك من الكلام حتى تَنفَصِل منه وهي طَيِّبة النَّفْس مُنشَرِحة الصَّدْر، ثُمَّ بعد ذلك لا يَحصُل منها أو من أهلها كَلام؛ لأنه ربما إذا طلَّقَها ولم يُمتِّعها، أو مَتَّعَها بما دون ما تَستَحِقُّه، أو سرَّحها سَراحًا غيرَ جميل، ربما يَحصُل منها أو من أهلها كلام في الرَّجُل يَتكلَّمون فيه وفي عِرْضه وفي أَهْله، وما أَشبَهَ ذلك.

فهذا من آداب الله عَزَّوَجَلَّ التي أَدَّب بها عِبادَه إذا طلَّق المرأة قبل المَسيس، فإن الواجِب عليه أمران: التَّمتيع بالمال، والسَّراح الجَميل بالقَوْل والفِعْل وطلاقةِ الوَجْه وانبِساط القَلْب، وما أَشبَه ذلك.

وقد يَقول قائِل: كيف يُمكِن هذا والرجُلُ لم يُطلِّقها في هذه الحالِ إلَّا وهو كارِهٌ لها بلا شَكٍّ؟ ولو كان عِنده أَدْنى مَحبَّةٍ لكان دخَل بها وجامَعها، ونظَرَ ربما تَتغيَّر الأمور، يَعنِي: لو كان زَهِد فيها بعضَ الزُّهْد لكان في قَلْبه مَحبَّة لها هل يُغامِر ويُطلِّقها من قَبلِ أن يُجامِع، العَقْل لا يَقْتَضِي ذلك، يَقتَضِي أن تَنتَظِر وتُجامِعها لأنه رُبَّما تَغيَّرت الأمورُ.

ومِن ثَمَّ نُهِيَ عن الطلاق في الحَيْض؛ لأن الإنسان إذا كانت امرَأَتُه حائِضًا فإنه لا يُجامِعها، لكن فيَبقَى كارِهًا لها، ولا يُوجَد هناك سبَبٌ يَدعو إلى المَحبَّة وهو الجِماع؛ فلهذا نُهِيَ عنه.

فهذه من الحِكَم في النَّهي عن الطلاق في الحَيْض، وليسَتْ هي الحِكْمةَ الوحيدةَ ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أَهمِّيَّة النِّكاح والطلاق؛ لأن الله تعالى صَدَّره بالنِّداء الذي يُطلَب به تنبُّه المُنادَى لِمَا سيُلقَى عليه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن التِزام أحكام الشريعة في النِّكاح والطلاق من مُقتَضيات الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، فإن هذا من مُقتَضاه إيمانُهم أن يَمتثِلوا لِمَا أُمِروا به.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنه لا طَلاقَ قبل النِّكاح؛ لقوله تعالى: ﴿إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ﴾ و(ثُمَّ) للتَّرْتيب، فلا طلاقَ قَبْل النِّكاح، ولا فَرْقَ في ذلك بين أن يَكون الطلاق لُعيَّنةٍ أو على سبيل العُموم، فلو قال رجُل لامرأةٍ: إن تَزوَّجْتُكِ فأنتِ طالِقٌ. ثُمَّ تَزوَّجها فإنها لا تَطلُق؛ لأن الطلاق كان قبلَ النِّكاح، وكذلك لو قال: كلُّ امرأةٍ أَتزوَّجها فهي طالِق. فإنه إذا تَزوَّج امرأةً لا تَطْلُق؛ لأنه لا طلاقَ إلَّا بعد النِّكاح.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنه لا إِيلاءَ ولا ظِهارَ ولا تَحريمَ على امرأة إلَّا بعد النِّكاح؛ لأنه إذا كان الطلاق وهو أَعظَمُ فُرْقةً من الظِّهار والإِيلاء وما أَشبَهَه لا يَكون إلَّا بعد النِّكاح، فكذلك ما دُونَه، إلَّا أنَّ التحريم إذا حرَّم الرجُل امرأةً مُعيَّنة ثُمَّ تَزوَّجها بعد ذلك، فإن عليه كفَّارة يَمين، وكذلك الظِّهار إذا قصَد به التَّحريم وظاهَرَ منِ امرأة قَبْل أن يَتزوَّجَها، فإن عليه كفارةَ يمينٍ، وليس عليه كفَّارةُ ظِهار؛ لأن الظِّهار لا يَصِحُّ إلَّا من زَوْجة.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: جَواز الطَّلاق؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ﴾، ولَمْ يَلُمِ الله تعالى المُؤمِنين على الطلاق ولو كان حَرامًا لَلامَهُم عليه.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: جوازُ الطَّلاق قبل المَسيس؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ وهذه فائِدة غير فائِدة: جَواز الطلاق مُطلَقًا؛ لأن الطلاق قبل المَسيس قد يَكون فيه شيءٌ من غَضِّ حَقِّ المَرأة، فيُقال: هذا الرجُل لولا أنه عَلِم بأن فيها بَلاءً ما طلَّقَها قبل أن يَدخُل بها ويَمَسَّها؛ لأن العادة أنَّ الإنسان إذا تَزوَّج فإنما يَتزوَّج عن رَغبةٍ، فإذا طلَّقها قبل أن يَمَسَّها فهو دليلٌ على أن فيها شَيْئًا.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنه إذا طلَّقها قبل الجِماع فلا عِدَّةَ عليها، وهذا فيه خِلَافٌ؛ فإنَّ بعض أهل العِلْم رَحِمَهُمُ اللَّهُ وهُمُ الجُمهور على أنه إذا خلا بها، فإن عَلَيْها العِدَّةَ فجعَلوا الخَلْوة بمَنزِلة الجِماع، وهذا هو الذي قضَى به الخُلَفاءُ الراشِدون[1]، وعليه جُمهور الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، بل جُمهور الأُمَّة، ولم يُخالِف في ذلك إلَّا نفَرٌ قليل منهم الإمامُ الشافِعيُّ[2] رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله الجَديد، فإنه رأَى أنه إذا لم يُجامِعْها فلا عِدَّةَ عليها، ولو خلا بها.

ولا شَكَّ أن هذا هو ظاهِر الآية، لكن الوارِد عن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ولا سِيَّما الخُلَفاءُ الراشِدون يَثْبُت بأن عليها العِدَّة إذا خلا بها.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: وُجوب المُتْعة على مَن طلَّق قبل الدُّخول؛ تُؤْخَذ من قوله تعالى: ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾، وهذا مُقيَّد بالآية الأُخرى، وهي ما إذا فرَض لها فريضةً، فإنها إذا فرَض لها مَهرًا فليس عليه إلَّا نِصْف المَهْر؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ [البقرة:٢٣٧].

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٦/ ٢٨٨)، وسعيد بن منصور في سننه رقم (٧٦٢)، وابن أبي شيبة (٩/ ٢٠٦)، والبيهقي (٧/ ٢٥٥).

(٢) الأم (٦/ ٥٤٥-٥٤٦)، ونهاية المطلب (١٥/ ١٩٣).

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: التَّكْنيـة عمَّـا يُسْتَحْيا من ذِكْـره؛ لقوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أن المُعتَـدَّةَ من وَفَاةٍ عليها العِـدَّةُ مُطلَقة، وإن لم يَدخُل بها؛ تُؤخَذ من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾، فجعَل الله تعالى هذا الحُكْمَ في الطـلاق، فيبقَى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة:٢٣٤]، يَبقَى على إطلاقه أن المُتوفَّى عنها تَجِب عليها العِدَّةُ وإن لم يَدخُل بها.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: رحمةُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعِباده وخَلْقه؛ حيثُ أَوْجَب المُتْعة على مَن طُلِّقَت قبلَ الدُّخول، وجهُ ذلك: أن فيه جَبْرًا لخاطِرها وإزالةً لِلْهَمِّ والغَمِّ الذي اعترَاها بعد الطلاق.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: وُجُوب التَّسريح الجميل في المُفارَقة؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: أن العدَّة حَقٌّ للزوج وجهُهُ قال تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ﴾ فهي حقٌّ للزَّوْج على المرأة.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: ممَّا يَنبَغِي أن يُحْصِيَ الإنسان عِدَّة زَوْجته، ويَعتَنِيَ بها، ولا يَدَعها هملًا لا يَدرِي عنها؛ لقوله تعالى: ﴿تَعْتَدُّونَهَا﴾، فإن هذا دليلٌ على أن مِن شأنِ الأزواج أن يَعتَـدُّوا عِدَّةَ أزواجِهنَّ وأن يُحصـوها ويُراقِبـوها؛ لأنها فِراشٌ له ما دامت في العِدَّة إذا كانت رَجْعية.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: لا يُؤخَـذ من مَفهـوم قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أنه إذا نَكَحوا الكِتابِيَّات تَغيَّر الحُكْم؛ لأن هذا قَيْدٌ أَغلَبيٌّ، وقد ذكَر

أهل العِلْم في الأُصول أن ما كان قَيْدًا أَغلَبيًّا فإنه لا مَفهومَ له، تُؤخَذ من قوله تعالى: ﴿ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾؛ لأن هذا الحُكْمَ شامِل للمُؤْمِنات ولغَيْرِهن.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: أنه لا عِدَّةَ في الطلاق بعد الدُّخول ولو طالَتِ المُدَّةُ؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةَ عَشْرَةَ: أن الطَّلاق بيَدِ الزوج؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ فلا يَملِك الأبُ ولا الجَدُّ ولا العَمُّ ولا الخالُ ولا غيرُهم أن يُطلِّقوا على الإنسان.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ: أنه لا عِدَّةَ لغَيْر المُطلَّقة كالمَفسوخة بِخُلْع أو غيره؛ وهذه الفائِدةُ قد لا تكون إلى ذاك الظُّهورِ إلَّا أن القول الراجِح إلَّا أن المُفارَقة بغير الطلاق ليس عليها عِدَّة؛ ثم إن المُختَلِعة إنها تُسْتَبْرَأ بِحَيضة ثُم تَحِلُّ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةَ عَشْرَةَ: الجَمْع بين الإحسان المالي والفِعْلي؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ﴾ هذا الإحسانُ الماليُّ، وقوله تعالى: ﴿سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ وهذا الإحسان الفِعْليُّ.

الْفَائِدَةُ العِشْرُون: يُستَثْنى من الآية مَن فُرِض لها فَريضةٌ فلها نِصْف الفَريضة، وليس على الزَّوْج مُتْعة.

• • ۞ • •

الآيــة (٥٠)

• • • •

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةٗ لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [الأحزاب:٥٠].

• • • •

ثُمَّ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [مُهورَهُن].

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ مِثْل: هـذه الصِّيغـة تَدُلُّ على تَعظيم المُخاطَب حيثُ وُجِّه إليه الخِطاب بالنِّداء؛ هذا من وجهٍ. ومن وجهٍ آخَرَ أنه وُصِف بالنُّبوَّة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، ففي ذلك تَعظيم وتَفخيم لرسول الله ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ﴾: ﴿أَحۡلَلۡنَا﴾ أي: جَعَلْناهن حِلًّا لك.

وهل المُرادُ أَزْواجك اللاتي تُريد أن تَتزوَّج بهِنَّ؟ أو المُراد أزواجُك اللاتي تَزوَّجت بهن؟

الجَوابُ: في هذا قَوْلان لأَهْل العِلْم رَحِمَهُمُ اللَّهُ:

فمِنهم مَن قال: ﴿إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ﴾ يَعنِي: أزواجَك اللَّاتِي تُريد أن تَتزوَّج بِهِنَّ وتُؤتِيَهنَّ أُجُورهَن.

وحُجَّةُ هَؤلاءِ: أننا لو حَمَلْناها على مَن تَزوَّج بهن لكان ذلك من باب تَحصيل الحاصِل؛ لأنه إذا كانَتِ الزوجة معَه وقد أَقَرَّه الله تعالى عليه فلا حاجةَ إلى أن يَقول: إنا أَحْلَلْنا لك؛ لأنهن عِنده مُتزَوِّج بهِنَّ.

والقول الثاني: أن المُراد أَحْلَلْنا لك أزواجك اللاتي تَزوَّجْت بهِنَّ؛ بدليل قوله تعالى: ﴿ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ﴾، وهذا القولُ الثاني هو المُوافِق لظاهِر الآية؛ لأن قوله تعالى: ﴿ءَاتَيۡتَ﴾ فِعْلٌ ماضٍ؛ وعلى القول الأوَّل يَجِب أن نُؤوِّل الفِعْل الماضِي بالفِعْل المُضارِع، يَعنِي: اللاتي تُؤتِي أُجورَهُن وهذا خِلاف ظاهِر الآية.

ويُجاب عمَّا أيِّد به أولئِكَ قولهم: أنه إذا كان المُرادُ الزوجاتِ اللاتِي في حِبالِه، فإن ذِكْر الإحلال من باب تَحصيل الحاصِل.

ويُجاب على هذا: بأن ذِكْر الإحلال من باب التَّوْكيد، ومَعناهُ: أن هؤلاءِ حلالٌ لك ليس فِيهنَّ شُبْهة، وليس فِيهنَّ مُعارضةٌ.

ويُمكِن أن يَكون للامتِنان، لكن الظُّهور دَفْع ما يُمكِن أن يُوجَّه إليه من لَوْمٍ.

قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ﴾: ﴿ءَاتَيۡتَ﴾ بمَعنَى: أَعطَيْت، وأَمَّا (أَتيتَ) بغير مَدٍّ فهي بمَعنى: جِئْت، يَقول المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: أي: [مُهورَهُن]، وسُمِّيَ المَهرُ أجرًا؛ لأنه عِوَضٌ عن الانتِفاع بالزوجة والاستِمْتاع بها، وليس عِوَضًا عن ذاتها، ولو كان عِوَضًا عن ذاتها لسُمِّيَ ثمنًا، لكنه عِوَضُ الاستِمْتاع بها والانتِفاع بها؛ ولهذا سُمِّيَ أُجْرة.

وقوله تعالى: ﴿ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ إذا كانت (آتَيْتَ) بمَعنَى: أَعطَيْتَ، فهي تَنصِب مَفعولَيْن، المَفعول الأوَّل محذوف، والتَّقدير: آتَيْتَهنَّ، و﴿أُجُورَهُنَّ﴾ هو المَفعول الثاني، وجائِزٌ حَذْف المَفعول مع العِلْم به.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ الواو حَرْف عَطْف، و(ما) مَعطوفة على قوله تعالى: ﴿أَزْوَاجَكَ﴾ يَعنِي: وأَحْلَلْنا لك ما مَلَكَتْ يَمينُك، أي: ملكْتَ ذاتَه أو الانتِفاع به؛ ومَلْك الذات يَستَلزِم مَلْك المَنافِع؛ لأنَّ مَن مَلَك شيئًا ملكَ مَنافِعَه، ومَن مَلَك المَنافِع لم يَلزَم أن يَملِك الأعيان أو الذات.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾ يَمينك ويَداك وما أَشبَه ذلك يُعبَّر بها عن الذاتِ؛ لأنها غالِبًا وَسيلة الأَخْذ والإعطاء، فقوله تعالى: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ يَعنِي: بما كَسَبْتم، وقوله تعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ أي: ممَّا ملكْتَ، لكنَّه عبَّر باليمين عن الذات؛ لأن الغالِب أن الأَخْذ والإعطاء هنا باليَد، واليَمين أَشرَفُ من اليَسار، فهي الَّتي يُؤخَذ ويُعطَى بها.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾: (مِنْ) هذه بَيانِيَّةٌ وما هو المُبيَّن؟ المُبيَّن اسمُ المَوْصول -واسمُ الشَّرْط واسمُ الاستِفْهام كلُّها من الأشياءِ المُبهَمة فيأتي البَيان بعدَها-؛ فقوله: (مِن) بيان (ما) في قوله تعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِن الكُفَّار بالسَّبْيِ] (أَفاءَ) بمَعنَى: رَدَّ، ومنه الفَيْءُ، وهو الظِّلُّ بعد الشَّمْس؛ لأنه رجَع بعد أن نَسَخْته الشمس، فصار ظِلًّا كما هو الحالُ قبل أن تَأتِيَه الشمس.

وقوله تعالى: ﴿مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾ المُراد به هنا الغَنيمة؛ لأن الغَنيمة في الحَقيقة

ردٌّ للمال من غير أهله إلى أهله، فإننا نحن -المُسلِمين- المُستحِقُّون حقًّا لِمَا رزَقَ الله تعالى الخَلْق، والكُفَّار يَستَمْتِعون به على وَجهِ الظُّلْم؛ ولهذا يُؤاخَذون به، وقد تَقدَّم أن الكُفَّار يُحاسَبون على الأكل والشُّرْب واللِّباس، وذكَرْنا في ذلك دليلًا من القرآن، قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الأعراف:٣٢]، فهذه فيها اللِّباس، والأكل ﴿وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾، و﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ هذه اللَّامُ للإباحة والاستِحْقاق ﴿خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ للمُؤمِنين، أمَا أُولَئِك فلَيْست لهم ولَيْسَت خالِصةً لهم يوم القيامة، فهي في الدنيا حرامٌ عليهم، ويُحاسَبون عليها يوم القِيامة.

والآيةُ التي فيها الدَّليل على أن الأَكْـل والشُّـرْب حرامٌ على الكُفَّار هي قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ مفهـومُهُ: أن الذين لم يُؤمِنوا ولم يَعمَلوا الصالِحاتِ عليهم جُناحٌ فيما طعِموا.

إذَنْ: بهذا يَتبيَّن وجهُ كون الغَنيمة فَيْئًا، والفَيْءُ بمَعنَى: الرجوع والردِّ؛ فلهذا يَكون المال الذي بأَيْدي الكُفَّار إذا غنِمَه المُسلِمون فقد عاد إلى أهله، كأنهم يَأخُذون المال بغير حَقٍّ، فإذا أَخَذْناه منهم عاد إلى مُستَحِقِّه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾ قـال رَحِمَهُ اللَّهُ: [مِـن الكُفَّار بالسَّبْي كصَفِيَّةَ وجُوَيْرِيةَ]، وصَفيَّةُ من سَبايا خَيبرَ، وجُوَيْرِيةُ من سَبايا غزوةِ بَني المُصطَلِق، وهُما من أُمَّهات المُؤمِنين.

وقوله تعالى: ﴿مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾ ظاهِرُه أن ما ملَكَتْ يَمينه من غير ذلك لا تَحِلُّ له، ولكنه غيرُ مُراد، بدليل أن مارِيةَ القِبْطيةَ استَحَلَّها النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ،

وأَتَتْ منه بولَدٍ[١]، وكانتا -صَفيةُ[٢] وجُوَيْريةُ[٣]- من مِلْك اليمين أوَّلًا، ثُمَّ أَعتَقَهُنَّ وتَزَوَّجهن.

وقوله تعالى: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بخِلاف مَن لَمْ يُهاجِرْن].

وهؤلاءِ الأَرْبعُ هُنَّ الحَلائِلُ من الأقارِب، وما عَداهُنَّ من الأقارِب فحَرام كما في سُورة النِّساء، فصار الأقارِبُ الآنَ مُحلَّلاتٍ ومُحرَّماتٍ، أمَّا المُحرَّماتُ فما ذُكِرْن في سورة النِّساء في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ﴾ [النساء:٢٣]، وهُنَّ سَبْع، والمُحلَّلات من الأقارِب أَربَعٌ: بناتُ العَمِّ يَعنِي: وإن نزَلْنَ، وبناتُ العَمَّة وإن نزَلْن، وبناتُ الخالِ وإن نزَلْن، وبناتُ الخالةِ وإن نزَلْن، هؤلاءِ كُلُّهن حلالٌ.

وقوله تعالى: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ﴾ تكلَّم المُفسِّرون على قوله: بنات عمِّك وعمَّاتك وخالِك وخالاتِك؛ فقالوا: لَمَّا أَفرَد في الذُّكور وجَمَع في الإناث، فقال في الذُّكور: عَمِّك وخالِك. وفي الإناث قال: عمَّاتِك وخالاتِك. فقال بعضُهم: إن هذا من باب التَّشريف؛ الذكورة كأن الواحِدُ يُقابِله من النِّساء جَمْع، وإلى هذا ذهَبَ ابنُ كثيرٍ[٤] رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

---

(١) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٨/ ٢١٢)، و المستدرك للحاكم (٤/ ٣٨).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب ما يذكر في الفخذ، رقم (٣٧١)، ومسلم: كتاب النكاح، باب فضيلة إعتاقه أمته، رقم (١٣٦٥)، من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب العتق، باب من ملك من العرب رقيقًا، رقم (٢٥٤١)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب جواز الإغارة على الكفار الذين بلغتهم دعوة الإسلام، رقم (١٧٣٠)، من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

(٤) تفسير ابن كثير (٦/ ٣٩١).

وقال بعضُهم: أنه لَمَّا كان لَفْظ العَمِّ والخالِ كلَفْظ المَصدَر صار الأنسَبُ أَلَّا يُجمَع؛ لأن المَعروف أن المَصادِر لا تُجمَع ولا تُثنَّى، لكن هذا في النَّفْس منه شيء.

والأقرَبُ: ما ذكَرَه ابنُ كَثير رَحِمَهُ اللَّهُ أن قوة صِلة العَمِّ بالإنسان أَقوى من قُوَّة صِلة العَمَّة به؛ فلهذا جُمِع، وإلَّا فمِن المعلوم أن الإنسان له أعمام وليس له عَمٌّ واحِد فقَطْ، وبناتُ أَعْمامه كلُّهن حَلال.

وقوله تعالى: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ﴾ فيه زِيادة قَيْد بالنِّسبة للرسول ﷺ وهو قوله تعالى: ﴿ٱلَّـٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ يَعنِي: هاجَرْن من مكَّةَ إلى المدينة، وسواءٌ كُنَّ في مَعِيَّته مُباشَرة أو في مَعِيَّته بالمَعنَى، أي: بالهِجرة، فليس بلازِمٍ أن تَكون بنتُ العَمِّ أو بِنتُ الخالِ مع الرسولِ ﷺ مُباشَرة يَعنِي: تَسير معه، بل لو هاجَرَت قَبلَه أو بعدَه فهي داخِلة في هذا.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾ يَطلُب نِكاحها غير صَداق ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ النِّكاح بلَفْظ الهِبَة من غير صَداق]، يَعنِي: الخالِص هو النِّكاح ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ﴾ إلخ.

قوله تعالى: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً﴾ يَعنِي: وأَحْلَلْنا لك امرأةً مُؤمِنةً، وهذا نَكِرة في سِياق الإثبات، والمَعروف أن النَّكِرة في سِياق الإِثْبات لا تَقتَضي العُموم، لكن لَمَّا كان السِّياق سِياقَ مِنَّة صارَتْ للعُموم، والأصل في النَّكِرة أَلَّا تَعُمَّ إذا كانت في سِياق الإثبات، فإذا قُلْت لك: اضْرِبْ رجُلًا. ليس مَعناها أَنِّي آمُرك أن تَضرِب جميعَ الرِّجال، لكن إذا كانتِ النَّكِرة في سِياق الإثبات يُراد بها الامتِناع صارت للعُموم؛ لأنها لو قُيِّدت بالواحِدة لم تَكْمُلْ بها المِنَّة، فلا تَكمُلُ المِنَّة إلَّا إذا كانت يُراد بها العُمومُ.

إِذَنْ: نَقول: قوله: (امرأةً) وإن كانت صِياغتها صيغة الواحِد، لكن المُراد بها العُموم، لأنها سِيقت للامتِنان، والامتِنان بالواحِدة لا يَكْمُل إلَّا إذا كانت امتِنانًا بكل فَرْد من أفراد هذه النَّكِرة.

إِذَنْ: يَكون معنى الآية: وأَحلَلْنا لك أيَّ امرأة، وقوله تعالى: ﴿مُّؤْمِنَةً﴾ هذا قَيْد يَخرُج به غير المُؤمِنة ولو كانت كِتابيَّةً، فإنها لا تَحِلُّ للنَّبيِّ ﷺ؛ ولهذا ذهَبَ بعضُ العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ إلى أنَّ من خَصائِص النبي ﷺ في النِّكاح أَلَّا يتزوَّج امرأةً كِتابيةً، وهذا لم يَقَعْ، لم يَقَعْ أن النبيَّ ﷺ تزوَّج امرأةً كِتابيةً.

ومن المَعلـوم أن من خَصائص الرسول ﷺ في النِّكاح ما هو تَوسِعة وما هو تَضييق، فالتَّوْسِعة النِّكاح بالهِبَة والتَّزوُّج بأكثَرَ من أربعٍ، والتَّضييق أنه لا يَحِلُّ له من بنات عمِّه وبنات عَمَّاته وبنات خاله وبنات خالاته إلَّا مَن هاجَرْن معَه.

وكذلك على القولِ الراجِح أنه بعد تَخيير النبيِّ ﷺ لزوجاتِه لا يَحِلُّ له النِّساء، كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ وهَبَت هي بدون وَلِيِّها، وهَبَت نفْسَها أي: أَعطَتْها للنبيِّ ﷺ بلا عِوَضٍ؛ لأن الهِبة تَعريفها: بَذْلُ المال بدون عِوَض. فمَعنى ﴿وَهَبَتْ نَفْسَهَا﴾ يَعنِي: جاءت للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وقالت له: قد وهَبْتُ نَفْسي لكَ. فتَحِلُّ له، لكن لَمَّا كان الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مُخيَّرًا في ذلك، وليس واجِبًا عليه أن يَقبَـل قال تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾، وهذا الشَّـرْطُ داخِل في الشَّـرْط الأوَّل؛ وقد عَلِم أن الشَّـرْط الثانيَ قَيْد في الشَّـرْط الأوَّل، فهو مُتأخِّر لفظًا مُتقدِّم معنًى؛ وكُلَّما تَداخَلَتِ الشروط فاجعَلِ الشَّرْطَ الأخيرَ قَيْدًا فيما قبلَه فهو مُتأخِّر رُتْبةً، لكنْ مُتقدِّمٌ معنًى؛ فإذا تَعدَّدَتِ الشـروط (إنِ) الشَّـرْطية أو (إذا) أو ما أَشبَه، فإن

الشَّرْط الأخير يَكون شَرْطًا فيما قبلَه، فيَكون مُتأخِّرًا لفظًا مُتقدِّمًا مَعنًى ورُتبةً، مثَلًا إذا قلت: أَخْبِرني إذا ضَرَبَك زيدٌ إن ظَلَمَكَ. صار الظُّلْم سابِقًا على الضَّـرْب، وإن كان مُتأخِّرًا عنه في الذِّكْر، ويَتَّضِح ذلك تمامًا في قول الشاعِر:

إِنْ تَسْتَغِيثُوا بِنَا إِنْ تُذْعَرُوا تَجِدُوا ... مِنَّـا مَعَاقِـلَ عِـزٍّ زَانَهَـا كَـرَمُ[1]

فالشَّـرْط الأوَّلُ: (إِنْ تَستَغِيثُـوا)، والثاني: (إِنْ تُذْعَـرُوا)، والشَّـرْط الثاني مُتأخِّر عن الأوَّل في اللفظ، لكن مُتَقدِّم عنه في المعنى والرُّتْبة؛ لأن الذُّعْر سابِق على الاستِغاثة.

وهذه قاعِدة: كلَّما تَعدَّدَتِ الشروط فإن الشَّرْط الثاني سابِق على الشَّرْط الأوَّل، أو على الشَّرْط الذي قَبْله لو تَعدَّدَت؛ ولو كانت ثلاثة شروط أو أربعة شروط فالثاني سابِقٌ لقَبْله، فإذا كانت ثَلاثة شُـروط فالثالِثُ سابِق على الثاني، والثاني سابِق على الأوَّلِ، يَعنِي: بالعكس.

وهنا قال تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ﴾ الإرادةُ تَسبِق الحِلَّ والقَبول؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا﴾، وفائِدة هذا الشَّـرْطِ أنه لَمَّا كان ردُّ النبيِّ ﷺ للمَرأة إذا وهَبَت نَفْسها النبيَّ ﷺ لـمَّا كان أمرًا شديدًا وكان النبيُّ ﷺ أشدَّ الناس حَياءً كان عَرْض المَرأةِ نَفْسَها على الرسول ﷺ قد يَكون شِبهَ مُلزِم له بمُقتَضى خُلُقـه، فلمَّـا كان كذلك فتَحَ الله تعالى لرسـوله ﷺ الباب على مِصراعَيْه؛ حيث أَثبَتَ له الإرادة والتَّخيير في هذه الحالِ، فقال تعالى: ﴿إِنۡ أَرَادَ﴾.

---

(١) غير منسوب، وانظره في: شرح الكافية الشافية (٣/ ١٦١٤)، ومغني اللبيب (ص:٨٠١)، وهمع الهوامع (٢/ ٥٦٤).

إِذَن: فما فائِدة ذِكْر الإرادة مع أن المَوْهوب له إن شاء قَبِلَ الهِبَة، وإن شاء لم يَقبَل؛ يَعنِي: هذا أَمْر مَعلوم؟

الجَوابُ: الفائِدة من قوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾؛ لِئَلَّا يُلزِم النبيُّ ﷺ نفسَه قَبولَ الهِبَة لِمَا عُلِمَ من خُلُقه ﷺ أنه أَشَدُّ الناس حَياءً، ومَعلوم أن رَدَّ الإِنْسان هِبة المَرأة نَفْسها له أَمْر صَعْب، كيف امرأةٌ تَهَبُ نفسَها لك، وتَأتي راغِبة فيكَ أشَدَّ الرَّغبة، بحيث إنها فَدَتْك بنفسها، فكيف تَرُدُّها؟! هذا أَمْر فيه صُعوبة في الواقِع، وقد يَكون ردُّها مُنافيًا للمُروءة، والنبيُّ ﷺ أَشَدُّ الناس حِرصًا على المُروءة وأشَدُّ الناس حَياءً في مِثْل هذه الأمورِ، لكن الله تعالى أَراد أن يَفتَح له الباب حتى لا يَعترِض أحَدٌ أو يَقول قائِل: كيف رَدَّها؟! ويَكون الرسولُ ﷺ أَعطاها الحُرِّيَّة الكامِلة في ذلك في قَبولها أو رَدِّها.

قوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [يَطلُب نِكاحها] والصوابُ: يُوافِق على نِكاحها؛ لأنه مَطلوب، والصَّواب: أن المُراد أن يَستَنكِحها، أَيْ: أن يَقبَل نِكاحها.

قوله تعالى: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، قوله تعالى: ﴿خَالِصَةً لَّكَ﴾ يُحتَمَل أن تَكون صِفةً لقوله تعالى: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً﴾، ويُحتَمَل أن تكون مَفعولًا لِفِعْل مَحذوف، والتقديرُ: جعَلْناها خالِصةً لك، أي: هذه الشَّريعة أو هذه الشِّرْعة جعَلْناها خالِصةً لك، والخالِص من الشيء هو الذي لا يُخالِطه غيرُه، فمَعنَى ﴿خَالِصَةً لَّكَ﴾ يَعنِي: لا يُشارِكك أحَدٌ فيها، فيما إذا وهَبَتِ امرأةٌ نَفْسها لأحَد، فإنها لا تَحِلُّ له.

وهلِ المُراد بالخالِص هنا أن يَتزوَّج بلا مَهْرٍ ولا وَلِيٍّ، أو أن يَقَع ذلك بلَفْظ الهِبَة؟

الجَوابُ: الصحيح الأوَّلُ: أن الخالِص أن يَكون ذلك بلا مَهْرٍ ولا وَليٍّ ولا شُروطٍ على القول باشتِراط الشُّروط؛ لأن الهِبة هي التَّبرُّع بلا عِوضٍ، فالمَقصود: المَعنَى لا اللَّفْظ، يَعنِي: أن الذي اختُصَّ به الرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هو أن المَرأةَ تأتي إليه وتَقول: وهَبْت نَفْسي لك. ويَأخُذها، وهذا قد وقَعَ فِعْلًا أكثَرَ من مرَّة، تأتِي النِّساء إلى الرسول ﷺ ويَهَبْنَ أَنفُسهنَّ له، فالخالِص للرسول ﷺ والخاصُّ به هو أن يَكون النِّكاح مجَّانًا بلا وليٍّ ولا شُروطٍ.

وأمَّا الهِبَة فإن العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ اختَلَفوا: هل يَصِحُّ النِّكاح بلَفْظ الهِبَة مثل أن أَقول: وهَبْتُك بِنْتي على صَداق قَدْره كذا وكذا، أو مَلَّكْتُك بِنْتي على صَداق قدرُهُ كذا وكذا. اختَلَف فيه العُلماءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ على قولين: مِنهم مَن يَرَى أنه لا يَصِحُّ، وأنه لا بُدَّ أن يَكون عَقْد النِّكاح بلَفْظ التَّزويج أو بلَفْظ الإِنْكاح، ومِنهم مَن يَرى أنه يَصِحُّ، وهذا له محَلٌّ آخَرُ.

وقوله تعالى: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: ﴿دُونِ﴾ بمَعنَى: سِوى، أي: مِن سِواهم، والمَعنَى: أن المُؤمِنين لا يَحِلُّ لهم ذلك، والكافِرون من بابِ أَوْلى، فإن الكافِر لا يَحِلُّ له أن يَتزوَّج بالهِبة وكذلك المُؤمِن.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ النِّكاح بلَفْظ الهِبَة من غير صَداق هذا خاصٌّ للرَّسول ﷺ من دون المُؤمِنين].

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: المُؤمِنين ﴿فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ مِن الأَحكام] ﴿قَدْ عَلِمْنَا﴾: ﴿قَدْ﴾ هذه للتَّحقيق، وقد قيل: إن ﴿قَدْ﴾ إذا دخَلَت على الماضِي فهي للتَّحقيق، وإن دخَلَتْ على المُضارِع فهي للتَّقليل، وقد يُراد بها التَّحقيقُ، فإن قُلت: قد قُمْت. فهذا للتَّحقيق، وإن قُلْت: قد يجود البَخيل وقد

يَصدُق الكذَّاب. فهذا للتَّقليل، لكن تَأتي للتَّحقيق في مثل قوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ [النور:٦٤]، وقوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾ [الأحزاب:١٨]، هذه لا شَكَّ أنها للتَّحقيق.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ﴾، يَعنِي: أننا قد فرَضْنا عليهم أشياءَ، وعلِمْنا أن المَصلَحة تَقتَضي ما فرَضْنا دون سِواه، فليس المُراد بالآية مُجرَّدَ العِلْم أو مُجرَّد الإخبار بأن الله تعالى قد عَلِم ما فرَض؛ لأن كون الله تعالى قد عَلِم ما فرَض أَمْرٌ مَعلوم، فإن كون الله تعالى فرَضه مَعلوم أنه صادِر عن عِلْم، لكن المُراد أن ما فرَضْناه قد صدَر عن عِلْم منَّا بما يُناسِبهم في أزواجهم، وليس عن جَهْل؛ ولهذا قال تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ﴾: ﴿فَرَضْنَا﴾ هنا بمَعنَى: أَوْجَبْنا عليهم؛ أي: على المُؤمِنين ﴿فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ من الأَحْكام.

قوله تعالى: ﴿فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾: (أزواج) جَمْع زَوْجة أو جَمْع زَوْج؛ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِن الأَحْكام بألَّا يَزيدوا عن أربَعِ نِسوةٍ، ولا يَتزَوَّجوا إلَّا بوَليٍّ وشُهود ومَهْر] وغير ذلك من الأشياءِ التي تُخالِف الأحكامَ الثابِتة للرسول ﷺ؛ لأن النبيَّ ﷺ خُصَّ بالنِّكاح بأَحكام، وخُصَّ المُؤمِنون بأحكام، وكُلُّ ذلك عن عِلْم من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وعن حِكْمة.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بألَّا يزيدوا على أَرْبَع] فلا يَحِلُّ لمُؤمِن أن يَزيد على أربَعِ زَوْجات؛ لقول الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [النساء:٣]، فجعَل آخِرَ شيء الرُّباع، أيِ: الأَرْبع، مع العِلْم بأن المَقام يَقتَضِي الزِّيادة لو كان هناك زيادة بدَليل أن الآية إنما ذَكَر الله تعالى فيها العدَد المُمكِن؛ لأنها رُتِّبت على شَرْط، وهو ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ يَعنِي: إن

خِفْتم أَلَّا تَعدِلوا في اليَتامى في النِّساء التي بين أَيْديكم كَبِنْت العَمِّ وشَبهها إن خِفْتم أَلَّا تَعدِلوا فيها فلَدَيْكمُ النِّساء كثير، فلو كان هناك زيادة على الأَربَع لكان الله تعالى يَذكُرها حتى يَكون المَجال أوسَعَ، فالآية نزَلَت مُقيَّدة بشَرْط ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾ أي: أَلَّا تَعدِلوا في نِكاحِهن.

وكانوا في الجاهِلية إذا كان الإنسان عِنده بِنْت عَمٍّ يَتيمةٌ كان يَظلِمها في النِّكاح، إمَّا أن يَمنَعها أو بأن يُعلِّقَها على أنها تَكون له، فأَنزَل الله تعالى هذه الآيَةَ.

وقوله تعالى: ﴿فَانكِحُوا﴾ يَعنِي: فالنساء سِواهُنَّ كثير، قال تعالى: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾، فلو كان عدَد زائِد على الأربع جائِزًا لذُكِر هنا، ولَقِيل مثَلًا: فانكِحوا ما شِئْتم من النِّساء، أو لقال: فانكِحوا ما طاب لكم من النِّساء. ولم يُقيِّد، فلمَّا قيَّد عُلِمَ أنه لا يَجوز أكثَرُ من أَربَع، ولم يُخالِف في ذلك إلَّا شُذَّاذٌ من أهل العِلْم رَحِمَهُمُ اللَّهُ أو الرافِضة.

والرافِضةُ عِندهم توسُّع في مَسائِل النِّكاح، منها هذه المَسأَلةُ يُجوِّزون أن يَتزَوَّج الإنسان إلى تِسع، ومنها مَسألة المُتْعة، وهذا ممَّا يُوجِب لضُعَفاء الإيمان أن يَعتَنِقوا مَذهَبهم؛ لأنهم يَجِدون فيه إشباعًا لرغَباتهم، فإذا كانوا يُجيزون المُتْعة للإنسان إذا نزَل ببَلَد له أن يَذهَب إلى امرأة فيَقول لها: زوِّجيني نَفْسَكِ لمدَّة سَبْعة أيام، أو لمُدَّة عشَرة أيام، أو لمُدَّة شَهْر. هُم يُجوِّزون ذلك!! ويُجوِّزون أيضًا أن يَتزوَّج الإنسان إلى تِسع!!.

كذلك يَقول المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [ولا يَتزوَّج إلَّا بولِيٍّ] لا يَجوز النِّكاح إلَّا بولِيٍّ، والدليل على ذلك من القُرآن قولُه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ﴾ [النور:٣٢] أيْ: زوِّجوا، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة:٢٢١] لا تُزوِّجوا، وقوله تعالى:

﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾ [البقرة:٢٣٢]، ولولا أن الوَلِيَّ شَرْط لم يَكُن لعَضْله حُكْم.

ثانيًا: [ولا شُهود] الشُّهود مُختَلَف في اشتِراطه في النِّكاح، فالمَشهور أنه لا بُدَّ من الشُّهود؛ لأن عَقْد النِّكاح خَطير، ويَتَرتَّب عليه مَسائِلُ وحُقوق نسَب ومالٍ؛ وغيره من العُقود الأُخرى تَجِدها إمَّا ماليَّةً وإمَّا حُقوقيةً أخرى غير المال، لكن هو جامِع بين المال والنسَب والحُقوق؛ فالمال كالمَهْر والنَّفَقة والإِرْث، والنسَب كإلحاق الولَد بأبيه في الزواج، والحُقوق ما يَجِب على الزَّوْج وزَوْجته من المُعاشَرة بالمَعروف، فلا بُدَّ من شُهود.

وابنُ تَيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا يَشترِط الشُّهود، بينما اشتَرَط إعلان النِّكاح أو الشهود، فإن وُجِدَ الإعلان ولو بلا شُهود كفَى، فإمَّا أن يَجتَمِع الإِشْهاد والإعلان، وهذا أَعلى الأَقْسام، وإمَّا أن يُفقَد الإِشْهاد والإِعْلان وهذا لا يَصِحُّ، وإمَّا أن يُوجَد الإشهاد بلا إعلانٍ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وفي صِحَّة النِّكاح هنا تَردُّد ونظَرٌ»[1]؛ وإمَّا أن يُوجَد الإعلان بلا إشهادٍ، وهذا عِندهم صحيح.

فالأَقْسام إِذَنْ أَرْبعة:

١- أن يُوجَد الإعلان والإِشْهاد.

٢- أن يُعْدَم الإِعْلان والإِشْهاد.

٣- أن يُوجَد الإِشْهاد دون الإِعْلان.

٤- أن يُوجَد الإِعْلان دون الإِشْهاد.

(١) مجموع الفتاوى (٣٢/ ١٣٠).

فَيَشهَدون على العَقْد، أمَّا الإشهاد على الرِّضا فهو سُنَّة وليس بواجِبٍ.

والإعلانُ ليس لازِمًا بالوَليمة، فقد يَكون الإعلان مثَلًا بالمَشْي ليلة الزِّفاف بالأسواق، كما يُصْنَع فيما سبَق، وكذلك الآنَ في السيَّارات إعلانٌ بَيِّنٌ، وكذلك في وَضْع الأنوار على بَيْت الزَّوْج وبَيْت الزوجة هذا أيضًا من الإعلانِ، وإذا لم يَحصُل فلا يَكون إعلانًا، فإذا كان لا يَظْهَر أنه عُرْس فلا يَكون إعلانًا، أمَّا إن ظهَر فإن كان المُجتَمَع اعتبَر من العادة أن هذا إعلانٌ فهو إعلانٌ.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [إلَّا بوَليٍّ وشُهود ومَهْر] المَهْر: الصَّداق، وظاهِر كلام المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ أن المَهْر شَرْط في النِّكاح.

واعْلَمْ أن للمَهْرِ ثلاثَ حالاتٍ:

- تارةً يُذكَر مُعيَّنًا.
- وتارةً يُنفَى.
- وتارةً يُسكَت عنه.

ثلاثُ حالات تارة يُنفَى، وتارة يُثبَت مُعيَّنًا، وتارة يُسكَت عنه فلا يُذكَر مُعيَّنًا ولا يُنفَى.

الحال الأُولى: الذي يُذْكَر مُعيَّنًا مثل أن يَقول: زوَّجْتُكَ ابنَتِي بعشَرة ريالات. فيَصِحُّ، أو يَقول: زوَّجْتُك ابنَتِي برِيال واحِد. يَصِحُّ؛ وتَزوَّج رجُل امرأة بريال، فلَمَّا صارَتِ الضُّحى وهو عِندها قرَع البابَ رجُل، فذهَبَ يَفتَح له فتَنازَعوا إيَّاه، وعلَتْ أَصواتهما، فلَمَّا رجَع إليها قالت زَوْجَته: مَن هذا الرجُلُ الذي يَأتي يُخاصِمك في أوَّل يَوْم من زواجِكَ. قال: هذا رجُل يَطلُبني؛ قالت: خُذْ هذا الرِّيالَ أَعطِهِ إيَّاه،

وكان مَهرَها، لكن الآنَ لا يُوجَد أحَدٌ يُزوِّج بريال.

فهذا إثباته مُعيَّن، يَعنِي يَقول زوَّجْتُك ابنَتي برِيال أو بعشَرة رِيالات أو بمِئة رِيال أو بأكثَرَ أو أقَلَّ.

الحال الثانية: أن يَنفِيَ فيقول: زوَّجْتُك ابنَتي. فيقول: قَبِلْتُ بلا مَهْر. فاختَلَفَ العُلَماءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ في هذا العَقْدِ هل يَصِحُّ أو لا يَصِحُّ؟ والمَشهور من المَذهَب[1] أن العَقْد صحيح، ولها مَهْر المِثْل، واختار شيخُ الإسلام ابنُ تيميَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ أن العَقْد لا يَصِحُّ[2]؛ لأنه تَزوَّج على غير الشرط الذي ذكَرَ الله تعالى؛ لأن الله تعالى يَقول ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ [النساء:٢٤].

الحالُ الثالِثةُ: أن يَسكُت عنه فلا يُذكَر مُعيَّنًا ولا يُنفَى بأن يَقول: زوَّجْتُك ابنَتِي. فيَقول قَبِلْتُ. فالعَقْد هنا صحيح، ولها مَهْر المِثْل، وقد نَصَّ على ذلك قوله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ﴾ [البقرة:٢٣٦]، فهُنا يَجِب مَهْر المِثْل إذا دخَل بها، فإن لم يَدخُل بها وطلَّقَها قبل الدُّخول وَجَبَتِ المُتْعة.

وظاهِرُ كلام المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله: [وشُهود ومَهْر] أن المَهْر شَرْط في صِحَّة العَقْد، فيَكون ذلك مُوافِقًا لكلام شيخِ الإسلام ابنِ تَيميَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ.

قال تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾: (فرَض) إذا تَعدَّت باللَّام فهي بمَعنَى: أَحَلَّ كما في قوله تعالى فيما سبَق: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾ أي: فيما أَحَلَّ، وكقوله تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾

(١) انظر: الهداية (ص:٤٠٢)، والمغني (٧/ ٤٩)، وكشاف القناع (٥/ ١٥٦).
(٢) مجموع الفتاوى (٢٩/ ٣٥٢).

[التحريم:٢]، أي: أَحَلَّها وشرَعها، أمَّا إذا تَعدَّت بـ(على) فهي بمَعنَى الإِيجاب كما هنا ﴿قَدْ عَلِمْنَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾.

فائِدةٌ: النَّفيُ يُحمَل أوَّلًا على نَفيِ الوُجـود، فإن لم يُمكِن فعلى نَفيِ الصِّحَّة، فإن لم يُمكِن فعلى نَفيِ الكَمـال، مثالُه في نَفيِ الوُجود: لا إلهَ حَقٌّ إلَّا اللهُ، ومِثالُه لنَفيِ الصِّحَّة: لا صلاةَ إلَّا بوُضـوء؛ لأنه يُمكِـن أن يُصلِّيَ الإنسان بدون وُضـوء، ومِثاله في نَفيِ الكَمال لا صلاةَ بحَضْرة طَعام؛ لأنه لو صلَّى لصَحَّت، ولا يُمكِن أن نَحمِلَه على الكَمال وهو يُمكِن نَفيُه على الصِّحَّة: لا نِكاحَ صحيحًا إلَّا بوَليٍّ، فما دام يُمكِن حَملُه على نَفيِ الصِّحَّة يَجِب، فأَوَّل ما نُسلِّط النَّفيَ على نَفيِ الوجود؛ لأن هذا هو ظاهِر اللَّفْظ؛ فإن لم يُمكِن بأن كان مَوْجودًا حَمَلْناه على نَفيِ الصِّحَّة؛ لأن نَفيَ الصِّحَّة نَفيٌ للوُجود شَرْعًا، فإن لم يُمكِن فإن دلَّتِ النُّصوص على الصِّحَّة يُحمَل على نفيِ الكَمال.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِـن الإمـاءِ] يَعنِـي: وعلِمنا ما فرَضْنا عليهم فيما ملَكَتْ أيمانهم من الإماءِ، خَصَّ المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ما) العامَّة بالإماء؛ لأن (ما) اسمٌ مَوْصـول، تُفيد العُمـوم، والإنسـان يَملِك الإماءَ، ويَملِك المَواشيَ، ويَملِك الدراهِمَ، ويَملِك البِناءَ، ويَملِك الأراضِيَ، فهل (ما) هنا للعُموم؛ يَعنِي: وفيما ملَكَت أيمانهم من كل شيء من الإماءِ كما قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ؟

نَقول: إن اللَّفْظ العامَّ لا يُمكِن أن نَخُصِّصه نحن إلَّا بدليل، وإلَّا فالواجِبُ إبقاءُ العُموم على عُمومه، وهنا خَصَّصناه بالإماء بدليل قَرْنه بالأزواجِ.

والكلام الآنَ فيما يَتعلَّق بالحُقوق الزوجيةِ، فقال تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ مـن الإمـاءِ، فتكـون الدَّلالـةُ على

التَّخصيص من قوله تعالى: ﴿أَزْوَٰجِهِمْ﴾.

وعلى هذا فنَقول: كلُّ مَوضِع ذُكِر فيه الأَزْواج وما ملَكَتِ اليَمين، فالمُراد بما ملَكَت اليَمينُ: الإماءُ.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بشِراءٍ وغَيرِه] يَعنِي: علِمْنا ما فرَضْنا عليهم من الإماءِ بالشِّراء وبغير الشِّراء، وهل يُمكِن أن يَملِك الإنسان الأَمَةَ بغير الشِّراء؟

الجَوابُ: يُمكِن، بالسَّبْي، وبالهِبَة، وبالإِرْث، وأَسْباب التَّملُّك كثيرة.

المُهِمُّ: أنَّ مِلْك اليَمين أسبابُه مُتعَدِّدة.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بأن تَكون الأمَةُ ممَّنْ تَحِلُّ لمالِكها كالكِتابيَّة بخِلاف المَجوسية والوَثَنيَّة] أَفادَنا المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأنه لا يَحِلُّ من الإماء إلَّا الأَمَة غير الكِتابيَّة، وهي اليَهودية والنَّصرانية، فأمَّا الأَمَة المَجوسية فلا تَحِلُّ، يَعنِي: لو سَبَيْنا إماءً من المَجوس، فإنه لا يَحِلُّ لنا وَطْؤُهنَّ، وكذلك الوَثَنيَّة وهي التي تَعبُد الأَوْثان، فهي لا تَحِلُّ لنا بمِلْك اليَمين.

وما الفَرْق بين المَجوسية والوَثَنيَّة؟

الفَرْق بينهما أن المَجوسية تَعبُد النار، والوَثَنية تَعبُد الأصنام من الأشجار والأحجار وما أَشبَهَ ذلك، وكذلك مَن يَعبُد القُبور، وكذلك مَن لا تُصلِّي، لكن مَن لا تُصلِّي مُرتَدَّة يَجِب أن تُقْتَل إذا لم تَتُبْ.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بخِلاف المَجوسِيَّة والوَثَنيَّة] هذا أحَدُ القَولين في المَسأَلة، والصحيح أن المَجوسِيَّة والوَثَنيَّة حلال بمِلْك اليمين؛ لعُموم قوله تعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾، ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ [المؤمنون:٦]،

فكلِمة (ما مَلَكَت أَيْمانُهم) عامٌّ، يَشمَل ما ملَكْتَه من الكِتابيَّات وما مَلَكْتَه من المَجوسِيَّات وما مَلَكْتَه من الوَثَنيَّات والشُّيُوعِيَّات وغير ذلك، ولا دليلَ على التَّقييد بالكِتابية.

نعَم؛ النِّكاح هو الذي لا يَحِلُّ إلَّا من الكِتابية، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [المائدة:٥] ما قال: إذا ملَكْتُموهنَّ. قال تعالى: ﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾، فدَلَّ هذا على أنَّ المُراد بذلك النِّكاحُ؛ لأنها هي التي تُؤتِي أَجْرها، أمَّا المَملوكة فتُشْتَرى.

فالصَّوابُ: أنه تَحِلُّ لنا المَملوكة إذا كانت مجوسية أو كِتابيَّة لعُموم الكِتاب.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [وأن تُسْتَبْرَأَ قَبْل الوَطْء] هذا أيضًا ممَّا فرَضه الله تعالى علينا، أن نَسْتَبرِئ الأَمَة التي ملَكْناها قبل أن نَطَأَها؛ لأن النبيَّ ﷺ في غَزوة أَوْطاس نهى أن تُوطَأَ حامِل حتى تَضَعَ، وأن لا تُوطَأَ ذاتُ حَيْض حتى تَحيض[1]، فلا بُدَّ من الاسْتِبراء إن كانَت حامِلًا فبِوَضْع الحَمْل، وإن كانت تَحيض فبِحَيْضة.

وهلِ الاستِبْراء واجِب بكل حال أو لا تُسْتَبرَأ البِكْر؟

ذهَبَ بعضُ العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ إلى أن الاستِبْراء واجِب حتى في الأَبْكار، وقال بعضُ أهل العِلْم رَحِمَهُمُ اللَّهُ -ومِنهم شيخُ الإسلام ابنُ تَيميَّةَ[2] رَحِمَهُ اللَّهُ-: إن البِكر لا تُسْتَبرَأُ؛ لأن الغرَض من الاستِبْراء العِلْم ببَراءة الرَّحِم، والبِكْر بَراءة رَحِمها مَعلوم، واحتِمال أن تَتحمَّل بعِلاج غير الوَطْء وارِد لكنه بعيد، يَعنِي: يُحتَمَل أن تكون بِكْرًا،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٣/ ٢٨)، وأبو داود: كتاب النكاح، باب في وطء السبايا، رقم (٢١٥٧)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) الفتاوى الكبرى (٤/ ١٦٠).

لكن تَتَحمَّل بمَنيٍّ رجُل من الناس وتَحْمِل؛ لكن هذا بَعيد، فإذا مَلَكها رجُل أَمينٌ وأَخبَره أنه قد استَبْرَأها قبل البَيْع، فالمَذهَب يَجِب الاستِبْراءُ، والقول الثاني في المَسأَلة أنه لا يَجِب الاستِبْراء ما دام البائِعُ أمينًا.

وقوله تعالى: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾: ﴿لِكَيْلَا﴾: (كَيْ) مَصدَرية، ولا يَصِحُّ أن تكون حَرفَ جَرٍّ للتَّعليل، كما لو قُلْتَ: جِئْتُ كي أَقرَأَ. فإنه إذا اقتَرَنَت باللام تَعيَّن أن تكون مَصدَرِيَّة؛ لِئَلا يُجمَع بين حَرفَيْ تَعليل، فإن لم تُسبَق باللَّام صارت حَرْفَ تعليل، والفِعْل بعدها مَنصوب بـ(أَنْ).

إِذَنْ: في (لِكَيْ): اللَّامُ حَرْف جَرٍّ، و(كَيْ) مَصدَرية، و(لا) نافِية، و﴿يَكُونَ﴾ فِعْلٌ مُضارِعٌ مَنصوب بـ(كَيْ)، وعلامة نَصْبه الفَتْحة الظاهِرة على آخِره.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ﴾ يَعنِي: على النبيِّ ﷺ، فالخِطاب للرسول ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿حَرَجٌ﴾ أي: ضِيقٌ في النِّكاح، قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مُتعَلِّق بما قبلَ ذلك]، وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [قبلَ ذلكَ] يُحتَمَل أن يُريد أنه مُتعَلِّق بـ(أَحْلَلْنا): ﴿إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ﴾ [الأحزاب:٥٠] إلى قوله تعالى: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾.

ويُحتَمَل أن تكون مُتعلِّقة بـ(خالِصة لكَ): ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أَيْ: خالِصةً لك؛ لكَيْ لا يَكون عليك حرَجٌ.

وكِلا المَعنيَيْن صَحيح؛ ولهذا قال بعض العُلَماءِ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: إنها مُتعلِّقة بـ(أَحْلَلْنا). وقال بعضُهم: إنها مُتعلِّقة بـ(خالِصةً). وكلام المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ صالِح للوَجْهين، لكَيْ لا يَكون عليك حرَجٌ، يَعنِي: أَنَّنا أَحْلَلْنا لك هذا الحِلَّ حتى لا يَكون علَيْك ضِيق في النِّكاح.

ومعلوم أن النبيَّ ﷺ مَطلوب، فالنِّساء قد يَأتِينَ إليه يَعرِضْنَ أَنفُسَهنَّ عليه، فإذا لم تَحِلَّ له الواهِبةُ نَفْسَها صار عليه في ذلك ضِيق من وَجْهين:

١- إن رَغِبها ففيه ضِيق عليه ألَّا يَتزوَّجها.

٢- وإن لم يَرغَبْها ففيه ضِيق عليه إن رَدَّها.

والله عَزَّوَجَلَّ جعَلَ الخِيار له قال تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ أيْ: ضِيق حتى يَتَّسِع له المَجال، والرسول ﷺ خُصَّ بهذا -أَيْ: بأن يَتزوَّج مَن شاء- حتى فيمَن وهَبَتْ نَفْسها له؛ لأن اتِّصاله بهِنَّ فيه مَصلَحة عَظيمة، لهُنَّ ولأهلِهِنَّ وللمُسلِمين:

١- لهُنَّ ظاهِر.

٢- ولأَهلِهِنَّ؛ لأنه لا شَكَّ أنه من الشَّرَف أن يَتزوَّج النَّبيُّ ﷺ بامرأة؛ لأنه ليس من الشَّكِّ في أن لِمَنْ تَزوَّج النبيُّ ﷺ منهم الشَّرَفَ في مُصاهَرة النبيِّ ﷺ.

٣- وللمُسلِمين؛ لأن هذه المَرأةَ سيَكون عندها عِلْمٌ من سُنَّة رسول الله ﷺ؛ لولا العِلْم لولا اتِّصاله به ما حَصَّلتْهُ؛ ولهذا كثير من السُّنَن البيتيَّة، تُلُقِّيَت من زوجات الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ يَجمَع الله تعالى دائِمًا بين هذَيْن الاسمَيْن الكريمين؛ لأن بالمَغفِرة زوال المَكروه، وبالرَّحمة حُصول المَطلوب، وإذا زال المَكروهُ وحصَل المَطلوب فقَدْ تَمَّتِ الأُمور.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾: (كان) هنا مَسلوبةُ الدَّلالة على الزمَن،

والمُراد بها تَحقُّق المَوْصوف بالصِّفة، أي: أن الصِّفة هذه في هذا المَوْصوفِ حقيقة.

وقوله تعالى: ﴿غَفُورًا﴾ يُحتَمَل أن تكون صِيغة مُبالَغة، وأن تكون صِفة مُشبَّهة، وأيًّا كان فإنها مُشتَقَّة من المَغفِرة وهي سَتْر الذَّنْب والتَّجاوُز عنه.

وقوله تعالى: ﴿رَّحِيمًا﴾ مُشتَقَّة من الرحمة، وهي صِفة تَتَعلَّق بذاتِ الله عَزَّوَجَلَّ من مُقتَضاها الإِحْسان والإِنْعام.

والغَفور والرَّحيم من أسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وكلُّ اسمٍ من أسماء الله تعالى فإنه دالٌّ على أُمور ثلاثة إذا كان مُتعدِّيًا، وعلى أَمْرين إذا كان غير مُتعَدٍّ.

فالثَّلاثة إذا كان مُتعدِّيًا: الاسمُ والصِّفةُ والأَثَرُ. مِثال ذلك في الغَفور أن الغَفور من أسماء الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، والصِّفة في الغَفور المَغفِرة، والأَثَر أنه يَغفِر الذنوب جميعًا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والرَّحيم مِثلُها: الاسمُ الرَّحيم، والصِّفة الرحمة، والأَثَر يَرحَم.

أمَّا إذا كان لازِمًا فلا يَتعدَّى، فيُستَفاد فائِدتان: الاسمُ والصِّفة، الاسم مِثْل: ﴿ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة:٢٥٥]، يُستَفاد من العَلِيِّ الاسمُ والصِّفةُ وهي العُلوُّ، ولا تَتعدَّى لأَحَد حتى نَقول: يُستَفاد منها أثَرٌ. والعَظيم كذلك.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ بما يَحصُل التَّحرُّز منه ﴿رَّحِيمًا﴾ بالتَّوْسِعة في ذلك] هذا مِن بَعْد المَغفِرة والرحمة، وليس هو المَغفِرةَ والرَّحْمة، بل المَغفِرة فيما يُقابِل الذُّنوب، والرحمة فيما يَحصُل به المَطلوب.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: عُلُوُّ شَأْن النَّبيِّ ﷺ؛ لقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، فإنها -كما سَبَق- تَصديرُها بالنِّداء مع وَصْف النُّبوَّة يَدُلُّ على رِفعة شأنه ﷺ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن الإحلالَ والتَّحريمَ إلى الله عَزَّوَجَلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ﴾، وهذا لا يُنافِي أن يَكون النَّبيُّ ﷺ يَجتَهِد أحيانًا ويَحكُم، فإن القولَ الراجِحَ: أن الرسول ﷺ له أن يُشرِّع، ثُمَّ إن أَقرَّه الله تعالى على ذلك كان شَريعة، وإن لم يُقِرَّه كان على حَسَب ما أَراد الله عَزَّوَجَلَّ.

والدليلُ على أن الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يَستَقِلُّ بالتَّشريع عِدَّة أحاديثَ، بل من القُرآن؛ فلِقولِه تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠]، وهذا يَدُلُّ على أن للنبيِّ ﷺ أمْرًا مُستَقِلًّا.

ومن السُّنَّة مثل قوله ﷺ: «**لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لَأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ**»(١)، وهذا دَليل على أنه يَأمُر ويَنهَى، وإلَّا لقال: لَوْلا أن الله تعالى لم يَأمُرْني لأَمَرْته، فلا يُعلِّقها بإرادته هو، بل بإرادة الله تعالى.

ومِنها قوله ﷺ: «**لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَنْهَى عَنِ الْغِيلَةِ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا الرُّومُ يُغِيلُونَ فَلَمْ يَضُرَّهُمْ شَيْءٌ**»(٢).

ومِثْل قوله ﷺ في صلاة العِشاء: «**أَنَّهُ لَوَقْتُهَا لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي**»(٣).

وغير ذلك من الأَمثِلة.

والحاصِلُ: أن النبيَّ ﷺ له أن يَأمُر ويَنهَى ويُحلِّل ويُحرِّم، ولكن إن أَقرَّه الله

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب متى يقوم الناس إذا رأوا الإمام، رقم (٦٣٧)، ومسلم: كتاب المساجد، باب متى يقوم الناس للصلاة، رقم (٦٠٤)، من حديث أبي قتادة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب النكاح، باب جواز الغيلة، رقم (١٤٤٢)، من حديث جدامة بنت وهب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

(٣) أخرجه مسلم: كتاب المساجد، باب وقت العشاء وتأخيرها، رقم (٦٣٨) من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

تعالى على ذلك كان ذلك من شَريعة الله تعالى، وإلَّا فالأَمْر إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنه لا بُدَّ في النِّكاح من المَهْر لقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن النِّكاح عَقْد على المَنفَعة، وليس على العَيْن؛ لقوله تعالى: ﴿أُجُورَهُنَّ﴾، والإِجارة عَقْد على مَنافِعَ لا على أعيانٍ؛ ولهذا نُملِّك المَرأةَ نَفْسها بالبيع والشراء والهِبَة وغير ذلك، وليس لزَوْجها أن يَعتَرِض على هذه الأُمورِ؛ لأنه إنما يَملِك مَنفَعة الاستِمْتاع فقَطْ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: جَواز الوَطْء بمِلك اليَمين؛ لقوله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: صِحَّة إضافة الشيءِ إلى البَعض؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾، وهذا كثير في القُرآن، ومنه قوله تعالى: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ فإن الإنسان لا يُحرِّر الرقَبة وحدَها، بل يُحرِّر كل العَبْد.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن سببَ مِلْك اليَمين سببُه الفيءُ؛ لقوله تعالى: ﴿مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن أَموال الكُفَّار إذا عادَت إلى المُسلِمين فقَدْ عادَت إلى أهلها، تُؤخَذ من قوله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَآءَ﴾؛ لأن الفيءَ بمَعنَى: الرُّجوع، فالكُفَّار يَتمتَّعون بأموالهم، لكنهم بغَيْر حَقٍّ؛ ولهذا يُحاسَبون عليها يومَ القِيامة، أمَّا الأموال فهي في الحَقيقة للمُسلِمين.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: جواز هؤلاء الأَرْبَعِ من الأقارِب وهُمْ: بناتُ العمِّ وبناتُ

العَمَّات وبناتُ الخالِ وبناتُ الخالاتِ، وأمَّا غيرُهن من الأقارِب فحَرام كما في آية النِّساء.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أنه يُشترَط لِحِلِّ هَؤلاءِ الأقارِبِ في حقِّ النَّبيِّ ﷺ أن يَكُنَّ قد هاجَرْن معه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾.

ويَتفرَّع على هـذه الفائِدةِ: أن النبيَّ ﷺ قد يُخَصُّ بأَشياءَ في النِّكاح تَضْييقًا وتَوْسيعًا؛ تُؤخَذ من قوله تعالى: ﴿ٱلَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾؛ لأن في هذا تَضييقًا؛ لأن غَيرَه يَحِلُّ له بَناتُ العمِّ والعمَّاتِ والخالِ والخالاتِ مُطلَقًا بخِلاف النبيِّ ﷺ.

الْفَائِدَةُ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: جَواز تَزوُّج النبيِّ ﷺ بالهِبَة؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾، ويُشترَط في هذه الواهِبةِ أن تكون مُؤمِنةً؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً﴾، فلو وهَبَتْ كِتابيَّة نَفْسها للنبيِّ ﷺ لم تَحِلَّ له.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: لُطفُ الله تعالى بنَبيِّه ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: بَيان عُلوِّ شَأْن النَّبيِّ ﷺ حيث قال تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ﴾، ولم يَقُلْ: إن أَرَدْت. مع أن المَقام يَقتَضي أن تَقول: إن أَرَدْت أن تَستَنْكِحها؛ لأن الخِطاب له، قال تعالى: ﴿أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾ فكان مُقتَضى السِّياق أن يَقول: وامرأة مُؤمِنة إن وهَبَت نَفْسها لك إن أَرَدْت أن تستَنْكِحها، ولكنه أَتى بالنَّبيِّ؛ لبَيان عُلوِّ شَأْنه ومَرتَبته.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: أن الإظهار هنا لِبَيان عِلَّة الحُكْم؛ فالإظهار هنا في مَقام الإِضْمار من فَوائِده: بَيان عِلَّة الحُكْم، فلو قال: وامرأة مُؤمِنة إن وهَبَت نفسها لك إن أَرَدْت أن تَستَنْكِحها، لَمَا تَبيَّن لنا وَجهُ الخُصوصِيَّة، لكن لَمَّا قال تعالى: ﴿إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ﴾ تبيَّن الآنَ وجهُ الخُصوصية؛ لأنه كان نَبيًّا، فالعِلَّة أنه نَبيٌّ، فأُحِلَّت له هذه الواهِبةُ نَفْسَها.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: الرَّدُّ على الجَبْرية إن أَراد، حيث أَثبَت للنبيِّ ﷺ إرادة، والجَبْرية لا يُثبِتون إرادة للإنسان يَقولون: إنه مُجبَر على عمَله!.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: أن جَواز النِّكاح بالهِبة من خَصائِص النبيِّ ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةَ عَشْرَةَ: أن الحُكْم الثابِت للرسول ﷺ ثابِت لأُمَّته إلَّا بدليل؛ لقوله تعالى: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، فلَوْلا أن الحُكْم الثابِت له ثابِت لأُمَّته لكان قوله تعالى: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لَغْوًا لا فائِدةَ منه؛ فلَمَّا أَخرَج المُؤمِنين من ذلك الحُكْم عُلِم أن الأَصْل مُشارَكة أُمَّته له في الأَحْكام.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ: أن الله تعالى أن يَختَصَّ بأحكامه مَن شاء؛ يُؤخَذ من تَخصيص النبيِّ ﷺ بهذا الحُكْمِ، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى له أن يَختَصَّ بأحكامه مَن يَشاء.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةَ عَشْرَةَ: أن التَّخصيص بالحُكْم لا بُدَّ أن يَكون له عِلَّة تَقتَضي تَخصيص ذلك المَحكومِ عليه أو له؛ يُؤخَذ من أن التَّخصيص لا بُدَّ له من عِلَّة تَقتَضي ذلك التَّخصيصَ، ﴿إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ ﴿إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ فإن العِلَّة في ذلك أنه نَبيٌّ، وهذه العِلَّةُ لا تَكون للمُؤمِنين.

الْفَائِدَةُ العِشْرُون: إثباتُ العِلْم لله عَزَّوَجَلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةُ وَالعِشْرُون: أن الله تعالى فرَض علينا فرائِض في أزواجِنا علينا مُراعاتُها؛ لقوله تعالى: ﴿مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ﴾، وكذلك نَقول في مِلْك اليَمين: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ وَالعِشْرُون: جَواز الوَطْء بمِلْك اليَمين وقد سَبَق.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ وَالعِشْرُون: أن الأحكام -أحكام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- مُعلَّلة بالحُكْم أو مَقرونة بحُكْمها؛ لقوله تعالى: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ وَالعِشْرُون: عِنايةُ الله تعالى برَسوله ﷺ ولُطْفه به، حيث أَحَلَّ له ما يَزول به عنه الحَرَجُ؛ لقوله: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ وَالعِشْرُون: إِثْبات اسمَيْن من أسماء الله تعالى وهما الغُفُور والرَّحيم، وإثباتُ ما تَضمَّناه من الوَصْف أو من الصِّفة ومن الأَثَر، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٩].

مَسأَلَةٌ: هل النِّكاح بلَفْظ الهِبَة لا يَصِحُّ، كما لو قال: وهَبْتُكَ بِنْتي؟

الجَوابُ: الظاهِر: أنه يَصِحُّ؛ لأن العِلَّة: إن وهَبَت نَفْسها للنبيِّ أنه يَتَزوَّج بدون مَهْر، وليس العِلَّة اللَّفْظ، بل العِلَّة أن يَكون الزواج بدون مَهْر، فهذا هو الذي يَكون خاصًّا بالنَّبيِّ ﷺ، أمَّا لَفْظ الهِبة فإنه قد جاء في أَحَد ألفاظ حديث سَهْل بنِ سَعْد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الواهِبة نَفْسَها أن النبيَّ ﷺ قال للرَّجُل: «مَلَّكْتُكَها بِما مَعَكَ مِنَ

الْقُرْآنِ»(١)، وهذا أَحَد أَلْفاظ البُخاريِّ رَحِمَهُ اللَّهُ، وهذا يَدُلُّ على جواز عَقْد النِّكاح بمِثْل هذا اللَّفْظِ.

فائِدةٌ: لتَعْلموا أن العِلْم ليس بالأَمْر الهَيِّن، العِلْم يَحتاج إلى تعَبٍ؛ ولهذا قال بَعضُ السلَف: العِلْم لا يُنال براحة الجِسْم. الذي يُريد أن يَستَريح لا يَقول: إنه طالِب عِلْم. فلا بُدَّ لطالِبِ العِلْم أن يَكون طالِبَ عِلْم على سبيل الحَقيقة، وسيَجِد أثَرَ ذلك فيما بَعدُ، سيَجِد النَّتيجة والتَّحصيل، وهو قد يَشُقُّ عليه في أوَّل الأمر أن يَحبِس نَفْسَه على العِلْم، لكن إذا اعتاد حَبْس نَفْسه على العِلْم صار ذلك سَجِيَّةً له وطَبيعةً له؛ حتى إنه إذا فقَدَ ذلك الحَبْسَ انحبَس، وجَرِّبْ تَجِدْ؛ فأنا قد جَرَّبْتُ وغيري قد جرَّب، فإذا حبَسْت نَفْسَك على العِلْم فإنك تَفقِد ذلك الحَبْسَ لو تَأَخَّرْت عنه؛ أمَّا إذا عوَّدْت نَفْسَك الإهمالَ وعدَم المُبالاة فاعلَمْ أنك ستَبقَى كالمَريض بِسِلِّ المُؤنَّث، فإن السِّلَّ المُذكَّر صاحِبه لا يبقَى إلَّا شَهْرين أو ثلاثة ويَمشِي للمَقبَرة، لكن البَلاء في السِّلِّ المُؤنَّث يَبقَى فيه السَّنَوات العديدة فهو لا حيٌّ ولا مَيتٌ، وهكذا طالِب العِلْم إذا لم يَجِدَّ في طلَبِ العِلْم يَبقَى لا حيًّا ولا ميتًا.

فاللهَ اللهَ! على الحِرْص في طلَب العِلْم إن كُنْتم تُريدون العِلْم، أمَّا إذا كُنْتم تُريدون أن تَقطَعوا الوقت ويَمشِي الوقت في ما كان فهذا شيء آخَرُ، لكن الذي يُريد العِلْم لا بُدَّ أن يُكَبَّ عليه وأن يَجتَهِد، وهو وإن أَتعبَ جِسْمه الآنَ سيَجِد الراحة فيما بعد، ولا سيَّما في الشباب مِنْكم، فالشَّباب هو الذي إذا حفِظ العِلْم ما شاء الله لا يَنساه، لكن ثِقُوا أنه إذا تَقادَمَت بكم السِّنُّ فإنكم تَدرُسون اليومَ وتَنسَوْن غدًا.

(١) أخرجه البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب القراءة عن ظهر القلب، رقم (٥٠٣٠)، ومسلم: النكاح، باب الصداق وجواز كونه تعليم قرآن وخاتم حديد، رقم (١٤٢٥/ ٧٦).

صحيح أن الإنسان إذا تَقدَّم في العِلْم يَكون فَهْمه أَقدَرَ وأَوسَعَ وأَدَقَّ، لكن في الحِفْظ ما في حِفْظ إلَّا في الصغير أبَدًا، فأنتم -إن شاء الله تعالى- تَحرِصون على طلَب العِلْم، لا تَظُنُّوا أنكم في نُزْهة إلَّا في نُزْهة واحِدة وهي نُزْهة العُلوم؛ لأن العُلوم فيها من كُلِّ فاكِهة زَوْجان؛ هذا فِقْه، وهذا حديث، وهذا تَفسير، وهذا تَوْحيد، وهذا نَحوٌ، وما شاء الله! ثمَرات مُتنَوِّعة، فلْيَكُن نُزهَتُكم هذا العِلمَ، وأَسأَلُ الله تعالى لنا ولكمُ التَّوفيقَ.

• ● ۞ ● •

الآيــة (٥١)

• • ೞ • •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥١].

• • ೞ • •

ثُمَّ قال تعالى: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ قوله تعالى: «تُرْجِئُ» يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بالهَمْزة والياء، بَدَلَه: تُؤَخِّر] «تُرْجِئُ» و﴿تُرْجِي﴾ بمَعنَى: تُؤخِّر، وقوله تعالى: ﴿مَن تَشَآءُ﴾ هذه مَفعول ﴿تُرْجِي﴾.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾ أي: أزواجك عن نَوْبتها، ﴿وَتُـْٔوِيٓ﴾ تَضُمُّ ﴿إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾ فتأتيها ﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ﴾ طلَبْت ﴿مِمَّنْ عَزَلْتَ﴾ مِن القِسْمة ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ في طلَبِها وضَمِّها إليك، خُيِّر في ذلك بعد أن كان قَسْمه واجِبًا عليه].

كلام المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ الآنَ يَدُلُّ على أن قَوْله تعالى: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾ أن الضَّمير يَعود على زَوْجات النبيِّ ﷺ اللَّاتي في حِباله، ومَعنَى (تُرجِي): تُؤخِّرها فلا تَقسِم لها، و(تُؤوِي): تَضُمُّها فتَقسِم لها، فتكون الآية نازِلةً في قَسْم النبيِّ ﷺ لزَوْجاته وأن الله تعالى خيَّره، خيَّره بين أن يُرجِئ وبَيْن أن يَضُمَّ، يَعنِي: خيَّره بأن

يَقسِم للزوجات وأن لا يَقسِم، فيَكون في هذا تَوسِعة للنَّبيِّ ﷺ في القَسْم، إن شاء قَسَم وإن شاء لم يَقْسِم.

وهذا هو أحَدُ القَوْلين في تَفْسير الآية الكريمة، وربَّما يَدُلُّ عليه السِّياق، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ﴾ [الأحزاب:٥٠] إلى أن قال تعالى: ﴿تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ﴾ أَيْ: من أَزواجِك ﴿وَتُـٔۡوِيٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُ﴾ فيَكون الإِرْجاء بمَعنَى: تَرْك القَسْم، والإيواءُ بمَعنَى: القَسْم.

والقول الثاني في المَسأَلة: ﴿تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ﴾ أي: من الواهِبات أَنفُسَهن لك، يَعنِي: أنك إن شِئْت قبِلْت وإن شِئْت رَدَدْتَ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنِ ٱبۡتَغَيۡتَ مِمَّنۡ عَزَلۡتَ﴾ يَعنِي: لو أنك رَدَدْتها أوَّلًا ثُمَّ أَرَدْتها ثانيًا فلا جُناحَ عليك، وقد سَبَق لنا قاعِدة في التَّفسير: أنَّ الآية إذا كانَت تَحتَمِل مَعنيَيْن لا يَتنافَيان فإن الواجِب حَمْلها على المَعنيَيْن؛ ولهذا اختار ابنُ جَريرٍ[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الآية شامِلة للمَعنيَيْن جميعًا، وأن الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ خُيِّر بين القَسْم وعدَمه، وخُيِّر بين قَبول الهِبَة وعدَمها، وأنه أيضًا إذا لم يَقسِم ثُمَّ أَراد أن يَقسِم فله ذلك، وإذا رَدَّ الهِبَة ثُمَّ أَراد أن يَقبَل فله ذلك، فليس للمَرْأة إذا لم يَقسِم لها ثُمَّ أَراد القَسْم ليس لها أن تَمتَنِع؛ لأن الخِيار بيَدِ النَّبيِّ ﷺ.

فقَسْمه لَمِن عِنده عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ليس على سَبيل الوُجوب من الله تعالى، يَعنِي: هو مِن ذات نَفْسه يَقْسِم مع أنه مُخيَّر، والدَّليل على أنه مُخيَّر هذه الآيةُ، وقد فسَّرَها السلَفُ في ذلك فهي صالِحة للوَجْهين.

---

(١) تفسير الطبري (١٩/ ١٤٣).

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ذَٰلِكَ﴾ التَّخيير] ذلك المُشارُ إليه، التَّخيير: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ﴾] أي: ذلك التَّخيير المُستَفاد من الجُمْلتَيْن [﴿أَدْنَىٰٓ﴾ أقرب إلى ﴿أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ﴾] ما ذكَر المُخيَّر فيه ﴿كُلُّهُنَّ﴾.

وقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ﴾ وجهُ كَوْن ذلك أقرَبَ إلى أن تقَرَّ أَعيُنُهنَّ؛ لأنهنَّ إذا علِمْنَ أن التَّخيير بين القَسْم وعدَمه من الله عَزَّوَجَلَّ قرَّت أَعيُنُهنَّ؛ لأنهنَّ يَرضَيْنَ بحُكْم الله عَزَّوَجَلَّ، لكن لو كان هذا من النَّبيِّ ﷺ إن شاء قَسَم وإن شاء لم يَقْسِم لكان في نُفُوسِهنَّ بعض الشيء تَظُنُّ الواحِدة مِنهنَّ أن ذلك من قِبَل النَّبيِّ ﷺ وليس من شَرْع الله تعالى، فإذا علِمَتِ النِّساء أن هذا من شَرْع الله تعالى فإن أَعيُنَهنَّ تَقَرُّ.

وكلِمة ﴿تَقَرَّ﴾ مَأخُوذة إمَّا من القَرار وإمَّا من القَرُورة والبَرْد، وذلك أن العَيْن إذا برَدَتْ فمَعناها أنها غيرُ حزينة، وإذا حَمِيَت فمَعناها الحُزْن؛ ولهذا يُقال: دَمْع الحُزْن حارٌّ؛ لأنه يَخرُج من العَيْن إذا حَمِيَت من الحُزْن، أمَّا إذا لم يَكُن هناك حُزْن فإنها تَبرُد وتَستقِرُّ.

وقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يَحْزَنَّ﴾ مَعطوفة على قَوْله تعالى: ﴿تَقَرَّ﴾، و﴿تَقَرَّ﴾ مَنصوبة بـ(أَنْ) و﴿يَحْزَنَّ﴾ مَعطوف عليه، وليس مَنصوبًا، ولكِنْ مَبنيٌّ على السُّكون؛ لاتِّصاله بنُون النِّسوة، ونونُ الفِعْل مُدغَمة في نون النِّسوة؛ لأن ﴿يَحْزَنَّ﴾ هذا الفِعْلُ، والنونُ الثانية هي نونُ النِّسوة، وهي فاعِل.

وقوله تعالى: ﴿وَيَرْضَيْنَ﴾ الواو حَرْف عَطْف، ﴿وَيَرْضَيْنَ﴾ مَعطوف على ﴿تَقَرَّ﴾، وليس على ﴿يَحْزَنَّ﴾؛ لأنه لو كان على ﴿يَحْزَنَّ﴾ لفَسَد المَعنَى؛ إذ لو كان مَعطوفًا على ﴿يَحْزَنَّ﴾ لكان المَعنَى: ولا يَحزَنَّ ولا يَرْضَيْنَ، والمُراد خِلاف ذلك،

فالمُراد: ذلك أَدْنى أن تَقرَّ أَعينُهُنَّ ويَرضَيْنَ.

فإن قُلتَ: ما الفائدةُ مِن اعتِراض الجُمْلة الثانية ﴿وَلَا يَحْزَنَّ﴾؟

فالجَوابُ: لأن صِلَتها بقَوْله تعالى: ﴿تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ﴾ أَقوى، فإن قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزَنَّ﴾ يُراد به كَمال قَرار العَيْن، يَعنِي: أنها تَقرُّ أَعيُنُهُنَّ حتى لا يَبقَى فيها حُزْن إطلاقًا؛ فلهذا اعتَرَضَتْ هذه الجُملةُ بين المعطوف والمعطوف عليه.

قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ﴾: ﴿ءَاتَيْتَهُنَّ﴾ بالمَدِّ بمَعنَى: أَعطَيْتَهُنَّ، و(آتى) تَنصِب مَفعولَيْن، وهنا مَفعولُها الأوَّلُ الهاء ومَفعولُها الثاني محَذوف، قدَّرَه المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: [ما ذُكِر] وما الذي ذُكِر قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [المُخيَّر فيه]، يَعنِي: أنهنَّ يَرضَيْنَ بما أَعطَيْتُموهُنَّ من التَّخيير من القَسْم وعدَمِه.

وسبَقَ أنَّا بيَّنَّا العِلَّة في قوله تعالى: ﴿وَيَرْضَيْنَ﴾ بذلك وهو أنه إذا جاء الحُكْم من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ رَضِين به بخِلاف ما لَم لو كان من النَّبيِّ ﷺ فقَدْ لا يَرْضَيْن بذلك، فقد تَظُنُّ الواحِدة مِنهن أنه هَوًى من النَّبيِّ ﷺ.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿كُلُّهُنَّ﴾ تأكيد للفاعِل في ﴿وَيَرْضَيْنَ﴾]، وإنَّما قال ذلك لأنه لو كان تَأكيدًا للهاء في قوله تعالى: ﴿بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ﴾ لكانت مَنصوبة ﴿بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلَّهُنَّ﴾، لكنها كما قال تَأكيد للفاعِل في قوله تعالى: ﴿وَيَرْضَيْنَ﴾؛ أَلَا يَصِحُّ أن تَكون تأكيدًا للضَّمير في قوله تعالى: ﴿أَعْيُنُهُنَّ﴾؟

الجَوابُ: لا يَصِحُّ؛ لأنه لو كان تَأكيدًا له لكان مجَرورَ ﴿كُلُّهُنَّ﴾ فإذَن: يَتعيَّن أن يَكون تَأكيدًا لقوله تعالى: ﴿وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ من أَمْر النساء والمَيْل لبَعْضهن] لما

بيَّنَ الله عَزَّوَجَلَّ أن النبيَّ ﷺ مُخيَّر بيَّنَ أنه عَزَّوَجَلَّ يعلَم ما في القُلوب من مَيْل الإنسان إلى بعض النِّساء دون بعض.

وقد بَيَّن الله تعالى هذا المَعلومَ بقوله تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾ [النساء:١٢٩]، وهذا أَمْر يُؤيِّده الواقِع ويَشهَد له، فإن الإنسان لا يُمكِن أن تكون مَودَّة زَوْجتَيْه على حدٍّ سواءٍ، حتى لو فُرِض أن إحداهما كانت عِنده أرجَحَ من وَجْه، والأخرى أرجَحَ من وَجْهٍ آخَرَ فلا يُمكِن التَّساوِي، وهذا ما يُؤيِّده قوله تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ هل يُستَفاد منها التهديدُ والوعيدُ؟ أم يُستَفاد منها أن هذا أَمْر لا تَملِكونه؟ الظاهِر الثاني، وأن هذا أَمْر لا نَملِكه.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: [﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بخَلْقه ﴿حَلِيمًا﴾ عن عِقابِهم] هذا كالتَّعليل لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الأحزاب:٥١]، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عليم بكُلِّ شَيْء، ومنه ما في قُلوبنا من المَيْل إلى بعض النِّساء دون بعض.

وقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿حَلِيمًا﴾ الحِلْم هو عدَم التَّعجُّل بالعُقوبة، وليس هو تَرْكَ العُقوبة، ولهذا قال ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَهُوَ الحَلِيمُ فَلَا يُعَاجِلُ عَبْدَهُ ... بِعُقُوبَةٍ لِيَتُوبَ مِنْ عِصْيَانِ[1]

فالحِلْم إِذَنْ تَأخير العُقوبة وليس العَفوَ عنها؛ فيُؤخِّر العُقوبة لعَلَّ هذا المُذنِبَ يَتوب إلى الله عَزَّوَجَلَّ فترتَفِع العُقوبة عنه.

---

(١) النونية (ص:٢٠٧).

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أن الله عَزَّوَجَلَّ أن يَختصَّ بأحكامه مَن يَشاء بقوله تعالى: ﴿تُرْجِى﴾ و﴿وَتُـْٔوِىٓ﴾ على القول بأن المُراد بذلك العَدْل أو القَسْم، فالله تعالى خيَّره بين التِزام القَسْم وعدَمه، وهذا من خَصائِص النبيِّ ﷺ أمَّا الأُمَّة فقَدْ قال النبيُّ ﷺ: «مَنْ كَانَ لَهُ امْرَأَتَانِ فَمَالَ إِلَى إِحْدَاهُمَا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَشِقُّهُ مَائِلٌ»[1]، وهذا يَدُلُّ على وُجوب العَدْل بين الزَّوْجات في الأُمَّة.

وعلى القول الثاني في قوله تعالى: ﴿تُرْجِى﴾ و﴿وَتُـْٔوِىٓ﴾: إن المُراد به قَبول مَن وهَبَت نَفْسها ورَدُّها، فيَكون فيه أيضًا دَليل على تَوسيع الله تعالى لنَبيِّه مُحمَّد ﷺ فيما يَتعلَّق بالنِّكاح، أنَّ له أَنْ يَقبَل وله أَلَّا يَقبَل.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنه يَجوز للإنسان أن يَرجِع في حَقِّه بعد إسقاطه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ هذا إذا كان الحَقُّ مُتَجدِّدًا، أمَّا إذا كان الحَقُّ غيرَ مُتجدِّد، فإن الإنسان إذا أَسقَطه لا يَملِك الرُّجوع فيه.

مِثال ذلك: أَسقَطَتِ المرأة نَصيبَها أو حقَّها من نفَقة ماضية بأن يَكون الزوج قد ترَك الإِنْفاق عليها لمُدَّة سَنَة، فأَسقَط الحَقَّ، فليس لها رُجوع؛ لأن الحَقَّ هنا غَيرُ مُتجَدِّد، بل هو في شيء مضَى، أمَّا إذا أَسقَطَتِ المرأة حَقَّها من القَسْم، فلها أن تَرجِع؛ لأن حقَّها يَتجدَّد، اللَّهُم إلَّا أَنْ يَكون ذلك مَشروطًا في العَقْد بأَنْ شَرَط الزوجُ على

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ٣٤٧)، وأبو داود: كتاب النكاح، باب في القسم بين النساء، رقم (٢١٣٣)، والترمذي: كتاب النكاح، باب ما جاء في التسوية بين الضرائر، رقم (١١٤١)، والنسائي: كتاب عشرة النساء، باب ميل الرجل إلى بعض نسائه دون بعض، رقم (٣٩٤٢)، وابن ماجه: كتاب النكاح، باب القسمة بين النساء، رقم (١٩٦٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

زوجته الجديدةِ ألَّا يَقسِم لها فقبِلَت، ففي هذه الحالِ لا تَملِك الرُّجوع؛ لأنه صار شَرْطًا في العَقْد، والشَّرْط في العَقْد يَجِب الوفاء به؛ لدُخوله في عُموم قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ [المائدة:١]، بخِلاف ما لو أَسقَطَتْه بعد العَقْد، فإن هذا إِسقاط لها أَنْ تَرجِع فيه؛ لأنها لا تَملِك إسقاط المُستَقبَل.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن النبيَّ ﷺ داخِل في التَّكليف لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكَۚ﴾؛ لأن نَفيَ الوَصْف عن شيء ما يَدُلُّ على إمكان اتِّصافها به، إذ لو كان مُنتَفيًا من الأصل ما احتِيج إلى نَفيِه، فدَلَّ هذا على أنه يُمكِن أن يَكون على النبيِّ ﷺ جُناح، وهذا دليلٌ على تَكليفه بأَحْكام الرِّسالة.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: الرَّدُّ على الجَبْرية، ويُؤخَذ ذلك من قوله تعالى: ﴿وَمَنِ ٱبۡتَغَيۡتَ﴾ أي: طلَبْت وأرَدْت. والجَبْرية يَرَوْن أنَّ الإنسان ليس له إرادة وإنما يُجبَر ويُسخَّر على عَمَله بدون إرادة منه.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثبات العِلَل والحِكَم للأَحْكام، حيث إن الأحكامَ مَربوطة بعِلَلها وحِكَمِها، ويُؤخَذ ذلك من قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعۡيُنُهُنَّ﴾، وإثبات الحِكَم في أحكام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الكونْية والقَدَرية كثيرة جِدًّا، وكلُّها تُرَدُّ أيضًا على الجَبْرية؛ لأن الجَبْرية يَرَوْن أن أفعال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وأَحْكامه غير مُعلَّلة، وأنه تعالى يَفعَل لا لعِلَّة وحِكْمة، بل لُمجرَّد المَشيئة.

وهل في ذلك ما يُؤيِّد مَذهَب المُعتزِلة القائِلين بوُجوب الأَصْلح، أو الصَّلاح في حقِّ الله عَزَّوَجَلَّ؟

الجَوابُ: ورَدَ في العَقيدة السَّفارِينيَّة قوله:

فَلَمْ يَجِبْ عَلَيْهِ فِعْلُ الْأَصْلَحِ وَلَا الصَّلَاحُ وَيْحَ مَنْ لَمْ يُفْلِحِ[1]

والمُعتَزِلة يَقولون: إنه يَجِب عليه فِعْل الأَصْلح فيما إذا تَعارَض الصالِح والأَصلَح، وفِعْل الصالِح فيما إذا تَعارَض الصالِح والفاسِد.

ولكن الصحيح أنَّ في ذلك تَفصيلًا:

إن قُلْنا بالوجوب بمَعنى أنَّ عُقولنا أَوْجَبت على الله تعالى ذلك فهذا باطِل؛ إذ إنَّ العُقول لا تُوجِب على الله تعالى شيئًا، فهي أَدْنى وأَحقَرُ من أن تُوجِب على الله تعالى شيئًا، وإن قُلْنا: إن ذلك واجِب بمُقتَضى حِكْمته، فهذا حقٌّ وصحيح، فإن الله عَزَّوَجَلَّ لا يَفعَل شيئًا إلَّا وهو أَصلَحُ، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة:٢٠٥]، ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة:٦٤] فإذا كان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَثنى على المُصلِحين، ونفَى أن يَكون مُحِبًّا للفَساد أو المُفسِدين دلَّ ذلك على أنه لا يُمكِن أن يُريد ذلك. أي: الفَساد.

وعلى هذا فنَقول: المُعتَزِلة أَخطَؤوا حيث أَوْجَبوا ذلك على الله تعالى بعُقولهم؛ لأن العَقْل أَدْنى وأَحقَرُ من أن يُوجِب على الله تعالى شيئًا، وقد يَرَى العَقْل أن هذا الشيء واجِب وهو في الحَقيقة غير واجِب؛ لأن العُقول قاصِرة؛ فقد تَرَى هذا أَصلَحَ وليس هذا بأَصلَحَ، وقد أَشار الله تعالى إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ [البقرة:٢١٦].

وأمَّا أن نَقول: إنه واجِب بمُقتَضى حِكْمته فهذا حقٌّ.

الخُلاصَة: هنا نَقول: إن إثبات العِلَل فيه رَدٌّ على الجَبْرية وهمُ الجَهْمية أيضًا

---

(١) العقيدة السفارينية (ص:٦٣).

في هذا البابِ، وليس فيه تَأييد لقول المُعتَزِلة القائِلين بوُجوب الأصلَحِ أو الصلاح.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: مُراعاة قُلوب زَوْجات الرسول ﷺ وإِدْخال السُّرور عليهن، يُؤخَذ ذلك من قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعۡيُنُهُنَّ﴾، فإن في هذا مُراعاةً لقُلوب هؤلاءِ النِّساءِ حتى تَقَرَّ أعينُهُن.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنه يَنبَغِي مُراعاة المُؤمِن بإِدْخال السُّرور عليه وانتِفاء الحُزْن عنه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحۡزَنَّ﴾، أي: لا يَدخُلهن الحُزْن والغَمُّ مِمَّا مضَى، وهذه الحالُ للمُؤمِن تُنافِي حال الشيطان، فإن الشيطان يَسعَى لكل ما يَحزُن بَني آدَمَ كما قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [المجادلة:١٠]، ولهذا كُلُّ مَن حاوَل إدخال الحُزْن على أخيه المُسلِم فإنه شَبِيهٌ بالشَّيْطان الذي يُريد إدخال الأحزان على المُؤمِنين.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن الله عَزَّوَجَلَّ يُدافِع عن نبيِّه ﷺ بأنواع من الأساليب الدِّفاعية، وَجْهُهُ: أنَّ الله تعالى لَمَّا خيَّره بيَّن أن هذا الحُكْم من الله تعالى؛ حتى إذا عَلِمَت زوجات الرسول ﷺ أن هذا الحُكْم من الله تعالى زال ما في نُفوسِهن من عدَم الرِّضا أو من الحُزْن؛ لأن رِضا الإنسان بما كان من الله تعالى أبلَغُ من رِضاه بما كان من غيرِ الله تعالى، هذا من جِهة.

وإن كان المُؤمِن يَرضَى من رسول ﷺ كما يَرضَى بالشيء الذي هو من الله تعالى، لكن لَمَّا كان النبيُّ ﷺ زوجًا لهؤلاء النِّساء، فإنه يُمكِن أن يَرِدَ في نُفوسِهنَّ أن كون الرسول ﷺ يَقْسِم ولا يَقْسِم، أو يَقبَل ويَرُدُّ أن ذلك لمُجرَّد هوًى في نَفْسه، وإذا اعتَقَدْنَ أن ذلك مُجرَّد هوًى في نَفْسه دخَل عليهن الحُزْن، فإذا عَلِمْنَ أن ذلك من الله تعالى، وأن الله تعالى هو الذي وسَّع له في هذا زال عنهن الحُزْن.

يَتفَرَّع على الفائِدة السابِقة: أنه يَنبَغي للإنسان أن يَدفَع عن نفسه ما يُلام عليه به، فكل شيء تَخشَى أن يَلومك الناس فيه فادْفَعِ الشُّبْهة عن نفسك؛ ولهذا أصلٌ، فقَدْ خرَج الرسول ﷺ مع زَوْجته ورآه رجُل فأَسرَعَ وراءَهُ، وقال له: «إِنَّهَا صَفِيَّةُ»(١).

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: استِعْمال أدوات التَّوْكيد فيما تَدعو الحاجة إليه؛ لقوله تعالى: ﴿كُلُّهُنَّ﴾ حتى لا يَتوهَّم واهِم أن رِضا بعضِهنَّ وانتِفاء الحُزْن عنه كافٍ في ذلك، بلِ الرِّضا يَكون للجَميع.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: عُموم عِلْم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالظَّواهِر والبَواطِن؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أن ما في القَلْب ممَّا لا يَملِكه الإنسان لا يُؤاخَذ عليه؛ لأنه لَمَّا ذَكَر أنَّ الرسول ﷺ مُخيَّر قال: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ يَعنِي: من الشيء الذي لا تَمْلِكونه؛ ولهذا لا يَحْرُم على الإنسان أن يُفضِّل إحدى نِسائِه على الأُخرى في المَحبَّة؛ لأن المَحبَّة محَلُّها القَلْب، ولا يُمكِن للإنسان أن يُسلِّط قلبه ويُسخِّره حتى يُحِبَّ ويَكرَه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أن محَلَّ الإرادات هو القَلْب؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ وهل المُرادُ بالقَلْب القلبُ الحِسِّيُّ أو القَلْب المَعنوِيُّ الذي هو العَقْل؟

الجَوابُ: القَلْب الحِسِّيُّ؛ لأن الصحيح أن القَلْب الحِسِّيَّ هو الذي عليه المَدار، كما قال النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ**

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاعتكاف، باب زيارة المرأة زوجها في اعتكافه، رقم (٢٠٣٨)، ومسلم: كتاب السلام، باب يستحب لمن رئي خاليا بامرأة..، رقم (٢١٧٥)، من حديث صفية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»[(١)].

وقدِ اختَلَف العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ: هلِ العَقْل في القَلْب أو العَقْلُ في الدِّماغ؟ وظاهِر القُرآن الكريم أن العَقْل في القَلْب كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦]، ويَدُلُّ لهذا أيضًا من السُّنَّة قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ»، فدلَّ هذا على أن العَقْل في القَلْب، ولكن قال الإمام أحمدُ رَحِمَهُ اللَّهُ: إنَّ له اتِّصالًا بالدِّماغ[(٢)]. يَعنِي: هو في القَلْب ولكن له اتِّصال في الدِّماغ؛ ولهذا إذا فسَد الدِّماغ فسَد العَقْل.

وذكَر شيخُ الإسلام[(٣)] رَحِمَهُ اللَّهُ في مَواضِعَ من كلامه بأن الدِّماغ محَلُّ التَّصوُّر وتَكييف الأشياء، وأن القَلْب محَلُّ التَّدبير والتصريف، فكأَنَّ الدِّماغ سِكرتير القَلْب، يُهيِّئ الأمور له ويُصوِّرها ويُكيِّفها، ثُم يُرسِلها إلى القَلْب، والقَلْب يَأمُر أو يَنهَى أو يُقِرُّ أو يُنكِر.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: إثبات اسمَيْن من أسماء الله تعالى: وهُما العَليم والحَليم، فالعَليم هو الذي أَحاط بكل شيء عِلْمًا.

والعِلْم عِنْد الأُصوليِّين: هو إدراك الشيء إدراكًا جازِمًا مُطابِقًا. فقَوْلهم (جازِمًا) خرَج به الشَّكُّ والظَّنُّ والوَهْم، فهذا لا يُسمَّى عِلْمًا؛ لأنه غير جازِم، وخرَج

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم (٥٢)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم (١٥٩٩)، من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٩/ ٣٠٣)، والتبيان في أقسام القرآن لابن القيم (ص:٤٠٤).

(٣) انظر: مجموع الفتاوى (٩/ ٣٠٣-٣٠٤).

بقولهم: (مُطابِقًا) الجهلُ المُركَّب؛ لأن الجَهْل المُركَّب يُدْرِكُ الإنسان به الشيء إدراكًا غيرَ مُطابِق، وخرَج بقولهم: (إدراكُ الشيءِ) الجَهْل البَسيط؛ لأن الجهل البَسيط ليس فيه إدراك إطلاقًا. وهذا هو العِلْم، والله عَزَّوَجَلَّ لا يَتجدَّد له العِلْم، وإنما الذي يَتجدَّد المَعلوم، وتَعلُّق عِلْم الله عَزَّوَجَلَّ بالمَعلوم له حالان:

١- تَعلُّق به قبلَ وقوعه.

٢- تَعلُّق به بعد وقوعه.

فالتَّعلُّق به قبل وقوعه مَعناه أنه عالِم بأنه سيقَع، والتَّعلُّق به بعد الوقوع أنه عالِم بأنه وقَع، والذي يَترَتَّب عليه الجَزاء هو التَّعلُّق الثاني التَّعلُّق بالمَعلوم بعد وقوعه.

وعلى هذا يَزول الإشْكال الذي أَوْرَده بعضُ أهل العِلْم رَحِمَهُمُ اللَّهُ في مثل قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ﴾ [محمد:٣١] ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ هل لم يَعلَم المُجاهِدين؟ نَقول: هو عالِم بِهِمْ لكن العِلْم الذي يَترتَّب عليه الجَزاء هو العِلْم بالشيء بعد الوقوع، فالتَّجدُّد إِذَنْ ليس للعِلْم ولكن للمَعلوم.

وهل عِلْم الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَتعلَّق بالواجِب والمُمكِن والمُستَحيل؟ أو بالواجِب والمُمكِن دون المُستَحيل؟ أو بالمُمكِن فقط؟

الجَوابُ: بالجَميع؛ بالواجِب والمُمكِن والمُستَحيل.

أَمَّا عِلْم الله تعالى بالواجِب فعِلْمه بما يَستَحِقُّه من الأسماء والصِّفات؛ لأن هذا عِلْم بالواجِب فإن الله تعالى قد وجَب له من الكَمال ما هو أَهْله.

وأَمَّا عِلْم الله تعالى بالمُستَحيل ففي مثل قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾

[المؤمنون:٩١]، وقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢٢]، فإن هذا من العِلْم المُستَحيل.

وأمَّا المُمكِن فمَعروف عِلْمه بما يَفعَل الإنسان وما لا يَفعَله؛ فهذا من العِلْم بالمُمكِن.

أمَّا الاسْمُ الآخَر وهو (الحَليم)، فالحَليم هو الذي لا يُعاجِل في العُقوبة، وليس الذي لا يُعاقِب، الذي لا يُعاقِب هو العَفوُّ، وهذا هو الفَرْق بين الحَليم وبين العَفُوِّ، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حَليم لا يُعاجِل بالعُقوبة وعَفُوٌّ يَعفو عن الذَّنْب فلا يُعاقِب عليه.

• ● ۞ ● •

الآية (٥٢)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا﴾ [الأحزاب:٥٢].

ثُمَّ قال تعالى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [«لَا تَحِلُّ» بالتاء والياء]، لا تَحِلُّ ولا يَحِلُّ. فأمَّا على قِراءة: «لَا تَحِلُّ» فلا إشكالَ؛ لأن النِّساء جمع نِسوة، والنِّسوة جمع امرأة؛ لأن امرأةً ليس لها جَمْع من لَفْظها، وإنما لها جَمْع من مَعناها كالإِبِل جَمْع بَعِير ليس لها جَمْع من لَفْظها، أي: ليس لها مُفرَد من لَفْظها، فقوله تعالى: ﴿لَّا تَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ﴾ لا إشكالَ فيه، لكنَّ قوله تعالى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ﴾ كيف ذكَّر الفِعْل مع أن الفاعِل مُؤنَّث؟

الجَواب: قال ابنُ مالِك رَحِمَهُ ٱللَّهُ في اتِّصال تاء التَّأنيث بالماضِي:

وَإِنَّمَا تَلْزَمُ فِعْلَ مُضْمَرِ ... مُتَّصِلٍ أَوْ مُفْهِمٍ ذَاتَ حِرِ[1]

وهذا مع الاتِّصال؛ أمَّا مع الفَصْل فيَجوز.

وقوله تعالى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بعدَ التِّسْع التي اختَرْنَكَ] كان مُقتَضى الكلام أن يَقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: اللَّاتي اختَرْنَك. والمَعنى أن النَّبيَّ ﷺ لَمَّا خيَّر نِساءَه اختَرْن الله تعالى ورسوله ﷺ، فلَمَّا اختَرْنَ الله تعالى ورسوله ﷺ

(١) الألفية (ص:٢٥).

شكَـرَ الله تعالى لهنَّ، وقال تعالى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ﴾، وعلى هذا يَكون هذا من باب الجَـزاء العاجِل، ولَهُنَّ الجَـزاء الآجِل أيضًا؛ لأنهن لَمَّا اختَرْن الله تعالى ورسوله ﷺ على الدُّنيا وزِينتها شكَرَ الله تعالى لَهُنَّ، فمنَع نبيَّه ﷺ من أن يَتزوَّج بِسِـواهُنَّ، أو أن يُطلِّق واحِدة ويَتزوَّج سِـواها فقال تعالى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ﴾، وهذا أحَدُ القَوْلين في الآية.

والقول الثاني: أن مَعنَى الآية ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ﴾ أي: مِن بعـد ما ذكَرْنا لك، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ﴾ [الأحزاب:٥٠].

والمَعنَى على هذا: لا يَحِـلُّ لك النِّساء من بعدِ ما ذكَرْنا لك، وعليه فلا يَحِـلُّ للنبيِّ ﷺ أن يَتزوَّج امرأة من العرَب سِوى بناتِ عَمِّه وبناتِ عَمّاته وبنات خاله وبنات خالاته اللاتي هاجَرْن معه، ولا يَحِلُّ له أن يَتزوَّج امرأةً من أهل الكِتاب؛ لأنها ليسَتْ من هؤلاء.

واختار ابنُ جَريرٍ[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الآية شامِلة للمَعنيَيْـن جميعًا، فلا يَحِـلُّ له أن يَتزوَّج على أُمَّهات المُؤمِنين، ولا أن يَتزوَّج سِوى هؤلاء.

فإن قُلْت: أفَلَا يُمكِن أن نَقول: إن المَعنى الأوَّل الذي هو: لا يَحِلُّ لك النِّساء سِوى هؤلاء النِّساءِ، يَدخُل فيه المَعنى الثاني، فلا حاجةَ إلى القول الثاني. أي: إذا قُلْنا لك: لا يَحِلُّ لك سِوى هؤلاءِ اللَّاتي معَك. فإن هذا يَدخُل فيه القَوْل الثاني: إنه لا يَحِلُّ له سِوى مَن ذُكِر: ﴿إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ﴾ فما فائِدة القَوْل الثاني إِذَنْ؟

---

(١) تفسير الطبري (١٩/ ١٥٠).

الجَوابُ: أنه لو قُدِّر أن هؤلاءِ النِّساءَ مُتْنَ في حَياة الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فهل يَحِلُّ له أن يَتزَوَّج سِوى هؤلاءِ اللَّاتي أحَلَّ الله تعالى له؟ فحِينئذ يَكون للقول الثاني فائِدة، وهذه الفائِدةُ تَظهَر فيما لو قُدِّر أن زَوجاتِ الرسول ﷺ اللَّاتي معه يَتوَفَّيْن قبلَه، فإنه لا يَحِلُّ له من النساء إلَّا ما ذكَرَ الله تعالى: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ﴾.

قال الله تعالى: ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بتَرْك إِحْدى التاءَيْن في الأَصْل] وهي كلِمة ﴿تَبَدَّلَ﴾ أَصْلها: تَتبَدَّل، والدَّليل على أن أَصْلها تَتبدَّل وأنها ليسَتْ فِعْلًا ماضيًا أنَّ (أَنْ) دخلَت عليها ونَصَبَتْها، و(أن) لا تَدخُل وتَنصِب إلَّا المُضارِع، وإلَّا فإن كلِمة ﴿تَبَدَّلَ﴾ تَصِحُّ أن تكون فعلًا ماضِيًا، لكنه لمَّا دخَلَت عليها (أَنْ) وعَمِلت فيها النَّصْب عُلِم أنه فِعْل مُضارِع حُذِفت منه إِحْدى التاءَيْن، ولهذا نَظير مِثْل قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ [القَدْر:٤]، أي: تَتنَزَّل الملائِكة، وقوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ [الليل:١٤] أيْ: تَتلظَّى.

فإن قال قائِل: طلاق الرسول ﷺ لبَعْض نِسائه مثل حَفْصةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا ومُراجَعته مُنافٍ للمَعنَى الأوَّل، كيف يَكون مع هذا المَعنَى ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ﴾؟

فالجَوابُ: أنه لا يُنافِي، فهو لا يَجوز أن يَتزوَّج غيرَهُن؛ ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾، ولا يَجوز أنه يُطلِّق واحِدة ليَتزوَّج أُخرى غيرَها ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ﴾ ولم يَقُلْ: ولا أن تُطلِّق، قال تعالى: ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ﴾ بأن تُطلِّق واحِدة وتَزوَّج غيرها.

فإن قال قائِل: هل مَقصِدها الالتِزام؟

فالجَوابُ: نعَمْ ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ﴾ بأن تُطلِّقهن أو بعضَهن وتَنكِح

بَدَلَ مَن طلَّقت، هذا أيضًا لا يَحِلُّ له، ولم يَفعَلِ النَّبيُّ ﷺ بعد أن نزَلَت هذه الآيةُ، فإنه لم يُطلِّق واحِدة ليَتزوَّج أُخرى، ولا تَزوَّج عليهن سِواهن، بل بَقِين معه إلى أن تُوفِّيَ، ولكنه تُوفِّيَ له من زوجاته في حَياته زَوْجتان هما خَديجةُ وزينبُ بنتُ خُزَيْمةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وهذه تَزوَّجها بعد أن استُشهِد زَوجُها في أُحُد، وبَقِيت عنده أَشهُرًا ثُمَّ تُوفِّيت[1]، والبَقيَّة من نِسائه تُوفِّي عَنهن.

قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ﴾ المُرادُ الحُسْن الظاهِر، أو الحُسْن الباطن، أو كِلاهما؟

يَشمَل هذا وهذا، فالنَّبيُّ ﷺ كغيره من البَشَر، قد يَتزوَّج المرأة لجَمالها لكن مع الدِّين، وقد يَتزوَّجها لدِينها أو لمَعرِفتها وفَهْمها، فقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ﴾، يَشمَل الحُسْن الظاهِر والحُسْن الباطِن، وقوله تعالى: ﴿أَعۡجَبَكَ﴾ أي: بلَغَ الإِعْجاب بك مِنك، أي: بلَغ الإِعجابُ مِنك، وذلك لكَمال حُسْنها الظاهِر والباطِن.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ﴾ من الإِماء، فتَحِلُّ لك...] إلخ؛ يَعنِي: استَثْنى الله عَزَّ وَجَلَّ ما ملَكَت يَمينه؛ وذلك لأن ما ملَكَت يَمينه لا يَحصُل للزوجة غَيْرةٌ منها، بخِلاف الزوجة، وإنما لا يَحصُل للزوجة غَيْرةٌ من مِلْك اليَمين؛ لأنها لا تُسامِيها ولا تُساوِيها؛ ولأنها ليس لها قَسْم، فإن مِلْك اليَمين لا يَجِب لهُنَّ القَسْم.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا﴾ لَمَّا بيَّن الله عَزَّ وَجَلَّ ما أَحَلَّ لرسوله ﷺ وما حرَّم عليه ختَمَ الآية بذِكْر رَقابته تَبَارَكَ وَتَعَالَى على كل شيء، بيَّن الله تعالى رَقابتهُ

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ٣٣)، وانظر: الاستيعاب (٤/ ١٨٥٣).

على كل شيء؛ لأَجْل الحذَر من مُخالَفة أَمْره؛ لأنه إذا كان سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ رقيبًا على كل شيء، فإن الإنسان يَحذَر ويَخاف من مُخالَفته.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ تقدَّم نَظيرُها عِدَّة مرات، وقُلْنا: إن الماضِيَ هنا مَسلوب الدَّلالة على الزمَن؛ إذ ليس المَعنَى أن الله تعالى كان في زمَن مضى، وتَخلَّف الحُكْم عنه في هذا الزَّمَنِ، وإنما هو لتَحقيق اتِّصاف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالرَّقابة.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾ على كل شيء، فيَشمَل ما كان خَفيًّا وما كان ظاهِرًا، وما كان خاصًّا بالرسول ﷺ وما كان عامًّا فيه وفي الأُمَّة، ويَشمَل ما كان من أعمال الجَوارِح، وما كان من أعمال القُلوب كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق:١٦].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن النَّبيَّ ﷺ مُكلَّف كغَيرِه من البشَر؛ لأنه يُحلَّل له ويُحرَّم عليه.

ويَتفرَّع على هذه الفائِدةِ: أن التَّكليف لا يُمكِن أن يَسقُط عن أحَدٍ مَهما بلَغَت مَنزِلته في الدِّين، فيَكون في ذلك رَدٌّ على أُولئِك الذين يَزعُمون أنَّ الأولياء إذا بلَغوا مَرتبة من المَراتِب سقَط عنهمُ التَّكليف؛ لأننا نَعلَم أنَّ أَعلى درَجات الخَلْق عند الله تعالى همُ الأَنْبياء والرسُل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وأن أَعلاهم مُحمَّد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فإذا كان هو مُحِلًّا للتَّكليف فمَن دُونَه من بابِ أَوْلى.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إِثْبات شُكْر الله عَزَّوَجَلَّ لَمِن قام بطاعَته واتَّبع مَرْضاته، وهذا من مُقتَضى اسمه الشَّكورِ، فإن الله تعالى سَمَّى نفسَه بالشَّكور في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ فمِن شُكْره أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُنْعِم على مَن قام بطاعته حسَب ما تقتَضيه

تِلكَ الطاعةُ؛ بِناءً على أن قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدُ﴾ أي: من بعد التَّخيير.

أمَّا على الرأيِ الثاني: أن المُراد من بعد هَؤلاء النِّساءِ، فلا تَتأتَّى هذه الفائِدةُ، ولكنا ذكَرْنا أن الآية إذا صلَحَت لمَعنيَيْن لا يَتنافَيان فإن الواجِب حَمْلها عليهما.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنه لا يَجوز للنَّبيِّ ﷺ أن يُطلِّق أحَدًا من نِسائه ليَتزوَّج غيرها؛ لقوله: ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ﴾، والله عَزَّوَجَلَّ لم يُحرِّم عليه الطلاق، وإنما حرَّم عليه أن يَتبَدَّل بهن من أزواج، وفَرْق بين الطلاق وبين أن يَتبدَّل بهِنَّ من أزاوج.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن النَّبيَّ ﷺ كغيره من البَشَر، يُعْجِبه حُسْن النِّساء الظاهِر والباطِن؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: جَواز تَزوُّج الرجُل المَرأة لحُسْنها؛ لقوله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ﴾.

ويُؤيِّد هذا قولُ الرسول ﷺ: «**تُنْكَحُ المَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ لِمَالِهَا وَحَسَبِهَا وَجَمَالِهَا وَدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ**»(١).

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن الوَطْء بمِلْك اليَمين أهوَنُ على المرأة من الوَطْء بالزَّواج؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ﴾؛ ولهذا أَباح الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ الإنسان ألَّا يَعدِل بين سَرارِيه؛ لأن الغَيْرة بينَهن ليسَت كالغَيْرة بين الزَّوْجات؛ فلهذا قال تعالى: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثبات الرِّقِّ؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ﴾، والرِّقُّ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب الأكفاء في الدين، رقم (٥٠٩٠)، ومسلم: كتاب الرضاع، باب استحباب نكاح ذات الدين، رقم (١٤٦٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ.

ثابِت في الإسلام، ومَن أَنكَر وُجود الرِّقِّ فقَدْ أَنكَر القُرآن والسُّنَّة وإجماع المُسلِمين، فيَكون مُرتَدًّا حتى يَتوب ويُقِرَّ بثُبوت الرِّقِّ.

والناس في هذا البابِ طرَفان ووَسَط:

١- مِنهم مَن يَستَرِقُّ الأَحرار.

٢- ومِنهم مَن يُنكِر ثُبوت الرِّقِّ مُطلَقًا.

٣- ومِنهم مَن يثْبِت الرِّقَّ بأسبابه وشُروطه.

فنَسمَع عن بعض فِئات من الناس أنهم يَستَرِقُّون أولادهم ويَبيعونهم على غيرهم، وهذا كثير في أَفريقيا وفي شَرْق آسيا، حتى إن بعض الهمَج والرِّعاع ظنُّوا أن ذلك يُبيح الوَطْء بهذا المِلْك الفاسِد، فصاروا يَشتَرون من هؤلاء بَناتِهن ويَطؤُونَهن بهذا المِلْكِ الفاسِد، وهذا لا يَثبُت به المِلك وليس سببًا للرِّقِّ، وقد ثبَت بالحديث الصحيح عن النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن الله تعالى قال: «ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِهِ أَجْرَهُ»[1]، هذا قِسْم من الناس.

القِسْم الثاني: مَن يُنكِر الرِّق مُطلَقًا حتى مع وُجود أسبابه الشَّرْعية، وهذا يَقوله أُولَئِك الأُمَم المُتمَدْينةُ التي تَزعُم الحَضارة والتَّقدُّم، لكن العجَب أنهم يُنكِرون الرِّقَّ الذي له أسباب شرعية إلَهية، ولكنهم يَستَرِقُّون عِباد الله تعالى استِرْقاقًا أَشَدَّ من الاستِرقاق الإسلامي بغَيْر سبَب شَرْعيٍّ، وما مُشكِلة جنوب إفريقيا الحاضِرة الآنَ إلَّا أُنموذَج من ذلك، فإنهم يَستَرِقُّون السُّود استِرقاقًا مُشينًا، ويَحرِمونهم من

(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، إثم من باع حرًّا، رقم (٢٢٢٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

حُقوقهم، وهذا أَقبَحُ بكثير من الاستِرقاق الشَّرعيِّ الإسلاميِّ؛ على أن الاستِرقاق الشـرعيَّ الإسلاميَّ ليس فيه قُبْح؛ لأنك إذا تَأَمَّلتَ النُّصـوص الوارِدة في أحكام الرقيق وجَدْت أن الشَّرْع إنما أَباح استِرقاقهم لَمصلَحتهم؛ لأن سبَب الرِّقِّ واحِد، وأسباب الحُرِّيَّة مُتعَدِّدة، ولأن الرقيق يَجِب على مالِكه أن يُعامِله بالمَعروف.

وعلى هذا فيَكون الطريق الثالِث الذي هو إثبات الرِّقِّ بالأسباب الشـرعية الإلهية هو الحَقَّ، وقد دلَّ عليه الكِتاب والسُّنَّة والإجماع، ولا يُنكِره إلَّا مُكابِر، ومَن أنكَره فهو كافِر.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: جَواز التعبير بالبَعْض عن الكُلِّ؛ لقوله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ ومِنه تَفضيل اليميـن على الشِّمال؛ حيث نَسَب المِلْكية إليها دون الشِّمال، ولم يُعبِّر باليد الشِّمال عن الذات أبَدًا، ولكن عَبَّر بالأَيْدي عمومًا وعَبَّر باليميـن، وأمَّا التعبير بالشِّمال فلم يَرِدْ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: إثبات اسمٍ من أسماء الله تعالى وهو الرقيب؛ في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾ والرَّقيب بمَعنَى: الحَفيظ، والإيمان برَقابة الله عَزَّوَجَلَّ يُوجِـب للعبد كمـالَ مُراقبة الله تعالى والخَوْف منه، وألَّا يَتجَرَّأ على مَعصِيته، وألَّا يَتخَلَّف عن طاعته؛ لأنه لو كان أحَدُ المُلوك -مُلوك الدنيا- قد جعَل عليك رقيبًا، فهل يُمكِنك أن تَتكلَّم أو أن تَفعَل ما يَكون سببًا لعُقوبتك عند هذا المَلِكِ؟ الجَوابُ: لا، وهذا بالنِّسبة للمَخلوق، فرَقابة الخالِق عَزَّوَجَلَّ أكمَلُ وأعظَمُ.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: بلاغة القُرآن، حيث يَختِم الآيات بما يُناسِب الأحكامَ الموجودةَ فيها؛ لأنه لَمَّا كان المَقام مَقام تَحليل وتحريم ختَمَها بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾ يَعني: فهو يُراقِبك لو خالَفْت ما شَرَع لك.

الآيتان (٥٣، ٥٤)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٣-٥٤].

ثُمَّ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ في الدُّخول بالدُّعاء ﴿إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ فتدخُلوا، ﴿غَيْرَ نَٰظِرِينَ﴾ مُنتظِرين ﴿إِنَىٰهُ﴾ نُضْجه مصدَر أَنَى يأْنِي].

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ سبَق لنا الكلام على مِثْل هذه العِبارة، وبيَّنَّا أن تَصدير الحُكْم بالنِّداء يَدُلُّ على الاهتِمام به والعِناية به؛ لأن النِّداء يَستلزِم انتِباه المُنادَى، وأنَّ وَصْفَ هذا النِّداءَ بالإيمان يَدُلُّ على أن التِزام هذا الحُكمِ من مُقتَضَيات الإيمان، وأنَّ التَّخلُّف عنه سببٌ لنُقصان الإيمان.

ثُمَّ إنَّ التعبير بالإيمان فيه إغراءٌ وحثٌّ؛ لأن المُؤمِن حقًّا يَلتَزِم ما أُمِر به ويَترُك

ما نُهِيَ عنه، ومن ذلك إذا قُلْت: يا رجَلُ افعَلْ كذا. فالمَعنَى: بمُقتَضى رُجولِيَّتك يَلزَمك أن تَفعَل؛ وكذا: يا مُؤمِنُ افعَلْ كذا، أي: بمُقتَضى إيمانك؛ يَلزَم أن تَفعَل كذا، ففيه إغراءٌ وحثٌّ.

قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يَعنِي: لإيمانكم وجَّهنا إليكم هذا الخِطابَ.

قوله تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ﴾ بُيوت النَّبيِّ جَمْع ومُضاف إلى الرسول ﷺ؛ لأن بُيوته كانت تِسْعة، كلُّ امْرَأة من نِسائه لها بيتٌ، لم يَجْمَعْهنَّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في بيت واحِد، بل جعَل لكل امرأة بيتًا.

وإضافته إلى النبيِّ ﷺ مع أنه أُضيف إلى النِّساء أنفسِهنَّ، كما سبَق في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب:٣٤] هل هذا يَتَناقَض مع ذاك؟

الجَوابُ: لا، لا يَتَناقَض فهو مُضاف إلى كلِّ شيء منهما بنَسْبةٍ مُعيَّنةٍ، فباعتِبار أن هذه البُيوتَ مَأْوَى النبيِّ ﷺ ومَسكَنُهُ أُضِيفت إليه، وباعتِبار أنها -أي: هذه البُيوتَ- مِلْك لزَوْجاته أُضيفَتِ البُيوت إليهِنَّ.

والعُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ اختَلَفوا: هل بُيوت زَوْجات الرسول ﷺ مِلْك لهنَّ أو مِلْك للرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؟ فيه قَوْلان لأَهْل العِلْم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ، وسبَق لنا أن الأظهَر أنها مِلْك للزَّوْجات، بدليل أنهن وَرِثْن هذه البُيوتَ، ولو كانَت مِلْكًا للرسول ﷺ ما ورَثْنها؛ لأن النبيَّ ﷺ يقول: «إِنَّا مَعَاشِرَ الأَنْبِيَاءِ لَا نُورَثُ، مَا تَرَكْنا صَدَقَةٌ»[1]،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب فرض الخمس، رقم (٣٠٩٣)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب قول النبي ﷺ: «لا نورث»، رقم (١٧٥٩)، من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

ولا يَرِد على هذا أن هذه البُيوتَ أُدْخِلت في المَسجِد فيما بعدُ؛ لأنها إمَّا أن تكون أُخِذَت بعِوَض، وإمَّا أن تكون أُخِذت بِرضاءِ مُستَحِقِّيها، وهذا لا يُنافِي التَّنبيهَ.

قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾: ﴿إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ﴾ بالبِناء للمَجهول، ولم يَقُل: إلَّا أن يَأذَن النبيُّ؛ لأنه قد تَأْذَن المرأة من نِسائه لأَحَد فيَدخُل، فليس بشَرْط أن يَكون الإِذْن من الرسول ﷺ، ولكن الله تعالى اشتَرَط ثلاثة شُروط:

الأَوَّل: الإِذْن.

والثاني: إلى طعام.

والثالِث: غير ناظِرين إِناهُ.

ولْنَنظُرْ هذه القُيودَ: هل هي مُعتبَرة أم لا؟

فالأَوَّل: قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ يَشمَل: الإِذْن العُرفيَّ، والإِذْن اللَّفظِيَّ.

فالإِذْن اللَّفظِيَّ: أن يُقال: ادْخُلْ.

والإِذْن العُرفيُّ: أن يَكون هناك علامة تَدُلُّ على أن المَقام مَقام إِذن؛ كفَتْح الباب وما أَشبَه ذلك.

فلا يُمكِن الدُّخول بدون إِذْن، فالإِذْن إِذْن مُعْتَبر فهو قَيْد.

والثاني: قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ طَعَامٍ﴾، هذا لا يَدُلُّ على أنهم لو أُذِنَ لهم في الدُّخول إلى غير طعام لا يَحِلُّ، فلو دُعِيَ إلى غير طعام هل يَدخُل أو لا؟ إن نظَرْنا إلى ظاهِر

قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ قُلْنا: لا يَدخُل؛ لأن الله تعالى قال: ﴿إِلَىٰ طَعَامٍ﴾، ولكنَّنا نَقول: إن هذا القَيْدَ بَيان للواقِع، وما كان بَيانًا للواقِع فإنه لا مَفهومَ له، فالآية ورَدَت في قضية مُعيَّنة وهي دُخول هَؤلاءِ إلى الطَّعام بدون دَعْوة؛ فلهذا قُيِّدَت بقَوْله تعالى: ﴿إِلَىٰ طَعَامٍ﴾.

والثالث: قوله تعالى: ﴿غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾، ناظِر إن تَعدَّت بـ(إلى) فهي من النَّظَر بالعَيْن، وإن تَعدَّت بنَفْسها فهي بمَعنَى: الانتِظار، تَقول: نظَرْت إليه. وتقول: نظَرْتُه. بمَعنَى: انتَظَرْته، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الأنعام:١٥٨]، و﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ [الأعراف:٥٣]، والمَعنَى: هل يَنتَظِرون؛ لأنها تَعدَّت بنَفْسها، وقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣]، هذا من النَّظَر بالعَيْن؛ وهنا ﴿نَٰظِرِينَ﴾ مُتعَدِّية بنَفْسها، فتكون بمَعنَى: مُنتَظِرين.

وقوله تعالى: ﴿إِنَىٰهُ﴾ أي: نُضْجه؛ وهل هذا شَرْط أم لا؟ نَقول: إنه شَرْط لجَواز الدُّخول أن يَدخُلوا لطعام غير مُنتَظِرين نُضْجَه، وكانوا يَتحَرَّوْنَ نُضْجَ الطعام، فإذا تَحرَّوْا أنه قد نَضِج وقارَب أن يُقدَّم أو قُدِّم دخَلوا البيوت؛ لكي يَأكُلوا.

ولا شَكَّ أن مُفاجأة الإنسان عند أَكْله تُؤذِيه، ويُسمَّى هذا الذي يَفجَأُ الناس عند تَقديمهم الطعامَ يُسمَّى طُفَيْليًّا، وضَيْفَن بالنون؛ لأن هذه مِثل الذي يَتَّكِئ على عصًا كأنه ثَقيل، فإذا كان عِندك ضَيْف لا تُحِبُّ أن يَكون عندك، فقُلتَ لصاحِبك: هل عِندك ضَيفٌ؟ قلت: لا، عِندي ضَيْفَن. يَعنِي: ثَقيل، طُفَيْليٌّ جاء بلا دَعوةٍ، ونام على نَهْض(١) صاحِب البيت، فلا يَتزَحْزَح ولا يَخرُج، ويَتطَلَّب: هاتِ ماءً، هاتِ شرابًا، هات كذا، أُريد الحَمَّام، أُريد أن أَروح لكذا... فيُتْعِبك.

(١) النهض من البعير: ما بين المنكب والكتف. تاج العروس (نهض).

المُهِمُّ: أن قوله تعالى: ﴿غَيْرَ نَظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ هذا شَرْط، يَعنِي: لا يَجوز لكم أن تَتحرَّوا إِنَى الطَّعام حتى تَدخُلوا لما في ذلك من التَّضييق على النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ويُحتَمَل أن المَعنَى: لا تَدخُلوا مُبكِّرين بحيث تَبقَوْن في البيوت حتى يَنضَج الطعام؛ لأن في هذا أيضًا إِشْقاقًا على صاحِب البيت، فإذا كان تَجهيز الغَداء في الساعة الواحِدة، فجاء هؤلاءِ في الساعة الثانيةَ عشْرةَ، فانتَظَروا ساعة، وهذا فيه تَضييق على النبيِّ ﷺ، والنبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حَيِيٌّ كريم، لو استَأْذَنوا عليه قبل نُضْج الطعام بساعة لم يَرُدَّهم ﷺ، وإن كان يَتأذَّى بذلك، لكن لكَرَمه وحَيائِه لا يَرُدُّهم.

فتَبيَّن بهذا النَّهيِ عن دُخول بيوت النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إلَّا بثَلاثة شُروط:

١- الإِذْن.

٢- وأن يَكون إلى طعام.

٣- وأن يَكونوا غير ناظِرين إِناهُ.

ولكن ﴿إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ يَقولون: إن هذا ليس بشَرْط؛ لأنه قَيْد لبَيان الواقِع فلا مَفهومَ له، وكلُّ قَيْد لبَيان الواقِع فإنه لا مَفهومَ له؛ ولهذا لو دُعُوا إلى غير الطَّعام فلا بَأسَ أن يَدخُلوا.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [في الدُّخول بالدُّعاء ﴿إِلَىٰ طَعَامٍ﴾]، فأَفادَنا المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ لا يَتعلَّق بقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ إلَّا على وَجْه التَّضمين؛ لأن (يُؤذَن) لا تَتعدَّى بـ(إلى)، وإنما تَتعدَّى بـ(في) أو باللَّام، لكنها باللَّام للمَأذون له لا للمَأذون إليه، فتَتَعدَّى بـ(في): إلَّا أن يُؤذَن لكم في طَعام، لكنها جاءت بـ(إلى)؛ لأن الإِذْن هُنا ضُمِّن مَعنَى الدُّعاء، يَعنِي: إلَّا أن تُدعَوْا إلى طعام.

وقوله تعالى: ﴿غَيْرَ نَظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ جاءت مَنصوبةً، مع أن الذي قَبْلها مجرور -يَعنِي: لم تكُن بلَفْظ: إلى طَعام غيرِ ناظِرين إناهُ-؛ لأنها حال من الكاف في قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ﴾، أي: حالَ كَوْنِكم غيرَ ناظِرين إناهُ، فإن كُنْتم مُنتَظِرين نُضْجَه وتَتحرَّون نُضْجه فلا تَدخُلوا عليه أيضًا؛ لما في ذلك من الإِشْقاق والأَذِيَّة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَىٰهُ﴾ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنها [مَصدَر أَنَى يَأْنِي] إِنًى، فهي ليس فيها شيء محذوف، يَعنِي: لست (إِناءَه) في الأصل، بل هي (إِناهُ) أصلًا وفَرْعًا، مَصدَر أَنى يَأْنِي إِنًى.

وقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا۟﴾ لَّما كان قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ قد يَتوَهَّم منه واهِمٌ أنهم لا يَدخُلون أبَدًا؛ قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا۟﴾، فكان في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا۟﴾ كان فيه فائِدة، وهي أنهم متَى دُعوا دَخلوا، فكَوْنهم هم يَدخُلون بأنفسهم لا يَجوز إلَّا بالشُّروط السابِقة، لكن إذا دُعوا فإنهم يَدخُلون، فإذا طعِموا فإنهم يَنتَشِرون؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا۟﴾، أي: ولا تَدخُلوا بغير دَعْوة.

وهذا غير قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ﴾؛ لأن (يُؤذَن) مَعناها: أنهم جاؤُوا فاستَأْذنوا، وأمَّا التي معَنا -الجُمْلة الثانية ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ﴾- فهُنا هم الذين دُعُوا.

وقد كان الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يَدْعو الناس إلى طَعامه، كما دعا أبو هُريرةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ حين وَجَدَهُ جائِعًا في يوم من الأيام، فقد خرَج أبو هُريرةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ من بيته

وهو جائِع حتى كاد يَسقُط مَغشِيًّا عليه من الجوع، فلمَّا خرَجَ الناس تَبع عُمرَ بن الخَطَّاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يَسأَله عن آية من كِتاب الله تعالى، وأبو هُريرةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ حينما سأَله عن الآية يَعرِف الآية لكن يُؤَمِّل لعَلَّ عُمرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يَقول: اتْبَعْنِي. ولكن عُمرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لم يُفكِّر في هذا الأَمْرِ، أَخبَرَه بالآية ومَضَى، يَقول: فلمَّا جاء الرسول ﷺ ورآني عرَف ما في وَجْهِي. فدَعاه فدَخَل، فجِيء بلَبَن إلى النبيِّ ﷺ فأَمَرَه أن يَدعُوَ أهل الصُّفَّة -وأهلُ الصُّفَّة: همُ الفُقَراء المُهاجِرون الذين ليس لهم مَأوًى في المَدينة، كان لهم صُفَّة في المَسجِد يَجتَمِعون فيها، أحيانًا يَبلُغون الثَّمانين، وأحيانًا يَكون أكثَرَ، وأحيانًا يَكون أقَلَّ- يَقول: لمَّا قال: ادْعُ أهل الصُّفَّة. واللَّبَن قليل، فكأنه تَردَّد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وقال: ما يُغنِي هذا اللَّبَنُ لأهل الصُّفَّة؟ فإذا دَعَوْت أهل الصُّفَّة وشَرِبوا اللبَن بَقِيتُ أنا جائِعًا، ولكن لم يَكُن لي بُدٌّ من طاعة الله تعالى ورسوله ﷺ، فذهَبَ فدعا أهل الصُّفَّة فجاؤُوا فشَرِبوا، كُلٌّ يَشرَب من هذا اللَّبَنِ، وكُلٌّ يَشرَب، فلمَّا بَقِيَ بقيَّةٌ قال: «اشْرَبْ». يَقول: فَشَرِبت حتى رَوِيتُ. فقال: «اشرَبْ أبا هرٍّ»، فقلتُ: والله يا رسول الله لا أَجِد له مَسارًا. فبَقِيَت بقيَّةٌ فشَرِبها النبيُّ ﷺ[1].

ففي هذه دَعوة عامَّة ودعوة خاصَّة، وكذلك في حديث أَنَسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لمَّا صنَع النبيُّ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ طعامًا، قال: اخرُجْ فادْعُ لي مَن لَقِيتَ[2]؛ فإذا دُعِيَ المُسلِمون إلى طعام فادْخُلوا، ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا۟﴾ ولم يَقُل: فإذا شبِعْتُم. قال: إذا طَعِمْتُم؛ لأن الطَّعام قد يُشبِع وقد لا يُشبِع.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب كيف كان عيش النبي ﷺ وأصحابه، رقم (٦٤٥٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب الهدية للعروس، رقم (٥١٦٣) معلقًا، ومسلم: كتاب النكاح، باب زواج زينب بنت جحش، رقم (١٤٢٨)، من حديث أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

وقوله تعالى: ﴿فَٱنتَشِرُواْ﴾ أي: تفرَّقوا؛ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَا﴾ تمكُثوا ﴿مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾]، أفادنا المُفسِّر بقوله: [﴿وَلَا﴾ تمكُثوا] أن كلِمة ﴿مُسْتَـْٔنِسِينَ﴾ حال من فاعِل محذوف مع فِعْله، والتَّقدير: ولا تمكُثوا مُستأنِسين لحديثٍ.

والاستِئْناس بالشيء مَعناه: الاطمِئْنان إليه، يَعنِي: لا تَبقَوْا بعد الأكل تَتحدَّثون وتَنبَسِطون وتَطمَئِنُّون، وأمَّا الحَديث العابِر فلا بأسَ به بعد الأَكْل، ولكن هذا ليس من آداب الطاعِم على كل حال؛ لأنه عُلِّل، قال تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ﴾.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ من بَعْضكم لبَعْض ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ﴾ المُكْث ﴿كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ﴾ أن يُخرِجَكم ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ أن يُخرِجَكم]. وعلى هذا فيُنهَوْن عن البَقاء مُطمَئِنِّين للحديث لِعِلَّة وهي الأذِيَّة، أذِيَّة النبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وبِناءً على هذه العِلَّةِ لو قُدِّر أنه لا يَتأذَّى بذلك فلا حَرَجَ على الإنسان أن يَبقَى.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ﴾، أَعاد الاسمَ الظاهِر في مَوضِع الضمير؛ تَعْلِيةً لشأن الرسول ﷺ، وإلَّا لكان المُتوقَّع أن يَقول: إن ذَلِكم كان يُؤذيه، ولكن قال تعالى: ﴿يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ﴾ إعلاءً لشَأْنه ﷺ، وإشارة إلى أنه لنُبوَّته يَجِب أن يَتحاشَى المَرءُ أَذِيَّته لما له من الفَضْل.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ﴾ لماذا جَمَع فيها الخِطاب؟

الجَوابُ: لأن المُخاطَبين جَمْع، واسمُ الإشارة إذا اقترَن بالكاف فإنه يُراعَى فيه المُخاطَب والمُشار إليه، والمُشارُ إليه يَتَغيَّر به اسمُ الإشارة، والمُخاطَب تَتغيَّر به الكاف.

فالقاعِدةُ: أنه إذا اقترَنَتِ الكاف باسْمِ الإشارة فإنه يُراعَى في اسم الإشارة المُشار إليه، وفي الكاف المُخاطَب.

فلْنَفْرِضْ أنَّني أُشير إلى جماعة وأُخاطِب واحِدًا أَقول: أُولَئِك. وبالعَكس أُشير إلى واحِد وأُخاطِب جماعة أَقول: ذَلِكم. وأُشير إلى جماعة وأُخاطِب جماعة فأَقول: أُولَئِكم. وأُشير إلى جَماعة وأُخاطِب جماعة نِساء فأَقول: أُولَئِكن. وأُشير إلى واحِد وأُخاطِب جماعة نِساء فأَقول: ذلِكُنَّ، قال تعالى: ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ [يوسف:٣٢].

الخُلاصةُ: أن اسم الإشارة إذا اقترَنت به الكاف؛ فإنه يُراعَى في الكاف المُخاطَب، ويُراعَى في اسم الإشارة المُشارُ إليه، فإن كان جَمْعًا فاجْمَعها، وإن كان مُثنًّى فثنِّها، وإن كان مُفرَدًا فَأَفرِدها. فإذا كنت تُشير إلى اثنَيْن مُخاطِبًا اثنَيْن تَقول: ذانِكما. وإذا كنتَ تُشير إلى اثنَتَيْن مُخاطِبًا اثنَتَيْن تَقول: تانِكما؛ لأن المُثنَّى المُؤنَّث يُقال له: تانِ. قال ابنُ مالِك رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَذَانِ تَـانِ لِلْمُثَنَّـى المُرْتَفِـعْ ....(١)

وهذه يَغْلَط فيها كثير من الطلَبة فيَلْتَبِس عليه المُشار إليه بالمُخاطَب.

فقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ﴾ المُشار إليه هنا مُفرَد، والمُخاطَب جَمْع؛ لأنه يُخاطِب جماعة المُؤمِنين، ويُشير إلى شيء مَذْكور، أي: إن ذلك المَذكورَ ﴿يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ﴾ الأذِيَّة ليست هي الضَّرَرَ؛ إذْ قد يَتأذَّى المُتأذِّي

(١) الألفية (ص:١٤).

ولا يَتضَرَّر بذلك؛ ولهذا يُوصَف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالتَّأذِّي ولا يُوصَف بالضرَر، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [الأحزاب:٥٧]، وقال تعالى في الحديث القُدسيِّ: «يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ؛ يَسُبُّ الدَّهْرَ»[١]، أمَّا في الضرَر فقال في الحديث القُدسيِّ: «يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي»[٢]، ونحن نُشاهِد الآنَ في أنفُسِنا أننا نَتَأذَّى بالشيء ولا نَتَضَرَّر به، إذ يَتأذَّى الإنسان بالرائِحة الكريهة؛ كرائِحة البَصَل والكُرَّاث والنَّتْن والوَسَخ والعَرَق وما أشبَه ذلك، ولكنه لا يَتضَرَّر به، فلا يَلزَم من الأذِيَّة الضرَرُ.

يَقول تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ﴾ الفاء عاطِفة على قوله تعالى: ﴿يُؤْذِى﴾؛ يَعنِي: فكان أيضًا يَستَحْيِي منكم، أي: يَستَحْيِي منكم أن يُخرِجكم إذا دَخَلْتم في هذه الحالِ.

وقوله تعالى: ﴿فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ﴾ إذا قيل لنا: ما هو الحَياء؟ أو عَرِّف الحَياء؟ فنَقول: الحَياء نَكتُب عليه ميم بخَطٍّ عَريض، أي: معروف، ففي القاموس إذا جاءَت كلِمةٌ مَعروفةٌ كُتِب: ميم، يَعنِي: مَعروف، فلا يَحتاج إلى أن نَحُدَّه، كما لو قيل لك: ما هي المَحبَّة؟ فلا تَستَطيع أن تَحُدَّها، مثلما قال ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ في روضة المُحبِّين[٣]: إن المَحبَّة لا تُحَدُّ بأَوْضَحَ من لَفْظها، المَحبَّة هي المَحبَّة. وكذلك: الكراهة هي الكراهة؛ لأن هذه انفِعالاتٌ نَفْسية يُحِسُّ بها الإنسان من نَفْسه، ولا يَستَطيع أن يُعبِّر عنها، فالحَياءُ هو الحَياءُ، وكذلك: النَّوْم هو النَّوْم مَعروف، وبعضهم يَقول: إنها غَشْية

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾، رقم (٤٨٢٦)، ومسلم: كتاب الأدب، باب النهي عن سب الدهر، رقم (٢٢٤٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٧)، من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٣) انظر: طريق الهجرتين (ص:٣١٠)، ومدارج السالكين (٣/ ١١).

ثَقيلة تَهجُم على المُخِّ فتُفقِد الوَعْيَ والإِحساس، فلو تَصوَّرتُ أن هذا هو النَّوْم ما جاءَني نَوْم، فلا أَتصوَّر أنه غَشْية!.

وكذلك: الجَوْع، من صِفات البَطْن من قِلَّة الطعام، هـذا أَثَره، أمَّا هو فإنه مَعروف. فهذه المَعاني النَّفسِية لا يُمكِن في الحقيقة أن يُعرِّفها أحَـدٌ، ولا يُمكِن أن تُعرَّف بأَوْضَحَ من لَفْظها.

إِذَن: الحَياء مَعروف، والنبيُّ ﷺ يَستَحْيِي من هؤلاء؛ لأنه ﷺ أَكمَلُ الناس إيمانًا، والحياءُ من الإيمان؛ ولأنه ﷺ أَكرَمُ الناس، والكريم يَستَحْيِي من ضَيْفه أن يُخرِجَه، أو أن يَتبَرَّم بوُجوده، أو أن يَتكَرَّهَ له؛ ولهذا الرسولُ ﷺ يَصبِر وإن كان مُتأَذِّيًا من ذلك؛ لمَا جَبَلَهُ الله تعالى عليه من كمال الإيمان وكمال الكرَم، فيَستَحْي منكم.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَيَسْتَحْيِۦ مِنكُمْ﴾ أن يُخرِجكم] قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَنْ يُخرِجَكم]، هذه في مَحَلِّ جرٍّ بدلِ اشتِمال؛ لأن التَّقدير: فيَستَحْيِي من إخراجِكم.

قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾، والحقُّ هو: العَدْل في الأحكام، والصِّدْق في الأخبار، فالرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ لا يَستَحْيِي من الحقِّ؛ لأن الحَياء من الحقِّ يَستَلزِم تَرْك الحقِّ والخَوَر وعدَم الحَزْم، والله عَزَّ وَجَلَّ لا يَستَحْيِي من أن يُبيِّن الحقَّ.

ويَقول المُفسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ أن يُخرِجـكم]، هكذا قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وفيما قاله نظَر، بلِ الصوابُ: ﴿لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ أَنْ يُبيِّنه لكم؛ لأن المَقام هنا ليس مَقام إخـراجٍ، بل المَقامُ مَقامُ تَبْيين لما يَجِب على هؤلاء الذين استَأْذَنوا على الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فالمَعنَى: لا يَستَحْيِي من الحقِّ، كما قلتُ: إن الحَقَّ هو الصِّدْق في الأخبار والعَدْل في الأحكام، بينما المُراد بالحَـقِّ هنا -على رَأْيِ

المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ- هو الإخراجُ، يَعنِي لا يَستَحْيِي أن يُخرِجَكم، ولكن الصواب لا يَستَحيِ أن يُبيِّن لكم ما يَلزَمكم فتَخرُجوا.

ثُمَّ قال المُفَسِّر عفا الله عنه: [أي: لا يَترُك بَيانَه]، أي: لا يَترُك بَيان الحَقِّ، وهذا من التَّحريف؛ حيث فسَّر الحَياء بلازِمه وهو التَّرْك؛ لأن من لازِم الحَياء من الشيء أن يَدَعه حَياءً منه، فالمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ فسَّر الحَياءَ بلازِمه وهو التَّرْك، أي: لا يَترُك بَيان الحَقِّ، وفي قوله: لا يَترُك بَيان الحَقِّ. مع قوله: [﴿لَا يَسْتَحْيِۦ﴾ أن يُخرِجَكم] هناك شيء من التَّناقُض؛ لأنه جعَل المُستَحْيَا منه هنا بيانَ الحَقِّ وجعَله في القول الأوَّلِ الإخراجَ، والصواب قوله الثاني، أي: لا يَستَحي من بَيان الحَقِّ، لكن تَفسيره الاستِحياءَ بالتَّرْك هذا باطِل؛ لأنه خِلاف ظاهِر اللَّفْظ.

والواجِبُ عَلَيْنا فيما يتعَلَّق بأَسماء الله وصِفاته: أن نُجْرِيَها على ظاهِرها اللائِق بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، مُعتَقِدين أنه لا مَثيلَ له في هذه الصِّفَةِ، ومُبتَعِدين عن تَكليفها، أمَّا وُجوب إِجْرائها على ظاهِرها؛ فلأن الله تعالى خاطَبَنا بِلِسان عرَبيٍّ مُبِين، ولو أَراد خِلافَ ذلك الظاهِرِ لكان التَّعبيرُ بهذا الذي يُفيد ظاهِرُهُ الكُفْرَ أو التَّمثيلَ خِلافَ البَيان، والله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [النساء:٢٦]، فكيف يُعبِّر تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أو يَتكَلَّم بما هو خِلاف البَيان فيما يُعتبَر صميمَ العَقيدة، وهو ما يَتعَلَّق بأسماء الله تعالى وصِفاته؟! ولهذا كان طريقُ هَؤلاء المُنحَرِفين من أبلَغِ ما يَكون طَعْنًا في كلام الله عَزَّ وَجَلَّ، بل من أَبلَغِ ما يكون طَعْنًا في الله تعالى نَفْسه؛ إذ إن طَريقَتَهم تَستَلْزِم أن يَكون الله عَزَّ وَجَلَّ لم يُبيِّن الحَقَّ فيما يَتعَلَّق بأسماء الله تعالى وصِفاته، وجعَل الحَقَّ مَوكولًا إلى ما تَقتَضِيه عُقولهم، ويُحاوِلون بعد ذلك أن يَرُدُّوا كلام الله عَزَّ وَجَلَّ وكلام رسوله ﷺ إلى ما تَقتَضيه هذه العُقولُ الفاسِدةُ المُتَناقِضةُ، والطريق الأَسلَمُ والأَعلَمُ والأَحكَمُ هي

طريق السَّلَفِ، أن تَأخُذ كلام الله تعالى ورسوله ﷺ على ظاهِره؛ لأنَّنا:

١ - نَعلَم عِلْم اليَقين أنه لا أَحَدَ أَعلَمُ بالله تعالى من نَفْسه، ولا أحَدَ من الخَلْق أَعلَمُ بالله تعالى من رَسول الله ﷺ.

٢ - ونَعلَم أيضًا أنه لا أَحَدَ أصدَقُ كَلامًا من الله تعالى، ولا أحَدَ من المَخلوقين أصدَقُ كلامًا من رسول الله ﷺ، وهذا ثابِت أيضًا.

٣ - والأَمْر الثالِث: نَعلَم أنه لا أَحَدَ أوضَحُ بيانًا في كلامه من الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ولا أحَدَ من المَخلوقين أَعظَمُ بيانًا من رسول الله ﷺ.

٤ - نَعلَم أيضًا أنه لا أَحَدَ أَصَحُّ إرادةً وقصدًا من الله عَزَّوَجَلَّ؛ فإن الله تعالى ما أَراد من عِباده إلَّا أن يُبيِّن لهُمُ الحَقَّ، وكذلك بالنِّسبة لرسول الله ﷺ لا نَعلَم أحَدًا أَنصَحَ منه للخَلْق، وأصدَقَ إرادةً في بيان الحَقِّ.

فإذا تَمَّت هذه الأمورُ الأربعةُ في أيِّ كلام يَكون: صار ما يَدُلّ عليه ظاهِره هو المرادَ الذي يَجِب علينا أن نَأخُذ به، فهذه أمور أَرْبعة إذا اجتَمَعَت في الكلام صار الكلام واجِبَ الأَخْذ بظاهِره؛ وهذه الأمورُ الأربعةُ هي: العِلْم والقَصْد والصِّدْق والبَيان.

وضِدُّها لا يُؤخَذ ولا يُعتبَر، فلو جاء إنسانٌ جاهِلٌ يَتكَلَّم لك بكَلام من أَفصَحِ البيان، وهو رجُل نَعرِف أنه من أَنصَحِ الخَلْق، وأصدَقِهم؛ لا تَثِق بقوله.

ولو جاء رجُل يَتكَلَّم عن الطِّبِّ، ونحن نَعلَم أنه لم يَدرُس الطِّبَّ أبدًا، وقام يَشرَح لنا الطِّبَّ؛ لا نَثِق به؛ لأنه جاهِل.

ولو جاء عالِم نَعرِف أنه عالِم بما يَتكلَّم به، لكنه كَذُوب؛ لا نَثِق بكلامه؛ لأنه

كذوب، قد يَكذِب علينا.

ولو جاءَنا رجُل عالِم، وصَدوق، لكنه سَيِّئُ الإرادة قد يَغُشُّ ويَقصِد ضَلال الخَلْق، هذا أيضًا لا نَثِق به؛ لأننا نَخْشَى أن يَغُشَّنا فيما قال.

ولو جاءَنا إنسان عالِم، وناصِح، وصَدوق، لكن ما يُحسِن يُعبِّر، مثل إنسان فارِسيٍّ لا يَعرِف باللغة العربية، وقام يُعبِّر باللغة العربية؛ فلا نَثِق بقوله؛ لأنه لا يُحسِن التعبير، فأحيانًا يَقول إذا أَراد أن يُضيف الضَّمير إلى نَفْسه: أنت أكَلْت. أي: أنه إذا أَراد أن يَقول: أنا أَكَلْتُ. يَقول: أنتَ أكَلْتَ. وإذا أَراد أن يَقول: أنت أكَلْتَ. يَقول: أنا أَكَلْتُ. فلا نَثِقُ بكلامه، لأنه قد يَقلِب الكلام؛ لأنه عَيِيٌّ.

لكن كلام الله تعالى وكلام الرسول ﷺ اجتَمَعَت فيه صِفات القَبول الأَرْبَع؛ فلهذا يَجِب عَلينا أن نُؤْمِن بكل صِفة وَصَفَ الله تعالى بها نَفْسَه.

فإن قال قائِل: الآية وما أَشبَهَها فيها نَفيُ الحَياء، والنَّفيُ ضِدُّ الإثبات، فكيف تَقول: إن في الآية إِثباتَ الحَياء؟!

فالجَوابُ: مَنطوق الآيةِ ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾، ومَفهومها: يَستَحْيِي من غير الحَقِّ؛ إذ لو لم يَكُن الأمر كذلك لكان نَفيُ الاستِحْياء عن الحقِّ لَغْوًا من القَوْل لا مَعنَى له.

ثُمَّ نَقول: إنه قد ثَبَتَتْ صِفة الحَياء لله عَزَّوَجَلَّ بصيغة الإثبات، كما في الحَديث الذي في المُسنَد: «إِنَّ اللهَ حَيِيٌّ كَرِيمٌ»[1] فـ(حَيِيٌّ) فيها إثبات الحَياء لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(١) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ٤٣٨)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب الدعاء، رقم (١٤٨٨)، والترمذي: كتاب الدعوات، باب ١٠٥، رقم (٣٥٥٦)، وابن ماجه: كتاب الدعاء، باب رفع اليدين في الدعاء، رقم (٣٨٦٥) من حديث سلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فكُلُّ صِفة أَثبَتَها الله تعالى لنَفْسه؛ فإنه يَجِب علينا أن نَأخُذها بالقَبول، ولكنَّنا نُنزِّهُ اعتِقادنا عن محذورَيْن عظيمَيْن وهما: التَّمثيل، والتَّكييف.

والتَّعبير بـ(التَّمثيل) أحسَنُ من التعبير بـ(التَّشبيه)؛ لأن هذا هو الذي نَفاه الله تعالى عن نَفْسه؛ ولأن نَفيَ التَّشبيه المُطلَق هذا ليس بصواب، كما ذَكَرْنا أنه ما من مَوْجودَيْن إلَّا ويَشتَرِكان في صِفة الوُجود، وإنْ كانا يَتبايَنان فيما تَقتَضِيه هذه الصِّفةُ في مُقتَضياتها ومُستَلزَماتها، وما من سَمِيعَيْن إلَّا ويَشتَرِكان في صِفة السَّمْع وإن كانا يَختَلِفان في مَلزوماتها ومُقتَضَياتها، وما مِن بَصِيرَيْن إلَّا ويَشتَرِكان في صِفة البَصَر، فيَكون بينهما مُشابَهة من بعض الوُجوه فيما يَشتَرِكان فيه؛ ولهذا فنَفيُ التَّمثيل هو الذي يَنبَغِي لنا -مَعشَرَ طلَبةِ العِلْم- أَنْ نُعبِّر به؛ لأنه هو الذي جاء في القُرآن وهو أَسلَمُ.

فإن قال قائِل: هل التَّعبيرُ بـ(تَشبيه) يَكون فيه قُصور، لا يُؤدِّي المَطلوب؟

فالجَوابُ: أنه لا يُؤدِّي المَطلوب، وفيه قُصور؛ لأنه بخِلاف تَعبير القُرآن، ولأن هذا أدَّى إلى أن تُنكَر كثيرٌ من الصِّفات بهذه الدَّعوى؛ ولهذا شَيخ الإسلام ابنُ تَيميَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ في العَقيدة الواسِطية لم يَقُلْ: من غير تَشبيه، قال: «مِن غَيْر تَحريف ولا تَعطِيل ولا تَكْييف ولا تَمْثِيل»(١)، وهذا هو الأَوْلى.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِ مِنَ الْحَقِّ﴾ أي: لا يَتْرُكُ بَيانَه، وقُرِئ: «يَسْتَحِي» بياءٍ واحِدة]، فـ(قُرِئ) تَعنِي: قِراءة شاذَّة؛ لأن قاعِدة المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ أنه إذا قال: (وقُرِئَ)، فهي قِراءة شاذَّة بخِلاف ما إذا قال: (وفي قِراءةٍ)، أو قال: بالياء والنون، أو بالياء والتاء، وما أَشبَهَ ذلك؛ فهما قِراءتان سَبْعِيَّتان.

---

(١) العقيدة الواسطية (ص:٥٧).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ﴾ الفاعِل يَعود على الصَّحابة، والمَفعول يَعود على نِساء النبيِّ ﷺ، وهُنَّ لم يَسْبِقْ لهُنَّ ذِكْر في الآية، لكن قوله تعالى: ﴿بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ﴾ يَدُلُّ على ذلك؛ لأن ساكِنَ بُيوت النبيِّ هُنَّ أزواجُ النَّبيِّ ﷺ.

يَقول المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ﴾ أي: أَزواجَ النبيِّ ﷺ]: [أَيْ] هذه تَفسيرية، و[أَزْواجَ] عَطْفُ بَيان للهاء في قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ﴾ أي: أزواجَ النبيِّ ﷺ ﴿مَتَٰعًا﴾ المُراد بالمَتاع: ما يُتَمتَّع به من مَلابِسَ ومَطاعِمَ ومَشارِبَ وغيرِها، حتى الدراهِم تُعتبَر مَتاعًا، فكل ما يُتمتَّع به فهو مَتاع.

قوله المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ سِتْر] و(اسْأَلوهُنَّ) تَنصِب مَفعولَيْن؛ الأوَّل: الهاء في قوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوهُنَّ﴾، والثاني: محَذوف دلَّ عليه ما قَبْله، أي: فاسْأَلوهُنَّ المَتاع من وراء حِجاب.

وقوله تعالى: ﴿مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ حِجاب بمَعنى سِتْر، وكلِمة ﴿مِن﴾ تَدُلُّ على أنَّ هذا السِّتْر لا بُدَّ أن يَنفَصِل، وأنه غير سَتْر الوَجْه أو البدَن بالثِّياب، بل هو سَتْرٌ آخَرُ: حِجاب، وحِجاب أُمَّهات المُؤمِنين غيرُ حِجاب نِساء المُؤمِنين؛ لأن حِجاب نِساء المُؤمِنين يَصِحُّ أن يَكون مُتَّصِلًا بالبَدَن كالخِمار والمِلحفة، وما أَشبَهَهُما، أمَّا حِجاب أُمَّهات المُؤمِنين فإنه حِجاب آخَرُ مُنفَصِل يَحُول بين الرجُل وبين رُؤْية أُمَّهات المُؤمِنين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ فتَدُلُّ على أنَّ هذا الحِجابَ مُنفَصِل عنِ المُستَتِر به، ومنه قوله تعالى عن الكُفَّار يَقول للرسول ﷺ: ﴿وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فُصِّلَت:٥].

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ﴾ لماذا قال: (ذَا) مُفرَد و(كُمْ) جَمْع، فكيف يَتلاءَمُ جَمْع مع مُفرَد؟

الجَوابُ: لاختِلاف المَرجِع، فاسمُ الإشارة يَعود على المُشار إليه، والكاف للخِطاب يَعود على المُخاطَب، فقد يَكون المُشار إليه مُفرَدًا والمُخاطَب جَمْعًا كما هنا: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي: المَذكور والخِطاب للصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم.

وقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ﴾: ﴿أَطْهَرُ﴾ يَعنِي: أَبلَغ في طُهْر القُلوب لقُلوبكم أيُّها السائِلون ﴿وَقُلُوبِهِنَّ﴾ أي: المَسؤُولات، قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [مِن الخَواطِر المُريبة] وانْظُرْ! فهذا الخِطابُ للصحابة وهُمْ أَطهَرُ هذه الأُمَّةِ قُلوبًا في جانِب نِساء النبيِّ ﷺ، وهنَّ أَعظَمُ النساء عِفَّةً وبُعدًا عن المَكروه، فإذا كان هذا الخِطابُ في مِثْل هؤلاء القَوْمِ لهؤلاءِ النِّساءِ، فما بالُكَ بمَن سِواهُم، إذا كان احتِمال تَدنُّس القَلْب بمُخاطَبة المرأة من دون حِجاب وارِدًا في مثل هؤلاءِ القَوْم، فما بالُكَ فيمَن دونَهم بمَراحِلَ لا في الزمَن ولا في الرُّتْبة؟! يَكون هذا أشدَّ وأَشَدَّ؛ ولذلك يُنكَر إنكارًا عظيمًا على مَن قال: إن الحِجاب خاصٌّ بأُمَّهات المُؤمِنين؛ فمِن أين الخُصوصية؟! فإذا كان الله تعالى علَّل بأنه أَطهَرُ لقُلوبهم، أي: قُلوب المُخاطَبين والمُخاطَبات، وهُنَّ -بلا شَكٍّ- أطهَرُ النساء وأَعفُّهُنَّ، وكذلك الذين يُخاطِبونهنَّ خيرُ الناس كما جاء في الحديث: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي»[1] فما بالُكَ بمَن دُونَهم؛ فاحتِمال تَنَجُّس القَلْب من مُخاطَبة المرأة بدون حِجاب فيمَن بعد الصحابة أَقرَبُ وأقربُ بكثير، وإذا كان هذا باعتِبار الصحابة مع زوجاتِ الرسول ﷺ فغَيرُهم مع نِساء دُونَهُنَّ بكثير من بابِ أَوْلى.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشهادات، باب لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد، رقم (٢٦٥٢)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، رقم (٢٥٣٣)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: [مِن الخَواطِر المُريبة] الخَواطِر التي تَرِدُ على القَلْب والخَواطِر التي تَرِد على القَلْب إذا لم يَطمَئِنَّ الإنسان إليها ويَستَرسِل معها فإنه لا يُعاقَب عليها؛ لأنها من حديث النَّفْس، بل هي ممَّا يَصُولُ عن النَّفس، والتَّحرُّز منها أشَدُّ؛ لأن الرسول ﷺ ثبَتَ عنه أنه قال: «إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهَا أَنْفُسُهَا مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ»[1]، فإذا كان هذا في حديث النَّفس، فما بالُك بما يَهجُم على النَّفْس بدون قَصْد؟ إذْ يَكون قصد العَفْو عنه من بابِ أَوْلى.

فالخَواطِر التي تَرِد على القَلْب إذا لم يَسْتَرْسِل معها الإنسان ويَطمَئِنَّ إليها فإنها لا تَضُرُّه، سواءٌ كانت هذه الخَواطِرُ فيما يَتعلَّق بجلال الله عَزَّوَجَلَّ أو فيما يَتعلَّق برَسوله ﷺ، أو فيما يَتعلَّق بشَهْوة النَّفْس وإراداتها، فإنها لا تَضُرُّ الإنسان بشَرْط ألَّا يَستَرْسِل، بل إن هذه الخَواطِرَ ما تَرِد إلَّا على قَلْب سَليم، يُهاجِم الشَّيْطان بها القَلْب حتى يُفْسِده؛ ولهذا لمَّا شَكا الصحابة إلى النبيِّ ﷺ مِثْل هذه الخَواطِر، قال: «أَوَجَدْتُمْ ذَلِكَ» قالوا: نعم. قال: «ذَلِكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ»[2]، يَعنِي: خالِصهُ؛ لأن الشيطان لا يَهجُم على قَلْب فاسِد، وإنما يَهجُم على القُلوب الصالِحة ليُفسِدها، ودواءُ ذلك أن تَستعيذَ بالله تعالى من الشَّيْطان الرجيم، وأن تَنتَهيَ، وأن تُثنِيَ على الله عَزَّوَجَلَّ بما هو أَهْلُه، فتَقول: الله أحَدٌ صمَدٌ لم يَلِد، ولم يُولَد، ولم يكن له كُفُوًا أحَد، استِجارةً بالله تعالى وانتِهاءً، ووصفًا لله تعالى بالكَمال، وبعد ذلك تَزول عنك شيئًا فشيئًا.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الطلاق، باب الطلاق في الإغلاق والكره، رقم (٥٢٦٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان، رقم (١٣٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ﴾ الخطاب للصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وكذلك مَن بَعدَهم من بابِ أَوْلى؛ (مَا كَانَ لَكُمْ)، ومِثْل هذه العِبارةِ تَدُلُّ على المُمتَنِع غايةَ الامتِناع؛ ولهذا قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ بشَيْء] ولم يُبيِّنها، يَعنِي: لا يَصلُح ولا يَستَقيم، ولا يُمكِن لكم أن تُؤذوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ومِثْل هذا التَّعبيرِ يَدُلُّ على امتِناع الشيء مثل قوله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ [المؤمنون:٩١] المَعنَى أن ذلك مُمتَنِع لا يَصلُح ولا يَستَقيم، فكلُّ مُؤمِن لا يُمكِن في حَقِّه ولا يَستَقيم ولا يَصلُح في حَقِّه أن يُؤذِيَ رسول الله ﷺ لا بالقول ولا بالفِعْل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾، وأَذِيَّة الرسول ﷺ من أعمال المُشرِكين، فهُمُ الذين يُؤذون الرسول ﷺ بالقَوْل وبالفِعْل.

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب:٥٣]، وهنا قال: ﴿أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾، وأوَّلُ آية يقول: ﴿النَّبِيِّ﴾ إشارةً إلى أن الرسول ﷺ شَرُفَ لعِظَمَ مَن أَرسَله وهو الله تعالى، فلمَّا كان رسول الله ﷺ فلا يُمكِن أن يُؤذَى؛ لأنه رسول من عِند الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، أَذِيَّة الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في حَياته ما يَتَّصِل بشَخْصه، وأَذِيَّة الرسول ﷺ بعد مَماته ما يَتَّصِل بسُنَّته، فإنه لا يَنبَغي ولا يَصلُح لأيِّ مُؤمِن أن يَقول في سُنَّة الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ على وَجْهٍ يَتأذَّى به الرسول ﷺ مثل رَدِّها وتَحريفها وما أَشبَهَ ذلك، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾.

إِذَنْ: هل نَجلِس مُستَأنِسين للحديث بعد الطَّعام، يَعنِي: في حقِّ الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؟

الجَوابُ: لا؛ لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ﴾، إِذَنْ: ما كان لنا أن نَجلِس ما دام فيه أَذِيَّةٌ للرسول ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا﴾ يَعنِي: وما كان لكم أن تَنْكِحوا أزواجَه من بعدِه أبدًا؛ وقوله تعالى: ﴿تَنكِحُوٓاْ﴾ المُراد بالنِّكاح هنا العَقْد، يَعنِي: لا يُمكِن أن تَعقِدوا على أزواجه من بَعْده، وكلُّ نِكاح في القُرآن فإنه بمَعنَى العَقْد، خِلافًا لمَن قال: كلُّ نِكاح في القُرآن فهو بمَعنَى الوَطْء إلَّا قولَه تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء:٢٢]، والصَّوابُ: أن كل نِكاح في القرآن فإنه بمَعنَى العَقْد، وأمَّا مَن قال: إنه بمَعنَى الجِماع إلَّا في الآية هذه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ [الأحزاب:٤٩] فليس بصحيح.

وقوله تعالى: ﴿أَزْوَٰجَهُۥ﴾ تكون المَرأة زَوْجة للإنسان بالعَقْد عليها.

وقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ أي: من بعد مُفارَقته لها، ومُفارَقة النبيِّ ﷺ لها تكون بالحياة وتكون في الموت، والمُفارَقة في الحَياة تكون قبل الدُّخول وبعد الدُّخول، فهاهنا ثلاثُ حالات:

الحالُ الأُولى: مَن فارَقَها بمَوْته، فهذه لا تَحِلُّ لأَحَد من بعده بالإِجْماع، ولم يُخالِف في ذلك أَحَدٌ.

الحال الثانِية: مَن فارَقها في حياته بدون دُخول، فهذه تَحِلُّ، ولا نِزاعَ فيها كما ذكَره ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ في التفسير(١).

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٤٠٣).

الحال الثالِثة: مَن فارَقَها في حياته بعد دُخوله بها، فهذه مَوضِع خِلاف بين أَهْل العِلْم.

فمِنهم مَن قال: إنها تَحِلُّ. ومِنهم مَن قال: إنها لا تَحِلّ. وعلى هذا الرأيِ الذي يَقول: إنها لا تَحِلُّ؛ يَقول: إنه يَصْدُق عليها أنها زَوْجته، وأنها من بعده، ولولا أنَّ مَنْ عَقَدَ عليها ثُمَّ فارَقها قبل الدُّخول لولا الإجماعُ لقُلنا أيضًا لا تَحِلُّ لمَن بعدَه.

فصارتِ الأَحوالُ ثَلاثةً: مَن فارَقها بموته فهذه لا تَحِلُّ بالإجماع، ومَن فارَقها في حَياته قبل الدُّخول بها فهذه جائِزة تَحِلُّ لغيره، قال ابنُ كَثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا نِزاعَ في ذلك. ومَن فارَقها في حَياته بعد الدُّخول بها ففيها خِلاف بين العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ، منهم مَن قال: إنها تَحِلُّ. ومِنهم مَن قال: إنها لا تَحِلُّ.

فائِدةٌ: لا نَعلَم أن أحَدًا تَزوَّج زوجة للرسول ﷺ بعدَ الدُّخول بها.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ﴾ المُشار إليه: إيذاءُ النبيِّ ﷺ ونِكاحُ زوجاته مِن بَعدِه.

وقوله تعالى: ﴿كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾: ﴿كَانَ﴾ هنا مُسلوبة الدَّلالة على الزمَن، والمُراد إثبات عِظَم ذلك عند الله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾، وفي كَوْن هذا الأمرِ عَظيمًا عند الله عَزَّوَجَلَّ دليلٌ على حِماية الله عَزَّوَجَلَّ لرسوله ﷺ، ولا سيَّما فيما يَتعلَّق بالنِّكاح؛ ولهذا قال الله في قِصَّة الإِفْك: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور:١٥].

فهُنا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ عَظيمًا أي: في إِثْمه وجُرْمه.

وعلى هذا فالعِظَمُ مَعناهُ: عِظَم الشيء، يَعنِي: كِبَره، وهو شامِل لما يَكون مَدْحًا، ولما يَكون ذَمًّا، فهنا كان عند الله عَظيمًا في إِثْمه قال: [فيُجازِيكم عليه] على حسَب الذَّنْب الذي قُمْتم به؛ لأن الجَزاء من جِنْس العمَل، ونِكاح زَوْجات الرسول ﷺ من بَعدِه عَظيم عن الله تعالى.

وقد حذَّر تعالى من مُخالَفة ذلك في قوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ﴾ [الأحزاب:٥٤]، والجُمْلة هُنا شَرْطية و﴿شَيْـًٔا﴾ نكِرة في سِياق الشَّرْط، فتكون دالَّةً على العُموم: ﴿إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [في نِكاحِهِنَّ بَعدَهُ]، والصَّوابُ في الآية عدَمُ التَّقييد، وأنها عامَّة في كل شيء، في نِكاح زوجات النَّبيِّ ﷺ بعده وفي غَير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ يَعنِي: فلا تُظهِروه لأَحَد، تُخفُوه في أَنفُسكم، أو تُخفوه فيما بينكم وبين أقارِبكم؛ لأن الإِخْفاء أو الإِظْهار أمرٌ نِسبيٌّ، أَشَدُّه ما أَخفاه الإنسان في نَفْسه، ثُمَّ ما أَظهَره لذَوِيه وأصحابه وأَخْفاه عن غيره، ثُمَّ ما أَظهَره لأهل بلَده، ثُمَّ ما أَظهَره لعُموم الناس، وأيًّا كان فإن كل ما أَبداه الإنسان أو أَخفاه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٤].

وقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ الجُملة هنا جَواب الشَّرْط، واقتَرَنَت بالفاءِ؛ لأنها جُملة اسمِيَّة، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ فهي جُملة اسمِيَّة وإن قُرِنت بـ(إنَّ) الدالَّة على التَّوْكيد، ووجهُ ارتِباطها بما قَبْلها -أي: بفِعْل الشَّرْط-: أنه إذا كان الله تعالى عالِمًا به، فسَوْف نُجازِيكم عليه؛ إن خَيرًا فخَير، وإن شرًّا فشَرٌّ.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ أنه لا يَحِلُّ لأحَد من المُؤمنين أن يَدخُل بُيوت النَّبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إلَّا بالشُّروط المَذكورة؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُواْ﴾، والأصل في النَّهيِ التَّحريم حتى يَقوم دليلٌ على أنه لغَيْر التَّحريم، ويُؤيِّد التَّحريم هنا أن هذا يَتعلَّق بحقِّ الآدميِّ، وما كان مُتعلِّقًا بحَقِّ الآدميِّ فإنه لا يُسامَح فيه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن الإضافة تَكون لأَدْنى مَلابَسة؛ فإضافة الشيء إلى الشيء تَكون لأَدْنى مُلابَسة، سواءٌ كان ذلك على صِفة المِلْكِيَّة أو الاخْتِصاصيَّة أو الصُّحْبة أو القُرْب أو غير ذلك؛ ولهذا من قَواعِدهم المَعروفة: أنَّ الإضافة تَكون لأَدْنى مُلابَسة، لكن لا بُدَّ أن يَكون بين المُضاف والمُضاف إليه شيء من الارتِباط؛ تُؤخَذ هذه من قوله تعالى: ﴿بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ﴾؛ لأن إضافتَها إلى النبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ باعتِبارها مَأواه، وإلَّا فهي مِلْك لزوجاته على القولِ الراجِح.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الإِذْن بالدُّخول مُعْتَبر، سواء كان من صاحِب البَيْت أو مِمَّن أَنابَهُ؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾، ولم يَقُل: إلَّا أن يَأذَن لكم -أي: النبيُّ- فإذا أُذِن للإنسان للدُّخول سواءٌ كان من صاحِب البَيْت أو من خادِمه أو من ابنِه أو ما أَشبَه ذلك جاز الدُّخول، وهل يُستَفاد من جَواز الدُّخول إذا وَجَدْت الباب مَفتوحًا وقد كان بينَك وبين صاحِبك وَعْد؟

الجَوابُ: إن قُلْنا بأن الإِذْن العُرفيَّ كالإِذْن اللَّفظيِّ فهو مُستَفاد من ذلك، ويُؤيِّد هذا قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النور:٢٧]، فإن الاستِئْناس -وهو الاطْمِئْنان- يَشمَل الاستِئْذان

باللَّفْظ والاستِئْذان بالفِعْل والعُرْف.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنه يَجوز دُخول بُيوت النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بهذه الشُّروطِ: الإِذْن، وألَّا يَكون ذلك بانتِظار نُضْج الطعام؛ لما في المُفاجأة من الإيذاء؛ لأنه إذا نَضِج طعامُك ثُم جاء إنسان يَستَأذِن صار في هذا نوعٌ من الإيذاء؛ لأنك إن منَعْته شقَّ عليك، وإن أَذِنْت له شقَّ عليك أيضًا، فلهذا لا يَجوز الدُّخول لُمنتَظِر نُضْج الطعام.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: تَحريم التَّطفُّل؛ لأن الطُّفَيْليَّ عادَتُه أنه يَنتَظِر متى يُقدَّم الطعام، فإذا قُدِّم الطعام استَأذَن أو هجَم هُجومًا بدون استِئْذان؛ لأنه قَبْل أن يَنضَج الطعام ويُقدَّم يُمكِن أن يَدخُل، ثُم يُقال له: اخْرُجْ. لكن بعد أن يُقدَّم الطعام لا بدَّ أن يَأكُل.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: مَشروعية إجابة الدَّعوة؛ لقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا﴾، وهل يُستَفاد منها دُخول الإنسان المَدعوِّ وإن لم يُؤذَن له إذا وَجَد الباب على هَيْئة تَدُلُّ على الإِذْن؟

الجَوابُ: نعَمْ، وهو واضِح؛ لأنه تعالى قال: ﴿إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا﴾ ولم يَقُل: إذا دُعيتم فأَجيبوا، والدُّخول أخَصُّ، وعلى هذا فإذا كنتُ مَدعُوًّا وحَضَرْتُ إلى الباب فلي أن أَدخُل إذا علِمْنا بالقَرينة أن الباب قد وُضِعَ مَوضِع الإِذْن، كما لو كان مَفتوحًا.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن الإنسان يَنبَغي له إذا قضَى حاجته من الطعام أن يَنصَرِف؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا﴾، وهذا كما أنه في بُيوت النبيِّ ﷺ فهو أيضًا في بُيوت غيره.

فإن الأَفضَل لَمن دُعِيَ إلى طعام أنه إذا طَعِم أن يَنْتَشِر؛ لأن بَقاءَه قد يَشُقُّ على

صاحِب البَيْت؛ ولأن الحاجة التي جاء من أَجْلها قد انتهَت، وإذا تَأمَّلْت الشريعة وجَدت أن الإنسان من حُسْن أدَبه وسُلوكه أنه كلَّما فرَغ من حاجته التي يُريد: ينتَهي منها ويَنصَرِف إلى حاجاتٍ أخرى؛ ولهذا قال النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في المُسافِر: «إِذَا قَضَى حَاجَتَهُ فَلْيَعْجَلْ إِلَى أَهْلِهِ وَلَا يَنْتَظِرْ»[(١)].

ولو أننا حَفِظْنا أوقاتَنا بِمِثْل هذا الأدَبِ لكانت أَوْقاتُنا مُبارَكةً، لكن تَجِدنا نُضيِّع أَوْقاتَنا، ولَسْنا نُراعِي هذه الحالَ، أنه كلَّما انتَهَى الشُّغْل لا نَنتَظِر، بل نَمشِي إلى شُغْل آخَرَ، كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ [الشَّرح:٧-٨]، فلا تُضيِّع الوقتَ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن مَن دخَل بُيوت النبيِّ ﷺ بدَعوة، ثُمَّ طَعِمَ فإنه لا يَجلِس للحديث؛ لقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾، وهذا فَوْق قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟﴾؛ لأن ذلك أَمْر، أمَّا هذا فنَهيٌ، يُنهَى أن يَبقَى هؤلاءِ المَدعُوُّون مُستَأنِسين للحديث بعد فَراغهم من الطعام.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أن هذا الحُكمَ إنما يَكون في حال تَأذِّي صاحِب البيتِ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ﴾ أمَّا إذا كان لا يَتأذَّى به بل يُسَرُّ به، بل قد يَكون بطلَبه، فإذا فرَغ من الطعام قال: انتَظِروا، اجلِسوا نَستَأنِس، ونَتحدَّث، فإن هذا ليس مَنهيًّا عنه، بل جائِز، ولا بأسَ به؛ لأن القاعِدة عند أهل العِلْم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: أنَّ الحُكْم يَدور مع عِلَّته وُجودًا وعدَمًا، فإذا وُجِدَتِ العِلَّة وُجِد المعلول، وإذا انتَفَتِ العِلَّةُ انتفَى المَعلول.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب العمرة، باب السفر قطعة من العذاب، رقم (١٨٠٤)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب السفر قطعة من العذاب، رقم (١٩٢٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أن النبيَّ ﷺ كغَيْره من البشَر يتَأذَّى كما يتَأذَّى غيره؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ﴾، لكنه يختَلِف عن غيره في قُوَّة صَبْره وتحمُّله ﷺ، بخِلاف غيره من البشَر فإن غيرَه لا يَصبِر ويَسأَم ولا يَتحمَّل كما يَتحمَّل النبيُّ ﷺ؛ ولهذا كان الرسولُ ﷺ يَتأذَّى من بَقائِهم مُستأنِسين لحَديث ولا يَنهاهُم حتَّى نَهاهُمُ الله عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: عِناية الله عَزَّوَجَلَّ بنَبيِّه ﷺ وذلك بالدِّفاع عن كل ما يُؤذِيه بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: كمال حَياء الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وكَرَمه؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ﴾، وإنما كان يَستَحيِي لشِدَّة حَيائِه، فإنه كما وُصِف: أَحْيَى من العَذراء في خِدْرها[1]، و«الحَيَاءُ مِنَ الْإِيمَـانِ»[2] كما ثبَتَ به الحديث عن النبيِّ ﷺ، وهو أيضًا دَليل على كرَمه؛ لأن الكريمَ يَستَحيِي أن يُخجِل أَضيافه بقَوله: اخرُجوا! أو يُخجِلهم بالتَّبرُّم مِنهم والتَّكرُّه لتَصرُّفهم؛ فلهذا كان الرسول ﷺ يُعامِلهم وكأنه مَسرور منهم حتى بيَّن الله تعالى ذلك للصَّحابة.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: أن القُرآن شامِلٌ لكلِّ شَيْءٍ، يَعنِي حتى آداب الدُّخول والجُلوس والطَّعام وما أَشبَـه ذلك قد بيَّنه القُرآن، فيَكـون في ذلك إيضاحٌ؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل:٨٩].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ، رقم (٣٥٦٢)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب كثرة حيائه ﷺ، رقم (٢٣٢٠)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب الحياء من الإيمان، رقم (٢٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب شعب الإيمان، رقم (٣٦)، من حديث ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

ودَلالةُ القُرآن على الأشياءِ نَوْعان:

دَلالة عَيْنِيَّة: بمَعنى أنها تَدُلُّ على الشيءِ بِعَيْنه وهذا واضِح.

ودَلالة شُمول: لَفْظيٌّ أو مَعنَوِيٌّ.

فالشُّمول اللَّفظيُّ: بمَعنَى أنه يَكون اللَّفْظ عامًّا في صِيغته يَشمَل كلَّ ما يَحتَمِله ذلك اللَّفظُ من المَعنى.

والعُموم المَعنويُّ: هو ما يُعرَف عند أهل العِلْم بالقِياس؛ لأنه يَكون المَقِيسُ والمَقِيسُ عليه مُتَّفِقَيْن في العِلَّة، فيَكون بينهما عُموم في المَعنَى.

فدَلالة القُرآن على هذا الشيءِ تَكون على هذا الوَجْهِ، إمَّا دَلالة لَفْظية، وإمَّا دَلالة مَعنَويَّة بالشُّمول اللَّفْظيِّ أو المَعنَويِّ.

وهُناك أيضًا دَلالة الالتِزام وهي مُتفَرِّعة أو داخِلة فيما ذكَرنا من الدَّلالتين.

فإن قُلت: يَرِدُ عليك أنه لا يُوجَد في القُرآن مِقْدار أَنصِبة الزكاة ولا مِقْدار الواجِب، ولا يُوجَد عدَد الركعات، ولا مِقْدار ما يُسَنُّ فيها من الذِّكْر، فما هو الجوابُ؟

فالجَوابُ: أن السُّنَّة قد بَيَّنت ذلك، وقد أمَرنا الله تعالى في كِتابه أن نَأخُذ بما جاء عن رسول الله ﷺ، فقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر:٧]، فقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ﴾ يَشمَل ما آتانا من المال، وما آتانا من العِلْم، والعِلْم يُسمَّى إيتاءً، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ﴾ [الروم:٥٦]، فكما أن إِعْطاء المال يُسمَّى إيتاءً فإعطاء العِلْم أيضًا يُسمَّى إيتاءً، فقَوْله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ [الحشر:٧] يَشمَل ما آتانا من المال وما آتانا من

العِلْم، وكذلك قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب:٣٦]؛ وكلُّ هذا يَدُلُّ على أن ما جاءت به السُّنَّة فهو ممَّا جاءَ به القُرآن.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: وَصْفُ الله تعالى بالحَياء؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ وَجهُ الدَّلالة أنه لو كان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يُوصَف بالحَياء ما صَحَّ أن يُنفَى عنه الحَياء في حال من الأَحْوال دون الحال الأُخرى، وعلى هذا فتكون الآية دَليلًا على أن الله تعالى مَوصوف بالحَياء، ولكن حَياء الله تعالى ليس كَحَياء الإنسان؛ لأن الله تعالى يَقول في كتابه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: أن من الأُمور ما هو حقٌّ ومنها ما هو باطِل، فالحَقُّ في الأخبار هو: الصِّدْق، وفي الأَحْكام: العَدْل، والباطِل فيهما عَكْس ذلك، فالباطِل في الأَخْبار هو الكذِب، وفي الأحكام هو الجَوْر.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا ...﴾ أنه لا يَجوز سُؤال زوجات النَّبيِّ ﷺ شيئًا إلَّا من وراء حِجاب، والآية في ذلك صَريحة: ﴿فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةَ عَشْرَةَ: جَواز تَكليم زوجات النبيِّ ﷺ؛ وجهُه قوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوهُنَّ﴾، فأَباح الله تعالى سُؤالهُن، والسُّؤال هنا ليسَ فقَطْ سُؤالَ استِجْداء، ولكن سُؤال العِلْم من بابِ أَوْلى.

وهل يُستَفاد منه جَواز مُكالمَة النِّساء غيرِ زَوْجات الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؟

الجَوابُ: نعَمْ؛ يُستَفاد لأنه إذا جاز في زَوْجات الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مع ما

لَهُن من الاحتِرام والتَّعظيم ففي غَيْرهن من بابٍ أَوْلى، ولكنه يُشتَرَط في ذلك الأَمْن من الفِتْنة، فإن خِيفَتِ الفِتْنة من المُكلِّم أو من المَرأة كان ذلك حرامًا، وكذلك يُشتَرَط أَلَّا يَتمتَّع الإنسان بمُكالمة المرأة وإن لم يَكُن تَمتُّعَ شَهوة، يَعنِي: قد يَكون الإنسان مثلًا يَتمتَّع بمُخاطَبة المرأةِ ليس من الناحِية الجِنْسية الغَريزية، ولكنه يُحِبُّ أن يَستَمِرَّ معَها في الكَلام، فهذا أيضًا لا يَجوز، اللَّهُمَّ إذا كانت من محَارِمه، وأَراد أن يَتَحدَّث معها ليُؤنِسَها أو يَستَأنِس بها، فهذا لا بأسَ به.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ: أن الحِجاب المَذكور هنا ليس هو سَترَ الوَجْه فقَطْ، بل هو شيء فَوْق ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾، ولم يَقُل: مُتحَجِّبات، وهذا يَدُلُّ على أنها الحِجاب مُنفَصِل وليس من ثِياب المرأة، بل هو شيء مُنفَصِل، مثل أن تَكون في خِدْرِها فيَتحَدَّث الناس إليها.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةَ عَشْرَةَ: ثُبوت تَعليل الأحكام الشَّرْعية؛ تُؤخَذ من قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ﴾، ومِن قوله تعالى فيما سَبَق: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ﴾.

الْفَائِدَةُ العِشْرُونَ: أنه يَجِب على المَرْء أن يَسعَى في كل ما فيه تَطهير قَلْبه، وأن يَبتَعِد عن كل ما فيه تَدنيسُ قَلْبه؛ لأنه عَلَّل الأمر بالحِجاب؛ لكونه أَطهَرَ للقُلوب، ولا فرقَ في ذلك بين طَهارة القَلْب من الأخلاق الرَّذيلة كالزِّنا واللِّواط أو طَهارته من الاعتِقادات الفاسِدة أو الإرادات السَّيِّئة؛ فكلُّ هذا يَجِب على المَرْء أن يُطهِّر قلبه مِنه، وأن يَبتَعِد عن كل ما يُدَنِّس قَلْبه من ذلك.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةُ وَالعِشْرُون: أن الفِتْنة في مُخاطَبة النِّساء قد تَكون من الرجُل وحدَه ومن المرأة وحدَها، ومنهما جميعًا؛ لقوله تعالى: ﴿لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾؛ فقَدْ يَكون الرجُل هو الذي يَتلَذَّذ بمُخاطَبة المرأة، والمرأة ليس على بالها هذا الأمرُ ولا اهتَمَّتْ

به، ولا فكَّرَتْ في هذا المَوْضوعِ، لكن هو يَتلذَّذ بهذه المُخاطَبةِ، فيكون الدَّنَس في قَلْب الرَّجُل، وقد يَكون الأمر بالعكس، تَتحدَّث المرأة إلى الرجُل وهي تَتلذَّذ بهذه المُخاطَبةِ والرجُل ليس على باله هذا الأَمرُ، فيَكون هنا الدَّنَس في قَلْبها هي، وقد يَكون من الطرَفَيْن فيَكون الدَّنَس في قلبَيْهما جميعًا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ وَالعِشْرُونَ: تَحريم نِكاح زوجات النبيِّ ﷺ بعده؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ وَالعِشْرُونَ: أن التَّحريم فيهن مُؤبَّد؛ لقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًا﴾، وعلى هذا فالمُحرَّماتُ إلى الأَبَد: مُحرَّمات بالنَّسَب، وبالرَّضاع، وبالصِّهْر، وبالمُلاعَنة، وبالاحتِرام؛ فهذه خمسة أَنْواع.

أمَّا المُحرَّمات بالنَّسب فسَبْع، ذُكِرْنَ في قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُمۡ وَعَمَّٰتُكُمۡ وَخَٰلَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُ ٱلۡأَخِ وَبَنَاتُ ٱلۡأُخۡتِ﴾ [النساء:٢٣].

وبالرَّضاع في قوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾ [النساء:٢٣]، وقول النبيِّ ﷺ: «يَحْرُمُ مِنَ الرَّضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ»(١).

وبالصِّهْر في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَمَقۡتٗا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [النساء:٢٢]، وفي قوله تعالى: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَإِن

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشهادات، باب الشهادة على الأنساب، رقم (٢٦٤٥)، ومسلم: كتاب الرضاع، باب تحريم ابنة الأخ من الرضاعة، رقم (١٤٤٧)، من حديث ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾ [النساء:٢٣].

والمُحرَّماتُ باللِّعان هو: أن الرَّجُل إذا قذَف امرأته بالزِّنا ولم تُقِرَّ به ولم يَثْبُت ببيِّنة فإنه يُلاعِنها، فإذا تَمَّ اللِّعان حُرِّمت عليه على التَّأبيد.

وأمَّا المُحرَّمات إلى الأَبَد بالاحتِرام، فهن زَوْجاتُ النبيِّ ﷺ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ وَالعِشْرُونَ: عِظَم إِثْم مَن تَزوَّج واحِدة من زوجات الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من بعده؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ وَالعِشْرُونَ: أن الذُّنوب تَتَفاوَت في العِظَم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾، وهو كذلك، فإن في الذُّنوب كبائِرَ وصغائِرَ، والكبائِرُ فيها ما هو أكبَرُ وما هو دون ذلك، والصغائِرُ كذلك تَختَلِف، وكذلك الطاعاتُ تَختَلِف منها ما هو من أُصول الإيمان والإسلام، ومنها ما هو دون ذلك.

وهل يُستَفاد من الآيةِ الكَريمة أنه لا يَنبَغِي للضَّيْف أن يَسأَل عن طعام المُضيِّف إذا قدَّمه له، فيَقول مثَلًا -لو قُدِّم له دَجاج-: هذا الدَّجاجُ مُستَوْرَد أو غيرُ مُستَوْرَد؟

الجَوابُ: قال تعالى: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟﴾ فلم يَأمُرِ الله تعالى بالسُّؤال عن الطَّعام، وهو كذلك، فإنه ليس من المَشروع ولا من الأَدَب أيضًا أن تَسأَل صاحِبَك الذي قدَّم لكَ الطَّعام، وتَقول: من أين هذا؟ وهل هو حَلال أو حَرام؟! لأن هذا خِلاف هَدْيِ النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فالنَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَدَّمت له امرأةٌ من اليَهود

شاةً فأَكَلَ منها[١] ولم يَسأَل، ودعاه يَهودِيٌّ إلى طعام فأَكَل مِنه[٢] ولم يَسأَلْ، ثُمَّ إنك إذا سَأَلْت أَخجَلْت صاحِبك، رجُل أَكرَمك بالضِّيافة تَقول له: من أين هذا؟ هل من المَشروع أو من المُستَوْرَد؟ وإذا فتَحْنا هذا البابَ نَقول: أصل هذا الطَّعام من أين جاءَكَ؟ فيُمكِن أنه غاصِبُه أو سارِقه! وإذا انتَفَى هذا فيُمكِن أن هذا الرجُلَ له كَسْب حَرام، فلا نَدرِي عنه! فنَقول له: من أين جاءَكَ؟ يَقول: هذا شَرَيْته من السُّوق. نَقول له: هاتِ شُهودًا أنك شارِيه؟ فهذه مُشكِلة! إذا فتَحْنا هذا البابَ انفتَح علينا أبوابٌ كثيرة؛ ولهذا كانت من حِكْمة الشَّرْع أن الإنسان لا يُشرَع له السُّؤال أبدًا مهما كان، حتى لو كان الذي قَدَّم لك الطعام يَهوديًّا أو نَصرانيًّا فلا تَسأَلْه عن الطعام؛ لأن هذا من التَّعنُّت والتَّعمُّق، وفيه إشقاق على صاحِبك وإشقاق على نَفْسك؛ لأنك إذا عَوَّدت نَفْسك أنك لا تَأكُل إلَّا بعد البَحْث فمَعناه: كل شيء تَأكُله تكون شاكًّا فيه، والحَمْدُ لله تعالى على السلامة.

فإن قال قائِل: أَلَا يُسْأَل عن لَحْم البَعير؟

فالجَوابُ: أبدًا، ولا يُسأَل عن لَحْم البَعير؛ أوَّلًا لأن لَحْم البَعير في الغالِب أنه معروف، إلَّا إذا كان (حاشي صغير)[٣]، والإنسان هذا ما تَمَرَّن في أَكْل اللَّحْم مُمكِن يَشْتَبِه عليه.

فإن كان الشَّخص مَريضًا فربما يَسأَل لأجل دَفْع الضَّرَر، وليس لأَجْل التَّعمُّق،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الهبة، باب قبول الهدية من المشركين، رقم (٢٦١٧)، ومسلم: كتاب السلام، باب السم، رقم (٢١٩٠)، من حديث أنس رَضِيَاللَّهُعَنْهُ.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٣/ ٢١١)، من حديث أنس رَضِيَاللَّهُعَنْهُ.

(٣) هو الجمل صغير السن.

فمثَلًا إذا كان قد قِيل له: لا تَأكُل لَحْم الإبِل، وشَكَّ في هذا: هل هذا لَحْمُ إبِلٍ أم لا؟ فهذا قد نَقول له: إنَّ السُّؤال لا من أَجْل الحِلِّ أو من أَجْل: هل يَجِب عليه الوُضوء أو لا يَجِب؟ فهذا لدَفْع الضَّرَر لا بأسَ به.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ وَالعِشْرُونَ: تَحريم أَذِيَّة الرسول ﷺ وامتِناعه أشَدَّ الامتِناع من المُؤمِنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾، فالإشارة إلى امتِناع ذلك -أي: امتِناع الأَذِيَّة- لكونه رَسولًا من عند الله تعالى امتَنَع غايةَ الامتِناع من المُؤمِنين أن يُؤْذوه.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ وَالعِشْرُونَ: أَنَّ تَشَوُّفَ الشَّرْع إلى ما يَكون سببًا لطهارة القلوب؛ لقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ وَالعِشْرُونَ: أنه إذا أَوْجَب الله تعالى في ذلك العَصْرِ ما يَكون سبَبًا لكمال طَهارة القُلوب، ففي عَصْرنا من بابِ أَوْلى، فكل ما يَكون سببًا لطَهارة القُلوب، وبعدها عن دَناءة الأَخْلاق، فإنه يَكون واجِبًا.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ وَالعِشْرُونَ: وتَعليقًا على ما سَبَق من قَرْن الأحكام بحِكَمِها نَقول: إن من فَوائِدِ ذلك: طُمَأْنينة الإنسان للحُكْم، وبَيان سُمُوِّ الشريعة، وأن أَحكامها ليسَتْ لَهْوًا ولا باطِلًا، وإلحاق ما وافَق الحُكْم في عِلَّته بحُكْمه، يَعنِي: نُلحِق بهذا الحُكْمِ ما وافَقه في تِلْكَ العِلَّةِ.

الْفَائِدَةُ الثَّلَاثُونَ: عُموم عِلْم الله تعالى بكُلِّ شيء؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةُ وَالثَّلَاثُونَ: تَحذير المُكلَّف من مُخالَفة الله عَزَّوَجَلَّ بقَليل أو كثير؛

لأن الفائِدة من ذِكْر عِلْمه هو التَّحذيرُ من المُخالَفة.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ وَالثَّلَاثُونَ: الرَّدُّ على القَدَرية على غُلاة القَدَرية المُنكِرين لعِلْم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأَفْعال العَبْد؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ إذا إنه يَشمَل ما سيَفعَله الإنسانُ وما قد فعَله.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ وَالثَّلَاثُونَ: أن ما يَفعَله العَبْد من خَيْرٍ أو شَرٍّ فإنه مُحاسَب عليه، إمَّا له وإمَّا عليه؛ لعُموم كلِمة: ﴿شَيْءٍ﴾، وفي آيةٍ أُخرى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ﴾، لكِنَّ هذه الآيَةَ أعمُّ.

• ● ۞ ● •

الآية (٥٥)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ شَهِيدًا﴾ [الأحزاب:٥٥].

•●●•

قوله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ﴾ الضَّمير في قوله تعالى: ﴿عَلَيْهِنَّ﴾ يَعود على زَوْجات الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الذي قال الله تعالى في حقِّهنَّ: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾، فكأنَّ هذه الآيةَ استِثْناءٌ ممَّا سبَق ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾؛ حيثُ إن الآيـةَ ﴿سَأَلْتُمُوهُنَّ﴾ تشمَل المَحارِمَ وغيرَهم، فاستَثْنى المَحارِم فقال تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ﴾.

والجُناح بمَعنَى: الإِثْم؛ أي: لا جُناحَ عليهنَّ أن يَبرُزنَ لآبائهن، وأن يَسألَهُن آباؤهنَّ بدون حِجاب، وهذا كقوله تعالى في سُورة النُّور: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ...﴾ [النور:٣١].

وقوله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ﴾ وآباء: يَشْمَل الآباء من جهة الأُمِّ والآباء من جهة الأبِ؛ فالجَدُّ من جِهة الأُمِّ في باب النِّكاح كالجَدِّ من جِهة الأبِ، ولقد كان الناس يَسأَلون كثيرًا عن أَبِي الأُمِّ هو مَحْرَم لزوجة ابنِ ابنَتِه أم لا؟

والجَواب: يَكون مَحْرَمًا؛ لأن باب النِّكاح لا يُفرَّق فيه بين الأُبوَّة من جِهة الأُمِّ

والأُبُوة من جِهة الأبِ، فليس كالإِرْث، فأَبُو الأُمِّ لا يَرِث بخِلاف أبِي الأبِ، لكِنَّ أَبا الأُمِّ في باب النِّكاح كأبِي الأب، فقوله إِذَن: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ﴾ يَشمَل الأَجداد من جِهة الأبِ ومن جِهة الأُمِّ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ﴾ يَعنِي: أبنائِهن من الصُّلب وأبنائهن من البَطْن أي: أبناء الأبناء وأبناء البَنات وإن نزَلوا، وفي هذه الحالِ يَكُنَّ جَدَّاتٍ لهؤلاء الأبناءِ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ﴾ يَعنِي: ولا جُناح عليهنَّ في إخوانهم؛ سواءٌ كانوا أَشِقَّاءَ أَمْ لأبٍ أَمْ لأمٍّ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ﴾ يَعنِي: وإن نزَلوا.

وقوله تعالى: ﴿وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ يَعنِي: وإن نزَلوا، سواءٌ كانوا أَشِقَّاءَ أَمْ لأبٍ أَمْ لأمٍّ.

ولم يَذكُر: (ولا أبناء أَعمامِهِنَّ) لأنهم ليسوا مَحارِمَ، فأبناءُ الأعمام وأبناء العَمَّات وأبناء الأخوال وأبناء الخالات لَيْسوا مَحارِمَ، لكن لم يُذكَرِ العمُّ والخال مع أن العمَّ والخال مُحرَّم ولم يُذْكَرا في هذه الآيةِ ولا في آية النُّور أيضًا: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾، فلم يُذكَر العمُّ ولا الخال، وهنا كذلك لم يُذكَر العمُّ ولا الخالُ مع أن العمَّ والخال مَحارِمُ؟!

الجَوابُ: أَبدَى بعض العُلَماء رَحِمَهُمُاللَّهُ مُناسَبَة في هذا وقالوا: إنه لم يُذكَر لا لأنه يَحْرُم إبداءُ الزينة لهما، ولكن لبَيان التَّحرُّز منهما؛ لئَلَّا يَصِفْن المرأة لأَبنائِهن؛ لأن أبناء العَمَّ والخال يَجوز أن يَتزوَّجوا بهنَّ، فلَمَّا كان يُخْشَى أن العمَّ والخال يَصِف المرأة لابنه لم يُذْكَرا للتَّحرُّز لا لمُخالَفة الحُكْم، وهذا التعليلُ له بعض الوَجْه، والله أَعلَمُ بما أَرادَ.

وعلى كل حالٍ: إن كان هذا هو الحِكمةَ من عدَم الذِّكْر فله وَجْه، وإن لم يَكُن له الحِكْمة، فالله أَعلَمُ، ما وصَلْنا إلى الحِكْمة في ذلك.

ولا شَكَّ أنَّ قوَّة المَحْرميَّة في العَمِّ والخال أضعَفُ من قوَّتها فيمَن عَداهم، وإن كان ابنُ الأخ وابنَ الأُخت بالنِّسبة لعَمَّته وخالته الصِّلةُ بينهما مُتقارِبة مع العمِّ والخال، لكن ابن الأخت من الأخ والأُخْت فُرُوعُهما مَحارِمُ، فالعِلَّة التي قِيلت في العمِّ والخال مُنْتَفية فيهما، فيَقول: لا جُناحَ علينا في هَؤلاء، وفيما عَدا هؤلاءِ عليهن جُناح، يَعنِي: ما عدا هؤلاءِ من الأقارِبِ فإن عليهنَّ جُناح في عدَم التَّحجُّب منهم.

مَسأَلةٌ: الأخُ من الرَّضاع وابنُ الأخ من الرَّضاع وما أَشبَه ذلك ما ذُكِر في هذه الآيةِ، نَقول: صحيح ما ذُكِر؛ لكنه ذُكِر في قول الرسول ﷺ: «يَحْرُمُ مِنَ الرَّضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ»(١).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا نِسَآئِهِنَّ﴾، قال المُفَسِّر رَحِمَهُٱللَّهُ: [أيِ: المُؤمِنات] أي: ولا جُناحَ عليهنَّ في نِسائِهنَّ المُؤمِنات؛ لأن النِّساء أُضِيفت إلى ضمير المُؤمِنات، فيَكون مُضافًا من جِنْس المُضاف إليه، أي: ولا النِّساء المُؤمِنات؛ فللمرأة أن تَكشِف وجهها للمرأة المُؤمِنة، ومَفهومه: أن الكافِرة لا يَحِلُّ لها أن تَكشِف وَجهَها له، وأن

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشهادات، باب الشهادة على الأنساب، رقم (٢٦٤٥)، ومسلم: كتاب الرضاع، باب تحريم ابنة الأخ من الرضاعة، رقم (١٤٤٧)، من حديث ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

المَرأة الكافِرة بالنِّسبة للمَرْأة المُؤمِنة كالرجُل مع المرأة، وهذا أحَدُ القولين في هذه المَسألِة؛ على أن الإضافة هنا من باب إضافة المَوصوف إلى صِفته، بمَعنَى: أنها إضافة صِفة أي: ولا النِّساء اللاتي شارَكْنَهنَّ في الإيمان.

وعلَّلوا ذلك أيضًا بأن المَرأة الكافِرة لا يُؤْمَن مَن أن تُفْشِيَ ما تَراه من المرأة المُؤمِنة؛ لأنها ليس عندها إيمان يَرْدَعُها؛ وبِناءً على هذا القَوْلِ فإنه يَجِب على أُولئك الجَماعةِ الذين عندهم من الخَدَم الكافِرات يَجِب على نِسائهم أن يَحْتَجِبوا عن هؤلاءِ الخادِماتِ؛ لأنهنَّ كافِراتٌ، ونحن نَقول هذا -مع بالِغ الأسَف- أن يَكون لدى المُؤمِنين خدَمٌ من غير المُسلِمين؛ لأن معنى ذلك أن الرجُل أو المَرأة يَتصبَّح ويَتمَسَّى، وفي كل وقت يَنظُر بمِلْء عَيْنيه إلى مَن هو عَدوٌّ لله تعالى ولرسوله ﷺ وعَدُوٌّ له أيضًا، كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الممتحنة:١] ليس هو عَدوَّ الله تعالى فقَطْ، بل عَدوٌّ لله تعالى ولرسوله ﷺ وللمُؤمِنين؛ ولهذا الذي هو في بَيْتِه.

ومع ذلك -نَسأَلُ الله تعالى السلامة والعافِية- تَجِد هَؤلاء يَحتَضِنون مثل هؤلاءِ الكُفَّارِ غيرَ مُبالين بهِمْ وغيرَ مُبالين بكَوْنهم مُخالِفين لهم في الدِّين والعَقيدة والعمَل، بل إن بعضهم يَحتَضِنُهم فَرحًا بهم؛ لأن الشَّيْطان زيَّن لهم أنهم أَنصَحُ في العمَل وأَتقَنُ وأَجْلَدُ وأَصْبَرُ، وهذا من البَلِيَّة والمِحْنة التي امْتُحِن بها الناس في هذا الزمانِ ولا سيَّما في هذه الجَزيرةِ العرَبية مع قول الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَخْرِجُوا الْمُشْرِكِينَ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ»[1]، «وَأَخْرِجُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى مِنْ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد، باب هل يستشفع إلى أهل الذمة؟، رقم (٣٠٥٣)، ومسلم: كتاب الوصية، باب ترك الوصية لمن ليس له شيء، رقم (١٦٣٧)، من حديث ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

جَزِيرَةِ الْعَرَبِ»[1]، وهؤلاءِ بدَلَ أن يُخرِجوهم يَحتَضِنونهم.

ثُمَّ إنه لو لم يَكُن من مَضَرَّة هؤلاءِ الخدَمِ الكافِراتِ إلَّا أن هؤلاء -الذين يَقولون: إنهم مُسلِمون وهُمْ كما قالوا- تَذهَب عنهمُ الغَيْرةُ من نفوسهم وكراهة الكُفَّار، حتى يَكون هؤلاء كغَيْرهم كأنهم مُسلِمون؛ لأنهم يَألَفونهم ويَرَوْنهم ويُشاهِدونهم، وكما قيل: إذا كثُرَ الإِمساسُ قَلَّ الإِحْساس.

وهذه مَسأَلة خَطيرة جِدًّا، نَسأَل الله تعالى أن يُسلِّط ولاة الأُمور على مَنْعها من هذه البِلادِ؛ لأنه:

أوَّلًا: قد يَكون لا داعِيَ إلى وجود الخادِم في البيت.

ثانيًا: إذا دعَتِ الحاجة فلْتَكُن مُسلِمة، من الدوَلِ المُسلِمة الفَقيرة التي يَنتَفِع المُسلِمون بما يُدْفَع لهذه الخادِمِ من الأُجْرة، أمَّا أن يَجعَل كُفَّارًا يُؤخَذ من أُجورهم ما تُعْمَر به الكَنائِسُ وما يُقوَّى به دَعوة التَّنصير فإن هذا -لا شَكَّ عند التَّأمُّل فيه-: يَجِد هؤلاءِ القَوْمُ الذين يَستَخدِمون الكافِراتِ والكافِرين: أنهم مُخطِئُون خطأً عظيمًا فادِحًا إن كان لهم قُلوب.

فأمَّا إن كان قُلوبهم قد عمِيَت، ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦]، فيُمكِن أن قلوبهم قد مَرِضت وصَدَأَت من المَعاصي وعدَم المُبالاة وعدَم الغَيْرة، فلا يُحِسُّون بهذا الأَمرِ الخَطير، ولكن بلَغَني أن رجُلًا كان من أهل الخير وقدِ اغْتَرَّ ببعض هؤلاء الخَدَمِ، كان يَجلِس مع أولادِه ويُعلِّمهم مَبادِئ

---

(١) أخرجه البزار في مسنده رقم (٢٣٠)، من حديث عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ. وهو عند مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب إخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب، رقم (١٧٦٧)، بلفظ: «لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب».

الإسلام فقال لواحِد من الصِّغار: مَن ربُّك؟ قال: ربِّي عِيسى ابنُ مَريَمَ!! من أين جاء هذا الطِّفلُ وهو في عُشِّ المُسلِمين إلَّا من هذه الخادِمةِ، هذه الخادِمةُ قد تكون مَغرورة ومَخدوعة في بني قومها ولا تَعرِف إلَّا هذا، لكن هذا الطِّفلُ عاش بين المُسلِمين كيف لا يَعرِف إلَّا هذا؟! فهذا من الخَطَرِ العظيم بالنِّسبة لهؤلاء الخَدَمِ من الكُفَّار والكافِرات، نَسأَل الله تعالى السلامةَ.

المُهِمُّ: أن كثيرًا من أهل العِلْم رَحِمَهُمُ اللَّهُ يَقولون: إن مَعنَى قوله تعالى: ﴿وَلَا نِسَآئِهِنَّ﴾ أي: المُؤمِنات ولا النِّساء المُشارِكات لهُنَّ في الإيمان؛ لأن المُضاف من جِنْس المُضاف إليه.

وقال بعضُ العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ: المُراد بِنِسائِهنَّ ما كان من جِنْسهنَّ؛ أي: النِّساء اللاتي يُشارِكْنَهنَّ في الأُنوثة؛ فهو من باب إضافة الجِنْس إلى جِنْسه، وهذا القولُ هو مَذهَب الإمامِ أَحمدَ[1] رَحِمَهُ اللَّهُ المَشهورِ مِن مَذهَبه، وهو أَقرَب إلى الصواب؛ لأن تَعلُّق المرأة بالمرأة لا يَختَلِف باختِلاف الدِّين، وليس كتَعلُّق الرجُل بالمَرأة، فالصواب أن المُراد بِنِسائِهنَّ أي: النِّساء اللاتي من جِنْسِهِنَّ في الأُنوثة.

فإن قال قائِل: لماذا قُلْنا في الآية الأُولى: إن فيها مُستَثْنًى منه، وهمُ الرِّجالُ، وفي الآية الأُخرى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ﴾ أي: النساءِ؟

فالجَوابُ: لأن قوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ يَتعلَّق بشَيْئَين: سائِل ومَسؤول؛ ففي الأوَّل علَّق الخِطاب بالسائِل، وفي الثاني علَّق بالمَسؤول من باب التَّفنُّن، ولأَجْل أن يَشمَل هذا ما إذا كانت المسألةُ في سُؤال المَتاع وفي غيرِه.

---

(١) انظر: المغني (٧/ ١٠٥)، والشرح الكبير (٧/ ٣٥١).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ يَعنِي: ولا جُناح عليهنَّ في ما ملكَت أيمانُهنَّ، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِن الإماءِ والعَبيد].

قوله تعالى: ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ أي: ملكَتْـه مِلْكًا تامًّا لا مِلْكًا مُشتَـرَكًا، فلو كان عَبْدٌ بين امرأتَيْن، فإنه لا يَحِلُّ لواحِدة منهما أن تَكْشِف وجهَها له؛ وذلك لأنه ليس مِلْك لإِحْداهما، بل مِلْك لهما جميعًا، والآيةُ: ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾.

وقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ أَضاف المِلْك إلى اليمين؛ لأن الأَخْذ والإعطاء يَكون باليَمين غالِبًا، وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِن الإماءِ والعَبيد]، أمَّا قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِن العَبيـد] فظاهِـر، وأمَّا قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِن الإِماء] فبناءً على أن قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿نِسَآئِهِنَّ﴾ أيِ: المُؤمِنات]، فإذا كان للمَرأة أَمَةٌ كافِرة فلا يَلزَمها أن تَحتَجِبَ عنها؛ لأنها ممَّا ملكت يَمينُها، وكلُّ هؤلاءِ المُستَثْنَيْن كلُّهم مَحارِمُ إلَّا ما ملكَت أيمانُهن فلَيْسوا بمَحارِمَ؛ لأن التَّحريم فيهم إلى أَمَدٍ، والمَحرَمية إنما تَثبُت فيما إذا كان التَّحريم مُؤبَّدًا؛ ولهذا أُخْتُ الزوجة حَرام وليسَت بمَحْرَم، والمَملوكُ حرام على مَملوكته، ولا يَلزَمها أن تَحتَجِب عنه، ولكنه ليس بمَحْـرَم لها بدليل أنه إذا خـرَج عن مِلْكها لَزِمها أن تَحتَجِـب عنه؛ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ من الإِماءِ والعَبيـد أن يَروْهُنَّ ويُكلِّموهنَّ من غَيرِ حِجاب].

ثُمَّ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ﴾ فيمـا أُمِرْتُنَّ به] ﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ﴾ الواو حَـرْف عَطْف، و(اتَّقِيـنَ) فِعْل أَمْر، لكن حَـدُّ الفِعْل الياء، والنُّون فاعِلٌ، وهنا في الجُمْلـة الْتِفاتٌ من الغيبة إلى الخِطاب؛ فقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ﴾ هذا ضَمير غائِب، ﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ﴾ ضمير مُخاطَب، وقد ذكَرْنا أنه من فوائِد الالْتِفات: تَنبيهُ المُخاطَب؛ لأن الكلام إذا كان على نَسَق واحِد فقَدْ لا يَكون من الإنسان انتِباهٌ، فإذا اختَلَف النَّسَق

حصَل التَّنبُّه، ثُمَّ إن في الالتِفات هنا فائِدة أُخرى: وهي مُواجَهَتُهُنَّ بالأَمْر بتَقوى الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا الخِطابُ مُوجَّه لأَطهَر النِّساء على الإطلاق، وهنَّ زوجاتُ النبيِّ ﷺ: اتَّقِينَ الله تعالى أن تَرَيْن أحَدًا سِوى هؤلاء، أو أن يَراكُنَّ أحَدٌ سِوى هؤلاء، فإذا كان هذا الخِطابُ مُوجَّهًا إلى زوجات الرسول ﷺ وهُنَّ أطهَرُ النساء وأكرَمُهنَّ عِفَّةً، فما بالُك بمَن دونهنَّ؟! فإنه يُوجَّه إليهنَّ من الأمر بالتَّقوى أكثَرَ ممَّا يُوجَّه إلى نِساء النبيِّ ﷺ.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ لا يَخْفى عليه شَيْء]، وهنا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾؛ لأن الحِجاب وعدَمه ممَّا يُرى، فناسَب أن يَختِم الآية بذِكْر شهادة الله عَزَّوَجَلَّ على كل شيء تَحذيرًا من مُخالَفته بعدَم الاحتِجاب ممَّن يَجِب الاحتِجاب عنه.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنه لا يَجِب الاحتِجاب عمَّن ذُكِر في هذه الآيةِ؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن نِساء النبيِّ ﷺ مُكلَّفاتٌ، يَعنِي: يَلحَقهم التَّكليفُ كغيرهنَّ من النساء؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن المُحرَّمات في النِّكاح مَحارِمُ؛ لأن هؤلاءِ المَذكورين مُحَرَّمون في النِّكاح فهم مَحارِمُ، وهذه قاعِدةٌ: كُلُّ مَن يَحرُم في النِّكاح تَحريمًا مُؤبَّدًا فهن مَحارِمُ، وأمَّا مَن يَحرُم تَحريمًا إلى أمَدٍ فلَيْسوا بمَحارِمَ، وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ ليسوا بمَحارِمَ؛ لأن التحريم إلى أمَدٍ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنه لا يَجِب على المرأة أَنْ تَحتَجِبَ عن المَرأة؛ لقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا نِسَآئِهِنَّ﴾ وهل يُشتَرَط أن تكون مُؤمِنة؟ فيه قولان لأهل العِلْم، والراجِحُ أنه لا يُشتَرَط، وأنه ليس العِلَّةُ الكُفْرَ، وإنما العِلَّة الجِنْس، فما دامت من جِنْسها فإنها لا تَتَعلَّق بها كما يَتعلَّق الرجاء بالنِّساء.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: وُجوبُ تَقوى الله عَزَّوَجَلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ﴾ والعِناية بها حيث انتَقَل فيها من أُسلوب إلى آخَرَ للتَّنبُّه لها.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن الأمر المُوجَّه للإنسان بالتَّقوى لا يَعنِي أنه غير مُتَّقٍ، إذ قد يُراد به الأمر بالاستِمرار على التَّقوى، ويَدُلُّ لذلك أيضًا قوله في أوَّل السورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ مع أن بعض الناس لو تَقولُ له: يا أَخي اتَّقِ الله. لاشتاط غضَبًا، وقال: أنا لن أتَّقِيَ. فيُقال له: إن الله تعالى أمَرَ نَبيَّه ﷺ وهو أَتقى مِنك بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾، وهذه ﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ﴾ أَمْرٌ لِنساء النبيِّ ﷺ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: تَحذير الإنسان من مُخالَفة تَقوَى الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ فإن خالَفْتُن ولم تَتَّقِين الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى فالله تعالى شَهيد عليكن.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: إثبات اسمِ الشَّهيد لله تعالى، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾، والشَّهيد مَعناه: هو الحاضِر الذي لا يَغيب، المُطَّلِع الذي لا يَخْفى عليه شيء، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حاضِر لا يَغيب، لكن ليس حاضِرًا بمَعنَى أنه في الأرض، بل هو في السَّماء على عَرْشه، وهو مُطَّلِع لا يَخْفَى عليه شيء.

مَسألة: المَقتول في المَعرَكة يُطْلَق عليه شَهيد؛ وتَقدَّم أن مَعنَى الشَّهيد: الذي لا يَغيب، فما الوجه بينه وبين شَهيد المَعرَكة؟

الجَوابُ: الشَّهيد في المَعرَكة؛ لأن عَرْضَ نَفْسِه للقَتْل دليلٌ على شهادته الفِعْلية بصِحَّة ما هو عليه، أو أن مَعناه: الشَّهيد الذي تَشهَده مَلائِكة الله تعالى المُقرَّبون وما أشبَهَ ذلك، والمَعنَى الأوَّل أَوضَحُ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: عِناية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى برسوله مُحمَّد ﷺ، وذلك بتَوْجيه هذه الإرشاداتِ إلى نِسائِهِ.

الآية (٥٦)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ [الأحزاب:٥٦].

• • • •

ثُمَّ قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ﴾ إن الله ومَلائِكته هذا خَبَر مُؤَكَّد بـ﴿ إِنَّ ﴾ ، وعَطَف المَلائِكة على الله عَزَّوَجَلَّ بالواو؛ لأنهم مُشارِكون لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بهذا الفِعْلِ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ ﴾، المَلائِكة تَقدَّم أنهم جَمْع مَلَكٍ، وأن أَصْل المَلَك (مَأْلك) من الأَلوكة وهي الرِّسالة، ولكنها حصَل فيها إعلال بالتَّقديم والتَّأخير، فصارت بدَل (مَأْلَك)، فصارت (مَلْأَك)، ثُمَّ حُذِفت الهَمْزة للتَّخفيف لكَثْرة الاستِعْمال، فصارت مَلَك، أَمَّا الجَمْع فإنها رُدَّت الهَمْزة وقِيل فيها: مَلائِكة.

واشتُقَّ المَلَك من الأَلوكة، والأَلوكة في اللُّغة بمَعنَى: الرِّسالة، والمَلائِكة رُسُل، فأَصلُها إِذَنْ: مَأْلَك يَعنِي: من الأَلوكة، ثُمَّ أُعِلَّ بالتقديم والتأخير فصارت مَلْأَك، ثُمَّ حُذِفَتِ الهَمزة للتَّخفيف؛ لكَثْرة الاستِعْمال، ونُقِلت حرَكتُها إلى اللام فصارت (مَلَك)، أَمَّا الجَمْع فمَلائِكة.

فالمَلائِكة همُ الذين جعَلهمُ الله تعالى رُسُلًا، وهم عالَمٌ غَيْبيٌّ، مخلوقون من نور، مُمتَثِلون لأمر الله عَزَّوَجَلَّ، قائِمون بعِبادته آناء الليل والنَّهار، كما ذكَر الله تعالى عنهم: ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴾ [الأنبياء:٢٠]، وهم مع ذلك لا يَعْصون الله تعالى

ما أمَرَهم؛ لقُوَّة امتِثالهم لأَمْر الله تعالى، ويَفعَلون ما يُؤمَرون؛ لقوَّتِهم على التَّنفيذ، فيَقول تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾، هذا باعتِبار الإرادات، ما عِندهم إرادة تخالِف أَمْر الله تعالى، ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ باعتِبار التَّنفيذ والعمَل.

وهُم -أيِ: المَلائِكة- أصناف في أَشكالهم، وفي أعمالهم، وفي صِفاتهم؛ وما نَعلَم من هذا إلَّا ما أَعلَمَنا الله تعالى به ورسوله ﷺ، والباقي مجهول لنا، فنُؤمِن بما علِمنا من أَسمائهم وأَشكالهم وأَوْصافهم وأَعمالهم، وما لم نَعلَمه نُؤمِن به على سبيل الإِجْمال، نَقول: (آمَنَّا باللهِ ومَلائِكتِهِ).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ﴾ الخَبَر ﴿يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ مُحمَّدٍ ﷺ؛ ولهذا قال: [مُحمَّد ﷺ].

وما مَعنَى ﴿يُصَلُّونَ﴾؟

اشتُهِر عند كثير من أهل العِلْم رَحِمَهُمُ اللَّهُ أن الصلاة من الله تعالى رحمة، ومن المَلائِكة الاستِغْفار؛ وعلى هذا فيُفَسَّر ﴿يُصَلُّونَ﴾ باعتِباره من الله تعالى بمَعنَى: الرَّحْمة، ومن المَلائِكة الاستِغْفار، ولكِنَّ هذا التَّفسيرَ خطَأ، فإن الرحمة أعمُّ من الصلاة؛ لأن الرحمة يُدعَى بها لكل أحَد، والصلاة خاصَّة بالأنبياء، فهي شِعارُهم، ولا تُقال لأَحَد سِواهم إلَّا على سبيل لا يَكون شِعارًا، وأمَّا الرحمة فهي عامة حتى إن بَعْض أَهْل العِلْم رَحِمَهُمُ اللَّهُ يقول: لا يَجوز أن تَدعوَ للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بالرَّحْمة، لا تَقُل: (مُحمَّد رَحِمَهُ اللَّهُ)، (قال رسولُ الله رَحِمَهُ اللَّهُ)، لكِنَّ هذا القَولَ ضعيف؛ لأن النبيَّ ﷺ كان يَدْعو لنَفْسه بالرحمة، يَقول: «رَبِّ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي»[1]؛ وفي قِصة الأَعرابيِّ:

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٣١٥)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب الدعاء بين السجدتين، رقم (٨٥٠)، والترمذي: كتاب الصلاة، باب ما يقول بين السجدتين، رقم (٢٨٤)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

«اللَّهُمَّ ارْحَمْني ومُحَمَّدًا»[1]، ولم يُنكِر عليه النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، لكنها عند السَّلَف يُدعَى للرسول ﷺ بالصلاة، ولغيره بالرَّحْمة والرِّضا، وما أَشبَه ذلك.

والصَّوابُ: أن صلاة الله تعالى على رسوله ﷺ معناها: ثَناؤُه عليه في المَلَأ الأعلى، وليست رَحمتُه إياه بدليل قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أُولَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞ﴾ [البقرة:١٥٧]، قال تعالى: ﴿صَلَوَٰتٞ﴾، ﴿وَرَحۡمَةٞ﴾، فدَلَّ هذا على أن الرحمة غيرُ الصلاة، وهو كذلك.

أمَّا صلاة المَلائِكة على الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فيُحتَمَل أن تكون بمَعنَى: الدُّعاء أنهم يَدْعون له بالصلاة، ويُحتَمَل أنَّ المعنى: أنهم يُثنُون عليه مع الله تعالى، وهذا أَقرَبُ، حتى لا يَتوزَّع المَعنى في كلِمة ﴿يُصَلُّونَ﴾، ويَكون المَعنَى أن الله تعالى يُثنِي عليه، والمَلائِكة كذلك يُثنون عليه، وهذا من تَعْلية شَأْن الرسول ﷺ؛ ولهذا قدَّم هذه الجُملةَ الخبَريةَ على الجُمْلة الإِنْشائية الطلَبية في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ﴾؛ لأن النَّفْس إذا عَلِمت شَرَف هذا النبيِّ ﷺ، وأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نَفْسه ومَلائِكته المُقرَّبين وغير المُقرَّبين من المَلائِكة الآخَرين، فإنهم يُصلُّون عليه؛ وأنا قُلتُ: (المَلائِكةَ المُقرَّبين)؛ لأن المَلائِكة كلَّهم مُقرَّبون بالمَعنَى العامِّ، لكن هناك مَلائِكة مُقرَّبون عند الله تعالى كحَمَلة العَرْش ونحوهم، وكل هؤلاء يُصلُّون على النبيِّ ﷺ.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ فلَمَّا تقرَّر في النُّفوس عُلوُّ شأن الرسول ﷺ بهذه الجُمْلةِ وجَّه الله تعالى الخِطاب إلى المُؤمنين فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾، وتَصدير الجُملة بالنِّداء يَدُلُّ على الأهمِّيَّة والعِناية

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، رقم (٦٠١٠)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بها؛ لأن النِّداء يَستلزِم انتِباهَ المُنادَى، ولا داعِيَ لتَنبيه المُخاطَب إلَّا لأَمْر هامٍّ.

ثُمَّ النِّداء بهذا الوَصْفِ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فيه إغراءٌ لامتِثال الخِطاب المُوجَّه؛ ولهذا قال ابنُ مَسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إذا قال الله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فأَرْعِها سَمْعك[1]. يَعنِي: استَمِع لها، فإمَّا خَيْر تُؤمَر به، وإمَّا شَرٌّ تُنهَى عنه، وفي وَصْف الإيمان مع كونه إغراءً دَليلٌ على أن امتِثال هذا الأَمْرِ من مُقتَضيات الإيمان، وأن مَعصِيته نَقْص في الإيمان.

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ﴾ يَعنِي: ادْعُوا له بالصلاة فليس المُراد بالصلاة إذا قُلْت: صلِّ على فلان؛ ليس مَعناها: الدُّعاءَ المُطلَق، بل الدُّعاء بالصلاة؛ ولهذا لَمَّا أَمَر الله تعالى نبيَّه بأن يُصلِّيَ على مَن أَعطاه الصدَقة صار يَقول: اللَّهُمَّ صلِّ عليه. فالصلاة في الدُّعاء صحيح، ولكن إذا أَمَرتك أن تُصلِّيَ على شخص فالمَعنَى أن تَدْعوَ له بصلاة الله تعالى عليه، فمَعنَى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ﴾: أَمْر بالصلاة على رسول الله ﷺ، وهو أَمْر مُطلَق غَيْر مُقيَّد؛ فإذَنْ تَكون الصلاة على رسول الله ﷺ مُطلَقة غير مُقيَّدة؛ فنُصلِّي عليه بأيِّ صيغة صلَّيْنا، ونُصلِّي عليه في أيِّ وَقْت، وفي كل مَكان؛ لكن هناك أَمكِنة تَتَأكَّد فيها الصلاة، وأَمكِنة لا تَنبَغي فيها الصلاة، وأَمكِنة تُستَحَبُّ فيها الصلاة مُطلَقًا، يَعنِي: ليس بتَأكُّد.

فمِمَّا تَتَأكَّد الصلاة على النبيِّ ﷺ فيه:

أوَّلًا: إذا ذُكِر اسمه فإن الصلاة واجِبة عليه؛ لقوله ﷺ في حديث أبي هُرَيْرَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «أَتَانِي جِبْرِيلُ قَالَ: رَغِمَ أَنْفُ امْرِئٍ ذُكِرْتَ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في الزهد رقم (٨٦٦)، وسعيد بن منصور في السنن رقم (٥٠) [ط. الصميعي]، وابن أبي حاتم في التفسير (١/ ١٩٦).

عَلَيْكَ»[(١)]، وهذا دُعاء له بإِرْغام الله تعالى أَنفه في التُّراب، وإرغام الأَنف في التُّراب دليل على الذُّلّ والإهانة، وهذا يَدُلُّ على وُجوب الصلاة على الرسول ﷺ إذا ذُكِر اسمُه.

ثانيًا: الصلاة عليه في التَّشهُّد الأخير رُكْنٌ لا تَصِحُّ الصلاة إلَّا به على مَذهَب الحَنابِلة[(٢)] والشافِعية[(٣)]، ولا فَرقَ بين الفَريضة والنافِلة.

ثالِثًا: أنه يُستَحَبُّ الصلاة على النبيِّ ﷺ في الدُّعاء مُقدَّمة عليه أو مُؤخَّرة عنه.

رابِعًا: عند الأذان، قال ﷺ: «فَقُولُوا مِثْلَمَا يَقُولُ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ»[(٤)].

والمَواضِع مُتعَدِّدة، لكن منها على سَبيل الوجوب، ومنها على سَبيل الاستِحْباب.

أمَّا كراهة الصلاة على النبيِّ ﷺ فذكَروا أنها تُكرَه الصلاة عليه عند الذَّبْح، إذا قُلْت: بسم الله والله أكبَرُ. لا تَقُلِ: اللهُمَّ صلِّ على مُحمَّد. قالوا: لأن المَقام مَقام إخلاص وتَوْحيد فلا يَنبَغي أن يُذكَر مع اسمِ الله تعالى غيرُه، فتَقول: بسم الله والله أكبَرُ. ولا تُصَلِّ على النبيِّ ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ﴾ قُلْت لكم: إنه مُطلَق بأيِّ صِفةٍ كانت، فما ورَدَ عن النبيِّ ﷺ عندما سأَله الصحابة قالوا: كيف نُصلِّي عليك؟ قال:

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد رقم (٦٤٦)، وابن خزيمة في صحيحه رقم (١٨٨٨).

(٢) انظر: مختصر الخرقي (ص:٢٦)، والهداية (ص:٨٧)، والمغني (١/ ٣٨٨).

(٣) انظر: الأم (٢/ ٢٣٣، ٢٧١)، والمجموع (٣/ ٤٦٥).

(٤) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب القول مثل قول المؤذن، رقم (٣٨٤)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

«قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ»[(١)]، هذا على سَبيل الاستِحْباب، وليس على سَبيل الوُجوب؛ ولهذا أَجمَعَ العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ على أن الصلاة على آل الرسول ﷺ لا تَجِب مع أن الصِّيغة التي علَّمها النبيُّ ﷺ أُمَّته فيها الصلاة على آله؛ مع أنها لَيْسَت بواجِبة ممَّا يَدُلُّ على أنها على سَبيل الاستِحْباب.

ورُبما يُستَدَلُّ لذلك أيضًا بأن الصِّيَغ التي أَمَر بها الرسول ﷺ في كيفية الصلاة عليه مُختلِفةٌ، وليسَت كلُّها على صيغة واحِدة، وهذا يَدُلُّ على أن أيَّ صِيغة أَتيت بها فهي مُجزِئة.

وقوله تعالى: ﴿صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾: ﴿وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ أي: قولوا: السَّلام عليك. أيِ: ادْعُوا له بالسلام، فقولوا: السلام عليك أيُّها النبيُّ. والسلام على النبيِّ ﷺ مع كونه غائِبًا أَمْر مَشروع؛ ولهذا نَقول في صلاتنا: «السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ»[(٢)]؛ مع أنه غائِب، والصحابة يَقولون: السلام عليك أيُّها النَّبيُّ. مع أنه غائِب ولا يَسمَعهم، حتى لو كانوا معه في الصلاة فهو لا يَسمَعهم؛ لكن لأن هناك مَلائِكةً سيَّاحين يُبلِّغون النبيَّ ﷺ السلام من أُمَّته؛ ولأنه لَمَّا كان الإنسان قوِيَ الإيمان بالرسول ﷺ صار كأنه حاضِرًا عنده يُخاطِبه.

وقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟...﴾ الآيَةَ، فيها تَقديم الصلاة على السلام مع أنه في التَّشهُّد يُقدَّم السَّلام على الصلاة، فهل بين الآية وما ثبَتَ به الحديثُ والتَّشهُّد تَناقُض؟

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب الصلاة على النبي ﷺ، رقم (٦٣٥٧)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب الصلاة على النبي ﷺ بعد التشهد، رقم (٤٠٦)، من حديث كعب بن عجرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب التشهد في الآخرة، رقم (٨٣١)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب التشهد في الصلاة، رقم (٤٠٢)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الجَوابُ: لا، لأن العَطْف بالواو لا يَستَلزِم وُجوب التَّقديم، وإن كان قد يَقتَضيه، لكنه لا يَستَلزِمه؛ لأن الواو كما قال أهل اللُّغةِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: تَدُلُّ على مُطلَق الاشتِراك بدون تَرتيب؛ ولهذا إذا ما قُلْت: ما شاء الله تعالى وشِئْتَ. مع أنك قدَّمْت مَشيئة الله تعالى صار هذا نوعًا من الشِّرْك؛ لأن الواوَ تَقتَضي التَّسْوية، وليسَتْ تَستَلزِم التَّرتيب.

فإذا قال قائِل: لماذا أكَّدَ التسليم بالمَصدَر، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ ولم يُؤكِّدِ الصلاة؟

فالجَوابُ: أن الصلاة تَقدَّم ما يُؤكِّدها وهو إِخْبار الله تعالى بأنه يُصلِّي عليه ومَلائِكته، وهذا يُعطِي الإنسان قوَّة في الصلاة عليه متى عَلِم بأن الرسول ﷺ يُصلِّي الله تعالى ومَلائِكته عليه؛ ولهذا جاء التَّوْكيد في التَّسليم دون الصلاة؛ لأن الصلاة أُكِّدَت تأكيدًا مَعنَويًّا بذِكْر أن الله تعالى وملائكته يُصلُّون على النبيِّ ﷺ، وأمَّا التَّسليم فأُكِّد تأكيدًا لفظيًّا؛ لأن قوله تعالى: ﴿تَسۡلِيمًا﴾ مَصدَر لقَوْله تعالى: ﴿وَسَلِّمُواْ﴾.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ مُحمَّد ﷺ] ولم يُفسِّر ﴿يُصَلُّونَ﴾ رَحِمَهُ اللَّهُ، وهذا نَقْص في التَّفْسير.

ثُمَّ قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ أي: قولوا: اللَّهُمَّ صلِّ على مُحمَّد وسلِّمْ] ولم يُفسِّر التسليم، فما مَعنَى التَّسليم؟ قال بعضُ العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ: إنك إذا قُلْت: السلام عليك. فالسلام من أَسماء الله تعالى، يَعنِي: (اللهُ عَلَيْك)، وما مَعنَى: (اللهُ عَلَيْك)؟ أيِ: الله تعالى حَفيظ عليك يُراقِبك ويَحفَظك.

وقال بعضُ العلماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ: السلام عليك، أي: التَّسليم عليك، فهي جملة خبَرية بمَعنَى الدُّعاء، والسلام اسمُ مَصدَر بمَعنَى: سَلَم، مِثْل الكلام اسمُ مَصدَر

كَلِم، فمَعنَى السلام عليك، أَيْ: تسليم الله تعالى عليك؛ أي: تَسليمك من الآفات.

وهذا المَعنَى هو الصحيح: أنك إذا قُلْت للإنسان: السلام عليك. أنك تَسأَل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يُسلِّمه من الآفات؛ الآفات الحِسِّيَّة والمَعنَوية، فالسلامة الحِسِّيَّة سلامة البَدَن والعِرْض والمال، والسلامة المَعنَوية سلامة الدِّين من الآفات؛ لأن الإنسان مَحوط بآفَتَيْن، آفة الدِّين وآفة الدُّنيا، والسلامة منهما جميعًا من أكبَرِ نِعَم الله تعالى على العَبْد.

فإن قال قائِل: الإنسان إذا سلَّم ولم يَستَحضِرِ المَعنَى؟

فالجَوابُ: لا بُدَّ أن يَستَحضِر المَعنى وإلَّا كان لَغْوًا من القول، وأكثَرُ الناس عندما يُسلِّم يَستَحضِر أنها تحية فقَطْ، وكذلك الرَّدُّ، وهذا لا يَنبَغي، بل الذي يَنبَغي أن تَستَحضِر أنها دُعاء له بالسَّلامة من الآفات؛ لأنك إذا كنت لا تَستَحضِر إلَّا أنها تَحيَّة فلا فرقَ بينها وبين قولِك: (أهلًا وسَهْلًا)، بل ربما تكون التَّحيَّة بـ(أهلًا وسَهْلًا، مَرْحبًا يا أبا فُلان، حيَّاك الله وبيَّاك)، وما أَشبَه ذلك من الكلِمات التَّرحيبية تكون أبلَغَ من هذا.

وما دُمْنا لم نَقصِد المَعنَى الذي قصَدَه الشارِع صار لَفْظًا مُجرَّدًا، فيَنبَغي لنا إذا سلَّمنا على أحَد أن نَستَحضِر أننا نَدعو له بالسلامة من الآفات؛ ولهذا لو أَتَيْت بكل تَرحيب ما قابَل هذه الجُملةَ الدُّعائِية: أن تَدعوَ الله تعالى له بالسلامة.

فالحاصِلُ: أن أكثَرَ الناس يَقولون: (السَّلام عليكم) من باب التَّحيَّة فقَطْ، ونحن يَنبَغي لنا أن نَستَحضِر المعانيَ في كل ما نَقول حتى الآنَ: التَّحيَّات لله- تاب الله علينا وعليكم- هل نَستَحضِر معنى التَّحيَّات، ومَعنَى الصلَوات، ومَعنَى الطَّيِّبات أم ألْفاظ تُقرَأ؟!

فإن قال قائِل: أحيانًا وأحيانًا!

فالجَوابُ: هـذا أيضًا لا يَنبَـغي، بل يَنبَـغي أن نَستَحضِـر لكل لَفْظ مَعناه، وإلَّا صارت ألفاظًا جوفاءَ، كثِياب ليس فيها أَجْسام أو أجسام ليس فيها أَرْواح، وماذا تَقول في: (التَّحيَّات لله والصلوات والطَّيِّبات) وأنت لاهٍ ما عِندكَ إلَّا ألفاظ تَمُرُّ على القَلْب فقَطْ؟! لذلك يَنبَغي كُلَّما قرَأْتَها أن تَستَحضِرها وأنت تُصلِّي، ما مَعنَى التَّحيَّات لله، والصَّلوات، والطَّيِّبات؟

فـ(التَّحيَّات): كل لَفْظ دالٍّ على البَقاء والتَّعظيم والتَّكريم؛ لأن التَّحية مَعروفة تعظيم للمُحَيَّا وتَكريم له.

و(لله) مَعروف أنها مُستَحَقَّة لله، وأنها خاصَّة به.

و(الصلَـوات): الفَريضة أو النافِلة، وهي العِبادة المَخصـوصة ويَدخُل فيها الدُّعاء، فالصَّلوات بمَعنَى العِبادة المَخصوصة وبمَعنَى الدُّعاء أيضًا، كلُّه لله عَزَّوَجَلَّ، فلا يُدعَى إلَّا اللهُ تعالى، ولا يُتعَبَّد بالصلاة إلَّا لله تعالى.

و(الطَّـيِّبات): من الأقـوال والأفعال خاصَّـة بالله تعالى، وكذلك أَوْصافـه، فالطَّيِّبات منَّا والطَّيِّبات منه، فكلُّ صِفاته طيِّبة، وكلُّ أَفْعاله طيِّبة، وكل أقواله طيِّبة، ومنَّا أيضًا: ما يَكون لله تعالى، ولا يَقبَله الله تعالى إلَّا ما كان طيِّبًا؛ ولهذا قال النبيُّ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ طَيِّبًا لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا**»(١).

فمَن يَستَحضِر هذين المَعنَيَيْن وهو يُصلِّي أن الطَّيِّباتِ باعتِبارها صِفة لله تعالى

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب، رقم (١٠١٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

ووَصْفًا لِفِعْل المَخلوق؟! والثاني: أن الطَّيِّبات الواقِعة منَّا تكون لله تعالى لا يَقبَل الله تعالى سِواها، فكِلا المَعنيَيْن حقٌّ: أن الله طَيِّب، وهذا باعتِبار ما يَتعَلَّق بالله تعالى، ولا يَقبَل إلَّا طيِّبًا باعتِبار بما يَفعَله العَبْد.

ومَعنَى: (السلام عليك أيُّها النَّبيُّ) تَقدَّم ذِكْرها.

ومَعنَى: (ورحمة الله وبركاته) الرحمة هي الدُّعاء له بالرحمة، وهي حُصول المَطلوب، وبالسَّلام زوال المَكْروه.

و(بركاته) يَعنِي: الخَيْر الثابِت الكثير، فأنت بعدما دعوت له بالرحمة سأَلْت الله تعالى أن يَجعَل ذلك بَرَكةً عليه مُستَمِرَّة.

وأمَّا: (السلام علينا وعلى عِباد الله الصالِحِين) فقد فَسَّرها النبيُّ ﷺ وقال: «إِنَّكُمْ إِذَا قُلْتُمْ ذَلِكَ فَقَدْ سَلَّمْتُمْ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ صَالِحٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ»(١)، فمَنْ يَستَحضِر إذا سلَّم أنه يُسلِّم على الأنبياء والمَلائِكة والأَوْلياء والصالِحِين من هذه الأُمَّة وغيرها، حتى نُسلِّم بهذا الكلامِ على الحَوارِيِّين الذين اختارهم عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، والسَّبْعين الذين اختارهم مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، والقليل الذين آمَنوا بنُوْح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأَصْحاب الكَهْف، وآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وغيره، مَن يَستَحضِر هذا؟! الغالِب أننا لا نَستَحضِرُ!.

فإن قال قائِل: قول الرسول ﷺ أمَا يَدُلُّ على أن الصحابة لم يَستَحضِروا أنه قال: «إِذَا سَلَّمْتَ فَقَدْ سَلَّمْتَ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ».

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب التشهد في الآخرة، رقم (٨٣١)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب التشهد في الصلاة، رقم (٤٠٢)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فالجَوابُ: لا، لأنهم كانوا يَقولون: السلام على جِبريلَ وعلى مِيكائِيلَ وعلى فُلان وعلى فُلان؛ لأن ذلك التَّخصيصَ الذي أنت خصَصته ليس له حاجة، فإذا قُلْتم: (السَّلام علينا وعلى عِباد الله الصالِحِين) دخَلَ في هذا ما خَصَصْتم.

فإن قال قائِل: هل مَعنَى ذلك أنهم ما كانوا يَستَحضِرون؟

فالجَوابُ: لا، بل كانوا يَستَحضِرونه؛ ولهذا خَصُّوه.

أمَّا قوله: (أَشهَد أن لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأن مُحَمَّدًا عبدُه ورَسولُه) فهذا واضِح.

(أَشهَدُ) يَعنِي: أُقِرُّ، لكِنْ إقرارًا كالمُشاهِد بالعَيْن، يَعنِي: ليس هو إقرارًا هَزيلًا، و(أَشهَد) أَصْل الشُّهود والشَّهادة لِمَا رُئِيَ أو سُمِع بالأُذُن؛ لكن هنا عَبَّر عمَّا في القَلْب بالشَّهادة كأن الإنسان يُشاهِد ما أَقَرَّ به.

وأمَّا (أَلَّا إِلهَ إِلَّا الله) فإن العامة يُخطِئون فيها يَقولون: (أَشهَدُ أَنَّ لا إله إلَّا الله) (أشهد أنَّ)، وهذا خطَأ من حيث اللُّغة؛ لأن (أَنَّ) المُشدَّدة لا يُحذَف اسمُها، ولكنها (أَنِ) المُخفَّفة، فيَقول: (أَلَّا إلهَ إلَّا الله)، يَعنِي: لا إلهَ حَقٌّ. أي: لا مَعبودَ حقٌّ إلَّا الله عَزَّوَجَلَّ، والمَعبودات التي تُعبَد بدونه باطِلة.

(وأَشهَد أن مُحَمَّدًا عبده ورسوله) فيها أيضًا الإقرار المُتيَقَّن، كأنما يُشاهِد بأن مُحَمَّدًا عبد الله ورسوله، فهو عَبْد ليس له حقُّ الرُّبوبية، ورَسول ليس فيه شيء من الخِيانة، فهو رَسولٌ حَقًّا.

وهذه مَعانٍ ظاهِرة عابِرة، ومع هذا أكثَرُ الناس لا يَستَحضِرونها!.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: إثبات المَلائِكة؛ لقَوْله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: شَرَف المَلائِكة بإِضافتهم إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقوله تعالى: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ﴾ فإِضافتهم إلى الله تعالى إضافةُ تَشريف.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بَيان عُلُوِّ شَأْن النبيِّ ﷺ؛ لكون الله تعالى ومَلائِكته يُصلُّون عليه، فهذا من عُلوِّ شَأْنه ورِفعة ذِكْره.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: الأمر بالصلاة والسلام على الرسول ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الصلاة والسلام عليه من مُقتَضيات الإيمان وأنه زِيادة في الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن الصلاة والسلام عليه واجِبان؛ لأن الأَصْل في الأَمْر الوجوبُ؛ ولأن ذلك من قَضاء حقِّ النبيِّ ﷺ الذي له على أُمَّته؛ فإن حقَّه على أُمَّته أَعظَمُ من حَقِّ الوالِدين على أَوْلادهم؛ ولكن الوَجوب يَحصُل بفِعْله مرَّةً واحِدة؛ فإذا دلَّ دَليل على التَّكرار وجَبَ أن نَأخُذ بمُقتَضى الدليل.

وقد قال كثير من أهل العِلْم رَحِمَهُمُ اللَّهُ بوُجوب الصلاة والسلام عليه ﷺ في الصلاة وذلك في التَّشهُّد، فإن الإنسان يَقول: (السَّلام عليك أَيُّها النَّبيُّ)، ويَقول: (اللَّهُمَّ صَلِّ على مُحَمَّدٍ).

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن المَشروع أن يُصلِّيَ الإنسان عليه باللَّفْظ؛ لقوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾؛ ولا يَكفِي السلام أو الصلاة بالقَلْب، وعلى هذا فيَنبَغي عندما نكتُب أحادِيثَ أن نكتُب: ﷺ. وأمَّا ما يَفعَله بعض الناس من كِتابة: (ص) أو (صلعم) فإن أَهْل العِلْم كرِهوا ذلك، وقالوا: إن الأفضَل أن نكتُب: ﷺ.

وربَّما كان الإمام أحمدُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ربما كتَب الحديث ولم يَذكُر ﷺ[1]، وأَجاب بعضُ العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ عن ذلك: بأنه كان يَترُكها حِرْصًا على اغتِنام الوَقْت، لأنه كان يُصلِّي عليه بلِسانه دون قلَمه.

وقد تَقدَّم لنا في الشَّرْح والتَّفسير: أن الصلاة على النبيِّ ﷺ تَنقَسِم إلى قِسْمين: مُطلَقة ومُقيَّدة، وأنها في المَواضِع المُقيَّدة قد تَكون واجِبة وقد تَكون مُستَحبَّة، وأنها في بعض الأماكِن قد تَكون مَكروهة.

فهي إمَّا أن تَكتُبها كامِلة وإمَّا أن تَدَعها، فهي وإن كانت غيرَ مُشكِلة في القِراءة، إلَّا أنه إذا أَراد الإنسان أن يَقرَأ ولا يَعرِف اصطِلاح الكُتَّاب فسَوْف يَقول: «رسول الله (ص)» أو «قال رَسول الله (صلعم)».

مَسأَلة: هل تَجوز الصلاة على غير الأنبياء؟

الجَوابُ: في هذا للعُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ أَقوال ثلاثة: الجَواز، والمَنْع والجَواز إذا لم يَكُن شِعارًا له، وهذا هو الصحيح أنه يَجوز أن تُصلِّيَ على شخص بشَرْط ألَّا تَجعَل ذلك شِعارًا له كلَّما ذكَرْته صلَّيْت عليه، أو سلَّمْت عليه، وقد نَصَّ أهل العِلْم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ على أن ما وُجِد في بعض الكُتُب عند ذِكْر: علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: يَقولون: (عليٌّ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ)،

---

(١) انظر: الجامع لأخلاق الراوي للخطيب البغدادي (١/ ٢٧١)، ومقدمة ابن الصلاح (ص:٢٩٩)، وتدريب الراوي (١/ ٥٠٥).

أو (عليٌّ كرَّم الله وَجهَه)؛ أن ذلك من عمَل بعض النُّسَّاخ، ومَن يَكتُبها يقول: إنه لم يَسجُد لصنَم، وإن الله تعالى كرَّم وجهه بهذا. والأصل أن الذين يَكتُبون هذا يُريدون أن يَجعَلوا مِيزة لعَليِّ بنِ أبي طالِب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقَطْ، وهذا أهَمُّ شيء عندهم سَواءٌ كان ذلك أحسَنَ أو ليس بأحسَنَ، يُريدون أن يَجعَلوا له مِيزة.

وأن الأَفضَل أن يُقال له كما يُقال لغيره من الصَّحابة: عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. مع أن (عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) أكمَلُ مِن (عليٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ)، وأكمَلُ من (عليٌّ كرَّم اللهُ وجهَه)؛ لأن الرِّضا مَرتَبة عَظيمة.

أمَّا إذا صُلِّيَ على غير الأنبياء بالتَّبَع فهذا جائِز بالاتِّفاق، وقد علَّم النبيُّ ﷺ أُمَّته أن يَقولوا: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ»[1].

وسبَق لنا أيضًا الدُّعاء بالرحمة للرسول ﷺ هل يُدعَى له بالرحمة، وأن من أهل العِلْم مَن كرِهَ ذلك، والصحيح أنه ليس بمَكروه.

فائِدةٌ: (ر) (ض) في قولهم: رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رَمْز أيضًا.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب الصلاة على النبي ﷺ، رقم (٦٣٥٧)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب الصلاة على النبي ﷺ بعد التشهد، رقم (٤٠٦)، من حديث كعب بن عجرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآيـة (٥٧)

• ● ● •

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [الأحزاب:٥٧].

• ● ● •

ثُمَّ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ وهُمُ الكُفَّار يَصِفون الله تعالى بما هو مُنزَّهٌ عنه من الولَد والشَّريك، ويُكذِّبون رسولَه]، هذا من الإيذاء ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ﴾ جُمْلة خبَرية مُؤكَّدة بـ(إنَّ)، وخبَر (إنَّ) قولُه تعالى: ﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ﴾ يُؤذون الله تعالى بوَصْفه بالعُيوب التي لا تَليق به، مثل قول بعضهم عن الله تعالى: فَقير. ومِثْل: سَبِّ الدَّهْر؛ والله تعالى يَقول: «يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ؛ يَسُبُّ الدَّهْرَ»[1]، ومِثْل أن يَقولوا: إن الله تعالى اتَّخذ صاحِبة أو ولَدًا، أو إن الله تَعالى لَمَّا خلَق السَّمواتِ والأرضَ تَعِب واستَراح يومَ السَّبْت. وما أَشبَه ذلك، فإيذاء الله تعالى يَكون بأن يُوصَف بما لا يَليق به.

ومنه إِنْكار أسمائه وصِفاته؛ لأن هذا -لا شَكَّ- سَلْب للكمال عنه فيتَضمَّن

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾، رقم (٤٨٢٦)، ومسلم: كتاب الأدب، باب النهي عن سب الدهر، رقم (٢٢٤٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

النَّقْص؛ لأن الكَمال والنَّقْص مُتضادَّان، فما من شيء إلَّا مَوصوف بالكَمال أو بالنَّقْص، فإذا سُلِبَت عنه صِفات الكَمال لزِمَ ذلك اتِّصافه بالنَّقْص وهو نَوْع من الإيذاء.

وأمَّا إيذاء الرسول ﷺ فيَكون بالقَوْل وبالفِعْل؛ فبالقول: أن يُوصَف الرسول ﷺ بأنه ساحِر أو شاعِر أو كاهِن أو مجنون، والغريب أن الساحِر والمَجنون، وُصِف به جميع الأَنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فكُلُّ الأنبياء السابِقين المُرسَلين إلى قَوْمهم وُصِفوا بهذا، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾ [الذاريات:٥٢]، فهذه الأَوْصافُ -لا شَكَّ- أنها تُؤذِي الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وتُؤذِي كلَّ وَليٍّ لله تعالى ورسوله ﷺ أن يُوصَف النبيُّ ﷺ بهذه الأَوْصافِ الكاذِبة.

وكذلك إيذاء الرسول بالفِعْل ما صنَعت قُرَيْشٌ به ﷺ حين أَتَوْا بسَلى الناقة وهو ساجِد في المسجد الحَرام أمام بيت الله عَزَّوَجَلَّ، فوَضَعوا سَلى الناقة على ظَهْره وهو ساجِد[1]، وأيُّ أذيَّة أَبلَغُ من هذا؟! رجُل لم يَتعرَّض لهم فإنما يَعبُد الله عَزَّوَجَلَّ في آمَنِ مَكانٍ على وجهِ الأرض؛ أمام بيت الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ! وأَقرَبُ ما يَكون من ربه! ثُمَّ يَأتي هؤلاءِ الظلَمةُ المُعتَدون فيَضعون عليه هذه القاذُوراتِ؛ أَعتَقِد أن هذا من أَبلَغِ ما يَكون من الأذِيَّة حتى جاءتِ ابنَتُه الطِّفلة الصغيرة فأَزالَتْه عنه.

وكذلك من الأذية ما ذكَروا أنهم كانوا يُلقون الأَنْتانَ والقاذوراتِ على عَتَبة بابه ﷺ في مَكَّة حتى إنه كان يَخرُج ويَقول: «أيُّ جِوَارٍ هَذَا؟!»[2] يَعنِي: لو كنت

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب إذا ألقي على ظهر المصلي قذرًا أو جيفة، رقم (٢٤٠)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين، رقم (١٧٩٤)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (١/ ٢٠١)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وانظر سيرة ابن هشام (١/ ٤١٦).

جارًا لكم ولَسْت مِنْكم لم تَفعَلوا بي هذا الفِعْلَ! فهؤلاء الذين يُؤذون الله تعالى ورسوله ﷺ لعَنَهم الله تعالى في الدنيا والآخِرة -والعِياذُ بالله- يَعنِي: أَبعَدَهم الله عن رحمته في الدُّنيا وفي الآخِرة؛ لأن اللَّعْن بمَعنَى: الطَّرْد والإبعاد عن رحمة الله.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ﴾ ولم يَقُلْ: (آذَوْا الله)؛ لأنهم مُستَمِرُّون في الأذية، وما داموا مُستَمِرِّين في الأذية فإن لهم اللَّعْن في الدنيا والآخِرة، أمَّا إذا منَّ الله تعالى عليهم بالهِداية ورجَعوا إلى الله تعالى وتابوا من شِرْكهم؛ فإن اللَّعْنة تَرتَفِع عنهم؛ لأن الحُكْم يَدور مع عِلَّته.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ أبعَدهم ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾] ﴿وَأَعَدَّ﴾ بمَعنَى: هيَّأ، والعَذاب بمَعنَى: العُقوبة و﴿مُّهِينًا﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ذا إِهانةٍ وهو النار] عذاب النار -والعِياذُ بالله- إهانة بدَنية وإهانة نَفْسية؛ ولهذا يُقال لأصحاب النار: ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الدخان:٤٧]، ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ﴾ أي: ادْفَعوه بشِدَّة وعُنْف إلى سواء الجَحيم، يَعنِي: قَعْرها وأَصْلها، ﴿ثُمَّ صُبُّوا﴾ من ﴿فَوْقَ رَأْسِهِۦ﴾ الرَّأس الذي لم يَكُن يَنحَنِي لأَحَد ولا لله تعالى، ﴿صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ﴾ الحَميم الماء الشديد الحَرارة؛ ثُمَّ يُقال له بعد الإِهانة بالفِعْل يُقال له: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان:٤٩]، هذا تهكُّم به، يَعنِي: إنك كنتَ في نَفْسك عزيزًا كريمًا؛ لكنك الآنَ ذَليل مَهين خِلاف المَجْد والكرَم، فهذا هو العَذاب الأليم الذي أُعِدَّ للكافِرين -عسَى الله تعالى أن يُسلِّمَنا وإيَّاكم منه- فصارت عُقوبة هَؤلاء المُؤذِين لله تعالى ولرسوله ﷺ أَمْرين عَظيمين، أَحدُهما اللَّعْن وهو الطَّرْد والإِبْعاد من رحمة الله تعالى، والثاني العَذاب المُهين الذي يُوقِعهم في الهَوان والذُّلِّ، المُؤمِنون والمُؤمِنات.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن أذِيَّة الله تعالى ورسوله ﷺ من كَبائِر الذُّنوب، وجهُ ذلك أن الله تعالى تَوعَّد عليها باللَّعْن والعَذاب، وكلُّ شيء تَوعَّد الله تعالى علَيْه باللَّعْن أو العَذاب فإنه من كبائر الذُّنوب.

وقدِ اختَلَف العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ في الكبائِر هل تُعَدُّ أو تُحَدُّ، فمِنهم مَن عدَّها عَدًّا، ومِنهم مَن حدَّها حَدًّا، وقالوا: إن الكبيرة كل ما رُتِّب عليه عُقوبة خاصَّة فهو كبيرة، وهذا حدٌّ لشَيْخ الإسلام ابنِ تَيميَّةَ[1] رَحِمَهُ اللَّهُ: كلُّ ذَنْب رُتِّب عليه عُقوبة خاصَّة دُنيوية أو أُخروية؛ فإنه من كبائر الذُّنوب، سواء كان لَعْنة أو غضَبًا أو نَفيَ إيمان أو تَبرُّؤًا منه أو عَذابًا، وما أَشبَه ذلك، فكلُّ شيء له عُقوبة خاصَّة فهو من كبائِر الذُّنوب.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: وَصْف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بأنه يَتأذَّى؛ لقوله تعالى: ﴿يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بَيان كَمال الله عَزَّ وَجَلَّ؛ لأنه إذا كان يَتأذَّى من الأَشياء الْمُنكَرة التي لا تَليق به دلَّ ذلك على كَماله؛ ولهذا عِند الناس من العَيْب أن الإنسان لا يَتأذَّى بما يُوصَف به من عَيْب؛ ولهذا يُسمُّون مِثْل هذا الرَّجُل يُسمُّونه (الحِمار)؛ لبَلادته وعدَم أَهمِّيته، فهو لا يُفرِّق بين مَن يَمدَحه ومَن يَقدَح فيه؛ كلُّه سَواءٌ عنده، لكن الإنسان الذي يَتأذَّى للعَيْب هذا الذي له شُعور وعاطِفة، ثُمَّ إذا صبَر واحتَسَب واستعمَل الحِكْمة في ذلك كان خيرًا.

---

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ٦٥٠).

المُهِمُّ: أن الأذِيَّة ممَّا ليس بمَحمود تُعتبَر كمالًا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن أذِيَّة الرسول ﷺ كأَذِيَّة الله لأن الله جمَع بينهما بالواو ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ فكما أن طاعة الرسول ﷺ كطاعة الله تعالى، ومَعصية الرسول ﷺ كمَعصية الله تعالى، فأَذِيَّة الرسول ﷺ كأذِيَّة الله تعالى، يَعنِي: من حيث التَّحريم، وأنها من الكبائِر، وإلَّا فإن أذِيَّة الله تعالى أَعظَمُ من حيث الجِهة التي نُسِب إليها الذمُّ والعَيْب.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثبات اللَّعْنة، أي: لَعْنة الله تعالى وهي طَرْده وإبعاده، وهي من الصِّفات الفِعْلية؛ لأن كل صِفة لله تعالى مُعلَّقة بسبَب فهي من الصِّفات الفِعْلية؛ لأن هذا السبَب يَتجَدَّد فتكون الصِّفة بعد وُجوده.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: العَذاب المُهين كُلُّنا يَعرِف أنه في النار؛ لأنها هي التي عَذابها مُهين.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن الجَزاء من جِنْس العمَل، فكما تَعالَى هَؤلاءِ وتَعاظَموا وأَهانوا الرَّسول ﷺ بأذِيَّته عاقَبَهم الله تعالى بما يُهينهم ويُذِلُّهم من العَذاب.

• • ۞ • •

الآيـة (٥٨)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب:٥٨].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ﴾ يَرْمونهم بغير ما عمِلوا ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ تَحمَّلوا كذِبًا و﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ بيِّنًا].

تَأمَّلِ الفَرْق بين أذِيَّة الله تعالى ورسوله ﷺ وأذِيَّة المُؤمنين تَجِد بينهما فرْقًا كبيرًا في العُقوبة، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ﴾: ﴿بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ﴾ هذا لم يُذكَر في الآية الأُولى بسبَب أنه لا يُمكِن أن يَكون من فِعْل الله تعالى أو من فِعْل رَسوله ﷺ ما يَستَحِقُّون به الأذِيَّة، لكنَّ المُؤمِنين يُمكِن أن يَقَع منهم ما يَستَحِقُّون به الأذِيَّة؛ ولهذا قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ﴾؛ لأن المُؤمِن قد يَكتَسِب شيئًا يَستَحِقُّ الأَذِيَّة عليه.

وأيضًا قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ ولم يَقُل: لعَنَهمُ الله ولا أَعَدَّ لهم عذابًا مُهينًا، بل قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَٰنًا﴾ يَعني: كذِبًا وتَحمَّلوه، والبُهتان هو أن تَذكُر أخاك بما ليس فيه؛ ولهذا لَمَّا سأَل النَّبيُّ ﷺ عن الغِيبة قال ﷺ: «هِيَ ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ» قال: يا رسول الله أَرَأَيْت إن كان في أخي ما أَقول؟ قال:

«إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدِ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ بَهَتَّهُ»[1].

إِذَن: أَذِيَّة المُؤمنين بماذا تكون؟

الجَوابُ: تَكون بالقَوْل وبالفِعل وهي كثيرة لا حَصرَ لها، مِنها أذِيَّة الجارِّ حتى إن العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ يَقولون: لا يَجوز للإنسان أن يَدُقَّ وتَدًا في الجِدار المُشتَرك بينه وبين جاره على نَحو يُؤذِي جارَه، ولا يَجوز أن يَسقِيَ نَخْله إذا كان الماء يَتَسرَّب إلى جاره، ولا يَجوز أن يَجعَل رَحًا تَطحَن حول جاره؛ لأن ذلك يُؤذِيه، فالأَذِيَة كثيرة.

ومن هذا النوع أن يُهينه عندما يَأتي لطَلَب حَقِّه فإن بعض المُوظَّفين- والعِياذُ بالله- إذا جاءَهم الناس لإجراء مُعاملاتهم تَجِدهم يَمتَهِنونهم ويُؤذونهم، هذا أيضًا من أَذِيَّة المُؤمِنين بغير ما اكتَسَبوا، وأَنواعها لا يُمكِن حَصْرها، والشيء العامُّ هو أن يَحصُل للمُؤمِن أَذِيَّة من فِعْل أو قَوْل، فالذين يُؤذون المُؤمِنين بغير ما اكتَسَبوا فقَدِ احتَمَلوا بُهتانًا وإثمًا مُبينًا، نَسأَل الله تعالى العافِية.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: تَحريم أذِيَّة المُؤمِنين بغير حَقٍّ؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: تَحريم كلِّ أذيَّة أيًّا كان نوعها سَواء كانت قَوْلية أو فِعْلية؛ لعُموم اللَّفظ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ﴾ واسمُ المَوْصول من صِيَغ العُموم.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن أذِيَّة المُؤمِن بما هو من كَسْبه ليس فيها وعيدٌ، وليست إثْمًا ولا بُهتانًا لقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟﴾.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة، باب تحريم الغيبة (٢٥٨٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنه لا يَجوز أن يُؤذَى بأكثَرَ مِمَّا يَستَحِقُّ، فلأنه سَبَّكَ فلا تَسُبَّه أكثَرَ؛ لأنك إذا سببْته بِمِثْل ما سبَّك فقد آذَيْته بقَدْر ما اكتَسَب، وقد قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: الرَّدُّ على الجَبْرية؛ لقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ﴾ فأَضاف الفِعْل إليهم، والجَبْرية يَقولون: إن الإنسان مُجبَر على عمَله، وأنه لا حَوْلَ له ولا قوَّةَ، يَفعَل الشيء بغير اختِيار، ويَدَعه بغير اختِياره!.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: ذَمُّ الكذِب؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَٰنًا﴾ ولا سِيَّما إذا كان الكذِب يُؤدِّي إلى أذِيَّة الغَيْر.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: جَواز أذِيَّة غير المُؤمِنين؛ لقوله تعالى: ﴿يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ﴾، لكن إذا كان الإنسان غيرُ المُؤمِن ذِمِّيًّا أو مُعاهَدًا أو مُستأمَنًا فإنه لا تَجوز أذِيَّته بما يُخالِف عَهْده، فإذَن: غير المُؤمِن فيه تَفصيلٌ، أمَّا المُؤمِن فأذِيَّته حرامٌ في كلِّ حالٍ، وغير المُؤمِن فيه تَفصيلٌ: إذا آذَيْناه أكثَرَ ممَّا يَقتَضيه العَهْد فهو حرام ولا يَجوز، وإن آذَيْته في حُدود ما يَقتَضيه العهد فإنه لا حُرمةَ له إلَّا فيما يَقتَضيه عهدُه.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن الذَّنْب قد يَجمَع بين وَصْفين ذَميمين؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾، فهُمْ بكَذِبهم احتَمَلوا البُهْتان وبعُدوانهم احتَمَلوا الإثم المُبين.

• • ❁ • •

الآية (٥٩)

• • • •

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [الأحزاب:٥٩].

• • • •

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ الخِطاب بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ تقدَّم التَّنبيهُ عليه بأن الله عَزَّوَجَلَّ نادى محُمَّدًا ﷺ بوَصْفه نبيًّا، والنبيُّ يُنفِّذ ما أُوحِيَ إليه، ولا يَتأخَّر عنه، وسَبَق أن النبيَّ مَأخوذ من النَّبأ أو النَّبْوَة أو مِنهما جميعًا، فإنه مُنبِئٌ مُنبأ، وذو رِفْعة فهو مُشتَقٌّ من النَّبأ سواء كان واقِعًا منه أو واقِعًا عليه، ومن النَّبْوة وهي الرِّفْعة فالشيء النابِي هو الشيء المُرتَفِع.

قوله تعالى: ﴿قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾: ﴿قُل﴾ هذه فِعْل أَمْر ومن المَعلوم أن الرسول ﷺ قد أُمِر أن يَقول جميعَ القُرآن وأن يُبلِّغه، لكن إذا كان الحكم مُصدَّرًا بـ(قُلْ) فهو دَليل على العِناية به؛ لأنه أُمِر أن يُبلِّغه بخُصوصه؛ فيَكون في هذا دليل على أنه -أي: هذا الشيءُ الذي أُمِر أن يَقوله الرسول ﷺ- أَمْر هامٌّ.

قوله تعالى: ﴿قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ﴾ جَمْع زَوْج، وزَوْج يُطلَق على الرجُل والمرأة؛ لأنه مَأخوذ من الازدِواج وهو الاختِلاط، واللُّغة الفُصحى فيه أَنْ لا تَفريقَ بين الذَّكر والأُنْثى ولكن الفَرضِيِّين رَحِمَهُمُ اللَّهُ التَزَموا أن يَجعَلوا الأُنثى بالهاء والرجُل بدون هاء؛

تَفريقًا بين الوسائِل؛ لأنه إذا قالوا: مات مَيْت عن زَوْج وابنٍ، وأَرادوا بالزوج الأُنثى اشتبَه هل يُراد بالزَّوْج الذَّكَر أو الأُنثى فالتَزَموا أن يُفرِّقوا بين الذكَر والأُنثى بالتاء؛ على أنه قد قِيل: إنها لُغَة لكِنَّها قليلة.

وقوله تعالى: ﴿قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ وبدَأ بالأزواج؛ لأن الحِماية لهُنَّ والغَيْرة فيهِن أشَدُّ وأبلَغُ.

وقوله تعالى: ﴿وَبَنَاتِكَ﴾ قُلنا: إنهن أربعة، لكن إذا كانت هذه الآيةُ قد نزَلَت في السَّنَة السادِسة للهِجْرة فإن بعضَهن قد مات، وعلى هذا نَقول: المُراد المَوْجود مِنهن ﴿وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ عامٌّ في كل امرأة من المُؤمِنين؛ وإنما قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ دون أن يَقول: (والنساء)؛ لأَجْل الإغْراء والحَثِّ، كقوله ﷺ: «لَا يَحِلُّ لِامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ»[1]، وإلَّا فإن الكافِرات يَجِب عليهن من الحِجاب ما يَجِب على المُؤمِنات؛ لئلا يَفتَتِنَ الناس بهِنَّ.

وقوله تعالى: ﴿وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يَشمَل زَوجاتِ المُؤمِنين ومَن للمُؤمِنين عليهن ولاية، من البَنات والأَخوات والعَمّات والخالات والأُمَّهات وغير ذلك، وفي قوله تعالى: ﴿وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ دَليل على أن الرِّجال قوّامون على النِّساء، وإلَّا لاكتَفى بقول: (والنِّساء المُؤمِنات).

فإن قال قائِل: الكِتابيات إذا تَزوَّجْن من المُسلِمين هل يُخاطَبْن بالحِجاب، رغم قوله تعالى: ﴿وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهل يُقال: إنها غيرُ مُكلَّفة فلا تُخاطَب؟

---

(١) من ذلك ما أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب إحداد المرأة على غير زوجها، رقم (١٢٨٠)، ومسلم: كتاب الطلاق، باب وجوب الإحداد في عدة الوفاة، رقم (١٤٨٦)، من حديث أم حبيبة بنت أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث».

فالجَوابُ: في قوله تعالى: ﴿وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الخِطاب مُوجَّه لهُنَّ، وإلَّا فغَير المُؤمِنات يَجِب أن يَستُرْن وُجوهَهُن؛ لأن الفِتْنة حاصِلة، بل ربما تكون الفِتْنة في غير المُؤمِنات أكثَرَ؛ لأن الرجُل يَقول: هذه كافِرة، فذَنْبها أعظَمُ؛ لأنه قد يُحارِشها أو يَتَوصَّل إليها بالزِّنا.

وهي مُخاطَبة، ولا سيَّما في الأُمور الظاهِرة؛ ولهذا يَمنَعون من إظهار الخَمْر والخِنزير وما أَشبَه ذلك، مع أنه مُباح في شَريعتهم.

قوله تعالى: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ جُمْلة: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ تَحتَمِل أن تكون مَرفوعة وأن تكون مَجزومة؛ وعلى كل حال هي: مَبنيَّة الآنَ لاتِّصالها بنون النِّسْوة، والفِعْل المُضارِع يَكون مَبنيًّا في مَوضِعين إذا اتَّصلت به نون النِّسوة أو نون التَّوْكيد، وهنا اتَّصلت به نون النِّسوة، فهو مَبنيٌّ على السُّكون، لكن هل هو في محَلِّ رَفْع أو في محَلِّ جَزْم؟

الجَوابُ: إن كانت ﴿يُدْنِينَ﴾ مَقول القول فهي في محَلِّ رَفْع، يَعنِي: قل لهؤلاء: أَدْنِينَ. وإن كانت جَوابًا للأمر فإنها في محَلِّ جَزْم؛ لأن جواب الأَمْر يَكون مَجزومًا، وقِيل: إنها مَجزومة على تَقدير اللَّام، أي: قُلْ لأَزْواجك وبناتِك ونِساء المُؤمِنين لِيُدْنِين عليهن من جَلابِيبهن هذه على تَقدير لامِ الأَمْر كقول الشاعِر:

مُحَمَّدُ تَفْدِ نَفْسَكَ كُلُّ نَفْسٍ ....(١)

(تَفْدِ): التَزَمها على تقدير اللَّام، أي: لتَفْدِ نَفْسَك؛ وأيُّ الاحتِمالين أرجَحُ

(١) ذكره سيبويه في الكتاب (٣/ ٨) ولم ينسبه، ونسبه ابن هشام في شرح شذور الذهب (ص:٢٧٥) إلى أبي طالب عم الرسول ﷺ، وقال البغدادي في خزانة الأدب (٩/ ١٤): «لا يعرف قائله، ونسبه الشارح لحسان وليس موجودًا في ديوانه».

أن تَكون مَقولًا للقول في مَحَلِّ رَفْع أو أن تكون في مَحَلِّ جَزْم؟

فالجَوابُ: القُـرآن قد بيَّـن ذلك، قال الله تعالى: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [الإسراء:٥٣] هذا يَدُلُّ على أنها مَجزومة على أنها جَواب الأَمْر، إذ لو كانـت مَرفوعة لقال: يَقولون التي هي أَحسَنُ فلمَّا قال: ﴿يَقُولُوا۟﴾ دلَّ عن أنها جوابُ الأمر، وهي أيضًا من حيث المَعنَى أبلَغُ؛ إذا كانت جوابًا للأمر كأنَّهم يَفعَلون ذلك مُباشَرة؛ يَعنِي: كأن فِعْلهم هذا جـوابٌ للأَمْر، أي: أنه مُتسبِّب عنه فيَكـون ذلك أبلَغَ في الامتِثال من أن يُؤمَروا أَمْرًا قد يَمتثِلونه وقد لا يَمتثِلونه.

فقوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ ﴾ [النور:٣٠] وماذا يُؤيِّد أنها جواب الأمر أو أنها مَقول القَوْل؟ الجواب: أنها جَواب الأَمْر؛ ولهذا يَقول: ﴿يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ ﴾ فجزَمها بحَذْف النون، ولم يَقُل (يَغُضُّون من أَبصارِهم).

وقوله تعالى: ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ ﴾ [النور:٣١] وماذا يُؤيِّد؟

الجوابُ: لا دليلَ فيه؛ لأنه مَبنيٌّ، فليس فيه دليلٌ على هذا ولا على هذا.

المُهِمُّ: أن الأَوْلَى أن نَجـعَل قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ﴾ جَوابًا للأَمْر، ويُؤيِّد ذلك: السِّياقُ في كِتاب الله، ويُؤيد ذلك: أنه أَقْوى في الامتِثال والتَّنفيذ؛ حيث كان جوابًا لُمجرَّد القول: كأنهن يَفعَلن ويَمتَثِلن.

وقوله تعالى: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ﴾: ﴿مِن﴾ ليسَت زائِدة كما قيل؛ لأن (مِن) لا تُزاد إلَّا في النَّفي كما قال ابن مالِك رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَزِيـدَ فِي نَفْـيٍ وَشِـبْهِهِ فَجُـرّ ... نكِرَةً كَـ(مَا لِبَـاغٍ مِـنْ مَفَـرّ)(١)

---

(١) الألفية (ص:٣٥).

وعلى هذا فـ(مِن) ليسَت بزائِدة، يَعنِي: ليس المَعنَى: يُدْنين عليهن جلابيبَهن، بل (مِن) للتَّبعيض، أي: يُدنين عليهم من جَلابِيبهن، أي: بعض جَلابيبهن.

وهل التَّبعيض هنا تَبعيض جُزْء من كلٍّ، أو تبعيض فَرْد من فَرْد، بمَعنَى هل قوله تعالى: ﴿مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ أي: من الجَلابيب التي عِندهن؛ لأن الواحِدة قد يَكون عِندها جِلْبابان أو أكثَرُ، أو أن المعنى ببَعْض الجِلْباب التي عليها؟

الجَوابُ: هذا الأخيرُ هو الأقرَبُ، يَعنِي: تُدْني عليها بعض جِلْبابها.

والجِلْباب: هو الرِّداء أو المَلاءة أو المِلحَفة، يَعنِي: الشيء الواسِع الذي يَشمَل جميع البدَن أو أكثَره.

و﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ﴾ ولم يَقُل: (إليهن) بل قال تعالى: ﴿عَلَيْهِنَّ﴾؛ ليَكون الإِدْناء مُلاصِقًا لهن، فكأنه ضَمَّن مَعنى: يَضْمُمْنَ عليهن؛ ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ أي: يُقرِّبنه حتى يَضُمَّمنه عليهن.

وقوله تعالى: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ لم يَقُل: (على وُجوهِهن) ولا (على نُحورِهنَّ) ولا (على صُدورِهنَّ)، فيَكون شامِلًا لجميع البدَن؛ فقال تعالى: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ﴾ أي: على جميع البدَن، ولكن من المَعروف أن الجِلباب ساتِر لأكثَر البدَن، والعادة عندهم أن المرأة تَكشِف وجهَها وتَخرُج مَكشوفة الوَجه ومَكشوفة النَّحْر، فأَمَر الله عَزَّوَجَلَّ أن يُدْنين عليهن من جَلابيبهن، أي: على هذا المَكشوفِ الذي يَكشِف عادة وهو الوَجْهُ والنَّحْر، كما قال ذلك ابنُ عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وغيره: بأن تُغطِّيَ وجهها ولا تُبدِ إلَّا عَيْنًا واحِدةً[1] تَنظُر بها للضَّرورة، وهذا فيما إذا كان الجِلباب صَفيقًا بحيث

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٩/ ١٨١).

إذا غطَّتْ وجهَها لا تَرَى، أمَّا إذا كان خَفيفًا كما هو مَعروف عندنا في الوَقْت الحاضِر فلا حاجةَ إلى إبداء العَيْن؛ لأن إبداء العَيْن إنما هو للضَّرورة؛ بدليل أن الصحابة كابن عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وغيره رخَّصوا في إبداء العَيْن الواحِدة؛ لأنها بقَدْر الضَّرورة وإلَّا لكانوا يَقولون: تَخرج العَيْنَيْن جميعًا.

وعلى كل حال: فالمَعنَى يُدْنين عليهن من جَلابيبهن فيما يَكشِفنه من أبدانهم وهو الوَجْهُ، فهذا ما جرَتْ عليه العادة.

وكان هذا الكَشْفُ عامًّا للإماء والحَرائِر، فصار بعض مَن في قَلْبه مرَض مِن المُنافِقين الذين يُؤذون المُؤمِنين والمُؤمِنات يُلاحِقونهن فإذا عثَر عليهم قالوا هذه حَسِبْناها أَمَةً فعيَّرْناها وهي حُرَّة! فشُكِيَ ذلك إلى الرسول ﷺ فأَنزَل الله تعالى هذه الآيةَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ هكذا قال بَعضُهم في سبَب النُّزول، لكنه غيرُ مُسنَد، ونحن لا يُهِمُّنا أن تكون آية لها سبَب في نُزولها أم لَيْسَت لها سبَب؛ المُهِمُّ: هو الحُكْم الذي دلَّت عليه.

قال رَحِمَهُٱللَّهُ: [﴿يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ جَمْع جِلْباب وهي المُلاءة التي تَشتَمِل بها المُرأة، أي: يُرْخين بعضَها على الوجوه إذا خرَجْن لحاجتِهن إلَّا عينًا واحِدة] لضَرورة النظَر.

وقوله رَحِمَهُٱللَّهُ: [جَمْع جِلْباب وهي المُلاءَة]، وهي تُشبِه العَباءة عندنا، ولمَّا أَمَر النبيُّ ﷺ بخُروج النساء في العيد للصلاة، قالت أُمُّ عَطيَّةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: يا رسول الله، إحدانا ليس لها جِلباب. فقال ﷺ: «لِتُلبِسْهَا أُخْتُهَا مِنْ جِلْبَابِهَا»[1]، ولم يَقُل: لتَخرُج

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحيض، باب شهود الحائض العيدين، رقم (٣٢٤)، ومسلم: كتاب صلاة العيدين، باب ذكر إباحة خروج النساء في العيدين، رقم (٨٩٠)، من حديث أم عطية رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا.

بدون جِلباب. وهذا يَدُلُّ على أنه لا بُدَّ أن تَخرُج المرأة بما يَستُرُها ولا يُبيِّن حَجْم جِسْمها.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ﴾ أَقرَبُ إلى ﴿أَن يُعْرَفْنَ﴾ بأنَّهن حَرائِرُ ﴿فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ بالتَّعرُّض لهُنَّ] قوله: [يُعرَفْن بأنهن حَرائِرُ] هذا بِناءً على ما قُلْت، ولكن لنا أن نَقول: ﴿أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ﴾ بأنهن مُحتَشِمات وبَعيدات عن الرِّيَب ولا يُرِدن السُّوء ولا الفاحِشة؛ لأن المرأة إذا كانَت مُحتَشِمة مُتحَجِّبة دل ذلك على كَمال عِفَّتها، وأنها لا تُريد أن تَقَع في مَواضِعَ الرِّيَب، بخِلاف المرأة العاهِرة -والعِياذُ بالله- فإنها تَتبرَّج وتكشِف وجهَها وتُخرِج يديها وذِراعَيْها وحُلِيَّها وما أَشبَه ذلك، فإذا كانت المرأةُ مُتحَجِّبة عُلِم أنها امرأة مُحتَشِمة عَفيفة؛ ولهذا قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ﴾، وإذا كانت عَفيفة مُحتَشِمة فإن الفُسَّاق لا يَتعرَّضون لها؛ لأنهم يَعلَمون أنها ليسَتْ من أَصحابهم، وإنما هي امرأة حامِيةٌ نَفسَها مُحتَفِظة، هذا من جِهة؛ ويُحتَمَل ما قاله المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَن يُعْرَفْنَ﴾ بأنَّهُنَّ حَرائِرُ]؛ والآية صالِحة لهذا ولهذا.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ بالتَّعرُّض لهن بخِلاف الإماء فلا يُغطِّين وُجوهَهن، فكان المُنافِقون يَتعرَّضون لهُنَّ] وهكذا كانت الإِماء في عهد رسول الله ﷺ وفي عهد الخُلَفاء لا يَحتَجِبْن لأنَّهن مَملوكات، ولا يَتعلَّق بهن إلَّا رَديء النَّفْس.

ولكن شَيخ الإسلام ابن تَيميَّةَ[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «إن هذا في الإِماء اللاتي لا يُخشَى مِنهن فِتْنة، وأمَّا الإِماء الجَميلات اللاتي يَفتِنَّ فإنه يَجِب عليهن أن يُغطِّين وُجوهَهن؛ وذلك لخَوْف الفِتْنة لا لإِلْحاقِهن بالحَرائر»، وما قاله رَحِمَهُ ٱللَّهُ صحيح، والمَعنَى يُؤيِّده، فإن كل ما يُخشَى منه الفِتْنة فإنه يَجِب البُعد عنه؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ

(١) مجموع الفتاوى (١٥/ ٣٧٣).

بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾؛ لأن الخَلْخال الذي يُسمَع إذا ضرَبَتِ المرأة برِجْلها يُخشَى منه الفِتْنة، وخَشْية الفِتْنة بمَخفيٍّ عند ضَرْب المَرْأة برِجْلها أقلُّ بكثير من أن تُخرِج المرأة وجهَها، ذلك الوجهَ الجَميل المُجمَّل بالكُحْل والتَّحمير وغير ذلك.

وكلٌّ يَعلَم أن هذا أَعظَمُ فِتْنةً من خَلْخال مَستور يُسمَع صوته عند الضرب بالرِّجْل، وتَأبَى حِكْمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يَنهَى عن ضَرْب المَرأة برِجْلها؛ لئَلَّا يُسمَع خَلْخالها، ثُم يُرخِّص لامرأة من أجمَل النِّساء أن تُظهِر وَجْهها وكفَّيْها!! فهذا تَأباه حِكْمة الله عَزَّوَجَلَّ.

فإن قال قائِلٌ: لمِ ضَرَب عُمرُ الأَمَة حينما غطَّتْ رأسها[1]؟

فالجَوابُ: ضَرَبها لئَلَّا تَتَشبَّه بالحرائر خَوْفًا من أن يَختَلِط هؤلاء بهؤلاء، ثُمَّ يَبقَى الفَرْق والمِيزة بينهما لا أثَرَ لها، فإذا كانت الإِماء يُغطِّين وُجوهَهن بَقِيت الحَرائِر غيرَ مَعلومات؛ ولا يُحتَجُّ به؛ لأن عِندنا قواعِدَ عامة وهي التَّعرُّض للفِتَن مَمنوع في الشَّرْع.

قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ لِمَا سبَق منهن مَن تَرَك التَّستُّر، رَحيمًا بهِنَّ إذ ستَرَهن] ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ سبَقَ تَفسير الغُفور والرَّحيم، وأن الله تعالى يَجمَع بينهما دائِمًا لأَجْل أن يَترَكَّب من الاسْمَيْن زوال المَكروه وحُصول المَطلوب، فزَوال المَكروه بالمَغفِرة وحُصول المَطلوب بالرَّحْمة.

واللهُ عَزَّوَجَلَّ يَذكُر دائِمًا المَغفِرة والرحمة عن أَمْر قد سلَف ولم يَنزِل به حُكْم مثل

(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٣/ ١٣٦)، وابن أبي شيبة في المصنف (٤/ ٣٤٣).

قوله تعالى: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:٢٣]؛ لأنه لولا مَغفِرة الله تعالى ورحمته لكان يُعاقِبنا على المُخالَفة التي لا تَليق، لكن الله تعالى من مَغفِرته ورحمته لا يُؤاخِذنا بما لم يَشرَع لنا.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أَهمِّية ما أَمَر الله تعالى به رسولَه ﷺ في هذه الآيةِ، وجهُ ذلك: أن اللهَ تعالى أمَرَه أن يُبلِّغها أمرًا خاصًا في قوله تعالى: ﴿قُل﴾، وإلَّا فكُل القُرآن مَأمور بقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة:٦٧]، لكن بعض الأَحْكام يُصدِرها الله عَزَّوَجَلَّ، فيَكون كأنه أَرسَل بهذه الآيةِ إِرْسالًا خاصًّا، فيَكون في ذلك دليلٌ على أهمِّية هذا الأمرِ الذي أمَر الله تعالى به رسوله ﷺ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنه يَجِب على الإنسان أن يَغار على زَوْجته أكثَرَ من غيرها؛ لأنها فِراشُه، وفي فَسادها فَسادٌ لِفراشه، وتَشكيك في نَسْله، وجه ذلك: أن الله تعالى بدَأَ بالأزواج فقال تعالى: ﴿قُل لِّأَزْوَاجِكَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الإنسان مَسؤول عمَّن تحت رِعايته سَواء كانت تِلْكَ المَسؤوليةُ عامَّةً أَمْ خاصَّة، وفي هذه الآيةِ مَسؤُوليَّتان على رسول الله ﷺ خاصَّةً وعامَّة؛ فالخاصَّة قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ﴾، والعامَّة قوله تعالى: ﴿وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن الإيمان مُقتَضٍ للعمَل بهذه الآيةِ؛ لقوله تعالى: ﴿وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن على المُؤمِنين مَسؤوليةً في نِسائهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَنِسَاءِ

﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، ولم يَقُل: (ونِساء المُؤمِنات) إشارة إلى أن المُؤمِن يَجِب أن يَكون مُلاحِظًا لِنسائه.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: وُجـوب حِجاب الوَجْـه؛ لقوله تعالى: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾.

ويَتفرَّع على هذا: أنه يَجِب أن نَعرِف مَفهوم الحِجاب الشَّرْعيِّ؛ لأن أَكثَرَ الناس يَظُنُّون أن الحِجاب الشَّـرعيَّ هو أن تُغطِّيَ المرأة جميع جسَدها إلَّا وجهَها وكَفَّيْها، وهذا فهِمناه نحن من الأسئِلة التي تَرِد إلينا: أنهم إذا قالوا: الحِجاب الشَّرْعي. يَعنِي: حَجْب وسَتْر جميع البدَن إلَّا الوجهَ والكَفَّيْن، وهذا خطَأ، فالحِجاب الشَّرْعيُّ أوَّلُ وأَوْلى ما يَدخُل فيه حِجاب الوَجْه.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن من عادة نِسـاء الصحابة لُبْس الجَلابيـب؛ لقوله تعالى: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾، ويَدُلُّ لذلك أيضًا: أن النبيَّ ﷺ لَمَّا أَمرهُنَّ بالخُروج إلى مُصلَّى العيد قُلْن: يا رسول الله، إحدانا ليس لها جِلباب فقال ﷺ: «لِتُلْبِسْهَا أُخْتُهَا مِنْ جِلْبَابِهَا»(١).

ويَتفرَّع على هذه الفائِدةِ: أن الشَّرْع يَتَشوَّف إلى أن تكون المرأة بَعيدةً عن إبراز مَفاتِنها؛ لأن الجِلباب يَكون دائِمًا واسِعًا لا تَظهَر منه مَفاتِن الجِسْم.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: رحمةُ الله تعالى بعِباده حيث يُبيِّن لهم عِلَل الأحكام الشَّرْعية، وجهُ ذلك أن ذِكْر العِلَل يُفيد في:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحيض، باب شهود الحائض العيدين، رقم (٣٢٤)، ومسلم: كتاب صلاة العيدين، باب ذكر إباحة خروج النساء في العيدين، رقم (٨٩٠)، من حديث أم عطية رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

أ- طُمَأْنينة النَّفْس واقتِناعها اقتِناعًا أكثَرَ بذلك الحُكْمِ المُعلَّل.

ب- سُموُّ الشريعة وأنها لا تَأمُر بشيء عبَثًا، بل لا بُدَّ لكل شيء تَأمُر به من الحِكْمة المُناسِبة التي يَنبَنِي عليها الحُكْم.

ج- أن العِلَّة إذا كانت عامَّة أَمكَن أن نَقيس على المُعلَّل ما وافَقَه في تِلك العِلَّةِ فنُلحِقه به في الحُكْم.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: عِناية الله عَزَّوَجَلَّ بالمَرأة بدَفْع ما يُمكِن أن يَكون فيه أذًى عليها؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أن في الحِجاب كَفَّ الأذى عن المرأة، فيَكون في ذلك كَرامة لها، وإِعْزاز لها ورِفعة لها من أن تُؤذَى.

ويَتفرَّع على هذه القاعِدةِ: بَيان قُصور نظَر أُولئِك الذين يَقولون: إن الحِجاب ونَحوَه إذلال للمَرأة، وخَفْضٌ من كَرامتها وإهانة لها.

فنَقول لهم: كذَبْتم أعظَمَ الكذِب، وافتَرَيْتُم أعظَمَ الفِرى؛ فإن حِجابها هو الذي يَدفَع عنها الأذى: أذَى الفُسَّاق، وتَتبُّعَهم لها؛ لأن المَرأة الجَميلة تَكون بالنِّسبة لهؤلاء الأَراذِل كالجِيفة أمام الكِلاب، لا بُدَّ أن يَتْبعوها ولو على الرائِحة!.

وبهذا نَعرِف ما انزَلَق فيه كثير من الشُّعوب الإسلامية في رَفْع الحِجاب الشَّرْعيِّ عن المَرأة، حيث أدَّى إلى المَفاسِد الكبيرة، ولو فتَّشْت ما فتَّشْت في أُولَئِك الأُمَمِ الذين يَدَّعون التَّمَدُّن والتَّحضُّر لوجَدْت كثيرًا وكثيرًا من الحوامِل من البِغاء والزِّنا، هذا فضلًا عمَّن يَستَعمِلن الحُبوب المانِعة من الحَمْل، وفضلًا عمَّن يُجهِضْن الحَمْل قبل أن يَستَتِمَّ، وكلُّ هذا يَدُلُّ على أن الإسلام ومَناهِج الإسلام أَسمَى كل

المَناهِج، وأَحسَنُ من كل الأَنظِمة، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَ﴾.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: إثبات المَغفِرة والرحمة لله عَزَّوَجَلَّ وهي مَأخوذة من هَذَيْن الاسمَيْن الكَريمين ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ هذان الوَصْفان دلَّ عليهما الاسمان دَلالَةَ مُطابَقةٍ، وهذان الِاسْمان يَدُلَّان على الكرَم دَلالة التِزام؛ لأن الكريم هو الذي يَغفِر وهو الذي يَرحَم ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾.

• • ❁ • •

الآية (٦٠-٦١)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا﴾ [الأحزاب:٦٠-٦١].

• • • •

ثُمَّ قال تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾: ﴿لَّئِن﴾ يَقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لام قسمٍ] يَعنِي: مُوطِّئة للقَسَم، وليسَتْ هي أداةَ القسَم، والقسَم محذوف، والتَّقدير: واللهِ لئِنْ لم يَنتَهِ، أو وربِّكَ لئِنْ لم يَنتَهِ. فهِيَ مُوطِّئة للقسَم، وإنها قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لام قسَم]؛ لئَلَّا يَتوهَّم واهِم أنها لامُ الابتِداء، وقوله: (إنْ) هذه شَرْطية، وقوله تعالى: ﴿لَّمْ يَنتَهِ﴾ مجزومة، والدليل حَذْف حَرْف العِلَّة الياء، والجازِم لها ﴿لَّمْ﴾؛ لأنها هي المُباشِرة.

قال تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ يَعنِي: [عن نِفاقِهم]؛ كما قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ وإنها قال: [عن نِفاقِهم]؛ لأنه هو الوَصْف الذي اشتُقَّ منه اسمُ (المُنافقون)، وإلَّا قد يَكون المَعنَى: لئِنْ لم يَنتَهِ المُنافِقون عن نِفاقهم وعن أَذِيَّتهم للمُؤمِنين وغير ذلك.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ بالزِّنا] وهذا بِناءً على أن قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ أن المُراد الأذِيَّة بالتَّعرُّض لهن بالفاحِشة، فالمَعنَى: ﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ همُ الذين يَتعرَّضون للنساء بطلَب الفاحِشة والزِّنا.

ويُحتَمَل أن يَكون المعنى أَعمَّ ممَّا قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ أي: في قُلوبهم مرَض من الشَّكِّ أو سُوء الخُلُق، وغير ذلك، وهو أعمُّ وأحسَنُ.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ المُؤمنين...] المُؤمنين مَفعول ﴿وَٱلْمُرْجِفُونَ﴾؛ لأنه مَن أَرجَف يُرجِف، وهي مَأخوذة من الرَّجْفة، وهي الزَّلزلة، والمُرجِف هو الذي يَقول: قد آتاكم العَدُوُّ، وإن لكم عَدُوًّا كثيرًا، وسَراياكم قد قُتِلَت، وهُزِمت الجُنودُ، وما أَشبَهَ ذلك؛ ليُدخِل الخَوْف والرُّعبَ في قلوب الناس، وسُمِّيَ ذلك إرجافًا؛ لأنه يُزلزِل ثِقَة الإنسان بنَفْسه وبإِخْوانه؛ ولأنه يُزلزِل أَمْنه وطُمَأْنينته، قال بعضُهم: ولأنه لا ثَباتَ له؛ لأنه قول الكذِب، كل هذه المَعانِي يُحتَمَل أن يَكون الإِرْجاف مُشتَقًّا منها أو دالًّا عليها.

إِذَنْ: فالمُرجِف هو الذي يُخبِر بما يُزلزِل طُمَأْنينة المُؤمنين من هَزيمة أو قَتْل عَدُوٍّ أو كثرة جُنود أو ما أَشبَه ذلك، ويُوجَد أُناس من هذا النَّوْعِ في المدينة إذا بعَثَ النبيُّ ﷺ السرايا قاموا يَبُثُّون مثل هذه الأقوالِ بأن السَّرِيَّة قد هُزِمَت، وأُسِرت، وقُتِلَت، وما أَشبَه ذلك.

فهَلِ الإِرجاف خاصٌّ بالمدينة؟

الجَوابُ: المَدينة وغيرها سواءٌ، ولكن الإِرْجاف في المَدينة بَيان للواقِع، والقَيْد إن كان لبَيان الواقِع فلا مَفهومَ له.

قال تعالى: ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ اللَّام في قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ﴾ واقِعة في جَواب القسَم المُقدَّر.

فالجُملة إِذَنْ: جَواب القسَم وليست للشَّرْط؛ لأن القاعِدة أنه إذا اجتَمَع قسَم

وشَرْط فالجَواب للسابِق منها، كما قال ابنُ مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَاحْذِفْ لَدَى اجْتِمَاعِ شَرْطٍ وَقَسَمْ جَوَابَ مَا أَخَّرْتَ فَهْوَ مُلْتَزَمْ[1]

وقال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَنُغْرِيَنَّكَ﴾ لنُسلِّطَنَّك عليهم]، وهذا التَّفسيرُ تفسير باللازِم؛ لأن الإِغراءَ مَعناه: الحَثُّ بإزعاج على أن يُنكِّل بهم، ومنه إِغْراء الإنسان بالعَدُوِّ، بمَعنى أنه يَحُثَّ عليه بإزعاج ليُوقِع به ويَقتُله أو يَهزِمه وما أَشبَهَ ذلك.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ۝٦٠ مَّلْعُونِينَ﴾، قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ﴾ يُساكِنونك ﴿فِيهَآ﴾ يَعنِي: في المدينة ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ ثُمَّ يَخرُجون ﴿مَّلْعُونِينَ﴾ مُبْعَدين من الرَّحْمة الله]، يَعنِي: نُغرِيَنَّك بهم بالتَّسلُّط عليهم؛ إمَّا بالتَّعزير أو بالتَّأديب أو بالقَتْل أو بغَيْر ذلك، فإذا ضاقَت عليهمُ المَدينة خرَجوا؛ ولهذا قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ﴾ ولم يَقُل: فلا يُجاوِرُنَّك؛ وذلك لتَأَخُّر انتِفاء المُجاوَرة عن الإغراءِ؛ لأن الله تعالى يُغريهم بهم فيَحصُل لهم من التعذيب والتَّعزير والإهانة ما لا يَتمكَّنون معه من البَقاء في المَدينة؛ ولهذا جاءَتْ بـ(ثُمَّ)، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾ يُحتَمَل أن المَعنَى: إلَّا قليلًا من الزمَن أو إلَّا قليلًا منهم.

وعلى كِلا الاحتِمالين فإن قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَّلْعُونِينَ﴾ حال من الفاعِل في ﴿يُجَاوِرُونَكَ﴾، وعلى تَقدير المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ هي حال من فاعِل حُذِف مع عامِله؛ حيث قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ثُمَّ يَخرُجون ﴿مَّلْعُونِينَ﴾]، ولكن الأقرَب أن لا نُقدِّر، بل المَعنَى: ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾ في حال كونهم مَلعونين حال المُجاورة،

---

(١) الألفية (ص:٥٩).

يَعنِي: حتى في بَقائهم عِندك يَكونون مَلعونين مَطرودِين مُبعَدين لا يَألَفُهم أحَدٌ ولا يَحنو عليهم.

ثُمَّ قال تعالى: ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ﴾ وُجِدوا ﴿أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا﴾] ﴿أَيْنَمَا﴾ هذه أداة شَرْط تُفيد العُموم في المَكان، وفِعْل الشَّرْط قولُه تعالى: ﴿ثُقِفُوٓاْ﴾ وجَواب الشَّرْط ﴿أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا﴾، يَقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أيِ: الحُكْم فيهم هذا على جِهة الأَمْر به]، الجُمْلة: ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ﴾ جُملة خبَرية؛ لأنها شَرْطية، والجُمْلة الشَّرْطية خبَرية، لكنها خَبَرية بمَعنَى الإِنْشاء، أي: بمَعنَى الأَمْر والطلَب؛ أي: أينما وجَدْتُموهم فخُذوهم واقتُلوهم.

وفي قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿تَقْتِيلًا﴾ المَصدَر مُؤكِّد دَليل على أنهم يُقتَلون أفرادًا وجماعاتٍ.

وهذه الآيةُ -لا شَكَّ- أن فيها وَعيدًا لهؤلاء الذين جمَعوا هذه الأَوْصافَ المُنافِقين والذين في قُلوبهم مرَض والمُرجِفين في المدينة، فيها وَعيد؛ والبَحْث فيها:

البَحْث الأوَّل: هل هذه الأَوْصافُ لمَوصوف واحِد أو أنها لأُناس مُتعَدِّدين؟

هل المَعنَى أنهم مُنافِقون وفي قُلوبهم مرَض ومُرجِفون، فالأَوْصاف هذه لمَوصوف واحِد، وصَحَّ العَطْف؛ لأنه من باب عَطْف الصِّفَة كما في قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾، وهو واحِد لا مُتعَدِّد فالعَطْف هنا عَطْف صِفات، فهل نَقول: إن هذه عَطْف صِفات وأنها لمَوْصوف واحِد. أو نَقول: إنها عَطْف أَعيانٍ مَوْصوفين ليسَت لموصوف واحِد؟

الجَوابُ: هذا الأخيرُ هو الأصَحُّ، وهو الأعَمُّ أيضًا؛ لأن المُنافِق قد يَكون في قَلْبه مرَض يَميل إلى الفاحِشة وإلى الزِّنا، وقد لا يَكون، وقد يَكون مُرجِفًا وقد لا يَكون، وقد يُجمَع بين النِّفاق والمَرَض القَلْبي والإِرْجاف، وقد يَكون الإنسان في قَلْبه مرَض وليس مُنافِقًا، وقد يَكون مُرجِفًا وليس مُنافِقًا ولا في قَلْبه مرَض، فحينَئِذٍ نَتبيَّن أن الأَوْلَى أن هذا العَطفَ عَطْف لمَوْصوف على مَوْصوف، وليس عَطْف على مَوْصوف واحِد، يَعنِي: ليس وَصْفًا لمَوْصوف واحِد حتى نَجعَل العَطْف من باب عَطْف الصِّفات بعضِها على بعض.

البَحْث الثانِي: هل هؤلاء انتَهَوْا أم لم يَنتَهوا؟

الجَوابُ: الواقِع أن الإِغْراء لم يَحصُل؛ ولهذا بَقِيَ المُنافِقون فلا قُتِلوا ولا أُخِذوا، فهم باقون، فهل نَقول: إنهم انتَهَوْا حينما رأَوْا هذا الوَعيدَ. أو نَقول: إنهم لم يَنتَهوا، لكنه عَزَّوَجَلَّ عفا عنهم فيما بَعدُ، وأن هذا من باب إِخْلاف الوعيد، وإِخْلاف الوعيد من الكرَم بخِلاف إِخْلاف الوَعْد، فأيُّهما أرجَحُ؟

الجَوابُ: هُما قَوْلان للعُلماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ: فبَعضُهم يَقول: إنهم لمَّا رأَوْا هذا الوَعيدَ، وكانوا من أَخوَف الناس وأَرعَن الناس انتَهَوْا وترَكوا هذا الأَمرَ. وبعضهم قال: إنهم لم يَنتَهوا، لكن الله عَزَّوَجَلَّ لم يُغرِ نَبيَّه ﷺ بهم؛ لحِكْمة اقتَضَت ذلك.

والذي يَظهَر لي -والله تعالى أَعلَمُ-: أنهم انتَهَوْا؛ لأن المَعروف من حال المُنافِقين أنهم جُبَناءُ، وأنهم يَخافون ويَحذَرون؛ ولهذا يَحلِفون عند الرسول ﷺ بأنهم مُؤمِنون، ولمَّا تَخلَّفوا عن غزوة تَبوكَ جاؤُوا يَحلِفون ويَعتَذِرون، فهُمْ جُبَناءُ، وهم يَعلَمون أن وَعْدَ الله حقٌّ، وأنهم لوِ استَمَرُّوا في أعمالهم العُدوانية هذه لأَغْرى الله تعالى بهم نَبيَّه ﷺ، وحصَل الجلاء، ثُمَّ القَتْل.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: شِدَّة عِناية الله عَزَّوَجَلَّ بنِساء المُؤمِنين، فإن عَلاقة الآية هذه بالتي قَبْلها ظاهِرة، فإن المُنافِقين والذين في قُلوبهم مرَضٌ هم أكثَرُ الناس تَعرُّضًا لأَذِيَّة المُؤمِنات؛ ولهذا أَعقَب الآية السابِقة بهذه الآيةِ، ففيه كَمال عِناية الله تعالى بنِساء المُؤمِنين.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: الوعيد الشديد لهؤلاءِ المُتَّصِفين بهذه الصِّفاتِ الثلاث الذَّميمة: (النِّفاق، ومرَض القَلْب، والإِرْجاف).

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنه إذا ظهَر نِفاق المُنافِق وتَبيَّن عَداؤُه، فإنه يَجوز أن يُعامَل بما يَقتَضيه نِفاقه؛ لقوله تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾، ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾، وسبَقَ لنا البَحث: هل هؤلاء المُنافِقون والذين في قُلوبهم مرَض والمُرجِفون انتهَوْا عن أعمالهم أم لا؟ وقُلنا: إن في ذلك رأيَين لأهل العِلْم رَحِمَهُمُ اللَّهُ وأن الأَقرَب من هذين الرَّأْيَين أنهم انتهَوْا عن ذلك؛ لأنَّا لم نَرَ أن الله عَزَّوَجَلَّ سلَّط رسوله ﷺ عليهم وأَغراه بهم، وهذا أَقرَبُ بكثير من القَوْل بأن الله تعالى لم يُغْرِهِ من باب إِخْلاف الوَعيد.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: التَّحذير من النِّفاق ومرَض القَلْب والإِرْجاف؛ لأن الله تعالى توَعَّد هؤلاءِ إذا لم يَنتَهوا بأن يُسلِّط الله تعالى رسوله ﷺ عليهم ويُغريَه بهم، وقُبْحُ هذه الصِّفاتِ مَعلوم، أمَّا النِّفاق فظاهِر، فإنه من أَرذَل الأَخْلاق؛ لأن من الصِّفات التي يَرتَكِبها المُنافِق أنه إذا وعَدَ أَخلَف، وإذا حدَّث كذَب، وإذا عاهَدَ غدَر، وإذا اؤْتُمِن خان، وهذه من أَرذَلِ الصِّفات الاجتِماعية.

وأمَّا الذين في قُلوبهم مرَض فإن مرَض القَلْب أشدُّ من مرَض البدَن، لأن مرَض البَدَن يُوجِب الألَمَ الحِسِّيَّ الذي قد يَتحمَّله الإنسان، وأمَّا مرَض القَلْب

-والعِياذُ بالله- فإنه يُوجِب القلَق النَّفسِيَّ وضَياع الحَياة كلها والموت المَعنَوي، واسمَعْ إلى قول الله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨]، وما أكثَرَ الأوقاتَ التي تَضيع على مَن غفَل عن ذِكْر الله تعالى، تَضيع بلا فائِدةٍ! وأنت إذا رأَيْت من نَفْسك أن أَوْقاتَك ضائِعة بلا فائِدةٍ، فيَجِب عليك أن تُلاحِظ قَلْبك، فإن هذا لا يَكون إلَّا من غَفْلة القَلْب عن ذِكْر الله تعالى، ولو نظَرْت فيما سبَق من التاريخ كيف أَنتَجَ العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ ما أَنْتَجوا من المُؤلَّفات، ومن فطاحِل العُلَماء الذين تَخرَّجوا على أيديهم في أوقات قد تَكون أقَلَّ من الوقت الذي عِشْتَه أنت، وذلك بسبَب ما ملَأَ الله تعالى به قلوبَهم مِن ذِكْره حتى صارت أعمارهم لا يَضيع منها لَحْظة واحِدة، فعَلَيْك أن تَنتَبِه لمَرَض القَلْب، وأن تُبادِر بمُداواته؛ لأنه إذا تَفَشَّى المَرَض في القَلْب -نسأَل اللهَ تعالى العافِيةَ- قد يَموت ويُطبَع عليه، فلا يُحِقُّ حقًّا ولا يُبطِل باطِلًا.

وأمَّا الإِرْجاف وتَخويف الناس المُؤمِنين وإلقاء الذُّعْر في قُلوبهم، فهذا أيضًا من الأخلاق الذَّميمة؛ لأن الواجِب على المَرْء -على الأقَلِّ- أن يَكون مَوقِفُه مَوقِف المُحايِد، أمَّا أن يَذهَب ويُرجِف بالمُؤمِنين ويَقول: عَدوُّكم أكثَرُ منكم، ولا يُمكِن أن تَغلِبوه، وعَدوُّكم فعَل وفعَل وفعَل!! فإنَّ هذا من علامات النِّفاق.

فإن قال قائِل: ما حُكْم ذِكْر مُختَرَعات الغَرْب والتَّخويف منها؛ كالمُتفجِّرات والقَنابِل والرُّؤُوس النَّوَوية؟

فالجَوابُ: أنه إن ذُكِر على سَبيل التَّخويف والتَّعظيم فهو حرام، فإنه إذا ذُكِر على سَبيل تَعظيم هؤلاء الكُفَّارِ وتَرفيع شأنهم هذا حَرام؛ لأن كلَّ شيء يُوجِب أن نُعظِّم الكافِرين وأن يَكون لهم في قُلُوبنا مَنزِلة فهذا حرام؛ لأننا مَأْمورون تُجاه الكُفَّار

بما أَمَر الله تعالى به نَبيَّه ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة:٧٣]، ومَأمورون بأن نَفعَل كل ما يَغيظهم؛ قال الله تعالى: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ [الفتح:٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾ [التوبة:١٢٠]، فنحن مَأمورون بإغاظتهم، وإهانتهم ما استطَعْنا؛ أمَّا أن نَذكُر ما فيه تَعلية شَأْنهم، وبَيان مَقدِرَتهم، وإلْقاء الهَيْبة في قُلوبنا منهم؛ فإن هذا لا يَجوز كما قُلت.

وأنا حدَّثني رجُل رَحِمَهُ ٱللَّهُ سافَر إلى لَنْدن، وبَقِيَ على لِباسه كما هو يَلبَسه في عُنيزةَ (مِشلَح، وعِقال، ونحوه) وكل شيء، يَقول: فصاروا يُكرِمونني إكْرامًا عظيمًا حتى إني إذا جِئْت أَركَب السَّيَّارة يَتبادَرون الباب ليَفْتَحوه لي، بينما الذي يَذهَب من عندنا يَروح يَلبَس لِباسهم ما يُعدُّ إلَّا كحامِل الزِّبْل؛ لا يَهتَمُّون به إلَّا إن كان له صِفة رَسْمية يَهتَمُّون به من جِهة رَسْميَّته، أو كان يُمكِن أن يَنفعَهم بماله، على كلِّ حال مَنِ اتَّقى الله تعالى جعَل الله تعالى له هَيْبة في القُلوب، اتَّقِ الله تعالى يَتَّقِكَ الناس، وخاف من الله تعالى يَخَفْك الناس.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنه يَنبَغي للإنسان أن يُدخِل على المُؤمِن ما يُقوِّي عزيمته ويُنشِّطه؛ سواءٌ في الجِهاد في سَبيل الله تعالى أو في غيره من الأعمال النافِعة.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن النبيَّ ﷺ مُكلَّفٌ، عبدٌ يُؤمَر ويُنهى؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾.

إذَنْ: إذا لم يُغرِه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بهم، فالواجِب عليه الكَفُّ والتَّوقُّف حتى يُؤذَن له فيه.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: مَشروعية إجلاء مَن في بَقائه ضَرَرٌ، ويُؤخَذ ذلك من قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾، وقد ثبَت نحوُ هذا الإجلاءِ في الزاني إذا لم يكُن مُحصَنًا، فإنه يُجلَد مئة جَلدةٍ، ويُغرَّب عن البلَد الذي زنَى فيه لُمدَّة سَنَة، وثَبَت أيضًا الإجْلاء في قُطَّاع الطريق إذا أَخافوا الناس ولم يَأخُذوا مالًا ولم يَقتُلوا نَفْسًا، فإنهم يُنفَوْن من الأرض، ويُبعَدون، وثبَت الإجْلاء أيضًا في التَّعزير، فإن عُمرَ بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نفَى نَصرَ بنَ الحَجَّاج، وكان رجُلًا وسيمًا حتى إن النساءَ بدَأْنَ يَتغزَّلْنَ به، يقول قائِل:

هَلْ مِنْ سَبِيلٍ إِلَى خَمْرٍ فَأَشْرَبَهَا ... أَمْ مِنْ سَبِيلٍ إِلَى نَصْرِ بْنِ حَجَّاجِ

فأَمَره عُمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يَحلِق رأسَه حتى لا تَفْتَتِنَ النِّساء به، فلمَّا حلَق رأسه صِرْنَ يَتغزَّلن به من وجهٍ آخَرَ بعد الحلْق، فرأى عُمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يُنفَى فنَفاه إلى البَصْرة[1]، وكذلك أيضًا نفَى الحُطيْئَةَ[2].

إِذَنْ: فأَصْل النفيِ والإبعاد عن الأرض ثابِتٌ في القُرآن، يَعنِي: دلَّ عليه القُرآن، وهو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن هذه الأَوْصافَ الثلاثةَ سبَب للَّعْن، وهي: النِّفاق، ومرَض القَلْب، والإرْجاف؛ لقوله تعالى: ﴿مَّلْعُونِينَ﴾ يَعنِي: إذا لم يَنتَهوا فإنهم يَتَّصِفون بهذا الوَصْفِ: ﴿مَّلْعُونِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أن المُنافِق إذا أَظهَر نِفاقه فإنه يَجوز قَتْله؛ لقَوْله تعالى: ﴿أُخِذُوٓاْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا﴾ هذا إذا لم يَنتَهِ عن أذيَّةِ المُؤمنين، فإنه يُؤخَذ ويُقتَّل.

---

(١) أخرجه الخرائطي في اعتلال القلوب رقم (٨٢٦)، وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٣٢٢-٣٢٣).
(٢) انظر: تاريخ دمشق (٧٢/ ٦٦).

ولا يَرِد على ذلك أن النَّبيَّ ﷺ كان يَعلَم من المُنافِقين أقوامًا بأَعْيانهم؛ لأن النبيَّ ﷺ كَفَّ عن قَتْلهم، قال: «لِئَلَّا يَتَحَدَّثَ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ»[1]، فيَكون في ذلك تَنفيرٌ عن الإسلام، والإسلام ما زال في ابتِداء الدَّعوة إليه، ثُمَّ إن المُنافِقين في عَهْد الرسول ﷺ يَتَستَّرُون لا يُعرَفون إلَّا في لَحْن القَوْل، أو بوَحْيٍ أَوْحاه الله تعالى إلى رسوله ﷺ.

الْفَائِدَةُ العَاشِرَةُ: استِعْمال المُبالَغة في الأَلْفاظ لَفْظًا ومَعنًى.

أمَّا مَعنًى فقَوْله تعالى: ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ﴾ في أيِّ مَكان في برٍّ أو بَحْر أو جَوٍّ، قريبًا كان أو بعيدًا، أَخْذًا من عُموم الشَّرْط في قوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ﴾.

وأمَّا المُبالَغة في اللَّفْظ فقَوْله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا﴾؛ لأن هذا أبلَغُ من قوله: (وقُتِلُوا قَتْلًا)، ففيه استِعْمال المُبالَغة في الأَلْفاظ والمَعاني أيضًا، فالمُبالَغة في المَعاني مَأخوذة من الشَّرْط، والمُبالَغة في الأَلْفاظ مَأخوذة من قوله تعالى: ﴿وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا﴾.

• • ۞ • •

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾، رقم (٤٩٠٥)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج، رقم (١٠٦٣)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآيــة (٦٢)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوۡا۟ مِن قَبۡلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلًا ﴾ [الأحزاب:٦٢].

قوله تعالى: ﴿ سُنَّةَ ﴾ السُّنَّة بمَعنَى: الطَّريقة، وسُنَّة الله عَزَّوَجَلَّ نَوْعان سُنَّة كونية وسُنَّة شَرْعية:

أمَّا السُّنَّة الشَّرْعية فإنها تكون بحَسَب مَصالِح العِباد وتَختَلِف باختِلاف الأُمَم كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةً وَمِنۡهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨]، وإن كانت هذه الشَّرائِعُ كلُّها تَتَّفِق في أصول التَّوْحيد فيما يَتعلَّق بآيات الله تعالى وأَسْمائه وصِفاته، وكذلك في القَواعِد العامة في الشَّريعة، وقد أشار الله تعالى إليها في قوله: ﴿ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [الأعراف:٣٣] هذه الفَواحِشَ: ما ظهَرَ منها وما بطَنَ والإِثْمَ والبَغيَ بغير الحَقِّ، وأن تُشرِكوا بالله ما لم يُنزِّل به سُلْطانًا، وأن تَقولوا على الله تعالى ما لا تَعلَمون.

وهذه الأُصولُ الخَمْسُ ذكَرَ أهلُ العِلْم رَحِمَهُمُ اللَّهُ أن جميع الشَّرائِع مُتَّفِقة عليها، لكن من الشَّرائِع التي تَختَلِف مَصالِحها باختِلاف الزَّمان والمَكان والأُمَم، وهذه -أيِ: السُّنَّة الشَّرْعية- لا بُدَّ أن تَختَلِف أَحكامها بحسَب ما تَقتَضيه حِكْمة الله تعالى.

أَمَّا السُّنَّة الكَوْنية فهي ما يُجرِيه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى قدَرًا من العُقوبات وغيرها، وهذه السُّنَّة لا تَتَبدَّل ولا تَتَغيَّر، وإن كان الله عَزَّ وَجَلَّ قد يُضاعِف العُقوبة على بعض الناس دون بعض كما سبَق لنا في نِساء النَّبيِّ ﷺ، قال تعالى: ﴿مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب:٣٠]، وقد يَجْزِي الله تعالى بعض العامِلين على العمَل أكثَرَ من البَعْض الآخر، كما في هذه الأُمَّةِ، فإنها أُعطِيَت كِفْلَيْن من الأَجْر على مَن سبقَها من الأُمَم، وكما في أصحاب الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الذين قال فيهم الرسول ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ»(١).

لكن في العُقوبات يَقول الله تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: سَنَّ اللهُ ذلك]، وأَفادَنا المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا التَّقديرِ أن ﴿سُنَّةَ﴾ مَنصوب على المَصدَر المَحذوف عامِلُه أي: سَنَنَّا بهم سُنَّة الله، أي: سَنَنَّا بهؤلاءِ المُنافِقين والذين في قُلوبهم مرَض والمُرجِفين في المدينة سَنَنَّا بهم سُنَّة الله تعالى فيمَن سَبَق، فإن كلَّ مَن نابَذ عِباد الله تعالى وأَوْلياءَه سلَّط الله عليهم.

وقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ﴾ و﴿خَلَوْاْ﴾ بمَعنَى: مضَوْا، ولهذا قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِن الأُمَم الماضِية في مُنافِقيهم المُرجِفين المُؤمِنين] ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ مِنه ولا من غَيْره، هذا في السُّنَن الكَوْنية.

أَمَّا الشَّرْعية فيَمحو الله تعالى ما يَشاء ويُثبِت، وربما تُبدَّل، لكن سُنَّة الله تعالى

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذًا خليلًا»، رقم (٣٦٧٣)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب تحريم سب الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ رقم (٢٥٤١) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الكَوْنية لن تَجِد لها تَبديلًا، لا منه ولا من غيره في إِنْزال العُقوبة بمَن يَستَحِقُّها، وإن كانت هذه العُقوبةُ قد تَختَلِف، لكن لا بُدَّ للمُخالِفين من عُقوبة، والله تعالى أَعلَمُ.

الآيــة (٦٣)

• ● ∽ ● •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب:٦٣].

• ● ∽ ● •

قال الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: أَهْل مَكَّةَ] والصوابُ: أنه أَعَمُّ.

وفي قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ﴾ ولم يَقُل: سألَك. دليل على أن هذا السُّؤالَ ما زال مُستَمِرًّا على رسول الله ﷺ، فيَسأَله الناس عن الساعة، والسُّؤال عن الساعة يُحتَمَل أن يَكون الحامِلُ عليه التَّكذيبَ بها واستِبْعادها، وهذا يُورَد من الكُفَّار، وتارة يُسأَل عنها سُؤال استِفْهام متى تَكون؟ مع الإيقان بها، وهذا قد يَرِد من المُؤمِنيـن، وتارةً يُسأَل عنها؛ ليُبيِّن للناس أنه لا يُمكِن العِلْم بها، كما سأل جِبريلُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ النَّبيَّ ﷺ عن الساعة قال: متى الساعة؟[1] وهو لم يَسأَل استِبْعادًا وإنكارًا ولا استِرْشادًا: متى يَكون وَقْتها؟ ولكن إعلامًا بأن وَقْتها لا يَعلَمه إلَّا الله تعالى.

ولكن قد يَقول قائِل: إن قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ﴾ لا يَدخُل فيه سُؤال جبريلَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ لأن جِبريلَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ليـس من الناس، فيُجـاب عنه: بأن جِبريلَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حين سأَلَ كان على صُورة الناس.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام، رقم (٨)، من حديث عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ متى تكـون؟ فأَمَر الله تعالى نَبيَّـه أن يُجيب بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾: ﴿قُلْ﴾ في الجَواب، وهذا تَلقينٌ من الله عَزَّوَجَلَّ لرسوله ﷺ بالجَواب أن يَقول هذا، وإنها لقَّنَه الله عَزَّوَجَلَّ؛ ليَتبيَّن للناس عامَّةً أن قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ صادِر من الله تعالى، وليس من تِلْقاء نَفْسه حتى يَقتَنِع الناس بذلك ويُوقِنوا به.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ هـذه الجُملةُ فيها حَصْـرٌ طريقُه ﴿إِنَّمَا﴾، يَعنِي: ما عِلْمها إلَّا عند الله تعالى وحدَه، وهذا كَقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان:٣٤]، فلا أحَدَ يَعلَم متى تَقوم الساعة إلَّا الله عَزَّوَجَلَّ، وكلُّ ما قيل عن وَقْـت قِيامها من السابِقيـن واللَّاحِقيـن فما هو إلَّا تَخرُّص كاذِب، نَعلَم ذلك عِلْم اليَقين؛ لأن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ قال: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾، وأَعْلَمُ الرُّسُل بالله تعالى البَشَري والمَلَكي مُحمَّد ﷺ وجِبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكِلاهما لا يَعلَم، فلمَّـا سأَل جِبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ النبيَّ ﷺ قال: «مَا المَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ»، فإذا كُنت أنت تَجهَل أيُّها السائِل فأنا مِثْلك أَجهَلُ منك.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ وهذا كمـا يَشمَل الساعة العامة التي تَقوم ويُحشَر الناس فيها من قُبورهم لرَبِّ العالمَين، يَشمَل أيضًا الساعة الخاصَّة التي هي موت كلِّ إنسان، فإن مَن مات قامَت قِيامته، وقامَت ساعته؛ لأنه انتَهى من الدنيا إلى دار الجَزاء، ويَدُلُّ لذلك قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان:٣٤]، فما وَجْهُ الدَّلالة من أنه لا يَدرِي أحَدٌ متى يَموت؟

الجَوابُ: وجهُ الدَّلالة أنه إذا انتَفَى عِلْمه بأيِّ أَرْض يَموت ففي أيِّ زمَن من باب أَوْلى، وذلك لأن الأَرْض يَتمكَّن الإنسان أن يَذهَب إليها أو لا يَذهَب، والزمَن

ليس له فيه تَصرُّف، فإذا انتَفَى عِلْمه بما له فيه تَصرُّف، وهو الانتِقال من مَكانٍ لآخَرَ فانتِفاء عِلْمه بما لا يَتَصرَّف فيه من بابِ أَوْلى.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ قال المُفَسِّر: [يُعلِمكَ بها] أي: أنت لا تَعلَمها، ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾: (ما) يُحتَمَل أن تَكـون نافِيةً يَعنِي: لا يُدرِيك عنها شيء، ويُحتَمَل أن تَكون استِفْهاميَّة يَعنِي: أيُّ شيء يُعلِمك بها حتى تُسأَل عنها، وأيًّا كان، فالله تعالى يَنفِي عِلْم رَسوله ﷺ بها، ويَقول له: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ﴾ تُوجَد ﴿قَرِيبًا﴾]، ظاهِر صَنيع المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أو المُفسِّر أن قوله تعالى: ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ﴾ جُمْلة مُستَأْنَفة لا عَلاقةَ لها بالفِعْل الذي قَبْلها، وأنها جُمْلة مُستَأْنفة مِن الله تعالى يَعنِي: لا تَدرِي عنها أنت، ولكنها قريبة.

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ و﴿لَعَلَّ﴾ هنا للتَّوقُّع أي: أنها مُتوقَّعة، وذهَب بعضُ المُعرِبين إلى أن قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ﴾ مَفعول لِقوله تعالى: ﴿يُدْرِيكَ﴾ مَفعول ثانٍ وثالِث، لكنه عُلِّق بـ﴿لَعَلَّ﴾؛ لأن (لعَلَّ) من المُعلِّقات يَعنِي: وما يُدريك عن تَوقُّع قُرْبها، يَعنِي: لا تَدرِي عن قُرْبها أيضًا، ومَن لم يَدْرِ عن قُرْبها لا يَدرِي عن وُقوعها من بابِ أَوْلى، و(لعَلَّ) في القرآن تكون للتأكيد، وقد تَكون للتعليل أيضًا، مثل ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة:٩٠]، وما أَشبهَها، لكن لا تَكون للرَّجاء، وبعضُهم قال: تَكون للرَّجاء باعتِبار المُخاطَب لا باعتِبار المُتكلِّم.

وأيًّا كان، فالله عَزَّوَجَلَّ نفَى أن يَكـون النبيُّ ﷺ عالِمًا بها أو بقُـرْبها، وإذا انتفَى عِلْم النبيِّ ﷺ بذلك فعِلْم غيره من بابِ أَوْلى أن يَنتَفِيَ.

ثُمَّ إن السُّؤال عن الساعة ليس بذِي قيمة كبيرة، القيمة الكبيرة ما أَشار إليه

النبيُّ ﷺ حيث قال حين سَأله رجُل عن الساعة، قال: «انْظُرْ مَاذَا أَعْدَدْتَ لَهَا»(١) هذه هي القِيمةُ، أمَّا متى تَأتي أو لا تَأتِي فليس ذا قيمة كبيرة، لكن القِيمة الحَقيقية أن يَنظُر الإنسان ماذا أَعَدَّ لها.

ومِن ثَمَّ أَعقَب الله تعالى هذا بقَوْله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ [الأحزاب:٦٤] إلخ، يَعنِي: احذَرْ أن تَقوم الساعة عليك وأنت من هؤلاء، إن الله تعالى لعَن الكافِرين.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: في قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ أن الناس ما زالوا يَتَساءَلون عن الساعة.

ويَتفرَّع من تِلكَ الفائِدة فائِدة أُخرى: وهي أن شَأْن الساعة عَظيم؛ لأنه إنما يَكثُر التَّساؤُل عن الأمور العظيمة دون الأمور التافِهة.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن النَّبيَّ ﷺ لا يَعلَم الغَيْب، ولو كان يَعلَم الغَيْب؛ لعَلِم متى تَكون الساعة.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن عِلْم الساعة عند الله تعالى لا يَعلَمه أحَدٌ؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾، وهذا حصَل.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن الساعة قريب؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾، ويَدُلُّ لقُرْبها أن النبيَّ ﷺ كان آخِـرَ الأنبياء، وقد ثبَـتَ عنه ﷺ أنه قال:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم (٣٦٨٨)، ومسلم: كتاب البر والصلة، باب المرء مع من أحب، رقم (٢٦٣٩)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

«بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ، وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالَّتِي تَلِيهَا»[(١)]، يَعنِي: أننا مُقترِنان، أو أنه ليس بَيْني وبين الساعة إلَّا كما بين الأُصبُع الوُسطى والسَّبَّابة في القُرْب.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الله تعالى خاطَب نبيَّه ﷺ بقوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾، وهو دَليل على أن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بشَرٌ كغيره من البَشَر يُخاطَب بما يُخاطَب به البَشَر، فخِطاب الله تعالى نَبيَّه ﷺ وقوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ ليس كما لو خاطَبْت إنسانًا، وقلت: ما يُدْرِيكَ عن هذه الأمور، أو عن هذا الأمرِ. فإن ذلك يُعَدُّ ذلك من باب التَّنقيص أو التَّنقُّص، ولكن الله عَزَّوَجَلَّ يُخاطِب نَبيَّه بما هو أَهْله.

• • ❁ • •

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب قول النبي ﷺ: «**بعثت أنا والساعة كهاتين**»، رقم (٦٥٠٤)، ومسلم: كتاب الفتنة وأشراط الساعة، باب قرب الساعة، رقم (٢٩٥١)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآيتان (٦٤، ٦٥)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب:٦٤-٦٥].

يَقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ اللَّعْن قال أهل العِلْم رَحِمَهُمُ اللَّهُ: مَعناهُ: الطَّرْد والإِبْعاد عن رحمة الله، وهذه جُمْلة مُؤكَّدة بـ(إنَّ)، وقوله تعالى: ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أيِ: الكافِرين بالله تعالى، وبما يَجِب الإيمان به.

وقوله تعالى: ﴿لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أبعَدَهم عن الرحمة.

ثُمَّ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ يَعنِي: ليسوا مُبعَدين عن الرحمة فقَطْ، وسالِمين من الإِثْم، بل إنهم جُمِع لهم بين الإِبْعاد عن رحمة الله وبين العُقوبة، ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ﴾ أي: هيَّأ لهم ﴿سَعِيرًا﴾، يقول: نارًا شديدة يَدخُلونها، نارًا يُسعَرون بها- والعِياذُ بالله- فهُمْ وَقودُها والحِجارة، نارًا تَطَّلِع على الأَفئِدة، تَصِل إلى قلوبهم التي في أَجوافهم -والعِياذ بالله- وهذه النارُ ليسوا باقيـن فيها يومًا أو يومين أو سَنَة أو سَنَتَيْن.

يَقول الله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ قال المُفَسِّـر رَحِمَهُ اللَّهُ: [مُقدِّرًا خُلودَهم] أَشار المُفَسِّـر رَحِمَهُ اللَّهُ إلى أن الحال هنا حالٌ مُقدَّرة؛ لأن الخُلود ليس حال كُفْرهم، ولكن حال مُجازاتهم يوم القِيامة، والحال هذه حالٌ مُقدَّرة ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾.

و﴿أَبَدًا﴾ هذه تُفيد استِمْرار الزمَن في المُستَقبَل استِمرار الزمَن في المُستقبَل، وأزَلًا تُفيد استِمْراره في الماضِي؛ ولهذا نَقول: إن عِلْم الله تعالى عِلْم ثابِت لله تعالى أزَلًا وأبَدًا.

وقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ هذه إحدى آيات ثلاث صرَّح الله تعالى فيها بأبَديَّة خُلُود أَهْل النار، والآية الثانية في سُورة النِّساء: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [النساء:١٦٨-١٦٩]، والآية الثالِثة في سورة الجِنِّ: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن:٢٣].

وفي بعض هذه الآياتِ -بل في واحِدة منها- ردٌّ واضِحٌ على قول مَن قال: إن النار غير مُؤبَّدة؛ ولهذا كان عَقيدة أهل السُّنَّة والجماعة أن النار مُؤبَّدة كالجَنَّة، وليس في هذا مُنافاة لرَحْمة الله عَزَّوَجَلَّ وحِكْمته، ولا فيها إبطال لقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في الحديث القُدسيِّ: «إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي»(١)؛ لأن هذه العُقوبةَ قد أُنذِر بها أُولَئِك الذين فعَلوا ما يَستَحِقُّونها، وقامَت عليهم الحُجَّة بها، فليس لهم عُذْرٌ، فيَكونون قد عُومِلوا بمُقتَضى العَدْل فعُقوبتهم هذه عَدْلٌ من الله عَزَّوَجَلَّ، وليس فيها ظُلْمٌ، ومَن أُنذِر بشَيْء ففعَل السبَب المُوصِّل إليه باختِياره فهو الذي جَنَى على نَفْسه.

فائِدةٌ: قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ كيف قال تعالى: ﴿فِيهَآ﴾ و﴿سَعِيرًا﴾ مُذكَّر؟

الجَوابُ: لأن المُراد بالسَّعير هنا سَعير النار، وهي مُؤنَّثة.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾، رقم (٧٤٢٢)، ومسلم: كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى، رقم (٢٧٥١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

يَقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾، قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ يَحفَظُهم عنها، ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ يَدفَعها عنهم] ﴿لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ يَتولَّاهم بحُصول المَطلوب، ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ يَنصُرهم بدَفْع المَكروه فهُمْ لا يَجِدون أحَدًا يوم القِيامة يَتولَّاهم، ويَحصُل لهم مَطلوبُهم بحِمايتهم من النار وإدخالهم الجَنَّة، ولا يَجِدون أحَدًا يَنصُرهم من هذه النارِ ويَدفَعُهم عنها ويُخرِجهم منها بعد الدُّخول؛ لأن هؤلاءِ الكُفَّارَ لا تَنفَعُهُم شَفاعة الشافِعين، أمَّا العُصاة من المُؤمِنين فإنهم قد يَجِدون شُفعاءَ في ذلك اليومِ يَشفَعون فيمَنِ استَحَقَّ النار ألَّا يَدخُلها، وفيمَن دخَلها أن يُخرَج منها.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أن الله تعالى لعَن الكافِرين وأبعَدهم وطَردهم عن رَحْمته.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: التَّحذير من الكُفْر؛ لأنه سببٌ للَّعْنة.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثبات العِلَل والأسباب، ويُؤخَذ من قوله تعالى: ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فـ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وَصْفٌ عُلِّق به اللَّعن، فهو رَبْطٌ للَّعْن بالكُفْر، فيَكون في هذا إثباتُ العِلَل والأسبابِ، وهذا كثيرٌ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: الرَّدُّ على الجَهْمية الذين يَقولون: إن الله عَزَّوَجَلَّ يَفعَل الأشياء لا لحِكْمة، بل لمُجرَّد المَشيئة.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثبات وُجود النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: عِظَمُ النار؛ لأن السَّعير إنها يُقال للنار العَظيمة المُسعَّرة، وهذا أَمْرٌ ثبَتَ في عِدَّة آيات وأَحادِيثَ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: تَأبيدُ خُلود الكافِرين في النار؛ لقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾، وفيها ردٌّ على مَن قال بفَناء النار، والذين قالوا بفَناء النار طائِفة من السلَف والخَلَف، لكن قولهم ضعيف، أمَّا أبديَّة النار فقد أَجمَع عليها السلَف وأهل السُّنَّة، ولم يُخالِف في ذلك إلَّا طائِفة من المُعتَزِلة الذين يَمنَعون تأبيد أَفعال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ويَقولون: إن التَّسلسُل في الأبَد مُمتَنِعٌ، كما يَرَوْن أن التَّسلسُل في الأزَل أيضًا مُمتَنِع.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن هؤلاءِ المُعذَّبين في النار لن يَجِدوا أحَدًا يَتولَّاهم بدَفْع العَذاب عنهم، ولا بمَنْعه قبل أن يَنزِل بهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾، فالوليُّ هو الذي يَتولَّاهم ويَحميهم ويَحفَظهم من أن يَنالَهم سُوء، والنَّصير هو الذي يَدفَع عنهم البلاء بعد نُزوله.

• • ❁ • •

الآية (٦٦)

• ● ● •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ [الأحزاب:٦٦].

• ● ● •

قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾: ﴿يَوْمَ﴾ ظَرْف، والظَّرْف والجارُّ والمَجرور لا بُدَّ له من عامِلِ الذي يُسمَّى المُتعلِّق؛ ويُحتَمَل أن العامِلِ قوله تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾، ويُحتَمَل أنها ﴿خَٰلِدِينَ﴾، ويُحتَمَل أنها ﴿يَجِدُونَ﴾، فتكون تَنازَعت فيها العوامِل الثلاثة، ويُحتَمَل أن العامِل محذوف أي: اذْكُرْ يومَ تُقلَّب وجوهُهم، وكلُّ هذا مُحتَمَل، وكلُّ هذا هو الواقِعُ.

وقوله تعالى: ﴿تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ﴾ أي: تُصرَف من جِهة إلى جِهة كما يُقلَّب اللَّحْم على النار لينضَج، والعِياذ بالله.

وفي قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ﴾ ولم يَقُل: يوم يُقلَّبُون؛ أن هذا الأمر يَقَع مِنهم على سَبيل الكُرْه -والعِياذُ بالله- وأنه ليس باختِيارهم، تُقلَّب وُجوهُهم في النار.

وقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ﴾ يُحتَمَل أنها حالٌ وهو الأَقرَب من الهاء في ﴿وُجُوهُهُمْ﴾ يَعنِي: تُقلَّب وهُمْ يَتحسَّرون هذا التَّحسُّرَ ﴿يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ﴾، ويُحتَمَل أن تكون استِئْنافية، أي: حِكاية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لهم عنهم ما يَقولون ﴿يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [(يا) للتَّنبيهِ] وليسَتْ للنِّداء؛ لأن ياءَ النِّداء لا تَدخُل إلَّا على مَن يَصِحُّ نِداؤُه حَقيقةً أو حُكْمًا، و(لَيْتَ) لا يَصِحُّ نِداؤُها؛ لأنها حَرْف، لأن: (لَيْتَ) للتَّمنِّي.

يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنها [للتَّنبيه]، وقِيل: إنها نِداء لمُنادًى محَذوفٍ يُناسِب المَقامَ: ﴿يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ﴾ المُنادَى المَحذوف تَقديرُه: يا ربَّنا لَيْتَنا أَطَعْنا الله تعالى وأَطَعْنا الرسول ﷺ، فعَلى الأوَّل يَكون التَّنبيهُ هنا يُراد به زيادة التَّحسُّر، كأنهم يُنبِّهون أَنْفُسهم لهذا التَّمنِّي أَلَّا يَتمَنَّوْه، وعلى الثاني يَكون المُنادَى محَذوفًا للمُبادرة بذِكْر التَّمنِّي دون ذِكْر مَن وَجَّهوا الخِطاب إليه، وأيًّا كان فإنه يَدُلُّ على شِدَّة تحَسُّرهم.

وقوله تعالى: ﴿يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ هذا تمَنِّي ما يَتعذَّر حُصوله في ذلك الوقتِ، وهذا أشدُّ تَعذُّرًا من قول الشاعِر:

أَلا لَيْـتَ الشَّـبَابَ يَعُـودُ يَوْمًـا فَـأُخْبِرُهُ بِـمَا فَعَـلَ المَشِـيبُ(١)

وقوله تعالى: ﴿يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾: ﴿أَطَعْنَا﴾ هي أَصْلًا بلا أَلِف فنَقول: أَطَعْنَ الله وأَطَعْنَ الرسولَ، ولا تَقُلْ: إنه يجِب أن أُشير إلى الأَلِف؛ لئَلَّا تَشتَبِه النون؛ وأما قوله تعالى: ﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [النحل:١٥]، فليس فيها شيء، تُحذَف الأَلف لالْتِقاء الساكِنَيْن.

فهنا أيضًا نَحذِف الأَلِف لالتِقاء الساكِنَيْن، ولا نَقول: إن بحَذْفنا إيَّاها يَشتَبِه ضمير المُتكَلِّم بضمير النِّسوة؛ لأن السِّياق يَدُلُّ على المَعنَى؛ فالأَلِف مَوْجودة خطًّا، لكن لا يُنطَق بها لَفْظًا، وكذلك في قوله تعالى: ﴿أَطَعْنَا ٱللَّهَ﴾ مَوْجودة خطًّا، لكن في اللَّفْظ لا تُنطَق بها، ومِثْلُه: ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ﴾ [الأعراف:١٨٩]، تُحذَف الأَلِف.

(١) البيت لأبي العتاهية، انظر: ديوانه (ص:٤٦).

فقوله تعالى: ﴿يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾: ﴿ٱلرَّسُولَا۠﴾ بالألِف، والألِف هنا للإطْلاق، وتَقدَّم في هذه السُّورةِ نَظيرُها: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ [الأحزاب:١٠]، وسيأتي بعدها أيضًا كلِمةٌ أُخرى ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأحزاب:٦٧]، فهذه ثَلاث كلِمات فيها ألِفٌ تُسمَّى ألفَ الإطلاق، وهي ثلاث ألِفات فيها ثلاث قِراءات: قِراءةٌ بإِثْبات الألِف وَصْلًا ووَقْفًا، وقِراءةٌ بحَذْفها وَصْلًا ووَقْفًا، وقِراءةٌ بحَذْفها وَصْلًا وإبقائِها وَقْفًا.

ففي قوله تعالى: ﴿يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ ٦٦ وَقَالُواْ﴾، يَجوز أن نَقرَأها على الثلاث -وكلُّها سَبْعية- على النَّشْر: (يا لَيْتنا أَطَعْنا الله وأَطَعْنا الرَّسولا)، (يا لَيْتنا أَطَعْنا الله وأَطَعْنا الرَّسولا وقالوا)، هذه قِراءة، أي: أنَّنا أَثْبَتنا الألِف وَصْلًا ووَقْفًا.

والقِراءة الثانية: (يا لَيْتنا أَطَعْنا الله وأَطَعْنا الرسولَ وقالوا)، (يا لَيْتَنا أَطَعْنا الله وأَطَعْنا الرسولْ * وقالوا)، بحَذْف الألِف وَصْلًا ووَقْفًا.

القِراءة الثالِثة: (يا لَيْتنا أَطَعْنا الله وأَطَعْنا الرسولَ * وقالوا)، (يا لَيْتنا أَطَعْنا الله وأَطَعْنا الرسولَا وقالوا)، وهذه التي تُثْبِتها وَقْفًا لا وَصْلًا.

وقوله تعالى: ﴿أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾: (الرسول) هنا اسمُ جِنْس، يَشمَل كلَّ رسولٍ أُرْسِل إلى هؤلاء؛ لأن أهل النار ليسوا مُختَصِّين بأُمَّة مُحمَّد ﷺ، بل بجَميع الأُمَم، فيَقصِدون بالرَّسول الجِنْس، وبالله تعالى واحِدًا.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: شِدَّة عَذاب الكافِرين -والعِياذُ بالله- في النار، حيث إنه ذكَر التَّعذيب على الوجه الذي يَكون تعذيبه أعظَمَ إهانةً من بَقيَّة البدَن، ولأن الوجهَ

يُحِسُّ بالألَمَ أكثَرَ ممَّا يُحِسُّ غيره من الأعضاء الظاهِرة، ولأن الوجهَ هو شرَف الإنسان وظاهِرته، فإذا وقَع التَّعذيب عليه صار هذا أشَدَّ في الألَمَ النَّفْسيِّ؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن هذا التَّقليبَ بغير اختِيار منهم؛ لقوله تعالى: ﴿تُقَلَّبُ﴾، فهُمْ يُقلَّبون فيها -والعِياذُ بالله- كما تُقلَّب اللَّحْم على النار لشَيِّها.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: ظُهور التَّحسُّر من أُولئِك الكافِرين حين عذابهم؛ لقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾، ولكن هذا أَمْر فات أَوانُه.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن طاعة الله تعالى ورسوله ﷺ سببَ للنَّجاة من النار؛ لأنهم لم يَتمَنَّوْا شيئًا سِوى طاعة الله تعالى ورسوله ﷺ التي يَنجون بها من هذا العَذابِ.

• • ۞ • •

الآيتان (٦٧، ٦٨)

• • ● • •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب:٦٧-٦٨].

• • ● • •

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا﴾ [﴿وَقَالُوا﴾ أي: الأَتْباع منهم]، كما قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا﴾ يعني: يا ربِّ، فحَرْف النِّداء محذوف.

يَقول المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا﴾ وفي قِراءة] يعني: سَبْعية [«ساداتِنا» جمعُ الجَمْع] فسادَةٌ جمع سَيِّد، وسادات جمع سادَةٍ، فهي جَمْع الجَمْع، ففيها قِراءتان: ﴿سَادَتَنَا﴾ و«ساداتِنا»، وإنما جُمِعَت؛ لكثرة الأَسْياد في الأُمَم.

والسَّيِّد: هو ذو الشَّرَف والقَدْر في قومه المُقدَّم فيهم، هذا السَّيِّدُ.

أمَّا قوله تعالى: ﴿وَكُبَرَاءَنَا﴾ فهُمُ الَّذين فوق الأَسْياد، كالأُمراء ونحوهم، فالناس لهم أَسياد مُطاعون، ولهم كُبَراءُ فوقَ هؤلاء، فيَقولون: ﴿إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا﴾ الصِّنْفين جميعًا، وبطاعتهم ﴿فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾ أي: فبِسَبب طاعَتنا لهم أَضلُّونا السَّبيلَ، والضَّلال هنا بمَعنَى: الضَّياع عن الصواب وعن الحقِّ، أو التَّيهان، يَعنِي: تُهْنا السبيل، والمُراد بالسَّبيل: الطريق الذي هو طَريق الله تعالى، فـ(أل) هنا للعَهْد الذِّهْني أي: السَّبيل المَعهود المُوصِّل إلى الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في السبيل: [طَريق الهُدَى ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي: مِثْلَيْ عَذابِنا...] اللهُ أَكبَرُ! كانوا في الدنيا يُجِلُّونهم ويحتَرِمونهم ويُعظِّمونهم ويُؤثِرونهم على أنفُسهم، وفي الآخِرة على العكس، قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا﴾ [البقرة:١٦٦-١٦٧]، فالمَتْبوعون يَتبَرَّؤُون، وهؤلاءِ أيضًا يَشتُمون ويَلعَنون، يَقولون: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾.

وهم بهذا الدُّعاءِ ليسوا جائِرين؛ لأنهم أَرادوا بالضِّعْفين أنَّ هؤلاءِ الكُبَراءَ ضلُّوا وأَضَلُّوا، فيَكون عليهم إِثْمانِ: إِثْم الضلال بأنفُسهم، وإِثْم الإِضْلال بغيرهم؛ ولهذا قال النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «مَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»(١)، وقال تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت:١٣]، فدُعاء هؤلاءِ الأَتْباعِ دُعاء عَدْل وليس دُعاءَ جَوْر؛ لأن هؤلاءِ المَتبوعين مُستَحِقُّون للعَذاب مرَّتَيْن.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱلْعَنْهُمْ﴾ عذِّبْهم]، ففَسَّر اللعنة بالعَذاب؛ لأنهم في النار، فهم مَطرودون عن رحمة الله، ولكن لو أنَّ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَبْقاها على ما هي عليه لكان حَقًّا، فيَقول: الْعنْهُم، يَعنِي: أَبْعِدْهم إبعادًا كبيرًا عن رَحْمتك؛ حتى لا ترحَمَهم يومًا من الدَّهْر.

وقوله تعالى: ﴿كَبِيرًا﴾ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [«كثيرًا» عددُه، وفي قِراءةٍ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة، رقم (١٠١٧)، من حديث جرير بن عبد الله البجلي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

بالمُوحَّدة أي: عَظيمًا] ففيها قِراءَتان: «والْعَنْهُمْ لَعْنًا كَثِيرًا» وهذا باعتِبار الكِمِّية، و﴿لَعۡنٗا كَبِيرٗا﴾ باعتِبار الكَيْفية أي: عظيمًا.

فإن قِيل: كيف يَكون فيها قِراءَتان والقول واحِد صادِر من هؤلاء؛ فهُمْ إمَّا أن يَكونوا قالوا: كبيرًا. وإمَّا أن يَكونوا قالوا: كثيرًا. والله عَزَّوَجَلَّ يَحكِي عنهم؟

بمَعنَى: أن الله يَحكِي عن هَؤُلاء الكُفَّار أنَّهم يَقولون: ﴿وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا﴾ وعَلى القِراءة الثانية: «كَثيرًا» فكَيْف يَحكِي قَوْلين عن قائِل واحِد، يَعنِي: هم إمَّا قالوا: (كبيرًا) أو قالوا: (كثيرًا)؟

فالجَواب: على أحَد وَجْهين: إمَّا أن بعضَهم يَقول: كثيرًا. والآخَرُ يَقول: كبيرًا. وإمَّا أنهم يَقولون أحيانًا: ﴿كَبِيرٗا﴾، وأَحيانًا: «كثيرًا»؛ ولا يُحتَمَل أن الواحِد منهم يَجمَع بينهما في كلِمة واحِدة بمَعنَى: أن يَقول: والْعَنْهم لَعْنًا كبيرًا كثيرًا؛ لأنه ما حكَى هذا، بل الكَلِمة واحِدة؛ إمَّا (كبيرًا) وإمَّا (كثيرًا).

ولهذا لا نَجمَع بين الكلِمتَيْن، لا في الآية هذه، ولا في قوله ﷺ حين علَّم أبا بَكْر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا»[1] وفي لفظ: «كَبيرًا»[2]، فلا نَجمَع بينهما ونَقول: اللَّهُمَّ إني ظلَمْت نَفْسي ظُلْمًا كثيرًا كبيرًا. بل نَقول أحَدَ اللَّفْظَيْن؛ لأن السُّنَّة لم تَرِد بالجَمْع بينهما، وكذلك هنا في القُرآن لا يَجوز لأحَدٍ أن يَقول: والْعَنْهُم لعنًا كثيرًا كبيرًا، هذا حرام؛ لأنه إذا قال ذلك فقَدْ زاد في القُرآن، فنَقول إمَّا هذا وإمَّا هذا.

وقوله تعالى: ﴿ضِعۡفَيۡنِ﴾ يُقال ضِعْف. ويُقال: ضِعْفَيْن، بمَعنًى واحِدٍ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب الدعاء قبل السلام، رقم (٨٣٤)، ومسلم: كتاب الذكر، باب استحباب خفض الصوت بالذكر، رقم (٢٧٠٥)، من حديث أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الذكر، باب استحباب خفض الصوت بالذكر، رقم (٢٧٠٥/ ٤٨).

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: فيها دَليل على اعتِرافهم بأنهم مُقلِّدون ولَيْسوا مَتبوعين؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن التَّقليد لا يُغنِي من العَذاب، ولو كان كلام الكُبَراء والزُّعَماء، وقد بيَّن لهم الحقَّ، فإذا خالَفوه لأَجْل مُوافَقة زُعمائهم فإن ذلك لا يُنْجِيهم من العذاب.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تَحريم تَقليد العالِم إذا تبيَّن النصُّ، وهذا يؤخذ من أن الله تعالى عذَّب هؤلاء على تقليد كُبَرائهم وزُعَمائهم في مُخالَفة الحقِّ، فإذا تَبيَّن لك الحقُّ فلا تَقُل: قال العالِم الفُلانيُّ. وقال الإمامُ الفُلانيُّ. فتكون مُشابِهًا لأهل النار الذين قالوا: ﴿إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: جَواز نِسبة الشيء إلى سببه؛ لقولهم: ﴿فَأَضَلُّونَا﴾، مع أن الذي يُضِلُّ ويَهدي حقيقةً هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لكن هؤلاء الكُبَراء صاروا سببًا للإضلال، فنُسِب الإضْلال إليهم.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: الرَّدُّ على القدَرِيَّة في قولهم: ﴿أَطَعۡنَا﴾، وقولهم: ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن مُوالاتَهم لهؤلاء الكُبَراء والسادة ستَنقَلِب يوم القيامة عَداوةً؛ لقولهم: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: تَحذيرُ مَن حولَ وُلاة الأُمور والولاة سَواءٌ كانوا وُزراءَ أو مُدراءَ أو أَكبَرَ من ذلك، ففيها تَحذيرُ مَن كان حولَهم أن يَتَّبِعَهم في مَعصية الله تعالى، وأنه سيَأتي اليوم الذي يَندَم فيه، ويَتبَرَّأ ويَدعو عليهم بمِثْل هذا الدُّعاءِ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن السادة والكُبَراء المُضلِّين لا يَنفَعون أَتباعهم يوم القِيامة، ووجهه قوله تعالى: ﴿لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾؛ ولأنهم دَعَوْا على هؤلاء: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾، ولو كانوا يَنفَعونهم ما دَعَوْا عليهم.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: التَّحذير من جُلَساء السُّوء، ووجهُه قوله تعالى: ﴿فَأَضَلُّونَا﴾، فكُلُّ إنسان تَرَى أنه سيُضِلُّك عن سَبيل الله تعالى فالواجِب عليك البُعْد عنه، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ مُخطِرًا عن هـذه الحالِ: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ [الفرقان:٢٧-٢٨]، ﴿فُلَانًا﴾ هذا ليس من الكُبَـراء والسادة، بل أي فلان، ﴿يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى﴾ [الفرقان:٢٨-٢٩]، وهذه هي النُّقْطة، فسيَكون قوله هنا: ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ يَعنِي: بعد أن جاءَهُم الذِّكْر وتَبيَّن لهم الحَقُّ تابَعوا هؤلاءِ فصارت عليهم هذه العُقوبةُ.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أن الدار الآخِرة لا يَنقَطِع فيها التكليـف انقِطاعًا تامًّا، فالله تعالى أَثبَتَ أن هؤلاء يَدْعون الله تعالى، والدعاء نَوْع من العِبادة، ولا نَقول: إن الآخِرة ليس فيها دُعاءٌ، ولا فيها سُجـودٌ، ولا فيها عمَل، بل فيها، لكنها ليسـت كالدُّنيا، وإلَّا فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَقول في سورة (ن): ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [القلم:٤٢]، هذا تكليـف: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ [القلم:٤٣].

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: بَيان شِدَّة بُغْض هَؤلاء الأَتْباعِ للمَتبوعين، يَعنِي: أنهم دَعَوْا أنَّ الله تعالى يُضاعِف عليهم العَذاب ويَلعَنهم أيضًا، وليس لَعْنًا قليلًا، بل كثيرًا وكبيرًا أيضًا، لقوله تعالى: ﴿وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾.

الآيــة (٦٩)

• ● ● •

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ﴾ [الأحزاب:٦٩].

• ● ● •

يَقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ ﴾ مع نَبيِّكم ﴿كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ﴾ بقَوْلهم مثلًا: ما يَمنَعه أن يَغتَسِل معَنا إلَّا أنه آدَرُ].

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ ﴾ تَقدَّم الكلام مِرارًا وتَكرارًا على قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ على كَوْنها صُدِّرت بالنداء، وعلى أن فيها وَصْفَ الإيمان.

قوله تعالى: ﴿لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ﴾: ﴿كَٱلَّذِينَ﴾ الكاف هنا اسمٌ بمَعنَى: مِثْل، فهي خبَر (تكون) ﴿كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ﴾، ولكنَّهم آذَوْهُ بدون ضَرَرٍ ما أَضَرُّوا به، بل آذَوْه فقَطْ.

وهذه الآيةُ لها صِلة بما سَبَق في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ [الأحزاب:٥٧].

وفي قوله تعالى: ﴿لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ﴾ فيها تَحذير، وفيها تَسْلية، أمَّا التَّحذير فللمُؤمِنين؛ لأنهم إذا آذَوْا نَبيَّهم استَحَقُّوا ما استَحَقَّه مَن آذَوْا موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وفيها تَسلية للرسول ﷺ؛ لأنه إن أُوذِيَ فقد أُوذِيَ مَن قَبْله؛ ولهذا ثَبَت

عنه أنه ﷺ قال: «رَحِمَ اللهُ أَخِي مُوسَى لَقَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَصَبَرَ»(١).

وقوله تعالى: ﴿لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَاذَوْا مُوسَىٰ﴾ هو مُوسى بنُ عِمرانَ ﷺ أفضَلُ أَنبياءِ بني إسرائيلَ؛ وبماذا آذَوْه؟

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [بقَوْلهم مثلًا: ما يَمنَعه أن يَغتَسِل معَنا إلَّا أنه آدَرُ]، فهُمْ يُؤذونه بغير هذا الكَلامِ، ويُؤذونه بالفِعْل أيضًا، لكن المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ قال مثَلًا، فمُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ على ما فيه من الشِّدَّة كان حَيِيًّا، وكان بنو إسرائيلَ يَغتَسِلون عُراةً، ولكنه يَغتَسِل وحدَه، لا يَغتَسِل معَهُم، ولا يَتعَرَّى، فقال بنو إسرائيلَ: لماذا يَشِذُّ هذا الرجُلُ عنَّا؟! لولا أن فيه آفةَ بَرَصٍ أو أُدْرة ما انفرَد عنَّا، والآدَرُ كبير الخُصْيتَيْن، فيَكون هذا سببَ أنه كان يَغتَسِل وحْدَه، أو فيه آفَةٌ فيه بَرَص أو غيرُ ذلك، وإلَّا كان يَغتَسِل مع الناس.

فأَراد الله عَزَّوَجَلَّ أن يَتبَيَّن لبني إسرائيلَ أن الرجُل مِن أحسَن خَلْق الله تعالى وأَسلَمِهم، فاغتَسَل ذات يومٍ وحدَه ووضَعَ ثوبَه على حَجَر، ولَمَّا خرَج ليَلبَسَه فرَّ الحَجَرُ بثَوْبه، فجعَل يَلحَقه يَقول: «ثَوْبِي حَجَرُ، ثَوْبِي حَجَرُ» يُكلِّم ويُخاطِب، ولكن الحَجَرَ مَأمور بأَمْر الله عَزَّوَجَلَّ، فما وقَفَ حتى وصَل ملأٌ من بني إسرائيلَ، ومُوسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يَمشِي وراءَه عُريانًا، فلَمَّا وصَل بني إسرائيلَ رأَوُا الرجُل، وإذا الرجُل سليم ليس فيه شيء أبدًا، بل مِن أَحسَن خَلْق الله تعالى وأَسلَمِهم من العَيْب، ووقَف الحَجَر فأخَذ ثَوْبه فلَبِسه، وجعَل يَضرِب الحَجَر بعصاه حتى صار فيه أثَرٌ من ضَرْب

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب فرض الخمس، باب ما كان النبي ﷺ يعطي المؤلفة قلوبهم، رقم (٣١٥٠)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام، رقم (١٠٦٢)، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

العَصا[1]، وإنما ضَرَب الحجَر؛ لأنه لَمَّا عمِل عَمَل العاقِل بهرَبِهِ بالثوب استَحَقَّ تأديب العاقِل، وإلَّا فالحجَرُ لا يَستَفيد.

ولهذا الآنَ صار لنا فيه نَوْعٌ من التَّأسِّي بمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حينما يَعْثُر الصَّبيُّ بحَجَر، نَقول له: تَعالَ! تُريد أن نَضـرِبه؟ فإذا ضَربتَ الحجَرَ يَهدَأ الصبيُّ ويَقِفُ عن البُكاء، لكن شَتَّان ما بين المَسأَلتين، نَقول: فيه نَوْع من الأصل.

فالخُلاصةُ: أن موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَراد الله عَزَّوَجَلَّ أن يُبيِّن لبني إسرائيلَ أنه ليس كما قالوا: وأنه سَليم، وسيَأتي في الفَوائد ما في هذه القِصَّةِ من الحِكْمة.

وقوله تعالى: ﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بأَنْ وَضَع ثَوْبه على حجَر ليَغتَسِل ففَرَّ الحَجَر به حتى وقَـف بين ملَأ من بني إسـرائيلَ فأَدرَكه مُوسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فأَخَذ ثَوْبه، فاستَتَر به فرَأَوْه لا أُدرةَ به]، قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وهي نَفْخة في الخُصْية] فرَأَوْا أنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ سَليم.

وقوله تعالى: ﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ﴾، أَفادَنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بقَوْله: ﴿مِمَّا قَالُواْ﴾ أن الأذِيَّة التي أَشار الله تعالى إليها هي قول.

وقوله تعالى: ﴿مِمَّا قَالُواْ﴾: (ما) اسمٌ مَوْصول، والعائِد محَذوف تقديره: ممَّا قالوه.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ أي: ذا جاهٍ] والجاهُ بمَعنَى: القَدْر وعُلوِّ المَنزِلة، فكان موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَجيهًا عند الله تعالى، يَعنِي: ذا قَدْر ومَنزِلة

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الخضر مع موسى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، رقم (٣٤٠٤)، ومسلم: كتاب الحيض، باب جواز الاغتسال عريانًا في الخلوة، رقم (٣٣٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

رفيعة، وقد وصَفَ الله تعالى غيره من الأنبياء بالوَجاهة، مثل عِيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقال تعالى: ﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ [آل عمران:٤٦]، لكن إذا كان مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَجيهًا عند الله تعالى وعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فمُحمَّد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَعظَمُ جاهًا منه؛ لأنه أفضَلُ الرُّسُل.

ولكن لا يَلزَم من الجاه أن يَتوسَّل الإنسان بجاه النبيِّ ﷺ إلى الله تعالى؛ لأن جاه النبي ﷺ قَدْر ومَنْزِلة خاصَّة بالنبيِّ ﷺ، فلا تَنتَفِع بجاهِهِ؛ لأن مُجرَّد وَجاهة النبيِّ ﷺ عند الله تعالى لا تَنفَعُ أحَدًا من الناس؛ ولهذا القولُ الراجِحُ من أقوال أهل العِلْم رَحِمَهُمُ اللَّهُ: «أن التَّوسُّل بجاه النبيِّ ﷺ مُحرَّمٌ».

فإن قال قائِل: هل قِراءة: «وكانَ عَبْدَ الله وَجْيهًا» شاذَّةٌ؟ وإنِ احتَجُّوا بها على نَفيِ العِنْدية، فماذا يُقال لهم؟ وكيف نَرُدُّ على نَفيِ العِنْدية والقُرْب من الله عَزَّوَجَلَّ؟

فالجَوابُ: هذه قِراءة شاذَّةٌ، ويُقال لهم: هذه شاذَّةٌ. أمَّا قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾، مُتواتِرة تَلقَّاها المُسلِمون من رَسولنا ﷺ إلي يَوْمنا، وأمَّا تِلْك فشاذَّةٌ؛ وهؤلاءِ نَرُدُّ عليهم بالآيات الكثيرة وبالأحاديث أيضًا، وهو إثبات القُرْب لله عَزَّوَجَلَّ، ولكنه لا يَلزَم من القُرْب الحُلول، يَعنِي: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة:١٨٦]، لا يَلزَم من ذلك أن يَكون قريبًا عِنْدك في مَكانك، لكنه قريب وإن كان عاليًا، يَعنِي: الله تعالى ليس كمِثْله شيء.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ ذا جاه، ومِمَّا أُوذِيَ به نَبيُّنا ﷺ أنه قَسَم قِسْمًا فقال رجُل: هذه قِسْمة ما أُريد بها وجْهُ الله] أَعوذُ بالله! وهذا من أعظَم ما يَكون من السَّبِّ، لكنْ سبُّ النبيِّ ﷺ حَقٌّ له، إذا عفا عنه وأَسقَطه فله الحَقُّ، ولا أحَدَ يَتَّهِم الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بأنه ما أَراد بها وجهَ الله تعالى، وإن قاله بعض

الناس غيره، كما قاله بعض مَن قاله من الأنصار حين قسَمَ النبيُّ ﷺ غنائِمَ حُنَيْنٍ، قالوا: إن الرجُل وجَدَ قومَه، وأَراد أن يُغدِق عليهمُ المالَ، ونحن قاتَلْنا وفعَلْنا وفعَلْنا ولم يُعطِنا شيئًا؛ لكن الذي قاله شُبَّانٌ من الأنصار ليس لهم قِيمة بالنِّسبة للكِبار منهم، ومع ذلك الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ خطَبَ بهم تِلكَ الخُطْبَةَ العَظيمة، التي بيَّن فيها فَضْلَهم وبيَّن الحِكْمة من إعطاء هؤلاءِ القومِ دونهم، وأنه يُعطِي هؤلاءِ ليَتَأَلَّفهم على الإسلام، ويَقوَى إيمانهم أو يَنكَفَّ شَرُّهم، أمَّا الأنصار فليسوا بحاجة إلى ذلك؛ لأن الناس يَذهَبون بالشاة والبَعير وهم يَذهَبون برسول الله ﷺ، وشَتَّان ما بين هذا وهذا، حتى قال لهم: «لَوْ أَنَّ النَّاسَ سَلَكُوا شِعْبًا أَوْ وَادِيًا وَسَلَكَ الْأَنْصَارُ شِعْبًا أَوْ وَادِيًا؛ لَسَلَكْتُ شِعْبَ الْأَنْصَارِ»، وقال ﷺ لهم: «الْأَنْصَارُ شِعَارٌ، وَالنَّاسُ دِثَارٌ»، وقال ﷺ لهم: «لَوْلَا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الْأَنْصَارِ»(١).

وكل هذا أَقنَعَهم، حتى جعَلوا يَبكون حتى أَخضَبوا لِحاهُم بالبُكاء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؛ لأن هذا يُساوِي الدُّنيا كلَّها، ففَرْق عظيم بين مَن يَذهَب بالشاة والبَعير، ومَن يَذهَب برسول الله ﷺ، فهذا فيه حِكْمة من الله عَزَّوَجَلَّ: أن الله قد يُقدِّر للإنسان ما يَكرَهه ليَكون بعد ذلك ما يُحبُّه، فمُوسى ﷺ كَرِه أن يَفِرَّ الحجَر بثَوْبه بلا شكٍّ، ولكن صار فيه حِكْمة عظيمة، وهو أن ما يَتكلَّم به بنو إسرائيلَ من الكلام والاتِّهام كلُّه ذَهَبَ.

والمُناسَبة لهذا -كما سيَأتي في الفَوائِد إن شاء الله تعالى بَيان أنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مع كونه مُبَرَّأً ممَّا أُوذِيَ فهو ذو مَنزِلة عالية عند الله تعالى.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة الطائف، رقم (٤٣٣٠)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام، رقم (١٠٦١)، من حديث عبد الله بن زيد بن عاصم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: تَحريم أذيَّة الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَاذَوْا مُوسَىٰ﴾، والأصل في النَّهي التَّحريم، وقد سَبَق أن أَذِيَّة الرسول من كَبائِر الذُّنوب؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [الأحزاب:٥٧].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: عِنايةُ الله تعالى برَسوله ﷺ، حيث يَضرِب له الأَمْثال بمَن سبقَه من الرُّسُل؛ لأَجْل التَّسْلية وتَهوين الأَمْر عليه، وأن هذا أَمْر قد سَبَقَك، وهذا كثير في القرآن، نحو: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ [الأنعام:٣٤].

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تَحذير المُؤمِنين أن يُصيبهم ما أَصاب مَن سبقَهم حين تَجرَّؤُوا على رُسُل الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَاذَوْا مُوسَىٰ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: عِنايـة الله تعالى برُسُـله؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن التَّبرِئة تَكون بالقَوْل وتَكون بالفِعْل؛ فتكون بالقول مثل قوله تعالى لرسـوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم:٢]، فنَفَى عنه الجُنون الذي رماه به أَعداؤُه، وقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ [الطور:٢٩]، هذه التَّبرِئةُ بالقول، والتَّبرِئةُ بالفِعْل كما جرَى لِموسَى ﷺ، فإن الله تعالى ما قال لبَني إسـرائيلَ: إنه ليس بآدَرَ. لكنَّه هيَّأ له هذا الأَمرَ الواقِع الذي يَكون تَبرِئةً من الله عَزَّوَجَلَّ لرسوله ﷺ بالفِعْل.

وكذلك كشَف بيت المَقدِس للرسول ﷺ شَهادة بالفِعْل[1]، لأن الله تعالى ما أَنزَل قُرآنًا وقال: إن الرَّسول صادِق. لكنه رُفِع له بيتُ المَقدِس حتى شاهَده.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: قَضية مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حيث برَّأه الله تعالى ممَّا عِيب عليه، هذا من وَجْه، وحيث قال تعالى فيه: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: الإشارة إلى أن العِبْرة بوَجاهة الإنسان عند الله تعالى لا عند الخَلْق، وذلك من قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾، فقدَّم ﴿عِندَ﴾ على قوله تعالى: ﴿وَجِيهًا ﴾ إشارة إلى أن المُهِمَّ أن تَكون وَجيهًا عند الله تعالى، ويَكون وجيهًا عند الله تعالى بعِبادته، فكُلَّما كان الإنسان أعبدَ لله تعالى وأَطوَعَ له كان عند الله تعالى أَوْجهَ، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣]، فكلُّ مَن كان أَتقَى فهو أكرَمُ عند الله تعالى، وأَرفَعُ مَنزِلة.

فائِدةٌ: السُّنَن مَربوطة بأسبابها، ولا تَختَلِف، فإذا اختَلَف السبَب اختَلَفَتِ السُّنَّة، أمَّا إذا كان السبَب واحِدًا فلا يُمكِن أن تَختَلِف.

• ● ۞ ● •

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب حديث الإسراء، رقم (٣٨٨٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب ذكر المسيح ابن مريم، والمسيح الدجال، رقم (١٧٠)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآيتان (٧٠، ٧١)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١][1].

قوله تَبَارَكَوَتَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ﴾ أَمَر اللهُ تعالى بأمرَيْن؛ بتقوَى الله، وأنْ يقـولَ الإنسانُ قولًا سديدًا؛ أي صَوابًا. والتَّقوى: فِعلُ أوامِر اللهِ واجتِنابُ نَواهِيه.

أمَّا القَولُ السَّديد؛ فهُو القَول الصَّواب وهُو يَشملُ كلَّ قَول فِيه خَيرٌ، سواءٌ كان مِن ذِكْر اللهِ، أو مِن طَلَب العِلم، أو مِن الأَمْر بالمَعْروف والنَّهي عَنِ المُنكَر، أو مِن الكَلامِ الحَسَن الذِي يَستجلِب بِه الإنسان مَودَّة النَّاس ومحبَّتهم، أو غَيْر ذَلِك، ويَجمعهُ قولُ النَّبيِّ ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤمِنُ باللهِ وَاليَوْم الآخِـرِ فَلْيَقُل خَيْـرًا أَوْ لِيَصْمُـتْ»[2]، وضِدُّ ذَلِك: القَولُ غَيرُ السَّديد؛ وهُو القولُ الذِي ليسَ بصَوابٍ، بَل خَطأٌ إمَّا فِي مَوضُوعِه وإمَّا فِي محَلِّه:

---

(١) لم يوجد تسجيل صوتي لهاتين الآيتين، ولهذا نقل تفسيرهما من كتابَيْ فضيلة الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: شرح رياض الصالحين، فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، رقم (٦٠١٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف، رقم (٤٧).

أمَّا فِي مَوْضُوعِه: بأنْ يَكُون كَلامًا فاحِشًا يَشتَمل علَى السَّب، والشَّتم، والغِيبة، والنَّمِيمَة، ومَا أَشْبهَ ذَلِك. أو فِي محَلِّه: أَي أَنْ يَكُون هَذا القَول فِي نَفْسه هُو خَير، لكِن كَوْنه يُقال فِي هَذا المَكانِ لَيْسَ بخَيْر؛ لأنَّ لِكُلِّ مَقام مقالًا، فإذا قُلتَ كلامًا هُو فِي نَفسِه ليسَ بشرٍّ، لكنهُ يُسبِّبُ شرًّا إذَا قُلتَهُ فِي هَذا المَحَلِّ فلا تَقُلْهُ؛ لأنَّ هذا ليسَ بقَولٍ سَدِيد، ففِي هَذا المَوضُوع لا يَكونُ قَولًا سَدِيدًا، بَل خطأٌ، وإنْ كانَ ليسَ حَرامًا بذَاتِه.

فمَثلًا؛ لو فُرِض أنَّ شخصًا رأَى إنسانًا على مُنكَر، ونَهاه عَن المُنكر، لكِنْ نَهاهُ فِي حالٍ لا يَنْبغِي أنْ يَقولَ له فِيهَا شَيئًا، أو أَغْلَظَ لَهُ فِي القَوْل، أو مَا أشبهَه، لعُدَّ هذا قولًا غيرَ سَدِيدٍ.

فإذا اتَّقى الإنسانُ ربَّه، وقالَ قولًا سَدِيدًا؛ حصَل علَى فائدَتَيْن: ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ فبِالتَّقوَى صلاحُ الأعمالِ ومَغفرةُ الذُّنوبِ، وبالقَولِ السَّديدِ صَلاحُ الأعمالِ ومَغفرة الذُّنوب. وعُلم مِن هَذِه الآيَةِ أنَّ مَن لم يتَّقِ الله ويَقُلْ قَولًا سَديدًا؛ فإنَّه حَرِيٌّ بأنْ لا يُصلحَ اللهُ لهُ أعمالَه، ولا يَغفِر لَه ذَنبَه، ففِيه الحثُّ علَى تَقوَى اللهِ وبَيان فَوائدِهَا.

ثم قالَ تعالى جُملةً عامَّةً: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ﴾ [الأحزاب:٧١]؛ والفَوز هُو حُصول المطلُوب، والنَّجاة مِن المَرهُوب؛ ودَليلُ ذلك: قولُه تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران:١٨٥] فبِالزَّحْزحة عَن النَّار يَحصل زَوال المَكروه، وبإِدخالِ الجَنَّة يَحصُل المطلُوب، فالفَوز هُو أنْ تَنجُوَ مِنَ المَرهُوب، وتَفُوز بالمَطلُوب.

قوله: ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾ وليسَ فَوزًا دَنِيئًا أو يَسِيرًا؛ بل هُو فَوز عَظِيمٌ، ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فقد خَسِر، وفِي نَفْس السُّورة: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ

ضَلَلًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب:٣٦]، فالإِنسان العاصِي: ضالٌّ ضَلالًا مُبينًا، والإِنسانُ المُطيع: فائزٌ فَوزًا عَظيمًا، وانظُر أيَّ الطَّريقَين تُريد؟! والجوابُ: الطَّاعة، التِي بِها الفَوز العَظيم في الدُّنيا وفِي الآخِرة.

• ● ۞ ● •

الآيــة (٧٢)

• ● ༄ ● •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأحزاب:٧٢][1].

• ● ༄ ● •

قولُه عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ﴾ تحدَّث اللهُ تعالى عَن نَفْسه بصِيغة الجَمع للتَّعظيم، لتَعظيم نفسِه عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّه سُبحانه العظيمُ الذِي لا أَعظمَ مِنه.

وقَد شبَّه النَّصارَى على عَوامِّ المُسلمِين فقَالُوا: إنَّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى مُتعدِّد لأنَّه يَقول: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ ﴾ [الأحزاب:٧٢]، ويقول تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ [يس:١٢]، ويقول: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ ﴾ [الحجر:٩] فيُشبِّهون! لأنَّ هذِه الضَّمائر تدلُّ علَى الجَمع، لكنَّها في اللُّغة العَربيَّة تدلُّ علَى الجَمع وعلَى التَّعظيم، وهؤلاءِ عَمُوا عَن قَولِ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة:١٦٣]، وهكَذا كلُّ مَن في قلبِه زَيغ فإنَّه يتَّبعُ مَا تَشابَه مِنَ القُرآن والسُّنة فيَضربُ بَعضَه ببَعْض، ولكِنْ يُقيِّض اللهَ عَزَّوَجَلَّ لدِينِه مَن يَحْفظُه ويَدفع هذِه الشُّبهاتِ ويُبيِّن الحَقَّ فِيها.

وهؤلاءِ هُم الرَّاسِخون في العِلم؛ لقَول الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ يعني: القُـرآن ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾ فذكَـر

---

(١) لم يوجد تسجيل صوتي لتفسير هذه الآية والتي تليها، ولهذا نقل تفسيرهما من التسجيل الصوتي في اللقاء الشَّهْري لفضيلة الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قِسمين: آياتٍ محكمات، وأُخر متشابهات؛ ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٌ﴾ أي: مَيل عَن الحق وضَلالٌ، ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ﴾ ويَدَعون المُحْكَم ﴿ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ﴾، أي: فِتنة النَّاس عن دِينهم، ﴿وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦ﴾ أي: تَحريفه على ما يُريدون.

إذَن: قولُه عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ﴾، وقولُه: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ [يس:١٢]، وقولُه: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ﴾ [الحجر:٩] وأشباهُها مِن الآيات: يُراد بها التَّعظِيم.

وقولُه: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ﴾ يعني: القِيام بما يَجب.

قولُه: ﴿عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ﴾ سُبحان الله! مخلوقاتٌ عظيمةٌ عرَض الله عليها الأمانةَ هل تَقومُ بها أمْ لا؟ فقالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا﴾.

وقولُه: (أَبَيْنَ) أي: امتنعْن عَن حَملِها لأنَّها مَسؤوليَّةٌ عَظيمةٌ.

ولعلَّ قائلًا يقول: كيفَ تُعرَض الأمانةُ علَى الجماد؟

فالجوابُ: الجمادُ وذُو الشُّعور أمامَ أَمْرِ الله علَى حَدٍّ سواءٍ، يُوجِّهُ اللهُ الخِطابَ إلَى الجَماد فيُجِيب الجمادُ؛ لأنَّ كلَّ شيءٍ بالنِّسبة لله علَى حدٍّ سواءٍ، واسمَعْ قولَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهًا﴾، فهذا أمر مُوجَّه لِجمادٍ ﴿قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت:١١] وهذا هُو الجوابُ، فأجابَتْ هذِه الجماداتُ لله عَزَّوَجَلَّ.

ولَمَّا تَجلَّى اللهُ عَزَّوَجَلَّ للجبل حِينَ قالَ مُوسَى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ﴾ [الأعراف:١٤٣] شوقًا إلى الله عَزَّوَجَلَّ، قَالَ: ﴿لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِي﴾، فنظَر مُوسى إلى الجَبل بعد أن تجلَّى الله لَه فجعَله دكًّا، اندكَّ

لعَظمة الله عَزَّوَجَلَّ وخَشيتِه، فخَر مُوسى صَعِقًا، غُشي عليه؛ لِمَا رأى مِنَ الهَول العَظِيم، فهَذَا جَبَل أمامَه! وصَخر عَظِيم اندكَّ في لحظَةٍ! ومِن المعلوم أنَّ الإنسانَ لا يتحمَّل هذا ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف:١٤٣].

ولقَد قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ﴾، هذا القرآن وهو كلام الله وصفـةٌ من صفـاته، ﴿لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر:٢١].

قولُه: ﴿وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا﴾ خِفن مِنها، ألَّا يَقُمْنَ بواجِب الأمانةِ.

قولُه: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ الله أكبـر! حَمَلها الإنسانُ، بمـا أعطاهُ الله مِن العَقـل والتَّفكير وبما أَرسل إليه مِن الرُّسل وبَيَّن له السُّبل وهَداه.

قولُه: ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: الإنسان ﴿كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا﴾؛ وقولُه: ﴿إِنَّهُۥ﴾ قال بعضُ أهلِ العِلم رَحِمَهُمُاللَّهُ: الضَّمير يَعود علَى الإنسان الكافِر، فهُو الظَّلوم الجَهُول، وليسَ عائدًا على كلِّ إنسانٍ؛ لأنَّ المسلمَ ذُو عَدْل وذُو عِلم وذُو رُشْد.

فالإنسانُ الذِي كانَ ظَلومًا جهولًا هُو الكافِر، أمَّا المؤمنُ فلا يُمكن، إذِ المؤمنُ يَمنعه إيمانُه عَن الظُّلم، ويَمنعه إيمانِه عَن السَّفه والغَي.

• ● ۞ ● •

الآيــة (٧٣)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب:٧٣].

المعنَى: أنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ بيَّن لنا الأمانةَ، وأنَّه عرَضها علَى السَّموات والأَرض والجِبال فأبَيْنَ أنْ يحمِلْنَها وحمَلَها الإنسانُ لِأَجْل هذِه النَّتيجة: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ هؤلاءِ ثلاثةُ أقسامٍ انقَسم إليها الخَلق:

الأوَّل: المنافِقون.

الثَّاني: المشركُون.

الثَّالث: المُؤْمنون.

فانتَبِهْ -يا أَخِي- وانظُر سَبيل مَن تَسلُك!

فالمنافِقون: هُم الذِين يُظهِرُونَ الإسلامَ ويُخفون الكُفْر، فيُظهِرون الإِسلام ويَقُولون: أَشْهد أنْ لا إله إلا الله وأَشْهد أنَّ محمدًا رسولُ الله، ويَحضُرون الصَّلاة، ويَتصدَّقون، لكنْ قُلوبُهم خَربة خالِية مِن الإِيمان، أعاذَنِي اللهُ وإِيَّاكُم مِن ذَلِك! اللهُمَّ أَعِذنا مِنَ النِّفاق.

وهذا الصِّنف مِن النَّاس خرَج حِينما صارَ للمُسلمين قوَّة وعزَّة، لكن في مكَّة قبلَ الهِجرة ليسَ هناكَ مُنافق، فالنَّاس إمَّا مُؤمن صَريحٌ وإمَّا كافِر صريحٌ، لكن لـمَّا قَوِيت شَوْكة المؤمنين وخصوصًا بعد أنْ هُزم الكفار في بَدر -وقد كانَت في السَّنة الثَّانية مِن الهِجرة في رَمَضان-، فلمَّا هُزم المُشركون بدَأ النِّفاق؛ لأنَّهم -أي: المنافِقين- عرَفوا أنَّ محمدًا ﷺ سيَظهر دِينه، فصارُوا يُظهرُون الإِسلام ويُبطنون الكُفر.

وأنزَل اللهُ فِيهم سُورةً كامِلة من طِوال المُفصَّل، وهِي قولُه تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ فكانُوا يَحضُرون الصَّلاةَ، لكنَّهم إذا قامُوا إلى الصَّلاة قامُوا كُسالَى، ويَتصدَّقون لكنْ رياءً وسُمعةً، ويأتُون إلى الرسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ويقولون: نَشهد إنَّك لرسول الله. سبحان الله! فقال الله فيهم: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون:١] أي: لكاذِبون في قولِهم: (نَشهَد)؛ لأنَّهم يقولون بأفواهِهم ما ليسَ في قلوبِهم.

ولذَلِك إذا احتاجُوا إلى هذه الكَلِمة عجَزوا عَنها، فإنَّ المنافق إذا دُفن في قَبره وتولَّى عنه أصحابُه أتاه مَلَكان يَسألانه: مَن ربك، ومَا دِينك، ومَن نبيك؟ فيقول: هاه هاه لا أدْرِي، سَمعت الناسَ يقولون شيئًا فقُلتُه! فيقول: لا أدري؛ لأنه ليسَ في قلبه إيمانٌ، والآخِرة مبنيَّة على السَّرائر لا على الظَّواهر، أما الدُّنيا فمَبنية على الظَّواهر، كما قال النبي ﷺ حِين استُؤذن في قَتل المنافقين، قال: «**لَا يتحدَّث الناسُ أنَّ محمدًا يقتُل أصْحابَه**»، وفي الآخِرة العِبرة بالسَّرائر: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [العاديات:٩-١٠]، ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق:٨-٩] اللهم طهِّر سرائِرَنا يا ربَّ العالمين، وأمِتنا على الإيمان والتَّوحيد.

فالمنافِقون لهُم رَوَغان عن الحقائِق، ولذَلك كان مِن صِفاتِهم أنَّهم إذا حدَّثوا كذبوا، وأَكْذب حديثٍ أنَّهم يقولُون: نَشهد أنْ لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا رسول الله وهم كاذِبون في هذا فلا يُؤمِنون به، وإذا عاهَدوا غَدَروا، فلا يُوفون بالعَهد؛ لأنَّه ليسَ عندهم إيمان يَحملهم على الوفَاء بالعَهد، وإذا خاصَموا فجَروا؛ فجَحدُوا ما يَجب عليهم وادَّعوا ما ليسَ لهُم، وإذا اؤتمِنُوا خانُوا.

فهَذه علاماتُ النِّفاق، فاحذَر أنْ تتَّصفَ بواحدةٍ مِنها؛ لأنَّ نبيَّنا محمدًا ﷺ حذَّرنا مِنها؛ والآنَ لو نَظرت فِي واقِع المُسلمين اليومَ لوجَدت كثيرًا مِنهم إذَا حدَّث كذَب، وإذا وعَد أَخْلف، وإذا خاصَم فجَر، وإذا اؤتمِن خانَ.

إنَّ كثيرًا مِنَ المسلمين وليسَ أكثرُهم، فالحمدُ لله أكثرُهم مُستقيم، لكن فِيهم مَن إذا حدَّثك كذَبك، وإذا وعَدك أخلَفك، وإذا عاهدَك غدَر بك، وإذا خاصَمك فجَر بك، ومَا أكثرَ الذين يأتُون إلينا يَشكون مِن كُفلائهم! أتَى به علَى عَقد مَعلوم فِيما بينهم ثُم لا يَفِي بالعَهد ولا يَفِي بالعقد، يُماطل بالأُجرة وربما يُنكرها، ويُؤذي العامِل ويحمِّله ما ليس واجبًا عليه.

وهناك أيضًا مَن إذا اؤتمن خان، وما أكثرهم! إذا اؤتمِنوا خانُوا، وما أكثرَ الخِيانة في كثيرٍ مِن الناس! ومِن ذلك -مثلًا- أن يَعرض الإنسانُ سِلعته فيأتِيه الزَّبون ليَشتري فيقول: كم قِيمة هذه؟ فيقول: ألف ريالٍ، وقيمتُها في الحَقيقة خمس مئة، لكن استغل فُرصة جهل هذا المشترِي بالثَّمن وقال: بألفِ ريال، فهَذا جَمع بَين الكذِب والخِيانة والغَدر، ثلاثُ صفاتٍ من صفاتِ المنافِقين، ومَا يَدري أنَّ ما ترتَّب على هذا الكذِب مِن كَسب مادِيٍّ فهو حرام، ويُوشك من أَكل الحَرام ألَّا تُستجاب دَعوتُه؛ لأنَّه ﷺ ذكَر الرجُل يُطِيل السَّفَر أشْعَث أَغْبر، يَمُد يَدَيْه إلى السَّماء: يا ربِّ يا ربِّ، ومَطعمه حرَام، ومَلبسُه حَرام، وغُذِي بالحَرام، فأنى يُستجاب لذلك؟!.

ومِن الخِيانة في الأمانةِ: مَا يَفعلُه كثيرٌ مِن أَولياءِ النِّساء في التَّزويج، فتَجده يَخطب منه الرجلُ الصالحُ المستقيمُ في دِينه وخُلُقه، ولكِنْ إذا عرَف أنَّه لن يُعطيه مالًا ردَّه، وقال: البِنت صَغيرة، البِنت مَخطُوبة لغَيرك، وما أَشْبه ذلك، ثم يزوجها ابن عمها الذي ليس عنده خُلق ولا دِين، أو يُزوجها مَن ليس ابنَ عمِّها ولكنْ أكثرَ الدراهمَ لأبيها، وهذه والله خِيانة، وستُطالبه البِنت يوم القيامة، وحينئذٍ يفِر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبَنيه؛ فلماذا تَحجُب المرأةَ عن خاطبها الكُفْء مِن أجْل مَصْلحتك الخاصَّة؟ أليسَ هذا مِن الخيانة؟! أليسَ هذا مِن الظلم؟! سبحان الله! لو أنَّك أنْت -أيُّها الأبُ- خَطَبت امرأةً ثم مُنعت منها لاستكْبرت هذا الشيء وعدَدْته ظلمًا وجورًا.

والعجَب: أنَّ هؤلاء يَظلمون أقربَ النَّاس إليهِم وهُنَّ بناتُهم اللاتِي هنَّ بَضعةٌ من الأبِ -قِطعة وجُزء مِنه-، ومع ذلك يَظلمها هذا الظُّلم، فيحَجُرُها لابنِ عمِّها، أو يقول: لا تتزوَّجي رَجلًا مِن غَير القَبِيلة، أو ما أشبه هذا! هذا مِن المُنكر، وللقُضاة أن يتدخَّلوا في هذا الموضوع، بمَعنى: أن المرأةَ إذا خَطبها كُفءٌ لها وأبَى أبوها فلَها أن ترَفع الأَمر إلى القاضي ويقول لأبِيها: زوِّجها وإلَّا زوجتُها أنا أو مَن يليك في الوِلاية مِن عَصَبتها.

ومِن الخِيانة -وهي مِن صِفات المنافِقين-: ما ذَكره الله عَزَّوَجَلَّ في قوله: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين:١-٣]، إذا استوفَى لنَفسه استوفَى كاملًا، وإذا كالَ لغَيره نَقَص، ﴿يُخْسِرُونَ﴾ أي: يَنقُصون، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [المطففين:٤-٦].

ومن الخِيانة في الأمانةِ: ما يَفعله بعضُ الناس في أهلِه، يُرضِيهم بما حرَّم الله عليهم، فيَجلب لهم مِن وَسائل الإعلام المَنظورة والمقروءة والمسمُوعة ما فِيه البَلاء والشَّقاء، وهذا خِيانة للأمانةِ، وسَوف يُحاسب عِند الله عَزَّوَجَلَّ يوم القيامة، لقَول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [التحريم:٦]، فجعَل وِقاية الأهل كوِقاية النَّفس، وقال النبي ﷺ: **«الرَّجُل راعٍ في أهله ومَسؤولٌ عَن رعيَّته»**، مَسؤولٌ أمامَ الله يومَ القِيامة. أسألُ اللهَ أن يُعينني وإيَّاكم على أداءِ هذِه الأمانةِ الكبرَى.

فعَليك أن تُوجِّه أهلَك مِن بنيـنَ وبناتٍ وزوجاتٍ وغيـرِهم ممَّن لك ولايةٌ عليهم، أن توجِّههم إلى الطَّريق السَّوِي، الطَّريق المُستقيم، ولا تظُنَّ أنَّك بَرِيء مِن المسؤُولية أبدًا، فقَد حمَّلك إياها الله ربُّ العالمين وحملك إيَّاها رسولُ ربِّ العالمين محمدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ومِن النفاق: أنَّ بعضَ الناس يُرائِي، بمعنى: أنه يَفعل العبادَة ليَقول الناس: إن فلانًا عابد. اللهُم أعِذنا مِن الرِّياء! **«ومَن راءَى راءَى اللهُ به»**، وسَوف يَفضحُه إمَّا في الدُّنيا وإمَّا في الآخِرة؛ ومِن ذلك أيضًا: أن يتصدَّق بشيءٍ أمامَ الناس ليقُولوا: فلانٌ كريمٌ، لا لِيتقرَّبَ إلى ربِّ العالمين، وهذا الرياء مبطلٌ للعمل، قال الله عَزَّوَجَلَّ في الحديث القُدْسي الصَّحيح: **«أنا أغنَى الشُّركاء عَن الشِّرك، مَن عمِل عملًا أشرك فيه مَعِيَ غَيري تركتُه وشِرْكه»**، ولما سُئل النبي ﷺ عَن الرجُل يُقاتل أعداء الله، يُقاتل شجاعة، ويُقاتل حَمِيَّة، ويُقاتل رياءً، أيُّ ذلك في سبيل الله؟ قال: **«مَن قاتَل لتكون كَلمةُ الله هي العُليا فهو في سَبيل الله»**.

فالمُراءاةُ في العَمل مُحبِطة له، وماذا يَنفعك الناسُ إذا راءَيتَهم؟! وماذا يضرُّونك

إذا أخلَصْتَ العمل لله وتَركْتَهم؟! إنَّهم لَن يَضرُّوك شيئًا بالإخلاص، وإنَّهم يضرُّونك بالرِّياء، وأنت الذِي أضرَرْت بنَفْسك. فاحذَرْ أخِي مِن النِّفاق، احذَر مِن النِّفاق العقَدي والعمَلي، فالعقَدي في القَلب -أجارني الله وإيَّاكم منه-، والعمَلي بالجَوارح.

وقال تعالى: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾.

المشرِك: مَنِ اتخذ مع الله إلهًا يَعبُده، أوِ اتَّخذ معَ اللهِ ربًّا يَعتقِد أنَّ لَه تَدبيرًا في الكَون، والمُشرِك كافرٌ واضِحٌ وليس يُنافِق، فهُو يُظهِر شِرْكه علَنًا ويُقاتِل المُؤمنين مِن أَجْلِه، مِثل مُشركِي قُرَيْشٍ، أَلَيْسُوا قاتَلُوا النبيَّ ﷺ عَمْدًا؟ أليسُوا أَخْرجُوه وأصحابَه مِن دِيارِهم؟ أليسوا يُسيئون إليه بالقَول وبالفِعل؟ فيقُولون: إنَّه ساحرٌ، إنَّه مجنونٌ، إنَّه كاذِب؛ وأساؤُوا إليه بالفِعل أيضًا، فقَد كانَ النبيُّ ﷺ ذاتَ يوم ساجدًا تحتَ الكَعبة، آمَنُ مَكانٍ على الأرضِ ذلِك المكانُ، وهُو محُترَم مُعظَّم عِندَ قُريشٍ إلَّا مَع النبيِّ ﷺ! فكانَ ساجدًا لله عَزَّوَجَلَّ فقالُوا: مَن يَذهبُ إلى جَزور بنِي فُلان ويأتِي بسَلاها -القَذِر المكروه مَنظرًا- ويَضعُه على ظَهر محمَّد؟ فانتدبَ لذَلِك أشْقاهُم والعِياذ بالله! فذهَب وأتَى بسَلى النَّاقة -الذِي يَخرج مِنها عِندَ الوِلادَة-، فألقَى السَّلى على ظَهْر النبيِّ ﷺ وهُو ساجِدٌ، وفي هَذا إهانةٌ للرَّسول، بل وإهانةٌ للمَسجِد الحَرام، والعَجَب أنَّه لو جاءَ بَدوِيٌّ جاهِلٌ يَسجُد تحتَ الكَعْبة لعَظَّمُوه واحترَمُوه، وهَذا النبيُّ الكَريم الذِي هُو أَوْلَى بالكَعْبة مِن هؤلاءِ المشركِين يُفعل به هكَذا! لأنَّ المشركِين لا يُبالون، فهُم يُعلِنون بشِرْكهم ولا يُبالون، ولَيس عِندَهم نِفاقٌ، هَذا الصِّنف الثَّاني مِن النَّاس.

الصِّنف الثَّالث: قالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾

[الأحزاب:٧٣]، اللهُمَّ تُبْ علَينا يا ربَّ العالِمين! يتُوب اللهُ على المؤمِنين الموحِّدين الذِين ليسَ عندَهم نفاقٌ، فهُم موحِّدون ضِد المشركِين، وهُم خالِصون ضِد المنافقِين، فيتُوب اللهُ عليهم، حتَّى لو أنَّهم تابُوا مِن الشِّرك ومِن النِّفاق تابَ الله عليهم؛ لقَول الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣].

وكَم مِن مُشرِك مُنابِذ للدَّعوة الإسلاميَّة تابَ فتابَ الله عَليه، فهَذا عُمر بنُ الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كانَ ضِد الدَّعوة الإسلاميَّة، فأَسْلم وكانَ الخَليفةَ الثَّاني في هَذِه الأُمَّة. وخَالِدُ بنُ الولِيد، وعِكرمة بن أبي جَهْل، وغيرُهم مِن صَنادِيد قُريش وكُفَّارها أَسلمُوا فتابَ الله علَيهم.

وهذا أبُو سُفيان زَعيم قُريش كانَ يَقول يومَ أُحُد: اعلُ هُبَل؛ لأنَّ أبا سُفيان لَّما انتَهت الحَرب وصارتِ الهزيمةُ على المُسلِمين -لأنَّهم حصَل مِنهم ما يُوجب الهزيمةَ-؛ افتَخر وقال: أفيكُم محمَّد؟ قال النبيُّ ﷺ: «لا تُجِيبُوهُ» إهانةً له، وحتَّى يربُو بنَفسه بعدَ ذلِك ويَفتخر؛ فانظُر إلى الحِكمة النبويَّة، وهكَذا وقَع، ثُم قال: أفيكُم ابن أبي قُحَافة؟ أفيكم عُمَر؟ قال ﷺ: «لا تُجِيبُوهُ» حينئذٍ افتَخر وانتَفخ، ورأَى أنه حصَل على كُل شيءٍ، فقال: اعلُ هُبَل. وهُبل صَنَم لقُريش في وَسط الكعبة، والمعنَى: ما أعْلاك اليوم! اليومَ أنتَ العالي!

ثُم قالَ النبيُّ ﷺ: «أجِيبوه»، فالآنَ حَمِيَ الوَطِيس فقَد وصَلَتِ المسألةُ إلى البارِي عَزَّوَجَلَّ، فقال: «أجِيبوه»، قالوا: بماذا نُجيبه؟ قال: «قولوا: الله أعلى وأجَلُّ»، فقالوا: «الله أعلى وأجَلُّ»، فإذا كنتَ اليومَ تَفتخِر بصنَمك بأنَّه عالٍ فالله أعلى وأجَلُّ؛ ثم قالَ أبو سُفيان -لما رُدَّ عليه بالتَّوحيد آتَى عن طَريق الرسالة-: يَومٌ بيومِ بَدْر

والحَرْب سِجال؛ ويومُ بدرٍ كانَ النَّصر للمُسلمِين، وقُتِل مِن صَنادِيدِ قُرِيش وكُبَرائهم ما هو مَعلوم؛ فقال: يَومٌ بيومِ بَدْر، أي: اليومَ غَلبْناكُم، وأنتُم غلبتُمونا يومَ بدر، والحربُ سِجال، أي: مرَّة لكم ومرَّة عليكم!. فأجابُوه: (لا سَواءَ!)؛ أي: بَيْن اليومَيْن، فقَتْلانا في الجَنَّة وقَتْلاكم في النَّار؛ وهل هذانِ اليومانِ على حدٍّ سواءٍ بعدَ أن كانَ قَتلَى المسلِمِين في الجنَّة وقَتلَى الكُفَّار في النَّار؟ الجواب: لَا.

والمقصودُ: مِن هذا أنَّ المشركِين يُصرِّحون بمُنابذة المؤمِنين، وأنَّ الإنسانَ إذا تابَ ولو كانَ مُشركًا مُنابِذًا تابَ الله عَليه؛ فهَذا الرجُل أبو سُفيان أَسْلم وصارَ مِن الصَّحابة، لكنَّه تأخَّر إسلامُه فتأخَّرت مَرتبتُه.

إذَن: مَن تابَ تابَ الله عَليه، حتَّى مِن الشِّرك، وحتَّى مِن النِّفاق، وحتَّى مِن الاستِهزاء باللهِ وآياتِه.

والدَّليل على أنَّ التَّائب من النِّفاق يتُوبُ الله عليه قولُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:١٤٥-١٤٦]، لكنْ لَاحِظْ أنَّ الله تعالى ذكَر أشياءَ مُهمَّةً:

١- ﴿ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ أي: رجَعوا مِن النِّفاق إلى الإيمانِ الخالِص.

٢- ﴿وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ أي: توكَّلوا عَليه واعتصَمُوا بِه.

٣- ﴿وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾.

فهذه ثلاثةُ أوصافٍ؛ ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

والمُستهزِئ باللهِ وآياتِه هَل تَصحُّ توبتُه؟

الجواب: نعَم تَصحُّ، والدَّليل: قولُ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَبِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ [التوبة:٦٥] أي: سأَلْتَ المستهزِئين؛ لأنَّهم كانوا يَستهزِئون ويقُولون: ما رأَيْنا مِثلَ قُرَّائنا هؤلاء -يَعْنون: النبيَّ ﷺ وأصحابَه- أَرْغَب بُطونًا ولا أَكْذبُ ألسنًا ولا أَجبنُ عندَ اللِّقاء. وكذَبوا واللهِ، فهذِه الأوصافُ في المنافِقين تمامًا، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَبِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً ﴾ [التوبة:٦٥-٦٦]؛ فمعناه: أنَّ هؤلاءِ قَد يَعفو اللهُ عَنهم وذلِك بالتَّوبة، فمَن تابَ مَهما كان شِركُه وكُفرُه فإنَّ الله يتُوبُ عليه.

وهؤلاءِ الذِين تابُوا مِن الكُفر وقَد قَتلوا مَن قتَلوا مِن المُسلمين هَل يَلزمهم ضَمانُ المسلمِين الذِين قتَلوهُم؟ لا يَلزمهم، لقَول الله تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الأنفال:٣٨] ولهذا لو رأَى شخصٌ شخصًا كان كافِرًا وقد قَتل أباهُ ثُم أَسْلم فإنَّه لا يجُوز لَه أنْ يَقتُلَه؛ لأنَّ إسلامَه عصَمه وغفَر لَه بِه ما سَلَف.

ثُم قال تعالى: ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ وقد تُشكِل عَليك هذِه الجُملة: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ أي: كانَ فِيما مضَى، ولكن الآنَ؟ فـ(كان) فِعل ماضٍ؟!

فنقُول: (كان) هنا لا يُقصد بها الزَّمان، بل يُقصد بها تَحقيق اتِّصاف اللهِ عَزَّوَجَلَّ بالمَغفِرَة والرَّحمة، فهِي كَما يقول النَّحويُّون: مَسْلُوبَة الزَّمان، والمقصودُ بِها التَّوكيد، فالله تعالى مُتَّصفٌ بالمَغْفِرةِ والرَّحمة دائمًا وأبدًا.

فهرس الأحاديث والآثار

الحديث	الصفحة

«حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ أَتُرِيدُونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ»........................ ٢٣
«إِنِّي مَا أَعْطَيْتُكَهَا لِتَلْبَسَهَا، وَإِنَّمَا لِتُعْطِيَهَا لِفَاطِمَةَ»........................ ٢٧
«لَا تَغْلِبَنَّكُمُ الْأَعْرَابُ عَلَى تَسْمِيَتِكُمْ عَلَى صَلَاتِكُمُ العِشَاءِ»........................ ٣٩
«أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ»........................ ٤٧
«أَنْتَ أَخُونَا وَمَوْلَانَا»........................ ٤٩
«مَوْلَى الْقَوْمِ مِنْهُمْ»........................ ٥٠
«لَيْسَ مِنَ الْبِرِّ الصِّيَامُ فِي السَّفَرِ»........................ ٥١
«أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»........................ ٥٣
«الحَجُّ عَرَفَةُ»........................ ٥٩
«أَنَا أَوْلَى بِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ نَفْسِهِ، مَنْ تَرَكَ مَالًا فَلِوَرَثَتِهِ، وَمَنْ تَرَكَ دَيْنًا فَعَلَيَّ»........................ ٦١
«وَمِنْ نَفْسِكَ يَا عُمَرُ»........................ ٦٢
«أَلْحِقُوا الْفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا، فَمَا بَقِيَ فَلِأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَرٍ»........................ ٧١
«الثُّلُثُ وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ»........................ ٧٣
«هؤلاء إلى النار ولا أُبالي، وهؤلاءِ إلى الجَنَّة ولا أُبالي»........................ ٧٥
«لَا تُفَضِّلُوا بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ»........................ ٧٨

«اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة» ٩٣

«قُمْ يَا حُذَيْفَةُ» ٩٥

«نُصِرْتُ بِالصَّبَا وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ» ٩٦

«أَفْضَلُ الْإِيمَانِ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللهَ مَعَكَ حَيْثُمَا كُنْتَ» ٩٦

«يَا رَسُولَ اللهِ أَنْتَ خَطَطْتَ لَنَا» ١٠٦

«رأَيْت فِي التَّكْبِيرَةِ الأُولَى قُصورَ الرُّوم، وَفِي الثَّانِية قُصور كِسْرَى، وَفِي الثَّالِثَة قُصورَ صَنْعَاءِ اليَمَنِ، وَأَنَّهَا سَتُفْتَحُ» ١٠٦

«وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ» ١٠٨

«نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ» ١١٣

«أُمِرْتُ بِقَرْيَةٍ تَأْكُلُ الْقُرَى، يَقُولُونَ: يَثْرِبُ؛ وَهِيَ الْمَدِينَةُ» ١١٥

«مَنْ قَالَ لِلْمَدِينَةِ: يَثْرِبُ. فَلْيَسْتَغْفِرِ اللهَ» ١١٥

«يَقُولُونَ: يَثْرِبُ؛ وَهِيَ الْمَدِينَةُ، تَنْفِي النَّاسَ كَمَا يَنْفِي الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ» .. ١١٥، ١٢٠

«حُبُّ الوَطَنِ مِنَ الإِيمَانِ» ١٢٠

«أَتَدْرِي ما الفِتْنَة؟ الفِتْنَة: الشِّرْك» ١٢٤

«آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: وَمِنْهَا إِذَا عَاهَدَ غَدَرَ» ١٢٦

«مَوْضِع سَوْطِ الْإِنْسَانِ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا» ١٣٢

«وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ» ١٣٩

«اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ» ١٤٠

«مَنْ رَاءَى رَاءَى اللهُ بِهِ، وَمَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ بِهِ» ١٤٥

«اتَّقُوا الشُّحَّ فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ» ١٤٧

«إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ فَأَقْضِيَ لَهُ بِنَحْوِ مِمَّا أَسْمَعُ» ١٥٠
«إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا» ١٥٠
«لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ» .... ١٥٤، ١٥٥
«إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ» ١٥٥
«لَا يَبِعْ حَاضِرٌ لِبَادٍ» ١٥٧
«أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّه أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ» ١٥٩
«أَجَعَلْتَنِي للهِ نِدًّا» ١٧٠
«لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَه» ١٧٣
«وَهَا أَنَا أَموتُ عَلى فِراشِي كما يَموتُ الحِمارُ» ١٧٣
«لِيَرَيَنَّ اللهُ ما أَصنَعُ» ١٧٩
«لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ أَنْجَزَ وَعْدَهُ وَنَصَرَ عَبْدَهُ وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ» ١٩١
«لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ الْعَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ» ١٩٤
«مَنْ تُرِيدُونَ أَنْ تَنْزِلُوا عَلَى حُكْمِهِ؟» ١٩٥
«لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ اللهِ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ» ١٩٦
«أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي» ٢٠١
«لَا عَلَيْكَ أَلَّا تَسْتَعْجِلِي، فَتَستَأْمِري أبوَيْك» ٢٠٨
«إِنَّمَا بُعِثْتُ مُيَسِّرًا لَا مُتَعَنِّتًا وَمُعَنِّتًا، وَأَيُّ امْرَأَةٍ تَسْأَلُنِي فَسَأُخْبِرُهَا» ٢٠٨
«مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ» ٢١٣

«فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ» ٢١٥

«مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ» ٢١٨

«إِنَّ مَثَلَ الجَلِيسِ الصَّالِحِ كَحَامِلِ المِسْكِ»........................... ٢٢١

«مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ»................. ٢٢٣

«إِنَّا مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ لَا نُورَثُ مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ»..................... ٢٢٦

«إِذَا أَدَّيتَ زَكَاتَهُ فَلَيْسَ بِكَنْزٍ»...................................... ٢٣١

«هَؤُلَاءِ أَهْلُ الْبَيْتِ اللَّهُمَّ فَأَذْهِبْ عَنْهُمُ الرِّجْسَ وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيرًا»......... ٢٣٦

«إِنَّ الصَّدَقَةَ لَا تَحِلُّ لِآلِ مُحَمَّدٍ» ٢٣٧

«مَسْجِدِي هَذَا» (المسجد النبوي أسس على التقوى) ٢٣٧

«دَعُوهَا فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ»... ٢٣٧

«المَنْزِلُ هَاهُنَا إِنْ شَاءَ اللهُ» ٢٣٨

«اللَّهُمَّ بَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ، كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ»......... ٢٤٣

«لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا» ٢٥١

«أَفْضَلُ صَلَاةِ المَرْءِ فِي بَيْتِهِ إِلَّا المَكْتُوبَةَ»............................ ٢٥١

«أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»... ٢٥٦

«أَلَا وَأَنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّه، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ» ٢٥٦

«التَّقْوَى هَاهُنَا»... ٢٥٧

«إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى»................................ ٢٦٢

«إِنَّهُ يُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ الرَّجُلَانِ»..................................... ٢٦٣

«كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ؛ الحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، إِلَّا الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجزِي بِهِ» ٢٦٣
«كُلُّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ» ٢٦٦
«يَدَعُ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ وَشَهوَتَهُ مِنْ أَجْلِي» ٢٦٨
«إِنَّ عِندَهُ رَجُلًا يُنكَح كما تُنكَح المرأةُ. فكتَب إليه أبو بكر أن يُحرِقه مُبالَغةً في عُقوبَتِه» . ٢٦٩
«لا تَنْظُرِ المَرْأَةُ إِلَى عَوْرَةِ المَرْأَةِ، وَلَا الرَّجُلُ إِلَى عَوْرَةِ الرَّجُلِ» ٢٦٩
«وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ، فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ» ٢٦٩
«ما خُيِّرَ النَّبيُّ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْن إِلَّا اختار أَيسَرَهُما ما لَمْ يَكُنْ إِثْمًا» ٢٧٠
«أَنَّ اللهَ يَخْلُو بِعَبْدِهِ المُؤْمِنِ يُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُ: قَدْ سَتَرْتُها عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ» ٢٧٣
«أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ» ٢٧٣
«إِذَا الْتَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالمَقْتُولُ فِي النَّارِ» ٢٧٤
«مَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ تَعَالَى حَسَنَةً كَامِلَةً» ٢٧٥
«لأَنَّهُ إِنَّمَا تَرَكَ ذَلِكَ مِنْ جَرَّائِي» ٢٧٥
«هَذِهِ صَفِيَّةُ» ٢٧٦
«إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنِ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَرًّا» ٢٧٦
«رَحِمَ اللهُ امْرَأً كَفَّ الْغِيبَةَ عَنْ نَفْسِهِ» ٢٧٧
«أَوْ مُسلِمٌ» ٢٧٨
«إِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ، فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا» ٢٧٨

«مَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ» ٢٨١
«سُبْحَانَكَ لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ» ٢٨٢
«لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ» ٢٨٨
«وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ» ٢٨٩
«يَا هَذَا اتَّقِ اللهَ، وَلَا تَفُضَّ الخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ» ٢٨٩
«إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ» ٢٩١
«أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ» .... ٢٩٢، ٢٩٣
«يُوشِكُ أَحَدُكُمْ مُتَّكِئًا عَلَى أَرِيكَتِهِ يَأْتِيهِ الْأَمْرُ مِنْ أَمْرِي، فَيَقُولُ لَا نَدْرِي مَا وَجَدْنَا فِي الْكِتَابِ اتَّبَعْنَاهُ، أَلَا وَإِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ» ٢٩٦
«أَجَعَلْتَنِي للهِ نِدًّا، بَلْ مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ» ٢٩٦
«لَوْ كان مُحَمَّدٌ كاتِمًا ما أُنزِل إليه لكَتَمَ هذه الآيَةَ» ٢٩٨
«زَوَّجكُن أَهاليكُنَّ، وزَوَّجَني الله من فوقِ سَبْعِ سَمَواتٍ» ٣٠٢
«لَوْلَا أَنَّ قَوْمَكِ حَدِيثُو عَهْدٍ بِكُفْرٍ» ٣١١
«لَا بَلَاغَ لِيَ الْيَوْمَ» ٣١٣
«إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ» ٣٢٠
«فَأَنَا اللَّبِنَةُ وَأَنَا خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ» ٣٢١
إذا سمعت الله تعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فأرعها سمعك ٣٢٤
«لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ أَحَدٌ بِعَمَلِهِ» ٣٣٤
«إِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ» ٣٣٤
«لَمَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ مِنَ الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا» ٣٣٤

«آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ» ٣٣٧
«كأنَّه مُنْذِرُ جَيْش يقول: صَبَّحَكُمْ ومَسَّاكُمْ» ٣٣٩
«فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي» ٣٤٧
«أن يَذُوقَ عُسَيْلَتَهَا وتَذُوقَ عُسَيْلَتَهُ» ٣٥٧
«لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لَأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ» ٣٨٧
«لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَنْهَى عَنِ الْغِيلَةِ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا الرُّومُ يُغِيلُونَ فَلَمْ يَضُرَّهُمْ شَيْءٌ» ... ٣٨٨
«أَنَّهُ لَوَقْتُهَا لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي» ٣٨٧
«مَلَّكْتُكَها بِمَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ» ٣٩١
«مَنْ كَانَ لَهُ امرأتان فَمَالَ إِلَى إِحْدَاهُمَا جاءَ يَوْمَ الْقِيَامَة وَشِقُّهُ مَائِلٌ» ٣٩٩
«إِنَّهَا صَفِيَّةُ» ٤٠٣
«أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ» .... ٤٠٣، ٤٠٤
«تُنْكَحُ المَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ لِمَالِهَا وَحَسَبِهَا وَجَمَالِهَا وَدِينِهَا، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ» ٤١٢
«ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِهِ أَجْرَهُ» ٤١٣
«إِنَّا مَعَاشِرَ الأَنْبِيَاءِ لَا نُورَثُ، مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ» ٤١٦
«اشرَبْ أبا هِرٍّ» ٤٢١
«يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ؛ يَسُبُّ الدَّهْرَ» ٤٢٤
«يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي» ٤٢٤
«إِنَّ اللهَ حَيِيٌّ كَرِيمٌ» ٤٢٨

«خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي» ٤٣١
«إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهَا أَنْفُسُهَا مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ» ٤٣٢
«ذَلِكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ» ٤٣٢
«إِذَا قَضَى حَاجَتَهُ فَلْيَعْجَلْ إِلَى أَهْلِهِ وَلَا يَنْتَظِرْ» ٤٣٩
«الحَيَاءُ مِنَ الْإِيمَانِ» ٤٤٠
«يَحْرُمُ مِنَ الرَّضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ» .... ٤٤٤، ٤٥١
«أَخْرِجُوا الْمُشْرِكِينَ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ» ٤٥٢
«وَأَخْرِجُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ» ٤٥٢
«رَبِّ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي» ٤٦٠
«أَتَانِي جِبْرِيلُ قَالَ: رَغِمَ أَنْفُ امْرِئٍ ذُكِرْتَ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْكَ» ٤٦٢
«فَقُولُوا مِثْلَمَا يَقُولُ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ» ٤٦٣
«قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ» ٤٦٤
«السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ» ٤٦٤
«إِنَّ اللهَ طَيِّبًا لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا» ٤٦٧
«إِنَّكُمْ إِذَا قُلْتُمْ ذَلِكَ فَقَدْ سَلَّمْتُمْ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ صَالِحٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ» ٤٦٨
«إِذَا سَلَّمْتَ فَقَدْ سَلَّمْتَ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ» ٤٦٨
«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ» ٤٧٢
«يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ؛ يَسُبُّ الدَّهْرَ» ٤٧٣
«أَيُّ جِوَارٍ هَذَا؟!» ٤٧٤
«هِيَ ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ» ٤٧٨

«لَا يَحِلُّ لِامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ» ٤٨٢
«لِتُلْبِسْهَا أُخْتُهَا مِنْ جِلْبَابِهَا» .... ٤٨٦، ٤٩٠
«لِئَلَّا يَتَحَدَّثَ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ» ٥٠٢
«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ» . ٥٠٤
«مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ» ٥٠٧
«انْظُرْ مَاذَا أَعْدَدْتَ لَهَا» ٥٠٩
«بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ، وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالَّتِي تَلِيهَا» ٥١٠
«إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي» ٥١٢
«مَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» ٥٢١
«اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا» ٥٢١
«رَحِمَ اللهُ أَخِي مُوسَى لَقَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَصَبَرَ» ٥٢٥
«ثَوْبِي حَجَرُ، ثَوْبِي حَجَرُ» ٥٢٥
«لَوْ أَنَّ النَّاسَ سَلَكُوا شِعْبًا أَوْ وَادِيًا وَسَلَكَ الْأَنْصَارُ شِعْبًا أَوْ وَادِيًا؛ لَسَلَكْتُ شِعْبَ الْأَنْصَارِ» ٥٢٨
«الْأَنْصَارُ شِعَارٌ، وَالنَّاسُ دِثَارٌ» ٥٢٨
«لَوْلَا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الْأَنْصَارِ» ٥٢٨
«مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ» ٥٣١
«لا يتحدَّث الناسُ أنَّ محمدًا يَقتُل أصْحابَه» ٥٣٨
«الرَّجُل راعٍ في أهله ومَسؤولٌ عَن رعيَّته» ٥٤١
«ومَن راءَى راءَى اللهُ به» ٥٤١

«أنا أغنَى الشُّركاء عَن الشِّرك، مَن عمِل عملًا أشرك فيه مَعِيَ غَيري تركتُه وشِرْكه» . ٥٤١
«مَن قاتَل لتكون كَلمةُ الله هي العُليا فهو في سَبيل الله» ٥٤١
«قولوا: الله أعلى وأجَلُّ» ٥٤٣

فهرس الفوائد

الفوائد	الصفحة
لفظ الجلالة (الله) علَمٌ على ذات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى	٨
عِلْم الله تعالى يَتعَلَّق بالأشياء في أَحوالها الثلاثِ؛ قبل الوُجود، وحين الوُجود، وبعد العَدَم	١٥
هلِ العِلْم والحِكْمة من الصِّفات الذاتية أو الفِعْلية؟	١٧
هل عِلْم الله عَزَّوَجَلَّ يَشمَل الحاضِر والمُستقبَل والماضي؟ وهل هو مُتعَلِّق بالواجِب أو بالمُستَحيل أو بالمُمكِن أو بالجميع؟	١٩
اصطِلاح المُفَسِّر في القراءات السبعيَّة والشاذَّة	٢٢
الرُّبوبية نَوْعان: عامَّة وخاصَّة	٢٥
العُبودية نَوْعان: عامَّة وخاصَّة	٢٥
الذي يَدَّعي العِصْمة لغير الرُّسُل رجُل ضالٌّ	٢٦
وُجُوبُ تَقديم الوحيِ على الرأيِ	٢٧
أقسام التَّوكُّل على الله تعالى	٣٠
الجَعْل الذي يُضاف إلى الله تعالى يَنقَسِم إلى قِسْمين	٣٣
كيف يَنسب العلماء أحَدًا من الموالي إلى مَن أَعتَقَه؟	٤٩
هل الاتِّصال بين المُخِّ والقَلْب سَريع أو بَطيء؟	٥٤
كُلُّ شيءٍ لا يَتعمَّدُه الإنسانُ بِقَلبه فإنَّه لا إِثْم عليه فيه	٦٠
الكُتُب التي بأَيْدي الملائِكة هل تُغيَّر وتُبدَّل بالزِّيادة والنَّقْص والتَّغيير؟	٧٣

مَفْعولاتُ الله عَزَّوَجَلَّ لها جِهتان.. ١٠٨
طَلَبَةُ العِلْم قد يُوَاجِهون بعضَ المَصاعِبِ في الدَّعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ ١١٠
مَرَض القَلْب أخطَرُ من مرَضِ البدَن بكثيرٍ ١١٢-١١٣
الله تعالى يُقسِم عن الشيء لا في جانب الإنكار، ولكن في جانب الأهمية.......... ١٢٨
(لن) تُفيد ثلاثَةَ أشياءَ؛ النَّفي والنَّصب والاستِقْبال ١٣٠
ولايةُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تَنقَسِم إلى قِسْمَيْن ١٣٨
الردُّ على شُبهة الذين يَدْعُون الأصنام ثم قد يَحْصُل لهم ما دعَوْهُ أو ما دعَوْا به هذه الأصنامَ ١٤٠
مَن كان عنده خَوْف شَديد ودُعِيَ إلى القِتال فرفَض من أَجْل خَوْفه، فهل يُقال عليه: مُنافِق؟ ١٦٠
الإيمان زِيادته لها عِدَّة اعتِبارات.. ١٧٢
أرض الكُفَّار إذا فُتِحت عَنْوة فهي للمُسلِمين ٢٠٠
هل يَقدِر الله عَزَّوَجَلَّ أن يَجعَل الشيء مُتحَرِّكًا ساكِنًا في آنٍ واحِد؟.................. ٢٠٢
الفَرضيون يَقولون: زَوْجٌ. للذَّكر، وزوجة. للأُنثَى من أجل البيان والإيضاح ٢٠٣-٢٤٠
الطاعة بالنِّسْبة لطاعة الله وبالنسبة للرسول ﷺ ٢١٣
أنواع الإرادة: شَرْعية وكَوْنية... ٢٣٣
مَنْ هُمْ: (آلُ البيْت)؟ ٢٣٥
زَوْجات الإنسانِ مِن آل بَيْته.. ٢٣٦
آياتُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تنقَسِم إلى قِسْمين.. ٢٤٧
حُكم القَسَم بآيات الله تعالى... ٢٤٨

أنواع الصَّبْر ٢٦١

الصبرُ هل هو واجِبٌ أو مُستَحَبٌّ؟ ٢٦٣

استِخدام لَفْظ (اللِّواط) ليس فيه إساءة إلى لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ٢٦٩

إذا استَمْنَى رجُل في رَمضانَ فهل عليه كفَّارة؟ ٢٧٠

أَنْواعُ ذِكْر الله عَزَّوَجَلَّ ٢٧١

تارِكُ المَعاصِي له ثلاثُ حالات ٢٧٤

هل رُخِّص في شيء من الكَذِب؟ ٢٧٩

حكم محَبَّة الإنسان لزوجة غيره ٢٩٤

الفَرْق بين الشِّرْك والكُفْر ٣٥٠

فِعْل الأسباب من تَمام التَّوكُّل على الله تعالى ٣٥١

مَن آذَى النبيَّ ﷺ فإنه مُؤْذٍ للمُؤمِنين ٣٥٤

حُكم من تَزوَّج امرأةً ووجَد أنها قد جُومِعت مِن قَبْلُ ٣٥٦

الدَّليل على أن الأَكْل والشُّرْب حرامٌ على الكُفَّار ٣٦٩

حُكم الإشهاد على عقد النكاح ٣٧٨

للمَهْرِ ثلاث حالاتٍ ٣٧٩

مِلْك اليَمين أسبابُه مُتعَدِّدة ٣٨٢

ما الفَرْق بين المَجوسية والوَثَنِيَّة في ملك اليمين؟ ٣٨٢

مصالح اتصال النبي ﷺ بعدة زوجات ٣٨٥

العِلْم ليس بالأَمْر الهَيِّن (فائدة جليلة) ٣٩٢

الحِلْم تَأخير العُقوبة وليس العَفوَ عنها ٣٩٨

هلِ العَقْل في القَلْب أو العَقْلُ في الدِّماغ؟ ٤٠٤

تَعلُّق عِلْم الله عَزَّوَجَلَّ بالمَعلوم له حالان ٤٠٥
الفَرق بين الإِذْن العُرفي والإِذْن اللَّفظِي ٤١٧
إذا اقتَرَنَتِ الكاف باسْمِ الإشارة فإنه يُراعَى في اسم الإشارة المُشار إليه، وفي الكاف المُخاطَب ٤٢٣
حُكم دُخول الإنسان المَدعوِّ وإن لم يُؤذَن له إذا وَجَد الباب على هَيْئة تَدُلُّ على الإِذْن ٤٣٨
دَلالةُ القُرآن على الأشياءِ نَوْعان ٤٤١
حُكم مُكالَمَة النِّساء غيرِ زَوْجات الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ٤٤٢
هل يَنبَغِي للضَّيْف أن يَسأَل عن طعام المُضَيِّف إذا قدَّمه له؟ ٤٤٥
ماذا يطلق على المَقتول في المَعرَكة؟ ٤٥٧
مِمَّا تَتَأكَّد الصلاة على النبيِّ ﷺ فيه ٤٦٢
أكثرُ الناس عندما يُسلِّم يَستَحضِر أنها تحية فقَطْ ٤٦٦
معنى جُمَل (التحيات لله...) إلخ ٤٦٧
حُكم كتابة: «رسول الله (ص)» أو «قال رَسول الله (صلعم)» ٤٧١
هل تَجوز الصلاة على غير الأنبياء؟ ٤٧١
أَذِيَّة المُؤمِنين بماذا تكون؟ ٤٧٨
الكِتابيات إذا تَزوَّجْن من المُسلِمين هل يُخاطَبْن بالحِجاب؟ ٤٨٢
ما هو الجِلْباب؟ ٤٨٥
مَفهوم الحِجاب الشَّرْعيِّ ٤٩٠
فوائد ذِكْر العِلَل في الأحكام الشرعيَّة ٤٩٠

فهرس آيات السورة

الآية	الصفحة

تقديم ٥

سورة الأحزاب ٧

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١﴾ ١١

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝٢﴾ ٢١

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ۝٣﴾ ٢٨

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ۝٤﴾ ٣٣

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٥﴾ ٤٦

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ۝٦﴾ ... ٦١

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ۝٧﴾ ٧٥

- قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾﴾ ... ٨٣
- قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾﴾ ٩٠
- قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾﴾ ١٠٠
- قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ ١٠٥
- قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ ١١٠
- قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾ ١١٤
- قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾﴾ ١٢٣
- قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾﴾ ١٢٨
- قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾﴾ ١٣٠
- قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾ ١٣٦
- قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾﴾ ١٤٢

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٩)﴾ ١٤٧

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا (٢٠)﴾ ١٥٦

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (٢١)﴾ ١٦١

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (٢٢)﴾ ١٦٨

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (٢٣)﴾ ١٧٦

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِّيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (٢٤)﴾ ١٨١

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا (٢٥)﴾ ١٨٨

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦)﴾ ١٩٣

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢٧)﴾ ١٩٩

- قال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٢٨)﴾ ٢٠٣
- قال الله عز وجل: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا (٢٩)﴾ ٢٠٧
- قال الله عز وجل: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (٣٠)﴾ ٢١٠
- قال الله عز وجل: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (٣١)﴾ ٢١٣
- قال الله عز وجل: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا (٣٢)﴾ ٢١٧
- قال الله عز وجل: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (٣٣)﴾ ٢٢٥
- قال الله عز وجل: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا (٣٤)﴾ ٢٤٦
- قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٣٥)﴾ ٢٥٤
- قال الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا (٣٦)﴾ ٢٨٦

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَـٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾ ٢٩٨

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ﴾ ٣٠٩

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَـٰلَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ ﴾ ٣١٣

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ ٣١٦

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾ ٣٢٤

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ ﴾ ٣٢٧

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَـٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ ﴾ ٣٣٢

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾ ٣٣٧

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ ﴾ ٣٤٥

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ ﴾ ٣٤٨

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن

قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾ ﴾ ٣٥٥

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾ ﴾ ٣٦٦

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ ﴾ ٣٩٤

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾ ﴾ ٤٠٧

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ ﴾ ٤١٥

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ

إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ ٤٤٩

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ ٤٥٩

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾ ٤٧٣

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾ ٤٧٨

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾﴾ ٤٨١

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾﴾ ٤٩٣

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ ٥٠٣

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾ ٥٠٦

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾﴾ ٥١١

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾﴾ ٥١٥

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ ٥١٩

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾ ٥٢٤

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ ٥٣١

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ ٥٣٤

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾ ٥٣٧

فهرس الأحاديث والآثار ٥٤٧

فهرس الفوائد ٥٥٧

فهرس آيات السورة ٥٦١

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٤٢)

تفسير القرآن الكريم

سورة سبأ

لفضيلة الشيخ العلامة
محمد بن صالح العثيمين
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٤٢)

تفسير القرآن الكريم

سورة سبأ

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات

مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

بسم الله الرحمن الرحيم

ح مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، ١٤٣٦هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العثيمين، محمد بن صالح
تفسير سورة سبأ. / محمد بن صالح العثيمين ـ ط ١ ـ القصيم، ١٤٣٦هـ
٣٣٦ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم (سلسلة مؤلفات الشيخ ابن عثيمين؛ ١٤٢)
ردمك: ٨ ـ ٥٢ ـ ٨١٦٣ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨
١ ـ القرآن ـ سورة سبأ ـ تفسير.
أ ـ العنوان
ديوي: ٢٢٧،٦ ١٤٣٦/٧٨٣٤

رقم الإيداع: ١٤٣٦/٧٨٣٤
ردمك: ٨ ـ ٥٢ ـ ٨١٦٣ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة
لمؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
إلا لمن أراد طبع الكتاب لتوزيعه خيريًا بعد مراجعة المؤسسة

الطبعة الأولى
١٤٣٦ هـ

يُطلب الكتاب من :
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
المملكة العربية السعودية
القصيم ـ عنيزة ـ ٥١٩١١ ص.ب: ١٩٢٩
هاتف: ٠١٦/٣٦٤٢١٠٧ ـ ناسوخ: ٠١٦/٣٦٤٢٠٠٩
جوال: ٠٥٥٣٦٤٢١٠٧
www.ibnothaimeen.com
info@binothaimeen.com

الموزع المعتمد والحصري في جمهورية مصر العربية
دار الدُّرة للنشر والتوزيع ـ شارع محمد مقلد ـ متفرع من مصطفى النحاس
بجوار سوبر ماركت أولاد رجب
هاتف وفاكس: ٢٢٧٢٠٥٥٢ ـ محمول: ٠١٠١٠٥٥٧٠٤٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تقديم

إنَّ الحمدَ لله، نحمدُهُ ونَسْتعينُه ونَسْتغفرُه، ونَعوذُ بالله مِن شُرور أَنْفُسنا ومِن سيِّئات أعمالِنا، مَن يَهْده اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضْلِلْ فَلا هادِيَ له، وأَشْهَد أنْ لا إلَهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ لَه، وأَشْهَد أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه، أرسلَه اللهُ بالهُدَى ودِين الحَقِّ؛ فبلَّغَ الرِّسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَح الأمَّةَ، وجاهَد في الله حَقَّ جِهادِه ، حتَّى أتاهُ اليَقينُ ، فصَلواتُ اللهِ وسلامُه عليهِ وعلَى آلِه وأصحابِه ومَن تَبِعهم بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّين، أَمَّا بَعْدُ:

فمِنَ الدُّروسِ العِلميَّة المُسجَّلَة صَوتيًّا، والَّتِي كانَ يَعقِدُها صاحِبُ الفَضِيلةِ شَيخُنا العلَّامةُ الوالِدُ محمَّدُ بنُ صالحٍ العُثَيْمِين -رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى- في جامِعِهِ بمَدِينَةِ عُنَيْزَةَ صَباحَ كُلِّ يومٍ أَثْناءَ الإِجازاتِ الصَّيْفيَّة؛ حَلقاتٌ فِي تَفْسير القُرآن الكَرِيم كانَت بِدايتُها مِن سُورة النُّور وما بَعدَها؛ حتَّى بلَغ قَولَه تَعالَى فِي سُورة الزُّخرف: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

وقَدِ اعتَمدَ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى فِي تَفْسيرِه لِتِلْكَ السُّور كِتابًا بَيْن يَدَي الطُّلَّاب هُو (تَفْسير الجَلالَيْن) للعلَّامة جَلال الدِّين محمَّد بنِ أَحْمَدَ بنِ محمَّدِ بنِ إبراهيمَ المَحَلِّيِّ، المُتوفَّى سَنَةَ (٨٦٤هـ)[1]، والعلَّامة جَلال الدِّين عبد الرَّحمن بن أَبِي بَكْر بنِ محمَّد

(١) انظر ترجمته في: الضوء اللامع (٧/ ٣٩)، حُسن المحاضرة (١/ ٤٤٣).

ابنِ سابِقِ الدِّين الخُضَيْرِيِّ السُّيُوطِيِّ، المُتوفَّى سنة (٩١١هـ)[١]. تغمَّدهما الله بواسِعِ رَحمته ورِضوانه، وأَسْكنهما فَسِيحَ جنَّاتِه، وجَزاهُما عَنِ الإِسْلام والمُسلِمِينَ خيرَ الجَزاءِ.

وسَعْيًا -بإذْنِ اللهِ تَعالَى- لِتَعْمِيمِ النَّفْع بتِلْكَ الجُهُود المُبارَكة فِي هَذا المَيْدَان العَظِيم باشَر القِسْمُ العِلْمِيُّ بِمُؤسَّسةِ الشَّيخ مُحمَّد بنِ صالِحِ العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ واجِباتِه فِي شَرَفِ الإِعْدادِ والتَّجْهِيز للطِّباعةِ والنَّشْر لإِخْراجِ ذَلِكَ التُّراث العِلمِي؛ إنفاذًا للقَواعِدِ والضَّوابِط والتَّوْجِيهاتِ الَّتِي قَرَّرها فَضيلةُ الشَّيخِ رَحِمَهُ اللهُ تعالَى فِي هَذا الشَّأنِ.

نَسْأل اللهَ تعالَى أنْ يَجْعل هَذا العَمَلَ خالصًا لِوجهِه الكَريمِ؛ نافِعًا لِعِبادِه، وأنْ يَجزِيَ فَضِيلةَ شيخِنا عَنِ الإسلامِ والمسلِمِينَ خيْرَ الجَزاء، ويُضاعِفَ لهُ المَثُوبَةَ والأَجْرَ، ويُعْلِيَ دَرَجَتَهُ في المَهْدِيِّينَ، إنَّه سَمِيعٌ قَرِيبٌ مُجِيبٌ.

وَصَلَّى اللهُ وسلَّم وبارَك علَى عبدِه ورَسولِه، خاتَمِ النَّبِيِّينَ، وإمامِ المُتَّقِينَ، وسيِّدِ الأَوَّلِينَ والآخِرِينَ، نبيِّنا محمَّدٍ، وعلَى آلِه وأَصْحابِه والتَّابعينَ لهُمْ بإِحْسانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّين.

القِسْمُ العِلْمِيُّ

فِي مُؤَسَّسَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحِ العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ

٢٠ جُمَادَى الآخِرَة ١٤٣٦هـ

---

(١) انظر ترجمته في: الأعلام للزركلي (٣/ ٣٠١).

سورة سبأ

الحمدُ للهِ ربِّ العَالَمِينَ، وصلَّى اللهُ وسلَّمَ عَلَى نبيِّنَا مُحمَّدٍ، وعَلَى آلِهِ وأصحَابِهِ ومَنْ تَبِعَهُم بإحسَانٍ إِلَى يومِ الدِّينِ. وبَعد:

قال المُفسِّر [1] رَحِمَهُ اللَّهُ: [مَكِّيَّةٌ إِلَّا ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾، وَهِيَ أَرْبَعٌ أَوْ خَمْسٌ وَخَمْسُونَ آيَةً].

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [مَكِّيَّةٌ] المَكِّيُّ على المشهور: هو الذي نزَل قبل الهِجرة، والمَدنيُّ ما نزَل بعد الهِجْرة، فيَعتَبِر الجمهور المَكِّيَّ والمَدنيَّ بالزمَن لا بالمَكان، فما كان بعدَ الهِجْرة فهو مَدنيٌّ، وما كان قبلَها فهو مكِّيٌّ.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [إِلَّا ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾]؛ لا يُقبَل استِثْناءُ شيءٍ منَ السُّور المَكِّيَّة والمَدنيَّة إلَّا بدليل؛ أي أنَّه إذا كانت السُّورة مَكِّيَّة فجميع آياتها مَكِّيَّة إلَّا بدليل، وإذا كانت مَدنيَّة فجميع آياتها مَدنيَّة إلَّا بدليل، فاستِثْناء المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ هذه الآيَةَ نَنظُر في مَوضِعها، إذا كان هناك دليلٌ يَدُلُّ على أنها نزَلَت في المدينة قبِلْناه وإلَّا فلا.

---

(١) المقصود بـ(المفسر) هنا: محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم جلال الدين المحلي، المتوفى سنة (٨٦٤هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ، ترجمته في: الضوء اللامع (٧/ ٣٩)، حسن المحاضرة (١/ ٤٤٣).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

• • ◦ • •

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

• • ◦ • •

وقوله تعالى: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾. البَسمَلة: آيةٌ مُستَقِلَّة من كِتاب الله عَزَّوَجَلَّ، يُؤتَى بها للفَصْل، أو يُؤتَى بها لبَدء السُّورة، إلَّا في (براءَة) فإنه ليس فيها بَسمَلةٌ؛ لأنها لم تَنزِلْ بَسمَلةٌ بينها وبين الأَنفال فتُرِكَت، والجارُّ والمَجرور مُتعلِّقٌ بمَحذوف؛ لأَنَّ كل جارٍّ ومجرور لا بُدَّ أَنْ يَتعَلَّق بشيءٍ؛ إذ إنَّ الجارَّ والمَجرور مَعمول، وكل مَعمولٍ فلا بُدَّ له من عامِلٍ، وعليه فكلُّ جارٍّ ومَجرورٍ فإنَّه لا بُدَّ له من مُتعلَّقٍ؛ أي: مِن شيء يَتعلَّق به، وكذلك الظَّرْفُ، والمُتعَلَّق: إمَّا أن يَكون فِعلًا أو ما بمَعنَى الفِعْل، وهنا نُقدِّر المُتعَلِّق فِعْلًا؛ لأنَّه الأصل في العمَل؛ ولذلك لا يَعمَل غيرُ الفِعْل عمَل الفِعْل إلَّا بشُروط، وكلُّ شيءٍ لا يَتِمُّ عمَله إلَّا بشروط فإنَّ ذلك لأنَّ الأصل عدَمُ العَمَل.

ولهذا غيرُ الأفعالِ كالأسماء والمَصادِرِ وشَبهِها لا تَعمَل عمَل الفِعْل إلَّا بشُروط، أمَّا الفِعْل فيَعمَل بدون شُروط ونُقدِّره -أي: الفِعْل- مُتَأَخِّرًا عن الجارِّ والمَجرور لفائِدَتَيْن:

الفائِدة الأُولى: التَّيمُّن بالابتِداء بذِكْر اسْمِ الله عَزَّوَجَلَّ.

الفائِدة الثانية: الدَّلالة على الحَصْر.

فنُقدِّر العامِل مُتأخِّرًا نظَرًا لهاتين الفائِدتَيْن.

ونُقدِّره فِعْلًا خاصًّا، فنَقول مثَلًا عند ابتِداء القِراءة: التَّقديرُ: بسم الله أَقرَأُ، وعند الوضوء: التَّقديرُ: بسْمِ الله أَتوضَّأ، وعند الأكل: بِسْم الله آكُلُ، وهكذا، وإنما نُقدِّره خاصًّا لأنه أَدَلُّ على المَقصود، ويَصِحُّ أن نُقدِّره عامًّا ونَقول: التَّقدير بِسْم الله أَبتَدِئُ أو بِسْم الله أَبدَأُ؛ ولكن الخاصَّ أَوْلى.

فصار عندنا ثلاثة أمور: لا بُدَّ مِنْ مُتعَلَّق مُتأَخِّر خاصٍّ، وتَقدَّم التعليل.

وقوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ مُفرَد مُضاف فيَعُمُّ، ويَكون المَعنى: بكُلِّ اسْمٍ من أسماء الله تعالى أَبتَدِئ، وناسَب ذِكْر ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ دون غيرهما من الأَسْماء لأنها -أي: البَسمَلة- يُؤتَى بها للاستِعانة، وأَنسَبُ ما يَكون للاستِعانة هي الرحمة؛ فلهذا أُتبِعَ لفظُ الجلالةِ بهذَيْن الاسْمَيْن الكريمين.

قوله تعالى: ﴿اللَّهِ﴾ أَصلُه الإِلهُ، هذا أَصَحُّ ما قيل فيه، وحُذِفت الهَمْزة لكَثْرة الاستِعمال؛ كما حُذِفَت الهَمزة من (الناس) وأصلُها (أُناس) وحُذِفت الهَمزة من (شَر) ومن (خَيْر) وأصلُها (أشَرُّ) و(أَخْيَر).

وقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ اسْمٌ مِن أَسماء الله تعالى دالٌّ على سَعة رَحْمته عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّ ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ فَعْلان يَدُلُّ على السَّعة والامتِلاء؛ وانظُرْ ذلك في كلِمة (غضبان) و(نَدمان) و(سَكران) و(عَطشان) و(رَيَّان) وما أَشبَهَها؛ تَجِدْ أنَّ هذه الصِّيغةَ دالَّةٌ على السَّعة والامتِلاء.

ولهذا قال بعضُ السلَف رَحِمَهُمُ اللَّهُ: إنَّ ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ رحمةٌ عامَّة لجميع الخَلْق، وأمَّا ﴿الرَّحِيمِ﴾ فهي: دالَّة على الفِعْل أي: أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَرحَم برَحْمته الواسِعة.

فـ﴿الرَّحِيمِ﴾ دالٌّ على الفِعْل وهو إيصال الرحمة إلى المَرْحوم.

و﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ دالٌّ على الصِّفة وهي اتِّصاف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بهذه الرَّحمةِ الواسِعة.

الآية (١)

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [سبأ:١].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ حَمِدَ تَعالَى نَفْسَهُ بِذَلِكَ، وَالمُرادُ بِهِ الثَّناءُ بِمَضْمُونِهِ مِنْ ثُبُوتِ الحَمْدِ؛ وَهُوَ الوَصْفُ بِالجَمِيلِ للهِ تَعالَى].

وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: (أل) يقول العُلَماءُ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: إنها للاسْتِغراق؛ أي: كلُّ حَمْدٍ، و(أل) الّتي للاستِغراق هي التي يَحِل مَحلَّها (كلٌّ) مِثْل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر:٢] أي: كلُّ إنسان لَفِي خُسْر، وقوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٢٨]، أي: كلُّ إنسان؛ فمَعناها: أنَّ كلَّ حَمْدٍ فهو لله تعالى، واللَّام هنا للاستِحْقاق والاختِصاص؛ للاستِحْقاق لأنَّه لا أحَدَ يَستَحِقُّ أن يُحمَد لِذاته إلَّا الله عَزَّوَجَلَّ، والاختِصاص لأنَّ الحَمْد المُستَغرِق لكُلِّ المَحامِد لا يَكون إلَّا لله عَزَّوَجَلَّ.

يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [حَمِدَ تَعالى نَفْسَه بِذَلِكَ] يَعنِي: حَمِدَ الله تعالى نَفْسَه بهذا الوصفِ الذي هو الحَمْد [والمُراد به الثَّناء بمَضمونه من ثُبوت الحَمْد]؛ يَعنِي: ليس هذا تَجديدًا لحَمْد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولكنه ثَناءٌ على الله تعالى بمَضمون الحَمْد [وَهُوَ الوَصْفُ بِالجَمِيلِ للهِ تَعالَى]، ولو قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الوَصْف بالكَمال لكان أعَمَّ، فالحَمْدُ وَصْفُ المَحمود بالكَمال، هذا الحَمدُ، فإن كُرِّر وَصفه بالكَمال صار ثَناءً؛

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢] فيُجيب الله: حمِدني عَبْدي. فإذا قال العبدُ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:٣] يُجيب الله تعالى: أَثنى عليَّ عبدي[1]. والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يُحمَد على ما لَه من الكَمال الذاتيِّ، والكَمال المُتعدِّي للغير، أي: على كَماله بذاته وعلى كماله بفِعْله وإحسانه عَزَّوَجَلَّ فيُحمَد على الأَمْرين جميعًا، أمَّا غيره فلا يُحمَد إلَّا على فِعْله إنْ كان فِعْله ممَّا يُحمَد عليه، أمَّا حَمْدٌ للذات نفسِها فهذا لا يَكون إلَّا لله تعالى.

فمثَلًا إذا حَمِدْنا الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ على ما لَه من صِفات الكَمال؛ كالسَّمْع والبصَر والعِلْم والقُدْرة والعظَمة وما أَشبَهها، فهذا حَمْدٌ على الكمال الذاتيِّ، وإذا حَمِدْنا الله تعالى على ما لَه من الإحسان والإنعام فهو حَمْدٌ على الكَمال المُتعدِّي، فإذا حَمِدْناه عَزَّوَجَلَّ على إنزال الغَيْث وإنزال الكُتُب وإرسال الرُّسُل ودَفْع الضَّرر فهذا حَمْد على الكَمال المُتعدِّي.

وقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مُلْكًا وخَلْقًا] ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ هذا كالتَّعليل للحَمْد؛ لأنَّ هذا الوَصْفَ يَدُلُّ على العِلِّيَّة؛ أي: يَحمَد الله تعالى نَفْسَه؛ لأنَّه مالِكٌ لما في السَّموات وما في الأرض.

وقوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يَشمَل العُقَلاء وغيرَ العُقَلاء؛ ولهذا أَتَى بـ﴿مَا﴾ لأَجْل أن يَشمَل هؤلاءِ وهؤلاءِ؛ وإنما غُلِّبَ غيرُ العُقَلاء؛ لأنَّهم أكثَرُ من حيثُ النَّوْع، أمَّا مِن حيث العَدَد فإنَّ في ذلك شَكًّا؛ لأنَّ الملائِكة عليهم الصلاة والسلام لا شَكَّ أنهم من العُقَلاء، وهم لا يُحصيهم إلَّا الله عَزَّوَجَلَّ؛ «مَا مِنْ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم (٣٩٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

مَوْضِعِ أَرْبَعِ أَصَابِعَ فِي السَّمَاءِ إِلَّا وَفِيهِ مَلَكٌ»(١).

وقوله تعالى: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ جَمْع سماءٍ، وجُمِعت لأنها مُتعَدِّدة، فهي سَبْع سمَواتٍ، كلُّ واحِدةٍ فوق الأُخرى، وهي مَأخوذة من السُّمُوِّ، وهو العُلُوُّ والرِّفْعة.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ أُفرِدَت، لكنَّ المُراد بها الجِنْس فتَشمَل الأَرَضين السَّبْعَ؛ لأن الأَرَضين سَبْع بصريح السُّنَّة، وسَبْع بظاهِر القُرآن، فهي سَبْع بصريح السُّنَّة؛ لقول النبيِّ ﷺ: «مَنِ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا طَوَّقَهُ اللهُ إِيَّاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ»(٢)، وبظاهِر القُرآن؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:١٢]، فإن المِثْليَّة هنا قطعًا ليست بالصِّفة فتكون بالعَدَد.

وقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مُلْكًا وَخَلْقًا]، يَعنِي: أنه هو الذي خلقَها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وهو المالِكُ لها المُدبِّر، ولو قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وتَدبيرًا) لكان أَبْيَنَ، وإن كانت كلِمة [مُلْكًا] تَتضمَّن التدبير.

فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له ما في السَّموات والأرض خَلْقًا فلم يَخلُقْها إلَّا الله عَزَّوَجَلَّ، ومُلْكًا فلا مالِكَ لها إلَّا الله عَزَّوَجَلَّ، وتَدبيرًا فلا تَدبيرَ لأَحَدٍ فيها على وجه الإطلاق إلَّا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ كالدُّنيا يَحمَده أَوْلياؤُه إذا دخَلوا الجَنَّة].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ١٧٣)، والترمذي: كتاب الزهد، باب في قول النبي ﷺ: «**لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا**»، رقم (٢٣١٢)، من حديث أبي ذر الغفاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب إثم من ظلم شيئًا من الأرض، رقم (٢٤٥٢)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها، رقم (١٦١٠)، من حديث سعيد ابن زيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْآخِرَةِ﴾ هنا خَصَّ الحَمْد في الآخِرة مع أنه محمودٌ في الدُّنيا والآخِرة؛ كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في آيةٍ ثانية: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ [القصص:٧٠]، لكنَّه ذَكَر ذلك؛ لأنَّ ظُهور حَمْده في الآخِرة أَبيَنُ وأَوْضَحُ، فإنَّ في الدُّنيا مَن يُنكِر حَمْد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويَكفُر به، ولا يَرَى إلَّا أنَّ هذه الدُّنيا طبيعة تَتَفاعَل بذاتها وليس لها مُدبِّر، ومَنِ اعتَقَد هذا الاعتِقادَ فهل يُمكِن أن يَحمَد الله عَزَّوَجَلَّ؟ أبدًا! لا يُمكِن حتى لو رَأَى الخَيْر واندِفاع الشَّرِّ فإنَّه لا يَحمَد الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّه لا يُقِرُّ به، لكِن في الآخِرة لا يُمكِن لأحدٍ إلَّا أن يَحمَد الله عَزَّوَجَلَّ، فالحَمْد في الآخِرة لله عَزَّوَجَلَّ، كما أنَّه أيضًا في الآخِرة لا أحَدَ يُحْمَد إلَّا النادِر، قال الله تعالى للنبيِّ ﷺ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء:٧٩]، أمَّا بقية الناس ممَّن لم يَحمَدهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فإنهم ليس لهم حَمْد في الآخِرة، فأنت في الدُّنيا تَحمَد من يُحسِن إليك لكن في الآخِرة لا تَحمَد صديقَكَ ولا صاحِبكَ، اللهمَّ إلَّا أن يَكون ذلك بعد دُخول الجنَّة فرُبَّما.

يَقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْآخِرَةِ﴾ كَالدُّنْيَا]، يَعنِي: كما أنَّ له الحَمْدَ في الدنيا، وكأنَّ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذا التَّقديرِ يَقول: إنه حُذِف الشِّقُّ الآخَر لدَلالة السِّياقِ عليه، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل:٨١]، يَعنِي: والبَرْدَ.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يَحْمَدُهُ أَوْلِيَاؤُهُ إِذَا دَخَلُوا الْجَنَّةَ]؛ قال الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ﴾ [الزمر:٧٤]، ولكِنَّ الصحيحَ أنَّه يُحمَد حتى على جزائه الكافِرين؛ فإنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال في آخِر سُورة الزُّمَر لما ذكر سَوْق أهل النار إلى النار وأهل الجنَّة إلى الجنَّة، قال تعالى: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ

لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر:٧٥]، فإن الله تعالى يُحْمَد على كَمال عَدْله وكَمال فَضْله، ومُجازاته لأهل النار من بابِ العَدْل فيُحمَد عليه.

وقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ فِي فِعْلِهِ]، وهذا فيه قُصور؛ لأنَّه حَكيمٌ في شَرْعه وفِعْله أيضًا؛ الذي هو القَدَر، فليسَتِ الحِكْمة خاصَّةً بالفِعْل، بل حتى في الشَّرْع الذي يَكون بكلامه فإن الشَّرْع هو الوحيُ وهو كلامُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وليس فِعْلًا له، بل هو كلامه، وكذلك فِعْله وهو حَكيم فيه، والحِكْمة مَأخوذة من الإِحْكـام وهو الإِتْقان؛ ولهذا يُقال في تَفسيرها: إنَّها وَضْع الشيءِ مَوضِعَه، وهذا هو الإِتْقان، ولكِنْ ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ له مَعْنيان: الحاكِم والمُحكِم؛ لأنَّها مَأخوذةٌ مِنَ الحُكْم ومن الإِحْكام، وأنَّ حُكْم الله تعالى نَوْعان: حُكْم شَرْعيٌّ وحُكْم كَوْنيٌّ، وأنَّ الحِكْمة نوعان أيضًا: صُورية وغائِيَّة.

فالصُّورية: بمَعنى أن كون هذا الشيءِ على هذا الصُّورةِ المُعيَّنة مُوافِق للحِكْمة.

والغائِيَّة: بأن الغاية من هذا الشيءِ حِكْمةٌ يُحمَد الله تعالى عليها.

فمَثَلًا كونُ الصـلاة على هذا الوجهِ والصيـامِ على هذا الوجهِ والوضوءِ على هذا الوجهِ؛ هذه في الأُمور الشَّرْعية، وكذلك في الأُمور الكَوْنيَّة؛ كون خِلْقة الإنسان على هذا الوجهِ والشمسِ والقمَرِ وما أَشبَـه ذلك؛ هذه حِكْمة صُوريَّة، بمَعـنَى: كونُ الشَّيْءِ على هذه الصورةِ المُعيَّنة هذا لا شَكَّ أنه مُوافِقٌ للحِكْمة، ثُمَّ الغاية من ذلك الشيءِ حِكْمةٌ أُخرى.

وتَكون هذه الحِكْمةُ الصُّوريةُ والغائِيَّة في الشَّرْع وفي القَدَر، وإذا ضَربت اثنَيْنِ في اثنَيْنِ تَكون أربعةً:

١- حِكْمة غائِيَّة في الشَّرْع. ٢- حِكْمة صُورية في الشَّرْع.

٣- حِكْمةٌ غائِيَّةٌ في القَدَر. ٤- حِكْمة صُورية في القَدَر.

وكُلُّ ذلك ثابِت لله عَزَّوَجَلَّ، وإذا آمَنَ الإنسان بهذا اطمَأَنَّ إلى أحكام الله تعالى الكَوْنية والشَّرْعية، ولم يَنقَدِح في ذِهْنه أيُّ اعتِراض؛ لأَنَّه يَعلَم أنَّ هذا صادِرٌ عن حِكْمة، وإذا عَلِم أَنَّه صادِرٌ عن حِكْمة فإنه لا يَبقَى في قلبه شَكٌّ من أنَّ هذا هو عيْنُ الصواب، وهو الذي تَقتَضيه الحِكْمة؛ وبهذا يَطمَئِنُّ الإنسان إلى شريعة الله تعالى، ويَطمَئِنُّ الإنسان أيضًا إلى قدَرِ الله عَزَّوَجَلَّ، ويَعلَم أن هذا هو الصوابُ الذي لا يَجوز غيرُه.

و(حَكِيمٌ) بمعنى حاكم فهو إذا صيغة مبالغة (فعيل)، وإذا كان (حكيم) من أحكم فهو بمعنى محكم وفعيل تأتي بمعنى مفعل ومنه قول الشاعر[1]:

أَمِنْ رَيْحانَةَ الدَّاعِي السَّمِيعُ يُؤَرِّقُني وَأَصْحَابِي هُجُوعُ

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿الْخَبِيرُ﴾ بِخَلْقِهِ]، و(الخبير) معناها: ذو الخِبْرة وهي العِلْم ببواطِنِ الأُمور، ومنه سُمِّي الزارع خبيرًا؛ لأَنَّه يَستُر الحَبَّ بالحَرْث، وهل يُنافي ذلك العِلْمَ بظواهِر الأُمور؟ لا، بل إنَّه يُؤَيِّده لأنَّ الذي يَعلَم ببواطن الأُمور من بابِ أَوْلى أن يَعلَم بظواهِرِها، والحِكْمة دائِمًا يَقرُنها الله عَزَّوَجَلَّ بالعِزة وبالعِلْم، وهنا قُرِنت بالعِلْم الذي يَتضمَّنه الخِبْرة وإنما يَقرُنها الله عَزَّوَجَلَّ بذلك ليَتبيَّنَ أنَّ حِكْمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَبنيَّة على عِلْمه وأَنَّه إذا تَراءَى لك أن هذا الشيءَ ليس بحِكْمة فذلك لنُقْصان عِلْمك، وإلَّا ولو كان عندك عِلْمٌ وفَهْمٌ لعَرَفت أنَّ الحِكْمة فيما شرَعَه الله عَزَّوَجَلَّ وفيما قدَّره.

(١) البيت لعمرو بن معدي كرب، انظر: الأصمعيات (ص:١٧٢)، الشعر والشعراء لابن قتيبة (١/ ٣٦٠).

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: ثُبوتُ الحمد الكامِل لله عَزَّوَجَلَّ في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إلى آخِرِه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ هذا الحَمْدَ الذي ثبَت له هو أَهْل له؛ لقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ﴾؛ لأنَّ اللَّام -كما تَقدَّم- للاستِحْقاق والاختِصاص.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: ثناء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على نَفْسه لأَجْل مَصلَحة العِباد؛ لأننا نحن لا نَستَطيع أنَّ نُثنِيَ على الله أو نُحصِيَ ثَناءً عليه؛ فإذا حَمِد الله نَفْسَه فهذا من مَصلَحَتِنا؛ لأنَّه يُعلِّمنا عَزَّوَجَلَّ كيف نَحمَده، وكيف نُثني عليه؛ وهو أهلٌ لأن يَمدَح نَفْسَه عَزَّوَجَلَّ ويُثنِيَ عليها لمَصلَحة عِباده، وإلَّا فهو في غِنًى عن كونه يُظْهِر لنا من صِفات الكمال ما يُظْهِر، ولكن هذا من أَجْل مَصلَحتنا.

وهذه الفائِدةُ قد تَكون مَبنِيَّة على سُؤال مُقدَّر: كيف يُثنِي الله تعالى على نَفْسه؟ وهل مَدْح الشَّخْص نَفْسَه يُعتبَر مَنقَبةً أم لا؟

فالجوابُ: أن يُقال: إنَّ الله تعالى يَمدَح نَفْسَه لا لحاجته إلى أن نُثنِيَ عليه أو أَنْ نَعرِف كماله؛ لأنَّه الكامِلُ، لكن من أَجْل مَصلَحَتِنا، إذ إننا لا نُحصِي ثَناءً عليه، ولا نَعرِف ماذا نُثنِي به عليه إلَّا عن طريق وَحْيه.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: عموم مُلْك الله تعالى؛ في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وهنا حَمِد نَفْسَه على عُموم مُلْكه، وقد يَحمَد نَفْسَه على فِعْله مِثْل: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام:١]، وقد يَحمَد نَفْسه على شَرْعه، مِثْل: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾... ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام:١]، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ

عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ [الكهف:١].

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ السَّمواتِ جَمْعٌ؛ يَعنِي: أَكثَرُ من واحِدة؛ لقَوْله تعالى: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ومِن أَدِلَّة أُخرى قد ثَبَت أنها سَبْع، وكذلك الأَرْض.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: ظهور كَمال الله عَزَّوَجَلَّ يوم القِيامة؛ أَظهَرَ ممَّا يكون في الدُّنيا؛ لقوله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾، فالمُلْك عامٌّ، وظهور الحَمْد جَلِيًّا واضِحًا يَكون في الآخِرة.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: ثُبوت البَعْث؛ لقوله تَعالى: ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: عُموم عِلْم الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ؛ يُؤخَذ مِن قَوْله تعالى: ﴿ٱلۡخَبِيرُ﴾ وما جاء مِن التَّفصيل بعدها؛ لأنَّ الخَبير هو العالِم بالبَواطِن، والعالِم بالبَواطِن عالِم بالظَّواهِر.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: إثبات هَذَيْن الاِسْمَين الكَريمين لله عَزَّوَجَلَّ، وهُما: ﴿ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: إثبات حُكْم الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ الكَونيِّ والشَّرْعيِّ، وإثباتُ حِكْمته المُتعَلِّقة بالكون والمُتعَلِّقة بالشَّرْع.

ويَتفرَّع على هذه القاعِدةِ وجوبُ التَّسليمِ لقَضائه الكونيِّ والشَّرْعيِّ بحيثُ لا نُورِد أيَّ اعتِراضٍ؛ حتى وإن جاء على ما ظاهِرُه خِلافُ الحِكْمة فإنَّه يَجِب أن نَتَّهِم عُقولَنا؛ لأنَّه إذا ثبَت أنه عَزَّوَجَلَّ حكيم في الحُكْمين الكونيِّ والشَّرْعيِّ لزِمَ من ذلك التَّسليمُ للقَضاء الكونيِّ والشَّرْعيِّ؛ لأنَّه صادِرٌ عن حِكْمة، لكِنَّ هذه الحِكْمةَ قد تَخفَى علينا.

• • ❁ • •

الآية (٢)

ثُمَّ فصَّل شيئًا من عِلْمه:

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَاۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴾ [سبأ:٢].

•••

قول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ ﴾ يَدْخُلُ ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كَماءٍ وَغَيْرِهِ ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ كَنباتٍ وَغيْرِهِ ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ مِنْ رِزْق وَغَيْرِهِ ﴿وَمَا يَعْرُجُ﴾ يَصْعَدُ ﴿فِيهَا﴾ مِنْ عَمَلٍ وَغَيْرِهِ ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ﴾ بِأَوْلِيائِهِ ﴿ٱلْغَفُورُ ﴾ لَهُمْ] هذا من باب التَّفصيل.

وقوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾: ﴿مَا﴾ اسم مَوصول يُفيد العُموم، و﴿يَلِجُ ﴾ بمَعنى: يَدخُل، فكُلُّ ما يَدخل في الأرض فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَعلَمه.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [كَماءٍ] الماء يَدخُل إلى الأَرض ويَخرُج منها، فإذا أَنزَل الله عَزَّوَجَلَّ الماء من السَّماء أَدخَله في الأرض يَنابيعَ، وإذا أَراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يَخرُج خرَج بآلة أو بغير آلة.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَغَيْرِهِ] كالأموات وغيرهم؛ كالأَشياء التي لها جُحور في الأرض، والنَّبات أيضًا وبُذورها أيضًا، كلُّها داخِلة في الأرض.

المُهِمُّ: أن ما يَلِج في الأرض لا يُحصَى أَصنافه فضلًا عن أفراده وهو واسعٌ

جِدًّا، والله عَزَّوَجَلَّ يَعلَمه حتى الذَّرَّة التي تَدخُل في جُحْرها يَعلَمها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقول المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ كَنَباتٍ وَغَيْرِهِ] فالنَّباتُ واضِح؛ و[غَيْرِهِ] كالماء والمعادِن والحَيوانات التي تَنتَشِر في الأرض، ومن ذلك الإنسانُ؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه:٥٥] إِخْراج وإِدْخال، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ [نوح:١٧-١٨].

وقول المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ مِنْ رِزْقٍ وَغَيْرِهِ] كيف يَنزِل من السماء الرِّزْق؟ هل تَبقَى في البيت كلَّ يَوْم ويَأتيك التَّمْر والثِّياب ويَنزِل من السماء؟

الجوابُ: لا ولكن الرِّزْق يَكون بالمَطَر مثلًا، يُنزِل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى المَطَر فتُنبِت الأرضُ؛ ويَخرُج منها الماء والمَرعَى، قال تعالى: ﴿مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [عبس:٣٢]، وغير ذلك أيضًا: يَنزِل أَمْرُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾ [السجدة:٥]، وتَنزِل أيضًا الملائكة، وتَنزِل الشُّهُب تُرمَى بها الشياطينُ، وأشياءُ كثيرةٌ من هذا، الله عَزَّوَجَلَّ يَعلَمها.

وقول المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَمَا يَعْرُجُ﴾ يَصْعَدُ ﴿فِيهَا﴾ مِنْ عَمَلٍ وَغَيْرِهِ]؛ هنا (يَعْرُج) بمَعنى يَصعَد و(يَعرُج) تُعدىَّ بـ(إلى) كما قال تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج:٤]، وقال تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ [السجدة:٥]، وهنا قال: (يَعرُجُ فيها) والنَّحويُّون اختَلَفوا في مِثْل هذا؛ فمِنهم مَن قال: إنَّ الحَرْف بمَعنًى يُناسِب الفِعْل؛ يَعنِي: أَنْ يُجعَل حرفٌ بمَعنى حرفٍ آخَر يُناسِب الفِعْل؛ فمَثَلًا يَقول: (في) بمَعنَى (إلى)، ومِنهم مَن يَقول: بلِ الحَرْف باقٍ على

مَعناه الأصل، ويُضَمَّنُ الفِعْلُ مَعنًى يُناسِب ذلك الحَرْفَ، وهذا مَذهَب البصريين فيَقولُ: ﴿يَعْرُجُ﴾ مُضَمَّنٌ مع مَعناه الظاهِر -وهو العُروج- معنى الدُّخول؛ يَعنِي: يَعرُج فيَدخُـل فيها، ليس المُرادُ ما يَعرُج فقط ولا يَدخُل، وسَبَق لنا في مُقدِّمة التفسير لشيخ الإسلام ابنِ تيميَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّ هذا المَذهَبَ هو المَذهَبُ الصحيح المحقَّقُ؛ وهو أن نُضمِّن الفِعْل معنًى يُناسِب الحرف؛ لأنَّ هذا التَّضمين يَجعَل للفِعْل مَعنيَيْنِ: أحدُهما: المعنى الظاهِرُ من اللَّفْظ، والثاني: المَعنَى الذي تَضمَّنه؛ ليُناسِب الحَرْف الذي تَعلَّق به.

ويَظـهَر لك ذلك جَليًّا في قوله تعـالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ [الإنسان:٦]، ومَعلومٌ أننا لا نَشرَب بالعَيْن إذ ليست بآلة للشُّرْب، ويَرَى بعض العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ أن نَجعَل الباء بمَعنى (مِنْ) أي: يَشرب منها؛ ويَرَى آخَرون أننا نُضمِّن (يَشرَب) مَعنى (يَروَى) فإذا ضمَّنَّا نَستَفيد فائِدتَيْن:

الأُولى: الشُّرْب.

والثانية: والرِّيُّ.

ولكن إذا قُلْنا: إنَّ الباء بمَعنى (مِنْ) لم نَستَفِد هذه الفائِدةَ.

فالمُهِمُّ: أن المَذهَب الصحيح هو أننا نُضمِّن الفِعْل مَعنًى يُناسِبُ الحَرْف، ولا نَجْعَل الحَرْف بمَعنَى حَرْفٍ آخَر.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ﴾ بِأَوْلِيَائِهِ ﴿الْغَفُورُ﴾ لَهُمْ] وهذا أيضًا من التَّخصيص بلا دليلٍ.

وقوله تعالى: ﴿الرَّحِيمُ﴾ لم يَذكُر مُتعلَّقها، والمُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ يَقول: [بِأَوْلِيَائِهِ]

فعليه يَكون أعداؤُه لا رحمةَ لهم على كلام المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، و﴿ٱلْغَفُورُ﴾ أيضًا لأَوْليائه؛ فأَعداؤُه لا مَغفِرةَ لهم، ولكنَّ الصحيح: العُموم؛ لأنَّ هذين الإِسْمَيْن مُطلَقان فيَبقَيان على إطلاقهما؛ فهو رحيم حتى بأعدائه، فالكافِر قد أَعطاه الله تعالى صِحَّة ورِزْقًا من اللِّباس والطَّعام والشَّراب والمَسكَن والزوجة والأَهْل، وكلُّ هذا رحمةٌ، لكنها رحمةٌ عامَّةٌ، يَعنِي: أنها لا تَكون خاصَّةً كرَحْمة المُؤمِنين.

والمَغفِرة أيضًا يَستَحِقُّها مَن تاب من عَداوته لله عَزَّوَجَلَّ، وإذا تاب فهو وَلِيٌّ من أَوْلياء الله عَزَّوَجَلَّ، ولكن قد يَكون في الإنسان عَداوة ووِلايةٌ، كما في قوله تعالى: ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة:١٠٢]، وهم مُستَحِقُّون لمَغفِرة الله عَزَّوَجَلَّ.

إِذَنْ: فكَلِمة ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ عامَّةٌ؛ لأَنَّها تَختَصُّ بالفِعْل وهو إيصال الرحمة إلى المَرحوم.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن من الأساليب البلاغية: الإجمالَ ثُمَّ التَّفصيلَ؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْخَبِيرُ ۝١ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ﴾ إلى آخِره، وفائِدة هذه الطريقةِ البَلاغية هي: أن الشيءَ إذا جاء مُجمَلًا تَشوَّفَتِ النُّفوس إلى تَفصيله، فجاء التَّفصيلُ وارِدًا على نُفوسٍ تَتطَلَّع إليه، فإذا ورَد التَّفصيلُ إلى نُفوس تَتطَلَّع إليه كان أَوْقعَ في النَّفْس وأَرسَخَ في القَلْب.

فلو قُلْتُ لكَ: حدَث البارِحةَ شيءٌ عَظيم ما دَرَيْتَ؟ البارِحة الساعة الواحِدة من الليل حدَث أمر عظيم؛ ما عَلِمْت؟! فتَتَشوَّف إلى هذا وتَتَطَلَّع إلى هذا الشيءِ العَظيم.

لكن لو قُلْتُ لكَ: حدَث البارِحة مثلًا أن رُمِيَ بنَجْم فاستَنار نورًا عظيمًا، على

كلِّ حال تَقبَل هذا الخبَرَ، لكن ليس كالأوَّل؛ لأنك في الأوَّل ستقول: ما هذا الشيءُ العظيمُ؟ تَقول: شيء عظيم، ما هذا الشيءُ؟! أَخبِرْني ما هذا الشيءَ؟ حتى يَرِدَ على قَلْبك وقد تَشَوَّفْت إليه كثيرًا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: تَمام تَصرُّف الله عَزَّوَجَلَّ في مَخلوقاته؛ هذا يَلِج، وهذا يَدخُل، وهذا يَنزِل، وهذا يَعرُج؛ قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: من فَوائِدها -وهي فائِدة بَلاغِيَّة-: البَداءةُ بما يُماسُّ الإنسانَ وإن كان غيرُه أشرَفَ منه؛ لأنه تَحدَّث عمَّا يَلِجُ في الأرض وما يَخرُج منها قبل التَّحدُّث عمَّا يَنزِل من السَّماء وما يَعرُج فيها، وهذه الفائِدةُ بِناءً على أن السَّماء أَشرَفُ من الأرض، وهل هذا مُسلَّمٌ؟

الجوابُ: هذا فيه خِلاف بين العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ، وفيه جدَلٌ كثير، منهم مَن يَرَى أنَّ السماء أَشرَفُ ويَقول: إنَّ السماءَ لو لم يَكُن فيها إلَّا المَلائِكةُ المُقرَّبون، وهي جهة عُلُوٍّ والسَّماء فيها أيضًا الله عَزَّوَجَلَّ فوقَها، ومنهم مَن يَرَى أن الأرض أَشرَفُ ويَقول: لأنَّها خُلِق منها أَفضَلُ المَخلوقات وهمُ الأَنبياءُ والرُّسُل، فهي أشرَفُ.

وهذا النِّزاعُ وإن كان نِزاعًا قد يُقال: إنه مِنْ فُضول العِلْم، لكنه على كلِّ حال في أوَّلِ وَهْلة يَرَى الإنسان أن السَّماء أَشرَفُ من الأرض، ولكن ذُكِرَتِ الأرضُ هنا لأنها تُماسُّنا أكثرَ ونَعرِف عنها أكثرَ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثبات الرحمة والمَغفِرة لله عَزَّوَجَلَّ، في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾، وهنا قدَّم (الرَّحيم) على (الغفور)، وإن كان الأكثَرُ في القرآن تَقديمَ (الغفور) على (الرَّحيم)؛ لِما يَكون في السماء والأرض مِنَ المَصالِح والمَنافِع، والمَصالِح

والمَنافِع من آثار الرحمة، ودفعُ المَصائِب من آثار المَغفِرة؛ لأنَّ المَغفِرة: مَحْوُ الذَّنْب الذي تَزول فيه المَكروهات، والرحمة: حُصول الخير.

والرحمة عند أهل السُّنَّة والجَماعة: صِفة من صِفات الله عَزَّوَجَلَّ، حقيقةٌ ثابتةٌ له، وعند الأَشاعِرة يَقولون: الرحمة هي الإحسان أو إرادة الإِحْسان، فيُفسِّرونها بالشيء المَفعول لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ يَعنِي: بالنِّعَم أو بإِرادة النِّعَم؛ لأنهم يُقِرُّون بصِفة الإرادة؛ فيُفسِّرون الرحمة بإرادة الإِنْعام والإحسان، أو بالإِنْعام والإحسان نَفْسه.

ولكِنَّ القَوْل الصوابَ المَقطوع به هو أنْ تُجرَى نُصوص الكِتاب والسُّنَّة فيما يَتعَلَّق بأسماء الله تعالى وصِفاته على ظاهِرها، فلا نَحتاج أن نَقول: (اللائِق بالله) إلَّا على سبيل الإيضاح فَقَطْ؛ لأننا نَعلَم عِلْم اليَقين أنَّ ظاهِرها لائِقٌ بالله تعالى، وليس ظاهِرُها كما يَقول أهل التعطيل: التشبيهُ! لأنَّه لو كان ظاهِرُ نُصوص الكِتاب والسُّنَّة في أسماء الله تعالى وصِفاته التَّشبيهَ أو التَّمثيلَ لكان ظاهِرُ القُرآن والسُّنَّة في هذا البابِ هو الكُفْرَ؛ لأنَّ مَن شبَّهَ الله تعالى بخَلْقه فقد كفَرَ، حيث كذَّب قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، ومحالٌ أن يَكون ظاهِرُ الحَقِّ باطِلًا وكُفْرًا.

ولهذا إذا قُلْنا: إنَّ نُصوص الكِتاب والسُّنَّة في أسماء الله تعالى وصفاته تُجرَى على ظاهِرها اللائِق بالله تعالى؛ فهذا مِن باب الإيضاح، وإلَّا فإننا نَعلَم عِلْم اليَقين -الذي هو عندنا أَيقَنُ من الشمس-: أنَّ ظاهِرَها هو ما يَليق بالله تعالى، فلا حاجةَ إلى التَّقييد به، لكنَّنا قد نُقيِّده على سبيل الإيضاح فَقَطْ.

و(الرَّحمة) هل هي صِفةُ كَمالٍ من حيثُ هي؟ بقَطْع النَّظَر عن مَوصُوفها أو صِفةُ نَقْص؟

الجوابُ: هي صِفة كَمالٍ في الواقِع، حتَّى الرَّحمة في المخلُوق صِفة كمالٍ له، وعجبًا مِن هؤلاءِ الذِين يُنكرونها ويَقولون: إنَّ الرَّحمة تدلُّ على رِقَّةٍ ولِينٍ ومَا أشبَه ذَلِك، ونَقول: الرِّقَّة واللِّين في مَوضعِها كمالٌ، والغِلظة والشِّدة في مَوضعِها كمالٌ، وفي ذَلِك يَقول المتنبيُّ:

وَوَضْعُ النَّدَى فِي مَوْضِعِ السَّيْفِ بِالْعُلَا مُضِرٌّ كَوَضْعِ السَّيْفِ فِي مَوْضِعِ النَّدَى[1]

النَّدَى: العَطاء والبَذْل، وهو حِكْمة؛ يَقول: وَضع النَّدى في مَوضِع السَّيْف مُضِرٌّ بالعُلا والأَخْلاق؛ لأنَّ الذي يَستَحِقُّ السَّيْف أَحسَن ما نَضع له السيفُ؛ فلو أنَّ مُجرِمًا مُفسِد في الأرض أَمسَكْناه وقَدَرْنا عليه نَقول له: (هذه الفِلَّة لكَ، وهذه السَّيَّارةُ لكَ، وهذا المُستَوْدَعُ المَملوء بالخَزائِن الذهَب والفِضَّة لكَ؛ لأنك مُجرِم)؛ هل هذه حِكْمة؟ الجوابُ: لَيسَت حِكْمةً.

(كَوَضْعِ السَّيْفِ فِي مَوْضِعِ النَّدَى)، وإنسان صاحِب خَيْر وإحسان ومُستَحِقٌّ لأن يُكرَم، فجِيءَ به ووَضَعْناه على نِطَع القَتْل؛ قلنا: سنَقتُلُك الآنَ؛ لأنَّك مُحسِن. هل هذه حِكْمة؟ الجوابُ: ليست بحِكْمة.

فهذا البَيْتُ من أَعظَمِ ما يَكون من أبيات الحِكْمة والمُتنَبِّي مَعروف بأنه حَكيم الشُّعَراء.

فنَقول: إن الرَّحْمة صِفة كَمال من حيثُ هي هي، فإذا أُضيفَت إلى الله عَزَّوَجَلَّ صارت أَكمَلَ وأَكمَلَ.

• • ۞ • •

---

(١) الألفية (ص:٤٥).

الآيــة (٣)

• • ൾ • •

قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ:٣].

• • ൾ • •

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: بالله عَزَّوَجَلَّ وبقُدْرته وبحِكْمته، قالوا: ﴿لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ﴾ هل قالوا هذا اللَّفظَ أَمْ قالوا مَعنَى هذا اللَّفظِ؟

الجوابُ: قالوا هذا اللَّفظَ؛ لأنَّ الأصل أنَّ ما نُقِل عن الغير فإنَّه مَنقول بنَصِّه وفَصْله، فهُمْ قالوا: ﴿لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ﴾، وقالوا في مَوضِعٍ آخَرَ: ﴿مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس:٧٨]، وتَنوَّعَت عِباراتُهم في إِنْكار القِيامة هم قالوا: ﴿لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ﴾ يَعنِي: لا يُمكِن أن تَأتينا الساعة مع أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾ [الحج:٧]، فكذَّبوا بذلك قولَ الله تعالى مُستَنِدين إلى استِبْعاد عُقولهم أن تَرجِع هذه العِظام النَّخِرة حتى تَعود إنسانًا حيًّا، وما علِموا أنَّ الذي بدَأَ الخَلْق قادِرٌ على إعادته؛ قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧]، فشُبْهَتُهم إِذَنْ في هذا الإنكارِ هي: الاستِبْعاد فقط؛ هذه واحِدة.

ثانيًا: يَقولون إذا كنتم صادِقين في أننا سنُبعَث فأْتُوا بآبائِنا، ابعَثُوهم لنا، وهذا

تحدٍّ في غير مَوضِعه؛ لأنَّ الرُّسُل لم تَقُل لهم: إنكم تُبعَثون الآنَ. بل إذا انتهَت الخلائِقُ ومات الخَلْق كلُّهم بُعِثوا، فهذا التَّحدِّي في غير مَوضِعه، هذا التَّحدِّي في مَوضِعه لو كانَتِ الرُّسُل تَقول: إنَّ الناس سيُبعَث أوَّلُهم الآنَ معَ وجود آخِرهم صحَّ أَنْ يُقال: ﴿فَأْتُوا بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الدخان:٣٦] أمَا وقد قالوا: إنهم سيُبعَثون بعد أن يَفنَى الخَلْق كلُّه ممَّن سيُبعَث، فهذا ليس فيه التَّحدِّي.

إِذَنْ: شُبهَتُهم الاستِبْعاد، والتَّحدِّي في غير مَوضِعه حيث قالوا: ﴿فَأْتُوا بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

يَقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾: ﴿بَلَىٰ﴾ هذه يُؤتَى بها لإِبْطال النَّفْي ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى﴾ أَمَر الله عَزَّوَجَلَّ النَّبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن يَصدَع بخِلاف ما قالوا مُؤكِّدًا ذلك بالقَسَم واللَّام والنُّون، فـ﴿قُلْ بَلَىٰ﴾ جوابٌ: لإِبْطال النَّفْيِ و(ربِّي): قَسَم، واللام للتَّوْكيد، والنون أيضًا للتَّوْكيد فالجُمْلة مُؤكَّدة بثلاث مُؤكِّدات.

وقوله تعالى: ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ أيِ: الساعةُ، وهذا أَحَد المَواضِع الثلاثة التي أَمَر الله به نَبيَّه أن يُقسِم عليها.

والمَوْضِع الثاني: قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ [يونس:٥٣].

والمَوْضِع الثالِث: قولُه تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن:٧].

وإنَّما أَمَر الله تعالى نَبيَّه مُحَمَّدًا ﷺ أن يُقسِم على ذلك؛ لأَهمِّيَّته وعِظَمه؛ ولأنَّه مُقتَضَى البَلاغة؛ فإنَّ مُقتَضى البَلاغة أنَّ المُنكِر يُؤتَى له بالكَلام مُؤكَّدًا بمُؤكِّدٍ واحِد

أو اثنين أو ثلاثة حسبَ ما يَقتَضيه المَقال؛ ولأَهَمِّيَّة هذا المَوْضوعِ أَمَرَ الله نَبيَّه مُحَمَّدًا ﷺ أن يُقسِم عليه.

فإن قُلتَ: ما فائِدةُ القَسَم أمام مَن يُنكِر، لأنَّ مَن أَنكَرَكَ بدون قَسَم أَنكَرَكَ مع القَسَم؟

فالجَوابُ: من وَجْهين:

الوجهُ الأَوَّلُ: أن هذا هو مُقتَضى اللِّسان العَرَبِيِّ، أن الأَخْبار تُؤكَّد بأنواع المُؤكِّدات.

الوجهُ الثاني: أن التَّأكيد يَدُلُّ على أن المُتكلِّم جازِم بهذا المُقسَم عليه جَزْمَه بما أَقسَم به؛ فكما أننا جازِمون بالله بوُجوده وكَماله، فنحن جازِمون أيضًا بما أَقسَم عليه وهو: إتيان الساعة.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ بِالجَرِّ صِفَةٌ، وَالرَّفْعِ خَبَرُ مُبْتَدَأٍ، وَفِي قِرَاءَةٍ: (عَلَّامِ) بِالجَرِّ] ففيها إِذَنْ: ثلاثُ قِراءات: ﴿عَٰلِمِ﴾ مَرفوعة ومجَرورة، و(علَّام) مجَرورة فَقَطْ.

وقوله تعالى: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ مُناسَبةُ ذِكْر هذه الصِّفةِ لإثبات القِيامة ظاهِر؛ لأنَّ قيام الساعة مِن عِلْم الغَيْب، والذي أَخبَر به هو (علَّام الغَيْب)، فإذا صدَر هذا الخَبرُ من عالمِ الغَيْب وجَبَ علينا قَبولُه؛ ولهذا الخَبَرُ عن المُستَقبَل إذا صدَر من جاهِل لا يَدرِي فإننا نَرفُضه، وإذا صدَر من عالمِ فإننا نَقبَلُه.

وعِلْم الله تعالى الغَيْبَ أَمْرٌ معلوم حتى عند الكُفَّار، فإنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُخبِر بأَشياءَ ثُم تَقَع ويُشاهِدونها، وهذا شيء لا يَمتَرون فيه؛ فلهذا وَصفَ الله تعالى نَفْسه

بهذه الصِّفةِ بعد إثبات إتْيان الساعة؛ لأنَّه أمرٌ معلومٌ عِنْدهم، فإذا صدَر هذا الخبَرُ من عالِمِ الغَيْب الذي يُقِرُّون بعِلْمه للغَيْب صار الخَبَرُ مُؤكَّدًا واقِعًا.

وقوله تعالى: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ [بالجَرِّ صِفَةٌ] لـ(رَبِّ)؛ لأن (رَبِّ) مجرور فنَقول في إعرابه: الواو حَرْفُ قَسَم وجَرٍّ، (رَبِّي) مُقسَمٌ به مجرور بكَسْرة مُقدَّرة على ما قبل ياء المُتكلِّم منَع من ظُهورها اشتِغال المَحَلِّ بحرَكة المُناسَبة، فليسَتِ الكَسْرة هذه كَسرةَ الإِعْراب، وإنما قُلـنا ذلك لأنه رُبَّما يَرِد عليـنا مِثْل قَوْلنا: (ربِّي الله) ليسَتْ مجرورةً، وهذه الكَسرةُ من أَجْلِ المُناسَبة، فالكَسْرة إِذَنْ ثابِتة قبل أن يَدخُل حرفُ الجَرِّ؛ فلذلك تَكون الكَسْرة الإِعْرابية مُقدَّرة على ما قَبلَ ياء المُتكلِّم.

وقوله تعالى: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ صِفة لـ(رَبِّ)؛ وصِفة المَجرور مجرور.

أمَّا بالرفع فيَكون خَبَرَ مُبتَدَأٍ؛ يَعنِي: (هو عالِمِ الغَيْب) والجُمْلة كلُّها: إمَّا حال من (رَبِّ)، وإمَّا استِئْنافية لبيان اتِّصاف الله تعالى بهذا العِلْم.

و(الغَيْب): ما غاب عن الإنسان وهو أمرٌ نِسْبيٌّ، لكن الغَيْب المُطْلَق لا يَكون إلَّا لله، أَقولُ: (إن الغَيْب أَمْر نِسْبيٌّ)؛ لأنَّه قد يَغيب عنك ما لا يَغيـب عن غَيْرِك فصاحِب الدُّكَّان الذي عند المَسجِد الآنَ تَصرُّفه الذي يَتصَرَّفه الآنَ بالنسبة لنا غَيْب، لكن بالنِّسبة لمَن عِنده شهادة، فالغَيْب أمرٌ نِسبيٌّ؛ ولذلك الخَبَرُ عن الشيء الواقِع هل يُعتبَر من الغَيْب الذي يَختَصُّ به الله تعالى؟

الجوابُ: لا؛ لأنَّه يَعلَمه مَن وقَع عِنْده وحدَث عِنْده، لكن الغيب المُستَقبَل هذا هو الذي من خَصائِص عِلْم الله؛ ولهذا مَنِ ادَّعى عِلْم الغَيْب في المُستَقبَل صار مُكذِّبًا لقَوْل الله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل:٦٥].

ومَنِ ادَّعى عِلْم غَيبٍ واقِعٍ فهذا الغَيْبُ ليس غَيْبًا مُطلَقًا، ولكنه غَيْب نِسْبيٌّ؛ يَعلَمه مَن شاهَدَه، ولا يَعلَمه مَن لم يُشاهِدْه؛ فغَيْب الله تعالى في قوله: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ يَشمَل الأَمْرين أو يَشمَل المُستَقبَل فقط؟

الجوابُ: يَشمَل الأَمْرين؛ لأنَّ كُلَّ ما حدَث ولو في أزمانٍ بَعيدة جِدًّا فالله عالِمٌ به، وكل ما سيَحدُث فالله عالِمٌ به، فالغَيْب المُطلَق للواقِع والمُنتَظَر هذا من خصائِصِ عِلْم الله تعالى، والغَيْب المُقيَّد بالواقِع هذا ليس من خَصائِص عِلْم الله تعالى، بل هو حاصِلٌ لكل مَن شاهَدَه.

قول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَا يَعْزُبُ﴾ يَغِيبُ ﴿عَنْهُ﴾] يَعنِي عن الله [﴿مِثْقَالُ﴾ وَزْنُ ﴿ذَرَّةٍ﴾ أَصْغَرِ نَمْلَةٍ ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾].

وقوله تعالى: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾ إلى آخِره؛ صِفة من الصِّفات السَّلْبية، و﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ من الصِّفات الثُّبوتية، فالصِّفات الثُّبوتية -كما تقرَّر- كلُّها صِفاتُ كَمالٍ، والصِّفات السَّلْبية تَأكيد لصِفاتِ الكَمال؛ لأنها تَتضمَّن صِفة الكَمال المَنفيِّ عنها هذا العَيْبُ، فالصِّفات السَّلْبية يَعنِي النَّفي تَأكيدٌ للكَمال؛ لأنها تَتضمَّن ثُبوت الصِّفات الكَمالية الخالية من هذه الصِّفةِ التي تُعتبَر صِفةَ نَقْص.

ولهذا ما من نَفْيٍ في صِفات الله إلَّا وهو مُتضمِّن لإثبات كَمال ضِدِّه، فمَثَلًا: إذا قلنا: لا يَعزُب عن عِلْم الله شَيءٌ فذلك لكَمال عِلْمه، وإذا قُلْنا: إنه خلَقَ السَّموات والأرضَ في سِتَّة أيَّام ولم يَمسَّه لُغُوب فذلك لكَمال قُدْرته، وعلى هذا فقِسْ.

فكُلُّ صِفات النَّفْيِ المُضافة إلى الله يُراد بها إثباتُ كَمال الضِّدِّ؛ كأنه وصَفَ الله تعالى بالكَمال الخالي عن هذا النَّقْصِ.

وقوله تعالى: ﴿مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنها صِغار النَّمْل [أَصْغَرِ نَمْلَةٍ] أَفادَنا المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ من النَّمْل ما هو صغير وما هو كبير، ونحن في عُرْفِنا على خِلاف ذلك، عندنا أن النَّملةَ نَوْع مُعيَّن من الذَّرِّ، وعندنا الذَّرَّة الصِّغار، وعندنا شيء يُسمُّونه نَمْلة؛ والنَّمْل مَعروف أنه الذي أكبَرُ من الذَّرِّ قليلًا ودون القَعْرِ.

يَقولون: إن هذا القَعْرَ من أَعْنَدِ ما يَكون، يُضرَب بها المَثَلُ في العِناد؛ لأنك تُزَحْزِحها عنك، ولكنها تَرجِع، ثُمَّ إذا أَمْسَكَتْ ثَوبَك أو جِلْدك ما يُمكِن أن تَنفَكَّ، تَنقَطِع ولا تَنفَكُّ -سُبحان الله تعالى-، ومن عِنادها أنها إذا أَمسَكَتْ في الثَّوْب يَعنِي: عَضَّتْه بقَرْنيها أو الجِلْد ما تَزَحْزَح أبدًا حتى تَنقَطِع، وفيها أيضًا يُسمُّونها عندنا القِعْس، ولكن هذه أنواع لِجنْس في الواقِع، وكلُّها تُسمَّى نَمْلًا، وكلُّها ذَرٌّ؛ ولهذا نَهيُ الرسول ﷺ عن قَتْل النَّمْل[1] يَشمَل هذا كلَّه.

قول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ بيِّنٍ، وَهُوَ اللَّوْحُ المَحْفُوظُ] هل في هذا إثبات العِلْم، من قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾؟

الجوابُ: نَعَمْ فيه إثبات العِلْم؛ لأنَّه لا كِتابةَ إلَّا بعد العِلْم؛ فكِتابة المَجهول لا تُتصوَّر، فيَكون فيه فائِدة زائِدة على إثبات العِلْم؛ وهو أنَّ معلومَ الله مَكتوب في اللَّوْح المَحفوظ.

وَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: الجَنَّة وما فيها شيءٌ واقِع يَختَصُّ بعِلْم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؟

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٣٣٢)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب في قتل الذر، رقم (٥٢٦٧)، وابن ماجه: كتاب الصيد، باب ما ينهى، عن قتله، رقم (٣٢٢٤)، من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

فنَقول له: بل نحن نَعلَم الجَنَّة من وَجْهٍ ونَجهَلُها من وَجْهٍ آخَرَ، فنَعرِف الأسماء منها دون المُسمَّيات، فهذا عِلْمٌ وواقِع؛ فنَعرِف أن هناك جَنَّةً الآنَ ونارًا، وفيهِما ما ذُكِر من النعيم أو من العَذاب لكن نَجهَل الحقيقة.

فلو أَخبَرَك إنسانٌ بخَبَرٍ واقِع في بلادِك مثَلًا، بل في بيتك الآنَ الذي أنت ما أنت فيه، فستَعرِف المَعنى لكن لا تَعرِف الحقيقة كما هي إلَّا إذا شاهَدْتَها.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: إنكار الكافِرين للبَعْث؛ لقولهم: ﴿لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ إنكار البَعْث كُفْرٌ؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

فإن قُلتَ: ما وجهُ الدَّلالةِ؟

فالجوابُ: وَجْهُ الدَّلالة: أنه لولا أنَّ لهذا الوَصْفِ تأثيرًا لما قاله الله تعالى بهذا الوَصْفِ، ولقال: (وقالوا لا تَأتِينا الساعةُ)، فلَمَّا قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ عُلِم أن هذا القَوْلَ لا يَصدُر إلَّا عن كافِرٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تَعظيم شَأْن القِيامة؛ لأَمْر الله تعالى نَبيَّه مُحمَّدًا ﷺ أن يُقسِم على أنها ستَقَعُ: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: كَمال رحمة الله بعِباده، حيثُ أَخبَرَهم بالبَعْث وأَكَّده بالمُؤكِّدات اللَّفْظية والمَعْنوية والحِسِّيَّة أيضًا؛ لأنَّ الإيمان بالبَعْث هو الذي يَحمِل الإنسانَ على القِيام بطاعة الله؛ إذ لو لم يَكُن هناك بَعْثٌ ما عمِل الإنسان للآخِرة أبدًا.

فنَقول: إنَّ هذا دليلٌ على رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالعِباد أن يُؤكِّد لهم البَعْث الذي يَكون فيه الجَزاء على العمَل مِن أَجْل أن يَعمَلوا لهذا اليَوْمِ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ الساعة مَوكولة إلى عِلْم الله تعالى؛ لقوله: ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾، فهي خبرٌ من أَخْبار الله عَزَّوَجَلَّ الغَيْبيَّة؛ التي لا يَطَّلِع عليها إلَّا الله، والآياتُ في هذا المَعنَى -والأَحادِيثُ أيضًا- كثيرةٌ، فمَنِ ادَّعى عِلْم الساعة فهو كافِرٌ؛ لأنه مُكذِّب للقُرْآن والسُّنَّة وإجماع المُسلِمين.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: شُمول عِلْم الله تعالى لكُلِّ شيء؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إِثْبات السَّموات، وأنها عِدَّة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، وهلِ الأَرْض كالسَّمواتِ في العدد؟

الجوابُ: نعَمْ، كما تَدُلُّ عليه نُصوصٌ أُخرى غير هذه الآيةِ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ هناك شيئًا أصغرَ من الذَّرَّة؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ﴾ وهو الواقِعُ؛ فإن في مَخلوقات الله ما لا تَكاد تَراه بعَيْنِك، ولا تَراه إلَّا بالمِجْهَر، ومع ذلك إذا رأَيْتَ هذا الشيءَ -سبحان الله العظيم- في مِجْهَر مُكبِّر يُكبِّر الشيء مِليونَ مرَّةٍ، إذا رأَيْتَ هذا الشيءَ الذي لا تَراه بعَيْنك تَجِدْ له جميع مَصالِحه؛ أَيْدٍ، وأَرجُلٌ، وأَعيُنٌ، كل شيء؛ حتى الزَّغب الذي على ظَهْره لِوِقايته تَجِده مَوجودًا، وهذا دليلٌ على كَمال قُدْرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأنَّه لطيف خَبيرٌ سبحانه.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: إثبات اللَّوْح المَحفوظ؛ لقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أنَّ هذا اللَّوحَ كُتِب فيه مَقاديرُ كل شيء، الصغيرِ والكبيرِ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّ هذا الكِتابَ مُبين؛ أي: مُفصِّلٌ لكل شيء؛ كما قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام:٣٨]، ففي هذا اللَّوحِ المَحفوظِ كلُّ ما يَكون إلى يوم القِيامة، كما جاءَت بذلك السُّنَّة مُوضِّحةً هذا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: إباحة القَسَم؛ بل وُجوبه إذا دعَتِ الحاجة إليه، نَأخُذه من أَمْر الله نَبيَّه أنَّ يُقسِم على قِيام الساعة: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾؛ ولهذا نَجِد بعض الأئِمَّة رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ إذا ذكَروا حُكْم مَسأَلة من المَسائِلِ أحيانًا يُقسِمون عليها، وهذا يُوجَد في كلام الإمامِ أحمدَ[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ورُبَّما في كلام غَيْره، لكن لم نَطَّلِع عليه، لأنه أحيانًا يُسأَل هل تَقول بكذا وكذا؟ فيَقول: إِيْ واللهِ. فيُقسِم على الشيء تَثْبيتًا له وتَأْييدًا، وإيحاءً بطُمَأْنينته إليه بالنِّسْبة للمُخاطَب.

وعلى هذا فيَجوز للمُفتِي أن يَحلِف على الحُكْم إذا دعَتِ الحاجة إلى ذلك، بل قد يَكون ذلك واجِبًا حَسْبما تَقتَضيه الحالُ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: قوله تعالى: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ هل يُستَفاد من هذه الآيةِ الكريمةِ أنَّ الخِطاب الخاصَّ بالرسول ﷺ يَشمَله هو والأُمَّةَ؟

الجوابُ: ليس فيها دَلالة ظاهِرة على هذا، ولكنه سبَق لنا: أن الخِطاب المُوجَّه إلى الرسول ﷺ يَنقَسِم إلى ثلاثة أقسامٍ:

القِسْم الأوَّل: فيه الدَّلالة الصريحة على أن المُراد به الأُمَّة؛ يَعنِي: مع الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) انظر: المسائل التي حلف عليها أحمد بن حنبل لابن أبي يعلى.

القِسْم الثاني: الدَّلالة الصريحة على أنه خاصٌّ بالرسول ﷺ.

القِسْم الثالِث: ما ليس فيه دَلالة ولا قَرِينة، فهذا مُختَلَف فيه عند أَهْل العِلْم، هل هذا الخِطاب المُوجَّه للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَشمَل الأُمَّة بمُقتَضى الصِّيغة أَمْ يَشمَل الأُمَّة بمُقتَضى الأُسْوة.

ومِثال الذي فيه الدَّلالة على أنه خاصٌّ بالرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ [الشرح:١-٢]، فهذا بلا شَكٍّ خاصٌّ بالرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

ومِثال ما قام به الدَّليلُ على العموم: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطلاق:١] ففي قوله تعالى: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾ دَلالة واضِحة على أن الخِطاب للرسول ﷺ مُرادٌ به الأُمَّة أيضًا، وما عَدا ذلك فهو كثير، فهل يَشمَل الأُمَّةَ الحُكْمُ بمُقتَضى الخِطاب، أو بمُقتَضى الأُسْوة؟

فمِنهم مَن يَقول: إنَّه يَشمَل الأُمَّة بمُقتَضى الخِطاب لكنه وُجِّه للرسول ﷺ لأنَّه إمامُها، وأنَّ نَظيرَ ذلك أن تَقول لقائِد الجَيْش: اذهَبْ إلى الجَبْهة الفُلانية، فالمُراد اذهَبْ ومَن معكَ ممَّن يَتَّبِعُك من الجُنود.

ومِنهم مَن يَقول: إنَّه خاصٌّ بالرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لا يَشمَل الأُمَّة لكن الأُمَّة مأمورة بالتَّأسِّي به، كما في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب:٢١]، والخِلاف في هذا قريب من اللَّفْظيِّ؛ للاتِّفاق على أنَّ هذا الحُكْم يَشمَل الأُمَّة.

إِذَنْ: لو سمِعْنا شخصًا يُنكِر الساعة؛ فهل نحن مَأمورون أن نَحلِف على ثُبوتها؟ نعَمْ، نحن مَأمورون بأن نَحلِف على ثُبوتها.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: تَأكيد الحُكْم على حسب ما تَقتَضيه الحال، أو بعِبارة أَصَحَّ: تأكيد الخبَرِ على حسب ما تَقتَضِيه الحالُ.

وقد ذَكَر البلاغِيُّون أنَّ الخبَر يَنقَسِم إلى ثلاثة أقسام: إمَّا أن يُلقَى إلى خالي الذِّهْن، أو إلى المُتَرَدِّد، أو إلى المُنكِر، فإن أُلقِيَ إلى خالي الذِّهْن؛ فإنه لا حاجةَ إلى تَأكيده، ولا يُمكِن أن يُؤكَّد حسب قَواعِد البلاغة إلَّا لنُكْتة، وإن أُلقِيَ إلى مُتَردِّد حَسُن تَوكيده ليَزول عنه هذا التَّردُّدُ والشَّكُّ، وإن أُلقِيَ إلى مُنكِر وجَب تَوْكيده، فالأَوَّلُ ابتدائِيٌّ، والثاني طلَبيٌّ، والثالِث إنكارِيٌّ. وقد ذكَرْنا ذلك في (شرح البلاغة)[1].

وأمَّا قوله تعالى: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ فالخبَر هنا نَوعُه إِنْكارِيٌّ؛ لأنَّه يُخاطَب به قومٌ مُنكِرون، فكان تَأكيدُه واجِبًا، وقد ذكَرْنا ذلك أثناء الشرح إيرادًا، وهو أنَّه إذا كان هؤلاء مُنكِرين فلا فائِدةَ من القَسَم لهم؛ لأنَّ المُنكِر للخبر سَواءٌ أَقسَمْتَ أم لم تُقسِم فلن يُصدِّقَك، وأَجَبْنا عن ذلك بأنَّ هذا هو مُقتَضى اللِّسان العرَبِيِّ، ويَدُلُّ على أن المُتكلِّم مُستَيْقِن من وقوع هذا الشيءِ كما استيَقَن من وجود المَحلوف به.

• • ۞ • •

(١) شرح البلاغة (ص:٦٨ وما بعدها).

الآيـة (٤)

• قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [سبأ:٤].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لِيَجْزِيَ﴾ فِيهَا]، الضمير يَعود على الساعة.

وقوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ﴾ اللَّام هنا للتَّعليل، وقد علِمْنا من قَواعِد اللُّغة العربية أن حُروف الجَرِّ لا بُدَّ لها من مُتعلَّق، ومُتعلَّق هذه اللَّامِ قولُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ أي: (لتأتِيَنَّكم ليَجزِيَ الذين) فهذه اللَّام للتعليل، وهي مُتعلِّقة بقَوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ و(يَجْزِيَ) بمَعنى: يُكافِئ أو يُثيب، والفاعِل هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فِيهَا] أَشار المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقَوْله: [فِيهَا] إلى أن الجارَّ والمَجرور مُتعلِّق بـ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾؛ لأنَّ الضمير (فِيهَا) يَعود على الساعةِ.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: ﴿ءَامَنُوا۟﴾ بالقَلْب، ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بالجَوارِح، والإيمان إذا أُطلِق: شمِل أعمال الجَوارِح الظاهِرة، وكذلك العمَل إذا أُطلِق: يَشمَل الإيمان بالقَلْب؛ لأنَّ الإيمان بالقَلْب من أعمال القُلوب، فإذا قُرِنا جميعًا صار الإيمان في القَلْب والعمَل في الجَوارِح، فالإيمان سِرٌّ والعمَلُ عَلانية.

وقوله تعالى: ﴿ءَامَنُواْ﴾ الإيمان في اللُّغة: التَّصديق، وفي الشَّرْع: التَّصديق المُستَلزِم للقَبول والإِذْعان، وليس مُجَرَّدَ تصديقٍ، بل هو التَّصديق المُستَلزِم للقَبول والإِذْعان؛ القَبول في الأَخْبار، والإِذْعان في الطَّلَب، فيُقبَل -مثَلًا-: ما أَخبَرَ الله تعالى به رسوله ﷺ، ويُقبَل: كونُ هذا الحُكْم فَرْضًا وكونُه تَطوُّعًا، وما أَشبَه ذلك، ويُذعَن لذلك؛ بمعنى: أنَّه يُتعبَّد لله تعالى بمُقتَضى ما آمَن به، وبمُقتَضى ما شَرَعه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وفي قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يَعنِي: عمِلوا الأعمالَ الصالِحاتِ، فتكون ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وَصْفًا لمَوْصوفٍ محذوف، وحَذْفُ المَنعوت جائز إذا قامَتِ القَرينة عليه، قال ابنُ مالِك رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَمَا مِنَ الْمَنْعُوتِ وَالنَّعْتِ عُقِلْ ... يَجُوزُ حَذْفُهُ وَفِي النَّعْتِ يَقِلّ[1]

ومِن حَذْفِ المَنعوت قولُه تعالى: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾ [سبأ:١١] أي: دُروعًا سابِغاتٍ، فعَلى هذا تَكون: ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ صِفةً لمَوْصوف محذوف؛ أي: الأَعْمال الصالِحات.

وما هي الأعمال الصالحات؟

الجوابُ: العمَلُ الصالِح؛ هو الذي جمَع بين أَمْرَيْن: الإخلاصُ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والمُتابَعةُ للرسول ﷺ، فإن فُقِد الأَوَّل لم يَكُن صالِحًا؛ وكان مَردودًا على العامِل؛ وإن فُقِد الثاني لم يَكُن صالِحًا، وكان مَردودًا على العامِل أيضًا.

والدليل في الأَوَّل قال الله تعالى في الحديث القُدسيِّ: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ

---

(١) الألفية (ص:٤٥).

الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»[١]، وفي الثاني قال النبيُّ ﷺ: **«مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»**[٢] أو: **«مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»**[٣].

فلا يُمكِن أن يَكون العمَل صالحًا إلَّا بهذين الشَّرْطين: الإِخْلاص، والمُتابَعة للرسول ﷺ.

ولو أن رجُلًا أَحدَث بِدْعة من البِدَع يَتديَّن بها إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ويَجِد مِن قَلْبه الاِطْمِئْنان إليها والخُشوع والبُكاء لكنها مُحدَثة في دِين الله تعالى هل تكون عمَلًا صالحًا؟

الجوابُ: لا تَكون، حتى وإن زُيِّن للإنسان هذا العمَلُ واطْمَأَنَّ إليه؛ فإنَّه ليس من العمَل الصالِح، فلا يَكون مَقبولًا ولا نافِعًا، بل يَأثَم به الإنسان؛ لأنه من التَّقرُّب إلى الله تعالى بما يَكرَهه والتَّقرُّب إلى الله تعالى بما يَكرَهه نوعٌ من الاستِهْزاء بالله.

أرأَيْتَ لو أنكَ أَتيْتَ لمَلِك من المُلوك، وأَهدَيْتَ إليه قارورةً فِيها مَا يُسْتقذَر، فهل تَكون مُكرِمًا له؟

الجوابُ: لا تَكون مُكرِمًا له؛ لأنه يَكرَه هذا الشيءَ، وأَهْدِ إليه طِيبًا فلا بأسَ،

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور (١٧١٨)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور، رقم (٢٦٩٧)، ومسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة (١٧١٨)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

أَمَّا أن تُهدِيَ إليه هذا الشيءَ تَتقرَّب إليه بذلك فهذا ضِدُّ ما تُريد وهو نَوْعٌ من الاستِهْزاء بهذا المُكرَم أو المُعظَّم.

إِذَنِ: الأَعْمالُ الصالِحاتُ؛ هي التي جَمَعت بين شَرْطين: الإخلاصُ لله تعالى، والمُتابَعة للرسول ﷺ.

ويُوجَد بعض الأَعْمال ممَّا يُكرَه في الشَّرْع لكن الإنسان يَطمَئِنُّ إليه ويَرتاح له.

فنَقول: لا تَغترَّ بهذه الراحةِ وهذه الطُّمَأْنينةِ؛ فإنَّ ذلك مِن تَزيين الشَّيْطان، وعُبَّاد الأصنام الذين جعَلوها شُفَعاءَ لهم عند الله تعالى يَرتاحون لهذا، ويَرَوْن أنها واسِطة بينهم وبين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ومع ذلك فهي من الشِّرْك.

مِثالُ هذا: يُوجَد بعض الناس يُغمِض عَيْنَيْه في الصلاة؛ ويَقول: إنَّ ذلك أَدْعى للخُشوع، فهذا من تَزْيين الشَّيْطان؛ لأنَّ تَغميض العَيْن في الصلاة لغير سبب مَكروهٌ وخِلافُ هَدْيِ النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فالنبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كان لا يُغمِض عَيْنَيْه، ولكنه: إمَّا أن يَنظُر إلى مَوْضِع سُجوده أو إلى تِلقاءَ وَجْهه، أمَّا أنَّه يُغمِض عَيْنيه فهذا خِلاف السُّنَّة؛ ولهذا كرِهَه الفُقَهاءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ.

نعَمْ، لو كان هناك سببٌ للتَّغميض كما لو كان أَمامَك شيء يُجهِر عَيْنيك، أو نُقوش تَشغَلُك فهنا التَّغميض لسبَبٍ، لا للتَّقرُّب به إلى الله تعالى، ولكن لدَفْع ما يُشوِّش عليك.

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ هذه جُمْلة استِئْنافية لبيان جَزائهم؛ لأنَّ قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ مُبهَم فبيَّن هذا الجزاءَ بقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾، والإشارة في قوله عَزَّوَجَلَّ:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ تعود إلى ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وهي مُبتَدأ، و﴿لَهُم﴾ خبَر مُقدَّم، و﴿مَّغۡفِرَةٞ﴾ مُبتَدأ مُؤخَّر ﴿وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ مَعطوفٌ عليه، والجُملة الثانية من المُبتَدأ والخبَر: خبَرُ المُبتَدَأِ الأوَّلِ، فعِندنا الآنَ مُبتَدَآن ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ و﴿مَّغۡفِرَةٞ﴾، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مُبتَدأ و﴿لَهُم﴾ جارٌّ ومجرور خبَرٌ مُقدَّم لـ﴿مَّغۡفِرَةٞ﴾، و﴿مَّغۡفِرَةٞ﴾ مُبتَدأ مُؤخَّر، و﴿وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ مَعطوفٌ عليه، والجُمْلة من المُبتَدأ الثاني وخَبَره في محَلِّ رَفْع خبَر المُبتَدأ الأوَّل، والرابِط هو الضميرُ في ﴿لَهُم﴾؛ لأنَّه يَعود على المُشار إليه.

وقوله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أشار إليهم بإِشارة البَعيد؛ تَنبيهًا على عُلوِّ مَرْتبتهم؛ لأنَّ هذا الصِّنفَ من الناس هو أَعلى طبَقات الناس: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مَّغۡفِرَةٞ﴾ بها زوال المَكروه، ﴿وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ به حُصول المَطلوب، (فلَهُمْ مَغفِرة) لذُنوبهم وخَطاياهم، فيَغفِر الله تعالى لهم الخَطايا والذُّنوب بأن يَتجاوَز عنهم، ويَستُرَها عليهم؛ لأنَّ المَغفِرة هي سَتْر الذَّنْب والتَّجاوُز عنه، إذ إن اشتِقاقَها من المِغْفَر، وهو الذي يُلبَس على الرَّأْس عند الحَرْب؛ وفيه فائِدتان: سَتْر الرَّأْس؛ ووِقايته من السِّهام؛ فالمَغفِرة إِذَنْ فيها سَتْر الذُّنوب، والتَّجاوز عنها، وعدَمُ العُقوبة عليها.

وقوله تعالى: ﴿وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ الرِّزْق: بمَعنَى العَطاء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلۡقِسۡمَةَ أُوْلُواْ ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينُ فَٱرۡزُقُوهُم مِّنۡهُ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾ [النساء:٨]؛ أَيْ: أَعطوهم، والكريم بمَعنَى الحَسَن في كَيْفيته وفي كِمِّيته، وقد أَشار الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ إلى أنَّ حُسْن هذا الرِّزْق لا تَبْلُغه العُقول في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧]،

فثَواب هؤلاءِ المُؤمنين العامِلين الصالحِاتِ أنْ تُغفَر سَيِّئاتُهم وأن يُجازَوْن على عمَلهم الصالِح بالرِّزْق الكريم.

قُلْت: «الكريم هو الحَسَن في كِمِّيَّته وكَيْفيَّته»، فكِمِّيَّتُه لا تُحصَى ولا يفنَى ولا يَبيد وكَيْفِيَّته أيضًا لا يُدرِكها القَلْب، ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة:١٧].

وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ ﴾ إلى آخِره؛ سبَق وقُلْنا: إن القُرآن مَثاني كما وصَفه الله تعالى به؛ فقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ ﴾ [الزمر:٢٣]، و(مَثاني) هذه غير (المَثاني) في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾ [الحجر:٨٧]؛ لأن المُراد بالسَّبْع من المَثاني الفاتِحة، كما ثبَت ذلك عن النبيِّ ﷺ[1]، فالمَثاني مَعناه: أنه تُثَنَّى فيه المَعاني؛ فغالِبًا إذا ذُكِر جَزاءُ المُتَّقين ذُكِر جزاء الكافِرين، وإذا ذُكِر وَصْف الجَنَّة ذُكِر وَصْف النار، إذا ذُكِرت الأَوْصاف المَحبوبة إلى الله تعالى ذُكِرت الأَوْصاف المَكروهة إليه؛ لأنه لو ذُكِر المَطلوب فَقَطْ من أَوْصافٍ أو جَزاءٍ أَخذَ الإنسان الرَّجاء حتى أَمِن مَكْر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإن ذُكِر المَكروه من ذلك أَخذه القُنوط واليَأْس، فكان الله يَذكُر هذا ثُمَّ يَذكُر إلى جانبه الشيءَ الآخَرَ؛ حتى يَكون الإنسان سائِرًا إلى ربه بين الخَوْف والرَّجاء، لأن هذا هو الاعتِدال أن تَكون خائِفًا راجِيًا في سَيْرك إلى ربِّك؛ لأنك إن غَلَّبت الرَّجاء كُنْت من الآمِنين مِكْرَ الله تعالى؛ لأنَّ مَن غلَّب الرَّجاء صار يَعمَل الذَّنب ويَقول: أَرجو أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَغفِر لي. ويَتهاوَن بالواجِب ويَقول:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ما جاء في فاتحة الكتاب، رقم (٤٤٧٤)، من حديث أبي سعيد بن المعلى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أَرجو الله تعالى أن يَغفِر لي، ومَن غَلَّب الخَوْف دخَل في القُنوط من رحمة الله.

وبَعضُ العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ خالَف في هذا، وقال: إنه يَنبَغي لك عند فِعْل الطاعة أن تُغلِّب الرَّجاء، لأنك قُمْت بما أُمِرْت فارْجُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ثَوابه؛ لأنَّ هذا من باب إحسان الظَّنِّ بالله تعالى، وإذا كُنتَ في مَقام المَعصية فغَلِّبْ جانِب الخَوْف؛ لتَردَع نفسك عمَّا تريد أن تَفعَلَه من المَعْصية.

وأن بَعضَ العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ ذهَب مَذهَبًا آخَرَ وقال: في حال المَرَض تُقدِّم جانِب الرَّجاء؛ لأنك الآنَ في مَقام الضَّعْف فتُغَلِّب جانب الرَّجاء وإحسان الظَّنِّ بالله، فلا تَموتَنَّ إلَّا وأنت تُحسِن الظَّنَّ بربِّك عَزَّوَجَلَّ، وإذا كُنْت في حال الصِّحَّة فغَلِّب جانِب الخَوْف، والإمام أحمدُ رَحِمَهُ اللَّهُ قال: يَنبَغي أن يَكون خَوْفُه ورَجاؤُه واحِدًا فأيُّهما غَلَب هلَك صاحِبه[1].

والإنسان طبيب نفسه في الواقِع لا شكَّ أنَّك إذا رأَيْتَ نَفْسكَ تَميل إلى الباطِل فإنه يَجِب عليك أن تُخوِّفها بالله، ولا تُرجِّها؛ لأنك إن رَجَّيْتها في هذه الحالِ تُقدِم على المَعاصي.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ أفعال الله مُعلَّلة؛ بمَعنَى: أن لها عِلَّةً، يُؤخَذ من اللَّام في قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِىَ﴾؛ لأنَّ اللَّام للتعليل، وهذا يُؤيِّد مَذهَب أهل السُّنَّة والجَماعة، الذين يَقولون: إنَّ أفعال الله تعالى مَقرونة بالحِكْمة. ومعلومٌ أن الجَهْمية -وكذلك بعض الأشاعِرة- يُنكِرون أن تَكون أَفعال الله تعالى لحِكْمة، ويَقولون: إن أَفعاله

---

(١) انظر: الاختيارات العلمية لابن تيمية [المطبوع مع الفتاوى الكبرى] (٥/ ٣٥٩).

لُمجرَّد المَشيئة. قالوا: لأنَّ الحِكْمة غرَض من الأَغْراض التي تَحمِل على الفِعْل والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مُنزَّهٌ عن الأَغْراض.

ونَقول لهم: إن هذا مُصادَمة للنُّصوص؛ ولو تَأمَّلْنا القُرآن لوَجَدْنا فيه آلاف الآيات تَدُلُّ على إثباتِ الحِكْمة لله، ثُمَّ الغرَض إن كان لَمصلَحة الغير فهو مَدْحٌ وثَناءٌ، وإن كان لحاجة المُتكلِّم ليس بها نَقْص في وَجْهٍ من الوجوه.

وقد سبَقَتِ القاعِدة الخَبيثة: الذين يَقولون: إن الله مُنَزَّهٌ عن الأَعْراض والأَغْراض والأَبْعاض، وهذا الكلام إذا سمِعْتَه تَقول: هذا كلامٌ طَيِّب!! وهم يَعنون بذلك نَفيَ أفعاله الاختِيارية؛ يَعنِي: أنه لا يَنزِل ولا يَأتي ولا يَتكلَّم، وما إلى ذلك؛ لأنَّ هذه أعراضٌ تَحدُث وتَزول، أما عن الأبعاض فيَعنُون بذلك: نَفيَ الوجهِ واليَدين والعَيْنين وما أَشبَه ذلك؛ لأنَّ هذه أَبْعاض بالنِّسبة لنا؛ والأغراض يَعنون بذلك: نَفيَ الحِكْمة، والقُرآن يَرُدُّ قولهم هذا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: فَضْلُ الإيمان والعمَل الصالِح، ووجهه: مِن تَرتُّب الثواب عليه في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ وما تَرتَّب عليه الثواب فهو فاضِلٌ ومَحمودٌ ومَطلوبٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الفَرْق بين الإيمان والعمَل الصالِح عند الجَمْع بينهما؛ لأنه هنا ما قال: (الذين آمَنوا) فقط ولا (عَمِلوا الصالِحاتِ) فقط؛ بل جَمَع بينهما، وقد سَبَق لنا أنه إذا جُمِع بينهما صار الإيمان في القَلْب، والعمَل الصالِح في الجوارِح.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: الإشارة إلى أن الإيمان الذي في القَلْب فقَطْ لا يَكفِي عن العمَل الصالِح؛ لأنه رتَّب الجزاء على قِيام الوَصْفين بالفاعِل وهما الإيمان والعمَل الصالِح.

لكنِّي أَقولُ: إن الإيمان إذا كـان صادِقًا فلا بُدَّ أن يَكون العمَـل الصالِح؛ لقول النبيِّ ﷺ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ»(١).

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّ العمَل ليس مَقبولًا ولا محَمودًا ولا مُثابًا عليه حتى يَكون صالِحًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾، ومَتَى يَكون صالِحًا؟

الجوابُ: إذا جمَعَ شَرْطَيْن: الأول: الإخلاص لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والثاني: المُتابَعة لرسول الله ﷺ، فإنْ فَقَد الإخلاص فليس بصالِح، وهو مَردودٌ على فاعِله، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»(٢)، وإِنْ فَقَد المُتابَعة؛ فهو أيضًا مَردود غيرُ مَقبول؛ لقول النبيِّ ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»(٣).

ولا تَتحَقَّق المُتابَعة إلَّا بشروط سِتَّة: أن يَكون العمَلُ مُوافِقًا للشَّرْع في: سببه، وجِنْسه، وقَدْره، وكَيْفيَّته، وزمانه ومَكانه.

فلو أَحدَث الإنسان عِبادة لسبَبٍ غير شَرْعِيٍّ فهي مَردودة، فلو قـال: كُلَّما سمِعْتُ نُباح الكِلاب صَلَّيْت ركعتين! فلا تُجزِئ ولا تُقبَل منه؛ لأنه علَّقها بسبَب لم يَكُن مَشروعًا ولم تكُن مَشروعة من أَجْله فلا تُقبَل.

ولو أن أَحدًا من الناس ضَحَّى بفَرَس وهي أُنثى الخَيْل قال: عِنْدي شاة تُساوِي

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم (٥٢)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم (١٥٩٩)، من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الزهد، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور (١٧١٨)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

مِئَتَيْ ريال، وعِندي فرَسٌ تُساوِي عِشرين ألفَ رِيالٍ سأُضحِّي بالفَرَس! فلا تُقبَل؛ لأنه مُخالِفٌ للشَّرْع في الجِنْس، إذ الأُضحِيَّة ما تَكون إلَّا من بَهيمة الأنعام، ولو أن أحَدًا تَعبَّد لله بعِبادة مُحدَّدة بقَدْر مُعيَّن فزاد في قَدْرها كما لو صلَّى سِتَّ صلَوات قال: إن المُدَّة بين العِشاء والفَجْر طويلة تَحتاج إلى زيادة الصلاة، والمُدَّة بين الفَجْر والظهر طويلة تَحتاج إلى زِيادة صلاة فيُصلِّي سَبْعَ مرَّات؛ فزاد القَدْر، أو لو صلَّى خَمْسًا في الرباعية أو ثلاثًا في الثُّنائية فإنها لا تُقبَل.

وَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: إذا سبَّحَ الرجُل دُبرَ الصلاة مِئَتَيْ مرَّةٍ فهل تَرفُضون هذا التسبيحَ كُلَّه؟ أو تَقولون: ما وافَقَ الشَّرْع فهو مَقبول وما زاد عليه فهو مَردود؟

الجوابُ: إذا كانت العِبادة التي حصَل فيها الزيادة تَتجزَّأ؛ بمَعنَى: أنه يَصِحُّ أوَّلُها دون آخِرها فإننا لا نُبطِل أَوَّلها بما طرَأ عليها، أمَّا إذا كانت لا تَتجزَّأ فإنها إذا بطَل آخِرُها بطَلَ أوَّلُها، فلو صلَّى الظُّهْر خَمْسًا بطَلَت صلاته؛ لأنها لا يُمكِن أن يَصِحَّ أَوَّلُها مع فَساد آخِرها، لكن في زيادة العَدَد لا نُبطِل العدَد الأوَّل.

لكننا نَقول لهذا الرجُلِ: إن كُنتَ تَعتَقِد أن المِئَتَيْن هي المَشروعة فأنت ضالٌّ؛ لأنك مُبتَدِع، وإن كُنتَ تُريد أن تَقول: أنا أَعتَرِف بِأن المَشروع مِئة ولكن زِدْتُ على أنه تَطوُّع. فهذا يُكتَبُ لكَ أَجْر التَّسبيح المُطلَق لا المُقيَّد.

وأمَّا في كَيْفيَّتها: فلو أن أحَدًا صلَّى وصار يَسجُد ثُمَّ يركَع ثُمَّ يَسجُد! هذا غير مَشروع لاختِلاف الكَيْفية.

وأمَّا في الزمَن لو أن أحدَهم قال: أنا سَوْف أَحُجُّ في ذي القَعْدة، أَخرُج إلى مِنًى في ليلة التاسِع مِن ذي القَعدةِ وأَبيتُ فيها، وفي التاسِعة أَذهَبُ إلى عرَفةَ وأَقِفُ.. إلى آخِره! وكمَّل أفعال الحَجِّ في ذي القَعدةِ، ويَقول: لأن ما عِندي أَحَدٌ يُضايِقُني!

فهذا غير صحيح؛ لأنها لم تُوافِق الشَّرْع في الزمَن.

يُقال: إن رجُلًا بَدوِيًّا كان يَبيع في المَواسِم الأضاحِيَ؛ يَأتي بها ويَجلِبها إلى السُّوق وهو ما أَدَّى فَريضة الحجِّ، فقِيل له: لماذا لم تُؤَدِّ الفَريضةَ؟ فقال: الفَريضةُ تَأتي في وَقْت المَوْسِم وأنا ما أُحِبُّ، ولكنني سأذهَب إلى الشَّيْخ أَسأَله: هل يَجوز لي أن أَحُجَّ في عيد رَمضانَ؟! فذهَب إلى الشَّيْخ يَستَأذِنه؛ يَقول: أَستَأذِنك يا شيخُ أنْ تَسمَح لي أن أَحُجَّ في عيد رمضانَ بدَلًا من عيد الأَضْحى؛ لأن عيد الأَضْحى فيه مَوْسِم لنا. فقال له الشيخُ: إن أَذِنْت لك أن تَحُجَّ فإني آذَنُ لكَ أن تُضحِّيَ وحينئذٍ يَكون المَوسِم تابِعًا للحَجِّ، ما يَتخلَّص منه.

فأَقولُ: إن هذا الذي حَجَّ في ذي القَعدةِ حتى لو وافَق التاسِعَ والعاشِرَ والحادِي عشَرَ والثاني عشَرَ والثالِثَ عشَرَ فإنها لا تُقبَل؛ لمُخالَفَتها للزمَن.

ولو أنَّ رجُلًا في العَشْر الأواخِر من رَمضانَ قال: سأَعْتَكِف في بَيْتي ولن أَذهَب للمَسجِد؛ لأني أَتعَبُ في تَحصيل الطعام والشراب، ويُمكِن أن يَجيءَ أَحَد يُلْهِيني عن ذِكْر الله تعالى، فسأَقعُد في البيت. فلا يَصِحُّ اعتِكافُه؛ لأنه مُخالِف للشَّرْع في المَكان.

فتَبيَّن الآنَ أن تَحقيق المُتابَعة لا يَكون إلَّا إذا وافَقَ العَمَل الشريعة في الأمور السِّتَّة.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: عُلوُّ مَرتَبة المُؤمِنين العامِلين الصالحاتِ؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ لأنَّ الإشارة هنا للبَعيد، وذلك لعُلُوِّ مَرتَبَتهم، مِثل قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ [البقرة:١-٢] مع أن الكِتاب بَيْنَ أيدينا، لكن أَشار إليه بالبَعيد لعُلُوِّ مَرتبته.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ في الإيمان والعمَل الصالِح حُصول المَطلوب وزوال المَكروه؛ لقَوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾ هذا زوال المكروهِ ﴿وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ هذا حُصول المَطلوب.

واعلَمْ أن الله تعالى إذا غفَر لكَ فتَحَ لك أبوابَ المَعرِفة وانشَرَح صدرُك بالإيمان؛ لأنَّ الذي يُوجِب ضِيق الصَّدْر وتَشتُّت الفِكْر هو المَعاصي، قال تعالى: ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [المطففين:١٣] ما يَعرِف قَدْر القُرآن إذا تَتْلو عليه القُرآن يَقول: أَساطيرُ الأَوَّلين. فلا يَعرِف قَدْره لماذا؟ ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [المطففين:١٤] لمَّا رانَ على قَلْبه عمَله صار -والعِياذُ بالله تعالى- لا يَرَى هذا القُرآنَ العظيمَ إلَّا أَساطيرَ الأَوَّلين.

ولهذا قال بعضُ العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ: يَنبَغي لمَن نَزَلَت به نازِلة وطلَب حُكْمها، سَواءٌ كانت هذه النازِلةُ نازِلةً خاصَّةً به أَمْ كان مَسؤُولًا عنها يَنبَغي له أن يَستَغفِر الله تعالى؛ واستَدَلَّ لذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا﴾ [النساء:١٠٥]، وبعدَه: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [النساء:١٠٦]، وهذا ليس ببَعيد.

إِذَن مِن فَوائِد الإيمان والعمَل الصالِح: حُصول المَطلوب والنَّجاة من المَرهوب.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ رِزْق الجَنَّة رِزْق كريم؛ أي: واسِع كثير دائِم حسَن، ويَدُلُّ لذلك قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ ٣٢ لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ﴾ [الواقعة:٣٢-٣٣].

الآية (٥)

• قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾ [سبأ:٥].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿سَعَوْ﴾ فِي إِبْطَالِ ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ الْقُرْآنِ]، فجعَل في الآية محذوفًا تَقديرُه: في إِبْطالها، ومَعنَى (سَعَوْا) أي: مَشَوْا بشِدَّة، هذا في الأصل، ومِنه السَّعيُ أيِ: الرَّكْض، فالمُراد أنَّ هؤلاءِ يُسابِقون ويَتَسارَعون إلى إبطال آيات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإِبْطالُها بالنِّسْبة لهم أن لا يَقوموا بها، وإِبْطالُها بالنِّسْبة لغيرهم أن يَصُدُّوا الناس عن دِين الله تعالى، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ [الحج:٢٥] فهَؤُلاءِ سَعَوْا غاية السعيِ في آيات الله لإِبْطالها وإِخْفاقِها.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ لم يُبيِّن بماذا سَعَوْا؛ لأنَّ هؤلاءِ يَسعَوْن في إبطال آيات الله تعالى أَحْيانًا بالصِّراع المُسلَّح، يَعنِي: يُهاجِمون الدِّيار ويُقاتِلونهم حتى يَردُّوهم عن دِينهم، وأحيانًا بالسِّلاح الفِكْري، فيَبُثُّون فيهم الشُّبُهاتِ؛ في دِينهم، في نَبيِّهم، في ربِّهم؛ ما استَطاعوا إلى ذلك سبِيلًا، وأحيانًا يَسعَوْن في ذلك بالشَّهَواتِ؛ فيَبُثُّون في الناس حُبَّ اللهو والشَّهْوة.

ومن هذا ما تَبُثُّه وسائِلُ الإعلام الخَبيثة في الدُّوَل الكافِرة ومَن تَشبَّهَت بها،

فتَجِدهم يَدْعون إلى أَسافِل الأخلاق، يَدْعون بالقَلْم وبالصورة، فيُصوِّرون النِّساء الفاتِنات وعلى صِفة مُزرية -والعِياذُ بالله تعالى-، ويَكتُبون أيضًا بالدَّعْوة إلى ذلك، وهذا الأمرُ يَمَسُّ العقيدة في الواقِع، وليس قاصِرًا على البدَن فقط؛ لأنَّ الإنسان إذا أَصبَح بَهيميًّا ليس له إلَّا إِشْباعُ بَطْنه، وإشباعُ غَريزته؛ فإنه يَبقَى لا صِلةَ له بالله، أهمُّ شيءٍ عنده هذا الذي انغَمَس فيه من الشَّهَوات واللهوات، فتَجِده يُعرِض عن دِين الله ولا يَهتَمُّ به.

ولذلك مِن أَضَرِّ ما يَكون على البِلاد الإسلامية بعد بثِّ السُّموم الفِكْرية بثُّ السُّموم الشَّهْوانية؛ لأن الشَّهْوانية هذه يَميل إليها الإنسان بفِطْرته التي تُملِيها عليه نَفْسُه الأمَّارة بالسُّوء، فيَدخُل فيها مُكرَهًا فإذا انغمَسَ -نَسأَل الله تعالى العافِيَة- فيها فإنه يَقِلُّ أن يَنتَشِل نفسه منها.

فالمُهِمُّ: أنَّ الذين كفَروا يَسْعَوْن سَعيًا حَثيثًا في إبطال آيات الله تعالى أن تُنشَر، أو أن يُعمَل بها أو أن يَتَّجِهَ الناس إليها، بكل ما يَستَطيعون من قُوَّة؛ إمَّا بالصِّراع المُسلَّح، وإمَّا ببَثِّ الأفكار المُشكِّكة المُشبِهة، وإمَّا ببَثِّ الشَّهَوات حتى يُعرِض الناس عن دِينهم.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ءَايَٰتِنَا﴾: الْقُرْآن] والصواب: أنَّ آياتِنا هنا أَعَمُّ من القُرْآن؛ لأنَّ الساعين في آيات الله تعالى لَيْسوا هم من هذه الأُمَّة فقَطْ، حتى في الأُمَم السابِقة فإنَّ فيهم مَن يَسعَى في آيات الله تعالى، فمثَلًا فِرْعون يُهدِّد قومَه يَقول: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص:٣٨]؛ ويحُثُّهم على أن يَكفُروا بموسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وغير ذلك أيضًا من الأُمَم الآخَرين كُلُّهم يَسْعَوْن في آيات الله في إِبْطالها وصدِّ الناس عنها.

وعلى هذا فنقول: إنَّ المُرادَ بآيات الله تعالى هنا أَعَمُّ من القُرْآن، يَشمَل السَّعيَ في أيِّ آيةٍ من آيات الله تعالى.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مُعَـٰجِزِينَ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ هُنَا وَفِي مَا يَأْتِي]، والأَصْل (مُعْجِزِينَ) (يَسْعَونَ في آياتِنا مُعْجِزِينَ)، وفي قِراءتنا هنا وفي ما يَأتي [﴿مُعَـٰجِزِينَ﴾ أَيْ: مُقدِّرِينَ عَجْزَنا أَوْ مُسابِقِينَ لَنَا فيَفُوتونا بظَنِّهِمْ أَنْ لَا بَعْثَ وَلَا عِقَابَ].

إِذَنْ: فيها قِراءَتان سَبْعِيَّتان أم إِحْداهما شاذَّة؟

الجوابُ: سَبْعيَّتان؛ لأنَّ مِن اصطِلاح المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه إذا قال: (وفي قِراءة) فهي سَبْعيَّةٌ، أمَّا إذا قال: (وقُرِئَ) فهي شاذَّةٌ، وهذا اصطِلاحٌ خاصٌّ بالمُفَسِّر، فإذا وجَدْتَ في هـذا التَّفسيرِ (تفسير الجلالين): (وفي قِراءةٍ) فاعلَـمْ أنها قراءة سَبْعيَّة، وإذا وجَدْت: (وقُرِئَ) فهي قِراءة شاذَّة، والفَرْق بينهما أن القِراءة السَّبْعية يَجوز أن يَقرَأ بها الإنسان في صلاته ويَتعبَّد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بها، وأمَّا الشـاذَّةُ فهي على اسمِها شاذَّة، لكن هل يُحتَجُّ بها في الأَحْكام أو لا يُحتَجُّ؟ فيه خِلاف بين العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ.

إِذَنْ فيها قِراءتـان: (مُعْجِزِينَ) أو ﴿مُعَـٰجِزِينَ﴾، المُعجِز مَعـناه: الذي يُريد أن يُعجِز غيرَه بدون أن يَكون من الغَيرِ مُقابَلةٌ له، هذا المُعجِزُ، فيَكون الإِعْجازُ من طَرَفٍ واحِدٍ، أي: أنهم يُريدون بهذا أن يُعجِـزوا الله في عدَم مُؤاخَذَتهم وعِقـابهم؛ لأنهم آمِنون من مَكْر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

و﴿مُعَـٰجِزِينَ﴾ تكون من طرَفَيْن كل واحد منـهم يُريد إعجاز الآخَر فكأَنَّهم لطُغْيانهم وعُدوانهم جعَـلوا أَنْفُسهم في مَقام الصِّراع مع الله؛ وإن كان الله يَريد أن يُعجِزَهم فإنهم أيضًا يُريدون أن يُعجِزوا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقد سبَق أنَّ القِراءَتَيْن قد تَدُلُّ كل واحدة منهما على مَعنًى يُكمِل القِراءة الأُخرى؛ فأيُّهما أَبلَغُ (المُعجِز) أو (المُعاجِز)؟

الجوابُ: (المُعاجِزُ) أبلَغُ في الطُّغْيان؛ لأنَّه: أَراد أن يَجعَل نَفْسه حَرْبًا لله عَزَّوَجَلَّ مُقابِلًا له، فما جَزاؤهم؟ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ [سبأ:٥].

فقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ﴾ نَقول في إعراب هذه الجُمْلةِ كما قُلْنا في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ فهي مُبتَدَأ، وخَبَرُه الجُمْلة بعدَه ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ العَذاب بمَعنَى: العِقاب، والرِّجْز يَقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [سَيِّئِ العَذَابِ]، الرِّجْز هو السَّيِّئُ من كل شيء، فإذا قيل: عَذابٌ مِن رِجْز. فمَعناه: سَيِّئ العَذاب، بل إنَّه أَسوَأُ العذاب، فإنَّ أَعظَمَ عَذاب يُعذَّب به البَشَر هو عَذاب النار -نَسأَل الله العافِيَةَ- فهو أَسوَأُ العذاب.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَلِيمٌ﴾ أَيْ: مُؤْلِمٌ بِالجَرِّ وَالرَّفْعِ]، يَعنِي: القِراءَتان [صِفَةٌ لِرِجْزٍ أَوْ عَذَابٍ] يَعنِي: كلِمة (أَليم) فيها قِراءَتان: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ أو ﴿عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٍ﴾.

أمَّا كونُ (أَليم) صِفة لعَذاب فهي كثيرة في القُرآن، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ كثيرًا ما يَصِف الله تعالى العَذاب بالأَلَم، وأمَّا (الرِّجْز) فإنها كانت صِفة لها؛ لأنها أقرَبُ من (عَذاب)، وعليه فإذا قُلْتَ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ برَفْع (أَليمٌ) قُلْنا: إنها صِفة لـ(عَذاب) وإذا قُلتَ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٍ﴾ بجَرِّ (أَليمٍ) قُلْنا: إنها صِفةٌ لـ﴿رِّجْزٍ﴾.

ويَجوز أن تُقرَأ بهذا وبهذا، بل يُستَحَبُّ لك أن تَقرَأ بالقِراءَتَيْن جميعًا وبالثلاث

إذا كان فيها ثلاث قِراءاتٍ؛ لأنَّ اختِلاف القِراءات كاختِلاف الصِّفات في العِبادات، وقد سبَق لنا أنَّ الأفضل في ما جاء من العِبادات على صِفاتٍ مُتعدِّدة أن تَعمَل بهذا مَرَّة وبهذا مَرَّة حتى تَحصُل على السُّنَن كلها، وهكذا القِراءات، ولكن إيَّاك أن تَقرَأ وأنت شاكٌّ في القِراءة؛ لأنَّه لا يَجوز أن نَقرَأ إلَّا ونحن مُتيقِّنون بأن هذه هي القِراءةُ الصحيحة.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: تَحقُّق ما وصَف الله تعالى به القُرآن من أنه مَثاني، إذا ذُكِر فيه المَعنى ذُكِر ما يُقابِله، وإذا ذُكِر فيه العامِل ذُكِر مَن يُقابِله.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: الحِكْمة في الخِطاب، وأنه يَنبَغي في الخِطاب أن يَكون جامِعًا بين أسباب الخوف وأَسباب الرَّجاء؛ لأنه إذا ذُكِر الخوف فقط فقد يَستَوْلي على القَلْب القُنوطُ من رحمة الله؛ وإذا ذُكِر الرجاء فقط فقد يَستَوْلي عليه الأَمْن من مَكْر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الكُفَّار يَسعَوْن جادِّين لإبطال آيات الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْ فِي آيَاتِنَا﴾، والسعي كما نَعلَم أنه هو الجَريُ بشِدَّة، فهؤلاء يَسعَوْن جادِّين لإِبْطال آيات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ هؤلاءِ الكُفَّارَ كأنما يُعاجِزون الله تعالى ويُغالِبونه؛ لقوله تعالى: ﴿مُعَاجِزِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ هؤلاء الذين سعَوْا في آيات الله تعالى مُعاجِزين يُعاقَبون بهذا العِقابِ الأليمِ: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾، وقوله تعالى: ﴿مِّن رِّجْزٍ﴾ أي: من عَذابٍ سَيِّئٍ مُؤلِم، كما سبَق.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: التَّحذير من سَعْيِ الإنسان في إبطال آيات الله تعالى، فإذا قُلْنا -على القاعِدة التي سبقَت لنا في قواعِد التَّفسير-: «إنه إذا نُهِيَ عن شيء فهو أَمْر بضِدِّه» فتَكون هذه الآيةُ مُتضَمِّنة للحَثِّ على السَّعيِ في آيات الله لتَقريرها وتَثبيتها، وهو كذلك؛ فإننا مَأمورون بأن نَسعَى قَدْرَ استِطاعتِنا في تَثبيت آيات الله ونَشرِها بين الأُمَّة حتى تَقوم المِلَّة.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثبات الجَزاء والحِكْمة فيه؛ لأن المُؤمنين العامِلين الصالِحاتِ ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾، وهؤلاء ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾.

• ● ❁ ● •

الآيــة (٦)

• • ☙ • •

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [سبأ:٦].

• • ☙ • •

قوله تعالى: ﴿وَيَرَى﴾ بمَعنَى: يَعلَم؛ لأنَّ الرُّؤْية تكون بمَعنى الرُّؤْية بالعَيْن، وتكون الرُّؤْية بالقَلْب، والرُّؤْية بالقَلْب هي العِلْم، و(رأى) بمَعنَى: عَلِم، وتَأتي في القُرآن كثيرًا مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج:٦-٧] (نراه) بمَعنَى: نعلَمه؛ لأنَّه ليس المعنى: نَراه بأَعيُننا، إذ إنه لم يَقَع، وليس المَعْنى: نَظُنُّه؛ لأنَّ الله تعالى مُنَزَّهٌ عن الظَّنِّ، وعلى هذا فيَكون (نَراه) بمَعنى: نَعلَمه، وهنا قوله تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ أي: [يَعْلَمُ]، لكنه إذا جاءَت: (يَرى) بمَعنى: (يَعلَم) دلَّتْ على أن العِلْـم في أعلى مَقامات العِلْم؛ وأنه صار كالمُشـاهَد بالعَيْن يُرَى رُؤيا بالِغة كالذي يُشاهَد.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ أي: أُعطُوه.

وهل المُراد بهم أهل الكِتاب أو هو عامٌّ؟ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ مُؤْمِنُو أَهْلِ الْكِتَابِ كَعَبْدِ الله بْنِ سَلَامٍ وَأَصْحَابِهِ].

والصواب: أنها أَعمُّ من ذلك، وأن المُراد بالذين أُوتوا العِلْم كلُّ مَن أَعطاهمُ الله تعالى العِلْم فيَشمَل أهل الكِتاب من اليَهود والنَّصارى، فالنَّجاشِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ من

النَّصارى، ورأى أن الذي أُنزِل إلى النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حقٌّ، وعبدُ الله بْنُ سَلَامٍ من أَحبار اليَهود رأى أن الذي أُنزِل على النبيِّ ﷺ هو الحقُّ، وكذلك أيضًا مَن آتاه الله تعالى عِلْمًا من هذه الأُمَّةِ فإنه يَرى أنَّ الذي أُنزِل إلى النبيِّ ﷺ هو الحقُّ، بخِلاف مَن كان جاهِلًا فإنَّ إيمانه إيمانُ تَقليد، وهو وإن كان مُجزِئًا عنه لكنه ليس كإيمان الذي آتاه الله تعالى العِلْم.

ويَدُلُّ على أن المُراد بالذين أُوتوا العِلْم ما هو أَعَمُّ قولُه تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران:١٨] فالذين أُوتوا العِلْم هم الذين يَرَوْن أنَّ ما أُنزِل إلى النبيِّ ﷺ هو الحقُّ؛ وذلك بما آتاهمُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من العِلْم الراسِخ في قُلوبهم.

ولهذا تَجِد عِبادة العامِّيِّ يَعبُد الله عَزَّوَجَلَّ عِبادةً أَشبَهَ ما تكون بالعادة، وإن حضَر في قَلْبه الإنابةُ والخُشوعُ والاستِحْضارُ، لكنه ليس كالذي يَعبُد الله تعالى على بَصيرة وعلى عِلْم؛ لأنَّ في قَلْب هذا مِن اليَقين ما ليس في قَلْب الأوَّل، فيَكون عامًّا.

وقوله تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ إذا كانت (يَرى) عِلميَّة فإنها تَنصِب مَفعولين: المَفعول الأوَّل: ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ﴾ الاسْمُ المَوصولُ، والمَفعول الثاني: ﴿هُوَ ٱلْحَقَّ﴾، وأمَّا ﴿ٱلَّذِينَ﴾ الأُولى فهي فاعِل.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ يَعني: الْقُرْآنَ]، فإن الله تعالى أَنزَله إلى النبيِّ ﷺ بواسِطة جِبريلَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

وقول تعالى: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ هنا أَضاف الرُّبوبية إلى النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لأنَّ الوَحيَ رُبوبية خاصَّةٌ، إذ لا أَحَدَ يُشارِك النبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من هذه الأُمَّةِ في ذلك؛ فلهذا أَضاف الرُّبوبية إليه وحدَهُ؛ فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾

للعِناية بهذا المُنَزَل إليه، والمُنزَل أيضًا.

وقوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ تَقدَّم أنَّ مَعنَى الرُّبوبية هو الخَلْق والمِلْك والتَّدبير، فالله تعالى خالِق النبيِّ ﷺ ومالِكه ومُدبِّره.

وقول المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أَيِ: الْقُرْآنَ ﴿هُوَ﴾ فَصْلٌ ﴿ٱلْحَقَّ﴾] هذا هو المَفعول الثاني، و(هو) ضمير فَصْلٍ، لَفْظُه لفظُ الضمير لكنَّه ليس ضَميرًا؛ ولذلك لا نَقول: إنَّه اسـمٌ، وأيضًا لا نَقول: له مَحَلٌّ من الإعراب، يَعنِي: لا مَحَلَّ له من الإعراب، وليس باسْمٍ، لكنه جِيء به للفَصْل.

والدَّليل على أنه لا مَحَلَّ له من الإعراب قولُه تعـالى: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ [الشعراء:٤٠]، ولو كان له مَحَلٌّ من الإعراب لقال: (هم الغالِبون) فلمَّا قال: ﴿هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾؛ وصارَت ﴿ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ خبرَ (كانَ)، دلَّ ذلك على أنَّ هذا الضميرَ ليس له مَحَلٌّ من الإعراب، لكن ما فائِدتُه؟

الجوابُ: ذكَرَ العُلَماءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ أن له ثَلاثَ فَوائِدَ:

الفائِدةُ الأُولى: الفَصْل بين الصِّفة والخَبَر.

الفائِدةُ الثانية: الحَصْر.

الفائِدةُ الثالِثة: التوكيدُ.

أمَّا وَجْه كَوْنه فاصِلًا بين الصِّفة والخَبَر فلو قُلْت: «زَيْدٌ الفاضِلُ»؛ (الفاضِل): هنا يُحتَمَل أنها صِفةٌ لـ(زَيْدٌ)، وأنَّ الخَـبَر لم يَأتِ، فيَكون الإنسـانُ الآنَ مُترَقِّب للخبَر، كأَنْ يَكونَ تَقديره: (زَيدٌ الفاضِلُ حاضِرٌ)، وإذا قُلتَ: «زَيْدٌ الفاضِلُ حاضِرٌ»؛ صارت (الفاضِلُ) هنا صِفةً بلا شَكٍّ و(حاضِرٌ) خَبَرًا، فإذا قُلتَ: «زيد الفاضِلُ»

فقَطْ، يُحتَمَل أنك تُريد أن تُخبِر بأنَّ (زَيدٌ فاضِلٌ) ويُحتَمَل أنك تُريد أن تَصِف زيدًا بأنه فاضِل، والخبَرُ لم يَأتِ، فإذا قُلْت: «زيدٌ هو الفاضِلُ» تَعيَّن أن تكون الفاضِلُ خبرًا.

وأمَّا كونُه مُؤكِّدًا أيضًا؛ لأنك إذا قُلتَ: زيدٌ الفاضلُ، وزيدٌ هو الفاضلُ. هَذه أَوْكَدُ بلا شَكٍّ، كذلك أيضًا مُفيدٌ للحَصْر: فإذا قُلتَ: زيدٌ هو الفاضِل؛ مَعناه: لا غَيره. فضَمير الفَصْل إِذَنْ يُفيد ثلاث فوائِدَ: الحَصْرُ، والتَّوكيد، والفَصْل بين الخبَر والصِّفَة.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ بمَعنَى: الشيء الثابِت، فقَولُك: أُحِقُّ الشيء. أَيْ: أُثبِتُه، ومِثاله أيضًا قوله تعالى: ﴿حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ [يونس:٩٦] أي: ثبَتَت ووَجَبَت، فما هو الثُّبوت في القُرآن؟

الصِّدْق في الأخبار والعَدْل في الأَحْكام، فالحقُّ إذا أُضيف إلى الحُكْم فمَعناه: العَدْل، أي: أنَّه حُكْم عادِل؛ ولهذا لو تَنازَع خَصْمان عند القاضي وحَكَم لأحدهما بما تَقتَضيه الشريعةُ قُلْنا: هذا حَقٌّ؛ لأنَّه عدلَ، ولو حَكَم للثاني بخِلافه قلنا: هذا ليس بحَقٍّ هذا باطِل؛ لأنَّه حَكَم بغير الحقِّ، فالحَقُّ في الأحكام هو العَدْل، وفي الأَخْبار هو الصِّدْق، فالذين آتاهمُ الله تعالى العِلْم يَعلَمون أنَّ هذا القُرآنَ حَقٌّ في أَحْكامه وحَقٌّ في أخباره، فأَحكامه كلها عَدْل؛ لأنها وَضَعَتِ الشيء في نِصابه وجعلَتِ الحَقَّ لمُستَحِقِّيه، وأخبارُه أيضًا ثابِتة حَقٌّ، يَعنِي: ثابِتة ما فيها كَذِبٌ، فإذا قُلْت: هذا خبرٌ حَقٌّ. أي: صِدْقٌ، هذا حُكْمٌ حقٌّ، أي: عَدْلٌ.

ولهذا قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:١١٥]، وقال العُلَماءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: صِدْقًا في الأخبار؛ وعَدْلًا في الأحكام.

وقول المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿هُوَ ٱلْحَقَّ﴾؛ ومعَ ذلك [﴿وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ﴾ طَرِيقِ ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ أَي: الله؛ ذِي العِزَّةِ المَحْمُودِ] يَهدِي بمَعنَى: يَدُلُّ، فالهِدايةُ هنا هِداية دَلالة وإرشاد، والهِداية نَوْعان: هِداية تَوْفيق؛ وهِداية دَلالة.

أمَّا هِداية التَّوفيق فلا يَملِكها إلَّا الله، قال الله تعالى لنبيِّه مُحمَّد ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص:٥٦].

وأمَّا هِداية الدَّلالة فثابِتة لكلِّ ما يَكون به الإِرْشاد والدَّلالة، فالقُرآن يَهدِي إلى صِراط مُستَقيم، والنَّبيُّ ﷺ يَهدِي إلى صِراطٍ مُستَقيم، وهنا (يَهدِي) أي: يَدُلُّ.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ يَعنِي: (الله)، وهنا قال: ﴿صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ كما قال تعالى في سُورة إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم:١]، فأَضافَه إلى هذا الاِسْمِ العَظيم وهو الدَّالُّ على العِزَّة؛ إشارة إلى أن مَن تَمسَّك بهذا الصِّراطِ كانت له العِزَّة.

﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ أَيضًا إشارة إلى أنَّ مَن لَزِم هذا الصِّراطَ كان في مَقامٍ مَحمود.

أمَّا ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ الذي هو اسْمُ الله تعالى، فإن ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ مَن له العِزَّة، والله تعالى له العِزَّة جَميعًا ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [يونس:٦٥]، العِزَّة التي وُصِفُ الله تعالى بها تَتضمَّن ثلاثة مَعانٍ: عِزَّة القَدْر، وعِزَّة القَهْر، وعِزَّة الامْتِناع.

أمَّا عِزَّة القَدْر فمَعناها: أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ ذو قَدْرٍ عَظيم، وأمَّا عِزَّة القَهْر فمَعناها: أن الله ذو قَهْر عظيم؛ وغلَبة لا يَغلِبه أَحَد، وأمَّا عِزَّة الامتِناع فمَعناه: أنَّ الله يَمتَنِع عليه النَّقْص بوَجْهٍ من الوُجوه، ولا يُمكِن أن يَنالَه نَقْصٌ أبدًا، فهذه هي العِزَّة المُضافة إلى الله.

فإن قِيل مثلًا: هذا عزيزٌ عليَّ؛ أي: ذُو قَدْر شَريفٍ عِنْدي، وفي الآية: ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ [ص:٢٣] يَعني: غلَبَني، هذه عِزَّة القَهْر والغَلَبة، ويُقال: أَرْضٌ عَزازٌ. أي: قوِيَّةٌ شديدة ما يُؤثِّر فيها وَطْء الأقدام، وهذه عِزَّة الامتِناع، فالله مَوصوف بالعِزَّة بمَعانيها الثلاثة.

وأمَّا ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ فيقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنه بمَعنَى: [المَحْمُودِ] وصحيحٌ أنَّ (فَعيل) تَأتي بمَعنَى (مَفعول)، ومنه قَوْلهم: (قتيل) بمَعنَى (مَقتول)، و(جَريحٌ) بمَعنَى (مجروح)، لكنها تَأتي بمَعنَى (الفاعِل) أيضًا؛ مِثْل (عَليم) بمَعنَى (عالِم)، (عَزيز) بمعنى (عازّ)، (حَكيم) بمَعنَى (مُحكِم)، وهكذا تَأتي بهذا المَعنَى.

فإذا كانت تَأْتي بالوَجْهين جميعًا، أي: بالفاعِل والمَفعول؛ فهل الأَوْلى أن نَجعَلها مَقصورة على المَفعول أو نَجعَلها شامِلةً؟

الجوابُ: الأَوْلى أن نَجعَلها شامِلة؛ فهو عَزَّوَجَلَّ حَميدٌ بمَعنَى: حامِد، وبمَعنَى (محمود)، أمَّا كَونُه حامِدًا فما أَكثَرَ ما يُثني الله على عِباده المُؤمِنين، إِذَنْ هذا (حَمْد) فهو (حامِد) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأمَّا كَوْنه محمودًا، فهذا ظاهِر أن الله تعالى له الحَمْدُ على كل حال.

والحاصِلُ: أنَّ تفسير المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ بـ(المَحمود) فيه قُصورٌ، والصَّواب: أنه بمَعنى (محمود) وبمَعنَى (حامِد)، وأن له الحَمْدَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الدُّنيا والآخِرة.

وفي إضافة الصِّراط إلى اسمِ الله تعالى ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ فيه فائِدة؛ أنَّه يَدُلُّ على أنَّ مَن تَمسَّك بهذا الصِّراط فإنه (عزيزٌ) و(محمودٌ) أَيْضًا؛ (محمود) على الْتِزامه بهذا الصِّراطِ.

فَإنْ قِيلَ: في قوله تعالى: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ في الدُّنيا أَمْ في الآخِرة؟

فالجوابُ: أنه لَمَّا ذَكَر المَغفِرة فإن آثارَها لا تَظهَر إلَّا في الآخِرة، ولكن -كما سَبَق- أنَّ الأَحسَن العُموم.

فإن قُلتَ: إننا نَجِد من المُؤمِنين العامِلين الصالِحاتِ مَن هو فقير، فأَينَ الكرَمُ في الرِّزْق؟

فالجوابُ: أن نَقول كما قال النَّبيُّ ﷺ: «لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ، وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ»(١)، فقد يَكون الإنسان عنده مالٌ كثير لكن حاله حال الفُقراءِ.

أمَّا مَن لا يَرَى أن ما أُوتِيَه النبيُّ ﷺ حَقٌّ فهذا لا يُمكِن، فكل مَن أُوتِيَ عِلْمًا فإنه يَرَى أن ما جاء به النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هو الحقُّ، لكنه يَكون مُعانِدًا مُستكبِرًا، مُشكِلة هذا المُكابَرة، وهي أَمْرٌ ما فيها إلَّا السَّيْف إذا استَحَقَّ القَتْل، وإلَّا كُلُّ إنسانٍ يُؤتَى العِلْم لا بُدَّ أن يَشهَد بالحَقِّ لما جاء به الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لأنَّ ما جاء به الرسول مُطابِقٌ للواقِع، فلا بُدَّ أن يَعلَم أنه حَقٌّ.

وقد قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن آل فِرعونَ: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل:١٤]، فهم يَستَيْقِنون بها، ويَعلَمون أنها الحَقُّ لكنهم يَجحَدون، وقال: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام:٣٣].

وقوله تعالى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ يَشمَل كُلَّ مَن آتاه الله تعالى العِلْم حتى عبدَ الله بنَ سلام وغيرَه، ومن الجائِز أن تَنزِل الآية قبل أن يَحدُث الواقِعُ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب الغنى غنى النفس، رقم (٦٤٤٦)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب ليس الغنى عن كثرة العرض، رقم (١٠٥١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: فَضيلة العِلْم؛ ووجهُه: أنَّ العالِمَ يَعرِف الحَقائِقَ على ما هي عليه، فيَرى أنَّ الذي أُنزِل على الرسول ﷺ هو الحقُّ، وهذا لا شَكَّ أنه من فضائِل العِلْم، عَكس الذي يَترَدَّد في كونه حَقًّا، أو يُمكِن أن يَكون حَقًّا -والعِياذُ بالله تعالى- فالَّذين مَنَّ الله تعالى عليهم بالعِلْم يَرَوْن أنه الحقُّ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: الإشارة إلى أنه لا يَنبَغي للإنسان أن يُعجَب بعِلْمه؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ يَعنِي: ما أَدركوهُ بأَنفُسهم، ولكن الله تعالى مَنَّ عليهم به، فلا تَقُلْ: هذا من عِندي. ومِثْله المالُ أيضًا، بعض الناس يُعجَب إذا حصَّل مالًا؛ والذي أَعطاه المال هو الله، وماذا صنَعَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالذي قال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص:٧٨]؟ خَسَف به الأرض.

فنأخُذ مِن قوله تعالى: ﴿أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ أنه لا يَنبَغي للإنسان أن يُعجَب بنَفْسه ويَقول: العِلْم حصَّلْتُه أنا بفهمي وحِرْصي ومُثابَرتي.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: يَنبَغي للإنسان أن يَلجَأ إلى الله تعالى في تَحصيل العِلْم، نَأخُذها من قوله: ﴿أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ فإذا كُنَّا نُؤتَى العِلْم؛ فلْنَسأَل هذا العِلْم ممَّن يُؤتِينا إيَّاه.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ القرآن كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لقوله تعالى: ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ فما وجهه؛ لأنه ليس كل نازِل كلامًا، فقَدْ يَذكُر الله تعالى الإِنْزال للشيء وليس بكلام؟

الجوابُ: أن ما نَزَل من الله تعالى إمَّا أن يَكون قائِمًا بذاته أو قائِمًا بغيره، والقائِم بذاته مَخلوق؛ كالمطَر ونحوه، أمَّا القُرآن فهو قائِم بغيره؛ لأنه كلامٌ فلا يُمكِن إلَّا مِن مُتكلِّم فيَكون كلام الله غيرَ مَخلوق، وإلَّا هناك أَشياءُ يُنزِلها الله تعالى ويَقول: أَنزَلناها.

وهي مَخلوقة؛ كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [النحل:١٠]، وقوله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [المؤمنون:١٨]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٍ﴾ [الزمر:٦]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ﴾ [الحديد:٢٥]، وكل هذه الأشياءِ مَخلوقة؛ لأنها أعيان قائِمة بذاتها، بخِلاف القَوْل فإن القَوْل لا يَكون إلَّا بقائِل.

فإذا قال الله تعالى: أَنزَل عليك الكِتابَ، وهو قولٌ صار هذا القَوْلُ مِن كلام الله تعالى.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: فضيلة النبيِّ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، تُؤخذ مِنْ إضافة الرُّبوبية إليه، وهذه الرُّبوبية خاصَّة -كما سبَق- لنا في (قواعِد التَّفسير).

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: عِناية الله بالرسول عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ؛ لقوله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: بيان فَضْل الله تعالى عليه، حيث أَنزَل عليه الحقَّ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن هذا القُرآنَ حَقٌّ؛ في أَخْباره وفي أَحْكامه، والحُقِّيَّةُ في الأَخْبار هي: الصِّدْق، وفي الأحكام: العَدْل، وقد جمَعَ الله تعالى ذلك في قوله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗا﴾ [الأنعام:١١٥].

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أَنَّ القُرآن مَنارٌ وهُدًى، يَهتَدِي به الناس ويَستَضيئون به؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أَنَّ مَنِ ابتَغَى الهُدى من غيرِه ضَلَّ؛ لأنه إذا كان هو الذي يَهدِي إلى صِراط العَزيز الحميد فإذا ابتَغَيْت الهُدَى من غيرِه المُخالِف له فإنك

لا تُهدَى إلى صِراط العَزيز الحميد؛ ولهذا لَمَّا طلَبَ أهلُ البِدَع الوُصولَ إلى الخالِق عن طريق غير القُرآن ضلُّوا وتاهوا وبَقُوا مُتحَيِّرين مُضْطَرِبين.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أن مَن تَمسَّك بهذا القُرآنِ نال العِزة والحَمْد؛ أي: صار عزيزًا محمودًا؛ لقول الله تعالى: ﴿صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ ولم يَقُلْ: إلى صراط الله. بل قال سبحانه: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾؛ إشارة إلى أنَّ مَن تَمسَّك بالقُرآن فله العِزَّة وله الحَمْدُ يُحمَد على فِعْله وقَوْله وتَرْكِه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: إثبات هَذين الاسْمَيْن لله، وهما العَزيز والحَميد، وقلنا: أنَّ العِزَّة التي اتَّصَف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بها لها ثلاثة أنواعٍ: عِزَّة القَدْر، وعِزَّة القَهْر، عِزَّة الامتِناع، فالحَميد من أسماء الله تعالى، وهو مُشتَقٌّ من الحَمْد.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: إثبات العِزَّة لله تعالى، وإثبات الحمد لله تعالى، ولكن هناك عِبارة عند الناس يَقولون: (الحمدُ لله الذي لا يُحمَد على مَكروهٍ سِواهُ) وهذه عِبارةٌ غيرُ مُناسِبة؛ لأنك تُعلِن إعلانًا تامًّا بأنَّك تكرَه ما قَضَى الله تعالى، والرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إذا أَصابَه أَمْر يُسَرُّ به قال: «الحَمْدُ للهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ»، وإذا أَصابَه ما يَكرَه قال ﷺ: «الحَمْدُ للهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ»(١)، ولا يَذكُر شيئًا مَكروهًا، ولهذا يَنبَغي لنا أن نُنبِّه مَن تكلَّم بهذه العِبارة؛ أنَّ هذا يَشهَد بأنه لم يَرضَ بقَضاء الله تعالى نَقول له: قُلْ: «الحَمْدُ للهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ».

ونَعلَم أن الله تعالى ربُّ كلِّ شَيْءٍ ويَدخُل في ضِمْن ذلك الكِلابُ والخَنازيرُ والحشَراتُ وما أَشبَه ذلك، لكن هل من اللائق أن تَقول: إن الله تعالى ربُّ الكِلاب

---

(١) أخرجه ابن ماجه: كتاب الأدب، باب فضل الحامدين، رقم (٣٨٠٣)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وربُّ الخَنازير وربُّ الحشَرات؟ وهذا ليس من الأدَب أن تُخصِّص كما نَصَّ على ذلك شيخُ الإسلام ابنُ تَيميَّةَ[1] وغيرُه رَحِمَهُمَاٱللَّهُ، فهنا فَرْق بين التَّعميم وبين التَّخصيص؛ ولهذا قال الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «الحَمْدُ للهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ».

• ● ۞ ● •

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٤/ ٢٦٦).

الآيــة (٧)

• ● ● •

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [سبأ:٧].

• ● ● •

أَوَّلًا: في الإعراب والمَعاني البلاغية قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ﴾ المَقصود بالاستِفْهام هنا السُّخْرية، وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ نُكِّر للتَّحقير؛ يَعنِي: أنَّه رجُلٌ حَقيرٌ، كقوله تعالى عمَّن كذَّبَ الرسُلَ عُمومًا: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء:٣٦]، وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان:١٤]، فإن هذا للتَّحقير.

وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿يُنَبِّئُكُمْ﴾ تَنصُب ثلاثةَ مَفاعيلَ، المَفعولُ الأوَّل الكافُ، والمَفعول الثاني والثالِث مُعلَّق بقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

يَقول الله عن الكافِرين: إنَّ بعضهم يَقول لبَعضٍ على جِهة التَّعجُّب، كما قال المُفسِّر رَحِمَهُٱللَّهُ، بل على جِهة التَّحـقير: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [أَيْ: قَالَ بَعْضُهُمْ عَلَى جِهَةِ التَّعـجُّبِ لِبَعْضٍ: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ هُوَ مُحَمَّدٌ] الاستِفـهام هنا قُلت: إنه للسُّـخْرية.

والمُفسِّر رَحِمَهُٱللَّهُ زاد مَعنًى آخَرَ وهو التَّعجُّب، يَعنِي: أَلَا تَتعَجَّبون ممَّا سنَدُلُّكم عليه.

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [هُوَ مُحَمَّدٌ] لكنهم قالوه بالتَّنكير على سبيل التَّحقير لم يَذكُروه باسمه؛ لأنَّ ذِكْر الشخص باسْمِه قد يَعني تَعلية مَنزِلته، ولكنهم قالوا بهذا اللَّفظِ المُنكَر تَحقيرًا له [﴿يُنَبِّئُكُمْ﴾ يُخبِرُكُم أنَّكُمْ ﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ﴾ وقُطِّعْتُمْ ﴿كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ بِمَعْنَى: تَمْزِيقٍ] ﴿إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ هذا ما يُنبَّأ به يقول: ﴿يُنَبِّئُكُمْ﴾ أي: يُخبِرُكم، فالنَّبأ بمَعنَى الخَبَر، وقد يَكون النَّبأ في الأشياء الهامَّة والخَبَر في ما هو أعَمُّ، فتُخبِرُ عن الشيء الهامِّ وعن الشيء الحَقير، ولكنك لا تُنْبِئُ إلَّا بشيءٍ عظيم، كقوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النبأ:١-٢] وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ۝٦٧ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ [ص:٦٧-٦٨]، فالنَّبأ قد يُستَعمَل في الأشياء العَظيمة بخِلاف الخَبَر فإنه يَكون أَعمَّ.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ [إذا قُطِّعْتُمْ] يَعنِي: تَمزيق الأرض لِلُحوم البَشَر، فإن الإنسان إذا دُفِن مَزَّقته الأرض وقطَّعته وصارَت عِظامه الصُّلْبة رميمًا: فهُمْ يَقولون: إنه ﴿يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾، قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: بمَعنى تَمزيق.

وعلى هذا فكلِمةُ ﴿مُمَزَّقٍ﴾ مَصدَر، لكنه مَصدَرٌ مِيميٌّ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ هذا هو مَحَلُّ النَّبأ، وهو في مَحَلِّ نصبٍ سَدَّ مَسَدَّ مَفعولَيْ يُنبِّئكم الثاني والثالث.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ﴾ كلِمةُ ﴿إِذَا﴾ ظَرْفية مُتعلِّقة بشيءٍ مَحذوفٍ يَدُلُّ عليه السِّياق؛ لأنَّ إنباء الرسول ﷺ ليس في وقت تَمزيقهم، ولكنه أَنبأَهم في الحياة الدنيا: أنها تَمزيقهم إذا دُفِنوا، يَعنِي أنكم إذا دُفِنْتم ومُزِّقتم تكونون في خَلْق جَديدٍ، وهذا الخَلْقُ الجديد هو البَعْث، وهل البَعْثُ إعادة لما مَضَى، أو ابتِداء خَلْق غير الأوَّل؟

الصوابُ: أنـه إعادة ما مَـضَى كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [الروم:٢٧]، ولكنه سُمِّي خَلْقًا جديدًا؛ لأنَّ الإنسان إذا بُعِث فإنه لا يُبعَث كحاله في الدنيا، بل يُبعَث في حالٍ أَشَدَّ وأَقوَى؛ لأنه سيُبعَث على أنه مُؤبَّد لا يموت.

ولهذا يَتحَمَّل الناس يوم القيامة من الكَرْب والهَمِّ والغَمِّ ما لا يَتحمَّلونه في الدُّنيا، فالناس مَثَلًا لو دَنَتِ الشمس منهم قَدْر مِيلٍ في الدنيا لأَحْرَقتهم، ولكنها في الآخِرة تَدنو مِنهم ومع ذلك لا تُحرِقهم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ في أَوْصافه؛ لأنَّ الصحيح أنَّ الخَلْق هو إعادة ما مَضَى.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن النَّبيَّ ﷺ دعا إلى الإيمان باليَوْم الآخِر؛ تُؤخَذ من قوله تعالى: ﴿يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بَيان عُتُوِّ الكافِرين، واستِعْلائهم واستِكْبارهم؛ حيثُ عبَّروا بهذا التَّعبيرِ ساخِرين بما أَخبَر به النبيُّ ﷺ، ووَجْهُ عُلُوِّهم واستِكْبارهم:

الأول: السُّخْرية بهذا النَّبأ.

الثاني: تَحقير النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الثالِث: وَصْفه بأنه لا تَخلُو حالُه من أَحَد أمرين: إمَّا كاذِب، وإمَّا مجنون. هذه ثلاثة أَوْجُهٍ كلُّها تَدُلُّ على: عُلُوِّ هَؤلاءِ الكافِرين واستِكْبارهم وعِنادِهم.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بَيان ما حصَل للنبيِّ ﷺ من الأَذَى، وأنه صَبَر؛ لأنَّ أَمْرًا يَصِل

إلى هذا الحَدِّ في الاستِخْفاف به والاستِهانة بخَبَره؛ لا شكَّ أنَّه يُؤثِّر على نَفْسه تأثيرًا بالِغًا، وأَعتَقِد أن صاحِب الدَّعوة إذا أُوذِيَ بمِثْل هذا الإيذاءِ كان أشدَّ عليه من أن يُضرَب ويُحبَس.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: بيانُ قُدْرة الله؛ حيثُ يُعيد هذا الخَلْقَ بعد أن يَتمَزَّق كلَّ تمَزُّقٍ؛ لأنه ظاهِر من قوله تعالى: ﴿يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾.

• ● ۞ ● •

الآيــة (٨)

• ● ●

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ [سبأ:٨].

• ● ●

قول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَفْتَرَىٰ﴾ بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ لِلاسْتِفْهَامِ وَاسْتُغْنِيَ بِهَا عَنْ هَمْزَةِ الْوَصْلِ] (أَفتَرَى) أصلُها (أَافْتَرَى) لكن هَمزة الوَصْل مع همزة الاستِفْهام تَسقُط، ومِنه قوله تعالى: ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ﴾ [الصافات:١٥٣]، ﴿أَصْطَفَى﴾ بمَعنَى: (أَاصْطَفى) فسَقَطت الهَمزة؛ لأنها وقَعَت بعد هَمزة الاستِفْهام، وأَظُنُّ سُقوطَها مَعلومًا؛ لأنَّ هَمزة الوَصْل تَسقُط في الوسَط، فإذا جاءَت هَمزة الاستِفْهام صار الكلام مُتَّصِلًا، وإذا كان مُتَّصِلًا سقَطَت همزة الوَصْل، ففي قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾ [المؤمنون:٢٧] أين ذهَبَت هَمزةُ الوَصْل في ﴿ٱصْنَعِ﴾؟

سَقَطَت لاتِّصال الكلام، فإِذَن ﴿أَفْتَرَىٰ﴾ سقَطَت لاتِّصال الكلام ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ في ذلك؛ يَعنِي: في قوله: (إِنَّكم ستُبعَثون وتُنشَرون خَلْقًا جديدًا) هل هذا افتِراء على الله تعالى؟ سيُبيِّن الله تعالى ذلك، لكنهم يَقولون: إنَّ حالَهُ دائِرة بين أَمْرين: إمَّا رجُلٌ مُفترٍ على الله تعالى، افترَى على الله تعالى الكَذِب في ذلك، ﴿أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ [جُنُونٌ تَخَيَّلَ بِهِ ذَلِكَ].

إِذَنْ: هُمْ -والعِياذ بالله تعالى- قسَّموا حال النبيِّ ﷺ إلى حالين لا ثالثَ لهما،

وهُما الافتِراءُ على الله، والثاني الجُنون ﴿أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ أي: جُنون تَخيَّل له ذلك به.

فَإنْ قِيلَ: هل هناك حالٌ ثالِثة؟

فالجوابُ: نعَمْ، هناك حالٌ ثالِثة، لكنَّهم لا يُقِرُّون بها، وهو أنه صادِق عاقِل، صادِق لم يَفترِ، وعاقِل ليس به جِنَّـة، وهذا هو الواقِع، لكنـهم هم -والعِياذُ بالله تعالى- أَسقَطوا هذا القِسْمَ الثالِثَ؛ لأنهم لا يُقِرُّون به.

ومِن عَجَبٍ أنَّ هؤلاءِ الذين يَقولون في الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هذا الوَصْفَ: إنه إمَّا (مُفترٍ) أو (مَجنونٌ) أو (شاعِرٌ) أو (كاهِنٌ) أو ما أَشبَه ذلك؛ كانوا يُسمُّونه قبل النُّبوة (الأَمِين)، ويَرَوْن أنه من أَصدَق الناس وأَعظَمِهم أمانةً؛ لكن -والعِياذُ بالله تعالى- لَمَّا جاء بما لم يُوافِقْ أهواءَهُم صاروا يُلقِّبونه بهذه الأَلْقابِ.

وهذه الأَلْقابُ السَّيِّئةُ التي لَقَّب المُشرِكون بها رسول الله ﷺ مَوروثة ورِثَها أعداءُ المُؤمِنين وأَوْلياء المُجرِمين كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ [المطففين:٢٩-٣٠]، فهذه الأَلْقابُ السَّيِّئة مَوجودة الآنَ، كلُّ أَعداء الرُّسُل يُلقِّبون أولياءَ الرُّسُل بمِثْل ما لُقِّب به الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وسبَق في العَقيدة أنَّ مِن الناس مَن يُلقِّب أهل السُّنَّة والجماعة بـ(الحَشَوِيَّة) و(النوابت) و(الغُثاء) و(المُجسِّمة) وما أَشبَه ذلك؛ كل هذا تَنفيرًا للناس عن سُلوك مَذهَبِهم.

يَقول تعالى: ﴿أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ قال الله مُبطِلًا ذلك: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [المُشْتَمِلَةِ عَلَى الْبَعْثِ وَالْعَذَابِ ﴿فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ عَنِ الحَقِّ فِي الدُّنْيا]،

وقوله تعالى: ﴿بَلِ﴾ للإِضْراب الإبطاليِّ؛ يَعنِي أن الله أَبطَل هذين القِسْمين اللذين رَدَّد هَؤلاءِ الكُفَّارُ حال النبيِّ ﷺ بينهما؛ يَعنِي: بل هو غَيرُ مُفترٍ وليس به جِنَّة، ولكن هؤلاء الذين لا يُؤمِنون في العَذاب والضَّلال البعيد، ولا يُمكِن أن يُقِرُّوا.

والإضراب قِسْمان: إضرابٌ إِبْطاليٌّ، وانتِقاليٌّ، الإضراب الإبطاليُّ مَعناه: أن ما قَبْلَ (بَلْ) باطِل، والإِضْراب الانتِقاليُّ مَعناه أن ما قَبْلَ (بَلْ) مَرحلة انتُقِل منها إلى مَرْحلة أُخرى بدون إِبْطال لها.

ومثال الإِضْراب الانتِقاليِّ قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْأَخِرَةِۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَاۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ [النمل:٦٦]، فإن هذا انتِقاليٌّ؛ يَعنِي إنهم أوَّلًا بَعُد عنهم الآخِرة، ثُم شَكُّوا فيها، ثُمَّ بعد ذلك عَمُوا عنها -والعِياذُ بالله تعالى-، فهذه أحوالهم الانتِقاليَّة.

قال تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ﴾ أي: لا يُصدِّقون بها ويَعترِفون، أي: لا يُؤمِنون بوُجودها ولا يُؤمِنون بما يَحصُل فيها، وقد سبَقَ أن اليوم الآخِرَ يَدخُل فيه كلُّ ما أَخبَر به النبيُّ ﷺ ممَّا يَكون بعد الموت، فكلُّ ما أَخبَر به الرسول ﷺ ممَّا يَكون بعد الموت كفِتْنة القبر ونَعيمه وعَذابه فإنها داخِلة في الآخِرة.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الْمُشْتَمِلَةِ عَلَى الْبَعْثِ وَالْعَذَابِ ﴿فِى ٱلْعَذَابِ﴾ فِيهَا ﴿وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ يَعنِي: الحَقِّ فِي الدُّنْيَا] المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قَيَّد المُطلَق في المَوضِعين، فهنا قال الله تعالى: ﴿فِى ٱلْعَذَابِ﴾ والمُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: [فِي الْآخِرَةِ] وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فِي الدُّنْيَا].

والأَصَحُّ أن الآية مُطلَقة؛ فهُمْ في العذاب في الدُّنيا وفي الآخِرة، أمَّا عذاب

الآخِرة فظاهِر، وأمَّا عذاب الدُّنيا فما في قلوبهم من الحَرَج والضِّيق وما يَحصُل عليهم أيضًا من العذاب من الله، كما قال سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ﴾ [العنكبوت:٤٠]، وكذلك العذاب الذي يَجرِي على أَيْدي الرُّسُل كالعذاب الذي يَحصُل لهم بالهزائِم، فإن هذا من عذاب الدُّنيا، أمَّا الآخِرة فظاهِر.

إذَنْ: ﴿فِي ٱلۡعَذَابِ﴾ يَشمَل الدُّنيا والآخِرة، وتَقييده بالآخِرةِ فيه نظَرٌ، بل إنه يَجِب علينا ألَّا نُقيِّد شيئًا أَطلَقه الله تعالى إلَّا بدليل من كِتاب الله تعالى، أو سُنَّة رسوله ﷺ، أو الإِجْماع.

وقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ﴾ عَنِ الحَقِّ فِي الدُّنْيَا]؛ فهُمْ في ضَلال بَعيد، يَعنِي: عن الحقِّ، وهم أيضًا في ضَلال في الآخِرة فإنهم لا يُهدون إلى الصِّراط الذي يَنجو به مَن عَبَرَه من النار، ولكنهم يُهدون إلى صِراط الجَحيم فيُضِلُّون عن الصِّراط الذي به النَّجاة.

قال الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [الصافات:٢٢-٢٣]، وقال تعالى عن المُؤمِنين: ﴿نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِم﴾ [التحريم:٨]، فدلَّ ذلك على أن الضَّلال كما يَكون في الدنيا يَكون كذلك في الآخِرة، فالأَوْلى إِذَنْ إِبْقاء النَّصِّ على عُمومه في الدُّنيا وفي الآخِرة.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ الكافِرين الذين كفَروا برسول الله ﷺ كانوا يُقِرُّون بالله تعالى، تُؤخَذ من قوله تعالى: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بَيان قُبْح الافْتِراء على الله تعالى، حتى إنَّ الكافِرين يَستَقْبِحونه؛ لقوله تعالى: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ أَعْداء الرُّسُل، بل أَعداء دَعوة الرُّسُل؛ يَكيلون السَّبَّ والقَدْح والعَيْبَ؛ لِما جاءَت به الرُّسُل أو للرُّسُل ولِما جاؤُوا به؛ لقوله تعالى: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ ومَعلوم أنَّ كلام الكاذِب وكلام المَجنون ليس بمَقبول، فهُمْ يَأتون بعِبارات التَّشويهِ والتَّقبيح؛ حتى لا يُقبَل الحقُّ.

وهذا جارٍ إلى وَقْتنا هذا؛ لأنَّ أعداء دَعْوة الرُّسُل لا يَزالون إلى يوم القِيامة، ولكن على أَتْباع الرُّسُل أن يَصبِروا، وألَّا يُثنِيَ عَزْمَهم مِثْلُ هذا الكلامِ؛ لأنهم على حَقٍّ، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ [النمل:٧٩].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: بَيان أن الله تكفَّل ببَيان الحَقِّ وإظهاره وإِبْطال الباطِل وانْدِحاره؛ لقوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الكُفْر يُوجِب عدمَ قَبول الحَقِّ والاهتِداء به، من قوله تعالى: ﴿فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ و(في) للظَّرْفية، ومَعناه: أنَّ الضَّلال مُحيطٌ بهم من كل جانِب؛ ولهذا قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام:١١٠]، فإذا لم يُؤمِن الإنسان بالحَقِّ بَقِيَ في ضَلال، والشَّواهِد على هذا كثيرةٌ؛ استَمِعْ إلى مِثْلِ هذه الآيةِ وإلى

قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾ [ق:٥]، يَعني: مُضطَرِبٍ مُختَلِفٍ.

فكلُّ مَن كذَّب بالحقِّ فإنه لا يَزداد إلَّا ضلالًا، حتى لو جاءَتْه الآياتُ البيِّنات الظاهِرات فإنه لا يَنتَفِع بذلك، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة:١٢٥] مع أنها آياتٌ بيِّناتٌ واضِحاتٌ.

• • ❁ • •

الآيــة (٩)

• ● ● •

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [سبأ:٩].

• ● ● •

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿أَفَلَمْ يَرَوْا﴾ يَنْظُرُوا ﴿إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم﴾ وَمَا فَوْقَهُمْ وَمَا تَحْتَهُمْ ﴿مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾] إلخ؛ الاستِفْهام هنا للتهديد يَعني أنَّ الله تعالى هدَّد هؤلاء الذين كذَّبوا النبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في قوله: إنهم سيُعادُون. هدَّدهم بأَحد أمرين: بالخَسْف أو إِسْقاط الكِسَف، أيِ: القِطَع من العَذاب من فوقهم، وإنما ذكَر الفَوْقَ والتَّحتَ؛ لأنه لا يُمكِن الفِرار منهما، أمَّا اليمين والشِّمال والخَلْف والأَمام فيُمكِن الفِرار؛ فلو جاءَك عَدُوٌّ من الخَلْف أَمكَنَك أن تَفِرَّ إلى الأمام، ولو جاءَك من الأَمام أَمكَنَك أن تَفِرَّ إلى الخَلْف، لكن إذا جاء من أَسفَلَ إلى أين تَذهَب؟! تَقفِز ما تَستَطيع، وإذا جاءَك من فَوقُ أين تَذهَب؟! لا تَستَطيع؛ لهذا هدَّدَهم الله تعالى بأَمْرين لا يُمكِنُهم الفِرارُ منهما.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿يَرَوْا﴾ فسَّرَها بمَعنَى: [يَنْظُرُوا]، والأَوْلى أن تَكون شامِلةً للرُّؤْية البَصَريَّة التي بمَعنَى النَّظَرِ، والرُّؤية القَلْبية التي بمَعنى العِلْم والتَّفكُّر،

يَعنِي: أن الله يَحُثُّهم على أن يَتفكَّروا حَثًّا يُراد به التَّهديدُ، فالرُّؤيةُ هنا شامِلة لرُؤْية النَّظَر بالعَيْن ورُؤْية القَلْب بالتَّفكُّر.

وقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم﴾ مَا فَوْقَهُمْ وَمَا تَحْتَهُمْ]، أَيُّهما الذي بين الأَيْدي على كلام المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بِناءً على أنه لَفٌّ ونَشْرٌ مُرتَّب؛ يَكون ما فَوقَهم هو الذي بين أَيْديهم وما خَلْفهم هو الذي تَحتَهم.

وَلَكِنْ قَدْ يَقُولُ قَائِلٌ: إنَّ هذا صَرْفٌ للكلام عن ظاهِره بلا دَليلٍ، بل نَقول: ما بين أَيْديهم، أي: ما أَمامَهم وما خَلْفَهم ما وراء ظُهورِهم. فيَحتَمِل أنَّ المُراد بما بين أيديهم أمامَهم من الزَّمَن، ويَحتَمِل أن يَكون المُراد ما بين أَيْديهم أيِ: المَكان، وكذلك نَقول فيما خَلْفَهم.

فقد يَكون ما بين اليَدِ هو ما أَمامَك من الزمان وما خَلْفك ما خَلَّفْتَه من الزمان، كما في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [البقرة:٢٥٥]، أي: ما بين أيديهم ما يُستَقبَل، وما خَلْفَهم ما مَضَى، وقد يَكون المُراد به المَكانُ، كما تَقول: مرَرْتُ بين يَدَيِ المُصلِّي. أي: أَمامَه، وتَقول: المَأمومُ يَقِف خَلْف الإمام. أي: وراءَه في المَكان.

وأمَّا في قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم﴾ نَقول فيها: يَحتَمِل أن يَكون المُراد فيها المَكان، ويَحتَمِل أن يَكون المُراد الزمان، والمُراد أن يَتفكَّروا في الأمر: هل نَجا أحدٌ من عذاب الله؟ انظُرْ ما بين يَدَيْك في المَكان، أو ما بين يَدَيْك في الزمان، وما خَلْفك من المَكان أو الزمان: هل نَجا أَحَد من عذاب الله؟

والجوابُ: لا، لم يَنْجُ، إِذَنْ: هم أيضًا لا يَنْجُون من عذاب الله تعالى.

وإعراب قوله تعالى ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم ﴾: اختَلَف فيه عُلَماءُ النَّحْو رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ هو: أن النَّحْويِّين اختَلَفوا في إعراب الجُمْلة إذا كانت مُصدَّرةً بهمزة الاستِفهام وبعدها حرفُ عَطْفٍ، فقيل: إنَّ الهَمْزة -يَعني: هَمزة الاستِفْهام- داخِلة على شيء مُقدَّر بحسب السِّياق، وقيل: إنَّ الهَمْزة داخِلةٌ على الجُمْلة المَوجودة بدون تَقدير، وأنَّ حَرْف العَطْف كان من حَقِّه أن يَتقَدَّم على الهَمزة؛ لكنها قُدِّمَتْ عليها لأنَّ لها الصَّدارةَ.

فعلى الوجهِ الأَوَّل يَكون التَّقديرُ في قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم ﴾ أَغفَلوا أو أَأَعْرَضوا وما أَشبَهَ ذلك.

وأمَّا على الثاني فلا حاجةَ إلى هذا التَّقديرِ، بل نَقول: إن (الهمزة) للاستِفْهام والفاء حَرْف عَطْف وتَأخَّرت عن الهَمْزة؛ لأنَّ لها الصَّدارة.

والثاني أَحسَنُ؛ لأنَّ كوننا نَقول: إنَّ الهمزةَ داخِلة على هذه الجُملةِ نَفسِها أَوْلى، وذلك لأنَّ القول الأَوَّل قد يُعوِزك تَقديرَ المَحذوف -يَعنِي: بمَعنى أنه يَصعُب عليك أن تُقدِّر المَحذوف-، أمَّا هذا فبِناءً على أن الجُملة هذه مَعطوفة على ما سبَق، لكن لا تحتاج إلى تَقدير فلا تَتْعَب فيه.

وقوله تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾ الجُمْلة هنا شَرْطية، وفِعل الشَّرْط فيها وجوابُه مُضارِع مجزوم ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ﴾، وقوله: ﴿أَوْ نُسْقِطْ﴾ مَعطوفة على ﴿نَخْسِفْ﴾، أو إن نَشَأْ نُسقِطْ عليهم كِسَفًا، قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِسُكُونِ السِّينِ وَفَتْحِهَا: قِطْعَةٌ] يَعنِي: أن فيها قِراءَتَيْن سَبْعيَّتَيْن: بسُكون السِّين (كِسْفًا) أو(كِسَفًا) بفَتْح السِّين، ويجوز القِراءة بهما جميعًا.

وقد سبَقَ أن ذكَرْنا أن القِراءاتِ إذا تَعدَّدت فالأفضل أن يُقرَأ بهذا تارةً

وبهذا تارةً؛ لأنها كُلُّها حَقٌّ، وكونه يُلتزَم قِراءة واحِدة فهذا فيه قُصور؛ إلَّا أن القِراءاتِ التي لم تَتيَقَّن أنها ثابِتة فلا يَجوز لك أن تَقرَأ بها؛ لأنه يَجِب أن تَقرَأ بما ثبَتَ عِنْدك.

وقوله تعالى: ﴿نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وفي قِراءة: في الأَفْعال الثلاثة بالياء] والأفعال الثلاثة (يَشَأْ)، (يَخْسِفْ)، و(يُسْقِطْ)، بالياء فيُقال: (إِنْ يَشَأْ يَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ يُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ) والفاعِل في الضمائر هنا يَعود على الله، أمَّا على قراءة النُّون: (إِنْ نَشَأْ) فالأَمْر ظاهِرٌ؛ لأنَّ الضمير فيها ضمير المُتكلِّم، لكن على قِراءة الياء الضميرُ فيها ضَميرُ الغائِب، وضميرُ الغائِب لا بُدَّ فيه من مَرجِع يَرجِع إليه إمَّا سابِق وإمَّا لاحِق، فأَيْنَ مَرجِعُ الضمير ﴿إِن نَّشَأْ﴾؟

الجوابُ: يُقال: إنه مَعلوم من السِّياق، كما في قوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٢٨]، مَن الذي خَلَقه؟ الله تعالى، فهُنا يَعلَم كلُّ أَحدٍ أنه لا يَستَطيع أحَدٌ من البَشَر -ولا من غير البَشَر- أن يَخسِف الأرض بالناس، أو يُسقِط عليهم قِطَعًا من العذاب، فيَكون مَرجِع الضمير مَعلومًا بالسِّياق.

قوله المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ المَرْئِيِّ ﴿لَـَٔايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ رَاجِعٍ إِلَى رَبِّهِ، تَدُلُّ عَلَى قُدْرَةِ الله عَلَى الْبَعْثِ وَمَا يَشَاءُ]، يَعنِي: إنَّ الآية تَدُلُّ على البَعْث، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما بين أيديهم من السماء والأَرْض، يَعنِي: يَشمَل كلَّ ما سبَقَ، وكلَّ ما مَضَى، وكلَّ ما أَمامَهم مِن مَكان، وكلَّ ما كان خَلْفَهم، ومن ذلك أننا نَرى الآيَةَ في السَّماء يَنزِل المَطَر من السَّماء على الأَرْض الهامِدة اليابِسة فتَرجِع مُخضَرَّة حَيَّة؛ أَفَلا يَكون في ذلك دليلٌ على إمكان إعادة الخَلْق؟

الجوابُ: بلى؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: المَنظور من ما بين أيدينا وما خَلْفَنا من السَّماء والأَرْض ﴿لَآيَةً﴾ أي: علامة على قُ

دْرة الله وعلى عِلْمه وحِكْمته، لكنَّ هذه الآيَةَ ليسَت آيةً عامَّة لأَحَدٍ، بل: ﴿لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿عَبْدٍ﴾ مَأخوذ من العُبودية وهي التَّذلُّل، وقد سبَق لنا أن التَّذلُّل نَوعانِ: تَذلُّل للأَمْر الشَّرْعيِّ، وتَذلُّل للأَمْر الكَوْنيِّ، وأَيُّهما المَحمودُ المُثابُ عليه؟

الجوابُ: التَّذلُّل للأَمْر الشَّرْعيِّ، أَمَّا التَّذلُّل للأَمْر الكَوْنيِّ فإنَّ هذا لا طاقةَ للإنسان به، ولا يُحمَد عليه، فكَوْن الإنسان يَذِلُّ لأَمْر الله تعالى الكونيِّ من مَرَض أو فَقْر أو موت أَهْل أو ما أَشبَهَ ذلك، هل يُحمَد عليه؟

الجوابُ: لا يُحمَد عليه؛ لأنه ليس من فِعْله، لكن كونه يَذِلُّ لأَمْر الله تعالى الشَّرعيِّ فيَقوم بشَرْع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هذا هو الذي يُحمَد عليه، هنا المُراد بـ(العَبْد) المُتذَلِّل للأَمر الشَّرْعيِّ، بدليل قوله تعالى: ﴿مُّنِيبٍ﴾ أي: راجِع إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من مَعصيته إلى طاعته، فيَشمَل القائِم بالعِبادة ولو بِدون أن يُذنِب، ويَشمَل التائِبَ من الذَّنْب.

فإنَّ الرجُل إذا قام يُصلِّي يَتعَبَّد لله يُقال: إنه أَناب إلى الله تعالى. وإذا أَذنَبَ ثُم استَغْفَر وعاد يُقال: إنه أَناب إلى الله تعالى. أيضًا، فالإنابة هُنا تَشمَل الإنابة من ذَنْب فعَلَه فتكون بمَعنَى التوبة، وتَشمَل الإنابةُ إلى الله تعالى القِيامَ بطاعَته فتكون أَشمَلَ وأَعَمَّ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: وجوبُ النَّظَر والاعتِبار في ما حصَل من الآيات في السَّماء والأرض؛ لقَوْله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ لأنَّ هذا الاستِفهامَ للتَّوْبيخ ولا يُوبَّخوا إلَّا على تَرْك واجِب.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ في السَّمواتِ والأرض آياتٍ، لكنَّها للعَبْد المُنيب إلى الله تعالى، وأمَّا مَن لا يُريد الإنابة إلى ربِّه فإنه لا يَنتَفِع بهذه الآياتِ، حتى ولو رآها ونظَرَ فيها وفكَّر فإنه لا يَنتَفِع.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثبات المَشيئة لله؛ لقوله تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ ما يَحصُل من الخَسْف والزَّلازِل والنَّوازِل فإنه بإِذْن الله، عُقوبةً للعِباد واعتِبارًا، خِلافًا لمَن قال: إن هذه أُمورٌ طَبيعيَّة لا تَدُلُّ على غضَب الله ولا على إنْذاره، كما هو رأيُ مَن لا يُؤمِن بالله تعالى، فالخَسْف في الأرض عُقوبةٌ، وما يَأتي من الصواعِقِ والكوارِث الأُفْقيَّة؛ فهي أيضًا عُقوبة؛ ولهذا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُحيطٌ بالعِباد، لا يُمكِنهم الفِرار من قَضائه وقَدَره، وأنَّه تعالى مُحيطٌ بكُلِّ شيءٍ، لا مَفرَّ للعِباد منه؛ لقوله تعالى: ﴿نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ الله يَمُنُّ على العَبْد بظُهور الآيات له؛ حتى يَتبيَّن له الحَقُّ؛ لقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾، وإذا مَنَّ الله عَزَّوَجَلَّ على العَبْد بالنَّظر في آياته والتَّدبُّر ازداد بذلك إيمانًا بالله، وإيمانًا بما تَقتَضيه هذه الآياتُ من صِفاته؛

فإنَّ كلَّ آيَة تَدُلُّ على صِفة مُعيَّنة من صِفات الله تعالى.

فإِنْزال المَطَر مَثَلًا يَدُلُّ على القُدْرة والعِلْم والرَّحْمة، وكونه في وَقْت مُناسِب يَدُلُّ على الحِكْمة، وكل شيء مِمَّا يَقَع في السماء والأَرْض فإنه يَدُلُّ على صِفة من صِفات الله تعالى تُناسِبه.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن في السَّماء والأرض آياتٍ عَظيمةً لِمَن نَظَرَ وتَدَبَّر، وهذا أَثبَتَهُ الله تعالى في القُرآن في مَواضِعَ كَثيرةٍ، كما في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات:٢٠]، وقوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد:٤].

والآياتُ في هذا المَعنَى كثيرةٌ، فكُلُّ مَن تَدبَّر ما في السماء وما في الأرض وما بينهما؛ تَبيَّن له من آيات الله ما يُقوِّي إيمانه ويَزيدُه طَمَعًا في فَضْل الله تعالى وخَوْفًا من عِقابه.

• • ۞ • •

الآية (١٠، ١١)

• ● ● •

قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سبأ:١٠-١١].

• ● ● •

الواو حَرْف عَطْف، ويَجوز أن تكون للاستِئْناف واللَّام مُوطِئة للقَسَم، و(قد) للتَّحقيق، ومِثْلُ هذا التَّركيبِ يَأتي في القُرآن كثيرًا، ويُقال فيه: إنَّ الجُمْلة مُؤكَّدةٌ بثلاثة مُؤكِّدات: القَسَم المُقدَّر، واللَّام، و(قَدْ)، فتَقدير هذه الجُملةِ: «والله لَقَدْ آتَيْنا داود مِنَّا فَضْلًا».

وهل يَجوز أن تُحذَف اللَّام؟

الجوابُ: نَعَمْ يَجوز، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ [الشمس:١-٥]، إلى أن قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس:٩]، هذا جوابُ القَسَم، ويَجوز في (قد أَفلَحَ مَن زكَّاها) في غير القُرآن أن نَقول: لقَدْ أَفلَحَ.

وهل يَجوز أن تُحذَف اللَّام و(قَدْ)؟

الجوابُ: نعَمْ يَجوز، كقَوْله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ [البروج:١-٤]، فـ(قُتِلَ) هذا جوابُ القَسَم

ليس فيه (قَدْ) ولا اللَّام.

فصار جوابُ القَسَم إذا كان فِعْلًا ماضِيًا جاز فيه ثلاثةُ أَوْجُهٍ: أن يَقترِن باللَّام و(قَدْ)، أن يَقترِن بـ(قد)، أن تُحذَف منه اللَّام و(قَدْ)، لكن لا تُحذَف اللَّام ولا تُحذَف (قد) في الغالِب إلَّا إذا طال القَسَم، أمَّا إذا لم يَطُلْ فإنها لا تُحذَف، فإن قُلْتَ: (والله لَقَدْ قام زَيْدٌ)، فهذا صحيح، وهذا هو الأصل، (والله قَدْ قام زَيْدٌ)، هذا أيضًا صحيح حَذَفْنا اللَّامَ، و(الله قامَ زَيْدٌ) هذا أيضًا صحيح حذَفْنا منه اللَّامَ و(قَدْ).

وقوله تعالى: ﴿ءَاتَيْنَا﴾ بمَعنَى: أَعطَيْنا، وهي تَنصِب مَفعولين ليس أَصلُهما المُبتَدَأ والخَبَر، وكُلُّ فِعْل يَنصِب مَفعولين ليس أَصلُهما المُبتَدَأ والخَبَرَ يُسمَّى مِن (بابِ أَعطَى وكَسَا)، فهُنا: ﴿ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾، ﴿دَاوُۥدَ﴾ المَفعول الأَوَّل، و﴿فَضْلًا﴾ المَفعولُ الثاني، ولا يُمكِن أن يَكون هذا مُبتَدَأً وخَبَرًا؛ فلو قُلْتَ: (داودُ فَضْلٌ) فإنه لا يَصلُح، ويُقال: (أَتَيْنا) ولكنها يَختَلِف مَعناها عن مَعنَى ﴿ءَاتَيْنَا﴾، بل مَعنَى ﴿ءَاتَيْنَا﴾: جِئْنا، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَـٰهُم بِكِتَـٰبٍ فَصَّلْنَـٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:٥٢]، وقال تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل:١] أي: جاء أَمْر الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿دَاوُۥدَ﴾ هو أَحَدُ أَنبياءِ بَني إِسرائيلَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وهو بعدَ مُوسى قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٤٦]، وفي القِصَّة أن دَاودَ كان مِنهم، إِذَنْ فهو بعد مُوسى، وهو نَبيٌّ من الأَنبياء، وقد أَنكَرَتِ اليَهود -لَعْنَةُ الله عليهم- كَوْنَه نَبِيًّا، ووَصَفوه بأنه مَلِك، وقد كذَبوا في ذلك، فإنه كان نَبيًّا من أنبياء الله تعالى الذين يَجِب علينا أن نُؤمِن بهم، ولا يَتِمُّ إيمانُنا إلَّا بالإيمان بهم؛ لأنَّ أَرْكان الإيمان كما نَعلَم:

الإيمانُ بالله تعالى، ومَلائِكَته، وكُتُبه، ورُسُله، وهو أيضًا رسولٌ؛ لأن كلَّ نَبيٍّ ذُكِر في القُرآن فهو رَسولٌ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾: ﴿مِنَّا﴾ بدأَ بالجِهة قبلَ الفَضْل؛ ليَتَبيَّن عِظَم ذلك الفَضلِ؛ لأن الشيءَ إذا نُسِب إلى جِهة عظيمة كان عَظيمًا كما في قوله في الحديث الصحيح: «وَاغفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْني»[1] قال: «مِنْ عِنْدِكَ» فأَضافَها إلى الله تعالى؛ حتى يَتبيَّن في ذلك عِظمُها.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ [نُبُوَّةً وَكِتَابًا]، وهذا الذي فَسَّر المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ به مِن باب التَّمثيل، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَعطاه النُّبوَّة والرِّسالة أيضًا، وأَعْطاه الكِتاب قال الله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [النساء:١٦٣]، وهل أَعطاه شيئًا آخَرَ غيرَ هذا؟ نَعَمْ؛ ولهذا نَكَّر كلِمة (فَضْل)، جاءَت مُنكَّرة؛ لتَشمَل كُلَّ ما أُعطِيَه من فَضْلٍ؛ سواءٌ كان ذلك دِينيًّا أو دُنيوِيًّا.

وكان داودُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من أَحسَن الناس صوتًا وتَرنُّمًا بالذِّكْر، حتى إن الله أمَرَ الجِبال أَمْرًا إمَّا كَوْنيًّا وإمَّا شَرْعيًّا؛ فقال تعالى لها: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ (أَوِّبَ) بمَعنَى: (رجِّع)، ومِنها (الأوَّاب) أي: (الرجَّاع) إلى الله تعالى، ومِنْه (آبَ، يَؤُوبُ، أَوْبًا) بمَعنَى: (رَجع)، فـ(أَوِّبِي مَعَهُ) أي: رَجِّعي معه، والتَّرجيع مَعناه: أنَّ تُردِّد الصوت الذي يَقوله، فمَثَلًا: إذا قَرأ سمِعْتَ كأنَّ الجِبال التي حولَه كلها تَقرَأ بقِراءته.

وهذا غَيرُ ما نَسمَعه نحن من الصَّدَى الذي يَحصُل لكل إنسان؛ لأنَّ هذا الصَّدَى الذي يَحصُل لكل إنسان إذا كانت قد أَحاطَتْ به الجِبال هذا أَمْر طَبيعيٌّ،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب الدعاء قبل السلام، رقم (٨٣٤)، ومسلم: كتاب الذكر، باب استحباب خفض الصوت بالذكر، رقم (٢٧٠٥)، من حديث أبي بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

لكن هذا الذي أُوتِيَه داودُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فوقَ ذلك، فكانت الجِبال تُرجِّعُ معه؛ وذلك لحُسْن صَوْتِه، ونَغَماته؛ حتى إنَّ الجبال تُرجِّع معه بأَمْر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ الطَّير يَقول: [بِالنَّصْبِ؛ عَطْفًا عَلَى مَحَلِّ الجِْبَالِ]، لأنَّ (يا جِبالُ) هذه مُنادَى مَبنِيٌّ على الضَّـمِّ في محَلِّ نَصْب، وإنما بُنِيَ على الضَّـمِّ وهو نَكِرة؛ لأنه مَقصود، والنَّكِرة المَقصودة بمَعنَى العَلَم؛ فلهذا بُنِيَت على الضَّمِّ.

﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ لو عُطِفَت على اللَّفْظ ﴿يَٰجِبَالُ﴾ لكانت مَرفوعةً مَبنِيَّةً على الضَّمِّ؛ لكنها عُطِفت على محَلِّ الجِبال وهو النَّصْب، يَعنِي: وكذلك أَمَرَ الله تعالى الطَّيْر بأن تُرجِّع معه، فكانت الطيور في جَوِّ السماء تَقِف عند سَماع قِراءة داودَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فتُرجِّع معه.

وأنت إذا تَصوَّرْتَ هذا الأمرَ وأنَّ رجُلًا يَقرَأ الزبورَ بتِلْك القِراءةِ والنَّغَماتِ الجَميلةِ ثُم الطُّيورُ من فوقُ تُسبِّح والجِبال؛ لا شكَّ أنه مَشهَد عَظيم ورَهيب، فكل شيء يَقرَأ بقِراءة هذا الرجُلِ بأَمْر الله!.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ [فَكَانَ فِي يَدِهِ كَالْعَجِينِ] أي: جَعَلْناه لَيِّنًا بيَدِه حتى إنه كالعَجين في يَدِ أَحَدِنا، وهل المُرادُ أن الله تعالى أَلانَه له بالوسائِل التي تُلَيِّنُ الحَديدَ سُخِّـرت له وهُيِّئَت له، أو أن الله تعـالى أَلانَ له الحديد بغَـيْر السبب المَعلوم؟

الجوابُ: يَرَى بعض الناس أنه الأَوَّل؛ وأنَّ المُراد بقَوْله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ أي: يَسَّرْنا له الأسبـاب التي تُلين ذلك الحديدَ؛ لأنَّ تيسـير الأسباب لا شَكَّ أنَّه من نِعْمـة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أرَأَيْتَ لو أنَّك تُريد أن تُعـكِف سِيـخًا من الحَديد وعندك نارٌ ضَعيفة فإنك تَتعَبُ في ذلك، لكن لو كان عِنـدك نارٌ قوِيَّة جِدًّا

كان في خِلال دقائِق قليلةٍ يَلين هذا الحديدُ كما تَشاءُ.

فيَرَى بعضُ العُلَماءِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ أنَّ المُراد من تَلْيين الحديد لداوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ تَيسير الأسباب التي يُسرِع بها لِينه.

ولكن بعض أهل العِلْم رَحِمَهُمُ اللَّهُ يَقول: إن الله تعالى ألانَ له الحديدَ بغير سبَبٍ، بل بقُدْرة الله، وجعَلَ الله تعالى ذلك آيةً له؛ كما جعَلَ الله عصا مُوسى إذا نزَلَتْ في الأرض كانت حيَّةً، وإذا رَفَعها صارت عَصًا في آنٍ واحِدٍ وفي لَحْظة واحِدة، فالله تعالى على كُلِّ شيءٍ قديرٌ، والذي جعَل الحديد صُلْبًا قادِرٌ على أن يَجعَله لَيِّنًا.

وعندي أن هذا أقربُ إلى المعنى، أوَّلًا: لأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ﴾ فجعَل التَّليين مُضافًا إليه؛ إشارةً إلى أن لِينَ هذا الحديدِ بمُجرَّد القُدْرة، وكونُنا نَقولُ: إن هذا بأسبابٍ عادِية لكنها يُسِّرَت له. هذا خِلاف ظاهِر الآية، ثُم لو قُلْنا بهذا القولِ هل تَكون هذه آيةً له؟

الجوابُ: لا؛ لأن كل مَن تَيسَّر له أسبابُ إلانةِ الحديد ألانَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى له الحديدَ.

فألانَ الله تعالى له الحديدَ حتى صار بيَدِه مِثْلَ العَجين يَقدِر على أن يُدوِّره، على أن يَجعَله دقيقًا، على أن يَجعَله غَليظًا حَسْبما يُريد؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ﴾، هذه هي الحِكْمة من كون الله تعالى ألانَ له الحديدَ أن يَعمَل منه الدُّروع للمُجاهِدين في سبيل الله تعالى.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [وَقُلْنَا ﴿أَنِ اعْمَلْ﴾] أمَّا ﴿أَنِ﴾ مَصدرية عُرِف عامِلُها، والتَّقديرُ: [وَقُلْنَا] ﴿أَنِ اعْمَلْ﴾] أي: بـ(أَنِ اعْمَلْ) أيْ: بالعمَل، ويُحتَمل أن تكون (أَنْ) تفسيريةً؛ وأن نُقدِّر المحذوف بـ(أَوْحَيْنا) و(أَوْحَيْنا إليه أنِ اعْمَلْ)؛ لأنَّ (أَنْ)

التَّفسيرية هي التي سبقَها معنَى القَوْل دون حُروفه.

وهذا أقرَبُ من تَقدير المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ، (وأَنِ اعْمَلْ) أي: وأَوْحَيْنا إليه أنِ اعْمَلْ سابِغاتٍ.

واعْمَلْ بمَعنَى: اصْنَعْ، قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [مِنْهُ] أيْ: مِنَ الحَديد ﴿سَٰبِغَٰتٍ﴾ فسَّرَها المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [دُرُوعًا كَوَامِلَ يَجُرُّهَا لَابِسُهَا عَلَى الْأَرْضِ]، وأَفادَنا بقَولِه: دُروعًا. أَفادَنا بأنَّ ﴿سَٰبِغَٰتٍ﴾ صِفة لَموصوفٍ محَذوفٍ، وهذا المَحذوفُ تَقديرُه: دُروعًا، وحَذْفُ المَوْصوفِ جائزٌ، قال ابنُ مالِك رَحِمَهُ اللَّهُ(١):

وَمَا مِنَ المَنْعُوتِ وَالنَّعْتِ عُقِلْ ... يَجُوزُ حَذْفُهُ وَفي النَّعْتِ يَقِلّ

والسابِغُ من كُلِّ شَيْء هو الكامِل الضافي التَّامُّ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان:٢٠]، أَيْ: أَتَمَّها وأَكمَلها، ومنه: إِسْباغُ الوضوء أي: إِتْمامه وإِكْماله.

فهذه الدُّروعُ السابِغاتُ؛ يَعنِي: الوافِيات الكوامِل التي تَمنَع لابِسَها مِن أن يَنالَه أَذًى، وأمَّا قول المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [يَجُرُّها لابِسُها على الأَرْض] ففي هذا نظَرٌ؛ لأنه ليس هناك حاجة إلى أن يَجُرَّها على الأرض؛ ولأَنَّها إذا بلَغَتْ إلى هذا المُستوى فرُبَّما تُعيق من الكرِّ والفرِّ، والمَعروف أن الدُّروع تَصِل إلى الرُّكْبة فقَطْ، هذا غايَتُها؛ لأنها حَديد، وإذا لبِسَ الإنْسان حَديدًا يَصِل إلى الأرض فإنه سيَكون مُكبَّلًا بالأَغْلال، فالواجِب أن نَقول: «سابِغاتٍ أَيْ: كامِلات، ليس فيها نَقْص». وكَمال كل شَيْءٍ بحَسَبه.

(١) الألفية (ص:٤٥).

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾ أي: [نَسْجُ الدُّرُوعِ قِيلَ لِصَانِعِهَا: (سَرَّادٌ) أَي: اجْعَلْهُ بِحَيْثُ تَتَنَاسَبُ حِلَقُهُ]، ﴿وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾ السَّرْد مَعناه: نَسْج الدُّروع، كما يُنسَج الثَّوْب من القُطْن ومن الصُّوف: يُنسَج الدِّرع من الحَديد.

ومَعنى (تَقدير السَّرْد) أَي: اجْعَلْ هذا السَّرْدَ أَي: النَّسْج مُقدَّرًا مُتَناسِبًا، من التَّقدير وهو: أن تَجعَل الحَلقاتِ مُتَناسِبةً ما تَأتي بحَلقة كبيرة وحَلقة صغيرة، ومنها أَلَّا تَجعَل الحَلقاتِ ضيِّقةً؛ لأنه إذا كانت ضَيِّقةً وقَفَ الدِّرْع ولم يَكُن سَهْلَ الحرَكة، ولا تَجعَلْها واسِعة جِدًّا؛ لأنك إذا جعَلْتَها واسِعةً جِدًّا لا تَقِي، ثُم هي تكبَر إذا جعَلْتها واسِعة جِدًّا كَبُرت وآذَتِ اللَّابِس، ولكِنِ اجْعَلْها مُقدَّرة مُتَناسِبة.

والدُّروع عِبارةٌ عن قُمُصٍ من حديد، قميصٌ تَلبَسه كما تَلبَس الثَّوْب، إلَّا أنَّه لا يَصِلُ كُمُّه إلى الكَفِّ، كُمُّه إلى العَضُد فقَطْ، وهذه الدِّرْعُ مَنسوجة مِنْ حِلَق حَديدٍ صغيرةٍ مَشبوكة بعضُها ببعض، مُداخَلة بَعضُها في بعض حتى يَتِمَّ النَّسْج، وهي مَوْجودة وتُوجَد عند مُتحَف أهل البَلَد، وأمَّا ما يُمسَك باليد حتى يُتَّقى به الرُّمْحُ فهذا يُسمَّى تُرسًا.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾ مَعنَى التَّقدير في السَّرْد: أن تَكون الحَلقات مُتَناسِبة، وأَلَّا تكون ضَيِّقة ولا واسِعة؛ لأنها إذا لم تَتَناسَب فإنها تُؤذِي، تكون واحِدةٌ صغيرةً وواحِدةٌ كبيرةً، وإذا كانت واسِعة فإنها تُؤذِي وقد لا تَقِي السِّهام، وإذا كانت ضيِّقة فإنها لا تَتحرَّك كما يَنبَغي ويَثقل على اللَّابِس.

وقوله المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱعْمَلُواْ﴾ أَيْ: آلَ دَاوُدَ مَعَهُ ﴿صَٰلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فَأُجَازِيكُمْ بِهِ] لَمَّا بيَّن الله بما منَّ به على داودَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مِن تعليم صَنْعة الدُّروع

وتَلْيين الحديد له، وتَوْجيهه كيف يَصنَع هذه الدُّروعَ قال تعالى: ﴿وَٱعۡمَلُوٓاْ﴾ [أَيْ: آلَ دَاوُدَ مَعَهُ].

وقوله تعالى: ﴿وَٱعۡمَلُوٓاْ﴾ كيف عَدَل عن ضَمير المُفرَد: ﴿وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِ﴾ إلى ضَمير الجَمْع ﴿وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا﴾؛ لأنَّ تَقدير السَّرْدِ خاصٌّ بداوُدَ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، والعمَلُ الصالِحُ عامٌّ له ولغيره، فوجَّهَ الخِطاب إلى جميع آل داوُدَ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ قال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿صَٰلِحًا﴾ هو صِفة لمَوْصوف محَذوف، والتَّقديرُ: عمَلًا صالِحًا، والعمَلُ الصالِح ما جَمَع وَصْفين: الإخلاص لله تعالى، المُوافَقة لشَريعته، فلا بُدَّ فيه من هَذَيْن الشَّرْطين، فإن فُقِد الإخلاصُ فليس بصالِحٍ لوُجود الشِّرْك؛ وقد قال الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ في الحديث القُدسيِّ: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»(١).

والشَّرْطُ الثاني: المُوافَقة لشريعة الله تعالى، فإن لم يُوافِقْ شَريعة الله تعالى فإنه ليس بصالِح ولا يُقبَل؛ والدليل قوله ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»(٢)، وقوله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى:٢١]، فلا بُدَّ لقَبول العمَل الصالِح من هَذين الشَّرْطين.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ هذه الآيَةُ فيها تَقديمٌ وتَأخيرٌ، فقوله تعالى: ﴿بَصِيرٞ﴾ هو المُؤخَّر، والمُقدَّم المَعمول، فإن قُلْتَ: من القَواعِد المُقرَّرة أنَّ

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور (١٧١٨)، من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا.

تَقديم المَعمول يَدُلُّ على الحَصْر، فصار الله تعالى بَصيرًا بما يَعمَلون من دون غيرِه، مع أنه بَصير بكُلِّ شيءٍ، فما هو السببُ؟

الجوابُ: السبَب في ذلك: التقديمُ، حيث جاء بصيغة الحَصْر للرَّدْع عن المُخالَفة، كأنَّه لو لم يَكُن الله تعالى بَصيرًا بالشيء لكان بَصيرًا بأعمالكم، فلمَّا كان الإنسان قد يَقول: إن الله تعالى لا يُبصِر عمَلي، جعَل الله تعالى الصِّيغة دالَّةً بظاهِرها على الحَصْر؛ حتى لا يَدَّعيَ مُدَّعٍ أنَّ الله تعالى ليس عالِمًا بعمَله، هذا من وَجهٍ، ومن جِهة أُخرى لمُناسبة فواصِل الآيات.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بيان مِنَّة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على داوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: عِناية الله تعالى ببَيان هذا الفَضْلِ، حيث أكَّده بالقَسَم واللَّام و(قَدْ).

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ هذا الفَضْلَ فَضْلٌ عظيمٌ؛ لأنَّ الله تعالى أَضافَه إليه بقوله: ﴿مِنَّا فَضْلًا﴾، والمُضاف إلى العظيم يَكون عظيمًا، ونَظيرُ ذلك الدُّعاءُ الذي علَّمه النبيُّ ﷺ أبا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «رَبِّ اغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ»[1].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: تَوجيهُ الخِطاب إلى الجَماد من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لقوله تَعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب الدعاء قبل السلام، رقم (٨٣٤)، ومسلم: كتاب الذكر، باب استحباب خفض الصوت بالذكر، رقم (٢٧٠٥)، من حديث أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الجماد يُحِسُّ بخِطاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ووَجْهُ ذلك: لولا أنه يُحِسُّ لكان تَوْجيهُ الخِطاب إليه عبثًا؛ والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُنَزَّهٌ عن العَبَث في أَقْواله وأَفْعاله، ويَدُلُّ على أنه يُحِسُّ بذلك أنها أَوَّبَتْ معه ورجَّعت.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن من فَضائِل داوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أنَّ الله تعالى أَمَر الجِبال أن تُسبِّح معه، بأن تُرجِّعَ معه التَّسبيح وقِراءة الزَّبور هي والطيرُ.

وهلِ الأَمْرُ في قوله تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ أَمْرٌ كونيٌّ أو أمرٌ شَرْعيٌّ؟

الجوابُ: أنه يَحتَمِل المَعنيَيْن فإذا نظَرْت إلى أنها مَأمورةٌ بعِبادةٍ قُلْتَ: إن هذا أمرٌ شَرْعيٌّ. وإذا نظَرْت إلى أن هذه الجِبالَ لو فُرِض أنها عصَتْ هل تُعاقَبُ؟

الجوابُ: الله تعالى أَعلَمُ، ربما تُعاقَب وربما لا تُعاقَب؛ لأنّه ليس لها عَقْلٌ تُدرِك به كما يُدرِك بنو آدَمَ، قُلْت: إنه أَمْر كَوْنيٌّ، وللتَّخلُّص من هَذَيْن الاحتِمالَيْن نَقول: إنَّ الله تعالى أمَرَ الجِبال أن تُرجِّع معه. ولا نَقول: أَمْرًا كونِيًّا ولا أَمْرًا شَرْعيًّا.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: ظُهور آية الله في تَمام القُدْرة، حيث أَلانَ الحديد لداوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ وهذه الإِلانةُ ليس لها سَبَب حِسِّيٌّ معلوم، لأنه لو كانت بالأسباب المَعْروفة لم يَكُن فَرْقٌ بين داوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وغيره، هذا هو الصحيح، وإن كان بعضُ العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ يَقول: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ﴾ أي: هَيَّئْنا له الأسباب التي يَلين بها الحديدُ، ولكننا هَيَّئْنا له أسبابًا عظيمة قوِيَّة لا تَحصُل لغيره.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ الحديد بطَبيعته قاسٍ، وهو كذلك، ولولا أن الله تعالى يُلينه بما جعَلَ من الأَسْباب ما انتَفَع الناس به، وهل هو أَقسَى أَمِ الحِجارة؟

الجوابُ: الحِجارةُ؛ ولهذا لا تَلين الحِجارةُ بالنار، والحديدُ يَلين بالنار.

قال العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ: فدَلَّ ذلك على أن الحِجارة أَقسَى، ولَمَّا شَبَّه الله تعالى القُلوب القاسِيةَ قال: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة:٧٤].

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَنَّ على داوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وعلى غيره بتَعليمه هذه الصَّنْعة، وهي صَنْعة الدُّروع كما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ [الأنبياء:٨٠]، وهذا التَّعليمُ الذي علَّمه الله تعالى داوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَقِيَ إلى يَوْمنا هذا، وهذا كما عَلَّم الله تعالى نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ صُنْع السَّفينة؛ وأَشار الله تعالى إلى مَوادِّ بِنائها في قوله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ [القمر:١٣]، أي: مَسامير.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أنَّه يَنبَغي لَمِن صَنَع شيئًا أن يُكمِّله؛ لقوله تعالى: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾، ولا يَنقُص منه شيئًا.

ويَنبَغي لَمِن صَنَع شيئًا أن يُتقِنه؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ أَيْ: إكْمالًا وإِتْقانًا.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أنه يَجِب على مَن أَنعَم الله تعالى عليه نِعمةً أن يَقوم بشُكْرها بالعمَل الصالِح؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّ الله تعالى إذا أَنعَمَ على شَخْص من القَبيلة بنِعْمة فإنه إنعامٌ على القَبيلة كلها، ووجهُ ذلك: قوله تعالى: ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ فوجَّهَ الخِطاب إلى آلِ داوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كلهم، مع أن الفَضْل خاصٌّ بداوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ ولهذا إذا نَبَغَ نابِغة في قبيلةٍ من القبائل فإنَّه يَرفَع قَدْر هذه القَبيلةِ كلِّها، كما أن العَكْس بالعَكْس إذا سَفُل أحدٌ من القبيلة عُيِّرتِ القَبيلة به كلُّها، وهذا أمر معلوم.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: التحذير من المُخالَفة؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: أنَّ الله تعالى بَصيرٌ بكل ما نَعمَل؛ من خيرٍ وشَرٍّ وقليلٍ وكثيرٍ وظاهِرٍ وباطِنٍ، حتى أَعْمال القلوب يَعلَمها، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦]، انتَبِهْ لا تُضمِرْ في قلبك شيئًا يُغضِبُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فإنَّك إذا فعَلْتَ فإنَّ الله تعالى سَوْف يَعلَمه، ولا يَخفَى عليه شيء، قال تعالى: ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

• ● ۞ ● •

الآية (١٢)

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [سبأ:١٢].

وقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿وَ﴾ [وَسَخَّرْنَا] ﴿لِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾، وإنما قدَّر: [وَسَخَّرْنَا]؛ لأنَّ (الرِّيحَ) مَنصوبةٌ، فلا بُدَّ من تقدير عامِلٍ يَتِمُّ به النَّصْب، وهنا نُقدِّر ما يُناسِب وهو (سَخَّرْنا له) كما جاء ذلك في آية أُخرى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص:٣٦].

وقوله تعالى: ﴿لِسُلَيْمَٰنَ﴾ هو ابن داوُدَ عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ، وقد آتاهُ الله تعالى الرِّسالة والمُلْك مُلْكًا عظيمًا لا يَنبغي لأحَدٍ من بَعْده؛ لأنَّ الله تعالى سخَّر له الإِنْس والجِنَّ.

وقوله تعالى: ﴿ٱلرِّيحَ﴾ هي الهَواء، سَخَّرَها الله تعالى له؛ أي: ذَلَّلها بحيث تَجرِي بأَمْره يَأمُرها فتَتَّجِه إلى الشَّمال إذا كان يُريد ناحية الشَّمال، ويَأمُرها فتَتَّجِه إلى الجَنوب إذا كان يُريد ناحية الجَنوب، ويَأمُرها أن تَذهَب شَرْقًا فتَذهَب، وأن تَذهَب غَرْبًا فتَذْهَب، وأن تُسرِع فتُسرِع، وأن تُبطِئ فتُبطِئ؛ تَجرِي بأَمْره.

ولا يُقال: إن هذا يَدُلُّ على أنَّ سُلَيْمانَ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ مُشارِك لله تعالى في الخَلْق؛ لأنه لا أَحَدَ يَستَطيع أن يُصرِّف الهَواء، لِوِ اجتَمَع الخَلْق كلُّهم على أن يُصرِّفوا الهَواء

ما استَطاعوا إلى ذلك سبيلًا، وسُلَيمانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَستَطيع ذلك، فلا يُقال: إنه شَريك لله تعالى؛ لأن الذي سخَّر الريح له هو الله تعالى.

ولهذا لا نَقول: إنَّ عِيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ شَريك مع الله تعالى في الخَلْق، حيث قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى﴾ [المائدة:١١٠]؛ لأنَّ قُدرة هَؤلاء الخَلْقِ على ما يَقدِرون عليه ممَّا لا يَقدِرُ عليه غيرهم من المَخلوقين إنما كانت بأَمْر الله، فهم لم يَستَقِلُّوا بذلك، ولكن الله تعالى أَعطاهم قُدرةً، كما أن الله تعالى يَمُنُّ على بعض العِباد بقُدْرةٍ هائِلةٍ في الحِفظِ أو في الفَهمِ أو في قُوَّة السَّمْع أو البَصَر أو البَدَن أو غير ذلك، فالرِّيحُ هي الهواء سُخِّرت لسُلَيْمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿ٱلرِّيحَ﴾، وفي قراءة: [وَقِرَاءَةُ الرَّفْعِ بِتَقْدِيرِ: تَسْخِيرِ] تَركيب المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ هنا لبَيان القِراءة الثانية غريب، ما كان مَعهودًا منه، وكان الأَوْلى أن يَقول: وفي قِراءةٍ بالرَّفْعِ على تَقدير تَسخير. هذا هو الأَوْلى؛ لأن قوله: وقِراءَةُ الرَّفْعِ. لم نَستَفِدْ: هل هذه القِرْاءةُ سَبْعيَّة أو شاذَّة؛ لأن المَعهود أنه يَقول في السَّبْعية: وفي قراءة. وفي الشاذِّ يَقول: قُرِئَ. وهنا يَقول: وقِرَاءَةُ الرَّفْعِ. ما نَدرِي! لكن على كلِّ حال القِراءةُ سَبْعيَّة، ففيها قِراءَة: (وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحُ غُدُوُّهَا شَهْرًا).

وقوله تعالى: (الرِّيحُ) إعرابُها على هذه القِراءةِ.

نَقول: إنها مُبتَدَأ مُؤَخَّر، وأَصْل الكلام: تَسخيرُ الريح؛ فحُذِف المُضاف وأُقيم المُضاف إليه مَقامَه، وابنُ مالِكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقولُ[1]:

وَمَا يَلِي الْمُضَافَ يَأْتِي خَلَفَا ... عَنْهُ فِي الْإِعْرَابِ إِذَا مَا حُذِفَا

(١) الألفية (ص:٣٨).

أي: (لِسُلَيْمانَ تَسخيرُ الريح).

وَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: (لِسُلَيْمانَ الريحُ) أن (الريحُ) مُبتَدَأ بدون تَقدير. لم يَكُن بعيدًا، ويَكون مَعنَى كونِ الريح له أنها مُسخَّرة له، فيَكون له التَّصرُّف فيها.

وقوله تعالى: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ﴾ أي: [مَسيرها من الغُدوَة، بمَعنَى: الصَّباح إلى الزوال شَهْرٌ]، و﴿وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾، [سَيْرها من الزوال إلى الغُروب شَهْر]؛ أي: مَسيرة شهر.

الريح سخَّرها الله تعالى له إذا سارَت به من الصباح إلى الزوال فهي مَسيرة شهر؛ بسَيْر الإبِل، وعلى هذا فإنها تكون سَريعة، رواحُها شَهْر فيَستَطيع أن يَذهَب إلى مكانٍ مَسيرتُه شَهْرٌ ويَرجِع إلى بلَدِه في نفس اليوم؛ لأنَّ غُدُوَّها شَهْر ورَواحَها شَهْر، ومع ذلك فقَدْ وصَفَها الله تعالى بأنها عاصِفة، ولكنها غير مُؤثِّرة: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [الأنبياء:٨١]، وقوله: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص:٣٦]، فهي سريعة لكنها غير مُزعِجة، لكن كيف يَطير في الريح؟ قال العُلَماءُ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: إنه يَضع بساطًا عادِيًّا ويَجلِس هو وحاشِيَته عليه، ثُمَّ يَأمُر الريح فتَطير بهم؛ بهذا البساطِ، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على كل شيء قديرٌ، والعادةُ أنه إذا كان الإنسان مع حاشِيَته على بساطٍ ويَرتَفِع أنه يَسقُط، هذه العادةُ، ولكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على كل شيء قديرٌ.

هل يُمكِن أن نَقول: إن قانون الطَّيَران بالطائِرات الحديثة مَبنِيٌّ على هذا؟

الجوابُ: نعَمْ قانون الطَّيَران مَبنِيٌّ على هذا، مَبنِيٌّ على الهَواء الذي تُولِّده هذه المُولِّدات، فهذه الطائِراتُ لا يَحمِلها إلَّا الهواءُ، وهي حديد، وثَقيلة وعليها أُناس وعليها عَفْش، ونفس المَراوِحِ هذه والاندِفاع هذا فيه هواء شديد؛ ولذلك انظُرْ

كيف تَنضَبِط إذا نزَلَتْ إلى الأرض بسبب الهَواء في مُؤخَّرها عند (الشُّكمان) فيها حديدة تَنعَكِس حتى تَرُدَّ الهواء؛ حتى لا تَندَفِع الطائِرة.

وقوله تعالى: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ هل هي في سُرْعة الطائِرة؟

الجوابُ: لا هي أقَلُّ من الطائِرة؛ لأنَّ الطائِرة تَذهَب مَسيرةَ شَهْر بأَقَلَّ من الغُدُوِّ، ولكنها أَسرَعُ من السيَّارة بلا شَكٍّ، يَبقَى علينا هذا المُرور السَّريع عادةً إذا لم يَكُن هناك حِجاب يَمنَع من عَصْفِ الهَواء؛ أن الهَواء يَعصِف بالراكِب حتى يَسقُط؟ لأنها دونَ الطائِرة وفوقَ السيَّارة في سُرْعتها، وبعض السيَّارات يَعصِف الهَواء فيها بالإنسان ويُقلِقه، لكنَّ الله تعالى بيَّن في آياتٍ أُخرى أن هذه الرِّيحَ تَكون رُخاءً ما فيها إِزْعاج ولا فيها قلَقٌ.

قال الله تعالى أيضًا ممَّا مَنَّ الله تعالى به على سُلَيْمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾ أي: أَذَبْنا له ﴿عَيْنَ الْقِطْرِ﴾ أي: النُّحاس، هذا أيضًا قد يَكون أبلَغَ ممَّا أُوتِيَه داوُدُ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأنَّ داود عَلَيْهِ السَّلَامُ قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾، أمَّا هذا فأَسَالَ الله تعالى له عَيْنَ القِطْر؛ يَعنِي: فجَّر له عَيْنًا من النُّحاس تَسيل كما يَسيل الماء مع إنها نُحاس، وهذا دليل على كَمال قُدرةِ الله؛ لأنَّ المَعروف أن النُّحاس مَعدِنٌ جامِد فجعَلَه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لسُلَيْمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَيْنًا سائِلة كأنها الماء؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾.

وقوله: ﴿عَيْنَ الْقِطْرِ﴾ يدفَع ما قيل: إنَّ سُلَيْمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يُذيب النُّحاسَ فيَسيل، كما أن الرَّصاص إذا أَذَبْناه يَصير سائِلًا، كالزِّئبَق.

فنَقول: لا، بل إن الله تعالى يَقول: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾ فجعَل هذا عَيْنًا يَندَفِع من الأسفَلِ ويَسيل، ونحن نَعلَم أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خالِقُ الأشياءِ جامِدِها

ومائِعِها، وأنّه قادِر على أن يَجعَل الجامِد مائِعًا والمائِع جامِدًا، وهذا الماءُ المائِعُ المُتدَفِّق الجارِي لَمّا ضرَب مُوسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بعَصاهُ البَحْر انفلَق فكان كل فِرْق كالطَّوْد العظيم، كالجَبَل العظيم، وهو ماءٌ سائِل ضرَبه مرَّة واحِدة فقَطْ فتفرَّق البَحْر وصار اثنَيْ عشَرَ طريقًا، كلُّ طريق بينَه وبين الطريق الآخَرَ مِثْلُ الجَبَل من الماء، وهذا فَوْق الأمر الطبيعيِّ؛ لأنَّ خالِق الأشياء قادِر على كل شيء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [فَأُجْرِيَتْ لَهُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ بِلَيَالِيهِنَّ كَجَرْيِ المَاءِ] هذا التَّقديرُ يَحتاج إلى تَوْقيف، يَعنِي: أنَّ الله تعالى أَجْراها له ثلاثةَ أيّام فقَطْ قد نَقول: إن الله تعالى أَسَال له عَيْن القِطْر يَتصرَّف فيها كما يَشاءُ، وهذا يَقتَضِي أن تَكون هذه الإِسالةُ مُستَمِرَّةً حيثُما أَرادَها وجَدَها، وهذا هو الأقرَبُ، ولا يُمكِن أن نُحدِّدها بثلاثة أيّام إلَّا بدليل من الشَّرْع، إمّا من الكِتاب أو من السُّنَّة، وليس في الكِتاب تَحديد، وكذلك ليس في السُّنَّة، فالأَوْلى أن نَجعَلها على ظاهِرها.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [وَعَمَلُ النَّاسِ إِلَى اليَوْمِ مِمَّا أُعْطِيَ سُلَيْمَانُ] يَعنِي: أن انتِفاع الناس بهذا النُّحاسِ وتَذويبه حتى يَكون كالماء هذا أَثَرُه من عمَل سُليمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، يَعنِي: أن النُّحـاس إنما ذاب من وقت سُلَيْمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى اليَوْم، وقد قِيـل: إن النُّحَاس من قَبْلُ كان لا يَذوب أبَدًا، ولكنه في عَهْد سُلَيْمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ذابَ وصارَ مُستمِرَّ الذَّوَبان.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾: ﴿مِنَ﴾ للتَّبْعيض، و﴿ٱلْجِنِّ﴾ عالَم غَيْبِيٌّ مُستَتِرٌ عن الأَعْيُن؛ ولهذا جاء بلَفْظ الجِنِّ، وأَصْل هذه المادَّةِ -الجِيمُ والنُّون- الاستِتار؛ ومنه سُمِّيَت الجُنَّة التُّرْس الذي يَستَتِر به الإنسان، وسُمِّيَتِ الجَنَّة للبُستان الكثير الأشجار؛ لأنه يَجُنُّ مَن فيه، أي: يُغطِّيه، وسُمِّيت

الجَنَّة أيضًا لهذا السبَبِ، وسُمِّيَ الجَنين؛ لأنه مُستَتِر، فهذه المادَّةُ -الجيم والنون- كلُّها تَدُلُّ على الخَفاء والاستِتار.

فالجِنُّ إِذَنْ عالَمٌ غَيْبِيٌّ ليسوا بظاهِرين، لكنهم قَد يُرَوْن، هذا العالِمِ مِنهم صالِح ومِنهم دون ذلك، ومنهم مُسلِم ومنهم كافِر، كما في سورة الجِنِّ، يَأْكُلون ويَشْرَبون ويَتَقَيَّئون ويَبُولون؛ كما جاء في الحديث عن النبيِّ ﷺ، وهؤلاءِ الجِنُّ قد يَظهَرون أمام الناس ويُشاهَدُون، إمَّا بصُورِهم التي هم عليها وإمَّا بتَصَوُّرات ثانية، وإمَّا على صورة القِطَط، أو على صورة الدَّوابِّ كما جاء في الحديث الصحيح في النَّهْيِ عن قَتْل الجِنَّانِ التي تكون في البيوتِ[1]؛ لأنَّ بعضَها قد يَكون من الجِنِّ ورُبَّما يَتَلبَّسون بالإنسان؛ أي: يَدخُلون في جَوْفه حتى يَكون كاللِّباس لهم، فيَصرَعونه ويُؤذُونَه.

وقد أَشار الله بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّ﴾ [البقرة:٢٧٥]، يَعنِي: مثل المَصروع الذي صَرَعه الشَّيْطان، وهذا الصرعُ؛ أي: صرَع الجِنِّيِّ للإِنْسيِّ لا يُنكِره إلَّا المَلاحِدة، كما قال ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ في زاد المَعاد[2]: إنهم لم يَصِلوا إلى هذا النَّوْعِ من الصرَعِ فجعَلوا يُنكِرونه ويُحيلون جميع أنواع الصَّرَع إلى صرَع الأعصاب والمُخِّ وما أَشبَهَ ذلك، وصرَعُ الجِنِّ للإِنس مَعلوم بالمُشاهَدة أيضًا، فلا يُنكِره إلَّا مُكابِر، لأنه شُوهِد مَنْ يُصرَع ويُخاطَبُ الجِنِّيُّ الذي صرَعه مُخاطَبَةً صَريحَةً واضِحة، وجرَى ذلك على يَدِ أَئِمَّة الإسلام كالإمام أحمدَ وشيخِ الإسلام ابنِ تيميَّةَ رَحِمَهُمَا اللَّهُ، وغيرهم إلى يَوْمِنا هذا.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب خير مال المسلم، رقم (٣٣١٣)، ومسلم: كتاب السلام، باب قتل الحيات وغيرها، رقم (٢٢٣٣)، من حديث أبي لبابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) زاد المعاد (٤/ ٦١).

جِيءَ مرَّةً بمَصروع إلى شيخِ الإسلام ابن تيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فوَعَظ الجِنِّيَ الذي صرَعه ونَصَحه وقال له: اخْرُجْ. فقال: إني لا أَخرُج، إني أُحِبُّه وكانت امرأةً التي صرَعَتْه، قالت: إني أُحِبُّه. فقال شيخُ الإسلامِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لكنه لا يُحِبُّكِ. فقالَتْ: إني أُريد أن أَحُجَّ به -بأَنْ تَحمِله إلى مَكَّةَ- فقال: إنه لا يُريد أن يَحُجَّ معَكِ. ثُمَّ وعَظَها فلَمْ تَتَّعِظْ، ثُم ضرَبَها شيخُ الإسلام ابنُ تَيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، جعَل يَضرِبها على رقَبةِ هذا المَصروع؛ يَقول: حتى تَعِبَت يَدي مِن الضَّرْب. فقالت: أنا أَخرُج كرامةً للشَّيْخ. فقال: لا تَخرُجي كرامةً لي، اخْرُجي طاعةً لله تعالى ورسوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ. فخَرَجت على أَلَّا تَعود، فأَفاق الرجُلُ، فلَمَّا أَفاق قال: ما الذي جاء بي إلى حَضْرة الشيخِ؛ يَعنِي: شيخَ الإسلام ابنَ تيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقِيلَ له: إنه قد فعَل كذا وكذا. فقال: والله ما أَحْسَسْتُ بشيء من هذا، لا أنِّي خاطَبْته ولا أنه ضرَبَني. وهذه القِصَّةُ ذكَرَها ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في زاد المعاد[1] عن شيخه، وابنُ القَيِّمِ ثِقَة، وشيخ الإسلام كذلك ثِقَة، وقد ورَدَ مِثْلُ ذلك عن الإمامِ أحمدَ[2] رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل يَتَلبَّس الجِنِّيُّ الذَّكَر بالإِنْسيِّ الذَّكَر، والعكسُ، أم أنه فقَطْ يَتَلبَّس الرجُلَ امرأةٌ والعَكسُ المرأةُ يَتَلبَّس بها رجُل من الجِنِّ؟

فالجوابُ: قد يَتَلبَّس بالرجُل رجُلٌ، ويَكون مَثَلًا مُولَعًا به لسبَب من الأسباب، وكذلك العكسُ.

إِذَنِ: الجِنُّ نَقول في تَعريفهم: عالَمٌ غَيبيٌّ مُستَتِرون عن الإنس، وربَّما يَظهَرون، ومِنْهم صالِح، ومِنْهم دون ذلك، ومِنْهم قاسِط، ومنهم مُسلِم، ويَأكُلون ويَشرَبون

(١) زاد المعاد (٤/ ٦٣).

(٢) انظر: الفروع (٢/ ٤٦٦).

ويَبولون ويَتقيَّئون، كل هذا ثبت في القُرآن وفي السُّنَّة.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: ﴿مَن﴾ بمَعنَى: الذي، ﴿يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ فهي اسْمٌ مَوْصولٌ، وما مَحلُّها من الإعراب؟

الجوابُ: يُحتمَل أَنْ يكون مَحلُّها الرفعَ على أنها مُبتَدَأ مُؤخَّر، وخبَرُه ﴿مِنَ ٱلْجِنِّ﴾، ويُحتَمَل أنها في مَحلِّ نَصْب؛ يَعنِي: وسَخَّرْنا له من الجِنِّ مَن يَعمَل بين يديه، وأَيُّهما أَوْلى؟ سبَق وأن ذكَرْنا قاعِدة؛ أنه إذا دار الأَمْر بين التَّقدير وعدَم التَّقدير فعدَمُ التَّقدير أَوْلى؛ لأنه الأَصْل، والأَصْل أن الكلام لم يُحْذَفْ منه شيءٌ، وعلى هذا فنَقول: ﴿مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ جارٌّ ومجرور خبَرٌ مُقدَّم، و﴿مَن يَعْمَلُ﴾ مُبتَدَأٌ مُؤخَّر.

وقوله تعالى: ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يَعنِي: يَدَيْ سُلَيْمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، يَعنِي: أَمامَه، لكن ﴿بِإِذْنِ﴾ [بأَمْرِ] ﴿رَبِّهِۦ﴾، والإِذْنُ هنا كَوْنيٌّ، يَعنِي: أنَّ الله تعالى سخَّر الجِنَّ ليَعمَلوا بين يدَيْ سُلَيْمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بإِذْنه، بأَمْره الكونيِّ، قد يُقال: إنه إِذْنٌ شَرْعيٌّ؛ بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

وقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿وَمَن يَزِغْ﴾ [يَعْدِلُ] وقِيل: يَمِلْ، أي: يَميل، وهذا أَقرَبُ، ومنه: زاغَتِ الشمسُ، أي: مالَت عن وسَطِ السَّماء، قوله تعالى: ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ﴾ يَعنِي: مَن يَمِلْ ﴿عَنْ أَمْرِنَا﴾ [لَهُ بِطَاعَتِهِ لَهُ] أَيْ: للجِنِّ [بِطَاعَتِهِ] أي: بطاعة سُلَيْمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ النار في الآخِرة، ﴿نُذِقْهُ﴾ ما الذي جزَمها؟ ﴿مَن﴾؛ لأنها جوابُ الشَّرْط، وفِعْل الشَّرْط ﴿يَزِغْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي: نُعذِّبه بالنار حتى يَذوق عَذابها، وهل هذه نارُ الدُّنيا أو الآخِرة؟ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فِي الْآخِرَةِ، وَقِيلَ: فِي الدُّنْيَا بِأَنْ يَضْرِبَهُ مَلَكٌ بِسَوْطٍ مِنْهَا ضَرْبَةً تُحْرِقُهُ].

والله أعلم هل عذابه في الدُّنْيا بواسِطة المَلَك، أو أن سُلَيْمانَ عَلَيهِ السَّلَامُ أُذِنَ له بتَعذيبهم في النار.

إذن فالذي يَزِيغ من الجِنِّ عن أَمْر الله بطاعته سُلَيْمانَ عَلَيهِ السَّلَامُ هذا يُعذَّب بالنار، إمَّا في الدُّنْيا وإمَّا في الآخِرة، ولكن إذا قُلْنا: إنه في الدُّنيا، فإنه لا يَتعيَّن أن يَكون الأمر كما قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: إنه مَلَك يَضرِبه بسَوْط منها حتى يُحرِقه.

وَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: أنَّ طاعة الجِنِّ لسُلَيْمانَ عَلَيهِ السَّلَامُ بأَمْر الله الكَوْنيِّ فهل هذه تُعتبَر لهم عِبادة لله عَزَّوَجَلَّ؟

فالجوابُ: بلى؛ ولهذا قُلْنا: فيه احتِمالُ إِذْنٍ شَرْعيٍّ، ويُؤَيِّده قوله تعالى: ﴿عَنْ أَمْرِنَا﴾، وهذا أَرجَحُ، لكنه لا يَمنَع الأوَّل.

وَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل يَدخُل الجِنُّ الجَنَّة؟ وماذا يَستَفيدون منها؟

فالجوابُ: أن الله تعالى يَقول في آخِر سورة الرحمنِ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:٤٦-٤٧]؛ فالخِطاب في ﴿رَبِّكُمَا﴾ يَعود للجِنِّ والإِنْس، فإذا كان الجِنُّ لا يَستَفيد من هاتين الجَنَّتَيْنِ فما فائِدة خِطابهم في قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؟! ثُمَّ إنه قال في نَفْس الآيات: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن:٥٦]؛ وهذا أيضًا يَدُلُّ على أنهم يَدْخُلون الجَنَّة، وهذا هو الصحيح الذي عليه جُمهورُ العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ، أمَّا دُخول الكافِر منهم النارَ فإنه بالاتِّفاق؛ لأن الله تعالى نَصَّ عليه في القُرآن، وأمَّا دُخول المُؤمِن منهم الجَنَّة فهذا هو الصحيح الذي عليه جُمهورُ أهل العِلْم.

وأمَّا قول الله تعالى: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ

﴿وَيُجِرۡكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الأحقاف:٣١]، لا يَمنَع من دُخولهم الجَنَّة؛ لأنه لم يَقُل: ويُدخِلْكم الجَنَّة. وليس فيها دليلٌ على أنَّ دُخولهم الجَنَّة مَمنوع؛ لأن مَن أُجير من العذاب الأليم فليس هناك في دار الآخِرة إلَّا داران؛ إمَّا نار وإمَّا جَنَّة، وعندنا آياتٌ كثيرةٌ تَدُلُّ على أنَّ مَنْ آمَن وعَمِل صالحًا فله جَنَّاتُ المَأْوى.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ الله تعالى قد يُسخِّر بعض الأُمور الكَوْنية لبعض عِباده آيَةً له؛ لأن الريح لا أحَدَ يَستَطيع أن يُصرِّفها كما يَشاءُ، وسُلَيْمانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ سُخِّرَت له تَجرِي بأَمْره، فيُستَفاد من هذا أن الله تعالى قد يُسخِّر بعض الأُمور الكونية آيَةً لبَعض عِباده كهذا، وهل يُمكِن أن يَأتِيَ مِثْلُ ذلك لغير الرُّسُلِ؟

الجوابُ: الظاهِر أنه لا يُمكِن، وما ذُكِر عن بعض الخُلَفاء أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سخَّر له الريح يَأمُرها كما يَشاءُ وتَنقُل جُنْده فإن هذا في صِحَّتِه نظَرٌ، والظاهِر أنَّ مِثْلَ آياتِ الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لا تكون كَرامةً للأَوْلياء، صحيح أن بعض آيات الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ تكون كرامةً لبعض لأَوْلياء، أمَّا الآياتُ الكبيرة كهذه فالظاهِرُ -والله أَعلَمُ- أنها لا تكون.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ للريح سُرْعةً عظيمةً، كما قال تعالى: ﴿غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثبات وُجود الجِنِّ، وهذا ثابت بالكِتاب والسُّنَّة وإِجْماع المُسلِمين؛ ولهذا مَنْ أَنكَر وُجود الجِنِّ فقَدْ كذَّب القُرآن ويُحكَم بكُفْره.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الجِنَّ يَعمَلون للإِنْس؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡجِنِّ مَن

يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، ولا شكَّ أن عمَلَهم بين يَدَيْه آيةٌ له دالَّةٌ على نُبوته ورِسالته، لكن هل يَعمَلون لغير الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ؛ يَقول شَيْخُ الإسلامِ[1] رَحِمَهُ اللَّهُ: نعَمْ، إنهم يَعمَلون لغير الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وعمَلُهم لغَيْر الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ له سببٌ، إمَّا أن يَكون سببُه الشِّرْك؛ بمَعنَى: أنَّ الجِنَّ تَأمُره أن يُشرِك فيَعبُدهم، أو تَأمُره أن يُشرِك فيَعبُد مَن يُعظِّمونه، هذا واحِد، وقد يَكون سببُه أنهم يَعشَقون هذا الإنسانَ فيُحِبُّونه حُبًّا؛ يَعنِي: ليس لله تعالى، لكن مَثَلًا لجَمال صُورته أو ما أَشبَهَ ذلك، ومن أسباب ذلك أنهم يَعمَلون له مَحبَّةً لله تعالى؛ لكونهم صالِحين فأَحَبُّوا هذا الرجُلَ الصالِحَ فعمِلوا له، فعمَلُهم له يَقول شيخُ الإسلامِ[2] رَحِمَهُ اللَّهُ: إن عمِلوا له أمرًا مُحرَّمًا كان ذلك حَرامًا، مثل أن يَستَخدِمهم في أَذِيَّة المُسلِمين، أو في الاعْتِداء على شخص مُعيَّن يُروِّعونه أو يُنفِّرون إبِلَه، أو ما أَشبَهَ ذلك، فهذا حرام، فإذا استعَان بهم بطريق المَعصية أو من أَجْل المَعْصية كان ذلك حرامًا بلا شَكٍّ، أمَّا إذا استعَان بهم في الأَمْر المُباح فإن هذا لا بأسَ به إذا خلا عن شِرْكٍ وعن عُدوان على الغير.

فإن قُلْتَ: إن القول بإباحة الاستِعانة بهم في غير المَعْصية يُشكِل عليه قولُه تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام:١٢٨]، فإنَّ ظاهِر هذا أنه لا يَجوز أن يَستَمتِع الجِنُّ بالإِنس؛ ولا الإِنْس بالجِنِّ؟

---

(١) انظر: النبوات (١/ ٥٢٧، ٢/ ١٠٠٣).

(٢) مجموع الفتاوى (١١/ ٣٠٧-٣٠٨)، والنبوات (١/ ٥٢٨).

فالجوابُ: قد ذكَرَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كِتاب النُّبوات[1] أو في كِتاب إيضاح الدَّلالة على عموم الرِّسالة ذكَرَ أَشْياءَ واضِحةً عن السلَف بأنهم رُبَّما يَنْتَفِعون بالجِنِّ في الإِخْبار عن الأشياءِ البَعيدة، والأَمْر الواقِع شاهِدٌ بذلك، فإننا نَسمَع قضايا عن بعض الناس أن الجِنَّ تُعينهم على ما يُريد معَ صلاحِهم وعدَم شِرْكهم وعدَم مَعصيتهم.

فَإِنْ قِيلَ: هل يُمكِن أن يَعتَدِيَ الجِنِّيُّ على الإِنْسيِّ؟

فالجوابُ: نعَمْ يُمكِن.

وهل يُمكِن أن يَعتَدِيَ الإِنْسيُّ على الجِنِّيِّ؟

فالجوابُ: نعَمْ يُمكِن.

أمَّا الأَوَّلُ فظاهِرٌ كثيرًا أن الجِنَّ يَعتَدون على الإنس، أحيانًا يُروِّعونهم في الطُّرُقات، بل ورُبَّما في البُيوت، وأحيانًا يُفسِدون عليهم شُؤُونهم، وأحيانًا يَرمُونهم بالحِجارة، وأحيانًا يُؤذُونهم بالأصوات، وهذا شيء لا يَحتاج إلى طلَب الدَّليل؛ لأنه أَمْرٌ واقِع مُشاهَد.

وكذلك الإنس رُبَّما يَعتَدون على الجِنِّ؛ فلو أنَّ أحَدًا استَجْمَر بعَظْمٍ أو بروث لكان مُعتَديًا على الجِنِّ؛ لأنَّ العَظْم طعامُ الجِنِّ، والروث طعام دَوابِّهم، فيَكون في هذا عُدوان من الإِنْس على الجِنِّ.

فَإِنْ قِيلَ: هل يُمكِن أن يَدخُل الجِنِّيُّ في بدَن الإِنْسِيِّ؟

فالجوابُ: نعَمْ، ولا يَحتاج إلى طلَب الدَّليل؛ لأن هذا أَمْر واقِع محسوس

(١) النبوات (٢/ ١٠٥٩-١٠٦١)، و مجموع الفتاوى (١٣/ ٨٧-٨٨).

ثبَتَتْ به الأَخبـارُ وتَواتَرت، وشاهَـدَهُ الناس، وقد ذكَرْنا أن الإمام أحمـدَ وشيخَ الإسلام ابنَ تيميَّةَ رَحِمَهُمَاٱللَّهُ يُؤتَى إليهم بالمَصروع فيُخاطِبونه، ويَكون الخِطاب على مَنْ صرَعه، ويَضرِبونه أيضًا ويَكون الضَّرْب على مَن صرَعه، أي: على الصارِع لا على المَصروع.

وفي القُرآن ما يُشير إلى ذلك في قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة:٢٧٥]، والمَسُّ معناه: الصَّرْع؛ ولهذا يُقال: (بِهِ مَسٌّ من الجِنِّ)، أي: صَرع، والذي يَتخبَّطه الشَّيْطان من المَسِّ؛ يَعنِي: يَكون مُخبَّلًا لا يُحِسُّ ولا يَعرِف؛ قال أهل العِلْم رَحِمَهُمُٱللَّهُ: إنَّ هؤلاءِ يَقومون مِن قُبورهم كمِثْل المَجانين الذين أَصابَتْهمُ الشَّياطينُ.

وأمَّا إنكار بعض الناس لهذا فقد قال ابنُ القَيِّم رَحِمَهُٱللَّهُ: إن هؤلاءِ الفَلاسِفةِ الذين أَنكَروا ذلك لا يَعلَمون من الشَّرْع كما يَعلَمه أهلُ الشَّرْع، فهم يُنكِرون ما غاب عنهم، ولا يُقِرُّون إلَّا بالشيء المَحسوس، وأَنكَر عليهم إنكارًا عظيمًا في (زاد المعاد)[1].

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الجِنَّ قَد يُشاهَدون، مِن مَفهوم الآية مِن قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ فإن الظاهِر أنهم يُشاهَدون، وهم يَعمَلون بين يدَيْ سُليمانَ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ يَعنِي: أَمامَه.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ الجِنَّ مُكلَّفون؛ بمَعنَى أنهم إذا خالَفوا عُذِّبوا، ومن تَمام عَدْل الله تعالى أنهم إذا وافَقوا نُعِّموا، أمَّا كَوْنهم يُعذَّبون إذا خالَفوا فهذا أَمْر مُتَّفَق عليه بين العُلَماء رَحِمَهُمُٱللَّهُ، وأمَّا كافِرهم فيَدخُل النار، وأمَّا دُخول مُؤمِنهم الجَنَّة؛

(١) زاد المعاد (٤/ ٦١).

ففيه خِلاف بين العُلماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ، والصوابُ: أنهم يَدخُلون الجَنَّة؛ لقوله تعالى في سورة الرحمن وهو يُخاطِب الجِنَّ والإنسَ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:٤٦-٤٧]، فيَكون هؤلاء الجِنُّ إذا خافوا الله تعالى فلَهُمُ الجَنَّةُ، وقال في أثناء ذلك أيضًا: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن:٥٦]، وكلِمة (ولا جانٌّ) لا تَتَناسَب مع الإِنْس وإنَّما تَتَناسَب مع الجِنِّ، وهذا هو القولُ الحَقُّ المُتعيِّن.

ولا يُعارِض ذلك قولُه تعالى عن الجِنِّ الذين صرَفهم الله تعالى إلى النبيِّ ﷺ يَستَمِعون القُرآن حين ولَّوْا إلى قَوْمهم مُنذِرين؛ قال تعالى: ﴿قَالُوا يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف:٣٠-٣١]، فيُقال: إن الله تعالى إذا أَجارهم من العَذاب الأليم فلازِم ذلك أن يُدخِلهم الجَنَّة؛ لأن الآخِرة ليس فيها إلَّا دارانِ هما الجَنَّة أو النار، فمَن نَجا من النار دخَل الجَنَّة ولا بُدَّ، فالجِنُّ مُكلَّفون، لكن هل تَكليفهم كتَكْليف الإنس؟ بمَعنى: أن صَلاتَهم كصلاتِنا وصِيامهم كصيامنا وحَجَّهم كحَجِّنا أو يَختَلِفون عنَّا؟

الجوابُ: في هذا احتِمالانِ:

الاحتِمال الأوَّلُ: أن يَكون ما كُلِّفوا به مُساوٍ لما كُلِّفنا به من كل وَجْهٍ، ما دام الرسول ﷺ مَبعوثًا للجِنِّ والإنْس، ولم يَأْتِ القُرآن ولا السُّنَّة بالتَّفريق بين أحكام الإِنْس والجِنِّ، فالواجِب إِجراؤُها على ما هي عليه، وأن تَكون هذه الأحكامُ ثابِتةً في حقِّ الإِنْس والجِنِّ على حدٍّ سواءٍ.

والاحتِمال الثاني: أن تَكون الواجِباتُ بالنِّسبة للجِنِّ مُوافِقةً لما هُمْ عليه مُناسِبةً

لهم، فلا يَلزَم على هذا أن يَكونوا مُساوِين للإنس؛ لأن الله يَشرَع الأحكام مُناسِبةً لَمن شُرِعت له، فهذا المَريضُ مَثَلًا هل عليه صَوْمٌ؟ إذا كان المَريض لا يُرجَى زَوالُ مَرَضِه ففَرْضه الإطعام، والفقير ليس عليه زكاة وليس عليه حَجٌّ.

فلمَّا كان اختِلاف الشرائِع ظاهِرًا بالنِّسبة للإِنْس لاختِلاف أحوالهم فإنه يَلزَم أن تَكون الشرائِع أيضًا مُختَلِفة في الجِنِّ عن الإِنْس؛ لأنَّ الجِنَّ لا شَكَّ كما قال شيخُ الإسلام(١) رَحِمَهُ اللَّهُ: مُخالِفون للإِنْس في الحَدِّ والحقيقة، وحقيقتهم ليست كحقيقة البَشَر وحدُّهم وحُدودهم وطاقاتُهم ليسَتْ كحُدود وطاقات البَشَر، فإذا كانوا مُخالِفين للبَشَر في الحَدِّ والحقيقة لزِمَ أن يَكونوا مُخالِفين لهم في الأحكام الشرعية، وهذا فيما يُمكِن الاختِلاف فيه.

أمَّا ما لا يُمكِن كالتوحيد وأَصْل الرِّسالة وما أَشبَهَ ذلك فهذا أَمْرٌ نَعلَم عِلْم اليَقين أن الجِنَّ مُساوُون للإِنْس في تلكَ الأحكامِ، لكن الكلامَ على المَسائِلِ الفَرْعية التي يَختَلِف فيها المُخاطَبون لاختِلاف أحوالهم.

فالمَسألةُ فيها احتِمالان، ولكن شَيْخ الإسلام(٢) رَحِمَهُ اللَّهُ جزَمَ بأن الأحكام التي كُلِّف بها الجِنُّ تُخالِف الأحكام التي كُلِّف بها الإنسُ، وأنهم مُكلَّفون بالجُمْلة بدون أن يُساوُوا الإِنْس، والعِلْم عند الله تعالى.

---

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ٢٣٣).

(٢) مجموع الفتاوى (٤/ ٢٣٣).

الآيــة (١٣)

• ● ● •

قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣].

• ● ● •

قوله تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ﴾ أي: لِسُليمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهذا كالتفصيل لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ كأنه قيل: ماذا يعملون؟ ففصَّل فقال تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ﴾: ﴿مِن﴾ بيانيَّة مُبيِّنة للإِبْهام في الِاسْم المَوْصول، وهو قوله تعالى: ﴿مَا يَشَآءُ﴾ يعني ﴿مَا﴾ اسْمٌ مَوْصول، ومَعلومٌ أن الِاسْم المَوصول من الأَسْماء المُبهَمة.

فقوله: ﴿مِن مَّحَٰرِيبَ﴾ يقول المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أَبْنِيَةٍ مُرْتَفِعَةٍ يُصْعَدُ إِلَيْهَا بِدَرَجٍ]، فالمَحاريبُ: عِبارة عن أَبنِية مُرتَفِعة ذاتِ أسوار مَنيعة قال الله تعالى في داوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ﴾ [ص:٢١]، وأمَّا مِحراب المَسجِد فيُسمَّى طاقًا.

وقول المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿وَتَمَٰثِيلَ﴾ [جَمْعُ تِمْثَالٍ، وَهُوَ كُلُّ شَيْءٍ مَثَّلْتَهُ بِشَيْءٍ أَيْ: صُوَرٌ مِنْ نُحَاسٍ وَزُجَاجٍ وَرُخَامٍ وَلَمْ يَكُنِ اتِّخَاذُ الصُّوَرِ حَرَامًا فِي شَرِيعَتِهِ]، التَّماثيلُ: جَمْع تِمْثال وهو ما صُوِّر على مِثال شيءٍ آخَرَ، فكُلُّ ما صُوِّر على مِثال شيءٍ آخَرَ؛ فإنه يُقال: تِمْثال له.

وعلى هذا فيُمكِن أنَّ نَقول لَمْ صَوَّر صُورة شَجْرةٍ ونَحتَها من جِسْم نَقول له: إنَّ هذا تِمْثال للشَّجَرة، وكذلك نَقول لَمِن نَحَتَ خَشَبًا أو حَجَرًا على صورة حَيوان نَقول: إن هذا تِمْثالٌ.

والمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ جزَم بأن المُراد بالتَّماثيل ما كان تِمْثالًا لحَيَوان؛ ولهذا قال: أَوْ صُوَرًا. وكلُّ شَيْء مَثَّلْته بشيءٍ هذا أَصْلُ التِّمثال أو صُوَر النُّحاس وزُجاج ورُخام، والنُّحاس مَعروف، والزُّجاج أيضًا مَعروف، والرُّخام.

وأما قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَلَمْ يَكُنِ اتِّخَاذُ الصُّوَرِ حَرَامًا فِي شَرِيعَتِهِ] فهذا مَبنِيٌّ على أن المُراد بالتَّماثيل تَماثيلُ ما يَحرُم تَصويره كالحَيوان من إنسان وغيره، ولكن نَقول: إنَّ هذا لا يَلزَم أن يَكون المُراد بالتَّماثيل هي صُوَر الحَيوان، فمن الجائِز أن يَنحِتوا له مِمَّا ذُكِر من النُّحاس والزُّجاج والرُّخام، كأن يَنحِتوا له أشياءَ على صُوَر شجَر، ويُقال: إنَّ هذا تِمْثال.

ويُوجَد الآنَ مُجسَّمات يَجعَلونها على صُورة نَخْلة، وعلى صورة سَيْف، وعلى صورة قَصْر، وما أَشبَه ذلك، نَقول: هذا تِمْثال. ويُوجَد أيضًا مُجسَّمات على صورة حَيوان؛ أسَد أو جَمَل أو بَقَر أو ما أَشبَه ذلك هذا أيضًا تِمْثال.

فنَقول: إن كان قوله تعالى: ﴿مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ﴾ إنه عامٌّ لتِمْثال الحَيوان والأشجار وغيرها فنَحتاج حينئذٍ أنَّ نُجيب بما أَجاب به المُفَسِّر؛ وهو أن الصُّوَر في شَريعتهم ليست حرامًا، ولكن ما دامَ الأمر غير لازِمٍ، إِذْ مِنَ المُمكِن أن تَكون التماثيلُ التي يَأمُرهم بها تَماثيلَ أَشياءَ يَجوز تَصويرها فلا حاجةَ إلى هذا الجوابِ.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَجِفَانٍ﴾ جَمْعُ جَفْنَة ﴿كَٱلْجَوَابِ﴾ جَمْعُ جَابِيَةٍ وَهِيَ

حَوْضٌ كَبِيرٌ] والجَفْنة: هي الصَّحْفة التي يُوضَع فيها الطعام، ﴿كَالْجَوَابِ﴾ جَمْع جابِية، والجابِية: هي الحَـوْض الكبير، ومنه البِرْكَةُ تُسمَّى جابِية، حتى الآنَ يُسمُّون البِرَك الجوابِيَ، وهل الجِفان على ما تَقتَضيه الآية الكريمة جِفانٌ كبيرة واسِعة؟ يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ مُبيِّنًا سَعَتَها: [يَجْتَمِعُ عَلَى الجَفْنَةِ أَلْفُ رَجُلٍ يَأْكُلُونَ مِنْهَا]، وهذا قد يَكون واقِعًا وقد يَكون الأمر أَكبَرَ من هذا، وقد يَكون دونَ هذا.

المُهِمُّ: أنَّ هذه الجِفانَ بسَعَتها وكِبَرِها مِثْلُ الجوابي وهي الأحواض الكبيرة، يَعنِي: البِرَك.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ﴾ ثَابِتَاتٍ لَهَا قَوَائِمُ لَا تَتَحَرَّكُ عَنْ أَمَاكِنِهَا، تُتَّخَذُ مِنَ الْجِبَالِ بِالْيَمَنِ يُصْعَدُ إِلَيْهَا بِالسَّلَالِمِ].

قوله تعالى: ﴿وَقُدُورٍ﴾ جَمْع قِدْر، وهو ما يُطبَخ فيه الطعام.

قوله تعالى: ﴿رَّاسِيَـٰتٍ﴾ قال العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ: الراسِي الثابِت، وإنما كانت راسِيةً في الأرض لكِبَرِها، فهي لكِبَرِها لا يَستَطيعُ أحَدٌ أن يَتَناوَلها ويَقلِبَها، والعادةُ أن القُدور مَنقولةٌ مَقلَّبة، لكنَّ هذه لكِبَرِها وسَعَتها راسِية لا تَتحرَّك.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [لَهَا قَوَائِمُ] المُراد به: المَناصِب التي تُنصَب عليها يَعني: أَرجُلًا، يَقول رَحِمَهُ اللَّهُ: [تُتَّخَذُ مِنَ الْجِبَالِ بِالْيَمَنِ]، وهذا ليس بلازِم أنها مُتَّخَذة من الجِبال، وإن كانت القُدور قد تُتَّخَذ من النُّحاس والحَديد، وكذلك من الأَحْجار يُمكِن أن تُنحَت وتَكونَ قِدْرًا، ومُمكِنٌ أن تُجعَل طينًا يُتَّخَذ منه الفَخَّار؛ ولكن ليس بلازِم، يَعنِي: تُتَّخَذ من الحديد والنُّحَاس ومن الأحجار ومن غير ذلك.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [وَقُلْنَا: ﴿اعْمَلُوا﴾ يا ﴿آلَ دَاوُودَ﴾ بِطَاعَةِ اللهِ ﴿شُكْرًا﴾ لَهُ

عَلَى مَا آتَاكُمْ] أَفادَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ﴾ جُملة في مَحَلِّ نَصْب لقولٍ مَحذوف التقديرُ: [قُلْنَا:] ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ﴾، وأَمَّا ﴿ءَالَ دَاوُۥدَ﴾ فهي مَنصوبة بـ(يا) النِّداء المَحذوفة؛ أي: يا آلَ داودَ، وآل داودَ هنا ذُرِّيَّته وقَرابتُه؛ لأَنَّ الله تعالى أَنعَمَ على هذه القَبيلةِ؛ قبيلة داودَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بنِعَمٍ عَظيمة، أَنعَمَ على أبيهم وعلى ابنِهِ سُلَيْمانَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

وقوله: ﴿شُكۡرٗا﴾ أَفادَنا بتَقدير الشُّكْر لله تعالى على أن ﴿شُكۡرٗا﴾ مَفعولٌ مِنْ أَجْله وأَنَّ مَفعول ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ﴾ مَحذوف، تَقديرُه: بطاعة الله تعالى؛ يَعنِي: اعمَلوا بطاعة الله تعالى لأَجْل الشُّكْر لله تعالى، ويَحتَمل أن تَكون ﴿شُكۡرٗا﴾ مَفعولًا به لـ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ﴾؛ يَعنِي: اعمَلوا الشُّكْر، والشُّكْر هو: الطاعة، ولكن هذا الوَجْهَ نَسلَم فيه من التَّقدير، أمَّا على الوَجْه الأَوْل فإنه لا بُدَّ أن نُقدِّر مَفعول: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ﴾.

والشُّكْر عرَّفه العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ بأنه: القِيام بطاعة المُنعِم في القَلْب واللِّسان والجوارِح، أمَّا في القَلْب فأن تَعتَقِد بأن ما بِكَ من نِعمة فهي مِن الله تعالى، وأمَّا في اللِّسان بأن تُثنِيَ على الله تعالى بالنِّعمة، لا تَذكُر النِّعمة افتِخارًا بها على الناس، وأمَّا الجوارِح فأَنْ تكون بطاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيما يَختَصُّ بتِلكَ النِّعْمةِ أو بطاعته على سبيل العُموم.

والفَرْق بين هذ ا وهذا؛ إذا قُلْنا: أن تَقوم بطاعة الله فيما يَختَصُّ بهذه النِّعْمةِ، فإذا أَنعَمَ الله تعالى عليكَ بمال فشُكرُهُ الزكاةُ والإنفاق، وما أَشبهَ ذلك، فإذا عَصَيْت الله تعالى في غير ذلك لا يُقال: إنك لم تَقُمْ بشُكْر المال. أمَّا إذا قُلْنا: إن الشُّكْر هو أن تَقوم بطاعة الله تعالى فيما يَختَصُّ بهذه النِّعْمةِ وفي غيره؛ فإن الإنسان إذا أَنعم عليه بمالٍ وقام بحَقِّه على الوَجْه الكامِل، ولكنه يَعصِي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في أُمورٍ أخرى يُقال: إن هذا ليس بشاكِرٍ.

ولكن قد نَقول: إن الشُّكْر نَوْعان: شُكْر مُطلَق؛ وهو الذي يَقوم بطاعة المُنعِم فيما أَنعَم به عليه فيه وفي غيره، وشُكْر خاصٌّ مُقيَّد لهذه النِّعْمة المُعيَّنة؛ فيَكون هذا الشاكِرُ إذا قام بما يَجِب عليه في هذه النِّعْمةِ المُعيَّنة شاكِرًا، لكنه لا يُعطَى وَصْف الشَّكور، ونَظيرُ ذلك ما سبَقَ لنا في التَّوبة، أنَّ التَّوْبة تَصِحُّ من الذَّنْب مع الإصرار على غيره، لكن لا يَستَحِقُّ التائِبُ وَصْف التَّوْبة المُطلَق.

قال الله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ العامِل بطاعَتي شُكرًا لنِعْمتي، وقوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ﴾ خبَرٌ مُقدَّم، و﴿ٱلشَّكُورُ﴾ مُبتَدأٌ مُؤخَّر؛ لأن المَقصود الإِخْبار عن ﴿ٱلشَّكُورُ﴾ بأنه قليل، ويَكون تَقديرُ الآية: والشَّكورُ من عِبادي قليل.

وقوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ﴾ هو مُتعَلِّق بما بعده فلمَّا قُدِّم عليه صار في مَوضِع نَصْبٍ على الحال؛ يَعنِي: ﴿ٱلشَّكُورُ﴾ حال كونه من عباده ﴿وَقَلِيلٌ﴾ وتَعليل ذلك أن أكثَرَ بَني آدَمَ غيرُ شَكور، بل هم ضالُّون، فبَنو آدَمَ يَكون منهم تِسْعُ مئة وتِسعةٌ وتِسعون في النَّار وواحِدٌ في الجَنَّة، ولا شَكَّ أن واحِدًا إذا نُسِب إلى المِئة يَكون قليلًا.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مِّنْ عِبَادِيَ﴾ المُراد بالعُبودية هنا: العامَّة الشامِلة للكافِرين والمُؤمِنين.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: مِن قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ﴾ أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ سخَّر الجِنَّ لسُلَيْمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَعمَلون له ما يَشاءُ، وهذا لا يَتأَتَّى لأَحَدٍ من البَشَر، نعَمْ رُبَّما تَعمَل الجِنُّ لبعض البشَر أَشياءَ، لكن لا تَكون قائِمةً بما شاء.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: جواز البِناء العالي؛ لقوله تعالى: ﴿مِن مَّحَـٰرِيبَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: جواز التَّماثيـل، وهل يَشمَل التَّماثيل بالحيـوانات والأشجار والبِحار والأنهار؟

الجوابُ: على كلام المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَشـمَل؛ لأنه قال: هذا كان قَبْـلَ تَحريم الصُّوَر. وعلى الاحتِمال الثاني: لا يَشمَل؛ لأنَّ التَّماثيل تُطلَق على كلِّ ما كان مِثالًا على غيره، ولا يَلزَم أن تكون على صورةِ الحَيوان، فعلى رَأْيِ المُفَسِّر يَكونُ الحُكْم مَنسوخًا بشريعة النبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فيُستَفاد منه فائِدة وهي جواز النَّسْخ في الأحكام الشَّرْعيَّة، وعلى الاحتِمال الثاني: لا يَكون دالًّا على جواز تَماثيل الحيوانات.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: بَيان كثرة جُنود سُلَيْمان وكرَمه؛ لأن الجِفان كالجَوابي والقُدور راسِيات.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: وُجوب القِيام بشُكْر الله؛ لقوله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ والأَمْرُ في الأصل للوُجوب.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن الشاكِر على النِّعمة قليل؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ والمُراد بهذه الجُمْلةِ الحثُّ على الشُّكْر.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثبات العُبودية العامَّة الشامِلة؛ لقَوْله تعالى: ﴿مِّنْ عِبَادِىَ﴾ فإن المُراد بها العُبودية العامَّة الشامِلة.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ داودَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أبٌ لفَخِذٍ كامِل من بني إسرائيلَ؛ لقوله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ﴾ كما يُقال: بنو تَميمٍ، بنو زُهرةَ، وما أَشبَه ذلك.

• • ❁ • •

الآيــة (١٤)

﴿ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾ [سبأ:١٤].

قول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ﴾ أي: [عَلَى سُلَيْمَانَ] ﴿ ٱلْمَوْتَ ﴾ [أَيْ: مَاتَ].

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَضَيْنَا﴾ أي: قدَّرْنا عليه الموتَ فمات، والقَضاءُ هنا قَضاء قدَريٌّ، وقضاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نوعان: قدَريٌّ وشَرْعيٌّ، فهُنا ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ﴾ القَضاءُ قدَريٌّ، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ [الإسراء:٤] هذا أيضًا قضاءٌ قدَريٌّ، أي: قدَّرْنا عليهم ذلك، والثاني: قضاء شَرْعيٌّ، وهذا إذا تَعلَّق بما أمَرَ الله تعالى به فإنه قَضاء شَرْعيٌّ، كقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣]، فالقَضاء هنا قَضاءٌ شَرْعيٌّ، إذ لو كان قَضاءً قدرِيًّا لوقَع ولعبَد الناسُ الله تعالى كلُّهم بدون إشراكٍ، وهنا القَضاء قدَريٌّ ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ ﴾ أي: قدَّرْناه عليه فمات.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَمَكَثَ قَائِمًا عَلَى عَصَاهُ حَوْلًا مَيْتًا، وَالجِنُّ تَعْمَلَ تِلْكَ الْأَعْمَالَ الشَّاقَّـةَ عَلَى عَادَتِهَا لَا تَشْعُرُ بِمَوْتِهِ حَتَّى أَكَلَـتِ الْأَرَضَةُ عَصَاهُ فَخَرَّ مَيْتًا]

وكُلُّ هذا الذي ذكَره المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ واضِحٌ من الآية لَمَّا قضَى الله تعالى عليه الموت، بَقِي مُدَّة لا تَعلَم الجِنُّ أنه مات، وهم يَعمَلون دائِبين؛ لأنه قد كلَّفَهم بذلك، فمات وبَقِيَ مُتَّكِئًا على عَصاهُ.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بَقِيَ حَوْلًا] تَقيِيد هذا بالحَوْل ليس فيه دليلٌ، لكن لا شَكَّ أنه بَقِيَ مُدَّةً وهم يَعمَلون بين يدَيْه ولا يَدرون أنه مَيْت، أمَّا أن نُقيِّده بحول أو بأقلَّ أو بأكثرَ فهذا يَحتاج إلى دليل.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [إِنَّهُ مُتَّكِئٌ على عَصاهُ] فيه دليل مِن الآية؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾ وهذا لا يُمكِن إلَّا وهو مُتَّكِئ.

قال تعالى: ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ مَصدَر: أُرِضَتِ الخَشَبةُ، بالبِناء للمَفعول: أَكَلَتْها الأَرَضة، وكلِمة ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ هل المُراد بها الجِنْس أي: الدَّابَّة التي تَكون في الأرض، أو المُراد بها المَصدَر؟

الجوابُ: أن المُفَسِّر يَرَى أن المُراد بها المَصدر مَأخوذٌ من قوله: (أُرِضَتِ الخَشَبة)؛ يَعنِي: أَكَلَتْها الأَرَضة، يَعنِي: ما دلَّهم على مَوْته إلَّا الدابَّة التي تَأرِض الخَشَب، فعليه يَكون كلمة أَرْض مَصدَر: (أَرَض يَأرِض أَرْضًا) مثل (ضَرَبَ يَضرِبُ ضَرْبًا)، هذا تَقرير كلام المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وما قرَّره بعيدٌ من مَفهوم الآية؛ لأنَّك عندما تَفهَم ﴿إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ ما تَفهَم الذي قرَّره المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، بلِ الذي يَتبادَر إلى الذِّهْن أنَّ المُراد بالأَرْض الجِنْس، يَعنِي: إلا الدابَّة التي تَخرُج من الأرض.

وقوله تعالى: ﴿تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾.

فَإِنْ قِيلَ: هل تَأكُل الأَرْض أَجْساد الصالِحين؟

فالجوابُ: إنَّنا لا نَجزِم بذلك، ولكن قد يُعثَر على بعضهم لم تَأكُلْهمُ الأَرْضُ، والجَزْم لا يَكون إلَّا في الأنبياء فقَطْ.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ﴾ بِالْهَمْزِ وَتَرْكِهِ بِأَلِفٍ] يَعني فيها قِراءَتان: (مِنْسأَته)، القِراءة الثانية: اجعَلِ الهَمزة أَلِفًا أي: (مِنسَاتَهُ)؛ ولهذا قال: [بِالْهَمْزِ وَتَرْكِهِ]، ولكن إذا تَركناه يَكون أَلِفًا؛ لأنه يُنسَأ ويُطرَد ويُزجَر بها، كأن المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ يُريد أن يُبيِّن اشتِقاق هذه الكَلِمةِ، وأنها من النَّسَأ، أي: الطَّرْد والزَّجْر، فإن الإنسان يَزجُر بعَصاه بحَزِّها على مَن يُوجِّه إليه الخِطاب ويَطرُد بها بالضَّرْب، وهذا يَدُلُّ على أن الكلِمة عرَبيَّة.

ولكن بعض المُفسِّرين يَقولون: إن الكلِمة غيرُ عرَبية، وإنها من الكلام الذي عُـرِّب، وإذا كان من الكلام المُعرَّب فإنه لا يُشتَقُّ لها من العربيـة، فكُلُّ كلِمة لها اشتِقاق في العربية فإنها تَكون عربية، وعلى كُلِّ حال: فالخُلْف في هذا سَهْل.

المُهِمُّ: أن المِنسَأَة كلِمةٌ واحِدة، وهي [العَصَا يُطْرَدُ] بها الشيء [وَيُزْجَرُ بِهَا].

وقوله: ﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾ [مَيْتًا] ﴿تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ﴾ الجُمْلة كما تُشاهِدون جُمْلة شَرْطية، وأداة الشَّرْط فيها (لَمَّا) وقد سبَق لنا أن (لَمَّا) تَأتِي لعِدَّة مَعانٍ: تَكون شَرْطية، وتَكون للنَّفْي، وتَكون بمَعنَى (إلَّا)، والرابع أن تَكون ظَرْفًا بمعنى (حين)، وهُنا استُعمِلت شَرْطية بدليل أنه جاء بعدَها شَرْطٌ، وجوابُه: ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ﴾، ونافِية كقوله تعالى: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ [ص:٨]، أي: لم يَذوقوا عَذابي، وتَأتي بمَعنَى (إلَّا) كما في قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق:٤]، أي: إلَّا عليها حافِظ، وتَأتِي بمَعنى (حين) أي: ظَرْفًا، مثل أن تَقول: أَكرَمْتَنِي لَمَّا زُرْتُك. أي: حين زُرْتُكَ، إِذَنْ لها أربعةُ مَعانٍ، أو تَأتي على أربَعةِ أَوْجُهٍ.

وقوله تعالى: ﴿تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾: ﴿تَبَيَّنَتِ﴾ أي: عَلِمَت وبان لها، وفسَّرها المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: [انْكَشَفَ لَهُمْ]، (أنْ) مُخفَّفة من الثَّقيلة؛ أي: أنَّهم (لو كانوا يَعلمون الغيبَ)، وإذا خُفِّفت الثَّقيلة وجَب حَذْف اسْمِها، وكان خَبَرُها جملةً فهُنا الخبَرُ: ﴿لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ وإعرابُها أن تَقول: (أن) مُخفَّفة من الثَّقيلة، واسمُها ضمير الشَّأْن مُستَتِر، وجُملة ﴿لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ﴾ في مَحَلِّ رَفْع خبَرِها.

وفي قول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَنَّهُمْ] إشارة إلى ما سبَق أن قُلْنا: أنَّ ضمير الشَّأْن يَنبَغي أن يَكون مُناسِبًا للمَقام، فقد يَكون مُفرَدًا، وقد يَكون جَمْعًا، وقد يَكون للغائِب، وقد يَكون للمُخاطَب، خِلافًا لما عليه أكثَرُ النَّحوِيِّين حيث يُقدِّرونه مُفرَدًا للغائِب، ويَقولون: إنه أي: الحالُ ﴿لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟﴾.

قوله تعالى: ﴿لَّوْ﴾ شَرْطية، وجوابُها ﴿مَا لَبِثُوا۟﴾، و﴿لَّوْ﴾ تَأتي شَرْطية، وتَأْتي مَصدَرية، وتَأتي بمَعنى: وَدَّ كذا، فتَأتي شَرْطية مثل هذه الآيةِ، ومثل أن تَقول: (لو زُرْتَني لأَكْرَمْتُكَ) وتَأتِي مَصدَرية إذا جاءت بعد (وَدَّ)، كقوله تعالى: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم:٩] أي: أن تُدهِنوا، وهذا مَعناها فقَطْ، وهنا هي شَرْطية وفِعْل الشَّرْط فيها قوله تعالى: ﴿كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ وجوابُه: ﴿مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾.

وقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ﴾ [وَمِنْهُ مَا غَابَ عَنْهُمْ مِنْ مَوْتِ سُلَيْمَانَ ﴿مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ العَمَلِ الشَّاقِّ لَهُمْ لِظَنِّهِمْ حَيَاتَهُ خِلَافَ ظَنِّهِمْ عِلْمَ الْغَيْبِ]، وهذا واضِح؛ لأنهم لو كانوا يَعلَمون الغيبَ لعَلِموا أنَّه مات قبل أن يَخِرَّ بسبَب تَآكُل عَصاهُ، ولعلهم كانوا يَظُنُّون أو يَدَّعون أنهم كانوا يَعلَمون

الغيبَ، فأَراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يُبيِّن حالَهم لهم ولغيرهم، وأنهم لا يَعلَمون الغيب، مع أن الغَيْب الذي حصَل هنا ليس غَيْبًا مُطلَقًا، ولكنه غَيْبٌ نِسْبِيٌّ، إذ إن مَن كان قريبًا جِدًّا من سُلَيْمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فقد يَعرِف أنه مات، يَقول المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [وَمِنْهُ مَا غَابَ عَنْهُمْ مِنْ مَوْتِ سُلَيْمَانَ].

وقوله تعالى: ﴿مَا لَبِثُوا۟﴾ أي: ما بقُوا، ﴿فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ الذي أَلحَق بهم المَهانة والذُّلَّ، وقال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [الشَّاقِّ لِظَنِّهِمْ حَيَاتَهُ خِلَافَ ظَنِّهِمْ عِلْمَ الْغَيْبِ] يَعني: كانوا يَظُنُّون أنهم يَعلَمون الغَيْب، فلمَّا خرَّ مَيْتًا تَبيَّن لهم أنهم لا يَعلَمون الغَيْب قال: [وَعُلِمَ كَوْنُهُ سَنَةً بِحِسَابِ مَا أَكَلَتْهُ الْأَرَضَةُ مِنَ الْعَصَا بَعْدَ مَوْتِهِ يَوْمًا وَلَيْلَةً مَثَلًا]، هذا جوابٌ عمَّا قيل: إنه بقِيَ سَنَةً وهو مَيْت ولم يُعلَم به، يَعني: أنه لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ما الذي أَعلَمَكم بأنه سَنَة؟ قال: علِمْنا ذلك بالحِساب، لأننا حَسَبْنا ما أَكَلَتْه الأَرَض يومًا وليلة من العصا فقِسْنا عليه ما مضى؛ فمَثَلًا إذا كانت تَأكُل في اليوم والليلة مثلًا (سَنْتيمِتر) عرَفْنا أنها تَأكُل في السَّنَة ثلاثَ مِئة وسِتِّين (سَنْتِيمِترًا) وعرَفنا هذا من طول العَصا، ولكن هذا في الحقيقة ليس مُتعَيِّنًا، إذ قد تَأكُل اليومَ أكثَرَ مِمَّا تَأكُله بالأَمْس أو بالعكس، وحتى نَقول أيضًا: من الذي قال: إنها أَكَلَتْ في اليوم والليلة هذا المِقدارَ حتى عُرِف به ما مَضَى. يَحتاج إلى دليل؛ ولهذا الصوابُ أنَّ ما سبَق أن قُلْناه: بأنه لا حاجةَ لنا إلى تَقدير المُدَّة التي لَبِثها سُلَيْمانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأنَّ مِثْل هذه الأُمورِ لا يُركَن إليها ولا يُعتَمَد إلَّا إذا جاءَت عن الشارِع عن النبيِّ ﷺ، أو جاءَت في كِتاب الله تعالى، وأمَّا ما يَأتي عن بني إسرائيلَ في مثل هذه الأُمورِ فإننا نَقِف فيه لا نُصدِّق ولا نُكذِّب.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ الموت غاية كُلِّ حَيٍّ وإن عَظُم مُلْكه، فإن سُلَيْمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كان من أعظَمِ المُلوك مُلْكًا ومع ذلك لم يُنقِذْه مُلكُه من الموت.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الأمور كُلَّها إلى الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَوْصوف بالعظَمة والجلال والكَمال؛ لأن كلِمة: ﴿قَضَيْنَا﴾ تَدُلُّ إمَّا على التَّعدُّد أو على التَّعظيم، والتَّعدُّد هنا مُمتَنِع، فتَعيَّن أن تكون للتعظيم.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الشيءَ الحَقير قد يَفعَل شيئًا عظيمًا كبيرًا، من قوله تعالى: ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ وهذا شيء جَرَتْ به سُنَّة الله أن الشيء قد يَكون حَقيرًا لكن يَترَتَّب عليه أمرٌ عظيم، فنحن الآنَ لا نَعرِف كيف نَقبُر مَوْتانا إلَّا بدَلالة الغُراب، وأيضًا جميعُ المباني الهَنْدسية الفَخْمة الجميلة عُرِفت من صَنيع النَّحْل، أيضًا كلُّ ما حدَث من الآلات التي يُحدِثها الناس الآنَ تَجِدهم يُشبِّهونها بمَخلوقات الله؛ كالطائِرات وغيرها، وبهذا نَعرِف أنَّ الأشياءَ الحَقيرةَ قد تَكون مُفيدةً للإنسان فائِدةً عَظيمةً، ويَترتَّب عليها أُمورٌ خطيرة.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ إضافة الشيء إلى سبَبه المعلوم جائِزةٌ؛ لقوله تعالى: ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ فأَضاف الدَّلالة إلى دابَّة الأرض، مع أن الدابَّة هل هي أكَلَتِ العصا لأَجْل أن تَدُلَّ الجِنَّ على موت سُلَيْمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؟

الجوابُ: لا؛ لكنها سبَب، فإضافة الشيء إلى سبَبِه المَعلومِ شَرْعًا أو حِسًّا جائِزٌ، حتى وإن لم يُذكَر فيها لفظُ الجلالة، مثلًا إذا قُلْت: لولا فُلان لهَلَكْتُ. وصحيح أن

فُلانًا هو الذي أَنقَذَكَ، فهذا جائِزٌ إذا لم تَعتَقِد أن هذا السببَ هو الفاعِلُ الوحيدُ، والمَمنوع أن تُضيف الشيء إلى سبَبِه مع الله تعالى مَقرونًا بالواو، أو تُضيف الشيء إلى سبَبٍ غيرِ مَعلوم سبَبِيَّتُه لا من الشَّرْع ولا من الحِسِّ؛ لأن هذا يَكون من باب الأَوْهام والتَّخيُّلات.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: التحذير من دابَّة الأَرْض ما دامَ أنها تَأكُل الأَخْشاب وتَأكُل هذه الأشياءَ فاحْذَروا منها، وكم من إنسان أَفسَدَتْ عليه دابَّةُ الأرض مَكتبَتَه القَيِّمة التي تُساوِي شيئًا كثيرًا؛ ولهذا انتبِهوا لا تَأكُل الأرضة عليكم كُتُبكم.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إضافة الفِعْل أو إضافة الشيءِ إلى مَن لم يَقُم به باختِياره؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾ فالخُرور قد يُضاف إلى الفاعِل بالاختيار، وقد يُضاف إلى الفاعِل بغير الاختِيار، فتَقول: (خَرَّ الماءُ)، وتَقول: (خرَّ مَيْتًا)، وقال الله: ﴿خَرُّواْ سُجَّدًا﴾، ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾، يَخِرُّون للأَذْقان يَبكون، هذا بالاختيار.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن الجِنَّ لا يَعلَمون الغَيْب، والدَّلالةُ على ذلك واضِحة: قولُه تعالى: ﴿لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أن الأُمورَ الحِسِّيَّة الواقِعة أدِلَّة بُرهانِية، وهذه الفائِدة مَعناها الاستِدْلالُ بالأمور الحِسِّيَّة؛ لأنَّ الله تعالى استَدَلَّ على كونهم لا يَعلَمون الغيْب بأنهم بَقُوا مُعذَّبين بما يَعمَلونه من الأعمال الشاقَّة، فلك أن تَستَدِلَّ على الأمور المَعقولة بالأمور المَحسوسة.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أن الجِنَّ ذوو عُقول؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾ فقَدْ أَعطاهم الله تعالى عُقولًا يَهتَدون بها إلى مَصالِح دِينهم ودُنياهم.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: تَسمية الأعمال الشاقَّة عذابًا؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَا

لَبِثُواْ فِي ٱلْعَذَابِ﴾ مع أن سُلَيْمانَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لـم يَجْعَلْهم يَعمَلون له ما يَشاء عُقوبةً لهم، ولكنه تَكليف، وبهذا نَعرِفُ أنَّ العذاب قد يُطلَق على ما ليس بعُقوبة؛ كما في قوله ﷺ: «إِنَّ السَّفَرَ قِطْعَةٌ مِنَ الْعَذَابِ»[1].

• • ۞ • •

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب السفر قطعة من العذاب، رقم (١٨٠٤)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب السفر قطعة من العذاب، رقم (١٩٢٧)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الآيـة (١٥)

• ● ∽ ● •

❁ قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سبأ:١٥].

• ● ∽ ● •

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾ هذه الجُملةُ مُؤكَّدةٌ بثلاثة مُؤكِّدات وهي: اللَّامُ و(قَدْ) والقَسَمُ المُقدَّر؛ لأنَّ هذا على تَقدير القَسَم أي: (والله لَقَدْ كانَ لِسَبَأ) و﴿كَانَ﴾ هنا تَدُلُّ على مُجرَّد الحُدوث؛ أي: أنها مَسلوبة الدَّلالة على الزمَن، فإن هذه الآيَةَ باقِية حتى الآنَ، كلُّ مَن قرَأ خبرَها.

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾ قبيلة سُمِّيت باسْمِ جَدٍّ لهم من العرَب و(سَبأٌ) في الأصل اسْمُ رجُل يُسمَّى (سَبأ)، وكان من (قَحطانَ)، واختلَف المُؤرِّخون النَّسَّابون في (قَحطانَ) هل هو من العرَب العارِبة أو من العرَب المُستَعرِبة، والمَشهور أنهم من العرَب العارِبة؛ الذين قبلَ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، لكن رَوى البُخارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّ عَلَى قَبِيلَتَيْنِ مِنَ الْأَنْصارِ كَانُوا يَتَرَامَوْنَ بِالنَّبْلِ، فَقَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ: «ارْمُوا بَنِي إِسْمَاعِيلَ فَإِنَّ أَبَاكُمْ كَانَ رَامِيًا»(١)، وهذا يَدُلُّ على أنهم عرَب مُستَعرِبة؛ لأنَّ الأنصار مَعروفٌ أنهم الأَوْس والخَزْرج كلُّهم من قبائل اليَمَن من قحطانَ، نزَلوا وتَفرَّقوا في البلاد بعد الغرَق ونزَلوا المدينة، وعلى هذا فيَكون ظاهِرُ حديث

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب التحريض على الرمي، رقم (٢٨٩٩)، من حديث سلمة بن الأكوع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

البُخارِيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ قحطانَ كلهم من بني إسماعيلَ.

والحاصِلُ: أن العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ في النَّسَب يُقسِّمون العرَب إلى قِسْمين: ما كان قبل إبراهيمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فهُمْ عرَب عارِبة، وما كان من بعده من ذُرِّيَّته فهم عرَب مُستَعرِبة.

المُهِمُّ: أنَّ (سَبَأ) اسْمٌ لرجُلٍ كان له أولاد كثيرون جاء في الحديث أنهم عشَرة بَقِيَ منهم سِتَّة في اليَمَن وأربعة في الشام، وانتَشَروا في الأرض وكثُروا، وفيها قِراءَتان يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِالصَّرْفِ وَعَدَمِهِ] ﴿لِسَبَإٍ﴾ هذا الصَّرْفُ، عدَمُه: (لِسَبَأَ).

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فِى مَسْكَنِهِمْ﴾ فِي الْيَمَنِ]، ﴿ءَايَةٌ﴾ يقول: [﴿فِى مَسَٰكِنِهِمْ﴾] أَتَى بقِراءة الجَمْع، ولم أَرَهُ ذكَرَها بقِراءة الإِفْراد، وفيها قِراءَتان سَبْعيَّتان، قِراءة الإفراد: ﴿فِى مَسْكَنِهِمْ﴾، وقِراءة الجَمْع: ﴿فِى مَسَٰكِنِهِمْ﴾، ولا خِلاف بينهما في المَعنَى؛ لأنَّ (مَسكَن) مُفرَد، والمُفرَد المُضاف يَعُمُّ ويَشمَل كُلَّ ما يَدخُل تحت هذا المَعنَى، مِثالُه قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل:١٨]، فهنا (نِعْمَة) مُفرَد وقال فيها: ﴿لَا تُحْصُوهَآ﴾ إِذَنْ هي كثيرة، فـ(مَسْكَن) من حيث المَعنَى بمَعنَى (مَساكِن)؛ لأنه مُفرَد مُضاف، والمُفرَد المُضاف يَعُمُّ.

إِذَنْ: هُناكَ قِراءَتان سَبْعِيَّتان: ﴿مَسَٰكِنِهِمْ﴾ و﴿مَسْكَنِهِمْ﴾، والمَسكَن ما يَسكُنه الإنسان فيَسكُن فيه ويَطمَئِنُّ، كالبُيوت والحدائِق والبَساتين وما إلى ذلك.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ءَايَةٌ﴾ بمَعنَى: علامة، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ [يس:٤١]، ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء:١٩٧]، فالآية بمَعنى العلامة الدالَّةِ على الشيء، وهذه الآيةُ دالَّة على قُدْرةِ الله، وعلى نِعْمته وعلى حِكْمته في النِّهاية، و﴿ءَايَةٌ﴾ من حيث الإِعْراب

اسمُ (كانَ) مُؤَخَّر، و﴿لِسَبَإٍ﴾ خبرٌ مُقدَّم.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ءَايَةٌ﴾ دَالَّةٌ عَلَى قُدْرَةِ الله تَعَالَى] وعلى إِحْسانه وإِنْعامه وعلى حِكْمته في النِّهاية، لأنَّ هذه المَساكِنَ -كما سيأتي- دُمِّرَتْ بسبَب إِعْراضِهم.

وقوله تعالى: ﴿جَنَّتَانِ﴾ بدَلٌ مِن ﴿ءَايَةٌ﴾، ويجوز أن تكون عَطْفَ بيانٍ؛ لأنها بيَّنَتِ الآيَةَ ووَضَّحَتْها، والجَنَّة هي البُستان الكثيرُ الأشجارِ، سُمِّيت بذلك لأنها تَجُنُّ مَن فيها، أي: تَستُرُه، وقد علِمنا سابِقًا أن هذه المادَّةَ؛ وهي الجيم والنون تَدور على مَعنَى الاستِتار والخفاء.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ يَقول: [عَنْ يَمِينِ وَادِيهِمْ وَشِمَالِهِ]، وكان هذا الوادِي بين الجِبال، وكان على أَطْراف هذا الوادِي هذه الجِنانُ العَظيمة، من الأَشْجار المُتنوِّعة الكثيرة الثِّمار، وكانوا في أَحسَنِ ما يَكون من الرَّغَد والهَناء والأَمْن.

وقوله تعالى: ﴿عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ يَعنِي: إذا كانت على يَمين الوادِي وشِماله صار لها أيضًا مَنظَر بَديع جذَّاب.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿جَنَّتَانِ﴾ ليس المُرادُ (جنَّتانِ) يَعني: بُسْتانَيْنِ؛ واحدٌ يَمينًا وواحِدٌ شِمالًا، المُراد بَساتِينُ، لكن قال العُلَماءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: لَمَّا كانت هذه البَساتِينُ مُتَّصِلة صارت كأنها بُسْتان واحِد، وللمَعلوم لو كان بُستان وبُستان ما هي بآية يَعنِي أنها بَسيطة، لكنها بَساتِينُ مُتَّصِلة بعضُها ببعض على يمين الوادِي وشِمال الوادِي، فلَمَّا كانت مُتَّصِلة بعضُها ببَعْضٍ صارت كأنها جَنَّةٌ واحِدة عن اليمين، وجَنَّةٌ واحِدةٌ عن الشِّمال.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ [عَلَى مَا رَزَقَكُمْ

مِنَ النِّعْمَةِ فِي أَرْضِ سَبَأٍ] إلى آخِره، يَعنِي أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جعَل في هذه الجَنَّتَيْنِ خيرًا كثيرًا، وجعَل تَناوُلَها مُيَسَّرًا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾ ممَّا يَدُلُّ على أن الأمر مُيسَّر، كما لو قدَّمتُ لكَ طعامًا وقُلْتُ: كُلْ، إِذَنْ فهذه الجَنَّاتُ تُعطِي ثِمارَها بدون مَشَقَّة، بل باليُسْر والسُّهولة.

وقوله تعالى: ﴿مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾ الرِّزْق بمَعنى: العَطاء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ [النساء:٨].

وقوله تعالى: ﴿رَبِّكُمْ﴾ الرَّبُّ مَعْناه: الخالِق المالِك المُدبِّر، والرُّبوبية هنا رُبوبية خاصَّة لعِنايته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بهم بما أعطاهم في هذه الجَنَّاتِ.

وقوله تعالى: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ﴾ هذا هو الذي يُطالِبون به جزاءً أو إظهارًا لنِعْمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عليهم، والشُّكْر: يَتعلَّق بالقَلْب واللِّسان والجوارِح؛ يَعنِي: فاعترِفوا بأنَّ هذه النِّعْمةَ من الله تعالى، وأَثْنُوا على الله تعالى بها، وقُوموا بجوارِحِكم بطاعته حتى تُؤدُّوا الشُّكْر على الوجه المَطلوب منكم، واشْكُروا له على ما رزَقَكم من النِّعْمة في أرض سَبَأٍ.

وقوله تعالى: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ﴾ أحيانًا تَتعدَّى (شكَرَ) بنَفْسها فيُقال: شكَرْت الله تعالى. ويُقال: شكَرْت له. فهي من الأفعال التي جاءت في اللغة العربية لازِمةً ومُتَعدِّيَةً، وتَكون لازِمة إذا جاء حَرْفُ الجَرِّ له، وتَكون مُتعدِّية إذا لم يَأتِ حَرْف الجَرِّ، فإذا قُلْت: شكَرْتُ الله تعالى. صارَت مُتَعدِّية، وإذا قلت: شَكَرْتُ لله تعالى. صارَت لازِمةً.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ إعرابها: خبَرٌ لمبتدأ محذوف، والتَّقدير: هذه بَلْدة طَيِّبة، أو [هي بَلْدة طيِّبة، ليس فيها سِباع ولا بَعوضة ولا ذُبابة ولا برغوث

ولا عَقْرب ولا حَيَّة، ويَمُرُّ الغريب فيها وفي ثِيابه قَملٌ فيَموت؛ لطِيب هَوائِها] هكذا قال المفسِّر؛ وإنما نَقول: هي بلدةٌ طيِّبةٌ، أمَّا كون الغريب يَأتي من البَرِّ وفي ثِيابه القَمْل فيَموت القَمْل لطِيب هوائِها.

فنَقول: الله تعالى أَعلَمُ. لكن نَقول: لا شَكَّ أن وَصْف الله تعالى إيَّاها بالطَّيِّبة أنها من أحسَن البِلاد في هوائِها وفي قُرِّها وفي حَرِّها، ليس في الحَرِّ الشديد ولا القُرِّ القارِس، وليس فيها عُفونة الهَواء والماء وما أَشبَهَ ذلك، فخُذْ بما شِئْت من طِيب المَسكَن في كل ما يُسمَّى طِيبًا.

وقوله تعالى: ﴿وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ يَعنِي: يَقول: والله ربٌّ غَفور، غَفور للذُّنوب، فمَنَّ الله تعالى عليهم بنِعْمَتَيْن: نِعمة السكَن وطِيبِه، ونِعمة المَغفِرة، فيَكون في نِعْمة المَغفِرة السلامةُ من الآثام وعُقوباتها في الآخِرة، وفي البَلْدة الطيِّبة السلامةُ من الآفات في الدنيا.

و(الغَفور) صِيغة مُبالَغة، واسْمُ الفاعِل منها (غافِر)، وهي مَأخوذة من (الغَفْر) بمَعنى السَّتْر مع الوِقاية، ومنه قولهم: (المِغْفَر) الذي يَلبَسه الإنسان؛ ليَتَّقِيَ به السِّهام في الحرب، ففيه تَغطية وسَتْر، وفيه أيضًا وِقاية، وهكذا (مَغفِرة الذُّنوب) فإنَّ معناه أنَّ الله تعالى يَستُر عليك الذَّنْب ويَقيك عُقوبته.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ﴾ دليلٌ على استِعمال التأكيد في الأُمور الهامَّة؛ وإن لم يَكُن المُخاطَب مُنكِرًا أو مُتَرَدِّدًا، تُؤخَذ من تأكيد هذه القِصَّة في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾؛ لأن التَّأكيد كما نَعلَم إنما يَجِب

في مُخاطَبة المُنكِر، ويَحسُن في مُخاطَبة المُتَرَدِّد، ويَكون على خِلاف البَلاغة في ما عدا ذلك، هذا هو المَعروفُ عند عُلَماء البَلاغة، ولكن بتَأمُّل ما ورَدَ في القرآن الكريم نَجِد أنَّ الأمور الهامَّة وإن خُوطِب بها مَن لا يُنكِرها أو يَتَردَّد فيها نَجِد أنَّ الله تعالى يُؤكِّدها، كما في هذه القِصَّةِ وغيرها.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: هذه الآيةُ العَظيمة الدالَّة على قُدْرة الله تعالى وحِكْمته، وهي قِصَّتهم على سبيل العُموم أنهم مُنعَّمُون في دِيارهم وبَساتِينِهم وقُصورهم وغير ذلك فلمَّا أَعرَضوا انقلَبَتِ الحال، ففيها عِبْرة وآيةٌ من وُجوهٍ كثيرة، آيةٌ دالَّة على قُدْرة الله تعالى، آيةٌ يَعنِي: عِبْرة لَمِن عَصَى الله، عِبْرة لمَن أَطاع الله تعالى، آيةٌ دالَّةٌ على حِكْمة الله تعالى.

فبالتَّأمُّل لهذه الآيةِ تَجِد فيها أصنافًا وأنواعًا من الآيات، فهي آية دالَّةٌ على قُدْرة الله تعالى، حيث خلَقَ لهم هذه البَساتينَ العَظيمة ثُمَّ أَبدَلها بأُخرى لا تُساوِيها بشيء دالَّةٌ على حِكمته؛ حيث أَعطاهم ذلك الخيرَ حين كانوا مُقبِلين على الله تعالى، وسَلَبهم إيَّاه حين أَعرَضوا واستكْبَروا عن طاعته، آيةٌ للمُعتَبِرين من أهل المَعاصي؛ فإن فيها تَحذيرًا لهم من أن تَزول نِعْمة الله تعالى عليهم لسبب مَعاصيهم، آيةٌ للطائِعين حيث يَعتَبِرون بها بأنهم ما داموا على طاعة الله تعالى فإن نِعْمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تُدَرُّ عليهم، هذه أَرْبعة أَوْجُهٍ من كونها آيةً.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ هذا الجَنَّاتِ تُؤتِي أُكُلَها على وَجْهٍ واسِع؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: وُجوبُ الشُّكْر لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لقوله تعالى: ﴿وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ والشُّكْر واجِب عَقْلًا كما هو واجِب شَرْعًا، أمَّا وُجوبه الشَّرْعيُّ فالآيات بالأَمْر به

كثيرةٌ، وأمَّا وجـوبه العَقْليُّ فلأَنَّ العقل الصريح يَقتَضي أنَّ كلَّ مَن أَحـسَن إليك فإنك تَشـكُره على ذلك، ومَن لا يَشـكُر الناس لا يَشكُر الله تعالى، يَعنِي: كل أَحَد يَرَى أنه من الخَطَأ أن يُسدِيَ إليك إنسانٌ ما يُسدَى مِن الخَيْر ثُمَّ تَتنكَّر له، ولا تَقوم بشُكْره، كُلُّنا يَعرِف أن هذا خطَأ، وأن الواجِب أن تَشكُر.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ بِلاد الله عَزَّوَجَلَّ تَنقَسِم إلى طَيِّب وخَبيث؛ لقوله تعالى: ﴿بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ﴾ وما نوعُ الطِّيب في هذه البَلدةِ؟ هل هو طِيب الأَرْض، أو طِيب الهَواء، أو طِيب الثِّمار؟

الجواب: يَعُمُّ كُلَّ ذلك، قال الله تعالى: ﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدٗاۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَشۡكُرُونَ﴾ [الأعراف:٥٨].

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثبات رُبوبية الله ومَغفِرته، في قوله تعالى: ﴿وَرَبٌّ غَفُورٞ﴾.

• • ❁ • •

الآية (١٦)

• قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ [سبأ:١٦].

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿فَأَعْرَضُوا۟﴾ [عَنْ شُكْرِهِ وَكَفَرُوا] الفاء هنا عاطِفة؛ يَعنِي: أنهم مع هذه النِّعَم؛ جَنَّاتٍ وبَساتينَ عَظيمةٍ وبلَدٍ طَيِّب ومَغفِرةٍ للذُّنوب إذا قاموا بطاعة الله، قال تعالى: ﴿فَأَعْرَضُوا۟﴾ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَعْرَضُوا عَنْ شُكْرِهِ وَكَفَرُوا]، فأَعرَضوا عن الشُّكْر وقابَلوا هذه النِّعْمةَ بالكُفْر فماذا كانت عاقِبَتُهم؟

قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾ والفاءُ هنا عاطِفة وتُفيد السببية أيضًا؛ أي: فبِسَبب إِعْراضهم أَرسَلْنا عليهم سَيْل العرِم، وهذه سُنَّة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في خَلْقه كما قال الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل:١١٢]، هؤلاء أَعرَضوا فدمَّر الله تعالى دِيارهم.

وقوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾ [جَمْعُ عَرِمَةٍ، وَهُوَ مَا يُمْسِكُ المَاءَ مِنْ إِنَاءٍ وَغَيْرِهِ إِلَى وَقْتِ حَاجَتِهِ، أَيْ: سَيْلَ وَادِيهِمُ المَمْسُوكِ بِمَا ذُكِرَ، فَأَغْرَقَ جَنَّتَيْهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ].

﴿سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾، العَرِم بمَعنَى: السَّدِّ، يَعنِي أنَّ هذا السَّيْل مَنسوب إلى السدِّ، أو بمعنى: سَيْل العرِم، من باب إضافة الشيء إلى صِفَته، أيِ: السَّيْل العارِم الجارِف

الذي يُتْلِف كلَّ ما مَرَّ عليه، والمعنى: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أرسَل عليهم سَيْلًا عظيمًا، وذلك بفَساد السَّدِّ الذي جعَلوه بين هذا الجِبالِ.

وكان هذا السدُّ المَنيعُ تَجتَمِع فيه السُّيول وتَمتَصُّها الأرض وتَخرُج في العُيون، فلَمَّا تَصدَّع هذا السدُّ جرَتِ المِياهُ بغير تقدير، وذلك بقُدرةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فقال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾.

ويَقول: ﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ﴾ الجَنَّتان السابِقتان كُلُّها ثِمار طَيِّب يُؤكَل ويُنتَفَع به بالبيع والشراء وغيرِ ذلك، أمَّا البَدَل فيَقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ﴾.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿ذَوَاتَىْ﴾ [تَثْنِيَةُ ذَوَاتٍ، مُفْرَدٍ عَلَى الْأَصْلِ]، وهو في الأصل (ذات) المُفرَد، و(ذوات) للجَمْع، فثَنَّى الجَمْع وصارَت ﴿ذَوَاتَىْ أُكُلٍ﴾ ويُمكِن أن يُقال خِلافُ كلام المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ فيُقال: إن الأصل (ذات)، لكن لَمَّا ثُنِّيَ عادت الواوُ فصارت (ذَواتَيْ)، ومَعنَى (ذَواتَيْ) أي: صاحِبَتَيْ؛ لأنَّ (ذات) بمَعنَى: صاحِبة، قال الله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ [البروج:١]، أي: صاحِبة البُروج.

وقوله تعالى: ﴿جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مُرٍّ بَشِعٍ بِإِضَافَةِ أُكُلٍ بِمَعْنَى: مَأْكُولٍ وَتَرْكِهَا، وَيُعْطَفُ عَلَيْهِ] ﴿وَأَثْلٍ﴾؛ يَعني أن فيها قِراءَتَيْن: (ذَواتَيْ أُكُلِ خَمْطٍ) هذِي الإضافةُ، وتَرْكُها: ﴿ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ أمَّا الإضافة واضِح، (ذَواتَيْ أُكُلِ خَمْطٍ) يَعنِي أنها الأُكُل يُخمَط خَمطًا، وهو شَجَر الأراك؛ كما فسَّره بذلك ابنُ عباس[1] رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، والأَراك هي مَساوِيك لها أَوراقٌ بَسيطة جِدًّا، وليست بذات اللذيذة؛ ولهذا يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مُرٍّ بَشِعٍ] بدَل الفَواكه والخُضَر

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٩/ ٢٥٥).

والزروع وغيرها، ويَقول: ﴿أُكُلٍ﴾ بمَعنَى: مَأكول، يَعني: ذواتَيْ مَأكولٍ يُخمَطُ خَمطًا ﴿وَأَثْلٍ﴾ بدَل الأشجار المُثمِرة البَهيجة صار بدَلها أَثْل، والأَثْل بعضهم قال: هو الطَّرْفاء، والصحيح أنه غير الطَّرْفاء؛ لأن الطَّرْفا تكون صغيرة ما تكبُر والأثْل معروف.

قوله تعالى: ﴿وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ هنا قال: شيءٍ من سِدْر. وهُناك قال: خَمْط وأَثْل؛ لأن السِّدْر أَحسَنُ هذه الأنواعِ الثلاثة، ولم يُعطَوْا منه إلَّا الشيءَ القليلَ شيء مِن سِدْر، وأيضًا قليل مع أنَّ كلِمة: ﴿وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ﴾ تَدُلُّ على القِلَّة، لكنها أُكِّدت هذه القِلَّةُ بقوله تعالى: ﴿قَلِيلٍ﴾.

الخُلاصةُ: أنَّ هؤلاء لَمَّا أَعرَضوا ولم يَقوموا بشُكْر الله أَرسَل الله عليهمُ السَّيْل، فأَغرَق أموالهم وهدَّم بِناءَهم، وأَبدَلهم بهاتَيْنِ الجَنَّتَينِ جَنَّتَينِ لا يُساوِيان ولا يُقارِبان ما سبَق، ذواتَيْ أُكُل ليس بالكثير خَمْطٍ، والمُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: إنَّه [مُرٌّ بَشِعٌ] ﴿وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ بدَل تِلكَ الجَنَّاتِ العَظيمة المُفيدة النافِعة.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بَيان حال هَؤلاء القَوْمِ أنهم بدَّلوا نِعْمة الله تعالى كُفْرًا، وكان عليهم لَمَّا أَنعَم الله تعالى عليهم بهذه النِّعَمِ أن يَشكُروا ويَقوموا بطاعة الله تعالى، لكنهم أَعرَضوا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: عُقوبة المُعرِضين بما تَقضية حِكْمةُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وقد قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في آية أُخْرى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِۦ﴾ [العنكبوت:٤٠]، فالعُقوبات دائِمًا تَكون من جِنْس العمَل، فهؤلاءِ لَمَّا بَطِروا نِعْمة الله تعالى وكفَروا به؛ بسَبَب هذه الجَنَّاتِ أُبدِلوا بجَنَّات سَيِّئة بالنِّسبة لما نُعِّموا به من قَبلُ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثبات الأَسْباب، تُؤخَذ من قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا﴾ فجعَل الله تعالى سببَ الإِرْسال إِعْراضَهم.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ المعاصيَ سببٌ لزوال النِّعَم؛ لقَوْله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا﴾ بينما كانوا مُنعَّمين، لَمَّا أعرَضوا أُرسِل عليهم هذا السَّيْلُ المُدمِّرُ.

وهذا له شواهِـدُ في القرآن كثـيرة، منها قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل:١١٢].

ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٦-٩٩].

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ المطَر الذي هو نِعْمة ورَحْمة قد يَكون نِقْمةً وعَذابًا؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾، فإن السَّيْل في الأصل الذي هو اجتِماع المطَر حتى يَتدفَّق، الأصل أنَّه خَيْر كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ [السجدة:٢٧] وهذا خَيْر، ولكنه أحيانًا يَكون عذابًا.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: بَيـان ضَلال أُولئـك القومِ الذين إذا أَصابَتْـهم مِثْلُ هذه المَصائِبِ من الفَيَضانات وما أَشبَهَها لم يَتأَثَّروا لذلك، ويَقولون: هذا مُقتَضى الطبيعة. فإن هذه الفَيَضاناتِ التي تُدمِّر إنها هي عُقوبة من الله؛ ليَبْتَلِيَ بها أُولَئِك المُعذَّبين، ويَرتَدِع بها مَن كان على شاكِلَتِهم.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: بَيان قُدْرة الله بإِرْسال هذه السُّيولِ الجارِفة التي أَغرَقَتْ ثِمارهم وزُروعهم، ونبَت بعد هذه الثِّمارِ والزُّروع نبَتَ خَمْطٌ وأَثْلٌ وشَيْءٌ مِن سِدْر قليلٍ، وليسَ سدرًا ولكِن شيءٌ مِن سِدر، يَعني: قليلٌ، فبَدَل الجناتِ العظيمة حَلَّ هذا محلَها.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: الحِكْمة في أن الله جعَل بدَل الجَنَّتَيْن جَنَّتَيْن أُخْرَيَيْن؛ لأن الطاعة نور وصَلاح وفَلاح فيُناسِبها الجزاءُ بالعطاء، والمَعصية ظُلْمة وفَساد فناسَبَها أن يَكون فيها هذا البدَلُ السَّيِّئُ بالنِّسبة لما قَبْلَه.

• • ۞ • •

الآية (١٧)

• • ✿ • •

❁ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ [سبأ:١٧].

• • ✿ • •

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿ذَٰلِكَ﴾ [التَّبْدِيلُ] ﴿جَزَيْنَٰهُم﴾، ولو قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ذلك التَّبديلُ وإرسالُ السَّيْل. لكان أعَمَّ وأَشمَلَ، أو لو قال: ذلك المَذكورُ. لكانَ أَشمَلَ، ﴿وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾.

وقوله: [﴿جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟﴾ بِكُفْرِهِمْ] وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا أَفادَنا أنَّ (ما) مَصدَرية، وأمَّا الباء فهي للسَّببية أي: جَزَيْناهم هذا الجزاءَ بإِغْراق أموالهم، وهَدْم بِنائِهم، وإبدال الجَنَّتَيْن بهاتَيْنِ الجَنَّتَيْنِ ﴿بِمَا كَفَرُوا۟﴾ أي: بسَبَب كُفْرِهم.

وقوله: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾: قال رحمه الله: [(وهَلْ يجازي إلَّا الكَفُورَ)، بالياء والنُّون مع كَسْر الزاي ونصب (الكَفورَ)؛ أي: ما يُناقَش إلَّا هو]، ففي قوله تعالى: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِىٓ﴾ قِراءَتان ﴿نُجَٰزِىٓ﴾، وعلى هذه القِراءةِ يَجِب نَصْب (الكَفور) على أنها مَفعول به، والقِراءة الثانية «يُجَازَى» وعليه تُرفَع (الكَفور) على أنها نائِب فاعِل، والاستِفهام هنا بمَعنى النَّفْي؛ لأنه عُقِّب بـ(إلَّا)، فيَكون: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ أي: ما نُجازِي إلَّا الكَفورَ، والمُجازاة هنا بمَعنَى: المُناقَشة، أو بمَعنَى: المُكافَأَة على الفِعْل، والكَفور صيغة مُبالَغة؛ أي: ذو الكُفْر بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: فيها دليل على أنَّ الله لا يُجازِي أحَدًا بعُقوبة إلَّا بفِعْله؛ لقَوْله تعالى: ﴿بِمَا كَفَرُواْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثبات الأَسْباب؛ لأن الباء هُنا للسَّبَبية.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الفَرْق بين (يَجزِي) و(يُجازِي)، فهنا قال: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾، لكن (نَجزِي) في الثواب، و(نُجازِي) بالعِقاب، هكذا قال بعضُ العُلَماءِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ، فتَقول للكافِر: جازاكَ الله تعالى. وتَقول للمُسلِم: جزاكَ الله تعالى. ففي الخَيْر نَقول: جزى. وفي الشَّرِّ نَقول: جازَى. ووجهُ ذلك: أن الخَيْر عَطاء محضٌ، وأمَّا العُقوبة فهي مُجازاة ومُكافَأة؛ ولهذا نَقول: جازاهُ. يُصاغ الفِعْل على صِيغة المُفاعَلة، والمُفاعَلة تكون في الأصل من طرَفَيْن.

• ● ۞ ● •

الآيــة (١٨)

• ● ∞ ● •

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ [سبأ:١٨].

• ● ∞ ● •

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ نِسْبة الفِعْل إلى (نا) الدَّالَّة على العظَمة، والضَّمير في ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ يَعود على سَبأ.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْقُرَى﴾ جَمْعُ قَرْية، وهي البَلْدة سَواء كانت كبيرةً أو صغيرةً، وسُمِّيَت قريةً؛ لأنها تَجمَع، وما اشتَهَر عند الناس أن القَرْية هي المُدُن الصِّغار، هذا اصطِلاحٌ عُرْفيٌّ، وإلَّا فإن الله تعالى يَقول: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ﴾ [محمد:١٣]، فالقَرْية اسمٌ للبَلَد سواءٌ كان كثيرًا أو قليلًا، سُمِّيَ بذلك لأنه يَجمَع الناس.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ ما هي القُرى التي بارَك الله تعالى فيها؟ قيلَ: إنها قُرَى اليَمَن، كصَنْعاءَ ونحوِها. وقيلَ: إنها قُرَى الشام. ولكُلٍّ من القَوْلين وجهٌ؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بارَكَ في الشام، وبارَكَ في اليَمَن؛ قال النبيُّ ﷺ: «اللهمَّ بارِكْ لَنا فِي شامِنا ويَمَنِنا»[1]؛ ولهذا اختَلَف المُفسِّرون رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: هل المُرادُ القُرى

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاستسقاء، باب ما قيل في الزلازل، برقم (١٠٣٧)، من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

التي بارَكَ الله تعالى فيها قُرَى الشامِ أو المُرادُ القُرى التي بارَكَ الله تعالى فيها قُرَى اليَمَن؟ أيُّها أَعظَمُ مِنَّةً أن يكون المُرادُ بقُرَى الشام أو قُرَى اليَمَن؟

الجوابُ: قُرى الشام؛ لبُعدها، فهم يَذهَبون إلى الشام ويَرجِعون منها فيقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [بَارَكْنَا فِيهَا بِالمَاءِ وَالشَّجَرِ وَالثِّمَارِ وَهِيَ قُرَى الشَّامِ الَّتِي يَسِيرُونَ إِلَيْهَا لِلتِّجَارَةِ ﴿قُرًى ظَاهِرَةً﴾ مُتَوَاصِلَةً مِنَ الْيَمَنِ إِلَى الشَّامِ]، قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ظَاهِرَةً﴾ يَعنِي: بيِّنه يَرَى بعضها من بعض؛ لأنَّ القَرْية إذا كانت بَعيدةً عن الثانية ما صارت ظاهِرةً، وإذا خرَجَت من قَرْية إلى قَرْية، وهي بَعيدة منها هل تَكون القَرْية الثانية ظاهِرةً لك؟ لا، بل تَحتاج إلى أحَدٍ ليَدُلَّك، لكن إذا كانت مُتواصِلة مُتقارِبة صارت ظاهِرةً بادِيَة للعَيان، فهذه القُرَى مُتواصِلة بعضُها ببَعْض من اليَمَن إلى الشام.

والذين قالوا: إن المُراد قُرى اليَمَن؛ قالوا: لأنهم لا يَعلَم أن هناك قُرًى مُتَّصِلة بين اليَمَن والشام، وقالوا: إن الواقِع يَدُلُّ على خِلاف ذلك، وأن المُراد بالقُرى قُرى اليَمَن، وعلى كُلِّ حالٍ: لكُلِّ قولٍ وجهٌ.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾ يَعنِي: جَعَلْناه مُقدَّرًا بمَراحِلَ يَنزِلون من قرية إلى أُخْرى مَرحَلةً مَرحَلةً.

والمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: [﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾ بِحَيْثُ يَقِيلُونَ فِي وَاحِدَةٍ وَيَبِيتُونَ فِي أُخْرَى، إِلَى انْتِهَاءِ سَفَرِهِمْ، وَلَا يَحْتَاجُونَ فِيهِ إِلَى حَمْلِ زَادٍ وَمَاءٍ] هذا مَعنَى تَقدير السَّيْر: أن يَكون مُقدَّرًا بمَراحِلَ حسبَ هذه القُرى، يَقيلون في واحِدة ويَبيتون في أُخرى، ثم يَقيلون في الثانية ويَبيتون في الأُخْرى وهكذا، ولا شكَّ أنَّ تَقدير السَّيْر على هذا الوجهِ أنه من نِعْمة الله على الناس، فإن الخُطوط الطويلة التي ليسَتْ بها

مُدُن تَكون في الغالِب طُرُقًا مُهلِكة مُخيفة، لكن إذا كانت مُتواصِلة صارت أَيسَرَ للسالِكِ، وأَشَدَّ طُمأنينةً، بل وأَقرَبَ للسَّيْر؛ لأنك إذا مَشَيْت من قرية إلى أُخرى تُحِسُّ أنك قطَعْت مَرحَلة، مثل القُرآن الكريم: لَمَّا جُعِل آياتٍ وسُورًا وأَجزاءً صار أَسهَلَ للقـارِئِ، الكِتاب إذا كان مُفـصَّلًا بأبواب وفصول صار أَيسَرَ، والطريق الحِسِّيُّ أيضًا طريق الأرض إذا كان فيه قُرًى مُتوالية صار أَيسَرَ من الطريق الطويل الذي يَمَلُّ الإنسان ولا يَرَى أنه قَطَع مَرْحَلة فيه.

ولهذا قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَقُلْنا: سِيرُوا]، وعليه فتكون هذه الجُملةُ في مَوْضِعِ نَصْبٍ، مَقولًا لقولٍ مَحذوفٍ (قُلْنا: سِيروا)، وهذا القولُ شَرْعيٌّ أو قدَرِيٌّ؟

الجوابُ: قدَريٌّ؛ يَعنِي: أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال لهم: سِيروا في هذه الطُّرُقِ فيها لياليَ، أي: في هذه القُرَى، ﴿لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ لا تَخافون لا في لَيْلٍ ولا في نَهار، وهذه من نِعَم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنهم يَسيرون ليلًا ونَهارًا آمِنين لا يَخافون من أَحَد، ولا يَخافون من تَلَف، ولا يَخافون من انقِطاع ماء، ولا مِن فَقْدِ طعام، ولكن لم يَصبِروا على هذه النِّعْمة -والعِياذُ بالله تعالى- ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَـٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ ما شَكَروا النِّعْمة، وكان عليهم أن يَشكُروا الله تعالى على هذه النِّعْمةِ، ويَغتَبِطوا بها، ولكنهم لم يَصبِروا عليها حتى سأَلوا الله تعالى أن يُباعِد بين أَسفارِهم، فتكون الأسفار طويلة ما فيها قُرًى.

وهذا نَظيرُ قَوْل أصحاب مُوسَى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ له: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ [البقرة:٦١]، بينما كانوا في الأَوَّل يَأكُلون رَغدًا من المَنِّ والسَّلوى بلا تَعَبٍ وطعامًا

طَيِّبًا؛ لكـن قَوْم سَبَأ ما صبَروا على هذه النِّعْمة التي هـي من أحسَنِ النِّعَـم في الأسفار.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: في هذه الآيةِ بيان نِعْمة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ على سَبَأ؛ حيثُ جعَل القُرَى مُمتَدَّة من اليَمَن إلى الشام، قريبًا بعضُها من بعض.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الطرُق إذا كانت بين قُرًى مُتَجاوِرة فهي آمَنُ وأَقرَبُ إلى السلامة؛ لقوله تعالى: ﴿سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن السَّيْر فيها مُقدَّر مَرحَلةً مَرحَلة، بين هذه القُرى وتَقدير السَّيْر، كما قُلْنا من فائِدته. ويَتفرَّع على ذلك: أن تَقدير السَّيْر أَنشَطُ للمُسافِر وأَسهَلُ له؛ لأنه إذا كان بين القُرَى تَبايُنٌ بعيد تَعِبَ المُسافِرُ ومَلَّ، لكن إذا صار يَقطَعها مَرحَلةً مَرحَلة صار ذلك أَنشَطَ له وأهوَنَ عليه، وذكَرْنا أنَّ من هذا تَجزِئة القُرآن ومَسائِل العِلْم والكتب المُصنَّفة حتى يَقطَعها الإنسان مَرحَلة مَرحَلة فيَكون ذلك أَسهَلَ عليه، وربما نَأخُذ منه فائِدة لمَن أَرادَ حِفْظ القُرآن أن يَتحَفَّظه شيئًا فشَيْئًا؛ لأنَّ بعض الناس رُبَّما يُسرَد له ورَقة كامِلة ثُم يَرجِع يَحفَظها فيَصعُب عليه، لكنه إذا حفِظها آيةً آيةً كان هذا أسهَلَ في الغالِب.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن الأَمْن في الأوطان من أكبَرِ النِّعَم؛ لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴾.

الآيـة (١٩)

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ:١٩].

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [(فَقَالُوا رَبَّنَا بَعِّدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا) وَفِي قِرَاءَةٍ سَبْعِيَّةٍ: ﴿بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ إِلَى الشَّامِ اجْعَلْهَا مَفَاوِزَ].

(المفاوِزُ) جَمْع مَفازة، وهي الأراضِي التي يُخشَى فيها من الهلاكُ، وسُمِّيَت مَفازة من باب التَّفاؤُل، ولكن في الحقيقة ما هي مَفازة، بل هي هَـلاك ومَهلَكة، لكن العرَب تُطلِق الشيء على ضِدِّه تفاؤُلًا كما قالوا في الكَسِـير: إنَّه جَبير. فهذا أيضًا مِثْلـها، يَقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسـير: ﴿بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾: [اجْعَلْهَا مَفَاوِزَ؛ لِيَتَطَاوَلُوا عَلَى الْفُقَـرَاءِ بِرُكُوبِ الرَّوَاحِلِ وَحَمْـلِ الزَّادِ وَالمَاءِ فَبَطِرُوا النِّعْمَةِ] لَمَّا كانَتِ القُرى ظاهِرةً ومُتقارِبةً ولا يُحتاج فيها إلى حَمْل زاد وماء صار فيـها الفُقراءُ والأغنيـاءُ على حَدٍّ سواءٍ، كلٌّ مُنعَّم في هذه الطرُقِ، فإذا تباعَدت صار ذلك من حَظِّ الأغنياء، فسَألوا الله تعالى أن يُباعِد بين أَسفارِهم من أَجْل أن يَتطاوَلوا على فُقَرائهم، فهؤلاءِ الأَغْنياءُ يَركَبون الإبِلَ، ويَحمِلون ما شاؤُوا من الزاد، وأمَّا الفُقَراء فلا يَستَطيعون ذلك، هذا هو السبَبُ في أنهم دعَوُا الله تعالى أن يُباعِد بين أسفارِهم.

يقول تعالى: ﴿وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ إمَّا بالكُفْر، وإمَّا بدُعاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يُباعِد بين أسفارِهم فلم يَقبَلوا نِعْمته بهذه الراحةِ [﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ لِمَنْ بَعْدَهُمْ فِي ذَلِكَ ﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ فَرَّقْناهُمْ فِي الْبِلَادِ كُلَّ التَّفْرِيقِ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المَذْكُورِ ﴿لَأَيَٰتٍ﴾ عِبَرًا ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ عَنِ المَعَاصِي ﴿شَكُورٍ﴾ عَلَى النِّعَمِ].

قوله تعالى: ﴿أَحَادِيثَ﴾ جَمْع حَديثٍ، وهو ما يَتَحدَّث الناس به، يَعنِي أنهم بَعْد أن كانوا مَوْجودِين صاروا خَبَرًا من الأخبار؛ إذ إن قصصهم كانت أحاديث للناس يَتَحدَّثون بها، يَقول: حصَلَ كيت وكيت؛ ولهذا مِن الأمثال المَعروفة: تَفرَّقوا أَيادِيَ سَبأ [(١)]؛ يَعني: أنهم تَفرَّقوا كتَفرُّق سَبأ، قال الله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ بعد أن كانوا أَشياءَ حَقيقيَّةً ثابِتة صاروا أَحادِيثَ، وهذا قول الشاعِر:

بَيْنَا يُرَى الْإِنْسَانُ فِيهَا مُخْبِرًا ... حَتَّى يُرَى خَبَرًا مِنَ الْأَخْبَارِ [(٢)]

وقوله تعالى: ﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ يَعنِي: فَرَّقْناهم في البِلاد كلَّ مُفرَّق وشُرِّدوا وتَشتَّتوا؛ لأنهم كفَروا النِّعْمة وظَلَموا أَنفُسَهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ الإشارةُ تَعود إلى كل ما سبَق، من هذه القُرَى الظاهِرة وسُهولة السفَر، ثُم سُؤالهم أن يُباعِد الله تعالى بين أَسفارِهم، ثُم تَمزِيقهم في البِلاد كل مُمزَّق.

وقوله تعالى: ﴿لَأَيَٰتٍ﴾ أي: لعِبَرًا، كيف قال آياتٍ وهي قِصَّة واحِدة؟

الجوابُ: لكنها تَشتَمِل على أجزاء، كل جُزْءٍ منها يَستَحِقُّ أن يَكون آيةً.

---

(١) انظر: المستقصى في أمثال العرب للزمخشري (٢/ ٨٨).

(٢) البيت لعلي بن محمد التهامي يرثي صغيرًا له، انظر: تاريخ دمشق (٤٣/ ٢٢٢)، فوات الوفيات للكتبي (٢/ ٢٦٩).

وقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ﴾: ﴿صَبَّارٍ﴾ صِيغة مُبالَغة، أي: ذِي صَبْر على البَلايا، والصَّبْر في اللُّغة بمَعنَى: الحَبْس، وفي الشَّرْع: الحَبْس عمَّا يَحرُم عند المَصائِب، والناس في المَصائِب لهم أَرْبعة مَراتِبَ: مَرْتَبة السُّخْط، ومَرْتبة الصَّبْر، ومَرتَبة الرِّضا، ومَرْتبة الشُّكْر، وهو أعلاها، التَّسخُّط حرام والصَّبْر واجِب، والرِّضا مُستَحَبٌّ -على القول الراجِح-، والشُّكْر كذلك مُستَحَبٌّ؛ ولهذا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هنا: ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ﴾ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بيَّنها أي: عن المَعاصِي، بل وعلى أَقْدار الله تعالى، بل وعلى أَوامِر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأن الصَّبْر ثلاثة أنواع: صَبْر على طاعة الله تعالى، وصَبْر عن مَعصيته، وصَبْر على أقدار الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿شَكُورٍ﴾ أي: قائِم بشُكْر الله تعالى بقَلْبه ولِسانه وجَوارِحه، فيَشكُر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على نِعَمه، وأمَّا كونها آيةً للصَّبَّار فظاهِر، وكونها آيةً للشَّكور كيف ذلك؟

الجوابُ: لأنَّ الإنسان إذا نظَرَ إلى حالهم وأنهم حَينما كانوا شاكِرين لله تعالى كان الله تعالى قد أَنعَم عليهم بهذه النِّعْمةِ، فيُستَدَلُّ بها على أن شُكْر الله تعالى مُوجِب لبَقاء نِعْمته على العَبْد.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: فيها دليل على أن هَؤلاءِ القومَ لم يَصبِروا على هذه النِّعَم، بل طلَبوا زوالها وتَغييرها، وهل هذا القولُ باللِّسان أو بالفِعْل؟ بمَعنَى: هل قالوا فِعْلًا: (رَبَّنا باعِدْ بين أَسفارِنا) أو أنهم لَمَّا ظَلَموا أَنفُسَهم وكفَروا صار ذلك سببًا لتَباعُدِ ما بين هذه القُرى حيث اندمَرَت وفَسَدت وخَرِبت؟

الجوابُ: الأَوَّلُ هو ظاهِر اللَّفْظ، أنهم قالوا ذلك فِعْلًا فباعدَ الله تعالى بينهم.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ هؤلاءِ القَوْمَ لَمَّا بطِروا النِّعْمة وعجَزوا عن صَبْرها أَضافوا إلى ذلك ظُلْم أَنفُسِهم بالكُفْر، من قوله تعالى: ﴿وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ هؤلاءِ القَوْمَ صاروا أَحاديثَ للناس من بعدِهم، وهذا نَوْع من الخِزْي والعارِ -والعِياذُ بالله تعالى- أن يَشتَهِر أَمْر الناس، أو أَمْر الإنسان حتى يَكون أُحدوثة لَمِن بعدَه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن هؤلاءِ الذين أَنعَم الله عليهم بالاجتِماع في قُراهم وقَبائِلهم مُزِّقوا كُلَّ مُمزَّق، فشُرِّدوا في البِلاد وتَفرَّقوا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن ما يَفعَله الله عَزَّوَجَلَّ بالعُصاة والظالِمين يكون آيةً للمُعتَبِرين؛ سواءٌ كان ضرَّاءَ فيَصبِرون، أو سرَّاءَ فيَشكُرون؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: فضيلة الصَّبْر والشُّكْر، فالصبر على الضرَّاء والشُّكْر على الرَّخاء، والإنسان دائِمًا مُصابٌ بهاتين الآفتَيْن، إمَّا ضرَّاء وإمَّا سرَّاء، قال الله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥].

والمُوفَّق مَن أَعطَى كلَّ حال ما يَجِب لها، ففي الضرَّاء يَجِب عليه الصَّبْر وانتِظار الفَرَج، وليَعلَم أن الله عَزَّوَجَلَّ إذا قدَّر عليه الضرَّاء ليَصبِر فإن ذلك نِعْمة من الله تعالى عليه؛ لأنَّ الصبر كما نَعلَم درَجةٌ عالية، ومَنزِلةُ الصابِرين من أعلى ما يَكون من المَراتِب والمَنازِل، وهذه الدرَجةُ أو المَرتَبة أو المَنزِلة إذا لم يَكُن هناك شيء يُمتَحَن به العبدُ فإنه لن يَنالَها، لا بُدَّ من أذًى ولا بُدَّ من مَصائِبَ يَصبِر عليها الإنسان حتى يَنال بذلك درَجة الصابِرين.

وكذلك أيضًا الشُّكْر درَجةٌ عالية لا يَنالـها إلَّا مَن وُفِّق، فإن الإنسان إذا أذاقَه الله تعالى النَّعماءَ من بعد الضرَّاء فالغالِب عليه أنه يَفخَر ويَفرَح ويَبطَر، فإذا انْضافَ إلى ذلك الشُّكْر عند الرَّخاء والصَّبْر عند البَلاء، نال بهذا درَجةَ الصابِرين الشاكِرين؛ قال النبيُّ ﷺ: «وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا»[1]؛ وانتِظار الفرَج مَعونة على الصبر، فإن الإنسان إذا أَيِس ولم يَنتَظِر الفرَج ضاقَت عليه الدُّنيا، وتَضاعَفَت عليه المُصيبة، لكن إذا كان يَنتَظِر الفرَج مُؤمِنًا بذلك هان عليه الأمرُ.

• • ۞ • •

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٣٠٧)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

الآية (٢٠)

• • • •

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ:٢٠].

• • • •

(صَدَقَ) بالتَّخفيف والتَّشديد ﴿صَدَّقَ﴾ بمعنى: أَخبَر بالصِّدْق، و﴿صَدَّقَ﴾ مَنْ أَخبَر بالصِّدْق، فالإنسانُ إمَّا مُخبِرٌ وإمَّا مُخبَر، فالمُخبِرُ نَقول: صدَق. والمخبَر نَقول: صَدَّقَ. يَقول الله عَزَّوَجَلَّ: (صَدَقَ) و﴿صَدَّقَ﴾ والقِراءَتان هنا تَحمِلان معنيَيْنِ، مَعنى الصِّدْق، والتَّصديق فالفائِدة من هاتَيْن القِراءَتَيْن أنها تَدُلَّان على مَعنيَيْن، وبَيان ذلك قال تعالى: ﴿صَدَّقَ عَلَيْهِمْ﴾ أو (صَدَقَ عَلَيْهِمْ) [أَيِ: الْكُفَّارِ مِنْهُمْ سَبأٌ، ﴿إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ أَيْ: بِإِغْوَائِهِ يَتَّبِعُونَهُ ﴿فَٱتَّبَعُوهُ﴾، فَـ(صَدَقَ) بِالتَّخْفِيفِ فِي ظَنِّهِ أَوْ ﴿صَدَّقَ﴾ بِالتَّشْدِيدَ ﴿ظَنَّهُۥ﴾، أَيْ: وَجَدَهُ صَادِقًا]، إبليس له ظَنُّه في بني آدَمَ، فما هو ظَنُّه؟

الجوابُ: أنه يُغويهم أجمعين، قال الله تعالى عنه: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [ص:٨٢-٨٣]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف:١٦-١٧]، هذا ما كان يُؤَمِّلُهُ ويَرجوه ويَظُنُّه إمَّا ظَنًّا راجِحًا وإمَّا ظَنًّا مُتيقَّنًا، لكن لا يُمكِن أن يَتيقَّن، وإنما يَظُنُّ ظَنًّا راجِحًا،

فهنا صدَّق ظنَّه الذي كان يَقول: إنه سيُغويهم فـ(صدَّقه)؛ لأنه أَغواهم، أو (صدَق) عليهم إبليسُ ظنَّه أنَّه لَّما ظنَّ نفَّذَ ما قال، فيَكون صدَق حيث أَغواهم.

والحاصِلُ: أن الظنَّ الذي ظنَّه إبليسُ هو إغواؤُهم، هذا الظنُّ إمَّا أن يَكون بإغوائه إيَّاهم قد صدَّقه حيث وقَعَ منه أوَّلًا فصدَّقه بتَطبيقه فِعْلًا، أو صدَق عليهم إبليسُ ظنَّه أنه لَّما ظنَّ ذلك الظنَّ طبَّقه وفعَلَه، والمعنى: أنَّ ما توَقَّعه الشيطان وظنَّه من إغوائه الكُفَّارَ ومِنهم سَبأ وقَعَ مُؤكَّدًا باللَّامِ و(قَدْ) والقَسَمِ.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَٱتَّبَعُوهُ﴾ اتَّبَعوا الشيطان، ولو نظَرْنا ما هو الجامِعُ لما يَأمُر به الشيطانُ؛ يَأمُر بالفَحْشاء ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [البقرة:٢٦٨]؛ فهو يَأمُر بالفَحْشاء والمُنكَر وكلِّ فِعْل قبيح، فإذا اتَّبَعه الإنسان بالفَحْشاء والمُنكَر والفِعْل القبيح فقد تَبِعه وضَلَّ عنه، وإن خالَفه فقد خالَفَه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا﴾ فاتَّبَعوه، (إلَّا) بمَعنى [لَكِنَّ فَرِيقًا ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لِلْبَيَانِ].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِلَّا﴾ يَعْنِي: لَكِنْ] إشارة إلى أن الاستِثْناء هنا مُنقَطِع، لأنَّ الاستِثْناء إذا كان بمعنى (لكن) صار مُنقَطِعًا، ولكن الذي حَمَل المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ على هذا؛ لأنَّ قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ظاهِرُه أنَّه صدَّق عليهم جميعًا، وعليه فالمُؤمِنون لم يَدخُلوا في ذلك؛ فيَكون الاستِثْناء هنا مُنقَطِعًا، لأنَّ إبليسَ لم يُصدِّق الظَّنَّ إلَّا على الكُفَّار، أمَّا لو جَعَلْنا: ﴿صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ عامًّا للقَبيلة كلِّها أو لبني آدَمَ كلِّهم ثُم قال: إلَّا فريقًا من المُؤمنين، لكان هذا الاستِثْناءُ مُتَّصِلًا.

والحاصِلُ: إذا جعَلْنا الضمير ﴿عَلَيْهِمْ﴾ عائِدًا على الكُفَّار الذين اتَّبَعوا إبليسَ فإنَّ الاستِثْناء هنا يَجِب أن يَكون مُنقَطِعًا، وإن جَعَلْناه عامًّا لبني آدَمَ أو جِنْس هذه

القَبيلةِ سَبَأ صار الاستِثْناءُ مُتَّصِلًا.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [لِلْبَيَانِ] يعنِي: (مِنْ) بَيانية، وليسَت تَبعِيضيَّة؛ لأنها لو كانت للتَّبعيض لكان المَعنى: إلَّا فريقًا من المُؤمِنين نجا منهم، وفريقٌ آخَرُ لم يَنْجُ، وهذا المعنى فاسِد، وعلى هذا فتكون (مِنْ) للبيان ﴿إِلَّا فَرِيقًا﴾ مَن هؤلاء الفريقِ؟ ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أَيْ: هُمُ الْمُؤْمِنُونَ لَمْ يَتَّبِعُوهُ] وهذا المَعنى دَقيقٌ، والمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ مِثالُه جيِّد، إذا قُلْت: جاء فريقٌ من القَوْم؛ وهل جاء كلُّهم؟

الجوابُ: لا؛ لأنَّ (مِنْ) للتَّبْعيض ﴿إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إذا جعَلْنا (مِنْ) للتَّبعيض كما هي في قولِكَ: (جاءَ فَريقٌ من القومِ) فسَد المَعنى؛ لأنَّ المُؤمِنين كلُّهم لم يَتَّبِعوه؛ ولهذا احتاج المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ أَنْ يَجعَل (مِنْ) بيانية، وتَكون (المُؤْمِنِينَ) بيانًا لقوله: ﴿فَرِيقًا﴾ كأنَّه قال: فاتَّبِعوه إلَّا المُؤمِنين، هذا مَعنَى الآية.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن إبليسَ يُوصَف بالصِّدْق ويُوصَف بالكذِب، وأما الوَصْفُ اللازِم له فهو الكَذِب؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء:١٢٠]، ولكن قد يَصدُق كما قال النبيُّ ﷺ: «صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ»[1].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن الإيمان حاجِز عنِ اتِّباع الشيطان؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ ولهذا كثيرًا ما يَمُرُّ بكم: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ كذا وكذا»، «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ بكذا وكذا»، أو «فَلْيَفْعَلْ كذا وكذا»

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوكالة، باب إذا وكل رجلًا، رقم (٢٣١١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

مِمَّا يَدُلُّ على أن الإيمان حاجز عنِ اتِّباع الشيطان، ومُوجِب لاتِّباع هَدي الرُّسُل عليهم الصلاة والسلام.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ الشَّيْطان إمامٌ لكلِّ ضالٍّ؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱتَّبَعُوهُ﴾ فكُلُّ الضالِّين إمامُهم الشَّيْطان، وهم مُتَّبِعون له.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: وإذا قُلْنا بأنَّ (مِنْ) للتَّبعيض في قوله تعالى: ﴿إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وأن المُراد بالاتِّباع؛ الاتِّباع المُطلَق أنَّ بعض المُؤمنين قد يَتَّبع الشيطان في بعض الأُمور، وقد يَكون الاستِثْناء مُتَّصِلًا؛ وتَكون (مِنْ) للتَّبعيض، إذ إن بعض المُؤمنين قد يَتَّبِعون الشَّيْطان في بعض الأُمور.

مثال ذلك: «لَا يَأْكُلْ أَحَدُكُمْ بِشِمَالِهِ، وَلَا يَشْرَبْ بِشِمَالِهِ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْكُلُ بِشِمَالِهِ، وَيَشْرَبُ بِشِمَالِهِ»(١)، فإذا فعَل أحَد ذلك صار مُتَّبِعًا الشيطانَ؛ ولهذا كان القولُ الراجِح تَحريمَ الأكل بالشِّمال والشُّرْب بالشِّمال، وأنه ليس مَكروهًا فقط، بل هو حرام، والإنسان يَكون عاصِيًا بذلك، إلَّا إذا كان أَفندِيًّا تَقدُّمِيًّا حَضارِيًّا؛ فإنَّه يَأكُل بالشِّمال! وهذه هي المُشكِلة التي يَزعُم فاعِلوها أنهم تَقدُّمِيُّون وحَضارِيُّون، ولكن ليس كل تَقدُّمًا محمودًا، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول عن فِرعونَ: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ [هود:٩٨]، إِذَنْ على هذا القولِ الأَخيرِ أنَّ (مِنْ) للتَّبْعيض يَكون الاستِثْناء مُتَّصِلًا، ويَكون لبعض المُؤمنين شيءٌ من اتِّباع الشيطان، لا الاتِّباع الكامِل.

• • ۞ • •

(١) أخرجه مسلم: كتاب الأشربة، باب آداب الطعام والشراب، رقم (٢٠٢٠)، من حديث ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

الآية (٢١)

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْأَخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ [سبأ:٢١].

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ﴾ الضميرُ يَعود على إبليسَ، و﴿عَلَيْهِم﴾ أي: على القومِ الذين أغواهُم ﴿مِّن سُلْطَٰنٍ﴾: ﴿مِّن﴾ زائِدة لَفْظًا لا مَعنًى و﴿سُلْطَٰنٍ﴾ اسمُ (كانَ) مُؤخَّر؛ أي: ما كان له سُلطانٌ عليهم، والمُراد بالسُّلْطان هنا التَّسلُّط أو التَّسليط؛ ولهذا قال: [تَسْلِيط] فهي إِذَنِ اسمُ مَصدَر، وليس المُرادُ بها السُّلْطانَ الذي هو المَعنى القريب، فالمَعنى: ما كان للشَّيْطان عليهم تَصديق ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾.

وعلى تَقدير المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن السُّلْطان بمعنى التَّصديق يَكون الاستِثْناء مُتَّصلًا؛ أي: ما جعَلْنا للشيطان تَسليطًا عليهم إلَّا لنَعلَم، وإذا جعَلْنا السُّلْطان بمَعنَى التَّسلُّطِ أو القُدْرة، فإنَّ الاستِثْناء يَكون مُنقَطِعًا، أي: ما كان له عليهم سُلْطة، لكن لنَعلَم مَن يَتَّبِعه إلى آخِره.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ اللَّامُ هنا للتَّعليل أو للعاقِبة؟

الجوابُ: يَحتمل أن تكون للتَّعليل أو للعاقِبة، وعلى كِلا التَّقديرَيْن فيها إشكالٌ، وهو أنَّ ظاهِرها تَجدُّد عِلْم الله تعالى، ومَعلومٌ أن عِلْم الله تعالى أَزَليٌّ أَبَدِيٌّ؛ أي: قديم مُستَمِرٌّ لا بُدَّ أن يَستَمِرَّ، فكيف صحَّ أن تَكون اللَّام هنا للتَّعليل أو للعاقِبة؟

يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تَفسيرها: [عِلْمَ ظُهُورٍ]، وذلك لأَنَّ تَعلُّق عِلْم الله تعالى بالشيء له حالان:

الحالُ الأُولى: قبلَ وُجوده.

الحالُ الثانية: بعد وجوده.

فتَعلُّق عِلْم الله تعالى به بعد الوُجود يُسمَّى عِلْمَ ظُهورٍ؛ أي: عَلِمه بعد أن ظَهَر وبانَ، وعِلْم الله تعالى قبلَ وُجودِه عِلْم تَقديرٍ، أي: أنه قدَّر أن يَكون وعِلْمُ التَّقديرِ ثابِت بلا شَكٍّ فإن الله تعالى لم يَزَلْ ولا يَزالُ عالِمًا بكُلِّ ما يَكون.

وإذا قُلْنا: إنَّ العِلْم عِلْمُ تَقدير وعِلْمُ ظُهور. زال الإشكالُ؛ وصار عِلْم الله تعالى للشَّيْء بعدَ وُقوعه عِلْمًا بأنه ظهَر ووَقَع، وعِلْم الله تعالى قبلَ وُقوعه عِلْمًا بأنه سيَقَع، وفَرْقٌ بين المُتعَلَّقين.

وقِيلَ: إن المُراد بالعِلْم هنا العِلْم الذي يَترَتَّب عليه الجزاءُ؛ وذلك لا يَكون إلَّا بعد الامتِحان، فإنَّ عِلْم الله تعالى بالشيء قبل أن يَقَع عِلْمٌ لا يَترَتَّب عليه ثوابٌ ولا عِقاب؛ لأن المُكلَّف لم يُؤمَر ولم يُنهَ، فإذا أُمِر ففعَل أو أُمِرَ فلَمْ يَفعَل حينئذٍ صار مُثابًا أو مُعاقبًا، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ﴾ [محمد:٣١] ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٢].

وعلى هذا الوجهِ يَكون عِلْمُ الله تعالى عِلْمَيْن:

١ - عِلْم مَعناه: أنَّ الله تعالى عالِمٌ بأن هذا الشيءَ سيَقَع، ولكن لا يَترَتَّب عليه الثوابُ والعِقابُ.

٢- عِلْم يَتَرَتَّب عليه الثواب والعِقاب، وذلك لا يَكون إلَّا بعد امتِحان المُكلَّف به. وهل يَفعَل أو لا يَفعَل؛ يَعنِي هل يَمتَثِل أو لا يَمتَثِل، فتَبيَّن أنَّ الجواب عن هذه المَسألةِ التي ظاهِرُها تَجدُّد عِلْم الله تعالى: أنَّ العِلْـم الذي يَتبيَّن به الخَفِيُّ؛ لأنَّ الأَمْر لم يَزَل ولا يَزالُ أمام الله تعـالى واضِحًا ظاهِرًا، قال تعالى: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾ هنا ضُمِّنت (نَعلَم) معنى (نُميِّز)؛ ولهذا قال تعالى: ﴿مِمَّنْ هُوَ﴾ يَعنِي: إلَّا لنُميِّز مَن يُؤمِن بالآخِرة مِمَّن هو منها في شَكٍّ.

والناس بالنِّسبة للآخِرة يَنقَسِمون إلى ثلاثة أقسام: قِسْم آمَنوا بها، وقِسْم كفَروا بها وأَنكَروا، وقِسْم فيه شَكٌّ وتَردُّد، الذين آمَنوا بها أَمْرُهم واضِح، والَّذين كفَروا بها وقالوا: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء:٩٨]، هذا لا يُمكِن، هؤلاءِ أيضًا أَمْرُهم واضِح، والَّذين تَردَّدوا وقالوا: يُمكِن أن تَكون حَقًّا ويُمكِن أن تَكون باطِلًا يُلحَقون بالكافِر؛ لأنَّ الواجِب أن يُؤمِن؛ ولهذا قال: ﴿مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾ فكَيْف مِمَّن هو منها مُنكِرٌ وجاحِدٌ ومُكذِّبٌ.

فالله جعَل للشَّيْطان سُلْطة على بني آدمَ؛ لأجل أن يَمتَحِن هؤلاء الناسَ فيَعلَم مَن يُؤمِن بالآخِرة مِمَّن هو في شَكٍّ، فالذي فيه شَكٌّ من الآخِرة يَتَّبع الشَّيْطان قَطْعًا؛ لأنه لا يُؤمِن بأن هناك يَوْمًا آخِرًا يُثابُ الناس فيه ويُعاقَبون، فهو يَرَى أن لنَفْسه الحُرِّيَةَ المُطلَقة، وهي في الحقيقة حُرِّيَّةٌ من شيءٍ، ورِقٌّ في شيء، قال ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

هَرَبُوا مِنَ الرِّقِّ الَّذِي خُلِقُـوا لَـهُ ... وَبُلُوا بِرِقِّ الـنَّفْسِ وَالشَّـيْطَانِ[1]

والرِّقُّ الذي خُلِقْنا له هو العُبودِيَة لله، (وَبُلُوا بِرِقِّ النَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ) نَسأَل الله تعالى العافِيَةَ، يَعنِي: صاروا عَبيدًا لأَنفُسهم وشَياطينهم، فلا يُمكِن أن يَتحَرَّر

(١) النونية (ص:٣٠٨).

الإنسان من عِبادة الله تعالى على زَعْمه إلَّا كان رقيقًا لغَيْره، للناس والشَّيْطان.

والحاصِلُ: أنَّ هؤلاءِ الذين كانوا في شَكٍّ من الآخِرة لا يُمكِن أن يَعمَلوا ولا أن يَقوموا بطاعة الله تعالى، ذلك لأنَّ الذي يَقوم بطاعة الله تعالى هو الذي يُؤمِن بأنه سوف يُحشَر ويُثاب أو يُعاقَب.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾ فنُجازِي كلًّا مِنهما ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ الجُمْلة خَبَرية تُفيدُ مَعنًى، ولازِمَ ذلك المَعنَى، فهي خَبَرية تُفيد أنَّ الله تعالى على كلِّ شيء حَفيظٌ؛ أي: مُراقِب ومُطَّلِع ومُهَيْمِن على كل شيء، سَواءٌ كان ذلك ممَّا يَتعلَّق بفِعْله أو ممَّا يَتعلَّق بفِعْل الخَلْق، فهو جَلَّ وَعَلَا رقيبٌ على كل شيء، لا يَخفَى عليه شيء في الأَرْض ولا في السماء، هذا المَعنَى يَستلزِم مَعنًى آخَرَ، وهو التَّحذيرُ من المُخالَفةِ؛ لأنَّ الإنسان متى عَلِم أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حفيظٌ على كل شيءٍ خاف ولم يُخالِف، أمَّا إذا كان في شكٍّ من هذا فإنه سوف يَعمَل كما يَشاء.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بَيانُ حِكْمة الله عَزَّوَجَلَّ في تَسليط الشيطان على بني آدمَ، وهي أَنْ يَعلَم أن مَن يُؤمِن بالآخِرة فيَعمَل لها ممَّن لا يُؤمِن، ويَكون في الشَّكِّ فلا يَعمَل؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثْبات عِلْم الله تعالى، وتَعلُّقِ عِلْم الله تعالى بالمَوجودات يَنقَسِم إلى قِسْمين: تَعلُّقٌ بها قَبلَ الوُجود، وتَعلُّقٌ بها بعد الوجود، فالتَّعلُّق بها بعد الوجود يَكون عِلْمه بها عِلْمَ أَمْرٍ واقِعٍ، والأوَّل يَكون تَعلُّق العِلْم بها أنَّه عِلْمٌ بما سيَقَع، وبهذا يَزول الإشكالُ في مِثْل هذه الآيةِ حيث إنَّ ظاهِرها يُفيد تَجدُّد عِلْم الله عَزَّوَجَلَّ؛

لأننا نَعلَم أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُحيطٌ بكل شيءٍ عِلمًا أزَلًا وأبدًا، ومَن ظَنَّ أن الله تعالى لا يَعلَم الشيء إلَّا بعد وجودِه فقَدْ كفَر.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثبات الآخِرة، ووُجوب الإيمان بها.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الشَّكَّ فيما يَجِب فيه اليَقين كُفْر؛ لقوله تعالى: ﴿مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾، ولم يَقُلْ: إنه مُنكِرٌ لها؛ لأنه قد تَكون ظاهِر الحال أنه لمَّا قال: يُؤمِن بالآخِرة. كأن يقول: الذي يُقابِله يَكفُر بالآخِرة. لكن قال تعالى: ﴿مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾؛ لنَستَفيد منه فائِدةً وهو أنَّ ما يُطلَب فيه اليَقين يَكون الشكُّ فيه كالإنكار كفرًا.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: عُموم رِعاية الله تعالى ومُراقَبته لكلِّ شيء، تُؤخَذ من قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن رُبوبية الله تَنقَسِم إلى: خاصَّة وعامَّة، والخاصَّة إلى أَخصَّ وإلى خاصَّة؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾، فهذه الرُّبوبيةُ أخصُّ من الخاصَّة، فإنَّ رُبوبية الله لخَواصِّ عِباده كالأنبياء أخصُّ من ربوبيته لعُموم المُؤمنين، ورُبوبيته للمُؤمِنين أخصُّ من رُبوبيته لعامَّة الناس، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [النمل:٩١]، ولَمَّا كانت الرُّبوبية خاصَّة هنا قد تُوهِم اختِصاص رُبوبيته بهذا البَلْدةِ بعد هذا قال تعالى: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾.

• • ❁ • •

الآيــة (٢٢)

• ● ෆ ● •

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ:٢٢].

• ● ෆ ● •

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿قُلِ﴾ [يا مُحَمَّدُ لِكُفَّارِ مَكَّةَ] هنا جَعَل الخِطاب خاصًّا؛ من جِهتَيْن: من جِهة المُخاطِب، ومن جِهة المَدعُوِّ، فالمُخاطِب قال تعالى: (﴿قُلِ﴾ يَا مُحَمَّدُ) والمَدعُوُّ كُفَّار مَكَّةَ، ولكنَّ هذا غير مُسلَّمٍ للمُفَسِّر، بل نَقول: إنَّ ﴿قُلِ﴾ يُمكِن أن تَكون مُوَجَّهةً لكلِّ مَن يَتوَجَّه الخِطاب إليه، من الرسول ﷺ أو غيره ممَّن ورِثه في أُمَّتِه، أي: (قُلْ أيُّها الناسُ).

أمَّا بالنِّسبة للمَدعُوِّين فنَقول: الأَصَحُّ أنَّه عامٌّ لكُلِّ مَن دعا مع الله تعالى غيرَهُ من كُفَّار مَكَّةَ وغيرهم، فيَجِب أن يَكون لدينا قاعِدة وهو أنه إذا دارَ الأَمْر بين أن يَكون الخِطاب خاصًّا أو عامًّا وجَبَ أن يَكون عامًّا؛ لأن العامَّ يَدخُلُ فيه الخاصُّ ولا عكسَ، وكُلَّما كان مَعنَى القُرآن أوسَعَ كان أوجَبَ.

إِذَنْ نَقول: قُلْ أيُّها المُخاطِب ممَّن تَدعو مع الله تعالى؛ قل للَّذين يَدعون مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى غيرَه ﴿ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ أي: زعَمْتُموهم آلِهَةً: (ادْعُوهُمْ)، وهلِ المُرادُ بالدُّعاء هنا دُعاء المَسأَلة، أو دُعاء الإِحْضار؟

(ادْعُوهم) يَعنِي: أَحضِروهم أو دُعاء المَسألة يَعنِي اسألوهُمُ اطلُبوا مِنهُمُ الحوائِجَ، هل يَستجيبون لكم أم لا؟

الجوابُ: يَحتَمِل المَعنيَيْن: يَحتَمِل مَعنَى: أَحضِروهم؛ لنُناقِشَهم، أوِ ادْعوهم دُعاء مَسألة، يَعنِي: اسألوهم؛ كما تَقول: أدْعُو الله تعالى، أَيْ: أَسألُه، وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ: زَعَمْتُمُوهُمْ آلِهَةً] لم يُقدِّر المُفسِّر ضَميرًا ووَصْفًا ظاهِرًا، الضميرُ [زَعَمْتموهم] (هُمْ) هذا هو الضَّميرُ، والاسْمُ الظاهِر [آلِهةً]، فأَفادَنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأنَّ (زَعَمَ) تَنصِب مَفعولَيْن، وأنَّ المَفْعولَيْن مَحذوفان، وتَقديرُ الكَلام: (زَعَمْتموهُمْ آلِهةً)، لأنَّ (زَعَمَ) من الأفعال التي تَنصِب مَفعولَيْن أصلُهما المُبتَدَأ والخَبَر؛ فهي من أخوات (ظنَّ).

وقوله تعالى: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِنْ غَيْرِهِ لِيَنْفَعُوكُمْ بِزَعْمِكُمْ]، هذه الآلِهةُ لا يُمكِن أن تَنفَع المُشرِكين، وذلك لانتِفاء أسباب النَّفْع من عِدَّة أَوْجُهٍ:

أوَّلًا: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ استِقْلالًا.

ثانيًا: ولا يَملِكون ذلك مُشارَكة.

ثالثًا: وليس لهم مَعونة يُعينوا الله تعالى بها.

رابعًا: ليس لهم شَفاعة إلَّا بعد إِذْنِ الله تعالى.

فبيَّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن أسباب النَّفْع في هذه الآلهةِ مُنتَفِية، فقوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ الجُملة استِئْنافية؛ لبيان حال هَؤلاءِ الآلِهةِ: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [وَزْنَ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ] ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، لا يَملِكون مِثْقال ذَرَّة لا في السموات ولا في الأَرْض، ولا يَملِكون ما دون المِثْقال؛ لأنَّ التقدير

إذا قُصِد به المُبالَغة فلا مَفهومَ له سَواءٌ كان في الكَثْرة أو في القِلَّة، فهنا لا يَملِكون مِثْقال ذرَّة، يَعنِي: ولا دُونَها.

ومِثال الكَثْرة: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة:٨٠]، ولو أَكثَرَ من سَبْعين ما يَغفِر الله تعالى لهم؛ ولهذا قال تعالى في آية المُنافِقين: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [المنافقون:٦]، فإذا جاء القَيْد للمُبالَغة قِلَّةً أو كَثرةً فليس له مَفهوم، إِذَنْ لا يَملِكون مِثقال ذرَّة ولا دُونَها لا في السَّموات ولا في الأَرْض، ولو كانوا يَملِكون ذلك لقُلْتم: نَتَّعلَّق بهم لعلَّهم يُعطوننا ممَّا يَملِكون.

وهل لهم شِرْك في السَّموات أو في الأرض؟

الجوابُ: لا، ولو كان لهم شِرْك لقُلْتم: لعلهم يُعطوننا من نصيبهم؛ ولهذا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ شَرِكة ﴿مِن﴾ هذه زائِدة لَفْظًا لا مَعنًى، وعلى هذا فـ﴿شِرْكٍ﴾ مُبتَدَأ مُؤخَّر، وخَبَرُه الجارُّ والمَجرور المُقدَّم ﴿وَمَا لَهُمْ﴾ يَعنِي: ما لهم شِرْكٌ في السَّموات ولا في الأرض.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَمَا لَهُ﴾ تَعالَى ﴿مِنْهُم﴾ مِنَ الْآلِهَةِ ﴿مِّن ظَهِيرٍ﴾ مُعِينٍ] نَقول في إعراب ﴿مِّن ظَهِيرٍ﴾ كما قُلْنا في إعراب ﴿مِن شِرْكٍ﴾ أي: أنَّ (مِنْ) زائِدة لَفظًا لا مَعنًى، و(ظهير) مُبتَدَأ مُؤخَّر، والظهير بمَعنى: المُعين، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء:٨٨]، إِذَنْ ليس لهم مع الله تعالى مَعونة حتى يُدِلُّوا على الله تعالى بها ويَقولون: أَعطِنا عِوَضًا عن مَعونَتنا لنَنفَع مَن يَدعوننا، ما لهم مُساعَدة مع الله تعالى: ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ أي: [مُعِينٍ].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: فيها دليلٌ على أنه يَنبَغي في المُناظَرة التَّحدِّي للمُناظِر فيما يُعلَم أنه لن يَكون؛ لقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ فيَجِب على كلِّ دُعاة الحقِّ أن يَتحَدَّوْا هؤلاء المُبطِلين بأن يُبرِزوا لباطِلهم شيئًا من النَّفْع، وهذا كما أنه من الشِّرْك يَكون أيضًا فيما دونَه، فإنه يَنبَغي أن يَكون الداعي لله على عِلْمٍ بالأمور حتى يَستَطيع الجَدَل فيها؛ لأنَّ مَن لم يَكُن على عِلْم فيها فأنه سيَقِف حَيْرانَ ولا يَتمَكَّن من مُقابَلة الخَصْم.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ هذه الأَصنامَ المَدعُوَّة من دون الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى لا تَملِك شيئًا لنَفْسها، فلا تَملِك شيئًا لغيرها، ليس لها مُلْك، ولا شِرك في المُلْك، ولا مُعاوَنةٌ على تَصرُّف ولا شَفاعة، والأمر في هذا واضِح: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ﴾، أي: ما لله تعالى ﴿مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ۝٢٢ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾.

الآيــة (٢٣)

• ● ● •

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ:٢٣].

• ● ● •

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ﴾ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، رَدٌّ لِقَوْلِهِمْ: إِنَّ آلِهَتَهُمْ تَشْفَعُ عِنْدَهُ ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ﴾ بِفَتْحِ الهَمْزَةِ وَضَمِّهَا، ﴿لَهُۥ﴾ فِيهَا]، إذا قالوا: نعَمْ؛ آلِهَتُنا لا تَملِك شيئًا في السَّموات ولا في الأرض، آلِهَتُنا ليس لها مُشارَكة مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، آلِهَتُنا لم تُعِنِ الله تعالى، لكنَّها تَشفَع، كما قالوا: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس:١٨]، فقطَع الله تعالى هذه الوَسيلةَ الأَخيرة ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ إِذَنْ هذه الآلهةُ ما تَستَطيعُ أن تَشفَع إلَّا بعد إِذْنِ الله تعالى.

وهل يُمكِن أن يَأذَن؟

الجوابُ: لا يُمكِن؛ لأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَقول: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم:٢٦]، ويَقول الله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء:٢٨]، ومعلوم أنه الله تعالى لا يَرضَى عن الكافِرين لا أن يَشفَعوا ولا أن يُشفَعَ فيهم، فتَبيَّن أنَّ جميع ما يَتعلَّق به المُشرِكون في شِرْكهم مع الله تعالى كلُّه باطِل، وكُلُّه مُمتَنِع، فإن الأَسباب التي يُمكِن أن يَنتَفِعوا بها واحِدٌ من أُمورٍ أربعة:

١- المُلْك استِقْلالًا.

٢- المُلْك مُشارَكةً.

٣- الإعانةُ.

٤- الشفاعةُ.

وكلُّ هذه الأربعةِ مُنتَفِية في عِبادة هذه المَدعوَّةُ من دون الله تعالى، فانقَطَع كلُّ سبَب يَتشبَّث به المُشرِكون، وحينئذٍ فيَجِب أن تَكون العِبادة والدُّعاء لله تعالى وحدَه؛ لأنَّه الذي له مُلْك السَّموات والأرض.

وأمَّا تَعريف الشَّفاعة في اللُّغة: هي جَعْل الفَرْد شَفْعًا أو جَعْلُ الوَتْر شَفْعًا، والشَّفْع والوَتْر، فضَمُّ واحِدٍ إلى واحِدٍ شَفْع، وضَمُّ واحِد إلى ثلاثة شَفْع، وهكذا.

أما تعريف الشَّفاعة في الاصطِلاح: فهو التَّوسُّط للغير بجَلْب مَنفَعة أو دَفْع مَضرَّةٍ، أن تَتوسَّط لغيرك إمَّا بجَلْب مَنفَعة له أو دَفْع مَضرَّة، فالشَّفاعة لأهل الجَنَّة أن يَدخُلوا الجَنَّة هي في جَلْب مَنفَعة، والشفاعة فيمَن استَحَقَّ النار ألَّا يَدخُلها، وفيمَن دخَلها أن يَخرَج، فهذه شَفاعة لدَفْع الضرَر.

فلا تَخلو الشفـاعة من هذين الأمرين، إمَّا لجَلْب النَّفْع، وإمَّا لدَفْـع الضرَر، مثاله: إنسان شَفَع لشَخْص في أن تُعْلَ مَرتَبَتُه هذا لجَلْب مَنفَعة، شَفَع لشَخْص كُتِب عليه غَرامة أن تُرفَع عليه الغرامة، فهذا لدَفْع مَضرَّة.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ وهل الإِذْنُ كَوْنيٌّ أم شَرْعيٌّ؟ الكونيُّ يَعنِي: إلَّا مَن رُخِّص له في أن يَشفَع، وشَرْط الإِذْن أن يَكون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى راضِيًا عن الشافِـع والمَشفوع له، فيأذن فيها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كرامةً للشـافِع، وبيانًا لفَضْله،

ورحمةً بالمَشفوع له، وإحسانًا إليه.

وقول: ﴿عِندَهُۥ﴾ أيْ: عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ وهنا لا تَنفَع الشَّفاعة عنده إلَّا لَمَن أَذِنَ له؛ لكَمال سُلْطانه، فالنَّفْيُ هنا مُتضَمِّن لإثباتٍ وهو كَمال السُّلْطان؛ لأنَّ من كَمال السُّلْطان ألَّا يَتكَلَّم أحَدٌ عند المَلِك المَشفوع إليه أبَدًا إلَّا بإِذْنه.

ولهذا تَجِد الإنسان إذا كان ذا هَيْـبة عند الناس وكان في مَجلِسٍ تَجِد الناس لا يَتكَلَّـمون هَيْبةً له، وتَجِد السُّلْـطان إذا كان ذا هَيْبة ما أحَـدٌ يَقدِر أن يَتكَلَّم في مكان جُلوسه ولا مع أخيه سِرًّا؛ لأنهم يَهابونه؛ فلِكَمال سُلطان الله لا يَستَطيع أحَدٌ أن يَشفَع إلَّا بإِذْنه، حتى أَخصُّ عِباده به وهمُ الأنبياءُ وأَخصُّهم محمدٌ ﷺ لا يُمكِن أن يَشفَع إلَّا إذا أَذِنَ الله تعالى، حتى في مَقام الرحمة يوم القِيامة فإن الله تعالى يَجعَل يوم القِيامة مِئة رحمة يَرحَم بها الخَلْق في مَقام الرحمة وعند شِدَّة الهمِّ والغمِّ المُقتَضي لرحمة الله تعالى ما يُمكِن أن يَشفَع الرسول ﷺ إلَّا بإِذْن الله تعالى أبَدًا؛ لكَمال سُلْطان الله إذا كانت الشفاعة لا تَنفَع إلَّا بإِذْن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهل هذه الأَصْنامُ المَكروهة عند الله تعالى المُنحطَّةِ عنده قَدْرًا هل يُمكِن أن تَشفَع لعابِديها؟ أبَدًا حتى عيسى ﷺ الذي عُبِد من دون الله تعالى لا يُمكِن أن يَشفَع لعابِديه؛ ولهذا يَقول عَلَيْهِ السَّلَامُ يومَ القِيامة: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة:١١٧]، ولا يُمكِن أن يَشفَع لهم، ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ وقد سبَق أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يَأذَن إلَّا إذا كان الشافِع والمَشفوع له من أهل الشَّفاعة، وقال الله تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم:٢٦]، وقال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء:٢٨]؛ ولهذا

قال العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ: إنَّ شُروط الشَّفاعة ثلاثة: رِضا الله عن الشافِع، ورِضاه عن المَشفوع له، والثالِث إِذْنه بالشفاعة.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ حتى هنا ابتِدائيَّة وليست غائيَّةً؛ لأنَّ (حَتَّى) تَأتي للغاية، وتَأتي للابتِداء وتَأتي للتَّعليل، ولها مَعانٍ مُتعدِّدة مَنْ أَحبَّ الوقوف عليها فليَرجِع إلى كِتاب (مُغنِي اللَّبيب) لابن هِشام[1] رَحِمَهُ اللَّهُ، فإنه مُفيدٌ لطالِب العِلْم، يَقول تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ فيها قِراءتان ﴿فُزِّعَ﴾ و(فَزَّعَ) كما قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [بِالْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ وَالْمَفْعُولِ].

وقوله تعالى: ﴿عَن قُلُوبِهِمْ﴾ أي: عن قُلوب الخَلْق، أو عن قُلوب المَلائِكة، فيها قَوْلان لأَهْل العِلْم، وسيَأتي -إن شاء الله تعالى- بيانُهما.

﴿فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [كُشِفَ عَنْهَا الْفَزَعُ بِالْإِذْنِ فِيهَا]، و(فَزَّعَ) و(فُزِّعَ) بمَعنى: أَزال الفزَع، وليس (فَزَّع) بمعنَى: أَلحَق الفزَع، بل بمَعنى أَزالَه، وهو فِعْل يُراد به السَّلْب؛ لأنَّ هناك أَفعالًا يُراد بها سَلْب المَعنَى؛ يَعنِي: ضِد هذا المَعنَى، ومِنه قولهم: قَرَّد البَعيرَ. أي: أَزال منه القُراد، وهو شيءٌ يَكون في جِلْد البَعير دابَّة أو حشَرة صغيرة تَعَضُّ البَعير فتَشرَب الدَّمَ منها، وهو مِثْلُ القَمْل للإنسان، هو قَمْل الإبِل، يَعنِي: يَلصَق في الجِلْد، وهو إذا أَمسَك الجِلْد ما يُطلِقه أبَدًا إلَّا أن تُمسِكه وتَجُرَّه جرًّا.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ أو (فَزَّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ) يَعنِي: أَزال الفزَع عن قُلوبهم، قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [بِالْإِذْنِ فِيهَا] أي: بالشَّفاعة، وعلى هذا فيَكون الضميرُ هنا عائِدًا على المَشفوع له، يَعنِي إذا لحِق المَشفوع له من الهمِّ والكَرْب والغَمِّ ما

(١) مغني اللبيب (ص:١٦٦).

لَحِقه، وكذلك الخوف والفزَع فأَذِن الله تعالى له بالشَّفاعة زال الفزَع عن القُلوب؛ لأنَّه قرُب الفرَج قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ بالإِذْن فيها.

وقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالُوا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ اسْتِبْشَارًا: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ فِيهَا أَيْ: فِي الشَّفَاعَةِ ﴿قَالُوا﴾ الْقَوْلَ: ﴿ٱلْحَقَّ﴾، أَيْ: قَدْ أَذِنَ فِيهَا ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ﴾ فَوْقَ خَلْقِهِ بِالْقَهْرِ ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ الْعَظِيمُ] أفادنا المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ الضمير في ﴿قُلُوبِهِمْ﴾ يَعود على المَشفوع له، فإن المَشفوع له قبلَ الشفاعة يَلحَقه الفزَعُ والخوفُ من ذُنوبه، أو من غير ذلك، فإذا أُذِنَ في الشَّفاعة زال الفزَع، وقالوا: ماذا قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فيَقول بعضهم لبعضٍ: ﴿قَالُوا ٱلْحَقَّ﴾ أي: قالوا القولَ الحقَّ؛ بمَعنى: الثابِت المُوافِق لَمحلِّه، وقد سبَق لنا أنَّ الحقَّ في الأخبار هو الصِّدْق، والحقُّ في الأحكام هو العَدْل، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:١١٥].

وهذا ما ذهَب إليه المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ على أنَّ الضمير في ﴿قُلُوبِهِمْ﴾ يَعود إلى المَشفوع لهم، وأن التَّفزيع بمَعنَى إزالة الفزَع، وهو الخَوْف بالإِذْن في الشَّفاعة، والسِّياق لا يَأباه، ولكن قد ثبَت في الحديث الصحيح عن النبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أنَّ المُراد به غير ذلك، وأن المُراد به الملائِكة الذين هم عند الله تعالى، إذا تكلَّم الله تعالى بالوَحْي صُعِقُوا، فإذا صُعِقُوا ﴿فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ يَعنِي: أُزيل الفزَع عنها، ثُم صاروا يَتساءَلون: ماذا قال الله تعالى؟ فيُقال: ﴿قَالُوا ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾.

وإذا جاءَتِ السُّنَّة بتَفسير القرآن كانت أَوْلى، على أننا سبَق أن قُلْنا: إنَّ القُرآن إذا دلَّ على عِدَّة مَعانٍ لا تَتَناقَض حُمِل على جميع المعاني؛ لأنه أَوْسَعُ وأَعظَمُ ممَّا يَصِل إليه فِكْر الإنسان، فقد يَصِل فِكْري إلى شيء ويَصِل فِكْر الآخر إلى شيء آخَر، وفِكْر الثالث إلى شيءٍ ثالِث، والآية كلُّها تَحتمِل هذه المعانيَ، فتُحمَل عليها، أمَّا إذا كان

لا يَحتَمِل إلَّا مَعنًى واحِدًا فإنه يَجِب أن يُحمَل على ما قام الدليلُ عليه.

وقال بعض أهل العِلْم رَحِمَهُمُ اللَّهُ: حتى إذا فُزِّع عن قُلوبِهم عند الموت، ليس يومَ القِيامة (عِنْد الشَّفاعة)، ولكن إذا فُزِّع عن قُلوبهم (عِند الموت)، ولكن هذا ضعيف وإن كان قد يَرِد فيُفزَّع عن القَلْب عند المَوْت ويَعترِف بالحقِّ، فإنَّ فرعونَ حين غرِق ماذا قال؟ حتى إذا أدركه الغرَقُ قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [يونس:٩٠]، وقال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ﴾ [غافر:٨٤]، لكن هذا المَعنى ضَعيف، فالآيةُ دائِرة بين ما قاله المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ وما ثبَت به الحديث الصحيح، وهي دالَّةٌ قَطْعًا على ما جاء به الحديثُ الصحيحُ، وما ذكَره المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ فهو مُحتَمِل ولا تَأباه الآيةُ.

وقوله تعالى: ﴿ٱلۡحَقَّ﴾ وأمَّا إعرابُها صِفةٌ لَمصدَر محذوفٍ؛ أي قال: [الْقَوْلَ ﴿ٱلۡحَقَّ﴾] ولا يَصلُح أن تَكون مَفعولًا لـ(قَالُوا)؛ لأنَّ القول لا يَنصِب إلَّا جُمْلة أو مَا بمَعنى الجُمْلة، كقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾ [مريم:٣٠] أين مَقول القولِ؟ ﴿إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾ جُمْلة، أو بمَعنى الجملة؛ كقولِكَ: قُلتُ قصيدةً، أو قُلْتُ كلِمةً. هذه بمَعنَى الجُمْلة؛ لأنَّ الكلِمة والقَصيدة والشِّعْر لا يَكون إلَّا جُمْلة.

فإن قلتَ: ما تَقول في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرٗا﴾ [النحل:٣٠]؟

فالجوابُ: هذه ليست مَفعولًا لـ(قالوا)، لكنَّها مَفعول لفِعْلٍ محذوف؛ والتقديرُ: (أَنزَل خيرًا).

وقول المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [وَهُوَ الْعَلِيُّ فَوْقَ خَلْقِهِ بِالْقَهْرِ]، وهذا فيه إمَّا تَقصير

وإمَّا قُصور؛ لأنَّ عُلُوَّ الله عَزَّوَجَلَّ ليس بالقَهْر، بل عُلُوُّه ثلاثةُ أقسام: عُلُوُّ القَهْر، وعُلُوُّ القَدْر، وعُلُوُّ الذات، لكنَّ المُفَسِّر -عفا الله تعالى عنَّا وعنه- كأنَّه لا يَرَى عُلُوَّ الذات، والمُنكِرون لعُلُوِّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَنقَسِمون إلى قِسْمين: حُلوليَّة، ومُعطِّلة تَعطيلًا مَحْضًا.

فالحُلولية يَقولون: إنه يَجِب عليك أن تُؤمِن بأنَّ الله تعالى في كل مكانٍ بذاته، وتُنكِرَ عُلُوَّه، إن كنتَ في المَسجِد أو كنتَ في السُّوق، أو كنتَ في البَرِّ أو كنتَ في البَحْر، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بذاته في ذلك المكانِ، وإن كنتَ في الحُشِّ فهو في الحُشِّ!! والحُشُّ هو: مَكان التَّخلِّي، يَعنِي -والعِياذُ بالله تعالى- ما نَزَّهوا الله تعالى عن الأَنْتان والأَقْذار -نسأَل الله تعالى العافيةَ- ولا شَكَّ أنَّ هذا كُفْرٌ مَحْضٌ ولا يَشُكُّ أحدٌ في كُفْر مَنِ اعتَقَد هذه العَقيدةَ.

والطائِفة الثانية المُنكِرة للعُلُوِّ يَقولون: إنَّه لا يَجوز أن نَقول: إنَّ الله تعالى فوقَ العالَم ولا تَحتَه ولا يمينَ ولا شِمالَ ولا أمامَ ولا خلْفَ، ولا مُتَّصِلٌ ولا مُنفَصِلٌ، وهذا تَعطيل مَحْضٌ، يَعنِي: لو قيل لك صِفْ لنا المَعدوم؟ ما وَجَدْتَ أَشدَّ إحاطةً بالمعدوم من هذا الوَصْفِ، الذي ليس فوقَ العالَمِ ولا تَحتَه ولا يَمينَه ولا شِمالَه ولا خَلْف ولا أَمامَ، ولا مُتَّصِل ولا مُنفَصِل، هذا ليس بمَوجود قَطْعًا.

أمَّا الرُّسُل وأَتباعُهم فيُؤمِنون بأن الله بِذاته فوقَ كل شيء، وهذا هو الذي دلَّ عليه العَقْلُ والفِطْرة والإِجْماع والكِتاب والسُّنَّة.

ولْنَسْتَعرِض لهذا الأَمْرِ، وإن كان -الحمدُ لله- ظاهِرًا.

فظاهِر الكِتاب دلَّ على أن الله تعالى بذاته فوقَ عَرْشه؛ من وجوهٍ مُتنوِّعة: فتارَةً بذِكْر العُلُوِّ مِثْلَ: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الشورى:٤]، وتارةً بذِكْر الفَوْقيَّة مِثْلَ:

﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام:١٨]، وتارةً بِذِكْر صُعود الأشياء إليه مِثْل: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر:١٠]، وتارةً بِذِكْر نُزول الأَشْياء منه، مِثل قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [السجدة:٥]، فقَدْ تَنوَّعَتِ الأدِلَّة من كِتاب الله تعالى على عُلوِّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وأمَّا السُّنَّة فكذلك، دلَّتِ السُّنَّة على عُلوِّ الله تعالى بِذاته من قول الرسول ﷺ وفِعْله وإِقْراره؛ فقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «رَبُّنَا الله الَّذِي فِي السَّمَاءِ»(١)، وقال ﷺ: «أَلَا تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ»(٢)، وأمَّا فِعْله فإنَّه في يوم عرَفة وهو يَخطُب الناس عندما خطَب تلكَ الخُطْبة العظيمةَ قال ﷺ لهم: «أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: اللهمَّ اشْهَدْ»، يَرفَع أُصبُعه إلى السَّماء ويَنكُتها إلى الناس، «اللهمَّ اشْهَدْ»(٣)، هذه سُنَّة فِعْلية؛ بإشارته ﷺ إلى السماء حين ذكَر الله تعالى، وأمَّا الإقرارية فإنه أُتِيَ إِلَيْهِ بِجَارِيَةٍ فَسَأَلَهَا فَقَالَ: «أَيْنَ اللهُ؟ قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ. قَالَ: أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ»(٤)، هكذا قال، ويُعتبَر هذا إقرارًا، فقد تَنوَّعَتِ السُّنَّة بالدَّلالة على عُلوِّ الله تعالى بذاته.

وأمَّا الإِجْماع فقد أَجمَع السلَف من الصحابة والتابعين وأَئِمَّة الأُمَّة على أنَّ الله تعالى في السَّماء بذاته، ولم يَقُلْ أحَدٌ مِنهم بحرفٍ واحِد أبَدًا: إن الله تعالى ليس في السماء. أو: إنَّ الله تعالى في كل مَكان بذاته.

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الطب، باب كيف الرقى، رقم (٣٨٩٢)، والنسائي في الكبرى (١٠٨٠٩) من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب بعث علي بن أبي طالب (٤٣٥١)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم، رقم (١٠٦٤)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم (١٢١٨)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه مسلم: كتاب المساجد، باب تحريم الكلام في الصلاة، رقم (٥٣٧)، من حديث معاوية ابن الحكم السلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأمَّا العَقْلُ فاسأَلْ عَقْلَكَ: هل الكمال في عُلوِّ الذات أو في نَفْي العُلُوِّ عنه؟

الجوابُ: الأوَّل بلا شَكٍّ، عُلوُّ الذات تَدُلُّ على الكمال، بل هي الكمال، فإذا كان العُلوُّ هو الكمالَ، فإنَّ من المعلوم عَقْلًا أن الربَّ مُتَّصِف بالكمال، وحينئذٍ يَثبُت له العُلوُّ عَقْلًا.

أمَّا الفِطْرة فاسأَلْ فِطْرَتَكَ عندما تَسأَل الله تعالى شيئًا -افرِضْ أنَّك ما درَسْتَ ولا حضَرْت في المساجد ولا شيء- إذا سألْت الله شيئًا أينَ يَنصَرِف قلبُكَ؟

الجوابُ: إلى الأعلى؛ ولهذا كان أبو المَعالي الجُوَيْنيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يُقرِّر فيقول: كان الله تعالى ولم يَكُن شَيْءٌ قبلَه، وكان عَرشُه على الماء. وما ذكَرَ استِواء العَرْش، يُريد بذلك أن يُنكِر استِواء الله تعالى على العَرْش الذي مِن لازِمه الإقرارُ بالعُلوِّ، فقال له أبو جعفر الهمَذاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «دَعْنا مِنْ ذِكْر العَرْش، وأَخبِرْنا عن هذه الضَّرورةِ التي نَجِدها في نُفوسنا، ما قال عارِفٌ قَطُّ: يا الله. إلَّا وجَدَ من قَلْبه ضَرورة بطَلَب العُلوِّ»، فلَطَم الجُوَيْنيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ على رأسه وصرَخَ وقال: حيَّرَني الهمَذانيُّ![1]. لأنَّ الدليلَ الفِطْريُّ لا يُمكِن النِّزاع فيه، ولو نازَعَك مُنازِع فيه قُلْتَ: هذا مجنون؛ فلو أن أحَدًا أنكَر طلَب الطَّعام للجائِع فلا يُصدَّق؛ ولهذا تحيَّر أبو المَعالي الجُوَيْنيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وعجَزَ عن الإجابة؛ لأنَّ هذا دَليل فِطْريٌّ لا يُنازِع فيه أحَدٌ.

وعليه فقد تَطابَقتِ الأدِلَّة على عُلُوِّ الله تعالى بذاته، أمَّا عُلوُّه بصِفاته سواء كانت صِفاتِ قَدْر أو قَهْر، فهذا يُقِرُّ به جميع المُنتَسِبين إلى الإسلام، حتى الجَهْميَّة والأشاعِرة وغيرُهم يُقِرُّون بأنَّ الله تعالى عالٍ عُلُوًّا مَعنويًّا، وهو عُلُوُّ الصِّفاتِ.

---

(١) انظر: منهاج السنة النبوية لابن تيمية (٢/ ٦٤٢-٦٤٣)، وسير أعلام النبلاء (١٨/ ٤٧٥).

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ﴾ فَوْقَ خَلْقِهِ بِالْقَهْرِ ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ الْعَظِيمُ] لا شكَّ أنَّ هذا ليس تَفسيرًا مُطابِقًا، وكأنَّ المُفَسِّر أَخذها مِنْ قَرْن (العَظيم) بـ(العَلِيِّ) في آية الكُرْسيِّ حيثُ قال تعالى: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وهنا قال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ ففَسَّر الكبيرَ بالعَظيمِ، ولكن الصحيح أن الكبير أعَمُّ؛ لأن الكبيرَ ليس مَعناهُ العَظيمَ، بل معناه: ذو الكِبْرياء، ومَعناه أن الله تعالى لا يُماثِله شيءٌ في ذاته.

فالسَّمَوات السَّبْع والأَرَضين السَّبْع في كَفِّه تعالى كخَرْدلةٍ في كفِّ أَحَدكم، يَعنِي: السمَّواتِ السَّبعَ على عِظَمِها والأَرَضين السَّبع مثلًا لو وضَع الإنسان في يَدِه خَرْدلة -وهي حَبَّة الخَرْدل التي بكِبَر حَبَّة السِّمْسِم- وهذا أيضًا تمثيل على سبيل التَّقريب، وإلَّا فالله تعالى أَعظَمُ وأجلُّ، فكل المَخلوقات بالنسبة له تعالى ليسَتْ بشيء.

فيَنبَغي أن نَقول: إنَّ الكبير ليس هو العَظيمَ. بل يُفيد مَعنًى آخَرَ، وهو الذي له الكِبرياء، وهو الذي لا يُنسَب إليه شيءٌ من خَلْقه، فالسَّمَواتُ السَّبعُ والأَرَضينَ السَّبعُ في كَفِّه كخَرْدلة في كفِّ أَحَدِنا.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: إثبات الشَّفاعة بإِذْن الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾، ولو كانت الشَّفاعة لا تنفع مُطلَقًا ما صحَّ الاستِثْناء، ولو كانت تَنفَع مُطلَقًا ما صحَّ النَّفيُ، إِذَنْ فهي تَنفَع بإِذْن الله تعالى.

فإن قلت: ما وَجهُ الدَّلالة على إثبات الشَّفاعة، مع أنه نَفَى الشفاعة؟

فالجوابُ: أنه عَزَّوَجَلَّ لم يَقُلْ: (ولا تَنفَع الشَّفاعة) فدَلَّ على إثباتها، لكن لا تَنفَع إلَّا بإِذْنه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: عَظَمة الله تعالى وقُوَّة سُلْطانه، تُؤخَذ من قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا تَنفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ أن الشفاعة لا تكون إلَّا بإِذْنه، خِلاف المَخلوقين مهما عَظُم مُلْكهم فإنه يَدخُل الشافِع على المَلِك والسُّلْطان ويَشفَع بهم، فكُلَّما عظُم السُّلْطان ازدادَتِ الهَيْبة، وصار لا يَتكَلَّم أحَدٌ إلَّا بإِذْن الله تعالى، كما قال تعالى في سورة: (عَمَّ يَتَساءَلون): ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ:٣٨].

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: قَطْع كُلِّ سبَب يَتعَلَّق به المُشرِكون في آلِهتهم؛ لأَنَّه قال تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ﴾ فهذا آخِرُ سبَب يُمكِن أن يَتعَلَّق به المُشرِكون، ومع ذلك نَفاه الله تعالى.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: بَيان كرَمِ الله على كُلٍّ من الشافِع والمَشفوع له؛ تؤخذ من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَتكلَّم بكَلامٍ مَسموع؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ بناءً على القَول الراجِح في معنَى الآيةِ؛ لأنه لولا أن المَلائِكة يَسمَعون كَلامه تعالى لم يُصعَقوا.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن كلام الله ليس ككَلام المَخلوقين، بل هُو أَعظَمُ؛ لأَنَّ السامِع له يُصعَق إلَّا أنْ يُثبِّته الله؛ لقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ قول الله كُلَّه حَقٌّ؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: إثبات الرُّبوبية؛ لقوله تعالى: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: إثبات عُلُوِّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بقوله: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ﴾، وهو يَنقَسِم إلى عُلوِّ الذات وعُلوِّ الصِّفات، وكِلاهما ثابِت لله.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: إِثْبات الكِبرياء لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أن للمَلائِكة عُقولًا وفَهْمًا وإِدْراكًا وقُلوبًا؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾، ولكن هل قُلوبهم كقُلوب الآدَمِيِّين؟

الجوابُ: الله أَعلَمُ، لا نَعلَم كيفيَّتها، والمَلائِكة صُمْدٌ، لا يَأْكُلون ولا يَشرَبون، وليس لهم أَجواف ولا أَمعاءٌ، لأَنَّه لا يَحتاج إلى الجَوْف والأَمْعاء إلَّا مَن يَأكُل ويَشرَب.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّ المَلائِكة يَتكلَّمون: ﴿قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾.

• • ۞ • •

الآيات (٢٤- ٢٦)

•●●•

قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [سبأ:٢٤-٢٦].

•●●•

قوله تعالى: ﴿مَن﴾ اسمُ استِفْهام، والمُراد به التَّحدِّي، تَحدِّي هَؤلاءِ المُشرِكين الذين يَعبُدون مع الله غيره، وهل هذه الأَصنامُ تَرزُقهم من السَّموات والأرض؟

الجوابُ: لا، ولكن الذي يَرزُق هو الله تعالى، فيَتَحدَّاهم بالسُّؤال: ﴿مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: (مِنْ) لابتِداء الغاية؛ أي: أنَّ الرِّزق يَأتي من السَّموات، والرِّزق بمعنى: العَطاء، فما هو الرِّزق من السَّموات؟ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [بالمَطَر]، فإنَّ المَطَر رِزقٌ يَنزِل إلى الأرض فتَنبُت، وأمَّا الرِّزْق من الأَرْض فأَمْره ظاهِر ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:٢٩]، ثُم إننا نَقول بأنَّ الرِّزق من السَّموات أشمَلُ من المَطَر؛ فإن السَّموات يَنزِل منها المطَر ويَنزِل منها المَنُّ والسَّلْوى، وربما نَقول: إنَّ الطُّيور في جَوِّ السماء أنها من رِزْق السماء؛ لأنها تَأتي من فَوقُ، فكُلُّ ما يَأتي مِن فَوقُ فإنه يَصدُق عليه أنه رِزقٌ من السَّموات.

والمطَر يَنزل مِن سماءٍ واحدةٍ، مِن العُلو؛ ويُراد بالسَّموات أحيانًا جهة السمواتِ كما في قولِه تعالَى: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ في السَّمواتِ، معَ أنَّه في العُلو مِن جِهة الغَرب.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الخِطاب في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ﴾ للرسول ﷺ، والمُخاطَب في قوله: ﴿مَن يَرْزُقُكُم﴾ المُشركون الكُفَّار فبماذا يُجيبون؟ أَحيانًا يُجيبون بالصواب كما في قوله تعالى في سورة يُونُس: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس:٣١] هذا جوابٌ صحيح، وأَحيانًا لا يُجيبون يَتلعْثَمون أو يَأبَوْن أن يَتكلَّموا عِنادًا وخوفًا من الإِلْزام؛ لأنهم إذا قالوا: الله. أُلزِموا بألَّا يَعبُدوا إلَّا الله تعالى؛ كيف تَعبُدون مَن لا يَرزُق؟!

فهُمْ أحيانًا يُجيبون بالصَّواب ويَقولون: الله. ثُم يُكابِرون ويُعانِدون ويَقولون: (إِنَّما نَعبُدهم شُفعاءَ لنا عِند الله تعالى؛ لِيُقرِّبونا إلى الله تعالى زُلْفَى)؛ أي: ما نَعبُدهم لِذَواتهم، وأَحيانًا يَأبَوْن الجوابَ يَتَلعْثَمون؛ لأنَّ الحَقَّ ثَقيل عليهم.

فإذا لم يَقولوا شيئًا فقُلِ: الله؛ ولهذا قال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ هو الذي يَرزُقكم من السَّمَوات والأرض. فإن أَبَوْا بأن قالوا: لا، هو غَيرُه. ولكن لا يَملِكون أن يَقولوا: هو غيرُه. فقُلْ: مَن؟ أَعِدْ عليهم السؤال مرَّةً ثانِيةً.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [إِنْ لَمْ يَقُولُوهُ] يَعنِي: إن لم يَقولوا: الله، فأنت قُلْ هذا وأَعلِن هذا، [لا جوابَ غيره]، يَعنِي: لا يُمكِن أن يُجيب أَحَد بغير هذا الجوابِ، وإن أَجاب فقُلْ له: أين ذلك؟ وكيف يَكون؟

وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ فإذا كان هو الله، فما الواجِب علينا نَحنُ؟ إذا كان الذي يَرزُقنا هو الله فمِن أين نَطلُب من الرِّزْق؟ من الله تعالى، والذي أحَقُّ أن يُعبَد هو الذي يَرزُق.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى﴾: ﴿وَإِنَّآ﴾ الضمير يَعود على النَّبيِّ ﷺ ومَن آمَن معَه، ﴿أَوْ﴾ حرف عَطْف (إيَّا) مَعطوفة على اسم (إنَّ)؛ ولهذا جاءَت بالضمير المُنفصِل المَنصوب؛ وخبَرُ المُبتَدَأ قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ يَعنِي: أننا لا نَخرُج عن إحدى هاتَيْن الحالَيْن: إمَّا الهُدى، وإمَّا الضَّلال؛ ولا يَخرُج أحَدُنا عن ذلك؛ فإمَّا نَحنُ على الهُدى وأنتم على الضَّلال، وإمَّا نحن على الضَّلال وأنتُم على الهُدَى، وأَمَّا كلُّنا على الهُدى أو كلُّنا على الضَّلال فلا؛ لأنَّ قولَنا وقولهم مُتَناقِض؛ لأنه ليس بعد الحَقِّ إلَّا الضَّلال، والنَّقيضان لا يَجتَمِعان ولا يَرتَفِعان؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، وليس هُناك ثالِثٌ؛ فماذا بعد الحَقِّ إلَّا الضَّلال!.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ﴾ أي: أحَدُ الفَريقين ﴿لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَعَلَىٰ هُدًى﴾ ولم يَقُل: (لَفي هُدًى أو في ضَلال) ولم يَقُلْ: (لعَلَى هُدًى) أو (ضَلال)؛ لأن الذي على هُدًى على جادَّة بيِّنة عُلْيا واضِحة؛ فلهذا قال تعالى: ﴿لَعَلَىٰ هُدًى﴾، وصاحِب الضَّلال مُنغَمِس في ضَلاله تائِه حائِر ليس له حَقٌّ من العُلوِّ، بل هو مَغمور بالجَهْل بكل جانب؛ ولهذا قال: ﴿أَوْ فِي ضَلَٰلٍ﴾ و(في) للظَّرْفية، ومَعلوم أن الظَّرْف مُحيط بالمَظروف؛ فالضَّلال مُحيط بِهِم قد أَعمَى بصائِرَهم.

وقوله: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى﴾ يَعنِي: أننا على هُدًى ظاهِر بيِّن عالٍ

﴿أَوْ فِي ضَلَٰلٍ﴾ مُبين مُنغَمِس في الجَهْل والضَّلال لا نَدرِي أين يَذهَب!

وتَأمَّل ما في هذه الآيةِ من الإنْصاف، فهو إِنْصاف تامٌّ لا جِدالَ فيه؛ يَقول: أَنَا أو أنت على هُدًى أو في ضَلال مُبين؛ فهذا إِنْصاف؛ فلو قلت: أنا على هُدًى وأنت على ضَلال صار هذا جَوْرًا، ولا يُطيعك أحَد؛ لأن خَصْمك سيَقول: (بل على العَكْس: أنا على هُدًى وأنت في ضَلال!)؛ فإذا أَنصَفتَ وقُلتَ: أنا أو أنت على هُدًى أو في ضَلال مُبين، فإن ذلك إِنْصاف لا أحَدَ يُجادِل فيه.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ بيِّن] أَفادَنا المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن المُبين مِن الرُّباعيِّ بمَعنى: بيِّن، من الثُّلاثي؛ لأن (أَبان) تَأتِي مُتعَدِّية وتَأتي لازِمة؛ فتَقول: (أَبان الحقَّ) بمَعنَى: أَظهَره، وتَقول: (أَبان الصُّبْح) و(بان الصُّبْح) بمَعنَى: ظهَر.

إِذَنْ: ﴿مُّبِينٍ﴾ تَقَع في سِياق بمَعنَى: مُظهِر، وتَقَع في سِياق بمَعنَى: ظاهِر، فمثَلًا في ﴿ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ بمَعنَى: ظاهِر، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [الزخرف:١-٢] بمَعنَى: المُظهِر، وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ فهُوَ بمَعنَى: المُظهِر. أمَّا (بانَ) بدون هَمْزة فهي بمَعنَى ظهَر لا غيرَ، ولا تَأتي بمَعنَى: مُظهِر.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [في الإِبْهام تَلطُّف بهم، داعٍ إلى الإيمان إذا وُفِّقوا له]، قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [في الإِبْهام] الإبهام في: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ﴾ فلم يَقُلْ: نحن على هُدًى وأنتم على ضَلال، أو نحن على ضَلال وأنتم على هُدًى، بل قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ﴾، وهذا إبهام؛ لأنه لا يُدرَى أهؤلاءِ أَمْ هؤلاءِ؛ فيَقول: إن هذا الإبهامَ فيه تَلطُّف بهم داعٍ إلى الإيمان إذا وُفِّقُوا له، هذا من جِهة مُعامَلتهم، وفيه أيضًا ما أَشَرْنا إليه قبلُ، وهو الإنصاف والعَدْل وعدَم الجَوْر، فمَعناه: أننا نَقِف

معَكم مَقام المُنصِف؛ فإمَّا نحن على الحَقِّ وأنتُمْ على الباطِل، وإمَّا أنتُم على الباطِل وأنتُمْ على الحَقِّ، ليس هناك سَبيل ثالِث.

ثُمَّ قال تعالى: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾؛ لأَنَّنا بَريئُون مِنكم، ﴿قُل﴾ لهم مُخاطِبًا إيَّاهم في مُجادَلتهم ﴿لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا﴾ والجُرْم والإِجْرام بمَعنَى: الذَّنْب؛ يَعنِي: الذي وقَعْنا فيه من الإِجْرام لا تُسأَلون عنه؛ قال تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ [البقرة:١٣٤]، وقال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة:٢٨٦]، فالإنسان لا يُسأَل عن جُرْم غيرِه، ولا يُسأَل غيرُه عن جُرْمه، كذلك لا نُسأَل عمَّا تَعمَلون من إِجْرام أو غيرِه.

وفي هذه الجُمْلةِ في الحَقيقة غَضاضة على النَّفْس أكثَرَ من الغَضاضة على الخَصْم: فبالنِّسْبة لنا قُلْنا: لا تُسأَلون عمَّا أَجرَمنا؛ أوَّلًا: وَصَفْنا عمَلَنا بأنه إِجْرام، وثانيًا: وصَفْناه بالفِعْل الماضي الدالِّ على الوُقوع: ﴿عَمَّآ أَجْرَمْنَا﴾.

وفي الخَصْم قُلْنا أوَّلًا: ﴿وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، وليس عمَّا تُجرِمون؛ وكل هذا مِن باب التَّلطُّف، والله يَعلَم مَن المُجرِم مِن غيره، لكن لأَجْل أن نُقيم الحُجَّة على هؤلاءِ بأنَّنا عامَلْناهم بأكمَلِ العَدْل والإِنْصاف، بل بما ظاهِره الغَضاضة علينا؛ وثانيًا أنه قال تعالى: ﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ولم يَقُل: عمَّا عمِلْتم. ومَعلوم أن الماضِيَ مُحقَّق الوُقوع، والمُضارِع قد يَقَع وقد لا يَقَع فـ﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ يَعنِي: ما عمِلْتم.

فتَأمَّل كيف كانت هذه المُحاجَّةُ في ظاهِرها الغَضاضة على المُسلِمين؛ ففي الأوَّل: وإنَّا أو إيَّاكُم. هذه مَرتَبة، وهي كافِية في إقامة العَدْل والإنصاف، لكن الثانية أعظَمُ منها: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

ونَظير هذا: ما وقَعَ من النَّبيِّ ﷺ مع قُرَيْشٍ في صُلْح الحُدَيْبِية مِن أن مَن ذهَب من المُسلِمين إليهم لا يَرُدُّونه، ومَن جاء من المُشرِكين مُسلِمًا إلى الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فإنه يَرُدُّه؛ فعِندما تَنظُر إلى هذا الشَّرْطِ تَجِد أنه شرطٌ الرابعُ فيه هُمُ المُشرِكون؛ ولهذا قال عُمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لِمَ نعطِي الدَّنيَّة في دِيننا؟ ولماذا نَتنازَل هذا التَّنازُلَ ونحن على الحقِّ وهُم على الباطِل؟! ولكن الرسول ﷺ أَجابه بقوله: «إِنِّي رَسُولُ الله وَلَسْتُ عَاصِيَهُ وَهُوَ نَاصِرِي»، فانظُرْ إلى الثِّقَة بالله في هذا المَقامِ الضَّنْكِ الذي لم يَصبِر عليه أَجلَدُ الصحابة كعُمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أَجابه ﷺ بكلام هادِئ، كلام واثِق بالله، جازِم بالنَّصْر: «إِنِّي رَسُولُ الله»، والرسول يَأتَمِر بأَمْر مَن أَرسَله «وَلَسْتُ عَاصِيَهُ»، هذا بالنِّسبة للطاعة؛ ثُمَّ الثِّقَة: «وَهُوَ نَاصِرِي»، كقول مُوسَى لَمَّا قال: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء:٦٢]، فما أَعظَمَ ثِقةَ الرُّسُل عليهم الصلاة والسلام بنَصْر الله عَزَّوَجَلَّ، ونَسأَل الله تعالى أن يَهَب لنا من الثِّقة به ما يَزداد به إيمانُنا وتَوكُّلُنا.

وأَقول: إن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَتَى بهذه الشُّروطِ مع أن فيها غَضاضةً على المُسلِمين في ظاهِرها، ولكن كان في هذا الاتِّفاقِ فَتْحٌ عَظيم سَمَّاه الله عَزَّوَجَلَّ فتحًا فقال: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْ﴾ [الحديد:١٠]، فسَمَّاه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فَتْحًا؛ وقال الرسول ﷺ: «أَمَّا مَنْ جَاءَ إِلَيْنَا مِنْهُمْ فَرَدَدْنَاهُ فَسَيَجْعَلُ الله لَهُ فَرَجًا، وَأَمَّا مَنْ ذَهَبَ مِنَّا إِلَيْهِمْ فَلَا نُرِيدُهُ لَا رَدَّهُ الله»، وحصَل هذا في قِصَّة أبي بَصير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ حتى انتهى الأَمْر إلى إِلْغاء الشَّرْط من قِبَل المُشرِكين.

والشاهِدُ: أن صاحِب الحَقِّ وإنْ أَتَى بما ظاهِره الغَضاضة فإنه واثِق؛ فهنا قال تعالى: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

وانظُرْ إلى الثِّقة قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ يوم القِيامة]، وهذا الذي ذكَره المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ لا شَكَّ أنه مُحتَمَل في الآية، ويُحتَمَل أن الجَمْع أعَمُّ من ذلك، وهو الجَمْع في القِتال والجَمْع يوم القِيامة يجمَع بَيْننا ربُّنا في الدُّنيا في القِتال كما قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ [الفرقان:٤١]، فهؤلاء وهؤلاء جَمَع الله تعالى بينهم، فيُمكِن أن يُراد بقَوْله تعالى: ﴿يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ أي: في الدنيا في القِتال وفي الآخِرة للفَصْل، ثُم بعد ذلك يَفتَح بيْننا، يَحكُم بَيْننا بالحَقِّ، فيُدخِل المُحِقِّين الجَنَّة والمُبطِلين النار.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا﴾ يَعنِي: يَنصُر بعضَنا على بَعْض في الدُّنيا، والمُستَحِقُّ للنَّصْر منهمُ المُسلِمون بلا شَكٍّ؛ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد:٧]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج:٤٠]، فيَجمَع الله تعالى بينَنا، ثُم يَفتَح بينَنا بالحَقِّ، والحَقُّ يَعنِي: بالعَدْل الذي لا جَورَ فيه.

وإنها قُلْنا: إن الحَقَّ هنا هو العَدْل؛ لأنه وُصِف به الحُكْم قال تعالى: ﴿يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾، وقد أَشَرْنا فيما سبَق إلى أن الحَقَّ إن أُضيف إلى الأَخْبار فهو بمَعنَى الصِّدْق، وإن أُضيف إلى الأَحْكام فهو بمَعنَى العَدْل.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ﴾ الحاكِم ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما يَحكُم به] ﴿الْفَتَّاحُ﴾ صِيغة مُبالَغة مِثْل (الرَّزَّاق) صِيغة مُبالَغة، وإنما سَمَّى الله تعالى نَفْسه بالفَتَّاح؛ لكَثْرة فُتوحاته على خَلْقه وحُكْمه بينهم.

والفَتْح يَأتِي بمَعنَى: النَّصْر والحُكْم بين الناس والفَصْل، فله مَعانٍ بحسَب السِّياق، فالله تعالى هو الفَتَّاح الذي يَفتَح على عِباده بالنَّصْر، ويَفتَح على عِباده بالعِلْم، ويَفتَح على عِبادة بالفَهْم، ويَفتَح على عِباده بحُسْن النيَّة والقَصْد؛ فهو مُتضمِّن لأَشياءَ كثيرةٍ؛ ولهذا جاء بصِيغة المُبالَغة ﴿ٱلْفَتَّاحُ﴾.

وأمَّا قوله تعالى: ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ فهو ذو العِلْم الواسِع، وقد سبَقَ لنا أن عِلْم الله أزَليٌّ أبديٌّ؛ أزَليٌّ لم يُسبَق بجَهْل، أبَديٌّ لا يَلحَقه نِسيان قال الله تعالى: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾، يَعنِي: لا يَجهَل ما سيأتي ولا ينسى ما مضى.

وعِلْم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مُحيط بكُلِّ شيء جملةً وتَفصيلًا؛ قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩]، فكل شيء فالله تعالى عالِم به جُملةً وتفصيلًا.

من فوائد الآيات الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: وُجوب مُناظَرة المُشرِكين ومُحاجَّتهم، ويُؤخَذ الوُجوب من قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾؛ لأنَّ الأصل في الأَمرِ الوُجوب.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنه يَنبَغي أن يُستَدَلَّ بالأَوْضَح والأَبيَن، فإن الرِّزق من الله عَزَّوَجَلَّ أَمْر مَعلوم لا يَستَطيع أحَدٌ أن يَقول: إنه يُنزِل المَطَر أو أنه يُنبِت النَّبات. وفي باب المُناظَرة يَنبَغي للإنسان أن يَستَدِلَّ بما هو أَبيَنُ وأَوْضَحُ، وهذه طريقة القُرآن كما سبَقَ لنا في (قواعِد التفسير).

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: جَواز إجابة السائِل عمَّا سأَل فيها هو واضِح؛ لقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾، ومِثاله من الأُمور العادِيَّة، أن تُسأَل مثَلًا: مَن الذي جاءَ بكذا وكذا؟ فتَتَوقَّف أو تَتَلَعْثَم؛ إمَّا جَهْلًا أو مُكابَرةً، فأَقولُ: أَلَيْس فُلان هو الذي جاء به فأُقرِّره.

وإجابة السائِل إنها تكون في الأُمور الواضِحة، أمَّا في الأمور غَيرِ الواضِحة فقَدْ يُعارِض، ولا يَكون جوابُه مُقنِعًا، لكن في الأمور الواضِحة للسائِل أن يُجيب نَفسه إذا تَلَعْثَم الخَصْمُ ولم يُجِب، أمَّا إذا أَجاب فالأَمْرُ واضِح، وهذا الاستِفْهامُ المَوْجود في الآية الكَريمة أَجاب عنه المُشرِكون بالحَقِّ في مَوْضِعٍ آخَرَ في سورة يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس:٣١].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: جَواز مُحاجَّة الخَصْم بما يُعرَف -عند عُلَماء المناظرة والجَدَل- في بابِ المُناظَرة بالسَّبْر والتَّقْسِيم، فالسَّبْر يَعنِي: تَتبُّع الشيء، والتَّقسيم يَعنِي التَّرديد بين هذا أو هذا، فمَثَلًا هُنا: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ فإذا تَتبَّعنا الحالَ وَجَدْنا أن حال كلٍّ مِنَّا لا تَخرُج عن حالين: إمَّا هُدًى، وإمَّا ضَلال، وهي إمَّا لنا، وإمَّا لكم، وليس هناك شَيْءٌ ثالِث، وهذا يُعرَف بالسَّبْر والتَّقسيم.

ونَظيرُه قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [مريم:٧٧]، هَذِه دَعْواهُ: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾ [مريم:٧٨]، يَعنِي: هل يَعلَم الغَيْب أنه سيُؤتَى مالًا وولَدًا: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ أم أن الله تعالى أَعلَمَهُ بذلك وعَهِد به إليه، والقِسْم الثالِث الكَذِب؛

ولهذا قال تعالى: ﴿كَلَّا﴾ [مريم:٧٩]، كلَّا: أي أنه لم يَطَّلِع الغَيْبَ، ولم يَتَّخِذ عند الرحمنِ تعالى ﴿عَهْدًا﴾، عهدًا: الشيءُ بين هذا وهذا حتى يَتبيَّن أنه لا بُدَّ أن يَكون أحدَ الأَمْرين.

مِثال ذلك: نحنُ أو أَنْتُم الآنَ أمامَنا طريقان هُدًى أو ضَلال؛ إمَّا نحن على الهُدَى وأَنْتم على الضَّلال، أو نحن على الضَّلال وأَنْتم على الهُدَى، كذلك الآيةُ التي في سُورة مريمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ واضِحة جِدًّا ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا﴾ [مريم:٧٧-٧٨] وجهُ ذلك: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال: هل هذا اطَّلَع الغَيْبَ وعَلِمَ أنه سيُؤتَى مالًا وولَدًا أَمِ اتَّخذ عند الرحمن سبحانه عَهْدًا، أي: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَخْبَره وعَهِد له بأنه سيُؤتيه مالًا وولَدًا؛ لأن دَعْواهُ هذه إمَّا أن تَكون كذِبًا أو عنده عِلْم من الغَيْب أو عَهْد من الله تعالى، قال الله تعالى في هذا: ﴿كَلَّا﴾ يَعنِي: ولا هذا ولا هذا، إذا انتَفَى هذا وهذا ماذا يَبقَى له؟ يَبقَى الكَذِب أنها دَعوَى كاذِبة لا حقيقةَ لها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ [مريم:٧٩-٨٠].

ومنه أيضًا: ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة:٨٠]، والجوابُ: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، والجوابُ: أنهم قالوا على الله تعالى ما لا يَعلَمون.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: التَّلطُّف مع الخَصْم والتَّنزُّل معه للوصول إلى الإقرار بالحَقِّ، من قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ فإنَّ هذا التَّنزُّلَ في غاية التَّنزُّل مع الخَصْم والتَّلطُّف معه؛ ليُقِرَّ بالحَقِّ، وانظُرْ إلى نَحوٍ من ذلك:

﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل:٥٩]، ومعلومٌ أنَّ الله تعالى خَيرٌ، ولكن من باب التَّنزُّل معهم قِيل لهم: الله تعالى خيرٌ أم أَصنامُكم وآلِهتُكم.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: المُبالَغة في التَّنزُّل مع الخَصْم، وتَحمُّل الغَضاضة للوُصول إلى الغاية المَقصودة؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

ونَظيرُ هذا التَّنزُّل مع الخَصْم وتَحمُّل الغَضاضة: الشروطُ التي وقَعَتْ بين النبيِّ ﷺ وبين قُرَيْشٍ في صُلْح الحُدَيْبية[1]؛ وكانت النَّتيجة والعاقِبة للرسول ﷺ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن الإنسان لا يُسأَلُ عن عمَلِ غَيْره ولا يُسأَل غيرُه عن عمَلِه؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

ونَظيرُ ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ [فاطر:١٨]، كلُّ إنسانٍ وعمَله، ويُستَثْنى من ذلك ما إذا كان عمَلُ الغير ناشِئًا عن عمَلِك، بأن تكون أنت الدَّالَّ عليه أو المُعينَ عليه، فإنَّ لك من وِزْره بقَدْر عمَلِك.

وأمَّا قول النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»[2]، فهَذا لا يُخالِف الآياتِ الكريمةَ؛ لأنَّ حقيقة الأمر أنَّ وِزْر الغير مَبنِيٌّ على وِزْرك، فيَكون من فِعْلك فيَدخُل في إِجْرامِك.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد، رقم (٢٧٣١)، من حديث المسور ابن مخرمة، ومروان بن الحكم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة، رقم (١٠١٧)، من حديث جرير بن عبد الله البجلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: إثبات السُّؤال عن العمَل؛ لأنَّ قوله تعالى: ﴿لَّا تُسْـَٔلُونَ﴾ كُلٌّ مَسؤولٌ عن عمَله، ولو كان السُّؤال مُنتَفيًا مُطلَقًا، ما صحَّ أن يُقال: لا تسألون عمَّا أَجرَمْنا، فكُلُّ إنسان مَسؤولٌ عن عمَله ولا بُدَّ، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص:٦٥]، وقوله تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ [الأعراف:٦-٧]، وما دام الإنسان يُؤمِن بذلك، بأنه سيُسأَل عن عمَله، فسوف يَحرِص غاية الحِرْص، على أن يَكون عمَله مُوافِقًا لشَرْع الله تعالى.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: إثباتُ البَعْث والجَمْع، وهذا الجَمْعُ ثابِت بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ [التغابن:٩]، ويَدخُل فيه أيضًا الجَمْعُ في الدنيا في القِتال؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ [الأنفال:٤١].

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: الرَّدُّ على القَدَرية بقوله تعالى: ﴿يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ ومَعلومٌ أن اجتِماعنا من فِعْلنا، فأَضافَه الله تعالى إلى نَفْسِه؛ لأنه هو المُدبِّر له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى المُقدِّر له.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّ حُكْم الله عَزَّوَجَلَّ كُلُّه حَقٌّ وعَدْل؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالعَدْل الذي ليس فيه ظُلْم ولا جَوْر.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: إثبات ما قرَّره أهل السُّنَّة والجماعة من أنَّ اسم الله تعالى إذا كان مُتعدِّيًا لم يَتِمَّ الإيمان به إلَّا بالإيمان بكونه اسْمًا، وبما تَضمَّنه من صِفة وبما تَضمَّنه من أثَر وحُكم؛ لقوله: ﴿يَفْتَحُ بَيْنَنَا﴾، ثُم قال بعد ذلك: ﴿وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ﴾ فدلَّ على أن أسماء الله عَزَّوَجَلَّ المُتعدِّية تَتضمَّن الأحكام والآثار المُترتِّبة على ذلك.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: إثبات اسمَيْن من أَسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ وهُما: (الفَتَّاح العليم)، وكما سبَقَ في الشرح: أن (الفَتَّاح) تَشمَل مَعانِيَ كثيرةً، الفَتْح بالنَّصْر وبالعِلْم وبالفَهْم وبالقَصْد الحَسَن وبغير ذلك، يَعنِي أنها اسْمٌ واحِدٌ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: إِثْبات العِلْم لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾، وأنه صِفة من صِفاته الثابِتة اللازِمة؛ لأنه مَوْصوف به أَزَلًا وأبَدًا في كِتاب لا يَضِلُّ ربي ولا يَنسَى.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: تهديد المُناظِر بالجَزاء المَجزوم به؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا﴾؛ لأنَّ هذا يَتضمَّن التهديد؛ لأننا نَعلَم أنَّ الله إذا فَتَح بينهم فسيكون الحقُّ مع المُسلِمين، بهذا عَرَفنا التَّرديد في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، والذين على هُدًى همُ المُسلِمون، وأن أُولئك على الضَّلال؛ لأنه لَوْ قَالَ قَائِلٌ: الآية فيها تَرديدٌ: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى﴾، وما عرَفْنا مَنْ الذي على الهُدَى؟

الجوابُ: همُ الذين يَفتَح الله تعالى عليهم ويَنصُرهم على أَعدائِهم بالحقِّ.

• ● ۞ ● •

الآية (٢٧)

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ كَلَّا بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [سبأ:٢٧].

قوله تعالى: ﴿أَرُونِيَ﴾ يقول المُفَسِّر: [أَعلِموني ﴿ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ﴾] وعلى تَفسير المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَكون هناك جُمْلة مَحذوفة: (أَروني الذين أَلْحَقْتم به شُركاءَ ماذا صنَعوا؟ هل خَلَقوا؟ هل رَزَقوا؟ هل فَتَحوا؟ هل هَدَوْا؟) كل ذلك لم يَكُن، ويُحتَمَل أن يَكون ﴿أَرُونِيَ﴾ أَبصِروني إيَّاه، من رُؤْية العَيْن، كما قال تعالى: ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [فاطر:٤٠]، وأيًّا كان فالمُراد بهذا الاستِفْهام التَّحدِّي؛ تَحدِّي هؤلاءِ المُشرِكين الذين جعَلوا مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شُركاءَ قُلْ: هاتوا الشُّرَكاءَ أَروني ماذا صنَعوا.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ﴾ يَعنِي: جعَلْتموهم شُركاءَ في العِبادة، لا في الخَلْق والرِّزْق؛ لأن المُشرِكين في عهد الرسول ﷺ لم يَدَّعوا أبدًا أن أَصنامهم شَريكة مع الله تعالى في الخَلْق والرِّزْق والتدبير أبدًا، بل كانوا مُقرِّين بتَوْحيد الرُّبوبية، لكنهم يُنكِرون إفراد الله تعالى بالعِبادة فيَعبُدون مع الله تعالى غيرَه، وهذا لا يَنفَعهم؛ أي أن إقْرارهم بالرُّبوبية لا يَنفَعهم مع إنكارهم لتَوْحيد الأُلوهية؛ نَقول: أَروني الذين أَحَقُّ من شُركائي في العِبادة.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كَلَّا﴾ رَدْع لهم عنِ اعتِقاد شَريك، أو رَدْع لهم أو إبطال لما يُمكِن أن يَدَّعوه من اعتِقاد الشريك، فقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كَلَّا﴾ يَعنِي: لا شَريكَ له، ففيها إبطال شِرْك هَؤلاءِ، بل إبطالٌ آخَرُ ﴿بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، ﴿بَلْ هُوَ ٱللَّهُ﴾ أي: هو الله، الجُملةُ هذه مُكوَّنة من مُبتَدَأ وخبَر ﴿هُوَ ٱللَّهُ﴾، وكِلاهما مَعرِفة، وقد قال أهل البَلاغة: إنه إذا عُرِّف المُسنَد والمُسنَد إليه في الجُملة الخَبَرية كانت دالَّة على الحَصْر؛ مثال ذلك: تَقـول: زَيْد قائِم. وتَقول: زيدٌ القائِمُ؛ الأُولى: زَيدٌ قائِـمٌ. لا تَمنَع أن يَكون غيرُه قائِمًا، والثانية: زَيْدٌ القائِمُ. تَدُلُّ على الحَصْر، أي: أنه وحدَه القائِمُ؛ وهنا: ﴿بَلْ هُوَ ٱللَّهُ﴾ جُملة خبَرية تُفيد الحَصْر، يَعنِي: ليس مَعبودٌ غير الله تعالى.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالِـب على أَمْره الحَكيـم في تَدبـيره لِخَلْـقه، فلا يَكون له شَريك في مُلْكه] في هذا قُصور جِدًّا.

فقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالِب] سبَقَ لنا أن العِزَّة لها ثلاثة مَعانٍ: عِزَّة القَدْر، وعِزَّة القَهْر، وعِزَّة الامتِناع، فهو عزيز القَدْر مثل قولِنا: فلان عَزيز عليَّ. أي: قَدْره عِندي عظيم، وعِزَّة القَهْر مثل قوله تعالى: ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ أي: غلَبَني فيه عِزَّة الامتِناع، أي: أن الله تعالى يَمتَنِع أن يَنالَه سُوء؛ لعِزَّته، ومنهم قولهم: (أَرْض عِزاز) أي: قوِيَّة صُلْبة.

أمَّا ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ فتَقدَّم أن الحكيم مُشتَـقٌّ من الحُكْم والإِحْكام، وأن الحُـكْم كونيٌّ وشرعيٌّ، والإحكام يَكون في الكونيِّ والشرعيِّ في وَصْفه أو في صورته وغايته، وحينئذ تكون الحَكيم دالَّة على أربعة أُمور: حُكْم كونيٌّ وحُكْم شرعيٌّ، وكل مِنهما مُحكَم في صُورته التي هو عليـها وفي الغاية منه، فتكون المَجموع أربعة؛ اثنان في اثنين بأربعة.

وأمَّا قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿الْحَكِيمُ﴾ في تَدبيره إلى خَلْقه فلا يَكون له شَريك في مُلْكه] فهذا خطَأ؛ لأن الشَّريك في المُلْك ما ادَّعاه المُشرِكون، والمُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ نفسه في الأوَّل يَقول: شُرَكاءُ في العِبادة، فحِينئذ يَكون الصوابُ: فلا يَكون له شَريك في عِبادته، فما دام هو الذي له العِزَّة والغلَبة والحُكْم والحِكْمة فإنه لا يَنبَغي أن يَكون له شَريك في العِبادة، بل العِبادة له وحدَهُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: فيها ممَّا سبَق مِن أنه من آداب المُناظَرة سُلوك التَّحدِّي فيما يُعلَم امتِناعه من الخَصْم؛ لأنَّك إذا تحدَّيْته في أمرٍ لا يُمكِنه وظَهَر عَجْزه تبيَّن بُطلان دَعواه، بخِلاف ما إذا تحدَّيْته بأمرٍ يُمكِنه أن يَفعَله فإن هذا ضرَر عليك.

فلا تَتَحدَّى الخَصْم إلَّا بأَمْرٍ يُعجِزه ولا يَتمَكَّن منه هنا، يَقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ﴾ يَعنِي: أَعلِموني ماذا خَلَقوا؟ ماذا نفَعوا؟

الجوابُ: لم يَخلُقوا شيئًا، ولم يَنفَعوا شيئًا، ولم يَدفَعوا ضرَرًا كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل:٢٠-٢١]، وقال إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لأبيه: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم:٤٢].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: وقوله تعالى: ﴿أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ﴾ يُستَفاد منها: أن الشِّرْك يَكون في العِبادة، كما يَكون في الخَلْق والتَّدبير، بمَعنَى أنَّ الشِّرْك يَكون في الأُلوهية كما يَكون في الرُّبوبية، ووجهُه: أنَّ هؤلاءِ المُشرِكين لم يَكونوا يُشرِكون في الرُّبوبية ولكنَّهم يُشرِكون في الأُلوهية والعِبادة.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنه لا يُمكِن أن يُرِيَ أحَدٌ من الناس أن لهذه الأَصْنام شيئًا من الخَلْق أو الرِّزْق أو التَّدبير، تُؤخَذ من قوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ يعني: لا يُمكِن أن تُرُوني شيئًا من هذه الأَصنامِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثباتُ اسْمَيْن من أسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهما: ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ و﴿ٱلْحَكِيمُ﴾، وما تَضمَّناه من صِفة، وهي: العِزَّة والحِكْمة والحُكْم، يَعنِي الحكيم ذو الحُكْم والحِكْمة.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ أفعال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يُمكِن أن تَقَع سَفَهًا؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ وهو الذي لا يَقَع في فِعْله سَفَه، وهذا شيء مَعلوم بالضَّرورة، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الدخان:٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [ص:٢٧]، وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون:١١٥].

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن الله عَزَّوَجَلَّ لا يُغلَب؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾، وإذا آمَنْت بذلك واستَنْصَرْت به تَبَارَكَ وَتَعَالَى علِمْتَ أنك لا تُغلَب.

• • ۞ • •

الآيــة (٢٨)

• ● ● •

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [سبأ:٢٨].

• ● ● •

سبَقَ لنا أن المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ فصَّل في قوله في تفسير (العزيز) [بِغَالِبٍ]، وفي قوله: الحكيمُ [بِتَدْبِيرِهِ لِلْخَلْقِ]، وأَخطَأَ أيضًا في قوله: [فَلَا شَرِيكَ لَهُ فِي مُلْكِهِ]؛ لأنه ليس المَقام مَقام نَفيِ الشريك في المُلْك، إنها المَقام مَقام نَفيِ الشَّريك في العِبادة، إذ إنَّ هَؤلاءِ المُشرِكين يَعترِفون بأن الله تعالى لا شَريكَ له في مُلْكه.

قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً ﴾ حالٌ من الناس قُدِّم للاهتِمام، ﴿لِّلنَّاسِ﴾ ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً ﴾، وهذا الاستِثْناءُ يُسمُّونه استِثْناءً مُفرَّغًا من أَعَمِّ الأَحْوال يَعنِي: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ ﴾ لأيِّ حال من الأحوال إلَّا لهذه الحالِ، يَعنِي: ﴿إِلَّا﴾ للناس ﴿ كَآفَّةً ﴾ بمَعنَى: جميعًا.

وقوله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿ أَرۡسَلۡنَٰكَ ﴾ الإِرْسال مَعناه: الأَمْر بتَبليغ الشيء؛ فأنت إذا أَرسَلْت شخصًا من الناس إلى شخص آخَرَ مَعناه أنك أَمَرْته أن يُبلِغ شيئًا ما إلى المُرسَل إليه؛ ولهذا قال العُلَماءُ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ في تفسير (الرسول): وهو الذي أُوحِيَ إليه بشَرْعٍ وأُمِرَ بتَبْليغه.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾: ﴿لِّلنَّاسِ﴾ مَعناه: همُ البَشَر، وسُمُّوا ناسًا

من قولهم: أَنِس. إذا تَحرَّك وعمِل، وعلى هذا فيَكون الناس اسْمًا مُشتَقًّا، وليس اسْمًا جامِدًا، قالوا: وأَصْله: (الأُناس)، لكنها حُذِفت الهَمْزة تَخفيفًا؛ لكَثْرة الاستِعْمال، ومثل ذلك قولُهم: شَرٌّ وخَيْر. كأَنْ تَقول: هذا خيرٌ من هذا. بمَعنَى: أَخيَرُ مِن هذا، فحُذِفتِ الهَمْزة للتخفيف؛ لكَثْرة الاستِعْمال، قالوا: ومِن ذلك (الله)، وأَصلُه الإِلَهُ؛ حُذِفتِ الهَمْزة للتَّخفيف؛ لكَثْرة الاستِعمال، على أن هذه المَسألَةَ الثانِيَةَ الأَخيرة فيها شيء من النَّظَر؛ لأن (الإِله) تَأتي إلى جانِب (الله)، وتَقول: هو الله الإِلَهُ العَظيمُ.. إلى آخِره.

وقول المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ أَيْ: كُفَّارِ مَكَّةَ]، وهذا قُصور من المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ؛ لأننا إذا قُلْنا: إنك أُرسِلْت إلى كُفَّار مَكَّةَ فغيرُهم لم يُرسَل إليهم، وهذا قُصور عظيم جِدًّا؛ كيف تَأتي كلِمة (الناس) في مَقام الرِّسالة ونَقول: المُراد بها كُفَّارُ مَكَّةَ.

والصوابُ: المُراد بها كُفَّارُ مَكَّةَ وغَيْرهم، وكُلُّ الكُفَّار إلى يوم القِيامة، وليس في حَياته فَقَطْ، إلى يوم القيامة للناس عُمومًا.

وقوله تعالى: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي: مُبشِّرًا للمُؤمنين بالجَنَّة، ونَذيرًا: مُنذِرًا للكافِرين بالعذاب، بَشيرًا: حالٌ أيضًا من الكاف في قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ ﴾، وقوله تعالى: ﴿بَشِيرًا﴾ (فَعيلٌ) بمعنى (مُفَعِّل) أو (بشير) بمَعنى: بِبِشارة، و(فَعيل) تَأتي بمُعنَى (مُفعِّل) كما أَسلَفْنا ذلك كثيرًا، وقوله تعالى: ﴿بَشِيرًا﴾ للمُؤمِنين بالجَنَّة ﴿وَنَذِيرًا﴾ للكافِرين بالنار، ويَنبَغي أن يُقال: بَشيرًا للمُؤمِنين بالجَنَّة -كما قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ- ونَذيرًا للعاصِين بالعُقوبة؛ ليَشمَل الإنذارَ عن الكُفْر والإِنْذار عن المَعاصي، بمَعنَى: أنه حتى المَعاصي رُتِّبَت عليها عُقوباتٌ، من أَجْل أن تَردَعَ الإنسان عن فِعْلها.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: فيها دليل على أن مُحَمَّدًا ﷺ عَبْد مَأْمور لا رَبٌّ آمِرٌ؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: عُموم رِسالة النبيِّ ﷺ على رَأْي الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ ﴿إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ﴾ فهو كَقَوْله ﷺ: «وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»(١)، أو لقوله تعالى: ﴿لِّلنَّاسِ﴾؛ لأنَّ (الناس) هُنا تُفيد العُموم؛ لأن فيها رَأْيًا آخَرَ يَقول: (كافَّة) بمَعنَى: (كَافٌّ)؛ يَعنِي: إِلَّا تَكُفُّ الناس عن الشِّرْك والعِصيان، أو إِلَّا كافَّة للناس، أي: جامِعًا لهم على التَّوْحيد والإِخْلاص، وعلى هذا فتكون حالًا من الكافِ في قوله تعالى: ﴿أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ والتاء فيها على هذا المَعنَى للمُبالَغة، كقوله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ﴾ [النحل:١٢٠] أي: إمامًا، وكما يُقال: هذا عَلَّامة، أي: علَّام، لكن تَكون التاء للمُبالَغة، فصار عِندنا في (كافَّة) قَوْلان: أن تَكون حالًا من الناس مُقدَّمة عليها، وأن تكون حالًا من الكاف في قوله تعالى: ﴿أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾، وعلى هذا الوَجْهِ تكون ﴿كَآفَّةٗ﴾ بمَعنَى: (كافّ) أي: جامِع، أو (كافّ) أي: مانِع تَكُفُّ الناس، ونَستَفيد العُموم من قوله تعالى: ﴿لِّلنَّاسِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ رِسالة النبيِّ ﷺ تَتَضمَّن شَيْئَيْن: هُما البِشارة والإِنْذار، البِشارة للطائِع بالثواب، والإِنذار للعاصِي بالعُقوبة.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: الإشارة إلى الحِكْمة من إرسال الرُّسُل، وهي التَّبْشير والتَّنْذير؛

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب قول النبي ﷺ: «جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا»، رقم (٤٣٨)، ومسلم: كتاب المساجد، باب جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، رقم (٥٢١)، من حديث جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ.

كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:١٦٣-١٦٥].

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ أكثرَ الناس لا يَعلمون الحِكْمة من إرسال الرسول ﷺ، ولا يَعلَمون أنَّه رسول، أمَّا الأوَّل فواضِح: أنَّ أكثرَ الناس لا يَعلَمون الحِكْمة من إرسال الرُّسُل، وأمَّا الثاني ففيه نظَرٌ؛ لأنَّ الرِّسالة بلَغَتْ أكثَرَ الناس، وستَبلُغ الناس جميعًا حتى تَقوم عليهم الحُجَّة.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ الأكثَرية لا يَلزَم أن يَكون الصوابُ معها، لأن أكثَرَ الناس لا يَعلَمون فهُمْ في جَهْل، إذ إنَّ المُتمسِّك بالأديان قَليلٌ، والمُتمسِّك بالأديان هو صاحِب العِلْم، وهو صاحِب اليَقين.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثباتُ الأَسباب، تُؤخَذ من قوله تعالى: ﴿إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ على المَعنَى الأخير الثاني الذي هو (كافَّة) بمَعنَى: مانِع؛ لأن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ سبَب، وليس بمُوجِب، فهو سبَب للهِداية، ولكن: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص:٥٦].

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: إثبات أفعال الله تعالى الاختِيارية، تُؤخَذ من قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾؛ لأنَّ هذا فِعْل من الأفعال المُتعلِّقة بمَشيئته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: إقامة الحُجَّة على الخَلْق؛ لقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ فلَمْ يَبقَ لأَحد حُجَّة على الله بعد الرُّسُل، وهل يُؤخَذ

منها عُذْر مَن لم تَبلُغه الرِّسالةُ؟

الجوابُ: نعَمْ؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾؛ لأنَّ مَن لم تَبلُغْه الرسالةُ لم تَتَحصَّل له بِشارة ولا نِذارة.

فَإِنْ قِيلَ: ما حُكْم مَن لم تَبلُغه الرسالة؟

فالجوابُ: حُكْمه أنه لا يَخلُو من أَمْرين: إمَّا أن يَكون مُقصِّرًا في طلَب الحَقِّ فهذا لا عُذرَ له؛ لأنه مُقصِّر، وإمَّا ألَّا يَكون مُقصِّرًا بحيثُ لم يَبلُغْه أيُّ شيء عن الرِّسالات، ولم يَطرَأ في قلبه أيُّ شيء من ذِكْر الرِّسالات فهذا نَقول: إنَّه يُحكَم له في الدنيا بما هو عليه من دِين، وأمَّا في الآخِرة فأَمْره إلى الله تعالى، ما نَشهَد عليه بشيء.

• ● ❁ ● •

الآيــة (٢٩)

• قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [سبأ:٢٩].

•••

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ يعني: المُكذِّبين للرسول ﷺ الذين توَعَّدوا بالعذاب والنَّكال فيقولون مُتحدِّين ومُستبعِدين ومُنكِرين: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾: ﴿مَتَىٰ﴾ اسمُ استِفْهام المُرادُ به الإنْكار والتَّحدِّي.

وقوله: ﴿ٱلْوَعْدُ﴾ أي: بالعَذاب الذي وَعَدْتُمونا به، ويُحتَمَل أن يكون ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ بالنَّصْر لكم؛ لأنَّ المَعروفَ أنَّ الوَعْد بالخَيْر وبالشَّرِّ وَعيدٌ، ولكن قد يُقال: إن الوعيدَ لهؤلاء الكُفَّارِ هو بالنِّسبة للمُؤمِنين مَعدوم ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ بالعَذاب ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فيه، يَعنِي: إن كُنْتم صادِقين بما تَقولون من أنَّ العَذاب سيَحِلُّ بنا وسنُعاقَب، والصِّدْق: هو الإِخْبار بما يُوافِق الواقِع، والكَذِب: الإِخْبار بما يُخالِف الواقِع، فإذا قلتَ: (قدِم زَيْدٌ البلَد) ولم يَكُن قدِمَ فهو كذِب؛ لأنه خِلاف للواقِع، وإذا قلتَ: (قدِمَ زَيْد البَلَد) وقد قدِم فهو صِدْق؛ لمُوافَقة الواقِع، فيَقولون: إن كُنْتم صادِقين فمتى يَكون هذا؟

وهذا كقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الساعة: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾

[الشورى:١٧-١٨]، فالكُفَّار يَستَعجِلون العذاب تكذيبًا للرُّسُل عليهم الصلاة والسلام.

قال الله تعالى: ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴾ [الشعراء:٢٠٤-٢٠٧]، يَعنِي: أي شيء يُغنِي عنهم، فمهما طال بهمُ الأَمَدُ فإن المَسألة محدودة مَعدودة ﴿إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴾ فهُمْ يَتَحدَّوْن ومع ذلك أحيانًا يَتحدَّوْن كذِبًا، فإنهم قالوا حين أُخبِروا بالبَعْث، قالوا مُتحدِّين للرُّسُل عليهم الصلاة والسلام: ﴿ فَأْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الدخان:٣٦]، وهل قِيلَ لهم: إن آباءَهُم يَأتون الآنَ. حتَّى يُوجِّهوا الصورة إلى هذا؟ لا، بَلْ قِيل لهم: إن آباءَهُم سيُبعَثون يومَ القِيامة. لكنهم يُموِّهون على العامَّة بمِثْل هذه الدَّعاوَى.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: تمَرُّد الكُفَّار في طُغيانهم حيث قالوا مُتحدِّين للرُّسُل: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾؛ وهذا غايةُ ما يَكون في التَّمرُّد والطُّغيان؛ لأنهم لو كان عِندهم أَدنَى شيءٍ من الإيمان لكانوا يَخافون ممَّا أُوعِدوا به؛ لكن لتَمرُّدهم وطُغيانهم -والعِياذُ بالله تعالى- قالوا هذا القولَ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنهم كذَّبوا الرُّسُل فيما قالوا؛ لقولهم: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بَيانُ الأساليب التي يَقوم بها دُعاة الباطِل حيثُ يَتحدَّوْن أهل الحقِّ بمِثْل هذا التَّحدِّي مع العِلْم بأن الوعيد بالعَذاب أو نَحوه كالآيات تمَامًا،

والآياتُ عِند الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت:٥٠]، وكذلك العذابُ الذي وُعِدت به الرُّسُل ليس هو بأيديهم حتى يَقولوا: أَرُونا العذابَ قال هذا العذابُ! والعَذاب عند الله تعالى!!.

ولهذا كان جوابُ الرُّسُل بأمر الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ [سبأ:٣٠]، فالأَمْر ليس كلَّما طلَبْتم أَعطَيْناكم، ولكن هناك شيء فوقَنا جميعًا، وهو الله عَزَّوَجَلَّ، هو الذي يُقدِّر هذه الأشياءَ، فكما أن المُشرِكين إذا طلَبوا آياتٍ يُقال لهم: ﴿إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾، فإذا طلَبوا نُزول العَذاب نقول: ﴿لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾، وليس الأَمرُ إلينا.

وهم لا يَقولون ذلك إلَّا تَمويها على الناس وتَغريرًا بالعامَّة، فيَقولون: انظُرْ هؤلاءِ يَتوعَّدوننا إذا كفَرْنا بهم بالعَذاب! فأين العذابُ!.

المُهِمُّ: أننا نَأخُذ من ذلك: بيان أساليب دُعاة الضَّلال حيثُ يُنوِّعونها بكل ما يَستَطيعون من الشِّدَّة وإضلال الخَلْق.

الآية (٣٠)

• ● ◌ ● •

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ [سبأ:٣٠].

• ● ◌ ● •

وهو يوم القِيامة.

وقوله تعالى: ﴿مِّيعَادُ﴾ يُحتَمَل أن يَكون ظَرْفَ مَكان أو زَمان، ويُحتَمَل أن يَكون مَصدَرًا مِيمِيًّا؛ والمَعنى: أنَّ لكم وَعْدًا يكون في يوم لا تَستأخِرون عنه ساعةً ولا تَستَقدِمون عليه، وذلك لأن الله عَزَّوَجَلَّ بحِكْمته البالِغة قَدَّر لكل شيءٍ أجلًا مُعيَّنًا، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد:٨]، فكل شيء بمِقدارٍ عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ومُحدَّد بأَجله، فالعَذاب لا يُقدِّمه استِعْجالهم ولا يُؤخِّره، إذا جاء لا يَتقدَّم ولا يَتأخَّر.

وفي هذا الجوابِ من التَّهديد لهم ما هو ظاهِر، كما لو قُلتَ لإنسانٍ: إنَّ عِندي لك مَوعِدٌ لا يَتقدَّم ولا يَتأخَّر. فالمَعنَى: احذَرْ من هذا اليومِ.

وقول المُفسِّر: [هُوَ يَوْم الْقِيَامَةِ] هذا لا شَكَّ أنه مُحتَمَل، لكن فيه احتِمالٌ آخَرُ، أنه يوم القيامة ويوم مَوْتهم أيضًا، فإن يوم مَوْتهم يُشاهِدون العَذاب، قال الله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٥٠ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [الأنفال:٥٠-٥١].

فهذا اليومُ يجِدون فيه العذاب قبل يوم القِيامة ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام:٩٣].

وفي سورة الدُّخان: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ [الدخان:١٠-١٦]، وهذا حصَل في بَدْر حين قُتِل شُرَفاؤُهم وساداتُهم.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بيانُ أنَّ العذاب مُؤقَّت، لا يَتقدَّم باستِعْجالِ مَنِ استعجَله ولا يَتأخَّر بطلَب مَن طلَب أن يُؤخَّر.

ونَظيرُ ذلك قولُه تعالى عن نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [نوح:٤].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن أفعال الله عَزَّ وَجَلَّ مُحررة مُنظَّمةٌ كلَّ شيءٍ بأجَل مُقدَّر، وقد أَشار الله تعالى إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد:٨].

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثباتُ الجَزاء؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ﴾.

الآية (٣١)

• • ✿ • •

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ [سبأ:٣١].

• • ✿ • •

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ] لا ينبغي أن نُخصِّص ما عمَّمه الله عَزَّوَجَلَّ، فالصواب: وقال الذين كفَروا من أهل مكَّةَ وغيرِهم، قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ -والعِياذُ بالله تعالى- أَتَوْا بـ(لَن) الدَّالَّة على تأكيـد النَّفيِ، ولم يقولـوا: لا نُؤمِن. بل قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ﴾ يُـؤكِّدون انتِفاء إيمانهم بالقُرآن في المُستقبَل.

وقوله تعالى: ﴿لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ هذه الإشارة للقَريب تَحقيرًا له، كما في قوله تعالى: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء:٣٦]، ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴾ [الفرقان:٤١].

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلْقُرْءَانِ﴾ على وَزْن (فُعْلان) فهل هو بمَعنَى: المَقروء، أو بمَعنَى: القارِئ، أو هو مَصدَر بمَعنَى الجَمْع؟

الجوابُ: أنَّ فيه خِلافًا عِند عُلَماء العَربية رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ، والصوابُ: أنه مُتضمِّن للمَعاني كُلِّها فهو قارِئ؛ أي: جامِع؛ لأنه مُهَيْمِن على الكُتُب السابِقة وجميع ما فيها

من المَصالِح مَوْجودٌ فيه وهو مَقروء؛ لأنَّ الناس يَقرَؤُونه ويَتْلونه، وهو جَمْع أيضًا؛ لأنه جامِعٌ لكل شيء والفُعْلان بمَعنَى المَصدَر وارِد ومَوْجود في اللُّغة العربية، مثل: الشُّكْران والكُفْران والنُّكْران، وما أَشبَه ذلك.

والمُراد بالقُرآن هنا الكِتاب الذي أَنزَله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على مُحمَّد ﷺ وهو اسمٌ خاصٌّ به بهذا القُرآن.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يَعنِي: ولا نُؤمِن بالذي [تَقَدَّمَهُ كَالتَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ الدَّالَّيْنِ عَلَى الْبَعْثِ بِإِنْكَارِهِمْ لَهُ] يَعنِي ولا نُؤمِن أيضًا بالذي بين يَدَيْه، والمُراد على رَأْيِ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بما بَيْن يَدَيْه: ما سبَقَه، وليس ما يَأْتِي بعدَه، ويُحتَمَل أن المُراد بقَوْله: ولا بالَّذي بين يَدَيْه، أي: ما يَأتي ممَّا أَخبَر به، فإنَّ ما بين يدَيِ الشيء مُستَقِرٌّ كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [طه:١١٠]، والمَعنَيان صَحيحان، وإذا كانت الآيةُ تَحتَمِل مَعنيَيْن صَحيحين لا يَتنافَيان وجَب حَمْلُها على الجميع؛ لأنَّ القُرآن شامِل وواسِع، فقوله تعالى: ﴿وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: ولا بالَّذي يَأتِي بعده ممَّا أَخبَر به أو (ولا بِالَّذي بين يَدَيْه) ما تُقدِّمه من الكُتُب كالتَّوْراة والإنجيل.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يا مُحَمَّدُ ﴿إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الْكَافِرُونَ ﴿مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾] ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ أي: ﴿وَلَوْ﴾ شَرْطية، وفِعْل شَرْطها ﴿تَرَىٰٓ﴾، وهي غيرُ جازِمة وجوابُها مَحذوف؛ أي: لرَأَيْتَ أَمْرًا فظيعًا، وجوابُ الشَّرْط في مِثْل هذا التَّركيبِ أَعظَمُ من ذِكْره؛ لأن النَّفْس تَذهَب في تَقديره كل مَذهَب من الفَظاعة والبَشاعة.

و(لو) تَأتي باللُّغة العَرَبية على عِدَّة مَعانٍ؛ تَأتي بـ(ما) الشَّرْطية كما هنا، وتَأْتي

مَصدَرية كما في قوله تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم:٩].

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يا مُحَمَّدُ] قصَرَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ الضميرَ على الرسول ﷺ، مع أنه يَحتَمِل أن يَكون المُراد به كلُّ مُخاطَب؛ يَعنِي: ولو تَرَى أيُّها المُخاطَب حالَ هَؤلاء لرَأَيْت أمرًا فظيعًا.

وقوله تعالى: ﴿إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: ﴿إِذِ﴾ بمَعنَى: (وَقْت) أو (حين) فهي ظَرْف زمان، و﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ مُبتَدَأ و﴿مَوْقُوفُونَ﴾ خبَرُه، والمُراد بالظالِمين هنا قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الْكَافِرُونَ]، وإنما خصَّها بالكافِرين مع أنَّ الظُّلْم أَعمُّ بقرينة السِّياق، حيث قال الله عَزَّوَجَلَّ في آخِرها: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [سبأ:٣٣]، فكان المُراد بالظالِمين هنا الكافِرين.

وهل كل ظالِمٍ كافِر؟

الجوابُ: لا؛ ولهذا لمَّا قال الله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ قال العُلَماءُ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: نَحمَد الله تعالى أَنْ لم يَقُل: والظالِمون هم الكافِرون.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: مَحبوسون، فمَعنى (وَقَفه) أي: حبَسه، ومنه سُمِّيَ الوَقْف للمال الحَبيس الذي تُحبَس عَيْنه وتُسبَّل مَنْفَعته، فمَعنى ﴿مَوْقُوفُونَ﴾ أي: مَحبوسون عند الله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ولم يَقُلْ: عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأنَّ مِثل هذا الفِعْلِ العظيمِ الدالِّ على العظَمة يَتَناسَب مع الرُّبوبية، لكَمال رُبوبيته عَزَّوَجَلَّ وكَمال مُلْكه وسُلْطانه، تَجِد هؤلاءِ الظلَمةَ الذين عندهم من العُتُوِّ والاستِكْبار والعِناد في الدنيا في أذَلِّ شيء أمام رُبوبية الله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله تعالى: ﴿يَرْجِعُ﴾ بمَعنَى: يَرُدُّ؛ وعلى هذا فتكون مُتعَدِّية؛ لأن رَجَع تَأتي لازِمةً وتَأتي مُتعَدِّية، فقَوْلُك: رجَعْتُ من مكَّةَ إلى المدينة. هذه لازِمة؛ لأنها لم تَنصِب المَفعول، وقوله تعالى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ [التوبة:٨٣]، هذه مُتعَدِّية، وهنا قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾ فهذه مُتعَدِّية؛ أي: يردُّهم، و﴿ٱلْقَوْلَ﴾ هنا مُبهَم ومُجمَل، ثُمَّ فصَّله بقوله تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾.

وفائِدة الإِبْهام المُفصَّل عظيمة؛ لأنه إذا أَجمَل أوَّلًا وأَبهَم، فإن النَّفْس تَتطلَّع إلى بيان ذلك الشيءِ وتَفصيله، فعندما أَقرَأُ: ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾ ماذا يَكون ذِهْنك؟

الجوابُ: يَكون ذِهْنك مُتطَلِّعًا إلى بيان هذا القولِ الذي يَتَراجَعونه، لكن لو قال: «ولو تَرَى إذِ الظالِمون مَوقوفون عند رَبِّهم يَقول الذين استُضْعِفوا» هكذا جاءَت لم يَكُن لها من التَّمكُّن في الذِّهْن مِثْل ما كان لها حينما أُبهِمَ القَولُ، ثم بُيِّنَ أو أُجمِل، ثُم فُصِّل.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾ ماذا يَقولون؟ [﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ الأَتْباعُ ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ الرُّؤُساءِ ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ﴾ صَدَدْتُمُونا عَنِ الْإِيمانِ ﴿لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ بِالنَّبِيِّ] (لولا) هذه شَرْطية، ويُقال فيها: حَرْف امتِناع لوجوب؛ لأنه امتنَع جوابُها؛ لوجود شَرْطها، وتَأتي (لولا) الشَّرْطية كما هنا، وتَأتي للتَّحضيض، كما في قوله تعالى: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ [النور:١٣] وتَأتي للنَّفْي، كما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ [يونس:٩٨]، المَعنَى: فما كانت قَرية آمَنَتْ فنَفَعها إيمانُها إلَّا قوم يُونُس لَمَّا آمَنوا، وهنا يَقول: لولا أَنتُمْ.

وابنُ مالِك رَحِمَهُ اللَّهُ يقول:

وَبَعْدَ لَـوْلَا غَالِبًـا حَـذْفُ الخَبَرْ حَـــــتْمٌ.................[1]

فالمُبتَدَأ مَوجـود هنا وهو (أنتم)، والخَبَر مَحذوف قدَّره المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ بقولِه: [صَدَدْتُمُـونَا] وعَرَف أنـه في هـذا اللَّفْظِ من قولهـم: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ﴾ فلا نُقدِّر هنا: لولا أنتم مَوْجودون؛ لأنَّ الصدَّ أخصُّ من مُطلَق الوجود، وإذا كان لنا طريقٌ إلى تَقدير الأخصِّ فهو أَوْلى من تقدير الأعَمِّ.

ولهذا قُلْنا: إن القارِئَ إذا قال: (بسم الله الرحمن الرحيم) يُقدِّر المُتعلِّق بقوله: أَقرَأُ. لا بقَوْله: أَبتَـدِئ؛ لأنَّ (أَبتَدِئ) عامَّة و(أَقرَأُ) خاصَّة، وهنا يُمكِن أن نَقـول: لولا أنتم مَوْجودون. لكن ما دُمْنا نَجِد فِعْلًا أخَصَّ وهو الصدُّ المَدلول عليه بقوله تعـالى: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَكُمْ﴾ فإنه يَجِب أن نُقدِّر لولا أَنتُـمْ صدَدْتُمُونا ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ هذا هو جَواب الشَّرْط لكُنَّا مُؤمِنين؛ ولهذا اقترَن باللام.

وقوله: [﴿لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ بالنبيِّ] ﷺ، والأصحُّ أنَّه أَعَمُّ، أي: لكُنَّا مُؤمِنين بما تَشمَله رِسالة النبيِّ ﷺ، من الإيمان بالله تعالى، ومَلائِكته وكتُبِه ورُسُله واليوم الآخِر، وبغير ذلك ممَّا يَجِب الإيمان به.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بيانُ عُتوِّ هؤلاءِ الكافِرين، وأنهم لم يَرجُوا الإيمانَ، بل قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ بِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: مُبالغَتُهم في الطُّغْيان والعُدوان، حيث أَشاروا إلى القرآن الكريم

(١) الألفية (ص:١٨).

بما يَدُلُّ على التَّحقير في قوله: ﴿بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾، فإن الإشارة هُنا بالقريب لدُنُوِّ مَرتَبَته على زَعْمهم.

وفيه أيضًا من تَماديهم في الطُّغْيان أنهم قالوا: لن نُؤمِن به، ولا بالذي بين يَدَيْه. سواءٌ قُلْنا: إن الذي بين يَدْيه: ما أَخبَر به عن المُستقبَل، أو: ما سَبقه من الكُتُب؛ فإن هذا يَدُلُّ على المُبالَغة في العُتُوِّ والعِناد.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: وفي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ إلخ؛ بيانُ عِظَم عُقوبة هؤلاءِ المُكذِّبين؛ لأن تَقدير الجَواب يَدُلُّ على ذلك، وقد قدَّرْناه في تفسيرِنا: بأنه لرأَيْت أمرًا عظيمًا أو فظيعًا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن الكُفْر ظُلْم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ لأنه قال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، ثُمَّ قال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، ويُؤيِّد ذلك قولُه تعالى في سورة البقَرة: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤].

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: حُسْن الإظهار في مَوْضع الإِضْمار إذا اقتَضَتِ البَلاغة ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، ولم يَقُل: ولو ترَى إذ هُمْ مَوْقوفون.

وللإِظْهار في مَوْضِع الإِضْمار فوائِدُ:

منها إرادةُ العُموم، بحيث يَشمَل هؤلاءِ المَذكورين وغيرَهم.

ومنها بَيانُ وَصْف لَمِن يَعود الضمير عليه لم يَكن مَوجودًا من قبلُ، بمعنى: التَّسجيل عليهم بما يَقتَضيه هذا الوَصْفُ، إذ إنه لو قيل: ولو ترَى إذ هم مَوْقوفون ما استَفَدْنا أن هؤلاءِ كانوا ظالمِين، فلما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ سجَّل عليه أنه ظُلْم.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثبات البَعْث والجزاء؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، وهو أحَدُ أركان الإيمان السِّتَّة التي لا يَتِمُّ الإيمان إلَّا بها.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إظهارُ النَّدَم من هؤلاء حيثُ صار كلُّ واحِد منهم يَحمِل الأفعال السَّيِّئة على الآخَر؛ لقوله تعالى: ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن من الفَصاحة: ذِكْر القول مُجمَلًا، ثُم يُفصَّل، فإن هذا من البَلاغة؛ لِمَا أَشَرْنا إليه من التفسير من أنه ذَكَر مُجمَلًا تَشوَّفتِ النفسُ إلى مَعْناها والتَّفصيلِ فيه، حتى يَرِد إليها وهي مُشتاقة إليه.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: إثبات الأسباب؛ تُؤخَذ من قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾، وهو صحيح من وجهٍ؛ وهو أنهم سبَب في إضلالهم، لكنه لا عُذْرَ لهم فيه؛ لأن الله تعالى أَعطاهم قُدْرة واختِيارًا، وأَرسَل إليهم الرُّسُل، وبيَّن لهم الحقَّ؛ فنحن نَقول: نعَمْ، لولا هؤلاءِ الدُّعاةُ لكانوا مُؤمِنين؛ لأن الدَّعْوة تَسلَم من المُعارِض، ولكنه لا عُذْرَ لهم؛ لأنهم باستِطاعَتهم أن يُخالِفوهم ويُؤمِنوا.

الآيـة (٣٢)

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ [سبأ:٣٢].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟﴾ ردُّوا عليهم القولَ: ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾ فكان الرَّدُّ هو: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم﴾؟ والاستِفْهام هنا بمَعنَى النفيِ، يَعنِي: لم نَصدَّكم عنِ الهُدَى بعد إذ جاءَكُم، بل أنتم الذين اختَرْتُمُ الكُفْر، وهنا صدَق قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾ [البقرة:١٦٦]، فهنا قال تعالى: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ﴾ يَعنِي: نحن مُتبَرِّئون مِنكم، ولا أَجبَرْناكم على الكُفْر، بل أنتم الذين اختَرْتم ذلك.

وقوله تعالى: ﴿صَدَدْنَٰكُمْ﴾ أي: صرَفْناكم.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم﴾ هذا من باب تَحقيق مَجيءِ الهُدَى ووضوحه، وهذا إقرارٌ من هؤلاءِ الرُّؤَساءِ المُستكْبِرين على أنَّ الهُدى قد جاء وبان ووَضَح ﴿بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم﴾، قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تَقدِيرها: [لَا] إشارة إلى أنَّ الاستِفْهام هنا للنَّفْي، وكُلَّما جاءت كلِمة (لَا) بعد الاستِفْهام فإن تَرجَمَتَها أنَّ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَرى أن الاستِفْهام هنا للنَّفْي، ﴿بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ في أَنفُسِكم

-والعِياذُ بالله تعالى- في الدُّنيا تَجِد يَأتي إليه المُستكبِر هذا الرئيسُ يَدعوه بلُطْف تامٍّ، وفي الآخِرة يَلعَن بعضُهم بعضًا، ويَتبَرَّأ بعضُهم من بعضٍ.

وانظُرْ إلى مَلِك غسَّانَ لَمَّا بلَغه أن النبيَّ ﷺ هجَرَ كَعْبَ بنَ مالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَرسَل إليه خِطابًا لطيفًا رَقيقًا وقال له: إنه بلَغَنا أن صاحِبَك قد هجَرَك، فأْتِ إلينا نُواسِكَ[1]. انظُرْ إلى التَّلطُّف!! ولكن لم يَنخَدِع كَعْبٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ لإيمانه، وخاف أن يَنخَدِع في المُستَقبَل فذهَبَ إلى التَّنُّور وأَوْقَد هذه الورَقةَ، وهكذا كل شيء تَخشَى على نَفْسك منه في المُستَقبَل يَجِب عليك أن تُتْلِفَه، لا تَقُلْ: إني الآنَ ما يُمكِن أن أَفعَل هذا الشيءَ أبَدًا، ولا يُمكِن أن أَضِلَّ به، صحيح أنك في بادِئ البَدْء قد لا تَنخَدِع، لكنَّ الشيطان يَعمَل عمَله؛ ولهذا يَجِب عليك أن تُتْلِفَ كُلَّ ما تَخشَى أن تكون عاقِبَتُه عليك وخيمةً.

الحاصِلُ: أنَّ هؤلاءِ في الآخِرة ما يَتوَدَّدون ولا يَتلطَّفون ولا يَفهَمون هؤلاءِ الأَتباعَ.

وقوله تعالى: ﴿بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ﴾ والإجرام هو الذَّنْب الذي لا يَرتَفِع.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن هؤلاءِ الرُّؤَساءَ كانوا مُستكبِرين مُستَعْلين على المَرؤُوسين؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بيانُ تَبرُّؤِ المَتبوعين من الأَتْباع؛ لقولهم: ﴿أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب حديث كعب بن مالك، رقم (٤٤١٨)، ومسلم: كتاب التوبة، باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه، رقم (٢٧٦٩)، من حديث كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم﴾، ويُشير إلى هذا في قوله تعالى في سُورة البقَرة: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ [البقرة:١٦٦]، وقوله عَزَّوَجَلَّ عن إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حين قالَ لقَوْمه: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت:٢٥].

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: دَليلٌ على أن الهُدى قد تَبيَّن لهؤلاءِ الكُفَّارِ؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم﴾، وهذا إقرار مِنهم واعتِراف بأن الهُدَى قد جاء، ولكِنَّهم استَحبُّوا العَمَى على الهُدَى؛ نَسأَل الله العافِيةَ!.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثبات الإِجْرام لهؤلاءِ الأَتباعِ من مَتبوعيهم، حيث قالوا: ﴿بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾، فأنتم الذين فعَلْتم هذا بأَنفُسكم، فلا تَلوموننا ولُوموا أَنفسكم، وهو نَظيرُ قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ [إبراهيم:٢٢].

الآية (٣٣)

• ● ❧ ● •

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ:٣٣].

• ● ❧ ● •

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ إضراب على إضرابهم، فأولئك: قالوا: ﴿بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ إضراب عَنْ قولهم: ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ فأضربوا عنهم، يَعنِي: قابَلوهم بإضرابٍ آخَرَ، قالوا: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: مَكْرٌ فيهما مِنكم بِنا، مَكْر الليل والنهار، و(مَكْر) هنا مُضاف إلى الليل، على تقدير (فِي)؛ لأنَّ الإضافة قد تكون على تقدير (مِنْ)، وعلى تَقدير اللام، وعلى تَقدير (فِي)؛ فإن كان الأَوَّل من الثاني؛ يَعنِي بأن كان الثاني جِنْسًا للأَوَّل؛ فهو على تقدير (مِن)، وإذا كان الثاني ظَرْفًا للأوَّل فهو على تقدير (فِي)، وما عدا ذلك فعلى تقدير اللَّام.

وتكون الإضافة على تقدير (مِن) إذا كان الثاني جِنْسًا للأَوَّل، وعلى تقدير (فِي) إذا كان الثاني ظَرْفًا للأَوَّل، وعلى تَقدير اللَّام فيما عدا ذلك، نحو: خاتَمُ حديد، على تقدير (مِنْ)، ومِثاله: ثَوْبُ خَزٍّ، على تقدير (مِن).

وعلى تقدير (فِي): مَكْرُ الليلِ، أي: مَكْرٌ في الليل.

ما هو المَكْر؟

قالوا في تَعريف المَكر: إنَّه التَّوصُّل بالأسباب الخَفِيَّة إلى الإيقاع بالمُقابِل؛ يَعنِي: بالذي قابَلَك، أو إن شِئْت فقُلْ: بالخَصْم. و(مَكْر الليلِ) أُضيف المَكْر هُنا إلى اللَّيل؛ لأنَّه ظَرف، والنَّهار كذلك.

أمَّا من أيِّ جِهة وقَع هذا المَكْرُ فهو من المُستكبِرين؛ ولهذا قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [مَكر فيهما مِنكم بنا] يَعنِي: أنتم تَمكُرون بنا ليلًا ونَهارًا، تَأتون إلينا تَخدَعوننا تَقولون -مثَلًا-: مُحمَّد فيه كذا، ومُحمَّد فيه كذا، ومُحمَّد لن يَنتَصِر، ومُحمَّد خالَف آباءَه، ومُحمَّد سبَّ آلِهَتنا؛ وما أَشبَه ذلك، وهكذا عادة الرُّؤَساء بالنسبة للأَتْباع يَأتون بهم على سبيل المَكْر والخِداع؛ وزَعيمهم في ذلك إبليسُ حيث قاسَمَ آدَمَ وحواءَ؛ قاسَمَهما: إني لكما من الناصِحين، يَعنِي: أَقسَم لكُلِّ واحِد منهما، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف:٢١-٢٢]، فهؤلاء الكُفَّارُ المُستكْبِرون السادة والرُّؤَساء لا يُمكِن أن يَخدَعوا هؤلاء إلَّا بمَكْر؛ لأن الحقَّ مَقبول لدى الفِطَر، ولا يُمكِن صدُّ هذه الفِطْرةِ إلَّا بخِداع ومَكْر.

فلهذا انتَبِهوا لدعوة أهل الشَّرِّ والفَساد فإنهم لن يَأتوا إليكم ويَقولوا -مثَلًا-: ازنُوا! اشرَبوا الخَمْر! ولكنهم يُخادِعون، ويَأتون بأسباب الزِّنا وطُرُق الزِّنا بسبيل التَّقدُّم والحُرِّية والمُساواة وما أَشبَه ذلك؛ فمثَلًا: خلُّوا المَرأةَ تَخرُج للسُّوق مُتبَرِّجةً، وخلِّها تُشارِك الإنسان في العمَل، ودعوها تُشارِكه في الدِّراسة ودعوها تَكون إلى جَنْبه في الكُرسيِّ، فأنتم إذا جعَلْتم المرأةَ تُخالِط الرَّجُل وتَمشِي معه زالت الغَريزة الجِنْسية في نفوس كل واحد منهما، لأنه سيَكون الأمر عاديًّا بينهما، فجُلوسه لجَنْب امرأة كجُلوسه بجانب ذكَرٍ، لكن إذا حبَسْتم ذلك وقُلْتم: إن الرجال هنا

والنِّساء هنا. اشتاقَتْ نُفوس كلِّ واحِد منهم إلى الآخَر، وحينئذٍ يَزداد طلَبُ الرجُل للمرأة والمرأةِ للرجُل!!

وانظُرْ كيف هذا الخِداعُ؟! وماعلِموا أنهم إذا اختَلَطوا حصَل الزِّنا، بل لمُجَرَّد الاختِلاط تَحصُل مَفسَدة وما حصَلت الحوامِلُ سِفاحًا والعاهِراتُ والفاجِراتُ إلَّا بالاختِلاط، لكِنَّ هؤلاءِ الدُّعاةَ إلى الشَّرِّ يمكُرون بالناس؛ لأنهم لو أَتَوْا بالبَشِع على وجهه هكذا نفَرَت منه النُّفوس، ولا قبِلَته، لكن يَأتون بصِيغة المَكْر والخِداع والمُبرِّرات الفاسِدة حتى يَقبَله ضُعفاء النفوس، ومَن ليس عندهم نظَر عَميق.

فالسَّطْحيُّون يَقبَلون مثل هذا الغُرورِ، ولكِنَّ المُتعمِّقين في النظَر يَرفُضون هذا رَفضًا باتًّا، ويَقولون: إن تَلبُّس هَؤلاءِ بالإِصْلاح ما هو إلَّا خِداع ومَكْر؛ هذا مَعنَى قوله: ﴿بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾.

ففي هذا من الفَوائِدِ: دليل أن الرُّؤَساء يَدْعون ليلًا ونَهارًا لا يَسأَمون لباطِلهم وصَدِّ الناس عن دِين الله عَزَّوَجَلَّ، وأَهْلُ الخير نائِمون إلَّا مَن رَحِم الله -لكن غالِب دُعاة الخير مع الأَسَف نائِمون، وليس عِندهم اليَقَظةُ أيضًا- فليس عِندهم اليَقَظة لمَكر هؤلاء الماكِرين الخادِعين، يَأخُذون بالظاهِر، ولا يَعلَمون أن هؤلاءِ الخُبَثاءَ شَرٌّ من الذين يَتظاهَرون بالسُّوء؛ ولهذا قال الله في المُنافِقين: ﴿هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡ﴾ [المنافقون:٤]، وأَتَى بالجُمْلة المُفيدة للحَصْر ﴿هُمُ ٱلۡعَدُوُّ﴾، وقد تَقدَّم أنه إذا عُرِّف الرُّكْنان في الجُمْلة الخَبَرية صارَت دالَّةً على الحَصْر. نَسأَل الله تعالى لنا ولكُمُ العافِية والسلامة.

وقوله تعالى: ﴿بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ﴾: ﴿إِذۡ﴾ هذه ظَرْف بمَعنَى: وَقْت؛ يَعنِي: وقت أَمْرِكم إيَّانا تَأمُروننا، وانظُرْ إلى قوله تعالى: ﴿تَأۡمُرُونَنَآ﴾ كيف

يُفهِم بأن هؤلاء الذين استكْبروا وهُمْ الرُّؤَساء ليسوا يُشيرون عليهم إِشارة، وإنما يَأمُرونهم أَمرًا؛ لأنهم يَعتَقِدون أن لهم السُّلْطةَ عليهم، وفَرْق بين الأَمْر المُقتَضِي لاستِعْلاء الآمِر ومُعاقَبة المأمور إذا خالَف وبين المَشْورة؛ لأن المُشير ليس يَأمُر أَمْرًا، ولكنه يَعرِض الشيء على سبيل التَّزيين لصاحِبه، أمَّا أَنْ يَأمُره أمرًا فلا.

وهنا قال تعالى: ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ﴾ نسأَل الله تعالى العافيةَ! هذا من أَشَدِّ المُنكَر أن يَأمُر الإنسان غيرَه بالكُفْر ﴿أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ﴾، والكُفْر بالله تعالى يَدور على شَيْئَيْن: تكذيب بالخَبَر، واستِكْبار عن الطلَب، فالكُفْر يَدور على هذين الأمرين: إمَّا تَكذيب بالخَبَر، وإمَّا استِكْبار عن الطلَب، يَعنِي: تَرْك الأَمْر، وفِعْل النَّهْي.

ومن ذلك التكذيبِ بالخبَر إنكارُ الله تعالى بالكُلِّية بأَنْ لا يُصدِّق الإنسان بوُجود الله عَزَّوَجَلَّ أَوْ لا يُصدِّق برُبوبيته أو بأُلوهِيَّته أو بأسمائه وصِفاته.

وقوله تعالى: ﴿وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ أَيْ: [شُرَكاءَ] ﴿وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ الأَنْداد جَمْع نِدٍّ، والنِّدُّ هو النَّظير، وجَعْلُ الأنداد لله تعالى شِرْك؛ ولهذا فَسَّر المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ الأَنْداد بأنه الشُّركاء، وفي قوله تعالى: ﴿وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ دليلٌ على أنهم لم يَكفُروا بالله، أَيْ: بوُجوده، لكن كفَروا بحُقوقه؛ لأن لازِمَ جَعْل الأَنْداد: أن يَكون هناك شَيْء مَوْجود له نِدٌّ.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَسَرُّوا۟﴾ أَيِ: الفَريقان ﴿ٱلنَّدَامَةَ﴾ على تَرْك الإيمان به] ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ﴾ فسَّرها بعض العُلَماء بـ(أَظهَروا) فمَعنَى ﴿وَأَسَرُّوا۟﴾: أَظهَروا سِرَّهم في النَّدامة، وفسَّرها آخَرون بـ(أَخفَوُا) النَّدامة؛ أمَّا الذين فسَّروا أَسَرُّوا بـ(أَخْفَوْا) فظاهِر جِدًّا؛ لأننا نَعرِف جميعًا أن الإسرار بمَعْنى الإِخْفاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ [الرعد:٢٢]، وأمَّا مَن فسَّره بـ(أَظهَروا) فقالوا:

إن (أَسَرَّ) من أفعال الأَضْداد؛ لأن في اللغة العَرَبية أفعالًا تَدُلُّ على المعنى وضِدِّه، تُسمَّى الأضداد.

وقد أَلَّفَ عُلَماء اللغة العربية بذلك كُتُبًا سمَّوْها (الأضداد في اللغة)، يَأتون بالكلِمة ويُبيِّنون مَعناها الذي يَتضمَّن الشيء وضِدَّه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾ [الليل:١٧] قال بَعْضهم: مَعناها: (أَدبَرَ)، وقال آخَرون: مَعناه: (أَقبَلَ)، ومعلومٌ أن (أَدبَرَ) و(أَقبَلَ) ضِدَّانِ.

وأيُّهما أقرَبُ إلى الصواب في هذه الآيةِ: (أَسَرَّ) بمعنى: (أَخفَى) أو (أَسَرَّ) بمَعنى: (أَظهَرَ)؟

الجوابُ: بمَعنَى: (أَخفَى)، ولا يُمكِن أن نَجمَع بين القَوْلين إلَّا إذا نزَّلْناهما على اختِلاف حالين، أو على اختِلاف شَخْصين، على اختِلاف حالين: بمعنى أنهم أحيانًا يُخفُون وأحيانًا يُعلِنون، أو باختِلاف شَخْصين: بمعنى أن بعضَهم يُسِرُّ وبعضهم يُعلِن، أمَّا أن نَحمِلها على المَعنيَيْن في آنٍ واحِد من شخص واحِد فهذا لا يُمكِن؛ للتَّضادِّ -جمع بين ضِدَّيْن- وهذا مُستَحيل؛ وللنَّظَر أيُّهما أَوْلى بالصَّواب:

قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ﴾ يَعنِي: أَخفَوْها حين رأَوُا العذاب؛ وأَخْفَوْها حين رأَوُا العذاب لأَجْل أَنْ لا يُعاب عليهم فيَظهَر للناس أنهم نادِمون على ما صنَعوا وهذا دائِمًا يَقَع حتى في أمور الدُّنيا إذا عرَف الإنسان أنه أَخطَأَ في تَصرُّف ما: تَجِده يُخفِي خطَأَه ولا يُظهِر أنه نادِم، ولا أنه مُكترِث بهذا الشيءِ، قال الشاعر:

وَتَجَلُّدِي لِلشَّامِتِينَ أُرِيهِمُ ... أَنِّي لِرَيْبِ الدَّهْرِ لَا أَتَضَعْضَعُ (١)

---

(١) البيت لأبي ذؤيب الهذلي خويلد بن خالد، انظر: ديوان الهذليين (١/ ٣)، والمفضليات للمفضل الضبي (ص:٤٢٢).

فبعضُ الناس يَتحمَّل ولا يُرِي غيرَه أنه نادِم، أو أنه ضجِر، أو ما أَشبَهَ ذلك.

ويُقال: إن رجُلًا عاد شَخْصًا مريضًا، وكان هذا المريضُ مُدنفًا أيْ: مرَضه شديد، فقال له: كيفَ حالُكَ؟ فقال: الحمد لله طيِّب، وأنا -يَفتَخِر بنفسه كما قال الشاعِرُ:

وَتَجَلُّـــدِي لِلشَّـــامِتِينَ أُرِيهِـــمُ   أَنِّي لِرَيْـبِ الـدَّهْرِ لَا أَتَضَعْضَعُ

فقال له الذي عادَه: ولكِن:

وَإِذَا المَنِيَّــةُ أَنْشَــبَتْ أَظْفَارَهَــا   أَلْفَيْــتَ كُــلَّ تَمِيمَــةٍ لَا تَنْفَــعُ[1]

يَعنِي: لو تَجلَّدْت وقبِلت الموت لا يَنفَع ذلك.

والشاهِد: أن الذين قالوا: (أَسَرُّوا) بمَعنَى: (أَخْفَوْا). قالوا ذلك لِئَلَّا يُعابوا على ما صنَعوا.

أَمَّا الذين قالوا: (أَسَرُّوا) بمَعنَى (أظهَروا). فقالوا: إن الآياتِ كثيرةٌ تَدُلُّ على ندَمهم، وأنهم أَظهَروا ذلك ونَدِموا على ما صنَعوا، ولكن ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ [ص:٣].

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ﴾ على تَرْك الإيمان به] الذي أَسَرَّ هُمُ الفَريقان -كما قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ-: الذين استكْبروا والذين استُضْعِفوا.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾: ﴿لَمَّا﴾ بمَعنَى (حِين)، وتَقـدَّم قريـبًا أن ﴿لَمَّا﴾ تَأتِي في اللغة العربية على أربَعة أَوْجُهٍ.

---

(١) البيت لأبي ذؤيب الهذلي من نفس قصيدته السابقة، انظر: ديوان الهذليين (١/ ٣)، والمفضليات للمفضل الضبي (ص:٤٢٢).

والرُّؤْية هنا بصَرية، أَيْ: عايَنوه بأَعيُنهم وأَسرُّوا النَّدامة، لكن والله لا يَنفَع النَّدَم حينذاك، فالنَّدَم حين يَرَى الإنسانُ العذابَ لا يَنفَعه، إنما يَنفَع قبل أن يَرى العذاب، قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [أَيْ: أَخفاها كلٌّ عن فَريقه مَخافةَ التَّعيير] واضِحٌ أن المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ فسَّر (أَسَرُّوا) بمَعنَى: (أَخْفَوْا).

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ ﴿وَجَعَلْنَا﴾ بمَعنَى: (صيَّرْنا) أَيْ: صيَّرْنا الأغلالَ.

والأغلالُ جمع غُلٍّ، وهو ربط اليَدين بعضها إلى بعض، وتَعليقهما في العُنُق، نَسأَل الله العافيةَ! ولهذا قال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، وأعناق جَمْع عُنُق وهي الرقَبة.

وقوله: ﴿فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ هل هم الذين استكْبروا أو الذين استُضْعفوا؟

الجوابُ: كلا الفَريقين؛ لأن هـؤلاءِ كُفَّار دُعاةٌ إلى الضلال، وأُولئك كُفَّارٌ مُقلِّدون بعد أن جاءَهُم الحقُّ؛ ولهذا قال: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَـٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم﴾ فالكُلُّ كافِر، فجعَل الله تعالى الأغلالَ في عُنُق هؤلاءِ وهؤلاءِ، فهل نفَعَتْ أحَدًا منهم مُحاجَجتُه؟ أبدًا، وإنما هو من أَجْل إظهار العَداوة بينهم، كما قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عن إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حين قالَ لقَوْمه: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت:٢٥]؛ قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف:٣٨]، فهذه حالُ أهل النار يومَ القِيامة أعداءٌ، ولَعْن وسَبٌّ وشَتْم.

ولكنِ المُتَّقون -اللهمَّ اجْعَلْنا وإيَّاكم مِنهم- على العَكْس من ذلك يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ﴾ [الحجر:٤٧]

وقال تعالى: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف:٦٧].

وقال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿هَلۡ﴾ ما]، يَعني: أنها بمَعنى: (ما)، أي: أن الاستِفهام هنا بمَعنى النَّفيِ: هل يُجزَوْن إلَّا جزاءَ ما كانوا يَعملون، يَعنِي: هل يُكافَؤُون إلَّا على ما عمِلوا فقَطْ، والله عَزَّوَجَلَّ لا يَظلِم أحَدًا.

فالاستِفْهام هنا بمَعنَى النفيِ، وقد تَقدَّم: أن النفيَ إذا صيغ بصيغة الاستِفْهام كان مُشرَبًا معنَى التَّحدِّي، يَعنِي: أنه لا يُمكِن أبدًا أن يُجزِيَ أحَدًا إلَّا ما عمِل.

وهنا قال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾، والمُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَضمَر محذوفًا قال: [﴿إِلَّا﴾ جزاءَ ﴿مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾]، وما في القرآن بلا شَكٍّ أبلَغُ وأشَدُّ؛ لأنه إذا قال: إلَّا جزاءَ ما كانوا يَعمَلون؛ فإنه قَدْ يَقُولُ قَائِلٌ: إن الجزاءَ رُبَّما يَنقُص، وربَّما يَزيد، لكن إذا قال: ﴿إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ كأنهم يُجزَوْن بالعمَل نفسه؛ كان ذلك أبلغَ في امتِناع الزيادة أو النَّقْص، فما في القرآن أَوضَحُ، يَعني: أبلَغَ.

أمَّا وجهُ كون المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: [﴿إِلَّا﴾ جَزاء]، فإنه يقول: إن الذي يَكون يومَ القِيامة ليس هو العمَلَ، ولكنه جزاء العمَل، ولكننا نَقول: إن كلام الله عَزَّوَجَلَّ أَفصَحُ وأبلَـغُ، يَعنِي: كأَنَّ العمَل نَفْسه هو الذي يُجزَوْن به، فيكون ذلك أبلَـغَ في العَدْل.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ في الدُّنيا] المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله: [في الدُّنْيا] أَفادَنا أن (كان) هنا للماضِي المُحقَّق، وقد تَقدَّم أن (كان) يُراد بها مُجرَّد اتِّصاف اسمها بخبَرِها، مثل قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، ليس المَعنَى: كان فيما مضَى، بلِ المَعنَى أنه لم يَزَل ولا يَزال كذلك.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أن هَؤلاءِ الرُّؤَساءَ كانوا يَدْعون -بَلْ يَأْمُرون- هؤلاءِ الضُّعَفاءَ ليلًا ونَهارًا؛ لقولهم: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن هَؤلاءِ المَتبوعين يَتوصَّلون إلى أَتْباعهم بالمَكْر والخِداع حيث قالوا: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ فهُمْ يَمكُرون بهم، حيث يُوحِي بعضُهم إلى بعض زُخرَف القول غُرورًا، وإلَّا فهم يَعلَمون أنهم بمُخالَفتهم للرُّسُل على باطِل.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الشِّرْك كُفر؛ لقولهم: ﴿أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾، وليس كُلُّ كُفر شِرْكًا، فكُلُّ شِرْك كُفْرٌ، وليس كُلُّ كُفر شِركًا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن هؤلاءِ الرُّؤَساءَ قد فرَضوا سَيْطَرتهم وسُلطانَهم على هؤلاء الأَتْباع فَرْضًا لا مَحيدَ لهم عنه؛ لقولهم: ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ﴾، فهُمْ عندما يَدْعونهم لا يَقولون مثَلًا: إن الكُفْر حسَنٌ، وإن اتِّخاذ الشُّرَكاء حَسَن. وما أَشْبَه ذلك، بل يَقولون: اكْفُروا! لأن الأَمْر كما تَقدَّم هو طلَبُ الفِعْل على وجهِ الاستِعْلاء.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: تَحريم النِّدِّ لله عَزَّوَجَلَّ، أَيْ: تَحريم جَعْل النِّدِّ لله؛ لأن قولَهم: ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ يُعتبَر ذِكْرًا لأسباب العَذاب ولا شَكَّ فيه.

ولكن الشِّرْك -كما هو مَعلوم- أنواعٌ: شِرْك أكبَرُ مُخرِج عن المِلَّة، وشِرْك أَصغَرُ لا يَخرُج، وشِرْك ظاهِر بيِّن وشِرْك خَفِيٌّ لا يَبين، ثُم الخَفاء والظُّهور قد يَكون باعتِبار ظُهوره للناس، وقد يَكون باعتِبار ظُهور كونه شِرْكًا، يَعنِي: يَخفَى على الناس أن هذا الرجُلَ مُشرِك؛ فالرِّياء مثَلًا يَخفَى على الناس؛ لأن مَحلَّه القَلْب، وهو لا يَعلَم به إلَّا الله عَزَّوَجَلَّ، والحلِف بغير الله ممَّنِ اعتاده هذا خَفيٌّ، لكن ليس من حيثُ ظُهوره

للناس؛ لأن الناس يَسمَعونه ولكن من حيث ظُهور حُكْمه، ولكِنْ كثير من الناس -ولا سِيَّما مَنِ اعتاد الحَلِف بغير الله- يَظُنُّون أن الحَلِف بغير الله تعالى ليس به بَأْس.

وهناك شِرْك ظاهِر أنه شِرْك، وظاهِر للناس أيضًا، كعِبادة الأصنام، فكُلُّنا يَعرِف أنها شِرْك، لكن من المُشرِكين مَن يَتعلَّل بأن هذه الأصنامَ يُريد بها أن تكون شُفَعاءَ، لا أنها هي نَفسُها تَنفَع أو تَضُرُّ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن النَّدَم عند رُؤْية العَذاب لا يَنفَع؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، فلَمْ يَنتَفِعوا بإظهار النَّدامة، ولا بإِسْرارها في نُفوسهم أيضًا، أمَّا النَّدَم قبل رُؤية العذاب فهو تَوْبة، إذا أَصلَح العمَل تاب الله عليه.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن من جُملة ما يُعذَّب به هؤلاءِ: أنَّ أيدِيَهم تُغَلُّ في أعناقهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: بَلاغة القُرآن، حيث يَدُلُّ على المَعنَى باختِصار ووضوحٍ فهنا قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ ولم يَقُلِ: الذين استُضْعِفوا، أو الذين استكْبَروا. بل قال الذين كفَروا؛ ليَعُمَّهم ويَعُمَّ غيرَهم أيضًا ممَّن كان كافِرًا.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أن الله عَزَّوَجَلَّ لا يَظلِم أحَدًا؛ لقوله تعالى: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أن الجَزاء من جِنْس العمَل، فيُجازَى الإنسان بمِثْل عمَله تمامًا، وقد بَيَّن الله تعالى في آيات أُخَرَ أن الحسَنة بعَشْرة أمثالها إلى سَبْع مِئة ضِعْف، وأن السَّيِّئة لا يُجزَى الإنسان إلَّا مِثلها فقطْ.

الآية (٣٤)

• قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [سبأ:٣٤].

•••

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ﴾ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [رُؤَساؤُها المُنعَّمون] ﴿إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ﴾ المُراد بالقرية البلَد سواءٌ كان كبيرًا أم صغيرًا؛ لأنه مَأخوذ من الجَمْع، فالقَرْية سُمِّيت بقَرْية؛ لأنها تجمَع الناس، وإن كان العُرْف عندنا الآنَ أن القَرْية هي البلَدُ الصغير، لكن هذا عُرْف حادِث، والقَرْية في اللغة تَشمَل البلد الكبير أو الصغير؛ قال الله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ﴾ [محمد:١٣]، مع أن مكَّةَ أُمّ القُرى، وسمّاها الله تعالى قَرْية.

وقوله تعالى: ﴿مِّن نَّذِيرٍ﴾، المُراد بالنَّذير النبيُّ، ﴿نَّذِيرٍ﴾ نكِرة في سِياق النَّفي، وهذا من باب تَأكيد العُموم.

وقوله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ﴾، وبيَّن المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الإِتْراف بمَعنَى: التَّنعيم، يَعني: إلَّا مَن نُعِّموا في الدنيا كذا وكذا، والتَّرَف سبَب للتَّلَف، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٖ وَحَمِيمٖ ﴿٤٢﴾ وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُتۡرَفِينَ﴾ [الواقعة:٤١-٤٥].

وانظُرْ إلى التَّرَف ماذا يُسبِّب؟ يُسبِّب الكِبْرِياءَ، ورَدَّ الحقِّ، وعدَمَ الإيمان بالرُّسُل.

قال تعالى: ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾: ﴿بِمَآ﴾ أي: بالذي.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ الخِطاب في ﴿أُرْسِلْتُم﴾ للرُّسُل الذي عبَّر عنهم بقوله فيما سبَقَ: ﴿مِّن نَّذِيرٍ﴾.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ عِندنا حَرْفَا جرٍّ ﴿بِمَآ أُرْسِلْتُم﴾ و﴿بِهِۦ﴾، ويَتعلَّق الجارُّ الأوَّلُ ﴿بِمَآ أُرْسِلْتُم﴾ بقوله تعالى: ﴿كَٰفِرُونَ﴾، وقُدِّم عليه للحَصْر، كأنهم قالوا: لا نكفُر بشيء إلَّا بما أُرسِلتم به، وهذا من المُبالَغة في العُدوان، نَسأَل الله تعالى العافِيَةَ!.

أمَّا الثاني ﴿بِهِۦ﴾ فمُتعلِّق بـ(أُرسِل)، وقُدِّم المُتعلِّق على المُتعلَّق في ﴿بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾؛ لسَبَبين: مَعنوِيٍّ ولَفظيٍّ: المَعنويُّ: إفادةُ الحَصْر، واللَّفْظيُّ مُراعاة فواصِل الآيات؛ لأننا نَرى أن الله عَزَّوَجَلَّ يَأتي بالأشياء التي فيها مُراعاة الفَواصل حتى، وإن لزِمَ أن يُقدَّم المُؤخَّر ويُؤخَّر المُقدمَّ، ففي سوره طه: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه:٧٠]، مع أن مُوسى أَفضَلُ من هارونَ عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ، لكن أُخِّر مُراعاةً لفَواصِل الآيات.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن الله عَزَّوَجَلَّ بعَث في قرية نذيرًا؛ لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ﴾ وقد دَلَّ على ذلك آياتٌ مُتعدِّدة كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن المُترَفين هم أهل البَلاء، ومِنهم يَصدُر الشَّرُّ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾ إلى آخره.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: التحذير من التَّرَف، حيث كان التَّرَف سببًا للشَّرِّ والبَلاء والكُفْر، وقد كان النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -فيما رَواه أبو داودَ- يَنهَى عن كثرة الإِرْفاهِ، ويَأمُرنا بالاحتِفاء أحيانًا؛ فهو لا يَنهَى عن الرفاهية مُطلَقًا، ولكن عن كَثْرتها، ويَأمُر بالاحتِفاء؛ ومَعنى الاحتِفاء: أن نَمشِيَ حُفاةً أحيانًا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن الله عَزَّوَجَلَّ قد أَعذَر إلى خَلْقه بإِرْسال الرُّسُل؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ﴾ وهذا كقوله: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥].

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: وَقاحةُ هؤلاءِ المُترَفين من وجوهٍ:

أوَّلًا: أنهم قالوا بكُلِّ صراحةٍ: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾.

ثانيًا: أنهم أكَّدوا هذا الكُفرَ بقولهم: ﴿إِنَّا﴾، و(إِنَّ) للتَّوْكيد.

ثالثًا: أنهم قدَّموا المَفعولَ -مَفعولَ الكُفر- وهو قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿بِمَآ أُرْسِلْتُم﴾، كأنهم يَقولون للرُّسُل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ: إننا لا نَكفُر بشيءٍ سِوى ما أُرسِلْتم به؛ لأن المعروف أن تقديم المَفعول يُفيد الحَصْر.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن تَكذيب هَؤلاءِ المُترَفين كان مع إقرارهم بأن هؤلاءِ رُسُلٌ، حيث قالوا: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم﴾.

فإن قلتَ: أفلا يُمكِن أن يَكون: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم﴾ يَعنِي: على زَعْمكم؟

فالجوابُ: أن الأصل في الكلام الحقيقةُ، وأن هذا إقرارٌ منهم أنهم أُرسِلوا، ولا غَرْوَ أن يَقوم الكافِر بالكُفْر المَبنيِّ على العِناد والاستِكْبار.

الآيـة (٣٥)

قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ:٣٥].

•••

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالُواْ﴾ يَعنِي: المُترَفون ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾ [ممَّن آمَن] ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾، افتَخَروا على هؤلاء؛ فقالوا: نحن أكثَرُ أموالًا وأولادًا وكثرة أَمْوالنا وأولادِنا -على زَعْمهم- تَدُلُّ على رِضا الله تعالى عنا إذ لو لم يَرْضَ عنَّا ما رزَقَنا الأموالَ والأولادَ.

وهذه الدَّعْوى سيُبيِّن الله تعالى بُطلانَها، لكن هم زعَمُوا أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لم يُنعِم عليهم بهذه الأموالِ ولا الأَوْلاد إلا لأنَّهم على حقٍّ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ يَحتَمِل نَفيَهم للعَذاب يَحتَمِل أَمْرين:

أحدُهما: أنهم يَدَّعون أنهم إذا بُعِثوا لن يُعذَّبوا وإن كانوا يُقِرُّون بأصل العذاب.

الثاني: يَحتَمِل أن: نَفيَهم للعَذاب يُراد به نفيُ البَعْث، يَعنِي: لن نُبعَث فنُعذَّب كما زعَمْتم أيها الرُّسُل.

فهاهنا احتمالان؛ الأوَّلُ: يَقولون: إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لن يُعذِّبنا؛ لأنه أَنعَم علينا بالأموال والأولاد، والثاني: يُنكِرون البَعْث، يَعنِي: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾؛

لأننا لن نُبعَث، هذا واحِد، فما نحن بمُعذَّبين لأن الله تعالى قد رضِيَ عنَّا فلا يُعذِّبنا.

والواقِع أنهم يُنكِرون البَعْث؛ لأن مَن آمَن بالبَعْث لزِم من إيمانه أن يُؤمِن بالرُّسُل ويَلتَزِم بالشريعة.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن هؤلاءِ المُترَفين افتَخَروا بما أَعطاهُمُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من كثرة الأموال والأولاد.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن الإنسان قد يَغترُّ بالنِّعْمة فيَبقَى على مَعْصيته؛ لأنهم قالوا: نحن أكثَرُ أموالًا وأولادًا فقد رَضِيَ الله عَزَّوَجَلَّ عنَّا. ولكن هذا ليس دليلًا على رِضا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عنهم.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن هؤلاء الكُفَّارَ زعَموا بدَعْواهم أن الذي أَعطاهم نَعيم الدنيا سوف يُعطيهم نعيم الآخِرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾.

وانظُرْ إلى قوله عَزَّوَجَلَّ في آخِر سورة (فُصِّلت) حين ذَكَر أن الله تعالى إذا أَعطَى الإنسان رحمة من الله تعالى ونِعمة يَقول: ﴿هَٰذَا لِي وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت:٥٠]، فهذا نَظير هذه الآيةِ؛ يَقولون: نحن أكثَرُ أموالًا وأَوْلادًا، وإن رجَعْنا إلى الله تعالى فإننا لن نُعذَّب، وهذا على أحد الاحتِمالَيْن، والاحتِمال الثاني أنَّ قولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ أَيْ: أننا لن نُبعَث ونُعذَّب.

• • ❁ • •

الآيــة (٣٦)

• ● ◌ ● •

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ:٣٦].

• ● ◌ ● •

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ آمِرًا رسولَه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن يَرُدَّ عليهم: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾.

قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ:[يُوسِّعه ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ امتِحانًا ﴿وَيَقْدِرُ﴾ يُضيِّقه لمَن يَشاء ابتِلاءً ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: كُفَّار مَكَّةَ ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك] رَدَّ على هَؤلاء الذين قالوا: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾ يَعنِي: فنحن الذين رضِيَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عنَّا، أمَّا أنتم ففُقَراءُ، وفَقْرُكم يَدُلُّ على أن الله تعالى لن يَرضَى عنكم.

والجوابُ: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾، يَبسُط يَعنِي: يُوسِّع لَمن يَشاءُ، أي: مِن مُؤمِنٍ وكافِرٍ، فهُناك كُفَّار قد ضيَّق الله تعالى عليهم الرِّزق، وهناك مُؤمِنون قد وسَّع الله عليهم الرِّزْق، فالرِّزْق بيَدِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولكن قوله تعالى: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ تَقدَّم أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إذا قيَّد فِعْله بمَشيئته فهو مَربوط بحِكْمته، يَعنِي: مَن يَشاءُ ممَّن تَقتَضي الحِكْمة أن يُوسَّع له، ويَقْدر: يُضيِّق ممَّن تَقتَضي الحِكْمة أن يُضيِّق عليه.

ولهذا يُروَى أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال في الحديث القُدسيِّ: «إِنَّ مِنْ عِبادِي مَنْ

لَوْ أَغْنَيْتُهُ لَأَفْسَدَهُ الْغِنَى، وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَوْ أَفْقَرْتُهُ لَأَفْسَدَهُ الْفَقْرُ»[1]، فالغَنيُّ ربَّما يَطغَى بغِناه ويَستكثِر، والفقير ربما يَقنَط من رحمة الله ويَستَحسِر ويَستبعِد الفرَج، فيكون الأوَّلُ فاسِدًا بطُغيانه، والثاني فاسِدًا بيأسه وقُنوطه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ﴾ الرِّزْق بمَعنى: العَطاء.

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [كُفَّار مَكَّةَ]، وهذا كما سبَق من قُصوره في التَّفسير، والواجِب أن نَقول: إن المُراد بـ﴿النَّاسِ﴾ جميعُ الناس؛ أهلُ مكَّةَ وغيرُهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، لا يَعلَمون أن الأَمْر بيَدِ الله تعالى من حيثُ تَوسيع الرِّزْق وتَضييقه.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ ولم يَقُل: كل الناس؛ لأن المُؤمِنين يَعلَمون ما لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من الحِكَم في بَسْط الرِّزْق وتَقْديره.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: إِثْبات المَشيئة لله تعالى، لقوله تعالى: ﴿لِمَن يَشَاءُ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثبات الأَفعال الاختِيارية؛ لقوله تعالى: ﴿يَبْسُطُ﴾ و﴿وَيَقْدِرُ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ كَثْرة المال والولَد لا يَدُلُّ على الرِّضا، وإنما هو تابع لمَشيئة الله تعالى.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: الحِكْمة العَظيمة البالِغة في اختِلاف الناس في سَعة الرِّزْق

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٨/ ٣١٨-٣١٩)، والبيهقي في الأسماء والصفات رقم (٢٣١)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وضِيـقه، ولولا ذلك ما قامَت مَصالِحُ الخَلْق، فلو كان النـاس على حدٍّ سَواء في الغِنَى فلا يَخْدُم بعضهم بعضًا، ولا يَقوم بعضُهم بمَصالِح بعضٍ.

وانظُرْ إلى قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الزخرف:٣٢] لماذا؟ ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ ولَوْلا هذا الاختِلافِ مِن بَسْط الرِّزْق وسَعَتِه ما حصَلَتْ هذه الفائِدةُ العَظيمة وهو تَسخير الناس بعضِهم لبعضٍ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ أكثَر النـاس جُهَّالٌ بحِكْمة الله عَزَّوَجَلَّ في أفعاله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

• • ۞ • •

الآية (٣٧)

• • ☙ • •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ:٣٧].

• • ☙ • •

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [قُرْبَى، أي: تقريبًا].

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ﴾: (مَا) نافِية وهي حِجازية؛ لأن (أَموالَ) اسمُها، و﴿بِٱلَّتِى﴾ خبرُها.

إِذَنْ: فالمُبتَدأ والخبَر مَوْجودان، فتكون حِجازيةً، والباء في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿بِٱلَّتِى﴾ زائِدة لفظًا لا مَعنًى، وهي خَبَر (مَا)، أَيْ: ما أموالُكم أيُّها المُفتَخِرون بها حيثُ قُلْتم: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾ وأموالُكم؛ ما أموالُكم بالتي تُقرِّبُكم عِنْدنا زُلْفى.

وما الذي يُقرِّب عند الله تعالى؟

الجوابُ: الأعمالُ الصالِحة، أمَّا الأموال فإنها قد تكون ضرَرًا على الإنسان، فلَيْست هي التي تُقرِّب إلى الله تعالى، فمُجرَّد المال لا يُقرِّب إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿زُلْفَىٰٓ﴾ قُربَى أَيْ: تَقريبًا]، فأَفادنا بهذا التقريرِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن ﴿زُلْفَىٰٓ﴾ مَفعول مُطلَق لـ(تُقرِّب)؛ لأن التقريب بمَعنَى: الزُّلْفى، فهو إِذَنْ:

مَفعول مُطلَق، ولا نَقول: إنه مَصدَر؛ لأنه مُخالِف لعامِله في الاشتِقاق فـ(تُقرِّب) مِن قرَّبَ، و(زُلْفى) مِن ازدَلَفَ بمَعـنى قرُب، فالمعنى: أن هذه الأمـوال والأولاد لا تُقرِّبكم تقريبًا إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ويُحتَمَل أن المَعنى: ﴿بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ﴾ أيْ: تُدنِيكم منَّا، والمَعنَى من حيثُ العُموم سواءٌ بالتي تُقرِّبكم عندنا زُلْفى، لكن يَختَلِف الإعرابُ، فإنه على المَعنى الثاني تكون ﴿زُلْفَىٰ﴾ مَفعولًا به لا مَفعولًا مُطلَقًا.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿إِلَّا﴾ لكِن] إشارة إلى أنَّ الاستِثْناء هنا مُنقَطِع؛ ووجهُه أن الكافَ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم﴾ تَعود على الكافِرين؛ ومَن آمَن وعمِل صالِحًا فليس من الكافِرين.

والمُستَثْنى إذا كان من غير جِنْس المُستَثْنى منه فهو مُنقَطِع، فالمُنقَطِع هنا إذا كان الضميرُ في أموالكم يَعود على الكافِرين فالاستِثْناء مُنقَطِع قطعًا؛ لأن مَن آمَن وعمِل صالِحًا ليس من الكافِرين، وإذا جعَلْنا الخِطاب في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ﴾ عائِدًا على جميع الناس المُخاطَبين صار الاستِثْناء مُتَّصِلًا.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ يَعنِي: فإن مَن آمَن وعَمِل صالِحًا تُقرِّبه أمواله وأولاده إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأنه يَعمَل فيها بطاعة الله تعالى، فيَكتَسِب المال عن طريقٍ حلالٍ، ويَصرِفه أيضًا في الطُّرُق النافِعة، وأولادُه كذلك يُربِّيهم ويُؤدِّبهم حتى يَكونوا قُرَّة عَيْنٍ له في الحياة وبعد المَمات.

وقد ثبَتَ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»(١).

(١) أخرجه مسلم: كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، رقم (١٦٣١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

إِذَنْ: إذا دعا الولَد الصالِح لأبيه قرُب إلى الله عَزَّوَجَلَّ وصار هذا الدُّعاءُ مُقرِّبًا له.

قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ الإيمان يكون في القَلْب، وهي العَقيدة و﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ يكون في الجَوارِح، و﴿صَٰلِحًا﴾ صِفة لمَصْدَر محذوف تَقديرُه: عملًا صالِحًا، كما بيَّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ذلك في سورة الفُرقان في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان:٧٠].

والعمَل الصالِح: هو ما كان خالِصًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، مُوافِقًا لشريعة الله عَزَّوَجَلَّ، فالعمَل الذي فيه رِياء ليس بصالِح؛ لأنه لم يَكُن خالِصًا، والعمَل الخالِص المُبتَدع ليس بصالِح؛ لأنه ليس مُوافِقًا لشريعة الله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ﴾: (أُولئك) المُشار إليه: مَن آمَن وعمِل صالِحًا، وجاء بلفظ الجَمْع (أُولَئِك) مُراعاةً للمَعْنى، أمَّا اللَّفْظ فإنه يَقول: ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ فاللَّفْظ مُفرَد، ولكنه عاد إلى ﴿مَنْ﴾ بِاعتِبار المعنى، وقد سبَق مِرارًا وتَكرارًا أنه يَجوز في (مَن) و(مَا) وما أَشبَهَهما؛ يَجوز فيه مُراعاة المَعنى ومُراعاة اللَّفْظ، ففي مُراعاة المَعنى نَأتي بالإشارة أو بالضمير مجموعة، وفي مُراعاة اللَّفْظ نَأتِي به مُفرَدًا.

وربما نَأتي مرَّةً بمُراعاة اللَّفْظ، ومرَّة بمُراعاة المَعنى، ومرَّة بمُراعاة اللَّفْظ في سياق واحِد؛ قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الطلاق:١١]، الضمائر هنا رُوعِيَ فيها: في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ رُوعِيَ فيها اللفظُ، وفي قوله

تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الطلاق:١١] رُوعِيَ المَعنَى، وفي قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ [الطلاق:١١] رُوعِيَ اللفظُ؛ ففي سِياق واحِد رُوعِيَ اللفظُ، ثُم المعنى، ثُم اللفظُ.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ﴾ أي: الجزاء المُضاعَف: الحَسَنة بعَشَرة أمثالها إلى سَبْع مئة ضِعْف إلى أضعاف كثيرة.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿بِمَا عَمِلُواْ﴾: (مَا) يُحتَمَل أن تكون مَصدرِيَّةً، وأن تكون مَوْصولةً، فإن كانت مَوصولةً فعائِدُها محذوف، والتَّقْدير: بما عمِلوه، وإن كانت مَصدرِيَّة فلا حاجةَ إلى عائِد، ويَكون التقدير: ﴿بِمَا عَمِلُواْ﴾، أي: بعمَلهم، والباء هُنا للسبَبية؛ لأن النبيَّ ﷺ قال: «لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ الجَنَّةَ بِعَمَلِهِ»، قالوا: ولا أَنْتَ يا رسولَ الله؟ قال: «وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ الله بِرَحْمَتِهِ»(١)؛ وهنا قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ﴾ ولا مُنافاةَ؛ لأن الباء في قوله ﷺ: «لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ أَحَدٌ بِعَمَلِهِ» باء المُعاوَضة التي هي كقولك: بِعْتُ هذا الثوبَ بدِينار.

وأمَّا الباء في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿بِمَا عَمِلُواْ﴾ فهي باء السبَبية أي: أن الله عَزَّوَجَلَّ جعَل العمَل سببَ دُخول الجَنَّة، ولم يَجعَلِ الجَنَّة عِوَضًا عن العمَل، بل العمَل سببُها.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بِمَا عَمِلُواْ﴾ أي: جزاء العمَل الحَسَنة بعَشْر أمثالِها] الحسَنة مثلًا بعَشْر [فأكثَر ﴿وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ﴾ من الجَنَّة ﴿ءَامِنُونَ﴾ من الموت وغيره، وفي قِراءة (الغُرْفةِ)] قِراءة سَبْعية؛ لأن قاعِدة المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذا قال: (في قِراءةٍ) فهي سَبْعية، وإذا قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قُرِئَ) فهي شاذَّة،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المرضى، باب تمني المريض الموت، رقم (٥٦٧٣)، ومسلم: كتاب صفة القيامة، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، رقم (٢٨١٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

والقِراءة هنا: (فِي الغُرْفة) و﴿فِي ٱلْغُرُفَٰتِ﴾، ولكن الغُرْفة بمَعنَى: الجَمْع؛ لأن المُفرَد المُحلَّى بـ(أل) غيرِ العَهْدية يُفيد العُموم، كما في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر:٢]، أي: إن كل إنسان؛ ولهذا قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بمَعنَى: الجَمْع] أيِ: الغُرْفة بمَعنَى: الجَمْع.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ كَثْرة الأموال والأولاد لا تَستَلْزِم القُرْب إلى الله تعالى، فإنَّ مِن الناس مَن يَكون كثيرَ المال والولَد وهو من أبعَدِ الناس عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ومِن الناس مَن يَكون قليلَ المال والولَد وهو من أَقرَب الناس إلى الله تعالى، فهذا النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ليس هو من أَكثَرِ الناس أموالًا وأولادًا، ومع ذلك فهو أَقرَبُ الناس إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذا الرجُلُ الذي افتَخَرَ بماله وولَده وقال: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [مريم:٧٧]، إذا آتاه الله المال والولَد فإنه لا يَنفَعُه.

قال الله تعالى: ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ [المدثر:١١-٢٦]، فالأموال والأَوْلاد لا تُقرِّب إلى الله تعالى.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن المُؤمِن الذي يَعمَل الصالِحاتِ فإن أَمْواله وأولاده تُقرِّبه إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأنه يَكتَسِبها من حلال، ويَصرِفها في ما يُرضِي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيَكون مُنتَفِعًا بها، والأولاد كذلك يَقوم عليهم بالتَّرْبية والتَّعليم وغير ذلك من

مَصالِحِهم، فيَنتَفِع بذلك عند الله تعالى؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ الجَزاء على الإيمان والعمَل الصالِح مُضاعَف؛ لقوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثبات الأَسْباب، من الباء في قوله تعالى: ﴿بِمَا عَمِلُواْ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن مَنازِل الجَنَّة عالِية؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ﴾ والغُرْفة: المَنزِل العالي، أمَّا الذي في الأَرْض فيُسمَّى حُجْرة، ولا يُسمَّى غُرْفة فالمَنازِل فوق غُرَف، والمَنازِل تَحت حُجَر.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ مَن دخَل الجَنَّة فهو آمِن مِن كل مَخوف؛ آمِن من الموت ومن المَرَض ومن انقِطاع النَّعيم، ومِن فَساد الثِّمار ومِن كُلِّ شيءٍ: ﴿وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾.

• • ۞ • •

الآية (٣٨)

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ [سبأ:٣٨].

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾؛ لَمَّا ذكر جَزاء المُؤمِنين ذَكَر جزاء غيرهم؛ لأنَّ القُرآن مَثانٍ، تُثنَّى فيه المَعاني فإذا ذُكِر الثواب ذُكِر العِقاب، وإذا ذُكِر المُؤمِن ذُكِر الكافِر، وذلك لئَلَّا تَسْأَم النفس إذا بَقِيت في مَوْضوعٍ واحِد؛ ولأجل أن يَكون الإنسان عند تِلاوة القُرآن دائِرًا بين الخَوْف والرَّجاء، ومعلومٌ لنا جميعًا أن المَوْضوع إذا كان واحِدًا فإن النَّفْس تَمَلُّه وتَسْأَم منه، فإذا نُوِّع صار في ذلك تَنشيط لها.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الْقُرْآنِ بِالْإِبْطَالِ] يَسعَوْن: السعيُ يُطلَق على مُجرَّد الحرَكة، ويُطلَق على الرَّكْض بشِدَّة، ففي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ﴾ [الجمعة:٩]، المُراد بذلك مُطلَق الحرَكة، وليس المُراد أن ترْكُض، وإذا قُلت: يَسعَى في الطواف، يَسعَى بين الصَّفا والمَرْوة، يَسعَى بين العَلَمَيْن.

فالمُراد بذلك الرَّكضُ، هنا ﴿يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ يُحتَمل أن يَكون المُرادُ بذلك مُطلَقَ الحَرَكة، ويُحتَمَل أن يُراد به الحرَكة بشِدَّة، وهذا الأخيرُ أبلَغُ؛ لأنَّ هؤلاءِ

يَسعَوْن جاهِدين بآيات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وقول المُفَسِّر: [﴿يَسْعَوْنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: الْقُرْآنِ] ووجهُه: أنَّ الذين كفرُوا لا يُنكِرون آيات الله تعالى الكَوْنية، وإنما يُنكِرون آياتِ الله تعالى الشرعيةَ، على أنهم أحيانًا يَطلُبون آياتٍ كَوْنيةً تَعْجيزًا للرسول ﷺ كما حَكَى الله تعالى عنهم في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء:٩٠-٩٣].

كم آيةٍ طلَبوها من الآيات الكَوْنيَّة هنا، ومع ذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي﴾ يَعنِي: تَنزيهًا له أن يَبعَث رسولًا بدون آيات يُؤمِن على مِثْلها البَشَر وما أنا إلَّا بَشَرٌ رَسولٌ؛ كما أن الآياتِ هنا خصَّها المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالآيات الشَّرْعية، وقال: إن المُراد بها القُرآن.

ويُحتَمَل أن يُراد بها الآيات الكونية والآيات الشرعية جميعًا؛ لأنَّ هؤلاءِ كما يُعاجِزون في القُرآن يُعاجِزون أيضًا في الآياتِ الكَوْنية، وكأَنَّ القُرآن آيةٌ من آيات الله عَزَّوَجَلَّ لاشْتِماله على ما يَعجِز عليه البَشَر، بَل إنَّ الله عَزَّوَجَلَّ تحدَّى البَشر وغيْرَهم ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء:٨٨]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت:٥٠-٥١].

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾: ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ لنا مُقـدِّرين عَجْزنا وأنهم يُفـوِّتوننا، و(المُعاجِز) هـو: الطالِب لإعْجاز غيرِه فـ(عاجَزه) مِثل قاتَله.

والمَعنَى: أنهم يُعاجِزون الله تعالى، أي: يَطلُبون على زَعْمهم ما بِه العَجْز؛ ولهذا قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أَيْ: مُقَدِّرِينَ عَجْزَنَا وَأَنَّهُمْ يُفَوِّتُونَنَا] هؤلاء الذين فعَلوا ذلك يُعاجِزون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويَطلُبون ما فيه عَجْزه على زَعْمهم، ويَقولون: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال:٣٢]، هذا تَعجيز لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حكيم لا يُجيبُهم إلى ما أَرادوا، بَلْ ويَجعَل هذه الأُمورَ حَسبَ ما تَقضِيه الحِكْمة، قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ سبَق أن هذه الجُملةَ هي خبَرُ الذين يَسعَوْن، فخبَر المُبتَدأ الآنَ جُمْلة خبَرِيَّة.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ أي: مُحضَرون في نَفْس العذاب، والعَذاب بمَعنَى العُقوبة والنِّكاية، وهذا خبَرٌ يُراد به التَّهديد، لا مُجرَّد أن نَعلَم بأن هؤلاء سيَحضُرون في العذاب ويُعذَّبون، بلِ المُراد التَّهديد، والتَّحذير من صَنيعهم.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن من عِباد الله تعالى مَن يَسعَى لإِبْطال آيات الله عَزَّوَجَلَّ بكُلِّ ما يَستَطيع من قُوَّةٍ، ووَجْه ذلك أن الله تعالى أَثبَتَه وأَثبَتَ عذابه، فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾، وليس شيئًا مَفروضًا مُقدَّرًا، بل هو شيءٌ واقِع.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بيان ما يَصِل إليه عُتُوُّ الإنسان وطُغيانه، حيث يَسعَى في آيات الله تعالى مُعاجِزًا لله عَزَّوَجَلَّ، فمَن أنت حتى تُعاجِز الله تعالى وتَطلُب تَعجيزَه وتَتَحدَّاه.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن هَؤلاء المُعاجِزين الذين يَسعَوْن في آيات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُعاجِزين سوف يَكونون يوم القِيامة في العذاب؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾.

وَرُبَمَا يَقُولُ قَائِلٌ: إنهم في العَذاب مُحضَرون حتى في الدنيا؛ ويَكون المُرادُ بالعَذاب هنا العذاب القَلْبيُّ؛ لأنَّ الكافِر مهما نُعِّم في الدنيا إنه في أَلَمٍ وعَذاب في قَلْبه؛ لأنَّ الكافِر لا يَشبَع من الدنيا، فهو في حُزْنٍ خَوْفًا من ذَهاب المَوْجود، وفي هَمٍّ طلَبًا لوُجود المَفقود؛ لأنَّه يُريد أن تَنمُوَ له الدنيا وتَزدَهِر، ويَخشَى أيضًا من أن تَفوت بخِلاف المُؤمِن.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثبات الجَزاء والعُقوبة؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾.

• • ❁ • •

الآية (٣٩)

• قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبأ:٣٩].

﴿قُلْ﴾ الخِطاب للنبيِّ ﷺ، ويَجوز أن المُراد به كل مَن يَتأتَّى به الخِطاب، مَن يَصِحُّ تَوْجيه الخِطاب إليه، يُخاطِب هؤلاء الذين يَسعَوْن في آيات الله تعالى مُعاجِزين، ويَطلُبون عَجْز الله تعالى في ما يَدَّعُون.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ﴾ أي: يُوسِّعه من البَسْط، وهو التَّوْسِعة؛ ولهذا يُقال: بسَطَ الكَلام، واختَصر الكلام، وبسَط بمَعنَى: وسَّعه وطوَّله.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿الرِّزْقَ﴾ بمَعنَى العَطاء، ﴿لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ امتِحانًا، ﴿وَيَقْدِرُ﴾ يُضيِّقه له بعد البَسْط، أو لمِنَ يَشاءُ ابتِلاءً.

وقوله تعالى: ﴿لِمَن يَشَاءُ﴾ سبَقَ لنا كثيرًا بأنَّ كل فِعْل علَّقه الله تعالى بالمَشيئة فهو مَقرون بالحِكْمة، مِثالُه قولُه عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان:٣٠]، بمَشيئته عَزَّوَجَلَّ، فهي تابِعة لحِكْمته، فهو إذا اقتَضَتْ حِكْمته أن يُوسِّع الرِّزْق لأَحَدٍ وسَّعه، وإذا اقتَضَتْ حِكْمته أن يُضيِّقه ضَيَّقه.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مِنْ عِبَادِهِ﴾ المُراد بالعِباد هنا العُبودية العامَّة؛ لأنَّ مَن يُشاهَد أن الكافِرين والمُؤمِنين على السَّواء، منهم مَن يَبسُط الله عَزَّوَجَلَّ له الرِّزْق،

ومِنهم مَن يُضيِّقه له، فالمُراد بالعِباد إِذَنِ العُبودِية العامَّة، وقد سبَقَ أيضًا أن العُبودِيَّة تنقَسِم إلى: عامَّة، وخاصَّة، فالعامَّة التي تَشمَل جميع الخَلْق، والمُراد بها العُبودِيَّة الكَوْنيَّة، التي قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عنها: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣]، وأمَّا الخاصَّة فهي عُبودية الطاعة الشَّرْعية، وهي التي قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيها: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان:٦٣].

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [امْتِحانًا] يعني: اختِبارًا يختَبِره هل يَشكُر أَمْ يَكفُر؛ ولهذا قال سُلَيْمانُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل:٤٠] حين رَأَى عَرْش بَلقيسَ حاضِرًا بين يَدَيْه في هذه المُدَّةِ الوجيزةِ، وقال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥]، يَعنِي: ابتِلاءً واختِبارًا، وكم مِن إنسان كان في حالِ الفَقْر أَصلَحَ ممَّا كان بعد الغِنى! وكم مِن إنسان بالعَكْس إذا كان فقيرًا ومُسرِفًا على نَفْسِه فلمَّا أَغْناه الله تعالى هَداه الله عَزَّوَجَلَّ!.

وقوله تعالى: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ حَسبَ ما تَقتَضيه الحِكْمة قال تعالى: ﴿وَيَقْدِرُ لَهُۥ﴾: ﴿لَهُۥ﴾ هل يَعودُ على المَبسوط له أو يَعود على مَن يَشاءُ؟

الجوابُ: أن المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكَر فيه المَعنيَيْن، و(يَقدِر) أي: يُضيِّق له بعد البَسْط؛ يَعنِي أنه عَزَّوَجَلَّ يَبسُط الرِّزْق لمَن يَشاءُ، ثُم يُضيِّق عليهم؛ ليَبلُوَهم ويُعطِيَ النِّعَم، ثُم يُزيلها امتِحانًا واختِبارًا، يَمُنُّ الله عَزَّوَجَلَّ على الإنسان بالأولاد فيَموتون، وبالمال فيَفنَى، وهذا تَضييق بعد البَسْط، أو أنَّ المَعنَى يَبسُط يَقدِر له، أي: لمَن يَشاءُ لا لهذا الذي كان مَبسوطًا له الرِّزْق؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يَبسُط الرِّزْق لقَوْم ويَقدِره لآخرين.

وهل هذانِ المَعْنَيانِ يَتنافَيان؟

الجوابُ: لا، وإذا كانا لا يَتَنافَيان وقد سبَق أنَّ القاعِدة في التفسير أنَّ المَعنيَيْن إذا كانا لا يَتَنافَيان فإن الآية تُحمَل عليهما جميعًا.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ يُقال: إنَّ كل إنسان يَرزُق عائِلته؛ أي: من رِزْق الله تعالى.

﴿وَمَآ﴾ هذه شَرْطيَّةٌ، وفِعْل الشَّرْط ﴿أَنفَقۡتُم﴾، وجَوابه: ﴿فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥ﴾، واقْتَرَن بالفاء؛ لأنها جُملة اسمِيَّة، ويَقتَرِن جوابُ الشَّرْط بالفاء في سَبْعة مَواضِعَ، وهي المُجموعة في قوله:

اسْمِيَّةٌ طَلَبِيَّةٌ وَبِجَامِدٍ ... وَبِمَا وَقَدْ وَبِلَنْ وَبِالتَّنْفِيسِ

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥ﴾ يُخلِفه أي: يَأتِي بخَلْفه، واعلَمْ أن هناك فَرْقًا بين (يَخلُف) و(يُخلِف)، فـ(يَخلُف) يُراد به الشيء الذي خلَفَ غيرَه، قال الله عَزَّوَجَلَّ عن مُوسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حين وجَّه الخَلف لهرونَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ﴾ [الأعراف:١٤٢]، أي: صِرْ خَلَفًا عنِّي في قَوْمي، وأمَّا (أَخلَف) الرُّباعيُّ فالمُراد: أَعطَى الخَلف، فالمُخلِف مُعطِي الخَلف، و(الخالِف) الذي خَلَف غيرَه، الفَرْق بين الثلاثيِّ والرُّباعيِّ، الثلاثيُّ مَعناه: خَلَف غيرَه، والرُّباعيُّ أَعطَى الخَلف، ومنه الحديث حديثُ أبي سَلَمةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «اخْلُفْني فِي عَقِبِي»[1]، وحديث أُمِّ سلَمةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالَتْ نَفْسَ الشيءِ قالَت: «وَأَخلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا»[2]، فاجتَمَع بالحديث الكلام جَميعًا، حديث أُمِّ سلَمةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا:

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٦/ ٣١٣)، بلفظ: أخلفني في أهلي.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب: الجنائز، باب ما يقال عند المصيبة، رقم (٩١٨)، من حديث أم سلمة.

«مَا مِنْ عَبْدٍ يُصَابُ بِمُصِيبَةٍ فَيَقُولُ: اللهمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا. إِلَّا آجَرَهُ الله فِي مُصِيبَتِهِ وَأَخْلَفَ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا» هنا مِن الرُّباعيِّ فهو يُخلِفه، أي: يُعطِي ما يَكون خَلفًا عنه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم﴾ الإِنْفاق مَعناهُ: بَذْل المال، والمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قيَّده بقَوْله: [وَمَا بَقِيَ فِي الخَيْرِ]، وهذا القَيْدُ الذي قيَّدَه به المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ دلَّتْ عليه آياتٌ مُتَعدِّدة كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:١٩٧]، ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٧٢].

والآياتُ في هذا كثيرة؛ لأنَّ مَن أَنفَقَ في غير الخَيْر فالخَلف غيرُ مَضمون له، لكن مَنْ أَنفَق في الخَيْر فالخَلف مَضمون له، ويَشمَل هذا النَّفَقاتِ الواجِبةَ، كإنفاق الإنسان على زَوْجته وأُمِّه وأبيه وابنه وبِنْته وما أَشبَهَ ذلك، ويَشمَل أيضًا الإِنْفاق في الزكاة؛ لأنها هي أُمُّ الإِنْفاقات؛ لأنَّ الإِنْفاق في الزكاة أَحَدُ أركان الإسلام، ويَشمَل الإنفاق في الجِهاد في سبيل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويَشمَل الإِنْفاق في نُزول الخَيْر كالإحسان إلى الناس وغير ذلك.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ هل الإِخْلاف في الكمِّية أو في الكَيْفية؟ بمَعنى: هل الله عَزَّوَجَلَّ يُعطيك بدَلًا عنه بالكمِّية إذا أَنفقْت عشَرة أَعطاك عشَرة، أو بالكَيْفية بمَعنى: أن الباقِيَ يُنزِل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى به البَرَكة حتى يَكون مُقابِلًا لما أَنفَقْت مَضمومًا إليه؟

الظاهِر أنه يَشمَل الأَمْرين؛ أَنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يُخلِفه، يُعطيك خَلفًا عنه بالكمِّية، فإذا أَنفَقْت عشَرةً فتَحَ الله تعالى لك باب الرِّزْق وأَعطاك عشَرة، أو أنه يَكون خَلفًا في الكَيْفية فإن أَنفَقْت عشَرة من مِئة وبَقِي تِسعون فإن هذه التِّسعِين تَقوم مَقام مِئة

أو أكثَرَ للبركة التي يُحِلُّها الله عَزَّوَجَلَّ؛ ولهذا جاء في الحديثِ الصحيحِ: «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ»(١)، يَعنِي أن الصدَقة لا تَنقُص المال، ولكنها تَزيده كما قال الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّزِقِينَ﴾ و﴿خَيْرُ﴾ أَصلُها: أَخيَرُ؛ لأنها اسْمُ تَفضيل؛ لكنها حُذِفت الهَمْزة تَخفيفًا؛ لكَثْرة استِعْمالها، و﴿الرَّزِقِينَ﴾ المُعطِين، وكيف نَقول: «خيرُ الرازِقين» مع أن الذي يَبسُط الرِّزْق ويُعْطي الرِّزْق هو الله تعالى؟

نَقول: لأن غيرَ الله تعالى يَرزُق؛ لكنه رِزْق مَحدود، يُقال: رزَقَ عائِلَته؛ قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُوا الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [النساء:٨].

فإِذَنِ: الرِّزق يَكون من الله تعالى ويَكون مِن غيره، لكنه مِن الله تعالى شامِل عامٌّ، ومِن غَيْره ناقِص خاصٌّ، فالإنسان يَكون كما قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ يَقول: إنه يُقال: كل إنسان يَرزُق عائِلته. يَعنِي: يُعطيها، لكن عَطاء الإنسان عائِلتَه أو رِزْق غير عائِلته من رِزْق الله عَزَّوَجَلَّ، لولا أن الله تعالى أَعطاك ما أَعطَيْت غيرَك، فيَعود المَعنَى إلى أن الرِّزْق لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّزِقِينَ﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: طلَب الإعلان؛ لأنَّ الأُمور كلُّها بيَدِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مِن بَسْطٍ وتَضييق؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ إذ إنَّه ليس المُراد أن تَقولها في نَفْسك، بل تَقولها في نَفْسك ولغَيْرك أيضًا.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب العفو والتواضع، رقم (٢٥٨٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الأَرْزاق بيَدِ الله عَزَّوَجَلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ﴾، ويترتَّب على هذا فائِدة، وهي أن نَطلُب الرِّزْق من الله تعالى؛ لأنه هو الذي يَبسُط الرِّزْق ويَقدِر.

ويتفرع على ذلك: ألَّا نَطلُب رِزْق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بمَعاصيه؛ لأن طلَب رِزْق الله بمَعاصيه مُنافٍ للأَدَب، كيف تَطلُب الرِّزْق مِمَّنْ بيَده الرِّزْق بمَعصيته؛ ولهذا حذَّر النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من ذلك فقال: «إِنَّهُ لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ رِزْقَهَا وَأَجَلَهَا، فَاتَّقُوا اللهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ»[1]، يَعنِي: اطلُبوا الرِّزْق طلَبًا جميلًا، وهو ما وافَق الشَّرْع، وعلى هذا فطَلَب الرِّزْق بالغِشِّ والكَذِب والظُّلْم طلَبٌ غيرُ مَشروع، بل ويُنافِي الأَدَب مع الله عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تَمام رُبوبية الله عَزَّوَجَلَّ وسُلطانه؛ لكونه يَبسُط ويَقدِر، ولا أحَدَ يُمكِن أن يَعترِض عليه، وحتى لو اعترَض عليه فلا يَنفَع هذا الاعتِراضُ؛ لأنَّ الله تعالى مُدبِّر لما يَشاءُ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: الحثُّ على الإِنْفاق؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ ووَجهُ ذلك: أن الإنسان إذا أَنفَق، فإن نَفْسه الأَمَّارة بالسُّوء تَقول له: إذا أَنفَقْتَ من مالك نقَصْتَ منه، فلا تُنفِقْ. فيَقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الإِنْفاق وإن قلَّ فإنه مَخلوف، تُؤخَذ من قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مِّن شَىْءٍ﴾ فإنها نَكِرة في سِياق الشَّرْط مُؤكَّدة بـ(مِن) الزائِدة، هذا إذا لم تَكُن (مِنْ)

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٨/ ١٦٦ رقم ٧٦٩٤)، وأبو نعيم في الحلية (١٠/ ٢٦)، من حديث أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بيانًا لـ(مَا) في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ خيْرُ الرازِقين، بكثرة العَطاء وبدَوام العَطاء، فمَـن سِوى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من الرازِقين لا يُعطِي الكثـير، وإذا أَعطَى الكثـير فإنه يَمَلُّ، فلا يَستَمِرُّ في عَطائه، أمَّا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فإنه خيرُ الرازِقين في عَطائه كَثْرةً واستِمْرارًا.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثبات رازِقٍ سِوى الله تعالى، تُؤخَذ من قوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ فإن هذا يَدُلُّ على وجود مُفضَّلٍ ومُفضَّلٍ عليه مُشترَكَيْن في أصل المُفضَّل به، وهو الرِّزق، ولكن رِزْق غير الله تعالى من رِزْق الله تعالى؛ لأن هذا الذي أَعطاني مثَلًا من أين له العَطاءُ؟ مِن الله تعالى، فيَكون إِعطاؤُه إِيايَ من رِزْق الله تعالى الذي أَعْطاه، وأيضًا فإن رِزْق غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رِزْق مَحدود، ليس شامِلًا لكلِّ أحَد، وليس شامِلًا لكل زمَن.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ أفعال العِباد مَخلوقة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وفيها ردٌّ على القدَرِيَّة، تُؤخَذ من قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾، ونحن نَعلَم أن الرِّزق الذي يَأتينا يَكون كثيرًا من كَسْبنا، نَتَّجِر ونَحرُث ونَعمَل، ونَحصُل على الرِّزْق، فيَكون في هذا دَليلًا على أنَّ فِعْل العَبْد مَخلوق لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وفيها أيضًا رَدٌّ على الجَبْرِيَّة وهمُ الجَهْمِيَّة، أيضًا لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم﴾ حيث أَضافَ الفِعْل إلى العَبْد، والجَبْرِيَّة يَقولون: إنَّ الإنسان مَسلوب القُدْرة والاختِيار، وفِعْله لا يُنسَب إليه إلَّا على سبيل المَجاز، وإلَّا فإنه لا اختِيارَ له في فِعْله.

• • ❁ • •

الآيــة (٤٠)

• • • •

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ﴾ [سبأ:٤٠].

• • • •

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَ﴾ اذْكُرْ ﴿يَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا﴾] اذْكُرْ قَدَّرها المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ لأنَّ (إِذْ) ظَرْف، والظَّرْف كالجارِّ والمَجرور لا بُدَّ له من مُتعَلَّق، وهذا المُتعلَّق يَكون مَذكورًا ويَكون مُقدَّرًا، فقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ﴾ [الأنعام:٩٣] العامِل مَذكور: ترى، وليس محذوفًا، وفي قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الأنفال:٥٠]، العامِل هُنا مَذكور، وقد يُحذَف، وهو كثير في القُرآن.

وهنا عامِل ﴿يَوۡمَ﴾ محذوف، واذْكُرْ: ﴿يَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ﴾ اذْكُرْ ذلك اليَوْمَ تَحذيرًا منه وتَخويفًا؛ لأنَّ هذا اليَوْمَ يوم عظيم.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا﴾ أي: يَجمَعهم، و﴿جَمِيعٗا﴾ حال من الهاء في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَحۡشُرُهُمۡ﴾، ومتى يَكون ذلك؟ قال الله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ [التغابن:٩] يكون هذا يومَ القِيامة، يَحشُر الله تعالى الأوَّلين والآخِرين.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ ۝٤٩ لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾ [الواقعة:٤٩-٥٠]، وقال: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ﴾ [هود:١٠٣].

وقوله تعالى: ﴿يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ أي: المُشركين ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ﴾، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ الهَمْزة للاستِفْهام و﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ اسم إشارة مَفعول مُقدَّم لـ﴿يَعْبُدُونَ﴾، أو هي مُبتَدَأ والمَفعولُ ﴿إِيَّاكُمْ﴾؛ لأنَّ ﴿يَعْبُدُونَ﴾ الآنَ مُفرَّغة، يَعنَي أنها لم تَأخُذ مَفعولَها، وإذا لم تَأخُذ مَفعولها صارَ ما سبَقَ هو المَفعولَ.

وهل يَجوز تَقديم مَعْمُول خبَرِ (كانَ) عليها؟

الجوابُ: نعَم يَجوز، وفي باب (كانَ) وأَخواتها، أنَّه يَجوز تَقديم خبَرِها، ويَجوز تقديم مَعمولِ خبَرِها، قال الله تعالى: ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ [هود:٨] قُدِّم عامِـلُ الخَبَر على الأَداة، ﴿إِيَّاكُمْ﴾ مَفعـول لـ﴿يَعْبُدُونَ﴾، يَعنِي: أَهَؤُلاءِ كانوا يَعبُدونكم، ولكنه فصَل الضَّمير؛ لتَقدُّمه.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ﴾ بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ وَإِبْدَالِ الْأُولَى يَاءً وَإِسْقَاطِهَا] عِندنا هَمْزتان، هَمْزة ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ الثانية، وهَمْزة ﴿إِيَّاكُمْ﴾ فيها ثلاث قِراءات: القِـراءة الأُولى تَحقـيق الهَمْزتين: (أهؤلاءِ إِيَّاكم)، والقِراءة الثانية يَقـول رَحِمَهُ اللَّهُ: وإِبدال الأُولى ياءً: (أَهَؤُلاءِي إِيَّاكم) بأن تَجعَل الهَمْزة ياءً، والثالِثة إِسْقاط الهَمْزة الأُولى: (أَهَؤُلا إِيَّاكم)، يَعنِي الهَمْزة الأُولى من الهَمْزتين المُتجاوِرَتَيْن، وهي هَمْزة (أُولاءِ) الثانية وهَمْزة (إِيَّاك)؛ ثلاثة قِراءات، وفي أَيِّها قَرأْتَ أَجزَأَ.

تنبيه: قوله تعالى: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ﴾ بتَحقيق الهَمْزتَيْن وإبدال الأُولى ياءً، ذكَر بعضُ المُحشِّين أن المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ وَهِمَ في هذا، وأنَّ إبدال الياء إنما هو في الثانية لا في الأُولى، يَعنِي: أنَّ الأُولى ما فيها قِراءة في إبدالِها ياءً، وإنما إبدال الياء في الثانية دون الأُولى، فيَكون هذا وَهْمًا من المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ أو سَبْقة قلَمٍ.

وقوله تعالى: ﴿كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ أي: في الدُّنيا يَقول الله تعالى ذلك تَوبيخًا وتَقريعًا لهؤلاء العابِدين الذين كانوا يَعبُدون الملائكة، والملائِكةُ تَقدم لنا كثيرًا أنها جَمْع (ملَك)، وأَصْل (ملك: مَلْأَك)، وأَصْل (المَلْأَك) (مَأْلَك)، ففيها أُصول، لكنها بالاستِعْمال وصَلَتْ إلى هذه اللُّغة.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنه يَنبَغي تَذكيرُ الناس بيَوْم المَعاد، ووجهُ الدَّلالة: أنَّ ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ مُتعلِّق بمَحذوف تَقديرُه: (اذْكُرْ يومَ يُحشَرون)، وهذا يَشمَل تَذكير النَّفْس، بمَعنَى أنَّ نَفْسك إذا غفَلَت يَنبَغي أن تُذكِّرها يومَ الحَشْر ويومَ الموت؛ لأنَّ قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [اذْكُرْ] المُقدَّر يَحتَمِل أنَّ المعنى اذكُرْ في نَفْسك هذا اليومَ، أو اذْكُرْ لغَيْرك هذا اليومَ.

وكِلاهما حقٌّ فيَنبَغي للإنسان أن يُذكِّرَ نَفْسه مَآله، كُلَّما ركَنَت إلى الدنيا وأَرادَتِ الانغِماس فيها فلْيُذكِّرْها يوم النَّقْلة من هذه الدُّنيا، ويُذكِّرها قومًا انتَقَلوا من هذه الدُّنيا، وكانوا أَشَدَّ منه قوةً وأكثَرَ أموالًا وأولادًا، ثُم يُذكِّرها ما وراء ذلك من الحِساب والعِقاب، وهو اليوم المشهودُ الذي يُجمَع له الناس.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثبات البَعْث؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ الحَشْر عامٌّ لكل أَحَد حتى من أَكَلَتْه السِّباع وأَحرَقَتْه النِّيرانُ، يُؤخَذ من قوله: ﴿جَمِيعًا﴾ وهو كذلك، فالَّذي أَكَلَتْه السِّباع أو أَحرَقَتْه النيرانُ لا بُدَّ أن يُحشَر يوم القيامة كما قال الله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء:١٠٤].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثبات القَوْل لله تعالى، من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَقُولُ﴾ وهذا يَعنِي إثبات الكلام والقول لله عَزَّوَجَلَّ، وهو مَذهَب أهل السُّنَّة والجَماعة ومَذهَب الأشاعِرة ومَذهَب المُعتزِلة، ولكنهم يَختَلِفون في تفسير هذا الكلامِ.

فالكلامُ عند أهل السُّنَّة والجَماعة كلام حَقيقيٌّ بحُروف وأصواتٍ مَسموعة، وهو غير مَخلوق.

والكلام عند المُعتزِلة كلام بحروف وأصوات مَسموعة؛ لكنَّه ليس من صِفات الله تعالى، فهو مَخلوق عندهم يَقولون: إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَخلُق كلامًا فيَنسُبه إليه على سبيل التَّشريف والتَّعظيم، كنِسبة البيت إليه ونِسبة المَساجِد إليه ونِسبة الناقة إليه ونِسبة الأرواح إليه وما أَشبَهَ ذلك.

والأشاعِرة يُثبِتون لله تعالى كلامًا، لكنهم يَقولون: إنه بغير حروف وبغير أَصوات مَسموعة؛ بل هو المَعنَى القائِم بنَفْسه، وهذا الذي يُسمَع هو الذي سمِعه مُوسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وسمِعه محمَّدٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ويَسمَعه الناس يوم القيامة هذه أَصوات يَخلُقها الله عَزَّوَجَلَّ لتُعبِّر عمّا في نَفْسه، وليسَتْ هي كلام الله تعالى، بل هي عِبارة عنه.

أمَّا أهل السُّنَّة والجَماعة فيَقولون: إنَّ كلام الله عَزَّوَجَلَّ كلامٌ حَقيقيٌّ بحَرْف وصَوْت مَسموع، لكنَّ هذا الصوتَ لا يُشبِه أصواتَ المَخلوقين؛ لأنَّه من كلام الله تعالى وكلامه صِفة من صِفاته لا تُشبِه صِفاتِ المَخلوقين.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: تَقريع أُولَئك المُشرِكين وتَوْبيخهم بسُؤال مَن يَدَّعونهم آلهةً حتى يُظهِروا البَراءة منه؛ لقوله تعالى: ﴿أَهَٰؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ

سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ فسُؤال المَعبودين عن عِبادة العابِدين يُراد به التَّقريع والتَّوْبيخ لأُولَئك العابِدين، وأن هؤلاءِ المَعبودين تَبَرَّؤوا منهم وقالوا: سُبحانك أنت ولِيُّنا من دُونهم، وهذا من أشَدِّ ما يَكون من التَّخجيل والتَّوبيخ والتَّنديم، لأنه يُظهِر كذِب هَؤلاء العابِدين وافتِراءَهم.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثبات المَلائِكة وأنَّ مِن الناس مَن عبَدهم من دون الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ﴾.

الآية (٤١)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ﴾ [سبأ:٤١].

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ﴾ الضميرُ يَعود إلى المَلائِكة ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ [تَنْزِيهًا لَكَ عَنِ الشَّرِيكِ] يَعنِي: إننا نُنَزِّهُك عن أن نَكون شُرَكاءَ لك نحن ولا غَيرُنا وتَنزيهُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَكون عن شَيْئين: أحدُهما النَّقْص، والثاني: مُشابَهة المَخلوقين.

وإن كان مُشابَهة المَخلوقين من النَّقْص، لكن هذا من باب التَّفصيل في القول، يُنزَّهُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن النَّقْص؛ فمَثَلًا لا يُوصَف الله تعالى بالعَمَى والصَّمَم والعَجْز والضَّعْف وما أَشبَهَ ذلك مُشابَهة المَخلوقين فيما لهم من صِفات الكمال، فلا يُقال: عِلْمه كعِلْم المَخلوقين، أو وَجهُه كوَجْه المَخلوقين، أو يَدُه كيد المَخلوقين، وما أَشبَه ذلك، فهو مُنزَّهٌ عن هذين الأَمْرين.

وهنا يُنزَّهُ عن أن يَكون له شريك؛ لأنَّه لو كان له شَريك لكانَ ناقِصًا؛ إِذْ إِنَّ الشريك مُعين لمَن شارَكه، أو مالِكٌ لما يَملِكه، فالله تعالى مُنزَّهٌ عن هذا.

وتَقولُ الملائِكةُ: ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ أي: تَنزيهًا لك عن الشريك، وأفادَنا المُفسِّر بقوله: تَنزيهًا. أن (سُبْحَانَ) مَنصوبة على أنها اسمُ مَصدَر، فتَكون مَفعولًا مُطلَقًا، وهي مُلازِمة للنَّصْب على المَفعولية المُطلَقة دائِمًا، ومُلازِمة أيضًا للإِضافة، فلا تَقَع

إِلَّا مُضافةً وإِلَّا مَنصوبةً على المَفعولية المُطلَقة.

قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ أي: لا مُوالاةَ بَينَنا وبينَهم من جِهتنا، يَعنِي: أن هذه الجُملةَ خبَرية ثُبوتية ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ مَعناها جُملة سَلْبية، أي: لا نَتَوَلَّاهم، بل ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾، فلا مُوالاةَ بيننا وبينهم، وإذا انتَفَت المُولاةُ ثبت ضِدُّها، وهي المُعاداة، يَعنِي: فهؤلاء أَعداؤُنا، وأنت ولِيُّنا من دونهم.

وهذا كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَٰتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَٰتِ﴾ [البقرة:٢٥٧].

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿بَلْ﴾ للانتِقال، ﴿كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ الشياطين، أي: يُطيعوهم في عِبادتهم إيَّانا ﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ مُصدِّقون في ما يَقولون]

قوله: [﴿بَلْ﴾ للانتِقال]؛ لأنَّ (بَلْ) تَأتي للإِضْراب الانتِقالي، وللإِضْراب الإِبْطالي، فإن كان المَقصود بها إِبْطالَ ما سبَقَ وإثباتَ ما لَحِق فالإِضْراب إِبْطالي، وإذا كان المَقصودُ بها الانتِقالَ من مَعنًى إلى آخَرَ فوقَه أو دونَه يُسمَّى إضرابًا انتقاليًّا.

وهنا المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: يَقول: إنَّ هذا الإِضْرابَ انتِقاليٌّ؛ يَعنِي: وأَنَّهم لم يُبطِلوا ما سبَق، فهم باقون على قَوْلهم: ﴿سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾، ولا مُولاةَ بيننا وبينَهم، ولا نُوالِيهم ولا يُوالوننا، بل نَزيد على ذلك: كانوا يَعبُدون الجِنَّ، والمُراد بالجِنِّ هُنا الشياطين؛ لأنَّ الجِنَّ همُ الشَّياطينُ في الواقِع؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوٓا إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف:٥٠]، فهم يَعبُدون الجِنَّ.

فَإِنْ قِيلَ: إذا كانوا يَعبُدون المَلائِكة، كما هو ظاهِر السِّياق فكيف عِبادتهم للجِنِّ؟

فالجوابُ: هنا عِبادتهم للجِنِّ عِبادة طاعة، أي: أنهم يُطيعونهم في الإشراك فالجِنُّ تَأمُرهم أن يَجعَلوا المَلائِكةَ شُركاءَ مع الله تعالى في العِبادة فيُطيعونهم، ومَن أَطاع غيرَ الله تعالى في مَعصية الله تعالى فقَدِ اتَّخَذه إلهًا، قال الله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ﴾ [التوبة:٣١]، وقد رُوِيَ أنهم كانوا إذا أَحَلُّوا ما حرَّم الله أَحلُّوه، وإذا حرَّموا ما أَحَلَّ الله حرَّموه، فجعَلوهم إلهَةً مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في التحليل والتحريم والطاعة، فيَكون مَعنَى قوله تعالى: ﴿بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّ﴾ أي: يُطيعونهم في عِبادة الملائِكة، ومَن أَطاع غيرَه في مَعصية الله تعالى فقَدِ اتَّخَذه إلهًا.

وقوله تعالى: ﴿أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ﴾ أي: مُصدِّقون فيما يَقولون لهم.

وقوله تعالى: ﴿أَكۡثَرُهُم﴾ ولم يَقُلْ: كلهم. مع أن الجميع يَعبُدون الملائِكة طاعَةً للجِنِّ.

فلماذا عَبَّروا بقولهم: أكثَرهم. ولم يَقولوا: كلُّهم؟

جوابُ ذلك أن يُقال: إنَّ هؤلاءِ المُشرِكين يَنقَسِمون إلى قِسْمين: قِسْم عامَّةٌ أَتباعٌ، لا يَعرِفون شيئًا، وجَدوا آباءَهم على دِين فمَشَوْا عليه، والقِسْم الآخَر مُجتَهِدون يَعرِفون الأَمْر ولكنهم يُؤمِنون بهؤلاء الجِنِّ ويُصدِّقونهم، ويَكفُرون بالرُّسُل، وهؤلاء همُ الأَكثَرُ، ومع ذلك فإن الأَتباع -وهم القِسْم الأوَّل- إذا تَبيَّن لهم الحقُّ وأَصرُّوا على اتِّباع هؤلاء وقالوا كما قالَتِ الأُمَم: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٢]، فإنهم مُستَحِقُّون للعذاب؛ لأنهم كفَروا على بَصيرة.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بيانُ ما عِند المَلائِكة عليهم الصلاة والسلام من تَعظيم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، حيث قالوا: ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ أي: تَنزيهًا عن أن يَكون لك شريك، لا مِنَّا ولا من غَيرِنا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثباتُ رُبوبية الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى للمَلائِكة، حيث قالوا: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثبات الجِنِّ؛ لقوله تعالى: ﴿بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّ﴾ والجِنُّ عالَمٌ غَيْبيٌّ مخلوق من نار وفيهم المُؤمِن والكافِر والمُطيع والعاصِي، كما في سُورة الجِنِّ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: وُجوب الكُفْر بعِبادة الجِنِّ؛ لقوله تعالى: ﴿أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ﴾، وأمَّا الإيمان بوُجودهم فهو واجِب؛ لكن الإيمان بأن لهم حقا في العبودية هذا منكر، وهو المراد بقوله: ﴿أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ﴾، ومن هنا نعرف أن ما جاء في كتاب في كتاب التوحيد -واستشكله بعضهم-؛ أنَّ المُصدِّق بالسِّحْر لا يَدخُل الجَنَّة مع أن السِّحْر حقيقة، والتَّصديق به أَمْر واقِعيٌّ، لكن المُراد التَّصديق به يَعنِي مُمارَسته والإيمان به أي: بما يَنتُج عنه بحيث يُمارِسه الإنسان بنَفْسه، وأمَّا التصديق بأن السِّحْر له آثار فهذا أَمْر لا يُمكِن إِنْكارُه.

الآيــة (٤٢)

• ● ● •

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [سبأ:٤٢].

• ● ● •

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَالْيَوْمَ﴾: (أل) هنا للعَـهْد الذِّكْري، والمَذكور هو قولُـه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ أي: فاليَوْم الذي نَحشُرهم فيه لا يَملُك بعضُكم لبَعْض نَفْعًا ولا ضَرًّا.

وقوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ﴾ نُصِبَت على الظَّرْفية، والعامِل فيها قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَا يَمْلِكُ﴾ يَعنِي: فلا يَملِك اليومَ بَعضُكم لبَعْض، أي: بعض المَعبُودين للعابِدين [﴿نَّفْعًا﴾ شفاعةً ﴿وَلَا ضَرًّا﴾ تَعذيبًا].

وقوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ﴾ الذي انتَفَى نَفْعُه المعبودُ؛ لأنَّ العابِد يَرجو من وَراء المَعبود النَّفْعَ أو الضرَر.

فنَقول: لا يَملِك العابِد للمَعبود ضَرًّا ولا نَفْعًا، كما أنه لا يَملِك المَعبود للعابد ضَرًّا ولا نَفْعًا.

فَإِنْ قِيلَ: ما الحِكْمة في أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ﴾ وجعَله مُبهَمًا ليَشمَل العابِد والمعبود والتابع والمَتبوع؛ فكلُّ أحَدٍ يوم القِيامة لا يَملِك لأَحَدٍ نَفْعًا ولا ضَرًّا، وقول المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [شَفَاعَةً] مع أن كلِمة (نَفع) أعَمُّ من

الشفاعة، لكن كأنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ قيَّدها بالشفاعة؛ لقولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣]، فادَّعَوْا أنَّ عِبادتهم إيَّاهم من أجل أَنْ تَشفَع لهم عند الله عَزَّوَجَلَّ وتُقرِّبهم إليه.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ يَعنِي: نَفْعًا في عِبادتكم إيَّاهم بالشفاعة، والأَصَحُّ: وبغيرها.

﴿وَلَا ضَرًّا﴾ بعـدَم عِبادتكم إيَّاهم، أي: أنهم إذا لم تَعبُـدوهم فإنهـم لن يَضُرُّوكم، وكما أنهم لا يَملِكون في ذلك اليومِ لا نَفْعًا ولا ضَرًّا، فكذلك لا يَملِكون في الدُّنْيا نَفْعًا ولا ضَرًّا.

فإن قلت: إنَّه قد يَعبُد الإنسان غَيرَ الله تعالى، فيَدعوه لكَشْف ضُرٍّ فينكَشِف ذلك الضُّرُّ، فما الجوابُ عن هذه الآيةِ وغيرِها؟

فالجوابُ: إن هذا الذي حصَل لم يَحصُل بالدعاء أو بالعِبادة ولكن حصَل عنده، فليس ذلك سببًا.

فإذا قُلْتَ: قولكَ: إنه حصَل عنده. هذه دَعوى تَحتاج إلى بُرهان، وإلَّا لكان الواجِبُ أن يُحال الأمر على الشيء أو على السبب الظاهِر، وهو دُعاء هذه الأصنامِ. فهذ الاعتِراض يَعنِي: أنك قد تَقول: إن هذا الشيءَ حصَل عند الدُّعاء لا بالدُّعاء. فيُقال لك: هـذه دَعوَى مِنك، ما دامَ دعا هذا الصَّنـمَ أن يَشفِيَه فشُفِيَ، فالأصل إحالة الحُكْـم على السبَب الظاهِر، وهو هذا الدعـاءُ فدَعوَى أنه حصَل بغير هذا السبَبِ الظاهِر تَحتاج إلى دَليل!

فالجوابُ: أن لَدينا دليلًا على ذلك وهو قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَعۡبُدُونَ

مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس:١٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الأحقاف:٥].

فهاتان الآيتان وما أَشبَهَهما كلُّها تَدُلُّ على أنَّ هذه الأصنامَ لا تَنفَع لا بجَلْب نَفْع ولا بدَفْع ضَرَر، فإن وُجِد شيءٌ حصَل بعد الدُّعاء فقد حصَل عنده لا به.

فإن قُلْتَ: كيف يَكون هذا الشيءُ؟ وما الحِكْمة من أن الله عَزَّوَجَلَّ يجعَل حدوث هذا النَّفْعِ أو اندِفاع هذا الضرَرِ عند دُعاء هذه الأَصنامِ؟

نَقول: فِتْنةً وامتِحانًا، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قد يَمتَحِن العبد بالشيء المُحرَّم يُصِرُّ عليه، أو يَبتليه بالشيء المُحرَّم يَمتَنِع منه، والله على كل شيءٍ قديرٌ.

وقوله تعالى: ﴿وَنَقُولُ﴾ مَعطوف على قوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُ﴾ يَعنِي: واليَوْم نَقول للذين ظلَموا.

الظُّلْم في اللغة: النَّقْص هذا هو الأصل، ومنه قوله تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف:٣٣] أي: لم تنقُص.

وأمَّا في الاصطِلاح أو في الشَّرْع: فهو نَقْص ذَوِي الحَقِّ حَقَّهم؛ إمَّا بالمُماطَلة بالواجِب، وإمَّا بانتِهاك المُحرَّم، نَقْص ذَوِي الحقِّ حَقَّه، إمَّا بالمُماطَلة في الواجب مثل قوله ﷺ: «مَطْلُ الْغَنِيِّ ظُلْمٌ»[1]، وإمَّا بالاعتِداء على حقِّه كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الشورى:٤٢].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحوالات، باب الحوالة وهل يرجع في الحوالة، رقم (٢٢٨٧)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب تحريم مطل الغني وصحة الحوالة، رقم (١٥٦٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ كَفَرُوا] وهذا تَفسير بالمَعنى لا بالمُراد؛ لأن الظُّلْم من حيث المَعنى أَعَمُّ من الكُفْر، لكنَّ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَقول: إنه يُراد بالظُّلْم هنا ظُلْم الكُفْر، كقوله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣]، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوٓا إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام:٨٢].

فالظُّلْم قد يُراد به بالكُفْر، وكأنَّ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ خصَّ الظُّلْم بالكُفْر هنا، بدليل السِّياق: ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ هذا ممَّا يَدُلُّ على أن المُراد بالظُّلْم هنا ظُلْم الكُفْر؛ لأنَّ الذي يُكذِّب بالنار حُكْمه كافِر؛ لتكذيبه خبَرَ الله تعالى ورسوله ﷺ.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ذُوقُوا﴾ فِعْل الأَمْر، لكنه يُراد به الإهانة؛ يَعنِي: يُقال لهم إهانةً: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ أي: أنَّ النار ستُصيبكم حتى تَذوقوها كما تَذوقون الطعام.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ كانوا يُكذِّبون بالنار لأنهم يُنكِرون البَعْث، والنار إنما تَكون بعد البَعْث، وهم يُكذِّبون بذلك، ومن بابِ أَوْلى أن يُكذِّبوا بما يَكون في القَبْر من العَذاب، فهم يُكذِّبون تكذيبًا كامِلًا ويَقولون: إن الرُّوح إذا خرَجَت من الجَسَد لن تَعود إليه، وهنا قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾، وفي سورة ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ السجدة؛ قال تعالى: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة:٢٠].

فعلى هاتين الآيتين يَكون الوَصْف بالتَّكذيب، مرَّةً بالنار ومرَّة بعَذابها، فهُمْ أحيانًا يُنكِرون النار وأحيانًا يُكذِّبون التعذيب بالنار، ويَقولون: كيف نُعذَّب بالنار؟

وكيف نَبقَى أحقابًا ونحن في النار، والإنسان إذا دخل في النار احتَرَق وانتَهَى؟! فيُكذِّبون بالعَذاب، وأحيانًا يُكذِّبون بالنار نفسها.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ الجارُّ والمَجرور مُتعلِّق بـ﴿تُكَذِّبُونَ﴾، ولكنـه قُدِّم للفَواصِل من جِهة، وللحَـصْر من جهة أخرى، ولكنَّنا إذا قُلْنـا: إنه للحَصْر. يَرِد علينا إشْكال وهو أنهم كذَّبوا بالنار وبغيرها، فيُقال: لمَّا كان العذاب بالنار ذُكِّروا بتكذيبهم بها خاصَّة؛ لأنهم عُذِّبوا بها فكأنه قِيل لهم: عُذِّبتم بشيء أنتُمْ كُنتم تُكذِّبون به، وإلا فلَهُم تكذيبٌ آخَرُ.

• • ❁ • •

الآيــة (٤٣)

• قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [سبأ:٤٣].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾ [الْقُرْآنِ] ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ [وَاضِحَاتٍ بِلِسَانِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ] ﴿قَالُواْ﴾ هذه الجُملةَ الشَّرطيةَ وهي ﴿وَإِذَا﴾، وفِعْل الشَّرْط ﴿تُتْلَىٰ﴾ جوابُه ﴿قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ﴾.

وقولهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ﴾: ﴿مَا﴾ نافِية، وهنا لم تَعمَل لانتِقاض النَّفيِ، وقد قال ابنُ مالِك رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أَلْفيته:

إِعْمَالُ لَيْسَ أُعْمِلَتْ مَا دُونَ إِنْ مَعَ بَقَا النَّفْيِ وَتَرْتِيبِ زُكِنْ[1]

فإذا انتُقِضَ النَّفيُ فلا عمَلَ.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ الإظهار في مَوضِع الإِضْمار له فائِدة دائِمة مُستَمِرَّة وهي التَّنبيهُ، وفائدةٌ خاصَّة في كل سِياق بحَسَبه، فهنا يُقصَد بها التَّعميم، يَعنِي: للذين ظَلَموا من هؤلاء وغيرهم، والإشارة إلى سبَب الحُكْم وهو قوله تعالى: ﴿ذُوقُواْ﴾ للذين ظَلَموا ﴿عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾، والتَّعميم

(١) الألفية (ص:٢٠).

والإشارة إلى عِلَّة الحُكْم، وهو الظُّلْم للذين قالوا: نَقول لهم: ما استَفَدْنا أن سبَب قول الله تعالى لهم وتَوْبيخهم إيَّاهُم هو الظُّلْم.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾: ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ حال من آياتِنا؛ لأنه وَصْفٌ بعد مَعرِفة، والوَصْف بعد المَعرِفة إذا كان نَكِرة يَكون حالًا، وكذلك إذا كان جُمْلة، فالأَوْصاف بعد المَعارِف إذا كانَتْ نكِرة أو جُمْلة تكون حالًا، والأوصاف بعد المَعارِف إذا كانت مَعرِفة تَكون نَعْتًا، فالحال والنَّعْت كلاهما وَصْف، ولكن إن وافَق مَتبوعَه في التعريف والتَّنكير فهو نَعْت، وإلَّا فإن كان المَتبوع مَعرِفة والثاني نكِرة أو جُملة فهو حال، وقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ﴾ هو جوابُ الشَّرْط.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾ أي: إذا تَقرَأ عليهم آياتِنا ولم يُبيِّن القارِئَ فيَشمَل أَنْ يكون القارِئُ النبيَّ ﷺ أو غيرَه، إذا تُتلَى عليهم آياتُ الله تعالى ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ أي: ظاهِراتٍ فما ظُهورها هنا؟ هل ظُهورها بمَعنَى أنها واضِحة أنها كلام الله تعالى؛ لعَجْزهم عنها، أو بيِّناتٍ فيما تَدُلُّ عليه من مَعاني سامِية لا يُمكِن أن يَأتيَ بمِثْلها البَشَر، أو الأمران؟

الجوابُ: يَشمَل هذا وهذا، فهي بيِّنة في ذاتها واضِحة أنها ليست من كلام البَشَر، وهي بيِّنة في مَوْضوعها وما تَدُلُّ عليه من أنَّها ليست من أحكام البَشَر؛ لأنها لا تَتَناقَض ولا يُكذِّب بَعضُها بعضًا، وهذا يَدُلُّ على أنها من عِند الله تعالى.

ولو كانت هذه الآياتُ خَفيَّةً لكان لهم شيء من العُذْر في رَدِّها، ولكنها آيات بيِّناتٌ، لا عُذْرَ لهم في رَدِّها.

ومع هذا يَقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ﴾ يَقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تَفسيرها: [وَاضِحَاتٍ بِلِسَانِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ] ﴿مَا هَٰذَآ﴾

أيِ: الذي جاء بها وادَّعى أنها من عِند الله إلَّا رجُلٌ يُريد أن يَصُدَّكم، وانظُرْ كيف تَحمِل هذه الجُملةُ من الاحتِقار والإنْكار ما هو معلوم، فقولهم: ﴿مَا هَٰذَآ﴾ أَتَوْا به بصيغة الحاضِر وإن كان غائِبًا للاحتِقار، وقولهم: ﴿إِلَّا رَجُلٌ﴾ هذا للإنْكار؛ لأنهم أَتَوْا به بصيغة النَّكِرة، كأنهم لا يَعرِفونه كأنه رَجُل أَجنبيٌّ منهم، قالوا: ما هذا إلَّا رجُلٌ، ولم يَقولوا: ما ذلك الرجُلُ إلَّا رجُل. بَلْ قالوا: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ﴾ احتِقارًا وإنكارًا.

وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ يَعني: لا يُريد أن يَهدِيَكم سبيل الرَّشاد، ولكن يُريد ﴿أَن يَصُدَّكُمْ﴾ أن يَصرِفكم ويَمنَعكم ﴿عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ أيِ: الأَصْنام من الأشجار والأحجار وغيرها، هذا هو غَرَض هذا الرجُلِ الذي جاء بهذه الآياتِ التي تُلِيَت عليهم، وليس غرَضُه الصلاحَ ولا الإصلاحَ. هكذا ردُّوا الحقَّ بهذه الدَّعْوةِ الباطِلةِ.

وقوله تعالى: ﴿عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ ولم يَقولوا: وعمَّا كُنْتم تَعبُدون؛ لإثارة الحَمِيَّة في نُفوسهم؛ لأنَّ الإنسان يَصعُب عليه أن يَدَع ما كان آباؤُه عليه، لا سيَّما مثل هؤلاء الجَهلةِ، ولو قالوا: عمَّا كُنْتم تَعبُدون. لكان يُمكِن أن يُقالَ: إنهم عبَدوا على غير أساس. لكن لمَّا قال تعالى: ﴿عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ كأنَّ هذه العِبادةَ لهذه الأصنامِ أَمْرٌ مُستقِرٌّ كان عليه الآباء، ولا يَنبَغي لكم أن تَترُكوا مِلَّة آبائِكم.

ولهذا يَقولون كما حَكَى الله عنهم في آياتٍ أُخرى: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٢]، أو ﴿مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٣] آيتان.

وقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ من الأصنام، والمُراد بالآباء هنا ما يَشمَل آباءَ الصُّلْب، وهو الأَبُ الأَدْنى والآباء الأَعلَيْن، وهمُ الأَجْداد وإن عَلَوْ.

وقوله تعالى: ﴿ءَابَآؤُكُمْ﴾ هل أُمَّهاتهم كذلك؟

الجوابُ: نعَمْ، لكنَّ الإنسان تَأخُذه الحَميَّة لأبيه أكثَرَ ممَّا تَأخُذه لأُمِّه؛ لأنَّه مِن المعلوم أن الأبَ رَجُل والرجُل أَعقَلُ من المرأة، فإذا كانت آباؤُكم يَعبُدون هذه الأصنامَ ويُصِرُّون على عِبادتها -وهم العُقلاءُ- فإنه لا يَنبَغي لكم أن تَتَّبِعوا هذا الرجُلَ؛ الذي كان يُريد أن يَصُدَّكم عمَّا كان يَعبُد آباؤُكم.

وقالوا في القُرآن: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ﴾ كذِب ﴿مُّفْتَرًى﴾ على الله تعالى. فطَعَنوا في الرسول ﷺ بسُوء قَصْده، وأنه لا يَقصِد الإصلاحَ، وإنها يُريد أن يَصُدَّكم عمَّا كان يَعبُد آباؤُكم، وطعَنُوا في القُرآن وفي الوَحْيِ الذي جاء به هذا الرسولُ ﷺ، وقالوا: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾.

ومعلوم أنَّ هذه الصِّيغةَ صِيغةُ حَصْر، فعلى زَعْمهم ليس في القُرآن شيءٌ صِدْق، كلُّ القُرآن جملةً وتَفصيلًا ﴿إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ أي: كذِب، هو بنَفْسه كذِب، وعلى على الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّه هناك كذِب مُطلَق يُكذِّبه الإنسان ولا يَنسُبه إلى أحَد، وهنا كذِب يَفتَرِيه الإنسان على غيرِه، فالقُرآن يَقولون: إنَّه كذِبٌ وإنه مُفتَرًى على الله عَزَّوَجَلَّ. ولا ريبَ أنَّ هذه دَعوَى باطِلة فالقُرآن كما وصَفَه الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:١١٥]، وكذلك القُرآن من عند الله عَزَّوَجَلَّ، بدليل أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ تَحدَّى هؤلاءِ أن يَأتوا بمِثْله فلم يَأتوا، فهو دليلٌ على أنَّه مِنْ عند الله وكُلُّ أَخباره صِدْقٌ وحقٌّ، خِلاف ما طعَن به هؤلاء.

وقالوا: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ فطَعَنوا في الرسول وطَعَنوا في المُرسَل به، والطَّعْن فيهما طَعْن في الله عَزَّوَجَلَّ، كيف؟

الجوابُ: لأنَّ تَمكين الله تعالى لهذا الرسولِ، وتَأييده له، وإِنزال الآيات عليه

وهو كاذِبٌ سَفهٌ، والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى يُؤيِّد رسوله بما يُنزل عليه، ويَشهَد له بأنه حقٌّ، والرسول ﷺ يَدْعو الناس علنًا وسِرًّا، فلو كان كاذِبًا على الله عَزَّوَجَلَّ والله عَزَّوَجَلَّ يُؤيِّده ويُمكِّنه لكان تَمكينُ الله عَزَّوَجَلَّ له في غاية ما يَكون من السَّفَه، وهذا طَعْن في الله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ هذه أيضًا دَعوَى ثالِثةٌ كاذبةٌ، لكنه أَتى بالإظهار في مَوضِع الإضمار ﴿وَقَالَ﴾ ولم يَقُل: وقالوا، بل ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ ليَشمَل هؤلاءِ وغيرَهم، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات:٥٢].

فقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يَشمَل هؤلاءِ وغيرَهم، ويُفيد أنَّ هؤلاءِ الذين قالوا هذا القولَ كُفَّار؛ لأنَّه وصَفَهم بالكُفْر مُسنِدًا إليهم هذا القولَ، فيَكون ذلك سببًا لكُفْرهم.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿إِنْ﴾ في تَفسيرها [مَا] أي: أنَّ (إِنْ) نافِية، وهل يُشترَط لكونها نافِيةً أن تَأتيَ بعدها (إلَّا)؟

الجوابُ: لا، ولكن إذا أَتَتْ بعدها (إلَّا) فهي نافِية، كُلَّما أَتَت (إلَّا) بعدَ (إِنْ) فإنَّ (إِنْ) نافِية، ولا نَقول: إنها لا تَكون نافِيةً إلَّا إذا وقَعَتْ بعدها (إلَّا)؛ لأنها قد تَأتي نافيةً، وليس بعدها (إلَّا)، كقوله تعالى: ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ﴾ [يونس:٦٨]، أي: ما عِندكم من سُلطانٍ بهذا، ومع ذلك فإن الجُملة هذه ليس فيها (إلا).

والخُلاصةُ: إذا أَتَت (إلَّا) بعد (إِنْ) كانت (إِنْ) نافِية، ولا يَلزَم أن تَأتيَ بعدها (إلَّا)، بل قد تَكون نافِية بدون (إلَّا).

ولنا أن نَستَطْرِد حتى نَذكُر مَعانيَ (إِنْ)، فتَأتي نافِيةً كما هنا، وتَأتي شَرْطيةً كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٢٩]، وتَأتي زائدة كقول الشاعِرِ(١):

بَنِـي غُدَانَـةَ مَـا إِنْ أَنْـتُمُ ذَهَـبٌ ... وَلا صَرِيفٌ وَلَكِنْ أَنْتُمُ الخَـزَفُ

وتَأتي مُخفَّفة مِنَ الثَّقيلة، مثل:

.... وَإِنْ مَالِكٌ كَانَتْ كِرَامَ المَعَادِنِ(٢)

هذه مُخفَّفة من الثَّقيلة؛ إِذًا فتُستَعمَل في اللُّغة العَربية على أربعة أَوْجُهٍ.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ السِّحْر هو في اللُّغة: كل شيء خَفِيٍّ، وسُمِّي سِحْرًا؛ لمُطابَقته السَّحَر وهو آخِر الليل؛ لأَنَّ آخِر الليل تَقَع فيه الأشياء خَفيَّةً؛ لكون الناس مُستَترِين في بُيوتهم، فالسِّحْر في اللغة الشيءُ الخَفيُّ الذي يَخفَى أَمْرُه وسببُه؛ ولهذا أوَّل ما ظَهَرت الساعاتُ هذه قيل: إنها سِحْر!. وإذا جاءت أشياءُ غَريبةٌ على الناس خارِقة للعادة قالوا: هذا سِحْر. فهم يَقولون: إنَّ الذي جاء به مُحمَّد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هذا سِحْر، فعَصا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ على رَأْيهم سِحْر، وإحياء عِيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ الموتى بِإِذْن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سِحْر، وهذا الكلامُ الذي جاء به مُحمَّد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ سِحْر، «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا»(٣)، فقالوا: هذا كَلامٌ فَصيحٌ سحَرَ عُقول الناس.

---

(١) غير منسوب، وانظره في: أوضح المسالك (١/ ٢٦٦)، وشرح الأشموني (١/ ٢٥٤)، وهمع الهوامع (١/ ٤٤٩).

(٢) هو عجز بيت للطرماح بن حكيم الطائي. انظر: شرح الكافية لابن مالك (١/ ٥٠٩)، ديوان الطرماح (ص:٢٨٠).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب الخطبة، رقم (٥١٤٦)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وقوله تعالى: ﴿مُّبِينٌ﴾ هذا من باب التَّمويه، يَعنِي: أنه سِحْر بيِّن لا تَنبَغي المُجادَلة فيه؛ لبَيانه وظُهوره، وهذا كما تُؤكِّد الشيء فتَقول: هذا أَمْر بَيِّن واضِح. وإن كان ليس بيِّنًا واضِحًا، فإن هذا الذي جاءَتْ به الرُّسُل من الآيات ليس بَيِّنًا أنه سِحْر، بلِ البيِّن أنه حَقٌّ وآياتٌ حقيقية، لكن المُكذِّبين -والعِياذُ بالله تعالى- يُجادِلون في الحقِّ.

وقوله تعالى: ﴿مُّبِينٌ﴾: قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: بمَعنَى [بيِّنٌ]؛ لأنَّ (أَبانَ) يَأتِي لازِمًا ومُتعَدِّيًا، فتَقول: أَبانَ الفَجْرُ. بمَعنَى: ظهَر الفَجرُ، وتَقول: بانَ الفَجرُ، فهُنا كلِمة ﴿مُّبِينٌ﴾ بمَعنَى: بيِّن، هذا هو الأقرَبُ، أمَّا ﴿مُّبِينٌ﴾ بمَعنَى: أَبانَ، أي: أَوضَحَ وأَظهَرَ، ففي مثل قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ [يس:٦٩]؛ لأنَّ القُرآن مُبين للحَقِّ، فتكون ﴿مُّبِينٌ﴾ هناك من (أَبانَ) المُتعدِّي، و(مُبينٌ) هنا من (أَبانَ) اللَّازِم.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن الوَحْيَ آية من آيات الله عَزَّوَجَلَّ، ووَجْهُ كونه آيةً من عِدَّة وُجوهٍ:

أَوَّلًا: أنه أَعجَزَ البشَر وغيرَ البَشَر، وهذا مَبنيٌّ على أنه من عند الله تعالى.

ثانيًا: أنَّ أَحكامَه عادِلة مُصلِحة للقُلوب، والأَبدان، والأَفراد، والجَماعات، في كل زمانٍ وفي كلِّ مَكانٍ، وهذا لا يُمكِن أن يُوجَد في قَوانينِ البَشَر مَهْما عظُمَت، فإنما تَكون صالِحة في نِطاق مَحدود، وتَجِدُها كذلك مع كونها صالِحة في نَطاق مَحدود، تَجد فيها أُمورًا ضارَّة قد تُعادِل المَصالِح التي فيها، بخِلاف آيات الله تعالى.

ثالثًا: ما يَشتَمِل عليه الوحيُ، أو القُرآنُ بالذات، من الأَخْبار الصادِقة، التي ليس فيها ما يُخالِف الواقِع بوجهٍ من الوُجوه، سواءٌ كانت تِلك الأَخبارُ ماضِيةً أو حاضِرةً أو مُستقبَلة، هذه وجوهُ كَونِه من آيات الله تعالى.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ آياتِ الله عَزَّوَجَلَّ بيِّناتٌ، ليس فيها خَفاءٌ، وعلى هذا فما يُشكِل على بعض أهل العِلْم من أحكام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فليس مَصدَرُه أن الوحيَ خَفِيٌّ، ولكنَّ مَصدَرُه قُصور الناظِر في الوَحيِ، أو تَقصيره، قُصوره بحيث لا يَكون عنده عِلْم، أو لا يَكون عنده فَهْم، أو تَقصيره بحيث لا يَطلُب العِلْم، ولا يَطلُب الفَهْم، وإلَّا فإن آياتِ الله تعالى بيِّناتٌ، ولا يُمكِن أن تَحدُث حادِثة إلى يوم القِيامة إلَّا وفي كتاب الله تعالى بيانُها، ولكن ليس كل أحَدٍ يَستَطيع أن يَتبيَّنها من القُرآن.

فتَجِد الآية الواحِدة يَتلوها جماعة، ويَتفكَّرون فيها، يَستَنْبِط أحَدُهم منها مَسائِلَ عديـدةً، والآخَرُ لا يَستَنـبِطُ منها إلَّا مَسألةً أو مَسألتـين، وهذا أمرٌ ظاهِر، وكثيرًا ما تُشكِل عليه المَسألةُ، ونُراجِع كتُب العُلَماء والفُقهاء رَحِمَهُمُ اللَّهُ وغيرهم ثُم عند التَّأمُّل في الكِتاب والسُّنَّة نَجِد أنها قريبة مَوْجودة؛ إمَّا داخِلة في عُموم اللَّفْظ، أو إشارة، أو إيماء، أو ما أَشبَهَ ذلك.

وبَيان الآيات إمَّا أن يَكون بذاتها هي بيِّنة واضِحة، وإمَّا أن يَكون عن طريق السُّنَّة، تُبيِّن المُجمَل، وتُفسِّر المُشكِل، وتُقيِّد المُطلَق، وتُخصِّص العامَّ، وتَنسَخ المُحكَم -وهذا محَلُّ خِلافٍ بين العُلَماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ، والصحيحُ أنها تَنسَخ ذلك؛ لأنَّ الكلَّ من عند الله تعالى-.

إِذَنْ: عرَفْنا مَعنَى (بيِّنات)، سَواءٌ كان بذاتِه أو ببيان السُّنَّة قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٤]، فالرسول ﷺ بيَّن

القُرآن بلَفْظه ومَعناه، سَواء بيَّنه بقوله أو بفِعْله.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بيان عُتوِّ المُكذِّبين للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، حيثُ كانوا مع هذه الآياتِ البيِّنات يَدَّعون هذه الدَّعوةَ الباطِلة، وهي أنَّ الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لا يُريد إلَّا أن يَصُدَّهم عمَّا كان يَعبُد آباؤُهم.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنه لا شُبهةَ لهؤلاءِ المُكذِّبين للرسول ﷺ، وإنما هي اعتِداء بالدَّعاوَى الباطِلة؛ لأنَّ غاية ما عِندهم أن يَقولوا: هذا ما كان عليه آباؤُنا. وهذا ليس بحُجَّة، فإن الحقَّ ما وافَق الشَّرْع، سَواءٌ كان عليه الآباءُ أم لم يَكُن.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: غِلَظ هؤلاءِ المُكذِّبين بصَوْغ الأساليب أو العِبارات الدَّالَّة على الحَطِّ من قَدْر النبيِّ ﷺ؛ لقولهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ هؤلاءِ المُكذِّبين كانوا على ضَلالٍ هُمْ وآباؤُهم، حيث كانوا يَعبُدون ما لا يَنفَعُهم ولا يَضُرُّهم؛ لأنهم يَعبُدون الأَشْجار والأَحْجار، ويَدَّعون أنها تَنفَع أو تَضُرُّ إمَّا بذاتها وإمَّا بشَفاعَتها.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنهم ادَّعَوْا أن النبيَّ ﷺ كذَب على الله عَزَّوَجَلَّ في قولهم: ﴿وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ وهذه الدَّعوَى هم بأَنْفسهم يُكذِّبونها؛ لأنهم كانوا يُسمُّون الرسول ﷺ قبلَ أن يُوحَى إليه (الأمينَ)، ويَرَوْن أنه أعظَمُ الناس أمانةً وصِدْقًا، فما الَّذي قلَبَه عن ذلك الوَصْفِ الذي أنتُمْ تُقِرُّون به، حتى قُلْتم: إنه مُفترٍ على الله عَزَّوَجَلَّ؟!.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: ألَّا نَستَغْرِب مَن يُجادِل بالباطِل ويَدَّعي الأقاوِيلَ الكاذِبة، فهناك أُناسٌ الآنَ إذا رفَضوا شيئًا من الأشياء صاروا يَقولون ويَتَقوَّلون على هذا

الذي قاله ما لم يَقُلْه، فيقولون: إنه كاذِبٌ، إنه مُتَناقِض، إنه فعَلَ كذا، إنه فعَلَ كذا. وهو بَرِيء من ذلك، فلهؤلاء السلَفُ من أُولئِك الكُفَّارِ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنْ ما جاء به النبيُّ ﷺ من الآيات من أَفصَحُ الكلام وأَبلَغه وأَبينُه؛ لقولهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ فهُمْ لم يَصِفوه بالسِّحْر إلَّا لأنَّه يَأخُذ بالقُلوب، ويَجُرُّ الناس إليه جرًّا، كما قال النبيُّ عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا»[1].

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أنَّ مَنْ نَسَب الكذِبَ إلى رسول الله ﷺ بما أَوْحى الله تعالى إليه فهو كافِر؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّ هؤلاءِ ادَّعَوْا أنَّ الوحيَ سِحْرٌ بعد أن وصَل إليهم وعرَفوه؛ لقوله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ وعرَفوا أنه حَقٌّ، حتى إنَّ زُعماءَهم كانوا يَتسلَّلون لِواذًا في الليل إلى رسول الله عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ ليَسمَعوا القُرآن؛ لأنَّه آخِذٌ بمَجامِع قُلوبهم، وصاروا يُحِبُّون أن يَستَمِعوا إليه، لكن الحَمِيَّة -والعِياذُ بالله تعالى- والعَصبية مَنعَتْهم أن يَهتَدوا بهذا القُرآنِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب الخطبة، رقم (٥١٤٦)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الآيـة (٤٤)

• • ◦ • •

قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ [سبأ:٤٤].

• • ◦ • •

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [فمِن أينَ كَذَّبوك؟!] قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ اختلَف المُفسِّرون رَحِمَهُمُ اللَّهُ في مَعناها فقال بعضُهم: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ يُناقِض ما قُلتَ، فإذا لم يكُن عندهم عِلْم من كُتُب يَدرُسونها، ولا عِلْم من نُذُر أَتَتْهم يُخالِفُ ما أنت عليه، فكَيْف يُكذِّبونك؟! وعليه: فيَكون المُرادُ بهذه الآيةِ أنَّ تكذيبهم إيَّاكَ صادِر عن جَهْل؛ لأنَّه تعالى يَقول: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ﴾ ولم يَقُلْ: آتَيْناهُم.

وقوله تعالى: ﴿مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ تَدُلُّ على أنَّ ما قالوه في وَصْفك حَقٌّ، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ يُناقِض ما جِئْت به، حتى يَقولوا: إنك كاذِب وساحِر. فيَكون المُرادَ بالآية أنَّ هؤلاء الذين كذَّبوك لم يَستَنِدوا في تكذيبك على عِلْم، لا مِن كُتُب، ولا من وَحْي؛ لأن الكُتُب يَدرُسونها، ويَفهَمون ما فيها، ويَعلَمون أن ما جِئْت بها مُناقِض لها، ولا من نَذير أَنذَرَهم وحذَّرَهم ممَّا جِئْت به، وقال: إنه سيَأتي كاذِب مُفترٍ فلا تُطيعوه، ونحن لو جاءَنا نَبيٌّ وقال: إنه نَبيٌّ من عند الله تعالى. نُكذِّبه؟ نعم؛ لأننا قد أُنذِرْنا من هؤلاءِ كما أَخبَرَنا النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ،

لكن لَمَّا جاء النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هل هؤلاءِ المُكذِّبون له عَلِموا به وحُذِّروا منه؟ الجوابُ: لا.

وهل هناك كُتُب دَرَسها هؤلاءِ تُبيِّن أنَّ الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ على باطِل؟ الجوابُ: لا.

هذا وَجهٌ، وهذا هو الذي مَشَى عليه المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ ولهذا قال: [فَمِنْ أَيْنَ كَذَّبُوكَ].

والقول الثاني: إنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بعَثَ مُحمَّدًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في قوم أُمِّيِّين، لا يَقرَؤُون، ولم يُبعَث إليهم نبيٌّ، كما قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [الجمعة:٢]، وقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ [السجدة:٣]، أي: أنَّ هؤلاءِ كان الأَليقُ بهم أن يَفرَحوا برِسالتك، وأن يَقبَلوا ما جِئْتَ به؛ لأنَّه ليس عندهم كُتُبٍ يَدرُسونها كما عند اليَهود والنَّصارى، ولم يُبعَث إليهم نَبيٌّ قَبْلَك، فكانوا في أشَدِّ الحاجة إليك، ومَن كان مُحتاجًا إلى الشيء كان به أَفرَحَ، ولِخَبَره أشَدَّ تَصديقًا.

فيكون المُرادُ بهذه الجُملةِ تَوبيخَ هؤلاءِ على تَكذيبهم النبيَّ ﷺ، وأنه كان الأَليقُ بهم أَنْ يَفرَحوا بذلك وأن يُصدِّقوا؛ لأنَّه ليس عندهم كُتُب تُدْرَس، فليس له عندهم أَثارةٌ من عِلْمٍ، ولم يُبعَث إليهم نَذير من قَبْلك، فكانوا في أشدِّ الحاجة إلى تَصديقك، وقَبول ما جِئْت به، فتَتَضمَّن هذه الآيةُ تَوبيخَ هَؤلاءِ على تكذيبهم النبيَّ ﷺ.

وأيُّهما أَوْلى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾، أو ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾؟ وهل يُمكِن أن تُحمَل على المَعنيَيْن؟

فالجوابُ: نَنظُر في حال هؤلاءِ، إذا كانت تَصدُق على حال هؤلاءِ على الوَجْهين حمَلْناها، وقُلْنا: هؤلاءِ ما درَسوا كُتُبًا تَدُلُّ على كذِب مُحمَّد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ولا أَنذَرَهم أحَدٌ منه، وكذلك هم لم يَكونوا عالِمين بالكُتُب السابِقة، ولم يُرسَل إليهم رَسولٌ.

إِذَنْ: حالهم قابِلة لهذين الوَجْهَيْن، يَعنِي: أن تَنزيلَها على الوجهين لا يَتَنافَى مع حال هؤلاءِ المُكذِّبين للرسول ﷺ، فالوَجْهان كِلاهُما يَصدُق عليهم، وإذا كان الوَجْهانِ كِلاهما يَصدُق عليهم، فلا مانِعَ من أن نَقول: إنَّ الآيةَ يُراد بها هذا وهذا؛ لأنَّ حال الذين كذَّبوا الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قابِلةٌ للوَجْهين جميعًا.

من فوائد الآية الكريمة:

على أن المَعنَى أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لم يُعطِ قُرَيْشًا، بَلْ والعرَب جميعًا لم يُعطِهم كتُبًا، ولم يُرسِل إليهم رَسولًا:

الْفَائِدَة الأُولَى: بَيانُ مِنَّةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى العُظْمى على العرَب بما بعَث إليهم، وهو مُحمَّدٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ووَجهُ ذلك: أنهم كانوا أُمَّةً جاهِلةً، ليس عندهم كُتُبٌ تُدرَس، ولم يَأتِهم نَذيرٌ يُخبِرهم ويُعلِّمهم، فهُمْ أَشَدُّ الناسِ حاجةً إلى الرسول، وإذا اشتَدَّتِ الحاجة ثُم جاء ما يُزيل لك هذه الحاجةَ كان هذا أَعظَمَ منه، ففي الآية إِذَنْ: بَيان عظيم مِنَّة الله عَزَّوَجَلَّ على العرَب، حيث بعَث فيهم هذا الرسولَ ﷺ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن العرَب كانوا جاهِلين من أَجهَل الناس قبلَ بَعْثة الرسول ﷺ، تُؤخَذ من قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾؛ ولهذا قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ

أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران:١٦٤].

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّه ليس في العرَب رَسولٌ إلَّا مُحَمَّدٌ ﷺ، وهو كذلك، وما ذُكِر بعض المُؤرِّخين من أنه وُجِد في الجاهِلية رُسُل، منهم خالِدُ بن سِنانٍ فهذا لا أصلَ ولا صِحَّةَ له؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [المائدة:١٩]، وأَخبَر النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنه ليس بينه وبين عِيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ رَسولٌ، وعلى هذا فإنه لم يُبعَثْ فيهم -أَيْ: في العرب- رسولٌ إلَّا مُحَمَّدٌ ﷺ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ حقيقة الرِّسالة هي الإنذارُ، وكذلك البِشارة للمُخالِفين بالعُقوبة، والبِشارة هي للمُوفَّقين بالثواب والجزاء.

وفيها أيضًا -على المَعنَى الثاني-: أن هَؤلاءِ الذين كذَّبوا الرسول ﷺ ليس لدَيْهِم مُستَنَد يَستَنِدون إليه في تكذيبهم؛ لأنَّهم لم يَقرَؤُوا كُتُبًا تَدُلُّ على كذِبه، ولم يُبعَث إليهم رَسولٌ تَقتَضي رِسالته أنَّ مُحَمَّدًا ﷺ كاذِب.

• • ۞ • •

الآيــة (٤٥)

• ● ♡ ● •

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُواْ رُسُلِيۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ [سبأ:٤٥].

• ● ♡ ● •

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُواْ ﴾ أي: هَؤلاءِ ﴿مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ﴾ أي: عُشرَهُ من القُوَّة، وطول العُمر، وكَثْرة المال، وهذا فيه تَسلِيَة للرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وفيه تَهديد للمُكذِّبين، ففيه مَعنَيان: التسليةُ والتَّهديدُ.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ مثل عادٍ وثَمودَ وفِرعونَ وأَصحابِ الأَيْكةِ وكثير، وهَؤلاءِ المُكذِّبون السابِقون أَشَدُّ قوَّةً من هؤلاء وأكثَرُ أموالًا وأولادًا، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا ﴾ [التوبة:٦٩]، فالآياتُ في هذا تَدُلُّ على أنَّ الذين كذَّبوا الرُّسُل السابِقين كانوا أَعظَمَ من الذين كذَّبوا الرسول ﷺ في قوَّة الأَجْسام، وكَثْرة الأموال، وكَثْرة البَنين.

وهل أَغنَى ذلك عنهم شيئًا؟ لا لم يُغنِ عنهم شيئًا؛ ولهذا قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَكَذَّبُواْ رُسُلِي﴾ [إِلَيْهِمْ ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ إِنْكَارِي عَلَيْهِمْ بِالْعُقُوبَةِ وَالْإِهْلَاكِ]، يَعنِي: أن هَؤلاءِ السَّابِقين كذَّبوا رُسُل الله تعالى فماذا حصَل؟

الجوابُ: حصَل عليهم إنكار الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالتَّعذيب والإِهْلاك، لم يُقرَّهم

الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ على تكذيبهم، بل أنكر عليهم إنكارًا بالفِعْل، أهلكهم وأبادَهم، وعلى هذا فيكون الاستِفْهام في قوله تعالى: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ للتَّعْظيم والتَّفْخيم، أي: فما أعظَمَ إنْكارِي عليهم! لأنَّه إنكارٌ أدَّى بهم إلى الهلاكِ؛ ولهذا قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أي: [أَنَّهُ وَاقِعٌ مَوْقِعَهُ].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: التَّحذيرُ لِمُكذِّب الرسولِ ﷺ؛ وجهُه: أنَّ الله تعالى أَخبَرَ أنه كذَّب السابِقون مع أنهم أَشَدُّ قوَّةً وأكثَرُ أموالًا وأولادًا من هؤلاء المُكذِّبين للرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ مَن كذَّب الرُّسُل فقد حَقَّت عليه كلِمةُ العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُواْ رُسُلِيۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: شرَفُ الرُّسُل عليهم الصلاة والسلام؛ لأنَّ الله تعالى أضاف رِسالَتهم إليه، فقال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَكَذَّبُواْ رُسُلِي﴾ ومن المعلوم أنَّ مَرتَبة الرِّسالة أَعلَى مَراتِب البَشَر، فإن مَراتِب البَشَر أَرْبَعة: النُّبوَّة المُتضمِّنة للرِّسالة، والصِّدِّيقيَّة، والشُّهَداء، والصالِحين، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء:٦٩].

فأَعلى المَراتِب النُّبوَّة، ثُم الصِّدِّيقيَّة، ثُم الشَّهادة، ثُم الصَّلاح.

خِلافًا للزَّنادِقة الذين يَقولون: إن الأَوْلياء أَفضَلُ من الأنبياءِ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ، والأنبياء عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ أَفضَلُ من الرُّسُل.

ويَقول قائِلُهم:

مَقَــــامُ النُّبُــــوَّةِ فِي بَــــرْزَخٍ   فُوَيْــقَ الرَّسُــولِ وَدُونَ الْــوَلِي[١]

يَزعُمون -قَبَّحهُم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- أنَّ الأَوْلياء أفضَلُ من الرُّسُل -والعِياذُ بالله عَزَّوَجَلَّ- والأَنبِـياءُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وهو كذلك عِنـدهم، لأن أَوْلياءَهم الطاغوتُ، والطاغوتُ يُملِي عليهم أنه أفضَلُ من الرُّسُل والأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: بَيان حِكْمة الله عَزَّوَجَلَّ حيث جعَل العُقوبة من جِنْس العمَل، فلَمَّا كان عمَلُ هَؤلاء عظيمًا وهو تكذيب رُسُل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كان جَزاؤُهم عَظيمًا، يُتعَجَّب مِنه: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: ما أَعظَمَه وما أَشَدَّهُ!.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ الإِنْكار يَكون بالفِعْل كما يَكون بالقَوْل، ووجهُ ذلك: أنَّ إنكار الله تعالى عليهم ليس بالقَوْل فقَطْ، بَلْ بالفِعْل والعُقوبة، فهذا إنكارٌ بالفِعْل، وهذا مَوْجود أيضًا في أعمالنا نحن، فعندما يُخالِفُك صَبيُّك في أَمْر من الأمور أحيانًا تُوبِّخه، تَقول: لماذا تَفعَل هذا؟! أَلَمْ آمُرْكَ أن تَتْرُكه؟! وأَحيانًا إذا جِئْت ووَجَدْته قد فعَلها تَضرِبه، هذا الإِنكارُ يَكون بالفِعْل، فإنكارُ الله عَزَّوَجَلَّ يَكون بالقَوْل، ويَكون بالفِعْل، فعُقوبة المُجرِمين هي إنكارٌ بالفِعْل، وفي هذه الآيةِ وغيرِها من الآيات التي تُضيف الفِعْل إلى الفاعِل رَدٌّ على مَن؟ مِثْل ﴿فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى﴾، ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، وما أَشبَهَ ذلك؟ رَدٌّ على الجَبْرِيَّة الذين يَقولون: إنَّ فِعْل العَبْد مُجبَرٌ عليه، ليس له فيه اختِيار.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: استِعْمال قياس الأَوْلى، يُؤخَذ من قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ يَعنِي:

---

(١) قاله ابن عربي، انظر مجموع الفتاوى (٢/ ٢٢١).

إذا أَخذَ الله تعالى هؤلاءِ الأَقوياءَ الأَشِدَّاءَ الأكثَرَ أموالًا وأَوْلادًا إذا أَخذهم الله تعالى بجُرْمهم هؤلاء الذين دُونهم من بابِ أَوْلى.

ولا شَكَّ أنَّ القِياس دليلٌ صحيحٌ، ثبَتَ اعتِبارُه بالكِتاب والسُّنَّة والعَقْل، ولكن القِياس نوعان: صحيحٌ وفاسِدٌ، فالفاسِدُ دلَّ الكِتابُ والسُّنَّة والعَقْل على عدَم اعتِباره، والصحيحُ دلَّ الكِتاب والسُّنَّة والعَقْل على اعتِباره.

مثال الفاسِد: قولُ إبليسَ مُستَعْمِلًا قياسَ الأَوْلى لمَّا أَمَرَه الله تعالى أن يَسجُد لآدَمَ قال: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ [ص:٧٦]، فكيف يَكون الأخيرُ عَبْدًا لَمن دُونَه؟!.

ومثال قِياس المِثْليَّة: قولُهم: ﴿إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة:٢٧٥]، هذا قياس فاسِدٌ لأنَّه قِياسُ ما حرَّم الله تعالى على ما أَحلَّه الله عَزَّوَجَلَّ.

المُهِمُّ: أن القِياس قد ثبَتَ اعتِباره بالكِتاب والسُّنَّة والعَقْل، ومَن أَنكَرَه فقد أَنكَرَ ما يَدُلُّ عليه الكِتاب والسُّنَّة، والذي يُنكَر منه هو القِياس الفاسِدُ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ تَكذيب الرُّسُل هو تكذيبٌ لله تعالى، وهو الظاهِر؛ لأنَّه قال عَزَّوَجَلَّ أوَّلًا: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾، ولم يَذكُر المُكذَّب، ثُم قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُواْ رُسُلِي﴾ فدَلَّ ذلك على أن تَكذيب الرُّسُل تَكذيبٌ لله عَزَّوَجَلَّ، وهو كذلك عند التَّأَمُّل؛ لأنَّ الرسول إذا جاءَك وقال: إنه رسول الله تعالى. وأَيَّده الله تعالى بالآيات، ثُم كذَّبْتَه، فقد كذَّبْتَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأنَّ الآياتِ التي يُعطيها الله تعالى الرسولَ ما هي إلَّا براهِينُ تَدُلُّ على صِدْقه، فكأنَّ المُكذِّب يَقول: إنَّ هذه الآياتِ كَذِبٌ؛ لأنه يُكذِّب الرسول الذي أَيَّدَتْه.

الآيــة (٤٦)

• قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ:٤٦].

انظُرْ إلى إنصاف الله عَزَّوَجَلَّ في مُخاطَبةِ الخَلْق!.

قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ أي: يا مُحمَّدُ مُوجِّهًا الخِطاب إلى هؤلاءِ المُكذِّبين: ﴿إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ﴾ الجُملةُ هذه فيها حَصْر وتَقديرُها: ما أَعِظُكم إلَّا بواحِدة، يَعنِي: ما أَدعوكم دُعاءَ واعِظٍ ناصِحٍ لكم إلَّا إلى واحدة فقط، فـ(أَعِظُكم) هنا مُضمَّنة معنى (أَنصَحُكم)، يَعنِي: أنا أَدعُوكم ناصِحًا لكم وواعِظًا إلى هذه الخَصْلةِ.

وقوله تعالى: ﴿بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُوا۟﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هي [أَنْ تَقُومُوا لله] وعلى هذا فيَكون (أن تَقوموا) في مَوْضِع جَرٍّ عَطْفَ بيانٍ على قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿بِوَٰحِدَةٍ﴾ يَعنِي: أنه بيَّن هذه الواحِدةَ بقوله تعالى: ﴿أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ﴾ إلى آخِره، و(أَن تَقوموا) هنا المُراد بها: أن تَثبُتوا على الشيء، وليس المُرادُ القِيامَ ضِدَّ القُعود، فهو كقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ﴾ [النساء:١٢٧]، ليس المُراد أن تَقوموا لليَتامى؛ يَعنِي: أن تَقِف له وُقوفًا، وهكذا ﴿أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ﴾ ليس المُرادُ أن تَقِفوا قِيامًا، بل أن تَثبتوا وتَنظُروا في الأَمْر.

وقوله تعالى: ﴿أَن تَقُومُوا لِلَّهِ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: أي: [لِأَجْلِهِ] فاللَّام هنا للإِخْلاص، أي: أن تَقوموا مُخلِصين لله عَزَّوَجَلَّ، لا مُقلِّدين لآبائِكم ولا مُتعَصِّبين لآرائِكم، جَرِّدوا نِيَّاتِكم من كل شيء، إلَّا لله تعالى أن تَقوموا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَحْده؛ لا مُراعاةً لي، ولا مُراعاةً لآبائِكم، ولا لِحَمِيَّتِكم، ولكن ﴿لِلَّهِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مَثْنَىٰ﴾، قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [اثْنَيْنِ اثْنَيْنِ]، وهل المُراد حَقيقةُ التَّثنِية؟ يَعنِي: أن يَقوموا على اثنَيْن اثنَيْن، أو المُرادُ مُجَرَّد الزيادة على الواحِد؟ يَعنِي: أنه مَثنَى لا يُرادُ به حقيقة الاثنَيْن؟ بل المُرادُ أن تَقوموا لله تعالى مُجتَمِعين سَواءٌ كُنْتم اثنَيْن أم ثلاثةً أم أربعةً أم خمسةً أم عشَرةً، هذا هو الظاهِر.

وقال بعضُ المُفسِّرين رَحِمَهُمُ اللَّهُ: المُرادُ بالمَثنَى هنا حَقيقةُ الاثنَيْن. وعلَّلوا ذلك بأن الناس إذا كثُروا اضطَرَبَت آراؤُهم، وكَثُر الشِّجار بينهم، وفات المَقصودُ؛ لأنك الآنَ لو وضَعْت رأيًا بين عشَرةٍ كم يَأتِيك من رَأْيٍ؟

الجوابُ: عشَرة آراءٍ، وبين اثنَيْن؟ يَأتيك رَأْيـان، قالوا: فالاثنان أَقرَبُ إلى الحَصْر وأَقرَب إلى تَصوُّر المسألة ممَّا إذا كانوا أكثَرَ من اثنَيْن، ولكن قد يُقال: إن هذا حَقيقة.

لكن أحيانًا يَكون الثلاثة والأربعة أسَدَّ رأيًا من الاثنَيْن فقَطْ، فتُحمَل الآية على أنَّ المُرادَ بالمَثنَى مُطلَق الجَمْع، سواءٌ كانوا اثنَيْن أو أكثَرَ، والمَثنَى قد يُراد به مُطلَق الجَمْع، كما في قوله تعالى: ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ [الملك:٣-٤]، أي: كرَّةً بعد كرَّة، وليس المُرادُ حقيقةَ الاثنَيْن، وكقول الإنسان وهو يُلبِّي بالحجِّ أو العُمرة يقول: لبَّيْك. يَعني: إِجابةً لك بعد إِجابةٍ.

وقوله: ﴿أَن تَقُومُوا﴾ المُرادُ بالقِيام: الثَّباتُ على هذا الأَمْرِ، تَقوموا ثابِتِين،

ثُم تَتَفكَّروا في شأن هذا الرسولِ الذي جاءَكم من عند الله تعالى، وقال: إنه رَسولُ الله تعالى.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ هذا القولُ هل هو مِنْ كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ ليُبطِل قولَهم؟ أو أنه ما يَتفكَّرون فيه، يَعنِي -كما قال الشارِح-: [فتَعْلَموا ما بصاحِبِكم من جِنَّة] المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ مَشَى على أن: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ هو مَفعولٌ لما يَقتَضِيه التَّفكُّر، والقولُ الثاني: ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ أي: في شَأْنكم، وفي حالِكم، ثم استَأْنَف فقال تعال: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾، وهذا من كلام الله تعالى، وليس مَفعولًا لما يَقتَضيه التَّفكُّر وهو العِلْم.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿بِصَاحِبِكُم﴾ المُرادُ به مُحمَّدٌ رسول الله ﷺ، لكنه عبَّر عنه بالصاحِب المُضاف إليهم زيادةً في التَّشنيع عليهم والتَّوبيخ، كأنَّه يَقول: هذا صاحِبكم الذي تَعرِفونه، ليس رجُلًا مُنكَرًا عليكم، بل هو صاحِبكم الذين تَعرِفون عَقْله وصِدْقه وأَمانَته، فكيف تَقولون: إنَّه ساحِر، وإنَّه مجنون، وإنه شاعِر، وإنه كاهِن، وما أَشبَهَ ذلك؟! ففيه إضافةٌ إليهم زيادةَ التَّشنيع عليهم، هذه واحِدة.

فيه أيضًا الإشارة إلى أنه كان يَنبَغي أن يَكونوا أوَّلَ مَن يُصدِّق به، وأَوَّلَ مَن يُناصِره؛ لأنه صاحِبهم، وصاحِب الإنسانِ مُستَحِقٌّ للنَّصْر مِنه والمُساعَدة والمُعاوَنة، فكان في الإضافة هنا فائِدتانِ:

الفائِدةُ الأُولى: زيادةُ التَّشنيع عليهم في أنهم يَصِفون صاحِبهم الذي يَعرِفونه بهذا الوصفِ.

الفائدة الثانية: أنَّه كان أَوْلى بهم وهو صاحِبهم أن يَكونوا أوَّلَ الناس تَصديقًا به، وأَشَدَّ الناس مَعونةً له.

وقوله تعالى: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ الجارُّ والمَجرور خبَرٌ مُقدَّم، و﴿مِّن جِنَّةٍ﴾ مُبتَدَأ مُؤخَّر قُرِنَت به (مِن) الزائِدةُ من حيث الإعراب المُفيدةُ لَمعنًى، فمِن حيثُ المعنى الفائِدةُ منها هي المُبالَغةُ، أو التَّأكيدُ في النَّفيِ؛ لأنَّ (مِنْ) إذا دخَلَت على المَنفِيِّ أَفادَت العُموم، وصارت نَصًّا فيه.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿مِّن جِنَّةٍ﴾ جُنُونٍ] فالجِنَّة هنا بمَعنَى: الجُنون، ويُمكِن أن يَكون المُرادُ به الجِنَّ الذي إذا خالَط الإنسان جُنَّ.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم﴾: ﴿إِنْ﴾ سبَقَ لنا أنها تَأتِي في اللُّغة على أَربَعة أَوْجُهٍ، وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿إِنْ﴾ بمَعنى [مَا] وهي نافِية، ﴿هُوَ﴾ مُحمَّد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، الذي هو صاحِبكم ﴿إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ﴾ أي: قَبْلَ عذابٍ شديدٍ في الآخِرة إن عَصَيْتموه، يَعنِي: ما مُحمَّد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إلَّا رجُلٌ من أَعقَل الناس، ومن أَحَنِّ الناس على قومه؛ لأنه نَذيرٌ لكم، يُنذِركم من العَذاب الشديد القَريب لهم، عندما قال تعالى: ﴿بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾، وبين يَدَيْ الشيءِ هو أن يَكون قريبًا منه، فالنبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هذه حالُه رجُل عاقِل ناصِح لقَوْمه حانٍ عليهم؛ لأنَّ الذي يُنذِرُك من العذاب يُعتبَر مُحسِنًا إليك.

ولو أن رجُلًا جاء يَصيح: أيُّها الناسُ جاءَكُمُ العَدوُّ، أيُّها الناس جاءَتْكم النارُ السعيرُ، أيُّها الناسُ جاءَكُمُ الماءُ الفَيضانُ. نَصِفُ هذا الرجُلَ بأنه ناصِح وعاقِل، وحانٍ عليكم، يُحِبُّ لكمُ السلامة من الشُّرور.

فالنبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بالنِّسْبة لنا ما هو إلَّا نذيرٌ يُنذِرنا من العذاب الشديد القريب؛ ولهذا قال تعالى: ﴿بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ والشديد بمَعنى: القَويِّ.

وهل المُراد عذابُ الآخِرة أو يَشمَل عذاب الآخِرة والدُّنيا؟

الصحيحُ: أنه يَشمل عذاب الآخِرة والدُّنيا؛ ولذلك عُذِّبَ المُكذِّبُون للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في الدُّنيا قبْلَ الآخِرة.

فزُعماءُ قُرَيْشٍ وصَناديدُهم قُتِلوا في بَدْرٍ، وأُلقُوا جِيَفًا مُنتِنة في قَليبٍ من قُرَى بَدْر، ومَن بَقِيَ منهم كان آخِرُ أَمْرهم أن دُخِلَت عليهم البَلَد من أَقطارها، وأُذِلُّوا حتى كان الواحِدُ لا يَأمَن إلَّا بتأمين؛ «مَن دخَل دارَه وأَغلَق عَلَيْه بابَه فهُوَ آمِنٌ، ومَن دَخَل المَسجِد فهو آمنٌ، ومَن دخَل دارَ أَبي سُفْيانَ فهُوَ آمِنٌ»[1]، ومَنْ لم يَكُنْ في هذا فلَيْسَ بآمِنٍ، وهذا من أَكبَرِ الذُّلِّ، أن تُستَحَلَّ بلَدُك ولا تَأمَن فيها إلَّا بتأمين، هذا لا شَكَّ أنه ذُلٌّ وعارٌ.

وآخِرُ الأمر أن النبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هو الذي مَنَّ عليهم وقال ﷺ: «اذْهَبُوا فَأَنْتُم الطُّلَقاءُ»[2]، وهذا بلا شَكٍّ أنه عَذاب في الدُّنيا، لكن إذا أَسلَموا كان مِثلُ هذا العَذابِ كافِيًا، ومَن أَبَى وكَفَر كان له العَذابُ الشديد في الآخِرة.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: دَعوةُ الإنسان المُعانِد للتَّأمُّل في الأَمْر والنَّظَر فيه، حتى لا يَتعَجَّل بالرَّدِّ؛ لقوله تعالى: ﴿أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّه يَنبَغي لمَن طلَب الحقَّ أن يَكون مُخلِصًا لله تعالى، بَعيدًا عن الهَوَى؛ لقوله تعالى: ﴿أَن تَقُومُوا لِلَّهِ﴾.

---

(١) أخرجه ابن راهويه في المسند (١/ ١٩٩ رقم ٢٧٨)، والبيهقي في السنن الكبرى (٩/ ١١٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٤١٢).

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: جوازُ التَّعاوُن في طلَب الوُصول إلى الحقِّ، مِن قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الإنسان قد لا يَصِل إلى الحقِّ إلَّا بمُساعَدة غيرِه؛ لقوله تعالى: ﴿مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ فإنه إذا أَمكَن أن يَصِل إلى الحقِّ بنَفْسه فذاك، وإلَّا فاستَعان بغَيْرِه.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن التَّفكير كما يَكون في الآيات الكَوْنية يَكون كذلك في الآيات الشرعية؛ لأنَّه هنا طُلِب منهم التَّفكُّر فيما جاء به الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وفي الرسول نَفْسه أيضًا.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: انتِفاء الجُنون عن رسول الله ﷺ؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: بَيانُ عُتُوِّ قريشٍ الذين كذَّبوا الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مع أنه صاحِبُهم الذي يَعرِفونه، وكان الأَوْلى بهم أن يُصدِّقوه.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أننا إذا أَرَدْنا استِكْشاف حال الشَّخْص فإننا نَسأَل مُصاحِبَه الذي يُصاحِبه ويُلازِمه؛ لأنَّه أَعلَم الناس به، وقد كان بعضُ السَّلَف رَحِمَهُمُ اللَّهُ إذا أَراد أن يَسأَل عن حال شخص يَسأَل المَسؤُول ويَقولُ: هل سافَرْت معه؟ فإن قال: لا. تَرَك تَعديله له، وإن قال: نعَمْ. قَبِلَ تَعديلَه إيَّاه؛ لأن السفَر يُظهِر حقيقة الرجال، حتى قِيل: إنَّه إنما كان سفَرًا لا لأن الإنسان يُسفِر ويَبتَعِد عن البلَد، ويَخرُج إلى الفَضاء، ولكن لأَنَّه يُسفِرُ عن أخلاق الرِّجال، ولا شَكَّ أن السفَر من أكبَرِ ما يَدُلُّ على خِصال الرَّجُل؛ لأنه في البلَد الناسُ كلهم له شَأن يُغنِيه عن الآخَر، لكن في السفَر محَكٌّ للأَخْلاق الفاضِلة ومن عدَمها.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أن النبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مُنذِرٌ للناس من عذابٍ قريبٍ إذا خالَفوه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: استِعْمال الأُسلوب المُناسِب للحال، وهذا مَعروف في عِلْم البلاغة: أن يَستَعمِل الإنسان ما يُوافِق مُقتَضى الحال، فهُنا ذَكَر الإنذار دون البِشارة؛ لأن المَقام مَقام تَخويف وإنذار؛ لأنه يُخاطِب المُكذِّبين، لكن عند وَصْف الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الوَصْف المُطلَق يَقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب:٤٥]، فبَدَأ بالبِشارة قبل الإِنْذار، وهذا من حيث حال النبيِّ ﷺ المُطلَقة، أمَّا في المَقامات التي تَقتَضي ذِكْر الإنذار دون غيرِه فيَستَعمِل فيها الإنذارَ دون غيرِه.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: إثبات الجَزاء وعُقوبة المُخالِفين؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: استِعْمال الأَوْصاف التي تَستَلزِم المُوافَقة والمُتابَعة، من قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم﴾ فأنت عندما تُخاطِب إنسانًا لا تَأْتِي له بالأَلْفاظ التي تُبعِده، بل الذي يَنبَغي أن تَأتِيَ له بالألفاظ التي تُدنِيه وتُقرِّبه؛ وتُؤَلِّف قلبه.

• • ❁ • •

الآية (٤٧)

❁ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [سبأ:٤٧].

•●○●•

قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ [لَهُمْ] ﴿مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾: ﴿قُلْ﴾ الخِطاب معلومٌ أنه للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لأنه هو النَّذير لهؤلاءِ.

وقوله تعالى: ﴿مَا﴾ يُحتَمَل أن تكون شَرْطية، يَعنِي: أيُّ أَجْرٍ أسأَله منكم فهو لكم، ويُحتَمَل أن تكون اسمًا مَوْصولًا، كأَنْ يَقول: الذي سأَلْتُكم من الأجر فهو لكم. ويَكون اقتِران الفاء بالخَبَر؛ لأنَّ اسمَ الموصول يُشبِه الشَّرْط في العموم، فأُعطِيَ حُكْمه ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم﴾ على الإنذار والتَّبليغ ﴿مِّنْ﴾ بيان لـ﴿مَا﴾، وليسَتْ زائِدةً؛ لأن ﴿مَا﴾ غيرُ نافِية.

وقوله تعـالى: ﴿مِّنْ أَجْرٍ﴾ الأَجْر، هو ما يُعـطَى في مُقابَلة عمَل أو استِيـفاء نَفْع، في مُقابَلة عمَل كما لو استأْجَرْت رجُلًا ليَعمَل لي عمَلًا، واستِيفاء نَفْع كما لو استأْجَرْت منك بيتًا، فالأَجْر هو ما يُعطَى على عمَل أو استِيفاء مَنفَعة؛ لأن هذا العمَلَ الذي قُمْت به إن كُنْت سأَلْت عليه أجرًا وقُلت: تُعطوني مالًا أو أَعطوني كذا فهو لكم.

وقوله تعالى: ﴿مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ هذا على فَرْض أن يَكون ذلك

مَوْجودًا، وإلَّا فإنه غير موجود، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص:٨٦]، فالرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ما سأَلَ من أَجْر، بل قال لهم: إن كُنْتُ سأَلْتكم أَجْرًا فهو لكم، لا تُعطُوني إيَّاه، قال: ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾: (إِنْ) بمَعنَى (مَا)، ومِن علامة (إِن) النافية أن يَقَع بعدها (إِلَّا)، وذلك ليس بشَرْط.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَجْرِىَ﴾ أي: ثَوابي على تَبليغي وعلى إِنْذاري، إلَّا على الله عَزَّوَجَلَّ وحده، ونِعْمَ المُثيبُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فإن أَجْري على الله تعالى؛ فإنه سيَجلِب الثَّواب العظيم؛ لأن عَطاء أكرَم الأكرَمين سيَكون أعظَمَ العَطاء؛ ولهذا يَجزِي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الحسَنَة بعَشْر أمثالها إلى سَبْع مِئة ضِعْف إلى أضعافٍ كثيرةٍ.

ثُم الداعِي إلى الله عَزَّوَجَلَّ يُؤجَر على دَعْوته سواءٌ قُبِلَت أم رُفِضت، ويُؤجَر أيضًا على ما يَناله عليه من أذًى، سَواءٌ كان الأذَى قَوْليًّا أو فِعْليًّا، وسَواءٌ كان يَعود الأذى إلى رَدِّ ما جاء به، أو يَعود الأذى إلى اتِّهام هذا الإنسانِ بما يَشدَخ كرامَته.

وكلُّ هذا قد وقَعَ للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، أُوذِيَ على دَعْوته وأُوذِيَ في ما يَخدِش كرامته ونزاهته، فأصحابُ الإفْك لَمَّا رموْا عائِشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ما رَمَوْا عائشة لأنها عائِشةُ، رمَوْها لأنها زوجُ النبيِّ ﷺ، فالرسول ﷺ أُوذِيَ في عِرْضه وأُوذِيَ في بدَنه، وأُوذِيَ في مَهمَّته التي جاء من أَجْلها، فأَجرُه على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

واعلَمْ أنك كلَّما أُوذِيتَ في الدعوة إلى الله تعالى فإن ذلك زيادة أَجرٍ لك من جِهة، وزيادةُ قوَّةٍ لدَعْوتك من جِهة أُخرى؛ لأن الإنسان إذا أُوذِيَ على شيء لا بُدَّ أن يَجِد مَن يَتَعاطَف معه كما تَقتَضِيه سُنَّة الله عَزَّوَجَلَّ، حتى الذين يَتكلَّمون بالباطِل إذا أُوذوا على باطِلهم وجَدوا مَن يَتَعاطَف معهم، فكيف مَن يَتكلَّم بالحقِّ.

ولهذا أنا أدعو نَفْسي وإيَّاكم أن يَكون عِلْمنا مُنْسابًا إلى غيرنا، بمعنى أن نَنْشُر العِلْم وأن نَدعوَ الناس إليه، صحيح أن حُضورنا إلى مَجلِس العِلْم وتَعلُّمَنا لا شَكَّ أن فيه فائِدةً عظيمةً، وأنه مَجلِس من مَجالِس الذِّكْر، لكن يَنبَغي أن نَنشُر هذا العِلْمَ، وأنَّ نَدعوَ الناس إليه بقَدْر المُستَطاع.

وأمَّا أن نَبقَى كنُسَخ من كُتُب، الفائِدة لا تَعدو صُدورَنا، فهذا لا شَكَّ أنه ضعيف، ولا يَليق بطالِب العِلْم، وعلينا أن نَعرِف ما جرَى لأئِمَّة المسلمين وعُلَماء المسلمين رَحِمَهُمُ اللَّهُ من الدعوة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولَسْت بذلك أُريد أن تُكرِّسوا جُهودكم كُلَّها للدعوة، لأن الدعوة بلا عِلْم ضررُها أكثرُ من نَفْعها، كما يُوجِد من بعض الإِخْوة الحَريصين على الخير تَجِدهم يُضيِّعون أوقاتهم في الزيارات إلى فُلان وإلى فُلان، وفي الخُروج، حتى إن العِلْم عندهم ليس بشيء، بل تَجِدهم يكرَهون العِلْم والتَّعمُّق فيه، ويُريدون أن تكون دَعوَتُهم دعوةً سَطْحيَّة مُهلَهلة، أيُّ إنسان يَأتيهم يَقِفون!.

وأنا أُريد منكم أن تكونوا عُلَماءَ ربَّانين، دُعاةً إلى الخير مهما استطَعْتم، ويَكون أَجْركم على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأنَّ الإنسان مَسؤُول عن عِلْمه، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ما أَعطاك العِلْم إلَّا بميثاقٍ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران:١٨٧].

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾، يَعنِي: مُطَّلِع عليه، ومنه حالي معكم، فهو مُطَّلِع عليه، مُطَّلِع على أني بلَّغْتكم وأَنذَرْتكم، ومُطَّلِعٌ على أنَّكم كذَّبْتُموني وخالَفْتُموني، فأَجْري على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وعُقوبتكم على الله عَزَّوَجَلَّ، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾

إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية:٢١-٢٦].

وهل الله عَزَّوَجَلَّ شهيد على ما في نَفْس الإنسان؟

الجوابُ: نعَمْ، شهيدٌ حتى على ما لا يَطَّلِع عليه أحَدٌ، فالله تعالى شهيد عليه.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أن النبيَّ ﷺ لم يَطلُب من أحَد أَجْرًا على تَبليغ الرِّسالة وإنذار الناس، من قوله: ﴿مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: التَّنزُّل مع الخَصْم، أي: على فَرْض أني سأَلْت فهو لكم.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تحريم أَخْذ الأَجْر على إبلاغ العِلْم الشَّرْعيِّ؛ ووجهُه: أنه مُخالِف لهَدْيِ النَّبيِّ ﷺ من جِهة، ومن جِهة أُخرى: أن تَبليغ الشرع واجِبٌ على الإنسان، والواجِب لا يَجوز أن يَتَّخِذ الإنسان عليه أَجْرًا.

فَإِنْ قِيلَ: هل يَجوز أَخْذ الأُجْرة على تَعليم القُرآن؟

فالجوابُ: أن العُلَماءَ رَحِمَهُمُ اللَّهُ اختَلَفوا في ذلك على قولين لاختِلاف ظواهِر النُّصوص؛ فمِنهم مَن قال: إنه جائِز؛ لقول النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنَّ أَحَقَّ مَا أَخَذْتُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا كِتَابُ الله»[1]؛ ولأنَّ هذا الرجُلَ لا يَأخُذ أَجْرًا على قِراءة القُرآن، ولو أَخَذ أَجْرًا على قِراءة القُرآن قُلْنا: هذا حرام. لكنه أَخَذ أَجْرًا على التعليم

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإجارة، باب ما يعطى في الرقية، رقم (٢٢٧٦)، ومسلم: كتاب السلام، باب جواز أخذ الأجرة على الرقية، رقم (٢٢٠١)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والتَّعَب وتَلقين هذا الرجُلِ؛ ولذلك لو كانت المسألة واجِبةً عليه؛ بمَعنَى: لو كان يَجِب عليه أن يُعلِّم هذا الرجُلَ لكان أَخْذُ الأَجْر عليه حرامًا.

الوجه الثالث: أن النبيَّ ﷺ جعَلَه عِوَضًا في النِّكاح فقال: «زَوَّجْتُكَهَا بِمَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ»(١)، وعِوَض النِّكاح أَجْر؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ [النساء:٢٤]، فلَمَّا جعَله النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عِوَضًا في النِّكاح دلَّ ذلك على جواز أَخْذ العِوَض على تعليمه؛ ولأنَّ النبيَّ ﷺ أجاز أَخْذ قَطيع الغنَم في قِصَّة الجماعة الذين قرَؤُوا على سيِّد القوم الذي لُدِغ، وأَخَذوا عليه قطيعًا من الغنَم فأجازَهم النبيُّ ﷺ بذلك، لا لأنهم قرَؤُوا القُرآن، ولكن لأنهم عالَجوا هذا اللَّديغَ.

وهذا هو الصحيح، أي: أنَّه يَجوز أَخْذ الأُجْرة على تعليم القرآن، لكن إن كان تعليمُ القُرآن واجِبًا، كما في صَدْر الإسلام فإن أَخْذ الأُجرة عليه حرام.

وهل يَجوز -على القول بأن أَخْذ الأُجْرة حرام- أَخْذ رِزْق من بيت المال لُمعلِّم القُرآن؟

الجوابُ: نعَمْ؛ لأنَّ هذا ليس بأُجْرة؛ ولذلك جاز للمُؤذِّن والإمامِ أن يَأخُذ من بيت المال ما يَستَعين به على أَذانه وعلى إمامته.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إخلاصُ النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في تَبليغه ودَعْوته؛ لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ فإنه واضِحٌ أنه إنما يُريد الأَجْر من الله تعالى، وهذا هو الإخلاصُ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب خيركم من تعلم القرآن، رقم (٥٠٢٩)، ومسلم: كتاب النكاح، باب الصداق، رقم (١٤٢٥)، من حديث سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: طُموحُ الرسول ﷺ وعُلُوُّ هِمَّته، حيث اختار الأَجْر الأَوْفى على الأَجْر الأَدْنى؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: تهديد الخَصْم بما تَقتَضيه أسماءُ الله تعالى وصفاتُه؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ فإن في ذلك تَهديدًا لهم، يَعنِي: فسيَشهَد على تكذيبكم وعلى تَبليغه.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: الاستِشْهاد بإقرار الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الإنسانَ على صِدْق ما قال، تُؤخَذ من قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

ويُؤيِّد ذلك قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ [النساء:١٦٦]، قال العُلَماءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: شهادة الله تعالى لرسوله بأن ما جاءَه حَقٌّ تَشمَل الشهادة القَوْلية والشهادة الفِعْلية، وهي إقرارُه على ما دعا إليه الناسَ، وعلى استِباحة أموالهم ودِمائِهم وأهلِهم إذا لم يَستَجيبوا له.

• • ۞ • •

الآية (٤٨)

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ [سبأ:٤٨].

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُٱللَّهُ: [﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ ﴾ يُلْقِيهِ إِلَى أَنْبِيَائِهِ ﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ مَا غَابَ عَنْ خَلْقِهِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ].

قوله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ ﴾ هذه جُملة خبَريَّة مُؤكَّدة بـ(إِنَّ) واسمِ (إِنَّ) ﴿رَبِّي﴾ وخَبَرُها جُملةُ ﴿يَقْذِفُ ﴾، و﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ خبرٌ ثانٍ؛ يَعني: هو أيضًا علَّام الغُيوب.

وقوله تعالى: ﴿يَقْذِفُ ﴾ القَذْف هو الرَّميُ بقُوَّة.

وقوله تعالى: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالقَوْل الحقِّ، وهو الوحيُ الذي أَنزَله الله تعالى على أنبيائِه، وظاهِرُ كلام المُفَسِّر رَحِمَهُٱللَّهُ: أنَّ القَذْف هنا لازِم لا يَتعَدَّى الأنبياءَ عَلَيْهِمُٱلسَّلَامُ، وأنَّ المُراد به الوحيُ المُنزَّل على الرُّسُل، ولكنَّ قولَ المُفَسِّر فيه نظَرٌ، والصوابُ: أنَّ هذه الآية تُفسِّرها الآية الثانية، وهي قوله تعالى: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء:١٨]، وأنَّ مَعنَى الآية ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾ على الباطِل، وهو إشارة إلى أن حَقَّه سوف يَمحو باطِلَه ويُزهِقه ويُهلِكه، بدليل قوله فيما بعدُ: ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ:٤٩].

وقوله تعالى: ﴿عَلَّٰمُ﴾ بصيغة المُبالَغة؛ لأنَّ الغُيوب كثيرة، فناسَب أن يُضاف

إليها العِلْم على سبيل المُبالَغة، كما أن فيه مُبالغةً أيضًا من حيث الكيفية، لا من حيث الكِمِّية فقطْ، فإنَّ عِلْم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى للغُيوب ليس عِلْمًا سطحِيًّا، بل هو عِلْمٌ عميق يَصِل إلى أَخفَى شيء من الغُيوب، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران:٥].

وقوله تعالى: ﴿ٱلْغُيُوبِ﴾ جمعُ غَيبٍ، وهو ما غاب عن الإنسان، سَواءٌ كان في الحاضِر أو الماضي أو المُستقْبل، أمَّا المُستقبَل فظاهِر، فإنه لا أَحَدَ يُمكِنه أن يَعلَم الغيب في المُستقبَل، بل مَنِ ادَّعى عِلْم الغَيْب في المُستقبَل فهو كافِر؛ لأن الله تعالى يَقول: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل:٦٥]. فيَكون مُدَّعِي الغيب في المُستقبَل مُكذِّبًا للقُرآن، وتكذيب القُرآن كُفْرٌ.

أَمَّا الحاضِر والماضي فهو في الحقيقة غَيْبٌ نِسْبِيٌّ بحيث يَكون غَيْبًا عَنِّي وليس بغَيْب عمَّن شاهِده، فلو أن حادِثةً وقعَتْ في بلدٍ ما وأنا لست في هذا البَلدِ فهي بالنِّسبة إليَّ غَيْب وبالنِّسبة لَمِن شاهَدها ليست بغَيْب.

فَإِذَنِ: المُستقْبَل غيبٌ مُطلَقٌ، والحاضِر والماضي غَيْب نِسْبيٌّ؛ يَظهَر لَمِن رآه ولا يَظهَر لَمِن لم يَرَهُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: فضيلة الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وذلك بإضافة رُبوبية الله تعالى إليه، وهذه الرُّبوبيةُ خاصَّة.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بَيان قوة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، حيث يَرمِي بالحَقِّ على الباطِل على وجه القولة؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: يَرمِي به بقُوَّة وشِدَّة، على الباطِل.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: عُلُوُّ عِلْم الله تعالى فيما شُوهِد وما غاب؛ فما غاب لقوله تعالى: ﴿عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾، وأمَّا ما شُوهِد فهو من بابِ أَوْلى، يَعنِي: إذا كان يَعلَم الغَيْبَ فالمَشهود من بابِ أَوْلى.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثبات أن ما جاء به النَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حقٌّ؛ لقوله تعالى: ﴿يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾.

الآيــة (٤٩)

• ● ∽ ● •

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ:٤٩].

• ● ∽ ● •

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [الْإِسْلَامُ]، والإسلام لا شَكَّ أنَّه دِين الحقِّ؛ وأنه سيَعلو على جميع الأديان، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف:٩]، ولو أن المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ عمَّمَ، وقال: جاءَ الحقُّ. أي: كلُّ ما أَخبرَ به الرسول ﷺ وما جاء به مِن أحكامٍ فهو حَقٌّ.

قول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ﴾ الْكُفْرُ ﴿وَمَا يُعِيدُ﴾ أَيْ: لَمْ يَبْقَ لَهُ أَثَرٌ] هذه الجُملةُ: ﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ أو (ما يُبدِئُ فُلانٌ وما يُعيدُ) أُسلوب من أساليب العرَب، كِناية عن هَلاك هذا الشيءِ، وعدَم وُجوده؛ لأنَّ الذي لا يُبدِئ يَعنِي: لا يَأتي بالشيء ابتِداءً، ولا يُعيد ما صنَعَه أوَّلًا هذا غيرُ مَوجود في الواقِع، ما له حِراك، فهو مَوجودٌ كالهالِك.

والمَعنَى: ﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ﴾ أي: ما يَتبيَّن ابتِداءً ﴿وَمَا يُعِيدُ﴾ ما يَتبيَّن إعادةً، فهو إذَنْ هالِك لا أَثَر له، لا ابتِداءً، ولا إعادةً، فإذا كان الحقُّ قد جاء، والباطِل ما يُبدِئ ولا يُعيد، فمَعناها أن الدَّوْلة ستَكون للحَقِّ لما جاء به النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وإن كذَّبوه.

قوله تعالى: ﴿ٱلْبَٰطِلُ﴾ إن كان في الأَخْبار فهو الكذِب، وإن كان في الأَحْكام

فهو الجَوْر والظُّلْم، وكلُّ ما خالَف حُكْم الله تعالى فهو جَوْر وظُلْم، وإن زعَم أهله أنهم عادِلون فيه فهُمْ كاذِبون.

فالقَوانينُ الوَضْعية المُخالِفة لشريعة الله تعالى نَقول: إنها باطِل. ونَقول: إنها ظُلْم وجَوْر.

وأمَّا ما وافَق الشَّرْع فإنه وإن سُمِّيَ قانونًا أو نِظامًا فهو شَرْع، يَعنِي: لو أن أحَدًا صنَع مَوادَّ مُعينة في الحُكْم، لكنها مَأخوذة من الكِتاب والسُّنَّة لا نَقول: إن هذه قوانينُ وَضْعيَّة أو نُظُم وَضْعيَّة. بل نَقول: هي أَحكام شَرْعية، لكنها رُتِّبت على موادَّ، كما إنَّ الفقهاء رَحِمَهُمُ اللَّهُ رتَّبوا الفِقْه على أبواب، فالخِلاف في كيفية العَرْض وإلَّا فهو حَقٌّ.

أمَّا أن نُقنِّن الشريعة بأن نُدخِل عليها أحكامًا تُخالِف أَحكامَها فهذا كُفْر، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [المائدة:٤٤]، فأمَّا تَقنينها بمَعنَى: تَبويبها وجَعْلها مَوادَّ مُعينة فهذا لا بَأسَ به، بشَرْط ألَّا يَكون الحُكْم لازِمًا بهذه المَوادِّ، لأنَّ إلزامَ القُضاة مثَلًا أو الحُكَّام بأن يَحكُموا بهذه المَوادِّ مَعناه أنهم يُلزَمون بأن يَحكُموا بما يَعتَقِدون أنَّ الحقَّ في خِلافه؛ لأنَّ الناس يَختَلِفون في مِثْل هذه، فقد تَرَى اللِّجان مثلًا أنَّ الحُكْم في هذا هو كذا وكذا، ويَرَى القاضِي أن الحُكْم خلاف ذلك، فوَضْعها على أنها مُوضِّحة أو كاشِفة أو دالَّة، هذا لا بأسَ به بلا شِكٍّ، ولكن وَضْعها على أنها مُلزِمة هذا لا يَجوز لأنَّ الناس يَختَلِفون في الاجتهاد.

من فوائد الآية الكريمة:

تَهديد هؤلاءِ المُكذِّبين بأنَّ باطِلهم سوف يُقضَى عليه بطريق الإسلام الحقِّ، سيُقضِي على باطِلهم، ويُؤيِّده قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ:٤٩]، والحقُّ ما بُعث بِه الرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مِن شَريعة الإسلامِ، وقولُه: ﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ يَعنِي: أن الباطل سَيَضْمَحِلُّ، فلا يبقى له ظهور لا ابتداء ولا إعادة؛ والباطِل: كلُّ ما خالَف الحقَّ فهو باطِل.

• ● ۞ ● •

الآية (٥٠)

• • ● ● •

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ [سبأ:٥٠].

• • ● ● •

قول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ﴾ عَنِ الحَقِّ ﴿فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى﴾ أَيْ: إِثْمُ ضَلَالِهِ عَلَيْهَا ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ مِنَ الْقُرْآنِ وَالْحِكْمَةِ ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ﴾ لِلدُّعَاءِ ﴿قَرِيبٌ﴾].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ﴾ هذا من باب التَّنزُّل مع الخَصْم، وإلَّا فمِن المعلوم أنَّ الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كان أَهدَى الناس.

وهذا كقول الرجُل المُؤمِن من آل فِرعونَ: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ [غافر:٢٨] مع أن المُؤمِن هذا يُؤمِن بأنه صادِق، لكن هذا من باب التَّنزُّل مع الخَصْم؛ لإلزامه بقول الحَقِّ.

يَقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى﴾، ومَعلومٌ أن الإنسان لا يُريد أن يَتَمادَى في إضلال نَفْسه، ومِثْلُ النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إذا ضَلَّ لا يَكون ضلالُه عليه وحدَهُ، بل عَليه وعلى مَنِ اتَّبَعه؛ ولهذا كان ضَلال العالِم أو زَلَّة العالِم من أَعظَم ما يُفسِد الناس، فزَلَّة العالِم ليسَتْ بهَيِّنةٍ؛ لأنه قُدوة وتَتْبَعه أُمَّة.

وقوله تعالى: ﴿إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى﴾ وليس عليكم بذلك من شيء ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ﴾ لم يَقُل: فإن ذلك من نَفْسي، بل وكَلَه أو أضافه إلى ما جاء به الوحيُ النازِلُ من عند الله تعالى؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ والباء للسَّبَبية و﴿مَا﴾ إمَّا أن تكون مَصدَرية، وإمَّا أن تكون مَوْصولةً إن كانت مَوْصولة فإن عائِدها محذوف، تَقديرُه: فبما يُوحيه إليَّ ربِّي، وإن كانت مَصدَريَّة فلا تَحتاج إلى عائِدٍ.

وقوله تعالى: ﴿يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ الوَحيُ في اللُّغة: هو الإعلام بخَفاءٍ وسُرعة، سواءٌ كان ذلك إعلامًا بالهَمْس أو الإِشارة بالعَيْن أو الإشارة باليَدِ، ومنه قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم:١١] وما يَتكلَّم؛ لأن الله تعالى قال: ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ [آل عمران:٤١]، إذَنْ أَوْحَى إليه بمَعْنى: أَشار إليه.

أمَّا في الشَّرْع: فهو إعلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَحدًا من خَلْقه بشَرْعٍ يُؤمَر بتَبليغه أو لا يُؤمَر، فإن أُمِر بتَبليغه فهو رَسول، وإن لم يُؤمَر فهو نبيٌّ.

وقوله تعالى: ﴿فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ فالإضافة هنا إضافةٌ خاصَّة ﴿رَبِّىٓ﴾؛ لأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ رَبُّه وربُّ غيرِه، لكنَّ الإضافة هنا إضافةٌ خاصَّة، تُفيد العِناية واللُّطف، لأنَّ من أكبَر نِعَم الله على العَبْد أن يُوحَى إليه بالرِّسالة حتى يَنال المَرتَبة العُليا من بني آدَمَ.

كذلك من نِعْمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على العبد أن يُلهِمه هذه الرِّسالةَ للتَّعلُّم؛ ولهذا كان العُلَماء هُمْ ورَثَةَ الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، فهي من أَفضَل النِّعَم؛ ولهذا قال: ﴿فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ فأَضاف الرُّبوبيـة إلى نَفْسـه؛ لأنَّ هذه الربوبيـةَ خاصَّة،

تَقتَضي العِناية والتَّأييد والرحمة واللُّطف.

وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُٱللَّهُ: [لِلدُّعَاءِ]، والصواب: أنَّ الآية هنا عامَّةٌ، فهو سميعٌ لكُلِّ شيء، وليس للدُّعاء فقَطْ، بل سميعٌ لما أَقول لكم، وسَميع لما تَقولون لي، وسَميع لدُعائي أيضًا بمَعنى: مُجيب.

وقد سَبَق لنا أنَّ السَّمْع المُضاف إلى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يَنقَسِم إلى قِسْمين: سَمْعٌ بمَعنَى: إدراك المَسموع، وسَمْعٌ بمَعنَى: إجابةِ المَسموع، أو إجابة السائِل.

والسَّمْع الذي بمَعنَى: إجابة المَسموع تارةً يُراد به التهديدُ، وتارةً يُراد به التأييدُ، وتارةً يُراد به بيانُ الإِحاطة، أي: إحاطة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لكلِّ مَسموع، فهذه ثلاثة أَشياءَ:

تارة يُراد به التهديدُ؛ مثاله: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران:١٨١].

وتارةً يُراد به التَّأييدُ؛ مِثاله: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦].

وتارةً يُراد به بَيان الإحاطة؛ مِثال: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة:١].

وأمَّا السَّمْع الذي بمَعنَى الإِجابة فكقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم:٣٩]، وقول المُصلِّي: سَمِعَ الله لمَنْ حَمِدَهُ.

وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿قَرِيبٌ﴾ اسْمُ فاعِل أو صِفةٌ مُشبَّهة، والضميرُ المُستَتِر فيها يَعود على الله عَزَّوَجَلَّ، وكلُّ فِعْلٍ أو وَصْف يَكون عائِدًا إلى الله تعالى فالمُراد به

ذات الله تعالى، هذه القاعِدة ذكَرها ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ -في مُختَصَر (الصواعِق)- يَقول: كلُّ فِعْلٍ أو وَصْفٍ تَحمَّل ضَميرًا يَعود إلى الله عَزَّوَجَلَّ فالُمراد به ذاتُ الله تعالى[١]. لكن يَجِب أن يَكون في ذِهْنك تَنزُّه الله عَزَّوَجَلَّ عمَّا لا يَليق به، فيَكون القُرْب هنا قُرْبَ رحمته، أو قُرْب عِلْمه، أو قُرْب سَمْعه أو بَصَره، أو قُرْب ذاته.

قوله تعالى: ﴿قَرِيبٌ﴾ هو أي: ذاتُه؛ ولهذا صرَّح ابن القَيِّم[٢] رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأنه قريب بذاته، لكن يَجِب أن تَعلَم أنه مع قُرْبه بذاته فهو مُستوٍ على عَرْشه، حتى قال النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ»[٣]، يَقوله وهُمْ راكِبون على رَواحِلهم، ولكن مع هذا يَجِب أن نُنزِّهَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عمَّا لا يَليق به، بحيث نَتوهَّم أنه معَنا في المكان، هذا لا يُمكِن، بل هو قريبٌ بذاته مع عُلوِّه.

وقد ذكر هذا شَيخُ الإسلام ابنُ تَيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (العَقيدة الواسِطية)[٤] قال: «هو عَليٌّ في دُنُوِّه، قريب في عُلُوِّه»، ولا تَظُنَّ أن الجَمْع بين القُرْب والعُلُوِّ فوقَ السمَوات مُتَناقِض:

أوَّلًا: لأنَّ الله تعالى جمَع بينهما لنفسه، ودَلَّ عليهما كِتاب الله تعالى، وكتاب الله عَزَّوَجَلَّ لا يُمكِن أن يَدُلَّ على المُتَناقِض، قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢].

---

(١) مختصر الصواعق (ص:٤٤٥).

(٢) مختصر الصواعق (ص:٤٨٢).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب استحباب خفض الصوت بالذكر، رقم (٢٧٠٤/ ٤٦)، من حديث أبي موسى رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٤) العقيدة الواسطية (ص:٨٥)، ومجموع الفتاوى (٣/ ١٤٣).

ثانيًا: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليس كمِثْله شيءٌ، يَعنِي: لو فُرِض أن بَيْن القُرْب والعُلُوِّ تَناقُضًا في حقِّ المَخلوق فإن ذلك لا يَلزَم في حَقِّ الخالِق؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ ليس كمِثْله شيء.

ولهذا نَقول: إنَّ الله تعالى يَنزِل إلى السماء الدُّنيا كلَّ ليلة، وهو مع ذلك مُستَوٍ على عَرْشه، لا تَقل: هذا مُحال، تَقول: هذا مُحال بالنِّسبة للمَخلوق. أمَّا بالنِّسبة للخالِق فيَجِب أن نُؤمِن بما أُخبِرنا به عن صِفاته وهو الاستِواء على العَرْش ونُزوله إلى السماء الدُّنيا، ونَقول: إنَّ هذا مُمكِن في حقِّ الخالِق.

ثالثًا: ممَّا نَجمَع فيه بين القُرْب والعُلُوِّ أنه قد يَكون الشيءُ عاليًا وهو قريب -حتى من المَخلوقات- مِثل القَمَر، فهو عالٍ لكنه قريب كأنه معَك، كأنه في المكان الذي أَنت فيه وَضوؤُه واصِلٌ إلى الأرض وهو في السماء، قال الشاعِر[1]:

دَانٍ عَلَى أَيْـدِي الْعُفَـاةِ وَشَاسِـعٍ ... عَنْ كُلِّ نِدٍّ فِي النَّـدَى وَضَرِيـبِ
كَالْبَدْرِ أَفْرَطَ فِي الْعُلُـوِّ وَضَـوْؤُهُ ... لِلْعُصْـبَةِ السَّـارِينَ جِـدُّ قَرِيـبِ

المهمُّ: أن إذا أَضاف الشيء إلى نَفْسه سَواءٌ كان فِعْلًا أو وَصْفًا فإنه لا يَجوز لنا العُدول عن تَحويل هذا الشيءِ المُضاف إلى الله إلى شيءٍ آخَرَ؛ لأننا إذا سلَكْنا ذلك احتَجَّ علينا أهلُ التأويل من المُعتَزِلة والأشاعِرة وقالوا: كيف تُؤوِّلون هذه الآيَةَ وتُنكِرون علينا التَّأويل في آياتٍ أُخرى أو في نُصوصٍ أُخرى؟! فإذا قُلتَ لهم: إنَّ هذا يَمنَعه العَقْل. قالوا: ونحن نَرَى أن ظواهِر الآيات أو الأحاديث يَمنَعها العَقْلُ!.

(١) البيتان للبحتري؛ ديوانه (٢/ ٢٤٨-٢٤٩).

لكن إذا أُبقِيَتِ النُّصوص على ما هي عليه على ظاهِر دَلالتها مع تَنزيه الله تعالى عمَّا لا يَليق به سَلِمتَ في دِينك، وسلِمتَ أمام الله عَزَّوَجَلَّ حين يَسألُك يوم القيامة: كيف تَصَرَّفت في كلامي؟ وكيف أَخرَجْته عن ظاهِره؟ وسلَمْت أيضًا من مُعارَضة أهل التَّأوِيل.

وقد سبَق لنا في (تلخيص الحَمَويَّة)[1] أنَّ الفَلاسِفة الذين يُنكِرون المَعاد، بل ويُنكِرون كلَّ شيءٍ، احتَجُّوا على المُعتَزِلة وأهل التَّعطيل، وقالوا: كيف تُجوِّزون التأويل في آيات الصِّفات وأَحاديثها ولا تُجوِّزون التَّأويلَ في نُصوص المعاد، إذا أَوَّلْتُم في هذا فأَوِّلوا في هذا، وإلَّا فقَدْ ظهَر تَناقُضُكم؛ وسبَق لنا إجابةُ المُعتَزِلة للفلاسِفة، ماذا قالوا لهم؟ قالوا: إننا قد علِمنا بالاضْطِرار أنَّ الرُّسُل جاءَت لإثبات المَعاد، وعلِمْنا أن الشُّبْهة المانِعة منه فاسِدة، ووجَب القول بثُبوته.

وهذه من أهم المَسائِل لطالِب العِلْم في عِلْم التوحيد.

وذكَرْنا أن هذه الحُجَّةَ التي دافَع بها المُعتَزِلة اعتِراضَ الفلاسِفة احتَجَّ بها أهلُ السُّنَّة على المُعتَزِلة، وقالوا: قد علِمْنا بالضرورة أن الرسول جاء بإثبات الصِّفات لله تعالى، وعلِمْنا فَساد الشُّبْهة المانِعة منه فوجَبَ القول بثُبوته، وأنَّ طَرْد القاعِدة في هذا وهذا هو الذي فيه السَّلامة، أمَّا أن نَتَناقَض ونُؤَوِّل في شيء ونُبقِي النُّصوص على ظاهِرها في شيء فإنَّ هذا وهمٌ وضَعْفٌ في الطريقة.

فالمُهِمُّ: أنَّ (القريب) هنا لا نَقول: قَريب في عِلْمه، أو قَريب في رَحْمته، أو قريب في سَمْعه، أو ما أَشبَه ذلك، فنَخُصِّصها بشيءٍ؛ لأنك إذا قُلْت: قريب في رَحْمته أو سَمْعه أو بصَره أو عِلْمه أو ما أَشبَهَ ذلك خصَّصْته، فإذا قلتَ: قريب بذاته. شمِل

(١) انظر: فتح رب البرية بتلخيص الحموية لفضيلة الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ (ص:٨٤ وما بعدها).

كلَّ ما تَقتَضيه هذه الذاتُ من الصِّفات، فكان أعَمَّ.

وقد صرَّح شيخُ الإسلام ابنُ تيميَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ في (شرح حديث النُّزول)[1] بأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قريبٌ بنَفْسه، وتلميذُه ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ قال: إنه قريب بذاته[2]. ولكن مع ذلك يَجِب علينا أنَّ نَعلَم عِلْم اليَقين بأنه قريبٌ، ولكنه في السماء على عَرْشه، وهذا لا تَناقُضَ فيه، وقد سبَق الجواب على ما يُوهِم أنَّه مُتَناقِض، وأنَّ الجواب عليه من ثلاثة أَوْجُهٍ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: تَحدٍّ لهؤلاءِ المُكذِّبين للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لأنَّه لو كان ضالًّا لظَهَر أثَرُ ضَلاله على نفسه، ولأَهلَكَه الله عَزَّوَجَلَّ، ولم يُمكِّنه؛ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة:٤٤-٤٧]، فلو كان ضالًّا فما جاء به لكان ضلالُه على نَفْسه، ولتبيَّن أَمْرُه.

ولعلَّكم بلَغكم ما أَنزَل الله تعالى بالمُكذِّبين الذين ادَّعَوُا الرسالة فأَهلكهم الله تعالى، مِثل مُسَيْلِمَةَ الكذَّاب والأَسودِ العَنْسي وغيرهم، كلُّهم أَظهَر الله تعالى ضلالهم وكذَّبهم، وممَّا ذُكِر من آيات مُسَيلِمةَ يُقال: إن مُسَيلِمةَ ادَّعى أنه رَسولٌ، وأن بِئْرًا من آبار قومه غارَ ماؤُها، ولم يَبقَ إلَّا قليلٌ، فجاؤُوا إليه يَشكون هذا الأَمْرَ، فأَراد أن يَقتَدِيَ بالرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فأَخَذ منها ماءً وأَدخَلَه في فَمِه ثُم مَجَّه في الماء، فجعَل يَنتَظِر فَيضانَ الماء حتى يَصِل إلى ظاهِر القَليب، لكنَّ الماء الذي

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ٥١٠).

(٢) انظر: مختصر الصواعق (ص:٤٨٢).

تبَقَّى فيها غارَ جِدًّا[1]، فهذه آيةُ كَذِبه! وجِيء إليه بصَبِيٍّ أَصلَعَ، يَعنِي: ما عليه شَعْر إلَّا شعرًا قليلًا، فجاؤُوا إليه؛ ليَمسَح رأسَه فيَظهَر له شَعْر كثير، فلَمَّا مسَح رَأْسه تَساقَط الشعر الموجود[2]، فكأَنَّ هذا آيةٌ على كذِبه!.

فالله عَزَّوَجَلَّ بحِكْمته لا يُمكِن أبدًا أن يُمكِّن لكاذِب مَهما كان، حتى الكاذِب بعد الرسول ﷺ لو كذَبَ فيما يَدعو الناسَ إليه، وكان يَدعو الناسَ إلى الحقِّ رِياءً وسُمْعة فلا بُدَّ أن يُظهِر الله تعالى أَمْره إلى الناس، قال الشاعِر[3]:

وَمَهْمَا تَكُنْ عِنْدَ امْرِئٍ مِنْ خَلِيقَةٍ ... وَإِنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ تُعْلَمِ

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى﴾ أي: سيَتبَيَّن أمري وضلالي.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: الاعتِراف لله عَزَّوَجَلَّ بالجميل؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: يَنبَغي للإنسان أن يَنسُب الخَطَأَ إلى نفسه، ويَنسُب الصواب إلى الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّه بنِعْمته، ونحن إذا أَصبْنا هل نَقول: فبِما يُوحِي إلينا ربُّنا؟ أو فبِما أَوحاه ربُّنا إلى نبيِّه؟

الجوابُ: إذا أَصبْنا فإن الواجِب أن نُضيف النِّعْمة إلى مُسْديها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهو الله عَزَّوَجَلَّ لا نَفتَخِر ونَجعَلها من ذات أَنفُسِنا، أمَّا الضلال فإنَّه على أَنفُسنا؛ لأننا نحن سببُه.

---

(١) انظر: تاريخ الطبري (٣/ ٢٨٤-٢٨٥).

(٢) انظر: تاريخ الطبري (٣/ ٢٨٥).

(٣) البيت لزهير بن أبي سلمى من معلقته المشهورة، انظر: جمهرة أشعار العرب (ص:١٧٨)، وشرح المعلقات السبع للزوزني (ص:١٥١).

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثبات أنَّ النبيَّ ﷺ رسولٌ؛ لقوله تعالى: ﴿فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ النَّظَر في الوحيِ القُرآنِ والسُّنَّةِ سببٌ في الهِداية؛ لأنَّ الباءَ في قوله تعالى: ﴿فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ سببَيَّة، وإذا كان ذلك سببًا للهِداية كان من العَقْل والبصيرة أن نَنظُر في وَحْيِ الله تعالى وشَرْعه، وألَّا نَطلُب الصواب من غيرِهما، لا نَطلُب الصواب ممَّا قال فُلان وقال فُلان، ولكن ممَّا قال الله تعالى ورسوله ﷺ؛ ولهذا قال ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في نُونيته(١):

الْعِلْـمُ قَـالَ الله قَـالَ رَسُـولُهُ ... قَالَ الصَّحَابَةُ هُمْ أُولُـو الْعِرْفَـانِ

مَا الْعِلْمُ نَصْبُكَ لِلْخِلَافِ سَفَاهَةً ... بَـيْنَ الرَّسُـولِ وَبَـيْنَ رَأْيِ فُـلَانِ

وقال في مَوضِعٍ آخَرَ(٢):

الْعِلْـمُ مَعْرِفَـةُ الْـهُدَى بِدَلِيلِـهِ ... مَـا ذَاكَ وَالتَّقْلِيـدُ يَسْـتَوِيَانِ

المُهِمُّ: أن الهِداية لها سبَب وهي النَّظَر فيما أَوْحاه الله تعالى إلى نَبيِّه ﷺ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثبات الأسباب؛ لقوله تعالى: ﴿فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ وأنها مُؤثِّرة بإذن الله تعالى، ففي ذلك الرَّدُّ على الأشاعِرة الذين يَقولون: إنَّ الأسباب لا تُؤثِّر بنفسها، حتى إنهم يَقولون: إن الورَقَ إذا احترَق بالنار فإنه لم يَحترِق بالنار، لكنه احترَق عند النارِ، لا بِها! وإذا ضَربت الزُّجاجة بالحجَر فانكَسَرت قالوا: لم تَنكَسِر بالحَجَر، لكن انكَسَرت عنده!.

(١) النونية (ص:٢٢٦).

(٢) النونية (ص:٩٩).

وسبب قولِهم هذا أنَّهم قالوا: لأنك لو أَثبتَّ أنَّ للسبَب أثَرًا ذاتِيًّا لأَشْرَكْت بالله العظيم؛ لأنَّه لا شيءَ يُؤثِّر بنَفْسه إلَّا الله عَزَّوَجَلَّ فإن أَثبَتَّ أنَّ الحَصاة تكسِر الزُّجاجة، هي نَفْسُها تكسِر الزجاجة فهذا شِركٌ بالله تعالى، مَعناه: أنك جعَلْت هذه تُؤثِّر، ولو أن رجُلًا أُتِيَ بلَحْم فجعَل يَحُزُّ بالسِّكِّين ويَقطَع يَقول: فقَطْعه بالسِّكين عند السِّكين لا بها. انظُروا كيف أن العُقولَ تَصِل إلى هذا الحَدِّ؟! ولو أن الزُّجاجة ضع عِندها الحَصاةُ، بل ضعها فَوقَها فلا تَنكَسِر، ولو أَقبَل الحَجَر على الزُّجاج إقبالًا ولم يَمَسَّها لكنه حَفَّ من حولِه عِندَه ما يَنكَسِر، وكيف يَنقَطِع عنها فنَقول: إنَّ الأسبابَ مُؤثِّرة بنَفْسها، لكن مَن خَلَقَ فيها التأثيرَ؟!

الجوابُ: الله عَزَّوَجَلَّ، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على كل شيء قدير، لو أنك قُلْتَ لصبِيٍّ: أَدخِل الورَقةَ في النـار. واحترَقَت، إنَّ النار ما أَحْرَقَتْـها، ولا تَسبَّبت في إِحْراقها، وإنها عند النارِ، لا بالنار. ما هذا الكلامُ، هذا كلامُ سَخَف.

فنَقول: إثبات الأَسباب دلَّ عليه السَّمْع والعَقْل، ولكنَّها تُؤثِّر؛ لأنَّ الله تعالى خلَق فيها التأثير، والدَّليلُ على ذلك أنَّ النار مُحرِقة، فقال الله عَزَّوَجَلَّ لها حين أُلقِيَ فيها إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الأنبياء:٦٩]، فكانت بَرْدًا وسلامًا.

إِذَنْ: هذا السببُ المُؤثِّر زال تَأثيرُه بأَمْر الله تعالى: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا﴾ فكانَتْ بَرْدًا وسلامًا، فالماء جَوهَر سَيَّال، فكان بإِذْن الله تعالى كالجِبال حين ضَرَبَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بعَصاه البَحْر فانفَلَق، فكان كلُّ فِرْقٍ كالطَّوْد العظيم.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثبات سَمْع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وقُرْبه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: إثبات هَذَيْن الاسْمَيْن أيضًا: السميع والقريب.

الآية (٥١)

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ [سبأ:٥١].

﴿وَلَوْ﴾ هذه شَرْطية، وفِعْل الشَّرْط فيها ﴿تَرَىٰٓ﴾، وجوابُ الشَّرْط مَحذوف تَقديرُه: لرَأَيْت أَمْرًا عظيمًا، وحُذِفَ للتَّفخيم والتعظيم؛ لأجل أن يَذهَب الذِّهْن في تَقديره كُلَّ مَذهَب؛ أو لأنَّك مهما قَدَّرْت فالأمر أَعظَمُ ممَّا قَدَّرْت.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يا مُحَمَّدُ] هذا لا شكَّ أنَّه مُحتمِل، أي: أن الخِطاب للنبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وفيه احتِمال أنَّ لمن يَصِح تَوجُّه الخِطاب إليه؛ الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وغيره، وهذا أحسنُ؛ لأنَّه أَعَمُّ ومتى وُجِدَ الأعَمُّ والأَخَصُّ فإن الأَوْلى الأَخْذُ بالأَعَمِّ؛ لدُخول الأَخَصِّ فيه، ولا عَكسَ.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ فَزِعُوا۟﴾ هذا يوم القيامة إذا نُفِخ في الصُّور، قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل:٨٧]، وقوله تعالى ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ [يس:٥١-٥٢]، يَعنِي: لو رأَيْت حين فَزِعوا لرَأَيْت أمرًا عظيمًا.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ فَزِعُوا۟﴾ الفَرْق بين (إِذْ) و(إِذَا): أن (إِذْ) لما مَضَى، و(إِذَا) للمُستقبَل، و(إِذْ) تَأتي أيضًا تَعليليَّةً، كقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ

إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ [الزخرف:٣٩].

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَزِعُوا﴾ فِعْل ماضٍ مُقترِن بواو الجماعةِ، وعَبَّر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالماضِي عن المُستقبَل، ومن التَّعبير بالماضِي عن المُستَقبَل قوله تعالى: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النحل:١]، وهذه صريحة؛ لأنه لو كان قد وقَعَ ما قال فلا تَستَعْجِلوه.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا﴾ عِنْدَ الْبَعْثِ لَرَأَيْت أَمْرًا عَظِيمًا].

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَا﴾ هذِه (لا) نافِيةٌ للجِنْس و﴿فَوْتَ﴾ اسمُها، وخبَرُها محذوف، وقد قال ابنُ مالكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أَلْفيته[1]:

وَشَاعَ فِي ذَا الْبَابِ إِسْقَاطُ الخَبَرْ … إِذَا المُرَادُ مَعْ سُقُوطِهِ ظَهَرْ

وشاع في ذا البابِ إِسْقاط الخبَرِ يَعنِي: كثُرَ إذا المُراد مع سُقوطه ظهَر.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا فَوْتَ﴾ أي: فلا فَوْتَ لهم، وهذا يَعنِي أن حَذْف الخبَر في مِثْل هذا التركيبِ أبلَغ.

قوله تعالى: ﴿فَلَا فَوْتَ﴾ يَعنِي: ما في أبدًا فواتٌ، لو قُلْت: فلا فوتَ لهم. لكان أرَقَّ، أمَّا: ﴿فَلَا فَوْتَ﴾ فهي أشَدُّ وَقْعًا.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَلَا فَوْتَ﴾ لَهُمْ مِنَّا، أَيْ: لَا يَفُوتُونَنَا] ﴿وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾: ﴿وَأُخِذُوا﴾ مَعطوفة على ﴿فَزِعُوا﴾ يَعنِي: أنهم يَفزَعون ويُؤخَذون من مكان قريب، يُؤخَذون بالعَذاب من مكان قريب، قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هي [القُبُور] وهذا احتِمالٌ بلا شَكٍّ أنها القُبور؛ لأنهم يَخرُجون من حين ما يَخرُجون يَجِدون

(١) الألفية (ص:٢٣).

-والعِياذُ بالله تعالى- أمرًا عظيمًا؛ ولهذا يقولون إذا خرَجوا من قُبورهم: ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾، ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ [النبأ:٤٠].

فهُمْ يُؤخَذون من قَريب من حِين ما يَخرُجون من القُبور يُكشَف لهم عن أَمْر أَعظَمَ ممَّا كانوا يُشاهِدونه في القُبور، وإلَّا فإنهم يُعذَّبون في قُبورهم، على القول الراجِح، قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ أي: الْقُبُور].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: إشارةٌ إلى عظيم ما سيَقَع بهؤلاء عند الموت أو يوم القِيامة، مَأخوذٌ من قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟﴾ حيث حَذَف جَوابَ الشرط؛ لأنَّ ذلك أَعظَمُ في التَّهويل والتفخيم، حتى يَذهَب الذِّهْن كلَّ مَذهَب في تَقدير ما يُمكِن أن يَكون جوابًا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ المُكذِّبين لله عَزَّوَجَلَّ ولرُسُله عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ لا يَفُوتون الله تعالى، ولا يُعجِزونه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا فَوْتَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بيان ما يَقَع بهؤلاء عند مُعايَنة العَذاب من الفزَع الشديد الذي لا يَنفَعُهم، ولا يَستَفيدون منه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنهم يُؤخَذون بالعذاب من مَكان قريب، لا من مكان بَعيد؛ لأنَّ مَن قَدَر على الهرَب رُبَّما لا نَصِل إليه لأَخْذه بالعُقوبة إلَّا من مكان بعيد، ولو أن لِصًّا ضَبَطْناه بجَريمته فهرَب، فإذا هرَب فإنه لن يُؤخَذ بالعُقوبة إلَّا من مَكان بعيد، أمَّا هؤلاء فيُؤخَذون من مَكان قريب؛ لأنهم لا فوتَ لهم.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثبات الجزاء على الأعمال، وهذا هو الحِكْمة من الأَمْر والنَّهْي، فإن الأمر والنَّهْيَ لو لم يَتَرتَّب عليه الثواب والعِقاب لكان عَبَثًا يُنَزَّهُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عنه، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون:١١٥]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة:٣٦]، لا يُؤمَر ولا يُنهَى؟ الجوابُ: لا.

• • ۞ • •

الآية (٥٢)

قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ﴾ [سبأ:٥٢].

قوله: ﴿وَقَالُوٓاْ﴾ أي: عِنْد فزَعِهم وعند أَخْذهم من هذا المكان القريب؛ قالوا: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ أي: بما كُنَّا كافِرين به في الأَوَّل. فيَشمَل الإيمان بمُحمَّد ﷺ، والإيمانَ بمُوسى وعِيسَى وإبراهيمَ وغيرهم مِن الرُّسُل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، هذا إذا كان الكلام عامًّا في جميع الكُفَّار، فإن كان خاصًّا بكُفَّار قُرَيْشٍ فالمُرادُ ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ أي: بمُحمَّد ﷺ الذي قالوا عنه: إنه كذَّاب. وبالقُرآن الذي قالوا عنه: إنه سِحْر.

وقول المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ﴾ بِوَاوٍ وَالْهَمْزَةُ بَدَلَهَا ﴿ٱلتَّنَاوُشُ﴾ و(التَّنَاؤُشُ)] والهَمْزة بدَلٌ من الواو، و﴿ٱلتَّنَاوُشُ﴾ مَعناه: أَخْذ الشيءِ من بعيد، يُقال: تَناوَشْت الشيء؛ يَعنِي أَخَذْته بأطراف أَصابِعي على بُعْد؛ أي: أنهم لن يَتَمكَّنوا من تحقيق ما أَرادُوه من الإيمان، ولا من بُعْد؛ ولهذا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ﴾.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَنَّىٰ﴾ هنا استِفْهام بمَعنَى الاستِبْعاد؛ يَعنِي أنه يَبعُد لهم التَّناوُش من المكان البعيد؛ لأن الذي يَتناوَل الشيء إذا كان عن قُرْب يُقال: تَناوَله وأَدرَكه. وأمَّا إذا كان عن بُعْد فيُقال: تَناوَشَه.

ومع ذلك فإنه لا يَتمكَّن منه، فهؤلاء يَبعُد عنهم كل البُعْد أن يَنالوا ما يُريدونه من هذا الإيمانِ؛ لأن هذا الإيمانَ ضَروريٌّ، يَعنِي: أنهم اضْطُرُّوا إليه، حين رَأَوُا العذابَ قالوا: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ بل كانوا يَقولون: إنهم لو رُدُّوا إلى الدنيا لآمَنوا. ولكن الله تعالى كذَّبهم بقوله: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام:٢٨]. فهُمْ بإيمانهم هذا إنما يُريدون الخَلاص من العَذاب، ولكن العَذاب بَعْد وقوعه لا خَلاصَ منه.

وهذا له شَواهِدُ في القرآن كثيرةٌ:

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا﴾ [غافر:٨٤-٨٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ [النساء:١٨].

وقوله تعالى: [﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ﴾ أَيْ: تَناوُل الْإِيمانِ ﴿مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ عَنْ مَحَلِّهِ، إِذْ هُمْ فِي الْآخِرَةِ وَمَحَلُّهُ فِي الدُّنْيَا]، وهذا بعيد؛ لأنَّ ما مضى من الزمَن لن يَرجِع حتى الأيامُ الماضية في الدُّنيا لا يُمكِن أن تَرجِع، فيَوْم الأحَد اليومَ ليس هو يومَ الأَحَد الماضي، وإن وافَقه في الاسْمِ، لكنه غيره، فالشيءُ الماضِي بعيد، والشيء المُستقبَل قريب، والماضي بَعيد وإنَّ قرُب، والمُستقبَل قريب وإن بعُد؛ لأنَّ كل آتٍ قريب.

إِذَنْ نَقول: إن هؤلاءِ حكَى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عنهم أنهم يَقولون حين يَفزَعون ويُؤخَذون بالعذاب يَقولون: (آمنَّا)، ولكن هذا الإيمانَ لا يَنفَعُهم؛ لأنهم يَتناوَلونه من مَكان بعيد.

وقوله تعالى: ﴿ٱلتَّنَاوُشُ﴾ بمَعنَى: تَناوُل الشيء من بُعْد، وفي اللغة العامِّية يَقول: تَناوَشْت الشيءَ. يَعنِي: تَناوَلْته من بُعْد، وأيضًا ما تمَكَّنت منه التَّمكُّن التامَّ، وكذلك إذا صار بينهم ضَرْب يَقول: تَناوَش مُناوَشةً. أي: من بعيد من دون تمَكُّن.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ هـؤلاءِ المُكذِّبين إذا عايَنوا العذابَ آمَنـوا؛ لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾.

ويُؤيِّد ذلك آياتٌ كثيرةٌ، مثل قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا﴾ [غافر:٨٤-٨٥].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن الإيمان بعد مُعايَنة العذاب لا يُفيد؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ﴾، وإنما كان غيرَ مُفيد؛ لأنَّ الإيمان بالمُشاهَد لا قِيمةَ له، فالشيء المُشاهَد لا بُدَّ أن يُؤمِن به كلُّ إنسان، لكن المِحْنة والابتِلاء إنما تكون في الإيمان بالغَيْب؛ قال الله: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة:٣].

أمَّا إنسان تَقول له مثلًا: هذه حَقيبةٌ، وهذه كَرَّاسة، وهذا مُكبِّر صَوْتٍ، وهذا مُسجِّل. وهي أمامَه فلا يُمكِن أن يُنكِرها، فإن أَنكَر فهو مُكابِر، لكن شيء غائِب تُخبِره به ربَّما يُنكِره، وهؤلاء إذا آمَنوا بعد مُشاهَدة العذاب فإن إيمانهم لا يَنفَعهم، وإن إيمانهم حينئذٍ إيمانُ مُشاهَدة، لا إيمانٌ بالغَيْب، والإيمان بالمُشاهَدة ليس فيه مَدْح ولا ثَناءٌ، ولا يَستَحِقُّ صاحِبه الجزاء.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بُعْد الإيمان عمَّن لم يُؤمِن إلَّا إذا شاهَد العذاب، والمُراد بـ(بُعْد الإيمان) يَعنِي: بُعْد قَبول الإيمان، يَعنِي: الله عَزَّوَجَلَّ ما نفَى أن يَنفَعَهم فقَطْ، بل قال: إنَّ هذا أَمْرٌ بعيد: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾.

الآية (٥٣)

• ● ● •

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [سبأ:٥٣].

• ● ● •

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ﴾ يُحتَمل أن تكون هذه الجُملةُ استِئْنافيَّةً، ويُحتَمل أن تكون حاليَّةً من قوله تعالى: ﴿وَأَنَّى لَهُمُ﴾ يَعني: ﴿وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ والحال أنَّهم قد ﴿كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ﴾.

وقوله: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ﴾ [يرمون] ﴿بِهِ﴾ أي: بالنَّبيِّ ﷺ أو بالقُرآن، وهم أيضًا: ﴿وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أي: [يَرمون] والقَذْف -كما سبق- هو الرميُ بشِدَّة.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ﴾ أي: يَتكلَّمون بأَمْرٍ غائِب عنهم يَدَّعونه وهم فيه كاذِبون، مثل أن يُنكِروا البَعْث ويَقولوا: كيف يُبعَث الناسُ وقد كانوا عِظامًا رَميًا؟ قال تعالى: ﴿قَالَ مَن يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس:٧٨]، ﴿وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ﴾ يَقولون: إنَّ محمَّدًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ شاعِر، وكاهِن ومجنون، وما أَشبَه ذلك، فهم يَتكلَّمون بكلام لا حَقيقةَ له، ليس بواقِع مَلموس مَشهود، بل هو أَمْرٌ غائِب عنهم، وهم لا يَعلَمونه، والغَيْبُ هنا شَبيهٌ بقولنا: يَتكلَّمون بالظَّنِّ، ويَقولون الظنَّ، وما أَشبَه ذلك.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ أَيْ: بِمَا غَابَ عِلْمُهُ عَنْهُمْ غَيْبَةً بَعِيدَةً؛ حَيْثُ قَالُوا فِي النَّبِيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: سَاحِرٌ، وَشَاعِرٌ، وَكَاهِنٌ، وَفِي الْقُرْآنِ: سِحْرٌ، وَشِعْرٌ، وَكَهَانَةٌ]، وكذلك قالوا في البَعْث: إنه مُستَحيل، مَن يُحيي العِظامَ وهي رميم؟! فحال هؤلاء إذَنِ الكُفْر والكَلام بالغَيْب من مَكانٍ بعيدٍ، يَعني: أنهم يَتكلَّمون بأَمْرٍ غائِبٍ عنهم، والغائِب بَعيدٌ عن الإنسان، وكيف يَتكلَّمون به وهم لا يَعلَمون.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: الإشارةُ إلى أن إيمانهم الحاضِر لا يَنفَعهم؛ لأنهم كفَروا من قَبلُ، فحين كان الإيمان نافِعًا كانوا كُفَّارًا، وحين كان الإيمان غيرَ نافِع كانوا مُؤمِنين؛ ولهذا إذا طلَعَتِ الشمسُ من مَغرِبها آمَنَ الناس كلُّهم، لكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقولُ: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام:١٥٨].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ هؤلاءِ الذين يَتكَلَّمون في حقِّ النبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، أو ما جاء به من الوَحيِ بالسَّبِّ والعَيْب إنما يَتكَلَّمون رَجْمًا بالغيب؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [سبأ:٥٣].

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن هؤلاءِ لم يُحاولوا القُرْب والنَّظَر فيما جاء به الرسول ﷺ، بل كانوا كالذي يَرمِي بالحِجارة من بُعدٍ، ولا يُريد أن يَقتَرِب؛ ليَتبَيَّن الأَمْر، وهذا سُوء أَدَبٍ منهم؛ لأنَّ العَقْل يَقتَضي أن يَدنوا من الشيء؛ ليَتعَرَّفوا إليه، حتى لا يَقذِفونه من بعيد، لكن هم كانوا يَقذِفون بالغيب من مكان بعيدٍ، وهذا يُبْعِد أن يَكون الإيمان مَقبولًا منهم.

• • ۞ • •

الآية (٥٤)

• • ◦ • •

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾ [سبأ:٥٤].

• • ◦ • •

قول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ مِنَ الْإِيمَانِ].

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَحِيلَ﴾ فِعْل ماضٍ مَبنيٌّ للمَجهول، ونائِب الفاعِل هو الظَّرْف، ويَنوب الظَّرْف مَناب الفاعِل كما ذكَره ابنُ مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أَلْفيَّته[1]:

وَلَا يَنُوبُ بَعْضُ هَذِي، إِنْ وُجِدْ فِي اللَّفْظِ مَفْعُولٌ بِهِ، وَقَدْ يَرِدْ

وهذا النائِبُ هو الظَّرْف؛ لأنَّ المَفعول به لم يُوجَدْ.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ فما الذي يَشتَهُونه؟ الذي يَشتَهونه هو النَّجاة من العذاب الذي حلَّ بهم، ولكن هذه النَّجاةَ إنها تَكون لو قُبِل الإيهان منهم، والإيهان منهم غير مَقبولٍ في هذه الحالِ؛ فلهذا لم يَتَمكَّنوا ممَّا يُريدون.

والمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: [﴿وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ مِنَ الْإِيمَانِ، أَيْ: قَبُولِهِ]، ولكن هم في الحقيقة يَشتَهون شيئًا قبل قَبول الإيهان، وهو النَّجاة من العذاب، وهذا فَرْع عن قَبول الإيهان، وقَبول الإيهان غير مُمكِن؛ لأنه فات مَحلُّه.

---

(١) الألفية (ص:٢٦).

إِذَنْ: حِيل بينهم وبين ما يَشتَهون، ولذا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ فالذي حال بينهم وما بين ما يَشتهون هو تَأَخُّر الإيمان والتَّوْبة، ولو أن ذلك حصَل في الدُّنيا قبل أن يُعايِنوا العذاب لكان مُمكِنًا.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم﴾ بِأَشْبَاهِهِمْ فِي الْكُفْرِ ﴿مِّن قَبْلُ﴾ أي: قَبْلِهِمْ].

وقوله تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ كما حيل بين أَشباهِهم في الكُفْر ﴿مِّن قَبْلُ﴾ أي: من قَبْلِ هؤلاء، مثل قَوْم نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وعادٍ، وصالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وغيرهم، وهذا يُؤيِّد ما ذكَره بعض المُفسِّرين رَحِمَهُمُ اللَّهُ بأنَّ قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ﴾ يَعنِي: عند الموت؛ لأنَّه قال: ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾، وهذا فِعْلٌ ماضٍ يَدُلُّ على أن هذا أَمْر قد مضَى على مَن سبَق، ولو كان يوم القِيامة لم يَكُن قد مضَى من قَبْلُ.

أَمَّا على رَأْيِ المُفَسِّر ومَن تابَعه من المُفسِّرين رَحِمَهُمُ اللَّهُ: بأن الفزَع هذا هو فزَع يوم القيامة، ويَدُلُّ عليه الآية التي استَشْهَدْنا بها من قبلُ؛ فيَقول: «كما فُعِل» أي: كما قُدِّر أن يُفعَل بأشياعِهم من قَبلُ.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مِّن قَبْلُ﴾ إعرابُها: ظرفٌ مَبنيٌّ على الضمِّ في محَلِّ جَرٍّ، ويَقولون: مِن قبلُ، ومِن بَعدُ، وما أَشبَهَهما لها أربعُ حالاتٍ:

١- إمَّا أن تكون مُضافةً.

٢- مَقطوعةً عن الإضافة لَفْظًا ومَعنًى.

٣- مَقطوعة عن الإضافة لَفْظًا تقديرًا لا مَعنًى.

٤- مَقطوعة عن الإضافة لَفْظًا، ولكنها مَعنًى مُضافةً.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَمَا فُعِلَ﴾، و(ما) مَصْدرية يَعنِي: كالمفعول بأَشياعهم من قَبلُ، (ما) مَصدَرية، أي: كفِعْلنا، أو كالمَفعول بأَشياعهم ﴿مِّن قَبْلُ﴾.

وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ﴾ الجُمْلة هذه تَعليل لما قَبلَها فصِلَتُها بما قَبلَها أنها تَعليل، أي: إنَّ هؤلاء الذين لم يَنجُوا من النار أو من العذاب كانوا في الدنيا في شكٍّ، والشكُّ هو: التَّردُّد بين الإثبات والنَّفي، والإيمان يَجِب أن يَكون جازِمًا لا شكَّ فيه؛ ولهذا من شَكَّ فيما يَجِب الإيمان به لم يَكُن مُؤمِنًا.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُٱللَّهُ: [﴿مُّرِيبٍ﴾ أي: مُوقِعٍ فِي الرِّيبَةِ لَهُمْ فِيمَا آمَنُوا بِهِ الْآنَ، وَلَمْ يَعْتَدُّوا بِدَلَائِلِهِ فِي الدُّنْيَا]، يَعنِي: أنهم في الدُّنيا غفَلوا عن دَلائِل الإيمان، ولم يَتفكَّروا بها، بل أَنكَروها إمَّا مُكابَرةً، وإمَّا شَكًّا وتَردُّدًا، فلم يَنفَعْهم.

والحاصِلُ: أنَّ هذه الآياتِ كلَّها فيها إنذارُ هؤلاءِ المُكذِّبين للرسول سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، وتَذكيرُهم بهذه الأحوالِ التي ستكون وارِدةً عليهم عند الموت وفي الآخِرة.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ الكُفَّار إذا عايَنوا العذاب يَشتَهون، بل يَتَمَنَّوْن أن يُردُّوا إلى الدنيا، يَقولون: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام:٢٧]، ولكن هذا الذي يَشتَهونه ويَتمَنَّونه لا يَنفَعُهم، قال الله تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾، والنُّكْتة في عدَم بَيان الفاعِل -فلم يَقُل: وحال الله تعالى بينهم. ولا قال: وحال الكُفر-.

النُّكْتة في هذا لأَجْل أن يَكون الحائِل صالحًا لأَنْ تُقدِّره لكُلِّ ما يُناسِب

الحال، فإن شِئت فقُلْ: حال بينـهم وما بين ما يَشتَهون كُفْرهم في الدنيا. وإن شِئت فقُلْ: حال بينهم وبين ما يَشتَهون تَقديمُ شَهَواتهم في الدُّنيا منعَهم شَهَواتهم في الآخِرة.

وهذا نَظيرُ قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ [الأحقاف:٢٠] بدَلًا عمَّا أَذْهَبْتُموه من الطَّيِّبات في الدنيا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: استِعْمال القِياس، يُؤخَذ من قوله تعالى: ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الإشارة إلى الاعتِبار بمَن مَضَى وسبَق، سواءٌ كانوا من أهل الخَيْر أو من أهل الشرِّ؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقرِن أحيـانًا الحُكْم بعِلَّتـه؛ لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾.

وقَرْن الحُكْم بعِلَّة له فَوائِدُ منها:

أ- بَيان الحِكْمة، وأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لا يَحكُم بشيء -سواءٌ كان كَوْنيًّا أو قدَريًّا- إلَّا لحِكْمة القِياس.

ب- ومنها: إذا ذُكِرت العِلَّة وأُلحِق بهذا الشيءِ ما يَجتَمِع معه في العِلَّة.

ج- ومنها: بيانُ سُمُوِّ الشريعة لاطْمِئْنان النفس إلى الحُكْم والرِّضا به.

وإن كان الواجِبُ على المُسلِم أن يَرضَى بحُكْم الله تعالى مُطلَقًا، لكن لا شَكَّ أنَّ مُشاهَدة الإنسان لحِكْمة الحُكْم أَبلَغُ في الطُّمأنينة من عدَم ذلك؛ ولهذا قال الله

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لإبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حين قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة:٢٦٠].

الْفَائِدَةُ الْخَامِسَةُ: أنَّ هـذا الشَّكَّ الحاصِلَ لهـؤلاء أَوْقَعهم في رِيبة، والرِّيبة يَعنِي: ليسَتْ مُجرَّد الشَّكِّ، بل قال شيخُ الإسلام ابنُ تَيميَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: إنَّ الرَّيْب شَكٌّ مع قلَق واضطِرابٍ، يَعنِي: أن الشاكَّ عنده تَردُّد في الأمور، لكن ما عنده تَشويشُ فِكْر، لكن المُرْتاب يَكون عنده شيء من التَّشويش الفِكْريِّ، والقلَق النَّفْسيِّ، وعدَم الاتِّجاه السليم؛ ولهذا قال: إنهم كانوا في شكٍّ مُريبٍ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ الشكَّ مُنافٍ للإيمان فيما يَجِب الإيمانُ به، فلو أنَّ أحَدًا شكَّ في يوم القِيامة -في البَعْث- ما نفَى وجزَم بالنَّفْي، ولا أَقَرَّ وجزَم بالإقرارِ.

نَقول: إنَّ هذا في حُكْم المُنكِر تمامًا، فهو كافِر.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن أيَّ قَوْم إذا رأَوُا العَذاب فإنه لا يَنفَع إيمانُهم، وأمَّا قوم يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فقد استَثْناهم الله عَزَّ وَجَلَّ فقال: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس:٩٨]، والحِكْمة من ذلك -والله تعالى أعلَمُ- أن نَبيَّهم ذهَب عنهم قبلَ أن يُؤمَر، فكأنَّ الدعوة لم تَتِمَّ على الوجه الأكمَلِ الذي يَنفِي عنهمُ العُذْر.

• • ❁ • •

فهرس الأحاديث والآثار

الحديث	الصفحة
«مَا مِنْ مَوْضِعِ أَرْبَعِ أَصَابِعَ فِي السَّمَاءِ إِلَّا وَفِيهِ مَلَكٌ»	١٤، ١٥
«مَنِ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا طَوَّقَهُ اللهُ إِيَّاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ»	١٥
«أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»	٤٠
«مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»	٤١
«مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»	٤١
«أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ»	٤٧
«أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»	٤٧
«مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»	٤٧
«لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ، وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ»	٦٣
«الْحَمْدُ للهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ»	٦٦
«الْحَمْدُ للهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ»	٦٦
«وَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي»	٨٧
«أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»	٩٢
«مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»	٩٢
«رَبِّ اغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ»	٩٣

نَهى عَن قَتْل الجِنَّان في البيُوتِ ١٠٢
«إِنَّ السَّفَرَ قِطْعَةٌ مِنَ الْعَذَابِ» ١٢٥
«ارْمُوا بَنِي إِسْمَاعِيلَ فَإِنَّ أَبَاكُمْ كَانَ رَامِيًا» ١٢٦
«اللهمَّ بَارِكْ لَنَا فِي شَامِنَا وَيَمَنِنَا» ١٤٠
«وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا» ١٤٨
«صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ» ١٥١
«مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ بكذا وكذا» ١٥١
«لَا يَأْكُلْ أَحَدُكُمْ بِشِمَالِهِ، وَلَا يَشْرَبْ بِشِمَالِهِ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْكُلُ بِشِمَالِهِ، وَيَشْرَبُ بِشِمَالِهِ» ١٥٢
«رَبُّنَا اللهُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ» ١٦٩
«أَلَا تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ» ١٦٩
«أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟» ١٦٩
«أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ» ١٦٩
«إِنِّي رَسُولُ اللهِ وَلَسْتُ عَاصِيَهُ وَهُوَ نَاصِرِي» ١٧٩
«أَمَّا مَنْ جَاءَ إِلَيْنَا مِنْهُمْ فَرَدَدْنَاهُ فَسَيَجْعَلُ اللهُ لَهُ فَرَجًا، وَأَمَّا مَنْ ذَهَبَ مِنَّا إِلَيْهِمْ فَلَا نُرِيدُهُ لَا رَدَّهُ اللهُ» ١٧٩
«مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» ... ١٨٤
«وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً» ١٩٣
«إِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَوْ أَغْنَيْتُهُ لَأَفْسَدَهُ الْغِنَى، وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَوْ أَفْقَرْتُهُ لَأَفْسَدَهُ الْفَقْرُ» ٢٢٦

«إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ» ٢٣٠
«لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ» ٢٣٢
«اخْلُفْنِي فِي عَقِبِي» ٢٤١
«مَا مِنْ عَبْدٍ يُصَابُ بِمُصِيبَةٍ فَيَقُولُ: اللهمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا. إِلَّا آجَرَهُ اللهُ فِي مُصِيبَتِهِ وَأَخْلَفَ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا» ٢٤٢
«مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ» ٢٤٣
«إِنَّهُ لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ رِزْقَهَا وَأَجَلَهَا، فَاتَّقُوا اللهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ» .. ٢٤٤
«مَطْلُ الْغَنِيِّ ظُلْمٌ» ٢٥٧
«إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا» .... ٢٦٥، ٢٦٩
«مَن دخَل دارَه وأَغلَق عَلَيْه بابَه فهُوَ آمِنٌ، ومَن دَخَل المَسجِد فهو آمنٌ، ومَن دخَل دارَ أَبِي سُفيانَ فهُوَ آمِنٌ» ٢٨٢
«إِنَّ أَحَقَّ مَا أَخَذْتُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا كِتَابُ اللهِ» ٢٨٨
«زَوَّجْتُكَهَا بِمَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ» ٢٨٩
«إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ» ٣٠٠

فهرس الفوائد

الفائدة	الصفحة
التنزيل المَكِّيُّ والمَدنيُّ بالزمَن لا بالمَكان	٧
البَسمَلة: آيةٌ مُستَقِلَّة من كِتاب الله عَزَّوَجَلَّ	٩
الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُحمَد على ما لَه من الكَمال الذاتيِّ والكَمال المُتعدِّي للغير	١٤
الأرَضون سَبْع بصريح السُّنَّة، وسَبْع بظاهِر القُرآن	١٥
الحِكْمة نوعان أيضًا: صُورية وغائيَّة	١٧
أنواع الحِكْمة الصُّورية والغائيَّة في الشَّرْع وفي القَدَر	١٧
كيف يُثني الله تعالى على نَفسه؟ وهل مَدْح الشَّخْص نَفْسه يُعتبَر مَنقَبةً أم لا؟	١٩
هل السَّماء أَشرَفُ من الأرض؟	٢٥
رحمة الله عند أهل السُّنَّة والجَماعة	٢٦
ما فائِدةُ القَسَم أمام مَن يُنكِر؟	٣٠
عِلْم الله تعالى الغَيْبَ أَمْرٌ معلوم حتى عند الكُفَّار	٣٠
بعض الأئمَّة رَحِمَهُمُ اللَّهُ إذا ذكَروا حُكْم مَسألة من المَسائِلِ أحيانًا يُقسِمون عليها	٣٦
الخِطاب المُوجَّه إلى الرسول ﷺ يَنقَسِم إلى ثلاثة أقسامٍ	٣٦
الخبَر يَنقَسِم إلى ثلاثة أقسام	٣٨
لا يُمكِن أن يَكون العمَل صالِحًا إلَّا بهذين الشَّرْطين: الإِخْلاص، والمُتابَعة للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ	٤٠

مِن أَضَرِّ ما يَكون على البِلاد الإسلامية بعد بثِّ السُّموم الفِكْرية بثُّ السُّموم الشَّهْوانية ٥٢

فوائد ضمير الفصل ٥٩

تفسير المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ ﴿الْحَمِيدِ﴾ بـ(المَحمود) فيه قُصورٌ ٦٢

هل من اللائق أن تَقول: إن الله تعالى ربُّ الكِلاب وربُّ الخَنازير وربُّ الحَشَرات؟.... ٦٦

مِن الناس مَن يُلقِّب أهل السُّنَّة والجماعة بـ(الحَشَوِيَّة) و(النوابت) و(الغُثاء) و(المُجَسِّمة) وما أَشبَه ذلك؛ كل هذا تَنفيرًا للناس عن سُلوك مَذهَبِهم ٧٣

الإضراب في اللغة قِسْمان: إضرابٌ إِبْطاليٌّ، وانتِقاليٌّ ٧٤

القِراءات إذا تَعدَّدت فالأفضل أن يُقرَأ بهذا تارةً وبهذا تارةً؛ لأنها كُلُّها حَقٌّ ٨٠

في إلانة الله الحديد لداود عَلَيْهِ السَّلَامُ: هل المُرادُ أن الله تعالى ألانَه له بالوسائِل التي تُلَيِّنُ الحَديدَ سُخِّرت له وهُيِّئَت له، أو أن الله تعالى أَلانَ له الحديد بغَيْر السبب المَعلوم؟.. ٨٩

هل الحديد أَقسَى أَمِ الحِجارة؟.. ٩٤

الجِنُّ عالَم غَيْبيٌّ مُستَتِرٌ عن الأَعْيُن.. ١٠١

قصة مصروع جِيءَ به إلى شيخِ الإسلام ابن تيميَّةَ.. ١٠٣

هل يُمكِن أن يَعتَدِيَ الجِنِّيُّ على الإِنسيِّ؟.. ١٠٨

هل يُمكِن أن يَعتَدِيَ الإِنسيُّ على الجِنِّيِّ؟.. ١٠٨

هل يُمكِن أن يَدخُل الجِنِّيُّ في بدَن الإِنْسِيِّ؟ ١٠٨

هل تَكليف الجن كتَكْليف الإنس؟ بمَعنَى: أن صَلاتهم كصلاتِنا وصِيامهم كصيامنا وحَجَّهم كحَجِّنا أو يَختَلِفون عنَّا؟ ١١٠

الشُّكْر نَوْعان ١١٦
كم بقي سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد موته؟ ١٢١
لمذا سميت (سبأ) بهذا الاسم؟ ١٢٦
القرية هي البَلْدة سَواء كانت كبيرةً أو صغيرةً ١٤٠
القولُ الراجِح تَحريم الأكل بالشِّمال والشُّرْب بالشِّمال، وأنه ليس مَكروهًا فقط ... ١٥٢
تَعلُّق عِلْم الله تعالى بالشيء له حالان ١٥٤
آلِهةُ المشركين لا يُمكِن أن تَنفَع المُشرِكين، وذلك لانتِفاء أسباب النَّفْع من عِدَّة أَوْجُهٍ ١٥٩
من كَمال السُّلْطان ألَّا يَتكَلَّم أحَدٌ عند المَلِك المَشفوع إليه أبَدًا إلَّا بإِذْنه ١٦٤
الإنصافُ في المناظَرَة ١٨١
الحُكْم كونيٌّ وشرعيٌّ ١٨٨
الأكثَرية لا يَلزَم أن يَكون الصوابُ معها ١٩٤
ما حُكْم مَن لم تَبلُغه الرسالة؟ ١٩٥
تنوُّع أساليب دُعاة الضَّلال ١٩٨
للإِظْهار في مَوْضِع الإِضْمار فوائِدُ ٢٠٦
وُجوبُ الانتباهِ لأَساليبِ دعوة أهل الشَّرِّ والفَساد ٢١٢
النَّفي إذا صيغ بصيغة الاستِفْهام كان مُشرَبًا معنَى التَّحدِّي ٢١٨
يَقتَرِن جوابُ الشَّرْط بالفاء في سَبْعة مَواضِعَ ٢٤١
إذا أَتَت (إلَّا) بعد (إِنْ) كانت (إِنْ) نافِية، ولا يَلزَم أن تَأتيَ بعدها (إلَّا) ٢٦٤
وجوه كون الوَحْي آية من آيات الله عَزَّوَجَلَّ ٢٦٦

كلَّما أُوذِيتَ في الدعوة إلى الله تعالى فإن ذلك زيادة أَجْرٍ لك من جِهة، وزيادةُ قوَّةٍ لدَعْوتك من جِهة أُخرى ٢٨٦
هل الله عَزَّوَجَلَّ شهيد على ما في نَفْس الإنسان؟ ٢٨٨
هل يَجوز أَخْذ الأُجْرة على تَعليم القُرآن؟ ٢٨٨
هل يَجوز -على القول بأن أَخْذ الأُجْرة حرام- أَخْذ رَزْق من بيت المال لُمعلِّم القُرآن؟ ٢٨٩
المُستَقْبَل غيبٌ مُطلَقٌ، والحاضِر والماضي غَيْب نِسْبيٌّ؛ يَظهَر لَمن رآه ولا يَظهَر لَمن لم يَرَهُ ٢٩٢
السَّمْع المُضاف إلى الله عَزَّوَجَلَّ يَنقَسِم إلى قِسْمين ٢٩٩
لا تَظُنَّ أن الجَمْع بين القُرْب والعُلُوِّ فوقَ السمَوات مُتَناقِض ٣٠٠
قَرْن الحُكْم بعِلَّة له فَوائِدُ ٣٢٠

فهرس آيات السورة

الآية	الصفحة
تقديم	٥
سورة سبأ	٧
البسملة	٩
" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾﴾	١٣
" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾	٢١
" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾﴾	٢٨
" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾	٣٩
" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾﴾	٥١
" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾﴾	٥٧
" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ	

مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ ﴾ ٦٨

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى
ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ ﴾ ٧٢

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ
إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَـَٔايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ ﴾ ٧٨

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ
وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا
تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ ٨٥

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ
ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ
عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ ﴾ ٩٧

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ وَتَمَـٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ
وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾ ١١٢

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ
تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى
ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾ ﴾ ١١٨

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟
مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ ﴾ ١٢٦

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَـٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ
ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ﴾ ١٣٣

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ ﴾ ١٣٨

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَۖ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ ١٤٠

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ ﴾ ١٤٤

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ ١٤٩

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْأٓخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ ﴾ ١٥٣

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ ١٥٨

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْۖ قَالُواْ ٱلْحَقَّۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ﴾ ١٦٢

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ قُلِ ٱللَّهُۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ ﴾ ١٧٤

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَۖ كَلَّاۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾ ١٨٧

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ ١٩١

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ ... ١٩٦

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ ١٩٩

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ ٢٠١

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ ٢٠٨

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾... ٢١١

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ ٢٢١

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ ... ٢٢٤

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ ٢٢٦

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾.. ٢٢٩

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (٣٨)﴾ ٢٣٥

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ۚ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٣٩)﴾ ٢٣٩

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠)﴾ ٢٤٦

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ (٤١)﴾ ٢٥١

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (٤٢)﴾ ٢٥٥

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٤٣)﴾ ٢٦٠

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ (٤٤)﴾ ٢٧٠

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٥)﴾ ٢٧٤

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٤٦)﴾ ٢٧٨

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾﴾ ٢٨٥

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾﴾ ٢٩١

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾ ٢٩٤

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾﴾ ٢٩٧

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾﴾ .. ٣٠٧

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾ .. ٣١١

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾ ٣١٥

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾﴾ ٣١٧

فهرس الأحاديث والآثار ٣٢٣

فهرس الفوائد ٣٢٧

فهرس آيات السورة ٣٣١

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٤٣)

تفسير

القرآن الكريم

سورة فاطر

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية